تفسير أبى السعود

المسمى

إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم

لخاتمة المحققين وإمام المدققين قاضى القضاة أبى السعود محمد بن محمد العمادى

ولد رحمه الله تعالى سنة ٨٩٦ هجرية وتوفى سنة ٩٥١

الجزء الأول

صححت هذه الطبعة بمعرفة بعض أفاضل العلماء وقوبلت على عدة نسخ
وقرئت فى المرة الأخيرة على حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير
الشيخ حسن محمد المسعودى
المدرس بالقسم العالى بالأزهر

الملتزم
محمد محمد عبد اللطيف
صاحب المكتبة الحسينية المصرية
بالأزهر الشريف بمصر

الطبعة الأولى

سنة ١٣٤٧ هجرية — سنة ١٩٢٨ ميلادية

المطبعة المصرية
ادارة محمد محمد عبد اللطيف

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان من أرسل رسوله بالهدى ودين الحق وبين له من شعائر الشرائع كل ماجل ودق أنزل عليه أظهر بينات وأبهر حجج قرآنا عربيا غير ذى عوج مصدقا لما بين يديه من الكتاب ليدبروا آياته وليتذكر أولو الالباب ناطقاً بكل أمر رشيد هاديا الى صراط العزيز الحميد آمراً بعبادة الصمد المعبود كتاباً متشابها مثانى تقشعر منه الجلود تكاد الرواسى لهيبته تمور ويذوب منه الحديد ويميع صم الصخور حقيقا بان يسير به الجبال وييسر به كل صعب محال معجزا ألجم كل مصقع من مهرة قحطان وبكت كل مفاق من سحرة البيان بحيث لو اجتمعت الانس والجن على معارضته ومباراته لعجزوا عن الاتيان بمثل آية من آياته نزله عليه على فترة من الرسل ليرشد الامة الى أقوم السبل فهداهم الى الحق وهم فى ضلال مبين فاضمحل دجى الباطل وسطع نور اليقين فمن اتبع هداه فقد فاز بمناه وأما من عانده وعصاه واتخذ الهه هواه فقد هام فى موامى الردى وتردى فى مهاوى الزور ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور صلى الله عليه وعلى آله الاخيار وصحبه الابرار ماتناوبت الانواء وتعاقبت الظلم والأضواء وعلى من تبعهم باحسان مدى الدهور والازمان

وبعد فيقول العبد الفقير الى رحمة ربه الهادى أبو السعود بن محمد العمادى ان الغاية القصوى من تحرير نسخة العالم وماكان حرف منها مسطورا والحكمة الكبرى فى تخمير طينة آدم ولم يكن شيئاً مذكورا ليست الا معرفة الصانع المجيد وعبادة البارئ المبدئ المعيد ولاسبيل الى ذاك المطلب الجليل سوى الوقوف على مواقف التنزيل فانه عز سلطانه وبهر برهانه وان سطر آيات قدرته فى صحائف الاكوان ونصب رايات وحدته فى صفائح الاعراض والاعيان وجعل كل ذرة من ذرات العالم وكل قطرة من قطرات العيلم وكل نقطة جرى عليها قلم الابداع وكل حرف رقم فى لوح الاختراع مرآة لمشاهدة جماله ومطالع تصفات كماله حجة نيرة واضحة المكنون وآية بينة لقوم يعقلون برهانا جليا لاريب فيه ومنهاجاً سويا لا يضل من ينتحيه بل ناطقا يتلو آيات ربه فهل من سامع واع ومجيبا صادقا فهل له من داع يكلم الناس على قدر عقولهم ويرد جوابهم بحسب مقولهم يحاور تارة بأوضح عباره ويلوح أخرى بألطف اشاره لكن الاستدلال بتلك الآيات والدلائل والاستشهاد بتيك الامارات والمخايل والتنبه لتلك الاشارات السريه والتفطن لمعانى تلك العبارات العبقريه ومافى تضاعيفها من رموز أسرار القضاء والقدر وكنوز آثار التعاجيب والعبر مما لا يطيق به عقول البشر الا بتوفيق خلاق القوى والقدر فاذن مدار المراد ليس الا كلام رب العباد اذ هو المظهر لتفاصيل الشعائر الدينيه والمفسر لمشكلات الآيات التكوينيه والكاشف عن خفايا حظائر القدس والمطلع على خبايا سرائر الانس وبه تكتسب الملكات الفاخره وبه يتوصل الى سعادة الدنيا والآخره خلا انه أيضاً من علو الشان وسمو المكان ونهاية الغموض والاعضال وصعوبة المأخذ وعزة المنال فى غاية الغايات القاصيه ونهاية النهايات النائيه أعز من بيض الأنوق وأبعد من مناط العيوق لا يتسنى العروج الى معارجه الرفيعه ولا يتأتى الرقى الى مدارجه المنيعه كيف لا وانه مع كونه متضمنا لدقائق العلوم النظرية والعمليه ومنطويا على دقائق الفنون الخفية والجليه حاويا لتفاصيل الاحكام الشرعيه ومحيطا بمناط

الدلائل الاصلية والفرعيه منبئاً عن أسرار الحقائق والنعوت مخبراً بأطوار الملك والملكوت عليه يدور فلك الاوامر والنواهى واليه يستند معرفة الاشياء كماهى قد نسج على أغرب منوال وأبدع طراز واحتجبت طلعته بسبحات الاعجاز طويت حقائقه الابية عن العقول وزويت دقائقه الخفية عن أذهان الفحول يردعيون العقول سبحانه ويخطف أبصار البصائر بريقه ولمعانه ولقد تصدى لتفسير غوامض مشكلاته أساطين أئمة التفسير فى كل عصر من الاعصار وتولى لتيسير عويصات معضلاته سلاطين أسرة التقرير والتحرير فى كل قطر من الاقطار فغاصوا فى لججه وخاضوا فى ثبجه فنظموا فرائده فى سلك التحرير وأبرزوا فوائده فى معرض التقرير وصنفوا كتباً جليلة الاقدار والفوا زبراً جليلة الآثار أما المتقدمون المحققون فاقتصروا على تمهيد المعانى وتشييد المبانى وتبيين المرام وترتيب الاحكام حسبما بلغهم من سيد الانام عليه شرائف التحية والسلام وأما المتأخرون المدققون فراموا مع ذلك اظهار مزاياه الرائقه وابداء خباياه الفائقه ليعاين الناس دلائل اعجازه ويشاهدوا شواهد فضله وامتيازه عن سائر الكتب الكريمة الربانيه والزبر العظيمة السبحانيه فدونوا أسفاراً بارعه جامعة لفنون المحاسن الرائعه يتضمن كل منها فوائد شريفة تقر بها عيون الاعيان وعوائد لطيفة يتشنف بها آذان الاذهان لاسيما الكشاف وأنوار التنزيل المتفردان بالشان الجليل والنعت الجميل فان كلا منهما قد أحرز قصب السبق أى احراز كانه مرآة لاجتلاء وجه الاعجاز صحائفهما مرايا المزايا الحسان وسطورهما عقود الجمان وقلائد العقيان ولقد كان فى سوابق الايام وسوالف الدهور والاعوام أوان اشتغالى بمطالعتهما وممارستهما وزمان انتصابى لمفاوضتهما ومدارستهما يدور فى خلدى على استمرار آناء الليل وأطراف النهار أن أنظم درر فوائدهما فى سمط دقيق وأرتب غرر فرائدهما على ترتيب أنيق وأضيف اليهما ما ألفيته فى تضاعيف الكتب الفاخرة من جواهر الحقائق وصادفته فى أصداف العيالم الزاخرة من زواهر الدقائق وأسلك خلالها بطريق الترصيع على نسق أنيق وأسلوب بديع حسبما يقتضيه جلالة شأن التنزيل ويستدعيه جزالة نظمه الجليل ما سنح للفكر العليل بالعناية الربانيه وسمح به النظر الكليل بالهداية السبحانيه من عوارف معارف يمتد اليها أعناق الهمم من كل ماهر لبيب وغرائب رغائب ترنو اليها أحداق الامم من كل نحرير أريب وتحقيقات رصينة تقيل عثرات الافهام فى مداحض الاقدام وتدقيقات متينة تزيل خطرات الاوهام من خواطر الانام فى معارك أفكار يشتبه فيها الشؤن ومدارك أنظار يختلط فيها الظنون وأبرز من وراء أستار الكمون من دقائق السر المخزون فى خزائن الكتاب المكنون ماتطمئن اليه النفوس وتقر به العيون من خفايا الرموز وخبايا الكنوز وأهديها الى الخزانة العامره الغامرة للبحار الزاخره لجناب من خصه الله تعالى بخلافة الارض واصطفاه لسلطنتها فى الطول والعرض ألا وهو السلطان الاسعد الاعظم والخاقان الامجد الافخم مالك الامامة العظمى والسلطان الباهر وارث الخلافة الكبرى كابرا عن كابر رافع رايات الدين الازهر موضح آيات الشرع الانور مرغم أنوف الفراعنة والجبابرة معفر جباه القياصرة والاكاسره فاتح بلاد المشارق والمغارب بنصر الله العزيز وجنده الغالب الهمام الذى شرق عزمه المنير فانتهى الى المشرق الاسنى وغرب حتى بلغ مغرب الشمس أو دنا بخميس عرمرم متراحم الافواج وعسكر كخضم متلاطم الامواج فأصبح مابين أفقى الطلوع والغروب ومابين نقطتى الشمال والجنوب منتظما فى سلك ولاياته الواسعه ومندرجا تحت ظلال راياته الرائعه فأصبحت منابر الربع المسكون مشرقة بذكر اسمه الميمون فياله من ملك استوعب ملكه البر البسيط واستغرق فلكه وجه البحر المحيط فكانه فضاء ضربت فيه خيامه أو نصبت عليه

ألويته وأعلامه مالك ممالك العالم ظل الله الظليل على كافة الامم قاصم القياصرة وقاهر القروم سلطان العرب والعجم والروم سلطان المشرقين وخاقان الخافقين الامام المقتدر بالقدرة الربانيه والخليفة المعتز بالعزة السبحانيه المفتخر بخدمة الحرمين الجليلين المعظمين وحماية المقامين الجميلين المفخمين ناشر القوانين السلطانيه عاشر الخواقين العثمانيه السلطان ابن السلطان السلطان سليمان خان ابن السلطان المظفر المنصور والخاقان الموقر المشهور صاحب المغازى المشهورة فى أقطار الامصار والفتوحات المذكورة فى صحائف الاسفار السلطان سليم خان ابن السلطان السعيد والخاقان المجيد السلطان بايزيد خان لا زالت سلسلة سلطنته متسلسلة الى انتهاء سلسلة الزمان وأرواح أسلافه العظام متنزهة فى روضة الرضوان وكنت أتردد فى ذلك بين اقدام واحجام لقصور شأنى وعزة المرام أين الحضيض من الذرى شتان بين الثريا والثرى وهيهات اصطياد العنقاء بالشباك واقتياد الجوزاء من بروج الافلاك فمضت عليه الدهور والسنون وتغيرت الاطوار وتبدلت الشؤون فابتليت بتدبير مصالح العباد برهة فى قضاء البلاد وأخرى فى قضاء العساكر والاجناد فحال بينى و بين ما كنت اخال تراكم المهمات وتزاحم الاشغال وجموم العوارض والعلائق وهجوم الصوارف والعوائق والتردد الى المغازى والاسفار والتنقل من دار الى دار وكنت فى تضاعيف هاتيك الامور أقدر فى نفسى أن أنتهز نهزة من الدهور ويتسنى لى القرار وتطمئن بى الدار وأظفر حينئذ بوقت خال أتبتل فيه الى جناب ذى العظمة والجلال وأوجه اليه وجهتى وأسلم له سرى وعلانيتى وأنظر الى كل شئ بعين الشهود وأتعرف سر الحق فى كل موجود تلافيا لما قد فات واستعدادا لما هو آت وأتصدى لتحصيل ماعزمت عليه وأتولى لتكميل ما توجهت اليه برفاهة واطمئنان وحضور قلب وفراغ جنان فبينما أنا فى هذا الخيال اذ بدا لى مالم يخطر بالبال تحولت الاحوال والدهر حول فوقعت فى أمر أشق من الاول أمرت بحل مشكلات الانام فيما شجر بينهم من النزاع والخصام فلقيت معضلة طويلة الذيول وصرت كالهارب من المطر الى السيول فبلغ السيل الزبى وغمرنى أى غمر غوارب ماجرى بين زيد وعمرو فأضحيت فى ضيق المجال وسعة الاشغال أشهر ممن يضرب بها الامثال فجعلت أتمثل بقول من قال

لقد كنت أشكوك الحوادث برهة وأستمرض الايام وهى صحائح
الى أن تغشتنى وقيت حوادث تحقق أن السالفات منائح

فلما انصرمت عرى الآمال عن الفوز بفراغ البال ورأيت أن الفرصة على جناح الفوات وشمل الاسباب فى شرف الشتات وقد مسنى الكبر وتضاءلت القوى والقدر ودنا الاجل من الحلول وأشرفت شمس الحياة على الأفول عزمت على انشاء ما كنت أنويه وتوجهت الى املاء ما ظلت أبتغيه ناويا أن أسميه عند تمامه بتوفيق الله تعالى وانعامه ﴿ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم﴾ فشرعت فيه مع تفاقم المكاره على وتزاحم المشاده بين يدى متضرعا الى رب العظمة والجبروت خلاق عالم الملك والملكوت فى أن يعصمنى عن الزيغ والزلل ويقينى مصارع السوء فى القول والعمل ويوفقنى لتحصيل ما أرومه وأرجوه ويهدينى الى تكميله على أحسن الوجوه ويجعله خير عدة وعتاد أتمتع به يوم المعاد فيامن توجهت وجوه الذل والابتهال نحو بابه المنيع ورفعت أيدى الضراعة والسؤال الى جنابه الرفيع أفض علينا شوارق أنوار التوفيق وأطلعنا على دقائق أسرار التحقيق وثبت أقدامنا على مناهج هداك وأنطقنا بما فيه أمرك ورضاك ولا تكلنا الى أنفسنا فى لحظة ولا آن وخذ بناصيتنا الى الخير حيث كان جئناك على جباه الاستكانة ضارعين ولابواب فيضك قارعين أنت الملاذ فى كل أمر مهم وأنت المعاذ فى كل خطب ملم لا رب غيرك ولا خير الا خيرك بيدك مقاليد الامور لك الخلق والامر واليك النشور

سورة فاتحة الكتاب سبع آيات

الفاتحة فى الاصل أول مامن شأنه أن يفتح كالكتاب والثوب أطلقت عليه لكونه واسطة فى فتح الكل ثم أطلقت على أول كل شئ فيه تدريج بوجه من الوجوه كالكلام التدريجى حصولا والسطور والاوراق التدريجية قراءة وعدا والتاء للنقل من الوصفية الى الاسمية أو هى مصدر بمعنى الفتح أطلقت عليه تسمية للمفعول باسم المصدر اشعارا باصالته كانه نفس الفتح فان تعلقه به بالذات و بالباقى بواسطته لكن لا على معنى أنه واسطة فى تعلقه بالباقى ثانيا حتى يرد أنه لا يتسنى فى الخاتمة لما أن ختم الشئ عبارة عن بلوغ آخره وذلك انما يتحقق بعد انقطاع الملابسة عن أجزائه الاول بل على معنى أن الفتح المتعلق بالاول فتح له أولا و بالذات وهو بعينه فتح للمجموع بواسطته لكونه جزأ منه وكذا الكلام فى الخاتمة فان بلوغ آخر الشئ يعرض للآخر أولا و بالذات وللكل بواسطته على الوجه الذى تحققته والمراد بالاول لما يعم الاضافى فلا حاجة الى الاعتذار بأن اطلاق الفاتحة على السورة الكريمة بتمامها باعتبار جزئها الاول والمراد بالكتاب هو المجموع الشخصى لا القدر المشترك بينه و بين أجزائه على ما عليه اصطلاح أهل الاصول ولا ضير فى اشتهار السورة الكريمة بهذا الاسم فى أوائل عهد النبوة قبل تحصل المجموع بنزول الكل لما أن التسمية من جهة الله عز اسمه أو من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم بالاذن فيكفى فيها تحصله باعتبار تحققه فى علمه عز وجل أو فى اللوح أو باعتبار أنه أنزل جملة الى السماء الدنيا وأملاه جبريل على السفرة ثم كان ينزله على النبى صلى الله عليه وسلم نجوما فى ثلاث وعشرين سنة كما هو المشهور والاضافة بمعنى اللام كما فى جزء الشئ لا بمعنى من كما فى خاتم فضة لما عرفت أن المضاف جزء من المضاف اليه لا جزئى له ومدار التسمية كونه مبدأ للكتاب على الترتيب المعهود لا فى القراءة فى الصلاة ولا فى التعليم ولا فى النزول كما قيل أما الاول فبين اذ ليس المراد بالكتاب القدر المشترك الصادق على ما يقرأ فى الصلاة حتى تعتبر فى التسمية مبدئيتها له وأما الاخيران فلان اعتبار المبدئية من حيث التعليم أو من حيث النزول يستدعى مراعاة الترتيب فى بقية أجزاء الكتاب من تينك الحيثيتين ولا ريب فى أن الترتيب التعليمى والترتيب النزولى ليسا على نسق الترتيب المعهود وتسمى أم القرآن لكونها أصلا ومنشأ له اما لمبدئيتها له واما لاشتمالها على ما فيه من الثناء على الله عز وجل والتعبد بأمره ونهيه وبيان وعده ووعيده أو على جملة معانيه من الحكم النظرية والاحكام العملية التى هى سلوك الصراط المستقيم والاطلاع على معارج السعداء ومنازل الاشقياء والمراد بالقرآن هو المراد بالكتاب وتسمى أم الكتاب أيضا كما يسمى بها اللوح المحفوظ لكونه أصلا لكل الكائنات والآيات الواضحة الدالة على معانيها لكونها بينة تحمل عليها المتشابهات ومناط التسمية ماذكر فى أم القرآن لا ما أورده الامام البخارى فى صحيحه من أنه يبدأ بقراءتها فى الصلاة فانه مما لا تعلق له بالتسمية كما أشير اليه وتسمى سورة الكنز لقوله عليه السلام أنها أنزلت من كنز تحت العرش أو لما ذكر فى أم القرآن كما أنه الوجه فى تسميتها الاساس والكافية والوافية وتسمى سورة الحمد والشكر والدعاء وتعليم المسئلة لاشتمالها عليها وسورة الصلاة لوجوب قراءتها فيها وسورة الشفاء والشافية لقوله عليه السلام هى شفاء من كل داء والسبع المثانى لانها سبع آيات تثنى فى الصلاة أو لتكرر نزولها على ما روى أنها نزلت مرة بمكة حين فرضت الصلاة و بالمدينة أخرى حين حولت القبلة وقد صح أنها مكية لقوله تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثانى وهو مكى بالنص

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

اختلف الامة فى شأن التسمية فى أوائل السور الكريمة فقيل انها ليست من القرآن أصلا وهو قول ابن مسعود رضى

الله عنه ومذهب مالك والمشهور من مذهب قدماء الحنفية وعليه قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها وقيل أنها آية فذة من القرآن أنزلت للفصل والتبرك بها وهو الصحيح من مذهب الحنفية وقيل هى آية تامة من كل سورة صدرت بها وهو قول ابن عباس وقد نسب الى ابن عمر أيضاً رضى الله عنهم وعليه يحمل اطلاق عبارة ابن الجوزى فى زاد المسير حيث قال روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنها أنزلت مع كل سورة وهو أيضاً مذهب سعيد بن جبير والزهرى وعطاء وعبدالله ابن المبارك وعليه قراء مكة والكوفة وفقهاؤهما وهو القول الجديد للشافعى رحمه الله ولذلك يجهر بها عنده فلا عبرة بما نقل عن الجصاص من أن هذا القول من الشافعى لم يسبقه اليه أحد وقيل أنها آية من الفاتحة مع كونها قرآنا فى سائر السور أيضاً من غير تعرض لكونها جزأ منها أولا ولا لكونها آية تامة أولا وهو أحد قولى الشافعى على ماذكره القرطبي ونقل عن الخطابى أنه قول ابن عباس وأبى هريرة رضى الله عنهم وقيل انها آية تامة فى الفاتحة وبعض فى البواق وقيل بعض آية فى الفاتحة وآية تامة فى البواقى وقيل انها بعض آية فى الكل وقيل انها آيات من القرآن متعددة بعدد السور المصدرة بها من غير أن تكون جزأ منها وهذا القول غير معزى فى الكتب الى أحد وهناك قول آخر ذكره بعض المتأخرين ولم ينسبه الى أحد وهو أنها آية تامة فى الفاتحة وليست بقرآن فى سائر السور ولولا اعتبار كونها آية تامة لكان ذلك أحد محملى تردد الشافعى فانه قد نقل عنه أنها بعض آية فى الفاتحة وأما فى غيرها فقوله فيها متردد فقيل بين أن يكون قرآنا أولا وقيل بين أن يكون آية تامة أولا قال الامام الغزالى والصحيح من الشافعى هو التردد الثانى وعن أحمد بن حنبل فى كونها آية كاملة وفى كونها من الفاتحة روايتان ذكرهما ابن الجوزى ونقل أنه مع مالك وغيره ممن يقول انها ليست من القرآن هذا والمشهور من هذه الاقاويل هى الثلاث الاول والاتفاق على اثباتها فى المصاحف مع الاجماع على أن مابين الدفتين كلام الله عز وجل يقضى بنفى القول الاول وثبوت القدر المشترك بين الاخيرين من غير دلالة على خصوصية أحدهما فان كونها جزأ من القرآن لا يستدعى كونها جزأ من كل سورة منه كما لا يستدعى كونها آية منفردة منه وأما ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أن من تركها فقد ترك مائة وأربع عشرة آية من كتاب الله تعالى وماروى عن أبى هريرة من أنه عليه السلام قال فاتحة الكتاب سبع آيات أولاهن بسم الله الرحمن الرحيم وماروى عن أم سلمة من أنه عليه السلام قرأ سورة الفاتحة وعد بسم الله الرحمن الرحيم الحمدلله رب العالمين آية وان دل كل واحد منها على نفى القول الثانى فليس شئ منها نصا فى اثبات القول الثالث أما الأول فلانه لا يدل الا على كونها آيات من كتاب الله تعالى متعددة بعدد السور المصدرة بها لا على ماهو المطلوب من كونها آية تامة من كل واحدة منها الا أن يلتجأ الى أن يقال أن كونها آية متعددة بعدد السور المصدرة بها من غير أن تكون جزأ منها قول لم يقل به أحد وأما الثانى فساكت عن التعرض لحالها فى بقية السور وأما الثالث فناطق بخلافه مع مشاركته للثانى فى السكوت المذكور والباء فيها متعلقة بمضمر ينبئ عنه الفعل المصدر بها كما انها كذلك فى تسمية المسافر عند الحلول والارتحال وتسمية كل فاعل عند مباشرة الافعال ومعناها الاستعانة أو الملابسة تبركا أى باسم الله أقرأ أو أتلو وتقديم المعمول للاعتناء به والقصد الى التخصيص كما فى اياك نعبد وتقدير أبدأ لاقتضائه اقتصار التبرك على البداية مخل بما هو المقصود أعنى شمول البركة للكل وادعاء أن فيه امتثالا بالحديث الشريف من جهة اللفظ والمعنى معا وفى تقدير أقرأ من جهة المعنى فقط ليس بشئ فان مدار الامتثال هو البدء بالتسمية لاتقدير فعله اذلم يقل فى الحديث الكريم كل أمر ذى بال لم يقل فيه أولم يضمر فيه أبدأ وهذا الى آخر السورة الكريمة مقول على ألسنة العباد تلقيناً لهم وارشاداً الى كيفية التبرك باسمه تعالى وهداية الى منهاج الحمد وسؤال الفضل ولذلك سميت السورة الكريمة بما ذكر من تعليم المسألة وانما كسرت ومن حق

الحروف المفردة أن تفتح لاختصاصها بلزوم الحرفية والجر كما كسرت لام الامر ولام الاضافة داخلة على المظهر للفصل بينهما وبين لام الابتداء والاسم عند البصريين من الاسماء المحذوفة الاعجاز المبنية الاوائل على السكون قد أدخلت عليها عند الابتداء همزة لان من دأبهم البدء بالمتحرك والوقف على الساكن ويشهد له تصريفهم على أسماء وسمى وسميت وسمى كهدى لغة فيه قال

والله أسماك سمى مباركا آثرك الله به ايثاركا

والقلب بعيد غير مطرد واشتقاقه من السمو لانه رفع للمسمى وتنويه له وعند الكوفيين من السمة وأصله وسم حذفت الواو وعوضت عنها همزة الوصل ليقل اعلالها ورد عليه بأن الهمزة لم تعهد داخلة على ماحذف صدره فى كلامهم ومن لغاتهم سم وسم قال باسم الذى فى كل سورة سمه وانما لم يقل بالله للفرق بين اليمين والتيمن أو لتحقيق ماهو المقصود بالاستعانة ههنا فانها تكون تارة بذاته تعالى وحقيقتها طلب المعونة على ايقاع الفعل واحداثه أى افاضة القدرة المفسرة عند الأصوليين من أصحابنا بما يتمكن به العبد من أداء مالزمه المنقسمة الى ممكنة وميسرة وهى المطلوبة باياك نستعين وتارة أخرى باسمه عز وعلا وحقيقتها طلب المعونة فى كون الفعل معتدا به شرعا فانه مالم يصدر باسمه تعالى يكون بمنزلة المعدوم ولما كانت كل واحدة من الاستعانتين واقعة وجب تعيين المراد بذكر الاسم والا فالمتبادر من قولنا بالله عند الاطلاق لا سيما عند الوصف بالرحمن الرحيم هى الاستعانة الأولى ان قيل فليحمل الباء على التبرك وليستغن عن ذكر الاسم لما ان التبرك لا يكون الا به قلنا ذاك فرع كون المراد بالله هو الاسم وهل التشاجر الا فيه فلا بد من ذكر الاسم لينقطع احتمال ارادة المسمى ويتعين حمل الباء على الاستعانة الثانية أو التبرك وانما لم يكتب الألف لكثرة الاستعمال قالوا وطولت الباء عوضا عنها . والله أصله الاله فحذفت همزته على غير قياس كما ينبئ عنه وجوب الادغام وتعويض الألف واللام عنها حيث لزماه وجردا عن معنى التعريف ولذلك قيل يالله بالقطع فان المحذوف القياسى فى حكم الثابت فلا يحتاج الى التدارك بما ذكر من الادغام والتعويض وقيل على قياس تخفيف الهمزة فيكون الادغام والتعويض من خواص الاسم الجليل ليمتاز بذلك عما عداه امتياز مسماه عما سواه بما لا يوجد فيه من نعوت الكمال والاله فى الاصل اسم جنس يقع على كل معبود بحق أو باطل أى مع قطع النظر عن وصف الحقية والبطلان لا مع اعتبار أحدهما لا بعينه ثم غلب على المعبود بالحق كالنجم والصعق وأما الله بحذف الهمزة فعلم مختص بالمعبود بالحق لم يطلق على غيره أصلا واشتقاقه من الالاهة والألوهة والألوهية بمعنى العبادة حسبما نص عليه الجوهرى على أنه اسم منها بمعنى المألوه كالكتاب بمعنى المكتوب لا على أنه صفة منها بدليل أنه يوصف ولا يوصف به حيث يقال اله واحد ولا يقال شئ اله كما يقال كتاب مرقوم ولا يقال شئ كتاب والفرق بينهما ان الموضوع له فى الصفة هو الذات المبهمة باعتبار اتصافها بمعنى معين وقيامه بها فمدلولها مركب من ذات مبهمة لم يلاحظ معها خصوصية أصلا ومن معنى معين قائم بها على أن ملاك الأمر تلك الخصوصية فبأى ذات يقوم ذلك المعنى يصح اطلاق الصفة عليها كما فى الأفعال ولذلك تعمل عملها كاسمى الفاعل والمفعول والموضوع له فى الاسم المذكور هو الذات المعينة والمعنى الخاص فمدلوله مركب من ذينك المعنيين من غير رجحان للمعنى على الذات كما فى الصفة ولذلك لم يعمل عملها وقيل اشتقاقه من اله بمعنى تحير لانه سبحانه يحار فى شأنه العقول والافهام وأما أله كعبد وزنا ومعنى فمشتق من الاله المشتق من اله بالكسر وكذا تأله واستأله اشتقاق استنوق واستحجر من الناقة والحجر وقيل من أله الى فلان أى سكن اليه لاطمئنان القلوب بذكره تعالى وسكون الأرواح الى معرفته وقيل من أله اذا فزع من أمر نزل به وآلهه غيره اذا أجاره اذ العائذ به تعالى يفزع اليه وهو يجيره حقيقة أو فى زعمه وقيل أصله لاه على انه مصدر من لاه يليه بمعنى احتجب وارتفع أطلق على الفاعل مبالغة وقيل هو اسم علم

للذات الجليل ابتداء وعليه مدار أمر التوحيد فى قولنا لا اله الا الله ولا يخفى أن اختصاص الاسم الجليل بذاته سبحانه بحيث لا يمكن اطلاقه على غيره أصلا كاف فى ذلك ولا يقدح فيه كون ذلك الاختصاص بطريق الغلبة بعد أن كان اسم جنس فى الأصل وقيل هو وصف فى الأصل لكنه لما غلب عليه بحيث لا يطلق على غيره أصلا صار كالعلم ويرده امتناع الوصف به واعلم أن المراد بالمنكر فى كلمة التوحيد هو المعبود بالحق فمعناها لا فرد من أفراد المعبود بالحق الا ذلك المعبود بالحق وقيل أصله لاها بالسريانية فعرب بحذف الألف الثانية وادخال الألف واللام عليه وتفخيم لامه اذا لم ينكسر ماقبله سنة وقيل مطلقا وحذف ألفه لحن تفسد به الصلاة ولا ينعقد به صريح اليمين وقد جاء لضرورة الشعر فى قوله

ألا لا بارك الله فى سهيل ... اذا ما الله بارك فى الرجال

والرحمن الرحيم صفتان مبنيتان من رحم بعد جعله لازما بمنزلة الغرائز بنقله الى رحم بالضم كما هو المشهور وقد قيل ان الرحيم ليس بصفة مشبهة بل هى صيغة مبالغة نص عليه سيبويه فى قولهم هو رحيم فلانا والرحمة فى اللغة رقة القلب والانعطاف ومنه الرحم لانعطافها على مافيها والمراد ههنا التفضل والاحسان وارادتهما بطريق اطلاق اسم السبب بالنسبة الينا على مسببه البعيد أو القريب فان أسماء الله تعالى تؤخذ باعتبار الغايات التى هى أفعال دون المبادئ التى هى انفعالات والأول من الصفات الغالبة حيث لم يطلق على غيره تعالى وانما امتنع صرفه الحاقا له بالأغلب فى بابه من غير نظر الى الاختصاص العارض فانه كما حظر وجود فعلى حظر وجود فعلانة فاعتباره يوجب اجتماع الصرف وعدمه فلزم الرجوع الى أصل هذه الكلمة قبل الاختصاص بان تقاس الى نظائرها من باب فعل يفعل فاذا كان كلها ممنوعة من الصرف لتحقق وجود فعلى فيها علم ان هذه الكلمة أيضاً فى أصلها مما تحقق فيها وجود فعلى فتمنع من الصرف وفيه من المبالغة ماليس فى الرحيم ولذلك قيل يارحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا وتقديمه مع كون القياس تأخيره رعاية لاسلوب الترقى الى الأعلى كما فى قولهم فلان عالم نحرير وشجاع باسل وجواد فياض لأنه باختصاصه به عز وجل صار حقيقاً بأن يكون قرينا للاسم الجليل الخاص به تعالى ولأن مايدل على جلائل النعم وعظائمها وأصولها أحق بالتقديم مما يدل على دقائقها وفروعها وافراد الوصفين الشريفين بالذكر لتحريك سلسلة الرحمة (الحمد لله) الحمد هو النعت بالجميل على الجميل اختياريا كان أو مبدأ له على وجه يشعر ذلك بتوجيهه الى المنعوت وبهذه الحيثية يمتاز عن المدح فانه خال عنها يرشدك الى ذلك ماترى بينهما من الاختلاف فى كيفية التعلق بالمفعول فى قولك حمدته ومدحته فان تعلق الثانى بمفعوله على منهاج تعلق عامة الافعال بمفعولاتها وأما الأول فتعلقه بمفعوله منبئ عن معنى الانهاء كما فى قولك كلمته فانه معرب عما يقيده لام التبليغ فى قولك قلت له ونظيره وشكرته وعبدته وخدمته فان تعلق كل منها منبئ عن المعنى المذكور وتحقيقه ان مفعول كل فعل فى الحقيقة هو الحدث الصادر عن فاعله ولا يتصور فى كيفية تعلق الفعل به أى فعل كان اختلاف أصلا وأما المفعول به الذى هو محله وموقعه فلما كان تعلقه به ووقوعه عليه على أنحاء مختلفة حسبما يقتضيه خصوصيات الأفعال بحسب معانيها المختلفة فان بعضها يقتضى أن يلابسه ملابسة تامة مؤثرة فيه كعامة الافعال وبعضها يستدعى أن يلابسه أدنى ملابسة اما بالانتهاء اليه كالاعانة مثلا أو بالابتداء منه كالاستعانة مثلا اعتبر فى كل نحو من أنحاء تعلقه به كيفية لائقة بذلك النحو مغايرة لما اعتبر فى النحوين الأخيرين فنظم القسم الأول من التعلق فى سلك التعلق بالمفعول الحقيقى مراعاة لقوة الملابسة وجعل كل واحد من القسمين الأخيرين من قبيل التعلق بواسطة الجار المناسب له فان قولك أعنته مشعر بانتهاء الاعانة اليه وقولك استعنته بابتدائها منه وقد يكون لفعل واحد مفعولان يتعلق باحدهما على الكيفية الاولى وبالآخر على الثانية أو الثالثة كما فى قولك حدثنى الحديث وسألنى المال فان التحديث مع كونه فعلا واحدا قد تعلق بك على الكيفية الثانية وبالحديث على الأولى

وكذا السؤال فانه فعل واحد وقد تعلق بك على الكيفية الثالثة وبالمال على الأولى ولا ريب فى أن اختلاف هذه الكيفيات الثلاث وتباينها واختصاص كل من المفاعيل المذكورة بما نسب اليه منها مما لا يتصور فيه تردد ولا نكير وان كان لا يتضح حق الاتضاح الا عند الترجمة والتفسير وان مدار ذلك الاختلاف ليس الا اختلاف الفعل او اختلاف المفعول واذ لا اختلاف فى مفعول الحمد والمدح تعين أن اختلافهما فى كيفية التعلق لاختلافهما فى المعنى قطعا هذا وقد قيل المدح مطلق عن قيد الاختيار يقال مدحت زيدا على حسنه ورشاقة قده وأياما كان فليس بينهما ترادف بل أخوة من جهة الاشتقاق الكبير وتناسب تام فى المعنى كالنصر والتأييد فانهما متناسبان معنى من غير ترادف لما ترى بينهما من الاختلاف فى كيفية التعلق بالمفعول وانما مرادف النصر الاعانة ومرادف التأييد التقوية فتدبر ثم ان ماذكر من التفسير هو المشهور من معنى الحمد واللائق بالارادة فى مقام التعظيم وأما ماذكر فى كتب اللغة من معنى الرضى مطلقا كما فى قوله تعالى عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا وفى قولهم لهذا الأمر عاقبة حميدة وفى قول الاطباء بحران محمود مما لا يختص بالفاعل فضلا عن الاختيار فبمعزل عن استحقاق الارادة ههنا استقلالا أو استتباعا بحمل الحمد على مايعم المعنيين اذ ليس فى اثباته له عز وجل فائدة يعتد بها وأما الشكر فهو مقابلة النعمة بالثناء وآداب الجوارح وعقد القلب على وصف المنعم بنعت الكمال كما قال من قال

أفادتكم النعماء منى ثلاثة ... يدى ولسانى والضمير المحجبا

فاذن هو أعم منهما من جهة وأخص من أخرى ونقيضه الكفران ولما كان الحمد من بين شعب الشكر أدخل فى اشاعة النعمة والاعتداد بشأنها وأدل على مكانها لما فى عمل القلب من الخفاء وفى أعمال الجوارح من الاحتمال جعل الحمد رأس الشكر وملاكا لامر فى قوله عليه السلام الحمد رأس الشكر ماشكر الله عبد لم يحمده وارتفاعه بالابتداء وخبره الظرف وأصله النصب كما هو شأن المصادر المنصوبة بافعالها المضمرة التى لا تكاد تستعمل معها نحو شكرا وعجبا كانه قيل نحمد الله حمدا بنون الحكاية ليوافق مافى قوله تعالى اياك نعبد واياك نستعين لاتحاد الفاعل فى الكل وأما ماقيل من أنه بيان لحمدهم له تعالى كانه قيل كيف تحمدون فقيل اياك نعبد فمع انه لاحاجة اليه مما لاصحة له فى نفسه فان السؤال المقدر لابد أن يكون بحيث يقتضيه انتظام الكلام وينساق اليه الاذهان والافهام ولا ريب فى أن الحامد بعد ماساق حمده تعالى على تلك الكيفية اللائقة لا يخطر ببال أحد أن يسأل عن كيفيته على ان ماقدر من السؤال غير مطابق للجواب فانه مسوق لتعيين المعبود لا لبيان العبادة حتى يتوهم كونه بيانا لكيفية حمدهم والاعتذار بأن المعنى نخصك بالعبادة وبه يتبين كيفية الحمد تعكيس للامر وتمحل لتوفيق المنزل المقرر بالموهوم المقدر وبعد اللتيا والتى ان فرض السؤال من جهته عز وجل فاتت نكتة الالتفات التى أجمع عليها السلف والخلف وان فرض من جهة الغير يختل النظام لابتناء الجواب على خطابه تعالى وبهذا يتضح فساد ماقيل انه استئناف جوابا لسؤال يقتضيه اجراء تلك الصفات العظام على الموصوف بها فكانه قيل ماشأنكم معه وكيف توجهكم اليه فأجيب بحصر العبادة والاستعانة فيه فان تناسى جانب السائل بالكلية وبناء الجواب على خطابه عز وعلا مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله والحق الذى لا محيد عنه أنه استئناف صدر عن الحامد بمحض ملاحظة اتصافه تعالى بما ذكر من النعوت الجليلة الموجبة للاقبال الكلى عليه من غير أن يتوسط هناك شئ آخر كما ستحيط به خبرا وايثار الرفع على النصب الذى هو الاصل للايذان بان ثبوت الحمد له تعالى لذاته لا لاثبات مثبت وأن ذلك أمر دائم مستمر لا حادث متجدد كما تفيده قراءة النصب وهو السر فى كون تحية الخليل للملائكة عليهم التحية والسلام أحسن من تحيتهم له فى قوله تعالى قالوا سلاما قال سلام وتعريفه للجنس ومعناه الاشارة الى الحقيقة من حيث هى حاضرة فى ذهن السامع والمراد تخصيص حقيقة الحمد به تعالى المستدعى لتخصيص جميع افرادها به سبحانه على الطريق البرهانى لكن لا بناء على ان افعال العباد مخلوقة له تعالى فتكون الافراد

الواقعة بمقابلة ماصدر عنهم من الافعال الجميلة راجعةاليه تعالى بل بناء على تنزيل تلك الافراد ودواعيها فى المقام الخطابى منزلة العدم كيفاً وكما وقد قيل للاستغراق الحاصل بالقصد الى الحقيقة من حيث تحققها فى ضمن جميع افرادها حسبما يقتضيه المقام وقرى الحمدلله بكسر الدال اتباعا لها باللام و بضم اللام اتباعا لها بالدال بناء على تنزيل الكلمتين لكثرة استعمالهما مقترنتين منزلة كلمة واحدة مثل المغيرة ومنحدر الجبل ﴿رب العالمين﴾ بالجر على أنه صفةلله فان اضافته حقيقية مفيدة للتعريف على كل حال ضرورة تعين ارادة الاستمرار وقرى منصوبا على المدح أو بما دل عليه الجملة السابقة كانه قيل نحمدالله رب العالمين ولامساغ لنصبه بالحمد لقلة أعمال المصدر المحلى باللام وللزوم الفصل بين العامل والمعمول بالخبر والرب فى الاصل مصدر بمعنى التربية وهى تبليغ الشئ الى كماله شيأ فشيأ وصف به الفاعل مبالغة كالعدل وقيل صفة مشبهة من ربه يربه مثل نمه ينمه بعد جعله لازما بنقله الى فعل بالضم كما هو المشهور سمى به المالك لانه يحفظ مايملكه ويربيه ولا يطلق على غيره تعالى الامقيد كرب الدار ورب الدابة ومنه قوله تعالى فيسقى ربه خمراً وقوله تعالى ارجع الى ربك ومافى الصحيحين من أنه عليه السلام قال لا يقل أحدكم أطعم ربك وضئ ربك ولا يقل أحدكم ربى وليقل سيدى ومولاى فقد قيل أن النهى فيه للتنزيه وأما الارباب فحيث لم يكن اطلاقه على الله سبحانه جاز فى اطلاقه الاطلاق والتقييد كما فى قوله تعالى أأرباب متفرقون خير الآية . والعالم اسم لما يعلم به كالخاتم والقالب غلب فيما يعلم به الصانع تعالى من المصنوعات أى فى القدر المشترك بين أجناسها وبين مجموعها فانه كما يطلق على كل جنس جنس منها فى قولهم عالم الافلاك وعالم العناصر وعالم النبات وعالم الحيوان الى غير ذلك يطلق على المجموع أيضاً كما فى قولنا العالم بجميع أجزائه محدث وقيل هو اسم لأولى العلم من الملائكة والثقلين وتناوله لما سواهم بطريق الاستتباع وقيل أريد به الناس فقط فان كل واحد منهم من حيث اشتماله على نظائر ما فى العالم الكبير من الجواهر والاعراض يعلم بها الصانع كما يعلم بما فيه عالم على حياله ولذلك أمر بالنظر فى الانفس كالنظر فى الآفاق فقيل وفى أنفسكم أفلا تبصرون والاول هو الأحق الأظهر وايثار صيغة الجمع لبيان شمول ربوبيته تعالى لجميع الاجناس والتعريف لاستغراق افراد كل منها بأسرها اذلو أفرد لربما توهم أن المقصود بالتعريف هو الحقيقة من حيث هى أو استغراق افراد جنس واحد على الوجه الذى أشير اليه فى تعريف الحمد وحيث صح ذلك بمساعدة التعريف نزل العالم وان لم ينطلق على آحاد مدلوله منزلة الجمع حتى قيل أنه جمع لا واحد له من لفظه فكما أن الجمع المعرف يستغرق آحاد مفرده وان لم يصدق عليها كما فى مثل قوله تعالى والله يحب المحسنين أى كل محسن كذلك العالم يشمل أفراد الجنس المسمى به وان لم ينطلق عليها كأنها آحاد مفرده التقديرى ومن قضيةهذا التنزيل تنزيل جمعه منزلة جمع الجمع فكما أن الاقاويل يتناول كل واحد من آحاد الاقوال يتناول لفظ العالمين كل واحد من آحاد الاجناس التى لاتكاد تحصى روى عن وهب بن منبه أنه قال لله تعالى ثمانية عشر ألف عالم والدنيا عالم منها وانما جمع بالواو والنون مع اختصاص ذلك بصفات العقلاء وما فى حكمها من الاعلام لدلالته على معنى العلم مع اعتبار تغليب العقلاء على غيرهم واعلم أن عدم انطلاق اسم العالم على كل واحد من تلك الآحاد ليس الا باعتبار الغلبة والاصطلاح وأما باعتبار الاصل فلا ريب فى صحة الاطلاق قطعا لتحقق المصداق حتما فانه كما يستدل على الله سبحانه بمجموع ماسواه وبكل جنس من أجناسه يستدل عليه تعالى بكل جزء من أجزاء ذلك المجموع وبكل فرد من أفراد تلك الاجناس لتحقق الحاجة الى المؤثر الواجب لذاته فى الكل فان كل ماظهر فى المظاهر مما عز وهان وحضر فى هذه المحاضر كائنا ما كان دليل لائح على الصانع المجيد وسبيل واضح الى عالم التوحيد وأما شمول ربوبيته عز وجل للكل فمما لاحاجة الى بيانه اذ لا شئ مما أحدق به نطاق الامكان والوجود من العلويات والسفليات والمجردات والماديات والروحانيات

والجسمانيات الا وهو فى حدذاته بحيث لو فرض انقطاع آثار التربية عنه آنا واحداً لما استقر له القرار ولا اطمأنت به الدار الا فى مطمورة العدم ومهاوى البوار لكن يفيض عليه من الجناب الاقدس تعالى شأنه وتقدس فى كل زمان يمضى وكل آن يمر وينقضى من فنون الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده وصفاته وكمالاته مالايحيط به فلك التعبير ولا يعلمه الا العليم الخبير ضرورة أنه كما لايستحق شئ من الممكنات بذاته الوجود ابتداء لا يستحقه بقاء وانما ذلك من جناب المبدأ الاول عز وعلا فكما لايتصور وجوده ابتداء مالم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الاصلى لا يتصور بقاؤه على الوجود بعد تحققه بعلته مالم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الطارئ لما أن الدوام من خصائص الوجود الواجبى وظاهر أن مايتوقف عليه وجوده من الامور الوجودية التى هى علله وشرائطه وان كانت متناهية لوجوب تناهى مادخل تحت الوجود لكن الامور العدمية التى لها دخل فى وجوده وهى المعبر عنها بارتفاع الموانع ليست كذلك اذ لا استحالة فى أن يكون لشئ واحد موانع غير متناهية يتوقف وجوده أو بقاؤه على ارتفاعها أى بقائها على العدم مع امكان وجودها فى نفسها فابقاء تلك الموانع التى لاتتناهى على العدم تربية لذلك الشئ من وجوه غير متناهية وبالجملة فآثار تربيته عز وجل الفائضة على كل فرد من افراد الموجودات فى كل آن من آنات الوجود غير متناهية فسبحانه سبحانه ماأعظم سلطانه لا تلاحظه العيون بأنظارها ولا تطالعه العقول بافكارها شأنه لا يضاهى واحسانه لا يتناهى ونحن فى معرفته حائرون وفى اقامة مراسم شكره قاصرون نسألك اللهم الهداية الى مناهج معرفتك والتوفيق لاداء حقوق نعمتك لانحصى ثناء عليك لااله الا أنت نستغفرك ونتوب اليك ﴿الرحمن الرحيم﴾ صفتان لله فان أريد بما فيهما من الرحمة مايختص بالعقلاء من العالمين أو مايفيض على الكل بعد الخروج الى طور الوجود من النعم فوجه تأخيرهما عن وصف الربوبية ظاهر وان أريد مايعم الكل فى الاطوار كلها حسبما فى قوله تعالى ورحمتى وسعت كل شئ فوجه الترتيب أن التربية لاتقتضى المقارنة للرحمة فايرادهما فى عقبها للايذان بأنه تعالى متفضل فيها فاعل بقضية رحمته السابقة من غير وجوب عليه وبأنها واقعة على أحسن ما يكون والاقتصار على نعته تعالى بهما فى التسمية لما أنه الانسب بحال المتبرك المستعين باسمه الجليل والاوفق لمقاصده ﴿مالك يوم الدين﴾ صفة رابعة له تعالى وتأخيرها عن الصفات الأول مما لاحاجة الى بيان وجهه وقرأ أهل الحرمين المحترمين ملك من الملك الذى هو عبارة عن السلطان القاهر والاستيلاء الباهر والغلبة التامة والقدرة على التصرف الكلى فى أمور العامة بالامر والنهى وهو الانسب بمقام الاضافة الى يوم الدين كما فى قوله تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار وقرى ملك بالتخفيف وملك بلفظ الماضى ومالك بالنصب على المدح أو الحال وبالرفع منونا ومضافا على أنه خبر مبتدا محذوف وملك مضافا بالرفع والنصب واليوم فى العرف عبارة عما بين طلوع الشمس وغروبها من الزمان وفى الشرع عما بين طلوع الفجر الثانى وغروب الشمس والمراد ههنا مطلق الوقت والدين الجزاء خيرا كان أو شرا ومنه الثانى فى المثل السائر كما تدين تدان والاول فى بيت الحماسة

ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا

وأما الاول فى الاول والثانى فى الثانى فليس بجزاء حقيقة وانما سمى به مشاكلة أو تسمية للشئ باسم مسببه كما سميت ارادة القيام والقراءة باسمهما فى قوله عز اسمه اذا قمتم الى الصلاة وقوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ولعله هو السر فى بناء المفاعلة من الافعال التى تقوم أسبابها بمفعولاتها نحو عاقبت اللص ونظائره فان قيام السرقة التى هى سبب للعقوبة باللص نزل منزلة قيام المسبب به وهى العقوبة فصار كأنها قامت بالجانبين وصدرت عنهما فبنيت صيغة المفاعلة الدالة على المشاركة بين الاثنين واضافة اليوم اليه لادنى ملابسة كاضافة سائر الظروف الزمانية الى ماوقع فيها من الحوادث كيوم الاحزاب وعام الفتح وتخصيصه من بين سائر مايقع فيه من القيامة والجمع والحساب لكونه

أدخل فى الترغيب والترهيب فان ماذكر من القيامة وغيرها من مبادىء الجزاء ومقدماته واضافة مالك الى اليوم اضافة اسم الفاعل الى الظرف على نهج الاتساع المبنى على اجرائه مجرى المفعول به مع بقاء المعنى على حاله كقولهم ياسارق الليلة أهل الدار أى مالك أمور العالمين كلها فى يوم الدين وخلو اضافته عن افادة التعريف المسوغ لوقوعه صفة للمعرفة انما هو اذا أريد به الحال أو الاستقبال وأما عند ارادة الاستمرار الثبوتى كما هو اللائق بالمقام فلا ريب فى كونها اضافة حقيقية كاضافة الصفة المشبهة الى غير معمولها فى قراءة ملك يوم الدين ويوم الدين وان لم يكن مستمرا فى جميع الازمنة الا أنه لتحقق وقوعه و بقائه أبدا أجرى مجرى المتحقق المستمر ويجوز أن يراد به الماضى بهذا الاعتبار كما يشهد به القراءة على صيغة الماضى وماذكر من اجراء الظرف مجرى المفعول به انما هو من حيث المعنى لامن حيث الاعراب حتى يلزم كون الاضافة لفظية ألايرى انك تقول فى مالك عبده أمس أنه مضاف الى المفعول به على معنى أنه كذلك معنى لا أنه منصوب محلا وتخصيصه بالاضافة اما لتعظيمه وتهويله أو لبيان تفرده تعالى باجراء الامر فيه وانقطاع العلائق المجازية بين الملاك والاملاك حينئذ بالكلية واجراء هاتيك الصفات الجليلة عليه سبحانه تعليل لما سبق من اختصاص الحمد به تعالى المستلزم لاختصاص استحقاقه به تعالى وتمهيد لما لحق من اقتصار العبادة والاستعانة عليه فان كل واحدة منها مفصحة عن وجوب ثبوت كل واحد منها له تعالى وامتناع ثبوتها لما سواه أما الأولى والرابعة فظاهر لانهما متعرضتان صراحة لكونه تعالى ربا مالكا وماسواه مربوبا مملوكا له تعالى وأما الثانية والثالثة فلان اتصافه تعالى بهما ليس الا بالنسبة الى ماسواه من العالمين وذلك يستدعى أن يكون الكل منعما عليهم فظهر أن كل واحدة من تلك الصفات كما دلت على وجوب ثبوت الامور المذكورة له تعالى دلت على امتناع ثبوتها لما عداه على الاطلاق وهو المعنى بالاختصاص ﴿اياك نعبد واياك نستعين﴾ التفات من الغيبة الى الخطاب وتلوين للنظم من باب الى باب جار على نهج البلاغة فى افتنان الكلام ومسلك البراعة حسبما يقتضى المقام لما أن التنقل من أسلوب الى أسلوب أدخل فى استجلاب النفوس واستمالة القلوب يقع من كل واحد من التكلم والخطاب والغيبة الى كل واحد من الآخرين كما فى قوله عز وجل الله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا الآية وقوله تعالى حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم الى غير ذلك من الالتفاتات الواردة فى التنزيل لاسرار تقتضيها ومزايا تستدعيها ومما استأثر به هذا المقام الجليل من النكت الرائقة الدالة على أن تخصيص العبادة والاستعانة به تعالى لما أجرى عليه من النعوت الجليلة التى أوجبت له تعالى أكمل تميز وأتم ظهور بحيث تبدل خفاء الغيبة بجلاء الحضور فاستدعى استعمال صيغة الخطاب والايذان بان حق التالى بعد ماتأمل فيما سلف من تفرده تعالى بذاته الاقدس المستوجب للعبودية وامتيازه بذاته عما سواه بالكلية واستبداده بجلائل الصفات وأحكام الربوبية المميزة له عن جميع أفراد العالمين وافتقار الكل اليه فى الذات والوجود ابتداء وبقاء على التفصيل الذى مر آنفا اليه الاشارة أن يترقى من رتبة البرهان الى طبقة العيان وينتقل من عالم الغيبة الى معالم الشهود ويلاحظ نفسه فى حظائر القدس حاضرا فى محاضر الانس كانه واقف لدى مولاه ماثل بين يديه وهو يدعو بالخضوع والاخبات ويقرع بالضراعة باب المناجاة قائلا يامن هذه شؤن ذاته وصفاته نخصك بالعبادة والاستعانة فان كل ماسواك كائنا ما كان بمعزل من استحقاق الوجود فضلا عن استحقاق أن يعبد أو يستعان ولعل هذا هو السر فى اختصاص السورة الكريمة بوجوب القراءة فى كل ركعة من الصلاة التى هى مناجاة العبد لمولاه ومظنة للتبتل اليه بالكلية وايا ضمير منفصل منصوب وما يلحقه من الكاف والياء والهاء حروف زيدت لتعيين الخطاب والتكلم والغيبة لامحل لها من الاعراب كالتاء فى أنت والكاف فى أرأيتك ومادعاه الخليل من الاضافة محتجا عليه بما حكاه عن بعض العرب اذا بلغ الرجل الستين فاياه وايا الشواب فمما لايعول

عليه وقيل هى الضمائر وايا دعامة لها لتصيرها منفصلة وقيل الضمير هو المجموع وقرىء اياك بالتخفيف و بفتح الهمزة والتشديد وهياك بقلب الهمزة هاء والعبادة أقصى غاية التذلل والخضوع ومنه طريق معبد أى مذلل والعبودية أدنى منها وقيل العبادة فعل مايرضى به الله والعبودية الرضى بما فعل الله تعالى والاستعانة طلب المعونة على الوجه الذى مر بيانه وتقديم المفعول فيهما لما ذكر من القصر والتخصيص كما فى قوله تعالى واياى فارهبون مع مافيه من التعظيم والاهتمام به قال ابن عباس رضى الله عنهما معناه نعبدك ولا نعبد غيرك وتكرير الضمير المنصوب للتنصيص على تخصيصه تعالى بكل واحدة من العبادة والاستعانة ولابراز الاستلذاذ بالمناجاة والخطاب وتقديم العبادة لما أنها من مقتضيات مدلول الاسم الجليل وان ساعده الصفات المجراة عليه أيضا وأما الاستعانة فمن الاحكام المبنية على الصفات المذكورة ولان العبادة من حقوق الله تعالى والاستعانة من حقوق المستعين ولان العبادة واجبة حتما والاستعانة تابعة للمستعان فيه فى الوجوب وعدمه وقيل لان تقديم الوسيلة على المسؤل أدعى الى الاجابة والقبول هذا على تقدير كون اطلاق الاستعانة على المفعول فيه ليتناول كل مستعان فيه كما قالوا وقد قيل أنه لما أن المسؤل هو المعونة فى العبادة والتوفيق لاقامة مراسمها على ماينبغى وهو اللائق بشأن التنزيل والمناسب لحال الحامد فان استعانته مسبوقة بملاحظة فعل من أفعاله ليستعينه تعالى فى ايقاعه ومن البين أنه عند استغراقه فى ملاحظة شؤنه تعالى واشتغاله بأداء مايوجبه تلك الملاحظة من الحمد والثناء لايكاد يخطر بباله من أفعاله وأحواله الا الاقبال الكلى عليه والتوجه التام اليه ولقد فعل ذلك بتخصيص العبادة به تعالى أولا و باستدعاء الهداية الى مايوصل اليه آخرا فكيف يتصور أن يشتغل فيما بينهما بما لايعنيه من أمور دنياه أو بما يعمها وغيرها كأنه قيل واياك نستعين فى ذلك فانا غير قادرين على أداء حقوقه من غير اعانة منك فوجه الترتيب حينئذ واضح وفيه من الاشعار بعلو رتبة عبادته تعالى وعزة منالها وبكونها عند العابد أشرف المباغى والمقاصد وبكونها من مواهبه تعالى لامن أعمال نفسه ومن الملائمة لما يعقبه من الدعاء مالايخفى وقيل الواو للحال أى اياك نعبد مستعينين بك وايثار صيغة المتكلم مع الغير فى الفعلين للايذان بقصور نفسه وعدم لياقته بالوقوف فى مواقف الكبرياء منفردا وعرض العبادة واستدعاء المعونة والهداية مستقلا وان ذلك انما يتصور من عصابة هو من جملتهم وجماعة هو من زمرتهم كما هو ديدن الملوك أو للاشعار باشتراك سائر الموحدين له فى الحال العارضة له بناء على تعاضد الادلة الملجئة الى ذلك وقرىء نستعين بكسر النون على لغة بنى تميم ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ افراد لمعظم افراد المعونة المسؤلة بالذكر وتعيين لما هو الاهم أو بيان لها كأنه قيل كيف أعينكم فقيل اهدنا والهداية دلالة بلطف على مايوصل الى البغية ولذلك اختصت بالخير وقوله تعالى فاهدوهم الى صراط الجحيم وارد على نهج التهكم والاصل تعديته بالى واللام كما فى قوله تعالى قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق قل الله يهدى للحق فعومل معاملة اختار فى قوله تعالى واختار موسى قومه وعليه قوله تعالى لنهدينهم سبلنا وهداية الله تعالى مع تنوعها الى أنواع لاتكاد تحصر منحصرة فى أجناس مترتبة منها أنفسية كافاضة القوى الطبيعية والحيوانية التى بها يصدر عن المرء أفاعيله الطبيعية والحيوانية والقوى المدركة والمشاعر الظاهرة والباطنة التى بها يتمكن من اقامة مصالحه المعاشية والمعادية ومنها آفاقية فاما تكوينية معربة عن الحق بلسان الحال وهى نصب الادلة المودعة فى كل فرد من أفراد العالم حسبما لوح به فيما سلف واما تنزيلية مفصحة عن تفاصيل الاحكام النظرية والعملية بلسان المقال بارسال الرسل وانزال الكتب المنطوية على فنون الهدايات التى من جملتها الارشاد الى مسلك الاستدلال بتلك الادلة التكوينية الآفاقية والانفسية والتنبيه على مكانها كما أشير اليه مجملا فى قوله تعالى وفى الارض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون وفى قوله عز وعلا ان فى اختلاف الليل والنهار وماخلق الله فى السموات والارض لآيات لقوم يتقون ومنها الهداية الخاصة وهى

كشف الاسرار على قلب المهدى بالوحى أو الالهام ولكل مرتبة من هذه المراتب صاحب ينتحيها وطالب يستدعيها والمطلوب اما زيادتها كما فى قوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى واما الثبات عليها كما روى عن على وأبى رضى الله عنهما اهدنا ثبتنا ولفظ الهداية على الوجه الأخير مجاز قطعاً وأما على الأول فان اعتبر مفهوم الزيادة داخلا فى المعنى المستعمل فيه كان مجازا أيضاً وان اعتبر خارجا عنه مدلولا عليه بالقرائن كان حقيقة لأن الهداية الزائدة هداية كما أن العبادة الزائدة عبادة فلا يلزم الجمع بين الحقيقة والمجاز وقرئ أرشدنا والصراط الجادة أصله السين قلبت صاداً لمكان الطاء كمصيطر فى مسيطر من سرط الشئ اذا ابتلعه سميت به لأنها تسترط السابلة اذا سلكوها كما سميت لقما لانها تلتقمهم وقد تشم الصاد صوت الزاء تحريا للقرب من المبدل منه وقد قرئ بهن جميعا وفصحاهن اخلاص الصاد وهى لغة قريش وهى الثابتة فى الامام وجمعه صرط ككتاب وكتب وهو كالطريق والسبيل فى التذكير والتأنيث والمستقيم المستوى والمراد به طريق الحق وهى الملة الحنيفية السمحة المتوسطة بين الافراط والتفريط ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ بدل من الأول بدل الكل وهو فى حكم تكرير العامل من حيث انه المقصود بالنسبة وفائدته التأكيد والتنصيص على ان طريق الذين أنعم الله عليهم وهم المسلمون هو العلم فى الاستقامة والمشهود له بالاستواء بحيث لا يذهب الوهم عند ذكر الطريق المستقيم الا اليه واطلاق الانعام لقصد الشمول فان نعمة الاسلام عنوان النعم كلها فمن فاز بها فقد حازها بحذافيرها وقيل المراد بهم الأنبياء عليهم السلام ولعل الاظهر أنهم المذكورون فى قوله عز قائلا فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بشهادة ما قبله من قوله تعالى ولهديناهم صراطا مستقيما وقيل هم أصحاب موسى وعيسى عليهما السلام قبل النسخ والتحريف وقرئ صراط من أنعمت عليهم والانعام ايصال النعمة وهى فى الأصل الحالة التى يستلذها الانسان من النعمة وهى اللين ثم أطلقت على ما يستلذه النفس من طيبات الدنيا . ونعم الله تعالى مع استحالة احصائها ينحصر أصولها فى دنيوى وأخروى . والأول قسمان وهبى وكسبى والوهبى أيضا قسمان روحانى كنفخ الروح فيه وامداده بالعقل وما يتبعه من القوى المدركة فانها مع كونها من قبيل الهدايات نعم جليلة فى أنفسها وجسمانى كتخليق البدن والقوى الحالة فيه والهيئات العارضة له من الصحة وسلامة الاعضاء والكسبى تخلية النفس عن الرذائل وتحليتها بالاخلاق السنية والملكات البهية وتزيين البدن بالهيئات المطبوعة والحلى المرضية وحصول الجاه والمال . والثانى مغفرة ما فرط منه والرضى عنه وتبوئته فى أعلى عليين مع المقربين والمطلوب هو القسم الاخير وما هو ذريعة الى نيله من القسم الاول اللهم ارزقنا ذلك بفضلك العظيم ورحمتك الواسعة ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ صفة للموصول على انه عبارة عن احدى الطوائف المذكورة المشهورة بالانعام عليهم وباستقامة المسلك ومن ضرورة هذه الشهرة شهرتهم بالمغايرة لما أضيف اليه كلمة غير من المتصفين بضدى الوصفين المذكورين أعنى مطلق المغضوب عليهم والضالين فاكتسبت بذلك تعرفا مصححا لوقوعها صفة للمعرفة كما فى قولك عليك بالحركة غير السكون وصفوا بذلك تكملة لما قبله وايذانا بان السلامة مما ابتلى به أولئك نعمة جليلة فى نفسها أى الذين جمعوا بين النعمة المطلقة التى هى نعمة الايمان ونعمة السلامة من الغضب والضلال وقيل المراد بالموصول طائفة من المؤمنين لا بأعيانهم فيكون بمعنى النكرة كذى اللام اذا أريد به الجنس فى ضمن بعض الافراد لا بعينه وهو المسمى بالمعهود الذهنى وبالمغضوب عليهم والضالين اليهود والنصارى كما ورد فى مسند أحمد والترمذى فيبقى لفظ غير على ابهامه نكرة مثل موصوفة وأنت خبير بأن جعل الموصول عبارة عما ذكر من طائفة غير معينة مخل ببدلية ما أضيف اليه عما قبله فان مدارها كون صراط المؤمنين علما فى الاستقامة مشهودا له بالاستواء على الوجه الذى تحققته فيما سلف ومن البين أن ذلك من حيث اضافته وانتسابه الى كلهم لا الى بعض مبهم منهم وبهذا تبين أن لا سبيل الى

جعل غير المغضوب عليهم بدلا من الموصول لما عرفت من أن شأن البدل أن يفيد متبوعه مزيد تأكيد وتقرير وفضل ايضاح وتفسير ولا ريب فى أن قصارى أمر ما نحن فيه أن يكتسب مما أضيف اليه نوع تعرف مصحح لوقوعه صفة للموصول وأما استحقاق أن يكون مقصودا بالنسبة مفيدا لما ذكر من الفوائد فكلا وقرئ بالنصب على الحال والعامل أنعمت أو على المدح أو على الاستثناء ان فسر النعمة بما يعم القبيلين والغضب هيجان النفس لارادة الانتقام وعند اسناده الى الله سبحانه يراد به غايته بطريق اطلاق اسم السبب بالنسبة الينا على مسببه القريب ان أريد به ارادة الانتقام وعلى مسببه البعيد ان أريد به نفس الانتقام ويجوز حمل الكلام على التمثيل بأن يشبه الهيئة المنتزعة من سخطه تعالى للعصاة وارادة الانتقام منهم لمعاصيهم بما ينتزع من حال الملك اذا غضب على الذين عصوه وأراد أن ينتقم منهم ويعاقبهم وعليهم مرتفع بالمغضوب قائم مقام فاعله والعدول عن اسناد الغضب اليه تعالى كالانعام جرى على منهاج الآداب التنزيلية فى نسبة النعم والخيرات اليه عز وجل دون أضدادها كما فى قوله تعالى الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقين واذا مرضت فهو يشفين وقوله تعالى وانا لا ندرى أشر أريد بمن فى الارض أم أراد بهم ربهم رشدا ولا مزيدة لتأكيد ما أفاده غير من معنى النفى كأنه قيل لا المغضوب عليهم ولا الضالين ولذلك جاز أنا زيدا غير ضارب جواز أنا زيدا لا ضارب وان امتنع أنا زيدا مثل ضارب والضلال هو العدول عن الصراط السوى وقرئ وغير الضالين وقرئ ولا الضألين بالهمزة على لغة من جد فى الهرب عن التقاء الساكنين ﴿آمين﴾ اسم فعل هو استجب وعن ابن عباس رضى الله عنهما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى آمين فقال افعل بنى على الفتح كاين لالتقاء الساكنين وفيه لغتان مد ألفه وقصرها قال ويرحم الله عبدا قال آمينا وقال أمين فزاد الله ما بيننا بعدا عن النبى صلى الله عليه وسلم لقننى جبريل آمين عند فراغى من قراءة فاتحة الكتاب وقال انه كالختم على الكتاب وليست من القرآن وفاقا ولكن يسن ختم السورة الكريمة بها والمشهور عن أبى حنيفة رحمه الله أن المصلى يأتى بها مخافتة وعنه أنه لا يأتى بها الامام لانه الداعى وعن الحسن رحمه الله مثله وروى الاخفاء عبد الله بن مغفل وأنس بن مالك عن النبى عليه الصلاة والسلام وعند الشافعى رحمه الله يجهر بها لما روى وائل بن حجر أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا قرأ ولا الضالين قال آمين ورفع بها صوته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبى بن كعب ألا أخبرك بسورة لم ينزل فى التوراة والانجيل والقرآن مثلها قلت بلى يا رسول الله قال فاتحة الكتاب انها السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته . وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتما مقضيا فيقرأ صبى من صبيانهم فى الكتاب الحمد لله رب العالمين فيسمعه الله تعالى فيرفع عنهم بذلك العذاب أربعين سنة

سورة البقرة مدنية وهى مائتان وسبع وثمانون آية

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الم﴾ الألفاظ التى يعبر بها عن حروف المعجم التى من جملتها المقطعات المرقومة فى فواتح السور الكريمة أسماء لها لاندراجها تحت حد الاسم ويشهد به ما يعتريها من التعريف والتنكير والجمع والتصغير وغير ذلك من خصائص الاسم وقد نص على ذلك أساطين أئمة العربية وما وقع فى عبارات المتقدمين من التصريح بحرفيتها محمول على المسامحة وأما ما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه من أنه عليه السلام قال من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف وفى رواية الترمذى والدارمى لا أقول الم حرف ذلك الكتاب حرف ولكن

الألف حرف واللام حرف والميم حرف والذال حرف والكاف حرف فلا تعلق له بما نحن فيه قطعا فان اطلاق الحرف على مايقابل الاسم والفعل عرف جديد اخترعه أئمة الصناعة وانما الحرف عند الأوائل مايتركب منه الكلم من الحروف المبسوطة وربما يطلق على الكلمة أيضا تجوزا فأريد بالحديث الشريف دفع توهم التجوز وزيادة تعيين ارادة المعنى الحقيق ليتبين بذلك أن الحسنة الموعودة ليست بعدد الكلمات القرآنية بل بعدد حروفها المكتوبة فى المصاحف كما يلوح به ذكر كتاب الله دون كلام الله أو القرآن وليس هذا من تسمية الشئ باسم مدلوله فى شئ كما قيل كيف لا والمحكوم عليه بالحرفية واستتباع الحسنة انما هى المسميات البسيطة الواقعة فى كتاب الله عز وجل سواء عبر عنها بأسمائها أو بأنفسها كما فى قولك السين مهملة والشين معجمة مثلثة وغير ذلك مما لا يصدق المحمول الا على ذات الموضوع لا أسماؤها المؤلفة كما اذا قلت الألف مؤلف من ثلاثة أحرف فكما أن الحسنات فى قراءة قوله تعالى ذلك الكتاب بمقابلة حروفه البسيطة وموافقة لعددها كذلك فى قراءة قوله تعالى الم بمقابلة حروفه الثلاثة المكتوبة وموافقة لعددها لا بمقابلة أسمائها الملفوظة والألفات الموافقة فى العدد اذ الحكم بان كلا منها حرف واحد مستلزم للحكم بأنه مستتبع لحسنة واحدة فالعبرة فى ذلك بالمعبر عنه دون المعبر به ولعل السر فيه أن استتباع الحسنة منوط بافادة المعنى المراد بالكلمات القرآنية فكما أن سائر الكلمات الشريفة لا تفيد معانيها الا بتلفظ حروفها بأنفسها كذلك الفواتح المكتوبة لا تفيد المعانى المقصودة بها الا بالتعبير عنها بأسمائها فجعل ذلك تلفظا بالمسميات كالقسم الأول من غير فرق بينهما ألا يرى الى ما فى الرواية الأخيرة من قوله عليه السلام والذال حرف والكاف حرف كيف عبر عن طرفى ذلك باسميهما مع كونهما ملفوظين بأنفسهما ولقد روعيت فى هذه التسمية نكتة رائعة حيث جعل كل مسمى لكونه من قبيل الألفاظ صدراً لاسمه ليكون هو المفهوم منه اثر ذى أثير خلا ان الألف حيث تعذر الابتداء بها استعيرت مكانها الهمزة وهى معربة اذ لا مناسبة بينها وبين مبنى الأصل لكنها مالم تلها العوامل ساكنة الاعجاز على الوقف كأسماء الأعداد وغيرها حين خلت عن العوامل ولذلك قيل صاد وقاف مجموعا فيهما بين الساكنين ولم يعامل معاملة أين وكيف وهؤلاء وان وليها عامل مسها الاعراب وقصر ما آخره ألف عند التهجى لابتغاء الخفة لا لأن وزانه وزان لا تقصر تارة فتكون حرفا وتمد أخرى فيكون اسما لها كما فى قول حسان رضى الله عنه

ماقال لا قط الا فى تشهده لولا التشهد لم تسمع له لاء

هذا وقد تكلموا فى شأن هذه الفواتح الكريمة وما أريد بها فقيل انها من العلوم المستورة والاسرار المحجوبة روى عن الصديق رضى الله عنه أنه قال فى كل كتاب سر وسر القرآن أوائل السور وعن على رضى الله عنه ان لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال عجزت العلماء عن ادراكها وسئل الشعبى عنها فقال سر الله عز وجل فلا تطلبوه وقيل انها أسماء الله تعالى وقيل كل حرف منها اشارة الى اسم من أسماء الله تعالى أو صفة من صفاته تعالى وقيل انها صفات الأفعال الالف آلاؤه واللام لطفه والميم مجده وملكه قاله محمد بن كعب القرظى وقيل انها من قبيل الحساب وقيل الالف من الله واللام من جبريل والميم من محمد أى أنزل الله الكتاب بواسطة جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام وقيل هى اقسام من الله تعالى بهذه الحروف المعجمة لشرفها من حيث انها أصول اللغات ومبادئ كتبه المنزلة ومبانى أسمائه الكريمة وقيل اشارة الى انتهاء كلام وابتداء كلام آخر وقيل وقيل ولكن الذى عليه التعويل اما كونها أسماء للسور المصدرة بها وعليه اجماع الأكثر واليه ذهب الخليل وسيبويه قالوا سميت بها ايذانا بأنها كلمات عربية معروفة التركيب من مسميات هذه الالفاظ فيكون فيه ايماء الى الاعجاز والتحدى على سبيل الايقاظ فلولا انه وحى من الله عز وجل لما عجزوا عن معارضته ويقرب منه ماقاله الكلبى والسدى وقتادة من أنها أسماء للقرآن

والتسمية بثلاثة أسماء فصاعداً انما تستنكر فى لغة العرب اذا ركبت وجعلت اسماً واحدا كما فى حضر موت فاما اذا كانت منثورة فلا استنكار فيها والمسمى هو المجموع لا الفاتحة فقط حتى يلزم اتحاد الاسم والمسمى غاية الامر دخول الاسم فى المسمى ولا محذور فيه كما لا محذور فى عكسه حسبما تحققته آنفا وانما كتبت فى المصاحف صور المسميات دون صور الأسماء لانه أدل على كيفية التلفظ بها وهى أن يكون على نهج التهجى دون التركيب ولأن فيه سلامة من التطويل لاسيما فى الفواتح الخماسية على ان خط المصحف مما لا يناقش فيه بمخالفة القياس واما كونها مسرودة على نمط التعديد واليه جنح أهل التحقيق قالوا انما وردت هكذا ليكون ايقاظا لمن تحدى بالقرآن وتنبيها لهم على انه منتظم من عين ما ينظمون منه كلامهم فلولا أنه خارج عن طوق البشر نازل من عند خلاق القوى والقدر لما تضاءلت قوتهم ولا تساقطت قدرتهم وهم فرسان حلبة الحوار وأمراء الكلام فى نادى الفخار دون الاتيان بما يدانيه فضلا عن المعارضة بما يساويه مع تظاهرهم فى المضادة والمضاره وتهالكهم على المعازة والمعاره أو ليكون مطلع ما يتلى عليهم مستقلا بضرب من الغرابة أنموذجا لما فى الباقى من فنون الاعجاز فان النطق بأنفس الحروف فى تضاعيف الكلام وان كان على طرف الثمام يتناوله الخواص والعوام من الاعراب والاعجام لكن التلفظ بأسمائها انما يتأتى ممن درس وخط وأما ممن لم يحم حول ذلك قط فأعز من بيض الانوق وأبعد من مناط العيوق لاسيما اذا كان على نمط عجيب وأسلوب غريب منبئ عن سر سرى مبنى على نهج عبقرى بحيث يحار فى فهمه أرباب العقول ويعجز عن ادراكه ألباب الفحول كيف لا وقد وردت تلك الفواتح فى تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم مشتملة على نصفها تقريبا بحيث ينطوى على انصاف أصنافها تحقيقا أو تقريبا كما يتضح عند الفحص والتنقير حسبما فصله بعض أفاضل أئمة التفسير فسبحان من دقت حكمته من أن يطالعها الانظار وجلت قدرته عن أن ينالها أيدى الأفكار وايراد بعضها فرادى وبعضها ثنائية الى الخماسية جرى على عادة الافتنان مع مراعاة أبنية الكلم وتفريقها على السور دون ايرادها مرة لذلك ولما فى التكرير والاعادة من زيادة افادة وتخصيص كل منها بسورتها مما لا سبيل الى المطالبة بوجهه وعد بعضها آية دون بعض مبنى على التوقيف البحت أما الم فآية حيثما وقعت وقيل فى آل عمران ليست بآية والمص آية والمر لم تعد آية والر ليست بآية فى شئ من سورها الخمس وطسم آية فى سورتيها وطه ويس آيتان وطس ليست بآية وحم آية فى سورها كلها وكهيعص آية وحم عسق آيتان وص وق ون لم تعد واحدة منها آية هذا على رأى الكوفيين وقد قيل ان جميع الفواتح آيات عندهم فى السور كلها بلا فرق بينها وأما من عداهم فلم يعدوا شيأ منها آية ثم انها على تقدير كونها مسرودة على نمط التعديد لا تشم رائحة الاعراب ويوقف عليها وقف التمام وعلى تقدير كونها أسماء للسور أو للقرآن كان لها حظ منه اما الرفع على الابتداء أو على الخبرية واما النصب بفعل مضمر كاذكر أو بتقدير فعل القسم على طريقة الله لأفعلن واما الجر بتقدير حرفه حسبما يقتضيه المقام ويستدعيه النظام ولا وقف فيما عدا الرفع على الخبرية والتلفظ بالكل على وجه الحكاية ساكنة الاعجاز الا أن ما كانت منها مفردة مثل ص وق ون يتأتى فيها الاعراب اللفظى أيضا وقد قرئت بالنصب على اضمار فعل أى اذكر أو اقرأ صاد وقاف ونون وانما لم تنون لامتناع الصرف وكذا ما كانت منها موازنة لمفرد نحو حم ويس وطس الموازنة لقابيل وهابيل حيث أجاز سيبويه فيها مثل ذلك قال فى باب أسماء السور من كتابه وقد قرأ بعضهم ياسين والقرآن وقاف والقرآن فكانه جعله اسما أعجميا ثم قال اذكر ياسين انتهى وحكى السيرافى أيضا عن بعضهم قراءة ياسين ويجوز أن يكون ذلك فى الكل تحريكا لالتقاء الساكنين ولا مساغ للنصب باضمار فعل القسم لان مابعدها من القرآن والقلم محلوف بهما وقد استكرهوا الجمع بين قسمين على

مقسم عليه واحد قبل انقضاء الاول وهو السر فى جعل ماعدا الواو الاولى فى قوله تعالى والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى وما خاق الذكر والاثى عاطفة ولا مجال للعطف ههنا للمخالفة بين الاول والثانى فى الاعراب نعم يجوز ذلك بجعل الاول مجرورا باضمار الباء القسمية مفتوحا لكونه غير منصرف وقرئ ص وق بالكسر على التحريك لانتقاء الساكنين ويجوز فى طاسين ميم أن تفتح نونها وتجعل من قبيل دارا بجرد ذكره سيبويه فى كتابه وأما ماعدا ذلك من الفواتح فليس فيها الا الحكاية وسيجئ تفاصيل سائر أحكام كل منها مشروحة فى مواقعها باذن الله عز سلطانه أما هنا الفاتحة الشريفة فان جعلت اسما للسورة أو للقرآن فحلها الرفع اما على أنه خبر لمبتدأ محذوف والتقدير هذا الم أى مسمى به وانما صحت الاشارة الى القرآن بعضا أو كلا مع عدم سبق ذكره لانه باعتبار كونه بصدد الذكر صار فى حكم الحاضر المشاهد كما يقال هذا مااشترى فلان واما على أنه مبتدأ أى المسمى به والاول هو الاظهر لان مايجعل عنوان الموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب اليه عند المخاطب واذ لاعلم بالتسمية قبل فحقها الاخبار بها وادعاء شهرتها يأباه التردد فى أن المسمى هى السورة أو كل القرآن ﴿ذلك﴾ ذا اسم اشارة واللام عماد جئ به للدلالة على بعد المشار اليه والكاف للخطاب والمشار اليه هو المسمى فانه منزل منزلة المشاهد بالحس البصرى وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو شأنه وكونه فى الغاية القاصية من الفضل والشرف اثر تنويهه بذكر اسمه وما قيل من أنه باعتبار التقضى أو باعتبار الوصول من المرسل الى المرسل اليه فى حكم المتباعد وان كان مصححا لايراده لكنه بمعزل من ترجيحه على ايراد ماوضع للاشارة الى القريب وتذكيره على تقدير كون المسمى هى السورة لان المشار اليه هو المسمى بالاسم المذكور من حيث هو مسمى به لا من حيث هو مسمى بالسورة ولئن ادعى اعتبار الحيثية الثانية فى الاولى بناء على أن التسمية لتمييز السور بعضها من بعض فذلك لتذكير مابعده وهو على الوجه الاول مبتدأ على حدة وعلى الوجه الثانى مبتدأ ثان وقوله عز وعلا ﴿الكتاب﴾ اما خبر له أو صفة أما اذا كان خبرا له فالجملة على الوجه الاول مستأنفة مؤكدة لما أفاده الجملة الاولى من نباهة شأن المسمى لا محل لها من الاعراب وعلى الوجه الثانى فى محل الرفع على أنها خبر للمبتدأ الاول واسم الاشارة مغن عن الضمير الرابط والكتاب اما مصدر سمى به المفعول مبالغة كالخلق والتصوير للمخلوق والمصور واما فعال بنى للمفعول كاللباس من الكتب الذى هو ضم الحروف بعضها الى بعض وأصله الجمع والضم فى الامور البادية للحس البصرى ومنه الكتيبة للعسكر كما ان أصل القراءة الجمع والضم فى الاشياء الخافية عليه واطلاق الكتاب على المنظوم عبارة قبل أن ما له الكتابة والمراد به على تقدير كون المسمى هى السورة جميع القرآن الكريم وان لم يتم نزوله عند نزول السورة اما باعتبار تحققه فى علم الله عز وجل أو باعتبار ثبوته فى اللوح أو باعتبار نزوله جملة الى السماء الدنيا حسبما ذكر فى فاتحة الكتاب واللام للعهد والمعنى ان هذه السورة هو الكتاب أى العمدة القصوى منه كانه فى احراز الفضل كل الكتاب المعهود الغنى عن الوصف بالكمال لاشتهاره به فيما بين الكتب على طريقة قوله عليه السلام الحج عرفة وعلى تقدير كون المسمى كل القرآن فالمراد بالكتاب الجنس واللام للحقيقة والمعنى ان ذلك هو الكتاب الكامل الحقيق بان يخص به اسم الكتاب لغاية تفوقه على بقية الافراد فى حيازة كمالات الجنس كان ماعداه من الكتب السماوية خارج منه بالنسبة اليه كما يقال هو الرجل أى الكامل فى الرجولية الجامع لما يكون فى الرجال من مراضى الخصال وعليه قول من قال هم القوم كل القوم ياأم خالد فالمدح كما ترى من جهة حصر كمال الجنس فى فرد من أفراده وفى الصورة الاولى من جهة حصر كمال الكل فى الجزء ولا مساغ هناك لحمل الكتاب على الجنس لما ان فرده المعهود هو مجموع القرآن المقابل لسائر أفراده من الكتب السماوية لا بعضه الذى ينطلق عليه اسم الكتاب باعتبار كونه جزأ لهذا الفرد لا باعتبار كونه جزئيا للجنس على حياله ولان

حصر الكمال فى السورة مشعر بنقصان سائر السور وان لم يكن الحصر بالنسبة اليها لتحقق المغايرة بينهما هذا على تقدير كون الكتاب خبرا لذلك وأما اذا كان صفة له فذلك الكتاب على تقدير كون الم خبر مبتدا محذوف اما خبر ثان او بدل من الخبر الأول أو مبتدأ مستقل خبره ما بعده وعلى تقدير كونه مبتدأ اما خبر له أو مبتدأ ثان خبره ما بعده والجملة خبر للمبتدا الأول والمشار اليه على كلا التقديرين هو المسمى سواء كان هى السورة أو القرآن ومعنى البعد ما ذكر من الاشعار بعلو شأنه والمعنى ذلك الكتاب العجيب الشان البالغ أقصى مراتب الكمال وقيل المشار اليه هو الكتاب الموعود فمعنى البعد حينئذ ظاهر خلا أنه ان كان المسمى هى السورة ينبغى أن يراد بالوعد ما فى قوله تعالى انا سنلقى عليك قولا ثقيلا كما قيل وان كان هو القرآن فهو ما فى التوراة والانجيل هذا على تقدير كون الم اسما للسورة أو للقرآن وأما على تقدير كونها مسرودة على نمط التعديد فذلك مبتدأ والكتاب اما خبره أو صفته والخبر ما بعده على نحو ما سلف أو يقدر مبتدأ أى المؤلف من هذه الحروف ذلك الكتاب وقرئ الم تنزيل الكتاب وقوله تعالى ﴿لاريب فيه﴾ اما فى محل الرفع على أنه خبر لذلك الكتاب على الصور الثلاث المذكورة أو على أنه خبر ثان لالم أو لذلك على تقدير كون الكتاب خبره أو للمبتدا المقدر آخرا على رأى من يجوز كون الخبر الثانى جملة كما فى قوله تعالى فاذا هى حية تسعى واما فى محل النصب على الحالية من ذلك أو من الكتاب والعامل معنى الاشارة واما جملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب مؤكدة لما قبلها وكلمة لا نافية للجنس مفيدة للاستغراق عاملة عمل ان بحملها عليها لكونها نقيضا لها ولازمة للاسم لزومها واسمها مبنى على الفتح لكونه مفردا نكرة لامضافا ولاشبيها به وأما ماذكره الزجاج من أنه معرب وانما حذف التنوين للتخفيف فما لا تعويل عليه وسبب بنائه تضمنه لمعنى من الاستغراقية لا انه مركب معها تركيب خمسة عشر كما توهم وخبرها محذوف أى لا ريب موجود أو نحوه كما فى قوله تعالى لاعاصم اليوم من أمر الله والظرف صفة لاسمها ومعناه نفى الكون المطلق وسلبه عن الريب المفروض فى الكتاب أو الخبر هو الظرف ومعناه سلب الكون فيه عن الريب المطلق وقد جعل الخبر المحذوف ظرفا وجعل المذكور خبرا لما بعده وقرئ لاريب فيه على ان لا بمعنى ليس والفرق بينه وبين الاول أن ذلك موجب للاستغراق وهذا مجوزله والريب فى الاصل مصدر رابنى اذا حصل فيك الريبة وحقيقتها قلق النفس واضطرابها ثم استعمل فى معنى الشك مطلقا أو مع تهمة لانه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة وفى الحديث دع مايريبك الى مالا يريبك ومعنى نفيه عن الكتاب أنه فى علو الشان وسطوع البرهان بحيث ليس فيه مظنة أن يرتاب فى حقيته وكونه وحيا منزلا من عند الله تعالى لا أنه لايرتاب فيه أحد أصلا ألا يرى كيف جوز ذلك فى قوله تعالى وان كنتم فى ريب مما نزلنا الخ فانه فى قوة أن يقال وان كان لكم ريب فيما نزلنا أو ان ارتبتم فيما نزلنا الخ الا أنه خولف فى الاسلوب حيث فرض كونهم فى الريب لا كون الريب فيه لزيادة تنزيه ساحة التنزيل عنه مع نوع اشعار بأن ذلك من جهتهم لا من جهته العالية ولم يقصد ههنا ذلك الاشعار كما لم يقصد الاشعار بثبوت الريب فى سائر الكتب ليقتضى المقام تقديم الظرف كما فى قوله تعالى لافيها غول ﴿هدى﴾ مصدر من هداه كالسرى والبكى وهو الدلالة بلطف على مايوصل الى البغية أى ما من شأنه ذلك وقيل هى الدلالة الموصلة اليها بدليل وقوع الضلالة فى مقابلته فى قوله تعالى أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى وقوله تعالى وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ولاشك فى أن عدم الوصول معتبر فى مفهوم الضلال فيعتبر الوصول فى مفهوم مقابله ومن ضرورة اعتباره فيه اعتباره فى مفهوم الهدى المتعدى اذ لافرق بينهما الا من حيث التأثير والتأثر ومحصله أن الهدى المتعدى هو التوجيه الموصل لان اللازم هو التوجه الموصل بدليل أن مقابله الذى هو الضلال توجه غير موصل قطعا وهذا كما ترى مبنى على أمرين اعتبار الوصول وجوبا فى مفهوم اللازم واعتبار وجود

اللازم وجوبا فى مفهوم المتعدى وكلا الامرين بمعزل من الثبوت أما الاول فلان مدار التقابل بين الهدى والضلال ليس هو الوصول وعدمه على الاطلاق بل هما معتبران فى مفهوميهما على وجه مخصوص به ليتحقق التقابل بينهما وتوضيحه أن الهدى لا بد فيه من اعتبار توجه عن علم الى ما من شأنه الايصال الى البغية كما أن الضلال لا بد فيه من اعتبار الجور عن القصد الى ماليس من شأنه الايصال قطعا وهذه المرتبة من الاعتبار مسلمة بين الفريقين ومحققة للتقابل بينهما وانما النزاع فى أن امكان الوصول الى البغية هل هو كاف فى تحصل مفهوم الهدى أو لا بد فيه من خروج الوصول من القوة الى الفعل كما ان عدم الوصول بالفعل معتبر فى مفهوم الضلال قطعا اذا تقرر هنا فنقول ان أريد باعتبار الوصول بالفعل فى مفهوم الهدى اعتباره مقارنا له فى الوجود زمانا حسب اعتبار عدمه فى مفهوم مقابله فذلك بين البطلان لان الوصول غاية للتوجه المذكور فينتهى به قطعا لاستحالة التوجه الى تحصيل الحاصل ومايبقى بعد ذلك فهو اما توجه الى الثبات عليه واما توجه الى زيادته ولان التوجه الى المقصد تدريجى والوصول اليه دفعى فيستحيل اجتماعهما فى الوجود ضرورة واما عدم الوصول فحيث كان أمرا مستمرا مثل ما يقتضيه من الضلال وجب مقارنته له فى جميع أزمنة وجوده اذ لو فارقه فى آن من آنات تلك الازمنة لقارنه فى ذلك الآن مقابله الذى هو الوصول فما فرضناه ضلالا لا يكون ضلالا وان أريد اعتباره من حيث أنه غاية له واجبة الترتب عليه لزم أن يكون التوجه المقارن لغاية الجد فى السلوك الى ما من شأنه الوصول عند تخلفه عنه لمانع خارجى كاخترام المنية مثلا من غير تقصير ولا جور من قبل المتوجه ولا خلل من جهة المسلك ضلالا اذ لا واسطة بينهما مع أنه لا جور فيه عن القصد أصلا فبطل اعتبار وجوب الوصول فى مفهوم اللازم قطعا وتبين منه عدم اعتباره فى مفهوم المتعدى حتما وأما اعتبار وجود اللازم فيه وجوبا وهو الامر الثانى فبيانه مبنى على تمهيد أصل وهو أن فعل الفاعل حقيقة هو الذى يصدر عنه ويتم من قبله لكن لما لم يكن له فى تحققه فى نفسه بد من تعلقه بمفعوله اعتبر ذلك فى مدلول اسمه قطعا ثم لما كان له باعتبار كيفية صدوره عن فاعله وكيفية تعلقه بمفعوله وغير ذلك آثار شتى مترتبة عليه متمايزة فى أنفسها مستقلة بأحكام مقتضية لافرادها بأسماء خاصة وعرض له بالقياس الى كل أثر من تلك الآثار اضافة خاصة ممتازة عما عداها من الاضافات العارضة له بالقياس الى سائرها وكانت تلك الآثار تابعة له فى التحقق غير منفكة عنه أصلا اذ لا مؤثر لها سوى فاعله عدت من متمماته واعتبرت الاضافة العارضة له بحسبها داخلة فى مدلوله كالاعتماد المتعلق بالجسم مثلا وضع له باعتبار الاضافة العارضة له من انكسار ذلك الجسم الذى هو أثر خاص لذلك الاعتماد اسم الكسر وباعتبار الاضافة العارضة له من انقطاعه الذى هو أثر آخر له اسم القطع الى غير ذلك من الاضافات العارضة له بالقياس الى آثاره اللازمة له وهذا أمر مطرد فى آثاره الطبيعية وأما الآثار التى له مدخل فى وجودها فى الجملة من غير ايجاب لها تترتب عليه تارة وتفارقه أخرى بحسب وجود أسبابها الموجبة لها وعدمها كالآثار الاختيارية الصادرة عن مؤثراتها بواسطة كونه داعيا اليها فحيث كانت تلك الآثار مستقلة فى أنفسها مستندة الى مؤثراتها غير لازمة له لزوم الآثار الطبيعية التابعة له لم تعد من متمماته ولم تعتبر الاضافة العارضة له بحسبها داخلة فى مدلوله كالاضافة العارضة للامر بحسب امتثال المأمور والاضافة العارضة للدعوة بحسب اجابة المدعو فان الامتثال والاجابة وان عدا من آثار الامر والدعوة باعتبار ترتبهما عليهما غالبا لكنهما حيث كانا فعلين اختياريين للمأمور والمدعو مستقلين فى أنفسهما غير لازمين للامر والدعوة لم يعدا من متماتهما ولم يعتبر الاضافة العارضة لهما بحسبهما داخلة فى مدلول اسم الامر والدعوة بل جعلا عبارة عن نفس الطلب المتعلق بالمأمور والمدعو سواء وجد الامتثال والاجابة أو لا اذا تمهد هذا فنقول كما ان الامتثال والاجابة فعلان مستقلان فى أنفسهما صادران عن المدعو والمأمور باختيارهما غير لازمين للامر

والدعوة لزوم الآثار الطبيعية التابعة للافعال الموجبة لها وان كانا مترتبين عليهما فى الجملة كذلك هدى المهدى أى توجهه الى ماذكر من المسلك فعل مستقل له صادر عنه باختياره غير لازم للهداية أعنى التوجيه اليه لزوم ماذكر من الآثار الطبيعية وان كان مترتبا عليها فى الجملة فلما لم يعدا من متممات الأمر والدعوة ولم يعتبر الاضافة العارضة لهما بحسبهما داخلة فى مدلولهما علم أنه لم يعد الهدى اللازم من متممات الهداية ولم يعتبر الاضافة العارضة لها بحسبه داخلة فى مدلولها ان قيل ليس الهدى بالنسبة الى الهداية كالامتثال والاجابة بالقياس الى أصليهما فان تعلق الامر والدعوة بالمأمور والمدعو لا يقتضى الا اتصافهما بكونهما مأمورا ومدعوا وليس من ضرورته اتصافهما بالامتثال والاجابة اذ لا تلازم بينهما وبين الأولين أصلا بخلاف الهدى بالنسبة الى الهداية فان تعلقها بالمهدى يقتضى اتصافه به لان تعلق الفعل المتعدى المبنى للفاعل بمفعوله يدل على اتصافه بمصدره المأخوذ من المبنى للمفعول قطعا وهو مستلزم لاتصافه بمصدر الفعل اللازم وهل هو الا اعتبار وجود اللازم فى مدلول المتعدى حتما قلنا كما ان تعلق الامر والدعوة بالمأمور والمدعو لا يستدعى الا اتصافهما بما ذكر من غير تعرض للامتثال والاجابة ايجابا وسلبا كذلك تعلق الهداية التى هى عبارة عن الدلالة المذكورة بالمهدى لا يستدعى الا اتصافه بالمدلولية التى هى عبارة عن المصدر المأخوذ من المبنى للمفعول من غير تعرض لقبول تلك الدلالة كما هو معنى الهدى اللازم ولا لعدم قبوله بل الهداية عين الدعوة الى طريق الحق والاهتداء عين الاجابة فكيف يؤخذ فى مدلولها واستلزام الاتصاف بمصدر الفعل المتعدى المبنى للمفعول للاتصاف بمصدر الفعل اللازم مطلقا انما هو فى الافعال الطبيعية كالمكسورية والانكسار والمقطوعية والانقطاع وأما الأفعال الاختيارية فليست كذلك كما تحققته فيما سلف ان قيل التعلم من قبيل الأفعال الاختيارية مع أنه معتبر فى مدلول التعليم قطعا فليكن الهدى مع الهداية كذلك قلنا ليس ذلك لكونه فعلا اختياريا على الاطلاق ولا لكون التعليم عبارة عن تحصيل العلم للمتعلم كما قيل فان المعلم ليس بمستقل فى ذلك ففى اسناده اليه ضرب تجوز بل لان كلا منهما مفتقر فى تحققه وتحصله الى الآخر فان التعليم عبارة عن القاء المبادى العلمية على المتعلم وسوقها الى ذهنه شيأ فشيأ على ترتيب يقتضيه الحال بحيث لا يساق اليه بعض منها الا بعد تلقيه لبعض آخر فكل منهما متمم للآخر معتبر فى مدلوله وأما الهدى الذى هو عبارة عن التوجه المذكور ففعل اختيارى يستقل به فاعله لا دخل للهداية فيه سوى كونها داعية الى ايجاده باختياره فلم يكن من متمماتها ولا معتبرا فى مدلولها ان قيل التعليم نوع من أنواع الهداية والتعلم نوع من أنواع الاهتداء فيكون اعتباره فى مدلول التعليم اعتبارا للهدى فى مدلول الهداية قلنا اطلاق الهداية على التعليم انما هو عند وضوح المسلك واستبداد المتعلم بسلوكه من غير دخل للتعليم فيه سوى كونه داعيا اليه وقد عرفت جلية الامر على ذلك التقدير ان قيل أليس تخلف الهدى عن الهداية كتخلف التعلم عن التعليم فحيث لم يكن ذلك تعليما فى الحقيقة فليكن الهداية أيضا كذلك وليحمل تسمية ما لا يستتبع الهدى بها على التجوز قلنا شتان بين التخلفين فان تخلف التعلم عن التعليم يكون لقصور فيه كما ان تخلف الانكسار عن الضرب الضعيف لذلك وأما تخلف الهدى عن الهداية فليس لشائبة قصور من جهتها بل انما هو لفقد سببه الموجب له من جهة المهدى بعد تكامل ما يتم من قبل الهادى وبهذا التحرير اتضح طريق الهداية وتبين انها عبارة عن مطلق الدلالة على ما من شأنه الايصال الى البغية بتعريف معالمه وتبيين مسالكه من غير أن يشترط فى مدلولها الوصول ولا القبول وان الدلالة المقارنة لهما أو لاحدهما والمفارقة عنهما كل ذلك مع قطع النظر عن قيد المقارنة وعدمها افراد حقيقية لها وأن ما فى قوله تعالى انك لا تهدى من أحببت وقوله تعالى ولو شاء لهداكم ونحو ذلك مما اعتبر فيه الوصول من قبيل المجاز وانكشف ان الدلالات التكوينية المنصوبة فى الانفس والآفاق والبيانات التشريعية الواردة فى الكتب السماوية على الاطلاق بالنسبة الى كافة

البرية برها وفاجرها هدايات حقيقية فائضة من عند الله سبحانه والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن
هدانا الله ﴿للمتقين﴾ أى المتصفين بالتقوى حالا أومآلا وتخصيص الهدى بهم لما انهم المقتبسون من أنواره المنتفعون
بآثاره وان كان ذلك شاملا لكل ناظر من مؤمن وكافر وبذلك الاعتبار قال الله هدى للناس والمتقى اسم فاعل من باب
الافتعال من الوقاية وهى فرط الصيانة والتقوى فى عرف الشرع عبارة عن كمال التوقى عما يضره فى الآخرة قال عليه
السلام جماع التقوى فى قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان الآية وعن عمر بن عبد العزيز أنه ترك ماحرم الله
وأداء مافرض الله وعن شهر بن حوشب المتقى من يترك مالا بأس به حذرا من الوقوع فيما فيه بأس وعن أبى يزيد أن
التقوى هو التورع عن كل مافيه شبهة وعن محمد بن حنيف أنه مجانبة كل مايبعدك عن الله تعالى وعن سهل المتقى من تبرأ عن
حوله وقدرته وقيل التقوى أن لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك وعن ميمون بن مهران لا يكون الرجل
تقيا حتى يكون أشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح والسلطان الجائر وعن أبى تراب بين يدى التقوى خمس عقبات
لا يناله من لا يجاوزهن ايثار الشدة على النعمة وايثار الضعف على القوة وايثار الذل على العزة وايثار الجهد على الراحة
وايثار الموت على الحياة وعن بعض الحكماء انه لا يبلغ الرجل سنام التقوى الا أن يكون بحيث لوجعل ما فى قلبه فى طبق
فطيف به فى السوق لم يستحى ممن ينظر اليه وقيل التقوى أن تزين سرك للحق كما تزين علانيتك للخلق والتحقيق ان
للتقوى ثلاث مراتب الاولى التوقى عن العذاب المخلد بالتبرؤ عن الكفر وعليه قوله تعالى وألزمهم كلمة التقوى والثانية
التجنب عن كل مايؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم وهو المتعارف بالتقوى فى الشرع وهو المعنى بقوله تعالى
ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا والثالثة أن يتنزه عن كل مايشغل سره عن الحق عز وجل و يتبتل اليه بكليته وهو التقوى
الحقيقى المأمور به فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولهذه المرتبة عرض عريض يتفاوت فيه طبقات
أصحابها حسب تفاوت درجات استعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة الالهية المبنية على الحكم الابية اقصاها
ما انتهى اليه همم الانبياء عليهم الصلاة والسلام حيث جمعوا بذلك بين رياستى النبوة والولاية وما عاقهم التعلق بعالم
الاشباح عن العروج الى معالم الارواح ولم يصدهم الملابسة بمصالح الخلق عن الاستغراق فى شؤن الحق لكمال استعداد
نفوسهم الزكية المؤيدة بالقوة القدسية وهداية الكتاب المبين شاملة لارباب هذه المراتب أجمعين فان أريد بكونه هدى
للمتقين ارشاده اياهم الى تحصيل المرتبة الاولى ونيلها فالمراد بهم المشارفون للتقوى مجازا لاستحالة تحصيل الحاصل وايثاره
على العبارة المعربة عن ذلك للايجاز وتصدير السورة الكريمة بذكر أوليائه تعالى وتفخيم شأنهم وان أريد به ارشاده
الى تحصيل احدى المرتبتين الاخيرتين فان عنى بالمتقين أصحاب الطبقة الاولى تعينت الحقيقة وان عنى بهم أصحاب احدى
الطبقتين الاخيرتين تعين المجاز لان الوصول اليهما انما يتحقق بهدايته المترقبة وكذا الحال فيما بين المرتبة الثانية والثالثة
فانه ان أريد بالهدى الارشاد الى تحصيل المرتبة الثالثة فان عنى بالمتقين أصحاب المرتبة الثانية تعينت الحقيقة وان عنى بهم
أصحاب المرتبة الثالثة تعين المجاز ولفظ الهداية حقيقة فى جميع الصور وأما ان أريد بكونه هدى لهم تثبيتهم على ماهم عليه
أو ارشادهم الى الزيادة فيه على أن يكون مفهومها داخلا فى المعنى المستعمل فيه فهو مجاز لا محالة ولفظ المتقين حقيقة
على كل حال واللام متعلقة بهدى أو بمحذوف وقع صفة له أو حالا منه ومحل هدى الرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف أى
هو هدى أو خبر مع لا ريب فيه لذلك الكتاب أو مبتدأ خبره الظرف المقدم كما أشير اليه أو النصب على الحالية من
ذلك أو من الكتاب والعامل معنى الاشارة أو من الضمير فى فيه والعامل مافى الجار والمجرور من معنى الفعل المنفى
كأنه قيل لم يحصل فيه الريب حال كونه هاديا على أنه قيد للنفى لا للمنفى وحاصله انتفى الريب فيه حال كونه هاديا وتنكيره

للتفخيم وحمله على الكتاب اما للمبالغة كأنه نفس الهدى أو لجعل المصدر بمعنى الفاعل هذا والذى يستدعيه جزالة
التنزيل فى شأن ترتيب هذه الجمل أن تكون متناسقة تقرر اللاحقة منها السابقة ولذلك لم يتخلل بينها عاطف فالم
جملة برأسها على انها خبر لمبتدأ مضمر أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها دالة على أن المتحدى به هو
المؤلف من جنس مايؤلفون منه كلامهم وذلك الكتاب جملة ثانية مقررة لجهة التحدى لما دلت عليه من
كونه منعوتا بالكمال الفائق ثم سجل على غاية فضله بنفى الريب فيه اذ لا فضل أعلى مما للحق واليقين وهدى
للمتقين مع مايقدر له من المبتدأ جملة مؤكدة لكونه حقا لا يحوم حوله شائبة شك ما ودالة على تكميله بعد كماله أو
يستتبع السابقة منها اللاحقة استتباع الدليل المدلول فانه لما نبه أولا على اعجاز المتحدى به من حيث أنه من جنس
كلامهم وقد عجزوا عن معارضته بالمرة ظهر أنه الكتاب البالغ أقصى مراتب الكمال وذلك مستلزم لكونه فى غاية النزاهة
عن مظنة الريب اذ لا أنقص مما يعتريه الشك وما كان كذلك كان لا محالة هدى للمتقين وفى كل منها من النكت الرائقة
والمزايا الفائقة مالا يخفى جلالة شأنه حسبما تحققته ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ اما موصول بالمتقين ومحله الجر على أنه
صفة مقيدة له ان فسر التقوى بترك المعاصى فقط مترتبة عليه ترتب التحلية على التخلية وموضحة ان فسر بما هو المتعارف
شرعا والمتبادر عرفا من فعل الطاعات وترك السيئات معا لانها حينئذ تكون تفصيلا لما انطوى عليه اسم الموصوف
اجمالا وذلك لانها مشتملة على ماهو عماد الأعمال وأساس الحسنات من الايمان والصلاة والصدقة فانها أمهات
الأعمال النفسانية والعبادات البدنية والمالية المستتبعة لسائر القرب الداعية الى التجنب عن المعاصى غالبا ألا يرى الى
قوله تعالى ان الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر وقوله عليه السلام الصلاة عماد الدين والزكاة قنطرة الاسلام أو مادحة
للموصوفين بالتقوى المفسر بما مر من فعل الطاعات وترك السيئات وتخصيص ماذكر من الخصال الثلاث بالذكر لاظهار
شرفها وانافتها على سائر ما انطوى تحت اسم التقوى من الحسنات او النصب على المدح بتقدير أعنى أو الرفع عليه بتقديرهم
واما مفصول عنه مرفوع بالابتداء خبره الجملة المصدرة باسم الاشارة كما سيأتى بيانه فالوقف على المتقين حينئذ وقف تام
لأنه وقف على مستقل مابعده أيضا مستقل وأما على الوجوه الأول فحسن لاستقلال الموقوف عليه غير تام لتعلق مابعده به
وتبعيته له أما على تقدير الجر على الوصفية فظاهر وأما على تقدير النصب أو الرفع على المدح فلما تقرر من أن المنصوب
والمرفوع مدحا وان خرجا عن التبعية لما قبلهما صورة حيث لم يتبعاه فى الاعراب وبذلك سميا قطعا لكنهما تابعان له
حقيقة ألا يرى كيف التزموا حذف الفعل والمبتدا فى النصب والرفع روما لتصوير كل منهما بصورة متعلق من متعلقات
ماقبله وتنبيها على شدة الاتصال بينهما قال أبو على اذا ذكرت صفات للمدح وخولف فى بعضها الاعراب فقد خولف
للافتنان أى للتفنن الموجب لايقاظ السامع وتحريكه الى الجد فى الاصغاء فان تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعانى وصرفه
عن سننه المسلوك ينبئ عن اهتمام جديد بشأنه من المتكلم و يستجلب مزيد رغبة فيه من المخاطب ان قيل لا ريب فى أن
حال الموصول عند كونه خبر المبتدا محذوف كحاله عند كونه مبتدأ خبره أولئك على هدى فى أنه ينسبك به جملة اسمية مفيدة
لاتصاف المتقين بالصفات الفاضلة ضرورة ان كلا من الضمير المحذوف والموصول عبارة عن المتقين وان كلا من اتصافهم
بالايمان وفروعه واحرازهم للهدى والفلاح من النعوت الجليلة فما السر فى أنه جعل ذلك فى الصورة الأولى من توابع
المتقين وعد الوقف غير تام وفى الثانية مقتطعا عنه وعد الوقف تاما قلنا السر فى ذلك ان المبتدأ فى الصورتين وان كان عبارة
عن المتقين لكن الخبر فى الأولى لما كان تفصيلا لما تضمنه المبتدأ اجمالا حسبما تحققته معلوم الثبوت له بلا اشتباه
غير مفيد للسامع سوى فائدة التفصيل والتوضيح نظم ذلك فى سلك الصفات مراعاة لجانب المعنى وان سمى قطعا مراعاة

لجانب اللفظ كيف لا وقد اشتهر فى الفن ان الخبر اذا كان معلوم الانتساب الى المخبر عنه حقه أن يكون وصفا له كما ان الوصف اذا لم يكن معلوم الانتساب الى الموصوف حقه أن يكون خبرا له حتى قالوا ان الصفات قبل العلم بها أخبار والاخبار بعد العلم بها صفات وأما الخبر فى الثانية فحيث لم يكن كذلك بل كان مشتملا على مالا ينبئ عنه المبتدأ من المعانى اللائقة كاستحيط به خبرا مفيدا للمخاطب فوائد رائقة جعل ذلك مقتطعا عما قبله محافظة على الصورة والمعنى جميعا والايمان أفعال من الأمن المتعدى الى واحد يقال آمنته وبالنقل تعدى الى اثنين يقال آمنيه غيرى ثم استعمل فى التصديق لان المصدق يؤمن المصدق أى يجعله أمينا من التكذيب والمخالفة واستعماله بالباء لتضمينه معنى الاعتراف وقد يطلق على الوثوق فان الواثق يصير ذا أمن وطمأنينة ومنه ماحكى عن العرب ما آمنت أن أجد صحابة أى ماصرت ذا أمن وسكون وكلا الوجهين حسن ههنا وهو فى الشرع لا يتحقق بدون التصديق بما علم ضرورة أنه من دين نبينا عليه الصلاة والسلام كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء ونظائرها وهل هو كاف فى ذلك أو لابد من انضمام الاقرار اليه للمتمكن منه والأول رأى الشيخ الأشعرى ومن شايعه فان الاقرار عنده منشأ لاجراء الاحكام والثانى مذهب أبى حنيفة ومن تابعه وهو الحق فانه جعلهما جزأين له خلا ان الاقرار ركن محتمل للسقوط بعذر كما عند الاكراه وهو مجموع ثلاثة أمور اعتقاد الحق والاقرار به والعمل بموجبه عند جمهور المحدثين والمعتزلة والخوارج فمن أخل بالاعتقاد وحده فهو منافق ومن أخل بالاقرار فهو كافر ومن أخل بالعمل فهو فاسق اتفاقا وكافر عند الخوارج وخارج عن الايمان غير داخل فى الكفر عند المعتزلة وقرئ يومنون بغير همزة والغيب اما مصدر وصف به الغائب مبالغة كالشهادة فى قوله تعالى عالم الغيب والشهادة أو فيعل خفف كقيل فى قيل وهين فى هين وميت فى ميت لكن لم يستعمل فيه الاصل كما استعمل فى نظائره وأياما كان فهو ماغاب عن الحس والعقل غيبة كاملة بحيث لا يدرك بواحد منهما ابتداء بطريق البداهة وهو قسمان قسم لا دليل عليه وهو الذى أريد بقوله سبحانه وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو وقسم نصب عليه دليل كالصانع وصفاته والنبوات وما يتعلق بها من الاحكام والشرائع واليوم الآخر وأحواله من البعث والنشور والحساب والجزاء وهو المراد ههنا فالباء صلة للايمان اما بتضمينه معنى الاعتراف أو بجعله مجازا من الوثوق وهو واقع موقع المفعول به واما مصدر على حاله كالغيبة فالباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من الفاعل كما فى قوله تعالى الذين يخشون ربهم بالغيب وقوله تعالى ليعلم أنى لم أخنه بالغيب أى يؤمنون ملتبسين بالغيبة اما عن المؤمن به أى غائبين عن النبى صلى الله عليه وسلم غير مشاهدين لما فيه من شواهد النبوة لما روى أن أصحاب ابن مسعود رضى الله عنه ذكروا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وايمانهم فقال رضى الله عنه ان أمر محمد عليه الصلاة والسلام كان بينا لمن رآه والذى لا اله غيره ما آمن مؤمن أفضل من الايمان بغيب ثم تلا هذه الآية واما عن الناس أى غائبين عن المؤمنين لا كالمنافقين الذين اذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم وقيل المراد بالغيب القلب لانه مستور والمعنى يؤمنون بقلوبهم لا كالذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم فالباء حينئذ للآلة وترك ذكر المؤمن به على التقادير الثلاثة اما للقصد الى احداث نفس الفعل كما فى قولهم فلان يعطى ويمنع أى يفعلون الايمان واما للاكتفاء بما سيجئ فان الكتب الالهية ناطقة بتفاصيل مايجب الايمان به ﴿ويقيمون الصلاة﴾ اقامتها عبارة عن تعديل أركانها وحفظها من أن يقع فى شئ من فرائضها وسننها وآدابها زيغ من أقام العود اذا قومه وعدله وقيل عن المواظبة عليها مأخوذ من قامت السوق اذا نفقت وأقمتها اذا جعلتها نافقة فانها اذا حوفظ عليها كانت كالنافق الذى يرغب فيه وقيل عن التشمر لادائها عن غير فتور ولا توان من قولهم قام بالامر وأقامه اذا جد فيه واجتهد وقيل عن أدائها عبر عنه بالاقامة لاشتماله على القيام كما عبر عنه بالقنوت الذى هو

القيام وبالركوع والسجود والتسبيح والاول هو الاظهر لأنه أشهر والى الحقيقة أقرب والصلوة فعلة من صلى اذا دعا كالزكوة من زكى وانما كتبتا بالواو ومراعاة للفظ المفخم وانما سمى الفعل المخصوص بها لاشتماله على الدعاء وقيل أصل صلى حرك الصلوين وهما العظمان الناتئان فى أعلى الفخذين لان المصلى يفعله فى ركوعه وسجوده واشتهار اللفظ فى المعنى الثانى دون الاول لا يقدح فى نقله عنه وانما سمى الداعى مصليا تشبيها له فى تخشعه بالراكع والساجد ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ الرزق فى اللغة العطاء ويطلق على الحظ المعطى نحو ذبح ورعى للمذبوح والمرعى وقيل هو بالفتح مصدر وبالكسر اسم وفى العرف ماينتفع به الحيوان والمعتزلة لما أحالوا تمكين الله تعالى من الحرام لأنه منع من الانتفاع به وأمر بالزجر عنه قالوا الرزق لا يتناول الحرام ألا يرى أنه تعالى أسند الرزق الى ذاته ايذانا بأنهم ينفقون من الحلال الصرف فان انفاق الحرام بمعزل من ايجاب المدح وذم المشركين على تحريم بعض مارزقهم الله تعالى بقوله قل أرأيتم ماأنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا وأصحابنا جعلوا الاسناد المذكور للتعظيم والتحريض على الانفاق والذم لتحريم مالم يحرم واختصاص مارزقناهم بالحلال للقرينة وتمسكوا لشمول الرزق لهما بما روى عنه عليه السلام فى حديث عمرو بن قرة حين أتاه فقال يارسول الله ان الله كتب على الشقوة فلا أرى ارزق الا من دفى بكفى فأذن لى فى الغناء من غير فاحشة من أنه قال عليه السلام لا اذن لك ولا كرامة ولا نعمة كذبت أى عدو الله والله لقد رزقك الله حلالا طيبا فاخترت ماحرم الله عليك من رزقه مكان ماأحل الله لك من حلاله وبأنه لو لم يكن الحرام رزقا لم يكن المتغذى به طول عمره مرزوقا وقد قال الله تعالى وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها والانفاق والانفاد اخوان خلا أن فى الثانى معنى الاذهاب بالكلية دون الأول والمراد بهذا الانفاق الصرف الى سبيل الخير فرضا كان أو نفلا ومن فسر بالزكوة ذكر أفضل أنواعه والأصل فيه أو خصصه بها لاقترانه بما هو شقيقها والجملة معطوفة على ماقبلها من الصلة وتقديم المفعول للاهتمام والمحافظة على رؤس الآى وادخال من التبعيضية عليه للكف عن التبذير هذا وقد جوز أن يراد به الانفاق من جميع المعاون التى منحهم الله تعالى من النعم الظاهرة والباطنة ويؤيده قوله عليه السلام ان علما لا ينال به ككنز لا ينفق منه واليه ذهب من قال ومما خصصناهم من أنوار المعرفة يفيضون ﴿والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك﴾ معطوف على الموصول الاول على تقديرى وصله بما قبله وفصله عنه مندرج معه فى زمرة المتقين من حيث الصورة والمعنى معا أو من حيث المعنى فقط اندراج خاصين تحت عام اذ المراد بالاولين الذين آمنوا بعد الشرك والغفلة عن جميع الشرائع كما يؤذن به التعبير عن المؤمن به بالغيب وبالآخرين الذين آمنوا بالقرآن بعد الايمان بالكتب المنزلة قبل كعبد الله بن سلام وأضرابه أو على المتقين على أن يراد بهم الاولون خاصة ويكون تخصيصهم بوصف الاتقاء للايذان بتنزههم عن حالتهم الاولى بالكلية لما فيها من كمال القباحة والمباينة للشرائع كلها الموجبة للاتقاء عنها بخلاف الآخرين فانهم غير تاركين لما كانوا عليه بالمرة بل متمسكون بأصول الشرائع التى لا تكاد تختلف باختلاف الاعصار ويجوز أن يجعل كلا الموصولين عبارة عن الكل مندرجا تحت المتقين ولا يكون توسيط العاطف بينهما لاختلاف الذوات بل لاختلاف الصفات كما فى قوله

الى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

وقوله يالهف زيابة للحارث الصابح فالغانم فالآيب للايذان بأن كل واحد من الايمان بما أشير اليه من الامور الغائبة والايمان بما يشهد بثبوتها من الكتب السماوية نعت جليل على حياله لشأن خطير مستتبع لاحكام جمة حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل ولا يجعل أحدهما تتمة للآخر وقد شفع الاول بأداء الصلوة والصدقة اللتين هما من جملة الشرائع المندرجة تحت تلك الامور المؤمن بها تكملة له فان كمال العلم بالعمل وقرن الثانى بالايقان بالآخرة مع كونه منطويا تحت

الاول تنبيها على كال صحته وتعريضا بما فى اعتقاد أهل الكتابين من الخلل كما سيأتى هذا على تقدير تعلق الباء بالايمان وقس عليه الحال عند تعلقها بالمحذوف فان كلا من الايمان الغيبي المشفوع بما يصدقه من العبادتين مع قطع النظر عن المؤمن به والايمان بالكتب المنزلة الشارحة لتفاصيل الامور التى يجب الايمان بها مقرونا بما قرن به فضيلة باهرة مستدعية لما ذكر والله تعالى أعلم وقد حمل ذلك على معنى أنهم الجامعون بين الايمان بما يدركه العقل جملة والاتيان بما يصدقه من العبادات البدنية والمالية و بين الايمان بما لاطريق اليه غير السمع وتكرير الموصول للتنبيه على تغاير القبيلين وتباين السبيلين فليتأمل وان يراد بالموصول الثانى بعد اندراج الكل فى الأول فريق خاص منهم وهم مؤمنو أهل الكتاب بأن يخصوا بالذكر تخصيص جبريل وميكائيل به اثر جريان ذكر الملائكة عليهم السلام تعظيما لشأنهم وترغيبا لامثالهم وأقرانهم فى تحصيل مالهم من الكمال والانزال النقل من الأعلى الى الأسفل وتعلقه بالمعانى انما هو بتوسط تعلقه بالاعيان المستتبعة لها فنزول ماعدا الصحف من الكتب الالهية الى الرسل عليهم السلام والله تعالى أعلم بان يتلقاها الملك من جنابه عز وجل تلقيا روحانيا أو يحفظها من اللوح المحفوظ فينزل بها الى الرسل فيلقيها عليهم عليهم السلام والمراد بما أنزل اليك هو القرآن باسره والشريعة عن آخرها والتعبير عن انزاله بالماضى مع كون بعضه مترقبا حينئذ لتغليب المحقق على المقدر أولتنزيل مافى شرف الوقوع لتحققه منزلة الواقع كما فى قوله تعالى انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مع ان الجن ما كانوا سمعوا الكتاب جميعا ولا كان الجميع اذ ذاك نازلا وبما أنزل من قبلك التورية والانجيل وسائر الكتب السالفة وعدم التعرض لذكر من أنزل اليه من الانبياء عليهم السلام لقصد الايجاز مع عدم تعلق الغرض بالتفصيل حسب تعلقه به فى قوله تعالى قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسمعيل الآية والايمان بالكل جملة فرض وبالقرآن تفصيلا من حيث انا متعبدون بتفاصيله فرض كفاية فان فى وجوبه على الكل عينا حرجا بينا واخلالا بأمر المعاش وبناء الفعلين للمفعول للايذان بتعين الفاعل والجرى على سنن الكبرياء وقد قرئا على البناء للفاعل ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ الايقان اتقان العلم بالشئ بنفى الشك والشبهة عنه ولذلك لايسمى علمه تعالى يقينا أى يعلمون علما قطعيا مزيحا لما كان أهل الكتاب عليه من الشكوك والأوهام التى من جملتها زعمهم أن الجنة لايدخلها الامن كان هودا أو نصارى وأن النار لن تمسهم الا أياما معدودات واختلافهم فى أن نعيم الجنة هل هو من قبيل نعيم الدنيا أو لا وهل هو دائم أو لا وفى تقديم الصلة وبناء يوقنون على الضمير تعريض بمن عداهم من أهل الكتاب فان اعتقادهم فى أمور الآخرة بمعزل من الصحة فضلا عن الوصول الى مرتبة اليقين والآخرة تأنيث الآخر كما ان الدنيا تأنيث الأدنى غلبتا على الدارين فجرتا مجرى الاسماء وقرئ بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام وقرئ يؤقنون بقلب الواو همزة اجراء لضم ماقبلها مجرى ضمها فى وجوه ووقتت ونظيره مافى قوله

لحب المؤقدان الى مؤسى … وجعدة اذ أضاءهما الوقود

وقوله تعالى ﴿أولئك﴾ اشارة الى الذين حكيت خصالهم الحميدة من حيث اتصافهم بها وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك أكمل تميز متظمون بسببه فى سلك الامور المشاهدة ومافيه من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله عز وعلا ﴿على هدى﴾ خبره ومافيه من الابهام المفهوم من التنكير لكمال تفخيمه كانه قيل على أى هدى هدى لايبلغ كنهه ولا يقادر قدره وايراد كلمة الاستعلاء بناء على تمثيل حالهم فى ملابستهم بالهدى بحال من يعتلى الشئ ويستولى عليه بحيث يتصرف فيه كيفما يريد أوعلى استعارتها لتمسكهم بالهدى استعارة تبعية متفرعة على تشبيهه باعتلاء الراكب واستوائه على مركوبه أو على جعلها قرينة للاستعارة بالكناية بين الهدى والمركوب للايذان بقوة تمكنهم منه وكمال رسوخهم فيه وقوله تعالى ﴿من ربهم﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة له مبينة لفخامته الاضافية

اثر بيان فخامته الذاتية مؤكدة لها أى على هدى كائن من عنده تعالى وهو شامل لجميع أنواع هدايته تعالى وفنون توفيقه والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم لغاية تفخيم الموصوف والمضاف اليهم وتشريفهما ولزيادة تحقيق مضمون الجملة وتقريره ببيان مايوجبه ويقتضيه وقد أدغمت النون فى الراء بغنة أو بغير غنة والجملة على تقدير كون الموصولين موصولين بالمتقين مستقلة لامحل لها من الاعراب مقررة لمضمون قوله تعالى هدى للمتقين مع زيادة تأكيد له وتحقيق كيف لا وكون الكتاب هدى لهم فن من فنون مامنحوه واستقروا عليه من الهدى حسبما تحققته لاسيما مع ملاحظة مايستتبعه من الفوز والفلاح وقيل هى واقعة موقع الجواب عن سؤال ربما ينشأ مما سبق كانه قيل ماللمنعوتين بما ذكر من النعوت اختصوا بهداية ذلك الكتاب العظيم الشأن وهل هم احقاء بتلك الاثرة فأجيب بأنهم بسبب اتصافهم بذلك مالكون لزمام أصل الهدى الجامع لفنونه المستتبع للفوز والفلاح فأى ريب فى استحقاقهم لما هو فرع من فروعه ولقد جار عن سنن الصواب من قال فى تقرير الجواب أن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلا وبالفلاح آجلا وأما على تقدير كونهما مفصولين عنه فهى فى محل الرفع على أنها خبر للمبتدا الذى هو الموصول الاول والثانى معطوف عليه وهذه الجملة استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق اليه الذهن من تخصيص ماذكر بالمتقين قبل بيان مبادى استحقاقهم لذلك كانه قيل ما بال المتقين مخصوصين به فاجيب بشرح ما انطوى عليه اسمهم اجمالا من نعوت الكمال وبيان ما يستدعيه من النتيجة أى الذين هذه شؤنهم أحقاء بما هو أعظم من ذلك كقولك أحب الانصار الذين قارعوا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلوا مهجتهم فى سبيل الله أولئك سواد عينى وسويداء قلبي واعلم أن هذا المسلك يسلك تارة باعادة اسم من استؤنف عنه الحديث كقولك أحسنت الى زيد زيد حقيق بالاحسان وأخرى باعادة صفته كقولك أحسنت الى زيد صديقك القديم أهل لذلك ولا ريب فى أن هذا أبلغ من الاول لما فيه من بيان الموجب للحكم وايراد اسم الاشارة بمنزلة اعادة الموصوف بصفاته المذكورة مع مافيه من الاشعار بكمال تميزه بها وانتظامه بسبب ذلك فى سلك الامور المشاهدة والايماء الى بعد منزلته كما مر هذا وقد جوز أن يكون الموصول الاول مجرى على المتقين حسبما فصل والثانى مبتدأ وأولئك الخ خبره و يجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضا بغير المؤمنين من أهل الكتاب حيث كانوا يزعمون أنهم على الهدى و يطمعون فى نيل الفلاح ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ تكرير اسم الاشارة لاظهار مزيد العناية بشأن المشار اليهم وللتنبيه على أن اتصافهم بتلك الصفات يقتضى نيل كل واحدة من تينك الاثرتين وأن كلا منهما كاف فى تميزهم بها عمن عداهم ويؤيده توسيط العاطف بين الجملتين بخلاف مافى قوله تعالى أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون فان التسجيل عليهم بكمال الغفلة عبارة عما يفيده تشبيههم بالبهائم فتكون الجملة الثانية مقررة للاولى وأما الافلاح الذى هو عبارة عن الفوز بالمطلوب فلما كان مغايرا للهدى نتيجة له وكان كل منهما فى نفسه أعز مرام يتنافس فيه المتنافسون فعل ما فعل وهم ضمير فصل يفصل الخبر عن الصفة ويؤكد النسبة ويفيد اختصاص المسند بالمسند اليه أو مبتدأ خبره المفلحون والجملة خبر لأولئك وتعريف المفلحين للدلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك أنهم المفلحون فى الآخرة أو اشارة الى مايعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين وخصائصهم هنا وفى بيان اختصاص المتقين بنيل هذه المراتب الفائقة على فنون من الاعتبارات الرائقة اللائقة حسبما أشير اليه فى تضاعيف تفسير الآية الكريمة من الترغيب فى اقتفاء أثرهم والارشاد الى اقتداء سيرهم مالايخفى مكانه والله ولى الهداية والتوفيق ﴿ان الذين كفروا﴾ كلام مستأنف سيق لشرح أحوال الكفرة الغواة المردة العتاة اثر بيان أحوال أضدادهم المتصفين بنعوت الكمال الفائزين بمباغيهم فى الحال والمآل وانما ترك العاطف بينهما ولم يسلك به

مسلك قوله تعالى ان الأبرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم لما بينهما من التنافى فى الاسلوب والتباين فى الغرض فان الأولى مسوقة لبيان رفعة شأن الكتاب فى باب الهداية والارشاد وأما التعرض لاحوال المهتدين به فانما هو بطريق الاستطراد سواء جعل الموصول موصولا بما قبله أو مفصولا عنه فان الاستئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام المتقدم فهو من مستتبعاته لا محالة وأما الثانية فمسوقة لبيان أحوال الكفرة اصالة وترامى أمرهم فى الغواية والضلال الى حيث لا يجديهم الانذار والتبشير ولا يؤثر فيهم العظة والتذكير فهم ناكبون فى تيه الغى والفساد عن منهاج العقول وراكبون فى مسلك المكابرة والعناد متن كل صعب وذلول وانما أوثرت هذه الطريقة ولم يؤسس الكلام على بيان أن الكتاب هاد للاولين وغير مجد للآخرين لان العنوان الاخير ليس مما يورثه كمالا حتى يتعرض له فى أثناء تعداد كمالاته وان من الحروف التى تشابه الفعل فى عدد الحروف والبناء على الفتح ولزوم الاسماء ودخول نون الوقاية عليها كاننى ولعلنى ونظائرهما واعطاء معانيه والمتعدى خاصة فى الدخول على اسمين ولذلك أعملت عمله الفرعى وهو نصب الاول ورفع الثانى ايذانا بكونه فرعا فى العمل دخيلا فيه وعند الكوفيين لا عمل لها فى الخبر بل هو باق على حاله بقضية الاستصحاب وأجيب بأن ارتفاع الخبر مشروط بالتجرد عن العوامل والا لما انتصب خبر كان وقد زال بدخولها فتعين اعمال الحرف واثرها تأكيد النسبة وتحقيقها ولذلك يتلقى بها القسم ويصدر بها الاجوبة ويؤتى بها فى مواقع الشك والانكار لدفعه ورده قال المبرد قولك عبدالله قائم اخبار عن قيامه وان عبدالله قائم جواب سائل عن قيامه شاك فيه وان عبدالله لقائم جواب منكر لقيامه وتعريف الموصول اما للعهد والمراد به ناس بأعيانهم كابى لهب وأبى جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهم وأحبار اليهود أو للجنس وقد خص منه غير المصرين بما أسند اليه من قوله تعالى سواء عليهم الخ والكفر فى اللغة ستر النعمة وأصله الكفر بالفتح أى الستر ومنه قيل للزارع والليل كافر قال تعالى كمثل غيث أعجب الكفار نباته وعليه قول لبيد فى ليلة كفر النجوم غمامها ومنه المتكفر بسلاحه وهو الشاكى الذى غطى السلاح بدنه وفى الشريعة انكار ما علم بالضرورة مجىء الرسول عليه الصلاة والسلام به وانما عد لبس الغيار وشد الزنار بغير اضطرار ونظائرهما كفرا لدلالته على التكذيب فان من صدق النبى عليه السلام لا يكاد يجترىء على أمثال ذلك اذ لا داعى اليه كالزنى وشرب الخمر واحتجت المعتزلة على حدوث القرآن بما جاء فيه بلفظ الماضى على وجه الاخبار فانه يستدعى سابقة المخبر عنه لا محالة وأجيب بأنه من مقتضيات التعلق وحدوثه لا يستدعى حدوث الكلام كما أن حدوث تعلق العلم بالمعلوم لا يستدعى حدوث العلم ﴿سواء﴾ هو اسم بمعنى الاستواء نعت به كما ينعت بالمصادر مبالغة قال تعالى تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم وقوله تعالى ﴿عليهم﴾ متعلق به ومعناه عندهم وارتفاعه على انه خبر لان وقوله تعالى ﴿أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ مرتفع به على الفاعلية لان الهمزة وأم مجردتان عن معنى الاستفهام لتحقيق الاستواء بين مدخوليهما كما جرد الامر والنهى لذلك عن معنييهما فى قوله تعالى استغفر لهم أو لا تستغفر لهم وحرف النداء فى قولك اللهم اغفر لنا أيتها العصابة عن معنى الطلب لمجرد التخصيص كانه قيل ان الذين كفروا مستو عليهم انذارك وعدمه كقولك ان زيدا مختصم أخوه وابن عمه أو مبتدأ وسواء عليهم خبر قدم عليه اعتناء بشأنه والجملة خبر لان والفعل انما يمتنع الاخبار عنه عند بقائه على حقيقته أما لو أريد به اللفظ أو مطلق الحدث المدلول عليه ضمنا على طريقة الاتساع فهو كالاسم فى الاضافة والاسناد اليه كما فى قوله تعالى هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم وقوله تعالى واذا قيل لهم لا تفسدوا وفى قولهم تسمع بالمعيدى خير من أن تراه كانه قيل انذارك وعدمه سيان عليهم والعدول الى الفعل لما فيه من ايهام التجدد والتوصل الى ادخال الهمزة ومعادلها عليه لافادة تقرير معنى الاستواء وتأكيده كما أشير اليه وقيل سواء مبتدأ ومابعده خبره وليس بذاك لان مقتضى

المقام بيان كون الانذار وعدمه سواء لا بيان كون المستوى الانذار وعدمه والانذار اعلام المخوف للاحتراز عنه افعال من نذر بالشىء اذا علمه فحذره والمراد ههنا التخويف من عذاب الله وعقابه على المعاصى والاقتصار عليه لما انهم ليسوا باهل للبشارة أصلا ولان الانذار أوقع فى القلوب وأشد تأثيرا فى النفوس فان دفع المضار أهم من جلب المنافع فحيث لم يتأثروا به فلأن لا يرفعوا للبشارة رأسا أولى وقرىء بتوسيط ألف بين الهمزتين مع تحقيقهما وبتوسيطها والثانية بين بين وبتخفيف الثانية بين بين بلا توسيط وبحذف حرف الاستفهام وبحذفه والقاء حركته على الساكن قبله كما قرىء قد أفلح وقرىء بقلب الثانية ألفا وقد نسب ذلك الى اللحن ﴿لا يؤمنون﴾ جملة مستقلة مؤكدة لما قبلها مبينة لما فيه من اجمال مافيه الاستواء فلا محل لها من الاعراب أو حال مؤكدة له أو بدل منه أو خبر لان وما قبلها اعتراض بما هو علة للحكم أو خبر ثان على رأى من يجوزه عند كونه جملة والآية الكريمة مما استدل به على جواز التكليف بما لا يطاق فانه تعالى قد أخبر عنهم بأنهم لا يؤمنون فظهر استحالة ايمانهم لاستلزامه المستحيل الذى هو عدم مطابقة اخباره تعالى للواقع مع كونهم مأمورين بالايمان باقين على التكليف ولان من جملة ما كلفوه الايمان بعدم ايمانهم المستمر والحق ان التكليف بالممتنع لذاته وان جاز عقلا من حيث ان الاحكام لا تستدعى أغراضا لا سيما الامتثال لكنه غير واقع للاستقراء والاخبار بوقوع الشىء أو بعدمه لا ينفى القدرة عليه كاخباره تعالى عما يفعله هو أو العبد باختياره وليس ما كلفوه الايمان بتفاصيل ما نطق به القرآن حتى يلزم أن يكلفوا الايمان بعدم ايمانهم المستمر بل هو الايمان بجميع ما جاء به النبى عليه السلام اجمالا على أن كون الموصول عبارة عنهم ليس معلوما لهم وفائدة الانذار بعد العلم بأنه لا يفيد الزام الحجة واحراز الرسول صلى الله عليه وسلم فضل الابلاغ ولذلك قيل سواء عليهم ولم يقل عليك كما قيل لعبدة الاصنام سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون وفى الآية الكريمة اخبار بالغيب على ما هو به ان أريد بالموصول أشخاص بأعيانهم فهى من المعجزات الباهرة ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ استئناف تعليلى لما سبق من الحكم وبيان لما يقتضيه أو بيان وتأكيد له والمراد بالقلب محل القوة العاقلة من الفؤاد والختم على الشىء الاستيثاق منه بضرب الخاتم عليه صيانة له أو لما فيه من التعرض له كما فى البيت الفارغ والكيس المملوء والأول هو الانسب بالمقام اذ ليس المراد به صيانة ما فى قلوبهم بل احداث حالة تجعلها بسبب تماديهم فى الغى وانهماكهم فى التقليد واعراضهم عن منهاج النظر الصحيح بحيث لا يؤثر فيها الانذار ولا ينفذ فيها الحق أصلا اما على طريقة الاستعارة التبعية بأن يشبه ذلك بضرب الخاتم على نحو أبواب المنازل الخالية المبنية للسكنى تشبيه معقول بمحسوس بجامع عقلى هو الاشتمال على منع القابل عما من شأنه وحقه أن يقبله ويستعار له الختم ثم يشتق منه صيغة الماضى واما على طريقة التمثيل بأن يشبه الهيئة المنتزعة من قلوبهم وقد فعل بها ما فعل من احداث تلك الحالة المانعة من أن يصل اليها ما خلقت هى لأجله من الأمور الدينية النافعة وحيل بينها وبينه بالمرة بهيئة منتزعة من محال معدة لحلول ما يحلها حلولا مستتبعا لمصالح مهمة وقد منع من ذلك بالختم عليها وحيل بينها وبين ما أعدت لأجله بالكلية ثم يستعار لها ما يدل على الهيئة المشبه بها فيكون كل من طرفى التشبيه مركبا من أمور عدة قد اقتصر من جانب المشبه به على ما عليه يدور الأمر فى تصوير تلك الهيئة وانتزاعها وهو الختم والباقى منوى مراد قصدا بألفاظ متخيلة بها يتحقق التركيب وتلك الالفاظ وان كان لها مدخل فى تحقيق وجه الشبه الذى هو أمر عقلى منتزع منها وهو امتناع الانتفاع بما أعدله بسبب مانع قوى لكن ليس فى شىء منها على الانفراد تجوز باعتبار هذا المجاز بل هى باقية على حالها من كونها حقيقة أو مجازا أو كناية وانما التجوز فى المجموع وحيث كان معنى المجموع مجموع معانى تلك الألفاظ التى ليس فيها التجوز المعهود ولم تكن الهيئة المنتزعة منها مدلولا وضعيا لها ليكون ما دل على الهيئة المشبه بها عند استعماله فى الهيئة المشبهة

مستعملا فى غير ما وضع له فيندرج تحت الاستعارة التى هى قسم من المجاز اللغوى الذى هو عبارة عن الكلمة المستعملة فى غير ماوضع له ذهب قدماء المحققين كالشيخ عبد القاهر وأضرابه الى جعل التمثيل قسما برأسه ومن رام تقليل الأقسام عد تلك الهيئة المشبه بها من قبيل المدلولات الوضعية وجعل الكلام المفيد لها عند استعماله فيما يشبه بها من هيئة أخرى منتزعة من أمور أخر من قبيل الاستعارة وسماه استعارة تمثيلية واسناد احداث تلك الحالة فى قلوبهم الى الله تعالى لاستناد جميع الحوادث عندنا من حيث الخلق اليه سبحانه وتعالى وورود الآية الكريمة ناعية عليهم سوء صنيعهم ووخامة عاقبتهم لكون أفعالهم من حيث الكسب مستندة اليهم فان خلقها منه سبحانه ليس بطريق الجبر بل بطريق الترتيب على مااقترفوه من القبائح كما يعرب عنه قوله تعالى بل طبع الله عليها بكفرهم ونحو ذلك وأما المعتزلة فقد سلكوا مسلك التأويل وذكروا فى ذلك عدة من الأقاويل منها ان القوم لما أعرضوا عن الحق وتمكن ذلك فى قلوبهم حتى صار كالطبيعة لهم شبه بالوصف الخلقى المجبول عليه ومنها ان المراد به تمثيل قلوبهم بقلوب البهائم التى خلقها الله تعالى خالية عن الفطن أو بقلوب قدر ختم الله تعالى عليها كما فى سال به الوادى اذا هلك وطارت به العنقاء اذا طالت غيبته ومنها ان ذلك فعل الشيطان أو الكافر واسناده اليه تعالى باعتبار كونه باقداره تعالى وتمكينه ومنها ان أعراقهم لما رسخت فى الكفر واستحكمت بحيث لم يبق الى تحصل ايمانهم طريق سوى الالجاء والقسر ثم لم يفعل ذلك محافظة على حكمة التكليف عبر عن ذلك بالختم لأنه سد لطريق ايمانهم بالكلية وفيه اشعار بترامى أمرهم فى الغى والعناد وتناهى انهماكهم فى الشر والفساد ومنها ان ذلك حكاية لما كانت الكفرة يقولونه مثل قولهم قلوبنا فى أكنة مما تدعوننا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب تهكما بهم ومنها ان ذلك فى الآخرة وانما أخبر عنه بالماضى لتحقق وقوعه ويعضده قوله تعالى ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما ومنها أن المراد بالختم وسم قلوبهم بسمة يعرفها الملائكة فيبغضونهم وينفرون عنهم ﴿وعلى سمعهم﴾ عطف على ماقبله داخل فى حكم الختم لقوله عز وجل وختم على سمعه وقلبه وللوفاق على الوقف عليه لا على قلوبهم ولاشتراكهما فى الادراك من جميع الجوانب واعادة الجار للتأكيد والاشعار بتغاير الختمين وتقديم ختم قلوبهم للايذان بأنها الأصل فى عدم الايمان وللاشعار بأن ختمها ليس بطريق التبعية لختم سمعهم بناء على أنه طريق اليها فالختم عليه ختم عليها بل هى مختومة بختم على حدة لو فرض عدم الختم على سمعهم فهو باق على حاله حسبما يفصح عنه قوله تعالى ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون والسمع ادراك القوة السامعة وقد يطلق عليها وعلى العضو الحامل لها وهو المراد ههنا اذ هو المختوم عليه اصالة وتقديم حاله على حال أبصارهم للاشتراك بينه وبين قلوبهم فى تلك الحال أو لان جنايتهم من حيث السمع الذى به يتلقى الأحكام الشرعية وبه يتحقق الانذار أعظم منها من حيث البصر الذى به يشاهد الأحوال الدالة على التوحيد فبيانها أحق بالتقديم وأنسب بالمقام قالوا السمع أفضل من البصر لانه عز وعلا حيث ذكرهما قدم السمع على البصر ولان السمع شرط النبوة ولذلك مابعث الله رسولا أصم ولان السمع وسيلة الى استكمال العقل بالمعارف التى تتلقف من أصحابها وتوحيده للأمن عن اللبس واعتبار الأصل أو لتقدير المضاف أى وعلى حواس سمعهم والكلام فى ايقاع الختم على ذلك كما مر من قبل ﴿وعلى أبصارهم غشاوة﴾ الأبصار جمع بصر والكلام فيه كما سمعته فى السمع والغشاوة فعالة من التغشية أى التغطية بنيت لما يشتمل على الشىء كالعصابة والعمامة وتنكيرها للتفخيم والتهويل وهى على رأى سيبويه مبتدأ خبره الظرف المقدم والجملة معطوفة على ماقبلها وايثار الاسمية للايذان بدوام مضمونها فان مايدرك بالقوة الباصرة من الآيات المنصوبة فى الآفاق والأنفس حيث كانت مستمرة كان تعاميهم من ذلك

أيضا كذلك وأما الآيات التى تتلقى بالقوة السامعة فلما كان وصولها اليها حينا فحينا أوثر فى بيان الختم عليها وعلى ماهى أحد طريق معرفته أعنى القلب الجملة الفعلية وعلى رأى الاخفش مرتفع على الفاعلية مما تعلق به الجار وقرىء بالنصب على تقدير فعل ناصب أى وجعل على أبصارهم غشاوة وقيل على حذف الجار وايصال الختم اليه والمعنى وختم على أبصارهم بغشاوة وقرىء بالضم والرفع وبالفتح والنصب وهما لغتان فيها وغشوة بالكسر مرفوعة وبالفتح مرفوعة ومنصوبة وعشاوة بالعين غير المعجمة والرفع ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ وعيد وبيان لما يستحقونه فى الآخرة والعذاب كالنكال بناء ومعنى يقال أعذب عن الشىء اذا أمسك عنه ومنه الماء العذب لما أنه يقمع العطش ويردعه ولذلك يسمى نقاخا لانه ينقخ العطش ويكسره وفراتا لانه يرفته على القلب ويكسره ثم اتسع فيه فاطلق على كل ألم فادح وان لم يكن عقابا يراد به ردع الجانى عن المعاودة وقيل اشتقاقه من التعذيب الذى هو ازالة العذاب كالتقذية والتمريض والعظيم نقيض الحقير والكبير نقيض الصغير فمن ضرورة كون الحقير دون الصغير كون العظيم فوق الكبير ويستعملان فى الجثث والاحداث تقول رجل عظيم وكبير تريد جثته أو خطره ووصف العذاب به لتأكيد ما يفيده التنكير من التفخيم والتهويل والمبالغة فى ذلك والمعنى ان على أبصارهم ضربا من الغشاوة خارجا مما يتعارفه الناس وهى غشاوة التعامى عن الآيات ولهم من الآلام العظام نوع عظيم لايبلغ كنهه ولا يدرك غايته اللهم انا نعوذ بك من ذلك كله ياأرحم الراحمين ﴿ومن الناس﴾ شروع فى بيان ان بعض من حكيت أحوالهم السالفة ليسوا بمقتصرين على ماذكر من محض الاصرار على الكفر والعناد بل يضمون اليه فنونا أخر من الشر والفساد وتعديد لجناياتهم الشنيعة المستتبعة لأحوال هائلة عاجلة وآجلة وأصل ناس أناس كما يشهد له انسان وأناسى وانس حذفت همزته تخفيفا كما قيل لوقة فى ألوقة وعوض عنها حرف التعريف ولذلك لايكاد يجمع بينهما وأماما فى قوله ان المنايا يطلعن على الاناس الآمنينا فشاذ سموا بذلك لظهورهم وتعلق الايناس بهم كما سمى الجن جنا لاجتنانهم وذهب بعضهم الى أن أصله النوس وهو الحركة انقلبت واوه ألفا لتحركها وانفتاح ماقبلها وبعضهم الى أنه مأخوذ من نسى نقلت لامه الى موضع العين فصار نيسا ثم قلبت ألفا سموا بذلك لنسيانهم ويروى عن ابن عباس أنه قال سمى الانسان انسانا لأنه عهد اليه فنسى واللام فيه اما للعهد أو للجنس المقصور على المصرين حسبما ذكر فى الموصول كانه قيل ومنهم أو من أولئك والعدول الى الناس للايذان بكثرتهم كما ينبىء عنه التبعيض ومحل الظرف الرفع على أنه مبتدأ باعتبار مضمونه أو نعت لمقدر هو المبتدأ كما فى قوله عز وجل ومنا دون ذلك أى وجمع منا الخ ومن فى قوله تعالى ﴿من يقول﴾ موصولة أو موصوفة ومحلها الرفع على الخبرية والمعنى وبعض الناس أو وبعض من الناس الذى يقول كقوله تعالى ومنهم الذين يؤذون النبى الآية أو فريق يقول كقوله تعالى من المؤمنين رجال الخ على أن يكون مناط الافادة والمقصود بالاصالة اتصافهم بما فى حيز الصلة أو الصفة ومايتعلق به من الصفات جميعا لا كونهم ذوات أولئك المذكورين وأما جعل الظرف خبرا كما هو الشائع فى موارد الاستعمال فيأباه جزالة المعنى لان كونهم من الناس ظاهر فالاخبار به عار عن الفائدة كما قيل فان مبناه توهم كون المراد بالناس الجنس مطلقا وكذا مدار الجواب عنه بأن الفائدة هو التنبيه على ان الصفات المذكورة تنافى الانسانية فحق من يتصف بها أن لا يعلم كونه من الناس فيخبر به ويتعجب منه وأنت خبير بأن الناس عبارة عن المعهودين أو عن الجنس المقصور على المصرين وأياما كان فالفائدة ظاهرة بل لأن خبرية الظرف تستدعى أن يكون اتصاف هؤلاء بتلك الصفات القبيحة المفصلة فى ثلاث عشرة آية عنوانا للموضوع مفروغا عنه غير مقصود بالذات ويكون مناط الافادة كونهم من أولئك المذكورين ولا ريب لاحد فى أنه يجب حمل النظم الجليل على أجزل المعانى وأكملها وتوحيد الضمير فى يقول باعتبار لفظة من وجمعه فى قوله ﴿آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ ومابعده

باعتبار معناها والمراد باليوم الآخر من وقت الحشر الى مالا يتناهى أو الى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار اذ لاحد وراءه وتخصيصهم للايمان بهما بالذكر مع تكرير الباء لادعاء انهم قد حازوا الايمان من قطريه وأحاطوا به من طرفيه وأنهم قد آمنوا بكل منهما على الاصالة والاستحكام وقد دسوا تحته ماهم عليه من العقائد الفاسدة حيث لم يكن ايمانهم بواحد منهما ايمانا فى الحقيقة اذ كانوا مشركين بالله بقولهم عزير ابن الله وجاحدين باليوم الآخر بقولهم لن تمسنا النار الا أياما معدودة ونحو ذلك وحكاية عبارتهم لبيان كمال خبثهم ودعارتهم فان ماقالوا لو صدر عنهم لا على وجه الخداع والنفاق وعقيدتهم عقيدتهم لم يكن ذلك ايمانا فكيف وهم يقولونه تمويها على المؤمنين واستهزاء بهم ﴿وماهم بمؤمنين﴾ رد لما ادعوه ونفى لما انتحلوه وماحجازية فان جواز دخول الباء فى خبرها لتأكيد النفى اتفاقى بخلاف التميمية وايثار الجملة الاسمية على الفعلية الموافقة لدعواهم المردودة للمبالغة فى الرد بافادة انتفاء الايمان عنهم فى جميع الأزمنة لا فى الماضى فقط كما يفيده الفعلية ولا يتوهمن أن الجملة الاسمية الايجابية تفيد دوام الثبوت فعند دخول النفى عليها يتعين الدلالة على نفى الدوام فانها بمعونة المقام تدل على دوام النفى قطعا كما ان المضارع الخالى عن حرف الامتناع يدل على استمرار الوجود وعند دخول حرف الامتناع عليه يدل على استمرار الامتناع لا على امتناع الاستمرار كما فى قوله عز وجل ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى اليهم أجلهم فان عدم قضاء الأجل لاستمرار عدم التعجيل لا لعدم استمرار التعجيل واطلاق الايمان عما قيدوه به للايذان بأنهم ليسوا من جنس الايمان فى شىء أصلا فضلا عن الايمان بما ذكروا وقد جوز أن يكون المراد ذلك ويكون الاطلاق للظهور ومدلول الآية الكريمة ان من أظهر الايمان واعتقاده بخلافه لا يكون مؤمنا فلا حجة فيها على الكرامية القائلين بأن من تفوه بكلمتى الشهادة فارغ القلب عما يوافقه أو ينافيه مؤمن ﴿يخادعون الله والذين آمنوا﴾ بيان ليقول وتوضيح لما هو غرضهم مما يقولون أو استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق اليه الذهن كانه قيل مالهم يقولون ذلك وهم غير مؤمنين فقيل يخادعون الله الخ أى يخدعون وقد قرىء كذلك وايثار صيغة المفاعلة لافادة المبالغة فى الكيفية فان الفعل متى غولب فيه بولغ فيه قطعا أو فى الكمية كما فى الممارسة والمزاولة فانهم كانوا مداومين على الخدع والخدع أن يوهم صاحبه خلاف مايريد به من المكروه ليوقعه فيه من حيث لا يحتسب أو يوهمه المساعدة على مايريد هو به ليغتر بذلك فينجو منه بسهولة من قولهم ضب خادع وخدع وهو الذى اذا أمر الحارش يده على باب جحره يوهمه الاقبال عليه فيخرج من بابه الآخر وكلا المعنيين مناسب للمقام فانهم كانوا يريدون بما صنعوا أن يطلعوا على أسرار المؤمنين فيذيعوها الى المنابذين وأن يدفعوا عن أنفسهم مايصيب سائر الكفرة وأياما كان فنسبته الى الله سبحانه اما على طريق الاستعارة والتمثيل لافادة كمال شناعة جنايتهم أى يعاملون معاملة الخادعين واما على طريقة المجاز العقلى بأن ينسب اليه تعالى ماحقه أن ينسب الى الرسول صلى الله عليه وسلم ابانة لمكانته عنده تعالى كما ينبىء عنه قوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم وقوله تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله مع افادة كمال الشناعة كامر واما لمجرد التوطئة والتمهيد لما بعده من نسبته الى الذين آمنوا والايذان بقوة اختصاصهم به تعالى كما فى قوله تعالى والله ورسوله أحق أن يرضوه وقوله تعالى ان الذين يؤذون الله ورسوله وابقاء صيغة المخادعة على معناها الحقيقى بناء على زعمهم الفاسد وترجمة عن اعتقادهم الباطل كانه قيل يزعمون أنهم يخدعون الله والله يخدعهم أو على جعلها استعارة تبعية أو تمثيلا لما أن صورة صنعهم مع الله تعالى والمؤمنين وصنعه تعالى معهم باجراء أحكام الاسلام عليهم وهم عنده أخبث الكفرة وأهل الدرك الاسفل من النار استدراجا لهم وامتثال الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بامر الله تعالى فى ذلك مجازاة لهم بمثل صنيعهم صورة صنيع المتخادعين كما قيل عما لا يرتضيه

الذوق السليم أما الاول فلان المنافقين لو اعتقدوا أن الله تعالى يخدعهم بمقابلة خدعهم له لم يتصور منهم التصدى للخدع وأما الثانى فلان مقتضى المقام ايراد حالهم خاصة وتصويرها بما يليق بها من الصورة المستهجنة وبيان أن غائلتها آيلة اليهم من حيث لا يحتسبون كما يعرب عنه قوله عز وعلا ﴿ومايخدعون الا أنفسهم﴾ فالتعرض لحال الجانب الآخر مما يخل بتوفية المقام حقه وهو حال من ضمير يخادعون أى يفعلون مايفعلون والحال انهم مايضرون بذلك الا أنفسهم فان دائرة فعلهم مقصورة عليهم أو مايخدعون حقيقة الا أنفسهم حيث يغرونها بالاكاذيب فيلقونها فى مهاوى الردى وقرىء ومايخادعون والمعنى هو المعنى ومن حافظ على الصيغة فيما قبل قال وما يعاملون تلك المعاملة الشبيهة بمعاملة المخادعين الا أنفسهم لان ضررها لا يحيق الا بهم أو مايخادعون حقيقة الا أنفسهم حيث يمنونها الاباطيل وهى أيضا تغرهم وتمنيهم الامانى الفارغة وقرىء ومايخدعون من التخديع ومايخدعون أى يختدعون ويخدعون ويخادعون على البناء للمفعول ونصب أنفسهم بنزع الخافض والنفس ذات الشىء وحقيقته وقد يقال للروح لان نفس الحى به وللقلب أيضا لانه محل الروح أو متعلقه وللدم أيضا لان قوامها به وللماء أيضا لشدة حاجتها اليه والمراد هنا هو المعنى الاول لان المقصود بيان أن ضرر مخادعتهم راجع اليهم لا يتخطاهم الى غيرهم وقوله تعالى ﴿ومايشعرون﴾ حال من ضمير مايخدعون أى يقتصرون على خدع أنفسهم والحال انهم مايشعرون أى مايحسون بذلك لتماديهم فى الغواية وحذف المفعول اما لظهوره أو لعمومه أى مايشعرون بشىء أصلا جعل لحوق وبال ماصنعوا بهم فى الظهور بمنزلة الامر المحسوس الذى لا يخفى الا على مؤوف الحواس مختل المشاعر ﴿فى قلوبهم مرض﴾ المرض عبارة عما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال اللائق به ويوجب الخلل فى أفاعيله ويؤدى الى الموت استعير ههنا لما فى قلوبهم من الجهل وسوء العقيدة وعداوة النبى صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من فنون الكفر المؤدى الى الهلاك الروحانى والتنكير للدلالة على كونه نوعا مبهما غير ما يتعارفه الناس من الامراض والجملة مقررة لما يفيده قوله تعالى وماهم بمؤمنين من استمرار عدم ايمانهم أو تعليل له كانه قيل مالهم لا يؤمنون فقيل فى قلوبهم مرض يمنعه ﴿فزادهم الله مرضا﴾ بأن طبع على قلوبهم لعلمه تعالى بأنه لا يؤثر فيها التذكير والانذار والجملة معطوفة على ماقبلها والفاء للدلالة على ترتب مضمونها عليه وبه اتضح كونهم من الكفرة المختوم على قلوبهم مع زيادة بيان السبب وقيل زادهم كفرا بزيادة التكاليف الشرعية لانهم كانوا كلما ازداد التكاليف بنزول الوحى يزدادون كفرا ويجوز أن يكون المرض مستعارا لما تداخل قلوبهم من الضعف والجبن والخور عند مشاهدتهم لعزة المسلمين فزيادته تعالى اياهم مرضا مافعل بهم من القاء الروع وقذف الرعب فى قلوبهم عند اعزاز الدين بامداد النبى صلى الله عليه وسلم بانزال الملائكة وتأييده بفنون النصر والتمكين فقوله تعالى فى قلوبهم مرض الخ حينئذ استئناف تعليلى لقوله تعالى يخادعون الله الخ كانه قيل مالهم يخادعون ويداهنون ولم لا يجاهرون بما فى قلوبهم من الكفر فقيل فى قلوبهم ضعف مضاعف هذه حالهم فى الدنيا ﴿ولهم﴾ فى الآخرة ﴿عذاب أليم﴾ أى مؤلم يقال ألم وهو أليم كوجع وهو وجيع وصف به العذاب للمبالغة كما فى قوله تحية بينهم ضرب وجيع على طريقة جد جده فان الالم والوجع حقيقة للمؤلم والمضروب كما ان الجد للجاد وقيل هو بمعنى المؤلم كالسميع بمعنى المسمع وليس ذلك بثبت كما سيجىء فى قوله تعالى بديع السموات والارض ﴿بما كانوا يكذبون﴾ الباء للسببية أو للمقابلة وما مصدرية داخلة فى الحقيقة على يكذبون وكلمة كانوا مقحمة لافادة دوام كذبهم وتجدده أى بسبب كذبهم أو بمقابلة كذبهم المتجدد المستمر الذى هو قولهم آمنا بالله وباليوم الآخر وهم غير مؤمنين فانه اخبار باحداثهم الايمان فيما مضى لا انشاء للايمان ولو سلم فهو متضمن للاخبار بصدوره عنهم وليس كذلك لعدم التصديق القلبى بمعنى الاذعان والقبول قطعا

ويجوز أن يكون محمولا على الظاهر بناء على رأى من يجوز أن يكون لكان الناقصة مصدر كما صرح به فى قول الشاعر

ببذل وحلم ساد فى قومه الفتى   وكونك اياه عليك يسير

أى لهم عذاب أليم بسبب كونهم يكذبون على الاستمرار وترتيب العذاب عليه من بين سائر موجباته القوية اما لان المراد بيان العذاب الخاص بالمنافقين بناء على ظهور شركتهم للمجاهرين فيما ذكر من العذاب العظيم حسب اشتراكهم فيما يوجبه من الاصرار على الكفر كما ينبىء عنه قوله تعالى ومن الناس الخ واما للايذان بان لهم بمقابلة سائر جناياتهم العظيمة من العذاب مالا يوصف واما للرمز الى كمال سماجة الكذب نظراً الى ظاهر العبارة المخيلة لانفراده بالسببية مع احاطة علم السامع بأن لحوق العذاب بهم من جهات شتى وان الاقتصار عليه للاشعار بنهاية قبحه والتنفير عنه . عن الصديق رضى الله عنه و يروى مرفوعا أيضاً الى النبى صلى الله عليه وسلم اياكم والكذب فانه مجانب للايمان وماروى أن ابراهيم عليه السلام كذب ثلاث كذبات فالمراد به التعريض وانما سمى به لشبهه به صورة وقيل ماموصولة والعائد محذوف أى بالذى يكذبونه وقرىء يكذبون والمفعول محذوف وهو اما النبى صلى الله عليه وسلم أو القرآن ومامصدرية أى بسبب تكذيبهم اياه عليه السلام أو القرآن أو موصولة أى بالذى يكذبونه على أن العائد محذوف و يجوز أن يكون صيغة التفعيل للمبالغة كما فى بين فى بان وقلص فى قلص أو للتكثير كما فى موتت البهائم و بركت الابل وأن يكون من قولهم كذب الوحشى اذا جرى شوطا ثم وقف لينظر ماوراءه فان المنافق متوقف فى أمره متردد فى رأيه ولذلك قيل له مذبذب ﴿واذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض﴾ شروع فى تعديد بعض من قبائحهم المتفرعة على ماحكى عنهم من الكفر والنفاق واذا ظرف زمن مستقبل و يلزمها معنى الشرط غالبا و لاتدخل الا فى الامر المحقق أو المرجح وقوعه واللام متعلقة بقيل ومعناها الانهاء والتبليغ والقائم مقام فاعله جملة لاتفسدوا على أن المراد بها اللفظ وقيل هو مضمر يفسره المذكور والفساد خروج الشىء عن الحالة اللائقة به والصلاح مقابله والفساد فى الارض هيج الحروب والفتن المستتبعة لزوال الاستقامة عن أحوال العباد واختلال أمر المعاش والمعاد والمراد بما نهوا عنه ما يؤدى الى ذلك من افشاء أسرار المؤمنين الى الكفار واغرائهم عليهم وغير ذلك من فنون الشرور كما يقال للرجل لاتقتل نفسك بيدك ولا تلق نفسك فى النار اذا أقدم على ما تلك عاقبته وهو اما معطوف على يقول فان جعلت كلمة من موصولة فلا محل له من الاعراب ولا بأس بتخلل البيان أو الاستئناف وما يتعلق بهما بين أجزاء الصلة فان ذلك ليس توسيطا بالاجنبى وان جعلت موصوفة فمحله الرفع والمعنى ومن الناس من اذا نهوا من جهة المؤمنين عما هم عليه من الافساد فى الارض ﴿قالوا﴾ اراءة للناهين ان ذلك غير صادر عنهم مع أن مقصودهم الاصلى انكار كون ذلك افسادا وادعاء كونه اصلاحا محضا كما سيأتى توضيحه ﴿انما نحن مصلحون﴾ أى مقصورون على الاصلاح المحض بحيث لا يتعلق به شائبة الافساد والفساد مشيرين بكلمة انما الى أن ذلك من الوضوح بحيث لاينبغى أن يرتاب فيه واما كلام مستأنف سيق لتعديد شنائعهم واما عطفه على يكذبون بمعنى ولهم عذاب أليم بكذبهم و بقولهم حين نهوا عن الافساد انما نحن مصلحون كما قيل فيأباه ان هذا النحو من التعليل حقه أن يكون بأوصاف ظاهرة العلية مسلمة الثبوت للموصوف غنية عن البيان لشهرة الاتصاف بها عند السامع أو لسبق ذكره صريحا كما فى قوله تعالى بما كانوا يكذبون فان مضمونه عبارة عما حكى عنهم من قولهم آمنا بالله و باليوم الآخر أو لذكر ما يستلزمه استلزاما ظاهرا كما فى قوله عز وجل ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب فان ماذكر من الضلال عن سبيل الله مما يوجب حتما نسيان جانب الآخرة التى من جملتها يوم الحساب ومالم يكن كذلك فحقه أن يخبر بعليته قصدا كما فى قوله تعالى ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار الآية وقوله ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق الآية الى غير ذلك ولا ريب فى أن هذه

الشرطية وما بعدها من الشرطيتين المعطوفتين عليها ليس مضمون شىء منها معلوم الانتساب اليهم عند السامعين بوجه من الوجوه المذكورة حتى تستحق الانتظام فى سلك التعليل المذكور فاذن حقها أن تكون مسوقة على سنن تعديد قبائحهم على أحد الوجهين مفيدة لاتصافهم بكل واحد من تلك الأوصاف قصدا واستقلالا كيف لا وقوله عز وجل ﴿ألا انهم هم المفسدون﴾ ينادى بذلك نداء جليا فانه رد من جهته تعالى لدعواهم المحكية أبلغ رد وأدله على سخط عظيم حيث سلك فيه مسلك الاستئناف المؤدى الى زيادة تمكن الحكم فى ذهن السامع وصدرت الجملة بحرفى التأكيد ألا المنبهة على تحقق مابعدها فان الهمزة الانكارية الداخلة على النفى تفيد تحقيق الاثبات قطعا كما فى قوله تعالى أليس الله بكاف عبده ولذلك لايكاد يقع مابعدها من الجملة الامصدرة بما يتلقى به القسم وأختها التى هى أما من طلائع القسم وقيل هما حرفان بسيطان موضوعان للتنبيه والاستفتاح وان المقررة للنسبة وعرف الخبر ووسط ضمير الفصل لرد مافى قصر أنفسهم على الاصلاح من التعريض بالمؤمنين ثم استدرك بقوله تعالى ﴿ولكن لايشعرون﴾ للايذان بأن كونهم مفسدين من الأمور المحسوسة لكن لاحس لهم حتى يدركوه وهكذا الكلام فى الشرطيتين الآتيتين ومابعدهما من رد مضمونهما ولولا أن المراد تفصيل جناياتهم وتعديد خبائثهم وهناتهم ثم اظهار فسادها وابانة بطلانها لما فتح هذا الباب والله أعلم بالصواب ﴿واذا قيل لهم﴾ من قبل المؤمنين بطريق الأمر بالمعروف اثر نهيهم عن المنكر اتماما للنصح واكمالا للارشاد ﴿آمنوا﴾ حذف المؤمن به لظهوره أو أريد افعلوا الايمان ﴿كما آمن الناس﴾ الكاف فى محل النصب على أنه نعت لمصدر مؤكد محذوف أى آمنوا ايمانا مماثلا لايمانهم فما مصدرية أو كافة كما فى ربما فانها تكف الحرف عن العمل وتصحح دخولها على الجملة وتكون للتشبيه بين مضمونى الجملتين أى حققوا ايمانكم كما تحقق ايمانهم واللام للجنس والمراد بالناس الكاملون فى الانسانية العاملون بقضية العقل فان اسم الجنس كما يستعمل فى مسماه يستعمل فيما يكون جامعاً للمعانى الخاصة به المقصودة منه ولذلك يسلب عما ليس كذلك فيقال هو ليس بانسان وقد جمعهما من قال اذ الناس ناس والزمان زمان أو للعهد والمراد به الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه أو من آمن من أهل جلدتهم كابن سلام وأضرابه والمعنى آمنوا ايمانا مقرونا بالاخلاص متمحضا عن شوائب النفاق مماثلا لايمانهم ﴿قالوا﴾ مقابلين للامر بالمعروف بالانكار المنكر واصفين للمراجيح الرزان بضد أوصافهم الحسان ﴿أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ مشيرين باللام الى من أشير اليهم فى الناس من الكاملين أو المعهودين أو الى الجنس بأسره وهم مندرجون فيه على زعمهم الفاسد والسفه خفة وسخافة رأى يورثهما قصور العقل و يقابله الحلم والأناة وانما نسبوهم اليه مع أنهم فى الغاية القاصية من الرشد والرزانة والوقار لكمال انهماك أنفسهم فى السفاهة وتماديهم فى الغواية وكونهم ممن زين له سوء عمله فرآه حسنا فمن حسب الضلال هدى يسمى الهدى لامحالة ضلالا أو لتحقير شأنهم فان كثيرا من المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موال كصهيب و بلال أو للتجلد وعدم المبالاة بمن آمن منهم على تقدير كون المراد بالناس عبد الله بن سلام وأمثاله وأياما كان فالذى يقتضيه جزالة التنزيل و يستدعى فخامة شأنه الجليل أن يكون صدور هذا القول عنهم بمحضر من المؤمنين الناصحين لهم جوابا عن نصيحتهم وحيث كانوا لحواه تسفيه أولئك المشاهير الأعلام والقدح فى ايمانهم لزم كونهم مجاهرين لامنافقين وذلك مما لايكاد يساعده السباق والسياق وعن هذا قالوا ينبغى أن يكون ذلك فيما بينهم لا على وجه المؤمنين قال الامام الواحدى انهم كانوا يظهرون هذا القول فيما بينهم لاعند المؤمنين فأخبر الله تعالى نبيه عليه السلام والمؤمنين بذلك عنهم وأنت خبير بأن ابراز ماصدر عن أحد المتحاورين فى الخلاء فى معرض ماجرى بينهما فى مقام المحاورة مما لاعهد به فى الكلام فضلا عما هو فى منصب الاعجاز فالحق الذى لامحيد عنه أن قولهم هذا وان صدر عنهم

بمحضر من الناصحين لا يقتضى كونهم مجاهرين فانه ضرب من الكفر أنيق وفن فى النفاق عريق مصنوع على شاكلة قولهم واسمع غير مسمع فكما انه كلام ذو وجهين مثلهم محتمل للشر بأن يحمل على معنى اسمع منا غير مسمع كلاما ترضاه ونحوه وللخير بأن يحمل على معنى اسمع غير مسمع مكروها كانوا يخاطبون به رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء به مظهرين ارادة المعنى الأخير وهم مضمرون فى أنفسهم المعنى الأول مطمئنون به ولذلك نهوا عنه كذلك هذا الكلام محتمل للشر كما ذكر فى تفسيره وللخير بأن يحمل على ادعاء الايمان كايمان الناس وانكار ما اتهموا به من النفاق على معنى أنؤمن كما آمن السفهاء والمجانين الذين لا اعتداد بايمانهم لو آمنوا أو لا نؤمن كايمان الناس حتى تأمرونا بذلك قد خاطبوا به الناصحين استهزاء بهم مرائين لارادة المعنى الأخير وهم معولون على الأول فرد عليهم ذلك بقوله عز قائلا ﴿ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾ أبلغ رد وجهلوا أشنع تجهيل حيث صدرت الجملة بحرفى التأكيد حسبما أشير اليه فيما سلف وجعلت السفاهة مقصورة عليهم وبالغة الى حيث لا يدرون انهم سفهاء وعن هذا اتضح لك سر مامر فى تفسير قوله تعالى انما نحن مصلحون فان حمله على المعنى الأخير كما هو رأى الجمهور مناف لحالهم ضرورة ان مشاقتهم للناصحين بادعاء كون مانهوا عنه من الافساد اصلاحا كامر اظهار منهم للشقاق وبروز باشخاصهم من نفق النفاق والاعتذار بأن المراد بما نهوا عنه مداراتهم للشركين كما ذكر فى بعض التفاسير وبالاصلاح الذى يدعونه اصلاح ما بينهم وبين المؤمنين وأن معنى قوله تعالى ألا انهم هم المفسدون أنهم فى تلك المعاملة مفسدون لمصالح المؤمنين لاشعارها باعطاء الدنية وانبائها عن ضعفهم الملجىء الى توسيط من يتصدى لاصلاح ذات البين فضلا عن كونهم مصلحين مما لا سبيل اليه قطعا فان قوله تعالى ولكن لا يشعرون ناطق بفساده كيف لا وانه يقتضى أن يكون المنافقون فى تلك الدعوى صادقين قاصدين للاصلاح ويأتيهم الافساد من حيث لا يشعرون ولا ريب فى أنهم فيها كاذبون لا يعاشرونهم الا مضارة للدين وخيانة للمؤمنين فاذن طريق حل الاشكال ليس الا ما أشير اليه فان قولهم انما نحن مصلحون محتمل للحمل على الكذب وانكار صدور الافساد المنسوب اليهم عنهم على معنى انما نحن مصلحون لا يصدر عنا ما تنهوننا عنه من الافساد وقد خاطبوا به الناصحين استهزاء بهم وارائة لارادة هذا المعنى وهم معرجون على المعنى الأول فرد عليهم بقوله تعالى ألا انهم هم المفسدون الآية والله سبحانه أعلم بما أودعه فى تضاعيف كتابه المكنون من السر المخزون نسأله العصمة والتوفيق والهداية الى سواء الطريق وتفصيل هذه الآية الكريمة بلا يعلمون لما انه أكثر طباقا لذكر السفه الذى هو فن من فنون الجهل ولان الوقوف على أن المؤمنين ثابتون على الحق وهم على الباطل منوط بالتمييز بين الحق والباطل وذلك مما لا يتسنى الا بالنظر والاستدلال وأما النفاق وما فيه من الفتنة والافساد وما يترتب عليه من كون من يتصف به مفسدا فأمر بديهى يقف عليه من له شعور ولذلك فصلت الآية الكريمة السابقة بلا يشعرون ﴿واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾ بيان لتباين أحوالهم وتناقض أقوالهم فى أثناء المعاملة والمخاطبة حسب تباين المخاطبين ومساق ما صدرت به قصتهم لتحرير مذهبهم والترجمة عن نفاقهم ولذلك لم يتعرض ههنا لمتعلق الايمان فليس فيه شائبة التكرير . روى أن عبد الله بن أبى وأصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من الصحابة فقال ابن أبى انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم فلما دنوا منهم أخذ بيد أبى بكر رضى الله عنه فقال مرحبا بالصديق سيد بنى تيم وشيخ الاسلام وثانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار الباذل نفسه وماله لرسول الله ثم أخذ بيد عمر رضى الله عنه فقال مرحبا بسيد بنى عدى الفاروق القوى فى دينه الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذ بيد على كرم الله وجهه فقال مرحبا بابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه وسيد بنى هاشم ماخلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وقيل قال له على رضى الله عنه يا عبد الله اتق الله ولا تنافق فان المنافقين شر خلق الله تعالى فقال له مهلا يا أبا الحسن

أفى تقول هذا والله ان ايماننا كايمانكم وتصديقنا كتصديقكم ثم افترقوا فقال ابن أبى لاصحابه كيف رأيتمونى فعلت فاذا رأيتموهم فافعلوا مثل ما فعلت فأثنوا عليه خيرا وقالوا مانزال بخير ماعشت فينا فرجع المسلمون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروه بذلك فنزلت واللقاء المصادفة يقال لقيته ولاقيته أى صادفته واستقبلته وقرىء اذا لاقوا ﴿واذا خلوا﴾ من خلوت الى فلان أى انفردت معه وقد يستعمل بالباء أو من خلا بمعنى مضى ومنه القرون الخالية وقولهم خلاك ذم أى جاوزك ومضى عنك وقد جوز كونه من خلوت به اذا سخرت منه على أن تعديته بالى فى قوله تعالى ﴿الى شياطينهم﴾ لتضمنه معنى الانهاء أى واذا أنهوا اليهم السخرية الخ وأنت خبير بأن تقييد قولهم المحكى بذلك الانهاء مما لا وجه له والمراد بشياطينهم المماثلون منهم للشيطان فى التمرد والعناد المظهرون لكفرهم واضافتهم اليهم للمشاركة فى الكفر أو كبار المنافقين والقائلون صغارهم وجعل سيبويه نون الشيطان تارة أصلية فوزنه فيعال على أنه من شطن اذا بعد فانه بعيد من الخير والرحمة ويشهد له قولهم تشيطن وأخرى زائدة فوزنه فعلان على أنه من شاط أى هلك أو بطل ومن أسمائه الباطل وقيل معناه هاج واحترق ﴿قالوا إنا معكم﴾ أى فى الدين والاعتقاد لا نفارقكم فى حال من الأحوال وانما خاطبوهم بالجملة الاسمية المؤكدة لان مدعاهم عندهم تحقيق الثبات على ما كانوا عليه من الدين والتأكيد للانباء عن صدق رغبتهم ووفور نشاطهم لا لانكار الشياطين بخلاف معاملتهم مع المؤمنين فانهم انما يدعون عندهم احداث الايمان لجزمهم بعدم رواج ادعاء الكمال فيه أو الثبات عليه ﴿انما نحن﴾ أى فى اظهار الايمان عند المؤمنين ﴿مستهزؤن﴾ بهم من غير أن يخطر ببالنا الايمان حقيقة وهو استئناف مبنى على سؤال ناشىء من ادعاء المعية كأنه قيل لهم عند قولهم انا معكم فما بالكم توافقون المؤمنين فى الاتيان بكلمة الايمان فقالوا انما نحن مستهزؤن بهم فلا يقدح ذلك فى كوننا معكم بل يؤكده وقد ضمنوا جوابهم أنهم يهينون المؤمنين ويعدون ذلك نصرة لدينهم أو تأكيد لما قبله فان المستهزىء بالشىء مصر على خلافه أو بدل منه لان من حقر الاسلام فقد عظم الكفر والاستهزاء بالشىء السخرية منه يقال هزأت واستهزأت بمعنى وأصله الخفة من الهزء وهو القتل السريع وهزأ يهزأ مات على مكانه وتهزأ به ناقته أى تسرع به وتخف ﴿الله يستهزىء بهم﴾ أى يجازيهم على استهزائهم سمى جزاؤه باسمه كما سمى جزاء السيئة سيئة اما للمشاكلة فى اللفظ أو المقارنة فى الوجود أو يرجع وبال الاستهزاء عليهم فيكون كالمستهزىء بهم أو ينزل بهم الحقارة والهوان الذى هو لازم الاستهزاء أو يعاملهم معاملة المستهزىء بهم أما فى الدنيا فباجراء أحكام المسلمين عليهم واستدراجهم بالامهال والزيادة فى النعمة على التمادى فى الطغيان وأما فى الآخرة فبما يروى أنه يفتح لهم باب الى الجنة فيسرعون نحوه فاذا صاروا اليه سد عليهم الباب وذلك قوله تعالى فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون وانما استؤنف للايذان بأنهم قد بلغوا فى المبالغة فى استهزاء المؤمنين الى غاية ظهرت شناعته عند السامعين وتعاظم ذلك عليهم حتى اضطرهم الى أن يقولوا ما مصير أمر هؤلاء وما عاقبة حالهم وفيه أنه تعالى هو الذى يتولى أمرهم ولا يحوجهم الى المعارضة بالمثل ويستهزىء بهم الاستهزاء الأبلغ الذى ليس استهزاؤهم عنده من باب الاستهزاء حيث ينزل بهم من النكال ويحل عليهم من الذل والهوان ما لا يوصف وايثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار كما يعرب عنه قوله عز قائلا أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين وما كانوا خالين فى أكثر الاوقات من تهتك أستار وتكشف اسرار ونزول فى شأنهم واستشعار حذر من ذلك كما أنبأ عنه قوله عز وجل يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل استهزؤا ان الله مخرج ما تحذرون ﴿ويمدهم﴾ أى يزيدهم ويقويهم من مد الجيش وأمده اذا زاده وقواه ومنه مددت الدواة والسراج اذا اصلحتهما بالحبر والزيت وايثاره على يزيدهم للرمز الى أن ذلك منوط بسوء اختيارهم لما أنه انما

يتحقق عند الاستمداد وما يجرى مجراه من الحاجة الداعية اليه كما فى الامثلة المذكورة وقرئ يمدهم من الامداد وهو صريح فى أن القراءة المشهورة ليست من المد فى العمر على أنه يستعمل باللام كالاملاء قال تعالى ونمد له من العذاب مدا وحذف الجار وايصال الفعل الى الضمير خلاف الاصل لا يصار اليه الا بدليل ﴿فى طغيانهم﴾ متعلق بيمدهم والطغيان مجاوزة الحد فى كل أمر والمراد افراطهم فى العتو وغلوهم فى الكفر وقرئ بكسر الطاء وهى لغة فيه كلقيان لغة فى لقيان وفى اضافته اليهم ايذان باختصاصه بهم وتأييد لما أشير اليه من ترتب المد على سوء اختيارهم ﴿يعمهون﴾ حال من الضمير المنصوب أو المجرور لكون المضاف مصدرا فهو مرفوع حكما والعمه فى البصيرة كالعمى فى البصر وهو التحير والتردد بحيث لا يدرى أين يتوجه واسناد هذا المد الى الله تعالى مع اسناده فى قوله تعالى واخوانهم يمدونهم فى الغى محقق لقاعدة أهل الحق من أن جميع الاشياء مستندة من حيث الخلق اليه سبحانه وان كانت أفعال العباد من حيث الكسب مستندة اليهم والمعتزلة لما تعذر عليهم اجراء النظم الكريم على مسلكهم نكبوا الى شعاب التأويل فأجابوا أولا بأنهم لما أصروا على كفرهم خذلهم الله تعالى ومنعهم ألطافه فتزايد الرين فى قلوبهم فسمى ذلك مددا فى الطغيان فأسند ايلاؤه اليه تعالى ففى المسند مجاز لغوى وفى الاسناد عقلى لانه اسناد للفعل الى المسبب له وفاعله الحقيق هم الكفرة وثانيا بأنه أريد بالمد فى الطغيان ترك القسر والالجاء الى الايمان كما فى قوله تعالى ونذرهم فى طغيانهم يعمهون فالمجاز فى المسند فقط وثالثا بأن المراد به معناه الحقيق وهو فعل الشيطان لكنه أسند اليه سبحانه مجازا لانه بتمكينه تعالى واقداره ﴿أولـئـك﴾ اشارة الى المذكورين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات الشنيعة المميزة لهم عن عداهم أكمل تمييز بحيث صاروا كأنهم حضار مشاهدون على ماهم عليه وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الشر وسوء الحال ومحله الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى ﴿الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ والجملة مسوقة لتقرير ماقبلها وبيان لكمال جهالتهم فيما حكى عنهم من الاقوال والافعال باظهار غاية سماجتها وتصويرها بصورة مالا يكاد يتعاطاه من له أدنى تمييز فضلا عن العقلاء والضلالة الجور عن القصد والهدى التوجه اليه وقد استعير الاول للعدول عن الصواب فى الدين والثانى للاستقامة عليه والاشتراء استبدال السلعة بالثمن أى أخذها به لا بذله لتحصيلها كما قيل وان كان مستلزما له فان المعتبر فى عقد الشراء ومفهومه هو الجلب دون السلب الذى هو المعتبر فى عقد البيع ثم استعير لاخذ شئ باعطاء مافى يده عينا كان كل منهما أو معنى لا للاعراض عما فى يده محصلا به غيره كما قيل وان استلزمه لما مر سره ومنه قوله

أخذت بالجمة رأسا أزعرا وبالثنايا الواضحات الدردرا
وبالطويل العمر عمرا جيدرا كما اشترى المسلم اذ تنصرا

فاشتراء الضلالة بالهدى مستعار لاخذها بدلا منه أخذا منوطا بالرغبة فيها والاعراض عنه ولما اقتضى ذلك أن يكون مايجرى مجرى الثمن حاصلا للكفرة قبل العقد ومايجرى مجرى المبيع غير حاصل لهم اذ ذاك حسبما هو فى البيت ولا ريب فى أنهم بمعزل من الهدى مستمرون على الضلالة استدعى الحال تحقيق ماجرى مجرى العوضين فنقول وبالله التوفيق ليس المراد بما تعلق به الاشتراء ههنا جنس الضلالة الشاملة لجميع أصناف الكفرة حتى تكون حاصلة لهم من قبل بل هو فردها الكامل الخاص بهؤلاء على ان اللام للعهد وهو عمههم المقرون بالمد فى الطغيان المترتب على ماحكى عنهم من القبائح وذلك انما يحصل لهم عند اليأس عن اهتدائهم والختم على قلوبهم وكذا ليس المراد بما فى حيز الثمن نفس الهدى بل هو التمكن التام منه بتعاضد الاسباب وتآخذ المقدمات المستتبعة له بطريق الاستعارة كأنه نفس الهدى بجامع المشاركة فى استتباع الجدوى ولا مرية فى أن هذه المرتبة من التمكن كانت حاصلة لهم بما شاهدوه من الآيات الباهرة والمعجزات

القاهرة من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم وبما سمعوه من نصائح المؤمنين التى من جملتها ماحكى من النهى عن الافساد فى الارض والامر بالايمان الصحيح وقد نبذوها وراء ظهورهم وأخذوا بدلها الضلالة الهائلة التى هى العمه فى تيه الطغيان وحمل الهدى على الفطرة الاصلية الحاصلة لكل أحد يأباه أن اضاعتها غير مختصة بهؤلاء ولئن حملت على الاضاعة التامة الواصلة الى حد الختم على القلوب المختصة بهم فليس فى اضاعتها فقط من الشناعة مافى اضاعتها مع مايؤيدها من المؤيدات العقلية والنقلية على ان ذلك يفضى الى كون ذكر مافصل من أول السورة الكريمة الى هنا ضائعا وأبعد منه حمل اشتراء الضلالة بالهدى على مجرد اختيارها عليه من غير اعتبار كونه فى أيديهم بناء على أنه يستعمل اتساعا فى ايثار أحد الشيئين الكائنين فى شرف الوقوع على الآخر فانه مع خلوه عن المزايا المذكورة بالمرة مخل برونق الترشيح الآتى هذا على تقدير جعل الاشتراء المذكور عبارة عن معاملتهم السابقة المحكية وهو الانسب بتجاوب أطراف النظم الكريم وأما اذا جعل ترجمة عن جناية أخرى من جناياتهم فالمراد بالهدى ما كانوا عليه من معرفة صحة نبوة النبى صلى الله عليه وسلم وحقية دينه بما كانوا يشاهدونه من نعوته عليه الصلاة والسلام فى التوراة وقد كانوا على يقين منه حتى كانوا يستفتحون به على المشركين ويقولون اللهم انصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد نعته فى التوراة ويقولون لهم قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ماقلنا فنقتلكم معه قتل عاد وارم فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به كما سيأتى ولا مساغ لحمل الهدى على ما كانوا يظهرونه عند لقاء المؤمنين فانها ضلالة مضاعفة ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ عطف على الصلة داخل فى حيزها والفاء للدلالة على ترتب مضمونه عليها والتجارة صناعة التجار وهو التصدى للبيع والشراء لتحصيل الربح وهو الفضل على رأس المال يقال ربح فلان فى تجارته أى استشف فيها وأصاب الربح واسناد عدمه الذى هو عبارة عن الخسران اليها وهو لاربابها بناء على التوسع المبنى على ما بينهما من الملابسة وفائدته المبالغة فى تخسيرهم لما فيه من الاشعار بكثرة الخسار وعمومه المستتبع لسرايته الى ما يلابسهم وايرادهما اثر الاشتراء المستعار للاستبدال المذكور ترشيح للاستعارة وتصوير لما فاتهم من فوائد الهدى بصورة خسار التجارة الذى يتحاشى عنه كل أحد للاشباع فى التخسير والتحسير ولا ينافى ذلك أن التجارة فى نفسها استعارة لانهما كهم فيما هم عليه من ايثار الضلالة على الهدى وتمرنهم عليه معربة عن كون ذلك صناعة لهم راسخة اذ ليس من ضروريات الترشيح أن يكون باقيا على الحقيقة تابعا للاستعارة لا يقصد به الا تقويتها كما فى قولك رأيت أسدا وافى البراثن فانك لا تريد به الا زيادة تصوير للشجاع وأنه أسد كامل من غير أن تريد بلفظ البراثن معنى آخر بل قد يكون مستعارا من ملائم المستعار منه لملائم المستعار له ومع ذلك يكون ترشيحا لأصل الاستعارة كما فى قوله

فلما رأيت النسر عز ابن دأية وعشش فى وكريه جاش له صدرى

فان لفظ الوكرين مع كونه مستعارا من معناه الحقيق الذى هو موضع يتخذه الطائر للتفريخ للرأس واللحية أو للفودين أعنى جانبى الرأس ترشيح باعتبار معناه الأصلى لاستعارة لفظ النسر للشيب ولفظ ابن دأية للشعر الأسود وكذا لفظ التعشيش مع كونه مستعارا للحلول والنزول المستمرين ترشيح لتينك الاستعارتين بالاعتبار المذكور وقرئ تجاراتهم وتعددها لتعدد المضاف اليهم ﴿وما كانوا مهتدين﴾ أى الى طرق التجارة فان المقصود منها سلامة رأس المال مع حصول الربح ولئن فات الربح فى صفقة فربما يتدارك فى صفقة أخرى لبقاء الأصل وأما اتلاف الكل بالمرة فليس من باب التجارة قطعا فهؤلاء الذين كان رأس مالهم الهدى قد استبدلوا بها الضلالة فأضاعوا كلتا الطلبتين فبقوا خائبين خاسرين نائين عن طريق التجارة بألف منزل فالجملة راجعة الى الترشيح معطوفة على ماقبلها مشاركة له فى الترتب على الاشتراء المذكور والأولى عطفها على اشتروا الخ ﴿مثلهم﴾ زيادة كشف لحالهم وتصوير لها غب تصويرها بصورة مايؤدى الى

الخسار بحسب المآل بصورة ما يفضى الى الخسار من حيث النفس تهويلا لها وابانة لفظاعتها فان التمثيل ألطف ذريعة الى تسخير الوهم للعقل واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه وأقوى وسيلة الى تفهيم الجاهل الغبي وقمع سورة الجامع الأبى كيف لا وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية وابرازها فى معرض المحسوسات الجلية وابداء للمنكر فى صورة المعروف واظهار للوحشى فى هيئة المألوف والمثل فى الأصل بمعنى المثل والنظير يقال مثل ومثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه ثم أطلق على القول السائر الذى يمثل مضربه بمورده وحيث لم يكن ذلك الاقولا بديعا فيه غرابة صيرته جديرا بالتسيير فى البلاد وخليقا بالقبول فيما بين كل حاضر وباد استعير لكل حال أوصفة أوقصة لها شأن عجيب وخطر غريب من غير أن يلاحظ بينها و بين شىء آخر تشبيه ومنه قوله عز وجل ولله المثل الأعلى أى الوصف الذى له شأن عظيم وخطر جليل وقوله تعالى مثل الجنة التى وعد المتقون أى قصتها العجيبة الشأن ﴿كمثل الذى﴾ أى الذين كما فى قوله تعالى وخضتم كالذى خاضوا خلا أنه وحد الضمير فى قوله تعالى ﴿استوقد نارا﴾ نظرا الى الصورة وانما جاز ذلك مع عدم جواز وضع القائم مقام القائمين لأن المقصود بالوصف هى الجملة الواقعة صلة له دون نفسه بل انما هو وصلة لوصف المعارف بها و لأنه حقيق بالتخفيف لاستطالته بصلته و لذلك بولغ فيه فحذف ياؤه ثم كسرته ثم اقتصر على اللام فى أسماء الفاعلين والمفعولين و لأنه ليس باسم تام بل هو كجزئه فحقه أن لا يجمع و يستوى فيه الواحد والمتعدد كما هو شأن أخواته وليس الذين جمعه المصحح بل النون فيه مزيدة للدلالة على زيادة المعنى ولذلك جاء بالياء أبدا على اللغة الفصيحة أو قصد به جنس المستوقد أو الفوج أو الفريق المستوقد والنار جوهر لطيف مضىء حار محرق واشتقاقها من نار ينور اذا نفر لان فيها حركة واضطرابا واستيقادها طلب وقودها أى سطوعها وارتفاع لهبها وتنكيرها للتفخيم ﴿فلما أضاءت ماحوله﴾ الاضاءة فرط الانارة كما يعرب عنه قوله تعالى هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وتجىء متعدية و لازمة والفاء للدلالة على ترتبها على الاستيقاد أى فلما أضاءت النار ما حول المستوقد أو فلما أضاء ماحوله والتأنيث لكونه عبارة عن الاماكن والاشياء أو أضاءت النار نفسها فيما حوله على أن ذلك ظرف لاشراق النار المنزل منزلتها لا لنفسها أو ما مزيدة وحوله ظرف وتأليف الحول للدوران وقيل للعام حول لانه يدور ﴿ذهب الله بنورهم﴾ النور ضوء كل نير واشتقاقه من النار والضمير للذى والجمع باعتبار المعنى أى أطفأ الله نارهم التى هى مدار نورهم وانما علق الاذهاب بالنور دون نفس النار لانه المقصود بالاستيقاد لا الاستدفاء ونحوه كما ينبىء عنه قوله تعالى فلما أضاءت حيث لم يقل فلما شب ضرامها أو نحو ذلك وهو جواب لما أو استئناف اجيب به عن سؤال سائل يقول ما بالهم أشبهت حالهم حال مستوقد انطفأت ناره أو بدل من جملة التمثيل على وجه البيان والضمير على الوجهين للمنافقين والجواب محذوف كما فى قوله تعالى فلما ذهبوا به للايجاز والأمن من الالباس كأنه قيل فلما أضاءت ماحوله خمدت فبقوا فى الظلمات خابطين متحيرين خائبين بعد الكدح فى احيائها واسناد الاذهاب الى الله تعالى اما لان الكل بخلقه تعالى واما لان الانطفاء حصل بسبب خفى أو أمر سماوى كريح أو مطر واما للمبالغة كما يؤذن به تعدية الفعل بالباء دون الهمزة لما فيه من معنى الاستصحاب والامساك يقال ذهب السلطان بماله اذا أخذه وما أخذه الله عز وجل فأمسكه فلا مرسل له من بعده و لذلك عدل عن الضوء الذى هو مقتضى الظاهر الى النور لان ذهاب الضوء قد يجامع بقاء النور فى الجملة لعدم استلزام عدم القوى لعدم الضعيف والمراد ازالته بالكلية كما يفصح عنه قوله تعالى ﴿وتركهم فى ظلمات لا يبصرون﴾ فان الظلمة التى هى عدم النور وانطماسه بالمرة لاسيما اذا كانت متضاعفة متراكمة متراكبا بعضها على بعض كما يفيده الجمع والتنكير التفخيمى ومابعدها من قوله تعالى لا يبصرون لا يتحقق الابعد أن لا يبقى من النور عين و لا أثر واما لان المراد بالنور مالا يرضى به الله تعالى من النار المجازية التى هى

نار الفتنة والفساد كما فى قوله تعالى كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله و وصفها باضاءة ماحول المستوقد من باب الترشيح أو النار الحقيقية التى يوقدها الغواة ليتوصلوا بها الى بعض المعاصى و يهتدوا بها فى طرق العيث والفساد فأطفأها الله تعالى وخيب آمالهم وترك فى الاصل بمعنى طرح وخلى و له مفعول واحد فضمن معنى التصيير فجرى مجرى أفعال القلوب قال

فتركته جزر السباع ينشنه يقضمن حسن بنانه والمعصم

والظلمة مأخوذة من قولهم ماظلمك أن تفعل كذا أى ما منعك لانها تسد البصر وتمنعه من الرؤية وقرىء فى ظلمات بسكون اللام وفى ظلمة بالتوحيد ومفعول لا يبصرون من قبيل المطروح كان الفعل غير متعد والمعنى ان حالهم العجيبة التى هى اشتراؤهم الضلالة التى هى عبارة عن ظلمتى الكفر والنفاق المستتبعتين لظلمة سخط الله تعالى وظلمة يوم القيامة يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم و بأيمانهم وظلمة العقاب السرمدى بالهدى الذى هو النور الفطرى المؤيد بما شاهدوه من دلائل الحق أو بالهدى الذى كانوا حصلوه من التوراة حسبما ذكر كحال من استوقد نارا عظيمة حتى كاد ينتفع بها فأطفأها الله تعالى وتركه فى ظلمات هائلة لا يتسنى فيها الابصار ﴿صم بكم عمى﴾ اخبار لمبتدا محذوف هو ضمير المنافقين أو خبر واحد بالتأويل المشهور كما فى قولهم هذا حلو حامض والصمم آفة مانعة من السماع وأصله الصلابة واكتناز الاجزاء ومنه الحجر الاصم والقناة الصماء وصمام القارورة سدادها سمى به فقدان حاسة السمع لما أن سببه اكتناز باطن الصماخ وانسداد منافذه بحيث لا يكاد يدخله هواء يحصل الصوت بتموجه والبكم الخرس والعمى عدم البصر عما من شأنه أن يبصر وصفوا بذلك مع سلامة مشاعرهم المعدودة لما أنهم حيث سدوا مسامعهم عن الاصاخة لما يتلى عليهم من الآيات والذكر الحكيم وأبوا أن يتلقوها بالقبول و ينطقوا بها ألسنتهم ولم يجتلوا ماشاهدوا من المعجزات الظاهرة على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينظروا الى آيات التوحيد المنصوبة فى الآفاق والأنفس بعين التدبر وأصروا على ذلك بحيث لم يبق لهم احتمال الارعواء عنه صاروا كفاقدى تلك المشاعر بالكلية وهذا عند مفلق سحرة البيان من باب التمثيل البليغ المؤسس على تناسى التشبيه كما فى قول من قال

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة فى السماء

لما أن المقدر فى النظم فى حكم الملفوظ لا من قبيل الاستعارة التى يطوى فيها ذكر المستعار له بالكلية حتى لو لم يكن هناك قرينة لحمل على المعنى الحقيقى كما فى قول زهير

لدى أسد شاكى السلاح مقذف له لبد أظفاره لم تقلم

﴿فهم لا يرجعون﴾ الفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها أى هم بسبب اتصافهم بالصفات المذكورة لا يعودون الى الهدى الذى تركوه وضيعوه أو عن الضلالة التى أخذوها والآية نتيجة للتمثيل مفيدة لزيادة تهويل وتفظيع فان قصارى أمر التمثيل بقاؤهم فى ظلمات هائلة من غير تعرض لمشعرى السمع والنطق و لاختلال مشعر الابصار وقيل الضمير المقدر وما بعده للموصول باعتبار المعنى كالضمائر المتقدمة فالآية الكريمة تتمة للتمثيل وتكميل له بأن ما أصابهم ليس مجرد انطفاء نارهم و بقائهم فى ظلمات كثيفة هائلة مع بقاء حاسة البصر بحالها بل اختلت مشاعرهم جميعا واتصفوا بتلك الصفات على طريقة التشبيه أو الحقيقة فبقوا جامدين فى مكاناتهم لا يرجعون و لا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون وكيف يرجعون الى ما ابتدؤا منه والعدول الى الجملة الاسمية للدلالة على استمرار تلك الحالة فيهم وقرىء صما بكما عميا اما على الذم كما فى قوله تعالى حمالة الحطب والمخصوص بالذم هم المنافقون أو المستوقدون واما على الحالية من الضمير المنصوب فى تركهم أو المرفوع فى لا يبصرون واما على المفعولية لتركهم فالضميران للمستوقدين ﴿أو كصيب﴾ تمثيل لحالهم اثر تمثيل ليعم البيان منها كل دقيق وجليل و يوفى حقها من التفظيع والتهويل فان تفننهم فى فنون الكفر والضلال

وتنقلهم فيها من حال الى حال حقيق بأن يضرب فى شأنه الامثال و يرخى فى حلبته أعنة المقال و يمد لشرحه أطناب الاطناب و يعقد لأجله فصول وأبواب لما أن كل كلام له حظ من البلاغة وقسط من الجزالة والبراعة لابد أن يوفى فيه حق كل من مقامى الاطناب والايجاز فما ظنك بما فى ذروة الاعجاز من التنزيل الجليل ولقد نعى عليهم فى هذا التمثيل تفاصيل جناياتهم وهو عطف على الاول على حذف المضاف لما سيأتى من الضمائر المستدعية لذلك أى كمثل ذوى صيب وكلمة أو للايذان بتساوى القصتين فى الاستقلال بوجه التشبيه و بصحة التمثيل بكل واحدة منهما و بهما معا والصيب فيعل من الصوب وهو النزول الذى له وقع وتأثير يطلق على المطر وعلى السحاب قال الشماخ

عفا آيه نسج الجنوب مع الصبا وأسحم دان صادق الوعد صيب

ولعل الاول هو المراد ههنا لاستلزامه الثانى وتنكيره لما أنه أريد به نوع منه شديد هائل كالنار فى التمثيل الأول وأمد به مافيه من المبالغات من جهة مادته الاولى التى هى الصاد المستعلية والياء المشددة والباء الشديدة ومادته الثانية أعنى الصوب المنبئ عن شدة الانسكاب ومن جهة بنائه الدال على الثبات وقرئ أو كصائب ﴿من السماء﴾ متعلق بصيب أو بمحذوف وقع صفة له والمراد بالسماء هذه المظلة وهى فى الاصل كل ماعلاك من سقف ونحوه وعن الحسن انها موج مكفوف أى ممنوع بقدرة الله عز وجل من السيلان وتعريفها للايذان بأن انبعاث الصيب ليس من أفق واحد فان كل أفق من آفاقها أى كل مايحيط به كل أفق منها سماء على حدة قال ومن بعد أرض بيننا وسماء كما أن كل طبقة من طباقها سماء قال تعالى وأوحى فى كل سماء أمرها والمعنى انه صيب عام نازل من غمام مطبق آخذ بالآفاق وقيل المراد بالسماء السحاب واللام لتعريف الماهية ﴿فيه ظلمات﴾ أى أنواع منها وهى ظلمة تكاثفه وانتساجه بتتابع القطر وظلمة اظلال مايلزمه من الغمام الاسحم المطبق الآخذ بالآفاق مع ظلمة الليل وجعله محلا لها مع أن بعضها لغيره كظلمتى الغمام والليل لما أنهما جعلتا من توابع ظلمته مبالغة فى شدته وتهويلا لامره وايذانا بانه من الشدة والهول بحيث تغمر ظلمته ظلمات الليل والغمام وهو السر فى عدم جعل الظلمات هو الاصل المستتبع للبواقى مع ظهور ظرفيتها للكل اذ لو قيل أو كظلمات فيها صيب الخ لما أفاد أن للصيب ظلمة خاصة بفضلا عن كونها غالبة على غيرها ﴿ورعد﴾ وهو صوت يسمع من السحاب والمشهور أنه يحدث من اصطكاك أجرام السحاب بعضها ببعض أو من انقلاع بعضها عن بعض عند اضطرابها بسوق الرياح اياه سوقا عنيفا ﴿وبرق﴾ وهو مايلمع من السحاب من برق الشئ بريقا أى لمع وكلاهما فى الاصل مصدر ولذلك لم يجمعا وكونهما فى الصيب باعتبار كونهما فى أعلاه ومصبه و وصول أثرهما اليه وكونهما فى الظلمات الكائنة فيه والتنوين فى الكل للتفخيم والتهويل كأنه قيل فيه ظلمات شديدة داجية ورعد قاصف وبرق خاطف وارتفاع الجميع بالظرف على الفاعلية لتحقق شرط العمل بالاتفاق وقيل بالابتداء والجملة اما صفة لصيب أو حال منه لتخصصه بالصفة أو بالعمل فيما بعده من الجار أو من المستكن فى الظرف الاول على تقدير كونه صفة لصيب والضمائر فى قوله عز وجل ﴿يجعلون أصابعهم فى آذانهم﴾ للمضاف الذى أقيم مقامه المضاف اليه فان معناه باق وان حذف لفظه تعويلا على الدليل كما فى قوله تعالى وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أوهم قائلون فان الضمير للاهل المدلول عليه بما قام مقامه من القرية قال حسان رضى الله عنه

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

فان تذكير الضمير المستكن فى يصفق لرجوعه الى الماء المضاف الى بردى والا لأنث حتما وايثار الجعل المنبئ عن دوام الملابسة واستمرار الاستقرار على الادخال المفيد لمجرد الانتقال من الخارج الى الداخل للمبالغة فى بيان سد المسامع

باعتبار الزمان كما أن ايراد الاصابع بدل الانامل للاشباع فى بيان سدها باعتبار الذات كأنهم سدوها بجملتها لا بأناملها فحسب كما هو المعتاد ويجوز أن يكون هذا ايماء الى كمال حيرتهم وفرط دهشتهم وبلوغهم الى حيث لايهتدون الى استعمال الجوارح على النهج المعتاد وكذا الحال فى عدم تعيين الاصبع المعتاد أعنى السبابة وقيل ذلك لرعاية الادب والجملة استئناف لامحل لها من الاعراب مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل عند بيان أحوالهم الهائلة فماذا يصنعون فى تضاعيف تلك الشدة فقيل يجعلون الخ وقوله تعالى ﴿من الصواعق﴾ متعلق بيجعلون أى من أجل الصواعق المقارنة للرعد من قولهم سقاه من العيمة والصاعقة قصفة رعد هائل تنقض معها شقة نار لاتمر بشئ الا أتت عليه من الصعق وهو شدة الصوت وبناؤها اما أن يكون صفة لقصفة الرعد أو للرعد والتاء للمبالغة كما فى الرواية أو مصدرا كالعافية وقد تطلق على كل هائل مسموع أو مشاهد يقال صعقته الصاعقة اذا أهلكته بالاحراق أو بشدة الصوت وسد الآذان انما يفيد على التقدير الثانى دون الاول وقرئ من الصواقع وليس ذلك بقلب من الصواعق لاستواء كلا البناءين فى التصرف يقال صقع الديك وخطيب مصقع أى مجهر بخطبته ﴿حذر الموت﴾ منصوب بيجعلون على العلة وان كان معرفة بالاضافة كقوله وأغفر عوراء الكريم ادخاره وأصفح عن شتم اللئيم تكرما

ولاضير فى تعدد المفعول له فان الفعل يعلل بعلل شتى وقيل هو نصب على المصدرية أى يحذرون حذرا مثل حذر الموت والحذر والحذار هو شدة الخوف وقرئ حذار الموت والموت زوال الحياة وقيل عرض يضادها لقوله تعالى خلق الموت والحياة ورد بأن الخلق بمعنى التقدير والاعدام مقدرة ﴿والله محيط بالكافرين﴾ أى لايفوتونه كما لايفوت المحاط به المحيط شبه شمول قدرته تعالى لهم وانطواء ملكوته عليهم باحاطة المحيط بما أحاط به فى استحالة الفوت أو شبه الهيئة المنتزعة من شؤونه تعالى معهم بالهيئة المنتزعة من أحوال المحيط مع المحاط فالاستعارة المبنية على التشبيه الاول استعارة تبعية فى الصفة متفرعة على مافى مصدرها من الاستعارة والمبنية على الثانى تمثيلية قد اقتصر من طرف المشبه به على ما هو العمدة فى انتزاع الهيئة المشبه بها أعنى الاحاطة والباقى منوى بألفاظ متخيلة بها يحصل التركيب المعتبر فى التمثيل كما مر تحريره فى قوله عز وجل ختم الله على قلوبهم والجملة اعتراضية منبهة على أن ماصنعوا من سد الآذان بالاصابع لا يغنى عنهم شيئاً فان القدر لا يدافعه الحذر والحيل لاترد بأس الله عز وجل وفائدة وضع الكافرين موضع الضمير الراجع الى أصحاب الصيب الايذان بأن مادهمهم من الامور الهائلة المحكية بسبب كفرهم على منهاج قوله تعالى كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته فان الاهلاك الناشئ من السخط أشد وقيل هذا الاعتراض من جملة أحوال المشبه على أن المراد بالكافرين المنافقون قد دل به على أنه لامدفع لهم من عذاب الله تعالى فى الدنيا والآخرة وانما وسط بين أحوال المشبه مع أن القياس تقديمه أو تأخيره لاظهار كمال العناية وفرط الاهتمام بشأن المشبه ﴿يكاد البرق﴾ استئناف آخر وقع جوابا عن سؤال مقدر كأنه قيل فكيف حالهم مع ذلك البرق فقيل يكاد ذلك ﴿يخطف أبصارهم﴾ أى يختلسها و يستلبها بسرعة وكاد من أفعال المقاربة وضعت لمقاربة الخبر من الوجود لتآخذ أسبابه وتعاضد مباديه لكنه لم يوجد بعد لفقد شرط أو لعروض مانع ولا يكون خبرها الا مضارعا عاريا عن كلمة أن وشذ مجيئه اسما صريحا كما فى قوله فأبت الى فهم وما كدت آيبا وكذا مجيئه مع أن حملا لها على عسى كما فى مثل قول رؤبة قد كاد من طول البلى أن يمحصا كما تحمل هى عليها بالحذف لما بينهما من المقارنة فى أصل المقاربة وليس فيها شائبة الانشائية كما فى عسى وقرئ يخطف بكسر الطاء ويختطف و يخطف بفتح الياء والخاء بنقل فتحة التاء الى الخاء وادغامها فى الطاء و يخطف بكسرهما على اتباع الياء الخاء و يخطف من صيغة التفعيل و يتخطف

من قوله تعالى و يتخطف الناس من حولهم ﴿كلما أضاء لهم﴾ كل ظرف ومامصدرية والزمان محذوف أى كل زمان اضاءة وقيل مانكرة موصوفة معناها الوقت والعائد محذوف أى كل وقت أضاء لهم فيه والعامل فى كلما جوابها وهو استئناف ثالث كأنه قيل مايفعلون فى أثناء ذلك الهول أيفعلون بأبصارهم مافعلوا بآذانهم أم لافقيل كلما نور البرق لهم ممشى ومسلكا على أن أضاء متعد والمفعول محذوف أوكلما لمع لهم على أنه لازم و يؤيده قراءة كلما أضاء ﴿مشوا فيه﴾ أى فى ذلك المسلك أوفى مطرح نوره خطوات يسيرة مع خوف أن يخطف أبصارهم وايثار المشى على مافوقه من السعى والعدو للاشعار بعدم استطاعتهم لهما ﴿واذا أظلم عليهم﴾ أى خفى البرق واستتر والمظلم وان كان غيره لكن لما كان الاظلام دائرا على استتاره أسند اليه مجازا تحقيقا لما أريد من المبالغة فى موجبات تخبطهم وقد جوز أن يكون متعديا منقولا من ظلم الليل ومنه ماجاء فى قول أبى تمام

هما أظلما حالى ثمت أجليا ظلاميهما عن وجه أمرد أشيب

و يعضده قراءة أظلم على البناء للمفعول ﴿قاموا﴾ أى وقفوا فى أماكنهم على ما كانوا عليه من الهيئة متحيرين مترصدين لخفقة أخرى عسى يتسنى لهم الوصول الى المقصد أو الالتجاء الى ملجأ يعصمهم وايراد كلما مع الاضاءة واذا مع الاظلام للايذان بأنهم حراص على المشى مترقبون لما يصححه فكلما وجدوا فرصة انتهزوها ولا كذلك الوقوف وفيه من الدلالة على كمال التحير وتطاير اللب مالايوصف ﴿ولوشاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ كلمة لو لتعليق حصول أمر ماض هو الجزاء بحصول أمر مفروض فيه هو الشرط لما بينهما من الدوران حقيقة أو ادعاء ومن قضية مفروضية الشرط دلالتها على انتفائه قطعا والمنازع فيه مكابر وأما دلالتها على انتفاء الجزاء فقد قيل وقيل والحق الذى لامحيد عنه أنه ان كان مابينهما من الدوران كليا أوجزئيا قد بنى الحكم على اعتباره فهى دالة عليه بواسطة مدلولها الوضعى لامحالة ضرورة استلزام انتفاء العلة لانتفاء المعلول أما فى مادة الدوران الكلى كما فى قوله عز وجل ولوشاء لهداكم أجمعين وقولك لوجئتنى لأكرمتك فظاهر لان وجود المشيئة علة لوجود الهداية حقيقة و وجود المجىء علة لوجود الاكرام ادعاء وقد انتفيا بحكم المفروضية فانتفى معلولاهما حتما ثم انه قد يساق الكلام لتعليل انتفاء الجزاء بانتفاء الشرط كما فى المثالين المذكورين وهو الاستعمال الشائع لكلمة لو ولذلك قيل هى لامتناع الثانى لامتناع الأول وقد يساق للاستدلال بانتفاء الثانى لكونه ظاهرا أو مسلما على انتفاء الأول لكونه خفيا أومتنازعا فيه كما فى قوله سبحانه لوكان فيهما آلهة الا الله لفسدتا و فى قوله تعالى لوكان خيرا ما سبقونا اليه فان فسادهما لازم لتعدد الآلهة حقيقة وعدم سبق المؤمنين الى الايمان لازم لخيريته فى زعم الكفرة ولا ريب فى انتفاء اللازمين فتعين انتفاء الملزومين حقيقة فى الاول وادعاء باطلا فى الثانى ضرورة استلزام انتفاء اللازم لانتفاء الملزوم لكن لابطريق السببية الخارجية كما فى المثالين الاولين بل بطريق الدلالة العقلية الراجعة الى سببية العلم بانتفاء الثانى للعلم بانتفاء الاول ومن لم يتنبه له زعم أنه لانتفاء الاول لانتفاء الثانى وأما فى مادة الدوران الجزئى كما فى قولك لوطلعت الشمس لوجد الضوء فلأن الجزاء المنوط بالشرط الذى هو طلوعها ليس وجود أى ضوء كان كضوء القمر الجامع لعدم الطلوع مثلا بل انما هو وجود الضوء الخاص الناشىء من الطلوع ولا ريب فى انتفائه بانتفاء الطلوع هذا اذا بنى الحكم على اعتبار الدوران وأما اذا بنى على عدمه فاما أن يعتبر هناك تحقق مدار آخر له أو لا فان اعتبر فالدلالة تابعة لحال ذلك المدار فان كان بينه و بين انتفاء الاول منافاة تعين الدلالة كما اذا قلت لولم تطلع الشمس لوجد الضوء فان وجود الضوء وان علق صورة بعدم الطلوع لكنه فى الحقيقة معلق بسبب آخر له ضرورة ان عدم الطلوع من حيث هو هو ليس مدارا لوجود الضوء فى الحقيقة وانما وضع موضع المدار لكونه كاشفا عن تحقق مدار آخر له فكأنه قيل لولم تطلع الشمس لوجد الضوء بسبب آخر كالقمر مثلا ولا ريب فى أن هذا الجزاء منتف عند

انتفاء الشرط لاستحالة وجود الضوء القمرى عند طلوع الشمس وان لم يكن بينهما منافاة تعين عدم الدلالة كما فى قوله صلى الله عليه وسلم فى بنت أبى سلمة لو لم تكن ربيبتى فى حجرى ماحلت لى انها لابنة أخى من الرضاعة فان المدار المعتبر فى ضمن الشرط أعنى كونها ابنة أخيه عليه السلام من الرضاعة غير مناف لانتفائه الذى هو كونها ربيبته عليه السلام بل مجامع له ومن ضرورته مجامعة أثريهما أعنى الحرمة الناشئة من كونها ربيبته عليه السلام والحرمة الناشئة من كونها ابنة أخيه من الرضاعة وان لم يعتبر هناك تحقق مدار آخر بل بنى الحكم على اعتبار عدمه فلا دلالة لها على ذلك أصلا كيف لاومساق الكلام حينئذ لبيان ثبوت الجزاء على كل حال بتعليقه بما ينافيه ليعلم ثبوته عند وقوع مالاينافيه بالطريق الاولى كما فى قوله عز وجل قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى اذاً لأمسكتم وقوله عليه السلام لوكان الايمان فى الثريا لناله رجال من فارس وقول على رضى الله عنه لو كشف الغطاء ماازددت يقينا فان الأجزية المذكورة قد نيطت بما ينافيها و يستدعى نقائضها ايذانا بأنها فى أنفسها بحيث يجب ثبوتها مع فرض انتفاء أسبابها أو تحقق أسباب انتفائها فكيف اذا لم يكن كذلك على طريقة لو الوصلية فى مثل قوله تعالى يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ولها تفاصيل وتفاريع حررناها فى تفسير قوله تعالى أولو كنا كارهين وقول عمر رضى الله عنه نعم العبد صهيب لولم يخف الله لم يعصه ان حمل على تعليق عدم العصيان فى ضمن عدم الخوف بمدار آخر نحو الحياء والاجلال وغيرهما مما يجامع الخوف كان من قبيل حديث ابنة أبى سلمة وان حمل على بيان استحالة عصيانه مبالغة كان من هذا القبيل والآية الكريمة واردة على الاستعمال الشائع مفيدة لكمال فظاعة حالهم وغاية هول مادهمهم من المشاق وأنها قد بلغت من الشدة الى حيث لوتعلقت مشيئة الله تعالى بازالة مشاعرهم لزالت لتحقق مايقتضيه اقتضاء تاما وقيل كلمة لو فيها لربط جزائها بشرطها مجردة عن الدلالة على انتفاء أحدهما لانتفاء الآخر بمنزلة كلمة ان ومفعول المشيئة محذوف جريا على القاعدة المستمرة فانها اذا وقعت شرطا وكان مفعولها مضمونا للجزاء فلا يكاد يذكر الا أن يكون شيأ مستغربا كما فى قوله

فلوشئت أن أبكى دما لبكيته عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

أى لو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لفعل ولكن لم يشأ لما يقتضيه من الحكم والمصالح وقرىء لأذهب بأسماعهم على زيادة الباء كما فى قوله تعالى ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة والافراد فى المشهورة لان السمع مصدر فى الأصل والجملة الشرطية معطوفة على ماقبلها من الجمل الاستئنافية وقيل على كلما أضاء الخ وقوله عز وجل ﴿ان الله على كل شىء قدير﴾ تعليل للشرطية وتقرير لمضمونها الناطق بقدرته تعالى على ازالة مشاعرهم بالطريق البرهانى والشىء بحسب مفهومه اللغوى يقع على كل مايصح أن يعلم ويخبر عنه كائنا ما كان على أنه فى الاصل مصدر شاء أطلق على المفعول واكتفى فى ذلك باعتبار تعلق المشيئة به من حيث العلم والاخبار عنه فقط وقد خص ههنا بالممكن موجودا كان أو معدوما بقضية اختصاص تعلق القدرة به لما أنها عبارة عن التمكن من الايجاد والاعدام الخاصين به وقيل هى صفة تقتضى ذلك التمكن والقادر هو الذى ان شاء فعل وان لم يشأ لم يفعل والقدير هو الفعال لكل مايشاء كما يشاء و لذلك لم يوصف به غير البارى جل جلاله ومعنى قدرته تعالى على الممكن الموجود حال وجوده أنه ان شاء ابقاءه على الوجود أبقاه عليه فان علة الوجود هى علة البقاء وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى رب العالمين وان شاء اعدامه أعدمه ومعنى قدرته على المعدوم حال عدمه أنه ان شاء ايجاده أوجده وان لم يشأ لم يوجده وقيل قدرة الانسان هيئة بها يتمكن من الفعل والترك وقدرة الله تعالى عبارة عن نفى العجز واشتقاق القدرة من القدر لان القادر يوقع الفعل بقدر ماتقتضيه ارادته أو بقدر قوته وفيه دليل على أن مقدور العبد مقدور لله تعالى حقيقة لانه شىء و كل شىء مقدور له تعالى واعلم أن كل واحد من التمثيلين وان احتمل

أن يكون من قبيل التمثيل المفرق كما فى قوله كأن قلوب الطير رطبا و يابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى بأن يشبه المنافقون فى التمثيل الاول بالمستوقدين وهداهم الفطرى بالنار وتأييدهم اياه بما شاهدوه من الدلائل باستيقادها وتمكنهم التام من الانتفاع به باضاءتها ما حولهم وازالته باذهاب النور النارى وأخذ الضلالة بمقابلته بملابستهم الظلمات الكثيفة وبقائهم فيها و يشبهوا فى التمثيل الثانى بالسابلة والقرآن وما فيه من العلوم والمعارف التى هى مدار الحياة الابدية بالصيب الذى هو سبب الحياة الارضية وماعرض لهم بنزوله من الغموم والاحزان وانكساف البال بالظلمات وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق وتصامهم عما يقرع أسماعهم من الوعيد بحال من يهوله الرعد والبرق فيخاف صواعقه فيسد أذنه عنها ولا خلاص له منها واهتزازهم لما يلمع لهم من رشد يدركونه أو رفد يحرزونه بمشيهم فى مطرح ضوء البرق كلما أضاء لهم وتحيرهم فى أمرهم حين عن لهم مصيبة بوقوفهم اذا أظلم عليهم لكن الحمل على التمثيل المركب الذى لا يعتبر فيه تشبيه كل واحد من المفردات الواقعة فى أحد الجانبين بواحد من المفردات الواقعة فى الجانب الآخر على وجه التفصيل بل ينتزع فيه من المفردات الواقعة فى جانب المشبه هيئة فتشبه بهيئة أخرى منتزعة من المفردات الواقعة فى جانب المشبه به بأن ينتزع من المنافقين وأحوالهم المفصلة فى كل واحد من التمثيلين هيئة على حدة و ينتزع من كل واحد من المستوقدين وأصحاب الصيب وأحوالهم المحكية هيئة بحيالها فتشبه كل واحدة من الاولين بما يضاهيها من الآخرين هو الذى يقتضيه جزالة التنزيل و يستدعيه فخامة شأنه الجليل لاشتماله على التشبيه الاول اجمالا مع أمر زائد هو تشبيه الهيئة بالهيئة وايذانه بأن اجتماع تلك المفردات مستتبع لهيئة عجيبة حقيقة بان تكون مثلا فى الغرابة ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ اثر ما ذكر الله تعالى علو طبقة كتابه الكريم وتحزب الناس فى شأنه الى ثلاث فرق مؤمنة به محافظة على ما فيه من الشرائع والاحكام وكافرة قد نبذته وراء ظهرها بالمجاهرة والشقاق وأخرى مذبذبة بينهما بالمخادعة والنفاق ونعت كل فرقة منها بما لها من النعوت والاحوال وبين ما لهم من المصير والمآل أقبل عليهم بالخطاب على نهج الالتفات هزا لهم الى الاصغاء وتوجيها لقلوبهم نحو التلقى وجبرا لما فى العبادة من الكلفة بلذة الخطاب فأمرهم كافة بعبادته ونهاهم عن الاشراك به و يا حرف وضع لنداء البعيد وقد ينادى به القريب تنزيلا له منزلة البعيد اما اجلالا كما فى قول الداعى يا الله و يا رب وهو أقرب اليه من حبل الوريد استقصارا لنفسه واستبعادا لها من محافل الزلفى ومنازل المقربين واما تنبيها على غفلته وسوء فهمه وقد يقصد به التنبيه على أن ما يعقبه أمر خطير يعتنى بشأنه وأى اسم مبهم جعل وصلة الى نداء المعرف باللام لا على أنه المنادى اصالة بل على انه صفة موضحة له مزيلة لابهامه والتزم رفعه مع انتصاب موصوفه محلا اشعارا بأنه المقصود بالنداء وأقحمت بينهما كلمة التنبيه تأكيدا لمعنى النداء وتعويضا عما يستحقه أى من المضاف اليه ولما ترى من استقلال هذه الطريقة بضروب من أسباب المبالغة والتأكيد كثر سلوكها فى التنزيل المجيد كيف لا وكل ما ورد فى تضاعيفه على العباد من الاحكام والشرائع وغير ذلك خطوب جليلة حقيقة بأن تقشعر منها الجلود وتطمئن بها القلوب الآبية و يتلقوها بآذان واعية وأكثرهم عنها غافلون فاقتضى الحال المبالغة والتأكيد فى الايقاظ والتنبيه والمراد بالناس كافة المكلفين الموجودين فى ذلك العصر لما أن الجموع وأسماءها المحلاة باللام للعموم بدليل صحة الاستثناء منها والتأكيد بما يفيد العموم كما فى قوله تعالى فسجد الملائكة كلهم أجمعون واستدلال الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين بعمومها شائعا ذائعا وأما من عداهم ممن سيوجد منهم فغير داخلين فى خطاب المشافهة وانما دخولهم تحت حكمه لما تواتر من دينه صلى الله عليه وسلم ضرورة أن مقتضى خطابه وأحكامه شامل للموجودين من المكلفين ولمن سيوجد منهم الى قيام الساعة ولا يقدح فى العموم ما روى عن علقمة والحسن البصرى من أن كل ما نزل فيه يا أيها الناس فهو

مكى اذ ليس من ضرورة نزوله بمكة شرفها الله تعالى اختصاص حكمه باهلها ولا من قضية اختصاصه بهم اختصاصه بالكفار اذ لم يكن كل أهلها حينئذ كفرة ولا ضير فى تحقق العبادة فى بعض المكلفين قبل ورود هذا الامر لما أن المأمور به القدر المشترك الشامل لانشاء العبادة والثبات عليها والزيادة فيها مع انها متكررة حسب تكرر أسبابها ولا فى انتفاء شرطها فى الآخرين منهم أعنى الايمان لان الامر بها منتظم للامر بما لا تتم الا به وقد علم من الدين ضرورة اشتراطها به فان أمر المحدث بالصلاة مستتبع للامر بالتوضى لا محالة وقد قيل المراد بالعبادة ما يعم أفعال القلب أيضا لما انها عبارة عن غاية التذلل والخضوع وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن كل ما ورد فى القرآن من العبادات فمعناها التوحيد وقيل معنى اعبدوا وحدوا وأطيعوا ولا فى كون بعض من الفرقتين الاخيرتين ممن لا يجدى فيهم الانذار بموجب النص القاطع لما أن الامر لقطع الاعذار ليس فيه تكليفهم بما ليس فى وسعهم من الايمان بعدم ايمانهم أصلا اذ لا قطع لاحد منهم بدخوله فى حكم النص قطعا وورود النص بذلك لكونهم فى انفسهم بسوء اختيارهم كذلك لا لان كونهم كذلك لورود النص بذلك فلا جبر أصلا نعم لتخصيص الخطاب بالمشركين وجه لطيف ستقف عليه عند قوله تعالى وأنتم تعلمون وايراده تعالى بعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين لتأكيد موجب الامر بالاشعار بعليتها للعبادة ﴿الذى خلقكم﴾ صفة أجريت عليه سبحانه للتبجيل والتعليل اثر التعليل وقد جوز كونها للتقييد والتوضيح بناء على تخصيص الخطاب بالمشركين وحمل الرب على ما هو أعم من الرب الحقيق والآلهة التى يسمونها أربابا والخلق ايجاد الشىء على تقدير واستواء وأصله التقدير يقال خلق النعل أى قدرها وسواها بالمقياس وقرئ خلقكم بادغام القاف فى الكاف ﴿والذين من قبلكم﴾ عطف على الضمير المنصوب ومتمم لما قصد من التعظيم والتعليل فان خلق أصولهم من موجبات العبادة كخلق أنفسهم ومن ابتدائية متعلقة بمحذوف أى كانوا من زمان قبل زمانكم وقيل خلقهم من قبل خلقكم فحذف الخلق وأقيم الضمير مقامه والمراد بهم من تقدمهم من الأمم السالفة كافة ومن ضرورة عموم الخطاب بيان شمول خلقه تعالى للكل وتخصيصه بالمشركين يؤدى الى عدم التعرض لخلق من عداهم من معاصريهم واخراج الجملة مخرج الصلة التى حقها أن تكون معلومة الانتساب الى الموصول عندهم أيضاً مع أنهم غير معترفين بغاية الخلق وان اعترفوا بنفسه كما ينطق به قوله تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله للايذان بأن خلقهم للتقوى من الظهور بحيث لا يتأتى لاحد انكاره وقرئ وخلق من قبلكم وقرئ والذين من قبلكم باقحام الموصول الثانى بين الاول وصلته توكيداً كاقحام اللام بين المضافين فى لا أبالك أو بجعله موصوفا بالظرف خبرا لمبتدا محذوف أى الذين هم أناس كائنون من قبلكم ﴿لعلكم تتقون﴾ المعنى الوضعى لكلمة لعل هو انشاء توقع أمر متردد بين الوقوع وعدمه مع رجحان الأول اما محبوب فيسمى ترجيا أو مكروه فيسمى اشفاقا وذلك المعنى قد يعتبر تحققه بالفعل اما من جهة المتكلم كما فى قولك لعل الله يرحمنى وهو الاصل الشائع فى الاستعمال لان معانى الانشاءات قائمة به واما من جهة المخاطب تنزيلا له منزلة المتكلم فى التلبس التام بالكلام الجارى بينهما كما فى قوله سبحانه فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى وقد يعتبر تحققه بالقوة بضرب من التجوز ايذانا بأن ذلك الأمر فى نفسه مئنة للتوقع متصف بحيثية مصححة له من غير أن يعتبر هناك توقع بالفعل من متوقع أصلا فان روعيت فى الآية الكريمة جهة المتكلم يستحيل ارادة ذلك المعنى لامتناع التوقع من علام الغيوب عز وجل فيصار اما الى الاستعارة بأن يشبه طلبه تعالى من عباده التقوى مع كونهم مئنة لها لتعاضد أسبابها برجاء الراجى من المرجو منه أمراً هين الحصول فى كون متعلق كل منهما متردداً بين الوقوع وعدمه مع رجحان الأول فيستعار له كلمة لعل استعارة تبعية حرفية للمبالغة فى الدلالة على قوة الطلب وقرب المطلوب من الوقوع واما الى

التمثيل بأن يلاحظ خلقه تعالى اياهم مستعدين للتقوى وطلبه اياها منهم وهم متمكنون منها جامعون لاسبابها و ينتزع من ذلك هيئة فتشبه بهيئة منتزعة من الراجى و رجائه من المرجو منه شيأ سهل المنال فيستعمل فى الهيئة الاولى ماحقه أن يستعمل فى الثانية فيكون هناك استعارة تمثيلية قد صرح من ألفاظها بما هو العمدة فى انتزاع الهيئة المشبه بها أعنى كلمة الترجى والباقى منوى بألفاظ متخيلة بها يحصل التركيب المعتبر فى التمثيل كما مر مراراً وأما جعل المشبه ارادته تعالى فى الاستعارة والتمثيل فأمر مؤسس على قاعدة الاعتزال القائلة بجواز تخلف المراد عن ارادته تعالى فالجملة حال اما من فاعل خلقكم أى طالبا منكم التقوى أو من مفعوله وماعطف عليه بطريق تغليب المخاطبين على الغائبين لانهم المأمورون بالعبادة أى خلقكم واياهم مطلوبا منكم التقوى أو علة له فان خلقهم على تلك الحال فى معنى خلقهم لاجل التقوى كانه قيل خلقكم لتتقوا أو كى تتقوا امابناء على تجويز تعليل أفعاله تعالى بأغراض راجعة الى العباد كما ذهب اليه كثير من أهل السنة واما تنزيلا لترتب الغاية على ماهى ثمرة له منزلة ترتب الغرض على ماهو غرض له فان استتباع أفعاله تعالى لغايات ومصالح متقنة جليلة من غير أن تكون هى علة غائية لها بحيث لولاها لما أقدم عليها مما لانزاع فيه وتقييد خلقهم بما ذكر من الحال أو العلة لتكميل علية للمأمور به وتأكيدها فان اتيانهم بما خلقوا له أدخل فى الوجوب وايثار تتقون على تعبدون مع موافقته لقوله تعالى وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون للمبالغة فى ايجاب العبادة والتشديد فى الزامها لما أن التقوى قصارى أمر العابد ومنتهى جهده فاذا لزمتهم التقوى كان ماهو أدنى منها ألزم والاتيان به أهون وان روعيت جهة المخاطب فلعل فى معناها الحقيقى والجملة حال من ضمير اعبدوا كأنه قيل اعبدوا ربكم راجين للانتظام فى زمرة المتقين الفائزين بالهدى والفلاح على أن المراد بالتقوى مرتبتها الثالثة التى هى التبتل الى الله عز وجل بالكلية والتنزه عن كل مايشغل سره عن مراقبته وهى أقصى غايات العبادة التى يتنافس فيها المتنافسون و بالانتظام القدر المشترك بين انشائه والثبات عليه ليرتجيه أرباب هذه المرتبة ومادونها من مرتبتى التوقى عن العذاب المخلد والتجنب عن كل مايؤثم من فعل أو ترك كما مر فى تفسير المتقين ولعل توسيط الحال من الفاعل بين وصفى المفعول لما فى التقديم من فوات الاشعار بكون الوصف الاول معظم أحكام الربوبية وكونه عريقا فى ايجاب العبادة وفى التأخير من زيادة طول الكلام هذا على تقدير اعتبار تحقق التوقع بالفعل فأما ان اعتبر تحققه بالقوة فالجملة حال من مفعول خلقكم وماعطف عليه على الطريقة المذكورة أى خلقكم واياهم حال كونكم جميعا بحيث يرجو منكم كل راج أن تتقوا فانه سبحانه وتعالى لما برأهم مستعدين للتقوى جامعين لمباديها الآفاقية والانفسية كان حالهم بحيث يرجو منهم كل راج أن يتقوا لامحالة وهذه الحالة مقارنة لخلقهم وان لم يتحقق الرجاء قطعا واعلم أن الآية الكريمة مع كونها بعبارتها ناطقة بوجوب توحيده تعالى وتحتم عبادته على كافة الناس مرشدة لهم باشارتها الى أن مطالعة الآيات التكوينية المنصوبة فى الانفس والآفاق مما يقضى بذلك قضاء متقنا وقد بين فيها أولا من تلك الآيات مايتعلق بأنفسهم من خلقهم وخلق أسلافهم لما أنه أقوى شهادة وأظهر دلالة ثم عقب بما يتعلق بمعاشهم فقيل ﴿الذى جعل لكم الارض فراشا﴾ وهو فى محل النصب على انه صفة ثانية لربكم موضحة أومادحة أو على تقدير أخص أو أمدح أو فى محل الرفع على المدح والتعظيم بتقدير المبتدا قال ابن مالك التزم حذف الفعل فى المنصوب على المدح اشعارا بأنه انشاء كما فى المنادى وحذف المبتدا فى المرفوع اجراء للوجهين على سنن واحد واما كونه مبتدأ خبره فلا تجعلوا كما قيل فيستدعى أن يكون مناط النهى مافى حيز الصلة فقط من غير أن يكون لما سلف من خلقهم وخلق من قبلهم مدخل فى ذلك مع كونه أعظم شأنا وجعل بمعنى صير والمنصوبان بعده مفعولاه وقيل هو بمعنى خلق وانتصاب الثانى على الحالية والظرف

متعلق به على التقديرين وتقديمه على المفعول الصريح لتعجيل المسرة ببيان كون مايعقبه من منافع المخاطبين وللتشويق اليه لان النفس عند تأخير ماحقه التقديم لاسيما بعد الاشعار بمنفعته تبقى مترقبة له فيتمكن لديها عند وروده عليها فضل تمكن أو لما فى المؤخر وما عطف عليه من نوع طول فلو قدم لفات تجاوب أطراف النظم الكريم ومعنى جعلها فراشا جعل بعضها بارزا من الماء مع اقتضاء طبعها الرسوب وجعلها متوسطة بين الصلابة واللين صالحة للقعود عليها والنوم فيها كالبساط المفروش وليس من ضرورة ذلك كونها سطحا حقيقيا فان كرية شكلها مع عظم جرمها مصححة لافتراشها وقرئ بساطا ومهادا ﴿والسماء بناء﴾ عطف على المفعولين السابقين وتقديم حال الارض لما أن احتياجهم اليها وانتفاعهم بها أكثر وأظهر أى جعلها قبة مضروبة عليكم والسماء اسم جنس يطلق على الواحد والمتعدد أو جمع سماوة أو سماءة والبناء فى الاصل مصدر سمى به المبنى بيتا كان أو قبة أو خباء ومنه قولهم بنى على امرأته لما أنهم كانوا اذا تزوجوا امرأة ضربوا عليها خباء جديدا ﴿وأنزل من السماء ماء﴾ عطف على جعل أى أنزل من جهتها أو منها الى السحاب ومن السحاب الى الارض كما روى ذلك عنه عليه الصلاة والسلام أو المراد بالسماء جهة العلو كما ينبئ عنه الاظهار فى موضع الاضمار وهو على الاولين لزيادة التقرير ومن لابتداء الغاية متعلقة بأنزل أو بمحذوف وقع حالا من المفعول أى كائنا من السماء قدم عليه لكونه نكرة وأما تقديم الظرف على الوجه الاول مع أن حقه التأخير عن المفعول الصريح فاما لان السماء أصله ومبدؤه واما لما مر من التشويق اليه مع مافيه من مزيد انتظام بينه و بين قوله تعالى ﴿فأخرج به﴾ أى بسبب الماء ﴿من الثمرات رزقا لكم﴾ وذلك بأن أودع فى الماء قوة فاعلة و فى الارض قوة منفعلة فتولد من تفاعلهما أصناف الثمار أو بأن أجرى عادته بافاضة صور الثمار و كيفيتها المتخالفة على المادة الممتزجة منها وان كان المؤثر فى الحقيقة قدرته تعالى ومشيئته فانه تعالى قادر على أن يوجد جميع الأشياء بلا مباد ومواد كما أبدع نفوس المبادى والاسباب لكن له عز وجل فى انشائها متقلبة فى الاحوال ومتبدلة فى الاطوار من بدائع حكم باهرة تجدد لأولى الأبصار عبرا ومزيد طمأنينة الى عظيم قدرته ولطيف حكمته ماليس فى ابداعها بغتة ومن للتبعيض لقوله تعالى فأخرجنا به ثمرات ولوقوعها بين منكرين أعنى ماء و رزقا كانه قيل وأنزل من السماء بعض الماء فأخرج به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم وهكذا الواقع اذ لم ينزل من السماء كل الماء و لا أخرج من الارض كل الثمرات ولا جعل كل المرزوق ثمارا أو للتبيين و رزقا مفعول بمعنى المرزوق ومن الثمرات بيان له أو حال منه كقولك أنفقت من الدراهم ألفا و يجوز أن يكون من الثمرات مفعولا و رزقا حالا منه أو مصدرا من أخرج لانه بمعنى رزق وانما شاع ورود الثمرات دون الثمار مع أن الموضع موضع كثرة لانه أريد بالثمرات جماعة الثمرة فى قولك أدركت ثمرة بستانه و يؤيده القراءة على التوحيد أو لان الجموع يقع بعضها موقع بعض كقوله تعالى كم تركوا من جنات وعيون وقوله تعالى ثلاثة قروء أو لانها محلاة باللام خارجة عن حد القلة واللام متعلقة بمحذوف وقع صفة لرزقا على تقدير كونه بمعنى المرزوق أى رزقا كائنا لكم أو دعامة لتقوية عمل رزقا على تقدير كونه مصدرا كأنه قيل رزقا اياكم ﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾ اما متعلق بالامر السابق مترتب عليه كأنه قيل اذا أمرتم بعبادة من هذا شأنه من التفرد بهذه النعوت الجليلة والافعال الجميلة فلا تجعلوا له شريكا وانما قيل أندادا باعتبار الواقع لا لان مدار النهى هو الجمعية وقرئ ندا وايقاع الاسم الجليل موقع الضمير لتعيين المعبود بالذات اثر تعيينه بالصفات وتعليل الحكم بوصف الالوهية التى عليها يدور أمر الوحدانية واستحالة الشركة والايذان باستتباعها لسائر الصفات واما معطوف عليه كما فى قوله تعالى اعبدوا الله و لاتشركوا به شيئا والفاء للاشعار بعلية ماقبلها من الصفات المجراة عليه تعالى للنهى أو الانتهاء أو لان مآل النهى هو

الامر بتخصيص العبادة به تعالى المترتب على أصلها كانه قيل اعبدوه فخصوها به والاظهار فى موضع الاضمار لما مر آنفاً وقيل هو نق منصوب باضمار أن جوابا للامر ويأباه أن ذلك فيما يكون الاول سببا للثانى ولا ريب فى أن العبادة لاتكون سببا للتوحيد الذى هو أصلها ومبناها وقيل هو منصوب بلعل نصب فأطلع فى قوله تعالى لعلى أبلغ الاسباب أسباب السموات فأطلع الى اله موسى أى خلقكم لتتقوا وتخافوا اعقابه فلا تشبهوه بخلقه وحيث كان مدار هذا النصب تشبيه لعل فى بعد المرجو بليت كان فيه تنبيه على تقصيرهم بجعلهم المرجو القريب بمنزلة المتمنى البعيد وقيل هو متعلق بقوله تعالى الذى جعل الخ على تقدير رفعه على المدح أى هو الذى حفكم بهذه الآيات العظام والدلائل النيرة فلا تتخذوا له شركاء وفيه ما مر من لزوم كون خلقهم وخلق أسلافهم بمعزل من مناطية النهى مع عراقتهما فيها وقيل هو خبر للموصول بتأويل مقول فى حقه وقد عرفت مافيه مع لزوم المصير الى مذهب الاخفش فى تنزيل الاسم الظاهر منزلة الضمير كما فى قولك زيد قام أبو عبدالله اذا كان ذلك كنيته والند المثل المساوى من ند ندودا اذا نفر وناددته خالفته خص بالمخالف المماثل بالذات كما خص المساوى بالمماثل فى المقدار وتسمية ما يعبده المشركون من دون الله أندادا والحال أنهم مازعموا أنها تماثله تعالى فى صفاته ولا أنها تخالفه فى أفعاله لما أنهم لما تركوا عبادته تعالى الى عبادتها وسموها آلهة شابهت حالهم حال من يعتقد أنها ذوات واجبة بالذات قادرة على أن تدفع عنهم بأس الله عز وجل وتمنحهم مالم يرد الله تعالى بهم من خير فتهكم بهم وشنع عليهم أن جعلوا أندادا لمن يستحيل أن يكون له ند واحد وفى ذلك قال موحد الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل

أربا واحدا أم ألف رب أدين اذا تقسمت الامور
تركت اللات والعزى جميعا كذلك يفعل الرجل البصير

وقوله تعالى ﴿وأنتم تعلمون﴾ حال من ضمير لاتجعلوا بصرف التقييد الى ما أفاده النهى من قبح المنهى عنه ووجوب الاجتناب عنه ومفعول تعلمون مطروح بالكلية كانه قيل لاتجعلوا ذلك فانه قبيح واجب الاجتناب عنه والحال انكم من أهل العلم والمعرفة بدقائق الامور واصابة الرأى أو مقدر حسبما يقتضيه المقام نحو وأنتم تعلمون بطلان ذلك أو تعلمون أنه لايماثله شئ أو تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت أو تعلمون أنها لاتفعل مثل أفعاله كما فى قوله تعالى هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ أو غير ذلك وحاصله تنشيط المخاطبين وحثهم على الانتهاء عما نهوا عنه هذا هو الذى يستدعيه عموم الخطاب فى النهى بجعل المنهى عنه القدر المشترك المنتظم لانشاء الانتهاء كما هو المطلوب من الكفرة وللثبات عليه كما هو شأن المؤمنين حسبما مر مثله فى الامر وأما صرف التقييد الى نفس النهى فيستدعى تخصيص الخطاب بالكفرة لامحالة اذ لايتسنى ذلك بطريق قصر النهى على حالة العلم ضرورة شمول التكليف للعالم والجاهل المتمكن من العلم بل انما يتأتى بطريق المبالغة فى التوبيخ والتقريع بناء على أن تعاطى القبائح من العالمين بقبحها أقبح وذلك انما يتصور فى حق الكفرة فمن صرف التقييد الى نفس النهى مع تعميم الخطاب للمؤمنين أيضا فقد نأى عن التحقيق ان قلت أليس فى تخصيصه بالكفرة فى الامر والنهى خلاص من أمثال ما مر من التكلفات وحسن انتظام بين السباق والسياق اذ لامحيد فى آية التحدى من تجريد الخطاب وتخصيصه بالكفرة لامحالة مع مافيه من رباء محل المؤمنين ورفع شأنهم عن جبر الانتظام فى سلك الكفرة والايذان بأنهم مستمرون على الطاعة والعبادة حسبما مر فى صدر السورة الكريمة مستغنون فى ذلك عن الامر والنهى قلت بلى انه وجه سرى ونهج سوى لايضل من ذهب اليه ولا يزل من ثبت قدمه عليه فتأمل ﴿وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا﴾ شروع فى تحقيق ان الكتاب

الكريم الذى من جملته ماتلى من الآيتين الكريمتين الناطقتين بوجوب العبادة والتوحيد منزل من عند الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم كما أن ماذكر فيهما من الآيات التكوينية الدالة على ذلك صادرة عنه تعالى لتوضيح اتصافه بما ذكر فى مطلع السورة الشريفة من النعوت الجليلة التى من جملتها نزاهته عن أن يعتريه ريب ما والتعبير عن اعتقادهم فى حقه بالريب مع أنهم جازمون بكونه من كلام البشر كما يعرب عنه قوله تعالى ان كنتم صادقين اما للايذان بأن أقصى ما يمكن صدوره عنهم وان كانوا فى غاية مايكون من المكابرة والعناد هو الارتياب فى شأنه وأما الجزم المذكور فخارج من دائرة الاحتمال كما أن تنكيره وتصديره بكلمة الشك للاشعار بأن حقه أن يكون ضعيفا مشكوك الوقوع واما للتنبيه على أن جزمهم ذلك بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح دلائل الاعجاز ونهاية قوتها وانما لم يقل وان ارتبتم فيما نزلنا الخ لما أشير اليه فيما سلف من المبالغة فى تنزيه ساحة التنزيل عن شائبة وقوع الريب فيه حسبما نطق به قوله تعالى لاريب فيه والاشعار بأن ذلك ان وقع فمن جهتهم لامن جهته العالية واعتبار استقرارهم فيه واحاطته بهم لاينافى اعتبار ضعفه وقلته لما أن ما يقتضيه ذلك هو دوام ملابستهم به لاقوته وكثرته ومن فى مما ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة لريب وحملها على السببية ربما يوهم كونه محلا للريب فى الجملة وحاشاه ذلك وما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن الكتاب الكريم لاعن القدر المشترك بينه وبين أبعاضه وليس معنى كونهم فى ريب منه ارتيابهم فى استقامة معانيه وصحة أحكامه بل فى نفس كونه وحيا منزلا من عند الله عز وجل وايثار التنزيل المنبئ عن التدريج على مطلق الانزال لتذكير منشأ ارتيابهم وبناء التحدى عليه ارخاء للعنان وتوسيعا للميدان فانهم كانوا اتخذوا نزوله منجما وسيلة الى انكاره فجعل ذلك من مبادى الاعتراف به كأنه قيل ان ارتبتم فى شأن مانزلناه على مهل وتدريج فهاتوا أنتم مثل نوبة فذة من نوبه ونجم فرد من نجومه فانه أيسر عليكم من أن ينزل جملة واحدة ويتحدى بالكل وهذا كما ترى غاية مايكون فى التبكيت وازاحة العلل وفى ذكره صلى الله عليه وسلم بعنوان العبودية مع الاضافة الى ضمير الجلالة من التشريف والتنويه والتنبيه على اختصاصه به عز وجل وانقياده لأوامره تعالى مالا يخفى وقرئ على عبادنا والمراد هو صلى الله عليه وسلم وأمته أو جميع الانبياء عليهم السلام ففيه ايذان بأن الارتياب فيه ارتياب فيما أنزل من قبله لكونه مصدقا له ومهيمنا عليه والامر فى قوله تعالى ﴿فأتوا بسورة﴾ من باب التعجيز والقام الحجر كما فى قوله تعالى فأت بها من المغرب والفاء للجواب وسببية الارتياب للامر أو الاتيان بالمأمور به لما أشير اليه من أنه عبارة عن جزمهم المذكور فانه سبب للاول مطلقا وللثانى على تقدير الصدق كأنه قيل ان كان الامر كما زعمتم من كونه كلام البشر فأتوا بمثله لانكم تقدرون على ما يقدر عليه سائر بنى نوعكم والسورة الطائفة من القرآن العظيم المترجمة وأقلها ثلاث آيات وواوها أصلية منقولة من سور البلد لانها محيطة بطائفة من القرآن مفرزة محوزة على حيالها أو محتوية على فنون رائقة من العلوم احتواء سور المدينة على ما فيها أو من السورة التى هى الرتبة قال

ولرهط حراب وقد سورة فى المجد ليس غرابها بمطار

فان سور القرآن مع كونها فى أنفسها رتبا من حيث الفضل والشرف أو من حيث الطول والقصر فهى من حيث انتظامها مع أخواتها فى المصحف مراتب يرتقى اليها القارئ شيأ فشيأ وقيل واوها مبدلة من الهمزة فمعناها البقية من الشئ ولا يخفى مافيه ومن فى قوله تعالى ﴿من مثله﴾ بيانية متعلقة بمحذوف وقع صفة لسورة والضمير لما نزلنا أى بسورة كائنة من مثله فى علو الرتبة وسمو الطبقة والنظم الرائق والبيان البديع وحيازة سائر نعوت الاعجاز وجعلها تبعيضية يوهم أن له مثلا محققا قد أريد تعجيزهم عن الاتيان ببعضه كانه قيل فأتوا ببعض ما هو مثل له فلا يفهم منه كون المماثلة من تتمة المعجوز عنه فضلا عن كونها مدارا للعجز مع أنه المراد وبناء الامر على المجاراة معهم بحسب حسبانهم حيث كانوا يقولون لو نشاء لقلنا مثل هذا

أو على التهكم بهم يأباه ماسبق من تنزيله منزلة الريب فان مبنى التهكم على تسليم ذلك منهم وتسويفه ولو بغير جد وقيل هى زائدة على ماهو رأى الاخفش بدليل قوله تعالى فأتوا بسورة مثله بعشر سور مثله وقيل هى ابتدائية فالضمير حينئذ للمنزل عليه حتما لما أن رجوعه الى المنزل يوهم أن له مثلا محققا قد و رد الامر التعجيزى بالاتيان بشىء منه وقد عرفت مافيه بخلاف رجوعه الى المنزل عليه فان تحقق مثله عليه السلام فى البشرية والعربية والأمية يهون الخطب فى الجملة خلا أن تخصيص التحدى بفرد يشاركه عليه السلام فيما ذكر من الصفات المنافية للاتيان بالمأمور به لايدل على عجز من ليس كذلك من علمائهم بل ربما يوهم قدرتهم على ذلك فى الجملة فرادى أو مجتمعين مع أنه يستدعى عراء المنزل عما فصل من النعوت الموجبة لاستحالة وجود مثله فأين هذا من تحدى أمة جمة وأمرهم بأن يحتشدوا فى حلبة المعارضة بخيلهم ورجلهم حسبما ينطق به قوله تعالى ﴿وادعوا شهداءكم من دون الله﴾ ويتعاونوا على الاتيان بقدر يسير مماثل فى صفات الكمال لما أتى بجملته واحد من أبناء جنسهم والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة أو الناصر ومعنى دون أدنى مكان من شىء يقال هذا دون ذاك اذا كان أحط منه قليلا ثم استعير للتفاوت فى الاحوال والرتب فقيل زيد دون عمرو أى فى الفضل والرتبة ثم اتسع فاستعمل فى كل تجاوز حد الى حد وتخطى حكم الى حكم من غير ملاحظة انحطاط أحدهما عن الآخر فجرى مجرى أداة الاستثناء وكلمة من اما متعلقة بادعوا فتكون لابتداء الغاية والظرف مستقر والمعنى ادعوا متجاوزين الله تعالى للاستظهار من حضركم كائنا من كان أو الحاضرين فى مشاهدكم ومحاضركم من رؤسائكم وأشرافكم الذين تفزعون اليهم فى الملمات وتعولون عليهم فى المهمات أو القائمين بشهاداتكم الجارية فيما بينكم من أمنائكم المتولين لاستخلاص الحقوق بتنفيذ القول عند الولاة أو القائمين بنصرتكم حقيقة أو زعما من الانس والجن ليعينوكم واخراجه سبحانه وتعالى من حكم الدعاء فى الأول مع اندراجه فى الحضور لتأكيد تناوله لجميع ماعداه لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ماكلفوه فان ذلك مما يوهم أنهم لو دعوه تعالى لأجابهم اليه وأما فى سائر الوجوه فللتصريح من أول الامر ببراءتهم منه تعالى وكونهم فى عدوة المحادة والمشاقة له قاصرين استظهارهم على ماسواه والالتفات لادخال الروعة وتربية المهابة وقيل المعنى ادعوا من دون أولياء الله شهداءكم الذين هم وجوه الناس وفرسان المقاولة والمناقلة ليشهدوا لكم ان ما أتيتم به مثله ايذانا بأنهم يأبون أن يرضوا لانفسهم الشهادة بصحة ما هو بين الفساد وجلى الاستحالة وفيه أنه يؤذن بعدم شمول التحدى لأولئك الرؤساء وقيل المعنى ادعوا شهداءكم فصححوا بهم دعواكم ولا تستشهدوا بالله تعالى قائلين الله يشهد أن ماندعيه حق فان ذلك ديدن المحجوج وفيه أنه ان أريد بما يدعون حقية ماهم عليه من الدين الباطل فلا مساس له بمقام التحدى وان أريد مثلية ماأتوا به للمتحدى به فمع عدم ملاءمته لابتداء التحدى يوهم أنهم قد تصدوا للمعارضة وأتوا بشىء مشتبه الحال متردد بين المثلية وعدمها وانهم ادعوها مستشهدين فى ذلك بالله سبحانه اذ عند ذلك تمس الحاجة الى الامر بالاستشهاد بالناس والنهى عن الاستشهاد به تعالى وأنى لهم ذلك وما نبض لهم عرق و لا نبسوا ببنت شفة واما متعلقة بشهداءكم والمراد بهم الاصنام ودون بمعنى التجاوز على انها ظرف مستقر وقع حالا من ضمير المخاطبين والعامل مادل عليه شهداءكم أى ادعوا أصنامكم الذين اتخذتموهم آلهة متجاوزين الله تعالى فى اتخاذها كذلك وكلمة من ابتدائية فان الاتخاذ ابتداء من التجاوز والتعبير عن الاصنام بالشهداء لتعيين مدار الاستظهار بها بتذكير مازعموا من أنها بمكان من الله تعالى وأنها تنفعهم بشهادتها لهم أنهم على الحق فان ماهذا شأنه يجب أن يكون ملاذا لهم فى كل أمر مهم وملجأ يأوون اليه فى كل خطب ملم كانه قيل أولئك عدتكم فادعوهم لهذه الداهية التى دهمتكم فوجه الالتفات الايذان بكمال سخافة عقولهم حيث آثروا على عبادة من له الألوهية الجامعة لجميع صفات الكمال عبادة مالا أحقر منه وقيل

لفظة دون مستعارة من معناها الوضعى الذى هو أدنى مكان من شىء لقدامه كما فى قول الاعشى   تريك القذى من دونها وهى دونه   أى تريك القذى قدامها وهى قدام القذى فتكون ظرفا لغوا معمولا لشهداءكم لكفاية رائحة الفعل فيه من غير حاجة الى اعتماد و لا الى تقدير يشهدون أى ادعوا شهداءكم الذين يشهدون لكم بين يدى الله تعالى ليعينوكم فى المعارضة وايرادها بهذا العنوان لما مر من الاشعار بمناط الاستعانة بها ووجه الالتفات تربية المهابة وترشيح ذلك المعنى فان مايقوم بهذا الأمر فى ذلك المقام الخطير حقه أن يستعان به فى كل مرام و فى أمرهم على الوجهين بأن يستظهروا فى معارضة القرآن الذى أخرس كل منطيق بالجماد من التهكم بهم مالا يوصف وكلمة من ههنا تبعيضية لما أنهم يقولون جلس بين يديه وخلفه بمعنى فى لانهما ظرفان للفعل ومن بين يديه ومن خلفه لان الفعل انما يقع فى بعض تينك الجهتين كما تقول جئته من الليل تريد بعض الليل وقد يقال كلمة من الداخلة على دون فى جميع المواقع بمعنى فى كما فى سائر الظروف التى لاتتصرف وتكون منصوبة على الظرفية أبدا و لاتنجر الا بمن خاصة وقيل المراد بالشهداء مداره القوم ووجوه المحافل والمحاضر ودون ظرف مستقر ومن ابتدائية أى ادعوا الذين يشهدون لكم ان ماأتيتم به مثله متجاوزين فى ذلك أولياء الله ومحصله شهداء مغايرين لهم ايذانا بأنهم أيضا لا يشهدون بذلك وانما قدر المضاف الى الله تعالى رعاية للمقابلة فان أولياء الله تعالى يقابلون أولياء الاصنام كما ان ذكر الله تعالى يقابل ذكر الأصنام والمقصود بهذا الأمر ارخاء العنان والاستدراج الى غاية التبكيت كانه قيل تركنا الزامكم بشهداء لاميل لهم الى أحد الجانبين كما هو المعتاد واكتفينا بشهدائكم المعروفين بالذب عنكم فانهم أيضا لايشهدون لكم حذرا من اللائمة وأنفة من الشهادة البينة البطلان كيف لا وأمر الاعجاز قد بلغ من الظهور الى حيث لم يبق الى انكاره سبيل قطعا وفيه مامر من عدم الملاءمة لابتداء التحدى وعدم تناوله لأولئك الشهداء وايهام أنهم تعرضوا للمعارضة وأتوا بشىء احتاجوا فى اثبات مثليته للمتحدى به الى الشهادة وشتان بينهم و بين ذلك ﴿ان كنتم صادقين﴾ أى فى زعمكم انه من كلامه عليه السلام وهو شرط حذف جوابه لدلالة ماسبق عليه أى ان كنتم صادقين فأتوا بسورة من مثله الخ واستلزام المقدم للتالى من حيث ان صدقهم فى ذلك الزعم يستدعى قدرتهم على الاتيان بمثله بقضية مشاركتهم له عليه السلام فى البشرية والعربية مع مابهم من طول الممارسة للخطب والاشعار وكثرة المزاولة لأساليب النظم والنثر والمبالغة فى حفظ الوقائع والايام لا سيما عند المظاهرة والتعاون و لاريب فى أن القدرة على الشىء من موجبات الاتيان به ودواعى الأمر به ﴿فان لم تفعلوا﴾ أى ماأمرتم به من الاتيان بالمثل بعد مابذلتم فى السعى غاية المجهود وجاوزتم فى الجد كل حد معهود متشبثين بالذيول راكبين متن كل صعب وذلول وانما لم يصرح به ايذانا بعدم الحاجة اليه بناء على كمال ظهور تهالكهم على ذلك وانما أورد فى حيز الشرط مطلق الفعل وجعل مصدر الفعل المأمور به مفعولا له للايجاز البديع المغنى عن التطويل والتكرير مع سر سرى استقل به المقام وهو الايذان بأن المقصود بالتكليف هو ايقاع نفس الفعل المأمور به لاظهار عجزهم عنه لا لتحصيل المفعول أى المأتى به ضرورة استحالته وأن مناط الجواب فى الشرطية أعنى الأمر باتقاء النار هو عجزهم عن ايقاعه لافوت حصول المفعول فان مدلول لفظ الفعل هو أنفس الافعال الخاصة لازمة كانت أو متعدية من غير اعتبار تعلقاتها بمفعولاتها الخاصة فاذا علق بفعل خاص متعد فانما يقصد به ايقاع نفس ذلك الفعل واخراجه من القوة الى الفعل وأما تعلقه بمفعوله المخصوص فهو خارج عن مدلول الفعل المطلق وانما يستفاد ذلك من الفعل الخاص و لذلك تراهم يتوسلون بذلك الى تجريد الأفعال المتعدية عن مفعولاتها وتنزيلها منزلة الأفعال اللازمة فيقولون مثلا معنى فلان يعطى و يمنع يفعل الاعطاء والمنع ويرشدك الى هذا قوله تعالى فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى و لاتقربون بعد قوله تعالى ائتونى بأخ لكم من أبيكم فانه لما كان

مقصود يوسف عليه السلام بالأمر ومرمى غرضه بالتكليف منه استحضار بنيامين لم يكتف فى الشرطية الداعية لهم الى الجد فى الامتثال والسعى فى تحقيق المأمور به بالاشارة الاجمالية الى الفعل الذى ورد به الأمر بأن يقول فان لم تفعلوا بل أعاده بعينه متعلقا بمفعوله تحقيقا لمطلبه واعرابا عن مقصده هذا وقد قيل أطلق الفعل وأريد به الاتيان مع مايتعلق به اما على طريقة التعبير عن الاسماء الظاهرة بالضمائر الراجعة اليها حذرا من التكرار أو على طريقة ذكر اللازم وارادة الملزوم لما بينهما من التلازم المصحح للانتقال بمعونة قرائن الحال فتدبر وايثار كلمة ان المفيدة للشك على اذا مع تحقق الجزم بعدم فعلهم مجاراة معهم بحسب حسبانهم قبل التجربة أو تهكم بهم ﴿ولن تفعلوا﴾ كلمة لن لنفى المستقبل كلا خلا أن فى لن زيادة تأكيد وتشديد وأصلها عند الخليل لا أن وعند الفراء لا أبدلت ألفها نونا وعند سيبويه حرف مقتضب للمعنى المذكور وهى احدى الروايتين عن الخليل والجملة اعتراض بين جزأى الشرطية مقرر لمضمون مقدمها ومؤكد لايجاب العمل بتاليها وهذه معجزة باهرة حيث أخبر بالغيب الخاص علمه به عز وجل وقد وقع الامر كذلك كيف لا ولو عارضوه بشىء يدانيه فى الجملة لتناقله الرواة خلفا عن سلف ﴿فاتقوا النار﴾ جواب للشرط على أن اتقاء النار كناية عن الاحتراز من العناد اذ بذلك يتحقق تسببه عنه وترتبه عليه كانه قيل فاذا عجزتم عن الاتيان بمثله كما هو المقرر فاحترزوا من انكار كونه منزلا من عند الله سبحانه فانه مستوجب للعقاب بالنار لكن أوثر عليه الكناية المذكورة المبنية على تصوير العناد بصورة النار وجعل الاتصاف به عين الملابسة بها للمبالغة فى تهويل شأنه وتفظيع أمره واظهار كمال العناية بتحذير المخاطبين منه وتنفيرهم عنه وحثهم على الجد فى تحقيق المكنى عنه وفيه من الايجاز البديع مالا يخفى حيث كان الاصل فان لم تفعلوا فقد صح صدقه عندكم واذا صح ذلك كان لزومكم العناد وترككم الايمان به سببا لاستحقاقكم العقاب بالنار فاحترزوا منه واتقوا النار ﴿التى وقودها الناس والحجارة﴾ صفة للنار مورثة لها زيادة هول وفظاعة أعاذنا الله من ذلك والوقود مايوقد به النار وترفع من الحطب وقرىء بضم الواو وهو مصدر سمى به المفعول مبالغة كما يقال فلان فخر قومه وزين بلده والمعنى أنها من الشدة بحيث لاتمس شيئا من رطب أو يابس الا أحرقته لا كنيران الدنيا تفتقر فى الالتهاب الى وقود من حطب أو حشيش وانما جعل هذا الوصف صلة للموصول مقتضية لكون انتسابها الى مانسبت هى اليه معلوما للمخاطب بناء على أنهم سمعوه من أهل الكتاب قبل ذلك أو من الرسول صلى الله عليه وسلم أو سمعوا قبل هذه الآية المدنية قوله تعالى نارا وقودها الناس والحجارة فأشير ههنا الى ماسمعوه أولا وكون سورة التحريم مدنية لايستلزم كون جميع آياتها كذلك كما هو المشهور وأما أن الصفة أيضا يجب أن تكون معلومة الانتساب الى الموصوف عند المخاطب فالخطب فيه هين لما أن المخاطب هناك المؤمنون وظاهر أنهم سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد بالحجارة الاصنام وبالناس أنفسهم حسبما ورد فى قوله تعالى انكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم الآية ﴿أعدت للكافرين﴾ أى هيئت للذين كفروا بما نزلناه وجعلت عدة لعذابهم والمراد اما جنس الكفار والمخاطبون داخلون فيهم دخولا أوليا واماهم خاصة ووضع الكافرين موضع ضميرهم لذمهم وتعليل الحكم بكفرهم وقرىء اعتدت من العتاد بمعنى العدة وفيه دلالة على أن النار مخلوقة موجودة الآن والجملة استئناف لامحل لها من الاعراب مقررة لمضمون ماقبلها ومؤكدة لايجاب العمل به ومبينة لمن أريد بالناس دافعة لاحتمال العموم وقيل حال باضمار قد من النار لامن ضميرها فى وقودها لما فى ذلك من الفصل بينهما بالخبر وقيل صلة بعد صلة أو عطف على الصلة بترك العاطف ﴿وبشر الذين آمنوا﴾ أى بأنه منزل من عند الله عز وجل وهو معطوف على الجملة السابقة لكن لاعلى أن المقصود عطف نفس الامر حتى يطلب له مشاكل يصح عطفه عليه بل على أنه عطف قصة

المؤمنين بالقرآن ووصف ثوابهم على قصة الكافرين به وكيفية عقابهم جريا على السنة الالهية من شفع الترغيب بالترهيب والوعد بالوعيد وكان تغيير السبك لتخييل كمال التباين بين حالى الفريقين وقرىء وبشر على صيغة الفعل مبنيا للمفعول عطفا على أعدت فيكون استئنافا وتعليق التبشير بالموصول للاشعار بانه معلل بما فى حيز الصلة من الايمان والعمل الصالح لكن لا لذاتهما فانهما لايكافئان النعم السابقة فضلا من أن يقتضيا ثوابا فيما يستقبل بل بجعل الشارع ومقتضى وعده وجعل صلته فعلا مفيدا للحدوث بعد ايراد الكفار بصيغة الفاعل لحث المخاطبين بالاتقاء على احداث الايمان وتحذيرهم من الاستمرار على الكفر والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وقيل لكل من يتأتى منه التبشير كما فى قوله عليه السلام بشر المشائين الى المساجد فى ظلم الليالى بالنور التام يوم القيامة فانه عليه السلام لم يأمر بذلك واحدا بعينه بل كل أحد ممن يتأتى منه ذلك وفيه رمز الى أن الامر لعظمه وفخامة شأنه حقيق بان يتولى التبشير به كل من يقدر عليه والبشارة الخبر السار الذى يظهر به أثر السرور فى البشرة وتباشير الصبح أوائل ضوئه ﴿وعملوا الصالحات﴾ الصالحة كالحسنة فى الجريان مجرى الاسم وهى كل ما استقام من الاعمال بدليل العقل والنقل واللام للجنس والجمع لافادة أن المراد بها جملة من الاعمال الصالحة التى أشير الى أمهاتها فى مطلع السورة الكريمة وطائفة منها متفاوتة حسب تفاوت حال المكلفين فى مواجب التكليف وفى عطف العمل على الايمان دلالة على تغايرهما واشعار بان مدار استحقاق البشارة مجموع الامرين فان الايمان أساس والعمل الصالح كالبناء عليه ولا غناء بأس لابناء به ﴿أن لهم جنات﴾ منصوب بنزع الخافض وافضاء الفعل اليه أو مجرور باضماره مثل الله لأفعلن والجنة هى المرة من مصدر جنه اذا ستره تطلق على النخل والشجر المتكاثف المظلل بالتفاف أغصانه قال زهير

كأن عينى فى غربى مقتلة من النواضح تسقى جنة سحقا

أى نخلا طوالا كانها لفرط تكاثفها والتفافها وتغطيتها لما تحتها بالمرة نفس السترة وعلى الارض ذات الشجر قال الفراء الجنة مافيه النخيل والفردوس مافيه الكرم فحق المصدر حينئذ أن يكون مأخوذا من الفعل المبنى للمفعول وانما سميت دار الثواب بها مع أن فيها مالا يوصف من الغرفات والقصور لما أنها مناط نعيمها ومعظم ملاذها وجمعها مع التنكير لانها سبع على ماذكره ابن عباس رضى الله عنهما جنة الفردوس وجنة عدن وجنة النعيم ودار الخلد وجنة المأوى ودار السلام وعليون وفى كل واحدة منها مراتب ودرجات متفاوتة بحسب تفاوت الاعمال وأصحابها ﴿تجرى من تحتها الأنهار﴾ فى حيز النصب على أنه صفة جنات فان أريد بها الاشجار فجريان الانهار من تحتها ظاهر وان أريد بها الارض المشتملة عليها فلا بد من تقدير مضاف أى من تحت أشجارها وان أريد بها مجموع الارض والاشجار فاعتبار التحتية بالنظر الى الجزء الظاهر المصحح لاطلاق اسم الجنة على الكل عن مسروق ان أنهار الجنة تجرى فى غير أخدود واللام فى الانهار للجنس كما فى قولك لفلان بستان فيه الماء الجارى والتين والعنب أو عوض عن المضاف اليه كما فى قوله تعالى واشتعل الرأس شيبا أو للعهد والاشارة الى ماذكر فى قوله عز وعلا أنهار من ماء غير آسن الآية والنهر بفتح الهاء وسكونها المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر كالنيل والفرات والتركيب للسعة والمراد بها ماؤها على الاضمار أو على المجاز اللغوى أو المجارى أنفسها وقد أسند اليها الجريان مجازا عقليا كما فى سال الميزاب ﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل﴾ صفة أخرى لجنات أخرت عن الأولى لان جريان الانهار من تحتها وصف لها باعتبار ذاتها وهذا وصف لها باعتبار أهلها المتنعمين بها أو خبر مبتدا محذوف أو جملة مستأنفة كأنه حين وصفت الجنات بما ذكر من الصفة وقع فى ذهن السامع أثمارها كثمار جنات الدنيا أو لا فبين حالها وكلما نصب على الظرفية ورزقا مفعول به ومن الأولى والثانية للابتداء واقعتان موقع الحال كأنه قيل كل وقت رزقوا

مرزوقا مبتدأ من الجنات مبتدأ من ثمرة على أن الرزق مقيد بكونه مبتدأ من الجنات وابتداؤه منها مقيد بكونه مبتدأ من ثمرة فصاحب الحال الاولى رزقا وصاحب الثانية ضميره المستكن فى الحال ويجوز كون من ثمرة بيانا قدم على المبين كما فى قولك رأيت منك أسدا وهذا اشارة الى مارزقوا وان وقعت على فرد معين منه كقولك مشيراً الى نهر جار هذا الماء لا ينقطع فانك ان أشرت الى ماتعاينه بحسب الظاهر لكنك انما تعنى بذلك النوع المعلوم المستمر فالمعنى هذا مثل الذى رزقناه من قبل أى من قبل هذا فى الدنيا ولكن لما استحكم الشبه بينهما جعل ذاته ذاته وانما جعل ثمر الجنة كثمار الدنيا لتميل النفس اليه حين تراه فان الطباع مائلة الى المألوف متنفرة عن غير معروف وليتبين لها مزيته وكنه النعمة فيه اذ لو كان جنسا غير معهود لظن أنه لا يكون الا كذلك أو مثل الذى رزقناه من قبل فى الجنة لان طعامها متشابه الصور كما يحكى عن الحسن رضى الله عنه ان أحدهم يؤتى الصحفة فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى فيراها مثل الاولى فيقول ذلك فيقول الملك كل فاللون واحد والطعم مختلف أو كما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال والذى نفسى بيده ان الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة ليأكلها فما هى واصلة الى فيه حتى يبدل الله تعالى مكانها مثلها والاول أنسب لمحافظة عموم كلما فانه يدل على ترديدهم هذه المقالة كل مرة رزقوا لا فيما عدا المرة الاولى يظهرون بذلك التبجح وفرط الاستغراب لما بينهما من التفاوت العظيم من حيث اللذة مع اتحادهما فى الشكل واللون كأنهم قالوا هذا عين ما رزقناه فى الدنيا فمن أين له هذه الرتبة من اللذة والطيب ولا يقدح فيه ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنه ليس فى الجنة من أطعمة الدنيا الا الاسم فان ذلك لبيان كمال التفاوت بينهما من حيث اللذة والحسن والهيئة لا لبيان أن لا تشابه بينهما أصلا كيف لا واطلاق الاسماء منوط بالاتحاد النوعى قطعا هذا وقد فسرت الآية الكريمة بان مستلذات أهل الجنة بمقابلة مارزقوه فى الدنيا من المعارف والطاعات متفاوتة الحال فيجوز أن يريدوا هذا ثواب الذى رزقناه فى الدنيا من الطاعات ولا يساعده تخصيص ذلك بالثمرات فان الجنة ومافيها من فنون الكرامات من قبيل الثواب ﴿وأتوا به متشابها﴾ اعتراض مقرر لما قبله والضمير المجرور على الاول راجع الى مادل عليه فحوى الكلام مما رزقوا فى الدارين كما فى قوله تعالى ان يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما أى بجنسى الغنى والفقير وعلى الثانى الى الرزق ﴿ولهم فيها أزواج مطهرة﴾ أى مما فى نساء الدنيا من الاحوال المستقذرة كالحيض والدرن ودنس الطبع وسوء الخلق فان التطهر يستعمل فى الاجسام والاخلاق والافعال وقرئ مطهرات وهما لغتان فصيحتان يقال النساء فعلت وفعلن وهن فاعلة وفواعل قال

واذا العذارى بالدخان تقنعت ... واستعجلت نصب القدور فملت

فالجمع على اللفظ والافراد على تأويل الجماعة وقرئ مطهرة بتشديد الطاء وكسر الهاء بمعنى متطهرة ومطهرة أبلغ من طاهرة ومتطهرة للاشعار بان مطهراً طهرهن وماهو الا الله سبحانه وتعالى وأما التطهر فيحتمل أن يكون من قبل أنفسهن كما عند اغتسالهن والزوج يطلق على الذكر والانثى وهو فى الاصل اسم لما له قرين من جنسه وليس فى مفهومه اعتبار التوالد الذى هو مدار بقاء النوع حتى لا يصح اطلاقه على أزواج أهل الجنة لخلودهم فيها واستغنائهم عن الاولاد كما أن المدارية لبقاء الفرد ليست بمعتبرة فى مفهوم اسم الرزق حتى يخل ذلك باطلاقه على ثمار الجنة ﴿وهم فيها خالدون﴾ أى دائمون والخلود فى الاصل الثبات المديد دام أو لم يدم ولذلك قيل للاثافى والاحجار الخوالد وللجزء الذى يبقى من الانسان على حاله خلد ولو كان وضعه للدوام لما قيد بالتأبيد فى قوله عز وعلا خالدين فيها أبدا ولما استعمل حيث لا دوام فيه لكن المراد ههنا الدوام قطعا لما يفضى به من الآيات والسنن وماقيل من أن الابدان مؤلفة من الاجزاء المتضادة فى الكيفية معرضة للاستحالات المؤدية الى الانحلال والانفكاك مداره قياس ذلك العالم الكامل بما يشاهد فى عالم الكون والفساد

على أنه يجوز أن يعيدها الخالق تعالى بحيث لا يعتورها الاستحالة ولا يعتريها الانحلال قطعا بأن تجعل أجزاؤها متفاوتة فى الكيفيات متعادلة فى القوى بحيث لا يقوى شئ منها عند التفاعل على احالة الآخر متعانقة متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض وتبقى هذه النسبة منحفظة فيما بينها أبدا لا يعتريها التغير بالأكل والشرب والحركات وغير ذلك واعلم أن معظم اللذات الحسية لما كان مقصوراً على المساكن والمطاعم والمناكح حسبما يقضى به الاستقراء وكان ملاك جميع ذلك الدوام والثبات اذ كل نعمة وان جلت حيث كانت فى شرف الزوال ومعرض الاضمحلال فانها منغصة غير صافية من شوائب الالم بشر المؤمنين بها وبدوامها تكميلا للبهجة والسرور اللهم وفقنا لمراضيك وثبتنا على مايؤدى اليها من العقد والعمل ﴿إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة﴾ شروع فى تنزيه ساحة التنزيل عن تعلق ريب خاص اعتراهم من جهة ماوقع فيه من ضرب الامثال وبيان لحكمته وتحقيق للحق اثر تنزيهها عما اعتراهم من مطلق الريب بالتحدى والقام الحجر والخام كافة البلغاء من أهل المدر والوبر روى أبو صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المنافقين طعنوا فى ضرب الامثال بالنار والظلمات والرعد والبرق وقالوا الله أجل وأعلى من ضرب الامثال وروى عطاء رضى الله عنه أن هذا الطعن كان من المشركين وروى عنه أيضاً أنه لما نزل قوله تعالى يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له الآية وقوله تعالى مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء الآية قالت اليهود أى قدر للذباب والعنكبوت حتى يضرب الله تعالى بهما الامثال وجعلوا ذلك ذريعة الى انكار كونه من عند الله تعالى مع أنه لا يخفى على أحد ممن له تمييز أنه ليس مما يتصور فيه التردد فضلا عن النكير بل هو من أوضح أدلة كونه خارجا عن طوق البشر نازلا من عند خلاق القوى والقدر كيف لا وان التمثيل كما مر ليس الا ابراز المعنى المقصود فى معرض الامر المشهود وتحلية المعقول بحلية المحسوس وتصوير أوابد المعانى بهيئة المأنوس لاستمالة الوهم واستنزاله عن معارضته للعقل واستعصائه عليه فى ادراك الحقائق الخفية وفهم الدقائق الأبية كى يتابعه فيما يقتضيه ويشايعه الى ما يرتضيه ولذلك شاعت الامثال فى الكتب الالهية والكلمات النبوية وذاعت فى عبارات البلغاء واشارات الحكماء ومن قضية وجوب التماثل بين الممثل والممثل به فى مناط التمثيل تمثيل العظيم بالعظيم والحقير بالحقير وقد مثل فى الانجيل غل الصدر بالنخالة ومعارضة السفهاء باثارة الزنابير وجاء فى عبارات البلغاء أجمع من ذرة وأجرأ من الذباب وأسمع من قراد وأضعف من بعوضة الى غير ذلك مما لا يكاد يحصر والحياء تغير النفس وانقباضها عما يعاب به أو يذم عليه يقال حيي الرجل وهو حيي واشتقاقه من الحياة اشتقاق شظى وحشى ونسى من الشظى والنسى والحشى يقال شظى الفرس ونسى وحشى اذا اعتلت منه تلك الاعضاء كان من يعتريه الحيا تعتل قوته الحيوانية وتنتقص واستحيا بمعناه خلا أنه يتعدى بنفسه وبحرف الجر يقال استحييته واستحييت منه والاول لا يتعدى الا بحرف الجر وقد يحذف منه احدى الياءين ومنه قوله

ألا يستحى منا الملوك ويتقى ... محارمنا لا يبوء الدم بالدم

وقوله

اذا ما استحين الماء يعرض نفسه ... كرعن بسبت فى اناء من الورد

فكما انه اذا أسند اليه سبحانه بطريق الايجاب فى مثل قوله صلى الله عليه وسلم ان الله يستحيي من ذى الشيبة المسلم أن يعذبه وقوله عليه السلام ان الله حيي كريم يستحيي اذا رفع اليه العبد يديه أن يردهما صفرا حتى يضع فيهما خيرا يراد به الترك الخاص على طريقة التمثيل حيث مثل فى الحديثين الكريمين تركه تعذيب ذى الشيبة وتخييب العبد من عطائه بترك من يتركهما حياء كذلك اذا نفى عنه تعالى فى المواد الخاصة كما فى هذه الآية الشريفة وفى قوله تعالى والله لا يستحيي من الحق يراد به سلب ذلك الترك الخاص المضاهى لترك المستحيي عنه لا سلب وصف الحياء عنه تعالى رأسا كما فى قولك ان

الله لايوصف بالحياء لان تخصيص السلب ببعض المواد يوهم كون الايجاب من شأنه تعالى فى الجملة فالمراد ههنا عدم ترك ضرب المثل المماثل لترك من يستحيي من ضربه وفيه رمز الى تعاضد الدواعى الى ضربه وتآخذ البواعث اليه اذالاستحياء انما يتصور فى الأفعال المقبولة للنفس المرضية عندها ويجوز أن يكون وروده على طريقة المشاكلة فانهم كانوا يقولون أما يستحيي رب محمد أن يضرب مثلا بالاشياء المحقرة كما فى قول من قال

من مبلغ أفناء يعرب كلها انى بنيت الجار قبل المنزل

وضرب المثل استعماله فى مضربه وتطبيقه به لاصنعه وانشاؤه فى نفسه والا لكان انشاء الأمثال السائرة فى مواردها ضربا لها دون استعمالها بعد ذلك فى مضاربها لفقدان الانشاء هناك والامثال الواردة فى التنزيل وان كان استعمالها فى مضاربها عين انشائها فى أنفسها لكن التعبير عنه بالضرب ليس بهذا الاعتبار بل بالاعتبار الأول قطعاً وهو مأخوذ اما من ضرب الخاتم بجامع التطبيق فكما ان ضربه تطبيقه بقالبه كذلك استعمال الامثال فى مضاربها تطبيقها بها كأن المضارب قوالب تضرب الأمثال على شاكلتها لكن لابمعنى أنها تنشأ بحسبها بعد أن لم تكن كذلك بل بمعنى أنها تورد منطبقة عليها سواء كان انشاؤها حينئذ كعامة الامثال التنزيلية فان مضاربها قوالبها أو قبل ذلك كسائر الامثال السائرة فانها وان كانت مصنوعة من قبل الا أن تطبيقها أى ايرادها منطبقة على مضاربها انما يحصل عند الضرب واما من ضرب الطين على الجدار ليلتزق به بجامع الالصاق كان من يستعملها يلصقها بمضاربها و يجعلها ضربة لازب لاتنفك عنها لشدة تعلقها بها ومحل أن يضرب على تقدير تعدية يستحيي بنفسه النصب على المفعولية واما على تقدير تعديته بالجار فعند الخليل الخفض باضمار من وعند سيبويه النصب بافضاء الفعل اليه بعد حذفها ومثلا مفعول ليضرب وما اسمية ابهامية تزيد ما تقارنه من الاسم المنكر ابهاما وشياعا كما فى قولك أعطنى كتابا ما كانه قيل مثلاما من الامثال أى مثل كان فهى صفة لما قبلها أو حرفية مزيدة لتقوية النسبة وتوكيدها كما فى قوله تعالى فبما رحمة من الله و بعوضة بدل من مثلا أو عطف بيان عند من يجوزه فى النكرات أو مفعول ليضرب ومثلا حال تقدمت عليها لكونها نكرة أو هما مفعولاه لتضمنه معنى الجعل والتصيير وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى هو بعوضة والجملة على تقدير كون ما موصولة صلة لها محذوفة الصدر كما فى قوله تعالى تماما على الذى أحسن على قراءة الرفع وعلى تقدير كونها موصوفة صفة لها كذلك ومحل ما على الوجهين النصب على أنه بدل من مثلا أو على أنه مفعول ليضرب وعلى تقدير كونها ابهامية صفة لمثلا كذلك واما على تقدير كونها استفهامية فهى خبر لها كأنه لما رد استبعادهم ضرب المثل قيل مابعوضة وأى مانع فيها حتى لايضرب بها المثل بل له تعالى أن يمثل بما هو أصغر منها وأحقر كجناحها على ماوقع فى قوله صلى الله عليه وسلم لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها شربة ماء والبعوض فعول من البعض وهو القطع كالبضع والعضب غلب على هذا النوع كالخموش فى لغة هذيل من الخمش وهو الخدش ﴿ فما فوقها ﴾ عطف على بعوضة على تقدير نصبها على الوجوه المذكورة وما موصولة أو موصوفة صلتها أو صفتها الظرف واما على تقدير رفعها فهو عطف على ما الاولى على تقدير كونها موصولة أو موصوفة واما على تقدير كونها استفهامية فهو عطف على خبرها أعنى بعوضة لاعلى نفسها كما قيل والمعنى مابعوضة فالذى فوقها أو فشئ فوقها حتى لايضرب بها المثل وكذا على تقدير كونها صفة للنكرة أو زائدة و بعوضة خبر للمضمر وذكر البعوضة فما فوقها من بين افراد المثل انما هو بطريق التمثيل دون التعيين والتخصيص فلا يخل بالشيوع بل يقرره و يؤكده بطريق الاولوية والمراد بالفوقية اما الزيادة فى المعنى الذى أريد بالتمثيل أعنى الصغر والحقارة واما الزيادة فى الحجم والجثة لكن لا بالغا مابلغ بل فى الجملة كالذباب والعنكبوت وعلى التقدير الاول

يجوز أن يكون ما الثانية خاصة استفهامية انكارية والمعنى ان الله لايستحيي أن يضرب مثلا مابعوضة فأى شئ فوقها فى الصغر والحقارة فاذن له تعالى أن يمثل بكل مايريد ونظيره فى احتمال الامرين ماروى أن رجلا بمنى خر على طنب فسطاط فقالت عائشة رضى الله عنها حين ذكر لها ذلك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مامن مسلم يشاك شوكة فما فوقها الا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة فانه يحتمل مايجاوز الشوكة فى القلة كنخبة النملة بقوله عليه السلام ما أصاب المؤمن من مكروه فهو كفارة لخطاياه حتى نخبة النملة وماتجاوزها من الالم كامثال ماحكى من الخرور ﴿ فأما الذين آمنوا ﴾ شروع فى تفصيل مايترتب على ضرب المثل من الحكم اثر تحقيق حقية صدوره عنه تعالى والفاء للدلالة على ترتب مابعدها على مايدل عليه ماقبلها كأنه قيل فيضربه فأما الذين الخ وتقديم بيان حال المؤمنين على ماحكى من الكفرة مما لايفتقر الى بيان السبب وفى تصدير الجملتين باما من احماد أمر المؤمنين وذم الكفرة مالايخفى وهو حرف متضمن لمعنى اسم الشرط وفعله بمنزلة مهما يكن من شئ ولذلك يجاب بالفاء وفائدته توكيد ماصدر به وتفصيل مافى نفس المتكلم من الاقسام فقد تذكر جميعا وقد يقتصر على واحد منها كما فى قوله عز من قائل فأما الذين فى قلوبهم زيغ الخ قال سيبويه أما زيد فذاهب معناه مهما يكن من شئ فهو ذاهب لامحالة وأنه منه عزيمة وكان الاصل دخول الفاء على الجملة لانها الجزاء لكن كرهوا ايلاءها حرف الشرط فادخلوها الخبر وعوض المبتدأ عن الشرط لفظاً والمراد بالموصول فريق المؤمنين المعهودين كما ان المراد بالموصول الآتى فريق الكفرة لامن يؤمن بضرب المثل ومن يكفر به لاختلال المعنى أى فأما المؤمنون ﴿ فيعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ كسائر ماورد منه تعالى والحق هو الثابت الذى يحق ثبوته لامحالة بحيث لاسبيل للعقل الى انكاره لا الثابت مطلقاً واللام للدلالة على أنه مشهود له بالحقية وأن له حكما ومصالح ومن لابتداء الغاية المجازية وعاملها محذوف وقع حالا من الضمير المستكن فى الحق أو من الضمير العائد الى المثل أو الى ضربه أى كائنا وصادراً من ربهم والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم لتشريفهم وللايذان بان ضرب المثل تربية لهم وارشاد الى مايوصلهم الى كمالهم اللائق بهم والجملة سادة مسد مفعولى يعلمون عند الجمهور ومسد مفعوله الاول والثانى محذوف عند الاخفش أى فيعلمون حقيته ثابتة ولعل الاكتفاء بحكاية علمهم المذكور عن حكاية اعترافهم بموجبه كما فى قوله تعالى والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا للاشعار بقوة مابينهما من التلازم وظهوره المغنى عن الذكر ﴿ وأما الذين كفروا ﴾ ممن حكيت أقوالهم وأحوالهم ﴿ فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ أوثر يقولون على لايعلمون حسبما يقتضيه ظاهر قرينه دلالة على كمال غلوهم فى الكفر وترامى أمرهم فى العتو فان مجرد عدم العلم بحقيته ليس بمثابة انكارها والاستهزاء به صريحا وتمهيداً لتعداد مانعى عليهم فى تضاعيف الجواب من الضلال والفسق ونقض العهد وغير ذلك من شنائعهم المترتبة على قولهم المذكور على ان عدم العلم بحقيته لايعم جميعهم فان منهم من يعلم بها وانما يقول مايقول مكابرة وعنادا وحمله على عدم الاذعان والقبول الشامل للجهل والعناد تعسف ظاهر هذا وقد قيل كان من حقه وأما الذين كفروا فلا يعلمون ليطابق قرينه و يقابل قسيمه لكن لما كان قولهم هذا دليلا واضحاً على جهلهم عدل اليه على سبيل الكناية ليكون كالبرهان عليه فتأمل وكن على الحق المبين وماذا اما مؤلفة من كلمة استفهام وقعت مبتدأ خبره ذا بمعنى الذى وصلته مابعده والعائد محذوف فالاحسن أن يجئ جوابه مرفوعا واما منزلة منزلة اسم واحد بمعنى أى شئ فالاحسن فى جوابه النصب والارادة نزوع النفس وميلها الى الفعل بحيث يحملها اليه أو القوة التى هى مبدؤه والاول مع الفعل والثانى قبله وكلاهما مما لايتصور فى حقه تعالى ولذلك اختلفوا فى ارادته عز وجل فقيل ارادته تعالى لافعاله كونه غير ساه فيه ولا مكره ولا فعال غيره أمره بها فلا تكون المعاصى بارادته تعالى وقيل هى علمه باشتمال الأمر على النظام الأكمل والوجه

الأصلح فانه يدعو القادر الى تحصيله والحق انها عبارة عن ترجيح أحد طرفى المقدور على الآخر وتخصيصه بوجه دون وجه أو معنى يوجبه وهى أعم من الاختيار فانه ترجيح مع تفضيل وفى كلمة هذا تحقير للمشار اليه واسترذال له ومثلا نصب على التميز أو على الحال كما فى قوله تعالى ناقة الله لكم آية وليس مرادهم بهذه العظيمة استفهام الحكمة فى ضرب المثل ولا القدح فى اشتماله على الفائدة مع اعترافهم بصدوره عنه جل وعلا بل غرضهم التنبيه بادعاء أنه من الدناءة والحقارة بحيث لايليق بأن يتعلق به أمر من الأمور الداخلة تحت ارادته تعالى على استحالة أن يكون ضرب المثل بعض عنده سبحانه فقوله عز من قائل ﴿يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا﴾ جواب عن تلك المقالة الباطلة ورد لها ببيان أنه مشتمل على حكمة جليلة وغاية جميلة هى كونه ذريعة الى هداية المستعدين للهداية واضلال المنهمكين فى الغواية فوضع الفعلان موضع الفعل الواقع فى الاستفهام مبالغة فى الدلالة على تحققهما فان ارادتهما دون وقوعهما بالفعل وتجافيا عن نظم الاضلال مع الهداية فى سلك الارادة لايهامه تساويهما فى تعلقهما وليس كذلك فان المراد بالذات من ضرب المثل هو التذكر والاهتداء كما ينبىء عنه قوله تعالى وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ونظائره وأما الاضلال فهو أمر عارض مترتب على سوء اختيارهم وأوثر صيغة الاستقبال ايذانا بالتجدد والاستمرار وقيل وضع الفعلان موضع مصدريهما كانه قيل أراد اضلال كثير وهداية كثير وقدم الاضلال على الهداية مع تقدم حال المهتدين على حال الضالين فيما قبله ليكون أول مايقرع أسماعهم من الجواب أمرا فظيعا يسوءهم ويفت فى أعضادهم وهو السر فى تخصيص هذه الفائدة بالذكر وقيل هو بيان للجملتين المصدرتين باما وتسجيل بأن العلم بكونه حقا هدى وأن الجهل بوجه ايراده والانكار لحسن مورده ضلال وفسوق وكثرة كل فريق انما هى بالنظر الى أنفسهم لا بالقياس الى مقابليهم فلا يقدح فى ذلك أقلية أهل الهدى بالنسبة الى أهل الضلال حسبما نطق به قوله تعالى وقليل من عبادى الشكور ونحو ذلك واعتبار كثرتهم الذاتية دون قلتهم الاضافية لتكميل فائدة ضرب المثل وتكثيرها ويجوز أن يراد فى الأولين الكثرة من حيث العدد وفى الآخرين من حيث الفضل والشرف كما فى قول من قال

ان الكرام كثير فى البلاد وان ... قلوا كما غيرهم قل وان كثروا

واسناد الاضلال أى خلق الضلال اليه سبحانه مبنى على أن جميع الأشياء مخلوقة له تعالى وان كان أفعال العباد من حيث الكسب مستندة اليهم وجعله من قبيل اسناد الفعل الى سببه يأباه التصريح بالسبب وقرىء يضل به كثير ويهدى به كثير على البناء للمفعول وتكريره مع جواز الاكتفاء بالاول لزيادة تقرير السببية وتأكيدها ﴿وما يضل به﴾ أى بالمثل أو بضربه ﴿الا الفاسقين﴾ عطف على ماقبله وتكملة للجواب والرد وزيادة تعيين لمن أريد اضلالهم ببيان صفاتهم القبيحة المستتبعة له واشارة الى أن ذلك ليس اضلالا ابتدائيا بل هو تثبيت على ما كانوا عليه من فنون الضلال وزيادة فيه وقرىء وما يضل به الا الفاسقون على البناء للمفعول والفسق فى اللغة الخروج يقال فسقت الرطبة عن قشرها والفأرة من جحرها أى خرجت قال رؤبة

يذهبن فى نجد وغورا غائرا ... فواسقا عن قصدها جوائرا

وفى الشريعة الخروج عن طاعة الله عز وجل بارتكاب الكبيرة التى من جملتها الاصرار على الصغيرة وله طبقات ثلاث الأولى التغابى وهو ارتكابها أحيانا مستقبحا لها والثانية الانهماك فى تعاطيها والثالثة المثابرة عليها مع جحود قبحها وهذه الطبقة من مراتب الكفر فما لم يبلغها الفاسق لا يسلب عنه اسم المؤمن لاتصافه بالتصديق الذى عليه يدور الايمان ولقوله تعالى وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا والمعتزلة لما ذهبوا الى أن الايمان عبارة عن مجموع التصديق والاقرار

والعمل والكفر عن تكذيب الحق وجحوده ولم يتسن لهم ادخال الفاسق فى أحدهما جعلوه قسما بين قسمى المؤمن والكافر لمشاركته كل واحد منهما فى بعض أحكامه والمراد بالفاسقين ههنا العاتون الماردون فى الكفر الخارجون عن حدوده ممن حكى عنهم ماحكى من انكار كلام الله تعالى والاستهزاء به وتخصيص الاضلال بهم مترتبا على صفة الفسق وما أجرى عليهم من القبائح للايذان بأن ذلك هو الذى أعدهم للاضلال وأدى بهم الى الضلال فان كفرهم وعدولهم عن الحق واصرارهم على الباطل صرفت وجوه أنظارهم عن التدبر فى حكمة المثل الى حقارة الممثل به حتى رسخت به جهالتهم وازدادت ضلالتهم فأنكروه وقالوا فيه ماقالوا ﴿الذين ينقضون عهد الله﴾ صفة للفاسقين للذم وتقرير ماهم عليه من الفسق والنقض فسخ التركيب من المركبات الحسية كالحبل والغزل ونحوهما واستعماله فى ابطال العهد من حيث استعارة الحبل له لما فيه من ارتباط أحد كلامى المتعاهدين بالآخر فان شفع بالحبل وأريد به العهد كان ترشيحا للمجاز وان قرن بالعهد كان رمزا الى ماهو من روادفه وتنبيها على مكانه وان المذكور قد استعير له كما يقال شجاع يفترس أقرانه وعالم يغترف منه الناس تنبيها على أنه أسد فى شجاعته وبحر فى افاضته والعهد الموثق يقال عهد اليه كذا اذا وصاه به ووثقه عليه والمراد ههنا اما العهد المأخوذ بالعقل وهو الحجة القائمة على عباده الدالة على وجوده ووحدته وصدق رسوله عليه السلام وبه أول قوله تعالى وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى أو المعنى الظاهر منه أو المأخوذ من جهة الرسل عليهم السلام على الامم بأنهم اذا بعث اليهم رسول مصدق بالمعجزات صدقوه واتبعوه ولم يكتموا أمره وذكره فى الكتب المتقدمة ولم يخالفوا حكمه كما ينبىء عنه قوله عز وجل واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ونظائره وقيل عهود الله تعالى ثلاثة الاول ماأخذه على جميع ذرية آدم عليه السلام بأن يقروا على ربوبيته والثانى ما أخذه على الانبياء عليهم السلام بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه والثالث ماأخذه على العلماء بأن يبينوا الحق ولا يكتموه ﴿من بعد ميثاقه﴾ الميثاق اما اسم لما يقع به الوثاقة والاحكام واما مصدر بمعنى التوثقة كالميعاد بمعنى الوعد فعلى الأول ان رجع الضمير الى العهد كان المراد بالميثاق ماوثقوه به من القبول والالتزام وان رجع الى لفظ الجلالة يراد به آياته وكتبه وانذار رسله عليهم السلام والمضاف محذوف على الوجهين أى من بعد تحقق ميثاقه وعلى الثانى ان رجع الضمير الى العهد والميثاق مصدر من المبنى للفاعل فالمعنى من بعد أن وثقوه بالقبول والالتزام أو من بعد أن وثقه الله عز وجل بانزال الكتب وانذار الرسل وان كان مصدرا من المبنى للمفعول فالمعنى من بعد كونه موثقا اما بتوثيقهم اياه بالقبول واما بتوثيقه تعالى اياه بانزال الكتب وانذار الرسل ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ يحتمل كل قطيعة لا يرضى بها الله سبحانه وتعالى كقطع الرحم وموالاة المؤمنين والتفرقة بين الانبياء عليهم السلام والكتب فى التصديق وترك الجماعات المفروضة وسائر مافيه رفض خير أو تعاطى شر فانه يقطع مابين الله تعالى وبين العبد من الوصلة التى هى المقصودة بالذات من كل وصل وفصل والامر هو القول الطالب للفعل مع العلو وقيل بالاستعلاء وبه سمى الامر الذى هو واحد الامور تسمية للمفعول بالمصدر فانه مما يؤمر به كما يقال له شأن وهو القصد والطلب لما أنه أثر للشأن وكذا يقال له شىء وهو مصدر شاء لما أنه أثر للمشيئة ومحل أن يوصل اما النصب على أنه بدل من الموصول أو من ضميره والثانى أولى لفظا ومعنى ﴿ويفسدون فى الارض﴾ بالمنع عن الايمان والاستهزاء بالحق وقطع الوصل التى عليها يدور فلك نظام العالم وصلاحه ﴿أولئك﴾ اشارة الى الفاسقين باعتبار اتصافهم بما فصل من الصفات القبيحة وفيه ايذان بأنهم متميزون بها أكمل تميز ومنتظمون بسبب ذلك فى سلك الأمور المحسوسة ومافيه من معنى البعد للدلالة على بعد منزلتهم فى الفساد ﴿هم الخاسرون﴾ الذين خسروا باهمال العقل عن النظر واقتناص ما يفيدهم الحياة الأبدية واستبدال الانكار

والطعن فى الآيات بالايمان بها والتأمل فى حقائقها والاقتباس من أنوارها واشتراء النقض بالوفاء والفساد بالصلاح والقطيعة بالصلة والعقاب بالثواب ﴿كيف تكفرون بالله﴾ التفات الى خطاب المذكورين مبنى على ايراث ماعدد من قبائحهم السابقة لتزايد السخط الموجب للمشافهة بالتوبيخ والتقريع والاستفهام انكارى لابمعنى انكار الوقوع كما فى قوله تعالى كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله الخ بل بمعنى انكار الواقع واستبعاده والتعجيب منه وفيه من المبالغة ماليس فى توجيه الانكار الى نفس الكفر بأن يقال أتكفرون لان كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الاحوال قطعا فاذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهانى وقوله عز وجل ﴿وكنتم أمواتا﴾ الى آخر الآية حال من ضمير الخطاب فى تكفرون مؤكدة للانكار والاستبعاد بما عدد فيها من الشؤن العظيمة الداعية الى الايمان الرادعة من الكفر من حيث كونها نعمة عامة ومن حيث دلالتها على قدرة تامة كقوله تعالى وقد خلقكم أطوارا وكيف منصوبة على التشبيه بالظرف عند سيبويه و بالحال عند الاخفش أى فى أى حال أوعلى أى حال تكفرون به تعالى والحال أنكم كنتم أمواتا أى أجساما لاحياة لها عناصر وأغذية ونطفا ومضغا مخلقة وغير مخلقة والاموات جمع ميت كاقوال جمع قيل واطلاقها على تلك الاجسام باعتبار عدم الحياة مطلقا كما فى قوله تعالى بلدة ميتا وقوله تعالى وآية لهم الارض الميتة ﴿فأحياكم﴾ بنفخ الارواح فيكم والفاء للدلالة على التعقيب فان الاحياء حاصل اثر كونهم أمواتا وان توارد عليهم فى تلك الحالة أطوار مترتبة بعضها متراخ عن بعض كما أشير اليه آنفا ﴿ثم يميتكم﴾ أى عند انقضاء آجالكم وكون الاماتة من دلائل القدرة ظاهر وأما كونها من النعم فلكونها وسيلة الى الحياة الثانية التى هى الحيوان والنعمة العظمى والتراخى المستفاد من كلمة ثم بالنسبة الى زمان الاحياء دون زمان الحياة فان زمان الاماتة غير متراخ عنه ﴿ثم يحييكم﴾ بالنشور يوم ينفخ فى الصور أو للسؤال فى القبور وأياما كان فهو متراخ من زمان الاماتة وان كان اثر زمان الموت المستمر ﴿ثم اليه ترجعون﴾ بعد الحشر لاالى غيره فيجازيكم بأعمالكم ان خيرا فخير وان شرا فشر أو اليه تنشرون من قبوركم للحساب وهذه الافعال وان كان بعضها ماضيا و بعضها مستقبلا لايتسنى مقارنة شىء منها لما هو حال منه فى الزمان لكن الحال فى الحقيقة هو العلم المتعلق بها كانه قيل كيف تكفرون بالله وأنتم عالمون بهذه الأحوال المانعة منه ومآله التعجيب من وقوعه مع تحقق ماينفيه وانما نظم ماينكرونه من الاحياء الأخير والرجع فى سلك مايعترفون به من الاحياء الاول والاماتة تنزيلا لتمكنهم من العلم لما عاينوه من الدلائل القاطعة منزلة العلم بذلك بالفعل فى ازاحة العلل والأعذار والحياة حقيقة فى القوة الحساسة أو مايقتضيها و بها سمى الحيوان حيوانا مجاز فى القوة النامية لكونها من طلائعها وكنا فيما يخص الانسان من العقل والعلم والايمان من حيث أنه كمالها وغايتها والموت بازائها يطلق على مايقابل كل مرتبة من تلك المراتب قال تعالى قل الله يحييكم ثم يميتكم وقال تعالى اعلموا أن الله يحيي الارض بعد موتها وقال تعالى أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس وعند وصفه تعالى بها يراد صحة اتصافه تعالى بالعلم والقدرة اللازمة لهذه القوة فينا أو معنى قائم بذاته تعالى مقتض لذلك وقرىء ترجعون بفتح التاء والاول هو الأليق بالمقام ﴿هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا﴾ تقرير للانكار وتأكيد له من الحيثيتين المذكورتين غير سبكه عن سبك ماقبله مع اتحادهما فى المقصود ابانة لما بينهما من التفاوت فان مايتعلق بذواتهم من الاحياء والاماتة والحشر أدخل فى الحث على الايمان والكف عن الكفر مما يتعلق بمعايشهم ومايجرى مجراها وفى جعل الضمير مبتدأ والموصول خبرا من الدلالة على الجلالة مالا يخفى وتقديم الظرف على المفعول الصريح لتعجيل المسرة ببيان كونه نافعا للمخاطبين وللتشويق اليه كما سلف أى خلق لأجلكم جميع مافى الارض من الموجودات لتنتفعوا

بها فى أمور دنياكم بالذات أو بالواسطة وأمور دينكم بالاستدلال بها على شؤن الصانع تعالى شأنه والاستشهاد بكل واحد منها على مايلائمه من لذات الآخرة وآلامها وما يعم جميع مافى الارض لانفسها الا أن يراد بها جهة السفل كما يراد بالسماء جهة العلو نعم يعم كل جزء من أجزائها فانه من جملة مافيها ضرورة وجود الجزء فى الكل وجميعا حال من الموصول الثانى مؤكدة لما فيه من العموم فان كل فرد من أفراد مافى الارض بل كل جزء من أجزاء العالم له مدخل فى استمراره على ماهو عليه من النظام اللائق الذى عليه يدور انتظام مصالح الناس أما من جهة المعاش فظاهر وأما من جهة الدين فلما أنه ليس فى العالم شىء مما يتعلق به النظر وما لا يتعلق به الا وهو دليل على القادر الحكيم جل جلاله كما مر فى تفسير قوله تعالى رب العالمين وان لم يستدل به أحد بالفعل ﴿ثم استوى الى السماء﴾ أى قصد اليها بارادته ومشيئته قصدا سويا بلا صارف يلويه ولا عاطف يثنيه من ارادة خلق شىء آخر فى تضاعيف خلقها أو غير ذلك مأخوذ من قولهم استوى اليه كالسهم المرسل وتخصيصه بالذكر ههنا اما لعدم تحققه فى خلق السفليات لما روى من تخلل خلق السموات بين خلق الارض ودحوها عن الحسن رضى الله عنه خلق الله تعالى الارض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان يلتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر فى موضعها و بسط منها الارضين وذلك قوله تعالى كانتا رتقا ففتقناهما واما لاظهار كمال العناية بابداع العلويات وقيل استوى استولى وملك والاول هو الظاهر وكلمة ثم للايذان بما فيه من المزية والفضل على خلق السفليات لا للتراخى الزمانى فان تقدمه على خلق مافى الارض المتأخر عن دحوها مما لامرية فيه لقوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها ولما روى عن الحسن والمراد بالسماء اما الاجرام العلوية فان القصد اليها بالارادة لايستدعى سابقة الوجود واما جهات العلو ﴿فسواهن﴾ أى أتمهن وقومهن وخلقهن ابتداء مصونة عن العوج والفطور لا أنه تعالى سواهن بعد أن لم يكن كذلك ولايخفى مافى مقارنة التسوية والاستواء من حسن الموقع وفيه اشارة الى أن لاتغير فيهن بالنمو والذبول كما فى السفليات والضمير على الوجه الاول للسماء فانها فى معنى الجنس وقيل هى جمع سماءة أو سماوة وعلى الوجه الثانى مبهم يفسره قوله تعالى ﴿سبع سموات﴾ كما فى قولهم ربه رجلا وهو على الوجه الاول بدل من الضمير وتأخير ذكر هذا الصنع البديع عن ذكر خلق مافى الارض مع كونه أقوى منه فى الدلالة على كمال القدرة القاهرة كما نبه عليه لما أن المنافع المنوطة بما فى الارض أكثر وتعلق مصالح الناس بذلك أظهر وان كان فى ابداع العلويات أيضا من المنافع الدينية والدنيوية مالا يحصى هذا ماقالوا وسيأتى فى حم السجدة مزيد تحقيق وتفصيل باذن الله تعالى ﴿وهو بكل شىء عليم﴾ اعتراض تذييلى مقرر لما قبله من خلق السموات والارض ومافيها على هذا النمط البديع المنطوى على الحكم الفائقة والمصالح اللائقة فان علمه عز وجل بجميع الاشياء ظاهرها وباطنها بارزها وكامنها وما يليق بكل واحد منها يستدعى أن يخلق كل مايخلقه على الوجه الرائق وقرىء وهو بسكون الهاء تشبيها له بعضد ﴿واذ قال ربك﴾ بيان لأمر آخر من جنس الأمور المتقدمة المؤكدة للانكار والاستبعاد فان خلق آدم عليه السلام وما خصه به من الكرامات السنية المحكية من أجل النعم الداعية لذريته الى الشكر والايمان الناهية عن الكفر والعصيان وتقرير لمضمون ما قبله من قوله تعالى خلق لكم ما فى الارض جميعا وتوضيح لكيفية التصرف والانتفاع بما فيها وتلوين الخطاب بتوجيهه الى النبى صلى الله عليه وسلم خاصة للايذان بأن فحوى الكلام ليس مما يهتدى اليه بأدلة العقل كالامور المشاهدة التى نبه عليها الكفرة بطريق الخطاب بل انما طريقه الوحى الخاص به عليه السلام وفى التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال مع الاضافة الى ضميره عليه السلام من الانباء عن تشريفه عليه السلام ما لا يخفى واذ ظرف موضوع لزمان نسبة ماضية وقع فيه نسبة أخرى مثلها كما ان اذا

موضوع لزمان نسبة مستقبلة يقع فيه أخرى مثلها و لذلك يجب اضافتهما الى الجمل وانتصابه بمضمر صرح بمثله فى قوله عز وجل واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم وقوله تعالى واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وتوجيه الأمر بالذكر الى الوقت دون ماوقع فيه من الحوادث مع انها المقصودة بالذات للمبالغة فى ايجاب ذكرها لما أن ايجاب ذكر الوقت ايجاب لذكر ماوقع فيه بالطريق البرهانى و لان الوقت مشتمل عليها فاذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها كانها مشاهدة عيانا وقيل ليس انتصابه على المفعولية بل على تأويل اذكر الحادث فيه بحذف المظروف واقامة الظرف مقامه وأياما كان فهو معطوف على مضمر آخر ينسحب عليه الكلام كانه قيل له عليه السلام غب ماأوحى اليه ماخوطب به الكفرة من الوحى الناطق بتفاصيل الأمور السابقة الزاجرة عن الكفر به تعالى ذكرهم بذلك واذكر لهم هذه النعمة ليتنبهوا بذلك لبطلان ماهم فيه و ينتهوا عنه وأما ماقيل من أن المقدر هو اشكر النعمة فى خلق السموات والارض أو تدبر ذلك فغير سديد ضرورة أن مقتضى المقام تذكير المخلين بمواجب الشكر وتنبيههم على مايقتضيه وأين ذاك من مقامه الجليل صلى الله عليه وسلم وقيل انتصابه بقوله تعالى قالوا و يأباه انه يقتضى أن يكون هو المقصود بالذات دون سائر القصة وقيل بما سبق من قوله تعالى وبشر الذين آمنوا ولا يخفى بعده وقيل بمضمر دل عليه مضمون الآية المتقدمة مثل وبدأ خلقكم اذ قال الخ ولا ريب فى أنه لافائدة فى تقييد بدء الخلق بذلك الوقت وقيل بخلقكم أو بأحياكم مضمرا وفيه مافيه وقيل اذ زائدة و يعزى ذلك الى أبى عبيد ومعمر وقيل أنه بمعنى قد واللام فى قوله عز قائلا ﴿للملائكة﴾ للتبليغ وتقديم الجار والمجرور فى هذا الباب مطرد لما فى المقول من الطول غالبا مع مافيه من الاهتمام بما قدم والتشويق الى ماأخر كما مر مرارا والملائكة جمع ملك باعتبار أصله الذى هو ملأك على ان الهمزة مزيدة كالشمائل فى جمع شمأل والتاء لتأكيد تأنيث الجماعة واشتقاقه من ملك لما فيه من معنى الشدة والقوة وقيل على أنه مقلوب من مألك من الالوكة وهى الرسالة أى موضع الرسالة أو مرسل على انه مصدر بمعنى المفعول فانهم وسائط بين الله تعالى و بين الناس فهم رسله عز وجل أو بمنزلة رسله عليهم السلام واختلفت العقلاء فى حقيقتهم بعد اتفاقهم على أنها ذوات موجودة قائمة بأنفسها فذهب أكثر المتكلمين الى أنها أجسام لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة مستدلين بأن الرسل كانوا يرونهم كذلك عليهم السلام وذهب الحكماء الى أنها جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة فى الحقيقة وأنها أكمل منها قوة وأكثر علما تجرى منها مجرى الشمس من الأضواء منقسمة الى قسمين قسم شأنهم الاستغراق فى معرفة الحق والتنزه عن الاشتغال بغيره كما نعتهم الله عز وجل بقوله يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهم العليون المقربون وقسم يدبر الأمر من السماء الى الأرض حسبما جرى عليه قلم القضاء والقدر وهم المدبرات أمرا فمنهم سماوية ومنهم أرضية وقالت طائفة من النصارى هى النفوس الفاضلة البشرية المفارقة للابدان ونقل فى شرح كثرتهم انه عليه السلام قال أطت السماء وحق لها أن تئط مافيها موضع قدم الا وفيه ملك ساجد أو راكع وروى ان بنى آدم عشر الجن وهما عشر حيوانات البر والكل عشر الطيور والكل عشر حيوانات البحار وهؤلاء كلهم عشر ملائكة الأرض الموكلين وهؤلاء كلهم عشر ملائكة السماء الدنيا وكل هؤلاء عشر ملائكة السماء الثانية وهكذا الى السماء السابعة ثم كل أولئك فى مقابلة ملائكة الكرسى نزر قليل ثم جميع هؤلاء عشر ملائكة سرادق واحد من سرادقات العرش التى عددها ستمائة ألف طول كل سرادق وعرضه وسمكه اذا قوبلت به السموات والأرض وما فيهما ومابينهما لا يكون لها عنده قدر محسوس ومامنه من مقدار شبر الا وفيه ملك ساجد أو راكع أو قائم لهم زجل بالتسبيح والتقديس ثم كل هؤلاء فى مقابلة الملائكة الذين يحومون حول العرش كالقطرة فى البحر ثم ملائكة اللوح الذين هم أشياع اسرافيل عليه السلام والملائكة الذين هم جنود جبريل عليه

السلام لا يحصى أجناسهم و لا مدة أعمارهم ولا كيفيات عباداتهم الا بارئهم العليم الخبير على ماقال تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو وروى أنه عليه السلام حين عرج به الى السماء رأى ملائكة فى موضع بمنزلة شرف يمشى بعضهم تجاه بعض فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام الى أين يذهبون فقال جبريل لاأدرى الاأنى أراهم منذ خلقت ولاأرى واحدا منهم قد رأيته قبل ذلك ثم سألا واحدا منهم منذكم خلقت فقال لاأدرى غير أن الله عز وجل يخلق فى كل أربعمائة ألف سنة كوكبا وقد خلق منذ خلقنى أربعمائة ألف كوكب فسبحانه من اله ماأعظم قدره وما أوسع ملكوته واختلف فى الملائكة الذين قيل لهم ماقيل فقيل هم ملائكة الارض وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم المختارون مع ابليس حين بعثه الله عز وجل لمحاربة الجن حيث كانوا سكان الأرض فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء فقتلوهم الاقليلا قد أخرجوهم من الأرض وألحقوهم بجزائر البحار وقلل الجبال وسكنوا الارض وخفف الله تعالى عنهم العبادة وأعطى ابليس ملك الارض وملك السماء الدنيا وخزانة الجنة فكان يعبد الله تعالى تارة فى الارض وتارة فى السماء وأخرى فى الجنة فأخذه العجب فكان من أمره ما كان وقال أكثر الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم فى أنهم كل الملائكة لعموم اللفظ وعدم المخصص وقوله تعالى ﴿انى جاعل فى الأرض خليفة﴾ فى حيز النصب على انه مقول قال وصيغة الفاعل بمعنى المستقبل ولذلك عملت عمله وفيها ماليس فى صيغة المضارع من الدلالة على أنه فاعل ذلك لامحالة وهى من الجعل بمعنى التصيير المتعدى الى مفعولين فقيل أولهما خليفة وثانيهما الظرف المتقدم على ماهو مقتضى الصناعة فان مفعولى التصيير فى الحقيقة اسم صار وخبره أولهما الأول وثانيهما الثانى وهما مبتدأ وخبر والأصل فى الارض خليفة ثم قيل صار فى الارض خليفة ثم مصير فى الارض خليفة فمعناه بعد التتيا والتى انى جاعل خليفة من الخلائف أو خليفة بعينه كائنا فى الأرض فان خبر صار فى الحقيقة هو الكون المقدر العامل فى الظرف ولا ريب فى أن ذلك ليس مما يقتضيه المقام أصلا وانما الذى يقتضيه هو الاخبار بجعل آدم خليفة فيها كما يعرب عنه جواب الملائكة عليهم السلام فاذن قوله تعالى خليفة مفعول ثان والظرف متعلق بجاعل قدم على المفعول الصريح لما مر من التشويق الى ماأخر أو بمحذوف وقع حالا مما بعده لكونه نكرة وأما المفعول الاول فمحذوف تعويلا على القرينة الدالة عليه كما فى قوله تعالى ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما حذف فيه المفعول الاول وهو ضمير الاموال لدلالة الحال عليه وكذا فى قوله تعالى ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم حيث حذف فيه المفعول الاول لدلالة يبخلون عليه أى لايحسبن البخلاء بخلهم هو خيرا لهم ولا ريب فى تحقق القرينة ههنا أما ان حمل على الحذف عند وقوع المحكى فهى واضحة لوقوعه فى أثناء ذكره عليه السلام على ماسنفصله كانه قيل انى خالق بشرا من طين وجاعل فى الارض خليفة وأما ان حمل على أنه لم يحذف هناك بل قيل مثلا وجاعل اياه خليفة فى الارض لكنه حذف عند الحكاية فالقرينة ماذكر من جواب الملائكة عليهم السلام قال العلامة الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين ان قلت كيف صح أن يقول لهم بشرا وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به قلت وجهه أن يكون قد قال لهم انى خالق خلقا من صفته كيت وكيت ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم انتهى. فحيث جاز الاكتفاء عند الحكاية عن ذلك التفصيل بمجرد الاسم من غير قرينة تدل عليه فما ظنك بما نحن فيه ومعه قرينة ظاهرة ويجوز أن يكون من الجعل بمعنى الخلق المتعدى الى مفعول واحد هو خليفة وحال الظرف فى التعلق والتقديم كما مر فحينئذ لا يكون ماسيأتى من كلام الملائكة مترتبا عليه بالذات بل بالواسطة فانه روى أنه تعالى لما قال لهم انى جاعل فى الارض خليفة قالوا ربنا وما يكون ذلك الخليفة قال تعالى يكون له ذرية يفسدون فى الارض و يتحاسدون و يقتل بعضهم بعضا فعند

ذلك قالوا ماقالوا والله تعالى أعلم والخليفة من يخلف غيره و ينوب منابه فعيل بمعنى الفاعل والتاء للمبالغة والمراد به اما
آدم عليه السلام و بنوه وانما اقتصر عليه استغناء بذكره عن ذكرهم كما يستغنى عن ذكر القبيلة بذكر أبيها كمضر وهاشم
ومنه الخلافة فى قريش واما من يخلف أو خلف يخلف فيعمه عليه السلام وغيره من خلفاء ذريته والمراد بالخلافة اما
الخلافة من جهته سبحانه فى اجراء أحكامه وتنفيذ أوامره بين الناس وسياسة الخلق لكن لا لحاجة به تعالى الى ذلك بل
لقصور استعداد المستخلف عليهم وعدم لياقتهم لقبول الفيض بالذات فتختص بالخواص من بنيه واما الخلافة ممن كان
فى الارض قبل ذلك فتعم حينئذ الجميع ﴿قالوا﴾ استئناف وقع جوابا عما ينساق اليه الاذهان كأنه قيل فماذا قالت الملائكة
حينئذ فقيل قالوا ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ وهو أيضا من الجعل المتعدى الى اثنين فقيل فيهما ماقيل فى الاول
والظاهر أن الاول كلمة من والثانى محذوف ثقة بما ذكر فى الكلام السابق كما حذف الاول ثمة تعويلا على ماذكرها
قال قائلهم لاتخلنا على غرائك انا طالما قد وشى بنا الاعداء
بحذف المفعول الثانى أى لاتخلنا جازعين على عزائك والمعنى أتجعل فيها من يفسد فيها خليفة والظرف الاول متعلق
بتجعل وتقديمه لما مر مرارا والثانى بيفسد وفائدته تأكيد الاستبعاد لما أن فى استخلاف المفسد فى محل افساده من
البعد ماليس فى استخلافه فى غيره هذا وقد جوز كونه من الجعل بمعنى الخلق المتعدى الى مفعول واحد هو كلمة من
وأنت خبير بأن مدار تعجبهم ليس خلق من يفسد فى الأرض كيف لا وان مايعقبه من الجملة الحالية الناطقة بدعوى أحقيتهم
منه يقضى ببطلانه حتما اذ لا صحة لدعوى الأحقية منه بالخلق وهم مخلوقون بل مداره أن يستخلف لعمارة الارض واصلاحها
باجراء أحكام الله تعالى وأوامره أو يستخلف مكان المطبوعين على الطاعة من من شأن بنى نوعه الافساد وسفك الدماء وهو
عليه السلام وان كان منزها عن ذلك لا أن استخلافه مستتبع لاستخلاف ذريته التى لاتخلو عنه غالبا وانما أظهروا تعجبهم
استكشافا عما خفى عليهم من الحكم التى بذت على تلك المفاسد وألغتها واستخبارا عما يزيح شبهتهم و يرشدهم الى معرفة مافيه عليه
السلام من الفضائل التى جعلته أهلا لذلك كسؤال المتعلم عما ينقدح فى ذهنه لا اعتراضا على فعل الله سبحانه و لا شكا فى اشتماله
على الحكمة والمصلحة اجمالا و لاطعنا فيه عليه السلام و لا فى ذريته على وجه الغيبة فان منصبهم أجل من أن يظن بهم أمثال
ذلك قال تعالى بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون وانما عرفوا ماقالوا اما باخبار من الله تعالى حسبما
نقل من قبل أو بتلق من اللوح أو باستنباط عما ارتكز فى عقولهم من اختصاص العصمة بهم أو بقياس لأحد الثقلين على
الآخر ﴿و يسفك الدماء﴾ السفك والسفح والسبك والسكب أنواع من الصب والأولان مختصان بالدم بل لا يستعمل
أولهما الا فى الدم المحرم أى بقتل النفوس المحرمة بغير حق والتعبير عنه بسفك الدماء لما أنه أقبح أنواع القتل وأفظعه
وقرئ يسفك بضم الفاء و يسفك و يسفك من أسفك وسفك وقرئ يسفك على البناء للمفعول وحذف الراجع الى من
موصولة أو موصوفة أى يسفك الدماء فيهم ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ جملة حالية مقررة للتعجب السابق ومؤكدة له على
طريقة قول من يجد فى خدمة مولاه وهو يأمر بها غيره أتستخدم العصاة وأنا مجتهد فيها كأنه قيل أتستخلف من من شأن ذريته
الفساد مع وجود من ليس من شأنه ذلك أصلا والمقصود عرض أحقيتهم منهم بالخلافة واستفسار عما رجحهم عليهم مع ماهو
متوقع منهم من الموانع لا العجب والتفاخر فكأنهم شعروا بما فيهم من القوة الشهوية التى رذيلتها الافراطية الفساد فى الارض
والقوة الغضبية التى رذيلتها الافراطية سفك الدماء فقالوا ماقالوا وذهلوا عما اذا سخرتهما القوة العقلية ومرنتهما على الخير
يحصل بذلك من علو الدرجة مايقصر عن بلوغ رتبة القوة العقلية عند انفرادها فى أفاعيلها كالاحاطة بتفاصيل أحوال
الجزئيات واستنباط الصناعات واستخراج منافع الكائنات من القوة الى الفعل وغير ذلك مما نيط به أمر الخلافة والتسبيح

تنزيه الله تعالى وتبعيده اعتقادا وقولا وعملا عما لا يليق بجنابه سبحانه من سبح فى الارض والماء اذا أبعد فيهما وأمعن
ومنه فرس سبوح أى واسع الجرى وكذلك تقديسه تعالى من قدس فى الارض اذا ذهب فيها وأبعد و يقال قدسه أى
طهره فان مطهر الشئ مبعده عن الاقذار والباء فى بحمدك متعلقة بمحذوف وقع حالا من الضمير أى ننزهك عن كل
مالا يليق بشأنك ملتبسين بحمدك على ماأنعمت به علينا من فنون النعم التى من جملتها توفيقنا لهذه العبادة فالتسبيح لاظهار
صفات الجلال والحمد لتذكير صفات الانعام واللام فى لك اما مزيدة والمعنى نقدسك واما صلة للفعل كما فى سجدت لله
واما للبيان كما فى سقيا لك فتكون متعلقة بمحذوف أى نقدس تقديسا لك أى نصفك بما يليق بك من العلو والعزة وننزهك
عما لا يليق بك وقيل المعنى نطهر نفوسنا عن الذنوب لاجلك كأنهم قابلوا الفساد الذى أعظمه الاشراك بالتسبيح وسفك
الدماء الذى هو تلويث النفس بأقبح الجرائم بتطهير النفس عن الآثام لا تمدحا بذلك و لا اظهارا للمنة بل بيانا للواقع
﴿قال﴾ استئناف كما سبق ﴿انى أعلم مالا تعلمون﴾ ليس المراد به بيان أنه تعالى يعلم مالا يعلمونه من الاشياء كائنا
ما كان فان ذلك مما لاشبهة لهم فيه حتى يفتقروا الى التنبيه عليه لاسيما بطريق التوكيد بل بيان أن فيه عليه الصلاة والسلام
معانى مستدعية لاستخلافه اذ هو الذى خفى عليهم و بنوا عليه مابنوا من التعجب والاستبعاد فما موصولة كانت أو موصوفة
عبارة عن تلك المعانى والمعنى انى أعلم مالا تعلمونه من دواعى الخلافة فيه وانما لم يقتصر على بيان تحققها فيه عليه السلام
بأن قيل مثلا ان فيه مايقتضيه من غير تعرض لاحاطته تعالى به وغفلتهم عنه تفخيما لشأنه وايذانا بابتناء أمره تعالى على
العلم الرصين والحكمة المتقنة وصدور قولهم عن الغفلة وقيل معناه انى أعلم من المصالح فى استخلافه ماهو خفى عليكم
وأن هذا ارشاد للملائكة الى العلم بان أفعاله تعالى كلها حسنة وحكمة وان خفى عليهم وجه الحسن والحكمة وأنت خبير
بانه مشعر بكونهم غير عالمين بذلك من قبل ويكون تعجبهم مبنيا على ترددهم فى اشتمال هذا الفعل لحكمة ما وذلك مما
لا يليق بشأنهم فانهم عالمون بان ذلك متضمن لحكمة ما ولكنهم مترددون فى أنها ماذا هل هو أمر راجع الى محض حكم
الله عز وجل أو الى فضيلة من جهة المستخلف فبين سبحانه وتعالى لهم أولا على وجه الاجمال والابهام أن فيه فضائل
غائبة عنهم ليستشرفوا اليها ثم أبرز لهم طرفا منها ليعاينوه جهرة و يظهر لهم بديع صنعه وحكمته و ينزاح شبهتهم بالكلية
﴿وعلم آدم الاسماء كلها﴾ شروع فى تفصيل ماجرى بعد الجواب الاجمالى تحقيقا لمضمونه وتفسيرا لابهامه وهو
عطف على قال والابتداء بحكاية التعليم يدل بظاهره على أن مامر من المقاولة المحكية انما جرت بعد خلقه عليه السلام
بمحضر منه وهو الأنسب بوقوف الملائكة على أحواله عليه السلام بان قيل أثر نفخ الروح فيه انى جاعل اياه خليفة
فقيل ماقيل كما أشير اليه وايراده عليه السلام باسمه العلمى لزيادة تعيين المراد بالخليفة و لان ذكره بعنوان الخلافة لا يلائم
مقام تمهيد مباديها وهو اسم أعجمى والاقرب أن وزنه فاعل كشالخ وعاذر وعابر وفالغ لا أفعل والتصدى لاشتقاقه من
الادمة أو الأدمة بالفتح بمعنى الاسوة أو من أديم الارض بناء على ماروى عنه صلى الله عليه وسلم من أنه تعالى قبض
قبضة من جميع الارض سهلها وحزنها فخلق منها آدم ولذلك اختلفت ألوان ذريته أو من الادم والادمة بمعنى الالفة
تعسف كاشتقاق ادريس من الدرس و يعقوب من العقب وابليس من الابلاس والاسم باعتبار الاشتقاق ما يكون
علامة للشئ ودليلا يرفعه الى الذهن من الالفاظ والصفات والافعال واستعماله عرفا فى اللفظ الموضوع لمعنى مفردا
كان أو مركبا مخبرا عنه أو خبرا أو رابطة بينهما واصطلاحا فى المفرد الدال على معنى فى نفسه غير مقترن بالزمان والمراد
ههنا اما الاول أو الثانى وهو مستلزم للاول اذ العلم بالالفاظ من حيث الدلالة على المعانى مسبوق بالعلم بها والتعليم حقيقة
عبارة عن فعل يترتب عليه العلم بلا تخلف عنه و لا يحصل ذلك بمجرد افاضة المعلم بل يتوقف على استعداد المتعلم لقبول

الفيض وتلقيه من جهته كما مر فى تفسير الهدى وهو السر فى ايثاره على الاعلام والانباء فانهما انما يتوقفان على سماع الخبر الذى يشترك فيه البشر والملك وبه يظهر أحقيته بالخلافة منهم عليهم السلام لما أن جبلتهم غير مستعدة للاحاطة بتفاصيل أحوال الجزئيات الجسمانية خبراً فمعنى تعليمه تعالى اياه أن يخلق فيه اذ ذاك بموجب استعداده علما ضروريا تفصيليا باسماء جميع المسميات وأحوالها وخواصها اللائقة بكل منها أو يلقى فى روعه تفصيلا أن هذا فرس وشأنه كيت وكيت وذاك بعير وحاله ذيت وذيت الى غير ذلك من أحوال الموجودات فيتلقاها عليه السلام حسبما يقتضيه استعداده ويستدعيه قابليته المتفرعة على فطرته المنطوية على طبائع متباينة وقوى متخالفة وعناصر متغايرة قال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبير رضى الله تعالى عنهم علمه أسماء جميع الاشياء حتى القصعة والقصيعة وحتى الجفنة والمحلب وأنحى منفعة كل شىء الى جنسه وقيل أسماء ما كان وما سيكون الى يوم القيامة وقيل معنى قوله تعالى وعلم آدم الاسماء خلقه من أجزاء مختلفة وقوى متباينة مستعداً لادراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات والمتخيلات والموهومات وألهمه معرفة ذوات الاشياء وأسمائها وخواصها ومعارفها وأصول العلم وقوانين الصناعات وتفاصيل آلاتها وكيفيات استعمالاتها فيكون ما مر من المقاولة قبل خلقه عليه السلام وقيل التعليم على ظاهره ولكن هناك جملا مطوية عطف عليها المذكور أى فخلقه فسواه ونفخ فيه الروح وعلمه الخ ﴿ثم عرضهم على الملائكة﴾ الضمير للمسميات المدلول عليها بالاسماء كما فى قوله تعالى واشتعل الرأس شيبا والتذكير لتغليب العقلاء على غيرهم وقرىء عرضهن وعرضها أى عرض مسمياتهن أو مسمياتها فى الحديث أنه تعالى عرضهم أمثال الذر ولعله عز وجل عرض عليهم من افراد كل نوع ما يصلح أن يكون أنموذجا يتعرف منه أحوال البقية وأحكامها ﴿فقال أنبئونى باسماء هؤلاء﴾ تبكيتا لهم واظهاراً لعجزهم عن اقامة ما علقوا به رجاءهم من أمر الخلافة فان التصرف والتدبير واقامة المعدلة بغير وقوف على مراتب الاستعدادات ومقادير الحقوق مما لا يكاد يمكن والانباء اخبار فيه اعلام ولذلك يجرى مجرى كل منهما والمراد ههنا ما خلا عنه وايثاره على الاخبار للايذان برفعة شأن الاسماء وعظم خطرها فان النبأ انما يطلق على الخبر الخطير والامر العظيم ﴿ان كنتم صادقين﴾ أى فى زعمكم انكم أحقاء بالخلافة ممن استخلفته كما ينبىء عنه مقالكم والتصديق كما يتطرق الى الكلام باعتبار منطوقه قد يتطرق اليه باعتبار ما يلزمه من الاخبار فان أدنى مراتب الاستحقاق هو الوقوف على أسماء ما فى الارض وأما ما قيل من أن المعنى فى زعمكم انى أستخلف فى الارض مفسدين سفاكين للدماء فليس بما يقتضيه المقام وان أول بأن يقال فى زعمكم انى أستخلف من غالب أمره الافساد وسفك الدماء من غير أن يكون له مزية من جهة أخرى اذ لا تعلق له بأمرهم بالانباء وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه ﴿قالوا﴾ استئناف واقع موقع الجواب كانه قيل فماذا قالوا حينئذ هل خرجوا عن عهدة ما كلفوه أو لا فقيل قالوا ﴿سبحانك﴾ قيل هو علم للتسبيح ولا يكاد يستعمل الا مضافا وقد جاء غير مضاف على الشذوذ غير منصرف للتعريف والالف والنون المزيدتين كما فى قوله

سبحان من علقمة الفاخر وأما ما فى قوله سبحانه ثم سبحانا نعود له فقيل صرفه للضرورة وقيل انه مصدر منكر كغفران لا اسم مصدر ومعناه على الاول نسبحك عما لا يليق بشأنك الاقدس من الامور التى من جملتها خلو أفعالك من الحكم والمصالح وعنوا بذلك تسبيحا ناشئا عن كمال طمأنينة النفس والايقان باشتمال استخلاف آدم عليه السلام على الحكم البالغة وعلى الثانى تنزهت عن ذلك تنزها ناشئا عن ذاتك وأرادوا به أنهم قالوه عن اذعان لما علموا اجمالا بانه عليه السلام يكلف ما كلفوه وأنه يقدر على ما قد عجزوا عنه مما يتوقف عليه الخلافة وقوله عز وعلا ﴿لا علم لنا الا ما علمتنا﴾ اعتراف منهم بالعجز عما كلفوه اذ معناه لا علم لنا الا ما علمتناه بحسب قابليتنا من العلوم المناسبة لعالمنا ولا قدرة بنا على ما هو خارج عن

دائرة استعدادنا حتى لو كنا مستعدين لذلك لأفضته علينا وما فى ما علمتنا موصولة حذف من صلتها عائدها أو مصدرية ولقد نفوا عنهم العلم بالاسماء على وجه المبالغة حيث لم يقتصروا على بيان عدمه بان قالوا مثلا لا علم لنا بها بل جعلوه من جملة ما لا يعلمونه وأشعروا بان كونه من تلك الجملة غنى عن البيان ﴿انك أنت العليم﴾ الذى لا يخفى عليه خافية وهذا اشارة الى تحقيقهم لقوله تعالى انى أعلم ما لا تعلمون ﴿الحكيم﴾ أى المحكم لمصنوعاته الفاعل لها حسبما يقتضيه الحكمة والمصلحة وهو خبر بعد خبر أو صفة للاول وأنت ضمير الفصل لا محل له من الاعراب أو له محل منه مشارك لما قبله كما قاله الفراء أو لما بعده كما قاله الكسائى وقيل تأكيد للكاف كما فى قولك مررت بك أنت وقيل مبتدأ خبره ما بعده والجملة خبر ان وتلك الجملة تعليل لما سبق من قصر علمهم بما علمهم الله تعالى وما يفهم من ذلك من علم آدم عليه السلام بما خفى عليهم فكأنهم قالوا أنت العالم بكل المعلومات التى من جملتها استعداد آدم عليه السلام لما نحن بمعزل من الاستعداد له من العلوم الخفية المتعلقة بما فى الارض من أنواع المخلوقات التى عليها يدور فلك خلافة الحكيم الذى لا يفعل الا ما تقتضيه الحكمة ومن جملته تعليم آدم عليه السلام ما هو قابل له من العلوم الكلية والمعارف الجزئية المتعلقة بالاحكام الواردة على ما فى الارض وبناء أمر الخلافة عليها ﴿قال﴾ استئناف كما سلف ﴿يا آدم أنبئهم﴾ أى أعلمهم أوثر على أنبئنى كما وقع فى أمر الملائكة مع حصول المراد معه أيضاً وهو ظهور فضل آدم عليهم عليهم السلام ابانة لما بين الامرين من التفاوت الجلى وايذانا بأن علمه عليه السلام بها أمر واضح غير محتاج الى ما يجرى مجرى الامتحان وانه عليه السلام حقيق بأن يعلمها غيره وقرىء بقلب الهمزة ياء وبحذفها أيضاً والهاء مكسورة فيهما ﴿بأسمائهم﴾ التى عجزوا عن علمها واعترفوا بتقاصر هممهم عن بلوغ مرتبتها ﴿فلما أنبأهم بأسمائهم﴾ الفاء فصيحة عاطفة للجملة الشرطية على محذوف يقتضيه المقام وينسحب عليه الكلام للايذان بتقرره وغناه عن الذكر وللاشعار بتحققه فى أسرع ما يكون كما فى قوله عز وجل فلما رآه مستقراً عنده بعد قوله سبحانه أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك واظهار الاسماء فى موقع الاضمار لاظهار كمال العناية بشأنها والايذان بانه عليه السلام أنبأهم بها على وجه التفصيل دون الاجمال والمعنى فأنبأهم بأسمائهم مفصلة وبين لهم أحوال كل منهم وخواصه وأحكامه المتعلقة بالمعاش والمعاد فعلموا ذلك لما رأوا أنه عليه السلام لم يتلعثم فى شىء من التفاصيل التى ذكرها مع مساعدة ما بين الاسماء والمسميات من المناسبات والمشاكلات وغير ذلك من القرائن الموجبة لصدق مقالاته عليه السلام فلما أنبأهم بذلك ﴿قال﴾ عز وجل تقريراً لما مر من الجواب الاجمالى واستحضارا له ﴿ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض﴾ لكن لا لتقرير نفسه كما فى قوله تعالى ألم يعدكم ربكم وعداً حسنا ونظائره بل لتقرير ما يفيده من تحقق دواعى الخلافة فى آدم عليه السلام لظهور مصداقه وايراد ما لا يعلمون بعنوان الغيب مضافا الى السموات والارض للمبالغة فى بيان كمال شمول علمه المحيط وغاية سعته مع الايذان بان ما ظهر من عجزهم وعلم آدم عليه السلام من الامور المتعلقة بأهل السموات وأهل الارض وهذا دليل واضح على أن المراد بما لا تعلمون فيما سبق ما أشير اليه هناك كانه قيل ألم أقل لكم انى أعلم فيه من دواعى الخلافة ما لا تعلمونه فيه هو هذا الذى عاينتموه وقوله تعالى ﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ عطف على جملة ألم أقل لكم لا على أعلم اذ هو غير داخل تحت القول وما فى الموضعين موصولة حذف عائدها أى أعلم ما تبدونه وما تكتمونه وتغيير الاسلوب للايذان باستمرار كتمهم قيل المراد بما يبدون قولهم أتجعل الخ وبما يكتمون استبطانهم أنهم أحقاء بالخلافة وأنه تعالى لا يخلق خلقا أفضل منهم . روى أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام رأت الملائكة فطرته العجيبة وقالوا ليكن ما شاء فلن يخلق ربنا خلقا الا كنا أكرم عليه منه وقيل هو ما أسره ابليس فى نفسه من الكبر وترك السجود فاسناد الكتمان حينئذ الى الجميع من قبيل

قولهم بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد من بينهم قالوا فى الآية الكريمة دلالة على شرف الانسان ومزية العلم وفضله على العبادة وأن ذلك هو المناط للخلافة وأن التعليم يصح اطلاقه على الله تعالى وان لم يصح اطلاق المعلم عليه لاختصاصه عادة بمن يحترف به وأن اللغات توقيفية اذ الاسماء تدل على الالفاظ بخصوص أو بعموم وتعليمها ظاهر فى القائها على المتعلم مبينا له معانيها وذلك يستدعى سابقة وضع وماهو الامن الله تعالى وأن مفهوم الحكمة زائد على مفهوم العلم والالزم التكرار وأن علوم الملائكة وكمالاتهم تقبل الزيادة والحكماء منعوا ذلك فى الطبقة العليا منهم وحملوا على ذلك قوله تعالى ومامنا الا له مقام معلوم وأن آدم أفضل من هؤلاء الملائكة لانه عليه السلام أعلم منهم وأنه تعالى يعلم الاشياء قبل حدوثها ﴿واذ قلنا للملائكة﴾ عطف على الظرف الاول منصوب بما نصبه من المضمر أو بناصب مستقل معطوف على ناصبه عطف القصة على القصة أى واذكر وقت قولنا لهم وقيل بفعل دل عليه الكلام أى أطاعوا وقت قولنا الخ وقد عرفت مافى أمثاله وتخصيص هذا القول بالذكر مع كون مقتضى الظاهر ايراده على منهاج ماقبله من الاقوال المحكية المتصلة به للايذان بأن مافى حيزه نعمة جليلة مستقلة حقيقة بالذكر والتذكير على حيالها والالتفات الى التكلم لاظهار الجلالة وتربية المهابة مع مافيه من تأكيد الاستقلال وكذا اظهار الملائكة فى موضع الاضمار والكلام فى اللام وتقديمها مع مجرورها على المفعول كما مر وقرئ بضم تاء الملائكة اتباعا لضم الجيم فى قوله تعالى ﴿اسجدوا لآدم﴾ كما قرئ بكسر الدال فى قوله تعالى الحمد لله اتباعا لكسر اللام وهى لغة ضعيفة والسجود فى اللغة الخضوع والتطامن وفى الشرع وضع الجبهة على الارض على قصد العبادة فقيل أمروا بالسجود له عليه السلام على وجه التحية والتكرمة تعظيما له واعترافا بفضله وأداء لحق التعليم واعتذارا عما وقع منهم فى شأنه وقيل أمروا بالسجود له تعالى وانما كان آدم قبلة لسجودهم تفخيما لشأنه أو سببا لوجوبه فكأنه تعالى لما برأه أنموذجا للمبدعات كلها ونسخة منطوية على تعلق العالم الروحانى بالعالم الجسمانى وامتزاجهما على نمط بديع أمرهم بالسجود له تعالى لما عاينوا من عظيم قدرته فاللام فيه كما فى قول حسان رضى الله عنه

أليس أول من صلى لقبلتكم ... وأعرف الناس بالقرآن والسنن

أو فى قوله تعالى أقم الصلاة لدلوك الشمس والاول هو الاظهر وقوله عز وجل ﴿فسجدوا﴾ عطف على قلنا والفاء لافادة مسارعتهم الى الامتثال وعدم تلعثمهم فى ذلك روى عن وهب أن أول من سجد جبريل ثم ميكائيل ثم اسرافيل ثم عزرائيل ثم سائر الملائكة عليهم السلام وقوله تعالى ﴿الا ابليس﴾ استثناء متصل لما أنه كان جنيا مفردا مغمورا بألوف من الملائكة متصفا بصفاتهم فغلبوا عليه فى فسجدوا ثم استثنى استثناء واحد منهم أو لان من الملائكة جنسا يتوالدون يقال لهم الجن كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وهو منهم أو لان الجن أيضا كانوا مأمورين بالسجود له لكن استغنى بذكر الملائكة عن ذكرهم أو منقطع وهو اسم أعجمى ولذلك لم ينصرف ومن جعله مشتقا من الابلاس وهو اليأس قال انه مشبه بالعجمة حيث لم يسم به أحد فكان كالاسم الاعجمى واعلم أن الذى تقتضيه هذه الآية الكريمة والتى فى سورة الاعراف من قوله تعالى ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس الآية والتى فى سورة بنى اسرائيل وسورة الكهف وسورة طه من قوله تعالى واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الآية أن سجود الملائكة انما ترتب على الأمر التنجيزى الوارد بعد خلقه وتسويته ونفخ الروح فيه البتة كما يلوح به حكاية امتثالهم بعبارة السجود دون الوقوع الذى به ورد الامر التعليقى ولكن مافى سورة الحجر من قوله عز وعلا واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون وما فى سورة ص من قوله تعالى اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين الى آخر

الآية يستدعيان بظاهرهما ترتبه على مافيهما من الامر التعليقى من غير أن يتوسط بينهما شئ غير ماتفصح عنه الفاء الفصيحة من الخلق والتسوية ونفخ الروح فيه عليه السلام وقد روى عن وهب أنه كان السجود كما نفخ فيه الروح بلا تأخير وتأويل الآيات السابقة بحمل مافيها من الامر على حكاية الامر التعليقى بعد تحقق المعلق به اجمالا فانه حينئذ يكون فى حكم التنجيز يأباه ما فى سورة الاعراف من كلمة ثم المنادية بتأخر ورود الامر عن التصوير المتأخر عن الخلق المتأخر عن الامر التعليقى والاعتذار بحمل التراخى على الرتبى أو التراخى فى الاخبار أو بان الامر التعليقى قبل تحقق المعلق به لما كان فى عدم ايجاب المأمور به بمنزلة العدم جعل كانه انما حدث بعد تحققه فحكى على صورة التنجيز يؤدى بعد اللتيا واللتى الى أن ماجرى بينه وبينهم عليهم السلام فى شأن الخلافة وماقالوا فيه وماسمعوا انما جرى بعد السجود المسبوق بمعرفة جلالة منزلته عليه السلام وخروج ابليس من البين باللعن المؤبد لعناده وبعد مشاهدتهم لذلك كله عيانا وهل هو الا خرق لقضية العقل والنقل والالتجاء فى التفصى عنه الى تأويل نفخ الروح بحمله على مايعم افاضة مابه حياة النفوس التى من جملتها تعليم الاسماء تعسف ينبئ عن ضيق المجال فالذى يقتضيه التحقيق ويستدعيه النظر الانيق بعد التصفح فى مستودعات الكتاب المكنون والتفحص عما فيه من السر المخزون أن سجودهم له عليه السلام انما ترتب على الامر التنجيزى المتفرع على ظهور فضله عليه السلام المبنى على المحاورة المسبوقة بالاخبار بخلافته المنتظم جميع ذلك فى سلك ما نيط به الامر التعليقى من التسوية ونفخ الروح اذ ليس من قضيته وجوب السجود عقيب نفخ الروح فيه فان الفاء الجزائية ليست بنص فى وجوب وقوع مضمون الجزاء عقيب وجود الشرط من غير تراخ للقطع بعدم وجوب السعى عقيب النداء لقوله تعالى اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الآية وبعدم وجوب اقامة الصلاة غب الاطمئنان لقوله تعالى فاذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة بل انما الوجوب عند دخول الوقت كيف لا والحكمة الداعية الى ورود مانحن فيه من الامر التعليقى أثر ذى أثير انما هى حمل الملائكة عليهم السلام على التأمل فى شأنه عليه السلام ليتدبروا فى أحواله ويحيطوا بما لديه خبرا ويستفهموا ماعسى يستبهم عليهم فى أمره عليه السلام لابتنائه على حكم أبية وأسرار خفية طويت عن علومهم ويقفوا على جلية الحال قبل ورود الامر التنجيزى وتحتم الامتثال وقد قالوا بحسب ذلك ماقالوا وعاينوا ماعاينوا وعدم نظم الأمر التنجيزى فى سلك الأمور المذكورة فى السورتين عند الحكاية لايستلزم عدم انتظامه فيه عند وقوع المحكى كما أن عدم ذكر الأمر التعليقى عند حكاية الأمر التنجيزى فى السورة الكريمة المذكورة لا يوجب عدم مسبوقيته به فان حكاية كلام واحد على أساليب مختلفة حسبما يقتضيه المقام ويستدعيه حسن الانتظام ليست بعزيزة فى الكتاب العزيز وناهيك بما نقل فى توجيه قوله تعالى بشرا مع عدم سبق معرفة الملائكة عليهم السلام بذلك وحيث صير اليه مع أنه لم يرد به نقل فما ظنك بما قد وقع التصريح به فى مواضع عديدة فلعله قد ألقى اليهم ابتداء جميع مايتوقف عليه الأمر التنجيزى اجمالا بأن قيل مثلا انى خالق بشرا من كذا وكذا وجاعل اياه خليفة فى الارض فاذا سويته ونفخت فيه من روحى وتبين لكم شأنه فقعوا له ساجدين فخلقه فسواه ونفخ فيه الروح فقالوا عند ذلك ماقالوا أو ألقى اليهم خبر الخلافة بعد تحقق الشرائط المعدودة بأن قيل أثر نفخ الروح فيه انى جاعل هذا خليفة فى الارض فهناك ذكروا فى حقه عليه السلام ماذكروا فأيده الله عز وجل بتعليم الأسماء فشاهدوا منه ماشاهدوا فعند ذلك ورد الأمر التنجيزى اعتناء بشأن المأمور به وتعيينا لوقته وقد حكى بعض الأمور فى بعض المواطن وبعضها فى بعضها اكتفاء بما ذكر فى كل موطن عما ترك فى موطن آخر والذى يحسم مادة الاشتباه أن مافى سورة ص من قوله تعالى اذ قال ربك للملائكة الخ بدل من قوله تعالى اذ يختصمون فيما قبله من قوله

تعالى ما كان لى من علم بالملأ الأعلى اذ يختصمون أى بكلامهم عند اختصامهم والمراد بالملأ الأعلى الملائكة وآدم عليهم السلام وابليس حسبما أطبق عليه جمهور الأئمة وباختصامهم ماجرى بينهم فى شأن خلافة آدم عليه السلام من التقاول الذى من جملته ماصدر عنه عليه السلام من الانباء بالأسماء ومن قضية البدلية وقوع الاختصام المذكور فى تضاعيف ماذكر فيه تفصيلا من الأمر التعليق وما علق به من الخلق والتسوية ونفخ الروح فيه وما ترتب عليه من سجود الملائكة عليهم السلام وعناد ابليس وما تبعه من لعنه واخراجه من بين الملائكة وما جرى بعده من الأفعال والاقوال واذ ليس تمام الاختصام بعد سجود الملائكة ومكابرة ابليس المستتبعة لطرده من بينهم لما عرفت من أنه أحد المختصمين كما أنه ليس قبل الخلق ضرورة استحالة الانباء بالأسماء حينئذ فهو اذن بعد نفخ الروح وقبل السجود حتما بأحد الطريقين والله سبحانه أعلم بحقيقة الأمر ﴿أبى واستكبر﴾ استئناف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء وأنه لم يكن للتردد أو للتأمل والاباء الامتناع بالاختيار والتكبر أن يرى نفسه أكبر من غيره والاستكبار طلب ذلك بالتشبع أى امتنع عما أمر به واستكبر من أن يعظمه أو يتخذه وصلة فى عبادة ربه وتقديم الاباء على الاستكبار مع كونه مسببا عنه لظهوره ووضوح أثره واقتصر فى سورة ص على ذكر الاستكبار اكتفاء به وفى سورة الحجر على ذكر الاباء حيث قيل أبى أن يكون مع الساجدين ﴿وكان من الكافرين﴾ أى فى علم الله تعالى اذ كان أصلهم من كفرة الجن فلذلك ارتكب ما ارتكبه على ما أفصح عنه قوله تعالى كان من الجن ففسق عن أمر ربه فالجملة اعتراضية مقررة لما سبق من الاباء والاستكبار أو صار منهم باستقباح أمره تعالى اياه بالسجود لآدم عليه السلام زعما منه أنه أفضل منه والأفضل لايحسن أن يؤمر بالخضوع للمفضول كما يفصح عنه قوله أنا خير منه حين قيل له مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى استكبرت أم كنت من العالين لابترك الواجب وحده فالجملة معطوفة على ماقبلها وايثار الواو على الفاء للدلالة على أن محض الاباء والاستكبار كفر لأنهما سببان له كما تفيده الفاء ﴿وقلنا﴾ شروع فى حكاية ماجرى بينه تعالى وبين آدم عليه السلام بعد تمام ماجرى بينه تعالى وبين الملائكة وابليس من الأقوال والأفعال وقد تركت حكاية توبيخ ابليس وجوابه ولعنه واستنظاره وانظاره اجتزاء بما فصل فى سائر السور الكريمة وهو عطف على قلنا للملائكة ولا يقدح فى ذلك اختلاف وقتيهما فان المراد بالزمان المدلول عليه بكلمة اذ زمان ممتد واسع للقولين وقيل هو عطف على اذ قلنا باضمار اذ وهذا تذكير لنعمة أخرى موجبة للشكر مانعة من الكفر وتصدير الكلام بالنداء فى قوله تعالى ﴿يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ للتنبيه على الاهتمام بتلقى المأمور به وتخصيص أصل الخطاب به عليه السلام للايذان باصالته فى مباشرة المأمور به واسكن من السكنى وهو اللبث والاقامة والاستقرار دون السكون الذى هو ضد الحركة وأنت ضمير أكد به المستكن ليصح العطف عليه واختلف فى وقت خلق زوجه فذكر السدى عن ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين أن الله تعالى لما أخرج ابليس من الجنة وأسكنها آدم بقى فيها وحده وما كان معه من يستأنس به فألقى الله تعالى عليه النوم ثم أخذ ضلعا من جانبه الايسر ووضع مكانه لحما وخلق حواء منه فلما استيقظ وجدها عند رأسه قاعدة فسألها ما أنت قالت امرأة قال ولم خلقت قالت لتسكن الى فقالت الملائكة تجربة لعلمه من هذه قال امرأة قالوا لم سميت امرأة قال لانها من المرء أخذت فقالوا ما اسمها قال حواء قالوا لم سميت حواء قال لانها خلقت من شىء حى وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال بعث الله تعالى جندا من الملائكة فحملوا آدم وحواء على سرير من ذهب كما يحمل الملوك ولباسهما النور حتى أدخلوهما الجنة وهذا كما ترى يدل على خلقها قبل دخول الجنة والمراد بها دار الثواب لانها المعهودة وقيل هى جنة بأرض فلسطين أو بين فارس وكرمان خلقها الله تعالى امتحانا

لآدم عليه السلام وحمل الاهباط على النقل منها الى أرض الهند كما فى قوله تعالى اهبطوا مصرا لما أن خلقه عليه السلام كان فى الارض بلا خلاف ولم يذكر فى هذه القصة رفعه الى السماء ولو وقع ذلك لكان أولى بالذكر والتذكير لما أنه من أعظم النعم ولانها لو كانت دار الخلد لما دخلها ابليس وقيل انها كانت فى السماء السابعة بدليل اهبطوا ثم ان الاهباط الاول كان منها الى السماء الدنيا والثانى منها الى الارض وقيل الكل ممكن والادلة النقلية متعارضة فوجب التوقف وترك القطع ﴿وكلا منها﴾ أى من ثمارها وانما وجه الخطاب اليهما تعميما للتشريف والترفيه ومبالغة فى ازالة العلل والأعذار وايذانا بتساويهما فى مباشرة المأمور به فان حواء أسوة له عليه السلام فى الأكل بخلاف السكنى فانها تابعة له فيه ﴿رغدا﴾ صفة للمصدر المؤكد أى أكلا واسعا رافها ﴿حيث شئتما﴾ أى أى مكان أردتما منها وهذا كما ترى اطلاق كلى حيث أبيح لهما الأكل منها على وجه التوسعة البالغة المزيحة للعلل ولم يحظر عليهما بعض الأكل ولا بعض المواضع الجامعة للمأكولات حتى لايبقى لهما عذر فى تناول مامنعا منه بقوله تعالى ﴿ولا تقربا﴾ بفتح الراء من قربت الشىء بالكسر أقربه بالفتح اذا التبست به وتعرضت له وقال الجوهرى قرب بالضم يقرب قربا اذا دنا وقربته بالكسر قربانا دنوت منه ﴿هذه الشجرة﴾ نصب على أنه بدل من اسم الاشارة أو نعت له بتأويلها بمشتق أى هذه الحاضرة من الشجرة أى لاتأكلا منها وانما علق النهى بالقربان منها مبالغة فى تحريم الأكل ووجوب الاجتناب عنه والمراد بها الحنطة أو العنبة أو التينة وقيل هى شجرة من أكل منها أحدث والأولى عدم تعيينها من غير قاطع وقرىء هذى بالياء وبكسر شين الشجرة وتاء تقربا وقرىء الشيرة بكسر الشين وفتح الياء ﴿فتكونا من الظالمين﴾ مجزوم على أنه معطوف على تقربا أو منصوب على أنه جواب للنهى وأياما كان فالقرب أى الأكل منها سبب لكونهما من الظالمين أى الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعصية أو نقصوا حظوظهم بمباشرة مايخل بالكرامة والنعيم أو تعدوا حدود الله تعالى ﴿فأزلهما الشيطان عنها﴾ أى أصدر زلتهما أى زلقهما وحملهما على الزلة بسببها ونظيرة عن هذه مافى قوله تعالى وما فعلته عن أمرى أو أزلهما عن الجنة بمعنى أذهبهما وأبعدهما عنها يقال زل عنى كذا اذا ذهب عنك ويعضده قراءة أزالهما وهما متقاربان فى المعنى فان الازلال أى الازلاق يقتضى زوال الزال عن موضعه البتة وازلاله قوله لهما هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى وقوله مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ومقاسمته لهما انى لكما لمن الناصحين وهذه الآيات مشعرة بأنه عليه السلام لم يؤمر بسكنى الجنة على وجه الخلود بل على وجه التكرمة والتشريف لما قلد من خلافة الارض الى حين البعث اليها واختلف فى كيفية توصله اليهما بعد ماقيل له اخرج منها فانك رجيم فقيل انه انما منع من الدخول على وجه التكرمة كما يدخلها الملائكة عليهم السلام ولم يمنع من الدخول للوسوسة ابتلاء لآدم وحواء وقيل قام عند الباب فناداهما وقيل تمثل بصورة دابة فدخل ولم يعرفه الخزنة وقيل دخل فى فم الحية فدخل معها وقيل أرسل بعض أتباعه فأزلهما والعلم عند الله سبحانه ﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ أى من الجنة ان كان ضمير عنها للشجرة والتعبير عنها بذلك للايذان بفخامتها وجلالتها وملابستهما له أى من المكان العظيم الذى كانا مستقرين فيه أو من الكرامة والنعيم ان كان الضمير للجنة ﴿وقلنا اهبطوا﴾ الخطاب لآدم وحواء عليهما السلام بدليل قوله تعالى قال اهبطا منها جميعا وجمع الضمير لانهما أصل الجنس فكأنهما الجنس كلهم وقيل لهما وللحية وابليس على انه أخرج منها ثانيا بعدما كان يدخلها للوسوسة أو يدخلها مسارقة أو اهبط من السماء وقرىء بضم الباء ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ حال استغنى فيها عن الواو بالضمير أى متعادين يبغى بعضكم على بعض بتضليله أو استئناف لامحل له من الاعراب وافراد العدو اما للنظر الى لفظ البعض واما لان وزانه وزان المصدر كالقبول ﴿ولكم فى الارض﴾ التى هى محل الاهباط والظرف متعلق

بما تعلق به الخبر أعنى لكم من الاستقرار ﴿مستقر﴾ أى استقرار أو موضع استقرار ﴿ومتاع﴾ أى تمتع بالعيش وانتفاع به ﴿الى حين﴾ هو حين الموت على أن المغيا تمتع كل فرد من المخاطبين أو القيامة على أنه تمتع الجنس فى ضمن بعض الافراد والجملة كما قبلها فى كونها حالا أى مستحقين للاستقرار والتمتع أو استئنافا ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾ أى استقبلها بالاخذ والقبول والعمل بها حين علمها و وفق لها وقرئ بنصب آدم و رفع كلمات دلالة على أنها استقبلته بلغته وهى قوله تعالى ربنا ظلمنا أنفسنا الآية وقيل سبحانك اللهم و بحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك لا اله الا أنت ظلمت نفسى فاغفرلى انه لايغفر الذنوب الا أنت وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال يارب ألم تخلقنى بيدك قال بلى قال يارب ألم تنفخ فى من روحك قال بلى قال يارب ألم تسبق رحمتك غضبك قال بلى قال ألم تسكنى جنتك قال بلى قال يارب ان تبت وأصلحت أراجعى أنت الى الجنة قال نعم والفاء للدلالة على أن التوبة حصلت عقيب الامر بالهبوط قبل تحقق المأمور به والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة اليه عليه السلام للتشريف والايذان بعليته لالقاء الكلمات المدلول عليه بتلقيها ﴿فتاب عليه﴾ أى رجع عليه بالرحمة وقبول التوبة والفاء للدلالة على ترتبه على تلقى الكلمات المتضمن لمعنى التوبة التى هى عبارة عن الاعتراف بالذنب والندم عليه والعزم على عدم العود اليه واكتفى بذكر شأن آدم عليه السلام لما أن حواء تبع له فى الحكم و لذلك طوى ذكر النساء فى أكثر مواقع الكتاب والسنة ﴿انه هو التواب﴾ أى الرجاع على عباده بالمغفرة أو الذى يكثر اعانتهم على التوبة وأصل التوب الرجوع فاذا وصف به العبد كان رجوعا عن المعصية واذا وصف به البارى عز و علا أريد به الرجوع عن العقاب الى المغفرة ﴿الرحيم﴾ المبالغ فى الرحمة و فى الجمع بين الوصفين وعد بليغ للتائب بالاحسان مع العفو والغفران والجملة تعليل لقوله تعالى فتاب عليه ﴿قلنا﴾ استئناف مبنى على سؤال ينسحب عليه الكلام كأنه قيل فماذا وقع بعد قبول توبته فقيل قلنا ﴿اهبطوا منها جميعا﴾ كرر الامر بالهبوط ايذانا بتحتم مقتضاه وتحققه لامحالة ودفعا لما عسى يقع فى أمنيته عليه السلام من استتباع قبول التوبة للعفو عن ذلك واظهارا لنوع رأفة به عليه السلام لما بين الامرين من الفرق النير كيف لا والاول مشوب بضرب سخط مذيل ببيان أن مهبطهم دار بلية وتعاد لايخلدون فيها والثانى مقرون بوعد ايتاء الهدى المؤدى الى النجاة والنجاح وأما مافيه من وعيد العقاب فليس بمقصود من التكليف قصدا أوليا بل انما هو دائر على سوء اختيار المكلفين قيل وفيه تنبيه على أن الحازم يكفيه فى الردع عن مخالفة حكم الله تعالى مخافة الاهباط المقترن بأحد هذين الامرين فكيف بالمقترن بهما فتأمل وقيل الاول من الجنة الى السماء الدنيا والثانى منها الى الارض و يأباه التعرض لاستقرارهم فى الارض فى الاول و رجوع الضمير الى الجنة فى الثانى وجميعا حال فى اللفظ وتأكيد فى المعنى كأنه قيل اهبطوا أنتم أجمعون و لذلك لايستدعى الاجتماع على الهبوط فى زمان واحد كما فى قولك جاؤا جميعا بخلاف قولك جاؤا معا ﴿فاما يأتينكم منى هدى﴾ الفاء لترتيب مابعدها على الهبوط المفهوم من الامر به واما مركبة من أن الشرطية وما المزيدة المؤكدة لمعناها والفعل فى محل الجزم بالشرط لانه مبنى لاتصاله بنون التأكيد وقيل معرب مطلقا وقيل مبنى مطلقا والصحيح التفصيل ان باشرته النون بنى والا أعرب نحو هل يقومان وتقديم الظرف على الفاعل لما مر غير مرة والمعنى ان يأتينكم منى هدى برسول أبعثه اليكم و كتاب أنزله عليكم وجواب الشرط قوله تعالى ﴿فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾ كما فى قولك ان جئتنى فان قدرت أحسنت اليك وايراد كلمة الشك مع تحقق الاتيان لامحالة للايذان بان الايمان بالله والتوحيد لايشترط فيه بعثة الرسل وانزال الكتب بل يكفى فى وجوبه افاضة العقل ونصب الادلة الآفاقية والانفسية والتمكين من النظر والاستدلال أو للجرى على سنن العظماء فى ايراد عسى ولعل فى مواقع القطع والجزم

والمعنى أن من تبع هداى منكم فلا خوف عليهم فى الدارين من لحوق مكروه ولاهم يحزنون من فوات مطلوب أى لايعتريهم مايوجب ذلك لا لانه يعتريهم ذلك لكنهم لايخافون ولا يحزنون و لا أنه لايعتريهم نفس الخوف والحزن أصلا بل يستمرون على السرور والنشاط كيف لا واستشعار الخوف والخشية استعظاما لجلال الله سبحانه وهيبته واستقصارا للجد والسعى فى اقامة حقوق العبودية من خصائص الخواص والمقربين والمراد بيان دوام انتفائهما لابيان انتفاء دوامهما كما يتوهم من كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما تقرر فى موضعه أن النفى وان دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام واظهار الهدى مضافا الى ضمير الجلالة لتعظيمه وتأكيد وجوب اتباعه أو لان المراد بالثانى ماهو أعم من الهدايات التشريعية وما ذكر من افاضة العقل ونصب الادلة الآفاقية والانفسية كما قيل وقرئ هدى على لغة هذيل و لا خوف بالفتح ﴿والذين كفروا و كذبوا بآياتنا﴾ عطف على من تبع الخ قسيم له كأنه قيل ومن لم يتبعه وانما أوثر عليه ماذكر تفظيعا لحال الضلالة واظهارا لكمال قبحها وايراد الموصول بصيغة الجمع للاشعار بكثرة الكفرة والجمع بين الكفر والتكذيب للايذان بتنوع الهدى الى ماذكر من النوعين وايراد نون العظمة لتربية المهابة وادخال الروعة واضافة الآيات اليها لاظهار كمال قبح التكذيب بها أى والذين كفروا برسلنا المرسلة اليهم وكذبوا بآياتنا المنزلة عليهم وقيل المعنى كفروا بالله و كذبوا بآياته التى أنزلها على الانبياء عليهم السلام أو أظهرها بأيديهم من المعجزات وقيل كفروا بالآيات جنانا و كذبوا بها لسانا فيكون كلا الفعلين متوجها الى الجار والمجرور والآية فى الاصل العلامة الظاهرة قال النابغة

توهمت آيات لها فعرفتها ... لستة أعوام وذا العام سابع

و يقال للمصنوعات من حيث دلالتها على الصانع تعالى وعلمه وقدرته ولكل طائفة من كلمات القرآن المتميزة عن غيرها بفصل لانها علامة لانفصال ماقبلها مما بعدها وقيل لانها تجمع كلمات منه فيكون من قولهم خرج بنو فلان بآيتهم أى بجماعتهم قال

خرجنا من البيتين لاحى مثلنا ... بآيتنا نزجى النعاج المطافلا

واشتقاقها من أى لانها تبين أيا من أى أو من أوى اليه أى رجع وأصلها أوية أو أية فأبدلت عينها ألفا على غير قياس أو أوية أو أيية كرمكة فأعلت أو آئية كقائلة فحذفت الهمزة تخفيفا ﴿أولئك﴾ اشارة الى الموصوف باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الكفر والتكذيب وفيه اشعار بتميزهم بذلك الوصف تميزا مصححا للاشارة الحسية وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فيه وهو مبتدأ وقوله عز وجل ﴿أصحاب النار﴾ أى ملازموها وملابسوها بحيث لايفارقونها خبره والجملة خبر للموصول أو اسم الاشارة بدل من الموصول أو عطف بيان له وأصحاب النار خبر له وقوله تعالى ﴿هم فيها خالدون﴾ فى حيز النصب على الحالية لورود التصريح به فى قوله تعالى أصحاب النار خالدين فيها وقد جوز كونه حالا من النار لاشتماله على ضميرها والعامل معنى الاضافة أو اللام المقدرة أو فى محل الرفع على أنه خبر آخر لأولئك على رأى من جوز وقوع الجملة خبرا ثانيا وفيها متعلق بخالدون والخلود فى الاصل المكث الطويل وقد انعقد الاجماع على أن المراد به الدوام ﴿يابنى اسرائيل﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى طائفة خاصة من الكفرة المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم لتذكيرهم بفنون النعم الفائضة عليهم بعد توجيهه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره بتذكير كلهم بالنعمة العامة لبنى آدم قاطبة بقوله تعالى واذ قال ربك الخ واذ قلنا للملائكة الخ لان المعنى كما أشير اليه بلغهم كلامى واذكر لهم اذ جعلنا أباهم خليفة فى الارض ومسجودا للملائكة عليهم السلام وشرفناه بتعليم الاسماء وقبلنا توبته والابن من البناء لانه مبنى أبيه و لذلك ينسب المصنوع الى صانعه فيقال أبو الحرب و بنت فكر واسرائيل لقب يعقوب عليه السلام ومعناه بالعبرية صفوة الله وقيل عبد الله وقرئ اسرائل بحذف الياء واسرال بحذفهما واسرايل بقلب الهمزة ياء واسرائل

بهمزة مفتوحة واسرئل بهمزة مكسورة بين الراء واللام وتخصيص هذه الطائفة بالذكر والتذكير لما أنهم أوفر الناس نعمة وأكثرهم كفرانها ﴿اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم﴾ بالتفكر فيها والقيام بشكرها وفيه اشعار بأنهم قدنسوها بالكلية ولم يخطروها بالبال لانهم أهملوا شكرها فقط واضافة النعمة الى ضمير الجلالة لتشريفها وايجاب تخصيص شكرها به تعالى وتقييد النعمة بهم لما أن الانسان مجبول على حب النعمة فاذا نظر الى مافاض عليه من النعم حمله ذلك على الرضى والشكر قيل أريد بها ماأنعم به على آبائهم من النعم التى سيجئ تفصيلها وعليهم من فنون النعم التى أجلها ادراك عصر النبي عليه السلام وقرئ اذكروا من الافتعال ونعمتى باسكان الياء واسقاطها فى الدرج وهو مذهب من لايحرك الياء المكسور ماقبلها ﴿وأوفوا بعهدى﴾ بالايمان والطاعة ﴿أوف بعهدكم﴾ بحسن الاثابة والعهد يضاف الى كل واحد ممن يتولى طرفيه ولعل الاول مضاف الى الفاعل والثانى الى المفعول فانه تعالى عهد اليهم بالايمان والعمل الصالح بنصب الدلائل وارسال الرسل وانزال الكتب ووعد لهم بالثواب على حسناتهم وللوفاء بهما عرض عريض فأول مراتبه منا هو الاتيان بكلمتى الشهادة ومن الله تعالى حقن الدماء والاموال وآخرها منا الاستغراق فى بحر التوحيد بحيث نغفل عن أنفسنا فضلا عن غيرنا ومن الله تعالى الفوز باللقاء الدائم وأما ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أوفوا بعهدى فى اتباع محمد صلى الله عليه وسلم أوف بعهدكم فى رفع الآصار والاغلال وعن غيره أوفوا بأداء الفرائض وترك الكبائر أوف بالمغفرة والثواب أو أوفوا بالاستقامة على الطريق المستقيم أوف بالكرامة والنعيم المقيم فبالنظر الى الوسائط وقيل كلاهما مضاف الى المفعول والمعنى أوفوا بما عاهدتمونى من الايمان والتزام الطاعة أوف بما عاهدتكم من حسن الاثابة وتفصيل العهدين قوله تعالى ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل الى قوله ولأدخلنكم جنات الخ وقرئ أوف بالتشديد للمبالغة والتأكيد ﴿وإياى فارهبون﴾ فيما تأتون وماتذرون خصوصا فى نقض العهد وهو آكد فى افادة التخصيص من اياك نعبد لما فيه مع التقديم من تكرير المفعول والفاء الجزائية الدالة على تضمن الكلام معنى الشرط كأنه قيل ان كنتم راهبين شيئاً فارهبونى والرهبة خوف معه تحرز والآية متضمنة للوعد والوعيد ودالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد وأن المؤمن ينبغى أن لايخاف الا الله تعالى ﴿وآمنوا بما أنزلت﴾ أفرد الايمان بالقرآن بالامر به لما أنه العمدة القصوى فى شأن الوفاء بالعهود ﴿مصدقا لما معكم﴾ من التوراة والتعبير عنها بذلك للايذان بعلمهم بتصديقه لها فان المعية مئنة لتكرر المراجعة اليها والوقوف على مافى تضاعيفها المؤدى الى العلم بكونه مصدقا لها ومعنى تصديقه للتوراة أنه نازل حسبما نعت فيها أو من حيث أنه موافق لها فى القصص والمواعيد والدعوة الى التوحيد والعدل بين الناس والنهى عن المعاصى والفواحش وأما مايتراءى من مخالفته لها فى بعض جزئيات الاحكام المتفاوتة بسبب تفاوت الاعصار فليست بمخالفة فى الحقيقة بل هى موافقة لها من حيث أن كلا منها حق بالاضافة الى عصره وزمانه متضمن للحكم التى عليها يدور فلك التشريع وليس فى التوراة دلالة على أبدية أحكامها المنسوخة حتى يخالفها ماينسخها وانما تدل على مشروعيتها مطلقا من غير تعرض لبقائها وزوالها بل نقول هى ناطقة بنسخ تلك الاحكام فان نطقها بصحة القرآن الناسخ لها نطق بنسخها فاذن مناط المخالفة فى الاحكام المنسوخة انما هو اختلاف العصر حتى لو تأخر نزول المتقدم لنزل على وفق المتأخر ولو تقدم نزول المتأخر لوافق المتقدم قطعا ولذلك قال عليه السلام لو كان موسى حيا لما وسعه الا اتباعى وتقييد المنزل بكونه مصدقا لما معهم لتأكيد وجوب الامتثال بالامر فان ايمانهم بما معهم مما يقتضى الايمان بما يصدقه قطعا ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ أى لا تسارعوا الى الكفر به فان وظيفتكم أن تكونوا أول من آمن به لما أنكم تعرفون شأنه وحقيته بطريق التلقى مما معكم من الكتب

الالهية كما تعرفون أبناءكم وقد كنتم تستفتحون به وتبشرون بزمانه كما سيجئ فلا تضعوا موضع مايتوقع منكم ويجب عليكم مالايتوهم صدوره عنكم من كونكم أول كافر به ووقوع أول كافر به خبرا من ضمير الجمع بتأويل أول فريق أو فوج أو بتأويل لا يكن كل واحد منكم أول كافر به كقولك كسانا حلة ونهيهم عن التقدم فى الكفر به مع أن مشركى العرب أقدم منهم لما أن المراد به التعريض لا الدلالة على ما نطق به الظاهر كقولك أما أنا فلست بجاهل لان المراد نهيهم عن كونهم أول كافر به من أهل الكتاب أو ممن كفر بما عنده فان من كفر بالقرآن فقد كفر بما يصدقه أو مثل من كفر من مشركى مكة وأول افعل لافعل له وقيل أصله أوأل من وأل اليه اذا نجا وخلص فأبدلت الهمزة واوا تخفيفا غير قياسى أو أأول من آل فقلبت همزته واوا وأدغمت ﴿ولا تشتروا بآياتى﴾ أى لا تأخذوا لانفسكم بدلا منها ﴿ثمنا قليلا﴾ من الحظوظ الدنيوية فانها وان جلت قليلة مسترذلة بالنسبة الى مافات عنهم من حظوظ الآخرة بترك الايمان قيل كانت لهم رياسة فى قومهم ورسوم وهدايا فخافوا عليها لو اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختاروها على الايمان وانما عبر عن المشترى الذى هو العمدة فى عقود المعاوضة والمقصود فيها بالثمن الذى شأنه أن يكون وسيلة فيها وقرنت الآيات التى حقها أن يتنافس فيها المتنافسون بالباء التى تصحب الوسائل ايذانا بتعكيسهم حيث جعلوا ماهو المقصد الاصلى وسيلة والوسيلة مقصدا ﴿وإياى فاتقون﴾ بالايمان واتباع الحق والاعراض عن حطام الدنيا ولما كانت الآية السابقة مشتملة على ماهو كالمبادى لما فى الآية الثانية فصلت بالرهبة التى هى من مقدمات التقوى أو لان الخطاب بها لما عم العالم والمقلد أمر فيها بالرهبة المتناولة للفريقين وأما الخطاب بالثانية فحيث خص بالعلماء أمر فيها بالتقوى الذى هو المنتهى ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾ عطف على ماقبله واللبس الخلط وقد يلزمه الاشتباه بين المختلطين والمعنى لا تخلطوا الحق المنزل بالباطل الذى تخترعونه وتكتبونه حتى يشتبه أحدهما بالآخر أو لا تجعلوا الحق ملتبسا بسبب الباطل الذى تكتبونه فى تضاعيفه أو تذكرونه فى تأويله ﴿وتكتموا الحق﴾ مجزوم داخل تحت حكم النهى كأنهم أمروا بالايمان وترك الضلال ونهوا عن الاضلال بالتلبيس على من سمع الحق والاخفاء عمن لم يسمعه أو منصوب باضمار أن على أن الواو للجمع أى لا تجمعوا بين لبس الحق بالباطل وبين كتمانه ويعضده أنه فى مصحف ابن مسعود وتكتمون أى وأنتم تكتمون أى كاتمين وفيه اشعار بأن استقباح اللبس لما يصحبه من كتمان الحق وتكرير الحق اما لان المراد بالاخير ليس عين الاول بل هو نعت النبى صلى الله عليه وسلم الذى كتموه وكتبوا مكانه غيره كما سيجئ فى قوله تعالى فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم واما لزيادة تقبيح المنهى عنه اذ فى التصريح باسم الحق ماليس فى ضميره ﴿وأنتم تعلمون﴾ أى حال كونكم عالمين بأنكم لابسون كاتمون أو وأنتم تعلمون أنه حق أو وأنتم من أهل العلم وليس ايراد الحال لتقييد النهى به كما فى قوله تعالى لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى بل لزيادة تقبيح حالهم اذ الجاهل عسى يعذر ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكوة﴾ أى صلاة المسلمين وزكاتهم فان غيرهما بمعزل من كونه صلاة وزكاة أمرهم الله تعالى بفروع الاسلام بعد الامر بأصوله ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ أى فى جماعتهم فان صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة لما فيها من تظاهر النفوس فى المناجاة وعبر عن الصلاة بالركوع احترازا عن صلاة اليهود وقيل الركوع الخضوع والانقياد لما يلزمهم الشارع قال الاضبط بن قريع السعدى

لاتحقرن الضعيف علك أن ... تركع يوما والدهر قد رفعه

﴿أتأمرون الناس بالبر﴾ تجريد للخطاب وتوجيه له الى بعضهم بعد توجيهه الى الكل والهمزة فيها تقرير مع توبيخ وتعجيب والبر التوسع فى الخير من البر الذى هو الفضاء الواسع يتناول جميع أصناف الخيرات ولذلك قيل البر ثلاثة

بر فى عبادة الله تعالى و بر فى مراعاة الاقارب و بر فى معاملة الاجانب ﴿وتنسون أنفسكم﴾ أى تتركونها من البر كالمنسيات عن ابن عباس رضى الله عنهما انها نزلت فى أحبار المدينة كانوا يأمرون سرا من نصحوه باتباع النبى صلى الله عليه وسلم و لا يتبعونه طمعا فى الهدايا والصلات التى كانت تصل اليهم من أتباعهم وقيل كانوا يأمرون بالصدقة و لا يتصدقون وقال السدى انهم كانوا يأمرون الناس بطاعة الله تعالى و ينهونهم عن معصيته وهم يتركون الطاعة و يقدمون على المعصية وقال ابن جريج كانوا يأمرون الناس بالصلاة والزكاة وهم يتركونهما ومدار الانكار والتوبيخ هى الجملة المعطوفة دون ماعطفت هى عليه ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ تبكيت لهم وتقريع كقوله تعالى وأنتم تعلمون أى والحال أنكم تتلون التوراة الناطقة بنعوته صلى الله عليه وسلم الآمرة بالايمان به أو بالوعد بفعل الخير والوعيد على الفساد والعناد وترك البر ومخالفة القول العمل ﴿أفلا تعقلون﴾ أى أتتلونه فلا تعقلون مافيه أو قبح ماتصنعون حتى ترتدعوا عنه فالانكار متوجه الى عدم العقل بعد تحقق ما يوجبه فالمبالغة من حيث الكيف أو ألا تتأملون فلا تعقلون فالانكار متوجه الى كلا الامرين والمبالغة حينئذ من حيث الكم والعقل فى الاصل المنع والامساك ومنه العقال الذى يشد به وظيف البعير الى ذراعه لحبسه عن الحراك سمى به النور الروحانى الذى به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية لانه يحبسه عن تعاطى مايقبح و يعقله على مايحسن والآية كما ترى ناعية على كل من يعظ غيره ولا يتعظ بسوء صنيعه وعدم تأثره وان فعله فعل الجاهل بالشرع أو الاحمق الخالى عن العقل والمراد بها كما أشير اليه حثه على تزكية النفس والاقبال عليها بالتكميل لتقوم بالحق فتقيم غيرها لامنع الفاسق عن الوعظ يروى أنه كان عالم من العلماء مؤثر الكلام قوى التصرف فى القلوب وكان كثيرا مايموت من أهل مجلسه واحد أو اثنان من شدة تأثير وعظه وكان فى بلده عجوز لها ابن صالح رقيق القلب سريع الانفعال وكانت تحترز عليه وتمنعه من حضور مجلس الواعظ فحضره يوما على حين غفلة منها فوقع من أمر الله تعالى ماوقع ثم أن العجوز لقيت الواعظ يوما فى الطريق فقالت

لتهدى الانام و لاتهتدى ألا ان ذلك لاينفع

فياحجر الشحذ حتى متى تسن الحديد و لا تقطع

فلما سمعه الواعظ شهق شهقة فخر من فرسه مغشيا عليه فحملوه الى بيته فتوفى الى رحمة الله سبحانه ﴿واستعينوا بالصبر والصلوة﴾ متصل بما قبله كأنهم لما كلفوا مافيه مشقة من ترك الرياسة والاعراض عن المال عولجوا بذلك والمعنى استعينوا على حوائجكم بانتظار النجح والفرج توكلا على الله تعالى أو بالصوم الذى هو الصبر عن المفطرات لما فيه من كسر الشهوة وتصفية النفس والتوسل بالصلاة والالتجاء اليها فانها جامعة لانواع العبادات النفسانية والبدنية من الطهارة وستر العورة وصرف المال فيهما والتوجه الى الكعبة والعكوف على العبادة واظهار الخشوع بالجوارح واخلاص النية بالقلب ومجاهدة الشيطان ومناجاة الحق وقراءة القرآن والتكلم بالشهادة وكف النفس عن الأطيبين حتى تجابوا الى تحصيل المآرب وجبر المصائب روى أنه عليه السلام كان اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة و يجوز أن يراد بها الدعاء ﴿وانها﴾ أى الاستعانة بهما او الصلاة وتخصيصها برد الضمير اليها لعظم شأنها واشتمالها على ضروب من الصبر كما فى قوله تعالى واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها أو جملة ما أمروا بها ونهوا عنها ﴿لكبيرة﴾ لثقيلة شاقة كقوله تعالى كبر على المشركين ماتدعوهم اليه ﴿الاعلى الخاشعين﴾ الخشوع الاخبات ومنه الخشعة للرملة المتطامنة والخضوع اللين والانقياد ولذلك يقال الخشوع بالجوارح والخضوع بالقلب وانما لم تثقل عليهم لانهم يتوقعون ما أعد لهم بمقابلتها فتهون عليهم و لانهم يستغرقون فى مناجاة ربهم فلا يدركون مايجرى عليهم من المشاق والمتاعب ولذلك قال عليه السلام وقرة عينى

فى الصلاة والجملة حالية أو اعتراض تذييلى ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون﴾ أى يتوقعون لقاءه تعالى ونيل ماعنده من المثوبات والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة اليهم للايذان بفيضان احسانه اليهم أو يتيقنون أنهم يحشرون اليه للجزاء فيعملون على حسب ذلك رغبة و رهبة وأما الذين لا يوقنون بالجزاء و لا يرجون الثواب ولا يخافون العقاب كانت عليهم مشقة خالصة فتثقل عليهم كالمنافقين والمرائين فالتعرض للعنوان المذكور للاشعار بعلية الربوبية والمالكية للحكم و يؤيده أن فى مصحف ابن مسعود رضى الله عنه يعلمون وكان الظن لما شابه العلم فى الرجحان أطلق عليه لتضمين معنى التوقع قال

فأرسلته مستيقن الظن أنه مخالط ما بين الشراسيف جائف

وجعل خبران فى الموضعين اسما للدلالة على تحقق اللقاء والرجوع و تقررهما عندهم ﴿يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم﴾ كرر التذكير للتأكيد ولربط مابعده من الوعيد الشديد به ﴿وأنى فضلتكم﴾ عطف على نعمتى عطف الخاص على العام لكماله أى فضلت آباءكم ﴿على العالمين﴾ أى عالمى زمانهم بما منحتهم من العلم والايمان والعمل الصالح وجعلتهم أنبياء وملوكا مقسطين وهم آباؤهم الذين كانوا فى عصر موسى عليه السلام و بعده قبل أن يغيروا ﴿واتقوا يوما﴾ أى حساب يوم أو عذاب يوم ﴿لا تجزى نفس عن نفس شيئا﴾ أى لا تقضى عنها شيئا من الحقوق فانتصاب شيئاً على المفعولية أو شيئا من الجزاء فيكون نصبه على المصدرية وقرئ لاتجزئ أى لاتغنى عنها فيتعين النصب على المصدرية وايراده منكرا مع تنكير النفس للتعميم والاقناط الكلى والجملة صفة يوما والعائد منها محذوف أى لاتجزى فيه ومن لم يجوز الحذف قال اتسع فيه فحذف الجار وأجرى المجرور مجرى المفعول به ثم حذف كما حذف فى قول من قال

فما أدرى أغيرهم تناء وطول العهد أم مال أصابوا

أى أصابوه ﴿ولا تقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل﴾ أى من النفس الثانية العاصية أو من الاولى والشفاعة من الشفع كان المشفوع له كان فردا فجعله الشفيع شفعا والعدل الفدية وقيل البدل وأصله التسوية سمى به الفدية لانها تساوى المفدى وتجزى بجزاه ﴿ولاهم ينصرون﴾ أى يمنعون من عذاب الله عز وجل والضمير لما دلت عليه النفس الثانية المنكرة الواقعة فى سياق النفى من النفوس الكثيرة والتذكير لكونها عبارة عن العباد والاناسى والنصرة هنا أخص من المعونة لاختصاصها بدفع الضرر وكانه أريد بالآية نفى أن يدفع العذاب أحد عن أحد من كل وجه محتمل فانه اما أن يكون قهرا أو لا والاول النصرة والثانى اما أن يكون مجانا أو لا والاول الشفاعة والثانى اما أن يكون بأداء عين ما كان عليه وهو أن يجزى عنه أو بأداء غيره وهو أن يعطى عنه عدلا وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية على نفى الشفاعة لاهل الكبائر والجواب انها خاصة بالكفار للآيات الواردة فى الشفاعة والاحاديث المروية فيها و يؤيده أن الخطاب معهم ولردهم عما كانوا عليه من اعتقاد أن آباءهم الانبياء يشفعون لهم ﴿واذ نجيناكم من آل فرعون﴾ تذكير لتفاصيل ما أجمل فى قوله تعالى نعمتى التى أنعمت عليكم من فنون النعماء وصنوف الآلاء أى واذكروا وقت تنجيتنا اياكم أى آباءكم فان تنجيتهم تنجية لاعقابهم وقرئ أنجيتكم وأصل آل أهل لان تصغيره أهيل وخص بالاضافة الى أولى الاخطار كالانبياء عليهم السلام والملوك وفرعون لقب لمن ملك العمالقة ككسرى لملك الفرس وقيصر لملك الروم وخاقان لملك الترك ولعتوه اشتق منه تفرعن الرجل اذا عتا وتمرد وكان فرعون موسى عليه السلام مصعب بن ريان وقيل ابنه وليدا من بقايا عاد وقيل انه كان عطارا أصفهانيا ركبته الديون فأفلس فاضطر الى الخروج فلحق بالشام فلم يتسن له المقام به فدخل مصر فرأى فى ظاهره حملا من البطيخ بدرهم و فى نفسه بطيخة بدرهم فقال فى نفسه ان تيسر لى أداء الدين فهذا طريقه فخرج الى السواد فاشترى حملا بدرهم فتوجه به الى السوق فكل من لقيه من المكاسين أخذوا منه بطيخا فدخل البلد وما معه

الابطيخة فئة فباعها بدرهم ومضى لوجهه و رأى أهل البلد متر وكين سدى لا يتعاطى أحد سياستهم و كان قد وقع بهم و باء عظيم فتوجه نحو المقابر فرأى ميتا يدفن فتعرض لاوليائه فقال أنا أمين المقابر فلا أدعكم تدفنونه حتى تعطونى خمسة دراهم فدفعوها اليه ومضى لآخر وآخر حتى جمع فى مقدار ثلاثة أشهر مالا عظيما ولم يتعرض له أحد قط الى أن تعرض يوما لاولياء ميت فطلب منهم ما كان يطلب من غيرهم فأبوا ذلك فقالوا من نصبك هذا المنصب فذهبوا به الى فرعون فقال من أنت ومن أقامك بهذا المقام قال لم يقمنى أحد وانما فعلت مافعلت ليحضرنى أحد الى مجلسك فأنبهك على اختلال حال قومك وقد جمعت بهذا الطريق هذا المقدار من المال فأحضره ودفعه الى فرعون فقال ولنى أمورك ترنى أمينا كافيا فولاه اياها فسار بهم سيرة حسنة فانتظمت مصالح العسكر واستقامت أحوال الرعية ولبث فيهم دهرا طويلا وترامى أمره فى العدل والصلاح فلما مات فرعون أقاموه مقامه فكان من أمره ما كان وكان فرعون يوسف ريان وكان بينهما أكثر من أربعمائة سنة ﴿يسومونكم﴾ أى يبغونكم من سامه خسفا اذا أولاه ظلما وأصله الذهاب فى طلب الشئ ﴿سوء العذاب﴾ أى أفظعه وأقبحه بالنسبة الى سائره والسوء مصدر من ساء يسوء ونصبه على المفعولية ليسومونكم والجملة حال من الضمير فى نجيناكم أو من آل فرعون أو منهما جميعا لاشتمالها على ضميريهما ﴿يذبحون أبناءكم و يستحيون نساءكم﴾ بيان ليسومونكم و لذلك ترك العاطف بينهما وقرئ يذبحون بالتخفيف وانما فعلوا بهم مافعلوا لما أن فرعون رأى فى المنام أو أخبر الكهنة أنه سيولد منهم من يذهب بملكه فلم يرد اجتهادهم من قضاء الله عز وجل شيأ قيل قتلوا بتلك الطريقة تسعمائة ألف مولود وتسعين ألفا وقد أعطى الله عز وجل نفس موسى عليه السلام من القوة على التصرف ما كان يعطيه أولئك المقتولين لو كانوا أحياء و لذلك كانت معجزاته ظاهرة باهرة ﴿و فى ذلكم﴾ اشارة الى ماذكر من التذبيح والاستحياء أو الى الانجاء منه وجمع الضمير للمخاطبين فعلى الاول معنى قوله تعالى ﴿بلاء﴾ محنة وبلية وكون استحياء نسائهم أى استبقائهن على الحياة محنة مع أنه عفو وترك للعذاب لما أن ذلك كان للاستعمال فى الاعمال الشاقة وعلى الثانى نعمة وأصل البلاء الاختبار ولكن لما كان ذلك فى حقه سبحانه محالا وكان مايجرى مجرى الاختبار لعباده تارة بالمحنة وأخرى بالمنحة أطلق عليهما وقيل يجوز أن يشار بذلكم الى الجملة و يراد بالبلاء القدر المشترك الشامل لهما ﴿من ربكم﴾ من جهته تعالى بتسليطهم عليكم أو ببعث موسى عليه السلام وبتوفيقه لتخليصكم منهم أو بهما معا ﴿عظيم﴾ صفة لبلاء وتنكيرهما للتفخيم و فى الآية الكريمة تنبيه على أن مايصيب العبد من السراء والضراء من قبيل الاختبار فعليه الشكر فى المسار والصبر على المضار ﴿واذ فرقنا بكم البحر﴾ بيان لسبب التنجية وتصوير لكيفيتها أثر تذكيرها وبيان عظمها وهولها وقد بين فى تضاعيف ذلك نعمة جليلة أخرى هى الانجاء من الغرق أى واذكروا اذ فلقناه بسلوككم أو ملتبسا بكم كقوله تعالى تنبت بالدهن أو بسبب انجائكم وفصلنا بين بعضه و بعض حتى حصلت مسالك وقرئ بالتشديد للتكثير لان المسالك كانت اثنى عشر بعدد الاسباط ﴿فأنجيناكم﴾ أى من الغرق باخراجكم الى الساحل كما يلوح به العدول الى صيغة الافعال بعد ايراد التخليص من فرعون بصيغة التفعيل وكذا قوله تعالى ﴿وأغرقنا آل فرعون﴾ أريد فرعون وقومه وانما اقتصر على ذكرهم للعلم بأنه أولى به منهم وقيل شخصه كما روى أن الحسن رضى الله عنه كان يقول اللهم صل على آل محمد أى شخصه واستغنى بذكره عن ذكر قومه ﴿وأنتم تنظرون﴾ ذلك أو غرقهم واطباق البحر عليهم أو انفلاق البحر عن طرق يابسة مذللة أو جثثهم التى قذفها البحر الى الساحل أو ينظر بعضكم بعضا روى أنه تعالى أمر موسى عليه السلام أن يسرى ببنى اسرائيل فخرج بهم فصبحهم فرعون وجنوده وصادفوهم على شاطئ البحر فأوحى الله تعالى اليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه بها فظهر فيه اثناعشر طريقا يابسا

فسلكوها فقالوا نخاف أن يغرق بعض أصحابنا فلا نعلم ففتح الله تعالى فيها كوى فتراءوا وتسامعوا حتى عبروا البحر فلما وصل اليه فرعون فرآه منفلقا اقتحمه هو وجنوده فغشيهم ما غشيهم واعلم أن هذه الواقعة كما أنها لموسى معجزة عظيمة تخر لها أطم الجبال ونعمة عظيمة لاوائل بنى اسرائيل موجبة عليهم شكرها كذلك اقتصاصها على ماهى عليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم معجزة جليلة تطمئن بها القلوب الأبية وتنقاد لها النفوس الغبية موجبة لأعقابهم أن يتلقوها بالاذعان فلا تأثرت أوائلهم بمشاهدتها و رؤيتها و لا تذكرت أواخرهم بتذكيرها و روايتها فيالها من عصابة ماأعصاها وطائفة ما أطغاها ﴿واذ واعدنا موسى أربعين ليلة﴾ لما عادوا الى مصر بعد مهلك فرعون وعد الله موسى عليه السلام أن يعطيه التوراة وضرب له ميقاتا ذا القعدة وعشر ذى الحجة وقيل وعد عليه السلام بنى اسرائيل وهو بمصر ان أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله تعالى فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فامره بصوم ثلاثين وهو شهر ذى القعدة ثم زاد عشرا من ذى الحجة وعبر عنها بالليالى لانها غرر الشهور وصيغة المفاعلة بمعنى الثلاثى وقيل على أصلها تنزيلا لقبول موسى عليه السلام منزلة الوعد وأربعين ليلة مفعول ثان لواعدنا على حذف المضاف أى بمقام أربعين ليلة وقرئ وعدنا ﴿ثم اتخذتم العجل﴾ بتسويل السامرى الها ومعبودا وثم للتراخى الرتبى ﴿من بعده﴾ أى من بعد مضيه الى الميقات على حذف مضاف ﴿وأنتم ظالمون﴾ باشراككم و وضعكم للشئ فى غير موضعه وهو حال من ضمير اتخذتم أو اعتراض تذييلى أى وأنتم قوم عادتكم الظلم ﴿ثم عفونا عنكم﴾ حين تبتم والعفو محو الجريمة من عفاه درسه وقد يجئ لازما قال

عرفت المنزل الخالى عفا من بعد أحوال
عفاه كل هتان كثير الوبل هطال

وقوله تعالى ﴿من بعد ذلك﴾ أى من بعد الاتخاذ الذى هو متناه فى القبح للايذان بكمال بعد العفو بعد تلك المرتبة من الظلم ﴿لعلكم تشكرون﴾ لكى تشكروا نعمة العفو وتستمروا بعد ذلك على الطاعة ﴿واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان﴾ أى التوراة الجامعة بين كونها كتابا وحجة تفرق بين الحق والباطل وقيل أريد بالفرقان معجزاته الفارقة بين المحق والمبطل فى الدعوى أو بين الكفر والايمان وقيل الشرع الفارق بين الحلال والحرام أو النصر الذى فرق بينه و بين عدوه كقوله تعالى يوم الفرقان يريد به يوم بدر ﴿لعلكم تهتدون﴾ لكى تهتدوا بالتدبر فيه والعمل بما يحويه ﴿واذ قال موسى لقومه﴾ بيان لكيفية وقوع العفو المذكور ﴿يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل﴾ أى معبودا ﴿فتوبوا﴾ أى فاعزموا على التوبة ﴿الى بارئكم﴾ أى الى من خلقكم بريئا من العيوب والنقصان والتفاوت وميز بعضكم من بعض بصور وهيئات مختلفة وأصل التركيب الخلوص عن الغير اما بطريق التفصى كما فى برئ المريض أو بطريق الانشاء كما فى برأ الله آدم من الطين والتعرض لعنوان البارئية للاشعار بأنهم بلغوا من الجهالة أقصاها ومن الغواية منتهاها حيث تركوا عبادة العليم الحكيم الذى خلقهم بلطيف حكمته بريئا من التفاوت والتنافر الى عبادة البقر الذى هو مثل فى الغباوة وأن من لم يعرف حقوق منعمه حقيق بأن تسترد هى منه ولذلك أمروا بالقتل وفك التركيب ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ تماما لتوبتكم بالبخع أو بقطع الشهوات وقيل أمروا أن يقتل بعضهم بعضا وقيل أمر من لم يعبد العجل بقتل من عبده . يروى أن الرجل كان يرى قريبه فلم يقدر على المضى لامر الله تعالى فارسل الله ضبابة وسحابة سوداء لا يتباصرون بها فاخذوا يقتلون من الغداة الى العشى حتى دعا موسى وهارون عليهما السلام فكشفت السحابة ونزلت التوبة و كانت القتلى سبعين الفا والفاء الاولى للتسبيب والثانية للتعقيب ﴿ذلكم﴾ اشارة الى ماذكر من التوب والقتل ﴿خير لكم عند بارئكم﴾ لما أنه طهرة عن الشرك و وصلة الى الحياة الابدية والبهجة السرمدية

﴿فتاب عليكم﴾ عطف على محذوف على أنه خطاب منه سبحانه على نهج الالتفات من التكلم الذى يقتضيه سياق النظم الكريم وسياقه فان مبنى الجميع على التكلم الى الغيبة ليكون ذريعة الى اسناد الفعل الى ضمير بارئكم المستتبع للايذان بعلية عنوان البارئية والخلق والاحياء لقبول التوبة التى هى عبارة عن العفو عن القتل تقديره ففعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم بارئكم وانما لم يقل فتاب عليهم على أن الضمير للقوم لما أن ذلك نعمة أريد التذكير بها للمخاطبين لا لأسلافهم هذا وقد جوز أن يكون فتاب عليكم متعلقا بمحذوف على أنه من كلام موسى عليه السلام لقومه تقديره ان فعلتم ما أمرتم به فقد تاب عليكم ولا يخفى أنه بمعزل من اللياقة بجلالة شأن التنزيل كيف لا وهو حينئذ حكاية لوعد موسى عليه السلام قومه بقبول التوبة منه تعالى لا لقبوله تعالى حتما وقد عرفت أن الآية الكريمة تفصيل لكيفية القبول المحكى فيما قبل وأن المراد تذكير المخاطبين بتلك النعمة ﴿انه هو التواب الرحيم﴾ تعليل لما قبله أى الذى يكثر توفيق المذنبين للتوبة ويبالغ فى قبولها منهم وفى الانعام عليهم ﴿واذقلتم ياموسى لن نؤمن لك﴾ تذكير لنعمة أخرى عليهم بعد ما صدر عنهم ما صدر من الجناية العظيمة التى هى اتخاذ العجل أى لن نؤمن لاجل قولك ودعوتك أو لن نقر لك والمؤمن به اعطاء الله اياه التوراة أو تكليمه اياه أو أنه نبى أو أنه تعالى جعل توبتهم بقتلهم أنفسهم ﴿حتى نرى الله جهرة﴾ أى عيانا وهى فى الأصل مصدر قولك جهرت بالقراءة استعيرت للمعاينة لما بينهما من الاتحاد فى الوضوح والانكشاف الا أن الاول فى المسموعات والثانى فى المبصرات ونصبها على المصدرية لانها نوع من الرؤية أو حال من الفاعل أو المفعول وقرئ بفتح الهاء على أنها مصدر كالغلبة أو جمع كالكتبة فيكون حالا من الفاعل لا غير والقائلون هم السبعون المختارون لميقات التوبة عن عبادة العجل روى أنهم لما ندموا على ما فعلوا وقالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين أمر الله موسى عليه السلام أن يجمع سبعين رجلا ويحضر معهم الطور يظهرون فيه تلك التوبة فلما خرجوا الى الطور وقع عليه عمود من الغمام وتغشاه كله فكلم الله موسى عليه السلام يأمره وينهاه وكان كلما كلمه تعالى أوقع على جبهته نورا ساطعا لا يستطيع أحد من السبعين النظر اليه وسمعوا كلامه تعالى مع موسى عليه السلام افعل ولا تفعل فعند ذلك طمعوا فى الرؤية فقالوا ما قالوا كما سيأتى فى سورة الاعراف ان شاء الله تعالى وقيل عشرة آلاف من قومه ﴿فأخذتكم الصاعقة﴾ لفرط العناد والتعنت وطلب المستحيل فانهم ظنوا أنه سبحانه وتعالى مما يشبه الاجسام وتتعلق به الرؤية تعلقها بها على طريق المقابلة فى الجهات والاحياز ولا ريب فى استحالته انما الممكن فى شأنه تعالى الرؤية المنزهة عن الكيفيات بالكلية وذلك للمؤمنين فى الآخرة وللافراد من الانبياء الذين بلغوا فى صفاء الجوهر الى حيث تراهم كأنهم وهم فى جلابيب من أبدانهم قد نضوها وتجردوا عنها الى عالم القدس فى بعض الاحوال فى الدنيا قيل جاءت نار من السماء فأحرقتهم وقيل صيحة وقيل جنود سمعوا بحسيسها فخروا صعقين ميتين يوما وليلة وعن وهب أنهم لم يموتوا بل لما رأوا تلك الهيئة الهائلة أخذتهم الرعدة ورجفوا حتى كادت تبين مفاصلهم وتنقض ظهورهم وأشرفوا على الهلاك فعند ذلك بكى موسى عليه السلام ودعا ربه فكشف الله عز وجل عنهم ذلك فرجعت اليهم عقولهم ومشاعرهم ولم تكن صعقة موسى عليه السلام موتا بل غشية لقوله تعالى فلما أفاق ﴿وأنتم تنظرون﴾ أى ما أصابكم بنفسه أو بآثاره ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ بتلك الصاعقة قيد البعث به لما أنه قد يكون من الاغماء وقد يكون من النوم كما فى قوله تعالى ثم بعثناهم لنعلم الخ ﴿لعلكم تشكرون﴾ أى نعمة البعث أو ما كفرتموه بما رأيتم من بأس الله تعالى ﴿وظللنا عليكم الغمام﴾ أى جعلناها بحيث تلقى عليكم ظلها وذلك أنه تعالى سخر لهم السحاب يسير بسيرهم وهم فى التيه يظلهم من الشمس وينزل بالليل عمود من نار

يسيرون فى ضوئه وثيابهم لا تتسخ ولا تبلى ﴿وأنزلنا عليكم المن والسلوى﴾ أى الترنجبين والسمانى وقيل كان ينزل عليهم المن مثل الثلج من الفجر الى الطلوع لكل انسان صاع وتبعث الجنوب عليهم السمانى فيذبح الرجل منه ما يكفيه ﴿كلوا﴾ على ارادة القول أى قائلين لهم أو قيل لهم كلوا ﴿من طيبات مارزقناكم﴾ من مستلذاته وما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن المن والسلوى ﴿وماظلمونا﴾ كلام عدل به عن نهج الخطاب السابق للايذان باقتضاء جنايات المخاطبين للاعراض عنهم وتعداد قبائحهم عند غيرهم على طريق المباثة معطوف على مضمر قد حذف للايجاز والاشعار بأنه أمر محقق غنى عن التصريح به أى فظلموا بأن كفروا تلك النعم الجليلة وماظلمونا بذلك ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ بالكفران اذ لا يتخطاهم ضرره وتقديم المفعول للدلالة على القصر الذى يقتضيه النفى السابق وفيه ضرب تهكم بهم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على تماديهم فى الظلم واستمرارهم على الكفر ﴿واذ قلنا﴾ تذكير لنعمة أخرى من جنابه تعالى وكفرة أخرى لاسلافهم أى واذكروا وقت قولنا لآبائكم اثر ما أنقذناهم من التيه ﴿ادخلوا هذه القرية﴾ منصوبة على الظرفية عند سيبويه وعلى المفعولية عند الاخفش وهى بيت المقدس وقيل أريحاء ﴿فكلوا منها حيث شئتم رغدا﴾ أى واسعا هنيئا ونصبه على المصدرية أو الحالية من ضمير المخاطبين وفيه دلالة على أن المأمور به الدخول على وجه الاقامة والسكنى فيؤول الى ما فى سورة الاعراف من قوله تعالى اسكنوا هذه القرية ﴿وادخلوا الباب﴾ أى باب القرية على ما روى من أنهم دخلوا أريحا فى زمن موسى عليه السلام كما سيجئ فى سورة المائدة أو باب القبة التى كانوا يصلون اليها فانهم لم يدخلوا بيت المقدس فى حياة موسى عليه السلام ﴿سجدا﴾ أى متطامنين مخبتين أو ساجدين لله شكرا على اخراجهم من التيه ﴿وقولوا حطة﴾ أى مسئلتنا أو أمرك حطة وهى فعلة من الحط كالجلسة وقرئ بالنصب على الاصل بمعنى حط عنا ذنوبنا حطة أو على أنها مفعول قولوا أى قولوا هذه الكلمة وقيل معناه أمرنا حطة أى أن نحط رحالنا فى هذه القرية ونقيم بها ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ لما تفعلون من السجود والدعاء وقرئ بالياء والتاء على البناء للمفعول وأصل خطايا خطايئ كخضايع فعند سيبويه أبدلت الياء الزائدة همزة لوقوعها بعد الالف واجتمعت همزتان وأبدلت الثانية ياء ثم قلبت ألفا وكانت الهمزة بين ألفين فأبدلت ياء وعند الخليل قدمت الهمزة على الياء ثم فعل بها ما ذكر ﴿وسنزيد المحسنين﴾ ثوابا جعل الامتثال توبة للمسئ وسببا لزيادة الثواب للمحسن وأخرج ذلك عن صورة الجواب الى الوعد إيذانا بأن المحسن بصدد ذلك وان لم يفعله فكيف اذا فعله وأنه يفعله لا محالة ﴿فبدل الذين ظلموا﴾ بما أمروا به من التوبة والاستغفار بأن أعرضوا عنه وأوردوا مكانه ﴿قولا﴾ آخر مما لا خير فيه روى أنهم قالوا مكان حطة حنطة وقيل قالوا بالنبطية حطا سمقاثا يعنون حنطة حمراء استخفافا بأمر الله عز وجل ﴿غير الذى قيل لهم﴾ نعت لقولا وانما صرح به مع استحالة تحقق التبديل بلا مغايرة تحقيقا لمخالفتهم وتنصيصا على المغايرة من كل وجه ﴿فأنزلنا﴾ أى عقيب ذلك ﴿على الذين ظلموا﴾ بما ذكر من التبديل وانما وضع الموصول موضع الضمير العائد الى الموصول الاول للتعليل والمبالغة فى الذم والتقريع وللتصريح بأنهم بما فعلوا قد ظلموا أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى ﴿رجزا من السماء﴾ أى عذابا مقدرا منها والتنوين للتهويل والتفخيم ﴿بما كانوا يفسقون﴾ بسبب فسقهم المستمر حسبما يفيده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل وتعليل انزال الرجز به بعد الاشعار بتعليله بظلمهم للايذان بأن ذلك فسق وخروج عن الطاعة وغلو فى الظلم وأن تعذيبهم بجميع ما ارتكبوه من القبائح لا بعدم توبتهم فقط كما يشعر به ترتيبه على ذلك بالفاء والرجز فى الاصل ما يعاف عنه وكذلك الرجس وقرئ بالضم وهو لغة فيه والمراد به الطاعون روى أنه مات به فى ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفا ﴿واذ استسقى موسى لقومه﴾ تذكير لنعمة أخرى كفروها وكان ذلك فى التيه حين استولى عليهم

العطش الشديد وتغيير الترتيب لما أشير اليه مرارا من قصد ابراز كل من الامور المعدودة فى معرض أمر مستقل واجب التذكير والتذكر ولو روعى الترتيب الوقوعى لفهم أن الكل أمر واحد أمر بذكره واللام متعلقة بالفعل أى استسقى لاجل قومه ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾ روى أنه كان حجرا طوريا مكعبا حمله معه وكان ينبع من كل وجه منه ثلاث أعين يسيل كل عين فى جدول الى سبط وكانوا ستمائة ألف وسعة المعسكر اثنى عشر ميلا أو كان حجرا أهبطه الله تعالى مع آدم عليه السلام من الجنة و وقع الى شعيب عليه السلام فأعطاه موسى عليه السلام مع العصا أو كان هو الحجر الذى فر بثوبه حين وضعه عليه ليغتسل و برأه الله تعالى به عما رموه به من الأدرة فأشار اليه جبريل عليه السلام أن يحمله أو كان حجرا من الحجارة وهو الاظهر فى الحجة قيل لم يؤمر عليه السلام بضرب حجر بعينه ولكن لما قالوا كيف بنا لو أفضينا الى أرض لا حجارة بها حمل حجرا فى مخلاته وكان يضربه بعصاه اذا نزل فيتفجر و يضربه اذا ارتحل فييبس فقالوا ان فقد موسى عصاه متنا عطشا فأوحى الله تعالى اليه أن لا تقرع الحجر وكلمه يطعك لعلهم يعتبرون وقيل كان الحجر من رخام حجمه ذراع فى ذراع والعصا عشرة أذرع على طوله عليه السلام من آس الجنة ولها شعبتان تتقدان فى الظلمة ﴿فانفجرت﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام قد حذف للدلالة على كمال سرعة تحقق الانفجار كأنه حصل عقيب الامر بالضرب أى فضرب فانفجرت ﴿منه اثنتا عشرة عينا﴾ وأما تعلق الفاء بمحذوف أى فان ضربت فقد انفجرت فغير حقيق بجلالة شأن النظم الكريم كما لا يخفى على أحد وقرئ عشرة بكسر الشين وفتحها وهما أيضا لغتان ﴿قد علم كل أناس﴾ كل سبط ﴿مشربهم﴾ عينهم الخاصة بهم ﴿كلوا واشربوا﴾ على ارادة القول ﴿من رزق الله﴾ هو ما رزقهم من المن والسلوى والماء وقيل هو الماء وحده لانه يؤكل ما ينبت به من الزروع والثمار و يأباه أن المأمور به أكل النعمة العتيدة لا ما سيطلبونه واضافته اليه تعالى مع استناد الكل اليه خلقا وملكا اما للتشريف واما لظهوره بغير سبب عادى وانما لم يقل من رزقنا كما يقتضيه قوله تعالى فقلنا الخ ايذانا بأن الامر بالاكل والشرب لم يكن بطريق الخطاب بل بواسطة موسى عليه السلام ﴿ولا تعثوا فى الارض﴾ العثى أشد الفساد فقيل لهم لا تتمادوا فى الفساد حال كونكم ﴿مفسدين﴾ وقيل انما قيد به لان العثى فى الاصل مطلق التعدى وان غلب فى الفساد وقد يكون فى غير الفساد كما فى مقابلة الظالم المعتدى بفعله وقد يكون فيه صلاح راجح كقتل الخضر عليه السلام للغلام وخرقه للسفينة ونظيره العيث خلا أنه غالب فيما يدرك حسا ﴿واذ قلتم﴾ تذكير لجناية أخرى لاسلافهم وكفرانهم لنعمة الله عز وجل واخلادهم الى ما كانوا فيه من الدناءة والخساسة واسناد القول المحكى الى اخلافهم وتوجيه التوبيخ اليهم لما بينهم من الاتحاد ﴿ياموسى لن نصبر على طعام واحد﴾ لعلهم لم يريدوا بذلك جمع ما طلبوا مع ما كان لهم من النعمة و لا زوالها وحصول ما طلبوا مكانها اذ يأباه التعرض للوحدة بل أرادوا أن يكون هذا تارة وذاك أخرى. روى أنهم كانوا فلاحة فنزعوا الى عكرهم فأجموا ما كانوا فيه من النعمة العتيدة لوحدتها النوعية واطرادها وتاقت أنفسهم الى الشقاء ﴿فادع لنا ربك﴾ أى سله لاجلنا بدعائك اياه والفاء لسببية عدم الصبر للدعاء والتعرض لعنوان الربوبية لتمهيد مبادى الاجابة ﴿يخرج لنا﴾ أى يظهر لنا و يوجد والجزم لجواب الامر* ﴿مما تنبت الارض﴾ اسناد مجازى باقامة القابل مقام الفاعل ومن تبعيضية والتى فى قوله تعالى ﴿من بقلها وقثائها وفومها وعدسها و بصلها﴾ بيانية واقعة موقع الحال أى كائنا من بقلها الخ وقيل بدل باعادة الجار والبقل ما تنبت الارض من الخضر والمراد به أطايبه التى تؤكل كالنعناع والكرفس والكراث وأشباهها والفوم الحنطة وقيل الثوم وقرئ قثائها بضم القاف وهو لغة فيه ﴿قال﴾ أى الله تعالى أو موسى عليه السلام انكارا عليهم وهو استئناف وقع جوابا عن سؤال مقدر كأنه قيل فماذا قال لهم فقيل قال ﴿أتستبدلون﴾ أى أتأخذون

لانفسكم وتختارون ﴿الذى هو أدنى﴾ أى أقرب منزلة وأدون قدرا سهل المنال وهين الحصول لعدم كونه مرغوبا فيه وكونه تافها مرذولا قليل القيمة وأصل الدنو القرب فى المكان فاستعير للخسة كما استعير البعد للشرف والرفعة فقيل بعيد المحل و بعيد الهمة وقرئ أدنأ من الدناءة وقد حملت المشهورة على أن ألفها مبدلة من الهمزة ﴿بالذى هو خير﴾ أى بمقابلة ما هو خير فان الباء تصحب الذاهب الزائل دون الآتى الحاصل كما فى التبدل والتبديل فى مثل قوله عز وجل ومن يتبدل الكفر بالايمان وقوله و بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وليس فيه ما يدل قطعا على أنهم أرادوا زوال المن والسلوى بالمرة وحصول ما طلبوا مكانه لتحقق الاستبدال فيما مر من صورة المناوبة ﴿اهبطوا مصرا﴾ أمروا به بيانا لدناءة مطلبهم أو اسعافا لمرامهم أى انحدروا اليه من التيه يقال هبط الوادى وقرئ بضم الباء والمصر البلد العظيم وأصله الحد بين الشيئين وقيل أريد به العلم وانما صرف لسكون وسطه أو لتأويله بالبلد دون المدينة و يؤيده أنه فى مصحف ابن مسعود رضى الله عنه غير منون وقيل أصله مصرايم فعرب ﴿فان لكم ما سألتم﴾ تعليل للأمر بالهبوط أى فان لكم فيه ما سألتموه ولعل التعبير عن الأشياء المسئولة بما للاستهجان بذكرها كأنه قيل فانه كثير فيه مبتذل يناله كل أحد بغير مشقة ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾ أى جعلتا محيطتين بهم احاطة القبة بمن ضربت عليه أو ألصقتا بهم وجعلتا ضربة لازب لا تنفكان عنهم مجازاة لهم على كفرانهم من ضرب الطين على الحائط بطريق الاستعارة بالكناية واليهود فى غالب الأمر أذلاء مساكين اما على الحقيقة واما لخوف أن تضاعف جزيتهم ﴿وباءوا﴾ أى رجعوا ﴿بغضب﴾ عظيم وقوله تعالى ﴿من الله﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لغضب مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى بغضب كائن من الله تعالى أو صاروا أحقاء به من قولهم باء فلان بفلان أى صار حقيقا بأن يقتل بمقابلته ومنه قول من قال بؤ بشسع نعل كليب وأصل البوء المساواة ﴿ذلك﴾ اشارة الى ما سلف من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب العظيم ﴿بأنهم﴾ بسبب أنهم ﴿كانوا يكفرون﴾ على الاستمرار ﴿بآيات الله﴾ الباهرة التى هى المعجزات الساطعة الظاهرة على يدى موسى عليه السلام مما عد وما لم يعد ﴿و يقتلون النبيين بغير الحق﴾ كشعيا و زكريا و يحيى عليهم السلام وفائدة التقييد مع أن قتل الانبياء يستحيل أن يكون بحق الايذان بأن ذلك عندهم أيضا بغير الحق اذ لم يكن أحد منهم معتقدا بحقية قتل أحد منهم عليهم السلام وانما حملهم على ذلك حب الدنيا واتباع الهوى والغلو فى العصيان والاعتداء كما يفصح عنه قوله تعالى ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أى جرهم العصيان والتمادى فى العدوان الى ما ذكر من الكفر وقتل الانبياء عليهم السلام فان صغار الذنوب اذا دووم عليها أدت الى كبارها كما أن مداومة صغار الطاعات مؤدية الى تحرى كبارها وقيل كررت الاشارة للدلالة على أن ما لحقهم كما أنه بسبب الكفر والقتل فهو بسبب ارتكابهم المعاصى واعتدائهم حدود الله تعالى وقيل الاشارة الى الكفر والقتل والباء بمعنى مع و يجوز الاشارة الى المتعدد بالمفرد بتأويل ما ذكر أو تقدم كما فى قول رؤبة بن العجاج

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه فى الجلد توليع البهق

أى كان ما ذكر والذى حسن ذلك فى المضمرات والمبهمات أن تثنيتها وجمعها ليسا على الحقيقة و لذلك جاء الذى بمعنى الذين ﴿ان الذين آمنوا﴾ أى بألسنتهم فقط وهم المنافقون بقرينة انتظامهم فى سلك الكفرة والتعبير عنهم بذلك دون عنوان النفاق للتصريح بأن تلك المرتبة وان عبر عنها بالايمان لا تجديهم نفعا أصلا ولا تنقذهم من ورطة الكفر قطعا ﴿والذين هادوا﴾ أى تهودوا من هاد اذا دخل فى اليهودية و يهود اما عربى من هاد اذا تاب سموا بذلك حين تابوا من عبادة العجل وخصوا به لما كانت توبتهم توبة هائلة واما معرب يهوذا كأنهم سموا باسم أكبر أولاد يعقوب

عليه الصلاة والسلام ﴿والنصارى﴾ جمع نصران كندامى جمع ندمان يقال رجل نصران وامرأة نصرانة والياء فى نصرانى للمبالغة كما فى أحمرى سموا بذلك لانهم نصروا المسيح عليه السلام أو لانهم كانوا معه فى قرية يقال لها نصران فسموا باسمها أو نسبوا اليها والياء للنسبة وقال الخليل واحد النصارى نصرى كمهرى ومهارى ﴿والصابئين﴾ هم قوم بين النصارى والمجوس وقيل أصل دينهم دين نوح عليه السلام وقيل هم عبدة الملائكة وقيل عبدة الكواكب فهو ان كان عربيا فمن صبأ اذا خرج من دين الى آخر وقرئ بالياء اما للتخفيف واما لأنه من صبا اذا مال لما أنهم مالوا من سائر الأديان الى ماهم فيه أو من الحق الى الباطل ﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾ أى من أحدث من هذه الطوائف ايمانا خالصاً بالمبدأ والمعاد على الوجه اللائق ﴿وعمل﴾ عملا ﴿صالحاً﴾ حسبما يقتضيه الايمان بما ذكر ﴿فلهم﴾ بمقابلة ذلك ﴿أجرهم﴾ الموعود لهم ﴿عند ربهم﴾ أى مالك أمرهم ومبلغهم الى كمالهم اللائق فمن اما فى محل الرفع على الابتداء خبره جملة فلهم أجرهم والفاء لتضمن الموصول معنى الشرط كما فى قوله تعالى ان الذين فتنوا المؤمنين الآية وجمع الضمائر الثلاثة باعتبار معنى الموصول كما أن افراد مافى الصلة باعتبار لفظه والجملة كما هى خبران والعائد الى اسمها محذوف أى من آمن منهم الخ واما فى محل النصب على البدلية من اسم ان وما عطف عليه وخبرها فلهم أجرهم وعند متعلق بما تعلق به لهم من معنى الثبوت و فى اضافته الى الرب المضاف الى ضميرهم مزيد لطف بهم وايذان بأن أجرهم متيقن الثبوت مأمون من الفوات ﴿ولاخوف عليهم﴾ عطف على جملة فلهم أجرهم أى لاخوف عليهم حين يخاف الكفار العقاب ﴿ولاهم يحزنون﴾ حين يحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب والمراد بيان دوام انتفائهما لابيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما مر من أن النفى وان دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام هنا وقد قيل المراد بالذين آمنوا المتدينون بدين الاسلام المخلصون منهم والمنافقون فحينئذ لابد من تفسير من آمن بمن اتصف منهم بالايمان الخالص بالمبدأ والمعاد على الاطلاق سواء كان ذلك بطريق الثبات والدوام عليه كايمان المخلصين أو بطريق احداثه وانشائه كايمان من عداهم من المنافقين وسائر الطوائف وفائدة التعميم للمخلصين مزيد ترغيب الباقين فى الايمان ببيان أن تأخرهم فى الاتصاف به غير مخل بكونهم أسوة لأولئك الاقدمين فى استحقاق الأجر ومايتبعه من الأمن الدائم وأما ماقيل فى تفسيره من كان منهم فى دينه قبل أن ينسخ مصدقا بقلبه بالمبدأ والمعاد عاملا بمقتضى شرعه فمما لاسبيل اليه أصلا لأن مقتضى المقام هو الترغيب فى دين الاسلام وأما بيان حال من مضى على دين آخر قبل انتساخه فلا ملابسة له بالمقام قطعا بل ربما يخل بمقتضاه من حيث دلالته على حقيته فى زمانه فى الجملة على أن المنافقين والصابئين لايتسنى فى حقهم ماذكر أما المنافقون فان كانوا من أهل الشرك فالأمر بين وان كانوا من أهل الكتاب فمن مضى منهم قبل النسخ ليسوا بمنافقين وأما الصابئون فليس لهم دين يجوز رعايته فى وقت من الأوقات ولو سلم أنه كان لهم دين سماوى ثم خرجوا عنه فمن مضى من أهل ذلك الدين قبل خروجهم منه فليسوا من الصابئين فكيف يمكن ارجاع الضمير الرابط بين اسم ان وخبرها اليهم أو الى المنافقين وارتكاب ارجاعه الى مجموع الطوائف من حيث هو مجموع لا الى كل واحدة منها قصدا الى درج الفريق المذكور فيه ضرورة أن من كان من أهل الكتاب عاملا بمقتضى شرعه قبل نسخه من مجموع الطوائف بحكم اشتماله على اليهود والنصارى وان لم يكن من المنافقين والصابئين مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله على أن المخلصين مع اندراجهم فى حيز اسم ان ليس لهم فى حيز خبرها عين ولا أثر فتأمل وكن على الحق المبين ﴿واذ أخذنا ميثاقكم﴾ تذكير لجناية أخرى لاسلافهم أى واذكروا وقت أخذنا الميثاقكم بالمحافظة على مافى التوراة ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ عطف على قوله أخذنا

أو حال أى وقد رفعنا فوقكم الطور كأنه ظلة. روى أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة فرأوا مافيها من التكاليف الشاقة كبرت عليهم فأبوا قبولها فأمر جبريل عليه السلام فقلع الطور فظلله عليهم حتى قبلوا ﴿خذوا﴾ على ارادة القول ﴿ما آتيناكم﴾ من الكتاب ﴿بقوة﴾ بجد وعزيمة ﴿واذكروا مافيه﴾ أى احفظوه ولا تنسوه أو تفكروا فيه فانه ذكر بالقلب أو اعملوا به ﴿لعلكم تتقون﴾ لكى تتقوا المعاصى أو لتنجوا من هلاك الدارين أو رجاء منكم أن تنتظموا فى سلك المتقين أو طلبا لذلك وقد مر تحقيقه ﴿ثم توليتم﴾ أى أعرضتم عن الوفاء بالميثاق ﴿من بعد ذلك﴾ من بعد أخذ ذلك الميثاق المؤكد ﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ بتوفيقكم للتوبة أو بمحمد صلى الله عليه وسلم حيث يدعوكم الى الحق ويهديكم اليه ﴿لكنتم من الخاسرين﴾ أى المغبونين بالانهماك فى المعاصى والخبط فى مهاوى الضلال عند الفترة وقيل لولا فضله تعالى عليكم بالامهال وتأخير العذاب لكنتم من الهالكين وهو الانسب بما بعده وكلمة لولا اما بسيطة أو مركبة من لو الامتناعية وحرف النفى ومعناها امتناع الشىء لوجود غيره كما أن لو لامتناعه لامتناع غيره والاسم الواقع بعدها عند سيبويه مبتدأ خبره محذوف وجوبا لدلالة الحال عليه وسد الجواب مسده والتقدير لولا فضل الله حاصل وعند الكوفيين فاعل فعل محذوف أى لولا ثبت فضل الله تعالى عليكم ﴿ولقد علمتم﴾ أى عرفتم ﴿الذين اعتدوا منكم فى السبت﴾ روى أنهم أمروا بأن يتمحضوا يوم السبت للعبادة ويتجردوا لها ويتركوا الصيد فاعتدى فيه أناس منهم فى زمن داود عليه السلام فاشتغلوا بالصيد وكانوا يسكنون قرية بساحل البحر يقال لها أيلة فاذا كان يوم السبت لم يبق فى البحر حوت الا برز وأخرج خرطومه فاذا مضى تفرقت فحفروا حياضا وشرعوا اليها الجداول وكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصطادونها يوم الأحد فالمعنى وبالله لقد علمتموهم حين فعلوا من قبيل جناياتكم مافعلوا فلم نمهلهم ولم نؤخر عقوبتهم بل عجلناها ﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ أى جامعين بين صورة القردة والخسوء وهو الطرد والصغار على أن خاسئين نعت لقردة وقيل حال من اسم كونوا عند من يجيز عمل كان فى الظروف والحال وقيل من الضمير المستكن فى قردة لانه فى معنى ممسوخين وقال مجاهد مامسخت صورهم ولكن قلوبهم فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار فى قوله تعالى كمثل الحمار يحمل أسفارا والمراد بالأمر بيان سرعة التكوين وانهم صاروا كذلك كما أراده عز وجل وقرئ قردة بفتح القاف وكسر الراء وخاسين بغير همز ﴿فجعلناها﴾ أى المسخة والعقوبة ﴿نكالا﴾ عبرة تنكل المعتبر بها أى تمنعه وتردعه ومنه النكل للقيد ﴿لما بين يديها وما خلفها﴾ لما قبلها وما بعدها من الأمم اذ ذكرت حالهم فى زبر الأولين واشتهرت قصصهم فى الآخرين أو لمعاصريهم ومن بعدهم أو لما بحضرتها من القرى وماتباعد عنها أو لاهل تلك القرية وماحواليها أو لاجل ماتقدم عليها من ذنوبهم وماتأخر منها ﴿وموعظة للمتقين﴾ من قومهم أو لكل متق سمعها ﴿واذ قال موسى لقومه﴾ توبيخ آخر لاخلاف بنى اسرائيل بتذكير بعض جنايات صدرت عن أسلافهم أى واذكروا وقت قول موسى عليه السلام لاجدادكم ﴿ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ وسببه أنه كان فى بنى اسرائيل شيخ موسر فقتله بنو عمه طمعا فى ميراثه فطرحوه على باب المدينة ثم جاؤا يطالبون بديته فأمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها فيحيى فيخبرهم بقاتله ﴿قالوا﴾ استئناف وقع جوابا عما ينساق اليه الكلام كأنه قيل فماذا صنعوا هل سارعوا الى الامتثال أو لا فقيل قالوا ﴿أتتخذنا هزوا﴾ بضم الزاء وقلب الهمزة واوا وقرئ بالهمزة مع الضم والسكون أى أتجعلنا مكان هزؤ أو أهل هزؤ أو مهزوءا بنا أو الهزؤ نفسه استبعاداً لما قاله واستخفافا به ﴿قال﴾ استئناف كما سبق ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ لأن الهزؤ فى أثناء تبليغ أمر الله سبحانه جهل وسفه نفى عنه عليه السلام ماتوهموه من قبله على أبلغ وجه وآكده باخراجه مخرج مالا مكروه وراءه بالاستعاذة منه استفظاعا له واستعظاما لما

أقدموا عليه من العظيمة التى شافهوه عليه السلام بها ﴿قالوا﴾ استئناف كما مر كأنه قيل فماذا قالوا بعد ذلك فقيل توجهوا نحو الامتثال وقالوا ﴿ادع لنا﴾ أى لأجلنا ﴿ربك يبين لنا ماهى﴾ ما مبتدأ وهى خبره والجملة فى حيز النصب بيبين أى يبين لنا جواب هذا السؤال وقد سألوا عن حالها وصفتها لما قرع أسماعهم مالم يعهدوه من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا فان ماوان شاعت فى طلب مفهوم الاسم والحقيقة كما فى ما الشارحة والحقيقية لكنها قد يطلب بها الصفة والحال تقول مازيد فيقال طبيب أو عالم وقيل كان حقه أن يستفهم بأى لكنهم لما رأوا ما أمروا به على حالة مغايرة لما عليه الجنس أخرجوه عن الحقيقة فجعلوه جنسا على حياله ﴿قال﴾ أى موسى عليه السلام بعد مادعا ربه عز وجل بالبيان وأتاه الوحى ﴿انه﴾ تعالى ﴿يقول انها﴾ أى البقرة المأمور بذبحها ﴿بقرة لافارض ولا بكر﴾ أى لامسنة ولافتية يقال فرضت البقرة فروضا أى أسنت من الفرض بمعنى القطع كأنها قطعت سنها وبلغت آخرها وتركيب البكر للاولية ومنه البكرة والباكورة ﴿عوان﴾ أى نصف لاقحم ولاضرع قال

طوال مثل أعناق الهوادى ... نواعم بين أبكار وعون

﴿بين ذلك﴾ اشارة الى ما ذكر من الفارض والبكر ولذلك أضيف اليه بين لاختصاصه بالاضافة الى المتعدد ﴿فافعلوا﴾ أمر من جهة موسى عليه السلام متفرع على ماقبله من بيان صفة المأمور به ﴿ماتؤمرون﴾ أى ماتؤمرونه بمعنى تؤمرون به كما فى قوله أمرتك الخير فافعل ما أمرت به فان حذف الجار قد شاع فى هذا الفعل حتى لحق بالافعال المتعدية الى مفعولين وهذا الأمر منه عليه السلام لحثهم على الامتثال وزجرهم عن المراجعة ومع ذلك لم يقتنعوا به وقوله تعالى ﴿قالوا﴾ استئناف كما مر كأنه قيل ماذا صنعوا بعد هذا البيان الشافى والامر المكرر فقيل قالوا ﴿ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها﴾ حتى يتبين لنا البقرة المأمور بها ﴿قال﴾ أى موسى عليه السلام بعد المناجاة الى الله تعالى ومجىء البيان ﴿انه﴾ تعالى ﴿يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها﴾ أسناد البيان فى كل مرة الى الله عز وجل لاظهار كمال المساعدة فى اجابة مسؤلهم بقولهم يبين لنا وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة والفقوع نصوع الصفرة وخلوصها ولذلك يؤكد به ويقال أصفر فاقع كما يقال أسود حالك وأحمر قانىء وفى اسناده الى اللون مع كونه من أحوال الملون لملابسته به مالا يخفى من فضل تأكيد كأنه قيل صفراء شديدة الصفرة صفرتها كما فى جد جده وعن الحسن رضى الله عنه سوداء شديدة السواد وبه فسر قوله تعالى جمالة صفر قيل ولعل التعبير عن السواد بالصفرة لما أنها من مقدماته وأما الآن سواد الابل يعلوه صفرة ويأباه وصفها بقوله تعالى ﴿تسر الناظرين﴾ كما يأباه وصفها بفقوع اللون والسرور لذة فى القلب عند حصول نفع أو توقعه من السر عن على رضى الله عنه من لبس نعلا صفراء قل همه ﴿قالوا﴾ استئناف كنظائره ﴿ادع لنا ربك يبين لنا ما هى﴾ زيادة استكشاف عن حالها كأنهم سألوا بيان حقيقتها بحيث تمتاز عن جميع ما عداها مما تشاركها فى الأوصاف المذكورة والأحوال المشروحة فى أثناء البيان ولذلك عللوه بقولهم ﴿ان البقر تشابه علينا﴾ يعنون أن الأوصاف المعدودة يشترك فيها كثير من البقر ولا نهتدى بها الى تشخيص ماهو المأمور بها ولذلك لم يقولوا ان البقرة تشابهت ايذانا بأن النعوت المعدودة ليست بمشخصة للمأمور بها بل صادقة على سائر أفراد الجنس وقرىء ان الباقر وهو اسم لجماعة البقر والاباقر والبواقر ويتشابه بالياء والتاء ويشابه بطرح التاء والادغام على التذكير والتأنيث وتشابهت مخففا ومشددا وتشبه بمعنى تتشبه وتشبه بالتذكير ومتشابه ومتشابهة ومتشبه ومتشبهة وفيه دلالة على أنهم ميزوها عن بعض ماعداها فى الجملة وانما بقى اشتباه بشرف الزوال كما ينبىء عنه قولهم ﴿وانا ان شاء الله لمهتدون﴾ مؤكدا بوجوه من التوكيد أى لمهتدون بما سألنا من البيان الى المأمور بذبحها وفى الحديث لولم

يستثنوا لما بينت لهم آخر الابد ﴿قال انه يقول انها بقرة لاذلول تثير الارض ولا تسقى الحرث﴾ أى لم تذلل للكراب وسقى الحرث ولا ذلول صفة لبقرة بمعنى غير ذلول ولا الثانية لتأكيد الأولى والفعلان صفتا ذلول كأنه قيل لاذلول مثيرة وساقية وقرىء لاذلول بالفتح أى حيث هى كقولك مررت برجل لا بخيل ولا جبان أى حيث هو وقرىء تسقى من أسقى ﴿مسلمة﴾ أى سلمها الله تعالى من العيوب أو أهلها من العمل أو أخلص لها لونها من سلم له كذا اذا خلص له ويؤيده قوله تعالى ﴿لاشية فيها﴾ أى لالون فيها يخالف لون جلدها حتى قرنها وظلفها وهى فى الاصل مصدر وشاه وشيا وشية اذا خلط بلونه لونا آخر ﴿قالوا﴾ عند ما سمعوا هذه النعوت ﴿الآن جئت بالحق﴾ أى بحقيقة وصف البقرة بحيث ميزتها عن جميع ماعداها ولم يبق لنا فى شأنها اشتباه أصلا بخلاف المرتين الأوليين فان ماجئت به فيهما لم يكن فى التعيين بهذه المرتبة ولعلهم كانوا قبل ذلك قد رأوها ووجدوها جامعة لجميع ما فصل من الأوصاف المشروحة فى المرات الثلاث من غير مشارك لها فيما عد فى المرة الأخيرة والا فمن أين عرفوا اختصاص النعوت الاخيرة بها دون غيرها وقرىء آلآن بالمد على الاستفهام والان بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام ﴿فذبحوها﴾ الفاء فصيحة كما فى فانفجرت أى فحصلوا البقرة فذبحوها ﴿وما كادوا يفعلون﴾ كاد من أفعال المقاربة وضع لدنو الخبر من الحصول والجملة حال من ضمير ذبحوا أى فذبحوها والحال أنهم كانوا قبل ذلك بمعزل منه أو اعتراض تذييلى ومآله استثقال استعصائهم واستبطاء لهم وأنهم لفرط تطويلهم وكثرة مراجعاتهم ماكاد ينتهى خيط اسهابهم فيها. قيل مضى من أول الأمر الى الامتثال أربعون سنة وقيل وما كادوا يفعلون ذلك لغلاء ثمنها. روى أنه كان فى بنى اسرائيل شيخ صالح له عجلة فأتى بها الغيضة وقال اللهم انى استودعتكها لابنى حتى يكبر وكان برا بوالديه فتوفى الشيخ وشبت العجلة فكانت من أحسن البقر وأسمنها فساوموها اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء مسكها ذهبا لما كانت وحيدة بالصفات المذكورة وكانت البقرة اذ ذاك بثلاثة دنانير واعلم أنه لاخلاف فى أن مدلول ظاهر النظم الكريم بقرة مطلقة مبهمة وأن الامتثال فى آخر الامر انما وقع بذبح بقرة معينة حتى لو ذبحوا غيرها ماخرجوا عن عهدة الامر لكن اختلف فى أن المراد المأمور به أثر ذى أثير هل هى المعينة وقد أخر البيان عن وقت الخطاب أو المبهمة ثم لحقها التغيير الى المعينة بسبب تثاقلهم فى الامتثال وتماديهم فى التعمق والاستكشاف فذهب بعضهم الى الأول تمسكا بأن الضمائر فى الأجوبة أعنى أنها بقرة الى آخره للمعينة قطعا ومن قضيته أن يكون فى السؤال أيضا كذلك ولا ريب فى أن السؤال انما هو عن البقرة المأمور بذبحها فتكون هى المعينة وهو مدفوع بأنهم لما تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا ظنوها معينة خارجة عما عليه الجنس من الصفات والخواص فسألوا عنها فرجعت الضمائر الى المعينة فى زعمهم واعتقادهم فعينها الله تعالى تشديدا عليهم وان لم يكن المراد من أول الأمر هى المعينة والحق أنها كانت فى أول الأمر مبهمة بحيث لو ذبحوا أية بقرة كانت لحصل الامتثال بدلالة ظاهر النظم الكريم وتكرير الامر قبل بيان اللون ومابعده من كونها مسلمة الخ وقد قال صلى الله عليه وسلم لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها لكفتهم وروى مثله عن رئيس المفسرين عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ثم رجع الحكم الأول منسوخا بالثانى والثانى بالثالث تشديدا عليهم لكن لا على وجه ارتفاع حكم المطلق بالكلية وانتقاله الى المعين بل على طريقة تقييده وتخصيصه به شيئا فشيئا كيف لا ولو لم يكن كذلك لما عدت مراجعاتهم المحكية من قبيل الجنايات بل من قبيل العبادة فان الامتثال بالأمر بدون الوقوف على المأمور به مما لا يكاد يتسنى فتكون سؤالاتهم من باب الاهتمام بالامتثال ﴿واذ قتلتم نفسا﴾ منصوب بمضمر كما مرت نظائره والخطاب لليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم واسناد القتل والتدارؤ اليهم لما مر من نسبة جنايات

الاسلاف الى الاخلاف توبيخا وتقريعا وتخصيصهما بالاسناد دون مامر من هناتهم لظهور قبح القتل واسناده الى الغير أى اذكروا وقت قتلكم نفسا محرمة ﴿فادارأتم فيها﴾ أى تخاصمتم فى شأنها اذ كل واحد من الخصماء يدافع الآخر أوتدافعتم بأن طرح كل واحد قتلها الى آخر وأصله تدارأتم فأدغمت التاء فى الدال واجتلبت لها همزة الوصل ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ أى مظهر لما تكتمونه لامحالة والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار وانما أعمل مخرج لانه حكاية حال ماضية ﴿فقلنا اضربوه﴾ عطف على فادارأتم وما بينهما اعتراض والالتفات لتربية المهابة والضمير للنفس والتذكير باعتبار أنها عبارة عن الرجل أو بتأويل الشخص أو القتيل ﴿ببعضها﴾ أى ببعض البقرة أى بعض كان وقيل بأصغريها وقيل بلسانها وقيل بفخدها اليمنى وقيل بأذنها وقيل بعجبها وقيل بالعظم الذى يلى الغضروف وهذا أول القصة كما ينبئ عنه الضمير الراجع الى البقرة كأنه قيل واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة فاضربوه ببعضها وانما غير الترتيب عند الحكاية لتكرير التوبيخ وتثنية التقريع فان كل واحد من قتل النفس المحرمة والاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم والافتيات على أمره وترك المسارعة الى الامتثال به جناية عظيمة حقيقة بأن تنعى عليهم بحيالها ولو حكيت القصة على ترتيب الوقوع لما علم استقلال كل منها بما يخص بها من التوبيخ وانما حكى الامر بالذبح عن موسى عليه السلام مع أنه من الله عز وجل كالامر بالضرب لما أن جناياتهم كانت بمراجعتهم اليه عليه السلام والافتيات على رأيه ﴿كذلك يحيي الله الموتى﴾ على ارادة قول معطوف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى فضربوه فحيي وقلنا كذلك يحيي الخ فحذفت الفاء الفصيحة فى فحيي مع ماعطف بها وماعطف هو عليه لدلالة كذلك على ذلك فالخطاب فى كذلك حينئذ للحاضرين عند حياة القتيل ويجوز أن يكون ذلك للحاضرين عند نزول الآية الكريمة فلا حاجة حينئذ الى تقدير القول بل تنتهى الحكاية عند قوله تعالى ببعضها مع ماقدر بعده فالجملة معترضة أى مثل ذلك الاحياء العجيب يحيي الله الموتى يوم القيامة ﴿ويريكم آياته﴾ ودلائله الدالة على أنه تعالى على كل شئ قدير ويجوز أن يراد بالآيات هذا الاحياء والتعبير عنه بالجمع لاشتماله على أمور بديعة من ترتب الحياة على عضو ميت واخباره بقاتله وما يلابسه من الامور الخارقة للعادة ﴿لعلكم تعقلون﴾ أى لكى تكمل عقولكم وتعلموا أن من قدر على احياء نفس قدر على احياء الانفس كلها او تعملوا على قضية عقولكم ولعل الحكمة فى اشتراط ما اشترط فى الاحياء مع ظهور كمال قدرته على احيائه ابتداء بلا واسطة أصلا اشتماله على التقرب الى الله تعالى وأداء الواجب ونفع اليتيم والتنبيه على بركة التوكل على الله تعالى والشفقة على الاولاد ونفع بر الوالدين وأن من حق الطالب أن يقدم قربة ومن حق المتقرب أن يتحرى الاحسن ويغالى بثمنه كما يروى عن عمر رضى الله عنه أنه ضحى بنجيبة اشتراها بثلثمائة دينار وأن المؤثر هو الله تعالى وانما الاسباب أمارات لاتأثير لها وأن من رام أن يعرف أعدى عدوه الساعى فى اماتته الموت الحقيقى فطريقه أن يذبح بقرة نفسه التى هى قوته الشهوية حين زال عنها شره الصبى ولم يلحقها ضعف الكبر وكانت معجبة رائقة المنظر غير مذللة فى طلب الدنيا مسلمة عن دنسها لاشية بها من قبائحها بحيث يتصل أثره الى نفسه فيحيا بها حياة طيبة ويعرب عما به ينكشف الحال ويرتفع مابين العقل والوهم من التدارؤ والجدال ﴿ثم قست قلوبكم﴾ الخطاب لمعاصرى النبى صلى الله عليه وسلم والقسوة عبارة عن الغلظ والجفاء والصلابة كما فى الحجر استعيرت لنبو قلوبهم عن التأثر بالعظات والقوارع التى تميع منها الجبال وتلين بها الصخور وايراد الفعل المفيد لحدوث القساوة مع أن قلوبهم لم تزل قاسية لما أن المراد بيان بلوغهم الى مرتبة مخصوصة من مراتب القساوة حادثة واما لان الاستمرار على شئ بعد ورود مايوجب الاقلاع عنه أمر جديد وصنع حادث وثم لاستبعاد القسوة بعد مشاهدة مايزيلها كقوله تعالى

ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴿من بعد ذلك﴾ اشارة الى ماذكر من احياء القتيل أو الى جميع ماعدد من الآيات الموجبة للين القلوب وتوجهها نحو الحق أى من بعد سماع ذلك وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته وعلو طبقته وتوحيد حرف الخطاب مع تعدد المخاطبين اما بتأويل الفريق أو لان المراد مجرد الخطاب لاتعيين المخاطب كما هو المشهور ﴿فهى كالحجارة﴾ فى القساوة ﴿أو أشد﴾ منها ﴿قسوة﴾ أى هى فى القسوة مثل الحجارة أو زائدة عليها فيها أو أنها مثلها أو مثل ماهو أشد منها قسوة كالحديد فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه ويعضده القراءة بالجر عطفا على الحجارة وايراد الجملة اسمية مع كون ماسبق فعلية للدلالة على استمرار قساوة قلوبهم والفاء اما لتفريع مشابهتها لها على ماذكر من القساوة تفريع التشبيه على بيان وجه الشبه فى قولك احمر خده فهو كالورد واما للتعليل كما فى قولك اعبد ربك فالعبادة حق له وانما لم يقل أو أقسى منها لما فى التصريح بالشدة من زيادة مبالغة ودلالة ظاهرة على اشتراك القسوتين فى الشدة واشتمال المفضل على زيادة وأو للتخيير أو للترديد بمعنى أن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى أو من عرفها شبهها بالحجارة أو قال هى أقسى من الحجارة وترك ضمير المفضل عليه للامن من الالتباس ﴿وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار﴾ بيان لأشدية قلوبهم من الحجارة فى القساوة وعدم التأثر واستحالة صدور الخير منها يعنى أن الحجارة ربما تتأثر حيث يكون منها ما يتفجر منه المياه العظيمة ﴿وان منها لما يشقق﴾ أى يتشقق ﴿فيخرج منه الماء﴾ أى العيون ﴿وان منها لما يهبط من خشية الله﴾ أى يتردى من الاعلى الى الاسفل بقضية ما أودعه الله عز وجل فيها من الثقل الداعى الى المركز وهو مجاز من الانقياد لامره تعالى والمعنى أن الحجارة ليس منها فرد الا وهو منقاد لامره عز وعلا آت بما خلق له من غير استعصاء وقلوبهم ليست كذلك فتكون أشد منها قسوة لامحالة واللام فى لما لام الابتداء دخلت على اسم ان لتقدم الخبر وقرئ ان على أنها مخففة من الثقيلة واللام فارقة وقرئ يهبط بالضم ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ عن متعلقة بغافل وما موصولة والعائد محذوف أو مصدرية وهو وعيد شديد على ماهم عليه من قساوة القلوب وما يترتب عليها من الاعمال السيئة وقرئ بالياء على الالتفات وقوله تعالى ﴿أفتطمعون﴾ تلوين للخطاب وصرف له عن اليهود اثر ماعددت هناتهم ونعيت عليهم جناياتهم الى النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين والهمزة لانكار الواقع واستبعاده كما فى قولك أتضرب أباك لا لانكار الوقوع كما فى قوله أأضرب أبى والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه نظام الكلام لكن لا على قصد توجيه الانكار الى المعطوفين معا كما فى أفلا تبصرون على تقدير المعطوف عليه منفيا أى ألا تنظرون فلا تبصرون فالمنكر كلا الامرين بل الى ترتب الثانى على الاول مع وجوب أن يترتب عليه نقيضه كما اذا قدر الاول مثبتا أى أتنظرون فلا تبصرون فالمنكر ترتب الثانى على الاول مع وجوب أن يترتب عليه نقيضه أى أتسمعون أخبارهم وتعلمون أحوالهم فتطمعون ومآل المعنى أبعد أن علمتم تفاصيل شئونهم المؤيسة عنهم تطمعون ﴿أن يؤمنوا﴾ فانهم متمادون فى شدة الشكيمة والاخلاق الذميمة لايتأتى من أخلافهم الا مثل ماأتى من أسلافهم وأن مصدرية حذف عنها الجار والاصل فى أن يؤمنوا وهى مع مافى حيزها فى محل النصب أو الجر على الخلاف المعروف واللام فى لكم لتضمين معنى الاستجابة كما فى قوله عز وجل فآمن له لوط أى فى ايمانهم مستجيبين لكم أو للتعليل أى فى أن يحدثوا الايمان لاجل دعوتكم وصلة الايمان محذوفة لظهور أن المراد به معناه الشرعى وستقف على مافيه من المزية باذن الله تعالى ﴿وقد كان فريق منهم﴾ الفريق اسم جمع لاواحد له من لفظه كالرهط والقوم والجار والمجرور فى محل الرفع أى فريق كائن منهم وقوله تعالى ﴿يسمعون كلام الله﴾ خبر كان وقرئ كلم الله والجملة حالية مؤكدة للانكار حاسمة لمادة الطمع مثل أحوالهم الشنيعة المحكية

فيما سلف على منهاج قوله تعالى وهم لكم عدو بعد قوله تعالى أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى أى والحال أن طائفة منهم قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هم قوم من السبعين المختارين للميقات كانوا يسمعون كلامه تعالى حين كلم موسى عليه السلام بالطور وما أمر به ونهى عنه ﴿ثم يحرفونه﴾ عن مواضعه لا لقصور فهمهم عن الاحاطة بتفاصيله على ماينبغى لاستيلاء الدهشة والمهابة حسبما يقتضيه مقام الكبرياء بل ﴿من بعد ماعقلوه﴾ أى فهموه وضبطوه بعقولهم ولم تبق لهم فى مضمونه ولا فى كونه كلام رب العزة ريبة أصلا فلما رجعوا الى قومهم أداه الصادقون اليهم كما سمعوا وهؤلاء قالوا سمعنا الله تعالى يقول فى آخر كلامه ان استطعتم أن تفعلوا هذه الاشياء فافعلوا وان شئتم فلا تفعلوا فلا بأس فثم للتراخى زمانا أو رتبة وقال القفال سمعوا كلام الله وعقلوا مراده تعالى منه فأولوه تأويلا فاسدا وقيل هم رؤساء أسلافهم الذين تولوا تحريف التوراة بعدما أحاطوا بمافيها علما وقيل هم الذين غيروا نعت النبى صلى الله عليه وسلم فى عصره و بدلوا آية الرجم ويأباه الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل الدال على وقوع السماع والتحريف فيما سلف الا أن يحمل ذلك على تقدمه على زمان نزول الآية الكريمة لا على تقدمه على عهده عليه الصلاة والسلام هذا والاول هو الانسب بالسماع والكلام اذ التوراة وان كانت كلام الله عز وعلا لكنها باسم الكتاب أشهر وأثر التحريف فيه أظهر . ووصف اليهود بتلاوتها أكثر لاسيما رؤساؤهم المباشرون للتحريف فان وظيفتهم التلاوة دون السماع فكان الانسب حينئذ أن يقال يتلون كتاب الله تعالى فالمعنى أفتطمعون فى أن يؤمن هؤلاء بواسطتكم ويستجيبوا لكم والحال ان اسلافهم الموافقين لهم فى خلال السوء كانوا يسمعون كلام الله بلا واسطة ثم يحرفونه من بعد ماعلموه يقينا ولا يستجيبون له هيهات ومن ههنا ظهر مافى ايثار لكم على بالله من الفخامة والجزالة وقوله عز وجل ﴿وهم يعلمون﴾ جملة حالية من فاعل يحرفونه مفيدة لكمال قباحة حالهم مؤذنة بأن تحريفهم ذلك لم يكن بناء على نسيان ماعقلوه أو على الخطأ فى بعض مقدماته بل كان ذلك حال كونهم عالمين مستحضرين له أو وهم يعلمون أنهم كاذبون ومفترون ﴿واذا لقوا﴾ جملة مستأنفة سيقت اثر بيان ماصدر عن أشباههم لبيان ماصدر عنهم بالذات من الشنائع المؤيسة عن ايمانهم من نفاق بعض وعتاب آخرين عليهم أو معطوفة على ماسبق من الجملة الحالية والضمير لليهود لما ستقف على سره لا لمنافقيهم خاصة كما قيل تحريا لاتحاد الفاعل فى فعلى الشرط والجزاء حقيقة ﴿الذين آمنوا﴾ من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ﴿قالوا﴾ أى اللاقون لكن لابطريق تصدى الكل للقول حقيقة بل بمباشرة منافقيهم وسكوت الباقين كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد منهم وهذا أدخل فى تقبيح حال الساكتين أو لا العاتبين ثانيا لما فيه من الدلالة على نفاقهم واختلاف أحوالهم وتناقض آرائهم من اسناد القول الى المباشرين خاصة بتقدير المضاف أى قال منافقوهم ﴿آمنا﴾ لم يقتصروا على ذلك بل عللوه بأنهم وجدوا نعت النبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة وعلموا أنه النبى المبشر به وانما لم يصرح به تعويلا على شهادة التوبيخ الآتى ﴿واذا خلا بعضهم﴾ أى بعض المذكورين وهم الساكتون منهم أى اذا فرغوا من الاشتغال بالمؤمنين متوجهين ومنضمين ﴿الى بعض﴾ آخر منهم وهم منافقوهم بحيث لم يبق معهم غيرهم وهذا نص على اشتراك الساكتين فى لقاء المؤمنين كما أشير اليه آنفا اذ الخلو انما يكون بعد الاشتغال ولأن عتابهم معلق بمحض الخلو ولولا أنهم حاضرون عند المقاولة لوجب أن يجعل سماعهم لها من تمام الشرط ولأن فيه زيادة تشنيع لهم على ماأتوا من السكوت ثم العتاب ﴿قالوا﴾ أى الساكتون موبخين لمنافقيهم على ماصنعوا ﴿أتحدثونهم﴾ يعنون المؤمنين ﴿بما فتح الله عليكم﴾ ماموصولة والعائد محذوف أى بينه لكم خاصة فى التوراة من نعت النبى صلى الله عليه وسلم والتعبير عنه بالفتح للايذان بأنه سر مكنون وباب مغلق لايقف عليه أحد وتجويز كون هذا التوبيخ من جهة المنافقين لأعقابهم اراءة للتصلب فى دينهم

كما ذهب اليه عصابة مما لايليق بشأن التنزيل الجليل واللام فى قوله عز وجل ﴿ليحاجوكم به﴾ متعلقة بالتحديث دون الفتح والمراد تأكيد النكير وتشديد التوبيخ فان التحديث بذلك وان كان منكرا فى نفسه لكن التحديث به لأجل هذا الغرض مما لايكاد يصدر عن العاقل أى أتحدثونهم بذلك ليحتجوا عليكم به فيبكتوكم والمحدثون به وان لم يحوموا حول ذلك الغرض لكن فعلهم ذلك لما كان مستتبعا له البتة جعلوا فاعلين للغرض المذكور اظهارا لكمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم ﴿عند ربكم﴾ أى فى حكمه وكتابه كما يقال هو عند الله كذا أى فى كتابه وشرعه وقيل عند ربكم يوم القيامة ورد عليه بأن الاخفاء لايدفعه اذ هم عالمون بأنهم محجوجون يومئذ حدثوا به أو لم يحدثوا والاعتذار بأن الزام المؤمنين اياهم وتبكيتهم بأن يقولوا لهم ألم تحدثونا بما فى كتابكم فى الدنيا من حقية ديننا وصدق نبينا أفحش فيجوز أن يكون المحذور عندهم هذا الالزام بارجاع الضمير فى به الى التحديث دون المحدث به ولا ريب فى أنه مدفوع بالاخفاء لاتساعده الآية الكريمة الآتية كما ستقف عليه باذن الله عز وجل ﴿أفلا تعقلون﴾ من تمام التوبيخ والعتاب والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى ألا تلاحظون فلا تعقلون هذا الخطأ الفاحش أو شيئا من الأشياء التى من جملتها هذا فالمنكر عدم التعقل ابتداء أو أتفعلون ذلك فلا تعقلون بطلانه مع وضوحه حتى تحتاجون الى التنبيه عليه فالمنكر حينئذ عدم التعقل بعد الفعل هذا وأما ماقيل من أنه خطاب من جهة الله سبحانه للمؤمنين متصل بقوله تعالى أفتطمعون والمعنى أفلا تعقلون حالهم وأن لامطمع لكم فى ايمانهم فيأباه قوله تعالى ﴿أو لايعلمون﴾ فانه الى آخره تجهيل لهم من جهته تعالى فيما حكى عنهم فيكون ايراد خطاب المؤمنين فى أثنائه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه على أن فى تخصيص الخطاب بالمؤمنين من التعسف وفى تعميمه للنبى أيضا صلى الله عليه وسلم كما فى أفتطمعون من سوء الأدب مالا يخفى والهمزة للانكار والتوبيخ كما قبلها والواو للعطف على مقدر ينساق اليه الذهن والضمير للموبخين أى أيلومونهم على التحديث المذكور مخافة المحاجة ولا يعلمون ﴿أن الله يعلم مايسرون﴾ أى يسرونه فيما بينهم من المؤمنين أو مايضمرونه فى قلوبهم فيثبت الحكم فى ذلك بالطريق الأولى ﴿وما يعلنون﴾ أى يظهرونه للمؤمنين أو لأصحابهم حسبما سبق فحينئذ يظهر الله تعالى للمؤمنين ماأرادوا اخفاءه بواسطة الوحى الى النبى صلى الله عليه وسلم فتحصل المحاجة ويقع التبكيت كما وقع فى آية الرجم وتحريم بعض المحرمات عليهم فأى فائدة فى اللوم والعتاب ومن ههنا تبين أن المحذور عندهم هو المحاجة بما فتح الله عليهم وهى حاصلة فى الدارين حدثوا به أم لا لا بالتحديث به حتى يندفع بالاخفاء وقيل الضمير للمنافقين فقط أولهم وللموبخين أو لآبائهم المحرفين أى أيفعلون مايفعلون ولا يعلمون أن الله يعلم جميع مايسرون وما يعلنون ومن جملته اسرارهم الكفر واظهارهم الايمان واخفاء مافتح الله عليهم واظهار غيره وكتم أمر الله واظهار ماأظهروه افتراء وانما قدم الاسرار على الاعلان للايذان بافتضاحهم ووقوع مايحذرونه من أول الأمر والمبالغة فى بيان شمول علمه المحيط لجميع المعلومات كأن علمه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه مع كونهما فى الحقيقة على السوية فان علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها بل وجود كل شىء فى نفسه علم بالنسبة اليه تعالى وفى هذا المعنى لايختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة ونظيره قوله عز وعلا قل ان تخفوا مافى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله حيث قدم فيه الاخفاء على الابداء لما ذكر من السر على عكس ماوقع فى قوله تعالى وان تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فان الأصل فى تعلق المحاسبة به هو الأمور البادية دون الخافية ويجوز أن يكون ذلك باعتبار أن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن اذ مامن شىء يعلن الا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمر فى القلب يتعلق به الاسرار غالبا فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية ﴿ومنهم أميون﴾ وقرئ بتخفيف

الياء جمع أمى وهو من لايقدر على الكتابة والقراءة واختلف فى نسبته فقيل الى الام بمعنى أنه شبيه بها فى الجهل بالكتابة والقراءة فانهما ليستا من شؤون النساء بل من خلال الرجال أو بمعنى أنه على الحالة التى ولدته أمه فى الخلو عن العلم والكتابة وقيل الى الأمة بمعنى أنه باق على سذاجتها خال عن معرفة الأشياء كقولهم عامى أى على عادة العامة روى عن عكرمة والضحاك أن المراد بهم نصارى العرب وقيل هم قوم من أهل الكتاب رفع كتابهم لذنوب ارتكبوها فصاروا أميين وعن على رضى الله تعالى عنه هم المجوس والحق الذى لامحيد عنه أنهم جهلة اليهود والجملة مستأنفة مسوقة لبيان قبائحهم اثر بيان شنائع الطوائف السالفة وقيل هى معطوفة على الجملة الحالية فان مضمونها مناف لرجاء الخير منهم وان لم يكن فيه مايحسم مادة الطمع عن ايمانهم كما فى مضمون الجملة الحالية وما بعدها فان الجهل بالكتاب فى منافاة الايمان ليس بمثابة تحريف كلام الله بعد سماعه والعلم بمعانيه كما وقع من الأولين أو النفاق والنهى عن اظهار مافى التوراة كما وقع من الفرقتين الأخريين أى ومنهم طائفة جهلة غير قادرين على الكتابة والتلاوة ﴿لايعلمون الكتاب﴾ أى لايعرفون التوراة ليطالعوها ويتحققوا مافى تضاعيفها من دلائل النبوة فيؤمنوا وحمل الكتاب على الكتابة يأباه سباق النظم الكريم وسياقه ﴿الا أمانى﴾ بالتشديد وقرئ بالتخفيف جمع أمنية أصلها أمنوية أفعولة من منى بمعنى قدر أو بمعنى تلا كتمنى فى قوله تمنى كتاب الله أول ليله فأعلت أعلال سيد وميت ومعناها على الاول مايقدره الانسان فى نفسه ويتمناه وعلى الثانى مايتلوه وعلى التقديرين فالاستثناء منقطع اذ ليس مايتمنى وما يتلى من جنس علم الكتاب أى لايعلمون الكتاب لكن يتمنون أمانى حسبما منتهم أحبارهم من أن الله سبحانه يعفو عنهم وأن آباءهم الانبياء يشفعون لهم وغير ذلك من أمانيهم الفارغة المستندة الى الكتاب على زعم رؤسائهم أو لايعلمون الكتاب لكن يتلقونه قدر مايتلى عليهم فيقبلونه من غير أن يتمكنوا من التدبر فيه وأما حمل الأمانى على الأكاذيب المختلفة على الاطلاق من غير أن يكون لها ملابسة بالكتاب فلا يساعده النظم الكريم ﴿وان هم الا يظنون﴾ ماهم الا قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد من غير أن يصلوا الى رتبة العلم فانى يرجى منهم الايمان المؤسس على قواعد اليقين ولما بين حال هؤلاء فى تمسكهم بحبال الأمانى واتباع الظن عقب ببيان حال الذين أوقعوهم فى تلك الورطة وبكشف كيفية اضلالهم وتعيين مرجع الكل بالآخرة فقيل على وجه الدعاء عليهم ﴿فويل﴾ هو وأمثاله من ويح وويس وويب وويه وويك وعول من المصادر المنصوبة بأفعال من غير لفظها لايجوز اظهارها البتة فان أضيف نصب نحو ويلك وويحك واذا فصل عن الاضافة رفع نحو ويل له ومعنى الويل شدة الشر قاله الخليل وقال الأصمعى الويل التفجع والويح الترحم وقال سيبويه ويل لمن وقع فى الهلكة وويح زجر لمن أشرف على الهلاك وقيل الويل الحزن وهل ويح وويب وويس بذلك المعنى أو بينه وبينها فرق وقيل ويل فى الدعاء عليه وويح ومابعده فى الترحم عليه وقال ابن عباس رضى الله عنهما الويل العذاب الأليم وعن سفيان الثورى أنه صديد أهل جهنم وروى أبو سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره وقال سعيد بن المسيب انه واد فى جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لماعت من شدة حره وقال ابن بريدة جبل قيح ودم وقيل صهريج فى جهنم وحكى الزهراوى أنه باب من أبواب جهنم وعلى كل حال فهو مبتدأ خبره قوله عز وعلا ﴿للذين يكتبون الكتاب﴾ أى المحرف أوما كتبوه من التأويلات الزائغة ﴿بأيديهم﴾ تأكيد لدفع توهم المجاز كقولك كتبته بيمينى ﴿ثم يقولون هذا﴾ أى جميعا على الأول وبخصوصه على الثانى ﴿من عندالله﴾ روى ان أحبار اليهود خافوا ذهاب مأكلهم وزوال رياستهم حين قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فاحتالوا فى تعويق أسافل اليهود عن الايمان فعمدوا الى صفة النبى صلى الله عليه وسلم

فى التوراة وكانت هى فيها حسن الوجه حسن الشعر أكحل العينين ربعة فغيروها وكتبوا مكانها طوال أزرق سبط الشعر فاذا سألهم سفلتهم عن ذلك قرأوا عليهم ما كتبوا فيجدونه مخالفا لصفته عليه السلام فيكذبونه وثم للتراخى الرتبى فان نسبة المحرف والتأويل الزائغ الى الله سبحانه صريحا أشد شناعة من نفس التحريف والتأويل ﴿ليشتروا به﴾ أى يأخذوا لأنفسهم بمقابلته ﴿ثمنا﴾ هو ما أخذوه من الرشى بمقابلة مافعلوا من التحريف والتأويل وانما عبر عن المشترى الذى هو المقصود بالذات فى عقد المعاوضة بالثمن الذى هو وسيلة فيه ايذانا بتعكيسهم حيث جعلوا المقصود بالذات وسيلة والوسيلة مقصودا بالذات ﴿قليلا﴾ لايعبأ به فان ذلك وان جل فى نفسه فهو أقل قليل عندما استوجبوا به من العذاب الخالد ﴿فويل لهم﴾ تكرير لماسبق للتأكيد وتصريح بتعليله بما قدمت أيديهم بعد الاشعار به فيما سلف بايراد بعضه فى حيز الصلة وبعضه فى معرض الغرض والفاء للايذان بترتبه عليه ومن فى قوله عز وجل ﴿مما كتبت أيديهم﴾ تعليلية متعلقة بويل أو بالاستقرار فى الخبر وما موصولة اسمية والعائد محذوف أى كتبته أو مصدرية والاول أدخل فى الزجر عن تعاطى المحرف والثانى فى الزجر عن التحريف ﴿وويل لهم مما يكسبون﴾ الكلام فيه كالذى فيما قبله والتكرير لما مر من التأكيد والتشديد والقصد الى التعليل بكل من الجانبين وعدم التعرض لقولهم هذا من عندالله لما أنه من مبادى ترويج ما كتبت أيديهم فهو داخل فى التعليل به ﴿وقالوا﴾ بيان لبعض آخر من جناياتهم وفصله عما قبله مشعر بكونه من الاكاذيب التى اختلقوها ولم يكتبوها فى الكتاب ﴿لن تمسنا النار﴾ فى الآخرة ﴿الا أياما معدودة﴾ قليلة محصورة عدد أيام عبادتهم العجل أربعين يوما مدة غيبة موسى عليه السلام عنهم وحكى الأصمعى عن بعض اليهود أن عدد أيام عبادتهم العجل سبعة وروى عن ابن عباس ومجاهد أن اليهود قالوا عمر الدنيا سبعة آلاف سنة وانما نعذب بكل ألف سنة يوما واحداً وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن اليهود زعمت أنهم وجدوا فى التوراة أن مابين طرفى جهنم مسيرة أربعين سنة الى أن ينتهوا الى شجرة الزقوم وأنهم يقطعون فى كل يوم مسيرة سنة فيكملونها ﴿قل﴾ تبكيتا لهم وتوبيخا ﴿أتخذتم﴾ باسقاط الهمزة المجتلبة لوقوعها فى الدرج وباظهار الذال وقرئ بادغامها فى التاء ﴿عند الله عهدا﴾ خبرا أو وعدا بما تزعمون فان ماتدعون لا يكون الا بناء على وعد قوى ولذلك عبر عنه بالعهد ﴿فلن يخلف الله عهده﴾ الفاء فصيحة معربة عن شرط محذوف كما فى قول من قال

قالوا خراسان أقصى مايراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا

أى ان كان الأمر كذلك فلن يخلفه والجملة اعتراضية واظهار الاسم الجليل للاشعار بعلة الحكم فان عدم الاخلاف من قضية الالوهية واظهار العهد مضافا الى ضميره عز وجل لما ذكر أو لان المراد به جميع عهوده لعمومه بالاضافة فيدخل فيه العهد المعهود دخولا أوليا وفيه تجاف عن التصريح بتحقق مضمون كلامهم وان كان معلقا بما لم يكد يشم رائحة الوجود قطعا أعنى اتخاذ العهد ﴿أم تقولون﴾ مفترين ﴿على الله مالا تعلمون﴾ وقوعه وانما علق التوبيخ باسنادهم اليه سبحانه مالا يعلمون وقوعه مع أن ما أسندوه اليه تعالى من قبيل مايعلمون عدم وقوعه للمبالغة فى التوبيخ والنكير فان التوبيخ على الأدنى مستلزم للتوبيخ على الاعلى بالطريق الأولى وقولهم المحكى وان لم يكن تصريحا بالافتراء عليه سبحانه لكنه مستلزم له لأن ذلك الجزم لا يكون الا باسناد سببه اليه تعالى وأم اما متصلة والاستفهام للتقرير المؤدى الى التبكيت لتحقق العلم بالشق الاخير كأنه قيل أم لم تتخذوه بل تتقولون عليه تعالى واما منقطعة والاستفهام لانكار الاتخاذ ونفيه ومعنى بل فيها الاضراب والانتقال من التوبيخ بالانكار على اتخاذ العهد الى ماتفيد همزتها من التوبيخ على التقول على الله سبحانه كما فى قوله عز وجل قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون ﴿بلى﴾ الى آخره جواب

عن قولهم المحكى وإبطال له من جهته تعالى و بيان لحقيقة الحال تفصيلا فى ضمن تشريع كلى شامل لهم ولسائر الكفرة بعد اظهار كذبهم اجمالا وتفويض ذلك الى النبى صلى الله عليه وسلم لما أن المحاجة والالزام من وظائفه عليه السلام مع مافيه من الاشعار بأنه أمر هين لايتوقف على التوقيف وبلى حرف ايجاب مختص بجواب النفى خبرا واستفهاما ﴿من كسب سيئة﴾ فاحشة من السيئات أى كبيرة من الكبائر كدأب هؤلاء الكفرة والكسب استجلاب النفع وتعليقه بالسيئة على طريقة فبشرهم بعذاب أليم ﴿وأحاطت به﴾ من جميع جوانبه بحيث لم يبق له جانب من قلبه ولسانه وجوارحه الاوقد اشتملت واستولت عليه ﴿خطيئته﴾ التى كسبها وصارت خاصة من خواصه كما تنبئ عنه الاضافة اليه وهذا انما يتحقق فى الكافر ولذلك فسرها السلف بالكفر حسبما أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس وأبى هريرة رضى الله عنهم وابن جرير عن أبى وائل ومجاهد وقتادة وعطاء والربيع وقيل السيئة الكفر والخطيئة الكبيرة وقيل بالعكس وقيل الفرق بينهما أن الأولى قد تطلق على مايقصد بالذات والثانية تغلب على مايقصد بالعرض لأنها من الخطأ وقرئ خطيته وخطياته على القلب والادغام فيهما وخطيئاته وخطاياه وفى ذلك إيذان بكثرة فنون كفرهم ﴿فأولئك﴾ مبتدأ ﴿أصحاب النار﴾ خبره والجملة خبر للمبتدأ والفاء لتضمنه معنى الشرط وايراد اسم الاشارة المنبئ عن استحضار المشار اليه بماله من الاوصاف للاشعار بعليتها لصاحبية النار ومافيه من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلتهم فى الكفر والخطايا وانما أشير اليهم بعنوان الجمعية مراعاة لجانب المعنى فى كلمة من بعد مراعاة جانب اللفظ فى الضمائر الثلاثة لما أن ذلك هو المناسب لما أسند اليهم فى تينك الحالتين فان كسب السيئة وأحاطت خطيئته به فى حالة الانفراد وصاحبية النار فى حالة الاجتماع أى أولئك الموصوفون بما ذكر من كسب السيئات واحاطة خطاياهم بهم أصحاب النار أى ملازموها فى الآخرة حسب ملازمتهم فى الدنيا لما يستوجبها من الأسباب التى من جملتها ماهم عليه من تكذيب آيات الله تعالى وتحريف كلامه والافتراء عليه وغير ذلك وانما لم يخص الجواب بحالهم بأن يقال مثلا بلى انهم أصحاب النار الخ لما فى التعميم من التهويل وبيان حالهم بالبرهان والدليل مع مامر من قصد الاشعار بالتعليل ﴿هم فيها خالدون﴾ دائما أبدا فأنى لهم التفصى عنها بعد سبعة أيام أو أربعين كما زعموا فلا حجة فى الآية الكريمة على خلود صاحب الكبيرة لما عرفت من اختصاصها بالكافر ولاحاجة الى حمل الخلود على اللبث الطويل على أن فيه تهوين الخطب فى مقام التهويل ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ جرت السنة الالهية على شفع الوعد بالوعيد مراعاة لما تقتضيه الحكمة فى ارشاد العباد من الترغيب تارة والترهيب أخرى والتبشير مرة والانذار أخرى ﴿واذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل﴾ شروع فى تعداد بعض آخر من قبائح أسلاف اليهود مما ينادى بعدم ايمان أخلافهم وكلمة اذ نصب باضمار فعل خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ليؤديهم التأمل فى أحوالهم الى قطع الطمع عن ايمانهم أو اليهود الموجودون فى عهد النبوة توبيخا لهم بسوء صنيع أسلافهم أى اذكروا اذ أخذنا ميثاقهم ﴿لاتعبدون الا الله﴾ على ارادة القول أى وقلنا أو قائلين لاتعبدون الخ وهو اخبار فى معنى النهى كقوله تعالى ولا يضار كاتب ولا شهيد وكما تقول تذهب الى فلان وتقول كيت وكيت وهو أبلغ من صريح النهى لما فيه من ايهام أن المنهى حقه أن يسارع الى الانتهاء عما نهى عنه فكأنه انتهى عنه فيخبر به الناهى ويؤيده قراءة لاتعبدوا وعطف قولوا عليه وقيل تقديره أن لاتعبدوا الخ فحذف الناصب ورفع الفعل كما فى قوله

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى ... وأن اشهد اللذات هل أنت مخلدى

ويعضده قراءة أن لاتعبدوا فيكون بدلا من الميثاق أو معمولا له بحذف الجار وقيل انه جواب قسم دل عليه المعنى كأنه

قيل وحلفناهم لاتعبدون الا الله وقرئ بالياء لأنهم غيب ﴿وبالوالدين احسانا﴾ متعلق بمضمر أى وتحسنون أو احسنوا ﴿وذى القربى واليتامى والمساكين﴾ عطف على الوالدين ويتامى جمع يتيم كندامى جمع نديم وهو قليل ومسكين مفعيل من السكون كأن الفقر أسكنه من الحراك وأثخنه عن التقلب ﴿وقولوا للناس حسنا﴾ أى قولا حسنا سماه حسنا مبالغة وقرئ كذلك وحسنا بضمتين وهى لغة أهل الحجاز وحسنى كبشرى والمراد به مافيه تخلق وارشاد ﴿وأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة﴾ هما مافرض عليهم فى شريعتهم ﴿ثم توليتم﴾ ان جعل ناصب الظرف خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فهذا التفات الى خطاب بنى اسرائيل جميعا بتغليب أخلافهم على أسلافهم لجريان ذكر كلهم حينئذ على نهج الغيبة فان الخطابات السابقة لاسلافهم محكية داخلة فى حيز القول المقدر قبل لاتعبدون كأنهم استحضروا عند ذكر جناياتهم فنعيت هى عليهم وان جعل خطابا لليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا تعميم للخطاب بتنزيل الاسلاف منزلة الاخلاف كما أنه تعميم للتولى بتنزيل الاخلاف منزلة الاسلاف للتشديد فى التوبيخ أى أعرضتم عن المضى على مقتضى الميثاق ورفضتموه ﴿الا قليلا منكم﴾ وهم من الاسلاف من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ ومن الاخلاف من أسلم كعبد الله بن سلام وأضرابه ﴿وأنتم معرضون﴾ جملة تذييلية أى وأنتم قوم عادتكم الاعراض عن الطاعة ومراعاة حقوق الميثاق وأصل الاعراض الذهاب عن المواجهة والاقبال الى جانب العرض ﴿واذ أخذنا ميثاقكم﴾ منصوب بفعل مضمر خوطب به اليهود قاطبة على ماذكر من التغليب ونعى عليهم اخلالهم بمواجب الميثاق المأخوذ منهم فى حقوق العباد على طريقة النهى اثر بيان مافعلوا بالميثاق المأخوذ منهم فى حقوق الله سبحانه وما يجرى مجراها على سبيل الأمر فان المقصود الأصلى من النهى عن عبادة غير الله تعالى هو الامر بتخصيص العبادة به تعالى أى واذكروا وقت أخذنا ميثاقكم فى التوراة وقوله تعالى ﴿لاتسفكون دماءكم ولاتخرجون أنفسكم من دياركم﴾ كما قبله اخبار فى معنى النهى غير السبك اليه لما ذكر من نكتة المبالغة والمراد به النهى الشديد عن تعرض بعض بنى اسرائيل لبعض بالقتل والاجلاء والتعبير عن ذلك بسفك دماء أنفسهم واخراجها من ديارهم بناء على جريان كل واحد منهم مجرى أنفسهم لما بينهم من الاتصال القوى نسبا ودينا للمبالغة فى الحمل على مراعاة حقوق الميثاق بتصوير المنهى عنه بصورة تكرهها كل نفس وتنفر عنها كل طبيعة فضمير أنفسكم للمخاطبين حتما اذ به يتحقق تنزيل المخرجين منزلتهم كما أن ضمير دياركم للمخرجين قطعا اذ المحذور انما هو اخراجهم من ديارهم لا من ديار المخاطبين من حيث أنهم مخاطبون كما يفصح عنه ماسيأتى من قوله تعالى من ديارهم وانما الخطاب ههنا باعتبار تنزيل ديارهم منزلة ديار المخاطبين بناء على تنزيل أنفسهم منزلتهم لتأكيد المبالغة وتشديد التشنيع واما ضمير دماءكم فمحتمل للوجهين مفاد الاول كون المسفوك دماء ادعائية للمخاطبين حقيقة ومفاد الثانى كونه دماء حقيقية للمخاطبين ادعاء وهما متقاربان فى افادة المبالغة فتدبر وأما ماقيل من أن المعنى لاتباشروا ما يؤدى الى قتل أنفسكم قصاصا أو ما يبيح سفك دمائكم واخراجكم من دياركم أو لاتفعلوا مايرديكم ويصرفكم عن الحياة الأبدية فانه القتل فى الحقيقة ولا تقترفوا ماتحرمون به عن الجنة التى هى داركم فانه الجلاء الحقيقى فمما لايساعده سياق النظم الكريم بل هو نص فيما قلناه كما ستقف عليه ﴿ثم أقررتم﴾ أى بالميثاق وبوجوب المحافظة عليه ﴿وأنتم تشهدون﴾ توكيد للاقرار كقولك أقر فلان شاهدا على نفسه وأنتم أيها الحاضرون تشهدون اليوم على اقرار أسلافكم بهذا الميثاق ﴿ثم أنتم هؤلاء﴾ خطاب خاص بالحاضرين فيه توبيخ شديد واستبعاد قوى لما ارتكبوه بعد ماكان من الميثاق والاقرار به والشهادة عليه فأنتم مبتدأ وهؤلاء خبره ومناط الافادة اختلاف الصفات المنزل منزلة اختلاف

الذات والمعنى أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون الناقضون المتناقضون حسبما تعرب عنه الجمل الآتية فان قوله عز وجل ﴿تقتلون أنفسكم﴾ الخ بيان له وتفصيل لأحوالهم المنكرة المندرجة تحت الاشارة ضمنا كأنهم قالوا كيف نحن فقيل تقتلون أنفسكم أى الجارين مجرى أنفسكم كما أشير اليه وقرئ تقتلون بالتشديد للتكثير ﴿وتخرجون فريقا منكم﴾ الضمير اما للمخاطبين والمضاف محذوف أى من أنفسكم واما للمقتولين والخطاب باعتبار أنهم جعلوا أنفس المخاطبين والا فلا يتحقق التكافؤ بين المقتولين والمخرجين فى ذلك العنوان الذى عليه يدور فلك المبالغة فى تأكيد الميثاق حسبما نص عليه ولا يظهر كمال قباحة جنايتهم فى نقضه ﴿من ديارهم﴾ الضمير للفريق وايثار الغيبة مع جواز الخطاب أيضا بناء على اعتبار العنوان المذكور كما مر فى الميثاق للاحتراز عن توهم كون المراد اخراجهم من ديار المخاطبين من حيث هى ديارهم لا من حيث هى ديار المخرجين وقيل هؤلاء موصول والجملتان فى حيز الصلة والمجموع هو الخبر لانتم ﴿تظاهرون عليهم﴾ بحذف احدى التاءين وقرئ باثباتهما و بالادغام وتظهرون بطرح احدى التاءين من تتظهرون ومعنى الكل تتعاونون وهى حال من فاعل تخرجون أو من مفعوله أو منهما جميعا مبينة لكيفية الاخراج دافعة لتوهم اختصاص الحرمة بالاخراج بطريق الاصالة والاستقلال دون المظاهرة والمعاونة ﴿بالاثم﴾ متعلق بتظاهرون حال من فاعله أى ملتبسين بالاثم وهو الفعل الذى يستحق فاعله الذم واللوم وقيل هو ماينفر عنه النفس ولا يطمئن اليه القلب ﴿والعدوان﴾ وهو التجاوز فى الظلم ﴿وان يأتوكم أسارى﴾ جمع أسير وهو من يؤخذ قهرا فعيل بمعنى مفعول من الأسر أى الشد أو جمع أسرى وهو جمع أسير كجرحى وجريح وقد قرئ أسرى ومحله النصب على الحالية ﴿تفادوهم﴾ أى تخرجوهم من الأسر باعطاء الفداء وقرئ تفدوهم قال السدى ان الله تعالى أخذ على بنى اسرائيل فى التوراة الميثاق أن لا يقتل بعضهم بعضا ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم وأيما عبد أو أمة وجدتموه من بنى اسرائيل فاشتروه وأعتقوه وكانت قريظة حلفاء الأوس والنضير حلفاء الخزرج حين كان بينهما ما كان من العداوة والشنآن فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه فاذا غلبوا اخربوا ديارهم وأخرجوهم منها ثم اذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له مالا فيفدونه فعيرتهم العرب وقالت كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم فيقولون أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم ولكن نستحيى أن نذل حلفاءنا فذمهم الله تعالى على المناقضة ﴿وهو محرم عليكم اخراجهم﴾ هو ضمير الشأن وقع مبتدأ ومحرم فيه ضمير قائم مقام الفاعل وقع خبرا من اخراجهم والجملة خبر لضمير الشأن وقيل محرم خبر لضمير الشأن واخراجهم مرفوع على أنه مفعول مالم يسم فاعله وقيل الضمير مبهم يفسره اخراجهم أو راجع الى مادل عليه تخرجون من المصدر واخراجهم تأكيد أو بيان والجملة حال من الضمير فى تخرجون أو من فريقا أو منهما كما مر بعد اعتبار القيد بالحال السابقة وتخصيص بيان الحرمة ههنا بالاخراج مع كونه قرينا للقتل عند أخذ الميثاق لكونه مظنة للمساهلة فى أمره بسبب قلة خطره بالنسبة الى القتل ولأن مساق الكلام لذمهم وتوبيخهم على جناياتهم وتناقض أفعالهم معا وذلك مختص بصورة الاخراج حيث لم ينقل عنهم تدارك القتلى بشئ من دية أو قصاص هو السر فى تخصيص التظاهر به فيما سبق وأما تأخيره من الشرطية المعترضة مع أن حقه التقديم كما ذكره الواحدى فلأن نظم أفاعيلهم المتناقضة فى سمط واحد من الذكر أدخل فى اظهار بطلانها ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب﴾ أى التوراة التى أخذ فيها الميثاق المذكور والهمزة للانكار التوبيخى والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام أى أتفعلون ذلك فتؤمنون ببعض الكتاب وهو المفاداة ﴿وتكفرون ببعض﴾ وهو حرمة القتال والاخراج مع أن من قضية الايمان ببعضه الايمان بالباقى لكون الكل من عند الله تعالى داخلا فى الميثاق فمناط التوبيخ كفرهم بالبعض مع ايمانهم بالبعض حسبما يفيده ترتيب النظم

الكريم فان التقديم يستدعى فى المقام الخطابى اصالة المقدم وتقدمه بوجه من الوجوه حتما واذ ليس ذلك ههنا باعتبار الانكار والتوبيخ عليه وهو باعتبار الوقوع قطعا لا ايمانهم بالبعض مع كفرهم بالبعض كما هو المفهوم لو قيل أفتكفرون ببعض الكتاب وتؤمنون ببعض ولا مجرد كفرهم بالبعض وايمانهم بالبعض كما يفيده أن يقال أفتجمعون بين الايمان ببعض الكتاب والكفر ببعض أو بالعكس ﴿فما جزاء من يفعل ذلك﴾ ما نافية ومن ان جعلت موصولة فلا محل ليفعل من الاعراب وان جعلت موصوفة فمحله الجر على أنه صفتها وذلك اشارة الى الكفر ببعض الكتاب مع الايمان ببعض أو الى مافعلوا من القتل والاجلاء مع مفاداة الأسارى ﴿منكم﴾ حال من فاعل يفعل ﴿الا خزى﴾ استثناء مفرغ وقع خبراً للمبتدا والخزى الذل والهوان مع الفضيحة والتنكير للتفخيم وهو قتل بنى قريظة واجلاء بنى النضير الى أذرعات وأريحاء من الشام وقيل الجزية ﴿فى الحيوة الدنيا﴾ فى حيز الرفع على أنه صفة خزى أى خزى كائن فى الحياة الدنيا أو فى حيز النصب على أنه ظرف لنفس الخزى ولعل بيان جزائهم بطريق القصر على ماذكر لقطع أطماعهم الفارغة من ثمرات ايمانهم ببعض الكتاب واظهار أنه لا أثر له أصلا مع الكفر ببعض ﴿ويوم القيامة يردون﴾ وقرئ بالتاء أوثر صيغة الجمع نظرا الى معنى من بعد ما أوثر الافراد نظرا الى لفظها لما أن الرد انما يكون بالاجتماع ﴿الى أشد العذاب﴾ لما أن معصيتهم أشد المعاصى وقيل أشد العذاب بالنسبة الى مالهم فى الدنيا من الخزى والصغار وانما غير سبك النظم الكريم حيث لم يقل مثلا وأشد العذاب يوم القيامة للايذان بكمال التنافى بين جزاءى النشأتين وتقديم يوم القيامة على ذكر مايقع فيه لتهويل الخطب وتفظيع الحال من أول الأمر ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ من القبائح التى من جملتها هذا المنكر وقرئ بالياء على نهج يردون وهو تأكيد للوعيد ﴿أولئك﴾ الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿الذين اشتروا﴾ أى آثروا ﴿الحياة الدنيا﴾ واستبدلوها ﴿بالآخرة﴾ وأعرضوا عنها مع تمكنهم من تحصيلها فان ماذكر من الكفر ببعض أحكام الكتاب انما كان لمراعاة جانب حلفائهم لما يعود اليهم منهم من بعض المنافع الدنية الدنيوية ﴿فلا يخفف عنهم العذاب﴾ دنيويا كان أو أخرويا ﴿ولا هم ينصرون﴾ بدفعه عنهم شفاعة أو جبرا والجملة معطوفة على ما قبلها عطف الاسمية على الفعلية أو ينصرون مفسر لمحذوف قبل الضمير فيكون من عطف الفعلية على مثلها ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ شروع فى بيان بعض آخر من جناياتهم وتصديره بالجملة القسمية لاظهار كمال الاعتناء به والمراد بالكتاب التوراة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن التوراة لما نزلت جملة واحدة أمر الله تعالى موسى عليه السلام بحملها فلم يطق بذلك فبعث الله بكل حرف منها ملكا فلم يطيقوا بحملها فخففها الله تعالى لموسى عليه السلام فحملها ﴿وقفينا من بعده بالرسل﴾ يقال قفاه به اذا أتبعه اياه أى أرسلناهم على أثره كقوله تعالى ثم أرسلنا رسلنا تترى وهم يوشع واشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعيا وأرميا وعزير وحزقيل والياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم عليهم الصلاة والسلام ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ المعجزات الواضحات من احياء الموتى وابراء الأكمه والأبرص والاخبار بالمغيبات أو الانجيل وعيسى بالسريانية ايشوع ومعناه المبارك ومريم بمعنى الخادم وهو بالعبرية من النساء كالزير من الرجال وبه فسر قول رؤبة

قلت لزير لم تصله مريمه ... ضليل أهواء الصبا تندمه

ووزنه مفعل اذ لم يثبت فعيل ﴿وأيدناه﴾ أى قويناه وقرئ وآيدناه ﴿بروح القدس﴾ بضم الدال وقرئ بسكونها أى بالروح المقدسة وهى روح عيسى عليه السلام كقولك حاتم الجود ورجل صدق وانما وصفت بالقدس لكرامته أو لأنه عليه السلام لم تضمه الاصلاب ولا أرحام الطوامث وقيل بجبريل عليه السلام وقيل بالانجيل كما قيل فى القرآن

روحا من أمرنا وقيل باسم الله الاعظم الذى كان يحيي الموتى بذكره وتخصيصه من بين الرسل عليهم السلام بالذكر ووصفه بما ذكر من ايتاء البينات والتأييد بروح القدس لما أن بعثهم كانت لتنفيذ أحكام التوراة وتقريرها وأما عيسى عليه السلام فقد نسخ بشرعه كثير من أحكامها ولحسم مادة اعتقادهم الباطل فى حقه عليه السلام ببيان حقيته واظهار كمال قبح ما فعلوا به عليه السلام ﴿أفكلما جاءكم رسول﴾ من أولئك الرسل ﴿بما لا تهوى أنفسكم﴾ من الحق الذى لا محيد عنه أى لا تحبه من هوى كفرح اذا أحب والتعبير عنه بذلك للايذان بأن مدار الرد والقبول عندهم هو المخالفة لاهواء أنفسهم والموافقة لها لا شيء آخر وتوسيط الهمزة بين الفاء وما تعلقت به من الأفعال السابقة لتوبيخهم على تعقيبهم ذلك بهذا وللتعجيب من شأنهم ويجوز كون الفاء للعطف على مقدر يناسب المقام أى ألم تطيعوهم فكلما جاءكم رسول منهم بما لا تهوى أنفسكم ﴿استكبرتم﴾ عن الاتباع له والايمان بما جاء به من عند الله تعالى ﴿ففريقا﴾ منهم ﴿كذبتم﴾ من غير أن تتعرضوا لهم بشيء آخر من المضار والفاء للسببية أو للتعقيب ﴿وفريقا﴾ آخر منهم ﴿تقتلون﴾ غير مكتفين بتكذيبهم كزكريا ويحيى وغيرهما عليهم السلام وتقديم فريقا فى الموضعين للاهتمام وتشويق السامع الى ما فعلوا بهم لا للقصر وايثار صيغة الاستقبال فى القتل لاستحضار صورته الهائلة أو للايماء الى أنهم بعد على تلك النية حيث هموا بما لم ينالوه من جهته عليه السلام وسحروه وسموا له الشاة حتى قال صلى الله عليه وسلم ما زالت أكلة خيبر تعاودنى فهذا أوان قطعت ابهرى ﴿وقالوا﴾ بيان لفن آخر من قبائحهم على طريق الالتفات الى الغيبة اشعارا بابعادهم عن رتبة الخطاب لما فصل من مخازيهم الموجبة للاعراض عنهم وحكاية نظائرها لكل من يفهم بطلانها وقباحتها من أهل الحق والقائلون هم الموجودون فى عصر النبى عليه الصلاة والسلام ﴿قلوبنا غلف﴾ جمع أغلف مستعار من الأغلف الذى لم يختن أى مغشاة بأغشية جبلية لا يكاد يصل اليها ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ولا تفقهه كقولهم قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وقيل هو تخفيف غلف جمع غلاف ويؤيده ما روى عن أبى عمرو من القراءة بضمتين يعنون ان قلوبنا أوعية للعلوم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره قاله ابن عباس وعطاء وقال الكلبى يعنون أن قلوبنا لا يصل اليها حديث الا وعته ولو كان فى حديثك خير لوعته أيضا ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ رد لما قالوه وتكذيب لهم فى ذلك والمعنى على الأول بل أبعدهم الله سبحانه عن رحمته بأن خذلهم وخلاهم وشأنهم بسبب كفرهم العارض وابطالهم لاستعدادهم بسوء اختيارهم بالمرة وكونهم بحيث لا ينفعهم الالطاف أصلا بعد أن خلقهم على الفطرة والتمكن من قبول الحق وعلى الثانى بل أبعدهم من رحمته فأنى لهم ادعاء العلم الذى هو أجل آثارها وعلى الثالث بل أبعدهم من رحمته فلذلك لا يقبلون الحق المؤدى اليها ﴿فقليلا ما يؤمنون﴾ ما مزيدة للمبالغة أى فايمانا قليلا يؤمنون وهو ايمانهم ببعض الكتاب وقيل فزمانا قليلا يؤمنون وهو ما قالوا آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره وكلاهما ليس بايمان حقيقة وقيل أريد بالقلة العدم والفاء لسببية اللعن لعدم الايمان ﴿ولما جاءهم كتاب﴾ هو القرآن وتنكيره للتفخيم ووصفه بقوله عز وجل ﴿من عند الله﴾ أى كائن من عنده تعالى للتشريف ﴿مصدق لما معهم﴾ من التوراة عبر عنها بذلك لما أن المعية من موجبات الوقوف على ما فى تضاعيفها المؤدى الى العلم بكونه مصدقا لها وقرىء مصدقا على أنه حال من كتاب لتخصصه بالوصف ﴿وكانوا من قبل﴾ أى من قبل مجيئه ﴿يستفتحون على الذين كفروا﴾ أى وقد كانوا قبل مجيئه يستفتحون به على المشركين ويقولون اللهم انصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد نعته فى التوراة ويقولون لهم قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وارم قال ابن عباس وقتادة والسدى نزلت فى بنى قريظة والنضير كانوا يستفتحون على الاوس والخزرج برسول الله

صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه وقيل معنى يستفتحون يفتحون عليهم ويعرفونهم بأن نبيا يبعث منهم قد قرب أوانه والسين للمبالغة كما فى استعجب أى يسألون من أنفسهم الفتح عليهم أو يسأل بعضهم بعضا أن يفتح عليهم وعلى التقديرين فالجملة حالية مفيدة لكمال مكابرتهم وعنادهم وقوله عز وعلا ﴿فلما جاءهم﴾ تكرير للاول لطول العهد توسط الجملة الحالية وقوله تعالى ﴿ما عرفوا﴾ عبارة عما سلف من الكتاب لان معرفة من أنزل هو عليه معرفة له والاستفتاح به استفتاح به وايراد الموصول دون الاكتفاء بالاضمار لبيان كمال مكابرتهم فان معرفة ما جاءهم من مبادى الايمان به ودواعيه لا محالة والفاء للدلالة على تعقيب مجيئه للاستفتاح به من غير أن يتخلل بينهما مدة منسية له وقوله تعالى ﴿كفروا به﴾ جواب لما الاولى كما هو رأى المبرد أو جوابهما معا كما قاله أبو البقاء وقيل جواب الاولى محذوف لدلالة المذكور عليه فيكون قوله تعالى وكانوا الخ جملة معطوفة على الشرطية عطف القصة على القصة والمراد بما عرفوا النبى صلى الله عليه وسلم كما هو المراد بما كانوا يستفتحون به فالمعنى ولما جاءهم كتاب مصدق لكتابهم كذبوه وكانوا من قبل مجيئه يستفتحون بمن أنزل عليه ذلك الكتاب فلما جاءهم النبى الذى عرفوه كفروا به ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾ اللام للعهد أى عليهم ووضع المظهر موضع المضمر للاشعار بأن حلول اللعنة عليهم بسبب كفرهم كما أن الفاء للايذان بترتبها عليه أو للجنس وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا اذ الكلام فيهم وأيا ما كان فهو محقق لمضمون قوله تعالى بل لعنهم الله بكفرهم ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم﴾ ما نكرة بمعنى شيء منصوبة مفسرة لفاعل بئس واشتروا صفته أى بئس شيئا باعوا به أنفسهم وقيل اشتروها به فى زعمهم حيث يعتقدون أنهم بما فعلوا خلصوها من العقاب ويأباه أنه لابد أن يكون المذموم ما كان حاصلا لهم لا ما كان زائلا عنهم والمخصوص بالذم قوله تعالى ﴿أن يكفروا بما أنزل الله﴾ أى بالكتاب المصدق لما معهم بعد الوقوف على حقيقته وتبديل الانزال بالمجيء للايذان بعلو شأنه الموجب للايمان به ﴿بغيا﴾ حسدا وطلبا لما ليس لهم وهو علة لأن يكفروا حتما دون اشتروا لما قيل من الفصل بما هو أجنبى بالنسبة اليه وان لم يكن أجنبيا بالنسبة الى فعل الذم وفاعله ولأن البغى مما لا تعلق له بعنوان البيع قطعا لاسيما وهو معلل بما سيأتى من تنزيل الله تعالى من فضله على من يشاؤه وانما الذى بينه وبينه علاقة هو كفرهم بما أنزل الله والمعنى بئس شيئا باعوا به أنفسهم كفرهم المعلل بالبغى الكائن لأجل ﴿أن ينزل الله من فضله﴾ الذى هو الوحى ﴿على من يشاء﴾ أى يشاؤه ويصطفيه ﴿من عباده﴾ المستأهلين لتحمل أعباء الرسالة فوما له تعليل كفرهم بالمنزل بحسدهم للمنزل عليه وايثار صيغة التفعيل هنا للايذان بتجدد بغيهم حسب تجدد الانزال وتكثره حسب تكثره ﴿فباؤا بغضب على غضب﴾ أى رجعوا ملتبسين بغضب كائن على غضب مستحقين له حسب ما اقترفوا من كفر على كفر فانهم كفروا بنبى الحق وبغوا عليه وقيل كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام بعد عيسى وقيل بعد قولهم عزير بن الله وقولهم يد الله مغلولة وغير ذلك من فنون كفرهم ﴿وللكافرين﴾ أى لهم والاظهار فى موقع الاضمار للاشعار بعلية كفرهم لما حاق بهم ﴿عذاب مهين﴾ يراد به اهانتهم واذلالهم لما أن كفرهم بما أنزل الله تعالى كان مبنيا على الحسد المبنى على طمع المنزول عليهم وادعاء الفضل على الناس والاستهانة بمن أنزل عليه عليه السلام ﴿واذا قيل﴾ من جانب المؤمنين ﴿لهم﴾ أى لليهود وتقديم الجار والمجرور قد مر وجهه لاسيما فى لام التبليغ ﴿آمنوا بما أنزل الله﴾ من الكتب الالهية جميعا والمراد به الأمر بالايمان بالقرآن لكن سلك مسلك التعميم ايذانا بتحتم الامتثال من حيث مشاركته لما آمنوا به فيما فى حيز الصلة وموافقته له فى المضمون وتنبيها على أن الايمان بما عداه من غير ايمان به ليس بايمان بما أنزل الله ﴿قالوا نؤمن﴾ أى نستمر على الايمان ﴿بما أنزل علينا﴾ يعنون به التوراة وما نزل على أنبياء بنى اسرائيل لتقرير حكمها ويدسون فيه أن ما عدا ذلك غير منزل عليهم ومرادهم بضمير المتكلم اما أنفسهم فمعنى الانزال عليهم تكليفهم

بما فى المنزل من الأحكام واما أنبياء بنى اسرائيل وهو الظاهر لاشتماله على مزية الايذان بان عدم ايمانهم بالفرقان لما مر من بغيهم وحسدهم على نزوله على من ليس منهم و لأن مرادهم بالموصول وان كان هو التوراة وما فى حكمها خاصة لكن ايرادها بعنوان الانزال عليهم مبنى على ادعاء أن ماعداها ليس كذلك على وجه التعريض كما أشير اليه فلو أريد بالانزال عليهم ماذكر من تكليفهم يلزم من مغايرة القرآن لما أنزل عليهم حسبما يعرب عنه قوله عزوجل ﴿ويكفرون بما وراءه﴾ عدم توهم مكلفين بما فيه كما يلزم عدم كونه نازلا على واحد من بنى اسرائيل على الوجه الأخير وتجريد الموصول عند الاضمار عما عرضوا به تعسف لايخفى والوراء فى الاصل مصدر جعل ظرفا و يضاف الى الفاعل فيراد به مايتوارى به وهو خلفه والى المفعول فيراد به مايواريه وهو أمامه والجملة حال من ضمير قالوا بتقدير مبتدأ أى قالوا ما قالوا وهم يكفرون بما عداه وليس المراد مجرد بيان أن افراد ايمانهم بما أنزل عليهم بالذكر لنفى ايمانهم بما وراءه بل بيان أن مايدعون من الايمان ليس بايمان بما أنزل عليهم حقيقة فان قوله عزاسمه ﴿وهو الحق﴾ أى المعروف بالحقية الحقيق بان يخص به اسم الحق على الاطلاق حال من فاعل يكفرون وقوله تعالى ﴿مصدقا﴾ حال مؤكدة لمضمون الجملة صاحبها اما ضمير الحق وعاملها مافيه من معنى الفعل قاله أبو البقاء واما ضمير دل عليه الكلام وعاملها فعل مضمر أى أحقه مصدقا ﴿لما معهم﴾ من التوراة والمعنى قالوا نؤمن بما أنزل علينا وهم يكفرون بالقرآن والحال أنه حق مصدق لما آمنوا به فيلزمهم الكفر بما آمنوا به ومآله أنهم ادعوا الايمان بالتوراة والحال أنهم يكفرون بما يلزم من الكفر به الكفر بها ﴿قل﴾ تبكيتا لهم من جهة الله عز من قائل ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم بعد بيان التناقض فى أقوالهم ﴿فلم﴾ أصله لما حذفت عنه الألف فرقا بين الاستفهامية والخبرية ﴿تقتلون أنبياء الله من قبل﴾ الخطاب للحاضرين من اليهود والماضين على طريق التغليب وحيث كانوا مشاركين فى العقد والعمل كان الاعتراض على أسلافهم اعتراضا على أخلافهم وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية وهو جواب شرط محذوف أى قل لهم ان كنتم مؤمنين بالتوراة كما تزعمون فلاى شىء كنتم تقتلون أنبياء الله من قبل وهو فيها حرام وقرىء أنبياء الله مهموزا وقوله تعالى ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ تكرير للاعتراض لتأكيد الالزام وتشديد التهديد أى ان كنتم مؤمنين فلم تقتلونهم وقد حذف من كل واحدة من الشرطيتين ماحذف ثقة بما أثبت فى الأخرى وقيل لاحذف فيه بل تقديم الجواب على الشرط وذلك لايتأتى الاعلى رأى الكوفيين وأبى زيد وقيل ان نافية أى ما كنتم مؤمنين والالما قتلتموهم ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات﴾ من تمام التبكيت والتوبيخ داخل تحت الامر لاتكرير لما قص فى تضاعيف تعداد النعم التى من جملتها العفو عن عبادة العجل واللام للقسم أى و بالله لقد جاءكم موسى ملتبسا بالمعجزات الظاهرة التى هى العصا واليد والسنون ونقص الثمرات والدم والطوفان والجراد والقمل والضفادع وفلق البحر وقد عد منها التوراة وليس بواضح فان المجىء بها بعد قصة العجل ﴿ثم اتخذتم العجل﴾ أى الها ﴿من بعده﴾ أى من بعد مجيئه بها وقيل من بعد ذهابه الى الطور فتكون التوراة حينئذ من جملة البينات وثم للتراخى فى الرتبة والدلالة على نهاية قبح ماصنعوا ﴿وأنتم ظالمون﴾ حال من ضمير اتخذتم بمعنى اتخذتم العجل ظالمين بعبادته واضعين لها فى غير موضعها أو بالاخلال بحقوق آيات الله تعالى أو اعتراض أى وأنتم قوم عادتكم الظلم ﴿واذ أخذنا ميثاقكم﴾ توبيخ من جهة الله تعالى وتكذيب لهم فى ادعائهم الايمان بما أنزل عليهم بتذكير جناياتهم الناطقة بكذبهم أى واذكروا حين أخذنا ميثاقكم ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ قائلين ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا﴾ أى خذوا بما أمرتم به فى التوراة واسمعوا مافيها سمع طاعة وقبول ﴿قالوا﴾ استئناف مبنى على سؤال سائل كأنه قيل فماذا قالوا فقيل قالوا ﴿سمعنا﴾ قولك ﴿وعصينا﴾ أمرك

فاذا قابل أسلافهم مثل ذلك الخطاب المؤكد مع مشاهدتهم مثل تلك المعجزة الباهرة بمثل هذه العظيمة الشنعاء وكفروا بما فى تضاعيف التوبة فكيف يتصور من أخلافهم الايمان بما فيها ﴿وأشربوا فى قلوبهم العجل﴾ على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه للمبالغة أى تداخلهم حبه و رسخ فى قلوبهم صورته لفرط شغفهم به وحرصهم على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب والشراب أعماق البدن و فى قلوبهم بيان لمكان الاشراب كما فى قوله تعالى انما يأكلون فى بطونهم نارا والجملة حال من ضمير قالوا بتقدير قد ﴿بكفرهم﴾ بسبب كفرهم السابق الموجب لذلك قيل كانوا مجسمة أو حلولية ولم يروا جسما أعجب منه فتمكن فى قلوبهم ما سول لهم السامرى ﴿قل﴾ توبيخا لحاضرى اليهود اثر ماتبين أحوال رؤسائهم الذين بهم يقتدون فى كل مايأتون وما يذرون ﴿بئسما يأمركم به ايمانكم﴾ بما أنزل عليكم من التوراة حسبما تدعون والمخصوص بالذم محذوف أى ماذكر من قولهم سمعنا وعصينا وعبادتهم العجل و فى اسناد الأمر الى الايمان تهكم بهم واضافة الايمان اليهم للايذان بأنه ليس بايمان حقيقة كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ فانه قدح فى دعواهم الايمان بما أنزل عليهم من التوراة وابطال لها وتقريره ان كنتم مؤمنين بها عاملين فيما ذكر من القول والعمل بما فيها فبئسما يأمركم به ايمانكم بها واذ لايسوغ الايمان بها مثل تلك القبائح فلستم بمؤمنين بها قطعا وجواب الشرط كما ترى محذوف لدلالة ماسبق عليه ﴿قل﴾ كرر الأمر مع قرب العهد بالأمر السابق لما أنه أمر بتبكيتهم واظهار كذبهم فى فن آخر من أباطيلهم لكنه لم يحك عنهم قبل الأمر بابطاله بل اكتفى بالاشارة اليه فى تضاعيف الكلام حيث قيل ﴿ان كانت لكم الدار الآخرة﴾ أى الجنة أو نعيم الدار الآخرة ﴿عند الله خالصة﴾ أى سالمة لكم خاصة بكم كما تدعون أنه لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى ونصبها على الحالية من الدار وعند ظرف للاستقرار فى الخبر أعنى لكم وقوله تعالى ﴿من دون الناس﴾ فى محل النصب بخالصة يقال خلص لى كذا من كذا واللام للجنس أى الناس كافة او للعهد أى المسلمين ﴿فتمنوا الموت﴾ فان من أيقن بدخول الجنة اشتاق الى التخلص اليها من دارة البوار وقرارة الأكدار لاسيما اذا كانت خالصة له كما قال على كرم الله وجهه لا أبالى أسقطت على الموت أو سقط الموت على وقال عمار بن ياسر بصفين

الآن ألاقى الأحبه ... محمداً وحزبه

وقال حذيفة بن اليمانى حين احتضر وقد كان يتمنى الموت قبل

جاء حبيب على فاقة ... فلا أفلح اليوم من قد ندم

أى على التمنى وقوله تعالى ﴿ان كنتم صادقين﴾ تكرير للكلام لتشديد الالزام وللتنبيه على أن ترتب الجواب ليس على تحقق الشرط فى نفس الأمر فقط بل فى اعتقادهم أيضا وانهم قد ادعوا ذلك والجواب محذوف ثقة بدلالة ماسبق عليه أى ان كنتم صادقين فتمنوه وقوله تعالى ﴿ولن يتمنوه أبدا﴾ كلام مستأنف غير داخل تحت الأمر سيق من جهته سبحانه لبيان ما يكون منهم من الاحجام عما دعوا اليه الدال على كذبهم فى دعواهم ﴿بما قدمت أيديهم﴾ بسبب ماعملوا من المعاصى الموجبة لدخول النار كالكفر بالنبى عليه السلام والقرآن وتحريف التوراة ولما كانت اليد من بين جوارح الانسان مناط عامة صنائعه ومدار أكثر منافعه عبر بها تارة عن النفس وأخرى عن القدرة ﴿والله عليم بالظالمين﴾ أى بهم وايثار الاظهار على الاضمار لذمهم والتسجيل عليهم بأنهم ظالمون فى جميع الأمور التى من جملتها ادعاء ماليس لهم ونفيه عن غيرهم والجملة تذييل لما قبلها مقررة لمضمونه أى عليم بهم و بما صدر عنهم من فنون الظلم والمعاصى المفضية الى أفانين العذاب و بما سيكون منهم من الاحتراز عما يؤدى الى ذلك فوقع الأمر كما ذكر فلم يتمن منهم موته أحد اذ لو وقع ذلك لنقل واشتهر وعن النبى صلى الله عليه وسلم لو تمنوا الموت لغص كل انسان بريقه فمات مكانه ومابقى يهودى على وجه الارض ﴿ولتجدنهم أحرص الناس﴾ من الوجدان العقلى وهو جار مجرى العلم خلا أنه

مختص بما يقع بعد التجربة ونحوها ومفعولاه الضمير وأحرص والتنكير فى قوله تعالى ﴿على حيوة﴾ للايذان بأن مرادهم نوع خاص منها وهى الحياة المتطاولة وقرئ بالتعريف ﴿ومن الذين أشركوا﴾ عطف على ماقبله بحسب المعنى كأنه قيل أحرص من الناس ومن الذين أشركوا وافرادهم بالذكر مع دخولهم فى الناس للايذان بامتيازهم من بينهم بشدة الحرص للمبالغة فى توبيخ اليهود فان حرصهم وهم معترفون بالجزاء لما كان أشد من حرص المشركين المنكرين لهدل ذلك على جزمهم بمصيرهم الى النار و يجوز أن يحمل على حذف المعطوف ثقة بانباء المعطوف عليه عنه أى وأحرص من الذين أشركوا فقوله تعالى ﴿يود أحدهم﴾ بيان لزيادة حرصهم على طريقة الاستئناف ويجوز أن يكون فى حيز الرفع صفة لمبتدا محذوف خبره الظرف المتقدم على أن يكون المراد بالمشركين اليهود لقولهم عزير بن الله أى ومنهم طائفة يود أحدهم أيهم كان أى كل واحد منهم ﴿لو يعمر ألف سنة﴾ وهو حكاية لودادتهم كأنه قيل ليتنى أعمر وانما أجرى على الغيبة لقوله تعالى يود كما تقول حلف بالله ليفعلن ومحله النصب على أنه مفعول يود اجراء له مجرى القول لانه فعل قلبى ﴿وماهو بمزحزحه من العذاب﴾ ماحجازية والضمير العائد على أحدهم اسمها و بمزحزحه خبرها والباء زائدة و﴿أن يعمر﴾ فاعل مزحزحه أى وماأحدهم بمن يزحزحه أى يبعده و ينجيه من العذاب تعميره وقيل الضمير لما دل عليه يعمر من المصدر وأن يعمر بدل منه وقيل هو مبهم وأن يعمر مفسره والجلة حال من أحدهم والعامل يود لا يعمر على أنها حال من ضميره لفساد المعنى أو اعتراض وأصل سنة سنوة لقولهم سنوات وسنية وقيل سنهة كجبهة لقولهم سانهته وسنيهة وتسنهت النخلة اذا أتت عليها السنون ﴿والله بصير بما يعملون﴾ البصير فى كلام العرب العالم بكنه الشئ الخبير به ومنه قولهم فلان بصير بالفقه أى عليم بخفيات أعمالهم فهو مجازيهم بها لامحالة وقرئ بتاء الخطاب التفاتا وفيه تشديد للوعيد ﴿قل من كان عدواً لجبريل﴾ نزل فى عبد الله بن صوريا من أحبار فدك حاج رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله عمن نزل عليه بالوحى فقال عليه السلام جبريل عليه السلام فقال هو عدونا لوكان غيره لآمنا بك و فى بعض الروايات و رسولنا ميكائيل فلوكان هو الذى يأتيك لآمنا بك وقد عادانا مرارا وأشدها أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخربه بخت نصر فبعثنا من يقتله فلقيه ببابل غلاما مسكينا فدفع عنه جبريل عليه السلام وقال ان كان ربكم آمره بهلاككم فانه لايسلطكم عليه والا فبأى حق تقتلونه وقيل أمره الله تعالى أن يجعل النبوة فينا فجعلها فى غيرنا و روى أنه كان لعمر رضى الله عنه أرض بأعلى المدينة وكان ممره على مدارس اليهود فكان يجلس اليهم و يسمع كلامهم فقالوا ياعمر قد أحببناك وانا لنطمع فيك فقال والله ماأجيئكم لحبكم ولا أسألكم لشك فى دينى وانما أدخل عليكم لازداد بصيرة فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأرى آثاره فى كتابكم ثم سألهم عن جبريل عليه السلام فقالوا ذاك هو عدونا يطلع محمدا على أسرارنا وهو صاحب كل خسف وعذاب وميكائيل يجئ بالخصب والسلام فقال لهم ومامنزلتهما عند الله تعالى قالوا جبريل أقرب منزلة هو عن يمينه وميكائيل عن يساره وهما متعاديان فقال عمر رضى الله عنه ان كانا كما تقولون فما هما بعدوين ولأنتم أكفر من الحمير ومن كان عدوا لأحدهما فهو عدو للآخر ومن كان عدوا لهما كان عدوا لله سبحانه ثم رجع عمر فوجد جبريل عليه السلام قد سبقه بالوحى فقال النبى صلى الله عليه وسلم لقد وافقك ربك ياعمر فقال عمر رضى الله عنه لقد رأيتنى فى دينى بعد ذلك أصلب من الحجر وقرئ جبرئيل كسلسبيل وجبرئل كجحمرش وجبريل وجبرئل وجبرائيل كجبراعيل وجبرائل كجبراعل ومنع الصرف فيه للتعريف والعجمة وقيل معناه عبد الله ﴿فانه نزله﴾ تعليل لجواب الشرط قائم مقامه والبارز الاول لجبريل عليه السلام والثانى للقرآن أضمر من غير ذكر ايذانا بفخامة شأنه واستغنائه عن الذكر لكمال شهرته ونباهته لاسيما عند ذكر شئ من صفاته ﴿على قلبك﴾

زيادة تقرير للتنزيل ببيان محل الوحى فانه القابل الأول له ومدار الفهم والحفظ وايثار الخطاب على التكلم المبنى على حكاية كلام الله تعالى بعينه كما فى قوله تعالى قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لما فى النقل بالعبارة من زيادة تقرير لمضمون المقالة ﴿باذن الله﴾ بأمره وتيسيره مستعار من تسهيل الحجاب وفيه تلويح بكمال توجه جبريل عليه السلام الى تنزيله وصدق عزيمته عليه السلام وهو حال من فاعل نزله وقوله تعالى ﴿مصدقا لما بين يديه﴾ أى من الكتب الالهية التى معظمها التوراة حال من مفعوله وكذا قوله تعالى ﴿وهدى و بشرى للمؤمنين﴾ والعامل فى الكل نزله والمعنى من عادى جبريل من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته بل يجب عليه محبته فانه نزل عليك كتابا مصدقا لكتبهم أو فالسبب فى عداوته تنزيله لكتاب مصدق لكتابهم موافق له وهم له كارهون ولذلك حرفوا كتابهم وجحدوا موافقته له لان الاعتراف بها يوجب الايمان به وذلك يستدعى انتكاس أحوالهم وزوال رياستهم وقيل ان الجواب فقد خلع ربقة الانصاف أو فقد كفر بما معه من الكتاب أو فليمت غيظا أو فهو عدولى وأنا عدوله ﴿من كان عدوا لله﴾ أريد بعداوته تعالى مخالفة أمره عنادا والخروج عن طاعته مكابرة أو عداوة خواصه ومقربيه لكن صدر الكلام بذكره الجليل تفخيما لشأنهم وايذانا بأن عداوتهم عداوته عز وعلا كما فى قوله عز وجل والله و رسوله أحق أن يرضوه ثم صرح بالمرام فقيل ﴿وملائكته و رسله وجبريل وميكال﴾ وانما أفردا بالذكر مع أنهما أول من يشمله عنوان الملكية والرسالة لاظهار فضلهما كأنهما عليهما السلام من جنس آخر أشرف مما ذكر تنزيلا للتغاير فى الوصف منزلة التغاير فى الجنس وللتنبيه على أن عداوة أحدهما عداوة للآخر حسما لمادة اعتقادهم الباطل فى حقهما حيث زعموا أنهما متعاديان وللاشارة الى أن معاداة الواحد والكل سواء فى الكفر واستتباع العداوة من جهة الله سبحانه وأن من عادى أحدهم فكأنما عادى الجميع وقوله تعالى ﴿فان الله عدو للكافرين﴾ أى لهم جواب الشرط والمعنى من عاداهم عاداه الله وعاقبه أشد العقاب وايثار الاسمية للدلالة على التحقق والثبات و وضع الكافرين موضع المضمر للايذان بأن عداوة المذكورين كفر وأن ذلك بين لايحتاج الى الاخبار به وأن مدار عداوته تعالى لهم وسخطه المستوجب لأشد العقوبة والعذاب هو كفرهم المذكور وقرئ ميكائل كميكاعل وميكائيل كميكاعيل وميكئل كميكعل وميكئيل كميكعيل ﴿ولقد أنزلنا اليك آيات بينات﴾ واضحات الدلالة على معانيها وعلى كونها من عند الله عز وجل ﴿وما يكفر بها الا الفاسقون﴾ أى المتمردون فى الكفر الخارجون عن حدوده فان من ليس على تلك الصفة من الكفرة لايجترئ على الكفر بمثل هاتيك البينات قال الحسن اذا استعمل الفسق فى نوع من المعاصى وقع على أعظم أفراد ذلك النوع من كفر أو غيره وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال قال ابن صوريا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ماجئتنا بشئ نعرفه وما أنزل عليك من آية فنتبعك لها فنزلت واللام للعهد أى الفاسقون المعهودون وهم أهل الكتاب المحرفون لكتابهم الخارجون عن دينهم أو للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا ﴿أوكلما عاهدوا عهداً﴾ الهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أكفروا بها وهى فى غاية الوضوح وكلما عاهدوا عهداً ومن جملة ذلك ماأشير اليه فى قوله تعالى وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا من قولهم للمشركين قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ماقلنا فنقتلكم معه قتل عاد وارم وقرئ بسكون الواو على أن تقدير النظم الكريم وما يكفر بها الا الذين فسقوا أو نقضوا عهودهم مراراً كثيرة وقرئ عوهدوا وعهدوا وقوله تعالى عهدا اما مصدر مؤكد لعاهدوا من غير لفظه أو مفعول له على أنه بمعنى أعطوا العهد ﴿نبذه فريق منهم﴾ أى رموا بالزمام و رفضوه وقرئ نقضه واسناد النبذ الى فريق منهم لأن منهم من لم ينبذه ﴿بل أكثرهم لايؤمنون﴾ أى بالتوراة وهذا دفع لما يتوهم من أن النابذين هم الأقلون وأن

من لم ينبذ جهارا فهم يؤمنون بها سرا ﴿ولما جاءهم رسول﴾ هو النبي صلى الله عليه وسلم والتنكير للتفخيم ﴿من عند الله﴾ متعلق بجاء أو بمحذوف وقع صفة لرسول لافادة مزيد تعظيمه بتأكيد ما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية ﴿مصدق لما معهم﴾ من التوراة من حيث أنه صلى الله عليه وسلم قرر صحتها وحقق حقية نبوة موسى عليه الصلاة والسلام بما أنزل عليه أو من حيث أنه عليه السلام جاء على وفق مانعت فيها ﴿نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب﴾ أى التوراة وهم اليهود الذين كانوا فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ممن كانوا يستفتحون به قبل ذلك لا الذين كانوا فى عهد سليمان عليه السلام كما قيل لأن النبذ عند مجىء النبي صلى الله عليه وسلم لايتصور منهم وافراد هذا النبذ بالذكر مع اندراجه تحت قوله عز وجل أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم لأنه معظم جناياتهم ولأنه تمهيد لذكر اتباعهم لما تتلو الشياطين وايثارهم له عليه والمراد بايتائها اما ايتاء علمها بالدراسة والحفظ والوقوف على مافيها فالموصول عبارة عن علمائهم واما مجرد انزالها عليهم فهو عبارة عن الكل وعلى التقديرين فوضعه موضع الضمير للايذان بكمال التنافى بين ما أثبت لهم فى حيز الصلة وبين ماصدر عنهم من النبذ ﴿كتاب الله﴾ أى الذى أوتوه قال السدى لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم عارضوه بالتوراة فاتفقت التوراة والفرقان فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت فلم يوافق القرآن فهذا قوله تعالى ولما جاءهم رسول من عند الله الخ وانما عبر عنها بكتاب الله تشريفا لها وتعظيما لحقها عليهم وتهويلا لما اجترأوا عليه من الكفر بها وقيل كتاب الله القرآن نبذوه بعد ما لزمهم تلقيه بالقبول لاسيما بعد ما كانوا يستفتحون به من قبل فان ذلك قبول له وتمسك به فيكون الكفر به عند مجيئه نبذا له كأنه قيل كتاب الله الذى جاء به فان مجىء الرسول معرب عن مجىء الكتاب ﴿وراء ظهورهم﴾ مثل لتركهم واعراضهم عنه بالكلية مثل بما يرمى به وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات اليه ﴿كأنهم لايعلمون﴾ جملة حالية أى نبذوه وراء ظهورهم مشبهين بمن لا يعلمه فان أريد بهم أحبارهم فالمعنى كأنهم لايعلمونه على وجه الايقان ولا يعرفون مافيه من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام ففيه ايذان بأن علمهم به رصين لكنهم يتجاهلون أو كأنهم لايعلمون أنه كتاب الله أو لايعلمونه أصلا كما اذا أريد بهم الكل وفى هذين الوجهين زيادة مبالغة فى اعراضهم عما فى التوراة من دلائل النبوة هذا وان أريد بما نبذوه من كتاب الله القرآن فالمراد بالعلم المنفى فى قوله تعالى كأنهم لايعلمون هو العلم بأنه كتاب الله ففيه مافى الوجه الاول من الاشعار بأنهم متيقنون فى ذلك وانما يكفرون به مكابرة وعنادا قيل انجيل اليهود أربع فرق ففرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمنى أهل الكتاب وهم الاقلون المشار اليهم بقوله عز وجل بل أكثرهم لايؤمنون وفرقة جاهروا بنبذ العهود وتعدى الحدود تمردا وفسوقا وهم المعنيون بقوله تعالى نبذه فريق منهم وفرقة لم يجاهروا بنبذها ولكن نبذوها لجهلهم بها وهم الاكثرون وفرقة تمسكوا بها ظاهرا ونبذوها خفية وهم المتجاهلون ﴿واتبعوا ماتتلوا الشياطين﴾ عطف على جواب لما أى نبذوا كتاب الله واتبعوا كتب السحرة التى كانت تقرأها الشياطين وهم المتمردون من الجن وتتلو حكاية حال ماضية والمراد بالاتباع التوغل والتمحض فيه والاقبال عليه بالكلية والا فأصل الاتباع كان حاصلا قبل مجىء الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يتسنى عطفه على جواب لما ولذلك قيل هو معطوف على الجملة وقيل على أشربوا ﴿على ملك سليمان﴾ أى فى عهد ملكه قيل كانت الشياطين يسترقون السمع ويضمون الى ماسمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها الى الكهنة وهم يدونونها ويعلمونها الناس وفشا ذلك فى عهد سليمان عليه السلام حتى قيل ان الجن تعلم الغيب وكانوا يقولون هذا علم سليمان وماتم له ملكه الا بهذا العلم وبه سخر الانس والجن والطير والريح التى تجرى بأمره وقيل ان سليمان عليه السلام كان قد دفن كثيرا من العلوم التى خصه الله تعالى بها تحت سرير ملكه فلما مضت على ذلك مدة توصل اليها قوم من المنافقين فكتبوا فى خلال ذلك أشياء من فنون السحر

تناسب تلك الاشياء المدفونة من بعض الوجوه ثم بعد موته واطلاع الناس على تلك الكتب أوهموهم أنه من عمل سليمان عليه السلام وأنه ما بلغ هذا المبلغ الا بسبب هذه الاشياء ﴿وما كفر سليمان﴾ تنزيه لساحته عليه السلام عن السحر وتكذيب لمن افترى عليه بأنه كان يعتقده ويعمل به والتعرض لكونه كفرا للمبالغة فى اظهار نزاهته عليه السلام وكذب باهتيه بذلك ﴿ولكن الشياطين﴾ وقرىء بتخفيف لكن ورفع الشياطين والواو عاطفة للجملة الاستدراكية على ماقبلها وكون المخففة عند الجمهور للعطف انما هو عند عدم الواو وكون مابعدها مفردا ﴿كفروا﴾ باستعمال السحر وتدوينه ﴿يعلمون الناس السحر﴾ اغواء واضلالا والجملة فى محل النصب على الحالية من ضمير كفروا أو من الشياطين فان مافى لكن من رائحة الفعل كاف فى العمل فى الحال أو فى محل الرفع على أنه خبر ثان للكن أو بدل من الخبر الاول وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرار التعليم وتجدده أو جملة مستأنفة هذا على تقدير كون الضمير للشياطين وأما على تقدير رجوعه الى فاعل اتبعوا فهى اما حال منه واما استئنافية فحسب واعلم أن السحر أنواع منها سحر الكلدانيين الذين كانوا فى قديم الدهر وهم قوم يعبدون الكواكب ويزعمون أنها هى المدبرة لهذا العالم ومنها تصدر الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة ويستحدثون الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الارضية وهم الذين بعث الله تعالى ابراهيم عليه الصلاة والسلام لابطال مقالتهم وهم ثلاث فرق ففرقة منهم يزعمون أن الافلاك والنجوم واجبة الوجود لذواتها وهم الصابئة وفرقة يقولون بالهية الافلاك ويتخذون لكل واحد منها هيكلا ويشتغلون بخدمتها وهم عبدة الاوثان وفرقة أثبتوا للافلاك وللكواكب فاعلا مختارا لكنهم قالوا انه أعطاها قوة عالية نافذة فى هذا العالم وفوض تدبيره اليها ومنها سحر أصحاب الاوهام والنفوس القوية فانهم يزعمون أن الانسان تبلغ روحه بالتصفية فى القوة والتأثير الى حيث يقدر على الايجاد والاعدام والاحياء والاماتة وتغيير البنية والشكل ومنها سحر من يستعين بالارواح الارضية وهو المسمى بالعزائم وتسخير الجن ومنها التخيلات الآخذة بالعيون وتسمى الشعوذة ولا خلاف بين الامة فى أن من اعتقد الاول فقد كفر وكذا من اعتقد الثانى وهو سحر أصحاب الاوهام والنفوس القوية وأما من اعتقد أن الانسان يبلغ بالتصفية وقراءة العزائم والرقى الى حيث يخلق الله سبحانه وتعالى عقيب ذلك على سبيل جريان العادة بعض الخوارق فالمعتزلة اتفقوا على أنه كافر لانه لايمكنه بهذا الاعتقاد معرفة صدق الانبياء والرسل بخلاف غيرهم ولعل التحقيق أن ذلك الانسان ان كان خيرا متشرعا فى كل مايأتى ويذر وكان من يستعين به من الارواح الخيرة وكانت عزائمه ورقاه غير مخالفة لأحكام الشريعة الشريفة ولم يكن فيما ظهر فى يده من الخوارق ضرر شرعى لأحد فليس ذلك من قبيل السحر وان كان شريرا غير متمسك بالشريعة الشريفة فظاهر أن من يستعين به من الأرواح الخبيثة الشريرة لامحالة ضرورة امتناع تحقق التضام والتعاون بينهما من غير اشتراك فى الخبث والشرارة فيكون كافرا قطعا وأما الشعوذة ومايجرى مجراها من اظهار الأمور العجيبة بواسطة ترتيب الآلات الهندسية وخفة اليد والاستعانة بخواص الأدوية والأحجار فاطلاق السحر عليها بطريق التجوز أو لما فيها من الدقة لأنه فى الأصل عبارة عن كل مالطف مأخذه وخفى سببه أو من الصرف عن الجهة المعتادة لما أنه فى أصل اللغة الصرف على ماحكاه الأزهرى عن الفراء ويونس ﴿وما أنزل على الملكين﴾ عطف على السحر أى ويعلمونهم ما أنزل عليهما والمراد بهما واحد والعطف لتغاير الاعتبار أو هو نوع أقوى منه أو على ماتتلوا ومابينهما اعتراض أى واتبعوا ما أنزل الخ وهما ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس كما ابتلى قوم طالوت بالنهر أو تمييزا بينه وبين المعجزة لئلا يغتر به الناس أو لأن السحرة كثرت فى ذلك الزمان واستنبطت أبوابا غريبة من السحر وكانوا يدعون النبوة فبعث الله تعالى

هذين الملكين ليعلما الناس أبواب السحر حتى يتمكنوا من معارضة أولئك الكذابين واظهار أمرهم على الناس وأما مايحكى من ان الملائكة عليهم السلام لما رأوا ما يصعد من ذنوب بنى آدم عيروهم وقالوا لله سبحانه هؤلاء الذين اخترتهم لخلافة الأرض يعصونك فيها فقال عز وجل لو ركبت فيكم ماركبت فيهم لعصيتمونى قالوا سبحانك ماينبغى لنا أن نعصيك قال تعالى فاختاروا من خياركم ملكين فاختاروا هاروت وماروت وكانا من أصلحهم وأعبدهم فأهبطا الى الارض بعد ماركب فيهما ماركب فى البشر من الشهوة وغيرها من القوى ليقضيا بين الناس نهارا و يعرجا الى السماء مساء وقد نهيا عن الاشراك والقتل بغير الحق وشرب الخمر والزنا وكانا يقضيان بينهم نهارا فاذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم فصعدا الى السماء فاختصمت اليهما ذات يوم امرأة من أجمل النساء تسمى زهرة و كانت من لخم وقيل كانت من أهل فارس ملكة فى بلدها وكانت خصومتها مع زوجها فلما رأياها افتتنا بها فراوداها عن نفسها فأبت فألحا عليها فقالت لا الا أن تقضيا لى على خصمى ففعلا ثم سألاها ماسألا فقالت لا الا أن تقتلاه ففعلا ثم سألاها ماسألا فقالت لا الا أن تشربا الخمر وتسجدا للصنم ففعلا كلا من ذلك بعد اللتيا والتى ثم سألاها ماسألا فقالت لا الا أن تعلمانى ماتصعدان به الى السماء فعلماها الاسم الاعظم فدعت به وصعدت الى السماء فمسخها الله سبحانه كوكبا فهما بالعروج حسب عادتهما فلم تطعهما أجنحتهما فعلما ماحل بهما وكان فى عهد ادريس عليه السلام فالتجآ اليه ليشفع لهما ففعل فخيرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا الاول لانقطاعه عما قليل فهما معذبان ببابل قيل معلقان بشعورهما وقيل منكوسان يضربان بسياط الحديد الى قيام الساعة فمما لاتعويل عليه لما أن مداره رواية اليهود مع مافيه من المخالفة لادلة العقل والنقل ولعله من مقولة الامثال والرموز التى قصد بها ارشاد اللبيب الاريب بالترغيب والترهيب وقيل هما رجلان سميا ملكين لصلاحهما و يعضده قراءة الملكين بالكسر ﴿ببابل﴾ الباء بمعنى فى وهى متعلقة بأنزل أو بمحذوف وقع حالا من الملكين أو من الضمير فى أنزل وهى بابل العراق وقال ابن مسعود رضي الله عنه بابل أرض الكوفة وقيل جبل دماوند ومنع الصرف العجمة والعلمية أو للتأنيث والعلمية ﴿هاروت وماروت﴾ عطف بيان للملكين علمان لهما ومنع صرفهما للعجمة والعلمية ولو كانا من الهرت والمرت بمعنى الكسر لانصرفا وأما من قرأ الملكين بكسر اللام أو قال كانا رجلين صالحين فقال هما اسمان لهما وقيل هما اسما قبيلتين من الجن هما المراد من الملكين بالكسر وقرئ بالرفع على هما هاروت وماروت ﴿وما يعلمان من أحد﴾ من مزيدة فى المفعول به لافادة تأكيد الاستغراق الذى يفيده أحد لا لافادة نفس الاستغراق كما فى قولك ماجاءنى من رجل وقرئ يعلمان من الاعلام ﴿حتى يقولا انما نحن فتنة﴾ الفتنة الاختبار والامتحان وافرادها مع تعددهما لكونها مصدرا وحملها عليهما مواطأة للمبالغة كانهما نفس الفتنة والقصر لبيان أنه ليس لهما فيما يتعاطيانه شأن سواها لينصرف الناس عن تعلمه أى وما يعلمان ما أنزل عليهما من السحر أحدا من طالبيه حتى ينصحاه قبل التعليم و يقولا له انما نحن فتنة وابتلاء من الله عز وجل فمن عمل بما تعلم منا واعتقد حقيته كفر ومن توقى عن العمل به أو اتخذه ذريعة للاتقاء عن الاغترار بمثله بقى على الايمان ﴿فلا تكفر﴾ باعتقاد حقيته وجواز العمل به والظاهر أن غاية النفى ليست هذه المقالة فقط بل من جملتها التزام المخاطب بموجب النهى لكن لم يذكر لظهوره و كون الكلام فى بيان اعتناء الملكين بشأن النصح والارشاد والجملة فى محل النصب على الحالية من ضمير يعلمون لامعطوفة عليه كما قيل أى ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين و يحملونهم على العمل به اغواء واضلالا والحال أنهما مايعلمان أحدا حتى ينهياه عن العمل به والكفر بسببه وأما ماقيل من أن ما فى قوله تعالى وما أنزل الخ نافية والجملة معطوفة على قوله تعالى وما كفر سليمان جىء بها لتكذيب اليهود فى القصة أى لم ينزل على الملكين اباحة السحر وأن هاروت

وماروت بدل من الشياطين على أنهما قبيلتان من الجن خصتا بالذكر لاصالتهما وكون باقى الشياطين أتباعا لهما وأن المعنى مايعلمان أحدا حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فتكون مثلنا فيأباه أن مقام وصف الشياطين بالكفر واضلال الناس مما لايلائمه وصف رؤسائهم بما ذكر من النهى عن الكفر مع مافيه من الاخلال بنظام الكلام فان الابدال فى حكم تنحية المبدل منه ﴿فيتعلمون منهما﴾ عطف على الجملة المنفية فانها فى قوة المثبتة كانه قيل يعلمانهم بعد قولهما انما نحن الخ والضمير لاحد حملا على المعنى كما فى قوله تعالى فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴿مايفرقون به﴾ أى بسببه و باستعماله ﴿بين المرء﴾ وقرئ بضم الميم وكسرها مع الهمزة وتشديد الراء بلا همزة ﴿وزوجه﴾ بان يحدث الله تعالى بينهما التباغض والفرك والنشوز عند مافعلوا مافعلوا من السحر على حسب جرى العادة الالهية من خلق المسببات عقيب حصول الاسباب العادية ابتلاء لاأن السحر هو المؤثر فى ذلك وقيل فيتعلمون منهما مايعملون به فيراه الناس و يعتقدون أنه حق فيكفرون فتبين أزواجهم ﴿وماهم بضارين به﴾ أى بما تعلموه واستعملوه من السحر ﴿من أحد﴾ أى أحدا ومن مزيدة لما ذكر فى قوله تعالى وما يعلمان من أحد والمعهود وان كان زيادتها فى معمول فعل منفى الا أنه حملت الاسمية فى ذلك على الفعلية كانه قيل وما يضرون به من أحد ﴿الا باذن الله﴾ لانه وغيره من الاسباب بمعزل من التأثير بالذات وانما هو بأمره تعالى فقد يحدث عند استعمالهم السحر فعلا من أفعاله ابتلاء وقد لايحدثه والاستثناء مفرغ والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من ضمير ضارين أو من مفعوله وان كان نكرة لاعتمادها على النفى أو الضمير المجرور فى به أى وما يضرون به أحدا الا مقرونا باذن الله تعالى وقرئ بضارى على الاضافة بجعل الجار جزأ من المجرور وفصل مابين المضافين بالظرف ﴿ويتعلمون مايضرهم﴾ لانهم يقصدون به العمل أو لان العلم يجر الى العمل غالبا ﴿ولا ينفعهم﴾ صرح بذلك ايذانا بانه ليس من الامور المشوبة بالنفع والضرر بل هو شر بحت وضرر محض لانهم لايقصدون به التخلص عن الاغترار بأكاذيب من يدعى النبوة مثلا من السحرة أو تخليص الناس منه حتى يكون فيه نفع فى الجملة وفيه أن الاجتناب عما لايؤمن غوائله خير كتعلم الفلسفة التى لايؤمن أن تجر الى الغواية وان قال من قال

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

﴿ولقد علموا﴾ أى اليهود الذين حكيت جناياتهم ﴿لمن اشتراه﴾ أى استبدل ماتتلوا الشياطين بكتاب الله عز وجل واللام الاولى جواب قسم محذوف والثانية لام ابتداء علق به علموا عن العمل ومن موصولة فى حيز الرفع بالابتداء واشتراه صلتها وقوله تعالى ﴿ماله فى الآخرة من خلاق﴾ أى من نصيب جملة من مبتدأ وخبر ومن مزيدة فى المبتدا و فى الآخرة متعلق بمحذوف وقع حالا منه ولو أخر عنه لكان صفة له والتقدير ماله خلاق فى الآخرة وهذه الجملة فى محل الرفع على أنها خبر للموصول والجملة فى حيز النصب سادة مسد مفعولى علموا ان جعل متعديا الى اثنين أو مفعوله الواحد ان جعل متعديا الى واحد فجملة ولقد علموا الخ مقسم عليها دون جملة لمن اشتراه الخ هذا ماعليه الجمهور وهو مذهب سيبويه وقال الفراء وتبعه أبو البقاء ان اللام الاخيرة موطئة للقسم ومن شرطية مرفوعة بالابتداء واشتراه خبرها وماله فى الآخرة من خلاق جواب القسم وجواب الشرط محذوف اكتفاء عنه بجواب القسم لانه اذا اجتمع الشرط والقسم يجاب سابقهما غالبا فحينئذ يكون الجملتان مقسما عليهما ﴿ولبئس ماشروا به أنفسهم﴾ أى باعوها واللام جواب قسم محذوف والمخصوص بالذم محذوف أى و بالله لبئسما باعوا به أنفسهم السحر أو الكفر وفيه ايذان بانهم حيث نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم فقد عرضوا أنفسهم للهلكة و باعوها بما لايزيدهم الا تبارا وتجويز كون الشراء بمعنى الاشتراء مما لاسبيل اليه لان المشترى متعين وهو ماتتلوا الشياطين و لان متعلق الذم هو المأخوذ لا المنبوذ كما أشير اليه فى تفسير قوله سبحانه بئسما اشتروا به أنفسهم أن

يكفروا بمـا أنزل الله ﴿لوكانوا يعلمون﴾ أى يعملون بعلمهم جعلوا غير عالمين لعدم عملهم بموجب علمهم أو لو كانوا يتفكرون فيه أو يعلموا قبحه على اليقين أو حقيقة مايتبعه من العذاب عليه على أن المثبت لهم أو لا على التوكيد القسمى العقل الغريزى أو العلم الاجمـالى بقبح الفعل أو ترتب العقاب من غير تحقيق وجواب لو محذوف أى لمـا فعلوا مافعلوا ﴿ولو أنهم آمنوا﴾ أى بالرسول المومى اليه فى قوله تعالى ولمـا جاءهم رسول من عند الله الخ أو بمـا أنزل اليه من الآيات المذكورة فى قوله تعالى ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها الا الفاسقون أو بالتوراة التى أريدت بقوله تعالى نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم فان الكفر بالقرآن والرسول عليه السلام كفر بها ﴿واتقوا﴾ المعاصى المحكية عنهم ﴿لمثوبة من عند الله خير﴾ جواب لو وأصله لأثيبوا مثوبة من عند الله خيرا ممـا شروا به أنفسهم فحذف الفعل وغير السبك الى ماعليه النظم الكريم دلالة على ثبات المثوبة لهم والجزم بخيريتها وحذف المفضل عليه اجلالا للمفضل من أن ينسب اليه وتنكير المثوبة للتقليل ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة تشريفية لمثوبة أى لشىء ما من المثوبة كائنة من عنده تعالى خير وقيل جواب لو محذوف أى لأثيبوا وما بعده جملة مستأنفة فان وقوع الجملة الابتدائية جوابا للو غير معهود فى كلام العرب وقيل لو للتمنى ومعناه أنهم من فظاعة الحال بحيث يتمنى العارف ايمـانهم واتقاءهم تلهفا عليهم وقرىء لمثوبة وانمـا سمى الجزاء ثوابا ومثوبة لان المحسن يثوب اليه ﴿لوكانوا يعلمون﴾ أن ثواب الله خير نسبوا الى الجهل لعدم العمل بموجب العلم ﴿ياأيهـا الذين آمنوا﴾ خطاب للمؤمنين فيه ارشادهم الى الخير واشارة الى بعض آخر من جنايات اليهود ﴿لاتقولوا راعنا﴾ المراعاة المبالغة فى الرعى وهو حفظ الغير وتدبير أموره وتدارك مصالحه وكان المسلمون اذا ألقى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من العلم يقولون راعنا يارسول الله أى راقبنا وانتظرنا وتأن بنا حتى نفهم كلامك ونحفظه وكانت لليهود كلمة عبرانية أو سريانية يتسابون بها فيما بينهم وهى راعينا قيل معناها اسمع لاسمعت فلمـا سمعوا بقول المؤمنين ذلك افترصوه واتخذوه ذريعة الى مقصدهم فجعلوا يخاطبون به النبى صلى الله عليه وسلم يعنون به تلك المسبة أو نسبته صلى الله عليه وسلم الى الرعن وهو الحمق والهوج روى أن سعد بن عبادة رضى الله عنه سمعها منهم فقال ياأعداء الله عليكم لعنة الله والذى نفسى بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأضربن عنقه قالوا أولستم تقولونها فنزلت الآية ونهى فيها المؤمنون عن ذلك قطعا لألسنة اليهود عن التدليس وأمروا بمـا فى معناها ولا يقبل التلبيس فقيل ﴿وقولوا انظرنا﴾ أى انظر الينا بالحذف والايصال أو انتظرنا على أنه من نظره اذا انتظره وقرىء أنظرنا من النظرة أى أمهلنا حتى نحفظ وقرىء راعونا على صيغة الجمع للتوقير وراعنا على صيغة الفاعل أى قولا ذارعن كدارع ولابن لانه لمـا أشبه قولهم راعينا وكان سببا للسب بالرعن اتصف به ﴿واسمعوا﴾ وأحسنوا سماع مايكلمكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلقى عليكم من المسائل بآذان واعية وأذهان حاضرة حتى لاتحتاجوا الى الاستعاذة وطلب المراعاة أو واسمعوا ما كلفتموه من النهى والأمر بجد واعتناء حتى لاترجعوا الى مانهيتم عنه أو واسمعوا سماع طاعة وقبول ولا يكن سماعكم مثل سماع اليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا ﴿وللكافرين﴾ أى اليهود الذين توسلوا بقولكم المذكور الى كفرياتهم وجعلوه سببا للتهاون برسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له ماقالوا ﴿عذاب أليم﴾ لمـا اجترؤا عليه من العظيمة وهو تذييل لمـا سبق فيه وعيد شديد لهم ونوع تحذير للمخاطبين عمـا نهوا عنه ﴿مايود الذين كفروا﴾ الود حب الشىء مع تمنيه ولذلك يستعمل فى كل منهما ونفيه كناية عن الكراهة ووضع الموصول موضع الضمير للاشعار بعلية مافى حيز الصلة لعدم ودهم ولعل تعلقه بمـا قبله من حيث أن القول المنهى عنه كثيرا ما كان يقع عند تنزيل الوحى المعبر عنه فى هذه الآية بالخير فكأنه أشير الى أن سبب تحريفهم له الى

ماحكى عنهم لوقوعه فى أثناء حصول ما يكرهونه من تنزيل الخير وقيل كان فريق من اليهود يظهرون للمؤمنين محبة ويزعمون أنهم يودون لهم الخير فنزلت تكذيبا لهم فى ذلك ومن فى قوله تعالى ﴿من أهل الكتاب ولا المشركين﴾ للتبيين كما فى قوله عز وعلا لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ولا مزيدة لمـا استعرفه ﴿أن ينزل عليكم﴾ فى حيز النصب على أنه مفعول يود وبناء الفعل للمفعول للثقة بتعين الفاعل والتصريح الآتى فى قوله تعالى ﴿من خير﴾ هو القائم مقام فاعله ومن مزيدة للاستغراق والنفى وان لم يباشره ظاهرا لكنه منسحب عليه معنى والخير الوحى وحمله على مايعمه وغيره من العلم والنصرة كما قيل يأباه وصفه فيما سيأتى بالاختصاص وتقديم الظرف عليه مع أن حقه التأخر عنه لاظهار كمال العناية به لانه المدار لعدم ودهم ومن فى قوله تعالى ﴿من ربكم﴾ ابتدائية والتعرض لعنوان الربوبية للاشعار بعليته لتنزيل الخير والاضافة الى ضمير المخاطبين لتشريفهم وليست كراهتهم لتنزيله على المخاطبين من حيث تعبدهم بمـا فيه وتعريضهم بذلك لسعادة الدارين كيف لا وهم من تلك الحيثية من جملة من نزل عليهم الخير بل من حيث وقوع ذلك التنزيل على النبى صلى الله عليه وسلم وصيغة الجمع للايذان بأن مدار كراهتهم ليس معنى خاصا بالنبى صلى الله عليه وسلم بل وصف مشترك بين الكل هو الخلو عن الدراسة عند اليهود وعن الرياسة عند المشركين والمعنى أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يوحى اليهم ويكرهون فيحسدونكم أن ينزل عليكم شىء من الوحى أما اليهود فبناء على أنهم أهل الكتاب وأبناء الانبياء الناشئون فى مهابط الوحى وأنتم أميون وأما المشركون فادلالا بمـا كان لهم من الجاه والمـال زعما منهم أن رياسة الرسالة كسائر الرياسات الدنيوية منوطة بالاسباب الظاهرة ولذلك قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ولمـا كانت اليهود بهذا الداء أشهر لاسيما فى أثناء ذكر ابتلائهم به لم يلزم من نفى ودادتهم لما ذكر نفى ودادة المشركين له فزيدت كلمة لا لتأكيد النفى ﴿والله يختص برحمته﴾ جملة ابتدائية سيقت لتقرير ماسبق من تنزيل الخير والتنبيه على حكمته وارغام الكارهين له والمراد برحمته الوحى كما فى قوله سبحانه أهم يقسمون رحمة ربك عبر عنه باعتبار نزوله على المؤمنين بالخير وباعتبار اضافته اليه تعالى بالرحمة قال على رضى الله عنه بنبوته خص بها محمدا صلى الله عليه وسلم فالفعل متعد وصيغة الافتعال للانباء عن الاصطفاء وايثاره على التنزيل المناسب للسياق الموافق لقوله تعالى أن ينزل الله من فضله على من يشاء لزيادة تشريفه صلى الله عليه وسلم واقناطهم ممـا علقوا به أطماعهم الفارغة والباء داخلة على المقصور أى يؤتى رحمته ﴿من يشاء﴾ من عباده ويجعلها مقصورة عليه لاستحقاقه الذاتى الفائض عليه بحسب ارادته عز وعلا تفضلا لاتعداه الى غيره وقيل الفعل لازم ومن فاعله والضمير العائد الى من محذوف على التقديرين وقوله تعالى ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ تذييل لمـا سبق مقرر لمضمونه وفيه ايذان بأن ايتاء النبوة من فضله العظيم كقوله تعالى ان فضله كان عليك كبيرا وان حرمان من حرم ذلك ليس لضيق ساحة فضله بل لمشيئته الجارية على سنن الحكمة البالغة وتصدير الجملتين بالاسم الجليل للايذان بفخامة مضمونيهما وكون كل منهما مستقلة بشأنها فان الاضمار فى الثانية منبىء عن توقفها على الأولى ﴿ماننسخ من آية أو ننسها﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان سر النسخ الذى هو فرد من أفراد تنزيل الوحى وابطال مقالة الطاعنين فيه أثر تحقيق حقيقة الوحى ورد كلام الكارهين له رأسا قيل نزلت حين قال المشركون أو اليهود ألا ترون الى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه والنسخ فى اللغة الازالة والنقل يقال نسخت الريح الأثر أى أزالته ونسخت الكتاب أى نقلته ونسخ الآية بيان انتهاء التعبد بقراءتها أو بالحكم المستفاد منها أو بهما جميعا وانساؤها اذهابها من القلوب وما شرطية جازمة لننسخ منتصبة به على المفعولية وقرىء ننسخ من أنسخ أى نأمرك أو جبريل بنسخها أو نجدها منسوخة وننسأها من النسء أى نؤخرها وننسها بالتشديد وتنسها

وتنسها على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم مبنيا للفاعل وللمفعول وقرىء ماننسخ من آية أوننسكها وقرىء ماننسك من آية أوننسخها والمعنى أن كل آية نذهب بها على ماتقتضيه الحكمة والمصلحة من ازالةلفظها أوحكمها أو كليهما معاًالى بدل أوالى غير بدل ﴿نأت بخير منها﴾ أى نوع آخر هو خير للعباد بحسب الحال فى النفع والثواب من الذاهبة وقرىء بقلب الهمزة ألفا ﴿أومثلها﴾ أى فيما ذكر من النفع والثواب وهذا الحكم غير مختص بنسخ الآية التامة فما فوقها بل جار فى مادونها أيضا وتخصيصها بالذكر باعتبار الغالب والنص كما ترى دال على جواز النسخ كيف لاوتنزيل الآيات التى عليها يدور فلك الأحكام الشرعية انما هو بحسب مايقتضيه من الحكم والمصالح وذلك يختلف باختلاف الأحوال و يتبدل حسب تبدل الاشخاص والاعصار كاحوال المعاش فرب حكم تقتضيه الحكمة فى حال تقتضى فى حال أخرى نقيضه فلو لم يجز النسخ لاختل مابين الحكمة والأحكام من النظام ﴿ألم تعلم﴾ الهمزة للتقرير كما فى قوله سبحانه أليس الله بكاف عبده وقوله تعالى ألم نشرح لك صدرك والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى ﴿ان الله على كل شىء قدير﴾ ساد مسد مفعولى تعلم عند الجمهور ومسد مفعوله الأول والثانى محذوف عند الأخفش والمراد بهذا التقرير الاستشهاد بعلمه بما ذكر على قدرته تعالى على النسخ وعلى الاتيان بما هو خير من المنسوخ و بماهو مثله لان ذلك من جملة الأشياء المقهورة تحت قدرته سبحانه فمن علم شمول قدرته تعالى لجميع الاشياء علم قدرته على ذلك قطعاً والالتفات بوضع الاسم الجليل موضع الضمير لتربية المهابة والاشعار بمناط الحكم فان شمول القدرة لجميع الاشياء من أحكام الألوهية وكذا الحال فى قوله عز سلطانه ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض﴾ فان عنوان الألوهية مدار أحكام ملكوتهما والجار والمجرور خبر مقدم وملك السموات والأرض مبتدأ والجملة خبر لأن وايثاره على أن يقال ان الله ملك السموات والأرض للقصد الى تقوى الحكم بتكرر الاسناد وهو اما تكرير للتقرير واعادة للاستشهاد على ماذكر وانما لم يعطف أن مع مافى حيزها على ماسبق من مثلها رومآ لزيادة التأكيد واشعارا باستقلال العلم بكل منهما وكفايته فى الوقوف على ماهو المقصود واما تقرير مستقل للاستشهاد على قدرته تعالى على جميع الاشياء أى ألم تعلم أن الله له السلطان القاهر والاستيلاء الباهر المستلزمان للقدرة التامة على التصرف الكلى فيهما ايجادا واعداما وأمراً ونهيا حسبما تقتضيه مشيئته لامعارض لامره ولا معقب لحكمه فمن هذا شأنه كيف يخرج عن قدرته شىء من الاشياء وقوله تعالى ﴿ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير﴾ معطوف على الجملة الواقعة خبرا لان داخل معها تحت تعلق العلم المقرر وفيه اشارة الى تناول الخطابين السابقين للامة أيضا وانما افراده عليه السلام بهما لما أن علومهم مستندة الى علمه عليه السلام ووضع الاسم الجليل موضع الضمير الراجع الى اسم أن لتربية المهابة والايذان بمقارنة الولاية والنصرة للقوة والعزة والمراد به الاستشهاد بما تعلق به من العلم على تعلق ارادته تعالى بما ذكر من الاتيان بما هو خير من المنسوخ أو بمثله فان مجرد قدرته تعالى على ذلك لايستدعى حصوله البتة وانما الذى يستدعيه كونه تعالى مع ذلك وليا ونصيراً لهم فمن علم أنه تعالى وليه ونصيره على الاستقلال يعلم قطعا أنه لايفعل به الا ماهو خير له فيفوض أمره اليه تعالى ولا يخطر بباله ريبة فى أمر النسخ وغيره أصلا والفرق بين الولى والنصير أن الولى قد يضعف عن النصرة والنصير قد يكون أجنبيا من المنصور وما اما تميمية لاعمل لها ولكم خبر مقدم ومن ولى مبتدأ مؤخر زيدت فيه كلمة من للاستغراق واما حجازية ولكم خبرها المنصوب عند من يجيز تقديمه واسمها من ولى ومن مزيدة لما ذكر ومن دون الله فى حيز النصب على الحالية من اسمها لأنه فى الأصل صفة له فلما قدم انتصب حالا ومعناه سوى الله والمعنى أن قضية العلم بما ذكر من الأمور الثلاثة هو الجزم والايقان بأنه تعالى لايفعل بهم فى أمر من أمور دينهم أودنياهم الا ماهو خير

لهم والعمل بموجبه من الثقة به والتوكل عليه وتفويض الأمر اليه من غير اصغاء الى أقاويل الكفرة وتشكيكاتهم التى من جملتها ماقالوا فى أمر النسخ وقوله تعالى ﴿أم تريدون﴾ تجريد للخطاب عن النبي صلى الله عليه وسلم وتخصيص له بالمؤمنين وأم منقطعة ومعنى بل فيها الاضراب والانتقال من حملهم على العمل بموجب علمهم بماذكر عند ظهور بعض مخايل المساهلة منهم فى ذلك وأمارات التأثر من أقاويل الكفرة الى التحذير من ذلك ومعنى الهمزة انكار وقوع الارادة منهم واستبعاده لما أن قضية الايمان وازعة عنها وتوجيه الانكار الى الارادة دون متعلقها للمبالغة فى انكاره واستبعاده ببيان أنه مما لايصدر عن العاقل ارادته فضلا عن صدوره نفسه والمعنى بل أتريدون ﴿أن تسألوا﴾ وأنتم مؤمنون ﴿رسولكم﴾ وهو فى تلك الرتبة من علو الشأن وتقترحوا عليه ماتشتهون غير واثقين فى أموركم بفضل الله تعالى حسبما يوجبه قضية علمكم بشؤنه سبحانه قيل لعلهم كانوا يطلبون منه عليه الصلاة والسلام بيان تفاصيل الحكم الداعية الى النسخ وقيل سأله عليه السلام قوم من المسلمين أن يجعل لهم ذات أنواط كما كانت للمشركين وهى شجرة كانوا يعبدونها و يعلقون عليها المأكول والمشروب وقوله تعالى ﴿كما سئل موسى﴾ مصدر تشبيهى أى نعت لمصدر مؤكد محذوف وما مصدرية أى سؤالا مشبها بسؤال موسى عليه السلام حيث قيل له اجعل لنا الها وأرنا الله جهرة وغير ذلك ومقتضى الظاهر أن يقال كما سألوا موسى لأن المشبه هو المصدر من المبنى للفاعل أعنى سائليه المخاطبين لامن المبنى للمفعول أعنى مسئولية الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يشبه بمسئولية موسى عليه السلام فلعله أريد التشبيه فيهما معا ولكنه أوجز النظم فذكر فى جانب المشبه السائلية وفى جانب المشبه به المسئولية واكتفى بماذكر فى كل موضع عما ترك فى الموضع الآخر كما ذكر فى قوله تعالى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله وقد جوز أن تكون ماموصولة على أن العائد محذوف أى كالسؤال الذى سئله موسى عليه السلام وقوله تعالى ﴿من قبل﴾ متعلق بسئل جىء به للتأكيد وقرىء سيل بالياء و كسر السين و بتسهيل الهمزة بين بين ﴿ومن يتبدل الكفر﴾ أى يختره و يأخذه لنفسه ﴿بالايمان﴾ بمقابلته بدلا منه وقرىء ومن يبدل من أبدل وكان مقتضى الظاهر أن يقال ومن يفعل ذلك أى السؤال المذكور أو ارادته وحاصله ومن يترك الثقة بالآيات البينة المنزلة بحسب المصالح التى من جملتها الآيات الناسخة التى هى خير محض وحق بحت واقترح غيرها ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ أى عدل وجار من حيث لايدرى عن الطريق المستقيم الموصل الى معالم الحق والهدى وتاه فى تيه الهوى وتردى فى مهاوى الردى وانما أوثر على ذلك ماعليه النظم الكريم للتصريح من أول الأمر بأنه كفر وارتداد وأن كونه كذلك أمر واضح غنى عن الاخبار به بأن يقال ومن يفعل ذلك يكفر حقيق بأن يعد من المسلمات و يجعل مقدما للشرطية روما للمبالغة فى الزجر والافراط فى الردع وسواء السبيل من باب اضافة الوصف الى الموصوف لقصد المبالغة فى بيان قوة الاتصاف كأنه نفس السواء على منهاج حصول الصورة فى الصورة الحاصلة وقيل الخطاب لليهود حين سألوا أن ينزل الله عليهم كتابا من السماء وقيل للمشركين حين قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا الخ فاضافة الرسول صلى الله عليه وسلم اليهم على القولين باعتبار أنهم من أمة الدعوة ومعنى تبدل الكفر بالايمان وهم بمعزل من الايمان ترك صرف قدرتهم اليه مع تمكنهم من ذلك وايثارهم للكفر عليه ﴿ودكثير من أهل الكتاب﴾ هم رهط من أحبار اليهود. روى أن فنحاص بن عازوراء و زيد بن قيس ونفرا من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر رضى الله عنهما بعد وقعة أحد ألم تروا ما أصابكم ولو كنتم على الحق ماهزمتم فارجعوا الى ديننا فهو خير لكم وأفضل ونحن أهدى منكم سبيلا فقال عمار كيف نقض العهد فيكم قالوا شديد قال فانى عاهدت أن لا أكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام ماعشت فقالت اليهود أما هذا فقد صبأ وقال حذيفة أما أنا

فقد رضيت بالله ربا و بمحمد نبيا و بالاسلام دينا و بالقرآن اماما و بالكعبة قبلة و بالمؤمنين اخوانا ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبراه فقال أصبتما خيرا وأفلحتما فنزلت ﴿لو يردونكم﴾ حكاية لودادتهم ولو فى معنى التمنى وصيغة الغيبة كما فى قوله حلف ليفعلن وقيل هى بمنزلة أن الناصبة فلا يكون لها جواب و ينسبك منها ومما بعدها مصدر يقع مفعولا لودوا التقدير ودوا ردكم وقيل هى على حقيقتها وجوابها محذوف تقديره لو يردونكم كفارا لسروا بذلك و﴿من بعد ايمانكم﴾ متعلق بيردونكم وقوله تعالى ﴿كفاراً﴾ مفعول ثان له على تضمين الرد معنى التصيير أى يصيرونكم كفارا كما فى قوله

رمى الحدثان نسوة آل سعد بمقدار سمدن له سمودا
فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا

وقيل هو حال من مفعوله والاول أدخل لما فيه من الدلالة صريحا على كون الكفر المفروض بطريق القسر وايراد الظرف مع عدم الحاجة اليه ضرورة كون المخاطبين مؤمنين واستحالة تحقق الرد الى الكفر بدون سبق الايمان مع توسيطه بين المفعولين لاظهار كمال شناعة ماأرادوه وغاية بعده من الوقوع اما لزيادة قبحه الصارف للعاقل عن مباشرته واما للممانعة الايمان له كأنه قيل من بعد ايمانكم الراسخ وفيه من تثبيت المؤمنين مالا يخفى ﴿حسدا﴾ علة لود أو حال أريد به نعت الجمع أى حاسدين لكم والحسد الاسف على من له خير بخيره ﴿من عند أنفسهم﴾ متعلق بود أى ودوا ذلك من أجل تشهيهم وحظوظ أنفسهم لا من قبل التدين والميل مع الحق ولو على زعمهم أو بحسدا أى حسدا منبعثا من أصل نفوسهم بالغا أقصى مراتبه ﴿من بعد ماتبين لهم الحق﴾ بالمعجزات الساطعة و بما عاينوا فى التوراة من الدلائل وعلموا أنكم متمسكون به وهم منهمكون فى الباطل ﴿فاعفوا واصفحوا﴾ العفو ترك المؤاخذة والعقوبة والصفح ترك التثريب والتأنيب ﴿حتى يأتى الله بأمره﴾ الذى هو قتل بنى قريظة واجلاء بنى النضير واذلالهم بضرب الجزية عليهم أو الاذن فى القتال وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه منسوخ بآية السيف و لا يقدح فى ذلك ضرب الغاية لانها لاتعلم الا شرعا و لا يخرج الوارد بذلك من أن يكون ناسخا كأنه قيل فاعفوا واصفحوا الى ورود الناسخ ﴿ان الله على كل شىء قدير﴾ فينتقم منهم اذا حان حينه وآن أوانه فهو تعليل لما دل عليه ماقبله ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ عطف على فاعفوا أمروا بالصبر والمداراة واللجأ الى الله تعالى بالعبادة البدنية والمالية ﴿وماتقدموا لأنفسكم من خير﴾ كصلاة أو صدقة أو غير ذلك أى أى شىء من الخيرات تقدموه لمصلحة أنفسكم ﴿تجدوه عند الله﴾ أى تجدوا ثوابه وقرىء تقدموا من أقدم ﴿ان الله بما تعملون بصير﴾ فلا يضيع عنده عمل فهو وعد للمؤمنين وقرىء بالياء فهو وعيد للكافرين ﴿وقالوا﴾ عطف على ود والضمير لاهل الكتابين جميعا ﴿لن يدخل الجنة الا من كان هودا أونصارى﴾ أى قالت اليهود لن يدخل الجنة الا من كان هودا وقالت النصارى لن يدخل الجنة الا من كان نصارى فلف بين القولين ثقة أن السامع يرد كلا منهما الى قائله ونحوه وقالوا كونوا هودا أونصارى تهتدوا وليس مرادهم بأولئك من أقام اليهودية والنصرانية قبل النسخ والتحريف على وجهها بل أنفسهم على ماهم عليه لانهم انما يقرلونه لاضلال المؤمنين وردهم الى الكفر والهود جمع هائد كعوذ جمع عائذ و بزل جمع بازل والافراد فى كان باعتبار لفظ من والجمع فى خبره باعتبار معناه وقرىء الا من كان يهوديا أونصرانيا ﴿تلك أمانيهم﴾ الأمانى جمع أمنية وهى مايتمنى كالأعجوبة والأضحوكة والجملة معترضة مبينة لبطلان ماقالوا وتلك اشارة اليه والجمع باعتبار صدوره عن الجميع وقيل فيه حذف مضاف أى أمثال تلك الأمنية أمانيهم وقيل تلك اشارة اليه والى ماقبله من أن لاينزل على المؤمنين خير من ربهم وأن يردهم كفارا ويرده قوله تعالى ﴿قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين﴾ فانهما ليسا مما يطلب له البرهان و لا مما يحتمل

الصدق والكذب قيل هاتوا أصله آتوا قلبت الهمزة هاء أى أحضروا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة ان كنتم صادقين فى دعواكم . هذا ما يقتضيه المقام بحسب النظر الجليل والذى يستدعيه اعجاز التنزيل أن يحمل الأمر التبكيتى على طلب البرهان على أصل الدخول الذى يتضمنه دعوى الاختصاص به فان قوله تعالى ﴿بلى﴾ الخ اثبات من جهته تعالى لما نفوه مستلزم لنفى ماأثبتوه واذ ليس الثابت به مجرد دخول غيرهم الجنة و لو معهم ليكون المنفى مجرد اختصاصهم به مع بقاء أصل الدخول على حاله بل هو اختصاص غيرهم بالدخول كما ستعرفه باذن الله تعالى ظهر أن المنفى أصل دخولهم ومن ضرورته أن يكون هو الذى كلفوا اقامة البرهان عليه لا اختصاصهم به ليتحد مورد الاثبات والنفى وانما عدل عن ابطال صريح ماادعوه وسلك هذا المسلك ابانة لغاية حرمانهم مما علقوا به أطماعهم واظهاراً لكمال عجزهم عن اثبات مدعاهم لان حرمانهم من الاختصاص بالدخول وعجزهم عن اقامة البرهان عليه لا يقتضيان حرمانهم من أصل الدخول وعجزهم عن اثباته وأما نفس الدخول فحيث ثبت حرمانهم منه وعجزهم عن اثباته فهم من الاختصاص به أبعد وعن اثباته أعجز وانما الفائز به من انتظمه قوله سبحانه ﴿من أسلم وجهه لله﴾ أى أخلص نفسه له تعالى لايشرك به شيئاً عبر عنها بالوجه لأنه أشرف الاعضاء ومجمع المشاعر وموضع السجود ومظهر آثار الخضوع الذى هو من أخص خصائص الاخلاص أو توجهه وقصده بحيث لايلوى عزيمته الى شىء غيره ﴿وهو محسن﴾ حال من ضمير أسلم أى والحال أنه محسن فى جميع أعماله التى من جملتها الاسلام المذكور وحقيقة الاحسان الاتيان بالعمل على الوجه اللائق و هو حسنه الوصفى التابع لحسنه الذاتى وقد فسره صلى الله عليه وسلم بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ﴿فله أجره﴾ الذى وعده على عمله وهو عبارة عن دخول الجنة أو عما يدخل هو فيه دخولا أوليا وأياما كان فتصويره بصورة الأجر للايذان بقوة ارتباطه بالعمل واستحالة نيله بدونه وقوله تعالى ﴿عند ربه﴾ حال من أجره والعامل فيه معنى الاستقرار فى الظرف والعندية للتشريف ووضع اسم الرب مضافا الى ضمير من أسلم موضع ضمير الجلالة لاظهار مزيد اللطف به وتقرير مضمون الجملة أى فله أجره عند مالكه ومدبر أموره ومبلغه الى كماله والجملة جواب من ان كانت شرطية وخبرها ان كانت موصولة والفاء لتضمنها معنى الشرط فيكون الرد بقوله تعالى بلى وحده ويجوز أن يكون من فاعلا لفعل مقدر أى بلى يدخلها من أسلم وقوله تعالى فله أجره معطوف على ذلك المقدر وأياما كان فتعليق ثبوت الأجر بما ذكر من الاسلام والاحسان المختصين بأهل الايمان قاض بأن أولئك المدعين من دخول الجنة بمعزل ومن الاختصاص به بألف منزل ﴿ولا خوف عليهم﴾ فى الدارين من لحوق مكروه ﴿ولا هم يحزنون﴾ من فوات مطلوب أى لا يعتريهم مايوجب ذلك لا أنه يعتريهم لكنهم لايخافون و لايحزنون والجمع فى الضمائر الثلاثة باعتبار معنى من كما أن الافراد فى الضمائر الأول باعتبار اللفظ ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شىء﴾ بيان لتضليل كل فريق صاحبه بخصوصه اثر بيان تضليله كل من عداه على وجه العموم . نزلت لما قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاهم أحبار اليهود فتناظروا فارتفعت أصواتهم فقالوا لهم لستم على شىء أى أمر يعتد به من الدين أو على شىء ما منه أصلا مبالغة فى ذلك كما قالوا أقل من لا شىء وكفروا بعيسى والانجيل ﴿وقالت النصارى ليست اليهود على شىء﴾ على الوجه المذكور وكفروا بموسى والتوراة لأنهم قالوا ذلك بناء للامر على منسوخية التوراة ﴿وهم يتلون الكتاب﴾ الواو للحال واللام للجنس أى قالوا ماقالوا والحال ان كل فريق منهم من أهل العلم والكتاب أى كان حق كل منهم أن يعترف بحقية دين صاحبه حسبما ينطق به كتابه فان كتب الله تعالى متصادقة ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك الذى سمعت به والكاف فى محل النصب اما على أنها نعت لمصدر محذوف قدم على عامله لافادة القصر أى قولا مثل ذلك القول

بعينه لاقولا مغايرا له ﴿قال الذين لايعلمون﴾ من عبدة الاصنام والمعطلة ونحوهم من الجهلة أى قالوا لاهل كل دين ليسوا على شئ واما على أنها حال من المصدر المضمر المعرف الدال عليه قال أى قال القول الذين لايعلمون حال كونه مثل ذلك القول الذى سمعت به ﴿مثل قولهم﴾ اما بدل من محل الكاف واما مفعول للفعل المنفى قبله أى مثل ذلك القول قال الجاهلون بمثل مقالة اليهود والنصارى وهذا توبيخ عظيم لهم حيث نظموا أنفسهم مع علمهم فى سلك من لايعلم أصلا ﴿فالله يحكم بينهم﴾ أى بين اليهود والنصارى فان مساق النظم لبيان حالهم وانما التعرض لمقالة غيرهم لاظهار كمال بطلان مقالهم و لان المحاجة المحوجة الى الحكم انما وقعت بينهم ﴿يوم القيامة﴾ متعلق بيحكم وكذا ماقبله وما بعده ولا ضير فيه لاختلاف المعنى ﴿فيما كانوا فيه يختلفون﴾ بمايقسم لكل فريق مايليق به من العقاب وقيل حكمه بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار والظرف الاخير متعلق بيختلفون قدم عليه للمحافظة على رؤس الآى لا بكانوا ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله﴾ انكار واستبعاد لان يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أو مساويا له وان لم يكن سبك التركيب متعرضا لانكار المساواة ونفيها يشهد به العرف الفاشى والاستعمال المطرد فاذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل من فلان فالمراد به حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل وهذا الحكم عام لكل من فعل ذلك فى أى مسجد كان وان كان سبب النزول فعل طائفة معينة فى مسجد مخصوص. روى أن النصارى كانوا يطرحون فى بيت المقدس الاذى ويمنعون الناس أن يصلوا فيه وأن الروم غزوا أهله فخربوه وأحرقوا التوراة وقتلوا وسبوا وقد نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أن طيطيوس الرومى ملك النصارى وأصحابه غزوا بنى اسرائيل وقتلوا مقاتلتهم وسبوا ذراريهم وأحرقوا التوراة وخربوا بيت المقدس وقذفوا فيه الجيف وذبحوا فيه الخنازير ولم يزل خرابا حتى بناه المسلمون فى عهد عمر رضى الله عنه وانما أوقع المنع على المساجد وان كان الممنوع هو الناس لما أن فعلهم من طرح الاذى والتخريب ونحوهما متعلق بالمسجد لا بالناس مع كونه على حاله وتعلق الآية الكريمة بما قبلها من حيث أنها مبطلة لدعوى النصارى اختصاصهم بدخول الجنة وقيل هو منع المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية فتعلقها بما تقدمها من جهة أن المشركين من جملة الجاهلين القائلين لكل من عداهم ليسوا على شئ ﴿أن يذكر فيها اسمه﴾ ثانى مفعولى منع كقوله تعالى وما منع الناس أن يؤمنوا وقوله تعالى وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون ويجوز أن يكون ذلك بحذف الجار مع أن وأن يكون ذلك مفعولا له أى كراهة أن يذكر فيها اسمه ﴿وسعى فى خرابها﴾ بالهدم أو التعطيل بانقطاع الذكر ﴿أولئك﴾ المانعون الظالمون الساعون فى خرابها ﴿ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين﴾ أى ما كان ينبغى لهم أن يدخلوها الا بخشية وخضوع فضلا عن الاجتراء على تخريبها أو تعطيلها أو ما كان الحق أن يدخلوها الا على حال التهيب وارتعاد الفرائص من جهة المؤمنين أن يبطشوا بهم فضلا أن يستولوا عليها و يلوها ويمنعوهم منها أو ما كان لهم فى علم الله تعالى وقضائه بالآخرة الا ذلك فيكون وعدا للمؤمنين بالنصرة واستخلاص ما استولوا عليه منهم وقد أنجز الوعد ولله الحمد. روى أنه لايدخل بيت المقدس أحد من النصارى الا متنكرا مسارقة وقيل معناه النهى عن تمكينهم من الدخول فى المسجد واختلف الائمة فى ذلك فجوزه أبو حنيفة مطلقا ومنعه مالك مطلقا وفرق الشافعى بين المسجد الحرام وغيره ﴿لهم﴾ أى لأولئك المذكورين ﴿فى الدنيا خزى﴾ أى خزى فظيع لا يوصف بالقتل والسبى والاذلال بضرب الجزية عليهم ﴿ولهم فى الآخرة عذاب عظيم﴾ وهو عذاب النار لما أن سببه أيضا وهو ماحكى من ظلمهم كذلك فى العظم وتقديم الظرف فى الموضعين للتشويق الى مايذكر بعده من الخزى والعذاب لما مر من أن تأخير ماحقه التقديم موجب لتوجه النفس اليه فيتمكن فيها عند وروده فضل تمكن كما فى

قوله تعالى ألم نشرح لك صدرك وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج الى غير ذلك ﴿ولله المشرق والمغرب﴾ أى له كل الارض التى هى عبارة عن ناحيتى المشرق والمغرب لايختص به من حيث الملك والتصرف ومن حيث المحلية لعبادته مكان منها دون مكان فان منعتم من اقامة العبادة فى المسجد الاقصى أو المسجد الحرام ﴿فأينما تولوا﴾ أى ففى أى مكان فعلتم تولية وجوهكم شطر القبلة ﴿فثم وجه الله﴾ ثم اسم اشارة للمكان البعيد خاصة مبنى على الفتح ولا يتصرف سوى الجر بمن وهو خبر مقدم و وجه الله مبتدأ والجملة فى محل الجزم على أنها جواب الشرط أى هناك جهته التى أمر بها فان امكان التولية غير مختص بمسجد دون مسجد أو مكان دون آخر أو فثم ذاته بمعنى الحضور العلمى أى فهو عالم بما يفعل فيه ومثيب لكم على ذلك وقرئ بفتح التاء واللام أى فأينما توجهوا القبلة ﴿ان الله واسع﴾ باحاطته بالاشياء أو برحمته يريد التوسعة على عباده ﴿عليم﴾ بمصالحهم وأعمالهم فى الاماكن كلها والجملة تعليل لمضمون الشرطية وعن ابن عمر رضى الله عنهما نزلت فى صلاة المسافرين على الراحلة أينما توجهوا وقيل فى قوم عميت عليهم القبلة فصلوا الى أنحاء مختلفة فلما أصبحوا تبينوا خطأهم وعلى هذا لو أخطأ المجتهد ثم تبين له الخطأ لم يلزمه التدارك وقيل هى توطئة لنسخ القبلة وتنزيه للمعبود عن أن يكون فى جهة ﴿وقالوا اتخذ الله ولدا﴾ حكاية لطرف آخر من مقالاتهم الباطلة المحكية فيما سلف معطوفة على ماقبلها من قوله تعالى وقالت الخ لا على صلة من لما بينهما من الجمل الكثيرة الاجنبية والضمير لليهود والنصارى ومن شاركهم فيما قالوا من الذين لايعلمون وقرئ بغير واو على الاستئناف نزلت حين قالت اليهود عزير ابن الله والنصارى المسيح ابن الله ومشركو العرب الملائكة بنات الله والاتخاذ اما بمعنى الصنع والعمل فلا يتعدى الا الى واحد واما بمعنى التصيير والمفعول الاول محذوف أى صير بعض مخلوقاته ولدا ﴿سبحانه﴾ تنزيه وتبرئة له تعالى عما قالوا وسبحان علم للتسبيح كعثمان للرجل وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه أى أسبح سبحانه أى أنزهه تنزيها لائقا به وفيه من التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من السبح الذى هو الذهاب والابعاد فى الارض ومن جهة النقل الى التفعيل ومن جهة العدول الى المصدر الى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما العلم المشير الى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة اقامته مقام المصدر مع الفعل مالا يخفى وقيل هو مصدر كغفران بمعنى التنزه أى تنزه بذاته تنزها حقيقا به ففيه مبالغة من حيث اسناد البراءة الى الذات المقدسة وان كان التنزيه اعتقاد نزاهته تعالى عما لا يليق به لا اثباتها له تعالى وقوله تعالى ﴿بل له ما فى السموات والارض﴾ رد لما زعموا وتنبيه على بطلانه وكلمة بل للاضراب عما تقتضيه مقالتهم الباطلة من مجانسته سبحانه وتعالى لشئ من المخلوقات ومن سرعة فنائه المحوجة الى اتخاذ مايقوم مقامه فان مجرد الامكان والفناء لايوجب ذلك. ألا يرى أن الاجرام الفلكية مع امكانها وفنائها بالآخرة مستغنية بدوامها وطول بقائها عما يجرى مجرى الولد من الحيوان أى ليس الامر كما زعموا بل هو خالق جميع الموجودات التى من جملتها عزير والمسيح والملائكة ﴿كل﴾ التنوين عوض عن المضاف اليه أى كل مافيهما كائنا ماكان من أولى العلم وغيرهم ﴿له قانتون﴾ منقادون لايستعصى شئ منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته ومن كان هذا شأنه لم يتصور مجانسته لشئ ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد وانما جئ بما المختصة بغير أولى العلم تحقيرا لشأنهم وايذانا بكمال بعدهم عما نسبوا الى بعض منهم وصيغة جمع العقلاء فى قانتون للتغليب أو كل من جعلوه لله تعالى ولدا له قانتون أى مطيعون عابدون له معترفون بربوبيته تعالى كقوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ﴿بديع السموات والارض﴾ أى مبدعهما ومخترعهما بلا مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه فان البديع كما يطلق على المبتدع يطلق على المبتدع نص عليه أساطين أهل اللغة وقد جاء بدعه كمنعه بمعنى أنشأه كابتدعه كما ذكر فى القاموس وغيره

ونظيره السميع بمعنى المسمع فى قوله أمن ريحانة الداعى السميع وقيل هو من اضافة الصفة المشبهة الى فاعلها للتخفيف بعد
نصبه على تشبيهها باسم الفاعل كما هو المشهور أى بديع سمواته من بدع اذا كان على شكل فائق وحسن رائق وهو حجة أخرى
لابطال مقالتهم الشنعاء تقريرها أن الوالد عنصر الولد المنفعل بانفصال مادته عنه والله سبحانه مبدع الاشياء كلها
على الاطلاق منزه عن الانفعال فلا يكون والدا و رفعه على أنه خبر لمبتدا محذوف أى هو بديع الخ وقرئ بالنصب على المدح
و بالجر على أنه بدل من الضمير فى له على رأى من يجوز الابدال من الضمير المجرور كما فى قوله على جوده لضن بالماء حاتم
﴿واذا قضى أمرا﴾ أى أراد شيئاً كقوله تعالى انما أمره اذا أراد شيئاً وأصل القضاء الاحكام أطلق على
الارادة الالهية المتعلقة بوجود الشئ لايجابها اياه البتة وقيل الامر ومنه قوله تعالى وقضى ربك الخ ﴿فانما يقول
له كن فيكون﴾ كلاهما من الكون التام أى احدث فيحدث وليس المراد به حقيقة الامر والامتثال وانما هو تمثيل
لسهولة تأتى المقدورات بحسب تعلق مشيئته تعالى وتصوير لسرعة حدوثها بما هو علم فى الباب من طاعة المأمور
المطيع للآمر القوى المطاع وفيه تقرير لمعنى الابداع وتلويح لحجة أخرى لابطال مازعموه بأن اتخاذ الولد شأن من
يفتقر فى تحصيل مراده الى مباد يستدعى ترتيبها مرور زمان وتبدل أطوار وفعله تعالى متعال عن ذلك ﴿وقال الذين
لايعلمون﴾ حكاية لنوع آخر من قبائحهم وهو قدحهم فى أمر النبوة بعد حكاية قدحهم فى شأن التوحيد بنسبة الولد
اليه سبحانه وتعالى واختلف فى هؤلاء القائلين فقال ابن عباس رضى الله عنهما هم اليهود وقال مجاهد هم النصارى
و وصفهم بعدم العلم لعدم علمهم بالتوحيد والنبوة كما ينبغى أو لعدم علمهم بموجب عملهم أو لان مايحكى عنهم لا يصدر
عمن له شائبة علم أصلا وقال قتادة وأكثر أهل التفسير هم مشركو العرب لقوله تعالى فليأتنا بآية كما أرسل الاولون وقالوا
لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴿لولا يكلمنا الله﴾ أى هلا يكلمنا بلا واسطة أمرا ونهيا كما يكلم الملائكة أو
هلا يكلمنا تنصيصا على نبوتك ﴿أو تأتينا آية﴾ حجة تدل على صدقك بلغوا من العتو والاستكبار الى حيث أملوا
نيل مرتبة المفاوضة الالهية من غير توسط الرسول والملك ومن العناد والمكابرة الى حيث لم يعدوا ما آتاهم من البينات
الباهرة التى تخر لها صم الجبال من قبيل الآيات قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿كذلك﴾ مثل ذلك القول الشنيع الصادر
عن العناد والفساد ﴿قال الذين من قبلهم﴾ من الامم الماضية ﴿مثل قولهم﴾ هذا الباطل الشنيع فقالوا أرنا الله
جهرة وقالوا لن نصبر على طعام واحد الآية وقالوا هل يستطيع ربك الخ وقالوا اجعل لنا الها الخ ﴿تشابهت قلوبهم﴾
أى قلوب هؤلاء وأولئك فى العمى والعناد والا لما تشابهت اقاويلهم الباطلة ﴿قد بينا الآيات﴾ أى نزلناها بينة بأن
جعلناها كذلك فى أنفسها كما فى قولهم سبحان من صغر البعوض و كبر الفيل لا أنا بيناها بعد أن لم تكن بينة ﴿لقوم
يوقنون﴾ أى يطلبون اليقين و يوقنون بالحقائق لا يعتريهم شبهة و لا ريبة وهذا رد لطلبهم الآية وفى تعريف الآيات
وجمعها وايراد التبيين المفصح عن كمال التوضيح مكان الاتيان الذى طلبوه مالايخفى من الجزالة والمعنى أنهم اقترحوا آية
فذة ونحن قد بينا الآيات العظام لقوم يطلبون الحق واليقين وانما لم يتعرض لرد قولهم لولا يكلمنا الله ايذانا بأنه من
ظهور البطلان بحيث لا حاجة له الى الرد والجواب ﴿انا أرسلناك بالحق﴾ أى ملتبسا بالقرآن كما فى قوله تعالى بل كذبوا
بالحق لما جاءهم أو بالصدق كما فى قوله تعالى أحق هو وقوله تعالى ﴿بشيرا ونذيرا﴾ حال من المفعول باعتبار تقييده
بالحال الاولى أى أرسلناك ملتبسا بالقرآن حال كونك بشيرا لمن آمن بما أنزل عليك وعمل به ونذيرا لمن كفر به أو
أرسلناك صادقا حال كونك بشيرا لمن صدقك بالثواب ونذيرا لمن كذبك بالعذاب ليختاروا لأنفسهم ما أحبوا لا قاسر
لهم على الايمان فلا عليك ان أصروا وكابروا ﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ مالهم لم يؤمنوا بعد مابلغت ما أرسلت

به وقرئ لن تسأل وماتسأل وقرئ لاتسأل على صيغة النهى ايذانا بكمال شدة عقوبة الكفار وتهويلا لها كأنها لغاية
فظاعتها لايقدر المخبر على اجرائها على لسانه أو لا يستطيع السامع أن يسمع خبرها وحمله على نهى النبى صلى الله عليه
وسلم عن السؤال عن حال أبويه مما لا يساعده النظم الكريم والجحيم المتأجج من النار و فى التعبير عنهم بصاحبية الجحيم
دون الكفر والتكذيب ونحوهما وعيد شديد لهم وايذان بأنهم مطبوع عليهم لايرجى منهم الايمان قطعا وقوله تعالى
﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ بيان لكمال شدة شكيمة هاتين الطائفتين خاصة اثر بيان
مايعمهما والمشركين من الاصرار على ماهم عليه الى الموت وايراد لا النافية بين المعطوفين لتأكيد النفى لما مر من أن
تصلب اليهود فى أمثال هذه العظائم أشد من النصارى والاشعار بأن رضى كل منهما مباين لرضى الاخرى أى لن ترضى
عنك اليهود ولو خليتهم وشأنهم حتى تتبع ملتهم و لا النصارى و لو تركتهم ودينهم حتى تتبع ملتهم فأوجز النظم ثقة بظهور
المراد وفيه من المبالغة فى اقناطه صلى الله عليه وسلم من اسلامهم مالاغاية وراءه فانهم حيث لم يرضوا عنه عليه السلام
ولو خلاهم يفعلون مايفعلون بل أملوا منه صلى الله عليه وسلم مالا يكاد يدخل تحت الامكان من اتباعه عليه السلام لملتهم
فكيف يتوهم اتباعهم لملته عليه السلام وهذه حالتهم فى أنفسهم ومقالتهم فيما بينهم وأما انهم أظهروها للنبى صلى الله عليه
وسلم وشافهوه بذلك وقالوا لن نرضى عنك وان بالغت فى طلب رضانا حتى تتبع ملتنا كما قيل فلا يساعده النظم الكريم
بل فيه مايدل على خلافه فان قوله عز وجل ﴿قل ان هدى الله هو الهدى﴾ صريح فى أن ماوقع هذا جوابا عنه ليس
عين تلك العبارة بل مايستلزم مضمونها أو يلزمه من الدعوة الى اليهودية والنصرانية وادعاء أن الاهتداء فيهما كقوله عز
وجل حكاية عنهم كونوا هودا أو نصارى تهتدوا أى قل ردا عليهم ان هدى الله الذى هو الاسلام هو الهدى بالحق والذى
يحق و يصح أن يسمى هدى وهو الهدى كله ليس وراءه هدى وماتدعون اليه ليس بهدى بل هو هوى كما يعرب عنه
قوله تعالى ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ أى آراءهم الزائغة الصادرة عنهم بقضية شهوات أنفسهم وهى التى عبر عنها فيما
قبل بملتهم اذهى التى ينتمون اليها وأما ماشرعه الله تعالى لهم من الشريعة على لسان الانبياء عليهم الصلاة والسلام وهو
المعنى الحقيق للملة فقد غيروها تغييرا ﴿بعد الذى جاءك من العلم﴾ أى الوحى أو الدين المعلوم صحته ﴿مالك من الله﴾
من جهته العزيزة ﴿من ولى﴾ يلى أمرك عموما ﴿ولا نصير﴾ يدفع عنك عقابه وحيث لم يستلزم نفى الولى نفى
النصير وسط لا بين المعطوفين لتأكيد النفى وهذا من باب التهييج والالهاب والافانى يتوهم امكان اتباعه عليه السلام
لملتهم وهو جواب للقسم الذى وطأه اللام واكتفى به عن جواب الشرط ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ هم مؤمنو أهل
الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه ﴿يتلونه حق تلاوته﴾ بمراعاة لفظه عن التحريف و بالتدبر فى معانيه والعمل
بما فيه وهو حال مقدرة والخبر مابعده أو خبر ومابعده مقرر له ﴿أولئك﴾ اشارة الى الموصوفين بايتاء الكتاب
وتلاوته كما هو حقه ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الفضل ﴿يؤمنون به﴾ أى بكتابهم دون المحرفين
فانهم بمعزل من الايمان به فانه لايجامع الكفر ببعض منه ﴿ومن يكفر به﴾ بالتحريف والكفر بما يصدقه
﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ حيث اشتروا الكفر بالايمان ﴿يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم﴾
ومن جملتها التوراة وذكر النعمة انما يكون بشكرها وشكرها الايمان بجميع مافيها ومن جملته نعت النبى صلى الله عليه
وسلم ومن ضرورة الايمان بها الايمان به عليه الصلاة والسلام ﴿وأنى فضلتكم على العالمين﴾ أفردت هذه النعمة
بالذكر مع كونها مندرجة تحت النعمة السالفة لانافتها فيما بين فنون النعم ﴿واتقوا﴾ ان لم تؤمنوا ﴿يوما لاتجزى﴾
فى ذلك اليوم ﴿نفس﴾ من النفوس ﴿عن نفس﴾ أخرى ﴿شيئاً﴾ من الاشياء أو شيأ من الجزاء ﴿ولا يقبل

منها عدل﴾ أى فدية ﴿ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾ وتخصيصهم بتكرير التذكير واعادة التحذير للمبالغة فى النصح وللايذان بأن ذلك فذلكة القضية والمقصود من القصة لما أن نعم الله عز وجل عليهم أعظم وكفرهم بها أشد وأقبح ﴿واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات﴾ شروع فى تحقيق أن هدى الله هو ما عليه النبي صلى الله عليه وسلم من التوحيد والاسلام الذى هو ملة ابراهيم عليه السلام وأن ما عليه أهل الكتابين أهواء زائغة وأن ما يدعونه من أنهم على ملته عليه الصلاة والسلام فرية بلا مرية ببيان ما صدر عن ابراهيم وأبنائه الانبياء عليهم السلام من الاقاويل والافاعيل الناطقة بحقية التوحيد والاسلام وبطلان الشرك وبصحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم وبكونه ذلك النبي الذى استدعاه ابراهيم واسمعيل عليهما الصلاة والسلام بقولهما ربنا وابعث فيهم رسولا منهم الآية فاذ منصوب على المفعولية بمضمر مقدم خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين أى واذكر لهم وقت ابتلائه عليه السلام ليتذكروا بما وقع فيه من الامور الداعية الى التوحيد الوازعة عن الشرك فيقبلوا الحق ويتركوا ما هم فيه من الباطل وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات قد مر وجهه فى أثناء تفسير قوله عز وجل واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة وقيل على الظرفية بمضمر مؤخر أى واذ ابتلاه كان كيت وكيت وقيل بما سيجىء من قوله تعالى قال الخ والاول هو اللائق بجزالة التنزيل ولا يبعد أن ينتصب بمضمر معطوف على اذكروا خوطب به بنو اسرائيل ليتأملوا فيما يحكى عمن ينتمون الى ملته من ابراهيم وأبنائه عليهم السلام من الافعال والاقوال فيقتدوا بهم ويسيروا سيرتهم والابتلاء فى الاصل الاختبار أى تطلب الخبرة بحال المختبر بتعريضه لأمر يشق عليه غالبا فعله أو تركه وذلك انما يتصور حقيقة ممن لا وقوف له على عواقب الأمور واما من العليم الخبير فلا يكون الا مجازا من تمكينه للعبد من اختيار أحد الأمرين قبل أن يرتب عليه شيأ هو من مباديه العادية كمن يختبر عبده ليتعرف حاله من الكياسة فيأمره بما يليق بحاله من مصالحه وابراهيم اسم أعجمى قال السهيلى كثيرا ما يقع الاتفاق أو التقارب بين السريانى والعربى ألا يرى أن ابراهيم تفسيره أب راحم ولذلك جعل هو وزوجته سارة كافلين لاطفال المؤمنين الذين يموتون صغارا الى يوم القيامة على ما روى البخارى فى حديث الرؤيا أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى فى الروضة ابراهيم عليه السلام وحوله أولاد الناس وهو مفعول مقدم لاضافة فاعله الى ضميره والتعرض لعنوان الربوبية تشريف له عليه السلام وايذان بأن ذلك الابتلاء تربية له وترشيح لامر خطير والمعنى عامله سبحانه معاملة المختبر حيث كلفه أوامر ونواهى يظهر بحسن قيامه بحقوقها قدرته على الخروج عن عهدة الامامة العظمى وتحمل أعباء الرسالة وهذه المعاملة وتذكيرها للناس لارشادهم الى طريق اتقان الامور ببنائها على التجربة وللايذان بأن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم أيضا مبنية على تلك القاعدة الرصينة واقعة بعد ظهور استحقاقه عليه السلام للنبوة العامة كيف لا وهى التى أجيب بها دعوة ابراهيم عليه السلام كما سيأتى واختلف فى الكلمات فقال مجاهد هى المذكورة بعدها ، رد بأنه يأباه الفاء فى فأتمهن ثم الاستئناف وقال طاوس عن ابن عباس رضى الله عنهما هى عشر خصال كانت فرضا فى شرعه وهن سنة فى شرعنا خمس فى الرأس المضمضة والاستنشاق وفرق الرأس وقص الشارب والسواك وخمس فى البدن الختان وحلق العانة ونتف الابط وتقليم الاظفار والاستنجاء بالماء وفى الخبر أن ابراهيم عليه السلام أول من قص الشارب وأول من اختتن وأول من قلم الاظفار وقال عكرمة عن ابن عباس لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه كله الا ابراهيم ابتلاه الله تعالى بثلاثين خصلة من خصال الاسلام عشر منها فى سورة براءة التائبون الخ وعشر فى الاحزاب ان المسلمين والمسلمات الخ وعشر فى المؤمنون وسأل سائل الى قوله عز وجل والذين هم على صلاتهم يحافظون وقيل ابتلاه الله سبحانه بسبعة أشياء بالشمس والقمر

والنجوم والاختتان على الكبر والنار وذبح الولد والهجرة فوفى بالكل وقيل هن محاجته قومه والصلاة والزكاة والصوم والضيافة والصبر عليها وقيل هى مناسك كالطواف والسعى والرمى والاحرام والتعريف وغيرهن وقيل هى قوله عليه السلام الذى خلقنى فهو يهدين الآيات ثم قيل انما وقع هذا الابتلاء قبل النبوة وهو الظاهر وقيل بعدها لانه يقتضى سابقة الوحى وأجيب بأن مطلق الوحى لا يستلزم البعثة الى الخلق وقرىء برفع ابراهيم ونصب ربه أى دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر هل يجيبه اليهن أو لا ﴿فأتمهن﴾ أى قام بهن حق القيام وأداهن أحسن التأدية من غير تفريط وتوان كما فى قوله تعالى وابراهيم الذى وفى وعلى القراءة الأخيرة فأعطاه الله تعالى ما سأله من غير نقص ويعضده ماروى عن مقاتل أنه فسر الكلمات بما سأل ابراهيم به بقوله رب اجعل الآيات وقوله عز وجل ﴿قال﴾ على تقدير انتصاب اذ بمضمر جملة مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ من الكلام فان الابتلاء تمهيد لامر معظم وظهور فضيلة المبتلى من دواعى الاحسان اليه فبعد حكايتها تترقب النفس الى ما وقع بعدهما كأنه قيل فماذا كان بعد ذلك فقيل قال ﴿انى جاعلك للناس إماماً﴾ أو بيان لقوله تعالى ابتلى على رأى من جعل الكلمات عبارة عما ذكر أثره من الامامة وتطهير البيت ورفع قواعده وغير ذلك وعلى تقدير انتصاب اذ بقال فالجملة معطوفة على ما قبلها عطف القصة على القصة والواو فى المعنى داخلة على قال أى وقال اذ ابتلى الخ والجعل بمعنى التصيير أحد مفعوليه الضمير والثانى اماماً واسم الفاعل بمعنى المضارع وأوكد منه لدلالته على انه جاعل له البتة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه وللناس متعلق بجاعلك أى لأجل الناس أو بمحذوف وقع حالا من اماماً اذ لو تأخر عنه لكان صفة له والامام اسم لمن يؤتم به وكل نبى امام لأمته وامامته عليه السلام عامة مؤبدة اذ لم يبعث بعده نبى الا كان من ذريته مأموراً باتباع ملته ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال مقدر كأنه قيل فماذا قال ابراهيم عليه السلام عنده فقيل قال ﴿ومن ذريتى﴾ عطف على الكاف ومن تبعيضية متعلقة بجاعل أى وجاعل بعض ذريتى كما تقول وزيداً لمن يقول سأكرمك أو بمحذوف أى واجعل فريقا من ذريتى اماما وتخصيص البعض بذلك لبداهة استحالة امامة الكل وان كانوا على الحق وقيل التقدير وماذا يكون من ذريتى والذرية نسل الرجل فعولة من ذروت أو ذريت والأصل ذرووة أو ذروية فاجتمع فى الأولى واوان زائدة وأصلية فقلبت الاصلية ياء فصارت كالثانية فاجتمعت واو وياء وسبقت احداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فى الياء فصارت ذرية أو فعيلة منهما والاصل فى الاولى ذريوة فقلبت الواو ياء لما سبق من اجتماعهما وسبق احداهما بالسكون فصارت ذريية كالثانية فأدغمت الياء فى مثلها فصارت ذرية أو فعيلة من الذرء بمعنى الخلق والاصل ذريئة فخففت الهمزة بابدالها ياء كهمزة خطيئة ثم أدغمت الياء الزائدة فى المبدلة أو فعيلة من الذر بمعنى التفريق والاصل ذريرة قلبت الراء الاخيرة ياء لتوالى الامثال كما فى تسرى وتقضى وتظنى فأدغمت الياء فى الياء كما مر أو فعولة منه والاصل ذرورة فقلبت الراء الاخيرة ياء فجاء الادغام وقرىء بكسر الذال وهى لغة فيها وقرأ أبو جعفر المدنى بالفتح وهى أيضا لغة فيها ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الذهن كما سبق ﴿لا ينال عهدى الظالمين﴾ ليس هذا ردا لدعوته عليه السلام بل اجابة خفية لها وعدة اجمالية منه تعالى بتشريف بعض ذريته عليه السلام بنيل عهد الامامة حسبما وقع فى استدعائه عليه السلام من غير تعيين لهم بوصف مميز لهم عن جميع من عداهم فان التنصيص على حرمان الظالمين منه بمعزل من ذلك التمييز اذ ليس معناه أنه ينال كل من ليس بظالم منهم ضرورة استحالة ذلك كما أشير اليه ولعل ايثار هذه الطريقة على تعيين الجامعين لمبادىء الامامة من ذريته اجمالا أو تفصيلا وارسال الباقين لئلا ينتظم المقتدون بالأئمة من الامة فى سلك المحرومين وفى تفصيل كل فرقة من الاطناب ما لا يخفى مع ما فى هذه الطريقة من

تخييب الكفرة الذين كانوا يتمنون النبوة وقطع أطماعهم الفارغة من نيلها وانما أوثر النيل على الجعل ايماء الى أن امامة الانبياء عليهم السلام من ذريته عليه السلام كاسمعيل واسحق و يعقوب و يوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وأيوب و يونس و زكريا و يحيى وعيسى وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا ليست بجعل مستقل بل هى حاصلة فى ضمن امامة ابراهيم عليه السلام تنال كلا منهم فى وقت قدره الله عز وجل وقرئ الظالمون على أن عهدى مفعول قدم على الفاعل اهتماما و رعاية للفواصل وفيه دليل على عصمة الانبياء عليهم السلام من الكبائر على الاطلاق وعدم صلاحية الظالم للامامة وقوله تعالى ﴿واذ جعلنا البيت﴾ أى الكعبة المعظمة غلب عليها غلبة النجم على الثريا معطوف على اذ ابتلى على أن العامل فيه هو العامل فيه أو مضمر مستقل معطوف على المضمر الاول والجعل اما بمعنى التصيير فقوله عز وجل ﴿مثابة﴾ أى مرجعا يثوب اليه الزوار بعد ما تفرقوا عنه أو أمثالهم أو موضع ثواب يثابون بحجه واعتماره مفعوله الثانى واما بمعنى الابداع فهو حال من مفعوله واللام فى قوله تعالى ﴿للناس﴾ متعلقة بمحذوف وقع صفة لمثابة أى مثابة كائنة للناس أو بجعلنا أى جعلناه لاجل الناس وقرئ مثابات باعتبار تعدد الثائبين ﴿وأمنا﴾ أى آمنا كما فى قوله تعالى حرما آمنا على ايقاع المصدر موقع اسم الفاعل للمبالغة أو على تقدير المضاف أى ذا أمن أو على الاسناد المجازى أى آمنا من حجه من عذاب الآخرة من حيث أن الحج يجب ما قبله أو من دخله من التعرض له بالعقوبة وان كان جانيا حتى يخرج على ما هو رأى أبى حنيفة ويجوز أن يعتبر الأمن بالقياس الى كل شئ كائنا ما كان و يدخل فيه أمن الناس دخولا أوليا وقد اعتيد فيه أمن الصيد حتى أن الكلب كان يهم بالصيد خارج الحرم فيفر منه وهو يتبعه فاذا دخل الصيد الحرم لم يتبعه الكلب ﴿واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى﴾ على ارادة قول هو عطف على جعلنا أو حال من فاعله أى وقلنا أو قائلين لهم اتخذوا الخ وقيل هو بنفسه معطوف على الامر الذى يتضمنه قوله عز وجل مثابة للناس كأنه قيل ثوبوا اليه واتخذوا الخ وقيل على المضمر العامل فى اذ وقيل هى جملة مستأنفة والخطاب على الوجوه الاخيرة له عليه السلام ولأمته والاول هو الاليق بجزالة النظم الكريم والامر صريحا كان أو مفهوما من الحكاية للاستحباب ومن تبعيضية والمقام اسم مكان وهو الحجر الذى عليه أثر قدمه عليه السلام والموضع الذى كان عليه حين قام ودعا الناس الى الحج أو حين رفع قواعد البيت وهو موضعه اليوم والمراد بالمصلى اما موضع الصلاة أو موضع الدعاء روى أنه صلى الله عليه وسلم أخذ بيد عمر رضى الله عنه فقال هذا مقام ابراهيم فقال عمر رضى الله عنه أفلا نتخذه مصلى فقال لم أومر بذلك فلم تغب الشمس حتى نزلت وقيل المراد به الامر بركعتى الطواف لما روى جابر رضى الله عنه أنه عليه السلام لما فرغ من طوافه عمد الى مقام ابراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وللشافعى فى وجوبهما قولان وقيل مقام ابراهيم الحرم كله وقيل مواقف الحج عرفة والمزدلفة والجمار واتخاذها مصلى أن يدعى فيها و يتقرب الى الله عز وجل وقرئ واتخذوا على صيغة الماضى عطفا على جعلنا أى واتخذ الناس من مكان ابراهيم الذى وسم به لاهتمامه به واسكان ذريته عنده قبلة يصلون اليها ﴿وعهدنا الى ابراهيم واسمعيل﴾ أى أمرناهما أمرا مؤكدا ﴿أن طهرا بيتى﴾ بأن طهراه على أن أن مصدرية حذف عنها الجار حذفا مطردا لجواز كون صلتها أمرا ونهيا كما فى قوله عز وجل وأن أقم وجهك للدين حنيفا لان مدار جواز كونها فعلا انما هو دلالته على المصدر وهى متحققة فيهما ووجوب كونها خبرية فى صلة الموصول الاسمى انما هو للتوصل الى وصف المعارف بالجمل وهى لا يوصف بها الا اذا كانت خبرية وأما الموصول الحرفى فليس كذلك ولما كان الخبر والانشاء فى الدلالة على المصدر سواء ساغ وقوع الامر والنهى صلة حسب وقوع الفعل فيتجرد عند ذلك

عن معنى الامر والنهى نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضى والاستقبال أو أى طهراه على أن أن مفسرة لتضمن العهد معنى القول واضافة البيت الى ضمير الجلالة للتشريف وتوجيه الامر بالتطهير ههنا اليهما عليهما السلام لا ينافى ما فى سورة الحج من تخصيصه بابراهيم عليه السلام فان ذلك واقع قبل بناء البيت كما يفصح عنه قوله تعالى واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت وكان اسمعيل عليه السلام حينئذ بمعزل من مثابة الخطاب وظاهر أن هذا بعد بلوغه مبلغ الامر والنهى وتمام البناء بمباشرته كما ينبئ عنه ايراده أثر حكاية جعله مثابة للناس الخ والمراد تطهيره من الاوثان والانجاس وطواف الجنب والحائض وغير ذلك مما لا يليق به ﴿للطائفين﴾ حوله ﴿والعاكفين﴾ المجاورين المقيمين عنده أو المعتكفين أو القائمين فى الصلاة كما فى قوله عز وعلا للطائفين والقائمين ﴿والركع السجود﴾ جمع راكع وساجد أى للطائفين والمصلين لان القيام والركوع والسجود من هيئات المصلى ولتقارب الاخيرين ذاتا و زمانا ترك العاطف بين موصوفيهما أو أخلصاه لهؤلاء لئلا يغشاه غيرهم وفيه ايماء الى أن ملابسة غيرهم به وان كانت مع مقارنة أمر مباح من قبيل تلويثه وتدنيسه ﴿واذ قال ابراهيم﴾ عطف على ما قبله من قوله واذ جعلنا الخ اما بالذات أو بعامله المضمر كما مر ﴿رب اجعل هذا بلدا آمنا﴾ ذا أمن كعيشة راضية أو آمنا أهله كليله نائم أى اجعل هذا الوادى من البلاد الآمنة وكان ذلك أول ما قدم عليه السلام مكة كما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهم أنه عليه الصلاة والسلام لما أسكن اسمعيل وهاجر هناك وعاد متوجها الى الشام تبعته هاجر فجعلت تقول الى من تكلنا فى هذا البلقع وهو لا يرد عليها جوابا حتى قالت آلله أمرك بهذا فقال نعم قالت اذن لا يضيعنا فرضيت ومضى حتى اذا استوى على ثنية كداء أقبل على الوادى فقال ربنا انى أسكنت الآية وتعريف البلد مع جعله صفة لهذا فى سورة ابراهيم ان حمل على تعدد السؤال لما أنه عليه السلام سأل أولا كلا الأمرين البلدية والأمن فاستجيب له فى أحدهما وتأخر الآخر الى وقته المقدر له لما تقتضيه الحكمة الباهرة ثم كرر السؤال حسبما هو المعتاد فى الدعاء والابتهال أو كان المسؤل أولا البلدية ومجرد الأمن المصحح للسكنى كما فى سائر البلاد وقد أجيب الى ذلك وثانيا الأمن المعهود أو كان هو المسؤل أولا أيضا وقد أجيب اليه لكن السؤال الثانى لاستدامته والاقتصار على سؤاله مع جعل البلد صفة لهذا لانه المقصد الاصلى أو لان المعتاد فى البلدية الاستمرار بعد التحقق بخلاف الأمن وان حمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادر فالظاهر أن المسؤل كلا الأمرين وقد حكى ذلك ههنا واقتصر هناك على حكاية سؤال الأمن اكتفاء عن حكاية سؤال البلدية بحكاية سؤال جعل أفئدة الناس تهوى اليه كما سيأتى تفصيله هناك باذن الله عز وجل ﴿وارزق أهله من الثمرات﴾ من أنواعها بأن تجعل بقرب منه قرى يحصل فيها ذلك أو يجبى اليه من الاقطار الشاسعة وقد حصل كلاهما حتى أنه يجتمع فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية فى يوم واحد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الطائف كانت من أرض فلسطين فلما دعا ابراهيم عليه الصلاة والسلام بهذه الدعوة رفعها الله تعالى فوضعها حيث وضعها رزقا للحرم وعن الزهرى أنه تعالى نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ بدل من أهله بدل البعض خصهم بالدعاء اظهارا لشرف الايمان وابانة لخطره واهتماما بشأن أهله ومراعاة لحسن الادب وفيه ترغيب لقومه فى الايمان و زجر عن الكفر كما أن فى حكايته ترغيبا وترهيبا لقريش وغيرهم من أهل الكتاب ﴿قال﴾ استئناف مبنى على السؤال كما مر مرارا وقوله تعالى ﴿ومن كفر﴾ عطف على مفعول فعل محذوف تقديره ارزق من آمن ومن كفر وقوله تعالى ﴿فأمتعه﴾ معطوف على ذلك الفعل أو فى محل رفع بالابتداء وقوله تعالى فأمتعه خبره أى فأنا أمتعه وانما دخلته الفاء تشبيها له بالشرط والكفر وان لم يكن سببا للتمتيع المطلق لكنه يصلح سببا لتقليله وكونه

موصولا بعذاب النار وقيل هو عطف على من آمن عطف تلقين كأنه قيل قل وارزق من كفر فانه أيضا مجاب كأنه عليه السلام قاس الرزق على الامامة فنبهه تعالى على أنه رحمة دنيوية شاملة للبر والفاجر بخلاف الامامة الخاصة بالخواص وقرىء فامتعه من أمتع وقرىء فنمتعه ﴿قليلا﴾ تمتيعا قليلا أو زمانا قليلا ﴿ثم أضطره الى عذاب النار﴾ أى ألزه اليه لز المضطر لكفره وتضييعه ما متعته به من النعم وقرىء ثم نضطره على وفق قراءة فنمتعه وقرىء فامتعه قليلا ثم اضطره بلفظ الامر فيهما على أنهما من دعاء ابراهيم عليه السلام وفى قال ضميره وانما فصله عما قبله لكونه دعاء على الكفرة وتغيير سبكه للايذان بأن الكفر سبب لاضطرارهم الى عذاب النار وأما رزق من آمن فانما هو على طريقة التفضل والاحسان وقرىء بكسر الهمزة على لغة من يكسر حرف المضارعة واطره بادغام الضاد فى الطاء وهى لغة مرذولة فان حروف ضم شفر يدغم فيها مايجاورها بلا عكس ﴿وبئس المصير﴾ المخصوص بالذم محذوف أى بئس المصير النار أو عذابها ﴿واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت﴾ عطف على ماقبله من قوله عز وعلا واذ قال ابراهيم على أحد الطريقين المذكورين فى واذ جعلنا وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة المنبئة عن المعجزة الباهرة والقواعد جمع قاعدة وهى الاساس صفة غالبة من القعود بمعنى الثبات ولعله مجاز من مقابل القيام ومنه قعدك الله ورفعها البناء عليها لانه ينقلها من هيئة الانخفاض الى هيئة الارتفاع والمرتفع حقيقة وان كان هو الذى بنى عليها لكنهما لما التأما صارا شيأ واحدا فكأنها نمت وارتفعت وقيل المراد بها ساقات البناء فان كل ساف قاعدة لما يبنى عليها وبرفعها بناء بعضها على بعض وقيل المراد برفعها رفع مكانة البيت واظهار شرفه ودعاء الناس الى حجه وفى ابهامها أولا ثم تبيينها من تفخيم شأنها مالا يخفى وقيل المعنى واذ يرفع ابراهيم ماقعد من البيت واستوطأ يعنى يجعل هيئة القاعدة المستوطأة مرتفعة عالية بالبناء روى أن الله عز وجل أنزل البيت ياقوتة من يواقيت الجنة له بابان من زمرذ شرقى وغربى وقال لآدم أهبطت لك مايطاف به كما يطاف حول عرشى فتوجه آدم من أرض الهند اليه ماشيا وتلقته الملائكة فقالوا بر حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام وحج آدم عليه السلام أربعين حجة من أرض الهند الى مكة على رجليه فكان على ذلك الى أن رفعه الله أيام الطوفان الى السماء الرابعة فهو البيت المعمور وكان موضعه خاليا الى زمن ابراهيم عليه السلام فأمره سبحانه ببنائه وعرفه جبريل عليه السلام بمكانه وقيل بعث الله السكينة لتدله عليه فتبعها ابراهيم عليه السلام حتى أتيا مكة المعظمة وقيل بعث الله تعالى سحابة على قدر البيت وسار ابراهيم فى ظلها الى أن وافت مكة المعظمة فوقفت على موضع البيت فنودى أن ابن على ظلها ولا تزد ولا تنقص وقيل بناه من خمسة أجبل طور سيناء وطور زيتا ولبنان والجودى وأسسه من حراء وجاء جبريل عليه السلام بالحجر الاسود من السماء وقيل تمخض أبوقبيس فانشق عنه وقد خبىء فيه فى أيام الطوفان وكان ياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة فلما لمسته الحيض فى الجاهلية اسود وقال الفاسى فى مثير الغرام فى تاريخ البلد الحرام والذى يتحصل من جملة ماقيل فى عدد بناء الكعبة أنها بنيت عشر مرات منها بناء الملائكة عليهم السلام ذكره النووى فى تهذيب الاسماء واللغات والازرقى فى تاريخه وذكر أنه كان قبل خلق آدم عليه السلام ومنها بناء آدم عليه السلام ذكره البيهقى فى دلائل النبوة وروى فيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعث الله عز وجل جبريل الى آدم عليهما السلام فقال له ولحواء ابنيا لى بيتا فخط جبريل وجعل آدم يحفر وحواء تنقل التراب حتى اذا أصاب الماء نودى من تحته حسبك آدم فلما بناه أوحى اليه أن يطوف به فقيل له أنت أول الناس وهذا أول بيت وهكذا ذكره الازرقى فى تاريخه وعبد الرزاق فى مصنفه ومنها بناء بنى آدم عندما رفعت الخيمة التى عزى الله تعالى بها آدم عليه السلام وكانت ضربت فى موضع البيت فبنى بنوه مكانها بيتا من الطين والحجارة فلم يزل معمورا

يعمرونه هم ومن بعدهم الى أن مسه الغرق فى عهد نوح عليه السلام ذكره الازرقى بسنده الى وهب بن منبه ومنها بناء الخليل عليه السلام وهو منصوص عليه فى القرآن مشهور فى مابين قاص ودان ومنها بناء العمالقة ومنها بناء جرهم ذكرهما الازرقى بسنده الى على بن أبى طالب رضى الله عنه ومنها بناء قصى بن كلاب ذكره الزبير بن بكار فى كتاب النسب ومنها بناء قريش وهو مشهور ومنها بناء عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ومنها بناء الحجاج بن يوسف وما كان ذلك بناء لكلها بل لجدار من جدرانها وقال الحافظ السهيلى ان بناءها لم يكن فى الدهر الا خمس مرات الاولى حين بناها شيث عليه السلام انتهى والله سبحانه أعلم ﴿واسمعيل﴾ عطف على ابراهيم ولعل تأخيره عن المفعول للايذان بأن الاصل فى الرفع هو ابراهيم واسمعيل تبع له قيل انه كان يناوله الحجارة وهو يبنيها وقيل كانا يبنيانه من طرفين ﴿ربنا تقبل منا﴾ على ارادة القول أى يقولان وقد قرىء به على أنه حال منهما عليهما السلام وقيل على أنه هو العامل فى اذ والجملة معطوفة على ماقبلها والتقدير ويقولان ربنا تقبل منا اذ يرفعان أى وقت رفعهما وقيل واسمعيل مبتدأ خبره قول محذوف وهو العامل فى ربنا تقبل منا فيكون ابراهيم هو الرافع واسمعيل هو الداعى والجملة فى محل النصب على الحالية أى واذ يرفع ابراهيم القواعد والحال أن اسمعيل يقول ربنا تقبل منا والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن افاضة مافيه صلاح المربوب مع الاضافة الى ضميرهما عليهما السلام لتحريك سلسلة الاجابة وترك مفعول تقبل مع ذكره فى قوله تعالى ربنا وتقبل دعاء ليعم الدعاء وغيره من القرب والطاعات التى من جملتها ماهما بصدده من البناء كما يعرب عنه جعل الجملة الدعائية حالية ﴿انك أنت السميع﴾ لجميع المسموعات التى من جملتها دعاؤنا ﴿العليم﴾ بكل المعلومات التى من زمرتها نياتنا فى جميع أعمالنا والجملة تعليل لاستدعاء التقبل لا من حيث أن كونه تعالى سميعا لدعائهما عليما بنياتهما مصحح للتقبل فى الجملة بل من حيث أن علمه تعالى بصحة نياتهما واخلاصهما فى أعمالهما مستدع له بموجب الوعد تفضلا وتأكيد الجملة لغرض كمال قوة يقينهما بمضمونها وقصر نعتى السمع والعلم عليه تعالى لاظهار اختصاص دعائهما به تعالى وانقطاع رجائهما عما سواه بالكلية واعلم أن الظاهر أن أول ماجرى من الامور المحكية هو الابتلاء ومايتبعه ثم دعاء البلدية والأمن ومايتعلق به ثم رفع قواعد البيت ومايتلوه ثم جعله مثابة للناس والامر بتطهيره ولعل تغيير الترتيب الوقوعى فى الحكاية لنظم الشؤن الصادرة عن جنابه تعالى فى سلك مستقل ونظم الامور الواقعة من جهة ابراهيم واسمعيل عليهما السلام من الافعال والاقوال فى سلك آخر وأما قوله تعالى ومن كفر الخ فانما وقع فى تضاعيف الاحوال المتعلقة بابراهيم لاقتضاء المقام واستيجاب ماسبق من الكلام ذلك بحيث لم يكن بد منه أصلا كما أن وقوع قوله عليه السلام ومن ذريتى فى خلال كلامه سبحانه لذلك ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾ مخلصين لك أو مستسلمين من أسلم اذا استسلم وانقاد وأياما كان فالمطلوب الزيادة والثبات على ماكانا عليه من الاخلاص والاذعان وقرىء مسلمين على صيغة الجمع بادخال هاجر معهما فى الدعاء أو لان التثنية من مراتب الجمع ﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ أى واجعل بعض ذريتنا وانما خصاهم بالدعاء لانهم أحق بالشفقة ولانهم اذا صلحوا صلح الاتباع وانما خصا به بعضهم لما علما أن منهم ظلمة وأن الحكمة الالهية لاتقتضى اتفاق الكل على الاخلاص والاقبال الكلى على الله عز وجل فان ذلك مما يخل بأمر المعاش ولذلك قيل لولا الحمقى لخربت الدنيا وقيل أراد بالامة المسلمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقد جوز أن يكون من مبينة قدمت على المبين وفصل بها بين العاطف والمعطوف كما فى قوله تعالى ومن الارض مثلهن والاصل وأمة مسلمة لك من ذريتنا ﴿وأرنا﴾ من الرؤية بمعنى الابصار أو بمعنى التعريف أى بصرنا أو عرفنا ﴿مناسكنا﴾ أى متعبداتنا فى الحج أو مذابحنا والنسك فى الاصل غاية العبادة وشاع فى الحج لما فيه من الكلفة والبعد عن العادة وقرىء أرنا قياسا على فخذ فى فخذ وفيه اجحاف لان

الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة دليل عليها وقرئ بالاختلاس ﴿وتب علينا﴾ استتابة لذريتهما وحكايتها عنهما لترغيب الكفرة فى التوبة والايمان أو توبة لهما عما فرط منهما سهوا ولعلهما قالاه هضما لانفسهما وارشادا لذريتهما ﴿انك أنت التواب الرحيم﴾ وهو تعليل للدعاء ومزيد استدعاء للاجابة قيل اذا أراد العبد أن يستجاب له فليدع الله عز وجل بما يناسبه من أسمائه وصفاته ﴿ربنا وابعث فيهم﴾ أى فى الامة المسلمة ﴿رسولا منهم﴾ أى من أنفسهم فان البعث فيهم لا يستلزم البعث منهم ولم يبعث من ذريتهما غير النبى صلى الله عليه وسلم فهو الذى أجيب به دعوتهما عليهما السلام روى أنه قيل لهما قد استجيب لك وهو فى آخر الزمان قال عليه السلام أنا دعوة أبى ابراهيم و بشرى عيسى ورؤيا أمى وتخصيص ابراهيم عليه السلام بالاستجابة له لما أنه الاصل فى الدعاء واسمعيل تبع له عليه السلام ﴿يتلو عليهم آياتك﴾ يقرأ عليهم و يبلغهم ما يوحى اليه من البينات ﴿و يعلمهم﴾ بحسب قوتهم النظرية ﴿الكتاب﴾ أى القرآن ﴿والحكمة﴾ وما يكمل به نفوسهم من أحكام الشريعة والمعارف الحقة ﴿ويزكيهم﴾ بحسب قوتهم العملية أى يطهرهم عن دنس الشرك وفنون المعاصى ﴿انك أنت العزيز﴾ الذى لا يقهر ولا يغلب على ما يريد ﴿الحكيم﴾ الذى لا يفعل الا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة تعليل للدعاء واجابة المسؤل فان وصف الحكمة مقتض لافاضة ما تقتضيه الحكمة من الامور التى من جملتها بعث الرسول ووصف العزة مستدع لامتناع وجود المانع بالمرة ﴿ومن يرغب عن ملة ابراهيم﴾ انكار واستبعاد لان يكون فى العقلاء من يرغب عن ملته التى هى الحق الصريح والدين الصحيح أى لا يرغب عن ملته الواضحة الغراء ﴿الا من سفه نفسه﴾ أى أذلها واستمهنها واستخف بها وقيل خسر نفسه وقيل أوبق أو أهلك أو جهل نفسه قال المبرد وثعلب سفه بالكسر متعد و بالضم لازم و يشهد له ما ورد فى الخبر الكبر أن تسفه الحق وتغمص الناس وقيل معناه ضل من قبل نفسه وقيل أصله سفه نفسه بالرفع فنصب على التمييز نحو غبن رأيه وألم رأسه ونحو قوله

ونأخذ بعده بذناب عيش   أجب الظهر ليس له سنام

وقوله

وما قومى بثعلبة بن سعد   ولا بفزارة الشعر الرقابا

ذلك لانه اذا رغب عما لا يرغب عنه أحد من العقلاء فقد بالغ فى اذلال نفسه واذالتها واهانتها حيث خالف بها كل نفس عاقلة روى أن عبد الله بن سلام دعا ابنى أخيه سلمة ومهاجرا الى الاسلام فقال لهما قد علمتما أن الله تعالى قال فى التوراة انى باعث من ولد اسمعيل نبيا اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى و رشد ومن لم يؤمن به فهو ملعون فأسلم سلمة وأبى مهاجر فنزلت ﴿ولقد اصطفيناه فى الدنيا﴾ أى اخترناه بالنبوة والحكمة من بين سائر الخلق وأصله اتخاذ صفوة الشىء كما أن أصل الاختيار اتخاذ خيره واللام لجواب قسم محذوف والواو اعتراضية والجملة مقررة لمضمون ما قبلها أى و بالله لقد اصطفيناه وقوله تعالى ﴿وانه فى الآخرة لمن الصالحين﴾ أى من المشهود لهم بالثبات على الاستقامة والخير والصلاح معطوف عليها داخل فى حيز القسم مؤكد لمضمونها مقرر لما تقرره ولا حاجة الى جعله اعتراضا آخر أو حالا مقدرة فان من كان صفوة للعباد فى الدنيا مشهودا له بالصلاح فى الآخرة كان حقيقا بالاتباع لا يرغب عن ملته الا سفيه أو متسفه أذل نفسه بالجهل والاعراض عن النظر والتأمل وايثار الاسمية لما أن انتظامه فى زمرة صالحى أهل الآخرة أمر مستمر فى الدارين لا أنه يحدث فى الآخرة والتأكيد بان واللام لما ان الامور الاخروية خفية عند المخاطبين فحاجتها الى التأكيد أشد من الامور التى تشاهد آثارها وكلمة فى متعلقة بالصالحين على أن اللام للتعريف وليست بموصولة حتى يلزم تقديم بعض الصلة عليها على أنه قد يغتفر فى الظرف ما لا يغتفر فى غيره كما فى قوله

ربيته حتى اذا تمعددا   كان جزائى بالعصا أن أجلدا

أو بمحذوف من لفظه أى وانه لصالح فى الآخرة لمن الصالحين أو من غير لفظه أى أعنى فى الآخرة نحو لك بعد رعيا وقيل هى متعلقة باصطفيناه على أن فى النظم الكريم تقديما وتأخيرا تقديره ولقد اصطفيناه فى الدنيا والآخرة وانه لمن الصالحين ﴿اذ قال له﴾ ظرف لاصطفيناه لما أن المتوسط ليس بأجنبى بل هو مقرر له لان اصطفاءه فى الدنيا انما هو للنبوة وما يتعلق بصلاح الآخرة أو تعليل له أو منصوب باذكر كأنه قيل اذكر ذلك الوقت لتقف على أنه المصطفى الصالح المستحق للامامة والتقدم وأنه ما نال ما نال الا بالمبادرة الى الاذعان والانقياد لما أمر به واخلاص سره على أحسن ما يكون حين قال له ﴿ربه أسلم﴾ أى لربك ﴿قال أسلمت لرب العالمين﴾ وليس الامر على حقيقته بل هو تمثيل والمعنى أخطر بباله دلائل التوحيد المؤدية الى المعرفة الداعية الى الاسلام من الكوكب والقمر والشمس وقيل أسلم أى أذعن وأطع وقيل اثبت على ما أنت عليه من الاسلام والاخلاص أو استقم وفوض أمورك الى الله تعالى فالامر على حقيقته والالتفات مع التعرض لعنوان الربوبية والاضافة اليه عليه السلام لاظهار مزيد اللطف به والاعتناء بتربيته واضافة الرب فى جوابه عليه الصلاة والسلام الى العالمين للايذان بكمال قوة اسلامه حيث أيقن حين النظر بشمول ربوبيته للعالمين قاطبة لا لنفسه وحده كما هو المأمور به ﴿و وصى بها ابراهيم بنيه﴾ شروع فى بيان تكميله عليه السلام لغيره اثر بيان كماله فى نفسه وفيه توكيد لوجوب الرغبة فى ملته عليه السلام والتوصية التقدم الى الغير بما فيه خير وصلاح للمسلمين من فعل أو قول وأصلها الوصلة يقال وصاه اذا وصله وفصاه اذا فصله كان الموصى يصل فعله بفعل الوصى والضمير فى بها للملة أو قوله أسلمت لرب العالمين بتأويل الكلمة كما عبر بها عن قوله تعالى اننى براء مما تعبدون الا الذى فطرنى فى قوله عز وجل وجعلها كلمة باقية فى عقبه وقرئ أوصى والاول أبلغ ﴿و يعقوب﴾ عطف على ابراهيم أى وصى بها هو أيضا وقرئ بالنصب عطفا على بنيه ﴿يابنى﴾ على اضمار القول عند البصريين ومتعلق بوصى عند الكوفيين لانه فى معنى القول كما فى قوله

رجلان من ضبة أخبرانا   انا رأينا رجلا عريانا

فهو عند الاولين بتقدير القول وعند الآخرين متعلق بالاخبار الذى هو فى معنى القول وقرئ أن يابنى وبنو ابراهيم عليه السلام كانوا أربعة اسمعيل واسحق ومدين ومدان وقيل ثمانية وقيل أربعة وعشرين وكان بنو يعقوب اثنى عشر روبين وشمعون ولاوى ويهوذا ويشسوخور وزبولون وزوانا وتفتونا و كوذا وأوشير وبنيامين ويوسف عليه السلام ﴿ان الله اصطفى لكم الدين﴾ دين الاسلام الذى هو صفوة الاديان ولا دين غيره عنده تعالى ﴿فلا تموتن الا وأنتم مسلمون﴾ ظاهره النهى عن الموت على خلاف حال الاسلام والمقصود الأمر بالثبات على الاسلام الى حين الموت أى فاثبتوا عليه ولا تفارقوه أبدا كقولك لا تصل الا وأنت خاشع وتغيير العبارة للدلالة على أن موتهم لا على الاسلام موت لا خير فيه وأن حقه أن لا يحل بهم وأنه يجب أن يحذروه غاية الحذر ونظيره مت وأنت شهيد روى أن اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألست تعلم أن يعقوب أوصى باليهودية يوم مات فنزلت ﴿أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت﴾ أم منقطعة مقدرة ببل والهمزة والخطاب لاهل الكتاب الراغبين عن ملة ابراهيم وشهداء جمع شهيد أو شاهد بمعنى الحاضر واذ ظرف لشهداء والمراد بحضور الموت حضور أسبابه وتقديم يعقوب عليه السلام للاهتمام به اذ المراد بيان كيفية وصيته لبنيه بعد ما بين ذلك اجمالا ومعنى بل الاضراب والانتقال عن توبيخهم على رغبتهم عن ملة ابراهيم عليه السلام الى توبيخهم على افترائهم على يعقوب عليه السلام باليهودية حسبما حكى عنهم وأما تعميم الافتراء ههنا لسائر الانبياء عليهم السلام كما قيل فيأباه تخصيص يعقوب بالذكر وما سيأتى من قوله عز وجل أم تقولون ان ابراهيم الخ ومعنى الهمزة انكار وقوع الشهود عند احتضاره عليه السلام وتبكيتهم وقوله تعالى ﴿اذ قال﴾

بدل من اذحضر أى ما كنتم حاضرين عند احتضاره عليه السلام وقوله ﴿لبنيه ماتعبدون من بعدى﴾ أى أى شئ تعبدونه بعد موتى فمن أين لكم أن تدعوا عليه عليه السلام ماتدعون رجما بالغيب وعند هذا تم التوبيخ والانكار والتبكيت ثم بين أن الامر قدجرى حينئذ على خلاف مازعموا وأنه عليه السلام أراد بسؤاله ذلك تقرير بنيه على التوحيد والاسلام وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما اذبه يتم وصيته بقوله فلاتموتن الاوأنتم مسلمون وما يسأل به عن كل شئ مالم يعرف فاذا عرف خص العقلاء بمن اذا سئل عن شئ بعينه وان سئل عن وصفه قيل مازيد أفقيه أم طبيب فقوله تعالى ﴿قالوا﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عن حكاية سؤال يعقوب عليه السلام كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك فقيل قالوا ﴿نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق﴾ حسبما كان مراد أبيهم بالسؤال أى نعبد الاله المتفق على وجوده والهيته ووجوب عبادته وعد اسمعيل من آبائه تغليبا للاب والجد لقوله عليه الصلاة والسلام عم الرجل صنو أبيه وقوله عليه السلام فى العباس هذا بقية آبائى وقرئ أبيك على انه جمع بالواو والنون كما فى قوله

فلما تبين أصواتنا بكين وفديننا بالابينا

وقد سقطت النون بالاضافة أو مفرد وابراهيم عطف بيان له واسمعيل واسحق معطوفان على أبيك ﴿الها واحدا﴾ بدل من اله آبائك كقوله تعالى بالناصية ناصية كاذبة وفائدته التصريح بالتوحيد ودفع التوهم الناشئ من تكرير المضاف لتعذر العطف على المجرور أونصب على الاختصاص ﴿ونحن له مسلمون﴾ حال من فاعل نعبد أومن مفعوله أو منهما معا ويحتمل أن يكون اعتراضا محققا لمضمون ماسبق ﴿تلك أمة﴾ مبتدأ وخبر والاشارة الى ابراهيم ويعقوب وبنيهما الموحدين والامة هى الجماعة التى تؤمها فرق الناس أى يقصدونها ويقتدون بها ﴿قد خلت﴾ صفة للخبر أى مضت بالموت وانفردت عمن عداها وأصله صارت الى الخلاء وهى الارض التى لا أنيس بها ﴿لها ما كسبت﴾ جملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب أوصفة أخرى لامة أوحال من الضمير فى خلت وما موصولة أوموصوفة والعائد اليها محذوف أى لها ما كسبته من الاعمال الصالحة المحكية لاتتخطاها الى غيرها فان تقديم المسند يوجب قصر المسند اليه عليه كما هو المشهور ﴿ولكم ما كسبتم﴾ عطف على نظيرتها على الوجه الاول وجملة مبتدأة على الوجهين الاخيرين اذ لارابط فيها ولابد منه فى الصفة ولامقارنة فى الزمان ولابد منها فى الحال أى لكم ما كسبتموه لاما كسبه غيركم فان تقديم المسند قد يقصد به قصره على المسند اليه كما قيل فى قوله تعالى لكم دينكم ولى دين أى ولى دينى لادينكم وحمل الجملة الاولى على هذا القصر على معنى أن أولئك لاينفعهم الا ما اكتسبوا كما قيل مما لا يساعده المقام اذ لا يتوهم متوهم انتفاعهم بكسب هؤلاء حتى يحتاج الى بيان امتناعه وانما الذى يتوهم انتفاع هؤلاء بكسبهم فبين امتناعه بأن أعمالهم الصالحة مخصوصة بهم لاتتخطاهم الى غيرهم وليس لهؤلاء الاما كسبوا فلا ينفعهم انتسابهم اليهم وانما ينفعهم اتباعهم لهم فى الأعمال كما قال عليه السلام يابنى هاشم لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بانسابكم ﴿ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ ان أجرى السؤال على ظاهره فالجملة مقررة لمضمون مامر من الجملتين تقريرا ظاهرا وان أريد به مسببه أعنى الجزاء فهو تتميم لما سبق جار مجرى النتيجة له وأياما كان فالمراد تخييب المخاطبين وقطع أطماعهم الفارغة عن الانتفاع بحسنات الأمة الخالية وانما أطلق العمل لاثبات الحكم بالطريق البرهانى فى ضمن قاعدة كلية هذا وقد جعل السؤال عبارة عن المؤاخذة والموصول عن السيئات فقيل أى لاتؤاخذون بسيئاتهم كما لاتثابون بحسناتهم ولا ريب فى أنه مما لايليق بشأن التنزيل كيف لاوهم منزهون من كسب السيئات فمن أين يتصور تحميلها على غيرهم حتى يتصدى لبيان انتفاعه ﴿وقالوا﴾ شروع فى بيان فن آخر من فنون كفرهم وهو اضلالهم لغيرهم اثر بيان ضلالهم فى أنفسهم والضمير لأهل الكتابين على طريقة

الالتفات المؤذن باستيجاب حالهم لابعادهم من مقام المخاطبة والاعراض عنهم وتعديد جناياتهم عند غيرهم أى قالوا للمؤمنين ﴿كونوا هودا أو نصارى﴾ ليس هذا القول مقولا لكلهم أو لأى طائفة كانت من الطائفتين بل هو موزع عليهما على وجه خاص يقتضيه حالهما اقتضاء مغنيا عن التصريح به أى قالت اليهود كونوا هودا والنصارى كونوا نصارى ففعل بالنظم الكريم مافعل بقوله تعالى وقالوا لن يدخل الجنة الامن كان هودا أونصارى اعتمادا على ظهور المرام ﴿تهتدوا﴾ جواب للأمر أى ان تكونوا كذلك تهتدوا ﴿قل﴾ خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى قل لهم على سبيل الرد عليهم وبيان ماهو الحق لديهم وارشادهم اليه ﴿بل ملة ابراهيم﴾ أى لانكون كما تقولون بل نكون أهل ملته عليه السلام وقيل بل نتبع ملته عليه السلام وقد جوز أن يكون المعنى بل اتبعوا أنتم ملته عليه السلام أو كونوا أهل ملته وقرئ بالرفع أى بل ملتنا أوأمرنا ملته أونحن ملته أى أهل ملته ﴿حنيفا﴾ أى مائلا عن الباطل الى الحق وهو حال من المضاف اليه كما فى رأيت وجه هند قائمة أوالمضاف كما فى قوله تعالى ونزعنا مافى صدورهم من غل اخوانا الخ ﴿وما كان من المشركين﴾ تعريض بهم وايذان ببطلان دعواهم اتباعه عليه السلام مع اشراكهم بقولهم عزير ابن الله والمسيح ابن الله ﴿قولوا﴾ خطاب للمؤمنين بعد خطابه عليه السلام برد مقالتهم الشنعاء على الاجمال وارشاد لهم الى طريق التوحيد والايمان على ضرب من التفصيل أى قولوا لهم بمقابلة ماقالوا تحقيقا وارشادا ضمنيا لهم اليه ﴿آمنا بالله وما أنزل الينا﴾ يعنى القرآن قدم على سائر الكتب الالهية مع تأخره عنها نزولا لاختصاصه بنا وكونه سببا للايمان بها ﴿وما أنزل الى ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط﴾ الصحف وان كانت نازلة الى ابراهيم عليه السلام لكن من بعده حيث كانوا متعبدين بتفاصيلها داخلين تحت أحكامها جعلت منزلة اليهم كما جعل القرآن منزلا الينا والاسباط جمع سبط وهو الحافد والمراد بهم حفدة يعقوب عليه السلام أوأبناؤه الاثنا عشر وذراريهم فانهم حفدة ابراهيم واسحق ﴿وما أوتى موسى وعيسى﴾ من التوراة والانجيل وسائر المعجزات الباهرة الظاهرة بأيديهما حسبما فصل فى التنزيل الجليل وايراد الايتاء لما أشير اليه من التعميم وتخصيصهما بالذكر لما أن الكلام مع اليهود والنصارى ﴿وما أوتى النبيون﴾ أى جملة المذكورين وغيرهم ﴿من ربهم﴾ من الآيات البينات والمعجزات الباهرات ﴿لانفرق بين أحد منهم﴾ كدأب اليهود والنصارى آمنوا ببعض وكفروا ببعض وانما اعتبر عدم التفريق بينهم مع أن الكلام فيما أوتوه لاستلزام عدم التفريق بينهم بالتصديق والتكذيب لعدم التفريق بين ما أوتوه وهمزة أحد اما أصلية فهو اسم موضوع لمن يصلح أن يخاطب يستوى فيه المفرد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث ولذلك صح دخول بين عليه كما فى مثل المال بين الناس ومنه مافى قوله صلى الله عليه وسلم ما أحلت الغنائم لأحد سود الرؤس غيركم حيث وصف بالجمع واما مبدلة من الواو فهو بمعنى واحد وعمومه لوقوعه فى حيز النفى وصحة دخول بين عليه باعتبار معطوف قد حذف لظهوره أى بين أحد منهم وبين غيره كما فى قول النابغة

فما كان بين الخير لوجاء سالما أبو حجر الا ليال قلائل

أى بين الخير وبينى وفيه من الدلالة صريحا على تحقق عدم التفريق بين كل فرد فرد منهم وبين من عداه كائنا من كان ماليس فى أن يقال لانفرق بينهم والجملة حال من الضمير فى آمنا وقوله عز وجل ﴿ونحن له مسلمون﴾ أى مخلصون له ومذعنون حال أخرى منه أوعطف على آمنا ﴿فان آمنوا﴾ الفاء لترتيب مابعدها على ما قبلها فان ماتقدم من ايمان المخاطبين على الوجه المحرر مظنة لايمان أهل الكتابين لما أنه مشتمل على ماهو مقبول عندهم ﴿بمثل ما آمنتم به﴾ أى بما آمنتم به على الوجه الذى فصل على أن المثل مقحم كما فى قوله تعالى وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله أى عليه ويعضده قراءة ابن مسعود بما آمنتم به وقراءة أبى بالذى آمنتم به ويجوز أن تكون الباء للاستعانة على أن المؤمن به محذوف لظهوره بمروره آنفا أوعلى

أن الفعل بجرى مجرى اللازم أى فان آمنوا بمـا مر مفصلا أو فان فعلوا الايمـان بشهادة مثل شهادتكم وأن تكون الاولى زائدة والثانية صلة لآمنتم وما مصدرية أى فان آمنوا ايمـانا مثل ايمانكم بمـا ذكر مفصلا وأن تكون للملابسة أى فان آمنوا ملتبسين بمثل ما آمنتم ملتبسين به أو فان آمنوا ايمـانا ملتبسا بمثل ما آمنتم ايمـانا ملتبسا به من الاذعان والاخلاص وعدم التفريق بين الانبياء عليهم السلام فان ماوجد فيهم وصدر عنهم من الشهادة والاذعان وغير ذلك مثل ماللمؤمنين لاعينه بخلاف المؤمن به فانه لايتصور فيه التعـدد ﴿فقد اهتدوا﴾ الى الحق وأصابوه كما اهتديتم وحصل بينكم الاتحاد والاتفاق وأما ماقيل من أن المعنى فان تحروا الايمـان بطريق يهدى الى الحق مثل طريقكم فقد اهتدوا فان وحدة المقصد لاتأبى تعـدد الطريق فيأباه أن مقام تعيين طريق الحق وارشادهم اليه بعينه لايلائم تجويز أن يكون له طريق آخر وراءه ﴿وان تولوا﴾ أى أعرضوا عن الايمـان على الوجه المذكور بأن أخلوا بشىء من ذلك كأن آمنوا ببعض وكفروا ببعض كما هو دينهم وديدنهم ﴿فانمـاهم فى شقاق﴾ المشاقة والشقاق من الشق كالمخالفة والخلاف من الخلف والمعاداة والعداء من العـدوة أى الجانب فان أحد المخالفين يعرض عن الآخر صورة أو معنى ويوليه خلفه ويأخذ فى شق غير شقه وعدوة غير عدوته والتنوين للتفخيم أى هم مستقرون فى خلاف عظيم بعيد من الحق وهـذا لدفع مايتوهم من احتمال الوفاق بسبب ايمانهم ببعض ما آمن به المؤمنون والجملة اما جواب الشرط كما هى على أن المراد مشاقتهم الحادثة بعد توليهم عن الايمـان بجواب الشرطية الاولى وانمـا أوثرت الجملة الاسمية للدلالة على ثباتهم واستقرارهم فى ذلك واما بتأويل فاعلموا انمـاهم فى شقاق. هذاهو الذى يستدعيه فخامة شأن التنزيل الجليل وقد قيل قوله تعالى فان آمنوا الخ من باب التعجيز والتبكيت على منهاج قوله تعالى فأتوا بسورة من مثله والمعنى فان حصلوا دينا آخر مثل دينكم ممـاثلا له فى الصحة والسداد فقد اهتدوا واذ لاامكان له فلا امكان لاهتـدائهم ولا ريب فى أنه ممـا لايليق بجمل النظم الكريم عليه ولمـا دل تنكير الشقاق على امتناع الوفاق وأن ذلك ممـا يؤدى الى الجدال والقتال لامحالة عقب ذلك بتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفريح المؤمنين بوعد النصر والغلبة وضمان التأييد والاعزاز وعبر بالسين الدالة على تحقق الوقوع البتة فقيل ﴿فسيكفيكهم الله﴾ أى سيكفيك شقاقهم فان الكفاية لاتتعلق بالاعيان بل بالافعال وقد أنجز عز وجل وعده الكريم بقتـل بنى قريظة وسبيهم واجلاء بنى النضير وتلوين الخطاب بتجريده للنبى صلى الله عليه وسلم مع أن ذلك كفاية منه سبحانه للكل لمـا أنه الاصـل والعمدة فى ذلك وللايذان بأن القيام بأمور الحروب وتحمل المؤن والمشاق ومقاساة الشدائد فى مناهضة الاعداء من وظائف الرؤساء فنعمته تعالى فى الكفاية والنصر فى حقه عليه السلام أتم وأكمل ﴿وهو السميع العليم﴾ تذييل لمـا سبق من الوعد وتأكيد له والمعنى أنه تعالى يسمع ماتدعو به ويعلم مافى نيتك من اظهار الدين فيستجيب لك ويوصلك الى مرادك أو وعيد للكفرة أى يسمع ماينطقون به ويعلم مايضمرونه فى قلوبهم ممـا لاخير فيه وهو معاقبهم عليه ولا يخفى مافيه من تأكيد الوعد السابق فان وعيد الكفرة وعد للمؤمنين ﴿صبغة الله﴾ الصبغة من الصبغ كالجلسة من الجلوس وهى الحالة التى يقع عليها الصبغ عبر بهـا عن الايمان بمـا ذكر على الوجه الذى فصل لكونه تطهيرا للمؤمنين من أوضار الكفر وحلية تزينهم بآثاره الجميلة ومتداخلا فى قلوبهم كما أن شأن الصبغ بالنسبة الى الثوب كذلك وقيل للمشاكلة التقديرية فان النصارى كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه المعمودية ويزعمون أنه تطهير لهم وبه يحق نصرانيتهم واضافتها الى الله عز وجل مع استناده فيماسلف الى ضمير المتكلمين للتشريف والايذان بأنها عطية منه سبحانه لايستقل العبد بتحصيلها فهى اذن مصدر مؤكد لقوله تعالى آمنا داخل معه فى حيز قولوا منتصب عنه انتصاب وعد الله عما تقدمه لكونه بمثابة

فعله كأنه قيل صبغنا الله صبغة وقيل هى منصوبة بفعل الاغراء أى الزموا صبغة الله وانمـا وسط بينهما الشرطيتان وما بعدهما اعتناء ببيان أنه الايمـان الحق وبه الاهتداء ومسارعة الى تسليته عليه الصلاة والسلام ﴿ومن أحسن من الله﴾ مبتدأ وخبر والاستفهام للانكار والنفى وقوله تعالى ﴿صبغة﴾ نصب على التمييز من أحسن منقول من المبتدا والتقدير ومن صبغته أحسن من صبغته تعالى فالتفضيل جار بين الصبغتين لابين فاعليهما أى لاصبغة أحسن من صبغته تعالى على معنى أنهـا أحسن من كل صبغة على ماأشير اليه فى قوله تعالى ومن أظلم ممن منع الخ وحيث كان مدار التفضيل على تعميم الحسن الحقيقى والفرضى المبنى على زعم الكفرة لم يلزم منه أن يكون فى صبغة غيره تعالى حسن فى الجملة والجملة اعتراضية مقررة لمـا فى صبغة الله من معنى التبجح والابتهاج ﴿ونحن له﴾ أى لله الذى أولانا تلك النعمة الجليـلة ﴿عابدون﴾ شكرا لهـا ولسائر نعمه وتقديم الظرف للاهتمام ورعاية الفواصل وهو عطف على آمنا داخل معه تحت الامر وايثار الاسمية للاشعار بدوام العبادة أو على فعـل الاغراء بتقدير القول أى الزموا صبغة الله وقولوا نحن له عابدون فقوله تعالى ومن أحسن من الله صبغة حينئذ يجرى مجرى التعليل للاغراء ﴿قل أتحاجوننـا﴾ تجريد الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم عقيب الكلام الداخل تحت الامر الوارد بالخطاب العام لمـا أن المأمور به من الوظائف الخاصة به عليه الصلاة والسلام وقرىء بادغام النون والهمزة للانكار والتوبيخ أى أتجادلوننا ﴿فى الله﴾ أى فى دينه وتدعون أن دينه الحق هو اليهودية والنصرانية وتبنون دخول الجنة والاهتداء عليهما وتقولون تارة لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى وتارة كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ﴿وهو ربنـا وربكم﴾ جملة حالية وكذلك ماعطف عليها أى أتجادلوننا والحال أنه لاوجه للمجادلة أصلا لأنه تعالى ربنـا أى مالك أمرنا وأمركم ﴿ولنـا أعمالنا﴾ الحسنة الموافقة لأمره ﴿ولكم أعمالكم﴾ السيئة المخالفة لحكمه ﴿ونحن له مخلصون﴾ فى تلك الاعمال لانبتغى بهـا الا وجهه فأنى لكم المحاجة وادعاء حقية ماأنتم عليه والطمع فى دخول الجنة بسببه ودعوة الناس اليه وكلمة أم فى قوله تعالى ﴿أم تقولون﴾ اما معادلة للهمزة فى قوله تعالى أتحاجوننا داخلة فى حيز الامر على معنى أى الامرين تأتون اقامة الحجة وتنوير البرهان على حقية ماأنتم عليـه والحال ماذكر أم التشبث بذيل التقليد والافتراء على الانبياء وتقولون ﴿ان ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والأسـباط كانوا هودا أو نصارى﴾ فنحن بهم مقتـدون والمراد انكار كلا الامرين والتوبيخ عليهما واما منقطعة مقدرة ببل والهمزة دالة على الاضراب والانتقال من التوبيخ على المحـاجة الى التوبيخ على الافتراء على الانبياء عليهم السلام وقرىء أم يقولون على صيغة الغيبة فهى منقطعة لاغير غير داخلة تحت الامر واردة من جهته تعالى توبيخا لهم وانكارا عليهم لامن جهته عليه السلام على نهج الالتفات كما قيل. هذا وأما ماقيل من أن المعنى أتحاجوننا فى شأن الله واصطفائه نبيا من العرب دونكم لمـا روى أن أهل الكتاب قالوا الانبياء كلهم منا فلو كنت نبيا لكنت منا فنزلت ومعنى قوله تعالى وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمـالكم أنه لااختصاص له تعالى بقوم دون قوم يصيب برحمته من يشاء من عباده فلايبعد أن يكرمنا بأعمـالنا كما أكرمكم بأعمالكم كأنه ألزمهم على كل مذهب ينتحونه الخاما وتبكيتا فان كرامة النبوة اما تفضل من الله تعالى على من يشاء فالكل فيه سواء واما افاضة حق على المستحقين لهـا بالمواظبة على الطاعة والتحلى بالاخلاص فكما أن لكم أعمالا ربمـا يعتبرها الله تعالى فى اعطائها فلنا أيضا أعمال ونحن له مخلصون أى لاأنتم فمع عدم ملاءمته لسياق النظم الكريم وسياقه لاسيما على تقدير كون كلمة أم معادلة للهمزة غير صحيح فى نفسه لمـا أن المراد بالاعمال من الطرفين ماأشير اليه من الاعمـال الصالحة والسيئة ولا ريب فى أن أمر الصلاح والسوء يدور على موافقة الدين المبنى على البعثة ومخالفته فكيف يتصور اعتبار تلك الاعمال

فى استحقاق النبوة واستعدادها المتقدم على البعثة بمراتب ﴿قل أأنتم أعلم أم الله﴾ اعادة الامر ليست لمجرد تأكيد التوبيخ وتشديد الانكار عليهم بل للايذان بأن ما بعده ليس متصلا بما قبله بل بينهما كلام للمخاطبين مترتب على ما سبق مستتبع لما الحق قد ضرب عنه الذكر صفحا لظهوره وهو تصريحهم بما و بخوا عليه من الافتراء على الانبياء عليهم السلام كما فى قوله عز وجل قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون قال فما خطبكم أيها المرسلون وقوله عز قائلا قال أأسجد لمن خلقت طينا قال أرأيتك هذا الذى كرمت على فان تكرير قال فى الموضعين وتوسيطه بين قولى قائل واحد للايذان بان بينهما كلاما لصاحبه متعلقاً بالاول والثانى بالتبعية والاستتباع كما حرر فى محله أى كذبهم فى ذلك و بكتهم قائلا ان الله يعلم وأنتم لا تعلمون وقد نفى عن ابراهيم عليه السلام كلا الامرين حيث قال ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا واحتج عليه بقوله تعالى وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده وهؤلاء المعطوفون عليه عليه السلام أتباعه فى الدين وفاقا فكيف تقولون ماتقولون سبحان الله عما تصفون ﴿ومن أظلم﴾ انكار لان يكون أحد أظلم ﴿ممن كتم شهادة﴾ ثابتة ﴿عنده﴾ كائنة ﴿من الله﴾ وهى شهادته تعالى له عليه السلام بالحنيفية والبراءة من اليهودية والنصرانية حسبما تلى آنفا فعنده صفة لشهادة و كذا من الله جيء بهما لتعليل الانكار و تأكيده فان ثبوت الشهادة عنده و كونها من جناب الله عز وجل من أقوى الدواعى الى اقامتها وأشد الزواجر عن كتمانها وتقديم الاول مع أنه متأخر فى الوجود لمراعاة طريقة الترقى من الادنى الى الأعلى والمعنى أنه لا أحد أظلم من أهل الكتاب حيث كتموا هذه الشهادة وأثبتوا نقيضها بما ذكر من الافتراء وتعليق الاظلمية بمطلق الكتمان للايماء الى أن مرتبة من يردها و يشهد بخلافها فى الظلم خارجة عن دائرة البيان أو لا أحد أظلم منا لو كتمناها فالمراد بكتمها عدم اقامتها فى مقام المحاجة وفيه تعريض بغاية أظلمية أهل الكتاب على نحو ما أشير اليه وفى اطلاق الشهادة مع أن المراد بها ما ذكر من الشهادة المعينة تعريض بكتمانهم شهادة الله عز وجل للنبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة والانجيل ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ من فنون السيئات فيدخل فيها كتمانهم لشهادته سبحانه وافتراؤهم على الأنبياء عليهم الصلاة السلام دخولا أوليا أى هو محيط بجميع ما تأتون وما تذرون فيعاقبكم بذلك أشد عقاب وقرى عما يعملون على صيغة الغيبة فالضمير اما لمن كتم باعتبار المعنى واما لأهل الكتاب وقوله تعالى ومن أظلم الى آخر الآية مسوق من جهته تعالى لوصفهم بغاية الظلم وتهديدهم بالوعيد ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ تكرير للمبالغة فى الزجر عما هم عليه من الافتخار بالآباء والاتكال على أعمالهم وقيل الخطاب السابق لهم وهذا لنا تحذيرا عن الاقتداء بهم وقيل المراد بالأمة الأولى الأنبياء عليهم السلام وبالثانية أسلاف اليهود ﴿سيقول السفهاء﴾ أى الذين خفت أحلامهم واستمهنوها بالتقليد والاعراض عن التدبر والنظر من قولهم ثوب سفيه اذا كان خفيف النسج وقيل السفيه البهات الكذاب المتعمد خلاف ما يعلم وقيل الظلوم الجهول والمراد بالسفهاء هم اليهود على ما روى عن ابن عباس ومجاهد رضى الله عنهم قالوه انكارا للنسخ و كراهة للتحويل حيث كانوا يأنسون بموافقته عليه الصلاة والسلام لهم فى القبلة وقيل هم المنافقون وهو الأنسب بقوله عز وعلا ألا انهم هم السفهاء وانما قالوه لمجرد الاستهزاء والطعن لا لاعتقادهم حقية القبلة الاولى و بطلان الثانية اذ ليس كلهم من اليهود وقيل هم المشركون ولم يقولوه كراهة للتحويل الى مكة بل طعنا فى الدين فانهم كانوا يقولون رغب عن قبلة آبائه ثم رجع اليها وليرجعن الى دينهم أيضا وقيل هم القادحون فى التحويل منهم جميعا فيكون قوله تعالى ﴿من الناس﴾ أى الكفرة لبيان أن ذلك القول المحكى لم يصدر عن كل فرد فرد من تلك الطوائف الثلاث بل عن أشقيائهم المعتادين للخوض فى فنون الفساد وهو الاظهر اذ لو أريد بهم طائفة مخصوصة منهم لما كان لبيان كونهم من الناس مزيد فائدة وتخصيص سفهائهم بالذكر لا يقتضى تسليم الباقين

للتحويل وارتضاءهم اياه بل عدم التفوه بالقدح مطلقا أو بالعبارة المحكية ﴿ما ولاهم﴾ أى أى شيء صرفهم والاستفهام للانكار والنفى ﴿عن قبلتهم﴾ القبلة فعلة من المقابلة كالوجهة من المواجهة وهى الحالة التى يقابل الشيء غيره عليها كالجلسة للحالة التى يقع عليها الجلوس يقال لا قبلة له و لا دبرة اذا لم يهتد لجهة أمره غلبت على الجهة التى يستقبلها الانسان فى الصلاة والمراد بها ههنا بيت المقدس واضافتها الى ضمير المسلمين و وصفها بقوله تعالى ﴿التى كانوا عليها﴾ أى ثابتين مستمرين على التوجه اليها ومراعاتها واعتقاد حقيتها لتأكيد الانكار فان الاختصاص بالشيء والاستمرار عليه باعتقاد حقيته مما ينافى الانصراف عنه فان أريد بالقائلين اليهود فمدار الانكار كراهتهم للتحويل عنها و زعمهم أنه خطأ وان أريد بهم المشركون فمداره مجرد القصد الى الطعن فى الدين والقدح فى أحكامه واظهار أن كلا من التوجه اليها والانصراف عنها واقع بغير داع اليه لا لكراهتهم الانصراف عنها أو التوجه الى مكة وتعليق الانكار بما يوليهم عنها لا بما يوجههم الى غيرها مع تلازمهما فى الوجود لما أن ترك الدين القديم أبعد عند العقول وانكار سببه أدخل لا للايذان بأن المنكرين هم اليهود بناء على أن المنكر عندهم هو التحويل عن خصوصية بيت المقدس الذى هو القبلة الحقة عندهم لا التوجه الى خصوصية قبلة أخرى أو هم المشركون بناء على أن المنكر عندهم ترك القبلة القديمة على وجه الطعن والقدح لا التوجه الى الكعبة لانه الحق عندهم فانه بمعزل عن ذلك كيف لا و المنافقون من أحد الفريقين لا محالة والاخبار بذلك قبل الوقوع مع كونه من دلائل النبوة حيث وقع كما أخبر لتوطين النفوس واعداد ما يبكتهم فان مفاجأة المكروه على النفس أشق وأشد والجواب العتيد لشغب الخصم الألد أرد وقوله عز وجل ﴿قل لله المشرق والمغرب﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا أقول عند ذلك فقيل قل الخ أى لله تعالى ناحيتا الارض أى الجهات كلها ملكا وملكا وتصرفا فلا اختصاص لناحية منها لذاتها بكونها قبلة بدون ماعداها بل انما هو بأمر الله سبحانه ومشيئته ﴿يهدى من يشاء﴾ أن يهديه مشيئة تابعة للحكم الخفية التى لا يعلمها الا هو ﴿الى صراط مستقيم﴾ موصل الى سعادة الدارين وقد هدانا الى ذلك حيث أمرنا بالتوجه الى بيت المقدس تارة والى الكعبة أخرى حسبما تقتضيه مشيئته المقارنة لحكم أبية ومصالح خفية ﴿و كذلك جعلناكم﴾ توجيه للخطاب الى المؤمنين بين الخطابين المختصين بالرسول صلى الله عليه وسلم لتأييد ما فى مضمون الكلام من التشريف وذلك اشارة الى مصدر جعلناكم لا الى جعل آخر مفهوم مما سبق كما قيل وتوحيد الكاف مع القصد الى المؤمنين لما أن المراد مجرد الفرق بين الحاضر والمنقضى دون تعيين المخاطبين وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجة المشار اليه و بعد منزلته فى الفضل وكمال تميزه به وانتظامه بسببه فى سلك الأمور المشاهدة والكاف لتأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة ومحلها فى الأصل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير جعلناكم أمة وسطا جعلا كائنا مثل ذلك الجعل فقدم على الفعل لافادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة للنكتة المذكورة فصار نفس المصدر المؤكد لا نعتا له أى ذلك الجعل البديع جعلناكم ﴿أمة وسطا﴾ لا جعلا آخر أدنى منه والوسط فى الأصل اسم لما يستوى نسبة الجوانب اليه كمركز الدائرة ثم استعير للخصال المحمودة البشرية لكن لا لأن الأطراف يتسارع اليها الخلل والاعواز والاوساط محمية محوطة كما قيل واستشهد عليه بقول ابن أوس الطائى

كانت هى الوسط المحمى فاكتنفت ... بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

فان تلك العلاقة بمعزل من الاعتبار فى هذا المقام اذ لا ملابسة بينها و بين أهلية الشهادة التى جعلت غاية للجعل المذكور بل لكون تلك الخصال أوساطا للخصال الذميمة المكتنفة بها من طرفى الافراط والتفريط كالعفة التى طرفاها الفجور والخمود وكالشجاعة التى طرفاها التهور والجبن وكالحكمة التى طرفاها الجربزة والبلادة و كالعدالة التى هى كيفية

متشابهة حاصلة من اجتماع تلك الأوساط المحفوفة بأطرافها ثم أطلق على المتصف بها مبالغة كأنه نفسها وسوى فيه بين المفرد والجمع والمذكر والمؤنث رعاية لجانب الأصل كدأب سائر الأسماء التى يوصف بها وقد روعيت ههنا نكتة رائقة هى أن الجعل المشار اليه عبارة عما تقدم ذكره من هدايته تعالى الى الحق الذى عبر عنه بالصراط المستقيم الذى هو الطريق السوى الواقع فى وسط الطرق الجائرة عن القصد الى الجوانب فانا اذا فرضنا خطوطا كثيرة واصلة بين نقطتين متقابلتين فالخط المستقيم انما هو الخط الواقع فى وسط تلك الخطوط المنحنية ومن ضرورة كونه وسطا بين الطرق الجائرة كون الامة المهدية اليه أمة وسطا بين الأمم السالكة الى تلك الطرق الزائغة أى متصفة بالخصال الحميدة خيارا وعدولا مزكين بالعلم والعمل ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ بأن الله عز وجل قد أوضح السبل وأرسل الرسل فبلغوا ونصحوا وذكروا فهل من مدكر وهى غاية للجعل المذكور مترتبة عليه فان العدالة كما أشير اليه حيث كانت هى الكيفية المتشابهة المتألفة من العفة التى هى فضيلة القوة الشهوية البهيمية والشجاعة التى هى فضيلة القوة الغضبية السبعية والحكمة التى هى فضيلة القوة العقلية الملكية المشار الى رتبتها بقوله عز وعلا ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا كان المتصف بها واقفا على الحقائق المودعة فى الكتاب المبين المنطوى على أحكام الدين وأحوال الأمم أجمعين حاويا لشرائط الشهادة عليهم. روى أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الانبياء عليهم السلام فيطالبهم الله تعالى بالبينة وهو أعلم اقامة للحجة على المنكرين وزيادة لخزيهم بأن كذبهم من بعدهم من الأمم فيؤتى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيشهدون فيقول الأمم من أين عرفتم فيقولون علمنا ذلك باخبار الله تعالى فى كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق فيؤتى عند ذلك بالنبى صلى الله عليه وسلم ويسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم وذلك قوله عز قائلا ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ وكلمة الاستعلاء لما فى الشهيد من معنى الرقيب والمهيمن وقيل لتكونوا شهداء على الناس فى الدنيا فيما لا يقبل فيه الشهادة الا من العدول الاخيار وتقديم الظرف للدلالة على اختصاص شهادته عليه السلام بهم ﴿وما جعلنا القبلة التى كنت عليها﴾ جرد الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم رمزا الى أن مضمون الكلام من الاسرار الحقيقة بأن يخص معرفته به عليه السلام وليس الموصول صفة للقبلة بل هو مفعول ثان للجعل وماقيل من أن الجعل تحويل الشئ من حالة الى أخرى فالملتبس بالحالة الثانية هو المفعول الثانى كما فى قولك جعلت الطين خزفا فينبغى أن يكون المفعول الأول هو الموصول والثانى هو القبلة فكلام صناعى ينساق اليه الذهن بحسب النظر الجليل ولكن التأمل اللائق يهدى الى العكس فان المقصود افادته ليس جعل الجهة قبلة لاغير كما يفيده ماذكر بل هو جعل القبلة المحققة الوجود هذه الجهة دون غيرها والمراد بالموصول هى الكعبة فانه عليه الصلاة والسلام كان يصلى اليها أولا ثم لما هاجر أمر بالصلاة الى الصخرة تألفا لليهود أو هى الصخرة لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أن قبلته عليه السلام بمكة كانت بيت المقدس الا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينه وعلى هذه الرواية لا يمكن أن يراد بالقبلة الاولى الكعبة وأما الصخرة فيتأتى ارادتها على الروايتين والمعنى على الأول وما جعلنا القبلة الجهة التى كنت عليها آثر ذى أثير وهى الكعبة وعلى الثانى وما جعلناها التى كنت عليها قبل هذا الوقت وهى الصخرة ﴿الا لنعلم﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل أى وما جعلنا ذلك لشئ من الاشياء الا لنمتحن الناس أى نعاملهم معاملة من يمتحنهم ونعلم حينئذ ﴿من يتبع الرسول﴾ فى التوجه الى ما أمر به من الدين أو القبلة والالتفات الى الغيبة مع ايراده عليه السلام بعنوان الرسالة للاشعار بعلة الاتباع ﴿ممن ينقلب على عقبيه﴾ يرتد عن دين الاسلام أو لا يتوجه الى القبلة الجديدة أو لنعلم الآن من يتبع الرسول ممن لا يتبعه وما كان لعارض يزول بزواله وعلى الأول ما رددناك الى ما كنت عليه الا لنعلم الثابت على الاسلام والناكص على عقبيه لقلقه وضعف ايمانه والمراد بالعلم

مايدور عليه فلك الجزاء من العلم الحالى أى ليتعلق علمنا به موجودا بالفعل وقيل المراد علم الرسول عليه السلام والمؤمنين واسناده اليه سبحانه لما أنهم خواصه وليتميز الثابت عن المتزلزل كقوله تعالى ليميز الله الخبيث من الطيب فوضع العلم موضع التمييز الذى هو مسبب عنه ويشهد له قراءة ليعلم على بناء المجهول من صيغة الغيبة والعلم اما بمعنى المعرفة أو متعلق بما فى من من معنى الاستفهام أو مفعوله الثانى ممن ينقلب الخ أى لنعلم من يتبع الرسول متميزا ممن ينقلب على عقبيه ﴿وان كانت لكبيرة﴾ أى شاقة ثقيلة وان هى المخففة من الثقيلة دخلت على ناسخ المبتدا والخبر واللام هى الفارقة بينها وبين النافية كما فى قوله تعالى ان كان وعد ربنا لمفعولا وزعم الكوفيون أنها نافية واللام بمعنى الا أى ما كانت الا كبيرة والضمير الذى هو اسم كان راجع الى مادل عليه قوله تعالى وما جعلنا القبلة التى كنت عليها من الجعلة أو التولية أو التحويلة أو الردة أو القبلة وقرئ لكبيرة بالرفع على أن كان مزيدة كما فى قوله وإخوان لنا كانوا كرام وأصله وان هى لكبيرة كقوله ان زيد لمنطلق ﴿الا على الذين هدى الله﴾ أى الى سر الاحكام الشرعية المبنية على الحكم والمصالح اجمالا وتفصيلا وهم المهديون الى الصراط المستقيم الثابتون على الايمان واتباع الرسول عليه السلام ﴿وما كان الله ليضيع ايمانكم﴾ أى ما صح وما استقام له أن يضيع ثباتكم على الايمان بل شكر صنيعكم وأعد لكم الثواب العظيم وقيل إيمانكم بالقبلة المنسوخة وصلاتكم اليها لما روى أنه عليه السلام لما توجه الى الكعبة قالوا كيف حال اخواننا الذين مضوا وهم يصلون الى بيت المقدس فنزلت واللام فى ليضيع اما متعلقة بالخبر المقدر لكان كما هو رأى البصرية وانتصاب الفعل بعدها بأن المقدرة أى ما كان الله مريدا أو متصديا لأن يضيع الخ ففى توجيه النفى الى ارادة الفعل تأكيد ومبالغة ليس فى توجيهه الى نفسه واما مزيدة للتأكيد ناصبة للفعل بنفسها كما هو رأى الكوفية ولا يقدح فى ذلك زيادتها كما لا يقدح زيادة حروف الجر فى عملها وقوله تعالى ﴿ان الله بالناس لرؤف رحيم﴾ تحقيق وتقرير للحكم وتعليل له فان اتصافه عز وجل بهما يقتضى لا محالة أن لا يضيع أجورهم ولا يدع ما فيه صلاحهم والباء متعلقة برؤف وتقديمه على رحيم مع كونه أبلغ منه لما مر فى وجه تقديم الرحمن على الرحيم وقيل الرحمة أكثر من الرأفة فى الكمية والرأفة أقوى منها فى الكيفية لانها عبارة عن ايصال النعم الصافية عن الآلام والرحمة ايصال النعمة مطلقا وقد يكون مع الألم كقطع العضو المتأكل وقرئ رؤف بغير مد كندس ﴿قد نرى تقلب وجهك فى السماء﴾ أى تردده وتصرف نظرك فى جهتها تطلعا للوحى وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقع فى روعه ويتوقع من ربه عز وجل أن يحوله الى الكعبة لأنها قبلة ابراهيم وأدعى للعرب الى الايمان لأنها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم ولمخالفة اليهود فكان يراعى نزول جبريل بالوحى بالتحويل ﴿فلنولينك قبلة﴾ الفاء للدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها وهى فى الحقيقة داخلة على قسم محذوف يدل عليه اللام أى فوالله لنولينك أى لنعطينكها ولنمكننك من استقبالها من قولك وليته كذا أى صيرته واليا له أو لنجعلنك تلى جهتها أو لنحولنك على أن نصب قبلة بحذف الجار أى الى قبلة وقيل هو متعد الى مفعولين ﴿ترضاها﴾ تحبها وتشتاق اليها لمقاصد دينية وافقت مشيئته تعالى وحكمته ﴿فول وجهك﴾ الفاء لتفريع الأمر بالتولية على الوعد الكريم وتخصيص التولية بالوجه لما أنه مدار التوجه ومعياره وقيل المراد به كل البدن أى فاصرفه ﴿شطر المسجد الحرام﴾ أى نحوه وهو نصب على الظرفية من ول أو على نزع الخافض أو على أنه مفعول ثان له وقيل الشطر فى الاصل اسم لما انفصل من الشئ ودار شطور اذا كانت منفصلة عن الدور ثم استعمل لجانبه وان لم ينفصل كالقطر والحرام المحرم أى محرم فيه القتال أو ممنوع من الظلمة أن يتعرضوا له وفى ذكر المسجد الحرام دون الكعبة ايذان بكفاية مراعاة الجهة لأن فى مراعاة العين من البعيد حرجا عظيما بخلاف القريب. روى عن البراء ابن عازب أن نبى الله صلى الله

عليه وسلم قدم المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا ثم وجه الى الكعبة وقيل كان ذلك فى رجب بعد زوال الشمس قبل قتال بدر بشهرين ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد بنى سلمة وقد صلى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر فتحول فى الصلاة واستقبل الميزاب وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال فسمى المسجد مسجد القبلتين ﴿وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ خص الرسول صلى الله عليه وسلم بالخطاب تعظيما لجنابه وايذانا باسعاف مرامه ثم عم الخطاب للمؤمنين مع التعرض لاختلاف أماكنهم تأكيدا للحكم وتصريحا بعمومه لكافة العباد من كل حاضر وباد وحثا للامة على المتابعة وحيثما شرطية وكنتم فى محل الجزم بها وقوله تعالى فولوا جوابها وتكون هى منصوبة على الظرفية بكنتم نحو قوله تعالى أياما تدعوا فله الاسماء الحسنى ﴿وان الذين أوتوا الكتاب﴾ من فريق اليهود والنصارى ﴿ليعلمون أنه﴾ أى التحويل أو التوجه المفهوم من التولية ﴿الحق﴾ لاغير لعلمهم بأن عادته سبحانه وتعالى جارية على تخصيص كل شريعة بقبلة ومعاينتهم لما هو مسطور فى كتبهم من أنه عليه الصلاة والسلام يصلى الى القبلتين كما يشعر بذلك التعبير عنهم بالاسم الموصول بايتاء الكتاب وان مع اسمها وخبرها ساد مسد مفعولى يعلمون أو مسد مفعوله الواحد على أن العلم بمعنى المعرفة وقوله تعالى ﴿من ربهم﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من الحق أى كائنا من ربهم أو صفة له على رأى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أى الكائن من ربهم ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ وعد ووعيد للفريقين والخطاب للكل تغليبا وقرئ على صيغة الغيبة فهو وعيد لأهل الكتاب ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب﴾ وضع الموصول موضع المضمر للايذان بكمال سوء حالهم من العناد مع تحقق ما يرغمهم منه من الكتاب الناطق بحقية ما كابروا فى قبوله ﴿بكل آية﴾ أى حجة قطعية دالة على حقية التحويل واللام موطئة للقسم وقوله تعالى ﴿ما تبعوا قبلتك﴾ جواب للقسم المضمر ساد مسد جواب الشرط والمعنى أنهم ما تركوا قبلتك لشبهة تزيلها الحجة وانما خالفوك مكابرة وعنادا وتجريد الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم بعد تعميمه للامة لما أن المحاجة والاتيان بالآية من الوظائف الخاصة به عليه السلام وقوله تعالى ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ جملة معطوفة على الجملة الشرطية لا على جوابها مسوقة لقطع أطماعهم الفارغة حيث قالت اليهود لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبنا الذى ننتظره تغريرا له عليه الصلاة والسلام وطمعا فى رجوعه وايثار الجملة الاسمية للدلالة على دوام مضمونها واستمراره وافراد قبلتهم مع تعددها باعتبار اتحادها فى البطلان ومخالفة الحق ولئلا يتوهم أن مدار النفى هو التعدد وقرئ بتابع قبلتهم على الاضافة ﴿وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾ فان اليهود تستقبل الصخرة والنصارى مطلع الشمس لا يرجى توافقهم كما لا يرجى موافقتهم لك لتصلب كل فريق فيما هو فيه ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ الزائغة المتخالفة ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ ببطلانها وحقية ما أنت عليه وهذه الشرطية الفرضية واردة على منهاج التهييج والالهاب للثبات على الحق أى ولئن اتبعت أهواءهم فرضا ﴿انك اذا لمن الظالمين﴾ وفيه لطف للسامعين وتحذير لهم عن متابعة الهوى فان من ليس من شأنه ذلك اذا نهى عنه ورتب على فرض وقوعه ما رتب من الانتظام فى سلك الراسخين فى الظلم فما ظن من ليس كذلك واذن حرف جواب وجزاء توسطت بين اسم ان وخبرها لتقرير ما بينهما من النسبة اذ كان حقها أن تتقدم أو تتأخر فلم تتقدم لئلا يتوهم أنها لتقرير النسبة التى بين الشرط وجوابه المحذوف لأن المذكور جواب القسم ولم تتأخر لرعاية الفواصل ولقد بولغ فى التأكيد من وجوه تعظيما للحق المعلوم وتحريضا على اقتفائه وتحذيرا عن متابعة الهوى واستعظاما لصدور الذنب من الانبياء عليهم السلام ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ أى علماءهم اذهم العمدة فى إثباته ووضع الموصول موضع المضمر مع قرب العهد للاشعار بعلية ما فى حيز الصلة للحكم والضمير المنصوب فى قوله تعالى ﴿يعرفونه﴾ للرسول صلى الله عليه وسلم

والالتفات الى الغيبة للايذان بأن المراد ليس معرفتهم له عليه السلام من حيث ذاته ونسبه الزاهر بل من حيث كونه مسطورا فى الكتاب منعوتا فيه بالنعوت التى من جملتها أنه عليه السلام يصلى الى القبلتين كأنه قيل الذين آتيناهم الكتاب يعرفون من وصفناه فيه وبهذا يظهر جزالة النظم الكريم وقيل هو اضمار قبل الذكر للاشعار بفخامة شأنه عليه الصلاة والسلام أنه علم معلوم بغير اعلام فتأمل وقيل الضمير للعلم أو سببه الذى هو الوحى أو القرآن أو التحويل ويؤيد الاول قوله عز وجل ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ أى يعرفونه عليه الصلاة والسلام بأوصافه الشريفة المكتوبة فى كتابهم ولا يشتبه عليهم كما لا يشتبه أبناؤهم وتخصيصهم بالذكر دون ما يعم البنات لكونهم أعرف عندهم منهن بسبب كونهم أحب اليهم عن عمر رضى الله عنه أنه سأل عبد الله بن سلام رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أنا أعلم به منى بابنى قال ولم قال لأنى لست أشك فيه أنه نبى فأما ولدى فلعل والدته خانت فقبل عمر رأسه رضى الله عنهما ﴿وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ هم الذين كابروا وعاندوا الحق والباقون هم الذين آمنوا منهم فانهم يظهرون الحق ولا يكتمونه وأما الجهلة منهم فليست لهم معرفة بالكتاب ولا بما فى تضاعيفه فما هم بصدد الاظهار ولا بصدد الكتم وانما كفرهم على وجه التقليد ﴿الحق﴾ بالرفع على أنه مبتدأ وقوله تعالى ﴿من ربك﴾ خبره واللام للعهد والاشارة الى ما عليه النبى صلى الله عليه وسلم أو الى الحق الذى يكتمونه أو للجنس والمعنى أن الحق ما ثبت أنه من الله تعالى كالذى أنت عليه لاغيره كالذى عليه أهل الكتاب أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هو الحق وقوله تعالى من ربك اما حال أو خبر بعد خبر وقرئ بالنصب على أنه بدل من الاول أو مفعول ليعلمون وفى التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام من اظهار اللطف به عليه السلام ما لا يخفى ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ أى الشاكين فى كتمانهم الحق عالمين به وقيل فى أنه من ربك وليس المراد به نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الشك فيه لأنه غير متوقع منه عليه السلام وليس بقصد واختيار بل اما تحقيق الأمر وأنه بحيث لا يشك فيه ناظر أو أمر الأمة باكتساب المعارف المزيحة للشك على الوجه الأبلغ ﴿ولكل﴾ أى ولكل أمة من الأمم على أن التنوين عوض من المضاف اليه ﴿وجهة﴾ أى قبلة وقد قرئ كذلك أو لكل قوم من المسلمين جانب من جوانب الكعبة ﴿هو موليها﴾ أحد المفعولين محذوف أى موليها وجهه أو الله موليها اياه وقرئ ولكل وجهة بالاضافة والمعنى ولكل وجهة الله موليها أهلها واللام مزيدة للتأكيد وجبر ضعف العامل وقرئ مولاها أى مولى تلك الجهة قد وليها ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أى تسابقوا اليها بنزع الجار كما فى قوله

ثنائى عليكم آل حرب ومن يمل سواكم فانى مهتد غير مائل

وهو أبلغ من الأمر بالمسارعة لما فيه من الحث على احراز قصب السبق والمراد بالخيرات جميع أنواعها من أمر القبلة وغيره مما ينال به سعادة الدارين أو الفاضلات من الجهات وهى المسامتة للكعبة ﴿أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا﴾ أى فى أى موضع تكونوا من موافق أو مخالف مجتمع الأجزاء أو متفرقها يحشركم الله تعالى الى المحشر للجزاء أو أينما تكونوا من أعماق الأرض وقلل الجبال يقبض أرواحكم أو أينما تكونوا من الجهات المختلفة المتقابلة يجعل صلواتكم كأنها صلاة الى جهة واحدة ﴿ان الله على كل شىء قدير﴾ فيقدر على الاماتة والاحياء والجمع فهو تعليل للحكم السابق ﴿ومن حيث خرجت﴾ تأكيد لحكم التحويل وتصريح بعدم تفاوت الأمر فى حالتى السفر والحضر ومن متعلقة بقوله تعالى ﴿فول﴾ أو بمحذوف عطف هو عليه أى من أى مكان خرجت اليه للسفر فول ﴿وجهك﴾ عند صلاتك ﴿شطر المسجد الحرام﴾ أو افعل ما أمرت به من أى مكان خرجت اليه فول الخ ﴿وانه﴾ أى هذا

الأمر ﴿للحق من ربك﴾ أى الثابت الموافق للحكمة ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ فيجازيكم بذلك أحسن جزاء فهو وعد للمؤمنين وقرئ يعملون على صيغة الغيبة فهو وعيد للكافرين ﴿ومن حيث خرجت﴾ اليه فى أسفارك ومغازيك من المنازل القريبة والبعيدة ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ الكلام فيه كما مر آنفا ﴿وحيثما كنتم﴾ من أقطار الأرض مقيمين أومسافرين حسبما يعرب عنه ايثار كنتم على خرجتم فان الخطاب عام لكافة المؤمنين المنتشرين فى الآفاق من الحاضرين والمسافرين فلو قيل وحيثما خرجتم لما تناول الخطاب المقيمين فى الأماكن المختلفة من حيث اقامتهم فيها ﴿فولوا وجوهكم﴾ من محالكم ﴿شطره﴾ والتكرير لما أن القبلة لها شأن خطير والنسخ من مظان الشبهة والفتنة فبالحرى أن يؤكد أمرها مرة غب أخرى مع أنه قد ذكر فى كل مرة حكمة مستقلة ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ متعلق بقوله تعالى فولوا وقيل بمحذوف يدل عليه الكلام كأنه قيل فعلنا ذلك لئلا الخ والمعنى أن التولية عن الصخرة تدفع احتجاج اليهود بأن المنعوت فى التوراة من أوصافه أنه يحول الى الكعبة واحتجاج المشركين بأنه يدعى ملة ابراهيم ويخالف قبلته ﴿الا الذين ظلموا منهم﴾ وهم أهل مكة أى لئلا يكون لأحد من الناس حجة الا المعاندين منهم الذين يقولون ماتحول الى الكعبة الاميلا الى دين قومه وحبا لبلده أو بداله فرجع الى قبلة آبائه ويوشك أن يرجع الى دينهم وتسمية هذه الكلمة الشنعاء حجة مع أنها أخس الأباطيل من قبيل مافى قوله تعالى حجتهم داحضة حيث كانوا يسوقونها مساق الحجة وقيل الحجة بمعنى مطلق الاحتجاج وقيل الاستثناء للمبالغة فى نفى الحجة رأسا كالذى فى قوله

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

ضرورة أن لاحجة للظالم وقرئ ألا الذين بحرف التنبيه على أنه استئناف ﴿فلا تخشوهم﴾ فان مطاعنهم لاتضركم شيئاً ﴿واخشونى﴾ فلا تخالفوا أمرى ﴿ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون﴾ علة لمحذوف يدل عليه النظم الكريم أى وأمرتكم بما مر لاتمام النعمة عليكم لما أنه نعمة جليلة ولارادتى اهتدائكم لما أنه صراط مستقيم مؤد الى سعادة الدارين كما أشير اليه فى قوله عز وجل يهدى من يشاء الى صراط مستقيم وفى التعبير عن الارادة بكلمة لعل الموضوعة للترجى على طريقة الاستعارة التبعية من الدلالة على كمال العناية بالهداية مالايخفى أوعطف على علة مقدرة أى واخشونى لأحفظكم عنهم وأتم الخ أوعلى قوله تعالى لئلا يكون الخ وتوسيط قوله تعالى فلا تخشوهم الخ بينهما للمسارعة الى التسلية والتثبيت وفى الخبر تمام النعمة دخول الجنة وعن على رضى الله عنه تمام النعمة الموت على الاسلام ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم﴾ متصل بما قبله والظرف الاول متعلق بالفعل قدم على مفعوله الصريح لما فى صفاته من الطول والظرف الثانى متعلق بمضمر وقع صفة لرسولا مبينة لتمام النعمة أى ولأتم نعمتى عليكم فى أمر القبلة أو فى الآخرة اتماما كائنا كاتمامى لها بارسال رسول كائن منكم فان ارسال الرسول لاسيما المجانس لهم نعمة لايكافئها نعمة قط وقيل متصل بما بعده أى كما ذكرتم بالارسال فاذكرونى الخ وايثار صيغة المتكلم مع الغير بعد التوحيد فيما قبله افتنان وجريان على سنن الكبرياء ﴿يتلو عليكم آياتنا﴾ صفة ثانية لرسول كاشفة لكمال النعمة ﴿ويزكيكم﴾ عطف على يتلو أى يحملكم على ماتصيرون به أزكياء ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ صفة أخرى مترتبة فى الوجود على التلاوة وانما وسط بينهما التزكية التى هى عبارة عن تكميل النفس بحسب القوة العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل بالتعليم المترتب على التلاوة للايذان بأن كلا من الأمور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر فلو روعى ترتيب الوجود كما فى قوله تعالى وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم لتبادر الى الفهم كون الكل نعمة واحدة كما مر نظيره فى قصة البقرة وهو السر فى التعبير عن القرآن تارة بالآيات وأخرى بالكتاب

والحكمة رمزاً الى أنه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة ولايقدح فيه شمول الحكمة لما فى تضاعيف الأحاديث الشريفة من الشرائع وقوله عز وجل ﴿ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون﴾ صريح فى ذلك فان الموصول مع كونه عبارة عن الكتاب والحكمة قطعا قد عطف تعليمه على تعليمهما وماذلك الا لتفصيل فنون النعم فى مقام يقتضيه كما فى قوله تعالى ونجيناهم من عذاب غليظ عقيب قوله تعالى نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا والمراد بعدم علمهم أنه ليس من شأنهم أن يعلموه بالفكر والنظر وغير ذلك من طرق العلم لانحصار الطريق فى الوحى ﴿فاذكرونى﴾ الفاء للدلالة على ترتب الامر على ماقبله من موجباته أى فاذكرونى بالطاعة ﴿أذكركم﴾ بالثواب وهو تحريض على الذكر مع الاشعار بما يوجبه ﴿واشكروا لى﴾ ماأنعمت به عليكم من النعم ﴿ولا تكفرون﴾ بجحدها وعصيان ماأمرتكم به ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ وصفهم بالايمان اثر تعداد مايوجبه ويقتضيه تنشيطا لهم وحثا على مراعاة مايعقبه من الامر ﴿استعينوا﴾ فى كل ماتأتون وماتذرون ﴿بالصبر﴾ على الامور الشاقة على النفس التى من جملتها معاداة الكفرة ومقابلتهم المؤدية الى مقاتلتهم ﴿والصلوة﴾ التى هى أم العبادات ومعراج المؤمنين ومناجاة رب العالمين ﴿ان الله مع الصابرين﴾ تعليل للامر بالاستعانة بالصبر خاصة لما أنه المحتاج الى التعليل وأما الصلاة فحيث كانت عند المؤمنين أجل المطالب كما ينبئ عنه قوله عليه السلام وجعلت قرة عينى فى الصلاة لم يفتقر الامر بالاستعانة بها الى التعليل ومعنى المعية الولاية الدائمة المستتبعة للنصرة واجابة الدعوة ودخول مع على الصابرين لما أنهم المباشرون للصبر حقيقة فهم متبوعون من تلك الحيثية ﴿ولا تقولوا﴾ عطف على استعينوا الخ مسوق لبيان أن لاغائلة للمأمور به وأن الشهادة التى ربما يؤدى اليها الصبر حياة أبدية ﴿لمن يقتل فى سبيل الله أموات﴾ أى هم أموات ﴿بل أحياء﴾ أى بل هم أحياء ﴿ولكن لاتشعرون﴾ بحياتهم وفيه رمز الى أنها ليست مما يشعر به بالمشاعر الظاهرة من الحياة الجسمانية وانما هى أمر روحانى لايدرك بالعقل بل بالوحى وعن الحسن رحمه الله أن الشهداء أحياء عند الله تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل اليهم الروح والفرح كما تعرض النار على آل فرعون غدوا وعشيا فيصل اليهم الالم والوجع قلت رأيت فى المنام سنة تسع وثلاثين وتسعمائة أنى أزور قبور شهداء أحد رضى الله تعالى عنهم أجمعين وأنا أتلو هذه الآية وما فى سورة آل عمران وأرددهما متفكرا فى أمرهم وفى نفسى أن حياتهم روحانية لاجسمانية فبينما أنا على ذلك اذ رأيت شابا منهم قاعدا فى قبره تام الجسد كامل الخلقة فى أحسن مايكون من الهيئة والمنظر ليس عليه شئ من اللباس قد بدا منه مافوق السرة والباقى فى القبر خلا أنى أعلم يقينا أن ذلك أيضا كما ظهر وانما لايظهر لكونه عورة فنظرت الى وجهه فرأيته ينظر الى متبسما كأنه ينبهنى على أن الامر بخلاف رأيى فسبحان من علت كلمته وجلت حكمته وقيل الآية نزلت فى شهداء بدر وكانوا أربعة عشر وفيها دلالة على أن الارواح جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لما يحس به من البدن تبقى بعد الموت دراكة وعليه جمهور الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وبه نطقت الآيات والسنن وعلى هذا فتخصيص الشهداء بذلك لما يستدعيه مقام التحريض على مباشرة مبادى الشهادة ولاختصاصهم بمزيد القرب من الله عز وعلا ﴿ولنبلونكم﴾ لنصيبنكم اصابة من يختبر أحوالكم أتصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء ﴿بشئ من الخوف والجوع﴾ أى بقليل من ذلك فان ماوقاهم عنه أكثر بالنسبة الى ماأصابهم بألف مرة وكذا مايصيب به معانديهم وانما أخبر به قبل الوقوع ليوطنوا عليه نفوسهم ويزداد يقينهم عند مشاهدتهم له حسبما أخبر به وليعلموا أنه شئ يسير له عاقبة حميدة ﴿ونقص من الاموال والأنفس والثمرات﴾ عطف على شئ وقيل على الخوف وعن الشافعى رحمه الله الخوف خوف الله والجوع صوم رمضان ونقص من الاموال الزكاة والصدقات ومن الانفس الامراض ومن الثمرات موت الاولاد وعن النبي

صلى الله عليه وسلم اذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة أقبضتم روح ولد عبدى فيقولون نعم فيقول عز وجل أقبضتم ثمرة قلبه فيقولون نعم فيقول الله تعالى ماذا قال عبدى فيقولون حمدك واسترجع فيقول الله عز وعلا ابنوا العبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد ﴿وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون﴾ الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أولكل من يتأتى منه البشارة والمصيبة مايصيب الانسان من مكروه لقوله عليه السلام كل شىء يؤذى المؤمن فهوله مصيبة وليس الصبر هو الاسترجاع باللسان بل بالقلب بأن يتصور ماخلق له وأنه راجع الى ربه ويتذكر نعم الله تعالى عليه ويرى أن ماأبقى عليه أضعاف مااسترده منه فيهون ذلك على نفسه ويستسلم والمبشر به محذوف دل عليه مابعده ﴿أولئك﴾ اشارة الى الصابرين باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت ومعنى البعد فيه للايذان بعلو رتبتهم ﴿عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾ الصلاة من الله سبحانه المغفرة والرأفة وجمعها للتنبيه على كثرتها وتنوعها والجمع بينها وبين الرحمة للمبالغة كما فى قوله تعالى رأفة ورحمة رؤف رحيم والتنوين فيهما للتفخيم والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم لاظهار مزيد العناية بهم أى أولئك الموصوفون بما ذكر من النعوت الجليلة عليهم فنون الرأفة الفائضة من مالك أمورهم ومبلغهم الى كمالاتهم اللائقة بهم وعن النبى صلى الله عليه وسلم من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خلفا صالحا يرضاه ﴿وأولئك﴾ اشارة اليهم اما بالاعتبار السابق والتكرير لاظهار كمال العناية بهم واما باعتبار حيازتهم لما ذكر من الصلوات والرحمة المترتب على الاعتبار الاول فعلى الاول المراد بالاهتداء فى قوله عز وجل ﴿هم المهتدون﴾ هو الاهتداء للحق والصواب مطلقا لا الاهتداء لما ذكر من الاسترجاع والاستسلام خاصة لما أنه متقدم عليهما فلابد لتأخيره عما هو نتيجة لهما من داع يوجبه وليس بظاهر والجملة اعتراض مقرر لمضمون ماقبله كأنه قيل وأولئك هم المختصون بالاهتداء لكل حق وصواب ولذلك استرجعوا واستسلموا لقضاء الله تعالى وعلى الثانى هو الاهتداء والفوز بالمطالب والمعنى أولئك هم الفائزون بمباغيهم الدينية والدنيوية فان من نال رأفة الله تعالى ورحمته لم يفته مطلب ﴿ان الصفا والمروة﴾ علمان لجبلين بمكة المعظمة كالصمان والمقطم ﴿من شعائر الله﴾ من أعلام مناسكه جمع شعيرة وهى العلامة ﴿فمن حج البيت أو اعتمر﴾ الحج فى اللغة القصد والاعتمار الزيارة غلبا فى الشريعة على قصد البيت وزيارته على الوجهين المعروفين كالبيت والنجم فى الاعيان وحيث أظهر البيت وجب تجريده عن التعلق به ﴿فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ أى فى أن يطوف بهما أصله يتطوف قلبت التاء طاء فادغمت الطاء فى الطاء وفى ايراد صيغة التفعل ايذان بأن من حق الطائف أن يتكلف فى الطواف ويبذل فيه جهده وهذا الطواف واجب عندنا والشافعى وعن مالك رحمهما الله أنه ركن وايراده بعدم الجناح المشعر بالتخيير لما أنه كان فى عهد الجاهلية على الصفا صنم يقال له اساف وعلى المروة آخر اسمه نائلة وكانوا اذا سعوا بينهما مسحوا بهما فلما جاء الاسلام وكسر الأصنام تحرج المسلمون أن يطوفوا بينهما لذلك فنزلت وقيل هو تطوع ويعضده قراءة ابن مسعود فلا جناح عليه أن لايطوف بهما ﴿ومن تطوع خيراً﴾ أى فعل طاعة فرضا كان أو نفلا أو زاد على مافرض عليه من حج أو عمرة أو طواف وخيرا حينئذ نصب على أنه صفة لمصدر محذوف أى تطوعا خيرا أو على حذف الجار وايصال الفعل اليه أو على تضمين معنى فعل وقرىء يطوع وأصله يتطوع مثل يطوف وقرىء ومن يتطوع بخير ﴿فان الله شاكر﴾ أى مجاز على الطاعة عبر عن ذلك بالشكر مبالغة فى الاحسان الى العباد ﴿عليم﴾ مبالغ فى العلم بالاشياء فيعلم مقادير أعمالهم وكيفياتها فلا ينقص من أجورهم شيئاً وهو علة لجواب الشرط قائم مقامه كأنه قيل ومن تطوع خيرا جازاه الله وأثابه فان الله شاكر عليم ﴿ان الذين يكتمون﴾ قيل نزلت فى أحبار اليهود الذين كتموا مافى التوراة من نعوت النبى

صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من الأحكام وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن والسدى والربيع والأصم أنها نزلت فى أهل الكتاب من اليهود والنصارى وقيل نزلت فى كل من كتم شيئاً من أحكام الدين لعموم الحكم للكل والأقرب هو الاول فان عموم الحكم لايأبى خصوص السبب والكتم والكتمان ترك اظهار الشىء قصداً مع مساس الحاجة اليه وتحقق الداعى الى اظهاره وذلك قد يكون بمجرد ستره واخفائه وقد يكون بازالته ووضع شىء آخر فى موضعه وهو الذى فعله هؤلاء ﴿ماأنزلنا من البينات﴾ من الآيات الواضحة الدالة على أمر محمد صلى الله عليه وسلم ﴿والهدى﴾ أى والآيات الهادية الى كنه أمره ووجوب اتباعه والايمان به عبر عنها بالمصدر مبالغة ولم يجمع مراعاة للاصل وهى المرادة بالبينات أيضا والعطف لتغاير العنوان كما فى قوله عز وجل هدى للناس وبينات الخ وقيل المراد بالهدى الأدلة العقلية ويأباه الانزال والكتم ﴿من بعد ما بيناه للناس﴾ متعلق بيكتمون والمراد بالناس الكل لا الكاتمون فقط واللام متعلقة ببيناه وكذا الظرف فى قوله تعالى ﴿فى الكتاب﴾ فان تعلق جارين بفعل واحد عند اختلاف المعنى مما لاريب فى جوازه أو الأخير متعلق بمحذوف وقع حالا من مفعوله أى كائنا فى الكتاب وتبيينه لهم تلخيصه وايضاحه بحيث يتلقاه كل أحد منهم من غير أن يكون له فيه شبهة وهذا عنوان مغاير لكونه بينا فى نفسه وهدى مؤكد لقبح الكتم أو تفهيمه لهم بواسطة موسى عليه السلام والاول أنسب بقوله تعالى فى الكتاب والمراد بكتمه ازالته ووضع غيره فى موضعه فانهم محوا نعته عليه الصلاة والسلام وكتبوا مكانه مايخالفه كما ذكرناه فى تفسير قوله عز وعلا فويل للذين يكتبون الكتاب الخ ﴿أولئك﴾ اشارة اليهم باعتبار ماوصفوا به للاشعار بعليته لما حاق بهم وما فيه من معنى البعد للايذان بترامى أمرهم وبعد منزلتهم فى الفساد ﴿يلعنهم الله﴾ أى يطردهم ويبعدهم من رحمته والالتفات الى الغيبة باظهار اسم الذات الجامع للصفات لتربية المهابة وادخال الروعة والاشعار بأن مبدأ صدور اللعن عنه سبحانه صفة الجلال المغايرة لما هو مبدأ الانزال والتبيين من وصف الجمال والرحمة ﴿ويلعنهم اللاعنون﴾ أى الذين يتأتى منهم اللعن أى الدعاء عليهم باللعن من الملائكة ومؤمنى الثقلين والمراد بيان دوام اللعن واستمراره وعليه يدور الاستثناء المتصل فى قوله تعالى ﴿الا الذين تابوا﴾ أى عن الكتمان ﴿وأصلحوا﴾ أى ماأفسدوا بأن أزالوا الكلام المحرف وكتبوا مكانه ماكانوا أزالوه عند التحريف ﴿وبينوا﴾ للناس معانيه فانه غير الاصلاح المذكور أو بينوا لهم ماوقع منهم أولا وآخرا فانه أدخل فى ارشاد الناس الى الحق وصرفهم عن طريق الضلال الذى كانوا أوقعوهم فيه أو بينوا توبتهم ليمحوا به سمة ماكانوا فيه ويقتدى بهم أضرابهم وحيث كانت هذه التوبة المقرونة بالاصلاح والتبيين مستلزمة للتوبة عن الكفر مبنية عليها لم يصرح بالايمان وقوله تعالى ﴿فأولئك﴾ اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة للاشعار بعليته للحكم والفاء لتأكيد ذلك ﴿أتوب عليهم﴾ أى بالقبول وافاضة المغفرة والرحمة وقوله تعالى ﴿وأنا التواب الرحيم﴾ أى المبالغ فى قبول التوب ونشر الرحمة اعتراض تذييلى محقق لمضمون ما قبله والالتفات الى التكلم للافتنان فى النظم الكريم مع مافيه من التلويح والرمز الى مامر من اختلاف المبدأ فى فعليه تعالى السابق واللاحق ﴿ان الذين كفروا﴾ جملة مستأنفة سيقت لتحقيق بقاء اللعن فيما وراء الاستثناء وتأكيد دوامه واستمراره على غير التائبين حسبما يفيده الكلام والاقتصار على ذكر الكفر فى الصلة من غير تعرض لعدم التوبة والاصلاح والتبيين مبنى على ماأشير اليه فكما أن وجود تلك الامور الثلاثة مستلزم للايمان الموجب لعدم الكفر كذلك وجود الكفر مستلزم لعدمها جميعا أى ان الذين استمروا على الكفر المستتبع للكتمان وعدم التوبة ﴿وماتوا وهم كفار﴾ لايرعوون عن حالتهم الاولى ﴿أولئك﴾ الكلام فيه كما فيما قبله ﴿عليهم﴾ أى مستقر عليهم ﴿لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ ممن يعتد بلعنتهم وهذا بيان لدوامها الثبوتى بعد بيان دوامها التجددى وقيل الاول

لعنتهم أحياء وهذا لعنتهم أمواتا وقرئ والملائكة والناس أجمعون عطفا على محل اسم الله لانه فاعل فى المعنى كقولك أعجبنى ضرب زيد وعمرو تريد من أن ضرب زيد وعمرو وكانه قيل أولئك عليهم أن لعنهم الله والملائكة الخ وقيل هو فاعل لفعل مقدر أى ويلعنهم الملائكة ﴿خالدين فيها﴾ أى فى اللعنة أو فى النار على أنها أضمرت من غير ذكر تفخيما لشأنها وتهويلا لامرها ﴿لا يخفف عنهم العذاب﴾ اما مستأنف لبيان كثرة عذابهم من حيث الكيف اثر بيان كثرته من حيث الكم أو حال من الضمير فى خالدين على وجه التداخل أو من الضمير فى عليهم على طريقة الترادف ﴿ولا هم ينظرون﴾ عطف على ماقبله جار فيه ماجرى فيه وايثار الجملة الاسمية لافادة دوام النفى واستمراره أى لا يمهلون ولا يؤجلون أو لا ينتظرون ليعتذروا أو لا ينظر اليهم نظر رحمة ﴿والهكم﴾ خطاب عام لكافة الناس أى المستحق منكم للعبادة ﴿اله واحد﴾ أى فرد فى الالهية لاصحة لتسمية غيره الها أصلا ﴿لا اله الا هو﴾ خبر ثان للمبتدا أو صفة أخرى للخبر أو اعتراض وأيا ما كان فهو مقرر للواحدانية ومزيح لما عسى يتوهم أن فى الوجود الها لكن لا يستحق العبادة ﴿الرحمن الرحيم﴾ خبران آخران للمبتدا أو لمبتدا محذوف وهو تقرير للتوحيد فانه تعالى حيث كان موليا لجميع النعم أصولها وفروعها جليلها ودقيقها وكان ماسواه كائنا ما كان مفتقرا اليه فى وجوده وما يتفرع عليه من كمالاته تحققت وحدانيته بلا ريب وانحصر استحقاق العبادة فيه تعالى قطعا . قيل كان للمشركين حول الكعبة المكرمة ثلثمائة وستون صنما فلما سمعوا هذه الآية تعجبوا وقالوا ان كنت صادقا فأت بآية نعرف بها صدقك فنزلت ﴿ان فى خلق السموات والأرض﴾ أى فى ابداعهما على ماهما عليه مع مافيهما من تعاجيب العبر وبدائع صنائع يعجز عن فهمها عقول البشر وجمع السموات لما هو المشهور من أنها طبقات متخالفة الحقائق دون الارض ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ أى اعتقابهما وكون كل منهما خلفا للآخر كقوله تعالى وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة او اختلاف كل منهما فى أنفسهما ازديادا وانتقاصا على ماقدره الله تعالى ﴿والفلك التى تجرى فى البحر﴾ عطف على ماقبله وتأنيثه اما بتأويل السفينة أو بأنه جمع فان ضمة الجمع مغايرة لضمة الواحد فى التقدير اذ الأولى كما فى حمر والثانية كما فى قفل وقرئ بضم اللام ﴿بما ينفع الناس﴾ أى ملتبسة بالذى ينفعهم مما يحمل فيها من أنواع المنافع أو بنفعهم ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء﴾ عطف على الفلك وتأخيره عن ذكرها مع كونه أعم منها نفعا لما فيه من مزيد تفصيل وقيل المقصود الاستدلال بالبحر وأحواله وتخصيص الفلك بالذكر لانه سبب الخوض فيه والاطلاع على عجائبه ولذلك قدم على ذكر المطر والسحاب لان منشأهما البحر فى غالب الأمر ومن الاولى ابتدائية والثانية بيانية أو تبعيضية وأيا ما كان فتأخيرها لما مر مرارا من التشويق والمراد بالسماء الفلك أو السحاب أو جهة العلو ﴿فأحيى به الأرض﴾ بأنواع النبات والازهار وما عليها من الاشجار ﴿بعد موتها﴾ باستيلاء اليبوسة عليها حسبما تقتضيه طبيعتها كما يوزن به ايراد الموت فى مقابلة الاحياء ﴿وبث فيها﴾ أى فرق ونشر ﴿من كل دابة﴾ من العقلاء وغيرهم والجملة معطوفة على أنزل داخلة تحت حكم الصلة وقوله تعالى فأحيى الخ متصل بالمعطوف عليه بحيث كانا فى حكم شئ واحد كانه قيل وما أنزل فى الارض من ماء وبث فيها الخ أو على أحيي بحذف الجار والمجرور العائد الى الموصول وان لم تتحقق الشرائط المعهودة كما فى قوله

وان لسانى شهدة يشتفى بها ولكن على من صبه الله علقم أى علقم عليه

وقوله لعل الذى أصعدتنى أن يردنى الى الارض ان لم يقدر الخير قادره

على معنى فأحيى بالماء الارض وبث فيها من كل دابة فانهم ينمون بالخصب ويعيشون بالحيا ﴿وتصريف الرياح﴾ عطف على ما أنزل أى تقليبها من مهب الى آخر أو من حال الى أخرى وقرئ على الافراد ﴿والسحاب﴾ عطف على

تصريف أو الرياح وهو اسم جنس واحده سحابة سمى بذلك لانسحابه فى الجو ﴿المسخر بين السماء والارض﴾ صفة للسحاب باعتبار لفظه وقد يعتبر معناه فيوصف بالجمع كما فى قوله تعالى سحابا ثقالا وتسخيره تقليبه فى الجو بواسطة الرياح حسبما تقتضيه مشيئة الله تعالى ولعل تأخير تصريف الرياح وتسخير السحاب فى الذكر عن جريان الفلك وانزال الماء مع انعكاس الترتيب الخارجى لما مر فى قصة البقرة من الاشعار باستقلال كل من الامور المعدودة فى كونها آية ولو روعى الترتيب الخارجى لربما توهم كون المجموع المترتب بعضه على بعض آية واحدة ﴿لآيات﴾ اسم ان دخلته اللام لتأخره عن خبرها والتنكير للتفخيم كما وكيفا أى آيات عظيمة كثيرة دالة على القدرة القاهرة والحكمة الباهرة والرحمة الواسعة المقتضية لاختصاص الالوهية به سبحانه ﴿لقوم يعقلون﴾ أى يتفكرون فيها وينظرون اليها بعيون العقول وفيه تعريض بجهل المشركين الذين اقترحوا على النبى صلى الله عليه وسلم آية تصدقه فى قوله تعالى والهكم اله واحد وتسجيل عليهم بسخافة العقول والا فمن تأمل فى تلك الآيات وجد كلا منها ناطقة بوجوده تعالى ووحدانيته وسائر صفاته الكمالية الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى واستغنى بها عن سائرها فان كل واحد من الامور المعدودة قد وجد على وجه خاص من الوجوه الممكنة دون ماعداه مستتبعا لآثار معينة وأحكام مخصوصة من غير أن تقتضى ذاته وجوده فضلا عن وجوده على نمط معين مستتبع لحكم مستقل فاذن لابد له حتما من موجد قادر حكيم يوجده حسبما تقتضيه حكمته وتستدعيه مشيئته متعال عن معارضة الغير اذ لو كان معه آخر يقدر على مايقدر عليه لزم اما اجتماع المؤثرين على أثر واحد أو التمانع المؤدى الى فساد العالم ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله﴾ بيان لكمال ركاكة آراء المشركين اثر تقرير وحدانيته سبحانه وتحرير الآيات الباهرة الملجئة للعقلاء الى الاعتراف بها الفائضة باستحالة أن يشاركه شئ من الموجودات فى صفة من صفات الكمال فضلا عن المشاركة فى صفة الالوهية والكلام فى اعرابه كما فصل فى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر الخ ومن دون الله متعلق بيتخذ أى من الناس من يتخذ من دون ذلك الاله الواحد الذى ذكرت شؤنه الجليلة وايثار الاسم الجليل لتعينه تعالى بالذات غب تعينه بالصفات ﴿أندادا﴾ أى أمثالا وهم رؤساؤهم الذين يتبعونهم فيما يأتون وما يذرون لاسيما فى الاوامر والنواهى كما يفصح عنه ماسيأتى من وصفهم بالتبرى من المتبعين وقيل هى الأصنام وارجاع ضمير العقلاء اليها فى قوله عز وعلا ﴿يحبونهم﴾ مبنى على آرائهم الباطلة فى شأنها من وصفهم بما لا يوصف به الا العقلاء والمحبة ميل القلب من الحب استعير لحبة القلب ثم اشتق منه الحب لانه أصابها ورسخ فيها والفعل منها حب على حد مد لكن الاستعمال المستفيض على أحب حبا ومحبة فهو محب وذاك محبوب ومحب قليل وحاب أقل منه ومحبة العبد لله سبحانه ارادة طاعته فى أوامره ونواهيه والاعتناء بتحصيل مراضيه فمعنى يحبونهم يطيعونهم ويعظمونهم والجملة فى حيز النصب اما صفة لاندادا أو حالا من فاعل يتخذ وجمع الضمير باعتبار معنى من كما أن افراده باعتبار لفظها ﴿كحب الله﴾ مصدر تشبيهى أى نعت لمصدر مؤكد للفعل السابق ومن قضية كونه مبنيا للفاعل كونه أيضا كذلك والظاهر اتحاد فاعلهما فانهم كانوا يقرونه به تعالى أيضا ويتقربون اليه فالمعنى يحبونهم حبا كائنا كحبهم لله تعالى أى يسوون بينه تعالى وبينهم فى الطاعة والتعظيم وقيل فاعل الحب المذكور هم المؤمنون فالمعنى حبا كائنا كحب المؤمنين له تعالى فلابد من اعتبار المشابهة بينهما فى أصل الحب لا فى وصفه كما أو كيفا لما سيأتى من التفاوت البين وقيل هو مصدر من المبنى للمفعول أى كما يحب الله تعالى ويعظم وانما استغنى عن ذكر من يحبه لانه غير ملبس وأنت خبير بأنه لا مشابهة بين محبيتهم لاندادهم وبين محبوبيته تعالى فالمصير حينئذ ما أسلفناه فى تفسير قوله عز قائلا كما سئل موسى من قبل واظهار الاسم الجليل فى مقام

الاضمار لتربية المهابة وتفخيم المضاف وابانة كمال قبح ماارتكبوه ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ جملة مبتدأة جيء بها توطئة لما يعقبها من بيان رخاوة حبهم وكونه حسرة عليهم والمفضل عليه محذوف أي المؤمنون أشد حباً له تعالى منهم لاندادهم ومآله أن حب أولئك له تعالى أشد من حب هؤلاء لاندادهم فيه من الدلالة على كون الحب مصدرا من المبنى للفاعل مالايخفى وانما لم يجعل المفضل عليه حبهم لله تعالى لما أن المقصود بيان انقطاعه وانقلابه بغضا وذلك انما يتصور فى حبهم لاندادهم لكونه منوطا بمبان فاسدة ومبادموهومة يزول بزوالها . قيل ولذلك كانوا يعدلون عنها عند الشدائد الى الله سبحانه وكانوا يعبدون صنما أياما فاذا وجدوا آخر رفضوه اليه وقد أكلت باهلة الهها عام المجاعة وكان من حيس وأنت خبير بأن مدار ذلك اعتبار اختلال حبهم لها فى الدنيا وليس الكلام فيه بل فى انقطاعه فى الآخرة عند ظهور حقيقة الحال ومعاينة الاهوال كما سيأتى بل اعتباره مخل بما يقتضيه مقام المبالغة فى بيان كمال قبح ماارتكبوه وغاية عظم مااقترفوه وايثار الاظهار فى موضع الاضمار لتفخيم الحب والاشعار بعلته ﴿ولو يرى الذين ظلموا﴾ أى باتخاذ الانداد ووضعها موضع المعبود ﴿اذ يرون العذاب﴾ المعد لهم يوم القيامة أى لو علموا اذا عاينوه وانما أوثرت صيغة المستقبل لجريانها مجرى الماضى فى الدلالة على التحقق فى اخبار علام الغيوب ﴿أن القوة لله جميعا﴾ سادمسد مفعولى يرى ﴿وأن الله شديد العذاب﴾ عطف عليه وفائدته المبالغة فى تهويل الخطب وتفظيع الأمر فان اختصاص القوة به تعالى لايوجب شدة العذاب لجواز تركه عفوا مع القدرة عليه وجواب لو محذوف للايذان بخروجه عن دائرة البيان اما لعدم الاحاطة بكنهه واما لضيق العبارة عنه واما لايجاب ذكره مالايستطيعه المعبر أو المستمع من الضجر والتفجع عليه أى لو علموا اذ رأوا العذاب قد حل بهم ولم يتقدم منه أحد من أندادهم أن القوة لله جميعا ولا دخل لاحد فى شيء أصلا لوقعوا من الحسرة والندم فيما لا يكاد يوصف وقرىء ولو ترى بالتاء الفوقانية على أن الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب فالجواب حينئذ لرأيت أمراً لا يوصف من الهول والفظاعة وقرىء اذ يرون على البناء للمفعول وأن الله شديد العذاب على الاستئناف واضمار القول ﴿اذ تبرأ الذين اتبعوا﴾ بدل من اذ يرون أى اذ تبرأ الرؤساء ﴿من الذين اتبعوا﴾ من الاتباع بأن اعترفوا ببطلان ما كانوا يدعونه فى الدنيا ويدعونهم اليه من فنون الكفر والضلال واعتزلوا عن مخالطتهم وقابلوهم باللعن كقول ابليس انى كفرت بما أشركتمونى من قبل وقرىء بالعكس أى تبرأ الاتباع من الرؤساء والواو فى قوله عز وجل ﴿ورأوا العذاب﴾ حالية وقد مضمرة وقيل عاطفة على تبرأ والضمير فى رأوا للموصوفين جميعا ﴿وتقطعت بهم الاسباب﴾ والوصل التى كانت بينهم من التبعية والمتبوعية والاتفاق على الملة الزائغة والاغراض الداعية الى ذلك وأصل السبب الحبل الذى يرتقى به الشجر ونحوه والجملة معطوفة على تبرأ وتوسيط الحال بينهما للتنبيه على علة التبرى وقد جوز عطفها على الجملة الحالية ﴿وقال الذين اتبعوا﴾ حين عاينوا تبرؤ الرؤساء منهم وندموا على مافعلوا من اتباعهم لهم فى الدنيا ﴿لو أن لنا كرة﴾ أى ليت لنا رجعة الى الدنيا ﴿فنتبرأ منهم﴾ هناك ﴿كما تبرؤا منا﴾ اليوم ﴿كذلك﴾ اشارة الى مصدر الفعل الذى بعده لا الى شيء آخر مفهوم مما سبق ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو درجة المشار اليه وبعد منزلته مع كمال تميزه عما عداه وانتظامه فى سلك الامور المشاهدة والكاف مقحمة لتأكيد ماأفاده اسم الاشارة من الفخامة ومحله النصب على المصدرية أى ذلك الاراء الفظيع ﴿يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم﴾ أى ندامات شديدة فان الحسرة شدة الندم والكمد وهى تألم القلب وانحساره عما يؤلمه واشتقاقها من قولهم بعير حسير أى منقطع القوة وهى ثالث مفاعيل يرى ان كان من رؤية القلب والا فهى حال والمعنى ان أعمالهم تنقلب حسرات عليهم فلا يرون الا حسرات مكان أعمالهم ﴿وماهم بخارجين من

النار﴾ كلام مستأنف لبيان حالهم بعد دخولهم النار والاصل ومايخرجون والعدول الى الاسمية لافادة دوام نفى الخروج والضمير للدلالة على قوة أمرهم فيما أسند اليهم كما فى قوله

هم يفرشون اللبد كل طمرة ... وأجرد سباق يبذ المغاليا

﴿ياأيها الناس كلوا مما فى الارض﴾ أى بعض مافيها من أصناف المأكولات التى من جملتها ماحرمتموه افتراء على الله من الحرث والانعام قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى قوم من ثقيف وبنى عامر بن صعصعة وخزاعة وبنى مدلج حرموا على أنفسهم ماحرموا من الحرث والبحائر والسوائب والوصائل والحام وقوله تعالى ﴿حلالا﴾ حال من الموصول أى كلوه حال كونه حلالا أو مفعول لكلوا على أن من ابتدائية وقد جوز كونه صفة لمصدر مؤكد أى أكلا حلالا ويؤيد الاولين قوله تعالى ﴿طيبا﴾ فانه صفة له ووصف الاكل به غير معتاد وقيل نزلت فى قوم من المؤمنين حرموا على أنفسهم رفيع الاطعمة والملابس ويرده قوله عز وجل ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أى لا تقتدوا بها فى اتباع الهوى فانه صريح فى أن الخطاب للكفرة . كيف لا وتحريم الحلال على نفسه تزهداً ليس من باب اتباع خطوات الشيطان فضلا عن كونه تقولا وافتراء على الله تعالى وانما الذى نزل فيهم مافى سورة المائدة من قوله تعالى ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ماأحل الله لكم الآية وقرىء خطوات بسكون الطاء وهما لغتان فى جمع خطوة وهى مابين قدمى الخاطى وقرىء بضمتين وهمزة جعلت الضمة على الطاء كأنها على الواو وبفتحتين على أنها جمع خطوة وهى المرة من الخطو ﴿انه لكم عدو مبين﴾ تعليل للنهى أى ظاهر العداوة عند ذوى البصيرة وان كان يظهر الولاية لمن يغويه ولذلك سمى وليا فى قوله تعالى أولياؤهم الطاغوت ﴿انما يأمركم بالسوء والفحشاء﴾ استئناف لبيان كيفية عداوته وتفصيل لفنون شره وافساده وانحصار معاملته معهم فى ذلك والسوء فى الاصل مصدر ساءه يسوؤه سوءاً ومساءة اذا أحزنه يطلق على جميع المعاصى سواء كانت من أعمال الجوارح أو أفعال القلوب لاشتراك كلها فى أنها تسوء صاحبها والفحشاء أقبح أنواعها وأعظمها مساءة ﴿وأن تقولوا على الله مالا تعلمون﴾ عطف على الفحشاء أى وبأن تفتروا على الله بأنه حرم هذا وذاك ومعنى مالا تعلمون مالا تعلمون أن الله تعالى أمر به وتعليق أمره بتقولهم على الله تعالى مالا يعلمون وقوعه منه تعالى لا بتقولهم عليه مايعلمون عدم وقوعه منه تعالى مع أن حالهم ذلك للمبالغة فى الزجر فان التحذير من الاول مع كونه فى القبح والشناعة دون الثانى تحذير عن الثانى على أبلغ وجه وآكده وللايذان بأن العاقل يجب عليه أن لا يقول على الله تعالى مالا يعلم وقوعه منه تعالى مع الاحتمال فضلا عن أن يقول عليه مايعلم عدم وقوعه منه تعالى قالوا وفيه دليل على المنع من اتباع الظن رأسا وأما اتباع المجتهد لما أدى اليه ظنه فمستند الى مدرك شرعى فوجوبه قطعى والظن فى طريقه ﴿واذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله﴾ التفات الى الغيبة تسجيلا بكمال ضلالهم وايذانا بايجاب تعداد ماذكر من جناياتهم لصرف الخطاب عنهم وتوجيهه الى العقلاء وتفصيل مساوى أحوالهم لهم على نهج المباثة أى اذا قيل لهم على وجه النصيحة والارشاد اتبعوا كتاب الله الذى أنزله ﴿قالوا﴾ لانتبعه ﴿بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا﴾ أى وجدناهم عليه اما على أن الظرف متعلق بمحذوف وقع حالا من آباءنا وألفينا متعد الى واحد واما على أنه مفعول ثان له مقدم على الاول نزلت فى المشركين أمروا باتباع القرآن وسائر ماأنزل الله تعالى من الحجج الظاهرة والبينات الباهرة فجنحوا للتقليد والموصول اما عبارة عما سبق من اتخاذ الانداد وتحريم الطيبات ونحو ذلك واما باق على عمومه وماذكر داخل فيه دخولا أوليا وقيل نزلت فى طائفة من اليهود دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الاسلام فقالوا بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا لأنهم كانوا خيراً منا وأعلم فعلى هذا يعم ماأنزل الله تعالى التوراة لأنها أيضا تدعو الى الاسلام وقوله عز وجل ﴿أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ استئناف مسوق من جهته تعالى رداً

لمقالتهم الحمقاء واظهارا لبطلان آرائهم والهمزة لانكار الواقع واستقباحه والتعجيب منه لا لانكار الوقوع كالتى فى قوله تعالى أولو كنا كارهين وكلمة لو فى أمثال هذا المقام ليست لبيان انتفاء الشئ فى الزمان الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة بدلالة ماقبلها عليه بل هى لبيان تحقق مايفيده الكلام السابق بالذات أو بالواسطة من الحكم الموجب أو المنفى على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الاجمال بادخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع ماعداه من الأحوال بطريق الأولية لما أن الشئ متى تحقق مع المنافى القوى فلأن يتحقق مع غيره أولى ولذلك لايذكر معه شئ من سائر الأحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها المتناولة لجميع الأحوال المغايرة لها وهذا معنى قولهم انها لاستقصاء الأحوال على سبيل الاجمال وهذا المعنى ظاهر فى الخبر الموجب والمنفى والامر والنهى كما فى قولك فلان جواد يعطى ولو كان فقيرا وبخيل لايعطى ولو كان غنيا وقولك أحسن اليه ولو أساء اليك ولا تهنه ولو أهانك لبقائه على حاله وأما فيما نحن فيه ففيه نوع خفاء ناشئ من ورود الانكار عليه لكن الأصل فى الكل واحد الا أن كلمة لو فى الصور المذكورة متعلقة بنفس الفعل المذكور قبلها وأن مايقصد بيان تحققه على كل حال هو نفس مدلوله وأن الجملة حال من ضميره أو مما يتعلق به وأن مافى حيز لو باق على ماهو عليه من الاستبعاد غالبا بخلاف مانحن فيه لما أن كلمة لو متعلقة فيه بفعل مقدر يقتضيه المذكور وأن مايقصد بيان تحققه على كل حال مدلوله لامدلول المذكور من حيث هو مدلوله وأن الجملة حال مما يتعلق به لامما يتعلق بالمذكور من حيث هو متعلق به وأن المقصود الاصلى انكار مدلوله باعتبار مقارنته للحالة المذكورة وأما تقدير مقارنته لغيرها فلتوسيع الدائرة وأن مافى حيز لو لا يقصد استبعاده فى نفسه بل يقصد الاشعار بأنه أمر محقق الا أنه أخرج مخرج الاستبعاد معاملة مع المخاطبين على معتقدهم لئلا يلبسوا من التصريح بنسبة آبائهم الى كمال الجهالة والضلالة جلد النمر فيركبوا متن العناد ومبالغة فى الانكار من جهة اتباعهم لآبائهم حيث كان منكرا مستقبحا عند احتمال كون آبائهم كما ذكر احتمالا بعيدا فلأن يكون منكرا عند تحقق ذلك أولى والتقدير أيتبعون ذلك لو لم يكن آباؤهم لايعقلون شيأ من الدين ولا يهتدون للصواب ولو كانوا كذلك فالجملة فى حيز النصب على الحالية من آبائهم على طريقة قوله تعالى أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا كأنه قيل أيتبعون دين آبائهم حال كونهم غافلين وجاهلين ضالين انكاراً لما أفاده كلامهم من الاتباع على أى حالة كانت من الحالتين غير أنه اكتفى بذكر الحالة الثانيـة تنبيها على أنها هى الواقعة فى نفس الامر وتعويلا على اقتضائها للحالة الاولى اقتضاء بينا فان اتباعهم الذى تعلق به الانكار حيث تحقق مع كون آبائهم جاهلين ضالين فلأن يتحقق مع كونهم عاقلين ومهتدين أولى ان قلت الانكار المستفاد من الاستفهام الانكارى بمنزلة النفى ولا ريب فى أن الاولوية فى صورة النفى معتبرة بالنسبة الى النفى ألا يرى أن الأولى بالتحقق فيما ذكر من مثال النفى عند الحالة المسكوت عنها أعنى عدم الغنى هو عدم الاعطاء لانفسه فكان ينبغى أن يكون الاولى بالتحقق فيما نحن فيه عند الحالة المسكوت عنها وهى حالة كون آبائهم عاقلين ومهتدين انكار الاتباع لانفسه اذ هو الذى يدل عليه أيتبعون الخ فلم اختلفت الحال بينهما قلت لما أن مناط الاولوية هو الحكم الذى أريد بيان تحققه على كل حال وذلك فى مثال النفى عدم الاعطاء المستفاد من الفعل المنفى المذكور وأما فيما نحن فيه فهو نفس الاتباع المستفاد من الفعل المقدر اذ هو الذى يقتضيه الكلام السابق أعنى قولهم بل نتبع الخ وأما الاستفهام فخارج عنه وارد عليه لانكار مايفيده واستقباح مايقتضيه لا أنه من تمامه كما فى صورة النفى وكذا الحال فيما اذا كانت الهمزة لانكار الوقوع ونفيه مع كونه بمنزلة التصريح النفى كما سيأتى تحقيقه فى قوله تعالى أولو كنا كارهين وقيل الواو حالية ولكن التحقيق أن المعنى يدور على معنى العطف

فى سائر اللغات أيضا ﴿ومثل الذين كفروا﴾ جملة ابتدائية واردة لتقرير ماقبلها بطريق التصوير وفيها مضاف قد حذف لدلالة مثل عليه ووضع الموصول موضع الضمير الراجع الى مايرجع اليه الضمائر السابقة لذمهم بما فى حيز الصلة وللاشعار بعلة ماأثبت لهم من الحكم والتقدير مثل ذلك القائل وحاله الحقيقة لغرابتها بأن تسمى مثلا وتسير فى الآفاق فيما ذكر من دعوته اياهم الى اتباع الحق وعدم رفعهم اليه رأسا لانهماكهم فى التقليد واخلادهم الى ماهم عليه من الضلالة وعدم فهمهم من جهة الداعى الى الدعاء من غير أن يلقوا أذهانهم الى مايلقى عليهم ﴿كمثل الذى ينعق بما لايسمع الا دعاء ونداء﴾ من البهائم فانها لاتسمع الا صوت الراعى وهتفه بها من غير فهم لكلامه أصلا وقيل انما حذف المضاف من الموصول الثانى لدلالة كلمة ماعليه فانها عبارة عنه مشعرة مع مافى حيز الصلة بما هو مدار التمثيل أى مثل الذين كفروا فيما ذكر من انهماكهم فيماهم فيه وعدم التدبر فيما ألقى اليهم من الآيات كمثل بهائم الذى ينعق بها وهى لاتسمع منه الا جرس النغمة ودوى الصوت وقيل المراد تمثيلهم فى اتباع آبائهم على ظاهر حالهم جاهلين بحقيقتها بالبهائم التى تسمع الصوت ولا تفهم ماتحته وقيل تمثيلهم فى دعائهم الاصنام بالناعق فى نعقه وهو تصويته على البهائم وهذا غنى عن الاضمار لكن لايساعده قوله الادعاء ونداء فان الاصنام بمعزل من ذلك وقد عرفت أن حسن التمثيل فيما تشابه أفراد الطرفين ﴿صم بكم عمى﴾ بالرفع على الذم أى هم صم الخ ﴿فهم لايعقلون﴾ شيأ لأن طريق التعقل هو التدبر فى مبادى الأمور المعقولة والتأمل فى ترتيبها وذلك انما يحصل باستماع آيات الله ومشاهدة حججه الواضحة والمفاوضة مع من يؤخذ منه العلوم فاذا كانوا صما بكما عميا فقد انسد عليهم أبواب التعقل وطرق الفهم بالكلية ﴿ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم﴾ أى مستلذاته ﴿واشكروا لله﴾ الذى رزقكموها والالتفات لتربية المهابة ﴿ان كنتم اياه تعبدون﴾ فان عبادته تعالى لاتتم الا بالشكر له وعن النبى صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل انى والانس والجن فى نبأ عظيم أخلق ويعبد غيرى وأرزق ويشكر غيرى ﴿انما حرم عليكم الميتة﴾ أى أكلها والانتفاع بها وهى التى ماتت على غير ذكاة والسمك والجراد خارجان عنها بالعرف أو استثناء الشرع خروج الطحال من الدم ﴿والدم ولحم الخنزير﴾ انما خص لحمه مع أن سائر أجزائه أيضا فى حكمه لأنه معظم مايؤكل من الحيوان وسائر أجزائه بمنزلة التابع له ﴿وما أهل به لغير الله﴾ أى رفع به الصوت عند ذبحه للصنم والاهلال أصله رؤية الهلال لكن لما جرت العادة برفع الصوت بالتكبير عندها سمى ذلك اهلالا ثم قيل لرفع الصوت وان كان لغيره ﴿فمن اضطر غير باغ﴾ بالاستئثار على مضطر آخر ﴿ولا عاد﴾ سد الرمق والجوعة وقيل غير باغ على الوالى ولا عاد بقطع الطريق وعلى هذا لايباح للعاصى بالسفر وهو ظاهر مذهب الشافعى وقول أحمد رحمهما الله ﴿فلا اثم عليه﴾ فى تناوله ﴿ان الله غفور﴾ لما فعل ﴿رحيم﴾ بالرخصة ان قيل كلمة انما تفيد قصر الحكم على ماذكر وكم من حرام لم يذكر قلنا المراد قصر الحرمة على ماذكر مما استحلوه لامطلقا أو قصر حرمته على حالة الاختيار كأنه قيل انما حرم عليكم هذه الأشياء مالم تضطروا اليها ﴿ان الذين يكتمون ماأنزل الله من الكتاب﴾ المشتمل على فنون الأحكام التى من جملتها أحكام المحللات والمحرمات حسبما ذكر آنفا وقال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى رؤساء اليهود حين كتموا نعت النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ويشترون به﴾ أى يأخذون بدله ﴿ثمنا قليلا﴾ عوضا حقيرا وقد مر سر التعبير عن ذلك بالثمن الذى هو وسيلة فى عقود المعاوضة وقوله تعالى ﴿أولئك﴾ اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الوصفين الشنيعين المميزين لهم عمن عداهم أكمل تمييز الجاعلين اياهم بحيث كأنهم حضار مشاهدون على ماهم عليه وما فيه من معنى البعد للايذان بغاية بعد منزلتهم فى الشر والفساد

وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ما يأكلون فى بطونهم الا النار﴾ والجملة خبر لان أو اسم الاشارة مبتدأ ثان أو بدل من الاول والخبر ما يأكلون الخ ومعنى أكلهم النار أنهم يأكلون فى الحال ما يستتبع النار و يستلزمها فكأنه عين النار وأكله أكلها كقوله

أكلت دما ان لم أرعك بضرة   بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

أو يأكلون فى المآل يوم القيامة عين النار عقوبة على أكلهم الرشا فى الدنيا وفى بطونهم متعلق بيأكلون وفائدته تأكيد الأكل وتقريره ببيان مقر المأكول وقيل معناه ملء بطونهم كما فى قولهم أكل فى بطنه وأكل فى بعض بطنه ومنه كلوا فى بعض بطنكم تعفوا فلا بد من الالتجاء الى تعليقه بمحذوف وقع حالا مقدرة من النار مع تقديمه على حرف الاستثناء والا فتعليقه بيأكلون يؤدى الى قصر ما يأكلونه الى الشبع على النار والمقصود قصر ما يأكلونه مطلقا عليها ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾ عبارة عن غضبه العظيم عليهم وتعريض بحرمانهم ما أتيح للمؤمنين من فنون الكرامات السنية والزلفى ﴿ولا يزكيهم﴾ لا يثنى عليهم ﴿ولهم﴾ مع ما ذكر ﴿عذاب أليم﴾ مؤلم ﴿أولئك﴾ اشارة الى ما أشير اليه بنظيره بالاعتبار المذكور خاصة لا مع ما يتلوه من أحوالهم الفظيعة اذ لا دخل لها فى الحكم الذى يراد اثباته ههنا فان المقصود تصوير ما باشروه من المعاملة بصورة قبيحة تنفر منها الطباع و لا يتعاطاها عاقل أصلا ببيان حقيقة ما نبذوه واظهار كنه ما أخذوه وابداء فظاعة تبعاته وهو مبتدأ خبره الموصول أى أولئك المشترون بكتاب الله عز وجل ثمنا قليلا ليسوا بمشترين للثمن وان قل بل هم ﴿الذين اشتروا﴾ بالنسبة الى الدنيا ﴿الضلالة﴾ التى ليست مما يمكن أن يشترى قطعا ﴿بالهدى﴾ الذى ليس من قبيل ما يبذل بمقابلة شىء وان جل ﴿والعذاب﴾ أى اشتروا بالنظر الى الآخرة العذاب الذى لا يتوهم كونه مما يشترى ﴿بالمغفرة﴾ التى يتنافس فيها المتنافسون ﴿فما أصبرهم على النار﴾ تعجيب من حالهم الهائلة التى هى ملابستهم بما يوجب النار ايجابا قطعيا كأنه عينها وما عند سيبويه نكرة تامة مفيدة لمعنى التعجب مرفوعة بالابتداء وتخصصها كتخصص شر فى شر أهر ذا ناب خبرها ما بعدها أى شىء ما عظيم جعلهم صابرين على النار وعند الفراء استفهامية وما بعدها خبرها أى أى شىء أصبرهم على النار وقيل هى موصولة وقيل موصوفة بما بعدها والخبر محذوف أى الذى أصبرهم على النار أو شىء أصبرهم على النار أمر عجيب فظيع ﴿ذلك﴾ العذاب ﴿بأن الله نزل الكتاب﴾ أى جنس الكتاب ﴿بالحق﴾ أى ملتبسا به فلا جرم يكون من يرفضه بالتكذيب والكتمان و يركب متن الجهل والغواية مبتلى بمثل هذا من أفانين العذاب ﴿وان الذين اختلفوا فى الكتاب﴾ أى فى جنس الكتاب الالهى بأن آمنوا ببعض كتب الله تعالى و كفروا ببعضها أو فى التوراة بأن آمنوا ببعض آياتها وكفروا ببعض كالآيات المغيرة المشتملة على أمر بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ونعوته الكريمة فمعنى الاختلاف التخلف عن الطريق الحق أو الاختلاف فى تأويلها أو فى القرآن بأن قال بعضهم انه سحر و بعضهم انه شعر و بعضهم أساطير الاولين كما حكى عن المفسرين ﴿لفى شقاق بعيد﴾ عن الحق والصواب مستوجب لأشد العذاب ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ البر اسم جامع لمراضى الخصال والخطاب لأهل الكتابين فانهم كانوا أكثروا الخوض فى أمر القبلة حين حولت الى الكعبة وكان كل فريق يدعى خيرية التوجه الى قبلته من القطرين المذكورين وتقديم المشرق على المغرب مع تأخر زمان الملة النصرانية اما لرعاية ما بينهما من الترتيب المتفرع على ترتيب الشروق والغروب واما لأن توجه اليهود الى المغرب ليس لكونه مغربا بل لكون بيت المقدس من المدينة المنورة واقعا فى جانب الغرب فقيل لهم ليس البر ما ذكرتم من التوجه الى تينك الجهتين على أن البر خبر ليس مقدما على اسمها كما فى قوله

سلى ان جهلت الناس عنى وعنهم   فليس سواء عالم وجهول

وقوله

أليس عظيما أن تلم ملمة   وليس علينا فى الخطوب معول

وانما أخر ذلك لما أن المصدر المؤول أعرف من المحلى باللام لأنه يشبه الضمير من حيث أنه لا يوصف ولا يوصف به والأعرف أحق بالاسمية و لأن فى الاسم طولا فلو روعى الترتيب المعهود لفات تجاوب أطراف النظم الكريم وقرىء برفع البر على أنه اسمها وهو أقوى بحسب المعنى لأن كل فريق يدعى أن البر هذا فيجب أن يكون الرد موافقا لدعواهم وما ذلك الا بكون البر اسما كما يفصح عنه جعله مخبرا عنه فى الاستدراك بقوله عز وجل ﴿ولكن البر من آمن بالله﴾ وهو تحقيق للحق بعد بيان بطلان الباطل وتفصيل لخصال البر مما لا يختلف باختلاف الشرائع وما يختلف باختلافها أى ولكن البر المعهود الذى يحق أن يهتم بشأنه و يجد فى تحصيله بر من آمن بالله وحده ايمانا بريئا من شائبة الاشراك لا كايمان اليهود والنصارى المشركين بقولهم عزير ابن الله وقولهم المسيح ابن الله ﴿واليوم الآخر﴾ أى على ما هو عليه لا كما يزعمون من أن النار لا تمسهم الا أياما معدودة وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ففيه تعريض بأن ايمان أهل الكتابين حيث لم يكن كما ذكر من الوجه الصحيح لم يكن ايمانا وفى تعليق البر بهما من أول الأمر عقيب نفيه عن التوجه الى المشرق والمغرب من الجزالة ما لا يخفى كأنه قيل ولكن البر هو التوجه الى المبدأ والمعاد اللذين هما المشرق والمغرب فى الحقيقة ﴿والملائكة﴾ أى وآمن بهم و بأنهم عباد مكرمون متوسطون بينه تعالى و بين أنبيائه بالقاء الوحى وانزال الكتب ﴿والكتاب﴾ أى بجنس الكتاب الذى من افراده الفرقان الذى نبذوه وراء ظهورهم وفيه تعريض بكتمانهم نعوت النبى صلى الله عليه وسلم واشترائهم بما أنزل الله تعالى ثمنا قليلا ﴿والنبيين﴾ جميعا من غير تفرقة بين أحد منهم كما فعل أهل الكتابين ووجه توسيط الكتاب بين حملة الوحى و بين النبيين واضح وسيأتى فى قوله تعالى كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴿وآتى المال على حبه﴾ حال من الضمير فى آتى والضمير المجرور للمال أى آتاه كائنا على حب المال كما فى قوله صلى الله عليه وسلم حين سئل أى الصدقة أفضل أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح وقول ابن مسعود رضى الله عنه أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش وتخشى الفقر و لا تمهل حتى اذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقيل الضمير لله تعالى أى آتاه كائنا على محبته تعالى لا على قصد الشر والفساد ففيه نوع تعريض لباذلى الرشى وآخذيها لتغيير التوراة وقيل للمصدر أى كائنا على حب الايتاء ﴿ذوى القربى﴾ مفعول أول لآتى قدم عليه مفعوله الثانى أعنى المال للاهتمام به أو لأن فى الثانى مع ما عطف عليه طولا لو روعى الترتيب لفات تجاوب الأطراف فى الكلام وهو الذى اقتضى تقديم الحال أيضا وقيل هو المفعول الثانى ﴿واليتامى﴾ أى المحاويج منهم على ما يدل عليه الحال وتقديم ذوى القربى عليهم لما أن ايتاءهم صدقة وصلة ﴿والمساكين﴾ جمع مسكين وهو الدائم السكون لما أن الخلة أسكنته بحيث لا حراك به أو دائم السكون الى الناس ﴿وابن السبيل﴾ أى المسافر سمى به لملازمته اياه كما سمى القاطع ابن الطريق وقيل الضيف ﴿والسائلين﴾ الذين ألجأتهم الحاجة والضرورة الى السؤال قال عليه الصلاة والسلام أعطوا السائل و لو جاء على فرس ﴿وفى الرقاب﴾ أى وضعه فى فك الرقاب بمعاونة المكاتبين حتى يفكوا رقابهم وقيل فى فك الاسارى وقيل فى ابتياع الرقاب واعتاقها وأيا ما كان فالعدول عن ذكرهم بعنوان مصحح للمالكية كالذين من قبلهم اما للايذان بعدم قرار ملكهم فيما أوتوا كما فى الوجهين الأولين أو بعدم ثبوته رأسا كما فى الوجه الأخير واما للاشعار برسوخهم فى الاستحقاق والحاجة لما أن فى للظرفية المنبئة عن محليتهم لما يؤتى ﴿وأقام الصلاة﴾ أى المفروضة منها ﴿وآتى الزكاة﴾ أى المفروضة على أن المراد بما مر من ايتاء المال التنفل بالصدقات قدم على الفريضة مبالغة فى الحث عليه أو المراد بهما المفروضة والأول لبيان المصارف والثانى لبيان وجوب الأداء ﴿والموفون بعهدهم﴾

عطف على من آمن فانه فى قوة أن يقال ومن أوفوا بعهدهم وايثار صيغة الفاعل للدلالة على وجوب استمرار الوفاء والمراد بالعهد مالايحرم حلالا و لايحلل حراما من العهود الجارية فيما بين الناس وقوله تعالى ﴿اذا عاهدوا﴾ للايذان بعدم كونه من ضروريات الدين ﴿والصابرين﴾ نصب على الاختصاص غير سبكه عما قبله تنبيها على فضيلة الصبر ومزيته وهو فى الحقيقة معطوف على ماقبله. قال أبو على اذا ذكرت صفات للمدح أو الذم فخولف فى بعضها الاعراب فقد خولف للافتنان و يسمى ذلك قطعا لأن تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب فى استماع المذكور ومزيد اهتمام بشأنه كما مر فى صدر السورة وقد قرىء والصابرون كما قرىء والموفين ﴿فى البأساء﴾ أى فى الفقر والشدة ﴿والضراء﴾ أى المرض والزمانة ﴿وحين البأس﴾ أى وقت مجاهدة العدو فى مواطن الحرب و زيادة الحين للاشعار بوقوعه أحيانا وسرعة انقضائه ﴿أولئك﴾ اشارة الى المذ ورين باعتبار اتصافهم بالنعوت الجميلة المعدودة ومافيه من معنى البعد لما مر مرارا من التنبيه على علو طبقتهم وسمو رتبتهم ﴿الذين صدقوا﴾ أى فى الدين واتباع الحق وتحرى البر حيث لم تغيرهم الأحوال ولم تزلزلهم الأهوال ﴿وأولئك هم المتقون﴾ عن الكفر وسائر الرذائل وتكرير الاشارة لزيادة تنويه شأنهم وتوسيط الضمير للاشارة الى انحصار التقوى فيهم والآية الكريمة كما ترى حاوية لجميع الكمالات البشرية برمتها تصريحا أو تلويحا لما أنها مع تكثر فنونها وتشعب شجونها منحصرة فى خلال ثلاث صحة الاعتقاد وحسن المعاشرة مع العباد وتهذيب النفس وقد أشير الى الأولى بالايمان بما فصل والى الثانية بايتاء المال والى الثالثة باقامة الصلاة الخ و لذلك وصف الحائزون لها بالصدق نظرا الى ايمانهم واعتقادهم و بالتقوى اعتبارا بمعاشرتهم مع الخلق ومعاملتهم مع الحق واليه يشير قوله صلى الله عليه وسلم من عمل بهذه الآية فقد استكمل الايمان ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ شروع فى بيان بعض الأحكام الشرعية على وجه التلافى لما فرط من المخلين بما ذكر من أصول الدين وقواعده التى عليها بنى أساس المعاش والمعاد ﴿كتب عليكم﴾ أى فرض وألزم عند مطالبة صاحب الحق فلا يقدح فيه قدرة الولى على العفو فان الوجوب انما اعتبر بالنسبة الى الحكام أو القاتلين ﴿القصاص فى القتلى﴾ أى بسبب قتلهم كما فى قوله صلى الله عليه وسلم ان امرأة دخلت النار فى هرة ربطتها أى بسبب ربطها اياها ﴿الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى﴾ كان فى الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء وكان لاحدهما طول على الآخر فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد والذكر بالأنثى فلما جاء الاسلام تحاكموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت فأمرهم أن يتباوءوا وليس فيها دلالة على عدم قتل الحر بالعبد عند الشافعى أيضا لان اعتبار المفهوم حيث لم يظهر للتخصيص بالذكر وجه سوى اختصاص الحكم بالمنطوق وقد رأيت الوجه ههنا وانما يتمسك فى ذلك هو ومالك رحمهما الله بما روى على رضى الله عنه أن رجلا قتل عبده فجلده رسول الله صلى الله عليه وسلم ونفاه سنة ولم يقده و بما روى عنه رضى الله عنه أنه قال من السنة أن لا يقتل مسلم بذى عهد ولا حر بعبد و بأن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما كانا لا يقتلان الحر بالعبد بين أظهر الصحابة من غير نكير و بالقياس على الاطراف وعندنا يقتل الحر بالعبد لقوله تعالى أن النفس بالنفس فان شريعة من قبلنا اذا قصت علينا من غير دلالة على نسخها فالعمل بها واجب على أنها شريعة لنا و لان القصاص يعتمد المساواة فى العصمة وهى بالدين أو بالدار وهما سيان فيهما وقرىء كتب على البناء للفاعل ونصب القصاص ﴿فمن عفى له من أخيه شىء﴾ أى شىء من العفو لان عفا لازم وفائدته الاشعار بأن بعض العفو بمنزلة كله فى اسقاط القصاص وهو الواقع أيضا فى العادة اذ كثيرا مايقع العفو من بعض الأولياء فهو شىء من العفو وقيل معنى عفى ترك وشىء مفعول به وهو ضعيف اذ لم يثبت عفاه بمعنى تركه بل أعفاه وحمل العفو على المحو كما فى قول من قال دیار عفاها جور كل معاند وقوله عفاها كل حنان كثير الوبل هطال

فيكون المعنى فمن محى له من أخيه شىء صرف للعبارة المتداولة فى الكتاب والسنة عن معناها المشهور المعهود الى ماليس بمعهود فيهما و فى استعمال الناس فانهم لا يستعملون العفو فى باب الجنايات الا فيما ذكر من قبل وعفا يعدى بعن الى الجانى والذنب قال تعالى عفا الله عنك وقال عفا الله عنها فاذا تعدى الى الذنب قيل عفوت لفلان عما جنى كأنه قيل فمن عفى له عن جنايته من جهة أخيه يعنى ولى الدم وايراده بعنوان الاخوة الثابتة بينهما بحكم كونهما من بنى آدم عليه السلام لتحريك سلسلة الرقة والعطف عليه ﴿فاتباع بالمعروف﴾ فالأمر اتباع أو فليكن اتباع والمراد وصية العافى بالمسامحة ومطالبة الدية بالمعروف من غير تعسف وقوله عز وجل ﴿وأداء اليه باحسان﴾ حث للمعفو عنه على أن يؤديها باحسان من غير مماطلة و بخس ﴿ذلك﴾ أى ماذكر من الحكم ﴿تخفيف من ربكم و رحمة﴾ لما فيه من التسهيل والنفع وقيل كتب على اليهود القصاص وحده وحرم عليهم العفو والدية وعلى النصارى العفو على الاطلاق وحرم عليهم القصاص والدية وخيرت هذه الأمة بين الثلاث تيسيرا عليهم وتنزيلا للحكم على حسب المنازل ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾ بأن قتل غير القاتل بعد و رود هذا الحكم أو قتل القاتل بعد العفو أو أخذ الدية ﴿فله﴾ باعتدائه ﴿عذاب أليم﴾ أما فى الدنيا فبالاقتصاص بما قتله بغير حق وأما فى الآخرة فبالنار ﴿ولكم فى القصاص حياة﴾ بيان لمحاسن الحكم المذكور على وجه بديع لاتنال غايته حيث جعل الشىء محلا لضده وعرف القصاص ونكر الحياة ليدل على أن فى هذا الجنس نوعا من الحياة عظيما لايبلغه الوصف وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل فيتسبب لحياة نفسين و لأنهم كانوا يقتلون غير القاتل والجماعة بالواحد فتثور الفتنة بينهم فاذا اقتص من القاتل سلم الباقون فيكون ذلك سببا لحياتهم وعلى الاول فيه اضمار وعلى الثانى تخصيص وقيل المراد بالحياة هى الأخروية فان القاتل اذا اقتص منه فى الدنيا لم يؤاخذ به فى الآخرة والظرفان اما خبران لحياة أو أحدهما خبر والآخر صلة له أو حال من المستكن فيه وقرىء فى القصص أى فيما قص عليكم من حكم القتل حياة أو فى القرآن حياة للقلوب ﴿ياأولى الألباب﴾ أى ذوى العقول الخالصة عن شوب الأوهام خوطبوا بذلك بعد ماخوطبوا بعنوان الايمان تنشيطا لهم الى التأمل فى حكمة القصاص ﴿لعلكم تتقون﴾ أى تتقون أنفسكم من المساهلة فى أمره والاهمال فى المحافظة عليه والحكم به والاذعان له أو فى القصاص فتكفوا عن القتل المؤدى اليه ﴿كتب عليكم﴾ بيان لحكم آخر من الأحكام المذكورة ﴿اذا حضر أحدكم الموت﴾ أى حضر أسبابه وظهر أماراته أودنا نفسه من الحضور وتقديم المفعول لافادة كمال تمكن الفاعل عند النفس وقت و روده عليها ﴿ان ترك خيرا﴾ أى مالا وقيل مالا كثيرا لما روى عن على رضى الله عنه أن مولى له أراد أن يوصى وله سبعمائة درهم فمنعه وقال قال الله تعالى ان ترك خيرا وان هذا لشىء يسير فاتركه لعيالك وعن عائشة رضى الله عنها أن رجلا أراد الوصية و له عيال وأربعمائة دينار فقالت ماأرى فيه فضلا وأراد آخر أن يوصى فسألته كم مالك فقال ثلاثة آلاف درهم قالت كم عيالك قال أربعة قالت انما قال الله تعالى ان ترك خيرا وان هذا لشىء يسير فاتركه لعيالك ﴿الوصية للوالدين والأقربين﴾ مرفوع بكتب أخر عما بينهما لما مر مرارا وايثار تذكير الفعل مع جواز تأنيثه أيضا للفصل أو على تأويل أن يوصى أو الايصاء ولذلك ذكر الضمير فى قوله تعالى فمن بدله بعدما سمعه واذا ظرف محض والعامل فيه كتب لكن لامن حيث صدور الكتب عنه تعالى بل من حيث تعلقه بهم تعلقا فعليا مستتبعا لوجوب الاداء كما ينبىء عنه البناء للمفعول وكلمة الايجاب و لا مساغ لجعل العامل هو الوصية لتقدمه عليها وقيل هو مبتدأ خبره للوالدين والجملة جواب الشرط باضمار الفاء كما فى قوله من يفعل الحسنات الله يشكرها ورد بأنه ان صح فمن ضرورة الشعر ومعنى كتب فرض وكان هذا الحكم فى بدء الاسلام ثم نسخ عند نزول آية المواريث بقوله عليه

السلام ان الله قد أعطى كل ذى حق حقه ألا لا وصية لوارث فانه وان كان من أخبار الآحاد لكن حيث تلقته الأمة بالقبول انتظم فى سلك المتواتر فى صلاحيته للنسخ عند أئمتنا على أن التحقيق أن الناسخ حقيقة هى آية المواريث وانما الحديث مبين لجهة نسخها ببيان أنه تعالى كان قد كتب عليكم أن تؤدوا الى الوالدين والأقربين حقوقهم بحسب استحقاقهم من غير تبيين لمراتب استحقاقهم ولا تعيين لمقادير أنصبائهم بل فوض ذلك الى آرائكم حيث قال ﴿بالمعروف﴾ أى بالعدل فالآن قد رفع ذلك الحكم عنكم لتبيين طبقات استحقاق كل واحد منهم وتعيين مقادير حقوقهم بالذات وأعطى كل ذى حق منهم حقه الذى يستحقه بحكم القرابة من غير نقص ولا زيادة ولم يدع ثمة شيأ فيه مدخل لرأيكم أصلا حسبما يعرب عنه الجملة المنفية بلا النافية للجنس وتصديرها بكلمة التنبيه اذا تحققت هذا ظهر لك أن ماقيل من أن آية المواريث لا تعارضه بل تحققه وتؤكده من حيث أنها تدل على تقديم الوصية مطلقا والحديث من الآحاد وتلقى الأمة اياه بالقبول لا يلحقه بالمتواتر ولعله احترز عنه من فسر الوصية بما أوصى به الله عز وجل من توريث الوالدين والأقربين بقوله تعالى يوصيكم الله أو بايصاء المحتضر لهم بتوفير ماأوصى به الله تعالى عليهم بمعزل من التحقيق وكذا ماقيل من أن الوصية للوارث كانت واجبة بهذه الآية من غير تعيين لأنصبائهم فلما نزلت آية المواريث بيانا للانصباء بلفظ الايصاء فهم منها بتنبيه النبى صلى الله عليه وسلم أن المراد منه هذه الوصية التى كانت واجبة كأنه قيل ان الله تعالى أوصى بنفسه تلك الوصية ولم يفوضها اليكم فقام الميراث مقام الوصية فكان هذا معنى النسخ لا أن فيها دلالة على رفع ذلك الحكم فان مدلول آية الوصية حيث كان تفويضا للامر الى آراء المكلفين على الاطلاق وتسنى الخروج عن عهدة التكليف بأداء ماأدى اليه آراؤهم بالمعروف فتكون آية المواريث الناطقة بمراتب الاستحقاق وتفاصيل مقادير الحقوق القاطعة بامتناع الزيادة والنقص بقوله تعالى فريضة من الله ناسخة لها رافعة لحكمها بما لا يشتبه على أحد وقوله تعالى ﴿حقاً على المتقين﴾ مصدر مؤكد أى حق ذلك حقا ﴿فمن بدله﴾ أى غيره من الاوصياء والشهود ﴿بعدما سمعه﴾ أى بعدما وصل اليه وتحقق لديه ﴿فانما اثمه﴾ أى اثم الايصاء المغير أو اثم التبديل ﴿على الذين يبدلونه﴾ لانهم خانوا وخالفوا حكم الشرع ووضع الموصول فى موضع الضمير الراجع الى من لتأكيد الايذان بعلية مافى حيز الصلة الاولى وايثار الجمع للاشعار بتعدد المبدلين أنواعا أو كثرتهم أفرادا والايذان بشمول الاثم لجميع الأفراد ﴿ان الله سميع عليم﴾ وعيد شديد للمبدلين ﴿فمن خاف من موص﴾ أى توقع وعلم من قولهم أخاف أن يرسل السماء وقرئ من موص ﴿جنفا﴾ أى ميلا بالخطأ فى الوصية ﴿أو اثما﴾ أى تعمدا للجنف ﴿فأصلح بينهم﴾ أى بين الموصى لهم باجرائهم على منهاج الشريعة الشريفة ﴿فلا اثم عليه﴾ أى فى هذا التبديل لأنه تبديل باطل الى حق بخلاف الاول ﴿ان الله غفور رحيم﴾ وعد للمصلح وذكر المغفرة لمطابقة ذكر الاثم وكون الفعل من جنس مايؤثم ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾ بيان لحكم آخر من الاحكام الشرعية وتكرير النداء لاظهار مزيد الاعتناء والصيام والصوم فى اللغة الامساك عما تنازع اليه النفس ومنه قوله تعالى انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم الآية وقيل هو الامساك عن الشئ مطلقا ومنه صامت الريح اذا أمسكت عن الهبوب والفرس اذا أمسكت عن العدو قال

خيل صيام وخيل غير صائمة   تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

وفى الشريعة هو الامساك نهارا مع النية عن المفطرات المعهودة التى هى معظم ماتشتهيه الأنفس ﴿كما كتب﴾ فى حيز النصب على أنه نعت للمصدر المؤكد أى كتابا كائنا كما كتب أو على أنه حال من المصدر المعرفة أى كتب عليكم الصيام الكتب مشبها بما كتب فما على الوجهين مصدرية أو على أنه نعت لمصدر من لفظ الصيام أى صوما مماثلا

للصوم المكتوب على من قبلكم فما موصولة أو على أنه حال من الصيام أى حال كونه مماثلا لما كتب ﴿على الذين من قبلكم﴾ من الانبياء عليهم الصلاة والسلام والأمم من لدن آدم عليه السلام وفيه تأكيد للحكم وترغيب فيه وتطييب لانفس المخاطبين به فان الشاق اذا عم سهل عمله والمراد بالمماثلة اما المماثلة فى أصل الوجوب واما فى الوقت والمقدار كما يروى أن صوم رمضان كان مكتوبا على اليهود والنصارى أما اليهود فقد تركته وصامت يوما من السنة زعموا أنه يوم غرق فرعون وكذبوا فى ذلك فانه كان يوم عاشوراء وأما النصارى فانهم صاموا رمضان حتى صادفوا حرا شديدا فاجتمعت آراء علمائهم على تعيين فصل واحد بين الصيف والشتاء فجعلوه فى الربيع وزادوا عليه عشرة أيام كفارة لما صنعوا فصار أربعين ثم مرض ملكهم أو وقع فيهم موتان فزادوا عشرة أيام فصار خمسين ﴿لعلكم تتقون﴾ أى المعاصى فان الصوم يكسر الشهوة الداعية اليها كما قال عليه الصلاة والسلام فعليه بالصوم فان الصوم له وجاء أو تتقون الاخلال بأدائه لاصالته أو تصلون بذلك الى رتبة التقوى ﴿أياما معدودات﴾ مؤقتات بعدد معلوم أو قلائل فان القليل من المال يعد عدا والكثير يهال هيلا والمراد بها اما رمضان أو ما وجب فى بدء الاسلام ثم نسخ به من صوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر وانتصابه ليس بالصيام كما قيل لوقوع الفصل بينهما بأجنبى بل بمضمر دل هو عليه أعنى صوموا اما على الظرفية أو المفعولية اتساعا وقيل بقوله تعالى كتب على أحد الوجهين وفيه أن الأيام ليست محلا له بل للمكتوب فلا تتحقق الظرفية ولا المفعولية المتفرعة عليها اتساعا ﴿فمن كان منكم مريضا﴾ أى مرضا يضره الصوم أو يعسر معه ﴿أو على سفر﴾ مستمرين عليه وفيه تلويح ورمز الى أن من سافر فى أثناء اليوم لم يفطر ﴿فعدة﴾ أى فعليه صوم عدة أيام المرض والسفر ﴿من أيام أخر﴾ ان أفطر فحذف الشرط والمضاف ثقة بالظهور وقرئ بالنصب أى فليصم عدة وهذا على سبيل الرخصة وقيل على الوجوب واليه ذهب الظاهرية وبه قال أبو هريرة رضى الله عنه ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ أى وعلى المطيقين للصيام ان أفطروا ﴿فدية﴾ أى اعطاء فدية وهى ﴿طعام مسكين﴾ وهو نصف صاع من بر أو صاع من غيره عند أهل العراق ومد عند أهل الحجاز وكان ذلك فى بدء الاسلام لما أنه قد فرض عليهم الصوم وما كانوا متعودين له فاشتد عليهم فرخص لهم فى الافطار والفدية وقرئ يطوقونه أى يكلفونه أو يقلدونه ويتطوقونه ويطوقونه بادغام التاء فى الطاء ويطيقونه ويطيقونه بمعنى يتطيقونه وأصلهما يطيوقونه ويتطيوقونه من فيعل وتفيعل من الطوق فأدغمت الياء فى الواو بعد قلبها ياء كقولهم تدير المكان وما بها ديار وفيه وجهان أحدهما نحو معنى يطيقونه والثانى يكلفونه أو يتكلفونه على جهد منهم وعسر وهم الشيوخ والعجائز وحكم هؤلاء الافطار والفدية وهو حينئذ غير منسوخ ويجوز أن يكون هذا معنى يطيقونه أى يصومونه جهدهم وطاقتهم ومبلغ وسعهم ﴿فمن تطوع خيرا﴾ فزاد فى الفدية ﴿فهو﴾ أى التطوع أو الخير الذى تطوعه ﴿خير له وأن تصوموا﴾ أيها المطيقون أو المطوقون وتحملوا على أنفسكم وتجهدوا طاقتكم أو المرخصون فى الافطار من المرضى والمسافرين ﴿خير لكم﴾ من الفدية أو من تطوع الخير أو منهما أو من التأخير الى أيام أخر والالتفات الى الخطاب للهز والتنشيط ﴿ان كنتم تعلمون﴾ أى مافى صومكم مع تحقق المبيح للافطار من الفضيلة والجواب محذوف ثقة بظهوره أى اخترتموه أو سارعتم اليه وقيل معناه ان كنتم من أهل العلم والتدبير علمتم أن الصوم خير من ذلك ﴿شهر رمضان﴾ مبتدأ سيأتى خبره أو خبر لمبتدا محذوف أى ذلك شهر رمضان أو بدل من الصيام على حذف المضاف أى صيام شهر رمضان وقرئ بالنصب على اضمار صوموا أو على أنه مفعول تصوموا أو بدل من أياما معدودات ورمضان مصدر رمض أى احترق من الرمضاء فأضيف اليه الشهر وجعل علما ومنع الصرف للتعريف والالف والنون كما قيل ابن دأية للغراب فقوله عليه السلام من صام رمضان الحديث وارد على حذف

المضاف للامن من الالتباس وانما سمى بذلك امالارتماضهم فيه من الجوع والعطش أو لارتماض الذنوب بالصيام فيه أو لوقوعه فى أيام رمض الحر عند نقل أسماء الشهور عن اللغة القديمة ﴿الذى أنزل فيه القرآن﴾ خبر للمبتدا على الوجه الاول وصفة لشهر رمضان على الوجوه الباقية ومعنى انزاله فيه أنه ابتدئ انزاله فيه وكان ذلك ليلة القدر أو أنزل فيه جملة الى السماء الدنيا ثم نزل منجما الى الارض حسبما تقتضيه المشيئة الربانية أو أنزل فى شأنه القرآن وهو قوله عز وجل كتب عليكم وعن النبى صلى الله عليه وسلم نزلت صحف ابراهيم أول ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لست مضين منه والانجيل لثلاث عشرة منه والقرآن لاربع وعشرين ﴿هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ حالان من القرآن أى أنزل حال كونه هداية للناس بما فيه من الاعجاز وغيره وآيات واضحة مرشدة الى الحق فارقة بينه وبين الباطل بما فيه من الحكم والاحكام ﴿فمن شهد منكم الشهر﴾ أى حضر فيه ولم يكن مسافراً ووضع الظاهر موضع الضمير للتعظيم والمبالغة فى البيان والفاء للتفريع والترتيب أو لتضمن المبتدا معنى الشرط أو زائدة على تقدير كون شهر رمضان مبتدأ والموصول صفة له وهذه الجملة خبر له وقيل هى جزائية كأنه قيل لما كتب عليكم الصيام فى ذلك الشهر فمن حضر فيه ﴿فليصمه﴾ أى فليصم فيه بحذف الجار وايصال الفعل الى المجرور اتساعا وقيل من شهد منكم هلال الشهر فليصمه على أنه مفعول به كقولك شهدت الجمعة أى صلاتها فيكون مابعده مخصصا له كأنه قيل ﴿ومن كان مريضاً﴾ وان كان مقيما حاضرا فيه ﴿أو على سفر﴾ وان كان صحيحا ﴿فعدة من أيام أخر﴾ أى فعليه صيام أيام أخر لان المريض والمسافر ممن شهد الشهر ولعل التكرير لذلك أو لئلا يتوهم نسخه كما نسخ قرينه ﴿يريد الله﴾ بهذا الترخيص ﴿بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ لغاية رأفته وسعة رحمته ﴿ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهداكم ولعلكم تشكرون﴾ علل لفعل محذوف يدل عليه ماسبق أى ولهذه الأمور شرع مامر من أمر الشاهد بصوم الشهر وأمر المرخص لهم بمراعاة عدة ماأفطر فيه ومن الترخيص فى اباحة الفطر فقوله تعالى لتكملوا علة الأمر بمراعاة العدة ولتكبروا علة ماعلمه من كيفية القضاء ولعلكم تشكرون علة الترخيص والتيسير وتعدية فعل التكبير بعلى لتضمنه معنى الحمد كأنه قيل ولتكبروا الله حامدين على ماهداكم ويجوز أن تكون معطوفة على علة مقدرة مثل ليسهل عليكم أو لتعلموا ماتعملون ولتكملوا الخ ويجوز عطفها على اليسر أى يريد بكم لتكملوا الخ كقوله تعالى يريدون ليطفئوا الخ والمعنى بالتكبير تعظيمه تعالى بالحمد والثناء عليه وقيل تكبير يوم العيد وقيل التكبير عند الاهلال وماتحتمل المصدرية والموصولة أى على هدايته اياكم أو على الذى هداكم اليه وقرئ ولتكملوا بالتشديد ﴿واذا سألك عبادى عنى﴾ فى تلوين الخطاب وتوجيهه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مالايخفى من تشريفه ورفع محله ﴿فانى قريب﴾ أى فقل لهم انى قريب وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم واطلاعه على أحوالهم بحال من قرب مكانه. روى أن أعرابيا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فنزلت ﴿أجيب دعوة الداع اذا دعان﴾ تقرير للقرب وتحقيق له ووعد للداعى بالاجابة ﴿فليستجيبوا لى﴾ اذا دعوتهم للايمان والطاعة كما أجيبهم اذا دعونى لمهماتهم ﴿وليؤمنوا بى﴾ أمر بالثبات على ماهم عليه ﴿لعلهم يرشدون﴾ راجين اصابة الرشد أى الحق وقرئ بفتح الشين وكسرها ولما أمرهم الله تعالى بصوم الشهر ومراعاة العدة وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر عقبه بهذه الآية الكريمة الدالة على أنه تعالى خبير بأحوالهم سميع لاقوالهم مجيب لدعائهم مجازيهم على أعمالهم تأكيدا له وحثا عليه ثم شرع فى بيان أحكام الصيام فقال ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم﴾ روى أن المسلمين كانوا اذا أمسوا حل لهم الأكل والشرب والجماع الى أن يصلوا العشاء الاخيرة أو يرقدوا ثم ان عمر رضى الله عنه باشر بعد العشاء فندم وأتى النبى صلى الله عليه وسلم

واعتذر اليه فقام رجال فاعترفوا بما صنعوا بعد العشاء فنزلت. وليلة الصيام الليلة التى يصبح منها صائما والرفث كناية عن الجماع لأنه لايكاد يخلو من رفث وهو الافصاح بما يجب أن يكنى عنه وعدى بالى لتضمنه معنى الافضاء والانهاء وايثاره ههنا لاستقباح ماارتكبوه ولذلك سمى خيانة وقرئ الرفوث وتقديم الظرف على القائم مقام الفاعل لما مر مراراً من التشويق فان ماحقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مترقبة اليه فيتمكن عندها وقت وروده فضل تمكن ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ استئناف مبين لسبب الاحلال وهو صعوبة الصبر عنهن مع شدة المخالطة وكثرة الملابسة بهن وجعل كل من الرجل والمرأة لباسا للآخر لاعتناقهما واشتمال كل منهما على الآخر بالليل قال

اذا ما الضجيع ثنى عطفها تثنت فكانت عليه لباسا

أو لأن كلا منهما يستر حال صاحبه ويمنعه من الفجور ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ استئناف آخر مبين لما ذكر من السبب والاختيان أبلغ من الخيانة كالاكتساب من الكسب ومعنى تختانون تظلمونها بتعريضها للعقاب وتنقيص حظها من الثواب ﴿فتاب عليكم﴾ عطف على علم أى تاب عليكم لما تبتم مما اقترفتموه ﴿وعفا عنكم﴾ أى محا أثره عنكم ﴿فالآن﴾ لما نسخ التحريم ﴿باشروهن﴾ المباشرة الزاق البشرة بالبشرة كنى بها عن الجماع الذى يستلزمها وفيه دليل على جواز نسخ الكتاب للسنة ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ أى واطلبوا ماقدره الله لكم وقرره فى اللوح من الولد وفيه أن المباشر ينبغى أن يكون غرضه الولد فانه الحكمة فى خلق الشهوة وشرع النكاح لا قضاء الشهوة وقيل فيه نهى عن العزل وقيل عن غير المأتى والتقدير وابتغوا المحل الذى كتب الله لكم ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر﴾ شبه أول ما يبدو من الفجر المعترض فى الافق ومايمتد معه من غلس الليل بخيطين أبيض وأسود واكتفى ببيان الخيط الابيض بقوله تعالى من الفجر عن بيان الخيط الاسود لدلالته عليه وبذلك خرجا عن الاستعارة الى التمثيل ويجوز أن يكون من للتبعيض فان مايبدو بعض الفجر ومارووى من أنها نزلت ولم ينزل من الفجر فعمد رجال الى خيطين أبيض وأسود وطفقوا يأكلون ويشربون حتى يتبينا لهم فنزلت فلعل ذلك كان قبل دخول رمضان وتأخير البيان الى وقت الحاجة جائز أو اكتفى أولا باشتهارهما فى ذلك ثم صرح بالبيان لما التبس على بعضهم وفى تجويز المباشرة الى الصبح دلالة على جواز تأخير الغسل اليه وصحة صوم من أصبح جنبا ﴿ثم أتموا الصيام الى الليل﴾ بيان لآخر وقته ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد﴾ أى معتكفون فيها والمراد بالمباشرة الجماع وعن قتادة كان الرجل يعتكف فيخرج الى امرأته فيباشرها ثم يرجع فنهوا عن ذلك وفيه دليل على أن الاعتكاف يكون فى المسجد غير مختص ببعض دون بعض وأن الوطء فيه حرام ومفسد له لان النهى فى العبادات يوجب الفساد ﴿تلك حدود الله﴾ أى الأحكام المذكورة حدود وضعها الله تعالى لعباده ﴿فلا تقربوها﴾ فضلا عن تجاوزها نهى أن يقرب الحد الحاجز بين الحق والباطل مبالغة فى النهى عن تخطيها كما قال صلى الله عليه وسلم ان لكل ملك حمى وحمى الله محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه ويجوز أن يراد بحدود الله تعالى محارمه ومناهيه ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك التبيين البليغ ﴿يبين الله آياته﴾ الدالة على الاحكام التى شرعها ﴿للناس لعلهم يتقون﴾ مخالفة أوامره ونواهيه ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ نهى عن أكل بعضهم أموال بعض على خلاف حكم الله تعالى بعد النهى عن أكل أموال أنفسهم فى نهار رمضان أى لا يأكل بعضكم مال بعض بالوجه الذى لم يبحه الله تعالى وبين نصب على الظرفية أو الحالية من أموالكم ﴿وتدلوا بها الى الحكام﴾ عطف على المنهى عنه أو نصب باضمار أن والادلاء الالقاء أى ولا تلقوا حكومتها الى الحكام ﴿لتأكلوا﴾ بالتحاكم اليهم ﴿فريقا من أموال الناس﴾

بالاثم﴾ بما يوجب اثماً كشهادة الزور واليمين الفاجرة أو متلبسين بالاثم ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنكم مبطلون فان ارتكاب المعاصى مع العلم بها أقبح. روى أن عبدان الحضرمى ادعى على امرىء القيس الكندى قطعة أرض ولم يكن له بينة فحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحلف امرؤ القيس فهم به فقرأ عليه الصلاة والسلام ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا الآية فارتدع عن اليمين فسلم الارض الى عبدان فنزلت. وروى أنه اختصم اليه خصمان فقال عليه السلام انما أنا بشر مثلكم وأنتم تختصمون الى ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع منه فمن قضيت له بشىء من حق أخيه فانما أقضى له قطعة من نار فبكيا فقال كل واحد منهما حقى لصاحبى فقال اذهبا فتوخيا ثم استهما ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه ﴿يسألونك عن الأهلة﴾ سأله معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم فقالا مابال الهلال يبدو رقيقا كالخيط ثم يزيد حتى يستوى ثم لايزال ينقص حتى يعود كما بدا ﴿قل هى مواقيت للناس والحج﴾ كانوا قد سألوه عليه الصلاة والسلام عن الحكمة فى اختلاف حال القمر وتبدل أمره فأمره الله العزيز الحكيم أن يجيبهم بأن الحكمة الظاهرة فى ذلك أن تكون معالم للناس فى عباداتهم لاسيما الحج فان الوقت مراعى فيه أداء وقضاء وكذا فى معاملاتهم على حسب مايتفقون عليه والمواقيت جمع ميقات من الوقت والفرق بينه وبين المدة والزمان أن المدة المطلقة امتداد حركة الفلك من مبدئها الى منتهاها والزمان مدة مقسومة الى الماضى والحال والمستقبل والوقت الزمان المفروض لأمر ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ كانت الانصار اذا أحرموا لم يدخلوا دارا ولا فسطاطا من بابه وانما يدخلون ويخرجون من نقب أو فرجة وراءها ويعدون ذلك برا فبين لهم أنه ليس ببر فقيل ﴿ولكن البر من اتقى﴾ أى بر من اتقى المحارم والشهوات ووجه اتصاله بما قبله أنهم سألوا عن الامرين أو أنه لما ذكر أنها مواقيت للحج ذكر عقيبه ما هو من أفعالهم فى الحج استطرادا أو أنهم لما سألوا عما لا يعنيهم ولا يتعلق بعلم النبوة فانه عليه الصلاة والسلام مبعوث لبيان الشرائع لا لبيان حقائق الأشياء وتركوا السؤال عما يعنيهم ويختص بعلم الرسالة عقب بذكره جواب ما سألوا عنه تنبيها على أن اللائق بهم أن يسألوا عن أمثال ذلك ويهتموا بالعلم بها أو أريد به التنبيه على تعكيسهم فى السؤال وكونه من قبيل دخول البيت من ورائه والمعنى وليس البر بأن تعكسوا فى مسائلكم ولكن البر من اتقى ذلك ولم يجترىء على مثله ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾ اذ ليس فى العدول بر أو باشروا الامور من وجوهها ﴿واتقوا الله﴾ فى تغيير أحكامه أو فى جميع أموركم أمر بذلك صريحا بعد بيان أن البر بر من اتقى اظهارا لزيادة الاعتناء بشأن التقوى وتمهيدا لقوله تعالى ﴿لعلكم تفلحون﴾ أى لكى تظفروا بالبر والهدى ﴿وقاتلوا فى سبيل الله﴾ أى جاهدوا لاعزاز دينه واعلاء كلمته وتقديم الظرف على المفعول الصريح لابراز كمال العناية بشأن المقدم ﴿الذين يقاتلونكم﴾ قيل كان ذلك قبل ما أمروا بقتال المشركين كافة المقاتلين منهم والمحاجزين وقيل معناه الذين يناصبونكم القتال ويتوقع منهم ذلك دون غيرهم من المشايخ والصبيان والرهابنة والنساء أو الكفرة جميعا فان الكل بصدد قتال المسلمين ويؤيد الاول ماروى أن المشركين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية وصالحوه على أن يرجع من قابل فيخلوا له مكة شرفها الله تعالى ثلاثة أيام فرجع لعمرة القضاء فخاف المسلمون أن لايفوا لهم ويقاتلوهم فى الحرم والشهر الحرام وكرهوا ذلك فنزلت ويعضده ايراده فى أثناء بيان أحكام الحج ﴿ولا تعتدوا﴾ بابتداء القتال أو بقتال المعاهد والمفاجأة به من غير دعوة أو بالمثلة وقتل من نهيتم عن قتله من النساء والصبيان ومن يجرى مجراهم ﴿ان الله لايحب المعتدين﴾ أى لايريد بهم الخير وهو تعليل للنهى ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ أى حيث وجدتموهم من حل أو حرم وأصل الثقف الحذق فى ادراك الشىء علما أو عملا وفيه معنى الغلبة

ولذلك استعمل فيها قال

فاما تثقفونى فاقتلونى فمن أثقف فليس الى خلود

﴿وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾ أى من مكة وقد فعل بهم ذلك يوم الفتح بمن لم يسلم من كفارها ﴿والفتنة أشد من القتل﴾ أى المحنة التى يفتتن بها الانسان كالاخراج من الوطن أصعب من القتل لدوام تعبها وبقاء تألم النفس بها وقيل شركهم فى الحرم وصدهم لكم عنه أشد من قتلكم اياهم فيه ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام﴾ أى لاتفاتحوهم بالقتل هناك ولا تهتكوا حرمة المسجد الحرام ﴿حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم﴾ ثمة ﴿فاقتلوهم﴾ فيه ولاتبالوا بقتالهم ثمة لأنهم الذين هتكوا حرمته فاستحقوا أشد العذاب وفى العدول عن صيغة المفاعلة التى بها ورد النهى والشرط عدة بالنصر والغلبة وقرىء ولاتقتلوهم حتى يقتلوكم فان قتلوكم فاقتلوهم والمعنى حتى يقتلوا بعضكم كقولهم قتلتنا بنو أسد ﴿كذلك جزاء الكافرين﴾ يفعل بهم مثل ما فعلوا بغيرهم ﴿فان انتهوا﴾ عن القتال والكفر بعد ما رأوا قتالكم ﴿فان الله غفور رحيم﴾ يغفر لهم ماقد سلف ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ أى شرك ﴿ويكون الدين لله﴾ خالصا ليس للشيطان فيه نصيب ﴿فان انتهوا﴾ بعد مقاتلتكم عن الشرك ﴿فلا عدوان الا على الظالمين﴾ أى فلا تعتدوا عليهم اذ لا يحسن الظلم الا لمن ظلم فوضع العلة موضع الحكم وتسمية الجزاء بالعدوان للمشاكلة كما فى قوله عز وجل فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه أو انكم ان تعرضتم للمنتهين صرتم ظالمين وتنعكس الحال عليكم والفاء الاولى للتعقيب والثانية للجزاء ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾ قاتلهم المشركون عام الحديبية فى ذى القعدة فقيل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء فى ذى القعدة أيضا وكراهتهم القتال فيه هذا الشهر الحرام بذلك الشهر الحرام وهتكه بهتكه فلا تبالوا به ﴿والحرمات قصاص﴾ أى كل حرمة وهى ما يجب المحافظة عليه يجرى فيها القصاص فلما هتكوا حرمة شهركم بالصد فافعلوا بهم مثله وادخلوا عليهم عنوة فاقتلوهم ان قاتلوكم كما قال تعالى ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ وهو فذلكة مقررة لما قبلها ﴿واتقوا الله﴾ فى شأن الانتصار واحذروا أن تعتدوا الى مالم يرخص لكم ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ فيحرسهم ويصلح شؤنهم بالنصر والتمكين ﴿وأنفقوا فى سبيل الله﴾ أمر بالجهاد بالمال بعد الامر به بالأنفس أى ولا تمسكوا كل الامساك ﴿ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة﴾ بالاسراف وتضييع وجه المعاش أو بالكف عن الغزو والانفاق فيه فان ذلك مما يقوى العدو ويسلطهم عليكم ويؤيده ماروى عن أبى أيوب الانصارى رضى الله عنه أنه قال لما أعز الله الاسلام وكثر أهله رجعنا الى أهالينا وأموالنا نقيم فيها ونصلحها فنزلت أو بالامساك وحب المال فانه يؤدى الى الهلاك المؤبد ولذلك سمى البخل هلاكا وهو فى الاصل انتهاء الشىء فى الفساد والالقاء طرح الشىء وتعديته بالى لتضمنه معنى الانتهاء والباء مزيدة والمراد بالايدى الأنفس والتهلكة مصدر كالتضرة والتسترة وهى والهلك والهلاك واحد أى لاتوقعوا أنفسكم فى الهلاك وقيل معناه لاتجعلوها آخذة بأيديكم أو لاتلقوا بأيديكم أنفسكم اليها فحذف المفعول ﴿وأحسنوا﴾ أى أعمالكم وأخلاقكم أو تفضلوا على الفقراء ﴿ان الله يحب المحسنين﴾ أى يريد بهم الخير وقوله تعالى ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ بيان لوجوب اتمام أفعالهما عند التصدى لادائهما وارشاد للناس الى تدارك ماعسى يعتريهم من العوارض المخلة بذلك من الاحصار ونحوه من غير تعرض لحالهما فى أنفسهما من الوجوب وعدمه كما فى قوله تعالى ثم أتموا الصيام الى الليل فانه بيان لوجوب مد الصيام الى الليل من غير تعرض لوجوب أصله وانما هو بقوله تعالى كتب عليكم الصيام الآية كما أن وجوب الحج بقوله تعالى ولله على الناس حج البيت الآية فان الامر باتمام فعل من الافعال ليس أمرا بأصله ولا مستلزما له أصلا فليس فيه دليل على وجوب العمرة قطعا وادعاء أن الأمر باتمامهما أمر بانشائهما تامين كاملين حسبما تقتضيه

قراءة وأقيموا الحج والعمرة وأن الامر للوجوب مالم يدل على خلافه دليل مما لاسداد له ضرورة أن ليس البيان مقصورا على أفعال الحج المفروض حتى يتصور ذلك بل الحق أن تلك القراءة أيضا محمولة على المشهورة ناطقة بوجوب اقامة أفعالهما كما ينبغى من غير تعرض لحالهما فى أنفسهما فالمعنى أكملوا أركانهما وشرائطهما وسائر أفعالهما المعروفة شرعا لوجه الله تعالى من غير اخلال منكم بشئ منها. هذا وقد قيل اتمامهما أن تحرم بهما من دويرة أهلك روى ذلك عن على وابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم وقيل ان تفرد لكل واحد منها سفرا كما قال محمد حجة كوفية وعمرة كوفية أفضل وقيل هو جعل نفقتهما حلالا وقيل أن تخلصوهما للعبادة ولا تشوبوهما بشئ من الأغراض الدنيوية وأياما كان فلا تعرض فى الآية الكريمة لوجوب العمرة أصلا وأما ماروى أن ابن عباس رضى الله عنهما قال ان العمرة لقرينة الحج وقول عمر رضى الله عنه هديت لسنة نبيك حين قال له رجل وجدت الحج والعمرة مكتوبين على أهللت بهما وفى رواية فأهللت بهما جميعا فبمعزل من افادة الوجوب مع كونه معارضا بما روى عن جابر أنه قال يارسول الله العمرة واجبة مثل الحج قال لا ولكن أن تعتمر خير لك وبقوله عليه السلام الحج جهاد والعمرة تطوع فتدبر ﴿فان أحصرتم﴾ أى منعتم من الحج يقال حصره العدو وأحصره اذا حبسه ومنعه من المضى لوجهه مثل صده وأصده والمراد منع العدو عند مالك والشافعى رضى الله عنهما لقوله تعالى فاذا أمنتم ولنزوله فى الحديبية ولقول ابن عباس لاحصر الاحصر العدو وكل منع من عدو أو مرض أو غيرهما عند أبى حنيفة رضى الله عنه لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من كسر أو عرج فعليه الحج من قابل ﴿فما استيسر من الهدى﴾ أى فعليكم أو فالواجب ما استيسر أو فاهدوا ما استيسر والمعنى أن المحرم اذا أحصر وأراد أن يتحلل تحلل بذبح هدى تيسر عليه من بدنة أو بقرة أو شاة حيث أحصر عند الاكثر وعندنا يبعث به الى الحرم ويجعل للمبعوث بيده يوم أمار فاذا جاء اليوم وظن أنه ذبح تحلل لقوله تعالى ﴿ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدى محله﴾ أى لاتحلوا حتى تعلموا أن الهدى المبعوث الى الحرم بلغ مكانه الذى يجب أن ينحر فيه وحمل الاولون بلوغ الهدى محله على ذبحه حيث يحل ذبحه فيه حلا كان أو حرما ومرجعهم فى ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذبح عام الحديبية بها وهى من الحل قلنا كان محصره عليه الصلاة والسلام طرف الحديبية الذى الى أسفل مكة وهو من الحرم وعن الزهرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحر هديه فى الحرم وقال الواقدى الحديبية هى طرف الحرم على تسعة أميال من مكة والمحل بالكسر يطلق على المكان والزمان والهدى جمع هدية كجدى وجدية وقرئ من الهدى جمع هدية كمطى ومطية ﴿فمن كان منكم مريضا﴾ مرضا محوجا الى الحلق ﴿أو به أذى من رأسه﴾ كجراحة أو قمل ﴿ففدية﴾ أى فعليه فدية ان حلق ﴿من صيام أو صدقة أو نسك﴾ بيان لجنس الفدية وأما قدرها فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لكعب بن عجرة لعلك آذاك هوامك قال نعم يارسول الله قال احلق وصم ثلاثة أيام أو تصدق بفرق على ستة مساكين أو انسك شاة والفرق ثلاثة آصع ﴿فاذا أمنتم﴾ أى الاحصار أو كنتم فى حال أمن أو سعة ﴿فمن تمتع بالعمرة الى الحج﴾ أى فمن انتفع بالتقرب الى الله تعالى بالعمرة قبل الانتفاع بتقربه بالحج فى أشهره وقيل من استمتع بعد التحلل من عمرته باستباحة محظورات الاحرام الى أن يحرم بالحج ﴿فما استيسر من الهدى﴾ أى فعليه دم استيسر عليه بسبب التمتع وهو دم جبران يذبحه اذا أحرم بالحج ولا يأكل منه عند الشافعى وعندنا هو كالأضحية ﴿فمن لم يجد﴾ أى الهدى ﴿فصيام ثلاثة أيام فى الحج﴾ أى فى أشهره بين الاحرامين وقال الشافعى فى أيام الاشتغال بأعماله بعد الاحرام وقبل التحلل والأحب أن يصوم سابع ذى الحجة وثامنه وتاسعه فلا يصح يوم النحر وأيام التشريق ﴿وسبعة اذا رجعتم﴾ أى نفرتم وفرغتم من أعماله وفى أحد قولى الشافعى اذا رجعتم الى أهليكم وقرئ وسبعة بالنصب عطفا على

محل ثلاثة أيام ﴿تلك عشرة﴾ فذلكة الحساب وفائدتها أن لا يتوهم أن الواو بمعنى أو كما فى قولك جالس الحسن وابن سيرين وأن يعلم العدد جملة كما علم تفصيلا فان أكثر العرب لا يعرف الحساب وأن المراد بالسبعة هو العدد المخصوص دون الكثرة كما يراد بها ذلك أيضا ﴿كاملة﴾ صفة مؤكدة لعشرة تفيد المبالغة فى المحافظة على العدد أو مبينة لكمال العشرة فانها أول عدد كامل اذبه ينتهى الآحاد ويتم مراتبها أو مقيدة تفيد كمال بدليتها من الهدى ﴿ذلك﴾ اشارة الى التمتع عندنا والى الحكم المذكور عند الشافعى ﴿لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام﴾ وهو من كان من الحرم على مسافة القصر عند الشافعى ومن كان مسكنه وراء الميقات عندنا وأهل الحل عند طاوس وغير أهل مكة عند مالك ﴿واتقوا الله﴾ فى المحافظة على أوامره ونواهيه لاسيما فى الحج ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ لمن لم يتقه كى يصدكم العلم به عن العصيان واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتربية المهابة وادخال الروعة ﴿الحج﴾ أى وقته ﴿أشهر معلومات﴾ معروفات بين الناس هى شوال وذو القعدة وعشر ذى الحجة عندنا وتسعة بليلة النحر عند الشافعى وكله عند مالك ومدار الخلاف أن المراد بوقته وقت احرامه أو وقت أعماله ومناسكه أو مالا يحسن فيه غيره من المناسك مطلقا فان مالكا كره العمرة فى بقية ذى الحجة وأبو حنيفة وان صحح الاحرام به قبل شوال فقد استكرهه وانما سمى شهرين وبعض شهر أشهرا اقامة للبعض مقام الكل أو اطلاقا للجمع على مافوق الواحد وصيغة جمع المذكر فى غير العقلاء تجئ بالألف والتاء ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ أى أوجبه على نفسه بالاحرام فيهن أو بالتلبية أو بسوق الهدى ﴿فلا رفث ولا فسوق﴾ أى لا جماع أو فلا فحش من الكلام ولا خروج من حدود الشرع بارتكاب المحظورات وقيل بالسباب والتنابذ بالألقاب ﴿ولا جدال﴾ أى لامراء مع الخدم والرفقة ﴿فى الحج﴾ أى فى أيامه والاظهار فى مقام الاضمار لاظهار كمال الاعتناء بشأنه والاشعار بعلة الحكم فان زيارة البيت المعظم والتقرب بها الى الله عز وجل من موجبات ترك الأمور المذكورة وايثار النفى للمبالغة فى النهى والدلالة على أن ذلك حقيق بأن لا يكون فان ما كان منكرا مستقبحا فى نفسه ففى تضاعيف الحج أقبح كلبس الحرير فى الصلاة والتطريب بقراءة القرآن لأنه خروج عن مقتضى الطبع والعادة الى محض العبادة وقرئ الأولان بالرفع على معنى لا يكونن رفث ولا فسوق والثالث بالفتح على معنى الاخبار بانتفاء الخلاف فى الحج وذلك أن قريشا كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام فارتفع الخلاف بأن أمروا بأن يقفوا أيضا بعرفات ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ فيجزى به خير جزاء وهو حث على فعل الخير اثر النهى عن الشر ﴿وتزودوا فان خير الزاد التقوى﴾ أى تزودوا لمعادكم التقوى فانه خير زاد وقيل نزلت فى أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن متوكلون فيكونون كلا على الناس فأمروا أن يتزودوا ويتقوا الابرام فى السؤال والتثقيل على الناس ﴿واتقون يا أولى الألباب﴾ فان قضية اللب استشعار خشية الله عز وجل وتقواه حثهم على التقوى ثم أمرهم بأن يكون المقصود بذلك هو الله تعالى فيتبرؤا من كل شئ سواه وهو مقتضى العقل المعرى عن شوائب الهوى فلذلك خص بهذا الخطاب أولو الألباب ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا﴾ أى فى أن تبتغوا أى تطلبوا ﴿فضلا من ربكم﴾ عطاء ورزقا منه أى الربح بالتجارة وقيل كان عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقهم فى الجاهلية يقيمونها أيام مواسم الحج وكانت معايشهم منها فلما جاء الاسلام تأثموا منه فنزلت ﴿فاذا أفضتم من عرفات﴾ أى دفعتم منها بكثرة من أفضت الماء اذا صببته بكثرة وأصله أفضتم أنفسكم فحذف المفعول حذفه من دفعت من البصرة وعرفات جمع سمى به كاذرعات وانما نون وكسر وفيه علمية وتأنيث لما أن تنوين الجمع تنوين المقابلة لا تنوين التمكن ولذلك يجمع مع اللام وذهاب الكسرة تبع ذهاب التنوين من غير عوض لعدم الصرف وههنا ليس

كذلك أولان التأنيث اما بالتاء المذكورة وهى ليست بتاء التأنيث وانمـا هى مع الالف التى قبلها علامة جمع المؤنث أو بتاء مقدرة كما فى سعاد ولاسبيل اليه لأن المذكورة تأبى تقديرها لمـا أنها كالبدل منهـا لاختصاصها بالمؤنث كتاء بنت وانمـا سمى الموقف عرفة لأنه نعت لابراهيم عليه السلام فلمـا أبصره عرفه أولأن جبريل عليه السـلام كان يدور به فى المشاعر فلمـا رآه قال عرفت أولأن آدم وحواء التقيافيه فتعارفا أولأن الناس يتعارفون فيه وهى من الاسمـاء المرتجلة الامن يجعلها جمع عارف قيل وفيه دليل على وجوب الوقوف بهـا لأن الافاضة لاتكون الابعده وهى مأمور بهـا بقوله تعالى ثم أفيضوا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم الحج عرفة فمن أدرك عرفة فقد أدرك الحج أومقدمة للذكر المأمور به وفيه نظر اذ الذكر غير واجب والأمر به غير مطلق ﴿فاذكروا الله﴾ بالتلبية والتهليل والدعاء وقيل بصلاة العشاءين ﴿عند المشعر الحرام﴾ هو جبل يقف عليه الامام و يسمى قزح وقيل مابين مأزمى عرفة ووادى محسر و يؤيد الاول ماروى جابر أنه عليه الصلاة والسلام لمـا صلى الفجر يعنى بالمزدلفة بغلس ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام فدعا فيه وكبر وهلل ولم يزل واقفا حتى أسفر وانمـا سمى مشعرا لأنه معلم العبادة ووصف بالحرام لحرمته ومعنى عند المشعر الحرام مايليه و يقرب منه فانه أفضل والافالمزدلفة كلها موقف الاوادى محسر ﴿واذكروه كما هداكم﴾ أى كما علمكم أواذكروه ذكرا حسنا كما هداكم هداية حسنة الى المناسك وغيرها وما مصدرية أوكافة ﴿وان كنتم من قبله﴾ من قبل ماذكر من هدايته اياكم ﴿لمن الضالين﴾ غير العاملين بالايمان والطاعة وان هى المخففة واللام هى الفارقة وقيل هى نافية واللام بمعنى الا كما فى قوله عز وعلا وان نظنك لمن الكاذبين ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ أى من عرفة لامن المزدلفة والخطاب لقريش لمـا كانوا يقفون بجمع وسائر الناس بعرفة و يرون ذلك ترفعا عليهم فأمروا بأن يساووهم وثم لتفاوت مابين الافاضتين كما فى قولك أحسن الى الناس ثم لاتحسن الاالى كريم وقيل من مزدلفة الى منى بعد الافاضة من عرفة اليها والخطاب عام وقرئ الناس بكسر السين أى الناسى على أن يراد به آدم عليه السلام من قوله تعالى فنسى والمعنى أن الافاضة من عرفة شرع قديم فلا تغيروه ﴿واستغفروا الله﴾ من جاهليتكم فى تغيير المناسك ﴿ان الله غفور رحيم﴾ يغفر ذنب المستغفر و ينعم عليه فهو تعليل الاستغفار أو للامر به ﴿فاذا قضيتم مناسككم﴾ عباداتكم المتعلقة بالحج وفرغتم منها ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم﴾ أى فأكثروا ذكره تعالى وبالغوا فى ذلك كما تفعلون بذكر آبائكم ومفاخرهم وأيامهم وكانت العرب اذا قضوا مناسكهم وقفوا بمنى بين المسجد والجبل فيذكرون مفاخر آبائهم ومحاسن أيامهم ﴿أوأشد ذكرا﴾ اما مجرور معطوف على الذكر بجعله ذاكرا على المجاز والمعنى فاذكروا الله ذكرا كائنا مثل ذكركم آباءكم أوكذكر أشد منه وأبلغ أوعلى ماأضيف اليه بمعنى أو كذكر قوم أشد منكم ذكرا أومنصوب بالعطف على آباءكم وذكرا من فعل المذكور بمعنى أو كذكركم أشد مذكور من آبائكم أو بمضمر دل عليه المعنى تقديره أو كونوا أشد ذكرا لله منكم لآبائكم ﴿فمن الناس﴾ تفصيل للذاكرين الى من لايطلب بذكر الله الا الدنيا والى من يطلب به خير الدارين والمراد به الحث على الاكثار والانتظام فى سلك الآخرين ﴿من يقول﴾ أى فى ذكره ﴿ربنا آتنا فى الدنيا﴾ أى اجعل ايتاءنا ومنحتنا فى الدنيا خاصة ﴿وماله فى الآخرة من خلاق﴾ أى من حظ ونصيب لاقتصار همه على الدنيا فهو بيان لحاله فى الآخرة أومن طلب خلاق فهو بيان لحاله فى الدنيا وتأكيد لقصر دعائه على المطالب الدنيوية ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة﴾ هى الصحة والكفاف والتوفيق للخير ﴿وفى الآخرة حسنة﴾ هى الثواب والرحمة ﴿وقنا عذاب النار﴾ بالعفو والمغفرة وروى عن على رضى الله عنه أن الحسـنة فى الدنيا المرأة الصالحة وفى الآخرة الحوراء وعذاب النار امرأة السوء وعن الحسن أن الحسنة فى الدنيا العلم والعبادة وفى الآخرة الجنة وقنا عذاب النار

معناه احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية الى النار ﴿أولئك﴾ اشارة الى الفريق الثانى باعتبار اتصافهم بمـا ذكر من النعوت الجميلة وما فيه من معنى البعد لمـا مر مرارا من الاشارة الى علو درجتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وقيل اليهما معا فالتنوين فى قوله تعالى ﴿لهم نصيب مما كسبوا﴾ على الاول للتفخيم وعلى الثانى للتنويع أى لكل منهم نوع نصيب من جنس ما كسبوا أومن أجله كقوله تعالى ممـا خطيئاتهم أغرقوا أوممـا دعوا به نعطيهم منه ماقدرناه وتسمية الدعاء كسبا لمـا أنه من الأعمال ﴿والله سريع الحساب﴾ يحاسب العبـاد على كثرتهم وكثرة أعمالهم فى مقدار لمحة فاحذروا من الاخلال بطاعة من هذا شأن قدرته أو يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب الناس فبادروا الى الطاعات واكتساب الحسنات ﴿واذكروا الله﴾ أى كبروه فى أعقاب الصلوات وعند ذبح القرابين ورمى الجمار وغيرها ﴿فى أيام معدودات﴾ هى أيام التشريق ﴿فمن تعجل﴾ أى استعجل فى النفر أو النفر فان التفعل والاستفعال يجيئان لازمين ومتعديين يقال تعجل فى الأمر واستعجل فيه وتعجله واستعجله والأول أوفق للتأخر كما فى قوله

قد يدرك المتأنى بعض حاجته ... وقد يكون من المستعجل الزلل

﴿فى يومين﴾ أى فى تمام يومين بعد يوم النحر وهو يوم القر و يوم الرؤس واليوم بعده ينفر اذا فرغ من رمى الجمار ﴿فلا اثم عليه﴾ بتعجله ﴿ومن تأخر﴾ فى النفر حتى رمى فى اليوم الثالث قبل الزوال أو بعده وعند الشافعى بعده فقط ﴿فلا إثم عليه﴾ بمـا صنع من التأخر والمراد التخيير بين التعجل والتأخر ولا يقدح فيه أفضلية الثانى وانمـا ورد بنفى الاثم تصريحا بالرد على أهل الجاهلية حيث كانوا مختلفين فمن مؤثم للمتعجل ومؤثم للمتأخر ﴿لمن اتقى﴾ خبر لمبتدا محذوف أى الذى ذكر من التخيير ونفى الاثم عن المتعجل والمتأخر أو من الأحكام لمن اتقى لأنه الحاج على الحقيقة والمنتفع به أولاجله حتى لايتضرر بترك مايهمـه منهما ﴿واتقوا الله﴾ فى مجامع أموركم بفعل الواجبات وترك المحظورات ليعبأ بكم وتنظموا فى سلك المغتنمين بالأحكام المذكورة والرخص أواحذروا الاخلال بماذكر من الأحكام وهو الانسب بقوله عز وجل ﴿واعلموا أنكم اليه تحشرون﴾ أى للجزاء على أعمالكم بعد الاحياء والبعث وأصل الحشر الجمع وضم المتفرق وهو تأكيد للامر بالتقوى وموجب للامتثال به فان من علم بالحشر والمحاسبة والجزاء كان ذلك من أقوى الدواعى الى ملازمة التقوى ﴿ومن الناس من يعجبك قوله﴾ تجريد للخطاب وتوجيه له اليه عليه الصلاة والسـلام وهو كلام مبتدأ سيق لبيان تحزب الناس فى شأن التقوى الى حزبين وتعيين مآل كل منهما ومن موصولة أوموصوفة واعرابه كما بين فى قوله تعـالى ومن الناس من يقول آمنا بالله و باليوم الآخر أى ومنهم من يروقك كلامه و يعظم موقعه فى نفسك لمـا تشاهد فيه من ملاءمة الفحوى ولطف الاداء والتعجب حيرة تعرض للانسان بسبب عدم الشعور بسبب مايتعجب منه ﴿فى الحياة الدنيا﴾ متعلق بقوله أى مايقوله فى حق الحياة الدنيا ومعناها فانها الذى يريده بما يدعيه من الايمان ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم وفيه اشارة الى أن له قولا آخر ليس بهذه الصفة أو بيعجبك أى يعجبك قوله فى الدنيا بحلاوته وفصاحته لافى الآخرة لمـا أنه يظهر هناك كذبه وقبحه وقيل لمـا يرهقه من الحبسة واللكنة وأنت خبير بأنه لامبالغة حينئذ فى سوء حاله فان مآله بيان حسن كلامه فى الدنيا وقبحه فى الآخرة وقيل معنى فى الحياة الدنيا مدة الحياة الدنيا أى لايصدر منه فيها الاالقول الحسن ﴿و يشهد الله على مافى قلبه﴾ أى بحسب ادعائه حيث يقول الله يعلم أن مافى قلبي موافق لمـا فى لسانى وهو عطف على يعجبك وقرئ و يشهد الله فالمراد بمـا فى قلبه مافيه حقيقة و يؤيده قراءة ابن عباس رضى الله عنهما والله يشهد على مافى قلبه على أن كلمة على لكون المشهود به مضرا له فالجملة اعتراضية وقرئ و يستشهد الله ﴿وهو ألد الخصام﴾ أى شديد العداوة والخصومة للمسلمين على أن الخصام

مصدر واضافة ألد اليه بمعنى فى كقولهم ثبت العذ. أوأشد الخصوم لهم خصومة على أنه جمع خصم كصعب وصعاب قيل نزلت فى الاخنس بن شريق الثقفى وكان حسن المنظر حلو المنطق يوالى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدعى الاسلام والمحبة وقيل فى المنافقين والجملة حال من الضمير المجرور فى قوله أو من المستكن فى يشهد وعطف على ماقبلها على القراءتين المتوسطتين ﴿واذا تولى﴾ أى من مجلسك وقيل اذا صار واليا ﴿سعى فى الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل﴾ كما فعله الأخنس بثقيف حيث بيتهم وأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم أو كما يفعله ولاة السوء بالقتل والاتلاف أو بالظلم حتى يمنع الله تعالى بشؤمه القطر فيهلك الحرث والنسل وقرئ ويهلك الحرث والنسل على اسناد الهلاك اليهما عطفا على سعى وقرئ بفتح اللام وهى لغة وقرئ على البناء للمفعول من الاهلاك ﴿والله لا يحب الفساد﴾ أى لا يرتضيه ويبغضه ويغضب على من يتعاطاه وهو اعتراض تذييلى ﴿واذا قيل له﴾ على نهج العظة والنصيحة ﴿اتق الله﴾ واترك ماتباشره من الفساد أو النفاق واحذر سوء مغبته ﴿أخذته العزة بالاثم﴾ أى حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الاثم الذى نهى عنه لجاجا وعنادا من قولك أخذته بكذا اذا حملته عليه أو ألزمته اياه ﴿فحسبه جهنم﴾ مبتدأ وخبر أى كافيه جهنم وقيل جهنم فاعل لحسبه ساد مسد خبره وهو مصدر بمعنى الفاعل وقوى لاعتماده على الفاء الرابطة للجملة بما قبلها وقيل حسب اسم فعل ماض أى كفته جهنم ﴿ولبئس المهاد﴾ جواب قسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف لظهوره وتعينه والمهاد الفراش وقيل مايوطأ للجنب والجملة اعتراض ﴿ومن الناس من يشرى نفسه﴾ مبتدأ وخبر كما مر أى يبيعها يبذلها فى الجهاد ومشاق الطاعات وتعريضها للمهالك فى الحروب أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وان ترتب عليه القتل ﴿ابتغاء مرضات الله﴾ أى طلبا لرضاه وهذا كمال التقوى وايراده قسيما للاول من حيث أن ذلك يأنف من الأمر بالتقوى وهذا يأمر بذلك وان أدى الى الهلاك وقيل نزلت فى صهيب بن سنان الرومى أخذه المشركون وعذبوه ليرتد فقال انى شيخ كبير لا أنفعكم ان كنت معكم ولا أضركم ان كنت عليكم فخلونى وما أنا عليه وخذوا مالى فقبلوا منه ماله فأتى المدينة فيشرى حينئذ بمعنى يشترى لجريان الحال على صورة الشرى ﴿والله رؤف بالعباد﴾ ولذلك يكلفهم التقوى ويعرضهم للثواب والجملة اعتراض تذييلى ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم﴾ أى الاستسلام والطاعة وقيل الاسلام وقرئ بفتح السين وهى لغة فيه وبفتح اللام أيضا وقوله تعالى ﴿كافة﴾ حال من الضمير فى ادخلوا أو من السلم أو منهما معا كما فى قوله

خرجت بها تمشى تجر وراءنا ... على أثرينا ذيل مرط مرجل

وهى فى الاصل اسم لجماعة تكف مخالفها ثم استعملت فى معنى جميعا وتاؤها ليست للتأنيث حتى يحتاج الى جعل السلم مؤنثا مثل الحرب كما فى قوله عز وجل وان جنحوا للسلم فاجنح لها وفى قوله

السلم تأخذ منها ما رضيت به ... والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

وانما هى للنقل كما فى عامة وخاصة وقاطبة والمعنى استسلموا لله تعالى وأطيعوه جملة ظاهرا وباطنا والخطاب للمنافقين أو ادخلوا فى الاسلام بكليته ولا تخلطوا به غيره والخطاب لمؤمنى أهل الكتاب فانهم كانوا يراعون بعض أحكام دينهم القديم بعد اسلامهم أو فى شرائع الله تعالى كلها بالايمان بالانبياء عليهم السلام والكتب جميعا والخطاب لأهل الكتاب كلهم ووصفهم بالايمان اما على طريقة التغليب واما بالنظر الى ايمانهم القديم أو فى شعب الاسلام وأحكامه كلها فلا يخلوا بشئ منها والخطاب للمسلمين وانما خوطب أهل الكتاب بعنوان الايمان مع أنه لا يصح الايمان الا بما كلفوه الآن ايذانا بأن مايدعونه لا يتم بدونه ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ بالتفرق والتفريق أو بمخالفة ماأمرتم به ﴿انه لكم عدو مبين﴾ ظاهر العداوة أو مظهر لها وهو تعليل للنهى أو الانتهاء ﴿فان زللتم﴾ أى عن الدخول فى

السلم وقرئ بكسر اللام وهى لغة فيه ﴿من بعد ما جاءتكم﴾ الآيات ﴿البينات﴾ والحجج القطعية الدالة على حقيته الموجبة للدخول فيه ﴿فاعلموا أن الله عزيز﴾ غالب على أمره لا يعجزه الانتقام منكم ﴿حكيم﴾ لا يترك ماتقتضيه الحكمة من مؤاخذة المجرمين المستعصين على أوامره ﴿هل ينظرون﴾ استفهام انكارى فى معنى النفى أى ما ينتظرون بما يفعلون من العناد والمخالفة فى الامتثال بما أمروا به والانتهاء عما نهوا عنه ﴿الا أن يأتيهم الله﴾ أى أمره وبأسه أو يأتيهم الله بأمره وبأسه فحذف المأتى به لدلالة الحال عليه والالتفات الى الغيبة للايذان بأن سوء صنيعهم موجب للاعراض عنهم وحكاية جناياتهم لمن عداهم من أهل الانصاف على طريق المباثة وايراد الانتظار للاشعار بأنهم لانهماكهم فيما هم فيه من موجبات العقوبة كأنهم طالبون لها مترقبون لوقوعها ﴿فى ظلل﴾ جمع ظلة كقلل فى جمع قلة وهى ما أظلك وقرئ فى ظلال كقلال فى جمع قلة ﴿من الغمام﴾ أى السحاب الابيض وانما أتاهم العذاب فيه لما أنه مظنة الرحمة فاذا أتى منه العذاب كان أفظع وأقطع للمطامع فان اتيان الشر من حيث لا يحتسب صعب فكيف باتيانه من حيث يرجى منه الخير ﴿والملائكة﴾ عطف على الاسم الجليل أى ويأتيهم الملائكة فانهم وسائط فى اتيان أمره تعالى بل هم الآتون بأسه على الحقيقة وتوسيط الظرف بينهما للايذان بأن الآتى أولا من جنس مايلابس الغمام ويترتب عليه عادة وأما الملائكة وان كان اتيانهم مقارنا لما ذكر من الغمام لكن ذلك ليس بطريق الاعتياد وقرئ بالجر عطفا على ظلل أو الغمام ﴿وقضى الأمر﴾ أى أتم أمر اهلاكهم وفرغ منه وهو عطف على يأتيهم داخل فى حيز الانتظار وانما عدل الى صيغة الماضى دلالة على تحققه فكأنه قد كان أو جملة مستأنفة جئ بها انباء عن وقوع مضمونها وقرئ وقضاء الامر عطفا على الملائكة ﴿والى الله﴾ لا الى غيره ﴿ترجع الأمور﴾ بالتأنيث على البناء للمفعول من الرجع وقرئ بالتذكير وعلى البناء للفاعل بالتأنيث من الرجوع ﴿سل بنى اسرائيل﴾ الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد من أهل الخطاب والمراد بالسؤال تبكيتهم وتقريعهم بذلك وتقرير لمجئ البينات ﴿كم آتيناهم من آية بينة﴾ معجزة ظاهرة على أيدى الانبياء عليهم السلام وآية ناطقة بحقية الاسلام المأمور بالدخول فيه وكم خبرية أو استفهامية مقررة ومحلها النصب على المفعولية أو الرفع بالابتداء على حذف العائد من الخبر وآية مميزها ﴿ومن يبدل نعمة الله﴾ التى هى آياته الباهرة فانها سبب للهدى الذى هو أجل النعم وتبديلها جعلها سببا للضلالة وازدياد الرجس أو تحريفها وتأويلها الزائغ ﴿من بعد ما جاءته﴾ ووصلت اليه وتمكن من معرفتها والتصريح بذلك مع أن التبديل لا يتصور قبل المجئ للاشعار بأنهم قد بدلوها بعد ماوقفوا على تفاصيلها كما فى قوله عز وجل ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون. قيل تقديره فبدلوها ومن يبدل وانما حذف للايذان بعدم الحاجة الى التصريح به لظهوره ﴿فان الله شديد العقاب﴾ تعليل للجواب كأنه قيل ومن يبدل نعمة الله عاقبه أشد عقوبة فانه شديد العقاب واظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وادخال الروعة ﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا﴾ أى حسنت فى أعينهم وأشربت محبتها فى قلوبهم حتى تهالكوا عليها وتهافتوا فيها معرضين عن غيرها والتزيين من حيث الخلق والايجاد مستند الى الله سبحانه كما يعرب عنه القراءة على البناء للفاعل اذ ما من شئ الا وهو خالقه وكل من الشيطان والقوى الحيوانية وما فى الدنيا من الامور البهية والاشياء الشهية مزين بالعرض ﴿ويسخرون من الذين آمنوا﴾ عطف على زين وايثار صيغة الاستقبال للدلالة على استمرار السخرية منهم وهم فقراء المؤمنين كبلال وعمار وصهيب رضى الله عنهم كانوا يسترذلونهم ويستهزؤن بهم على رفضهم الدنيا واقبالهم على العقبى ومن ابتدائية فكأنهم جعلوا السخرية مبتدأة منهم ﴿والذين اتقوا﴾ هم الذين آمنوا بعينهم وانما ذكروا بعنوان التقوى للايذان بأن اعراضهم عن الدنيا للاتقاء عنها لكونها مخلة بتبتلهم الى جناب القدس

شاغلةعنه ﴿فوقهم يوم القيامة﴾ لأنهم فى أعلى عليين وهم فى أسفل سافلين أو لأنهم فى أوج الكرامة وهم فى حضيض الذل والمهانة أو لأنهم يتطاولون عليهم فى الآخرة فيسخرون منهم كما سخروا منهم فى الدنيا والجملة معطوفة على ما قبلها وايثار الاسمية للدلالة على دوام مضمونها ﴿والله يرزق من يشاء﴾ أى فى الدارين ﴿بغير حساب﴾ بغير تقدير فيوسع فى الدنيا استدراجا تارة وابتلاء أخرى ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ متفقين على كلمة الحق ودين الاسلام وكان ذلك بين آدم وادريس أو نوح عليهم السلام أو بعد الطوفان ﴿فبعث الله النبيين﴾ أى فاختلفوا فبعث الخ وهى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه وقد حذف تعويلا على مايذكر عقيبه ﴿مبشرين ومنذرين﴾ عن كعب الذى علمته من عدد الانبياء عليهم السلام مائة وأربعة وعشرون الفا والمرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر والمذكور فى القرآن ثمانية وعشرون وقيل كان الناس أمة واحدة متفقة على الكفر والضلال فى فترة ادريس أو نوح فبعث الله النبيين فاختلفوا عليهم والاول هو الانسب بالنظم الكريم ﴿وأنزل معهم الكتاب﴾ أى جنس الكتاب أو مع كل واحد منهم ممن له كتاب كتابه الخاص به لا مع كل واحد منهم على الاطلاق اذ لم يكن لبعضهم كتاب وانما كانوا يأخذون بكتب من قبلهم وعموم النبيين لاينافى خصوص الضمير العائد اليه بمعونة المقام ﴿بالحق﴾ حال من الكتاب أى ملتبسا بالحق أو متعلق بأنزل كقوله عز وعلا و بالحق أنزلناه و بالحق نزل ﴿ليحكم﴾ أى الكتاب أو الله سبحانه وتعالى أو كل واحد من النبيين ﴿بين الناس﴾ أى المذكورين والاظهار فى موضع الاضمار لزيادة التعيين ﴿فيما اختلفوا فيه﴾ أى فى الحق الذى اختلفوا فيه أو فيما التبس عليهم ﴿وما اختلف فيه﴾ أى فى الحق أو فى الكتاب المنزل ملتبسا به والواو حالية ﴿الا الذين أوتوه﴾ أى الكتاب المنزل لازالة الاختلاف وازاحة الشقاق والتعبير عن الانزال بالايتاء للتنبيه من أول الامر على كمال تمكنهم من الوقوف على مافى تضاعيفه من الحق فان الانزال لايفيد تلك الفائدة أى عكسوا الأمر حيث جعلوا ما أنزل لازالة الاختلاف سببا لاستحكامه و رسوخه ﴿من بعد ماجاءتهم البينات﴾ أى رسخت فى عقولهم ومن متعلقة بمحذوف يدل عليه الكلام أى فاختلفوا وما اختلف فيه الخ وقيل بالملفوظ بناء على عدم منع الا عنه كما فى قولك ماقام الا زيد يوم الجمعة ﴿بغيا بينهم﴾ متعلق بما تعلقت به من أى اختلفوا بغيا وتهالكا على الدنيا ﴿فهدى الله الذين آمنوا﴾ بالكتاب ﴿لما اختلفوا فيه﴾ أى للحق الذى اختلف فيه من اختلف ﴿من الحق﴾ بيان لما و فى ابهامه أولا وتفسيره ثانيا مالايخفى من التفخيم ﴿باذنه﴾ بأمره أو بتيسيره ولطفه ﴿والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم﴾ موصل الى الحق وهو اعتراض مقرر لمضمون ماسبق ﴿أم حسبتم﴾ خوطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين حثا لهم على الثبات على المصابرة على مخالفة الكفرة وتحمل المشاق من جهتهم اثر بيان اختلاف الأمم على الانبياء عليهم السلام وقد بين فيه مآل اختلافهم ومالقى الانبياء ومن معهم من قبلهم من مكابدة الشدائد ومقاساة الهموم وأن عاقبة أمرهم النصر وأم منقطعة والهمزة فيها للانكار والاستبعاد أى بل أحسبتم ﴿أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم﴾ من الانبياء ومن معهم من المؤمنين أى والحال أنه لم يأتكم مثلهم بعد ولم تبتلوا بما ابتلوا به من الاحوال الهائلة التى هى مثل فى الفظاعة والشدة وهو متوقع ومنتظر ﴿مستهم﴾ استئناف وقع جوابا عما ينساق اليه الذهن كأنه قيل كيف كان مثلهم فقيل مستهم ﴿البأساء﴾ أى الشدة من الخوف والفاقة ﴿والضراء﴾ أى الآلام والامراض ﴿وزلزلوا﴾ أى أزعجوا ازعاجا شديدا بما دهمهم من الاهوال والافزاع ﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه﴾ أى انتهى أمرهم من الشدة الى حيث اضطرهم الضجر الى أن يقول الرسول وهو أعلم الناس بشؤن الله تعالى وأوثقهم بنصره والمؤمنون المقتدون بآثاره المستضيئون بأنواره ﴿متى﴾ أى متى يأتى ﴿نصر الله﴾ طلبا وتمنيا له

واستطالة لمدة الشدة والعناء وقرىء حتى يقول بالرفع على أنه حكاية حال ماضية وهذا كما ترى غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية كيف لا والرسل مع علو كعبهم فى الثبات والاصطبار حيث عيل صبرهم و بلغوا هذا المبلغ من الضجر والضجيج علم أن الأمر بلغ الى غاية لامطمح وراءها ﴿ألا ان نصر الله قريب﴾ على تقدير القول أى فقيل لهم حينئذ ذلك اسعافا لمرامهم والمراد بالقرب القرب الزمانى و فى ايثار الجملة الاسمية على الفعلية المناسبة لما قبلها وتصديرها بحرف التنبيه والتأكيد من الدلالة على تحقيق مضمونها وتقرره مالايخفى واختيار حكاية الوعد بالنصر لما أنها فى حكم انشاء الوعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتصار على حكايتها دون حكاية نفس النصر مع تحققه للايذان بعدم الحاجة الى ذلك لاستحالة الخلف و يجوز أن يكون هذا واردا من جهته تعالى عند الحكاية على نهج الاعتراض لا واردا عند وقوع المحكى وفيه رمز الى أن الوصول الى جناب القدس لايتسنى الا برفض اللذات ومكابدة المشاق كما ينبىء عنه قوله عليه السلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات ﴿يسألونك ماذا ينفقون﴾ أى من أصناف أموالهم ﴿قل ما أنفقتم من خير﴾ ما اما شرطية واما موصولة حذف العائد اليها أى ما أنفقتموه من خير أى خير كان ففيه تجويز الانفاق من جميع أنواع الأموال و بيان لما فى السؤال الا أنه جعل من جملة مافى حيز الشرط أو الصلة وأبرز فى معرض بيان المصرف حيث قيل ﴿فللوالدين والأقربين﴾ للايذان بأن الاهم بيان المصارف المعدودة لأن الاعتداد بالانفاق بحسب وقوعه فى موقعه وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه جاء عمرو بن الجموح وهو شيخ هم له مال عظيم فقال يارسول الله ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها فنزلت ﴿واليتامى﴾ أى المحتاجين منهم ﴿والمساكين وابن السبيل﴾ ولم يتعرض للسائلين والرقاب اما اكتفاء بما ذكر فى المواقع الأخر واما بناء على دخولهم تحت عموم قوله تعالى ﴿وماتفعلوا من خير﴾ فانه شامل لكل خير واقع فى أى مصرف كان ﴿فان الله به عليم﴾ فيوفى ثوابه وليس فى الآية ماينافيه فرض الزكاة لينسخ به كما نقل عن السدى ﴿كتب عليكم القتال﴾ ببناء الفعل للمفعول و رفع القتال أى قتال الكفرة وقرىء ببنائه للفاعل وهو الله عزوجل ونصب القتال وقرىء كتب عليكم القتل أى قتل الكفرة والواو فى قوله تعالى ﴿وهو كره لكم﴾ حالية أى والحال أنه مكروه لكم طبعا على أن الكره مصدر وصف به المفعول مبالغة أو بمعنى المفعول كالخبز بمعنى المخبوز وقرىء بالفتح على أنه بمعنى المضموم كالضعف والضعف أو على أنه بمعنى الاكراه مجازا كأنهم أكرهوا عليه لشدة كراهتهم له ومشقته عليهم ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ وهو جميع ما كلفوه من الأمور الشاقة التى من جملتها القتال فان النفوس تكرهه وتنفر عنه والجملة اعتراضية دالة على أن فى القتال خيرا لهم ﴿وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾ وهو جميع مانهوا عنه من الأمور المستلذة وهو معطوف على ماقبله لامحل لهما من الاعراب ﴿والله يعلم﴾ ماهو خير لكم فلذلك يأمركم به ﴿وأنتم لاتعلمون﴾ أى لاتعلمونه ولذلك تكرهونه أو والله يعلم ماهو خير وشر لكم وأنتم لاتعلمونهما فلاتتبعوا فى ذلك رأيكم وامتثلوا بأمره تعالى ﴿يسألونك عن الشهر الحرام﴾ روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عبدالله بن جحش على سرية فى جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين ليترصدوا عيرا لقريش فيهم عمرو بن عبدالله الحضرمى وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير بما فيها من تجارة الطائف و كان ذلك أول يوم من رجب وهم يظنونه من جمادى الآخرة فقالت قريش قد استحل محمد الشهر الحرام شهرا يأمن فيه الخائف و يبذعر فيه الناس الى معايشهم فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم العير وعظم ذلك على أصحاب السرية وقالوا مانبرح حتى تنزل توبتنا ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والاسارى وعن ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنيمة . والمعنى يسألك الكفار أو المسلمون عن القتال فى الشهر الحرام على أن قوله عزوجل

﴿قتال فيه﴾ بدل اشتمال من الشهر وتنكيره لما أن سؤالهم كان عن مطلق القتال الواقع فى الشهر الحرام لاعن القتال المعهود ولذلك لم يقل يسألونك عن القتال فى الشهر الحرام وقرئ عن قتال فيه بتكرير العامل كما فى قوله تعالى للذين استضعفوا لمن آمن منهم وقرئ قتل فيه ﴿قل﴾ فى جوابهم ﴿قتال فيه كبير﴾ جملة من مبتدا وخبر محلها النصب بقل وانما جاز وقوع قتال مبتدا مع كونه نكرة لتخصصه امابالوصف ان تعلق الظرف بمحذوف وقع صفة له أى قتال كائن فيه واما بالعمل ان تعلق به وانما أوثر التنكير احترازا عن توهم التعيين وايذانا بأن المراد مطلق القتال الواقع فيه أى قتال كان. عن عطاء أنه سئل عن القتال فى الشهر الحرام فحلف بالله مايحل للناس أن يغزوا فى الحرم ولا فى الشهر الحرام الاأن يقاتلوا فيه ومانسخت وأكثر الاقاويل أنها منسوخة بقوله تعالى فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴿وصد عن سبيل الله﴾ مبتدأ قد تخصص بالعمل فيما بعده أى ومنع عن الاسلام الموصل للعبد الى الله تعالى ﴿وكفربه﴾ عطف على صد عامل فيما بعده مثله أى وكفر بالله تعالى وحيث كان الصد عن سبيل الله فردا من أفراد الكفر به تعالى لم يقدح العطف المذكور فى حسن عطف قوله تعالى ﴿والمسجد الحرام﴾ على سبيل الله لأنه ليس بأجنبى محض وقيل هو أيضا معطوف على صد بتقدير المضاف أى وصد المسجد الحرام ﴿واخراج أهله﴾ وهو النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ﴿منه﴾ أى من المسجد الحرام وهو عطف على وكفربه ﴿أكبر عند الله﴾ خبر للاشياء المعدودة أى كبائر السائلين أكبر عند الله مما عنوا بالسؤال وهو مافعلته السرية خطأ وبناء على الظن وأفعل يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ﴿والفتنة﴾ أى ماارتكبوه من الاخراج والشرك وصد الناس عن الاسلام ابتداء وبقاء ﴿أكبر من القتل﴾ أى أفظع من قتل الحضرمى ﴿ولايزالون يقاتلونكم﴾ بيان لاستحكام عداوتهم واصرارهم على الفتنة فى الدين ﴿حتى يردوكم عن دينكم﴾ الحق الى دينهم الباطل واضافة الدين اليهم لتذكير تأكد مابينهما من العلاقة الموجبة لامتناع الافتراق ﴿ان استطاعوا﴾ اشارة الى تصلبهم فى الدين وثبات قدمهم فيه كأنه قيل وأنى لهم ذلك ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه﴾ تحذير من الارتداد أى ومن يفعل ذلك باضلالهم واغوائهم ﴿فيمت وهو كافر﴾ بأن لم يرجع الى الاسلام وفيه ترغيب فى الرجوع الى الاسلام بعد الارتداد ﴿فأولئك﴾ اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الارتداد والموت عليه ومافيه من معنى البعد للاشعار ببعد منزلتهم فى الشر والفساد والجمع للنظر الى المعنى أى أولئك المصرون على الارتداد الى حين الموت ﴿حبطت أعمالهم﴾ الحسنة التى كانوا عملوها فى حالة الاسلام حبوطا لاتلافى له قطعا ﴿فى الدنيا والآخرة﴾ بحيث لم يبق لها حكم من الأحكام الدنيوية والأخروية ﴿وأولئك﴾ الموصوفون بما ذكر سابقا ولاحقا من القبائح ﴿أصحاب النار﴾ أى ملابسوها وملازموها ﴿هم فيها خالدون﴾ كدأب سائر الكفرة ﴿ان الذين آمنوا﴾ نزلت فى أصحاب السرية لما ظن بهم أنهم ان سلموا من الاثم فلاأجرلهم ﴿والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله﴾ كرر الموصول مع أن المراد بهما واحد لتفخيم شأن الهجرة والجهاد فكأنهما مستقلان فى تحقيق الرجاء ﴿أولئك﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿يرجون﴾ بمالهم من مبادى الفوز ﴿رحمة الله﴾ أى ثوابه أثبت لهم الرجاء دون الفوز بالمرجو للايذان بأنهم عالمون بأن العمل غير موجب للأجر وانما هو على طريق التفضل منه سبحانه لالأن فى فوزهم اشتباها ﴿والله غفور﴾ مبالغ فى مغفرة مافرط من عباده خطأ ﴿رحيم﴾ يجزل لهم الأجر والثواب والجملة اعتراض محقق لمضمون ماقبلها ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ تواردت فى شأن الخمر أربع آيات نزلت بمكة ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا فطفق المسلمون يشربونها ثم ان عمر ومعاذا ونفرا من الصحابة

رضوان الله تعالى عليهم أجمعين قالوا أفتنا يارسول الله فى الخمر فانها مذهبة للعقل فنزلت هذه الآية فشربها قوم وتركها آخرون ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناسا منهم فشربوا فسكروا فأم أحدهم فقرأ قل ياأيها الكافرون أعبد ماتعبدون فنزلت لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى الآية فقل من يشربها ثم دعا عتبان بن مالك سعد بن أبى وقاص فى نفر فلما سكروا تفاخروا وتناشدوا حتى أنشد سعد شعرا فيه هجاء الانصار فضربه أنصارى بلحى بعير فشجه موضحة فشكا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزلت انما الخمر والميسر الى قوله تعالى فهل أنتم منتهون فقال عمر رضى الله عنه انتهينا يارب وعن على رضى الله عنه لو وقعت قطرة منها فى بئر فبنيت فى مكانها منارة لم أوذن عليها ولو وقعت فى بحر ثم جف فنبت فيه الكلأ لم أرعه وعن ابن عمر رضى الله عنهما لو أدخلت أصبعى فيها لم تتبعنى وهذا هو الايمان والتقى حقا رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . والخمر مصدر خمره أى ستره سمى به من عصير العنب ماغلى واشتد وقذف بالزبد لتغطيتها العقل والتمييز كأنها نفس الستر كما سميت سكرا لانها تسكرهما أى تحجزهما والميسر مصدر ميمى من يسر كالموعد والمرجع يقال يسرته اذا قمرته واشتقاقه اما من اليسر لانه أخذ المال بيسر من غير كد وتعب واما من اليسار لانه سلب له وصفته أنه كانت لهم عشرة أقداح هى الازلام والاقلام الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد لكل منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزئونها عشرة أجزاء وقيل ثمانية وعشرين الا الثلاثة هى المنيح والسفيح والوغد للفذ سهم وللتوأم سهمان وللرقيب ثلاثة وللحلس أربعة وللنافس خمسة وللمسبل ستة وللمعلى سبعة يجعلونها فى الربابة وهى خريطة ويضعونها على يدى عدل ثم يجلجلها ويدخل يده فيخرج باسم رجل رجل قدحا قدحا فمن خرج له قدح من ذوات الانصباء أخذ النصيب المعين لها ومن خرج له من تلك الثلاثة غرم ثمن الجزور مع حرمانه وكانوا يدفعون تلك الانصباء الى الفقراء ولا يأكلون منها ويفتخرون بذلك ويذمون من لايدخل فيه ويسمونه البرم وفى حكمه جميع أنواع القمار من النرد والشطرنج وغيرهما . عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اياكم وهاتين اللعبتين المشؤمتين فانهما مياسر العجم وعن على كرم الله وجهه ان النرد والشطرنج من الميسر وعن ابن سيرين كل شئ فيه خطر فهو من الميسر . والمعنى يسألونك عن حكمهما وعما فى تعاطيهما ﴿قل فيهما اثم كبير﴾ أى فى تعاطيهما ذلك لما أن الاول مسلبة للعقول التى هى قطب الدين والدنيا مع ون كل منهما متلفة للأموال ﴿ومنافع للناس﴾ من كسب الطرب واللذة ومصاحبة الفتيان وتشجيع الجبان وتقوية الطبيعة وقرئ اثم كثير بالمثلثة وفى تقديم بيان اثمهما ووصفه بالكبر وتأخير ذكر منافعه مع تخصيصها بالناس من الدلالة على غلبة الاول مالايخفى على مانطق به قوله تعالى ﴿واثمهما أكبر من نفعهما﴾ أى المفاسد المترتبة على تعاطيهما أعظم من الفوائد المترتبة عليه وقرئ أقرب من نفعهما ﴿ويسألونك ماذا ينفقون﴾ عطف على يسألونك عن الخمر الخ عطف القصة على القصة أى أى شئ ينفقونه قيل هو عمرو بن الجموح أيضا سأل أولا من أى جنس ينفق من أجناس الأموال فلما بين جواز الانفاق من جميع الأجناس سأل ثانيا من أى أصنافها تنفق أمن خيارها أم من غيرها أو سأل عن مقدار ماينفقه منه فقيل ﴿قل العفو﴾ بالنصب أى ينفقون العفو أو انفقوا العفو وقرئ بالرفع على أن ما استفهامية وذا موصولة صلتها ينفقون أى الذى ينفقونه العفو قال الواحدى أصل العفو فى اللغة الزيادة وقال القفال العفو ماسهل وتيسر مما فضل من الكفاية وهو قول قتادة وعطاء والسدى وكانت الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين يكسبون المال ويمسكون قدر النفقة ويتصدقون بالفضل وروى أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم ببيضة من ذهب أصابها فى بعض المغانم فقال خذها منى صدقة فأعرض عنه فكرر ذلك مرارا حتى

قال عليه السلام مغضبا هاتها فأخذها فحذفها عليه حذفا لو أصابته لشجته ثم قال يأتى أحدكم بماله كله يتصدق به و يجلس يتكفف الناس انما الصدقة عن ظهر غنى ﴿كذلك﴾ اشارة الى مصدر الفعل الآتى وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجة المشار اليه فى الفضل مع كمال تميزه وانتظامه بسبب ذلك فى سلك الأمور المشاهدة والكاف لتأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة وافراد حرف الخطاب مع تعدد المخاطبين باعتبار القبيل أو الفريق أو لعدم القصد الى تعيين المخاطب كما مر ومحله النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى مثل ذلك البيان الواضح الذى هو عبارة عما مضى فى أجوبة الاسئلة المارة ﴿يبين الله لكم الآيات﴾ الدالة على الاحكام الشرعية المذكورة لا بيانا أدنى منه وقد مر تمام تحقيقه فى قوله تعالى و كذلك جعلناكم أمة وسطا وتبيين الآيات تنزيلها مبينة الفحوى واضحة المدلول لأنه تعالى بينها بعد أن كانت مشتبهة ملتبسة وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة ﴿لعلكم تتفكرون﴾ لكى تتفكروا فيها وتقفوا على مقاصدها وتعملوا بما فى تضاعيفها وقوله تعالى ﴿فى الدنيا والآخرة﴾ متعلق اما بيبين أى يبين لكم فيما يتعلق بالدنيا والآخرة الآيات واما بمحذوف وقع حالا من الآيات أى يبينها لكم كائنة فيهما أى مبينة لأحوالكم المتعلقة بهما وانما قدم عليه التعليل بمزيد الاعتناء بشأن التفكر واما بقوله تعالى تتفكرون أى تتفكرون فى الأمور المتعلقة بالدنيا والآخرة فى الأحكام الواردة فى أجوبة الاسئلة المارة فتختارون منها ما يصلح لكم فيهما و تجتنبون عن غيره وهذا التخصيص هو المناسب لمقام تعداد الاحكام الجزئية و يجوز التعميم لجميع الأمور المتعلقة بالدنيا والآخرة فذلك حينئذ اشارة الى ما مر من البيانات كلا أو بعضا لا الى مصدر ما بعده فانه حينئذ فعل مستقل ليس بعبارة عن تلك البيانات والمراد بالآيات غير ما ذكر والمعنى مثل ذلك البيان الوارد فى الأجوبة المذكورة يبين الله لكم الآيات والدلائل لعلكم تتفكرون فى أموركم المتعلقة بالدنيا والآخرة وتأخذون بما يصلح لكم وينفعكم فيهما وتذرون ما يضركم حسبما تقتضيه تلك الآيات المبينة ﴿و يسألونك عن اليتامى﴾ عطف على ما قبله من نظيره روى أنه لما نزلت ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما الآية تحامى الناس عن مخالطة اليتامى وتعهد أموالهم فشق عليهم ذلك فذكروه للنبى صلى الله عليه وسلم فنزلت ﴿قل اصلاح لهم خير﴾ أى التعرض لأحوالهم وأموالهم على طريق الاصلاح خير من مجانبتهم اتقاء ﴿وان تخالطوهم﴾ وتعاشروهم على وجه ينفعهم ﴿فاخوانكم﴾ أى فهم اخوانكم أى فى الدين الذى هو أقوى من العلاقة النسبية ومن حقوق الاخوة ومواجبها المخالطة بالاصلاح والنفع وقد حمل المخالطة على المصاهرة ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾ العلم بمعنى المعرفة المتعدية الى واحد ومن لتضمينه معنى التمييز أى يعلم من يفسد فى أمورهم عند المخالطة أو من يقصد بمخالطته الخيانة والافساد مميزا له ممن يصلح فيها أو يقصد الاصلاح فيجازى كلا منهما بعمله ففيه وعد و وعيد خلا أن فى تقديم المفسد مزيد تهديد وتأكيد للوعيد ﴿ولو شاء الله لأعنتكم﴾ أى لو شاء أن يعنتكم أى يكلفكم ما يشق عليكم من العنت وهو المشقة لفعل ولم يجوز لكم مداخلتهم ﴿ان الله عزيز﴾ غالب على أمره لا يعز عليه أمر من الأمور التى من جملتها اعناتكم فهو تعليل لمضمون الشرطية وقوله عز وجل ﴿حكيم﴾ أى فاعل لأفعاله حسبما تقتضيه الحكمة الداعية الى بناء التكليف على أساس الطاقة دليل على ما تفيده كلمة لو من انتفاء مقدمها ﴿ولا تنكحوا المشركات﴾ أى لا تتزوجوهن وقرىء بضم التاء من الانكاح أى لا تزوجوهن من المسلمين ﴿حتى يؤمن﴾ والمراد بهن اما ما يعم الكتابيات أيضا حسبما يقتضيه عموم التعليلين الآتيين لقوله تعالى وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله الى قوله سبحانه عما يشركون فالآية منسوخة بقوله تعالى والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وأما غير الكتابيات فهى ثابتة و روى أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم بعث مرثد بن أبى مرثد الغنوى الى مكة ليخرج منها ناسا من المسلمين وكان يهوى امرأة فى الجاهلية اسمها عناق فأتته فقالت ألا تخلو فقال ويحك ان الاسلام حال بيننا فقالت هل لك أن تتزوج بى قال نعم ولكن أرجع الى النبى صلى الله عليه وسلم فأستأمره فاستأمره فنزلت ﴿ولأمة مؤمنة﴾ تعليل للنهى عن مواصلتهن وترغيب فى مواصلة المؤمنات صدر بلام الابتداء الشبيهة بلام القسم فى افادة التأكيد مبالغة فى الحمل على الانزجار وأصل أمة أمو حذفت لامها على غير قياس وعوض منه تاء التأنيث ودليل كون لامها واوا رجوعها فى الجمع قال الكلابى

أما الاماء فلا يدعوننى ولدا ... اذا تداعى بنو الأموات بالعار

وظهورها فى المصدر يقال هى أمة بينة الاموة وأقرت له بالاموة وقد وقعت مبتدأ لما فيها من لام الابتداء والوصف أى ولأمة مؤمنة مع ما بها من خساسة الرق وقلة الخطر ﴿خير﴾ بحسب الدين والدنيا ﴿من مشركة﴾ أى امرأة مشركة مع ما لها من شرف الحرية و رفعة الشأن ﴿ولو أعجبتكم﴾ قد مر أن كلمة لو فى أمثال هذه المواقع ليست لبيان انتفاء الشىء فى الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة بدلالة ما قبلها عليه مع انصباب المعنى على تقديره بل هى لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق من الحكم على كل حال مفروض من الاحوال المقارنة له على الاجمال بادخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته معه ثبوته مع ما عداه من الاحوال بطريق الاولوية لما أن الشىء متى تحقق مع المنافى القوى فلأن يتحقق مع غيره أولى ولذلك لا يذكر معه شىء من سائر الاحوال و يكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها المتناولة لجميع الاحوال المغايرة لها وهذا معنى قولهم انها لاستقصاء الاحوال على وجه الاجمال كأنه قيل لو لم تعجبكم ولو أعجبتكم والجملة فى حيز النصب على الحالية من مشركة اذ المآل و لأمة مؤمنة خير من امرأة مشركة حال عدم اعجابها وحال اعجابها اياكم بجمالها ومالها ونسبها و بغير ذلك من مبادى الاعجاب وموجبات الرغبة فيها أى على كل حال وقد اقتصر على ذكر ما هو أشد منافاة للخيرية تنبيها على أنها حيث تحققت معه فلأن تتحقق مع غيره أولى وقيل الواو حالية وليس بواضح وقيل اعتراضية وليس بسديد والحق أنها عاطفة مستتبعة لما ذكر من الاعتبار اللطيف. نعم يجوز أن تكون الجملة الاولى مع ما عطف عليها مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها فتدبر ﴿ولا تنكحوا المشركين﴾ من الانكاح والمراد بهم الكفار على الاطلاق لما مر أى لا تزوجوا منهم المؤمنات سواء كن حرائر أو إماء ﴿حتى يؤمنوا﴾ و يتركوا ما هم فيه من الكفر ﴿ولعبد مؤمن﴾ مع ما به من ذل المملوكية ﴿خير من مشرك﴾ مع ما له من عز المالكية ﴿ولو أعجبكم﴾ بما فيه من دواعى الرغبة فيه الراجعة الى ذاته وصفاته ﴿أولئك﴾ استئناف مقرر لمضمون التعليلين المارين أى أولئك المذكورون من المشركات والمشركين ﴿يدعون﴾ من يقارنهم و يعاشرهم ﴿الى النار﴾ أى الى ما يؤدى اليها من الكفر والفسوق فلا بد من الاجتناب عن مقارنتهم ومقاربتهم ﴿والله يدعو﴾ بواسطة عباده المؤمنين من يقارنهم ﴿الى الجنة والمغفرة﴾ أى الى الاعتقاد الحق والعمل الصالح الموصلين اليهما وتقديم الجنة على المغفرة مع أن حق التخلية أن تقدم على التحلية لرعاية مقابلة النار ابتداء ﴿باذنه﴾ متعلق بيدعو أى يدعو ملتبسا بتوفيقه الذى من جملته ارشاد المؤمنين لمقارنيهم الى الخير ونصيحتهم اياهم فهم أحقاء بالمواصلة ﴿و يبين آياته﴾ المشتملة على الاحكام الفائقة والحكم الرائقة ﴿للناس لعلهم يتذكرون﴾ أى لكى يتذكروا و يعملوا بما فيها فيفوزوا بما دعوا اليه من الجنة والغفران. هذا وقد قيل معنى والله يدعو وأولياء الله يدعون وهم المؤمنون على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه تشريفا لهم وأنت خبير بأن الضمير فى المعطوف على الخبر أعنى قوله تعالى و يبين لله تعالى فيلزم التفكيك وقيل معناه والله يدعو بأحكامه المذكورة الى الجنة والمغفرة فانها موصلة

لمن عمل بها اليهما وهذا وان كان مستدعيا لاتحاد مرجع الضميرين الكائنين فى الجملتين المتعاطفتين الواقعتين خبرا للمبتدأ لكن يفوت حينئذ حسن المقابلة بينه و بين قوله تعالى أولئك يدعون الى النار ولعل الطريق الاسلم ما أوضحناه أو لاوايراد التذكر هنا للاشعار بأنه واضح لايحتاج الى التفكر كما فى الاحكام السابقة ﴿ و يسألونك عن المحيض ﴾ عطف على ماتقدم من مثله ولعل حكاية هـذه الاسئلة الثلاثة بالعطف لوقوع الكل عند السؤال عن الخمر وحكاية ماعداها بغير عطف لوقوع كل من ذلك فى وقت على حدة والمحيض مصدر من حاضت المرأة كالمجىء والمبيت. روى أن أهل الجاهلية كانوا لا يساكنون الحيض و لا يؤاكلونهن كدأب اليهود والمجوس واستمر الناس على ذلك الى أن سأل عن ذلك أبو الدحداح فى نفر من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فنزلت ﴿ قل هو أذى ﴾ أى شىء يستقذر منه و يؤذى من يقربه نفرة منه و كراهة له ﴿ فاعتزلوا النساء فى المحيض ﴾ أى فاجتنبوا مجامعتهن فى حالة المحيض. قيل أخذ المسلمون بظاهر الاعتزال فأخرجوهن من بيوتهم فقال ناس من الاعراب يارسول الله البرد شديد والثياب قليلة فان آثرناهن هلك سائر أهل البيت وان استأثرنا بها هلكت الحيض فقال صلى الله عليه وسلم انما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتهن اذا حضن ولم يأمركم باخراجهن من البيوت كفعل الاعاجم وقيل ان النصارى كانوا يجامعونهن و لا يبالون بالحيض واليهود كانوا يفرطون فى الاعتزال فأمر المسلمون بالاقتصاد بين الأمرين ﴿ ولا تقربوهن حتى يطهرن ﴾ تأكيد لحكم الاعتزال وتنبيه على أن المراد به عدم قربانهن لاعدم القرب منهن و بيان لغايته وهو انقطاع الدم عند أبى حنيفة رحمه الله فان كان ذلك فى أكثر المدة حل القربان كما انقطع والا فلا بد من الاغتسال أو من مضى وقت صلاة وعند الشافعى رحمه الله أن يغتسلن بعد الانقطاع كما تفصح عنه القراءة بالتشديد وينبىء عنه قوله عز وجل ﴿ فاذا تطهرن ﴾ فان التطهر هو الاغتسال ﴿ فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ من المأتى الذى حلله لكم وهو القبل ﴿ ان الله يحب التوابين ﴾ مما عسى يندر منهم من ارتكاب بعض مانهوا عنه ومن سائر الذنوب ﴿ ويحب المتطهرين ﴾ المتنزهين عن الفواحش والاقذار وفى ذكر التوبة اشعار بمساس الحاجة اليها بارتكاب بعض الناس لما نهوا عنه وتكرير الفعل لمزيد العناية بأمر التطهر ﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ أى مواضع حرث لكم شبهن بها لما بين مايلقى فى أرحامهن و بين البذور من المشابهة من حيث أن كلا منهما مادة لما يحصل منه ﴿ فأتوا حرثكم ﴾ لما عبر عنهن بالحرث عبر عن مجامعتهن بالاتيان وهو بيان لقوله تعالى فأتوهن من حيث أمركم الله ﴿ أنى شئتم ﴾ من أى جهة شئتم. روى أن اليهود كانوا يزعمون أن من أتى امرأته فى قبلها من دبرها يأتى ولده أحول فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت ﴿ وقدموا لأنفسكم ﴾ أى مايدخر لكم من الثواب وقيل هو طلب الولد وقيل هو التسمية عند المباشرة ﴿ واتقوا الله ﴾ بالاجتناب عن معاصيه التى من جملتها ماعد من الأمور ﴿ واعلموا أنكم ملاقوه ﴾ فتعرضوا لتحصيل ماتنتفعون به حينئذ واجتنبوا اقتراف ماتفتضحون به ﴿ و بشر المؤمنين ﴾ الذين تلقوا ماخوطبوا به من الأوامر والنواهى بحسن القبول والامتثال بما يقصر عنه البيان من الكرامة والنعيم المقيم أو بكل مايبشر به من الأمور التى تسر بها القلوب وتقر بها العيون وفيه مع مافى تلوين الخطاب وجعل المبشر رسول الله صلى الله عليه وسلم من المبالغة فى تشريف المؤمنين مالا يخفى ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ﴾ قيل نزلت فى عبد الله بن رواحة حين حلف أن لايكلم ختنه بشر بن النعمان ولا يصلح بينه و بين أخته وقيل فى الصديق رضى الله عنه حين حلف أن لا ينفق على مسطح لخوضه فى حديث الافك والعرضة فعلة بمعنى مفعول كالقبضة والغرفة تطلق على مايعرض دون الشىء فيصير حاجزا عنه كما يقال فلان عرضة للخير وعلى المعرض للامر كما فى قوله

فلا تجعلونى عرضة للوائم

فالمعنى على الوجه الاول لاتجعلوا الله مانعا للامور الحسنة التى تحلفون على تركها وعبر عنها

بالأيمان للابستها بها كما فى قوله عليه السلام لعبد الله بن سمرة اذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك وقوله تعالى ﴿ أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ﴾ عطف بيان لأيمانكم أو بدل منها لما عرفت أنها عبارة عن الأمور المحلوف عليها واللام فى لأيمانكم متعلقة بالفعل أو بعرضة لما فيها من معنى الاعتراض أى لاتجعلوا الله لبركم وتقواكم واصلاحكم بين الناس عرضة أى برزخا حاجزا بأن تحلفوا به تعالى على تركها أو لاتجعلوه تعالى عرضة أى شيئا يعترض الأمور المذكورة و يحجزها بما ذكر من الحلف به تعالى على تركها وقد جوز أن تكون اللام للتعليل و يتعلق أن تبروا الخ بالفعل أو بعرضة فيكون الأيمان بمعناها وأنت خبير بأنه يؤدى الى الفصل بين العامل ومعموله بأجنبى وعلى الوجه الثانى لاتجعلوا الله معرضا لايمانكم تبتذلونه بكثرة الحلف به ولذلك ذم من نزلت فيه ولا تطع كل حلاف مهين بأشنع المذام وجعل الحلاف مقدمتها وأن تبروا حينئذ علة للنهى أى ارادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا لأن الحلاف مجترىء على الله سبحانه غير معظم له فلا يكون برا متقيا ثقة بين الناس فيكون بمعزل من التوسط فى اصلاح ذات البين ﴿ والله سميع ﴾ يسمع أيمانكم ﴿ عليم ﴾ يعلم نياتكم فحافظوا على ما كلفتموه ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ﴾ اللغو ماسقط من الكلام عن درجة الاعتبار والمراد به فى الايمان مالاعقد معه ولا قصد كما ينبىء عنه قوله تعالى ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان وهو المعنى بقوله عز وجل ﴿ ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ وقد اختلف فيه فعندنا هو أن يحلف على شىء يظنه على ماحلف عليه ثم يظهر خلافه فانه لاقصد فيه الى الكذب وعند الشافعى رحمه الله هو قول العرب لاوالله و بلى والله مما يؤكدون به كلامهم من غير اخطار الحلف بالبال فالمعنى على الاول لا يؤاخذكم الله أى لا يعاقبكم بلغو اليمين الذى يحلفه أحدكم ظانا أنه صادق فيه ولكن يعاقبكم بما اقترفته قلوبكم من اثم القصد الى الكذب فى اليمين وذلك فى الغموس وعلى الثانى لا يلزمكم الكفارة بما لاقصد معه الى اليمين ولكن يلزمكموها بما نوت قلوبكم وقصدت به اليمين ولم يكن كسب اللسان فقط ﴿ والله غفور ﴾ حيث لم يؤاخذكم باللغو مع كونه ناشئا من عدم التثبت وقلة المبالاة ﴿ حليم ﴾ حيث لم يعجل بالمؤاخذة والجملة اعتراض مقرر لمضمون قوله تعالى لا يؤاخذكم الخ وفيه ايذان بان المراد بالمؤاخذة المعاقبة لا ايجاب الكفارة اذ هى التى يتعلق بها المغفرة والحلم دونه ﴿ للذين يؤلون من نسائهم ﴾ الايلاء الحلف وحقه أن يستعمل بعلى واستعماله بمن لتضمينه معنى البعد أى للذين يحلفون متباعدين من نسائهم و يحتمل أن يراد لهم من نسائهم ﴿ تربص أربعة أشهر ﴾ كقولك لى منك كذا وقرىء آلوا من نسائهم وقرىء يقسمون من نسائهم والايلاء من المرأة أن يقول والله لا أقربك أربعة أشهر فصاعدا على التقييد بالاشهر أو لا أقربك على الاطلاق ولا يكون فيما دون ذلك وحكمه أنه ان فاء اليها فى المدة بالوطء ان أمكن أو بالقول ان عجز عنه صح الفىء وحنث القادر ولزمته كفارة اليمين ولا كفارة على العاجز وان مضت الاربعة بانت بتطليقة والتربص الانتظار والتوقف أضيف الى الظرف اتساعا أى لهم أن ينتظروا فى هذه المدة من غير مطالبة بفىء أو طلاق ﴿ فان فاؤا ﴾ أى رجعوا عن اليمين بالحنث والفاء للتفصيل كما اذا قلت أنا نزيلكم هذا الشهر فان أحمدتكم أقمت عندكم الى آخره والا لم ألبث الا ريثما أتحول ﴿ فان الله غفور رحيم ﴾ يغفر للمولى بفيئته التى هى كتوبته اثم حنثه عند تكفيره أو ماقصد بالايلاء من ضرار المرأة ﴿ وان عزموا الطلاق ﴾ وأجمعوا عليه ﴿ فان الله سميع ﴾ بما جرى منهم من الطلاق وما يتعلق به من الدمدمة والمقاولة التى لاتخلو عنها الحال عادة ﴿ عليم ﴾ بنياتهم وفيه من الوعيد على الاصرار وترك الفيئة مالا يخفى ﴿ والمطلقات ﴾ أى ذوات الأقراء من الحرائر المدخول بهن لما قد بين أن لاعدة على غير المدخول بها وأن عدة من لاتحيض لصغر أو كبر أو حمل بالاشهر ووضع الحمل وأن عدة الامة قرءان أو شهران ﴿ يتربصن ﴾ خبر فى معنى الأمر

مفيد للتأكيد باشعاره بان المأمور به مما يجب أن يتلقى بالمسارعة الى الاتيان به فكأنهن امتثلن بالامر بالتربص فتخبر به موجودا متحققا و بناؤه على المبتدأ مفيد لزيادة تأكيد ﴿بأنفسهن﴾ الباء للتعدية أى يقمعنها ويحملنها على مالا تشتهيه بل يشق عليها من التربص وفيه مزيد حث لهن على ذلك لمافيه من الاباء عن الاتصاف بما يستنكفن منه من كون نفوسهن طوامح الى الرجال فيحملهن ذلك على الاقدام على الاتيان بما أمرن به ﴿ثلاثة قروء﴾ نصب على الظرفية أو المفعولية بتقدير مضاف أى يتربصن مدة ثلاثة قروء أو يتربصن مضى ثلاثة قروء وهو جمع قرء والمراد به الحيض بدليل قوله صلى الله عليه وسلم دعى الصلاة أيام أقرائك وقوله عليه السلام طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان وقوله تعالى واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر و لان المقصود الاصلى من العدة استبراء الرحم ومداره الحيض دون الطهر و يقال أقرأت المرأة اذا حاضت وقوله تعالى فطلقوهن لعدتهن معناه مستقبلات لعدتهن وهى الحيض الثلاث وايراد جمع الكثرة فى مقام جمع القلة بطريق الاتساع فان ايراد كل من الجمعين مكان الآخر شائع ذائع وقرىء ثلاثة قرو بغير همز ﴿و لايحل لهن أن يكتمن ماخلق الله فى أرحامهن﴾ من الحيض والولد استعجالا فى العدة وابطالا لحق الرجعة وفيه دليل على قبول قولهن فى ذلك نفيا واثباتا ﴿ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ جواب الشرط محذوف يدل عليه ماقبله دلالة واضحة أى فلا يجترئن على ذلك فان قضية الايمان بالله تعالى واليوم الآخر الذى يقع فيه الجزاء والعقوبة منافية له قطعا ﴿وبعولتهن﴾ البعولة جمع بعل وهو فى الاصل السيد المالك والتاء لتأنيث الجمع كما فى الحزونة والسهولة أو مصدر بتقدير مضاف أى أهل بعولتهن أى أزواجهن الذين طلقوهن طلاقا رجعيا كما ينبىء عنه التعبير عنهم بالبعولة والضمير لبعض أفراد المطلقات ﴿أحق بردهن﴾ الى ملكهم بالرجعة اليهن ﴿فى ذلك﴾ أى فى زمان التربص وصيغة التفضيل لافادة أن الرجل اذا أراد الرجعة والمرأة تأباها وجب ايثار قوله على قولها لا أن لها أيضا حقا فى الرجعة ﴿ان أرادوا﴾ أى الازواج بالرجعة ﴿اصلاحا﴾ لما بينهم و بينهن واحسانا اليهن ولم يريدوا مضارتهن وليس المراد به شرطية قصد الاصلاح بصحة الرجعة بل هو الحث عليه والزجر عن قصد الضرار ﴿ولهن﴾ عليهم من الحقوق ﴿مثل الذى﴾ لهم ﴿عليهن بالمعروف﴾ من الحقوق التى يجب مراعاتها و يتحتم المحافظة عليها ﴿وللرجال عليهن درجة﴾ أى زيادة فى الحق لأن حقوقهم فى أنفسهن وحقوقهن فى المهر والكفاف وترك الضرار ونحوها أو مزية فى الفضل لما أنهم قوامون عليهن حراس لهن ولما فى أيديهن يشاركونهن فيما هو الغرض من الزواج و يستبدون بفضيلة الرعاية والانفاق ﴿والله عزيز﴾ يقدر على الانتقام ممن يخالف أحكامه ﴿حكيم﴾ تنطوى شرائعه على الحكم والمصالح ﴿الطلاق﴾ هو بمعنى التطليق كالسلام بمعنى التسليم والمراد به الرجعى لما أن السابق الاقرب حكمه ولما روى أنه عليه السلام سئل عن الثالثة فقال عليه السلام أو تسريح باحسان وهو مبتدأ بتقدير مضاف خبره ما بعده أى عدد الطلاق الذى يستحق الزوج فيه الرد والرجعة حسبما بين آنفا ﴿مرتان﴾ أى اثنان وايثار ما ورد به النظم الكريم عليه للايذان بأن حقهما أن يقعا مرة بعد مرة لادفعة واحدة وان كان حكم الرد ثابتا حينئذ أيضا ﴿فامساك﴾ أى فالحكم بعدهما امساك لهن بالرجعة ﴿بمعروف﴾ أى بحسن عشرة ولطف معاملة ﴿أو تسريح باحسان﴾ بالطلقة الثالثة كما روى عنه صلى الله عليه وسلم أو بعدم الرجعة الى أن تنقضى العدة فتبين وقيل المراد به الطلاق الشرعى و بالمرتين مطلق التكرير لا التثنية بعينها كما فى قوله تعالى ثم ارجع البصر كرتين أى كرة بعد كرة والمعنى أن التطليق الشرعى تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع بين الطلقتين أو الثلاث فان ذلك بدعة عندنا فقوله تعالى فامساك الخ حكم مبتدأ وتخيير مستأنف والفاء فيه للترتيب على التعليم كأنه قيل اذا علمتم كيفية التطليق فامركم أحد الأمرين

﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا﴾ منهن بمقابلة الطلاق ﴿مما آتيتموهن﴾ أى من الصدقات وتخصيصها بالذكر وان شاركها فى الحكم سائر أموالهن اما لرعاية العادة أو للتنبيه على أنه اذا لم يحل لهم أن يأخذوا مما آتوهن بمقابلة البضع عند خروجه عن ملكهم فلأن لا يحل أن يأخذوا مما لا تعلق له بالبضع أولى وأحرى ﴿شيئا﴾ أى نزرا يسيرا فضلا عن الكثير وتقديم الظرف عليه لما مر مرارا والخطاب مع الحكام واسناد الاخذ والايتاء اليهم لانهم الآمرون بهما عند المرافعة وقيل مع الازواج ومابعده مع الحكام وذلك مما يشوش النظم الكريم على القراءة المشهورة ﴿الا أن يخافا﴾ أى الزوجان وقرىء يظنا وهو مؤيد لتفسير الخوف بالظن ﴿أن لا يقيما حدود الله﴾ أى أن لا يراعيا مواجب أحكام الزوجية وقرىء يخافا على البناء للمفعول وابدال أن بصلته من الضمير بدل الاشتمال وقرىء تخافا وتقيما بتاء الخطاب ﴿فان خفتم﴾ أيها الحكام ﴿أن لا يقيما﴾ أى الزوجان ﴿حدود الله﴾ بمشاهدة بعض الامارات والمخايل ﴿فلا جناح عليهما﴾ أى على الزوجين ﴿فيما افتدت به﴾ لا على الزوج فى أخذ ماافتدت به ولا عليها فى اعطائه اياه. روى أن جميلة بنت عبدالله بن أبى بن سلول كانت تبغض زوجها ثابت بن قيس فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لا أنا ولا ثابت لايجمع رأسى ورأسه شىء والله ماأعيب عليه فى دين ولا خلق ولكن أكره الكفر بعد الاسلام ما أطيقه بغضا انى رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل فى عدة فاذا هو أشدهم سوادا وأقصرهم قامة وأقبحهم وجها فنزلت فاختلعت منه بحديقة كان أصدقها اياها ﴿تلك﴾ أى الاحكام المذكورة ﴿حدود الله فلا تعتدوها﴾ بالمخالفة والرفض ﴿ومن يتعد حدود الله فأولئك﴾ المتعدون والجمع باعتبار معنى الموصول ﴿هم الظالمون﴾ أى لأنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعقابه ووضع الاسم الجليل فى المواقع الثلاثة الاخيرة موقع الضمير لتربية المهابة وادخال الروعة وتعقيب النهى بالوعيد للمبالغة فى التهديد ﴿فان طلقها﴾ أى بعد الطلقتين السابقتين ﴿فلا تحل﴾ هى ﴿له من بعد﴾ أى من بعد هذا الطلاق ﴿حتى تنكح زوجا غيره﴾ أى حتى تتزوج غيره فان النكاح أيضا يسند الى كل منهما وتعلق بظاهره من اقتصر على العقد والجمهور على اشتراط الاصابة لما روى أن امرأة رفاعة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان رفاعة طلقنى فبت طلاقى وان عبد الرحمن ابن الزبير تزوجنى وان مامعه مثل هدبة الثوب فقال صلى الله عليه وسلم أتريدين أن ترجعى الى رفاعة قالت نعم قال صلى الله عليه وسلم لا الا أن تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك و بمثله تجوز الزيادة على الكتاب وقيل النكاح بمعنى الوطء والعقد مستفاد من لفظ الزوج والحكمة من هذا التشريع الردع عن المسارعة الى الطلاق والعود الى المطلقة ثلاثا والرغبة فيها والنكاح بشرط التحليل مكروه وعندنا و يروى عدم الكراهة فيما لم يكن الشرط مصرحا به وفاسد عند الاكثرين لقوله صلى الله عليه وسلم لعن الله المحلل والمحلل له ﴿فان طلقها﴾ أى الزوج الثانى ﴿فلا جناح عليهما﴾ أى على الزوج الاول والمرأة ﴿أن يتراجعا﴾ أن يرجع كل منهما الى الآخر بالعقد ﴿ان ظنا أن يقيما حدود الله﴾ التى أوجب مراعاتها على الزوجين من الحقوق ولا وجه لتفسير الظن بالعلم لما أن العواقب غير معلومة ولأن أن الناصبة للتوقع المنافى للعلم ولذلك لايكاد يقال علمت أن يقوم زيد ﴿وتلك﴾ اشارة الى الأحكام المذكورة الى هنا ﴿حدود الله﴾ أى أحكامه المعينة المحمية من التعرض لها بالتغيير والمخالفة ﴿يبينها﴾ بهذا البيان اللائق أو سيبينها فيما سيأتى بناء على أن بعضها يلحقه زيادة كشف وبيان بالكتاب والسنة والجملة خبر ثان عند من يجوز كونه جملة كما فى قوله تعالى فاذا هى حية تسعى أو حال من حدود الله والعامل معنى الاشارة ﴿لقوم يعلمون﴾ أى يفهمون وتخصيصهم بالذكر مع عموم الدعوة والتبليغ لما أنهم المنتفعون بالبيان أو لان ماسيلحق بعض النصوص من البيان لايقف عليه الا الراسخون فى العلم ﴿واذا طلقتم النساء فبلغن

أجلهن﴾ أى آخر عدتهن فان الأجل كما ينطلق على المدة ينطلق على منتهاها والبلوغ هو الوصول الى الشئ وقد يقال للدنو منه اتساعا وهو المراد ههنا لقوله عز وجل ﴿فأمسكوهن بمعروف أوسرحوهن بمعروف﴾ اذلا امكان للامساك بعد تحقق بلوغ الأجل أى فراجعوهن بغير ضرار أوخلوهن حتى ينقضى أجلهن باحسان من غير تطويل وهذا كما ترى اعادة للحكم فى بعض صوره اعتناء بشأنه ومبالغة فى ايجاب المحافظة عليه ﴿ولاتمسكوهن ضراراً﴾ تأكيد للأمر بالامساك بمعروف وتوضيح لمعناه و زجر صريح عما كانوا يتعاطونه أى لاتراجعوهن ارادة الاضرار بهن . كان المطلق يترك المعتدة حتى اذا شارفت انقضاء الأجل يراجعها لالرغبة فيها بل ليطول عليها العدة فنهى عنه بعد ماأمر بضده لما ذكر وضرارا نصب على العلية أو الحالية أى لاتمسكوهن للمضارة أومضارين واللام فى قوله ﴿لتعتدوا﴾ متعلقة بضرارا أى لتظلموهن بالالجاء الى الافتداء ﴿ومن يفعل ذلك﴾ أى ماذكر من الامساك المؤدى الى الظلم ومافيه من معنى البعد للدلالة على بعد منزلته فى الشر والفساد ﴿فقد ظلم نفسه﴾ فى ضمن ظلمه لهن بتعريضها للعقاب ﴿ولاتتخذوا آيات الله﴾ المنطوية على الأحكام المذكورة أوجميع آياته وهى داخلة فيها دخولا أوليا ﴿هزوا﴾ أى مهزوا بها بأن تعرضوا عنها وتتهاونوا فى المحافظة على مافى تضاعيفها من الأحكام والحدود من قولهم لمن لم يجد فى الامر أنت هازئ كأنه نهى عن الهزؤ بها وأريد مايستلزمه من الأمر بضده أى جدوا فى الأخذ بها والعمل بما فيها وارعوها حق رعايتها والافقد أخذتموها هزؤا ولعبا و يجوز أن يراد به النهى عن الامساك ضرارا فان الرجعة بلارغبة فيها عمل بموجب آيات الله تعالى بحسب الظاهر دون الحقيقة وهو معنى الهزؤ وقيل كان الرجل ينكح و يطلق و يعتق ثم يقول انما كنت ألعب فنزلت و لذلك قال صلى الله عليه وسلم ثلاث جدهن جد وهزلهن جد النكاح والطلاق والعتاق ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ حيث هداكم الى مافيه سعادتكم الدينية والدنيوية أى قابلوها بالشكر والقيام بحقوقها والظرف متعلق بمحذوف وقع حالا من نعمة الله أى كائنة عليكم أوصفة لها على رأى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أى الكائنة عليكم و يجوز أن يتعلق بنفسها ان أريد بها الانعام لانها اسم مصدر كنبات من أنبت و لايقدح فى عمله تاء التأنيث لانه مبنى عليها كما فى قوله

فلولا رجاء النصر منك و رهبة   عقابك قد كانوا لنا كالموارد

﴿وماأنزل عليكم﴾ عطف على نعمة الله وما موصولة حذف عائدها من الصلة ومن فى قوله عز وجل ﴿من الكتاب والحكمة﴾ بيانية أى من القرآن والسنة أو القرآن الجامع للعنوانين على أن العطف لتغاير الوصفين كما فى قوله

الى الملك القرم وابن الهمام

وفى ابهامه أولا ثم بيانه من التفخيم مالايخفى و فى افراده بالذكر مع كونه أول مادخل فى النعمة المأمور بذكرها ابانة بخطره ومبالغة فى البعث على مراعاة ماذكر قبله من الأحكام ﴿يعظكم به﴾ أى بما أنزل حال من فاعل أنزل أومن مفعوله أومنهما معا ﴿واتقوا الله﴾ فى شأن المحافظة عليه والقيام بحقوقه الواجبة ﴿واعلموا أن الله بكل شئ عليم﴾ فلا يخفى عليه شئ مما تأتون وماتذرون فيؤاخذكم بأفانين العقاب ﴿واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن﴾ بيان لحكم ما كانوا يفعلونه عند بلوغ الأجل حقيقة بعد بيان حكم ما كانوا يفعلونه عند المشارفة اليه والعضل الحبس والتضييق ومنه عضلت الدجاجة اذا نشب بيضها ولم يخرج والمراد المنع والخطاب اما للأولياء لما روى أنها نزلت فى معقل بن يسار حين عضل أخته جملاء أن ترجع الى زوجها الأول بالنكاح وقيل نزلت فى جابر بن عبدالله حين عضل ابنة عم له واسناد التطليق اليهم لتسببهم فيه كما ينبئ عنه تصديهم للعضل ولعل التعرض لبلوغ الأجل مع جواز التزوج بالزوج الأول قبله أيضا لوقوع العضل المذكور حينئذ وليس فيه دلالة على أن ليس للمرأة أن تزوج نفسها والالما احتيج الى نهى الأولياء عن العضل لما أن النهى لدفع الضرر عنهن فانهن وان قدرن على تزويج أنفسهن

لكنهن يحترزن عن ذلك مخافة اللوم والقطيعة واما للأزواج حيث كانوا يعضلون مطلقاتهم و لايدعونهن يتزوجن ظلما وقسرا لحمية الجاهلية واما للناس كافة فان اسناد مافعله واحد منهم الى الجميع شائع مستفيض والمعنى اذا وجد فيكم طلاق فلا يقع فيما بينكم عضل سواء كان ذلك من قبل الأولياء أومن جهة الازواج أو من غيرهم وفيه تهويل لأمر العضل وتحذير منه وايذان بأن وقوع ذلك بين ظهرانيهم وهم ساكتون عنه بمنزلة صدوره عن الكل فى استتباع اللائمة وسراية الغائلة ﴿أن ينكحن﴾ أى من أن ينكحن فمحله النصب عند سيبويه والفراء والجر عند الخليل على الخلاف المشهور وقيل هو بدل اشتمال من الضمير المنصوب فى تعضلوهن وفيه دلالة على صحة النكاح بعبارتهن ﴿أزواجهن﴾ ان أريد بهم المطلقون فالزوجية اما باعتبار ما كان واما باعتبار ما يكون والا فباعتبار الأخير ﴿اذا تراضوا﴾ ظرف للاتعضلوا وصيغة التذكير باعتبار تغليب الخطاب على النساء والتقييد به لانه المعتاد لالتجويز المنع قبل تمام التراضى وقيل ظرف لان ينكحن وقوله تعالى ﴿بينهم﴾ ظرف للتراضى مفيد لرسوخه واستحكامه ﴿بالمعروف﴾ الجميل عند الشرع المستحسن عند الناس والباء اما متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل تراضوا أو نعتا لمصدر محذوف أى تراضيا كائنا بالمعروف واما بتراضوا أى يتراضوا بما يحسن فى الدين والمروءة وفيه اشعار بأن المنع من التزوج بغير كفؤ أو بما دون مهر المثل ليس من باب العضل ﴿ذلك﴾ اشارة الى ما فصل من الأحكام ومافيه من معنى البعد لتعظيم المشار اليه والخطاب لجميع المكلفين كما فيما بعده والتوحيد اما باعتبار كل واحد منهم واما بتأويل القبيل والفريق واما لان الكاف لمجرد الخطاب والفرق بين الحاضر والمنقضى دون تعيين المخاطبين أو للرسول صلى الله عليه وسلم كما فى قوله تعالى ياأيها النبى اذا طلقتم النساء للدلالة على أن حقيقة المشار اليه أمر لايكاد يعرفه كل أحد ﴿يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ فيسارع الى الامتثال بأوامره ونواهيه اجلالا له وخوفا من عقابه . وقوله تعالى منكم اما متعلق بكان عند من يجوز عملها فى الظروف وشبهها واما بمحذوف وقع حالا من فاعل يؤمن أى كائنا منكم ﴿ذلكم﴾ أى الاتعاظ به والعمل بمقتضاه ﴿أزكى لكم﴾ أى أنمى وأنفع ﴿وأطهر﴾ من أدناس الآثام وأوضار الذنوب ﴿والله يعلم﴾ مافيه من الزكاء والطهر ﴿وأنتم لاتعلمون﴾ ذلك أو والله يعلم مافيه صلاح أموركم من الأحكام والشرائع التى من جملتها مابينه ههنا وأنتم لاتعلمونها فدعوا رأيكم وامتثلوا أمره تعالى ونهيه فى كل ماتأتون وماتذرون ﴿والوالدات يرضعن أولادهن﴾ شروع فى بيان الأحكام المتعلقة بأولادهن خصوصا واشتراكا وهو أمر أخرج مخرج الخبر مبالغة فى الحمل على تحقيق مضمونه ومعناه الندب أو الوجوب ان خص بمادة عدم قبول الصبى ثدى الغير أو فقدان الظئر أو عجز الوالد عن الاستئجار والتعبير عنهن بالعنوان المذكور لهز عطفهن نحو أولادهن والحكم عام للمطلقات وغيرهن وقيل خاص بهن اذ الكلام فيهن ﴿حولين كاملين﴾ التأكيد بصفة الكمال لبيان أن التقدير تحقيق لاتقريبى مبنى على المسامحة المعتادة ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ بيان لمن يتوجه اليه الحكم أى ذلك لمن أراد اتمام الرضاعة وفيه دلالة على جواز النقص وقيل اللام متعلقة بيرضعن فان الأب يجب عليه الارضاع كالنفقة والأم ترضع له كما يقال أرضعت فلانة لفلان ولده ﴿وعلى المولود له﴾ أى الوالد فان الولد يولد له و ينسب اليه وتغيير العبارة للاشارة الى المعنى المقتضى لوجوب الارضاع ومؤنة المرضعة عليه ﴿رزقهن وكسوتهن﴾ أجرتهن واختلف فى استئجار الأم وهو غير جائز عندنا مادامت فى النكاح أو العدة جائز عند الشافعى رحمه الله ﴿بالمعروف﴾ حسبما يراه الحاكم و يفى به وسعه ﴿لاتكلف نفس الا وسعها﴾ تعليل لايجاب المؤن بالمعروف أو تفسير للمعروف وهو نص على أنه تعالى لايكلف العبد مالايطيقه وذلك لاينافى امكانه ﴿لاتضار والدة بولدها و لا مولود له بولده﴾

تفصيل لما قبله وتقرير له أى لا يكلف كل واحد منهما الآخر مالا يطيقه ولا يضاره بسبب ولده وقرئ لا تضار بالرفع بدلا من لا تكلف وأصله على القراءتين لا تضارر بالكسر على البناء للفاعل وبالفتح على البناء للمفعول وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون بمعنى تضر والباء من صلته أى لا يضر الوالدان بالولد فيفرط فى تعهده ويقصر فيما ينبغى له وقرئ لا تضار بالسكون مع التشديد على نية الوقف وبه مع التخفيف على أنه من ضاره يضيره واضافة الولد الى كل منهما لاستعطافهما اليه وللتنبيه على أنه جدير بان يتفقا على استصلاحه ولا ينبغى أن يضرا به أو يتضارا بسببه ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ عطف على قوله تعالى وعلى المولود له رزقهن الخ ومابينهما تعليل أو تفسير معترض والمراد به وارث الصبي ممن كان ذا رحم محرم منه وقيل عصباته وقال الشافعي رحمه الله هو وارث الاب وهو الصبي أى تمان المرضعة من ماله عند موت الأب ولا نزاع فيه وانما الكلام فيما اذا لم يكن للصبي مال وقيل الباقى من الابوين من قوله عليه الصلاة والسلام واجعله الوارث منا وذلك اشارة الى ماوجب على الأب من الرزق والكسوة ﴿فان أرادا﴾ أى الوالدان ﴿فصالا﴾ أى فطاما عن الرضاع قبل تمام الحولين والتنكير للايذان بانه فصال غير معتاد ﴿عن تراض﴾ متعلق بمحذوف ينساق اليه الذهن اى صادرا عن تراض ﴿منهما﴾ أى من الوالدين لا من أحدهما فقط لاحتمال اقدامه على مايضر بالولد بان تمل المرأة الارضاع ويبخل الأب باعطاء الاجرة ﴿وتشاور﴾ فى شأن الولد وتفحص عن أحواله واجماع منهما على استحقاقه للفطام والتشاور من المشورة وهى استخراج الرأى من شرت العسل اذا استخرجته وتنكيرهما للتفخيم ﴿فلا جناح عليهما﴾ فى ذلك لما أن تراضيهما انما يكون بعد استقرار رأيهما أو اجتهادهما على أن صلاح الولد فى الفطام وقلما يتفقان على الخطأ ﴿وان أردتم﴾ بيان لحكم عدم اتفاقهما على الفطام والالتفات الى خطاب الآباء لهزهم الى الامتثال بما أمروا به ﴿أن تسترضعوا أولادكم﴾ بحذف المفعول الاول استغناء عنه أى أن تسترضعوا المراضع لاولادكم يقال أرضعت المرأة الصبي واسترضعتها اياه وقيل انما يتعدى الى الثانى بحرف الجر يقال استرضعت المرأة للصبي أى أن تسترضعوا المراضع لاولادكم فحذف حرف الجر أيضا كما فى قوله تعالى واذا كالوهم أى كالوا لهم ﴿فلا جناح عليكم﴾ أى فى الاسترضاع وفيه دلالة على أن للاب أن يسترضع للولد ويمنع الام من الارضاع ﴿اذا سلمتم﴾ أى الى المراضع ﴿ما آتيتم﴾ أى ما أردتم ايتاءه كما فى قوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله وقرئ ماأتيتم من أتى اليه احسانا اذا فعله وقرئ ما أوتيتم أى من جهة الله عز وجل كما فى قوله تعالى وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه وفيه مزيد بعث لهم الى التسليم ﴿بالمعروف﴾ متعلق بسلمتم أى بالوجه المتعارف المستحسن شرعا وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه وليس التسليم بشرط للصحة والجواز بل هو ندب الى ماهو الاليق والاولى فان المراضع اذا أعطين ماقدر لهن ناجزا يدا بيد كان ذلك أدخل فى استصلاح شؤن الاطفال ﴿واتقوا الله﴾ فى شأن مراعاة الاحكام المذكورة ﴿واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾ فيجازيكم بذلك واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتربية المهابة وفيه من الوعيد والتهديد مالا يخفى ﴿والذين﴾ على حذف المضاف أى وأزواج الذين ﴿يتوفون منكم﴾ أى تقبض أرواحهم بالموت فان التوفى هو القبض يقال توفيت مالى من فلان واستوفيته منه أى أخذته وقبضته والخطاب لكافة الناس بطريق التلوين ﴿ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا﴾ أو على حذف العائد الى المبتدا فى الخبر أى يتربصن بعدهم كما فى قولهم السمن منوان بدرهم أى منوان منه وقرئ يتوفون بفتح الياء أى يستوفون آجالهم وتأنيث العشر باعتبار الليالى لانها غرر الشهور والايام ولذلك تراهم لايكادون يستعملون التذكير فى مثله أصلا حتى انهم يقولون صمت عشرا ومن البين فى ذلك قوله تعالى ان لبثتم الا عشرا ثم ان لبثتم الا يوما ولعل الحكمة فى هذا التقدير أن

الجنين اذا كان ذكرا يتحرك غالبا لثلاثة أشهر وان كان أنثى يتحرك لاربعة فاعتبر أقصى الاجلين وزيد عليه العشر استظهارا اذ ربما انضعف الحركة فلا يحس بها وعموم اللفظ يقتضى تساوى المسلمة والكتابية والحرة والأمة فى هذا الحكم ولكن القياس اقتضى التنصيف فى الأمة وقوله عز وجل وأولات الاحمال خص الحامل منه وعن على وابن عباس رضى الله عنهم أنها تعتد بابعد الاجلين احتياطا ﴿فاذا بلغن أجلهن﴾ أى انقضت عدتهن ﴿فلا جناح عليكم﴾ أيها الحكام والمسلمون جميعا ﴿فيما فعلن فى أنفسهن﴾ من التزين والتعرض للخطاب وسائر ماحرم على المعتدة ﴿بالمعروف﴾ بالوجه الذى لا ينكره الشرع وفيه اشارة الى أنهن لو فعلن ماينكره الشرع فعليهم أن يكفوهن عن ذلك والا فعليهم الجناح ﴿والله بما تعملون خبير﴾ فلا تعملوا خلاف ما أمرتم به ﴿ولا جناح عليكم﴾ خطاب للكل ﴿فيما عرضتم به﴾ التعريض والتلويح ابهام المقصود بما لم يوضع له حقيقة ولا مجازا كقول السائل جئتك لأسلم عليك وأصله امالة الكلام عن نهجه الى عرض منه أى جانب والكناية هى الدلالة على الشئ بذكر لوازمه وروادفه كقولك طويل النجاد للطويل وكثير الرماد للمضياف ﴿من خطبة النساء﴾ الخطبة بالكسر كالقعدة والجلسة ما يفعله الخاطب من الطلب والاستلطاف بالقول والفعل فقيل هى مأخوذة من الخطب أى الشأن الذى له خطر لما أنها شأن من الشئون ونوع من الخطوب وقيل من الخطاب لانها نوع مخاطبة تجرى بين جانب الرجل وجانب المرأة والمراد بالنساء المعتدات للوفاة والتعريض لخطبتهن أن يقول لها انك لجميلة أو صالحة أو نافعة ومن غرضى أن أتزوج ونحو ذلك مما يوهم أنه يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه ان رغبت فيه ولا يصرح بالنكاح ﴿أو أكننتم فى أنفسكم﴾ أى أضمرتم فى قلوبكم فلم تذكروه تصريحا ولا تعريضا ﴿علم الله أنكم ستذكرونهن﴾ ولا تصبرون على السكوت عنهن وعن اظهار الرغبة فيهن وفيه نوع توبيخ لهم على قلة التثبت ﴿ولكن لا تواعدوهن سرا﴾ استدراك عن محذوف دل عليه ستذكرونهن أى فاذكروهن ولكن لا تواعدوهن نكاحا بل اكتفوا بما رخص لكم من التعريض والتعبير عن النكاح بالسر لان مسببه الذى هو الوطء مما يسر به وايثاره على اسمه للايذان بانه مما ينبغى أن يسر به ويكتم وحمله على الوطء ربما يوهم الرخصة فى المحظور الذى هو التصريح بالنكاح وقيل انتصاب سرا على الظرفية أى لا تواعدوهن فى السر على أن المراد بذلك المواعدة بما يستهجن وفيه مافيه ﴿الا أن تقولوا قولا معروفا﴾ استثناء مفرغ مما يدل عليه النهى أى لا تواعدوهن مواعدة ما الا مواعدة معروفة غير منكرة شرعا وهى ما يكون بطريق التعريض والتلويح أو الا مواعدة بقول معروف أو لا تواعدوهن بشئ من الاشياء الا بأن تقولوا قولا معروفا وقيل هو استثناء منقطع من سرا وهو ضعيف لادائه الى جعل التعريض موعودا وليس كذلك ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح﴾ من عزم الأمر اذا قصده قصدا جازما وحقيقته القطع بدليل قوله عليه السلام لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل وروى لمن لم يبيت الصيام والنهى عنه للمبالغة فى النهى عن مباشرة عقد النكاح أى لا تعزموا عقد عقدة النكاح ﴿حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ أى العدة المكتوبة المفروضة آخرها وقيل معناه لا تقطعوا عقدة النكاح أى لا تبرموها ولا تلزموها ولا تقدموا عليها فيكون نهيا عن نفس الفعل لا عن قصده ﴿واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم﴾ من ذوات الصدور التى من جملتها العزم على مانهيتم عنه ﴿فاحذروه﴾ بالاجتناب عن العزم ابتداء أو اقلاعا عنه بعد تحققه ﴿واعلموا أن الله غفور﴾ يغفر لمن يقلع عن عزمه خشية منه تعالى ﴿حليم﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة فلا تستدلوا بتأخيرها على أن مانهيتم عنه من العزم ليس مما يستتبع المؤاخذة واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لادخال الروعة ﴿لا جناح عليكم﴾ أى لا تبعة من مهر وهو الاظهر وقيل من وزر اذ لا بدعة فى الطلاق قبل المسيس وقيل كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر النهى عن الطلاق فظن أن فيه جناحا فنفى ذلك ﴿ان طلقتم النساء مالم

تمسوهن﴾ أى مالم تجامعوهن وقرى‌ء تماسوهن بضم التاء فى جميع المواقع أى مدة عدم مساسكم اياهن على أن مامصدرية ظرفية بتقدير المضاف ونقل أبو البقاء أنها شرطية بمعنى أن فيكون من باب اعتراض الشرط على الشرط فيكون الثانى قيدا للاول كما فى قولك ان تأتنى أن تحسن الى أكرمك أى ان تأتنى محسنا الى والمعنى ان طلقتموهن غير ماسين لهن وهذا المعنى أقعد من الاول لما أن ما الظرفية انما يحسن موقعها فيما اذا كان المظروف أمرا ممتدا منطبقا على ماأضيف اليها من المدة أو الزمان كما فى قوله تعالى خالدين فيها مادامت السموات والارض وقوله تعالى وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم ولا يخفى أن التطليق ليس كذلك وتعليق الظرف بنفى الجناح ربما يوهم امكان المسيس بعد الطلاق فالوجه أن يقدر الحال مكان الزمان والمدة ﴿أو تفرضوا لهن فريضة﴾ أى الا أن تفرضوا لهن أو حتى تفرضوا لهن عند العقد مهرا على أن فريضة فعيلة بمعنى مفعول والتاء لنقل اللفظ من الوصفية الى الاسمية وانتصابه على المفعولية ويجوز أن يكون مصدرا صيغة واعرابا والمعنى أنه لاتبعة على المطلق بمطالبة المهر أصلا اذا كان الطلاق قبل المسيس على كل حال الا فى حال تسمية المهر فان عليه حينئذ نصف المسمى وفى حال عدم تسميته عليه المتعة لانصف مهر المثل وأما اذا كان بعد المساس فعليه فى صورة التسمية تمام المسمى وفى صورة عدمها تمام مهر المثل وقيل كلمة أو عاطفة لدخولها على ماقبلها من الفعل المجزوم على معنى مالم يكن منكم مسيس ولا فرض مهر ﴿ومتعوهن﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى فطلقوهن ومتعوهن والحكمة فى ايجاب المتعة جبر إيحاش الطلاق وهى درع وملحفة وخمار على حسب الحال كما يفصح عنه قوله تعالى ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر قدره﴾ أى مايليق بحال كل منهما وقرى‌ء بسكون الدال وهى جملة مستأنفة لامحل لها من الاعراب مبينة لمقدار المتعة بالنظر الى حال المطلق ايسارا واقتارا أو حال من فاعل متعوهن بحذف الرابط أى على الموسع منكم الخ أو على جعل الألف واللام عوضا من المضاف اليه عند من يجوزه أى على موسعكم الخ وهذا اذا لم يكن مهر مثلها أقل من ذلك فان كان أقل فلها الأقل من نصف مهر المثل ومن المتعة ولا ينقص عن خمسة دراهم ﴿متاعا﴾ أى تمتيعا ﴿بالمعروف﴾ أى بالوجه الذى تستحسنه الشريعة والمروءة ﴿حقا﴾ صفة لمتاعا أو مصدر مؤكد أى حق ذلك حقا ﴿على المحسنين﴾ أى الذين يحسنون الى أنفسهم بالمسارعة الى الامتثال أو الى المطلقات بالتمتيع بالمعروف وانما سموا محسنين اعتبارا للمشارفة وترغيبا وتحريضا ﴿وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن﴾ قبل ذلك ﴿فريضة﴾ أى وان طلقتموهن من قبل المسيس حال كونكم مسمين لهن فيما سبق أى عند النكاح مهرا على أن الجملة حال من فاعل طلقتموهن ويجوز أن تكون حالا من مفعوله لتحقق الرابط بالنسبة اليهما ونفس الفرض من المبنى للفاعل أو للمفعول وان لم يقارن حالة التطليق لكن اتصاف المطلق بالفارضية فيما سبق مما لاريب فى مقارنته لها وكذا الحال فى اتصاف المطلقة بكونها مفروضا لها فيما سبق ﴿فنصف مافرضتم﴾ أى فلهن نصف ماسميتم لهن من المهر أو فالواجب عليكم ذلك وهذا صريح فى أن المنفى فى الصورة السابقة انما هو تبعة المهر وقرى‌ء بالنصب أى فأدوا نصف مافرضتم ولعل تأخير حكم التسمية مع أنها الأصل فى العقد والاكثر فى الوقوع لما أن الآية الكريمة نزلت فى أنصارى تزوج امرأة من بنى حنيفة وكانت مفوضة فطلقها قبل الدخول بها فتخاصما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عليه الصلاة والسلام عند اظهار أن لاشى‌ء لمتعها بقلنسوتك ﴿الا أن يعفون﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى فلهن نصف المفروض معينا فى كل حال الا حال عفوهن فانه يسقط ذلك حينئذ بعد وجوبه وظاهر الصيغة فى نفسها يحتمل التذكير والتأنيث وانما الفرق فى الاعتبار والتحقيق فان الواو فى الاولى ضمير والنون علامة الرفع وفى الثانية لام الفعل والنون ضمير والفعل مبنى ولذلك لم يؤثر فيه أن تأثيره فيما عطف على محلهمن

قوله تعالى ﴿أو يعفو﴾ بالنصب وقرى‌ء بسكون الواو ﴿الذى بيده عقدة النكاح﴾ أى يترك الزوج المالك لعقده وحله مايعود اليه من نصف المهر الذى ساقه اليها كاملا على ماهو المعتاد تكرما فان ترك حقه عليها عفو بلا شبهة أو سمى ذلك عفوا فى صورة عدم السوق مشاكلة أو تغليبا لحال السوق على حال عدمه فرجع الاستثناء حينئذ الى منع الزيادة فى المستثنى منه كما أنه فى الصورة الاولى الى منع النقصان فيه أى فلهن هذا القدر بلا زيادة ولا نقصان فى جميع الأحوال الا فى حال عفوهن فانه حينئذ لايكون لهن القدر المذكور بل ينتفى ذلك أو ينحط أو فى حال عفو الزوج فانه حينئذ يكون لهن الزيادة على ذلك القدر هذا على التفسير الأول وأما على التفسير الثانى فلا بد من المصير الى جعل الاستثناء منقطعا لأن فى صورة عفو الزوج لايتصور الوجوب عليه هذا عندنا وفى القول القديم للشافعى رحمه الله أن المراد عفو الولى الذى بيده عقدة نكاح الصغيرة وهو ظاهر المأخذ خلا أن الاول أنسب بقوله تعالى ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾ الى آخره فان اسقاط حق الصغيرة ليس فى شى‌ء من التقوى وعن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول وأكمل لها الصداق وقال أنا أحق بالعفو وقرى‌ء بالياء ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ أى لاتتركوا أن يتفضل بعضكم على بعض كالشى‌ء المنسى وقرى‌ء بكسر الواو والخطاب فى الفعلين للرجال والنساء جميعا بطريق التغليب ﴿ان الله بما تعملون بصير﴾ فلا يكاد يضيع ماعملتم من التفضل والاحسان ﴿حافظوا على الصلوات﴾ أى داوموا على أدائها لاوقاتها من غير اخلال بشى‌ء منها كما تنبى‌ء عنه صيغة المفاعلة المفيدة للمبالغة ولعل الأمر بها فى تضاعيف بيان أحكام الأزواج والأولاد قبل الاتمام للايذان بأنها حقيقة بكمال الاعتناء بشأنها والمثابرة عليها من غير اشتغال عنها بشأنهم بل بشأن أنفسهم أيضا كما يفصح عنه الأمر بها فى حالة الخوف ولذلك أمر بها فى خلال بيان مايتعلق بهم من الأحكام الشرعية المتشابكة الآخذ بعضها بحجزة بعض ﴿والصلوة الوسطى﴾ أى المتوسطة بينها أو الفضلى منها وهى صلاة العصر لقوله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله تعالى بيوتهم نارا وقال عليه السلام انها الصلاة التى شغل عنها سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام وفضلها لكثرة اشتغال الناس فى وقتها بتجاراتهم ومكاسبهم واجتماع ملائكة الليل وملائكة النهار حينئذ وقيل هى صلاة الظهر لأنها فى وسط النهار وكانت أشق الصلوات عليهم لما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصليها بالهاجرة فكانت أفضلها لقوله عليه السلام أفضل العبادات أحمزها وقيل هى صلاة الفجر لانها بين صلاتى الليل والنهار والواقعة فى الحد المشترك بينهما ولأنها مشهودة كصلاة العصر وقيل هى صلاة المغرب لانها متوسطة من حيث العدد ومن حيث الوقوع بين صلاتى النهار والليل ووتر النهار ولا تنقص فى السفر وقيل هى صلاة العشاء لانها بين الجهر بتين الواقعتين فى طرفى الليل وعن عائشة وابن عباس رضى الله عنهم أنه عليه السلام كان يقرأ والصلاة الوسطى وصلاة العصر فتكون حينئذ احدى الأربع قد خصت بالذكر مع العصر لانفرادها بالفضل وقرى‌ء وعلى الصلاة الوسطى وقرى‌ء بالنصب على المدح وقرى‌ء الوسطى ﴿وقوموا لله﴾ أى فى الصلاة ﴿قانتين﴾ ذاكرين له تعالى فى القيام لان القنوت هو الذكر فيه وقيل هو اكمال الطاعة واتمامها بغير اخلال بشى‌ء من أركانها وقيل خاشعين وقال ابن المسيب المراد به القنوت فى الصبح ﴿فان خفتم﴾ أى من عدو أو غيره ﴿فرجالا﴾ جمع راجل كقيام وقائم أو رجل بمعنى راجل وقرى‌ء بضم الراء مع التخفيف وبضمها مع التشديد أيضا وقرى‌ء فرجلا أى راجلا ﴿أو ركبانا﴾ جمع راكب أى فصلوا راجلين أو راكبين حسبما يقتضيه الحال ولا تخلوا بها ماأمكن الوقوف فى الجملة وقد جوز الشافعى رحمه الله أداءها حال المسايفة أيضا ﴿فاذا أمنتم﴾ بزوال الخوف ﴿فاذكروا الله﴾ أى فصلوا صلاة الامن عبر عنها بالذكر لانه معظم أركانها ﴿كما علمكم﴾ متعلق بمحذوف وقع وصفا لمصدر محذوف أى ذكرا

كائنا كما علمكم أى كتعليمه اياكم ﴿مالم تكونوا تعلمون﴾ من كيفية الصلاة والمراد بالتشبيه أن تكون الصلاة المؤداة موافقة لما علمه الله تعالى وايرادها بذلك العنوان لتذكير النعمة أواشكروا الله تعالى شكرا يوازى تعليمه اياكم مالم تكونوا تعلمونه من الشرائع والأحكام التى من جملتها كيفية اقامة الصلاة حالتى الخوف والأمن . هذا وفى ايراد الشرطية الأولى بكلمة ان المفيدة لمشكوكية وقوع الخوف وندرته وتصدير الشرطية الثانية بكلمة اذا المنبئة عن تحقق وقوع الامن وكثرته مع الايجاز فى جواب الأولى والاطناب فى جواب الثانية المبنيين على تنزيل مقام وقوع المأمور به فيهما منزلة مقام وقوع الأمر تنزيلا مستدعيا لاجراء مقتضى المقام الأول فى كل منهما مجرى مقتضى المقام الثانى من الجزالة ولطف الاعتبار مافيه عبرة لأولى الأبصار ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا﴾ عود الى بيان بقية الأحكام المفصلة فيماسلف اثر بيان أحكام وسطت بينهما لما أشير اليه من الحكمة الداعية الى ذلك ﴿وصية لأزواجهم﴾ أى يوصون أوليوصوا أو كتب الله عليهم وصية ويؤيد هذا قراءة من قرأ كتب عليكم الوصية لأزواجكم وقرئ بالرفع على تقدير مضاف فى المبتدا أوالخبر أى حكم الذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم أو والذين يتوفون أهل وصية لأزواجهم أو كتب عليهم وصية أو عليهم وصية وقرئ متاع لأزواجهم بدل وصية ﴿متاعا الى الحول﴾ منصوب بيوصون ان أضمرته والا فبالوصية أو بمتاع على القراءة الأخيرة ﴿غير اخراج﴾ بدل منه أومصدر مؤكد كما فى قولك هذا القول غير ماتقول أوحال من أزواجهم أى غير مخرجات والمعنى يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل الاحتضار لأزواجهم بأن يمتعن بعدهم حولا بالنفقة والسكنى وكان ذلك أول الاسلام ثم نسخت المدة بقوله تعالى أربعة أشهر وعشرا فانه وان كان متقدما فى التلاوة متأخر فى النزول وسقطت النفقة بتوريثها الربع أو الثمن وكذلك السكنى عندنا وعند الشافعى هى باقية ﴿فان خرجن﴾ عن منزل الازواج باختيارهن ﴿فلا جناح عليكم﴾ أيها الأئمة ﴿فيما فعلن فى أنفسهن من معروف﴾ لاينكره الشرع كالتزين والتطيب وترك الحداد والتعرض للخطاب وفيه دلالة على أن المحظور اخراجها عند ارادة القرار وملازمة مسكن الزوج والحداد من غير أن يجب عليها ذلك وانها كانت مخيرة بين الملازمة مع أخذ النفقة وبين الخروج مع تركها ﴿والله عزيز﴾ غالب على أمره يعاقب من خالفه ﴿حكيم﴾ يراعى فى أحكامه مصالح عباده ﴿وللمطلقات﴾ سواء كن مدخولا بهن أو لا ﴿متاع﴾ أى مطلق المتعة الشاملة للواجبة والمستحبة وأوجبها سعيد بن جبير وأبو العالية والزهرى للكل وقيل المراد بالمتاع نفقة العدة وقيل اللام للعهد والمراد غير المدخول بهن والتكرير للتأكيد ﴿بالمعروف﴾ شرعا وعادة ﴿حقا على المتقين﴾ أى مما ينبغى ﴿كذلك﴾ أى مثل ذلك البيان الواضح ﴿يبين الله لكم آياته﴾ الدالة على أحكامه التى شرعها لعباده ﴿لعلكم تعقلون﴾ لكى تفهموا مافيها وتعملوا بموجبها ﴿ألم تر﴾ تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأرباب الأخبار وتعجيب من شأنهم البديع فان سماعهم لها بمنزلة الرؤية النظرية أو العلمية أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب ايذانا بأن قصتهم من الشهرة والشيوع بحيث يحق لكل أحد أن يحمل على الاقرار برؤيتهم وسماع قصتهم ويعجب بها وان لم يكن ممن رآهم أو سمع بقصتهم فان هذا الكلام قد جرى مجرى المثل فى مقام التعجيب لما أنه شبه حال غير الرائى لشئ عجيب بحال الرائى له بناء على ادعاء ظهور أمره وجلائه بحيث استوى فى ادراكه الشاهد والغائب ثم أجرى الكلام معه كما يجرى مع الرائى قصداً الى المبالغة فى شهرته وعراقته فى التعجب وتعدية الرؤية بالى فى قوله تعالى ﴿الى الذين خرجوا من ديارهم﴾ على تقدير كونها بمعنى الابصار باعتبار معنى النظر وعلى تقدير كونها ادراكا قلبيا لتضمين معنى الوصول والانتهاء على معنى ألم ينته علمك اليهم ﴿وهم ألوف﴾ أى ألوف كثيرة قيل

عشرة آلاف وقيل ثلاثون وقيل سبعون ألفا والجملة حال من ضمير خرجوا وقوله عز وجل ﴿حذر الموت﴾ مفعول له . روى أن أهل داوردان قرية قبل واسط وقع فيهم الطاعون فخرجوا منها هاربين فأماتهم الله ثم أحياهم ليعتبروا ويعلموا أن لامفر من حكم الله عز سلطانه وقضاؤه وقيل مر عليهم حزقيل بعد زمان طويل وقد عريت عظامهم وتفرقت أوصالهم فلوى شدقيه وأصابعه تعجبا مما رأى من أمرهم فأوحى اليه ناد فيهم أن قوموا باذن الله فنادى فاذا هم قيام يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لااله الا أنت وقيل هم قوم من بنى اسرائيل دعاهم ملكهم الى الجهاد فهربوا حذرا من الموت فأماتهم الله تعالى ثمانية أيام ثم أحياهم وقوله عز وجل ﴿فقال لهم الله موتوا﴾ اما عبارة عن تعلق ارادته تعالى بموتهم دفعة واما تمثيل لاماتته تعالى اياهم ميتة نفس واحدة فى أقرب وقت وأدناه وأسرع زمان وأوحاه بأمر آمر مطاع لمأمور مطيع كما فى قوله تعالى انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون ﴿ثم أحياهم﴾ عطف اما على مقدر يستدعيه المقام أى فماتوا ثم أحياهم وانما حذف للدلالة على الاستغناء عن ذكره لاستحالة تخلف مراده تعالى عن ارادته واما على قال لما أنه عبارة عن الاماتة وفيه تشجيع للمسلمين على الجهاد والتعرض لأسباب الشهادة وأن الموت حيث لم يكن منه بد ولم ينفع منه المفر فأولى أن يكون فى سبيل الله تعالى ﴿ان الله لذو فضل﴾ عظيم ﴿على الناس﴾ قاطبة أما أولئك فقد أحياهم ليعتبروا بما جرى عليهم فيفوزوا بالسعادة العظمى وأما الذين سمعوا قصتهم فقد هداهم الى مسلك الاعتبار والاستبصار ﴿ولكن أكثر الناس لايشكرون﴾ أى لايشكرون فضله كما ينبغى ويجوز أن يراد بالشكر الاعتبار والاستبصار واظهار الناس فى مقام الاضمار لمزيد التشنيع ﴿وقاتلوا فى سبيل الله﴾ عطف على مقدر يعينه ماقبله كأنه قيل فاشكروا فضله بالاعتبار بما قص عليكم وقاتلوا فى سبيله لما علمتم أن الفرار لاينجى من الحمام وأن المقدر لامرد له فان كان قد حان الأجل فموت فى سبيل الله عز وجل والا فنصر عزيز وثواب ﴿واعلموا أن الله سميع﴾ يسمع مقالة السابقين والمتخلفين ﴿عليم﴾ بما يضمرونه فى أنفسهم وهو من وراء الجزاء خيرا وشرا فسارعوا الى الامتثال واحذروا المخالفة والمساهلة ﴿من ذا الذى يقرض الله﴾ من استفهامية مرفوعة المحل بالابتداء وذا خبره والموصول صفة له أو بدل منه واقراض الله تعالى مثل لتقديم العمل العاجل طلباً للثواب الآجل والمراد ههنا اما الجهاد الذى هو عبارة عن بذل النفس والمال فى سبيل الله عز وجل ابتغاء لمرضاته واما مطلق العمل الصالح المنتظم له انتظاما أوليا ﴿قرضا حسنا﴾ أى اقراضا مقرونا بالاخلاص وطيب النفس أو مقرضا حلالا طيباً ﴿فيضاعفه له﴾ بالنصب على جواب الاستفهام حملا على المعنى فانه فى معنى أيقرضه وقرئ بالرفع أى يضاعف أجره وجزاءه جعل ذلك مضاعفة له بناء على مابينهما من المناسبة بالسببية والمسببية ظاهرا وصيغة المفاعلة للمبالغة وقرئ فيضعفه بالرفع وبالنصب ﴿أضعافا﴾ جمع ضعف ونصبه على أنه حال من الضمير المنصوب أو مفعول بأن يضمن المضاعفة معنى التصيير أو مصدر مؤكد على أن الضعف اسم للمصدر والجمع للتنوين ﴿كثيرة﴾ لايعلم قدرها الا الله تعالى وقيل الواحد بسبعمائة ﴿والله يقبض ويبسط﴾ أى يقتر على بعض ويوسع على بعض أو يقتر تارة ويوسع أخرى حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم كى لايبدل أحوالكم ولعل تأخير البسط عن القبض فى الذكر للايماء الى أنه يعقبه فى الوجود تسلية للفقراء وقرئ يبصط بالصاد لمجاورة الطاء ﴿واليه ترجعون﴾ فيجازيكم على ماقدمتم من الأعمال خيرا وشرا ﴿ألم تر﴾ تقرير وتعجيب كما سبق قطع عنه للايذان باستقلاله فى التعجب مع أن له مزيد ارتباط بما وسط بينهما من الأمر بالقتال ﴿الى الملأ من بنى اسرائيل﴾ الملأ من القوم وجوههم وأشرافهم وهو اسم للجماعة لاواحد له من لفظه كالرهط والقوم سموا بذلك لما أنهم يملؤن العيون مهابة والمجالس بهاء أو لأنهم

مليئون بما يبتغى منهم ومن تبعيضية ومن فى قوله تعالى ﴿من بعد موسى﴾ ابتدائية وعاملها مقدر وقع حالا من الملأ أى كائنين بعض بنى اسرائيل من بعد وفاة موسى ولا ضير فى اتحاد الحرفين لفظا عند اختلافهما معنى ﴿اذ قالوا﴾ منصوب بمضمر يستدعيه المقام أى ألم تر الى قصة الملأ أو حديثهم حين قالوا ﴿لنبى لهم﴾ هو يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف عليهما السلام وقيل شمعون بن صعبة بن علقمة من ولد لاوى بن يعقوب عليهما السلام وقيل اشمويل بن بال بن علقمة وهو بالعبرانية اسمعيل. قال مقاتل هو من نسل هرون عليه السلام وقال مجاهد اشمويل بن هلقايا ﴿ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله﴾ أى انهض للقتال معنا أميرا نصدر فى تدبير أمر الحرب عن رأيه وقرئ نقاتل بالرفع على أنه حال مقدرة أى ابعثه لنا مقدرين القتال أو استئناف مبنى على السؤال وقرئ يقاتل بالياء مجزوما ومرفوعا على الجواب للامر والوصف لملكا ﴿قال﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق اليه الذهن كأنه قيل فماذا قال لهم النبى حينئذ فقيل قال ﴿هل عسيتم ان كتب عليكم القتال أن لاتقاتلوا﴾ فصل بين عسى وخبره بالشرط للاعتناء به أى هل قاربتم أن لاتقاتلوا كما أتوقعه منكم والمراد تقرير أن المتوقع كائن وانما لم يذكر فى معرض الشرط ما التمسوه بأن قيل هل عسيتم أن بعث لكم ملكا الخ مع أنه أظهر تعلقا بكلامهم بل ذكر كتابة القتال عليهم للمبالغة فى بيان تخلفهم عنه فانهم اذا لم يقاتلوا عند فرضية القتال عليهم بايجاب الله تعالى فلأن لايقاتلوا عند عدم فرضيته أولى ولأن ايراد ماذكروه ربما يوهم أن سبب تخلفهم عن القتال هو المبعوث لا نفس القتال وقرئ عسيتم بكسر السين وهى ضعيفة ﴿قالوا﴾ استئناف كما سبق ﴿وما لنا أن لانقاتل﴾ أى أى سبب لنا فى أن لانقاتل ﴿فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ أى والحال أنه قد عرض لنا مايوجب القتال ايجابا قويا من الاخراج عن الديار والاوطان والاغتراب من الأهل والأولاد وافراد الابناء بالذكر لمزيد تقوية أسباب القتال وذلك أن جالوت رأس العمالقة وملكهم وهو جبار من أولاد عمليق بن عاد كان هو ومن معه من العمالقة يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين وظهروا على بنى اسرائيل وأخذوا ديارهم وسبوا أولادهم وأسروا من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين نفسا وضربوا عليهم الجزية وأخذوا توراتهم ﴿فلما كتب عليهم القتال﴾ بعد سؤال النبى عليه السلام ذلك وبعث الملك ﴿تولوا﴾ أى أعرضوا وتخلفوا لكن لافى ابتداء الامر بل بعد مشاهدة كثرة العدو وشوكته كما سيجئ تفصيله وانما ذكر ههنا مآل أمرهم اجمالا اظهارا لما بين قولهم وفعلهم من التنافى والتباين ﴿الا قليلا منهم﴾ وهم الذين اكتفوا بالغرفة من النهر وجاوزوه وهم ثلثمائة وثلاثة عشر بعدد أهل بدر ﴿والله عليم بالظالمين﴾ وعيد لهم على ظلمهم بالتولى عن القتال وترك الجهاد وتنافى أقوالهم وأفعالهم والجملة اعتراض تذييلى ﴿وقال لهم نبيهم﴾ شروع فى تفصيل ماجرى بينه عليه السلام وبينهم من الاقوال والافعال اثر الاشارة الاجمالية الى مصير حالهم أى قال لهم بعد ماأوحى اليه ماأوحى ﴿ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا﴾ طالوت علم عبرى كداود وجعله فعلوتا من الطول يأباه منع صرفه وملكا حال منه روى أنه عليه السلام لما دعا ربه أن يجعل لهم ملكا أتى بعصا يقاس بها من يملك عليهم فلم يساوها الا طالوت ﴿قالوا﴾ استئناف كما مر ﴿أنى يكون له الملك علينا﴾ أى من أين يكون أو كيف يكون ذلك ﴿ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾ الواو الاولى حالية والثانية عاطفة جامعة للجملتين فى الحكم أى كيف يتملك علينا والحال أنه لايستحق التملك لوجود من هو أحق منه ولعدم مايتوقف عليه الملك من المال وسبب هذا الاستبعاد أن النبوة كانت مخصوصة بسبط معين من أسباط بنى اسرائيل وهو سبط لاوى بن يعقوب عليه السلام وسبط المملكة بسبط يهوذا ومنه داود وسليمان عليهما السلام ولم يكن طالوت من أحد هذين السبطين بل من ولد بنيامين قيل كان راعيا وقيل دباغا وقيل سقاء

﴿قال ان الله اصطفاه عليكم﴾ لما استبعدوا تملكه بسقوط نسبه وبفقره رد عليهم ذلك أولا بأن ملاك الامر هو اصطفاء الله تعالى وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم وثانيا بأن العمدة فيه وفور العلم ليتمكن به من معرفة أمور السياسة وجسامة البدن ليعظم خطره فى القلوب ويقدر على مقاومة الاعداء ومكابدة الحروب وقد خصه الله تعالى منهما بحظ وافر وذلك قوله عز وجل ﴿وزاده بسطة فى العلم﴾ أى العلم المتعلق بالملك أو به وبالديانات أيضا وقيل قد أوحى اليه ونبئ ﴿والجسم﴾ قيل بطول القامة فانه كان أطول من غيره برأسه ومنكبيه حتى أن الرجل القائم كان يمد يده فينال رأسه وقيل بالجمال وقيل بالقوة ﴿والله يؤتى ملكه من يشاء﴾ لما أنه مالك الملك والملكوت فعال لما يريد فله أن يؤتيه من يشاء من عباده ﴿والله واسع﴾ يوسع على الفقير ويغنيه ﴿عليم﴾ بمن يليق بالملك ممن لايليق به واظهار الاسم الجليل لتربية المهابة. ﴿وقال لهم نبيهم﴾ توسيطه فيما بين قوليه المحكيين عنه عليه السلام للاشعار بعدم اتصال أحدهما بالآخر وتخلل كلام من جهة المخاطبين متفرع على السابق مستتبع للاحق كأنهم طلبوا منه عليه السلام آية تدل على أنه تعالى اصطفى طالوت وملكه عليهم. روى أنهم قالوا ما آية ملكه فقال ﴿ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت﴾ أى الصندوق وهو فعلوت من التوب الذى هو الرجوع لما أنه لايزال يرجع اليه مايخرج منه وتاؤه مزيدة لغير التأنيث كملكوت ورهبوت والمشهور أن يوقف على تائه من غير أن تقلب هاء ومنهم من يقلبها اياها والمراد به صندوق التوراة وكان قد رفعه الله عز وجل بعد وفاة موسى عليه السلام سخطا على بنى اسرائيل لما عصوا واعتدوا فلما طلب القوم من نبيهم آية تدل على ملك طالوت قال لهم ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت من السماء والملائكة يحفظونه فأتاهم كما وصف والقوم ينظرون اليه حتى نزل عند طالوت وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما وقال أرباب الأخبار ان الله تعالى أنزل على آدم تابوتا فيه تماثيل الأنبياء عليهم السلام من أولاده وكان من عود الشمشاد نحوا من ثلاثة أذرع فى ذراعين فكان عند آدم عليه السلام الى أن توفى فتوارثه أولاده واحدا بعد واحد الى أن وصل الى يعقوب عليه السلام ثم بقى فى أيدى بنى اسرائيل الى أن وصل الى موسى عليه السلام فكان عليه الصلاة والسلام يضع فيه التوراة وكان اذا قاتل قدمه فكانت تسكن اليه نفوس بنى اسرائيل وكان عنده الى أن توفى ثم تداولته أيدى بنى اسرائيل وكانوا اذا اختلفوا فى شئ تحاكموا اليه فيكلمهم ويحكم بينهم وكانوا اذا حضروا القتال يقدمونه بين أيديهم ويستفتحون به على عدوهم وكانت الملائكة تحمله فوق العسكر ثم يقاتلون العدو فاذا سمعوا من التابوت صيحة استيقنوا النصر فلما عصوا وأفسدوا سلط الله عليهم العمالقة فغلبوهم على التابوت وسلبوه وجعلوه فى موضع البول والغائط فلما أراد الله تعالى أن يملك طالوت سلط عليهم البلاء حتى أن كل من بال عنده ابتلى بالبواسير وهلكت من بلادهم خمس مدائن فعلم الكفار أن ذلك بسبب استهانتهم بالتابوت فأخرجوه وجعلوه على ثورين فأقبل الثوران يسيران وقد وكل الله تعالى بهما أربعة من الملائكة يسوقونهما حتى أتوا منزل طالوت فلما سألوا نبيهم البينة على ملك طالوت قال لهم النبى ان آية ملكه أنكم تجدون التابوت فى داره فلما وجدوه عنده أيقنوا بملكه ﴿فيه سكينة من ربكم﴾ أى فى اتيانه سكون لكم وطمأنينة كائنة من ربكم أو فى التابوت ماتسكنون اليه وهو التوراة المودعة فيه بناء على مامر من أن موسى عليه السلام اذا قاتل قدمه فتسكن اليه نفوس بنى اسرائيل وقيل السكينة صورة كانت فيه من زبرجد أو ياقوت لها رأس وذنب كرأس الهر وذنبه وجناحان فتئن فيزف التابوت نحو العدو وهم يمضون معه فاذا استقر ثبتوا وسكنوا ونزل النصر وعن على رضى الله عنه كان لها وجه كوجه الانسان وفيها ريح هفافة ﴿وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون﴾ هى رضاض الألواح وعصا موسى وثيابه وشئ من التوراة وكان قد رفعه الله تعالى بعد وفاة موسى عليه السلام وآلهما أبناؤهما أو أنفسهما والآل مقحم لتفخيم شأنهما أو أنبياء بنى اسرائيل

﴿تحمله الملائكة﴾ حال من التابوت أى ان آية ملكه اتيانه حال كونه محمولا للملائكة وقد مر كيفية ذلك ولعل حمل الملائكة على الرواية الأخيرة عبارة عن سوقهم للثورين الحاملين له ﴿ان فى ذلك﴾ اشارة الى ماذكر من شأن التابوت فهو من تمام كلام النبي عليه السلام لقومه أو الى نقل القصة وحكايتها فهو ابتداء كلام من جهة الله تعالى جىء به قبل تمام القصة اظهاراً لكمال العناية به وافراد حرف الخطاب مع تعدد المخاطبين على التقديرين بتأويل الفريق أو غيره كما سلف ﴿لآية﴾ عظيمة ﴿لكم﴾ دالة على ملك طالوت أو على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حيث أخبر بهذه التفاصيل على ماهى عليه من غير سماع من البشر ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ أى مصدقين بتمليكه عليكم أو بشىء من الآيات وان شرطية والجواب محذوف ثقة بما قبله وقيل هى بمعنى اذ ﴿فلما فصل طالوت بالجنود﴾ أى انفصل بهم عن بيت المقدس والأصل فصل نفسه ولما اتحد فاعله ومفعوله شاع استعماله محذوف المفعول حتى نزل منزلة القاصر كانفصل وقيل فصل فصولا وقد جوز كونه أصلا برأسه ممتازا من المتعدى بمصدره كوقف وقوفا ووقفه وقفاً وكصد صدوداً وصده صداً ورجع رجوعا ورجعه رجعا والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من طالوت أى ملتبسا بهم ومصاحبا لهم روى أنه قال لقومه لايخرج معى رجل بنى بناء لم يفرغ منه ولا تاجر مشتغل بالتجارة ولا متزوج بامرأة لم يبن عليها ولا أبتغى الا الشاب النشيط الفارغ فاجتمع اليه ممن اختاره ثمانون ألفا وكان الوقت قيظا وسلكوا مفازة فسألوا أن يجرى الله تعالى لهم نهراً فبعد ماظهر له ماتعلقت به مشيئته تعالى من جهة النبي عليه السلام أو بطريق الوحى عند من يقول بنبوته ﴿قال ان الله مبتليكم بنهر﴾ بفتح الهاء وقرىء بسكونها ﴿فمن شرب منه﴾ أى ابتدأ شربه من النهر بأن كرع لانه الشرب منه حقيقة ﴿فليس منى﴾ أى من جملتى وأشياعى المؤمنين وقيل ليس بمتصل بى ومتحد معى من قولهم فلان منى كأنه بعضه لكمال اختلاطهما ﴿ومن لم يطعمه﴾ أى لم يذقه من طعم الشىء اذا ذاقه مأكولا كان أو مشروبا أو غيرهما قال

وان شئت حرمت النساء سواكم ... وان شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

أى نوما ﴿فانه منى الا من اغترف غرفة بيده﴾ استثناء من قوله تعالى فمن شرب منه فليس منى وانما أخر عن الجملة الثانية لابراز كمال العناية بها ومعناه الرخصة فى اغتراف الغرفة باليد دون الكروع والغرفة مايغرف وقرىء بفتح الغين على أنها مصدر والباء متعلقة باغترف أو بمحذوف وقع صفة لغرفة أى غرفة كائنة بيده. يروى أن الغرفة كانت تكفى الرجل لشربه وأدواته ودوابه وأما الذين شربوا منه فقد اسودت شفاههم وغلبهم العطش ﴿فشربوا منه﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام أى فابتلوا به فشربوا منه ﴿الا قليلا منهم﴾ وهم المشار اليهم فيما سلف بالاستثناء من التولى وقرىء الا قليل منهم ميلا الى جانب المعنى وضربا عن عدوة اللفظ جانبا فان قوله تعالى فشربوا منه فى قوة أن يقال فلم يطيعوه فحق أن يرد المستثنى مرفوعا كما فى قول الفرزدق

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع ... من المال الا مسحت أو مجلف

فان قوله لم يدع فى حكم لم يبق ﴿فلما جاوزه﴾ أى النهر ﴿هو﴾ أى طالوت ﴿والذين آمنوا معه﴾ عطف على الضمير المتصل المؤكد بالمنفصل والظرف متعلق بجاوز لا بآمنوا وقيل الواو حالية والظرف متعلق بمحذوف وقع خبرا من الموصول كأنه قيل فلما جاوزه والحال أن الذين آمنوا كائنون معه وهم أولئك القليل وفيه اشارة الى أن من عداهم بمعزل من الايمان ﴿قالوا﴾ أى بعض من معه من المؤمنين لبعض ﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾ أى بمحاربتهم ومقاومتهم فضلا عن أن يكون لنا غلبة عليهم لما شاهدوا منهم من الكثرة والشدة. قيل كانوا مائة الف مقاتل شاكى السلاح ﴿قال﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال مخاطبهم فقيل قال ﴿الذين يظنون

أنهم ملاقوا الله﴾ قيل أى الخلص منهم الذين يتيقنون لقاء الله تعالى بالبعث ويتوقعون ثوابه وافرادهم بذلك الوصف لاينافى ايمان الباقين فان درجات المؤمنين فى التيقن والتوقع متفاوتة أو الذين يعلمون أنهم يستشهدون عما قريب فيلقون الله تعالى وقيل الموصول عبارة عن المؤمنين كافة والضمير فى قالوا للمتخذلين عنهم كأنهم قالوه اعتذارا عن التخلف والنهر بينهما ﴿كم من فئة﴾ أى فرقة وجماعة من الناس من فأوت رأسه اذا شققتها أو من فاء اليه اذا رجع فوزنها على الاول فعة وعلى الثانى فلة ﴿قليلة غلبت فئة كثيرة﴾ وكم خبرية كانت أو استفهامية مفيدة للتكثير وهى فى حيز الرفع بالابتداء خبرها غلبت أى كثير من الفئات القليلة غلبت الفئات الكثيرة ﴿باذن الله﴾ أى بحكمه وتيسيره فان دوران كافة الامور على مشيئته تعالى فلا يذل من نصره وان قل عدده ولا يعز من خذله وان كثر أسبابه وعدده وقد روعى فى الجواب نكتة بديعة حيث لم يقل أطاقت بفئة كثيرة حسبما وقع فى كلام أصحابهم مبالغة فى رد مقالتهم وتسكين قلوبهم وهذا كما ترى جواب ناشىء من كمال ثقتهم بنصر الله تعالى وتوفيقه ولا دخل فى ذلك لظن لقاء الله تعالى بالبعث لاسيما بالاستشهاد فان العلم به ربما يورث اليأس من الغلبة ولا لتوقع ثوابه تعالى ولا ريب فى أن ماذكر فى حيز الصلة ينبغى أن يكون مداراً للحكم الوارد على الموصول فلا أقل من أن يكون وصفا ملائما له فلعل المراد بلقائه تعالى لقاء نصره وتأييده عبر عنه بذلك مبالغة كما عبر عن مقارنة نصره تعالى بمقارنته سبحانه حيث قيل ﴿والله مع الصابرين﴾ فان المراد به معية نصره وتوفيقه حتما وحملها على المعية بالاثابة كما فعل يأباه انهم انما قالوه تتميما لجوابهم وتأييدا له بطريق الاعتراض التذييلى تشجيعا لأصحابهم وتثبيتا لهم على الصبر المؤدى الى الغلبة ولا تعلق له بما ذكر من المعية بالاثابة قطعا وكذا الحال اذا جعل ذلك ابتداء كلام من جهة الله تعالى جىء به تقريرا لكلامهم والمعنى قال الذين يظنون أو يعلمون من جهة النبي أو من جهة التابوت والسكينة أنهم ملاقو نصر الله العزيز كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله تعالى فنحن أيضا نغلب جالوت وجنوده وايراد خبر أن اسما مع أن اللقاء مستقبل للدلالة على تقرره وتحققه ﴿ولما برزوا﴾ أى ظهر طالوت ومن معه من المؤمنين وصاروا الى براز من الارض فى موطن الحرب ﴿لجالوت وجنوده﴾ وشاهدوا ماهم عليه من العدد والعدد وأيقنوا أنهم غير مطيقين بهم عادة ﴿قالوا﴾ أى جميعا عند تقوى قلوب الفريق الاول منهم بقول الفريق الثانى متضرعين الى الله تعالى مستعينين به ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً﴾ على مقاساة شدائد الحرب واقتحام موارده الصعبة الضيقة وفى التوسل بوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال وايثار الافراغ المعرب عن الكثرة وتنكير الصبر المفصح عن التفخيم من الجزالة مالايخفى ﴿وثبت أقدامنا﴾ فى مداحض القتال ومزال النزال وثبات القدم عبارة عن كمال القوة والرسوخ عند المقارعة وعدم التزلزل وقت المقاومة لامجرد التقرر فى حيز واحد ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ بقهرهم وهزمهم ووضع الكافرين فى موضع الضمير العائد الى جالوت وجنوده للاشعار بعلة النصر عليهم ولقد راعوا فى الدعاء ترتيبا بديعا حيث قدموا سؤال افراغ الصبر الذى هو ملاك الأمر ثم سؤال تثبيت القدم المتفرع عليه ثم سؤال النصر الذى هو الغاية القصوى ﴿فهزموهم﴾ أى كسروهم بلا مكث ﴿باذن الله﴾ بنصره وتأييده اجابة لدعائهم وايثار هذه الطريقة على طريقة قوله عز وجل فآتاهم الله ثواب الدنيا الخ للمحافظة على مضمون قولهم غلبت فئة كثيرة باذن الله ﴿وقتل داود جالوت﴾ كان ايشى أبو داود فى عسكر طالوت معه ستة من بنيه وكان داود عليه السلام سابعهم وكان صغيرا يرعى الغنم فأوحى الله تعالى الى نبيهم أنه الذى يقتل جالوت فطلبه من أبيه فجاء وقد مر فى طريقه بثلاثة أحجار قال له كل منها احملنا فانك بنا تقتل جالوت فحملها فى مخلاته قيل لما أبطأ على أبيه خبر اخوته فى المصاف أرسل داود اليهم ليأتيه بخبرهم فأتاهم وهم فى القراع وقد برز جالوت بنفسه الى البراز ولا يكاد يبارزه أحد وكان ظله ميلا فقال داود لاخوته أمافيكم من يخرج

الى هـذا الاقلف فزجروه فنحاناحية أخرى ليس فيها أخوته وقد مر به طالوت وهو يحرض الناس على القتال فقال له داود ماتصنعون بمن يقتل هذا الاقلف قال طالوت أنكحه بنتى وأعطيه شطر مملكتى فبرز له داود فرماه بمـا معه من الاحجار بالمقلاع فأصابه فى صدره فنفذ الاحجار منه وقتلت بعده ناسا كثيرا وقيل انمـا كلمته الاحجار عند بروزه لجالوت فى المعركة فأنجزله طالوت ماوعده وقيل انه حسده وأخرجه من مملكته ثم ندم على ماصنعه فذهب يطلبه الى أن قتـل وملك داود عليه السلام وأعطى النبوة وذلك قوله تعالى ﴿وآتاه الله الملك﴾ أى ملك بنى اسرائيل فى مشارق الارض المقدسة ومغاربها ﴿والحكمة﴾ أى النبوة ولم يجتمع فى بنى اسرائيل الملك والنبوة قبله الاله بل كان الملك فى سبط والنبوة فى سبط آخر ومااجتمعوا قبله على ملك قط ﴿وعلمه مما يشاء﴾ أى ممـا يشاء الله تعالى تعليمه اياه لاممـا يشاء داود عليه السـلام كما قيل لأن معظم ماعلمه تعالى اياه ممـا لايكاد يخطر ببال أحد و لايقع فى أمنية بشر ليتمكن من طلبه ومشيئته كالسرد بالانة الحديد ومنطق الطير والدواب ونحو ذلك من الأمور الخفية ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم﴾ الذين يباشرون الشر والفساد ﴿ببعض﴾ آخر منهم يردهم عما هم عليـه بمـا قدر الله تعالى من القتل كما فى القصة المحكية أو غيره وقرئ دفاع الله على أن صيغة المغالبة للمبالغة ﴿لفسدت الارض﴾ و بطلت منافعها وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر مايعمر الارض و يصلحها وقيل لو لا أن الله ينصر المسلمين على الكافرين لفسدت الارض بعيثهم وقتلهم المسلمين أو لو لم يدفعهم بالمسلمين لعم الكفر ونزلت السخطة فاستؤصل أهل الارض قاطبة ﴿ولكن الله ذو فضل﴾ عظيم لايقادر قدره ﴿على العالمين﴾ كافة وهـذا اشارة الى قياس استثنائى مؤلف من وضع نقيض المقدم منتج لنقيض التالى خلا أنه قد وضع موضعه مايستتبعه و يستوجبه أعنى كونه تعالى ذا فضل على العالمين ايذانا بأنه تعالى متفضل فى ذلك الدفع من غير أن يجب عليه ذلك وأن فضله تعالى غير منحصر فيه بل هو فرد من أفراد فضله العظيم كأنه قيل ولـكنه تعالى يدفع فساد بعضهم ببعض فلا تفسد الارض وتنتظم به مصالح العالم وتنصلح أحوال الأمم ﴿تلك﴾ اشارة الى ماسلف من حديث الألوف وخبر طالوت على التفصيل المرقوم ومافيـه من معنى البعد للايذان بعلو شأن المشار اليه ﴿آيات الله﴾ المنزلة من عنده تعالى والجملة مستأنفة وقوله تعالى ﴿نتلوها عليك﴾ أى بواسطة جبريل عليه السلام اما حال من الآيات والعامل معنى الاشارة واما جملة مستقلة لامحل لهـا من الاعراب ﴿بالحق﴾ فى حيز النصب على أنه حال من مفعول نتلوها أى ملتبسة باليقين الذى لايرتاب فيه أحد من أهل الكتاب وأرباب التواريخ لمـا يجدونها موافقة لمـا فى كتبهم أو من فاعله أى نتلوها عليك ملتبسين بالحق والصواب أو من الضمير المجرور أى ملتبسا بالحق والصدق ﴿وانك لمن المرسلين﴾ أى من جملة الذين أرسلوا الى الامم لتبليغ رسالاتنا واجراء أوامرنا وأحكامنا عليهم فان هذه المعاملة لاتجرى بيننا و بين غيرهم فهى شهادة منه سبحانه برسالته عليه الصلاة والسلام اثر بيان مايستوجبها والتأكيد من مقتضيات مقام الجاحدين بها ﴿تلك الرسل﴾ استئناف فيه رمز الى أنه عليه الصلاة والسلام من أفاضل الرسل العظام عليهم الصلاة والسلام اثر بيان كونه من جملتهم والاشارة الى الجماعة الذين من جملتهم النبى صلى الله عليه وسلم فاللام فى المـآل للاستغراق ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو طبقتهم و بعد منزلتهم وقيل الى الذين ذكرت قصصهم فى السورة وقيل الى الذين ثبت علمه صـلى الله عليه وسلم بهم ﴿فضلنا بعضهم على بعض﴾ فى مراتب الكمال بأن خصصناه حسبما تقتضيه مشيئتنا بمـآثر جليلة خلا عنها غيره ﴿منهم من كلم الله﴾ تفصيل للتفضيل المذكور اجمالا أى فضله بأن كلمه تعالى بغير سفير وهو موسى عليه الصلاة والسلام حيث كلمه تعالى ليلة الحيرة و فى الطور وقرئ كلم الله بالنصب وقرئ كالم الله من المكالمة فانه كلم الله تعالى كما أنه تعالى كلمه و يؤيده كليم الله بمعنى مكالمه وايراد

الاسم الجليل بطريق الالتفات لتربية المهابة والرمز الى مابين التكليم والرفع و بين ماسبق من مطلق التفضيل وماالحق من ايتاء البينات والتأييد بروح القدس من التفاوت ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ أى ومنهم من رفعه على غيره من الرسل المتفاوتين فى معارج الفضل بدرجات قاصية ومراتب نائية وتغيير الاسلوب لتربية مابينهم من اختلاف الحال فى درجات الشرف والظاهر أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ينبئ عنه الاخبار بكونه عليه الصلاة والسلام منهم فان ذلك فى قوة بعضهم فانه قد خص بالدعوة العامة والحجج الجمة والمعجزات المستمرة والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهور والفضائل العلمية والعملية الفائتة للحصر والابهام لتفخيم شأنه وللاشعار بأنه العلم الفرد الغنى عن التعيين وقيل انه ابراهيم عليه الصلاة والسـلام حيث خصه تعالى بكرامة الخلة وقيل ادريس عليه السـلام حيث رفعه مكانا عليا وقيـل أولو العزم من الرسل عليهم الصلاة والسـلام ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة من احياء الموتى وابراء الأكمه والأبرص والاخبار بالمغيبات أو الانجيل ﴿وأيدناه﴾ أى قويناه ﴿بروح القدس﴾ بضم الدال وقرئ بسكونهـا أى بالروح المقدسة كقولك رجل صدق وهى روح عيسى وانمـا وصفت بالقدس للكرامة أو لأنه عليه السلام لم تضمه الاصلاب والارحام الطوامث وقيل بجبريل وقيـل بالانجيل كما مر وافراده عليه السلام بمـا ذكر لرد مابين أهل الكتابين فى شأنه عليه السلام من التفريط والافراط والآية ناطقة بأن الانبياء عليهم السلام متفاوتة الاقدار فيجوز تفضيل بعضهم على بعض ولكن بقاطع ﴿ولوشاء الله مااقتتل الذين من بعدهم﴾ أى جاؤا من بعد الرسل من الأمم المختلفة أى لوشاء الله عدم اقتتالهم مااقتتلوا بأن جعلهم متفقين على اتباع الرسل المتفقة على كلمة الحق فمفعول المشيئة محذوف لكونه مضمون الجزاء على القاعدة المعروفة وقيل تقديره ولو شاء هدى الناس جميعا مااقتتل الخ وليس بذاك ﴿من بعد ماجاءتهم﴾ من جهة أولئك الرسل ﴿البينات﴾ المعجزات الواضحة والآيات الظاهرة الدالة على حقية الحق الموجبة لاتباعهم الزاجرة عن الاعراض عن سننهم المؤدى الى الاقتتال فمن متعلقة باقتتل ﴿ولكن اختلفوا﴾ استدراك من الشرطية أشير به الى قياس استثنائى مؤلف من وضع نقيض مقدمها منتج لنقيض تاليها الا أنه قد وضع فيه الاختلاف موضع نقيض المقدم المترتب عليه للايذان بأن الاقتتال ناشئ من قبلهم لا من جهته تعالى ابتداء كأنه قيل ولكن لم يشأ عدم اقتتالهم لأنهم اختلفوا اختلافا فاحشا ﴿فمنهم من آمن﴾ بمـا جاءت به أولئك الرسل من البينات وعملوا به ﴿ومنهم من كفر﴾ بذلك كفرا لا ارعواء له عنه فاقتضت الحكمة عدم مشيئته تعالى لعدم اقتتالهم فاقتتلوا بموجب اقتضاء أحوالهم ﴿ولوشاء الله﴾ عدم اقتتالهم بعد هـذه المرتبة أيضا من الاختلاف والشقاق المستتبعين للاقتتال بحسب العادة ﴿مااقتتلوا﴾ ومانبض منهم عرق التطاول والتعادى لمـا أن الكل تحت ملكوته تعالى فالتكرير ليس للتأكيد كما ظن بل للتنبيه على أن اختلافهم ذلك ليس موجب لعدم مشيئته تعالى لعدم اقتتالهم كما يفهم ذلك من وضعه فى الاستدراك موضعه بل هو سبحانه مختار فى ذلك حتى لوشاء بعد ذلك عدم اقتتالهم مااقتتلوا كما يفصح عنه الاستدراك بقوله عز وجل ﴿ولكن الله يفعل مايريد﴾ أى من الامور الوجودية والعدمية التى من جملتها عدم مشيئته عدم اقتتالهم فان الترك أيضا من جملة الأفعال أى يفعل مايريد حسبما يريد من غير أن يوجبه عليه موجب أو يمنعه منه مانع وفيه دليل بين على أن الحوادث تابعة لمشيئته سبحانه خيرا كان أو شرا ايمـانا كان أو كفرا ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا﴾ فى سبيل الله ﴿مما رزقناكم﴾ أى شيأ مما رزقناكموه على أن ما موصولة حذف عائدها والتعرض لوصوله منه تعالى للحث على الانفاق كما فى قوله تعالى وأنفقوا ممـا جعلكم مستخلفين فيه والمراد به الانفاق الواجب بدلالة مابعده من الوعيد ﴿من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾ كلمة من متعلقة بمـا تعلقت به أختها و لاضير فيه لاختلاف معنييهما فان الاولى تبعيضية وهذه لابتداء الغاية أى أنفقوا

بعض مارزقناكم من قبل أن يأتى يوم لاتقدرون على تلافى ما فرطتم فيه اذلاتبايع فيه حتى تتبايعوا ماتنفقونه أوتفتدون به من العذاب و لاخلة حتى يسامحكم به أخلاؤكم أو يعينوكم عليه و لاشفاعة الالمن أذن له الرحمن و رضى له قولا حتى تتوسلوا بشفعاء يشفعون لكم فى حط مافى ذمتكم وانمـا رفعت الثلاثة مع قصد التعميم لأنها فى التقدير جواب هل فيه بيع أوخلة أوشفاعة وقرىء بفتح الكل ﴿والكافرون﴾ أى والتاركون للزكاة وايثاره عليه للتغليظ والتهديد كما فى قوله تعالى ومن كفر مكان ومن لم يحج وللايذان بأن ترك الزكاة من صفات الكفار قال تعالى وويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة ﴿هم الظالمون﴾ أى الذين ظلموا أنفسهم بتعريضها للعقاب ووضعوا المال فى غير موضعه وصرفوه الى غير وجهه ﴿الله لااله الا هو﴾ مبتدأوخبر أى هو المستحق للمعبودية لاغير وفى اضمار خبر لامثل فى الوجود أو يصح أن يوجد خلاف للنحاة معروف ﴿الحى﴾ الباقى الذى لاسبيل عليه للموت والفناء وهو اما خبر ثان أوخبر مبتدا محذوف أو بدل من لااله الاهو أو بدل من الله أوصفـة له و يعضده القراءة بالنصب على المدح لاختصاصه بالنعت ﴿القيوم﴾ فيعول من قام بالأمر اذا حفظه أى دائم القيام بتدبير الخلق وحفظه وقيـل هو القائم بذاته المقيم لغيره ﴿لاتأخذه سنة ولانوم﴾ السنة مايتقدم النوم من الفتور قال عدى بن الرقاع العاملى

وسنان أقصده النعاس فرنقت   فى عينـه سنة وليس بنـائم

والنوم حالة تعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة بحيث تقف المشاعر الظاهرة عن الاحساس رأسا والمراد بيان انتفاء اعتراء شىء منهما له سبحانه لعدم كونهما من شأنه تعالى لالانهما قاصران بالنسبة الى القوة الالهية فانه بمعزل من مقام التنزيه فلا سبيل الى حمـل النظم الكريم على طريقة المبالغة والترقى بناء على أن القادر على دفع السنة قد لايقدر على دفع النوم القوى كما فى قولك فلان يقظ لاتغلبه سنة ولانوم وانمـا تأخير النوم للمحافظة على ترتيب الوجود الخارجى وتوسيط كلمة لاللتنصيص على شمول النفى لكل منهما كما فى قوله عز وجـل ولا ينفقون نفقة صغيرة و لا كبيرة الآية وأما التعبير عن عدم الاعتراء والعروض بعدم الأخذ فلمراعاة الواقع اذعروض السنة والنوم لمعروضهما انمـا يكون بطريق الأخذ والاستيلاء وقيل هو من باب التكميل والجملة تأكيد لمـا قبلها من كونه تعالى حيا قيوما فان من يعتريه أحدهما يكون مؤوف الحياة قاصرا فى الحفظ والتدبير وقيل استئناف مؤكد لمـا سبق وقيل حال مؤكدة من الضمير المستكن فى القيوم ﴿له مافى السموات ومافى الأرض﴾ تقرير لقيوميته تعالى واحتجاج به على تفرده فى الالوهية والمراد بمـا فيهما ماهو أعم من أجزائهما الداخلة فيهما ومن الأمور الخارجة عنهما المتمكنة فيهما من العقلاء وغيرهم ﴿من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه﴾ بيان لكبرياء شأنه وأنه لايدانيه أحد ليقدر على تغيير مايريده شفاعة وضراعة فضلا عن أن يدافعه عنادا أومناصبة ﴿يعلم مابين أيديهم وماخلفهم﴾ أى ماقبلهم ومابعدهم أو بالعكس لانك مستقبل المستقبل ومستدبر المـاضى أوأمور الدنيا أوأمور الآخرة أو بالعكس أومايحسونه وما يعقلونه أومايدركونه ومالا يدركونه والضمير لمـا فى السموات والأرض بتغليب مافيهما من العقلاء على غيرهم أو لمـا دل عليه من ذا الذى من الملائكة والانبياء عليهم الصـلاة والسـلام ﴿ولايحيطون بشىء من علمه﴾ أى من معلوماته ﴿الابمـا شاء﴾ أن يعلموه وعطفه على ماقبله لمـا أنهما جميعا دليل على تفرده تعالى بالعلم الذاتى التام الدال على وحدانيته ﴿وسع كرسيه السموات والارض﴾ الكرسى مايجلس عليه ولايفضل عن مقعد القاعد وكأنه منسوب الى الكرس الذى هو الملبد وليس ثمة كرسى و لاقاعد و لاقعود وانمـا هو تمثيل لعظمة شأنه عز وجل وسعة سلطانه واحاطة علمه بالاشياء قاطبـة على طريقة قوله عز قائلا وماقدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة

والسموات مطويات بيمينه وقيل كرسيه مجاز عن علمه أخذا من كرسى العالم وقيل عن ملكه أخذا من كرسى الملك فان الكرسى كلما كان أعظم تكون عظمة القاعد أكثر وأوفر فعبر عن شمول علمه أو عن بسطة ملكه وسلطانه بسعة كرسيه واحاطته بالاقطار العلوية والسفلية وقيل هو جسم بين يدى العرش محيط بالسموات السبع لقوله صـلى الله عليه وسلم ماالسموات السبع والارضون السبع مع الكرسى الا كحلقة فى فلاة وفضل العرش على الكرسى كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة ولعله الفلك الثامن وعن الحسن البصرى أنه العرش ﴿ولايؤده﴾ أى لايثقله ولايشق عليه ﴿حفظهما﴾ أى حفظ السموات والارض وانمـا لم يتعرض لذكر مافيهما لمـا أن حفظهما مستتبع لحفظه ﴿وهوالعلى﴾ المتعالى بذاته عن الاشباه والانداد ﴿العظيم﴾ الذى يستحقر بالنسبة اليه كل ماسواه ولمـا ترى من انطواء هذه الآية الكريمة على أمهات المسـائل الالهية المتعلقة بالذات العلية والصفات الجلية فانها ناطقة بأنه تعالى موجود متفرد بالالهية متصف بالحياة واجب الوجود لذاته موجد لغيره لمـا أن القيوم هو القائم بذاته المقيم لغيره منزه عن التحيز والحلول مبرأ عن التغير والفتور لامناسبة بينه و بين الاشباح و لايعتريه مايعترى النفوس والارواح مالك الملك والملكوت ومبدع الأصول والفروع ذو البطش الشديد لايشفع عنده الامن أذن له فيه العالم وحده بجميع الاشياء جليها وخفيها كليها وجزئيها واسع الملك والقدرة لكل مامن شأنه أن يملك ويقدر عليه لايشق عليه شاق ولا يشغله شأن عن شأن متعال عما تناله الاوهام عظيم لاتحدق به الافهام تفردت بفضائل رائقة وخواص فائقة خلت عنها أخواتها قال صلى الله عليه وسلم ان أعظم آية فى القرآن آية الكرسى من قرأها بعث الله تعالى ملكا يكتب من حسناته و يمحو من سيئاته الى الغد من تلك السـاعة وقال عليه الصلاة والسلام ماقرئت هذه الآية فى دار الاهجرتها الشياطين ثلاثين يوما ولايدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة ياعلى علمها ولدك وأهلك وجيرانك فمـا نزلت آية أعظم منها وقال عليه السـلام من قرأ آية الكرسى فى دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة الاالموت ولايواظب عليها الاصديق أو عابد ومن قرأها اذا أخذ مضجعه آمنه الله تعالى على نفسـه وجاره وجار جاره والابيات حوله وقال عليه الصلاة والسلام سيد البشر آدم وسيد العرب محمد ولافخر وسيد الفرس سلمان وسيد الروم صهيب وسيد الحبشة بلال وسيد الجبال الطور وسيد الأيام يوم الجمعة وسيد الكلام القرآن وسيد القرآن سورة البقرة وسيد البقرة آية الكرسى وتخصيص سيادته صلى الله عليه وسلم للعرب بالذكر فى أثناء تعداد السيادات الخاصة لايدل على نفى مادلت عليه الاخبار المستفيضة وانعقد عليه الاجماع من سيادته عليه السـلام لجميع أفراد البشر ﴿لااكراه فى الدين﴾ جملة مستأنفة جىء بها اثر بيان تفرده سبحانه وتعالى بالشئون الجليلة الموجبة للايمـان به وحده ايذانا بأن من حق العاقل أن لايحتاج الى التكليف والالزام بل يختار الدين الحق من غير تردد وتلعثم وقيل هو خبر فى معنى النهى أى لاتكرهوا فى الدين فقيل منسوخ بقوله تعالى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم وقيل خاص بأهل الكتاب حيث حصنوا أنفسهم بأداء الجزية وروى أنه كان لأنصارى من بنى سالم بن عوف ابنان قد تنصرا قبل مبعثه عليه السـلام ثم قدما المدينة فلزمهما أبوهما وقال والله لاأدعكما حتى تسلما فأبيا فاختصموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت فخلاهما ﴿قد تبين الرشد من الغى﴾ استئناف تعليلى صدر بكلمة التحقيق لزيادة تقرير مضمونه كما فى قوله عز وجل قد بلغت من لدنى عذرا أى اذقد تبين بمـا ذكر من نعوته تعالى التى يمتنع توهم اشتراك غيره فى شىء منها الايمـان الذى هو الرشد الموصل الى السعادة الابدية من الكفر الذى هو الغى المؤدى الى الشقاوة السرمدية ﴿فمن يكفر بالطاغوت﴾ هو بناء مبالغة من الطغيان كالملكوت والجبروت قلب مكان عينه و لامه فقيل هو فى الأصـل مصدر واليه ذهب الفارسى وقيل اسم جنس مفرد مذكر وانمـا الجمع والتأنيث لارادة الآلهة وهو رأى سيبويه وقيل هو جمع وهو

مذهب المبرد وقيل يستوى فيه المفرد والجمع والتذكير والتأنيث أى فمن يعمل اثر ماتميز الحق من الباطل بموجب الحجج الواضحة والآيات البينة ويكفر بالشيطان أو بالأصنام أو بكل ماعبد من دون الله تعالى أو صد عن عبادته تعالى لما تبين له كونه بمعزل من استحقاق العبادة ﴿ويؤمن بالله﴾ وحده لما شاهد من نعوته الجليلة المقتضية لاختصاص الالوهية به عز وجل الموجبة للايمان والتوحيد وتقديم الكفر بالطاغوت على الايمان به تعالى لتوقفه عليه فان التخلية متقدمة على التحليه ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أى بالغ فى التمسك بها كأنه وهو ملتبس به يطلب من نفسه الزيادة فيه والثبات عليه ﴿لاانفصام لها﴾ الفصم الكسر بغير ابانة كما أن القصم هو الكسر بابانة ونفى الأول يدل على انتفاء الثانى بالاولوية والجملة اما استئناف مقرر لما قبلها من وثاقة العروة واما حال من العروة والعامل استمسك أو من الضمير المستتر فى الوثقى ولها فى حيز الخبر أى كائن لها والكلام تمثيل مبنى على تشبيه الهيئة العقلية المنتزعة من ملازمة الاعتقاد الحق الذى لايحتمل النقيض أصلا لثبوته بالبراهين النيرة القطعية بالهيئة الحسية المنتزعة من التمسك بالحبل المحكم المأمون انقطاعه فلا استعارة فى المفردات ويجوز أن تكون العروة الوثقى مستعارة للاعتقاد الحق الذى هو الايمان والتوحيد لالنظر الصحيح المؤدى اليه كما قيل فانه غير مذكور فى حيز الشرط والاستمساك بها مستعار لما ذكر من الملازمة أو ترشيحا للاستعارة الأولى ﴿والله سميع﴾ بالاقوال ﴿عليم﴾ بالعزائم والعقائد والجملة اعتراض تذييلى حامل على الايمان رادع عن الكفر والنفاق بما فيه من الوعد والوعيد ﴿الله ولى الذين آمنوا﴾ أى معينهم أو متولى أمورهم والمراد بهم الذين ثبت فى علمه تعالى ايمانهم فى الجملة مآلا أو حالا ﴿يخرجهم﴾ تفسير للولاية أو خبر ثان عند من يجوز كونه جملة أو حال من الضمير فى ولى ﴿من الظلمات﴾ التى هى أعم من ظلمات الكفر والمعاصى وظلمات الشبه بل مما فى بعض مراتب العلوم الاستدلالية من نوع ضعف وخفاء بالقياس الى مراتبها القوية الجلية بل مما فى جميع مراتبها بالنظر الى مرتبة العيان كما ستعرفه ﴿الى النور﴾ الذى يعم نور الايمان ونور الايقان بمراتبه ونور العيان أى يخرج بهدايته وتوفيقه كل واحد منهم من الظلمة التى وقع فيها الى ما يقابلها من النور وافراد النور لوحدة الحق كما أن جمع الظلمات لتعدد فنون الضلال ﴿والذين كفروا﴾ أى الذين ثبت فى علمه تعالى كفرهم ﴿أولياؤهم الطاغوت﴾ أى الشياطين وسائر المضلين عن طريق الحق فالموصول مبتدأ وأولياؤهم مبتدأ ثان والطاغوت خبره والجملة خبر للاول والجملة الحاصلة معطوفة على ماقبلها ولعل تغيير السبك للاحتراز عن وضع الطاغوت فى مقابلة الاسم الجليل ولقصد المبالغة بتكرير الاسناد مع الايماء الى التباين بين الفريقين من كل وجه حتى من جهة التعبير أيضا ﴿يخرجونهم﴾ بالوساوس وغيرها من طرق الاضلال والاغواء ﴿من النور﴾ الفطرى الذى جبل عليه الناس كافة أو من نور البينات التى يشاهدونها من جهة النبى صلى الله عليه وسلم بتنزيل تمكنهم من الاستضاءة بها منزلة نفسها ﴿الى الظلمات﴾ ظلمات الكفر والانهماك فى الغى وقيل نزلت فى قوم ارتدوا عن الاسلام والجملة تفسير لولاية الطاغوت أو خبر ثان كما مر واسناد الاخراج من حيث السببية الى الطاغوت لايقدح فى استناده من حيث الخلق الى قدرته سبحانه ﴿أولئك﴾ اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما يتبعه من القبائح ﴿أصحاب النار﴾ أى ملابسوها وملازموها بسبب مالهم من الجرائم ﴿هم فيها خالدون﴾ ماكثون أبدا ﴿ألم ترالى الذى حاج ابراهيم فى ربه﴾ استشهاد على ماذكر من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت وتقرير له على طريقة قوله تعالى ألم ترأنهم فى كل واد يهيمون كما أن مابعده استشهاد على ولايته تعالى للمؤمنين وتقرير لها وانما بدىء بهذا لرعاية الاقتران بينه وبين مدلوله ولاستقلاله بأمر عجيب حقيق بأن يصدر به المقال وهو اجتراؤه على المحاجة فى الله عز وجل وما أتى بها فى أثنائها من العظيمة المنادية بكمال حماقته ولان فيما بعده تعددا وتفصيلا يورث تقديمه انتشار النظم

على أنه قد أشير فى تضاعيفه الى هداية الله تعالى أيضا بواسطة ابراهيم عليه السلام فان مايحكى عنه من الدعوة الى الحق وادحاض حجة الكافر من آثار ولايته تعالى وهمزة الاستفهام لانكار النفى وتقرير المنفى أى ألم تنظر أو ألم ينته علمك الى هذا الطاغوت المارد كيف تصدى لاضلال الناس واخراجهم من النور الى الظلمات أى قد تحققت الرؤية وتقررت بناء على أن أمره من الظهور بحيث لايكاد يخفى على أحد ممن له حظ من الخطاب فظهر أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام تشريف له وايذان بتأييده فى المحاجة ﴿أن آتاه الله الملك﴾ أى لأن آتاه اياه حيث أبطره ذلك وحمله على المحاجة أو حاجه لاجله وضعا للمحاجة التى هى أقبح وجوه الكفر موضع مايجب عليه من الشكر كما يقال عاديتنى لأن أحسنت اليك أو وقت أن آتاه الله الملك وهو حجة على من منع ايتاء الله الملك للكافر ﴿اذقال ابراهيم﴾ ظرف لحاج أو بدل من آتاه على الوجه الاخير ﴿ربى الذى يحيي ويميت﴾ بفتح ياء ربى وقرىء بحذفها. روى أنه عليه الصلاة والسلام لما كسر الأصنام سجنه ثم أخرجه فقال من ربك الذى تدعو اليه قال ربى الذى يحيي ويميت أى يخلق الحياة والموت فى الأجساد ﴿قال﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل كيف حاجه فى هذه المقالة القوية الحقة فقيل قال ﴿أنا أحيي وأميت﴾ روى أنه دعا برجلين فقتل أحدهما وأطلق الآخر فقال ذلك ﴿قال ابراهيم﴾ استئناف كما سلف كأنه قيل فماذا قال ابراهيم لمن فى هذه المرتبة من الحماقة وبماذا أفحمه فقيل قال ﴿فان الله يأتى بالشمس من المشرق﴾ حسبما تقتضيه مشيئته ﴿فأت بها من المغرب﴾ ان كنت قادرا على مثل مقدوراته تعالى لم يلتفت عليه السلام الى ابطال مقالة اللعين ايذانا بأن بطلانها من الجلاء والظهور بحيث لايكاد يخفى على أحد وأن التصدى لابطالها من قبيل السعى فى تحصيل الحاصل وأتى بمثال لايجد اللعين فيه مجالا للتمويه والتلبيس ﴿فبهت الذى كفر﴾ أى صار مبهوتا وقرىء على بناء الفاعل على أن الموصول مفعوله أى فغلب ابراهيم الكافر وأسكته وايراد الكفر فى حيز الصلة للاشعار بعلة الحكم والتنصيص على كون المحاجة كفرا ﴿والله لايهدى القوم الظالمين﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله أى لا يهدى الذين ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب المخلد بسبب اعراضهم عن قبول الهداية الى مناهج الاستدلال أو الى سبيل النجاة أو الى طريق الجنة يوم القيامة ﴿أو كالذى مر على قرية﴾ استشهاد على ما ذكر من ولايته تعالى للمؤمنين وتقرير لمعطوف على الموصول السابق وايثار أو الفارقة على الواو الجامعة للاحتراز عن توهم اتحاد المستشهد عليه من أول الامر والكاف اما اسمية كما اختاره قوم جىء بها للتنبيه على تعدد الشواهد وعدم انحصارها فيما ذكر كما فى قولك الفعل الماضى مثل نصر واما زائدة كما ارتضاه آخرون والمعنى أو لم تر الى مثل الذى أو الى الذى مر على قرية كيف هداه الله تعالى وأخرجه من ظلمة الاشتباه الى نور العيان والشهود أى قد رأيت ذلك وشاهدته فاذن لاريب فى أن الله ولى الذين آمنوا الخ. هذا وأما جعل الهمزة لمجرد التعجيب على أن يكون المعنى فى الاول ألم تنظر الى الذى حاج الخ أى انظر اليه وتعجب من أمره وفى الثانى أو أرأيت مثل الذى مر الخ ايذانا بأن حاله وما جرى عليه فى الغرابة بحيث لا يرى له مثل كما استقر عليه رأى الجمهور فغير خليق بجزالة التنزيل وفخامة شأنه الجليل فتدبر والمار هو عزير بن شرخيا قاله قتادة والربيع وعكرمة وناجية بن كعب وسليمان بن يزيد والضحاك والسدى رضى الله عنهم وقيل هو أرميا بن حلقيا من سبط هرون عليه السلام قاله وهب وعبيد الله بن عمير وقيل أرميا هو الخضر بعينه. قال مجاهد كان المار رجلا كافرا بالبعث وهو بعيد والقرية بيت المقدس قاله وهب وعكرمة والربيع وقيل هى دير هرقل على شط دجلة وقال الكلبى هى دير سابر آباد وقال السدى هى دير سلماباد والاول هو الاظهر والاشهر. روى أن بنى اسرائيل لما بالغوا فى تعاطى الشر والفساد وجاوزوا فى العتو والطغيان كل حد معتاد سلط الله تعالى عليهم

بخت نصر البابلى فسار اليهم فى ستمائة ألف راية حتى وطىء الشام وخرب بيت المقدس وجعل بنى اسرائيل أثلاثا ثلث منهم قتلهم وثلث منهم أقرهم بالشام وثلث منهم سباهم وكانوا مائة ألف غلام يافع وغير يافع فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فاصاب كل ملك منهم أربعة غلمة وكان عزير من جملتهم فلما نجاه الله تعالى منهم بعد حين مر بحماره على بيت المقدس فرآه على أفظع مرأى وأوحش منظر وذلك قوله عز وجل ﴿وهى خاوية على عروشها﴾ أى ساقطة على سقوفها بأن سقطت العروش ثم الحيطان من خوى البيت اذا سقط أو من خوت الارض أى تهدمت والجملة حال من ضمير مر أو من قرية عند من يجوز الحال من النكرة مطلقا ﴿قال﴾ أى تلهفا عليها وتشوقا الى عمارتها مع استشعار اليأس عنها ﴿أنى يحيى هذه الله﴾ وهى على ما يرى من الحالة العجيبة المباينة للحياة وتقديمها على الفاعل للاعتناء بها من حيث أن الاستبعاد ناشىء من جهتها لا من جهة الفاعل وأنى نصب على الظرفية ان كانت بمعنى متى وعلى الحالية من هذه ان كانت بمعنى كيف والعامل يحيى وأيا ما كان فالمراد استبعاد عمارتها بالبناء والسكان من بقايا أهلها الذين تفرقوا أيدى سبا ومن غيرهم وانما عبر عنها بالاحياء الذى هو علم فى البعد عن الوقوع عادة تهويلا للخطب وتأكيدا للاستبعاد كما أنه لأجله عبر عن خرابها بالموت حيث قيل ﴿بعد موتها﴾ وحيث كان هذا التعبير معربا عن استبعاد الاحياء بعد الموت على أبلغ وجه وآكده أراه الله عز وجل آثر ذى أثير أبعد الأمرين فى نفسه ثم فى غيره ثم أراه ما استبعده صريحا مبالغة فى ازاحة ما عسى يختلج فى خلده وأما حمل احيائها على احياء أهلها فيأباه التعرض لحال القرية دون حالهم والاقتصار على ذكر موتهم دون كونهم ترابا وعظاما مع كونه أدخل فى الاستبعاد لشدة مباينته للحياة وغاية بعده عن قبولها على أنه لم تتعلق ارادته تعالى باحيائهم كما تعلقت بعمارتها ومعاينة المار لها كما ستحيط به خبرا ﴿فأماته الله﴾ وألبثه على الموت ﴿مائة عام﴾ روى أنه لما دخل القرية ربط حماره فطاف بها ولم ير بها أحدا فقال ما قال وكانت أشجارها قد أثمرت فتناول من التين والعنب وشرب من عصيره ونام فأماته الله تعالى فى منامه وهو شاب وأمات حماره وبقية تينه وعنبه وعصيره عنده ثم أعمى الله تعالى عنه عيون المخلوقات فلم يره أحد فلما مضى من موته سبعون سنة وجه الله عز وعلا ملكا عظيما من ملوك فارس يقال له يوشك الى بيت المقدس ليعمره ومعه ألف قهرمان مع كل قهرمان ثلثمائة ألف عامل فجعلوا يعمرونه وأهلك الله تعالى بخت نصر ببعوضة دخلت دماغه ونجى الله تعالى من بقى من بنى اسرائيل وردهم الى بيت المقدس وتراجع اليه من تفرق منهم فى الأكناف فعمروه ثلاثين سنة وكثروا وكانوا كأحسن ما كانوا عليه فلما تمت المائة من موت عزير أحياه الله تعالى وذلك قوله تعالى ﴿ثم بعثه﴾ وايثاره على أحياه للدلالة على سرعته وسهولة تأتيه على البارىء تعالى كأنه بعثه من النوم وللايذان بأنه أعاده كهيئته يوم موته عاقلا فاهما مستعدا للنظر والاستدلال ﴿قال﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال له بعد بعثه فقيل قال ﴿كم لبثت﴾ ليظهر له عجزه عن الاحاطة بشؤنه تعالى وأن احياءه ليس بعد مدة يسيرة ربما يتوهم أنه هين فى الجملة بل بعد مدة طويلة وينحسم به مادة استبعاده بالمرة ويطلع فى تضاعيفه على أمر آخر من بدائع آثار قدرته تعالى وهو ابقاء الغذاء المتسارع الى الفساد بالطبع على ما كان عليه دهرا طويلا من غير تغير ما وكم نصب على الظرفية مميزها محذوف أى كم وقتا لبثت والقائل هو الله تعالى أو ملك مأمور بذلك من قبله تعالى قيل نودى من السماء يا عزير كم لبثت بعد الموت ﴿قال لبثت يوما أو بعض يوم﴾ قاله بناء على التقريب والتخمين أو استقصاراً لمدة لبثه وأما ما يقال من أنه مات ضحى وبعث بعد المائة قبيل الغروب فقال قبل النظر الى الشمس يوما فالتفت اليها فرأى منها بقية فقال أو بعض يوم على وجه الاضراب فبمعزل من التحقيق اذ لا وجه للجزم بتمام اليوم ولو بناء على حسبان الغروب لتحقق النقصان من أوله ﴿قال﴾ استئناف كما سلف ﴿بل لبثت مائة عام﴾

عطف على مقدر أى ما لبثت ذلك القدر بل هذا المقدار ﴿فانظر﴾ لتعاين أمرا آخر من دلائل قدرتنا ﴿الى طعامك وشرابك لم يتسنه﴾ أى لم يتغير فى هذه المدة المتطاولة مع تداعيه الى الفساد. روى أنه وجد تينه وعنبه كما جنى وعصيره كما عصر والجملة المنفية حال بغير واو كقوله تعالى لم يمسسهم سوء اما من الطعام والشراب وافراد الضمير لجريانهما مجرى الواحد كالغذاء واما من الأخير اكتفاء بدلالة حاله على حال الأول ويؤيده قراءة من قرأ وهذا شرابك لم يتسن والهاء أصلية أو هاء سكت واشتقاقه من السنة لما أن لامها هاء أو واو وقيل أصله لم يتسنن من الحمأ المسنون فقلبت نونه حرف علة كما فى تقضى البازى وقد جوز أن يكون معنى لم يتسنه لم يمر عليه السنون التى مرت لا حقيقة بل تشبيها أى هو على حاله كأنه لم يلبث مائة عام وقرىء لم يسنه بادغام التاء فى السين ﴿وانظر الى حمارك﴾ كيف نخرت عظامه وتفرقت وتقطعت أوصاله وتمزقت ليتبين لك ما ذكر من اللبث المديد وتطمئن به نفسك وقوله عز وجل ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ عطف على مقدر متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف مقرر لمضمون ما سبق أى فعلنا ما فعلنا من احيائك بعد ما ذكر لتعاين ما استبعدته من الاحياء بعد دهر طويل ولنجعلك آية للناس الموجودين فى هذا القرن بأن يشاهدوك وأنت من أهل القرون الخالية ويأخذوا منك ما طوى عنهم منذ أحقاب من علم التوراة كما سيأتى أو متعلق بفعل مقدر بعده أى ولنجعلك آية لهم على الوجه المذكور فعلنا ما فعلنا فهو على التقديرين دليل على ما ذكر من اللبث المديد ولذلك فرق بينه وبين الأمر بالنظر الى حماره وتكرير الأمر فى قوله تعالى ﴿وانظر الى العظام﴾ مع أن المراد عظام الحمار أيضا لما أن المأمور به أولا هو النظر اليها من حيث دلالتها على ما ذكر من اللبث المديد وثانيا هو النظر اليها من حيث تعتريها الحياة ومباديها أى وانظر الى عظام الحمار لتشاهد كيفية الاحياء فى غيرك بعد ما شاهدت نفسه فى نفسك ﴿كيف ننشزها﴾ بالزاى المعجمة أى نرفع بعضها الى بعض ونردها الى أماكنها من الجسد فنركبها تركيبا لائقا بها وقال الكسائى نلينها ونعظمها ولعل من فسره بنحييها أراد بالاحياء هذا المعنى وكذا من قرأ ننشرها بالراء من أنشر الله تعالى الموتى أى أحياها لا معناه الحقيقى لقوله تعالى ﴿ثم نكسوها لحماً﴾ أى نسترها به كما يستر الجسد باللباس وأما من قرأ ننشرها بفتح النون وضم الشين فلعله أراد به ضد الطى كما قال الفراء فالمعنى كيف نبسطها والجملة اما حال من العظام أى وانظر اليها مركبة مكسوة لحما أو بدل اشتمال أى وانظر الى العظام كيفية انشازها وبسط اللحم عليها ولعل عدم التعرض لكيفية نفخ الروح لما أنها مما لا تقتضى الحكمة بيانه. روى أنه نودى أيتها العظام البالية ان الله يأمرك أن تجتمعى فاجتمع كل جزء من أجزائها التى ذهب بها الطير والسباع وطارت بها الرياح من كل سهل وجبل فانضم بعضها الى بعض والتصق كل عضو بما يليق به الضلع بالضلع والذراع بمحلها والرأس بموضعها ثم الأعصاب والعروق ثم انبسط عليه اللحم ثم الجلد ثم خرجت منه الشعور ثم نفخ فيه الروح فاذا هو قائم ينهق ﴿فلما تبين له﴾ أى ما دل عليه الأمر بالنظر اليه من كيفية الاحياء بمباديه والفاء للعطف على مقدر يستدعيه الأمر المذكور وانما حذف للايذان بظهور تحققه واستغنائه عن الذكر وللاشعار بسرعة وقوعه كما فى قوله عز وجل فلما رآه مستقرا عنده بعد قوله أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك كأنه قيل فأنشزها الله تعالى وكساها لحما فنظر اليها فتبين له كيفيته فلما تبين له ذلك أى اتضح اتضاحا تاما ﴿قال أعلم أن الله على كل شىء﴾ من الأشياء التى من جملتها ما شاهده فى نفسه وفى غيره من تعاجيب الآثار ﴿قدير﴾ لا يستعصى عليه أمر من الأمور وايثار صيغة المضارع للدلالة على أن علمه بذلك مستمر نظرا الى أن أصله لم يتغير ولم يتبدل بل انما تبدل بالعيان وصفه وفيه اشعار بأنه انما قال ما قال بناء على الاستبعاد العادى واستعظاما للأمر وقد قيل فاعل تبين مضمر يفسره مفعول أعلم أى فلما تبين له أن الله على كل شىء قدير قال أعلم أن الله على كل

شيء قدير فتدبر وقرئ تبين له على صيغة المجهول وقرئ قال اعلم على صيغة الأمر . روى أنه ركب حماره وأتى محلته وأنكره الناس وأنكر الناس وأنكر المنازل فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله فاذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أدركت زمن عزير فقال لها عزير ياهذه هذا منزل عزير قالت نعم وأين ذكرى عزير قد فقدناه منذ كذا وكذا فبكت بكاء شديداً قال فانى عزير قالت سبحان الله أنى يكون ذلك قال قد أماتنى الله مائة عام ثم بعثنى قالت ان عزيرا كان رجلا مستجاب الدعوة فادع الله لى يرد على بصرى حتى أراك فدعا ربه ومسح بيده عينيها فصحتا فأخذ بيدها فقال لها قومى باذن الله فقامت صحيحة كأنها نشطت من عقال فنظرت اليه فقالت أشهد أنك عزير فانطلقت الى محلة بنى اسرائيل وهم فى أنديتهم وكان فى المجلس ابن لعزير قد بلغ مائة وثمانى عشرة سنة وبنو بنيه شيوخ فنادت هذا عزير قد جاءكم فكذبوها فقالت انظروا فانى بدعائه رجعت الى هذه الحالة فنهض الناس فأقبلوا اليه فقال ابنه كان لأبى شامة سوداء بين كتفيه مثل الهلال فكشف فاذا هو كذلك وقد كان قتل بخت نصر ببيت المقدس من قراء التوراة أربعين ألف رجل ولم يكن يومئذ بينهم نسخة من التوراة ولا أحد يعرف التوراة فقرأها عليهم عن ظهر قلبه من غير أن يخرم منها حرفا فقال رجل من أولاد المسبيين ممن ورد بيت المقدس بعد مهلك بخت نصر حدثنى أبى عن جدى أنه دفن التوراة يوم سبينا فى خابية فى كرم فان أريتمونى كرم جدى أخرجتها لكم فذهبوا الى كرم جده ففتشوا فوجدوها فعارضوها بما أملى عليهم عزير من ظهر القلب فما اختلفا فى حرف واحد فعند ذلك قالوا هو ابن الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ﴿واذ قال ابراهيم﴾ دليل آخر على ولايته تعالى للمؤمنين واخراجه لهم من الظلمات الى النور وانما لم يسلك به مسلك الاستشهاد كما قبله بأن يقال أو كالذى قال رب الخ لجريان ذكره عليه السلام فى أثناء المحاجة ولانه لادخل لنفسه عليه السلام فى أصل الدليل كدأب عزير عليه السلام فان ماجرى عليه من احيائه بعد مائة عام من جملة الشواهد على قدرته تعالى وهدايته والظرف منتصب بمضمر صرح بمثله فى نحو قوله تعالى واذكروا اذ جعلكم خلفاء أى واذكر وقت قوله عليه السلام وما وقع حينئذ من تعاجيب صنع الله تعالى لتقف على مامر من ولايته تعالى وهدايته وتوجيه الامر بالذكر فى أمثال هذه المواقع الى الوقت دون ماوقع فيه من الواقعات مع أنها المقصودة بالتذكير لما ذكر غير مرة من المبالغة فى ايجاب ذكرها لما أن ايجاب ذكر الوقت ايجاب لذكر ماوقع فيه بالطريق البرهانى ولان الوقت مشتمل عليها مفصلة فاذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها بحيث لايشذ عنها شيء مما ذكر عند الحكاية أولم يذكر كأنها مشاهدة عيانا ﴿رب﴾ كلمة استعطاف قدمت بين يدى الدعاء مبالغة فى استدعاء الاجابة ﴿أرنى﴾ من الرؤية البصرية المتعدية الى واحد وبدخول همزة النقل طلبت مفعولا آخر هو الجملة الاستفهامية المعلقة لها فانها تعلق كما يعلق النظر البصرى أى اجعلنى مبصرا ﴿كيف تحيي الموتى﴾ بأن تحييها وأنا أنظر اليها وكيف فى محل نصب على التشبيه بالظرف عند سيبويه وبالحال عند الاخفش والعامل فيها تحيي أى فى أى حال أو على أى حال تحيي قال القرطبي الاستفهام بكيف انما هو سؤال عن حال شيء متقرر الوجود عند السائل والمسئول فالاستفهام ههنا عن هيئة الاحياء المتقرر عند السائل أى بصرنى كيفية احيائك للموتى وانما سأله عليه السلام ليتأيد ايقانه بالعيان ويزداد قلبه اطمئنانا على اطمئنان وأما ماقيل من أن نمرود لما قال أنا أحيي وأميت قال ابراهيم عليه السلام ان احياء الله تعالى برد الارواح الى الاجساد فقال نمرود هل عاينته فلم يقدر على أن يقول نعم فانتقل الى تقرير آخر ثم سأل ربه أن يريه ذلك فيأباه تعليل السؤال بالاطمئنان ﴿قال﴾ استئناف كما مر غير مرة ﴿أولم تؤمن﴾ عطف على مقدر أى ألم تعلم ولم تؤمن بأنى قادر على الاحياء كيف أشاء حتى تسألنى اراءته قاله عز وعلا وهو أعلم بأنه عليه السلام أثبت الناس ايمانا وأقواهم يقينا ليجيب بما أجاب به فيكون ذلك لطفا للسامعين ﴿قال بلى﴾ علمت وآمنت

بأنك قادر على الاحياء على أى كيفية شئت ﴿ولكن﴾ سألت ماسألت ﴿ليطمئن قلبى﴾ بمضامة العيان الى الايمان والايقان وأزداد بصيرة بمشاهدته على كيفية معينة ﴿قال فخذ﴾ الفاء لجواب شرط محذوف أى ان أردت ذلك فخذ ﴿أربعة من الطير﴾ قيل هو اسم لجمع طائر كركب وسفر وقيل جمع له كتاجر وتجر وقيل هو مصدر سمى به الجنس وقيل هو تخفيف طير بمعنى طائر كهين فى هين ومن متعلقة بخذ أو بمحذوف وقع صفة لاربعة أى أربعة كائنة من الطير قيل هى طاوس وديك وغراب وحمامة وقيل نسر بدل الأخير وتخصيص الطير بذلك لانه أقرب الى الانسان وأجمع لخواص الحيوان ولسهولة تأتى مايفعل به من التجزئة والتفريق وغير ذلك ﴿فصرهن﴾ من صاره يصوره أى أماله وقرئ بكسر الصاد من صاره يصيره أى أملهن واضممهن وقرئ فصرهن بضم الصاد وكسرها وتشديد الراء من صره يصره ويصره اذا جمعه وقرئ فصرهن من التصرية بمعنى الجمع أى اجمعهن ﴿اليك﴾ لتتأملها وتعرف شياتها مفصلة حتى تعلم بعد الاحياء أن جزءاً من أجزائها لم ينتقل من موضعه الأول أصلا . روى أنه أمر بأن يذبحها وينتف ريشها ويقطعها ويفرق أجزاءها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها ويمسك رؤسها ثم أمر بأن يجعل أجزاءها على الجبال وذلك قوله تعالى ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا﴾ أى جزئهن وفرق أجزاءهن على مابحضرتك من الجبال قيل كانت أربعة أجبل وقيل سبعة فجعل على كل جبل ربعا أو سبعاً من كل طائر وقرئ جزؤا بضمتين وجزا بالتشديد بطرح همزته تخفيفا ثم تشديده عند الوقف ثم اجراء الوصل مجرى الوقف ﴿ثم ادعهن يأتينك﴾ فى حيز الجزم على أنه جواب الامر ولكنه بنى لاتصاله بنون جمع المؤنث ﴿سعيا﴾ أى ساعيات مسرعات أو ذوات سعى طيرانا أو مشيا وانما اقتصر على حكاية أوامره عز وجل من غير تعرض لامتثاله عليه السلام ولا لما ترتب عليه من عجائب آثار قدرته تعالى كما روى أنه عليه السلام نادى فقال تعالين باذن الله فجعل كل جزء منهن يطير الى صاحبه حتى صارت جثثا ثم أقبلن الى رؤسهن فانضمت كل جثة الى رأسها فعادت كل واحدة منهن الى ماكانت عليه من الهيئة للايذان بأن ترتب تلك الامور على الاوامر الجليلة واستحالة تخلفها عنها من الجلاء والظهور بحيث لاحاجة له الى الذكر أصلا وناهيك بالقصة دليلا على فضل الخليل ويمن الضراعة فى الدعاء وحسن الادب فى السؤال حيث أراه الله تعالى ماسأله فى الحال على أيسر مايكون من الوجوه وأرى عزيرا ما أراه بعدما أماته مائة عام ﴿واعلم أن الله عزيز﴾ غالب على أمره لايعجزه شيء عما يريده ﴿حكيم﴾ ذو حكمة بالغة فى أفاعيله فليس بناء أفعاله على الاسباب العادية لعجزه عن ايجادها بطريق آخر خارق للعادات بل لكونه متضمنا للحكم والمصالح ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله﴾ أى فى وجوه الخيرات من الواجب والنفل ﴿كمثل حبة﴾ لابد من تقدير مضاف فى أحد الجانبين أى مثل نفقتهم كمثل حبة أو مثلهم كمثل باذر حبة ﴿أنبتت سبع سنابل﴾ أى أخرجت ساقا تشعب منها سبع شعب لكل واحدة منها سنبلة ﴿فى كل سنبلة مائة حبة﴾ كما يشاهد ذلك فى الذرة والدخن فى الاراضى المغلة بل أكثر من ذلك واسناد الانبات الى الحبة مجازى كاسناده الى الارض والربيع وهذا التمثيل تصوير للاضعاف كأنها حاضرة بين يدى الناظر ﴿والله يضاعف﴾ تلك المضاعفة أو فوقها الى ماشاء الله تعالى ﴿لمن يشاء﴾ أن يضاعف له بفضله على حسب حال المنفق من اخلاصه وتعبه ولذلك تفاوتت مراتب الاعمال فى مقادير الثواب ﴿والله واسع﴾ لايضيق عليه مايتفضل به من الزيادة ﴿عليم﴾ بنية المنفق ومقدار انفاقه وكيفية تحصيل ماأنفقه ﴿الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله﴾ جملة مبتدأة جيء بها لبيان كيفية الانفاق الذى بين فضله بالتمثيل المذكور ﴿ثم لايتبعون ماأنفقوا﴾ أى ماأنفقوه أو انفاقهم ﴿منا ولا أذى﴾ المن أن يعتد على من أحسن اليه باحسانه ويريه أنه أوجب بذلك عليه حقا والأذى أن يتطاول عليه بسبب انعامه عليه وانما قدم المن لكثرة وقوعه وتوسيط كلمة لا للدلالة على شمول النفى لاتباع كل واحد منهما وثم لاظهار علو رتبة المعطوف . قيل نزلت

فى عثمان رضى الله عنه حين جهز جيش العسرة بألف بعير بأقتابها وأحلاسها وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه حين
أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأربعة آلاف درهم صدقة ولم يكد يخطر ببالهما شئ من المن والاذى ﴿لهم أجرهم﴾ أى
حسبما وعدلهم فى ضمن التمثيل وهو جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبرا عن الموصول وفى تكرير الاسناد وتقييد الاجر
بقوله ﴿عند ربهم﴾ من التأكيد والتشريف مالا يخفى وتخلية الخبر عن الفاء المفيدة لسببية ماقبلها لما بعدها للايذان
بأن ترتب الاجر على ماذكر من الانفاق وترك اتباع المن والاذى أمر بين لايحتاج الى التصريح بالسببية وأما ايهام
أنهم أهل لذلك وان لم يفعلوا فكيف بهم اذا فعلوا فيأباه مقام الترغيب فى الفعل والحث عليه ﴿ولاخوف عليهم﴾
فى الدارين من لحوق مكروه من المكاره ﴿ولا هم يحزنون﴾ لفوات مطلوب من المطالب قل أو جل اى
لايعتريهم مايوجبه لا أنه يعتريهم ذلك لكنهم لايخافون ولا يحزنون ولا أنه لايعتريهم خوف وحزن أصلا بل
يستمرون على النشاط والسرور. كيف لا واستشعار الخوف والخشية استعظاما لجلال الله وهيبته واستقصارا
للجد والسعى فى اقامة حقوق العبودية من خواص الخواص والمقربين والمراد بيان دوام انتفائهما لابيان
انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما أن النفى وان دخل على نفس المضارع يفيد الدوام
والاستمرار بحسب المقام ﴿قول معروف﴾ أى كلام جميل تقبله القلوب ولا تنكره يرد به السائل من غير اعطاء شئ
﴿ومغفرة﴾ أى ستر لما وقع من السائل من الالحاف فى المسئلة وغيره مما يثقل على المسئول وصفح عنه وانما صح
الابتداء بالنكرة فى الاول لاختصاصها بالوصف وفى الثانى بالعطف أو بالصفة المقدرة أى ومغفرة كائنة من المسئول
﴿خير﴾ أى للسائل ﴿من صدقة يتبعها أذى﴾ لكونها مشوبة بضرر مايتبعها وخلوص الاولين من الضرر والجملة
مستأنفة مقررة لاعتبار ترك اتباع المن والاذى وتفسير المغفرة بنيل مغفرة من الله تعالى بسبب الرد الجميل أو بعفو السائل
بناء على اعتبار الخيرية بالنسبة الى المسئول يؤدى الى أن يكون فى الصدقة الموصوفة بالنسبة اليه خير فى الجملة مع بطلانها
بالمرة ﴿والله غنى﴾ لايحوج الفقراء الى تحمل مؤنة المن والاذى ويرزقهم من جهة أخرى ﴿حليم﴾ لايعاجل
أصحاب المن والاذى بالعقوبة لا أنهم لايستحقونها بسببهما والجملة تذييل لما قبلها مشتمل على الوعد والوعيد مقرر
لاعتبار الخيرية بالنسبة الى السائل قطعا ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ أقبل عليهم بالخطاب اثر بيان مابين بطريق الغيبة مبالغة
فى ايجاب العمل بموجب النهى ﴿لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ أى لاتحبطوا أجرها بواحد منهما ﴿كالذى﴾
فى محل النصب اما على أنه نعت لمصدر محذوف أى لاتبطلوها ابطالا كابطال الذى ﴿ينفق ماله رئاء الناس﴾ واما على
أنه حال من فاعل لاتبطلوا أى لاتبطلوها مشابهين الذى ينفق أى الذى يبطل انفاقه بالرياء وقيل من ضمير المصدر المقدر
على ماهو رأى سيبويه وانتصاب رئاء اما على أنه علة لينفق أى لاجل رئائهم أو على أنه حال من فاعله أى ينفق ماله مرائيا
والمراد به المنافق لقوله تعالى ﴿ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ حتى يرجو ثوابا أو يخشى عقابا ﴿فمثله﴾ الفاء لربط
مابعدها بماقبلها أى فمثل المرائى فى الانفاق وحالته العجيبة ﴿كمثل صفوان﴾ أى حجر أملس ﴿عليه تراب﴾ أى شئ يسير
منه ﴿فأصابه وابل﴾ أى مطر عظيم القطر ﴿فتركه صلدا﴾ أملس ليس عليه شئ من الغبار أصلا ﴿لايقدرون على شئ
مما كسبوا﴾ لاينتفعون بما فعلوا رئاء ولايجدون له ثوابا قطعا كقوله تعالى فجعلناه هباء منثورا والجملة استئناف مبنى
على السؤال كأنه قيل فماذا يكون حالهم حينئذ فقيل لايقدرون الخ ومن ضرورة كون مثلهم كما ذكر كون مثل من
يشبههم وهم أصحاب المن والاذى كذلك والضميران الاخيران للموصول باعتبار المعنى كما فى قوله عز وجل وخضتم كالذى
خاضوا لما أن المراد به الجنس أو الجمع أو الفريق كما أن الضمائر الأربعة السابقة له باعتبار اللفظ ﴿والله لايهدى
القوم الكافرين﴾ الى الخير والرشاد والجملة تذييل مقرر لمضمون ماقبله وفيه تعريض بأن كلا من الرياء والمن والاذى

من خصائص الكفار ولابد للمؤمنين أن يجتنبوها ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله﴾ أى لطلب
رضاه ﴿وتثبيتا من أنفسهم﴾ أى ولتثبيت بعض أنفسهم على الايمان فمن تبعيضية كما فى قولهم هز من عطفه وحرك
من نشاطه فان المال شقيق الروح فمن بذل ماله لوجه الله تعالى فقد ثبت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه فقد
ثبتها كلها أو وتصديقا للاسلام وتحقيقا للجزاء من أصل أنفسهم فمن ابتدائية كما فى قوله تعالى حسدا من عند أنفسهم
ويحتمل أن يكون المعنى وتثبيتا من أنفسهم عند المؤمنين أنها صادقة الايمان مخلصة فيه ويعضده قراءة من قرأ
وتبيينا من أنفسهم وفيه تنبيه على أن حكمة الانفاق للمنفق تزكية النفس عن البخل وحب المال الذى هو رأس
كل خطيئة ﴿كمثل جنة بربوة﴾ الربوة بالحركات الثلاث وقد قرئت بها المكان المرتفع أى مثل نفقتهم فى الزكاء
كمثل بستان كائن بمكان مرتفع مأمون من أن يصطلمه البرد للطافة هوائه بهبوب الرياح الملطفة له فان أشجار الربا
تكون أحسن منظرا وأزكى ثمرا وأما الاراضى المنخفضة فقلما تسلم ثمارها من البرد لكثافة هوائها بركود الرياح
وقرئ كمثل حبة ﴿أصابها وابل﴾ مطر عظيم القطر ﴿فآتت أكلها﴾ ثمرتها وقرئ بسكون الكاف تخفيفا
﴿ضعفين﴾ أى مثلى ماكانت تثمر فى سائر الاوقات بسبب ماأصابها من الوابل والمراد بالضعف المثل وقيل
أربعة أمثال ونصبه على الحال من أكلها أى مضاعفا ﴿فان لم يصبها وابل فطل﴾ أى فطل يكفيها لجودتها وكرم
منبتها ولطافة هوائها وقيل فيصيبها طل وهو المطر الصغير القطر وقيل فالذى يصيبها طل والمعنى أن نفقات هؤلاء
زاكية عند الله تعالى لاتضيع بحال وان كانت تتفاوت باعتبار مايقارنها من الاحوال ويجوز أن يعتبر التمثيل بين
حالهم باعتبار ماصدر عنهم من النفقة الكثيرة والقليلة وبين الجنة المعهودة باعتبار ماأصابها من المطر الكثير واليسير
فكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكلها فكذلك نفقتهم جلت أو قلت بعد أن يطلب بها وجه الله تعالى زاكية
زائدة فى زلفاهم وحسن حالهم عند الله ﴿والله بما تعملون بصير﴾ لايخفى عليه شئ منه وهو ترغيب فى الاخلاص
مع تحذير من الرياء ونحوه ﴿أيود أحدكم﴾ الود حب الشئ مع تمنيه ولذلك يستعمل استعمالهما والهمزة لانكار الوقوع
كما فى قوله أأضرب أبى لا لانكار الواقع كما فى قولك أتضرب أباك على أن مناط الانكار ليس جميع ماتعلق به الود بل انما
هو اصابة الاعصار ومايتبعها من الاحتراق ﴿أن تكون له جنة﴾ وقرئ جنات ﴿من نخيل وأعناب﴾ أى كائنة
منهما على أن يكون الأصل والركن فيها هذين الجنسين الشريفين الجامعين لفنون المنافع والباقى من المستتبعات لا على
أن لايكون فيها غيرهما كما ستعرفه والجنة تطلق على الاشجار الملتفة المتكاثفة قال زهير

كأن عينى فى غربى مقتلة   من النواضح تسقى جنة سحقا

وعلى الارض المشتملة عليها والاول هو الانسب بقوله عز وجل ﴿تجرى من تحتها الانهار﴾ اذ على الثانى لابد من
تقدير مضاف أى من تحت أشجارها وكذا لابد من جعل اسناد الاحتراق اليها فيما سيأتى مجازيا والجملة فى محل الرفع
على أنها صفة جنة كما أن قوله تعالى من نخيل وأعناب كذلك أو فى محل النصب على أنها حال منها لأنها موصوفة
﴿له فيها من كل الثمرات﴾ الظرف الاول خبر والثانى حال والثالث مبتدأ أى صفة للمبتدا قائمة مقامه أى له رزق
من كل الثمرات كما فى قوله تعالى ومامنا الا له مقام معلوم أى ومامنا أحد الا له الخ وليس المراد بالثمرات العموم بل انما
هو التكثير كما فى قوله تعالى وأوتيت من كل شئ ﴿وأصابه الكبر﴾ أى كبر السن الذى هو مظنة شدة الحاجة الى
منافعها ومئنة كمال العجز عن تدارك أسباب المعاش والواو حالية أى وقد أصابه الكبر ﴿وله ذرية ضعفاء﴾ حال من
الضمير فى أصابه أى أصابه الكبر والحال أن له ذرية صغارا لايقدرون على الكسب وترتيب مبادى المعاش وقرئ

ضعاف ﴿فأصابها اعصار﴾ أى ريح عاصفة تستدير فى الارض ثم تنعكس منها ساطعة الى السماء على هيئة العمود ﴿فيه نار﴾ شديدة ﴿فاحترقت﴾ عطف على فأصابها وهذا كما ترى تمثيل لحال من يعمل أعمال البر والحسنات و يضم اليها مايحبطها من القوادح ثم يجدها يوم القيامة عند كمال حاجته الى ثوابها هباء منثورا فى التحسر والتأسف عليها ﴿كذلك﴾ توحيد الكاف مع كون المخاطب جمعا قد مر وجهه مرارا أى مثل ذلك البيان الواضح الجارى فى الظهور مجرى الأمور المحسوسة ﴿يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ كى تتفكروا فيها وتعتبروا بما فيها من العبر وتعملوا بموجبها ﴿ياأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ بيان لحال ما ينفق منه اثر بيان أصل الانفاق وكيفيته أى أنفقوا من حلال ما كسبتم وجياده لقوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴿ومما أخرجنا لكم من الارض﴾ أى من طيبات ماأخرجنا لكم من الحبوب والثمار والمعادن فحذف لدلالة ماقبله عليه ﴿ولا تيمموا﴾ بفتح التاء أصله ولا تتيمموا وقرئ بضمها وقرئ ولا تأمموا والكل بمعنى القصد أى لا تقصدوا ﴿الخبيث﴾ أى الردىء الخسيس وهو كالطيب من الصفات الغالبة التى لا تذكر موصوفاتها ﴿منه تنفقون﴾ الجار متعلق بتنفقون والضمير للخبيث والتقديم للتخصيص والجملة حال من فاعل تيمموا أى لا تقصدوا الخبيث قاصرين الانفاق عليه أو من الخبيث أى مختصا به الانفاق وأيا ما كان فالتخصيص لتوبيخهم بما كانوا يتعاطونه من انفاق الخبيث خاصة لا لتسويغ انفاقه مع الطيب عن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه وقيل متعلق بمحذوف وقع حالا من الخبيث والضمير للمال المدلول عليه بحسب المقام أوللموصولين على طريقة قوله

كأنه فى الجلد توليع البهق

أوللثانى وتخصيصه بذلك لما أن التفاوت فيه أكثر وتنفقون حال من الفاعل المذكور أى ولا تقصدوا الخبيث كائنا من المال أو مما كسبتم وما أخرجنا لكم أو مما أخرجنا لكم منفقين اياه وقوله تعالى ﴿ولستم بآخذيه﴾ حال على كل حال من واو تنفقون أى والحال أنكم لا تأخذونه فى معاملاتكم فى وقت من الأوقات أو بوجه من الوجوه ﴿الا أن تغمضوا فيه﴾ أى الاوقت اغماضكم فيه أوالا باغماضكم فيه وهو عبارة عن المسامحة بطريق الكناية أو الاستعارة يقال أغمض بصره اذا غضه وقرئ على البناء للمفعول على معنى الا أن تحملوا على الاغماض وتدخلوا فيه أو توجدوا مغمضين وقرئ تغمضوا وتغمضوا بضم الميم وكسرها وقيل تم الكلام عند قوله تعالى ولا تيمموا الخبيث ثم استؤنف فقيل على طريقة التوبيخ والتقريع منه تنفقون والحال أنكم لا تأخذونه الا اذا أغمضتم فيه ومآله الاستفهام الانكارى فكأنه قيل أمنه تنفقون الخ ﴿واعلموا أن الله غنى﴾ عن انفاقكم وانما يأمركم به لمنفعتكم وفى الأمر بأن يعلموا ذلك مع ظهور علمهم به توبيخ لهم على مايصنعون من اعطاء الخبيث وايذان بأن ذلك من آثار الجهل بشأنه تعالى فان اعطاء مثله انما يكون عادة عند اعتقاد المعطى أن الآخذ محتاج الى مايعطيه بل مضطر اليه ﴿حميد﴾ مستحق للحمد على نعمه العظام وقيل حامد بقبول الجيد والاثابة عليه ﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾ الوعد هو الاخبار بما سيكون من جهة المخبر مترتبا على شىء من زمان أوغيره يستعمل فى الشر استعماله فى الخير قال تعالى النار وعدها الله الذين كفروا أى يعدكم فى الانفاق الفقر و يقول ان عاقبة انفاقكم أن تفتقروا وانما عبر عن ذلك بالوعد مع أن الشيطان لم يضف مجىء الفقر الى جهته للايذان بمبالغته فى الاخبار بتحقق مجيئه كأنه نزله فى تقرر الوقوع منزلة أفعاله الواقعة بحسب ارادته أو لوقوعه فى مقابلة وعده تعالى على طريقة المشاكلة وقرئ بضم الفاء والسكون و بضمتين و بفتحتين ﴿ويأمركم بالفحشاء﴾ أى بالخصلة الفحشاء أى و يغريكم على البخل ومنع الصدقات اغراء الآمر للمأمور على فعل المأمور به والعرب تسمى البخيل فاحشا قال طرفة بن العبد

أرى الموت يعتام الكرام و يصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد

وقيل بالمعاصى والسيئات ﴿والله يعدكم﴾ أى فى الانفاق ﴿مغفرة﴾ لذنوبكم والجار فى قوله تعالى ﴿منه﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لمغفرة مؤكدة لفخامتها التى أفادها تنكيرها أى مغفرة أى مغفرة مغفرة كائنة منه عز وجل ﴿وفضلا﴾ صفته محذوفة لدلالة المذكور عليها كما فى قوله تعالى فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ونظائره أى وفضلا كائنا منه تعالى أى خلفا مما أنفقتم زائدا عليه فى الدنيا وفيه تكذيب للشيطان وقيل ثوابا فى الآخرة ﴿والله واسع﴾ قدرة وفضلا فيحقق ماوعدكم به من المغفرة واخلاف ماتنفقونه ﴿عليم﴾ مبالغ فى العلم فيعلم انفاقكم فلا يكاد يضيع أجركم أو يعلم ماسيكون من المغفرة والفضل فلا احتمال للخلف فى الوعد والجملة تذييل مقرر لمضمون ماقبله ﴿يؤتى الحكمة﴾ قال مجاهد الحكمة هى القرآن والعلم والفقه روى عن ابن نجيح أنها الاصابة فى القول والعمل وعن ابراهيم النخعى أنها معرفة معانى الأشياء وفهمها وقيل هى معرفة حقائق الأشياء وقيل هى الاقدام على الأفعال الحسنة الصائبة وعن مقاتل أنها تفسر فى القرآن بأربعة أوجه فتارة بمواعظ القرآن وأخرى بما فيه من عجائب الاسرار ومرة بالعلم والفهم وأخرى بالنبوة ولعل الأنسب بالمقام ماينتظم الأحكام المبينة فى تضاعيف الآيات الكريمة من أحد الوجهين الأولين ومعنى ايتائها تبيينها والتوفيق للعلم والعمل بها أى يبينها و يوفق للعلم والعمل بها ﴿من يشاء﴾ من عباده أن يؤتيها اياه بموجب سعة فضله واحاطة علمه كما آتاكم مابينه فى ضمن الآى من الحكم البالغة التى يدور عليها فلك منافعكم فاغتنموها وسارعوا الى العمل بها والموصول مفعول أول ليؤتى قدم عليه الثانى للعناية به والجملة مستأنفة مقررة لمضمون ماقبلها ﴿ومن يؤت الحكمة﴾ على بناء المفعول وقرئ على البناء للفاعل أى ومن يؤته الله الحكمة والاظهار فى مقام الاضمار لاظهار الاعتناء بشأنها وللاشعار بعلة الحكم ﴿فقد أوتى خيرا كثيرا﴾ أى أى خير كثير فانه قد خير له خير الدارين ﴿وما يذكر﴾ أى ومايتعظ بما أوتى من الحكمة أو ومايتفكر فيها ﴿الا أولوا الألباب﴾ أى العقول الخالصة عن شوائب الوهم والركون الى متابعة الهوى وفيه من الترغيب فى المحافظة على الأحكام الواردة فى شأن الانفاق مالا يخفى والجملة اما حال أو اعتراض تذييلى ﴿وما أنفقتم من نفقة﴾ بيان لحكم كلى شامل لجميع أفراد النفقات وما فى حكمها اثر بيان حكم ما كان منها فى سبيل الله وما اما شرطية أوموصولة حذف عائدها من الصلة أى وما أنفقتموه من نفقة أى أى نفقة كانت فى حق أو باطل فى سر أو علانية قليلة أو كثيرة ﴿أو نذرتم﴾ النذر عقد الضمير على شىء والتزامه وفعله كضرب ونصر ﴿من نذر﴾ أى نذر كان فى طاعة أومعصية بشرط أو بغير شرط متعلق بالمال أو بالأفعال كالصيام والصلاة ونحوهما ﴿فان الله يعلمه﴾ الفاء على الأول داخلة على الجواب وعلى الثانى مزيدة فى الخبر وتوحيد الضمير مع تعدد متعلق العلم لاتحاد المرجع بناء على كون العطف بكلمة أو كما فى قولك زيد أو عمرو أكرمته ولا يقال أكرمتهما ولهذا صير الى التأويل فى قوله تعالى ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما بل يعاد الضمير تارة الى المقدم رعاية للأولية كما فى قوله عز وعلا واذا رأوا تجارة أولهوا انفضوا اليها وأخرى الى المؤخر رعاية للقرب كما فى هذه الآية الكريمة وفى قوله تعالى ومن يكسب خطيئة أو اثما ثم يرم به بريئا وحمل النظم على تأويلهما بالمذكور ونظائره أوعلى حذف الأول ثقة بدلالة الثانى عليه كما فى قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله وقوله

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

ونحوهما مما عطف فيه بالواو الجامعة تعسف مستغنى عنه نعم يجوز ارجاع الضمير الى ما على تقدير كونها موصولة وتصدير الجملة بأن لتأكيد مضمونها افادة لتحقيق الجزاء أى فانه تعالى يجازيكم عليه البتة ان خيرا فخير وان شرا فشر فهو ترغيب

وترهيب و وعد و وعيد ﴿ وماللظالمين ﴾ بالانفاق والنذر فى المعاصى أو بمنع الصدقات وعدم الوفاء بالنذر أو بانفاق الخبيث أو بالرياء والمن والأذى وغير ذلك مما ينتظمه معنى الظلم الذى هو عبارة عن وضع الشيء فى غير موضعه الذى يحق أن يوضع فيه ﴿ من أنصار ﴾ أى أعوان ينصرونهم من بأس الله وعقابه لاشفاعة ولامدافعة وايراد صيغة الجمع لمقابلة الظالمين أى وما لظالم من الظالمين من نصير من الأنصار والجملة استئناف مقرر لما فيما قبله من الوعيد مفيد لفظاعة حال من يفعل مايفعل من الظالمين لتحصيل الأعوان و رعاية الخلان ﴿ ان تبدوا الصدقات فنعماهى ﴾ نوع تفصيل لبعض ماأجمل فى الشرطية و بيان له و لذلك ترك العطف بينهما أى ان تظهروا الصدقات فنعم شيأ ابداؤها بعد أن لم يكن رياء وسمعة وقرئ بفتح النون و كسر العين على الأصل وقرئ بكسر النون وسكون العين وقرئ بكسر النون واخفاء حركة العين وهذا فى الصدقات المفروضة وأما فى صدقة التطوع فالاخفاء أفضل وهى التى أريدت بقوله تعالى ﴿ وان تخفوها ﴾ أى تعطوها خفية ﴿ وتؤتوها الفقراء ﴾ ولعل التصريح بايتائها الفقراء مع أنه واجب فى الابداء أيضا لما أن الاخفاء مظنة الالتباس والاشتباه فان الغنى ربما يدعى الفقر و يقدم على قبول الصدقة سرا و لايفعل ذلك عند الناس ﴿ فهو خير لكم ﴾ أى فالاخفاء خير لكم من الابداء وهذا فى التطوع ومن لم يعرف بالمال وأما فى الواجب فالأمر بالعكس لدفع التهمة. عن ابن عباس رضى الله عنهما صدقة السر فى التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفا وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا ﴿ ويكفر عنكم من سيئاتكم ﴾ أى والله يكفر أو الاخفاء ومن تبعيضية أى شيئاً من سيئاتكم كما سترتموها وقيل مزيدة على رأى الاخفش وقرئ بالتاء مرفوعا ومجزوما على أن الفعل للصدقات وقرئ بالنون مرفوعا عطفا على محل مابعد الفاء أو على أنه خبر مبتدا محذوف أى ونحن نكفر أو على أنها جملة مبتدأة من فعل وفاعل وقرئ مجزوما عطفا على محل الفاء ومابعده لأنه جواب الشرط ﴿ والله بما تعملون ﴾ من الاسرار والاعلان ﴿ خبير ﴾ فهو ترغيب فى الاسرار ﴿ ليس عليك هداهم ﴾ أى لايجب عليك أن تجعلهم مهديين الى الاتيان بما أمروا به من المحاسن والانتهاء عما نهوا عنه من القبائح المعدودة وانما الواجب عليك الارشاد الى الخير والحث عليه والنهى عن الشر والردع عنه بما أوحى اليك من الآيات والذكر الحكيم ﴿ ولكن الله يهدى ﴾ هداية خاصة موصلة الى المطلوب حتما ﴿ من يشاء ﴾ هدايته الى ذلك ممن يتذكر بما ذكر و يتبع الحق و يختار الخير والجملة معترضة جئ بها على طريق تلوين الخطاب وتوجيهه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الالتفات الى الغيبة فيما بين الخطابات المتعلقة بالمكلفين مبالغة فى حملهم على الامتثال فان الاخبار بعدم وجوب تدارك أمرهم على النبى صلى الله عليه وسلم مؤذن بوجوبه عليهم حسبما ينطق به مابعده من الشرطية وقيل لما كثر فقراء المسلمين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن التصدق على المشركين كى تحملهم الحاجة على الدخول فى الاسلام فنزلت أى ليس عليك هدى من خالفك حتى تمنعهم الصدقة لأجل دخولهم فى الاسلام فلا التفات حينئذ فى الكلام وضمير الغيبة للمعهودين من فقراء المشركين بل فيه تلوين فقط وقوله تعالى ﴿ وماتنفقوا من خير ﴾ على الاول التفات من الغيبة الى خطاب المكلفين لزيادة هزهم نحو الامتثال وعلى الثانى تلوين للخطاب بتوجيهه اليهم وصرفه عن النبى صلى الله عليه وسلم وماشرطية جازمة لتنفقوا منتصبة به على المفعولية ومن تبعيضية متعلقة بمحذوف وقع صفة لاسم الشرط مبينة ومخصصة له أى أى شيء تنفقوا كائن من مال ﴿ فلانفسكم ﴾ أى فهو لانفسكم لاينتفع به غيركم فلا تمنوا على من أعطيتموه و لاتؤذوه ولاتنفقوا من الخبيث أو فنفعه الدينى لكم لالغيركم من الفقراء حتى تمنعوه ممن لاينتفع به من حيث الدين من فقراء المشركين ﴿ وماتنفقون الا ابتغاء وجه الله ﴾ استثناء من أعم العلل أو أعم الاحوال أى ليست نفقتكم لشيء من الاشياء الا لابتغاء وجه الله أو

ليست فى حال من الاحوال الا حال ابتغاء وجه الله فما بالكم تمنون بها وتنفقون الخبيث الذى لايوجه مثله الى الله تعالى وقيل هو نفى فى معنى النهى ﴿ وماتنفقوا من خير يوف اليكم ﴾ أى أجره وثوابه أضعافا مضاعفة حسبما فصل فيما قبل فلا عذر لكم فى أن ترغبوا عن انفاقه على أحسن الوجوه وأجملها فهو تأكيد و بيان للشرطية السابقة أو يوف اليكم مايخلفه وهو من نتائج دعائه عليه السلام بقوله اللهم اجعل للمنفق خلفا وللممسك تلفا وقيل حجت أسماء بنت أبى بكر فأتتها أمها تسألها وهى مشركة فأبت أن تعطيها وعن سعيد بن جبير أنهم كانوا يتقون أن يرضخوا لقراباتهم من المشركين وروى أن ناسا من المسلمين كانت لهم أصهار فى اليهود و رضاع كانوا ينفقون عليهم قبل الاسلام فلما أسلموا كرهوا أن ينفقوهم فنزلت وهذا فى غير الواجب وأما الواجب فلا يجوز صرفه الى الكافر وان كان ذميا ﴿ وأنتم لاتظلمون ﴾ لاتنقصون شيئاً مما وعدتم من الثواب المضاعف أو من الخلف ﴿ للفقراء ﴾ متعلق بمحذوف ينساق اليه الكلام كما فى قوله عز وجل فى تسع آيات الى فرعون أى اعمدوا للفقراء أو اجعلوا ماتنفقونه للفقراء أو صدقاتكم للفقراء ﴿ الذين أحصروا فى سبيل الله ﴾ بالغزو والجهاد ﴿ لايستطيعون ﴾ لاشتغالهم به ﴿ ضربا فى الارض ﴾ أى ذهابا فيها للكسب والتجارة وقيل هم أهل الصفة كانوا رضى الله عنهم نحواً من أربعمائة من فقراء المهاجرين يسكنون صفة المسجد يستغرقون أوقاتهم بالتعلم والجهاد وكانوا يخرجون فى كل سرية بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يحسبهم الجاهل ﴾ بحالهم ﴿ أغنياء من التعفف ﴾ أى من أجل تعففهم عن المسئلة ﴿ تعرفهم بسيماهم ﴾ أى تعرف فقرهم واضطرارهم بما تعاين منهم من الضعف و رثاثة الحال والخطاب للرسول عليه السلام أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب مبالغة فى بيان وضوح فقرهم ﴿ لايسألون الناس الحافا ﴾ أى الحاحا وهو أن يلازم السائل المسئول حتى يعطيه من قولهم لحفنى من فضل لحافه أى أعطانى من فضل ماعنده والمعنى لايسألونهم شيئاً وان سألوا لحاجة اضطرتهم اليه لم يلحوا وقيل هو نفى لكلا الأمرين جميعا على طريقة قوله على لاحب لايهتدى لمناره أى لامنار ولا اهتداء ﴿ وما تنفقوا من خير فان الله به عليم ﴾ فيجازيكم بذلك أحسن جزاء فهو ترغيب فى التصدق لاسيما على هؤلاء ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية ﴾ أى يعمون الأوقات والأحوال بالخير والصدقة وقيل نزلت فى شأن الصديق رضى الله عنه حيث تصدق بأربعين ألف دينار عشرة آلاف منه بالليل وعشرة بالنهار وعشرة سرا وعشرة علانية وقيل فى على رضى الله عنه حين لم يكن عنده الا أربعة دراهم فتصدق بكل واحد منها على وجه من الوجوه المذكورة ولعل تقديم الليل على النهار والسر على العلانية للايذان بمزية الاخفاء على الاظهار وقيل فى رباط الخيل والانفاق عليها ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ﴾ خبر للموصول والفاء للدلالة على سببية ماقبلها لما بعدها وقيل للعطف والخبر محذوف أى ومنهم الذين الخ و لذلك جوز الوقف على علانية ﴿ ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ تقدم تفسيره ﴿ الذين يأكلون الربوا ﴾ أى يأخذونه والتعبير عنه بالأكل لما أنه معظم ماقصد به ولشيوعه فى المطعومات مع مافيه من زيادة تشنيع لهم وهو الزيادة فى المقدار أو فى الأجل حسبما فصل فى كتب الفقه وانما كتب بالواو كالصلوة على لغة من يفخم فى أمثالها وزيدت الألف تشبيها بواو الجمع ﴿ لايقومون ﴾ أى من قبورهم اذا بعثوا ﴿ الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان ﴾ أى الا قياما كقيام المصروع وهو وارد على مايزعمون أن الشيطان يخبط الانسان فيصرع والخبط الضرب بغير استواء كخبط العشواء ﴿ من المس ﴾ أى الجنون وهذا أيضا من زعماتهم أن الجنى يمسه فيختلط عقله فلذلك يقال جن الرجل وهو متعلق بما قبله من الفعل المنفى أى لايقومون من المس الذى بهم بسبب أكلهم الربا أو يقوم أو يتخبطه فيكون نهوضهم وسقوطهم كالمصروعين لالاختلال عقولهم بل لأن الله

تعالى أربى فى بطونهم ما أكلوا من الربا فأثقلهم فصاروا مخبلين ينهضون ويسقطون تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف ﴿ذلك﴾ اشارة الى ماذكر من حالهم وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان بفظاعة المشار اليه ﴿بأنهم قالوا انما البيع مثل الربوا﴾ أى ذلك العقاب بسبب أنهم نظموا الربا والبيع فى سلك واحد لافضائهما الى الربح فاستحلوه استحلاله وقالوا يجوز بيع درهم بدرهمين كما يجوز بيع ماقيمته درهم بدرهمين بل جعلوا الربا أصلا فى الحل وقاسوا به البيع مع وضوح الفرق بينهما فان أحد الدرهمين فى الاول ضائع حتما وفى الثانى منجبر بمساس الحاجة الى السلعة أو بتوقع رواجها ﴿وأحل الله البيع وحرم الربوا﴾ انكار من جهة الله تعالى لتسويتهم وابطال للقياس لوقوعه فى مقابلة النص مع ما أشير اليه من عدم الاشتراك فى المناط والجملة ابتدائية لامحل لها من الاعراب ﴿فمن جاءه موعظة﴾ أى فمن بلغه وعظ وزجر كالنهى عن الربا وقرىء جاءته ﴿من ربه﴾ متعلق بجاءه أو بمحذوف وقع صفة لموعظة والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة للاشعار بكون مجىء الموعظة للتربية ﴿فانتهى﴾ عطف على جاءه أى فاتعظ بلا تراخ وتبع النهى ﴿فله ماسلف﴾ أى ماتقدم أخذه قبل التحريم ولا يسترد منه وما مرتفع بالظرف ان جعلت من موصولة وبالابتداء ان جعلت شرطية على رأى سيبويه لعدم اعتماد الظرف على ماقبله ﴿وأمره الى الله﴾ يجازيه على انتهائه ان كان عن قبول الموعظة وصدق النية وقيل يحكم فى شأنه ولا اعتراض لكم عليه ﴿ومن عاد﴾ أى الى تحليل الربا ﴿فأولئك﴾ اشارة الى من عاد والجمع باعتبار المعنى كما أن الافراد فى عاد باعتبار اللفظ وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد منزلتهم فى الشر والفساد ﴿أصحاب النار﴾ أى ملازموها ﴿هم فيها خالدون﴾ ماكثون فيها أبدا والجملة مقررة لما قبلها ﴿يمحق الله الربوا﴾ أى يذهب ببركته ويهلك المال الذى يدخل فيه ﴿ويربى الصدقات﴾ يضاعف ثوابها ويبارك فيها ويزيد المال الذى أخرجت منه الصدقة. روى عنه صلى الله عليه وسلم ان الله يقبل الصدقة ويربيها كما يربى أحدكم مهره وعنه عليه الصلاة والسلام مانقصت زكاة من مال قط ﴿والله لايحب﴾ أى لايرضى لان الحب مختص بالتوابين ﴿كل كفار﴾ مصر على تحليل المحرمات ﴿أثيم﴾ منهمك فى ارتكابه ﴿ان الذين آمنوا﴾ بالله ورسوله وبما جاءهم به ﴿وعملوا الصالحات وأقاموا الصلوة وآتوا الزكوة﴾ تخصيصهما بالذكر مع اندراجهما فى الصالحات لانافتهما على سائر الأعمال الصالحة على طريقة ذكر جبريل وميكال عقيب الملائكة عليهم السلام ﴿لهم أجرهم﴾ جملة من مبتدا وخبر واقعة خبرا لأن أى لهم أجرهم الموعود لهم وقوله تعالى ﴿عند ربهم﴾ حال من أجرهم وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم مزيد لطف وتشريف لهم ﴿ولاخوف عليهم﴾ من مكروه آت ﴿ولاهم يحزنون﴾ من محبوب فات ﴿ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ أى قوا أنفسكم عقابه ﴿وذروا مابقى من الربوا﴾ أى واتركوا بقايا ماشرطتم منه على الناس تركا كليا ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ على الحقيقة فان ذلك مستلزم لامتثال ما أمرتم به البتة وهو شرط حذف جوابه ثقة بما قبله أى ان كنتم مؤمنين فاتقوا وذروه الخ. روى أنه كان لثقيف مال على بعض قريش فطالبوهم عند المحل بالمال والربا فنزلت ﴿فان لم تفعلوا﴾ أى ما أمرتم به من الاتقاء وترك البقايا اما مع انكار حرمته واما مع الاعتراف بها ﴿فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾ أى فاعلموا بها من أذن بالشىء اذا علم به اما على الأول فكحرب المرتدين واما على الثانى فكحرب البغاة. وقرىء فآذنوا أى فأعلموا غيركم قيل هو من الاذان وهو الاستماع فانه من طرق العلم وقرىء فأيقنوا وهو مؤيد لقراءة العامة وتنكير حرب للتفخيم ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لها مؤكدة لفخامتها أى بنوع من الحرب عظيم لايقادر قدره كائن من عند الله ورسوله روى أنه لما نزلت قالت ثقيف لايد لنا بحرب الله ورسوله ﴿وان تبتم﴾ من الارتباء مع الايمان بحرمتها بعدما سمعتموه من الوعيد ﴿فلكم رؤس

أموالكم﴾ تأخذونها كلا ﴿لاتظلمون﴾ غرماءكم بأخذ الزيادة والجملة اما مستأنفة لامحل لها من الاعراب أو حال من الضمير فى لكم والعامل ما تضمنه الجار من الاستقرار ﴿ولاتظلمون﴾ عطف على ماقبله أى لاتظلمون أنتم من قبلهم بالمطل والنقص ومن ضرورة تعليق هذا الحكم بتوبتهم عدم ثبوته عند عدمها لأن عدمها ان كان مع انكار الحرمة فهم مرتدون ومالهم المكسوب فى حال الردة فىء للمسلمين عند أبى حنيفة رضى الله عنه وكذا سائر أموالهم عند الشافعى وعندنا هو لورثتهم ولاشىء لهم على كل حال وان كان مع الاعتراف بها فان كان لهم شوكة فهم على شرف القتل لم تسلم لهم رؤسهم فكيف برؤس أموالهم والا فكذلك عند ابن عباس رضى الله عنهما فانه يقول من عامل الربا يستتاب والاضرب عنقه وأما عند غيره فهم محبوسون الى أن تظهر توبتهم لايمكنون من التصرفات أصلا فما لم يتوبوا لم يسلم لهم شىء من أموالهم بل انما يسلم بموتهم لورثتهم ﴿وان كان ذو عسرة﴾ أى ان وقع غريم من غرمائكم ذو عسرة على أن كان تامة وقرىء ذا عسرة على أنها ناقصة ﴿فنظرة﴾ أى فالحكم نظرة أو فعليكم نظرة أو فلتكن نظرة وهى الانظار والامهال وقرىء فناظره أى فالمستحق ناظره أى منتظره أو فصاحب نظرته على طريق النسب وقرىء فناظره أمرا من المفاعلة أى فسامحه بالنظرة ﴿الى ميسرة﴾ أى الى يسار وقرىء بضم السين وهما لغتان كمشرقة ومشرقة وقرىء بهما مضافين بحذف التاء عند الاضافة كما فى قوله وأخلفوك عد الأمر الذى وعدوا ﴿وأن تصدقوا﴾ بحذف احدى التاءين وقرىء بتشديد الصاد أى وأن تتصدقوا على معسرى غرمائكم بالابراء ﴿خير لكم﴾ أى أكثر ثوابا من الانظار أو خير مما تأخذونه لمضاعفة ثوابه ودوامه فهو ندب الى أن يتصدقوا برؤس أموالهم كلا أو بعضا على غرمائهم المعسرين كقوله تعالى وأن تعفوا أقرب للتقوى وقيل المراد بالتصدق الانظار لقوله عليه السلام لايحل دين رجل مسلم فيؤخره الا كان له بكل يوم صدقة ﴿ان كنتم تعلمون﴾ جوابه محذوف أى ان كنتم تعلمون أنه خير لكم عملتموه ﴿واتقوا يوما﴾ هو يوم القيامة وتنكيره للتفخيم والتهويل وتعليق الاتقاء به للمبالغة فى التحذير عما فيه من الشدائد والأهوال ﴿ترجعون فيه﴾ على البناء للمفعول من الرجع وقرىء على البناء للفاعل من الرجوع والأول أدخل فى التهويل وقرىء بالياء على طريق الالتفات وقرىء تردون وكذا تصيرون ﴿الى الله﴾ لمحاسبة أعمالكم ﴿ثم توفى كل نفس﴾ من النفوس والتعميم للمبالغة فى تهويل اليوم أى تعطى كملا ﴿ما كسبت﴾ أى جزاء ماعملت من خير أو شر ﴿وهم لايظلمون﴾ حال من كل نفس تفيد أن المعاقبين وان كانت عقوباتهم مؤبدة غير مظلومين فى ذلك لما أنه من قبل أنفسهم وجمع الضمير لأنه أنسب بحال الجزاء كما أن الافراد أوفق بحال الكسب. عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام وقال ضعها فى رأس المائتين والثمانين من البقرة وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها أحداً وعشرين يوما وقيل أحدا وثمانين وقيل سبعة أيام وقيل ثلاث ساعات ﴿ياأيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين﴾ شروع فى بيان حال المداينة الواقعة فى تضاعيف المعاوضات الجارية فيما بينهم ببيع السلع بالنقود بعد بيان حال الربا أى اذا داين بعضكم بعضا وعامله نسيئة معطيا أو آخذا وفائدة ذكر الدين دفع توهم كون التداين بمعنى المجازاة أو التنبيه على تنوعه الى الحال والمؤجل وأنه الباعث على الكتبة وتعيين المرجع للضمير المنصوب المتصل بالأمر ﴿الى أجل﴾ متعلق بتداينتم أو بمحذوف وقع صفة لدين ﴿مسمى﴾ بالايام أو الاشهر ونظائرهما مما يفيد العلم ويرفع الجهالة لابالحصاد والدياس ونحوهما مما لايرفعها ﴿فاكتبوه﴾ أى الدين بأجله لأنه أوثق وأرفع للنزاع والجمهور على استحبابه وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد به السلم وقال لما حرم الله الربا أباح فى السلف ﴿وليكتب بينكم كاتب﴾ بيان لكيفية الكتابة المأمور بها وتعيين لمن يتولاها اثر الأمر بها اجمالا وحذف المفعول

اماالتعينه أوللقصد الى ايقاع نفس الفعل أى ليفعل الكتابة وقوله تعالى بينكم للايذان بأن الكاتب ينبغى أن يتوسط بين المتداينين ويكتب كلامهما ولا يكتفى بكلام أحدهما وقوله تعالى ﴿بالعدل﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لكاتب أى كاتب كائن بالعدل أى وليكن المتصدى للكتابة من شأنه أن يكتب بالسوية من غير ميل الى أحد الجانبين لايزيد ولا ينقص وهو أمر للمتداينين باختيار كاتب فقيه دين حتى يجئ كتابه موثوقا به معدلا بالشرع ويجوز أن يكون حالا منه أى ملتبسا بالعدل وقيل متعلق بالفعل أى وليكتب بالحق ﴿ولا يأب كاتب﴾ أى ولا يمتنع أحد من الكتاب ﴿أن يكتب﴾ كتاب الدين ﴿كما علمه الله﴾ على طريقة ماعلمه من كتبه الوثائق أو كما بينه بقوله تعالى بالعدل أولا يأب أن ينفع الناس بكتابته كما نفعه الله تعالى بتعليم الكتابة كقوله تعالى وأحسن كما أحسن الله اليك ﴿فليكتب﴾ تلك الكتابة المعلمة أمر بها بعد النهى عن ابائها تأكيدا لها ويجوز أن تتعلق الكاف بالأمر على أن يكون النهى عن الامتناع منها مطلقة ثم الأمر بها مقيدة ﴿وليملل الذى عليه الحق﴾ الاملال هو الاملاء أى وليكن المملى من عليه الحق لأنه المشهود عليه فلابد أن يكون هو المقر ﴿وليتق الله ربه﴾ جمع مابين الاسم الجليل والنعت الجليل للمبالغة فى التحذير أى وليتق المملى دون الكاتب كما قيل لقوله تعالى ﴿ولا يبخس منه﴾ أى من الحق الذى يمليه على الكاتب ﴿شيئا﴾ فانه الذى يتوقع منه البخس خاصة وأما الكاتب فيتوقع منه الزيادة كما يتوقع منه النقص فلو أريد نهيه لنهى عن كليهما وقدفعل ذلك حيث أمر بالعدل وانما شدد فى تكليف المملى حيث جمع فيه بين الأمر بالاتقاء والنهى عن البخس لما فيه من الدواعى الى المنهى عنه فان الانسان مجبول على دفع الضرر عن نفسه وتخفيف مافى ذمته بما أمكن ﴿فان كان الذى عليه الحق﴾ صرح بذلك فى موضع الاضمار لزيادة الكشف والبيان لا لأن الأمر والنهى لغيره ﴿سفيها﴾ ناقص العقل مبذرا مجازفا ﴿أو ضعيفا﴾ صبيا أو شيخا مختلا ﴿أو لا يستطيع أن يمل هو﴾ أى غير مستطيع للاملاء بنفسه لخرس أوعى أو جهل أوغير ذلك من العوارض ﴿فليملل وليه﴾ أى الذى يلى أمره و يقوم مقامه من قيم أو وكيل أو مترجم ﴿بالعدل﴾ أى من غير نقص و لا زيادة لم يكلف بعين ما كلف به من عليه الحق لأنه يتوقع منه الزيادة كما يتوقع منه البخس ﴿واستشهدوا شهيدين﴾ أى اطلبوهما ليتحملا الشهادة على ماجرى بينكم من المداينة وتسميتهما شهيدين لتنزيل المشارف منزلة الكائن ﴿من رجالكم﴾ متعلق باستشهدوا ومن ابتدائية أو بمحذوف وقع صفة لشهيدين ومن تبعيضية أى شهيدين كائنين من رجال المسلمين الأحرار اذالكلام فى معاملاتهم فان خطابات الشرع لاتنتظم العبيد بطريق العبارة كما بين فى موضعه وأما اذا كانت المداينة بين الكفرة أوكان من عليه الحق كافرا فيجوز استشهاد الكافر عندنا ﴿فان لم يكونا﴾ أى الشهيدان جميعا على طريقة نفى الشمول لاشمول النفى ﴿رجلين﴾ امالاعوازهما أولسبب آخر من الأسباب ﴿فرجل وامرأتان﴾ أى فليشهد رجل وامرأتان أوفرجل وامرأتان يكفون وهذا فيما عدا الحدود والقصاص عندنا وفى الأموال خاصة عند الشافعى ﴿ممن ترضون﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لرجل وامرأتان أى كائنون مرضيين عندكم وتخصيصهم بالوصف المذكور مع تحقق اعتباره فى كل شهيد لقلة اتصاف النساء به وقيل نعت لشهيدين أى كائنين ممن ترضون و رد بأنه يلزم الفصل بينهما بالأجنبى وقيل بدل من رجالكم بتكرير العامل و رد بما ذكر من الفصل وقيل متعلق بقوله تعالى فاستشهدوا فيلزم الفصل بين اشتراط المرأتين و بين تعليله وقوله عز وجل ﴿من الشهداء﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من الضمير المحذوف الراجع الى الموصول أى ممن ترضونهم كائنين من بعض الشهداء لعلمكم بعدالتهم وثقتكم بهم وادراج النساء فى الشهداء بطريق التغليب ﴿أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى﴾ تعليل لاعتبار العدد فى النساء والعلة فى الحقيقة هى التذكير ولكن الضلال لما

كان سببا له نزل منزلته كما فى قولك أعددت السلاح أن يجئ عدو فأدفعه كأنه قيل لاجل أن تذكر احداهما الأخرى ان ضلت الشهادة بأن نسيتها ولعل ايثار ماعليه النظم الكريم على أن يقال أن تضل احداهما فتذكرها الأخرى لتأكيد الابهام والمبالغة فى الاحتراز عن توهم اختصاص الضلال باحداهما بعينها والتذكير بالأخرى وقرئ فتذكر من الاذكار وقرئ فتذاكر وقرئ ان تضل على الشرط فتذكر بالرفع كقوله تعالى ومن عاد فينتقم الله منه ﴿ولا يأب الشهداء اذا مادعوا﴾ لأداء الشهادة أو لتحملها وتسميتهم شهداء قبل التحمل لما مر من تنزيل المشارف منزلة الواقع ومامزيدة. عن قتادة أنه كان الرجل يطوف فى الحواء العظيم فيه القوم فلا يتبعه منهم أحد فنزلت ﴿ولا تسأموا﴾ أى لا تملوا من كثرة مداينا تكم ﴿أن تكتبوه﴾ أى الدين أو الحق أو الكتاب وقيل كنى به عن الكسل الذى هو صفة المنافق كما ورد فى قوله تعالى واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لا يقول المؤمن كسلت ﴿صغيرا أو كبيرا﴾ حال من الضمير أى حال كونه صغيرا أو كبيرا أى قليلا أو كثيرا أو مجملا أو مفصلا ﴿الى أجله﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من الهاء فى تكتبوه أى مستقرا فى الذمة الى وقت حلوله الذى أقر به المديون ﴿ذلكم﴾ اشارة الى ماأمر به من الكتب والخطاب للمؤمنين ﴿أقسط﴾ أى أعدل ﴿عند الله﴾ أى فى حكمه تعالى ﴿وأقوم للشهادة﴾ أى أثبت لها وأعون على اقامتها وهما مبنيان من أقسط وأقام فانه قياسى عند سيبويه أو من قاسط بمعنى ذى قسط وقويم وانما صحت الواو فى أقوم كما صحت فى التعجب لجموده ﴿وأدنى أن لا ترتابوا﴾ وأقرب الى انتفاء ريبكم فى جنس الدين وقدره وأجله وشهوده ونحو ذلك ﴿الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم﴾ استثناء منقطع من الأمر بالكتابة أى لكن وقت كون تداينكم أو تجارتكم تجارة حاضرة بحضور البدلين تديرونها بينكم بتعاطيهما يدا بيد ﴿فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها﴾ أى فلا بأس بأن لا تكتبوها لبعده عن التنازع والنسيان وقرئ برفع تجارة على أنها اسم كان وحاضرة صفتها وتديرونها خبرها أو على أنها تامة ﴿وأشهدوا اذا تبايعتم﴾ أى هذا التبايع أو مطلقا لأنه أحوط والأوامر الواردة فى الآية الكريمة للندب عند الجمهور وقيل للوجوب ثم اختلف فى احكامها ونسخها ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ نهى عن المضارة محتمل للبناءين كما ينبئ عنه قراءة من قرأ ولا يضارر بالكسر والفتح وهو نهيهما عن ترك الاجابة والتغيير والتحريف فى الكتبة والشهادة أو نهى الطالب عن الضرار بهما بأن يعجلهما عن مهمهما أو يكلفهما الخروج عما حد لهما أو لا يعطى الكاتب جعله وقرئ بالرفع على أنه نفى فى معنى النهى ﴿وان تفعلوا﴾ مانهيتم عنه من الضرار ﴿فانه﴾ أى فعلكم ذلك ﴿فسوق بكم﴾ أى خروج عن الطاعة ملتبس بكم ﴿واتقوا الله﴾ فى مخالفة أوامره ونواهيه التى من جملتها نهيه عن المضارة ﴿ويعلمكم الله﴾ أحكامه المتضمنة لمصالحكم ﴿والله بكل شئ عليم﴾ فلا يكاد يخفى عليه حالكم وهو مجازيكم بذلك كرر لفظ الجلالة فى الجمل الثلاث لادخال الروعة وتربية المهابة وللتنبيه على استقلال كل منها بمعنى على حياله فان الأولى حث على التقوى والثانية وعد بالانعام والثالثة تعظيم لشأنه تعالى ﴿وان كنتم على سفر﴾ أى مسافرين أو متوجهين اليه ﴿ولم تجدوا كاتبا﴾ فى المداينة وقرئ كتابا وكتبا وكتابا ﴿فرهان مقبوضة﴾ أى فالذى يستوثق به أو فعليكم أو فليؤخذ أو فالمشروع رهان مقبوضة وليس هذا التعليق لاشتراط السفر فى شرعية الارتهان كما حسبه مجاهد والضحاك لأنه صلى الله عليه وسلم رهن درعه فى المدينة من يهودى بعشرين صاعا من شعير أخذه لأهله بل لاقامة التوثق بالارتهان مقام التوثق بالكتبة فى السفر الذى هو مظنة اعوازها وانما لم يتعرض لحال الشاهد لما أنه فى حكم الكاتب توثقا واعوازا والجمهور على وجوب القبض فى تمام الرهن غير مالك وقرئ فرهن كسقف وكلاهما جمع رهن بمعنى مرهون وقرئ بسكون الهاء تخفيفا ﴿فان أمن بعضكم بعضا﴾

أى بعض الدائنين بعض المديونين لحسن ظنه به واستغنى بأمانته عن الارتهان وقرئ فان أو من بعضكم أى آمنه الناس و وصفوه بالامانة قيل فيكون انتصاب بعضا حينئذ على نزع الخافض أى على متاع بعض ﴿فليؤد الذى اؤتمن﴾ وهو المديون وانما عبر عنه بذلك العنوان لتعينه طريقا للاعلام وحمله على الأداء ﴿أمانته﴾ أى دينه وانما سمى أمانة لائتمانه عليه بترك الارتهان به وقرئ ايتمن بقلب الهمزة ياء وقرئ بادغام الياء فى التاء وهو خطأ لأن المنقلبة من الهمزة لاتدغم لأنها فى حكمها ﴿وليتق الله ربه﴾ فى رعاية حقوق الأمانة وفى الجمع بين عنوان الالوهية وصفة الربوبية من التأكيد والتحذير مالايخفى ﴿ولا تكتموا الشهادة﴾ أيها الشهود أو المديونون أى شهادتكم على أنفسكم عند المعاملة ﴿ومن يكتمها فانه آثم قلبه﴾ آثم خبر ان وقلبه مرتفع به على الفاعلية كانه قيل يأثم قلبه أو مرتفع بالابتداء وآثم خبر مقدم والجملة خبر ان واسناد الاثم الى القلب لأن الكتمان مما اقترفه ونظيره نسبة الزنا الى العين والاذن أو للمبالغة لانه رئيس الاعضاء وأفعاله أعظم الافعال كانه قيل تمكن الاثم فى نفسه وملك أشرف مكان فيه وفاق سائر ذنوبه. عن ابن عباس رضى الله عنهما ان أكبر الكبائر الاشراك بالله لقوله تعالى فقد حرم الله عليه الجنة وشهادة الزور وكتمان الشهادة وقرئ قلبه بالنصب كما فى سفه نفسه وقرئ أثم قلبه أى جعله آثما ﴿والله بما تعملون عليم﴾ فيجازيكم به ان خيرا فخير وان شرا فشر ﴿لله ما فى السموات وما فى الارض﴾ من الامور الداخلة فى حقيقتهما والخارجة عنهما المتمكنة فيهما من أولى العلم وغيرهم أى كلها له تعالى خلقا وملكا وتصرفا لاشركة لغيره فى شئ منها بوجه من الوجوه ﴿وان تبدوا مافى أنفسكم﴾ من السوء والعزم عليه بأن تظهروه للناس بالقول أو بالفعل ﴿أو تخفوه﴾ بأن تكتموه منهم ولا تظهروه بأحد الوجهين ولا يندرج فيه مالايخلو عنه البشر من الوساوس وأحاديث النفس التى لاعقد ولا عزيمة فيها اذ التكليف بحسب الوسع ﴿يحاسبكم به الله﴾ يوم القيامة وهو حجة على منكرى الحساب من المعتزلة والروافض وتقديم الجار والمجرور على الفاعل للاعتناء به وأما تقديم الابداء على الاخفاء على عكس ما فى قوله عز وجل قل ان تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله فلما أن المعلق بما فى أنفسهم ههنا هو المحاسبة والاصل فيها الاعمال البادية وأما العلم فتعلقه بها كتعلقه بالاعمال الخافية كيف لاوعلمه سبحانه بمعلوماته متعال عن أن يكون بطريق حصول الصور بل وجود كل شئ فى نفسه فى أى طور كان علم بالنسبة اليه تعالى وفى هذا لايختلف الحال بين الاشياء البارزة والكامنة خلا أن مرتبة الاخفاء متقدمة على مرتبة الابداء اذ مامن شئ يبدى الا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمر فى النفس فتعلق علمه تعالى بحالته الاولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية وقد مر فى تفسير قوله تعالى أو لا يعلمون أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون ﴿فيغفر﴾ بالرفع على الاستئناف أى فهو يغفر بفضله ﴿لمن يشاء﴾ أى يغفر له ﴿ويعذب﴾ بعدله ﴿من يشاء﴾ أن يعذبه حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح وتقديم المغفرة على التعذيب لتقدم رحمته على غضبه وقرئ بجزم الفعلين عطفا على جواب الشرط وقرئ بالجزم من غير فاء على أنهما بدل من الجواب بدل البعض أو الاشتمال ونظيره الجزم على البدلية من الشرط فى قوله

متى تأتنا تلمم بنا فى ديارنا تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

وادغام الراء فى اللام لحن ﴿والله على كل شئ قدير﴾ تذييل مقرر لمضمون ماقبله فان كمال قدرته تعالى على جميع الاشياء موجب لقدرته سبحانه على ماذكر من المحاسبة ومافرع عليه من المغفرة والتعذيب ﴿آمن الرسول﴾ لما ذكر فى فاتحة السورة الكريمة أن ما أنزل الى الرسول صلى الله عليه وسلم من الكتاب العظيم الشأن هدى للمتصفين بما فصل هناك من الصفات الفاضلة التى من جملتها الايمان به وبما أنزل قبله من الكتب الالهية وأنهم حائزون لاثرتى

الهدى والفلاح من غير تعيين لهم بخصوصهم ولا تصريح بتحقق اتصافهم بها اذ ليس فيما يذكر فى حيز الصلة حكم بالفعل وعقب ذلك ببيان حال من كفر به من المجاهرين والمنافقين ثم شرح فى تضاعيفها من فنون الشرائع والاحكام والمواعظ والحكم وأخبار سوالف الامم وغير ذلك ما تقتضى الحكمة شرحه عين فى خاتمتها المتصفون بها وحكم باتصافهم بها على طريق الشهادة لهم من جهته عز وجل بكمال الايمان وحسن الطاعة وذكر صلى الله عليه وسلم بطريق الغيبة مع ذكره هناك بطريق الخطاب لما أن حق الشهادة الباقية على مر الدهور أن لايخاطب بها المشهود له ولم يتعرض ههنا لبيان فوزهم بمطالبهم التى من جملتها ما حكى عنهم من الدعوات الآتية ايذانا بأنه أمر محقق غنى عن التصريح به لا سيما بعد مانص عليه فيما سلف وايراده عليه السلام بعنوان الرسالة المنبئة عن كونه عليه السلام صاحب كتاب مجيد وشرع جديد تمهيد لما يعقبه من قوله تعالى ﴿بما أنزل اليه﴾ ومزيد توضيح لاندراجه فى الرسل المؤمن بهم عليهم السلام والمراد بما أنزل اليه ما يعم كله وكل جزء من أجزائه ففيه تحقيق لكيفية ايمانه صلى الله عليه وسلم وتعيين لعنوانه أى آمن عليه السلام بكل ما أنزل اليه ﴿من ربه﴾ ايمانا تفصيليا متعلقا بجميع ما فيه من الشرائع والاحكام والقصص والمواعظ وأحوال الرسل والكتب وغير ذلك من حيث أنه منزل منه تعالى وأما الايمان بحقية أحكامه وصدق أخباره ونحو ذلك فمن فروع الايمان به من الحيثية المذكورة وفى هذا الاجمال اجلال لمحله عليه الصلاة والسلام واشعار بأن تعلق ايمانه بتفاصيل ما أنزل اليه واحاطته بجميع ما انطوى عليه من الظهور بحيث لا حاجة الى ذكره أصلا وكذا فى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام تشريف له وتنبيه على أن انزاله اليه تربية وتكميل له عليه السلام ﴿والمؤمنون﴾ أى الفريق المعروفون بهذا الاسم فاللام عهدية لاموصولة لافضائها الى خلو الكلام عن الجدوى وهو مبتدأ وقوله عز وجل ﴿كل﴾ مبتدأ ثان وقوله تعالى ﴿آمن﴾ خبره والجملة خبر للمبتدا الأول والرابط بينهما الضمير الذى ناب منابه التنوين وتوحيد الضمير فى آمن مع رجوعه الى كل المؤمنين لما أن المراد بيان ايمان كل فرد فرد منهم من غير اعتبار الاجتماع كما اعتبر ذلك فى قوله تعالى وكل أتوه داخرين وتغيير سبك النظم الكريم عما قبله لتأكيد الاشعار بما بين ايمانه عليه السلام المبنى على المشاهدة والعيان وبين ايمانهم الناشئ عن الحجة والبرهان من التفاوت البين والاختلاف الجلى كأنهما متخالفان من كل وجه حتى فى هيئة التركيب الدال عليهما وما فيه من تكرير الاسناد لما فى الحكم بايمان كل واحد منهم على الوجه الآتى من نوع خفاء محوج الى التقوية والتأكيد أى كل واحد منهم آمن ﴿بالله﴾ وحده من غير شريك له فى الألوهية والمعبودية ﴿وملائكته﴾ أى من حيث أنهم عباد مكرمون له تعالى من شأنهم التوسط بينه تعالى وبين الرسل بانزال الكتب والقاء الوحى فان مدار الايمان بهم ليس من خصوصيات ذواتهم فى أنفسهم بل هو من اضافتهم اليه تعالى من الحيثية المذكورة كما يلوح به الترتيب فى النظم ﴿وكتبه ورسله﴾ أى من حيث مجيئهما من عنده تعالى لارشاد الخلق الى ماشرع لهم من الدين بالاوامر والنواهى لكن لا على الاطلاق بل على أن كل واحد من تلك الكتب منزل منه تعالى الى رسول معين من أولئك الرسل عليهم الصلاة والسلام حسبما فصل فى قوله تعالى قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم الآية ولا على أن مناط الايمان خصوصية ذلك الكتاب أو ذلك الرسول بل على أن الايمان بالكل مندرج فى الايمان بالكتاب المنزل الى الرسول صلى الله عليه وسلم ومستند اليه لما تلى من الآية الكريمة ولا على أن أحكام الكتب السالفة وشرائعها باقية بالكلية ولا على أن الباقى منها معتبر بالاضافة اليها بل على أن أحكام كل واحد منها كانت حقة ثابتة الى ورود كتاب آخر ناسخ له وأن ما لم ينسخ منها الى الآن من الشرائع والأحكام

ثابتة من حيث أنها من أحكام هذا الكتاب المصون عن النسخ الى يوم القيامة وانما لم يذكر ههنا الايمان باليوم الآخر كما ذكر فى قوله تعالى ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين لاندراجه فى الايمان بكتبه وقرئ وكتابه على أن المراد به القرآن أو جنس الكتاب كما فى قوله تعالى فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب والفرق بينه وبين الجمع أنه شائع فى أفراد الجنس والجمع فى جموعه ولذلك قيل الكتاب أكثر من الكتب وهذا نوع تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى بما أنزل اليه من ربه اقتصر عليه ايذانا بكفايته فى الايمان الاجمالى المتحقق فى كل فرد من أفراد المؤمنين من غير نفى لزيادة ضرورة اختلاف طبقاتهم وتفاوت ايمانهم بالامور المذكورة فى مراتب التفصيل تفاوتا فاحشا فان الاجمال فى الحكاية لا يوجب الاجمال فى المحكى كيف لا وقد أجمل فى حكاية ايمانه عليه السلام بما أنزل اليه من ربه مع بداهة كونه متعلقا بتفاصيل مافيه من الجلائل والدقائق ثم أن الامور المذكورة حيث كانت من الامور الغيبية التى لا يوقف عليها الامن جهة العليم الخبير كان الايمان بها مصداقا لما ذكر فى صدر السورة الكريمة من الايمان بالغيب وأما الايمان بكتبه تعالى فاشارة الى مافى قوله تعالى يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك هذا هو اللائق بشأن التنزيل والحقيق بمقداره الجليل وقد جوز أن يكون قوله تعالى والمؤمنون معطوفا على الرسول فيوقف عليه والضمير الذى عوض عنه التنوين راجع الى المعطوفين معا كأنه قيل آمن الرسول والمؤمنون بما أنزل اليه من ربه ثم فصل ذلك وقيل كل واحد من الرسول والمؤمنين آمن بالله الخ خلا أنه قدم المؤمن به على المعطوف اعتناء بشأنه وايذانا بأصالته عليه السلام فى الايمان به ولا يخفى أنه مع خلوه عما فى الوجه الاول من كمال اجلال شأنه عليه السلام وتفخيم ايمانه مخل بجزالة النظم الكريم لانه ان حمل كل من الايمانين على ما يليق بشأنه عليه السلام من حيث الذات ومن حيث التعلق بالتفاصيل استحال اسنادهما الى غيره عليه السلام وضاع التكرير وان حملا على ما يليق بشأن آحاد الامة كان ذلك حطا لرتبته العلية عليه السلام وأما حملهما على ما يليق بكل واحد ممن نسبا اليه من الآحاد ذاتا وتعلقا بأن يحملا بالنسبة الى الرسول صلى الله عليه وسلم على الايمان العيانى المتعلق بجميع التفاصيل وبالنسبة الى آحاد الأمة على الايمان المكتسب من جهته عليه السلام اللائق بحالهم فى الاجمال والتفصيل فاعتساف بين ينبغى تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله وقوله تعالى ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ فى حيز النصب بقول مقدر على صيغة الجمع رعاية لجانب المعنى منصوب على أنه حال من ضمير آمن أو مرفوع على أنه خبر آخر لكل أى يقولون لا نفرق بينهم بأن نؤمن ببعض منهم ونكفر بآخرين بل نؤمن بصحة رسالة كل واحد منهم قيدوا به ايمانهم تحقيقا للحق وتخطئة لاهل الكتابين حيث أجمعوا على الكفر بالرسول صلى الله عليه وسلم واستقلت اليهود بالكفر بعيسى عليه السلام أيضا على أن مقصودهم الاصلى ابراز ايمانهم بما كفروا به من رسالته عليه السلام لا اظهار موافقتهم لهم فيما آمنوا به وهذا كما ترى صريح فى أن القائلين آحاد المؤمنين خاصة اذ لا يمكن أن يسند اليه عليه السلام أن يقول لا أفرق بين أحد من رسله وهو يريد به اظهار ايمانه برسالة نفسه وتصديقه فى دعواها وعدم التعرض لنفى التفريق بين الكتب لاستلزام المذكور اياه وانما لم يعكس مع تحقق التلازم من الطرفين لما أن الاصل فى تفريق المفرقين هو الرسل وكفرهم بالكتب متفرع على كفرهم بهم وقرئ بالياء على اسناد الفعل الى كل وقرئ لا يفرقون حملا على المعنى كما فى قوله تعالى وكل أتوه داخرين فالجملة نفسها حال من الضمير المذكور وقيل خبر ثان لكل كما قيل فى القول المقدر فلا بد من اعتبار الكلية بعد النفى دون العكس اذ المراد شمول النفى لا نفى الشمول والكلام فى همزة أحد وفى دخول بين عليه قد مر تفصيله عند قوله تعالى لا نفرق بين أحد منهم وفيه من الدلالة صريحا على تحقق عدم التفريق بين كل فرد فرد منهم وبين من عداه كائنا من كان ماليس

فى أن يقال لا نفرق بين رسله وايثار اظهار الرسل على الاضمار الواقع مثله فى قوله تعالى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم اما للاحتراز عن توهم اندراج الملائكة فى الحكم أو للاشعار بعلة عدم التفريق أو للايماء الى عنوانه لأن المعتبر عدم التفريق من حيث الرسالة دون سائر الحيثيات الخاصة ﴿وقالوا﴾ عطف على آمن وصيغة الجمع باعتبار جانب المعنى وهو حكاية لامتثالهم بالاوامر اثر حكاية ايمانهم ﴿سمعنا﴾ أى فهمنا ماجاءنا من الحق وتيقنا بصحته ﴿وأطعنا﴾ مافيه من الاوامر والنواهى وقيل سمعنا أجبنا دعوتك وأطعنا أمرك ﴿غفرانك ربنا﴾ أى اغفر لنا غفرانك أو نسألك غفرانك ذنوبنا المتقدمة أو مالا يخلو عنه البشر من التقصير فى مراعاة حقوقك وتقديم ذكر السمع والطاعة على طلب الغفران لما أن تقديم الوسيلة على المسئول أدعى الى الاجابة والقبول والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة اليهم للمبالغة فى التضرع والجؤار ﴿واليك المصير﴾ أى الرجوع بالموت والبعث لا الى غيرك وهو تذييل لما قبله مقرر للحاجة الى المغفرة لما أن الرجوع للحساب والجزاء وقوله تعالى ﴿لا يكلف الله نفسا الا وسعها﴾ جملة مستقلة جئ بها اثر حكاية تلقيهم لتكاليفه تعالى بحسن الطاعة اظهارا لما له تعالى عليهم فى ضمن التكليف من محاسن آثار الفضل والرحمة ابتداء لا بعد السؤال كما سيجئ. هذا وقد روى أنه لما نزل قوله تعالى وان تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوه عليه السلام ثم بركوا على الركب فقالوا أى رسول الله كلفنا من الاعمال ما نطيق الصلاة والصوم والحج والجهاد وقد أنزل اليك هذه الآية ولا نطيقها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير فقرأها القوم فأنزل الله عز وجل آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه الى قوله تعالى غفرانك ربنا واليك المصير فسئولهم الغفران المعلق بمشيئته عز وجل فى قوله فيغفر لمن يشاء ثم أنزل الله تعالى لا يكلف الله نفسا الا وسعها تهوينا للخطب عليهم ببيان أن المراد بما فى أنفسهم ما عزموا عليه من السوء خاصة لا مايعم الخواطر التى لا يستطاع الاحتراز عنها والتكليف الزام مافيه كلفة ومشقة والوسع مايسع الانسان ولا يضيق عليه أى سنته تعالى أنه لا يكلف نفسا من النفوس الا ما يتسع فيه طوقها ويتيسر عليها دون مدى الطاقة والمجهود فضلا منه تعالى ورحمة لهذه الأمة كقوله تعالى يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وقرئ وسعها بالفتح وهذا يدل على عدم وقوع التكليف بالمحال لا على امتناعه وقوله تعالى ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ للترغيب فى المحافظة على مواجب التكليف والتحذير عن الاخلال بها ببيان أن تكليف كل نفس مع مقارنته لنعمة التخفيف والتيسير تتضمن مراعاته منفعة زائدة وأنها تعود اليها لا الى غيرها ويستتبع الاخلال به مضرة تحيق بها لا بغيرها فان اختصاص منفعة الفعل بفاعله من أقوى الدواعى الى تحصيله واقتصار مضرته عليه من أشد الزواجر عن مباشرته أى لها ثواب ما كسبت من الخير الذى كلفت فعله لا لغيرها استقلالا أو اشتراكا ضرورة شمول كلمة ما لكل جزء من أجزاء مكسوبها وعليها لا على غيرها بأحد الطريقين المذكورين عقاب ما اكتسبت من الشر الذى كلفت تركه وايراد الاكتساب فى جانب الشر لما فيه من اعتمال ناشئ من اعتناء النفس بتحصيل الشر وسعيها فى طلبه ﴿ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا﴾ شروع فى حكاية بقية دعواتهم اثر بيان سر التكليف أى لا تؤاخذنا بما صدر عنا من الأمور المؤدية الى النسيان أو الخطأ من تفريط وقلة مبالاة ونحوهما مما يدخل تحت التكليف أو بأنفسهما من حيث ترتبهما على ما ذكر أو مطلقا اذ لا امتناع فى المؤاخذة بهما عقلا فان المعاصى كالسموم فكما أن تناولها ولو سهوا أو خطأ مؤد الى الهلاك فتعاطى المعاصى أيضا لا يبعد أن يفضى الى العقاب وان لم يكن عن عزيمة ووعده تعالى بعدمه لا يوجب استحالة وقوعه فان ذلك من آثار فضله ورحمته

كما ينبي عنه الرفع فى قوله عليه السلام رفع عن أمتى الخطأ والنسيان . وقد روى أن اليهود كانوا اذا نسوا شيأ عجلت لهم العقوبة فدعاؤهم بعد العلم بتحقق الموعود للاستدامة والاعتداد بالنعمة فى ذلك كما فى قوله تعالى ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً﴾ عطف على ماقبله وتوسيط النداء بينهما لابراز مزيد الضراعة والاصر العبء الثقيل الذى يأصر صاحبه أى يحبسه مكانه والمراد به التكاليف الشاقة وقيل الاصر الذنب الذى لاتوبة له فالمعنى اعصمنا من اقترافه وقرىء آصارا وقرىء ولا تحمل بالتشديد للمبالغة ﴿كما حملته على الذين من قبلنا﴾ فى حيز النصب على أنه صفة لمصدر محذوف أى حملا مثل حملك اياه على من قبلنا أو على أنه صفة لاصرا أى إصراً مثل الاصر الذى حملته على من قبلنا وهو ما كلفه بنواسرائيل من بخع النفس فى التوبة وقطع موضع النجاسة وخمسين صلاة فى يوم وليلة وصرف ربع المال للزكاة وغير ذلك من التشديدات فانهم كانوا اذا أتوا بخطيئة حرم عليهم من الطعام بعض ما كان حلالا لهم قال الله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وقد عصم الله عز وجل بفضله ورحمته هذه الأمة عن أمثال ذلك وأنزل فى شأنهم ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم وقال عليه السلام بعثت بالحنيفية السهلة السمحة وعن العقوبات التى عوقب بها الأولون من المسخ والخسف وغير ذلك قال عليه السلام رفع عن أمتى الخسف والمسخ والغرق ﴿ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به﴾ عطف على ماقبله واستعفاء عن العقوبات التى لاتطاق بعد الاستعفاء عما يؤدى اليها التفريط فيه من التكاليف الشاقة التى لايكاد من كلفها يخلو عن التفريط فيها كأنه قيل لاتكلفنا تلك التكاليف ولا تعاقبنا بتفريطنا فى المحافظة عليها فيكون التعبير عن انزال العقوبات بالتحميل باعتبار مايؤدى اليها وقيل هو تكرير للأول وتصوير للاصر بصورة مالا يستطاع مبالغة وقيل هو استعفاء عن التكليف بمالاتفى به الطاقة البشرية حقيقة فيكون دليلا على جوازه عقلا والا لما سئل التخلص عنه والتشديد ههنا لتعدية الفعل الى مفعول ثان ﴿واعف عنا﴾ أى آثار ذنوبنا ﴿واغفر لنا﴾ واستر عيوبنا ولا تفضحنا على رؤس الاشهاد ﴿وارحمنا﴾ وتعطف بنا وتفضل علينا وتقديم طلب العفو والمغفرة على طلب الرحمة لما أن التخلية سابقة على التحلية ﴿أنت مولانا﴾ سيدنا ونحن عبيدك أو ناصرنا أو متولى أمورنا ﴿فانصرنا على القوم الكافرين﴾ فان من حق المولى أن ينصر عبده ومن يتولى أمره على الأعداء والمراد به عامة الكفرة وفيه اشارة الى أن اعلاء كلمة الله والجهاد فى سبيله تعالى حسبما أمر فى تضاعيف السورة الكريمة غاية مطالبهم . روى أنه عليه الصلاة والسلام لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل دعوة قد فعلت . وعنه عليه السلام أنزل الله آيتين من كنوز الجنة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفى عام من قرأهما بعد العشاء الأخيرة أجزأتاه عن قيام الليل . وعنه عليه السلام من قرأ آيتين من سورة البقرة كفتاه وهو حجة على من استكره أن يقول سورة البقرة وقال ينبغى أن يقال السورة التى يذكر فيها البقرة كما قال عليه السلام السورة التى يذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها فان تعلمها بركة وتركها حسرة ولن تستطيعها البطلة قيل وما البطلة قال عليه السلام السحرة

سورة آل عمران مدنية مائتا آية

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الم الله لا اله الا هو﴾ قد سلف أن مالا تكون من هذه الفواتح مفردة كصاد وقاف ونون ولا موازنة لمفرد كحاميم وطاسين وياسين الموازنة لقابيل وهابيل وكطاسين ميم الموازنة لدارابجرد حسبما ذكره سيبويه فى الكتاب فطريق التلفظ بها الحكاية فقط ساكنة الاعجاز على الوقف سواء جعلت أسماء أو مسرودة على نمط التعديد وان لزمها التقاء

الساكنين لما أنه مغتفر فى باب الوقف قطعا فحق هذه الفاتحة أن يوقف عليها ثم يبدأ بما بعدها كما فعله أبو بكر رضى الله عنه رواية عن عاصم وأما مافيها من الفتح على القراءة المشهورة فانما هى حركة همزة الجلالة ألقيت على الميم لتدل على ثبوتها اذ ليس اسقاطها للدرج بل للتخفيف فهى ببقاء حركتها فى حكم الثابت المبتدا به والميم بكون الحركة لغيرها فى حكم الوقف على السكون دون الحركة كما توهم واعترض بأنه غير معهود فى الكلام وقيل هى حركة لالتقاء السواكن التى هى الياء والميم ولام الجلالة بعد سقوط همزتها وأنت خبير بأن سقوطها مبنى على وقوعها فى الدرج وقد عرفت أن سكون الميم وقفى موجب لانقطاعها عما بعدها مستدع لثبات الهمزة على حالها كما فى الحروف والاسماء المبنية على السكون فان حقها الاتصال بما بعدها وضعا واستعمالا فتسقط بها همزة الوصل وتحرك أعجازها لالتقاء الساكنين ثم ان جعلت مسرودة على نمط التعديد فلا محل لها من الاعراب كسائر الفواتح وان جعلت اسما للسورة فمحلها اما الرفع على أنها خبر مبتدا محذوف واما النصب على اضمار فعل يليق بالمقام كاذكر أو اقرأ أو نحوهما وأما الرفع بالابتداء أو النصب بتقدير فعل القسم أو الجر بتقدير حرفه فلا مساغ لشىء منها لما أن ما بعدها غير صالح للخبرية ولا للاقسام عليه فان الاسم الجليل مبتدأ ومابعده خبره والجملة مستأنفة أى هو المستحق للمعبودية لاغير وقوله عز وجل ﴿الحى القيوم﴾ خبر آخر له أو لمبتدا محذوف أى هو الحى القيوم لاغيره وقيل هو صفة للمبتدا أو بدل منه أو من الخبر الاول أو هو الخبر وما قبله اعتراض بين المبتدا والخبر مقرر لما يفيده الاسم الجليل أو حال منه وأياما كان فهو كالدليل على اختصاص استحقاق المعبودية به سبحانه وتعالى لما مر من أن معنى الحى الباقى الذى لاسبيل عليه للموت والفناء ومعنى القيوم الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه ومن ضرورة اختصاص ذينك الوصفين به تعالى اختصاص استحقاق المعبودية به تعالى لاستحالة تحققه بدونهما وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اسم الله الأعظم فى ثلاث سور فى سورة البقرة الله لا اله الا هو الحى القيوم وفى آل عمران الم الله لا اله الا هو الحى القيوم وفى طه وعنت الوجوه للحى القيوم وروى أن بنى اسرائيل سألوا موسى عليه السلام عن اسم الله الأعظم قال الحى القيوم ويروى أن عيسى عليه السلام كان اذا أراد احياء الموتى يدعو ياحى ياقيوم ويقال ان آصف بن برخيا حين أتى بعرش بلقيس دعا بذلك وقرىء الحى القيام وهذا رد على من زعم أن عيسى عليه السلام كان ربا فانه روى أن وفد نجران قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا ستين راكبا فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم ثلاثة منهم أكابر اليهم يؤول أمرهم أحدهم أميرهم وصاحب مشورتهم العاقب واسمه عبد المسيح وثانيهم وزيرهم ومشيرهم السيد واسمه الايهم وثالثهم حبرهم وأسقفهم وصاحب مدارسهم أبو حارثة بن علقمة أحد بنى بكر بن وائل وقد كان ملوك الروم شرفوه وموّلوه وأكرموه لما شاهدوا من علمه واجتهاده فى دينهم وبنوا له كنائس فلما خرجوا من نجران ركب أبو حارثة بغلته وكان أخوه كرز بن علقمة الى جنبه فبينا بغلة أبى حارثة تسير اذ عثرت فقال كرز تعسا للابعد يريد به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له أبو حارثة بل تعست أمك فقال كرز ولم يا أخى قال انه والله النبى الذى كنا ننتظره فقال له كرز فما يمنعك عنه وأنت تعلم هذا قال لان هؤلاء الملوك أعطونا أموالا كثيرة وأكرمونا فلو آمنا به لاخذوا منا كلها فوقع ذلك فى قلب كرز وأضمره الى أن أسلم فكان يحدث بذلك فأتوا المدينة ثم دخلوا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صلاة العصر عليهم ثياب الحبرات جبب وأردية فاخرة يقول بعض من رآهم من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ما رأينا وفدا مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا ليصلوا فى المسجد فقال عليه السلام دعوهم فصلوا الى المشرق ثم تكلم اولئك الثلاثة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا تارة عيسى هو الله لانه كان يحيى الموتى ويبرىء الاسقام ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه

فيطير وتارة أخرى هو ابن الله اذ لم يكن له أب يعلم وتارة أخرى أنه ثالث ثلاثة لقوله تعالى فعلنا وقلنا ولو كان واحدا لقال
فعلت وقلت فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلموا قالوا أسلمنا قبلك قال عليه السلام كذبتم يمنعكم من الاسلام
دعاؤكم لله تعالى ولدا قالوا ان لم يكن ولدا لله فمن أبوه فقال عليه السلام ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد الا ويشبه أباه
فقالوا بلى قال ألستم تعلمون أن ربنا حى لايموت وأن عيسى يأتى عليه الفناء قالوا بلى قال عليه السلام ألستم تعلمون أن
ربنا قيوم على كل شئ يحفظه ويرزقه قالوا بلى قال عليه السلام فهل يملك عيسى من ذلك شيأ قالوا لا فقال عليه السلام
ألستم تعلمون أن الله تعالى لايخفى عليه شئ فى الارض ولا فى السماء قالوا بلى قال عليه السلام فهل يعلم عيسى من ذلك
الا ماعلم قالوا بلى قال عليه السلام ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء وأن ربنا لايأكل ولايشرب
ولايحدث قالوا بلى قال عليه السلام ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ووضعته كما تضع المرأة ولدها ثم
غذى كما يغذى الصبى ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث قالوا بلى قال عليه السلام فكيف يكون هذا
كما زعمتم فسكتوا وأبوا الا جحودا فأنزل الله عز وجل من أول السورة الى نيف وثمانين آية تقريرا لما احتج به عليه
السلام عليهم وأجاب به عن شبههم وتحقيقا للحق الذى فيه يمترون ﴿نزل عليك الكتاب﴾ أى القرآن عبر عنه باسم
الجنس ايذانا بكمال تفوقه على بقية الافراد فى حيازة كمالات الجنس كأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب دون
ماعداه كما يلوح به التصريح باسمى التوراة والانجيل وصيغة التفعيل للدلالة على التنجيم وتقديم الظرف على المفعول لما
مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر والجملة اما مستأنفة أو خبر آخر عن الاسم الجليل أو هى الخبر وقوله تعالى
لا اله الا هو اعتراض أو حال وقوله عز وجل الحى القيوم صفة أو بدل كما مر وقرئ نزل عليك الكتاب بالتخفيف ورفع
الكتاب فالظاهر حينئذ أن تكون مستأنفة وقيل يجوز كونها خبرا بحذف العائد أى نزل الكتاب من عنده ﴿بالحق﴾
حال من الفاعل أو المفعول أى نزله محقا فى تنزيله على ماهو عليه أو ملتبسا بالعدل فى أحكامه أو بالصدق فى أخباره التى
من جملتها خبر التوحيد ومايليه وفى وعده ووعيده أو بما يحقق أنه من عند الله تعالى من الحجج البينة ﴿مصدقا﴾
حال من الكتاب بالاتفاق على تقدير كون قوله تعالى بالحق حالا من فاعل نزل وأما على تقدير حاليته من الكتاب
فهو عند من يجوز تعدد الحال بلا عطف ولا بدلية حال منه بعد حال وأما عند من يمنعه فقد قيل انه حال من محل
الحال الأولى على البدلية وقيل من المستكن فى الجار والمجرور لانه حينئذ يتحمل ضمير القيامة مقام عامله المتحمل له
فيكون حالا متداخلة وعلى كل حال فهى حال مؤكدة وفائدة تقييد التنزيل بها حث أهل الكتابين على
الايمان بالمنزل وتنبيههم على وجوبه فان الايمان بالمصدق موجب للايمان بما يصدقه حتما ﴿لما بين يديه﴾
مفعول لمصدقا واللام دعامة لتقوية العمل نحو فعال لما يريد أى مصدقا لما قبله من الكتب السالفة وفيه ايماء الى
حضورها وكمال ظهور أمرها بين الناس وتصديقه اياها فى الدعوة الى الايمان والتوحيد وتنزيه الله عز وجل عما لايليق
بشأنه الجليل والأمر بالعدل والاحسان وكذا فى أنباء الأنبياء والامم الخالية وكذا فى نزوله على النعت المذكور فيها
وكذا فى الشرائع التى لاتختلف باختلاف الأمم والأعصار ظاهر لاريب فيه وأما فى الشرائع المختلفة باختلافهما فمن
حيث أن أحكام كل واحد منها واردة حسبما تقتضيه الحكمة التشريعية بالنسبة الى خصوصيات الأمم المكلفة بها
مشتملة على المصالح اللائقة بشأنهم ﴿وأنزل التوراة والانجيل﴾ تعيين لما بين يديه وتبيين لرفعة محله تأكيدا لما قبله
وتمهيدا لما بعده اذ بذلك يترقى شأن مايصدقه رفعة ونباهة ويزداد فى القلوب قبولا ومهابة ويتفاحش حال من كفر
بهما فى الشناعة واستتباع ماسيذكر من العذاب الشديد والانتقام أى أنزلهما جملة على موسى وعيسى عليهما السلام وانما

لم يذكرا لأن الكلام فى الكتابين لافيمن أنزلا عليه وهما اسمان أعجميان الأول عبرى والثانى سريانى ويعضده القراءة
بفتح همزة الانجيل فان أفعيل ليس من أبنية العرب والتصدى لاشتقاقهما من الورى والنجل تعسف ﴿من قبل﴾
متعلق بأنزل أى أنزلهما من قبل تنزيل الكتاب والتصريح به مع ظهور الأمر للمبالغة فى البيان ﴿هدى للناس﴾ فى حيز
النصب على أنه علة للانزال أى أنزلهما لهداية الناس أو على أنه حال منهما أى أنزلهما حال كونهما هدى لهم والافراد لما أنه
مصدر جعلا نفس الهدى مبالغة أو حذف منه المضاف أى ذوى هدى ثم ان أريد هدايتهما بجميع مافيهما من حيث
هو جميع فالمراد بالناس الأمم الماضية من حين نزولهما الى زمان نسخهما وان أريد هدايتهما على الاطلاق
وهو الانسب بالمقام فالناس على عمومه لما أن هدايتهما بما عدا الشرائع المنسوخة من الامور التى يصدقهما القرآن
فيها ومن جملتها البشارة بنزوله وبمبعث النبى صلى الله عليه وسلم تعم الناس قاطبة ﴿وأنزل الفرقان﴾ الفرقان فى الأصل
مصدر كالغفران أطلق على الفاعل مبالغة والمراد به ههنا اما جنس الكتب الالهية عبر عنها بوصف شامل لما ذكر
منها ومالم يذكر على طريق التتميم بالتعميم اثر تخصيص بعض مشاهيرها بالذكر كما فى قوله عز وجل فأنبتنا فيها حبا وعنبا
الى قوله تعالى وفاكهة واما نفس الكتب المذكورة أعيد ذكرها بوصف خاص لم يذكر فيما سبق على طريقة العطف
بتكرير لفظ الانزال تنزيلا للتغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى كما فى قوله سبحانه ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا
معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ وأما الزبور فانه مشتمل على المواعظ الفارقة بين الحق والباطل الداعية الى
الخير والرشاد الزاجرة عن الشر والفساد وتقديم الانجيل عليه مع تأخره عنه نزولا لقوة مناسبته للتوراة فى الاشتمال
على الأحكام والشرائع وشيوع اقترانهما فى الذكر وأما القرآن نفسه ذكر بنعت مادح له بعد ما ذكر باسم الجنس تعظيما
لشأنه ورفعا لمكانه وقد بين أولا تنزيله التدريجى الى الأرض وثانيا انزاله الدفعى الى السماء الدنيا أو أريد بالانزال القدر
المشترك العارى عن قيد التدريج وعدمه وأما المعجزات المقرونة بانزال الكتب المذكورة الفارقة بين المحق والمبطل
﴿ان الذين كفروا بآيات الله﴾ وضع موضع الضمير العائد الى مافصل من الكتب المنزلة أو منها ومن المعجزات
الآيات مضافة الى الاسم الجليل تعيينا لحيثية كفرهم وتهويلا لامرهم وتأكيدا لاستحقاقهم العذاب الشديد وايذانا
بأن ذلك الاستحقاق لايشترط فيه الكفر بالكل بل يكفى فيه الكفر ببعض منها والمراد بالموصول اما أهل الكتابين
وهو الانسب بمقام المحاجة معهم أو جنس الكفرة وهم داخلون فيه دخولا أوليا أى ان الذين كفروا بما ذكر من
آيات الله الناطقة بالحق لاسيما بتوحيده تعالى وتنزيهه عما لايليق بشأنه الجليل كلا أو بعضا مع مابها من النعوت الموجبة
للايمان بها بأن كذبوا بالقرآن أصالة وبسائر الكتب الالهية تبعا لما أن تكذيب المصدق موجب لتكذيب مايصدقه
حتما وأصالة أيضا بأن كذبوا بآياتها الناطقة بالتوحيد والتنزيه وآياتها المبشرة بنزول القرآن ومبعث النبى صلى الله عليه
وسلم وغيروها ﴿لهم﴾ بسبب كفرهم بها ﴿عذاب﴾ مرتفع اما على الفاعلية من الجار والمجرور أو على الابتداء
والجملة خبر ان والتنوين للتفخيم أى أى عذاب ﴿شديد﴾ لايقادر قدره وهو وعيد جئ به اثر تقرير أمر التوحيد
الذاتى والوصفى والاشارة الى ماينطق بذلك من الكتب الالهية حملا على القبول والاذعان وزجرا عن الكفر والعصيان
﴿والله عزيز﴾ لايغالب يفعل مايشاء ويحكم مايريد ﴿ذو انتقام﴾ عظيم خارج عن أفراد جنسه وهو افتعال من
النقمة وهى السطوة والتسلط يقال انتقم منه اذا عاقبه بجنايته والجملة اعتراض تذييلى مقرر للوعيد ومؤكد له ﴿ان الله
لايخفى عليه شئ فى الارض ولا فى السماء﴾ استئناف كلام سيق لبيان سعة علمه تعالى واحاطته بجميع مافى العالم من
الأشياء التى من جملتها ماصدر عنهم من الكفر والفسوق سرا وجهرا اثر بيان كمال قدرته وعزته تربية لما قبله من الوعيد

وتنبيها على أن الوقوف على بعض المغيباب كما كان فى عيسى عليه السلام بمعزل من بلوغ رتبة الصفات الالهية وانما عبر عن علمه عز وجل بما ذكر بعدم خفائه عليه كما فى قوله سبحانه وما يخفى على الله من شئ فى الارض ولا فى السماء ايذانا بأن علمه تعالى بمعلوماته وان كانت فى أقصى الغايات الخفية ليس من شأنه أن يكون على وجه يمكن أن يقارنه شائبة خفاء بوجه من الوجوه كما فى علوم المخلوقين بل هو فى غاية الوضوح والجلاء والجملة المنفية خبر لأن وتكرير الاسناد لتقوية الحكم وكلمة فى متعلقة بمحذوف وقع صفة لشئ مؤكدة لعمومه المستفاد من وقوعه فى سياق النفى أى لايخفى عليه شئ ما كائن فى الأرض ولا فى السماء أعم من أن يكون ذلك بطريق الاستقرار فيهما أو الجزئية منهما وقيل متعلقة بيخفى وانما عبر بهما عن كل العالم لأنهما قطراه وتقديم الأرض على السماء لاظهار الاعتناء بشأن أحوال أهلها وتوسيط حرف النفى بينهما للدلالة على الترقى من الأدنى الى الأعلى باعتبار القرب والبعد منا المستدعين للتفاوت بالنسبة الى علومنا وقوله عز وجل ﴿هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء﴾ جملة مستأنفة ناطقة ببعض أحكام قيوميته تعالى وجريان أحوال الخلق فى أطوار الوجود حسب مشيئته المبنية على الحكم البالغة مقررة لكمال علمه مع زيادة بيان لتعلقه بالاشياء قبل دخولها تحت الوجود ضرورة وجوب علمه تعالى بالصور المختلفة المترتبة على التصوير المترتب على المشيئة قبل تحققها بمراتب وكلمة فى متعلقة بيصوركم أو بمحذوف وقع حالا من ضمير المفعول أى يصوركم وأنتم فى الارحام مضغ وكيف معمول ليشاء والجملة فى محل النصب على الحالية امامن فاعل يصوركم أى يصوركم كائنا على مشيئته تعالى أى مريدا أو من مفعوله أى يصوركم كائنين على مشيئته تعالى تابعين لها فى قبول الأحوال المتغايرة من كونكم نطفا ثم علقا ثم مضغا غير مخلقة ثم مخلقة وفى الاتصاف بالصفات المختلفة من الذكورة والانوثة والحسن والقبح وغير ذلك من الصفات وفيه من الدلالة على بطلان زعم من زعم ربوبية عيسى عليه السلام وهو من جملة أبناء النواسيت المتقلبين فى هذه الاطوار على مشيئة البارى عز وجل وكمال ركاكة عقولهم مالايخفى وقرئ تصوركم على صيغة الماضى من التفعل أى صوركم لنفسه وعبادته ﴿لااله الاهو﴾ اذ لايتصف بشئ مما ذكر من الشئون العظيمة الخاصة بالالوهية أحد ليتوهم ألوهيته ﴿العزيز الحكيم﴾ المتناهى فى القدرة والحكمة ولذلك يخلقكم على ماذكر من النمط البديع ﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب﴾ شروع فى ابطال شبههم الناشئة عما نطق به القرآن فى نعت عيسى عليه السلام بطريق الاستئناف اثر بيان اختصاص الربوبية ومناطها به سبحانه وتعالى تارة بعد أخرى وكون كل من عداه مقهورا تحت ملكوته تابعا لمشيئته . قيل أن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألست تزعم يا محمد أن عيسى كلمة الله وروح منه قال عليه السلام بلى قالوا فحسبنا ذلك فنعى عليهم زيغهم وفتنتهم وبين أن الكتاب مؤسس على أصول رصينة وفروع مبنية عليها ناطقة بالحق قاضية ببطلان ماهم عليه من الضلال والمراد بالانزال القدر المشترك المجرد عن الدلالة على قيد التدريج وعدمه ولام الكتاب للعهد وتقديم الظرف عليه لما أشير اليه فيما قبل من الاعتناء بشأن بشارته عليه السلام بتشريف الانزال عليه ومن التشويق الى ما أنزل فان النفس عند تأخير ماحقه التقديم لاسيما بعد الاشعار برفعة شأنه أو بمنفعته تبقى مترقبة له فيتمكن لديها عند وروده عليها فضل تمكن وليتصل به تقسيمه الى قسميه ﴿منه آيات﴾ الظرف خبر وآيات مبتدأ أو بالعكس بتأويل مر تحقيقه فى قوله تعالى ومن الناس من يقول الآية والاول أوفق بقواعد الصناعة والثانى أدخل فى جزالة المعنى اذ المقصود الاصلى انقسام الكتاب الى القسمين المعهودين لا كونهما من الكتاب فتذكر والجملة مستأنفة أو فى حيز النصب على الحالية من الكتاب أى هو الذى أنزل الكتاب كائنا على هذه الحال أى منقسما الى محكم ومتشابه أو الظرف هو الحال وحده وآيات مرتفع به على الفاعلية ﴿محكمات﴾ صفة آيات أى قطعية

الدلالة على المعنى المراد محكمة العبارة محفوظة من الاحتمال والاشتباه ﴿هن أم الكتاب﴾ أى أصل فيه وعمدة يرد اليها غيرها فالمراد بالكتاب كله والاضافة بمعنى فى كما فى واحد العشرة لا بمعنى اللام فان ذلك يؤدى الى كون الكتاب عبارة عما عدا المحكمات والجملة اما صفة لما قبلها أو مستأنفة وانما أفرد الام مع تعدد الآيات لما أن المراد بيان أصلية كل واحدة منها أو بيان أن الكل بمنزلة آية واحدة كما فى قوله تعالى وجعلناها وابنها آية للعالمين وقيل اكتفى بالمفرد عن الجمع كما فى قول الشاعر

بها جيف الحسرى فأما عظامها   فبيض وأما جلدها فصليب

أى وأما جلودها ﴿وأخر﴾ نعت لمحذوف معطوف على آيات أى وآيات أخر وهى جمع أخرى وانما لم ينصرف لأنه وصف معدول عن الآخر أو عن آخر من ﴿متشابهات﴾ صفة لأخر وفى الحقيقة صفة للمحذوف أى محتملات لمعان متشابهة لا يمتاز بعضها من بعض فى استحقاق الارادة بها ولا يتضح الأمر الا بالنظر الدقيق والتأمل الانيق فالتشابه فى الحقيقة وصف لتلك المعانى وصف به الآيات على طريقة وصف الدال بوصف المدلول وقيل لما كان من شأن الأمور المتشابهة أن يعجز العقل عن التمييز بينها سمى كل مالا يهتدى اليه العقل متشابها وان لم يكن ذلك بسبب التشابه كما أن المشكل فى الأصل مادخل فى أشكاله وأمثاله ولم يعلم بعينه ثم أطلق على كل غامض وان لم يكن غموضه من تلك الجهة وانما جعل ذلك كذلك ليظهر فضل العلماء ويزداد حرصهم على الاجتهاد فى تدبرها وتحصيل العلوم التى نيط بها استنباط ما أريد بها من الأحكام الحقة فينالوا بها وباتعاب القرائح فى استخراج مقاصدها الرائقة ومعانيها اللائقة المدارج العالية ويعرجوا بالتوفيق بينها وبين المحكمات من اليقين والاطمئنان الى المعارج القاصية وأما قوله عز وجل الر كتاب أحكمت آياته فمعناه أنها حفظت من اعتراء الخلل أو من النسخ أو أيدت بالحجج القاطعة الدالة على حقيتها أو جعلت حكيمة لانطوائها على جلائل الحكم البالغة ودقائقها وقوله تعالى كتابا متشابها مثانى معناه متشابه الاجزاء أى يشبه بعضها بعضا فى صحة المعنى وجزالة النظم وحقية المدلول ﴿فأما الذين فى قلوبهم زيغ﴾ أى ميل عن الحق الى الأهواء الباطلة . قال الراغب الزيغ الميل عن الاستقامة الى أحد الجانبين وفى جعل قلوبهم مقرا للزيغ مبالغة فى عدولهم عن سنن الرشاد واصرارهم على الشر والفساد ﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾ معرضين عن المحكمات أى يتعلقون بظاهر المتشابه من الكتاب أو بتأويل باطل لا تحريا للحق بعد الايمان بكونه من عند الله تعالى بل ﴿ابتغاء الفتنة﴾ أى طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه كما نقل عن الوفد ﴿وابتغاء تأويله﴾ أى وطلب أن يأولوه حسبما يشتهونه من التأويلات الزائغة والحال أنهم بمعزل من تلك الرتبة وذلك قوله عز وجل ﴿وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم﴾ فانه حال من ضمير فيتبعون باعتبار العلة الأخيرة أى يتبعون المتشابه لابتغاء تأويله والحال أنه مخصوص به تعالى وبمن وفقه له من عباده الراسخين فى العلم أى الذين ثبتوا وتمكنوا فيه ولم يتزلزلوا فى مزال الأقدام وفى تعليل الاتباع بابتغاء تأويله دون نفس تأويله وتجريد التأويل عن الوصف بالصحة أو الحقية ايذان بأنهم ليسوا من التأويل فى شئ وأن ما يبتغونه ليس بتأويل أصلا لا أنه تأويل غير صحيح قد يعذر صاحبه ومن وقف على الا الله فسر المتشابه بما استأثر الله عز وعلا بعلمه كمدة بقاء الدنيا ووقت قيام الساعة وخواص الأعداد كعدد الزبانية أو بما دل القاطع على عدم ارادة ظاهره ولم يدل على ما هو المراد به ﴿يقولون آمنا به﴾ أى بالمتشابه وعدم التعرض لايمانهم بالمحكم لظهوره أو بالكتاب والجملة على الأول استئناف موضح لحال الراسخين أو حال منه وعلى الثانى خبر لقوله تعالى والراسخون وقوله تعالى ﴿كل من عند ربنا﴾ من تمام المقول مقرر لما قبله ومؤكد له أى كل واحد منه ومن المحكم أو كل واحد من متشابهه ومحكمه منزل من عنده تعالى لامخالفة بينهما أو آمنا به وبحقيته على مراده تعالى ﴿وما يذكر﴾ حق التذكر ﴿الا أولوا

الألباب﴾ أى العقول الخالصة عن الركون الى الأهواء الزائغة وهو تذييل سيق من جهته تعالى مدحا للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر واشارة الى مابه استعدوا للاهتداء الى تأويله من تجرد العقل عن غواشى الحس وتعلق الآية الكريمة بما قبلها من حيث أنها جواب عما تشبث به النصارى من نحو قوله تعالى وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه على وجه الاجمال وسيجىء الجواب المفصل بقوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴿ربنا لاتزغ قلوبنا﴾ من تمام مقالة الراسخين أى لاتزغ قلوبنا عن نهج الحق الى اتباع المتشابه بتأويل لاترتضيه قال صلى الله عليه وسلم قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن ان شاء أقامه على الحق وان شاء أزاغه عنه وقيل معناه لاتبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا ﴿بعد اذ هديتنا﴾ أى الى الحق والتأويل الصحيح أو الى الايمان بالقسمين و بعد نصب بلاتزغ على الظرف واذ فى محل الجر باضافته اليه خارج من الظرفية أى بعد وقت هدايتك ايانا وقيل أنه بمعنى أن ﴿وهب لنا من لدنك﴾ كلا الجارين متعلق بهب وتقديم الأول لما مر مرارا ويجوز تعلق الثانى بمحذوف هو حال من المفعول أى كائنة من لدنك ومن لابتداء الغاية المجازية و لدن فى الأصل ظرف بمعنى أول غاية زمان أومكان أو غيرهما من الذوات نحو من لدن زيد وليست مرادفة لعند اذ قد تكون فضلة وكذا لدى و بعضهم يخصها بظرف المكان وتضاف الى صريح الزمان كما فى قوله

تنفض الرعدة فى ظهيرى … من لدن الظهر الى العصير

ولا تقطع عن الاضافة بحال وأكثر ماتضاف الى المفردات وقد تضاف الى أن وصلتها كما فى قوله

ولم تقطع اصلا من لدن أن وليتنا … قرابة ذى رحم ولا حق مسلم

أى من لدن و لايتك ايانا وقد تضاف الى الجملة الاسمية كما فى قوله

تذكر نعماه لدن أنت يافع

والى الجملة الفعلية أيضا كما فى قوله

لزمنا لدن سالمتمونا وفاقكم … فلايك منكم للخلاف جنوح

وقلما تخلو عن من كما فى البيتين الأخيرين ﴿رحمة﴾ واسعة تزلفنا اليك ونفوز بها عندك أو توفيقا للثبات على الحق وتأخيرا لمفعول الصريح عن الجارين لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر فان ماحقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مترقبة لوروده لاسيما عند الاشعار بكونه من المنافع باللام فاذا أورده يتمكن عندها فضل تمكن ﴿انك أنت الوهاب﴾ تعليل للسؤال أو لاعطاء المسئول وأنت امامبتدأ أو فصل أوتأكيد لاسم ان واطلاق الوهاب ليتناول كل موهوب وفيه دلالة على أن الهدى والضلال من قبله تعالى وأنه متفضل بما ينعم به على عباده من غير أن يجب عليه شىء ﴿ربنا انك جامع الناس ليوم﴾ أى لحساب يوم أو لجزاء يوم حذف المضاف وأقيم مقامه المضاف اليه تهويلا له وتفظيعا لما يقع فيه ﴿لاريب فيه﴾ أى فى وقوعه ووقوع مافيه من الحشر والحساب والجزاء ومقصودهم بهذا عرض كمال افتقارهم الى الرحمة وأنها المقصد الأسنى عندهم والتأكيد لاظهار ماهم عليه من كمال الطمأنينة وقوة اليقين بأحوال الآخرة ﴿ان الله لايخلف الميعاد﴾ تعليل لمضمون الجملة المؤكدة أو لانتفاء الريب والتأكيد لما مر واظهار الاسم الجليل مع الالتفات لابراز كمال التعظيم والاجلال الناشىء من ذكر اليوم المهيب الهائل بخلاف مافى آخر السورة الكريمة فانه مقام طلب الانعام كما سيأتى وللاشعار بعلة الحكم فان الألوهية منافية للاخلاف وقد جوز أن تكون الجملة مسوقة من جهته تعالى لتقرير قول الراسخين والميعاد مصدر كالميقات واستدل به الوعيدية وأجيب بأن وعيد الفساق مشروط بعدم العفو بدلائل مفصلة كما هو مشروط بعدم التوبة وفاقا ﴿ان الذين كفروا﴾ اثر مابين الدين الحق والتوحيد وذكر أحوال الكتب الناطقة به وشرح شأن القرآن العظيم و كيفية ايمان العلماء الراسخين به شرع فى بيان حال من كفر به والمراد بالموصول جنس الكفرة الشامل لجميع الأصناف وقيل وفد نجران أو اليهود من قريظة والنضير أو

مشركو العرب ﴿لن تغنى عنهم﴾ أى لن تنفعهم وقرىء بالتذكير وبسكون الياء جدا فى استثقال الحركة على حروف اللين ﴿أموالهم﴾ التى يبذلونها فى جلب المنافع ودفع المضار ﴿ولا أولادهم﴾ الذين بهم يتناصرون فى الأمور المهمة وعليهم يعولون فى الخطوب الملمة وتأخير الأولاد عن الأموال مع توسيط حرف النفى بينهما اما لعراقة الأولاد فى كشف الكروب أو لأن الأموال أول عدة يفزع اليها عند نزول الخطوب ﴿من الله﴾ من عذابه تعالى ﴿شيئاً﴾ أى شيأ من الاغناء وقيل كلمة من بمعنى البدل والمعنى بدل رحمة الله أو بدل طاعته كما فى قوله تعالى ان الظن لايغنى من الحق شيأ أى بدل الحق ومنه قوله ولا ينفع ذا الجد منك الجد أى لاينفعه جده بدلك أى بدل رحمتك كما فى قوله تعالى وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى وأنت خبير بأن احتمال سد أموالهم وأولادهم مسد رحمة الله تعالى أو طاعته مما لايخطر ببال أحد حتى يتصدى لنفيه والأول هو الأليق بتفظيع حال الكفرة وتهويل أمرهم والانسب بما بعده من قوله تعالى ﴿وأولئك هم وقود النار﴾ ومن قوله تعالى فأخذهم الله أى أولئك المتصفون بالكفر حطب النار وحصبها الذى تسعر به فان أريد بيان حالهم عند التسعير فايثار الجملة الاسمية للدلالة على تحقق الامر وتقرره والا فهو للايذان بأن حقيقة حالهم ذلك وأن أحوالهم الظاهرة بمنزلة العدم فهم حال كونهم فى الدنيا وقود النار بأعيانهم وفيه من الدلالة على كمال ملابستهم بالنار مالا يخفى وهم يحتمل الابتداء وأن يكون ضمير الفصل والجملة اما مستأنفة مقررة لعدم الاغناء أو معطوفة على خبر ان وأياما كان ففيها تعيين للعذاب الذى بين أن أموالهم وأولادهم لاتغنى عنهم منه شيأ وقرىء وقود النار بضم الواو وهو مصدر أى أهل وقودها ﴿كدأب آل فرعون﴾ الدأب مصدر دأب فى العمل اذا كدح فيه وتعب غلب استعماله فى معنى الشأن والحال والعادة ومحل الكاف الرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف وقد جوز النصب بلن تغنى أو بالوقود أى لن تغنى عنهم كما لم تغن عن أولئك أو توقد بهم النار كما توقد بهم وأنت خبير بأن المذكور فى تفسير الدأب انما هو التكذيب والاخذ من غير تعرض لعدم الاغناء لاسيما على تقدير كون من بمعنى البدل كما هو رأى المجوز ولا لايقاد النار فيحمل على التعليل وهو خلاف الظاهر على أنه يلزم الفصل بين العامل والمعمول بالاجنبى على تقدير النصب بلن تغنى وهو قوله تعالى وأولئك هم وقود النار الا أن يجعل استئنافا معطوفا على خبر ان فالوجه هو الرفع على الخبرية أى دأب هؤلاء فى الكفر وعدم النجاة من أخذ الله تعالى وعذابه كدأب آل فرعون ﴿والذين من قبلهم﴾ أى من قبل آل فرعون من الامم الكافرة فالموصول فى محل الجر عطفا على ماقبله وقوله تعالى ﴿كذبوا بآياتنا﴾ بيان وتفسير لدأبهم الذى فعلوا على طريق الاستئناف المبنى على السؤال كأنه قيل كيف كان دأبهم فقيل كذبوا بآياتنا وقوله تعالى ﴿فأخذهم الله﴾ تفسير لدأبهم الذى فعل بهم أى فأخذهم الله وعاقبهم ولم يجدوا من بأس الله تعالى محيصا فدأب هؤلاء الكفرة أيضاً كدأبهم وقيل كذبوا الخ حال من آل فرعون والذين من قبلهم على اضمار قد أى دأب هؤلاء كدأب أولئك وقد كذبوا الخ وأما كونه خبرا عن الموصول كما قيل فمما يذهب برونق النظم الكريم والالتفات الى التكلم أولا للجرى على سنن الكبرياء والى الغيبة ثانيا باظهار الجلالة لتربية المهابة وادخال الروعة ﴿بذنوبهم﴾ ان أريد بها تكذيبهم بالآيات فالباء للسببية جىء بها تأكيدا لما تفيده الفاء من سببية ماقبلها لما بعدها وان أريد بها سائر ذنوبهم فالباء للملابسة جىء بها للدلالة على أن لهم ذنوبا أخر أى فأخذهم ملتبسين بذنوبهم غير تائبين عنها كما فى قوله تعالى وتزهق أنفسهم وهم كافرون والذنب فى الأصل التلو والتابع وسمى الجريمة ذنبا لأنها تتلو أى تتبع عقابها فاعلها ﴿والله شديد العقاب﴾ تذييل مقرر لمضمون ماقبله من الاخذ وتكملة له ﴿قل للذين كفروا﴾ المراد بهم اليهود لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن يهود المدينة لما شاهدوا غلبة رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين

يوم بدر قالوا والله انه النبي الامى الذى بشرنا به موسى و فى التوراة نعته وهموا باتباعه فقال بعضهم لاتعجلوا حتى ننظر الى وقعة له أخرى فلما كان يوم أحد شكوا وقد كان بينهم و بين رسول الله عهد الى مدة فنقضوه وانطلق كعب بن الاشرف فى ستين راكبا الى أهل مكة فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وعن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أصاب قريشا ببدر و رجع الى المدينة جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع فحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بقريش فقالوا لا يغرنك أنك لقيت قوما أغمارا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة لئن قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس فنزلت أى قل لهم ﴿ستغلبون﴾ البتة عن قريب فى الدنيا وقد صدق الله عز وجل وعده بقتل بنى قريظة واجلاء بنى النضير وفتح خيبر وضرب الجزية على من عداهم وهو من أوضح شواهد النبوة وأما ما روى عن مقاتل من أنها نزلت قبل بدر وأن الموصول عبارة عن مشركى مكة و لذلك قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر ان الله غالبكم وحاشركم الى جهنم و بئس المهاد فيؤدى الى انقطاع الآية الكريمة عما بعدها لنزوله بعد وقعة بدر ﴿وتحشرون﴾ أى فى الآخرة ﴿الى جهنم﴾ وقرئ الفعلان بالياء على أنه عليه السلام أمر بأن يحكى لهم ما أخبر الله تعالى به من وعيدهم بعبارته كأنه قيل أد اليهم هذا القول ﴿و بئس المهاد﴾ اما من تمام ما يقال لهم أو استئناف لتهويل جهنم وتفظيع حال أهلها والمخصوص بالذم محذوف أى و بئس المهاد جهنم أو ما مهدوه لانفسهم ﴿قد كان لكم﴾ جواب قسم محذوف وهو من تمام القول المأمور بهجى‌ء به لتقرير مضمون ما قبله وتحقيقه والخطاب لليهود أيضا والظرف خبر كان على أنها ناقصة ولتوسطه بينها و بين اسمها ترك التأنيث كما فى قوله

ان امرأ غره منكن واحدة ... بعدى وبعدك فى الدنيا لمغرور

على أن التأنيث ههنا غير حقيقى أو هو متعلق بكان على أنها تامة وانما قدم على فاعلها لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق الى ما أخر أى والله قد كان لكم أيها المغترون بعددهم وعددهم ﴿آية﴾ عظيمة دالة على صدق ما أقول لكم انكم ستغلبون ﴿فى فئتين﴾ أى فرقتين أو جماعتين فان المغلوبة منهما كانت مدلة بكثرتها معجبة بعزتها وقد لقيها ما لقيها فسيصيبكم ما يصيبكم ومحل الظرف الرفع على أنه صفة لآية وقيل النصب على خبرية كان والظرف الأول متعلق بمحذوف وقع حالا من آية ﴿التقتا﴾ فى حيز الجر على أنه صفة فئتين أى تلاقتا بالقتال يوم بدر ﴿فئة﴾ بالرفع خبر مبتدا محذوف أى احداهما فئة كما فى قوله

اذا مت كان الناس حزبين شامت ... وآخر مثن بالذى كنت أصنع

أى أحدهما شامت والآخر مثن وقوله

حتى اذا ما استقل النجم فى غلس ... وغودر البقل ملوى ومحصود

والجملة مع ما عطف عليها مستأنفة لتقرير ما فى الفئتين من الآية وقوله تعالى ﴿تقاتل فى سبيل الله﴾ فى محل الرفع على أنه صفة فئة كأنه قيل فئة مؤمنة ولكن ذكر مكانه من أحكام الايمان ما يليق بالمقام مدحا لهم واعتدادا بقتالهم وايذانا بأنه المدار فى تحقق الآية وهى رؤية القليل كثيرا وقرئ يقاتل على تأويل الفئة بالقوم أو الفريق ﴿وأخرى﴾ نعت لمبتدا محذوف معطوف على ما حذف من الجملة الأولى أى وفئة أخرى وانما نكرت والقياس تعريفها كقرينتها لوضوح أن التفريق لنفس المثنى المقدم ذكره وعدم الحاجة الى التعريف وقوله تعالى ﴿كافرة﴾ خبر المبتدا المحذوف وانما لم توصف هذه الفئة بما يقابل صفة الفئة الاولى اسقاطا لقتالهم عن درجة الاعتبار وايذانا بأنهم لم يتصدوا للقتال لما اعتراهم من الرعب والهيبة وقيل كل من المتعاطفين بدل من الضمير فى التقتا وما بعدهما صفة فلا بد من ضمير محذوف عائد الى المبدل منه مسوغ لوصف البدل بالجملة العارية عن ضميره أى فئة منهما تقاتل الخ وفئة أخرى كافرة و يجوز أن يكون كل منهما مبتدأ وما بعدهما خبرا أى فئة منهما تقاتل الخ وفئة أخرى كافرة وقيل كل منهما مبتدأ محذوف

الخبر أى منهما فئة تقاتل الخ وقرئ فئة بالجر على البدلية من فئتين بدل بعض من كل وقد مر أنه لابد من ضمير عائد الى المبدل منه و يسمى بدلا تفصيليا كما فى قول كثير عزة

وكنت كذى رجلين رجل صحيحة ... ورجل رمى فيها الزمان فشلت

وقرئ فئة الخ بالنصب على المدح أو الذم أو على الحالية من ضمير التقتا كأنه قيل التقتا مؤمنة وكافرة فيكون فئة وأخرى توطئة لما هو الحال حقيقة اذ المقصود بالذكر وصفاهما كما فى قولك جاءنى زيد رجلا صالحا ﴿يرونهم﴾ أى يرى الفئة الأخيرة الفئة الأولى وايثار صيغة الجمع للدلالة على شمول الرؤية لكل واحد واحد من آحاد الفئة والجملة فى محل الرفع على أنها صفة للفئة الأخيرة أو مستأنفة مبينة لكيفية الآية ﴿مثليهم﴾ أى مثلى عدد الرائين قريبا من ألفين اذ كانوا قريبا من ألف. كانوا تسعمائة وخمسين مقاتلا رأسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وفيهم أبو سفيان وأبو جهل و كان فيهم من الخيل والابل مائة فرس وسبعمائة بعير ومن أصناف الاسلحة عدد لا يحصى. عن محمد بن أبى الفرات عن سعد بن أوس أنه قال أسر المشركون رجلا من المسلمين فسألوه كم كنتم قال ثلثمائة و بضعة عشر قالوا ما كنا نراكم الا تضعفون علينا أو مثلى عدد المرئيين أى ستمائة ونيفا وعشرين حيث كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا سبعة وسبعون رجلا من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون من الأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وكان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرين على بن أبى طالب رضى الله عنه وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة الخزرجى وكان فى العسكر تسعون بعيرا وفرسان أحدهما للمقداد بن عمرو والآخر لمرثد بن أبى مرثد وست أدرع وثمانية سيوف وجميع من استشهد يومئذ من المسلمين أربعة عشر رجلا ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين أراهم الله عز وجل كذلك مع قلتهم ليهابوهم و يجبنوا عن قتالهم مددا لهم منه سبحانه كما أمدهم بالملائكة عليهم السلام وكان ذلك عند التقاء الفئتين بعد أن قللهم فى أعينهم عند تراءيهما ليجترئوا عليهم ولا يهربوا من أول الأمر حين ينجيهم الهرب وقيل يرى الفئة الأولى الفئة الأخيرة مثلى أنفسهم مع كونهم ثلاثة أمثالهم ليثبتوا و يطمئنوا بالنصر الموعود فى قوله تعالى فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين والاول هو الاولى لان رؤية المثلين غير متعينة من جانب المؤمنين بل قد وقعت رؤية المثل بل أقل منه أيضا فانه روى أن ابن مسعود رضى الله عنه قال قد نظرنا الى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ثم نظرنا اليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدا ثم قللهم الله تعالى أيضا فى أعينهم حتى رأتهم عددا يسيرا أقل من أنفسهم. قال ابن مسعود رضى الله عنه لقد قللوا فى أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل الى جنبى تراهم سبعين قال أراهم مائة فأسرنا منهم رجلا فقلنا كم كنتم قال ألفا فلو أريد رؤية المؤمنين المشركين أقل من عددهم فى نفس الامر كما فى سورة الانفال لكانت رؤيتهم اياهم أقل من أنفسهم أحق بالذكر فى كونها آية من رؤيتهم مثليهم على أن ابانة آثار قدرة الله تعالى وحكمته للكفرة باراءتهم القليل كثيرا والضعيف قويا والقاء الرعب فى قلوبهم بسبب ذلك أدخل فى كونها آية لهم وحجة عليهم وأقرب الى اعتراف المخاطبين بذلك لكثرة مخالطتهم الكفرة المشاهدين للحال وكذا تعلق الفعل بالفاعل أشد من تعلقه بالمفعول فجعل أقرب المذكورين السابقين فاعلا وأبعدهما مفعولا سواء جعل الجملة صفة أو مستأنفة أولى من العكس هذا ما تقتضيه جزالة التنزيل على قراءة الجمهور ولا ينبغى جعل الخطاب لمشركى مكة كما قيل أما ان جعل الوعيد عبارة عن هزيمة بدر كما صرحوا به فظاهر لاسترة به وأما ان جعل عبارة عن هزيمة أخرى فلأن الفئة التى شاهدت تلك الآية الهائلة هم المخاطبون حينئذ فالتعبير عنهم بفئة مبهمة تارة وموصوفة أخرى ثم اسناد المشاهدة اليها مع كون اسنادها الى المخاطبين أوقع فى الزام الحجة وأدخل فى التبكيت مما لا داعى اليه و بهذا يتبين حال جعل

الخطاب الثانى للؤمنين وأما قراءة ترونهم بتاء الخطاب فظاهرها وان اقتضى توجيه الخطاب الثانى الى المشركين لكنه ليس بنص فى ذلك لانه وان اندفع به المحذور الاخير فالاول باق بحاله فلعل رؤية المشركين نزلت منزلة رؤية اليهود لما بينهم من الاتحاد فى الكفر والاتفاق فى الكلمة لاسيما بعدماوقع بينهم بواسطة كعب بن الاشرف من العهد والميثاق فأسندت الرؤية اليهم مبالغة فى البيان وتحقيقا العروض مثل تلك الحالة لهم فتدبر وقيل المراد جميع الكفرة ولاريب فى صحته وسداده وقرئ يرونهم وترونهم على البناء للمفعول من الاراءة أى يريهم أو يريكم الله تعالى كذلك ﴿رأى العين﴾ مصدر مؤكد ليرونهم ان كانت الرؤية بصرية أو مصدر تشبيهى ان كانت قلبية أى رؤية ظاهرة مكشوفة جارية مجرى رؤية العين ﴿والله يؤيد﴾ أى يقوى ﴿بنصره من يشاء﴾ أن يؤيده من غير توسيط الاسباب العادية كما أيد الفئة المقاتلة فى سبيله بما ذكر من النصر وهو من تمام القول المأمور به ﴿ان فى ذلك﴾ اشارة الى ماذكر من رؤية القليل كثيرا المستتبعة لغلبة القليل العديم العدة على الكثير الشاكى السلاح ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلة المشار اليه فى الفضل ﴿لعبرة﴾ العبرة فعلة من العبور كالركبة من الركوب والجلسة من الجلوس والمراد بها الاتعاظ فانه نوع من العبور أى لعبرة عظيمة كائنة ﴿لأولى الابصار﴾ لذوى العقول والبصائر وقيل لمن أبصرهم وهو امامن تمام الكلام الداخل تحت القول مقرر لما قبله بطريق التذييل واماوارد من جهته تعالى تصديقا لمقالته عليه الصلاة والسلام ﴿زين للناس﴾ كلام مستأنف سيق لبيان حقارة شأن الحظوظ الدنيوية بأصنافها وتزهيد للناس فيها وتوجيه رغباتهم الى ماعنده تعالى اثر بيان عدم نفعها للكفرة الذين كانوا يتعززون بها والمراد بالناس الجنس ﴿حب الشهوات﴾ الشهوة نزوع النفس الى ماتريده والمراد ههنا المشتهيات عبر عنها بالشهوات مبالغة فى كونها مشتهاة مرغوبا فيها كأنها نفس الشهوات أو ايذانا بانهماكهم فى حبها بحيث أحبوا شهواتها كما فى قوله تعالى انى أحببت حب الخير أو استرذالا لها فان الشهوة مسترذلة مذمومة من صفات البهائم والمزين هو البارى سبحانه وتعالى اذ هو الخالق لجميع الأفعال والدواعى والحكمة فى ذلك ابتلاؤهم . قال تعالى انا جعلنا ماعلى الارض زينة لها لنبلوهم الآية فانها ذريعة لنيل سعادة الدارين عند كون تعاطيها على نهج الشريعة الشريفة وسيلة الى بقاء النوع وايثار صيغة المبنى للمفعول للجرى على سنن الكبرياء وقرئ على البناء للفاعل وقيل المزين هو الشيطان لما أن مساق الآية الكريمة على ذمها وفرق الجبائى بين المباحات فأسند تزيينها اليه تعالى وبين المحرمات فنسب تزيينها الى الشيطان ﴿من النساء والبنين﴾ فى محل النصب على أنه حال من الشهوات وهى مفسرة لها فى المعنى وقيل من لبيان الجنس وتقديم النساء على البنين لعراقتهن فى معنى الشهوة فانهن حبائل الشيطان وعدم التعرض للبنات لعدم الاطراد فى حبهن ﴿والقناطير المقنطرة﴾ جمع قنطار وهو المال الكثير وقيل مائة ألف دينار وقيل ملء مسك ثور وقيل سبعون ألفا وقيل أربعون ألف مثقال وقيل ثمانون ألفا وقيل مائة رطل وقيل ألف ومائتا مثقال وقيل ألفا دينار وقيل مائة من ومائة رطل ومائة مثقال ومائة درهم وقيل دية النفس واختلف فى أن وزنه فعلال أو فنعال ولفظ المقنطرة مأخوذ منه للتأكيد كقولهم بدرة مبدرة وقيل المقنطرة المحكمة المحصنة وقيل الكثيرة المنضدة بعضها على بعض أو المدفونة وقيل المضروبة المنقوشة ﴿من الذهب والفضة﴾ بيان للقناطير أو حال ﴿والخيل﴾ عطف على القناطير قيل هى جمع لاواحد له من لفظه كالقوم والرهط والواحد فرس وقيل واحده خائل وهو مشتق من الخيلاء ﴿المسومة﴾ أى المعلمة من السومة وهى العلامة أو المرعية من أسام الدابة وسومها اذا أرسلها وسيبها للرعى أو المطهمة التامة الخلق ﴿والأنعام﴾ أى الابل والبقر والغنم ﴿والحرث﴾ أى الزرع مصدر بمعنى المفعول ﴿ذلك﴾ أى ماذكر من الاشياء المعهودة ﴿متاع الحيوة الدنيا﴾ أى مايتمتع به فى الحياة الدنيا أياما قلائل

فتفنى سريعا ﴿والله عنده حسن المآب﴾ حسن المرجع وفيه دلالة على أن ليس فيما عدد عاقبة حميدة وفى تكرير الاسناد بجعل الجلالة مبتدأ واسناد الجملة الظرفية اليه زيادة تأكيد وتفخيم ومزيد اعتناء بالترغيب فيما عند الله عزوجل من النعيم المقيم والتزهيد فى ملاذ الدنيا وطيباتها الفانية ﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلكم﴾ اثر مابين شأن مزخرفات الدنيا وذكر ماعنده تعالى من حسن المآب اجمالا أمر النبى صلى الله عليه وسلم بتفصيل ذلك المجمل للناس مبالغة فى الترغيب والخطاب للجميع والهمزة للتقرير أى أأخبركم بما هو خير مما فصل من تلك المستلذات المزينة لكم وابهام الخير لتفخيم شأنه والتشويق اليه وقوله تعالى ﴿للذين اتقوا عند ربهم جنات﴾ استئناف مبين لذلك المبهم على أن جنات مبتدا والجار والمجرور خبر أو على أن جنات مرتفع به على الفاعلية عند من لايشترط فى ذلك اعتماد الجار على مافصل فى محله والمراد بالتقوى هو التبتل الى الله تعالى والاعراض عما سواه على ماتنبئ عنه النعوت الآتية وتعليق حصول الجنات ومابعدها من فنون الخيرات به للترغيب فى تحصيله والثبات عليه وعند نصب على الحالية من جنات أو متعلق بما تعلق به الجار من معنى الاستقرار مفيد لكمال علو رتبة الجنات وسمو طبقتها والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضمير المتقين لاظهار مزيد اللطف بهم وقيل اللام متعلقة بخير وكذا الظرف وجنات خبر لمبتدا محذوف والجملة مبينة لخير ويؤيده قراءة جنات بالجر على البدلية من خير ولا يخفى أن تعليق الاخبار والبيان بما هو خير لطائفة ربما يوهم أن هناك خيرا آخر لآخرين ﴿تجرى﴾ فى محل الرفع والجر صفة لجنات على حسب القراءتين ﴿من تحتها الانهار﴾ متعلق بتجرى فان أريد بالجنات نفس الاشجار كما هو الظاهر فجريانها من تحتها ظاهر وان أريد بها مجموع الارض والاشجار فهو باعتبار جزئها الظاهر كما مر تفصيله مرارا ﴿خالدين فيها﴾ حال مقدرة من المستكن فى للذين والعامل مافيه من معنى الاستقرار ﴿وأزواج مطهرة﴾ عطف على جنات أى مبرأة مما يستقذر من النساء من الاحوال البدنية والطبيعية ﴿ورضوان﴾ التنوين للتفخيم وقوله تعالى ﴿من الله﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة له مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة أى رضوان وأى رضوان لايقادر قدره كائن من الله عز وجل وقرئ بضم الراء ﴿والله بصير بالعباد﴾ وبأعمالهم فيثيب ويعاقب حسبما يليق بها أو بصير بأحوال الذين اتقوا ولذلك أعدلهم ماذكر وفيه اشعار بأنهم المستحقون للتسمية باسم العبد ﴿الذين يقولون ربنا اننا آمنا﴾ فى محل الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف كأنه قيل من أولئك المتقون الفائزون بهذه الكرامات السنية فقيل هم الذين الخ أو النصب على المدح أو الجر على أنه تابع للمتقين نعتا أو بدلا أو للعباد كذلك والاول أظهر وقوله تعالى والله بصير بالعباد حينئذ معترضة وتأكيد الجملة لاظهار أن ايمانهم ناشئ من وفور الرغبة وكمال النشاط وفى ترتيب الدعاء بقولهم ﴿فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾ على مجرد الايمان دلالة على كفايته فى استحقاق المغفرة والوقاية من النار ﴿الصابرين﴾ هو على تقدير كون الموصول فى محل الرفع منصوب على المدح باضمار أعنى وأما على تقدير كونه فى محل النصب أو الجر فهو نعت له والمراد بالصبر هو الصبر على مشاق الطاعات وعلى البأساء والضراء وحين البأس ﴿والصادقين﴾ فى أقوالهم ونياتهم وعزائمهم ﴿والقانتين﴾ المداومين على الطاعات المواظبين على العبادات ﴿والمنفقين﴾ أموالهم فى سبيل الله تعالى ﴿والمستغفرين بالاسحار﴾ قال مجاهد وقتادة والكلبى أى المصلين بالاسحار وعن زيد بن أسلم هم الذين يصلون الصبح فى جماعة وقال الحسن مدوا الصلاة الى السحر ثم استغفروا وقال نافع كان ابن عمر رضى الله عنه يحيى الليلة ثم يقول يانافع أسحرنا فأقول لافيعاود الصلاة فاذا قلت نعم قعد يستغفر الله ويدعو حتى يصبح وعن الحسن كانوا يصلون فى أول الليل حتى اذا كان السحر أخذوا فى الدعاء والاستغفار وتخصيص الاسحار بالاستغفار لان الدعاء فيها أقرب الى الاجابة اذ العبادة حينئذ أشق والنفس أصفى

والروح أجمع لاسيما للمتهجدين وتوسيط الواو بين الصفات المعدودة للدلالة على استقلال كل منها وكالهم فيها أولتغاير الموصوفين بها ﴿شهد الله أنه﴾ بفتح الهمزة أى بأنه أو على أنه ﴿لا اله الا هو﴾ أى بين وحدانيته بنصب الدلائل التكوينية فى الآفاق والأنفس وانزال الآيات التشريعية الناطقة بذلك عبر عنه بالشهادة على طريقة الاستعارة ايذانا بقوته فى اثبات المطلوب واشعارا بانكار المنكر وقرئ انه بكسر الهمزة اما باجراء شهد مجرى قال واما بجعل الجملة اعتراضا وايقاع الفعل على قوله تعالى أن الدين الخ على قراءة أن بفتح الهمزة كما سيأتى وقرئ شهداء لله بالنصب على أنه حال من المذكورين أو على المدح وبالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف ومآله الرفع على المدح أى هم شهداء لله وهو اما جمع شهيد كظرفاء فى جمع ظريف أو جمع شاهد كشعراء فى جمع شاعر ﴿والملائكة﴾ عطف على الاسم الجليل بحمل الشهادة على معنى مجازى شامل للاقرار والايمان بطريق عموم المجاز أى أقروا بذلك ﴿وأولوا العلم﴾ أى آمنوا به واحتجوا عليه بما ذكر من الادلة التكوينية والتشريعية قيل المراد بهم الانبياء عليهم الصلاة والسلام وقيل المهاجرون والانصار وقيل علماء مؤمنى أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه وقيل جميع علماء المؤمنين الذين عرفوا وحدانيته تعالى بالدلائل القاطعة وارتفاعهما على القراءتين الاخيرتين قيل بالعطف على الضمير فى شهداء لوقوع الفصل بينهما وأنت خبير بأن ذلك على قراءة النصب على الحالية يؤدى الى تقييد حال المذكورين بشهادة الملائكة وأولى العلم وليس فيه كثير فائدة فالوجه حينئذ كون ارتفاعهما بالابتداء والخبر محذوف لدلالة الكلام عليه أى والملائكة وأولوا العلم شهداء بذلك ولك أن تحمل القراءتين على المدح نصبا ورفعا فحينئذ يحسن العطف على المستتر على كل حال وقوله تعالى ﴿قائما بالقسط﴾ أى مقيما للعدل فى جميع أموره بيان لكماله تعالى فى أفعاله اثر بيان كماله فى ذاته وانتصابه على الحالية من الله كما فى قوله تعالى وهو الحق مصدقا وانما جاز افراده مع عدم جواز جاء زيد وعمرو راكبا لعدم اللبس كقوله تعالى ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة ولعل تأخيره عن المعطوفين للدلالة على علو رتبتهما وقرب منزلتهما والمسارعة الى اقامة شهود التوحيد اعتناء بشأنه ورفعا لمحله والسر فى تقديمه على المعطوفين مع مافيه من الايذان بأصالته تعالى فى الشهادة به كما فى قوله تعالى آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه أو من هو وهو الأوجه والعامل فيها معنى الجملة أى تفرد أو أحقه لأنها حال مؤكدة أو على المدح وقيل على أنه صفة للمنفى أى لا اله قائما الخ والفصل بينهما من قبيل توسعاتهم وهو مندرج فى المشهود به اذا جعل صفة أو حالا من الضمير أو نصبا على المدح منه وقرئ القائم بالقسط على البدلية من هو فيلزم الفصل بينهما كما فى الصفة أو على أنه خبر لمبتدا محذوف وقرئ قيما بالقسط ﴿لا اله الا هو﴾ تكرير للتأكيد ومزيد الاعتناء بمعرفة أدلة التوحيد والحكم به بعد اقامة الحجة وليجرى عليه قوله تعالى ﴿العزيز الحكيم﴾ فيعلم أنه المنعوت بهما ووجه الترتيب تقدم العلم بقدرته على العلم بحكمته تعالى ورفعهما على البدلية من الضمير أو الوصفية لفاعل شهد أو الخبرية لمبتدا مضمر وقد روى فى فضلها أنه عليه السلام قال يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله عز وجل ان لعبدى هذا عندى عهدا وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدى الجنة وهو دليل على فضل علم أصول الدين وشرف أهله وروى عن سعيد بن جبير أنه كان حول البيت ثلثمائة وستون صنما فلما نزلت هذه الآية الكريمة خررن سجدا وقيل نزلت فى نصارى نجران وقال الكلبي قدم على النبى صلى الله عليه وسلم حبران من أحبار الشأم فلما أبصرا المدينة قال أحدهما ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبى الذى يخرج فى آخر الزمان فلما دخلا عليه عليه السلام عرفاه بالصفة فقالا له عليه السلام أنت محمد قال صلى الله عليه وسلم نعم قالا وأنت أحمد قال عليه السلام أنا محمد وأحمد قالا فانا نسألك عن شئ فان أخبرتنا به آمنا بك وصدقناك قال عليه السلام سلا فقال أخبرنا عن أعظم شهادة فى كتاب الله عز وجل فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة فأسلم

الرجلان ﴿ان الدين عند الله الاسلام﴾ جملة مستأنفة مؤكدة للأولى أى لا دين مرضيا لله تعالى سوى الاسلام الذى هو التوحيد والتدرع بالشريعة الشريفة وعن قتادة أنه شهادة أن لا اله الا الله والاقرار بما جاء من عند الله تعالى وقرئ ان الدين عند الله للاسلام وقرئ أن الدين الخ على أنه بدل من أنه بدل الكل ان فسر الاسلام بالايمان أو بما يتضمنه وبدل الاشتمال ان فسر بالشريعة أو على أن شهد واقع عليه على تقدير قراءة انه بالكسر كما أشير اليه ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب﴾ نزلت فى اليهود والنصارى حين تركوا الاسلام الذى جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وأنكروا نبوته والتعبير عنهم بالموصول وجعل ايتاء الكتاب صلة له لزيادة تقبيح حالهم فان الاختلاف ممن أوتى ما يزيله ويقطع شأفته فى غاية القبح والسماجة وقوله تعالى ﴿الا من بعد ما جاءهم العلم﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أو أعم الأوقات أى وما اختلفوا فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات الا بعد أن علموا بأنه الحق الذى لا محيد عنه أو بعد أن علموا حقيقة الأمر وتمكنوا من العلم بها بالحجج النيرة والآيات الباهرة وفيه من الدلالة على ترامى حالهم فى الضلالة ما لا مزيد عليه فان الاختلاف بعد حصول تلك المرتبة مما لا يصدر عن العاقل وقوله تعالى ﴿بغيا بينهم﴾ أى حسدا كائنا بينهم وطلبا للرياسة لا لشبهة وخفاء فى الأمر تشنيع اثر تشنيع ﴿ومن يكفر بآيات الله﴾ أى بآياته الناطقة بما ذكر من أن الدين عند الله تعالى هو الاسلام ولم يعمل بمقتضاها أو بأية آية كانت من آياته تعالى على أن يدخل فيها ما نحن فيه دخولا أوليا ﴿فان الله سريع الحساب﴾ قائم مقام جواب الشرط علة له أى ومن يكفر بآياته تعالى فانه تعالى يجازيه ويعاقبه عن قريب فانه سريع الحساب أى يأتى حسابه عن قريب أو يتم ذلك بسرعة واظهار الجلالة لتربية المهابة وادخال الروعة وفى ترتيب العقاب على مطلق الكفر بآياته تعالى من غير تعرض لخصوصية حالهم من كون كفرهم بعد ايتاء الكتاب وحصول الاطلاع على ما فيه وكون ذلك للبغى دلالة على كمال شدة عقابهم ﴿فان حاجوك﴾ أى فى كون الدين عند الله الاسلام أو جادلوك فيه بعد ما أقمت عليهم الحجج ﴿فقل أسلمت وجهى﴾ أى أخلصت نفسى وقلبى وجملتى وانما عبر عنها بالوجه لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة ومظهر القوى والمشاعر ومجمع معظم ما يقع به العبادة من السجود والقراءة وبه يحصل التوجه الى كل شئ ﴿لله﴾ لا أشرك به فيها غيره وهو الدين القويم الذى قامت عليه الحجج ودعت اليه الآيات والرسل عليهم السلام ﴿ومن اتبعن﴾ عطف على المتصل فى أسلمت وحسن ذلك لمكان الفصل الجارى مجرى التأكيد بالمنفصل أى وأسلم من اتبعنى أو مفعول معه ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب﴾ أى من اليهود والنصارى وضع الموصول موضع الضمير لرعاية التقابل بين وصفى المتعاطفين ﴿والأميين﴾ أى الذين لا كتاب لهم من مشركى العرب ﴿أأسلمتم﴾ متبعين لى كما فعل المؤمنون فانه قد أتاكم من البينات ما يوجبه ويقتضيه لا محالة فهل أسلمتم وعملتم بقضيتها أو أنتم على كفركم بعد كما يقول من لخص لصاحبه المسئلة ولم يدع من طرق التوضيح والبيان مسلكا الا سلكه فهل فهمتها على منهاج قوله تعالى فهل أنتم منتهون اثر تفصيل الصوارف عن تعاطى الخمر والميسر وفيه من استقصارهم وتعييرهم بالمعاندة وقلة الانصاف وتوبيخهم بالبلادة وكلة القريحة ما لا يخفى ﴿فان أسلموا﴾ أى كما أسلمتم وانما لم يصرح به كما فى قوله تعالى فان آمنوا بمثل ما آمنتم به حسما لباب اطلاق اسم الاسلام على شئ آخر بالكلية ﴿فقد اهتدوا﴾ أى فازوا بالحظ الأوفر ونجوا عن مهاوى الضلال ﴿وان تولوا﴾ أى أعرضوا عن الاتباع وقبول الاسلام ﴿فانما عليك البلاغ﴾ قائم مقام الجواب أى لم يضروك شيأ اذ ما عليك الا البلاغ وقد فعلت على أبلغ وجه. روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا أسلمنا فقال عليه السلام لليهود أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله فقالوا معاذ الله وقال عليه الصلاة والسلام للنصارى أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله فقالوا معاذ الله

أن يكون عيسى عبدا وذلك قوله عز وجل وان تولوا ﴿والله بصير بالعباد﴾ عالم بجميع أحوالهم وهو تذييل فيه وعد ووعيد ﴿ان الذين يكفرون بآيات الله﴾ أى آية كانت فيدخل فيهم الكافرون بالآيات الناطقة بحقية الاسلام على الوجه الذى مر تفصيله دخولا أوليا ﴿ويقتلون النبيين بغير حق﴾ هم أهل الكتاب قتل أولوهم الانبياء عليهم السلام وقتلوا أتباعهم وهم راضون بما فعلوا وكانوا قاتلهم الله تعالى حائمين حول قتل النبى صلى الله عليه وسلم لولا أن عصم الله تعالى ساحته المنيعة وقد أشير اليه بصيغة الاستقبال وقرئ بالتشديد للتكثير والتقييد بغير حق للايذان بأنه كان عندهم أيضا بغير حق ﴿ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾ أى بالعدل ولعل تكرير الفعل للاشعار بما بين القتلين من التفاوت أو باختلافهما فى الوقت. عن أبى عبيدة بن الجراح قلت يارسول الله أى الناس أشد عذابا يوم القيامة قال رجل قتل نبيا أو رجلا أمر بمعروف ونهى عن منكر ثم قرأها ثم قال يا أبا عبيدة قتلت بنو اسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار فى ساعة واحدة فقام مائة واثنا عشر رجلا من عباد بنى اسرائيل فأمروا قتلتهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعا من آخر النهار وقرئ ويقاتلون الذين ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ خبران والفاء لتضمن اسمها معنى الشرط فانها بالنسخ لاتغير معنى الابتداء بل تزيده تأكيدا وكذا الحال فى النسخ بأن المفتوحة كما فى قوله تعالى واعلموا أنما غنمتم من شئ فأن لله خمسه وكذا النسخ بلكن كما فى قوله

فوالله ما فارقتكم عن ملالة ولكن مايقضى فسوف يكون

وانما يتغير معنى الابتداء فى النسخ بليت ولعل وقد ذهب سيبويه والاخفش الى منع دخول الفاء عند النسخ مطلقا فالخبر عندهما قوله تعالى ﴿أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة﴾ كما فى قولك الشيطان فاحذر عدو مبين وعلى الأول هو استئناف واسم الاشارة مبتدأ ومافيه من معنى البعد للدلالة على ترامى أمرهم فى الضلال وبعد منزلتهم فى فظاعة الحال والموصول بما فى حيز صلته خبره أى أولئك المتصفون بتلك الصفات القبيحة أو المبتلون بأسوأ الحال الذين بطلت أعمالهم التى عملوها من البر والحسنات ولم يبق لها أثر فى الدارين بل بقى لهم اللعنة والخزى فى الدنيا وعذاب أليم فى الآخرة ﴿ومالهم من ناصرين﴾ ينصرونهم من بأس الله وعذابه فى احدى الدارين وصيغة الجمع لرعاية ماوقع فى مقابلته لالنفى تعدد الانصار من كل واحد منهم كما فى قوله تعالى وماللظالمين من أنصار ﴿ألم تر﴾ تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أولكل من يتأتى منه الرؤية من حال أهل الكتاب وسوء صنيعهم وتقرير لما سبق من أن اختلافهم فى الاسلام انما كان بعد ماجاءهم العلم بحقيته أى ألم تنظر ﴿الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب﴾ أى التوراة على أن اللام للعهد وحمله على جنس الكتب الالهية تطويل للمسافة اذ تمام التقريب حينئذ بكون التوراة من جملتها لأن مدار التشنيع والتعجيب انما هو اعراضهم عن المحاكمة الى مادعوا اليه وهم لم يدعوا الا الى التوراة والمراد بما أوتوه منها مابين لهم فيها من العلوم والأحكام التى من جملتها ماعلموه من نعوت النبى صلى الله عليه وسلم وحقية الاسلام والتعبير عنه بالنصيب للاشعار بكمال اختصاصه بهم وكونه حقا من حقوقهم التى يجب مراعاتها والعمل بموجبها ومافيه من التنكير للتفخيم وحمله على التحقير لايساعده مقام المبالغة فى تقبيح حالهم ﴿يدعون الى كتاب الله﴾ الذى أوتوا نصيبا منه وهو التوراة والاظهار فى مقام الاضمار لايجاب الاجابة واضافته الى الاسم الجليل لتشريفه وتأكيد وجوب المراجعة اليه والجملة استئناف مبين لمحل التعجيب مبنى على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل ماذا يصنعون حتى ينظر اليهم فقيل يدعون الى كتاب الله تعالى وقيل حال من الموصول ﴿ليحكم بينهم﴾ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مدارسهم فدعاهم الى الايمان فقال له نعيم بن عمرو والحرث بن زيد على أى دين أنت قال

عليه الصلاة والسلام على ملة ابراهيم قالا ان ابراهيم كان يهوديا فقال صلى الله عليه وسلم لهما ان بيننا وبينكم التوراة فهلموا اليها فأبيا وقيل نزلت فى الرجم وقد اختلفوا فيه وقيل كتاب الله القرآن فانهم قد علموا أنه كتاب الله ولم يشكوا فيه وقرئ ليحكم على بناء المجهول فيكون الاختلاف بينهم بأن أسلم بعضهم كعبد الله بن سلام وأضرابه وعاداهم الآخرون ﴿ثم يتولى فريق منهم﴾ استبعاد لتوليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع اليه ﴿وهم معرضون﴾ اما حال من فريق لتخصصه بالصفة أى يتولون من المجلس وهم معرضون بقلوبهم أو اعتراض أى وهم قوم ديدنهم الاعراض عن الحق والاصرار على الباطل ﴿ذلك﴾ اشارة الى ما مر من التولى والاعراض وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿بأنهم﴾ أى حاصل بسبب أنهم ﴿قالوا لن تمسنا النار﴾ باقتراف الذنوب وركوب المعاصى ﴿الا أياما معدودات﴾ وهى مقدار عبادتهم العجل ورسخ اعتقادهم على ذلك وهونوا عليهم الخطوب ﴿وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون﴾ من قولهم ذلك وما أشبهه من قولهم ان آباءنا الانبياء يشفعون لنا أو ان الله تعالى وعد يعقوب عليه السلام أن لا يعذب أولاده الا تحلة القسم ولذلك ارتكبوا ما ارتكبوا من القبائح ﴿فكيف﴾ رد لقولهم المذكور وابطال لما غرهم باستعظام ما سيدهمهم وتهويل ما سيحيق بهم من الاهوال أى فكيف يكون حالهم ﴿اذا جمعناهم ليوم﴾ أى لجزاء يوم ﴿لا ريب فيه﴾ أى فى وقوعه ووقوع ما فيه. روى أن أول راية ترفع يوم القيامة من رايات الكفر راية اليهود فيفضحهم الله عز وجل على رؤس الأشهاد ثم يأمر بهم الى النار ﴿ووفيت كل نفس ما كسبت﴾ أى جزاء ما كسبت من غير نقص أصلا كما يزعمون وانما وضع المكسوب موضع جزائه للايذان بكمال الاتصال والتلازم بينهما كأنهما شئ واحد وفيه دلالة على أن العبادة لا تحبط وأن المؤمن لا يخلد فى النار لان توفية جزاء ايمانه وعمله لا تكون فى النار ولا قبل دخولها فاذن هى بعد الخلاص منها ﴿وهم﴾ أى كل الناس المدلول عليهم بكل نفس ﴿لا يظلمون﴾ بزيادة عذاب أو بنقص ثواب بل يصيب كلا منهم مقدار ما كسبه ﴿قل اللهم﴾ الميم عوض عن حرف النداء ولذلك لا يجتمعان وهذا من خصائص الاسم الجليل كدخوله عليه مع حرف التعريف وقطع همزته ودخول تاء القسم عليه وقيل أصله يا الله أمنا بخير أى اقصدنا به فخفف بحذف حرف النداء ومتعلقات الفعل وهمزته ﴿مالك الملك﴾ أى مالك جنس الملك على الاطلاق ملكا حقيقيا بحيث تتصرف فيه كيفما تشاء ايجادا واعداما واحياء واماتة وتعذيبا واثابة من غير مشارك ولا ممانع وهو نداء ثان عند سيبويه فان الميم عنده تمنع الوصفية ﴿تؤتى الملك﴾ بيان لبعض وجوه التصرف الذى تستدعيه مالكية الملك وتحقيق لاختصاصها به تعالى حقيقة وكون مالكية غيره بطريق المجاز كما ينبئ عنه ايثار الايتاء الذى هو مجرد الاعطاء على التمليك المؤذن بثبوت المالكية حقيقة ﴿من تشاء﴾ أى ايتاءه اياه ﴿وتنزع الملك ممن تشاء﴾ أى نزعه منه فالملك الاول حقيقى عام ومملوكيته حقيقية والآخران مجازيان خاصان ونسبتهما الى صاحبهما مجازية وقيل الملك الاول عام والآخران بعضان منه فتأمل وقيل المراد بالملك النبوة ونزعها نقلها من قوم الى آخرين ﴿وتعز من تشاء﴾ أن تعزه فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما بالنصر والتوفيق ﴿وتذل من تشاء﴾ أن تذله فى احداهما أو فيهما من غير ممانعة من الغير ولا مدافعة ﴿بيدك الخير﴾ تعريف الخير للتعميم وتقديم الخبر للتخصيص أى بقدرتك الخير كله لا بقدرة أحد غيرك تتصرف فيه قبضا وبسطا حسبما تقتضيه مشيئتك وتخصيص الخير بالذكر لما أنه مقضى بالذات وأما الشر فمقضى بالعرض اذ ما من شر جزئى الا وهو متضمن لخير كلى أو لأن فى حصول الشر دخلا لصاحبه فى الجملة لأنه من أجزية أعماله وأما الخير ففضل محض أو لرعاية الادب أو لأن الكلام فيه فانه روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خط الخندق عام الأحزاب وقطع لكل عشرة من أهل المدينة أربعين ذراعا وأخذوا يحفرونه خرج

من بطن الخندق صخرة كالتل لم تعمل فيها المعاول فوجهوا سلمان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فجاء عليه السلام وأخذ منه المعول فضربها ضربة صدعتها و برق منها برق أضاء مابين لابتيها لكأن مصباحا فى جوف بيت مظلم فكبر وكبر معه المسلمون وقال أضاءت لى منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب ثم ضرب الثانية فقال أضاءت لى منها القصور الحمر من أرض الروم ثم ضرب الثالثة فقال أضاءت لى قصور صنعاء وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة على كلها فأبشروا فقال المنافقون ألا تعجبون يمنيكم و يعدكم الباطل و يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم انما تحفرون الخندق من الفرق لاتستطيعون أن تبرزوا فنزلت ﴿انك على كل شئ قدير﴾ تعليل لما سبق وتحقيق له ﴿تولج الليل فى النهار﴾ أى تدخله فيه بتعقيبه اياه أو بنقص الاول و زيادة الثانى ﴿وتولج النهار فى الليل﴾ على أحد الوجهين ﴿وتخرج الحى من الميت﴾ أى تنشئ الحيوانات من موادها أو من النطفة وقيل تخرج المؤمن من الكافر ﴿وتخرج الميت من الحى﴾ أى تخرج النطفة من الحيوان وقيل تخرج الكافر من المؤمن ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ قال أبو العباس المقرى و رد لفظ الحساب فى القرآن على ثلاثة أوجه بمعنى التعب قال تعالى وترزق من تشاء بغير حساب و بمعنى العدد قال تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب و بمعنى المطالبة قال تعالى فامنن أو أمسك بغير حساب والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل ترزق أو من مفعوله وفيه دلالة على أن من قدر على أمثال هاتيك الأفاعيل العظام المحيرة للعقول والافهام فقدرته على أن ينزع الملك من العجم و يذلهم و يؤتيه العرب و يعزهم أهون من كل هين. عن على رضى الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فاتحة الكتاب و آية الكرسى و آيتين من آل عمران شهد الله أنه لااله الا هو الى قوله تعالى ان الدين عند الله الاسلام وقل اللهم مالك الملك الى قوله بغير حساب معلقات مابينهن و بين الله تعالى حجاب قلن يارب تهبطنا الى أرضك والى من يعصيك قال الله تعالى انى حلفت أنه لايقرؤكن أحد دبر كل صلاة الا جعلت الجنة مثواه على ماكان منه وأسكنته فى حظيرة القدس ونظرت اليه بعينى كل يوم سبعين مرة وقضيت له سبعين حاجة أدناها المغفرة وأعذته من كل عدو وحاسد ونصرته عليهم و فى بعض الكتب أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدى فان العباد أطاعونى جعلتهم لهم رحمة وان العباد عصونى جعلتهم عليهم عقوبة فلا تشتغلوا بسب الملوك ولكن توبوا الى أعطفهم عليكم وهو معنى قوله عليه السلام كما تكونوا يول عليكم ﴿لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء﴾ نهوا عن موالاتهم لقرابة أوصداقة جاهلية ونحوهما من أسباب المصادقة والمعاشرة كما فى قوله سبحانه ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء وقوله تعالى لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء حتى لايكون حبهم و لابغضهم الالله تعالى أوعن الاستعانة بهم فى الغزو وسائر الأمور الدينية ﴿من دون المؤمنين﴾ فى موضع الحال أى متجاوزين المؤمنين اليهم استقلالا أو اشتراكا وفيه اشارة الى أنهم الاحقاء بالموالاة وأن فى موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة ﴿ومن يفعل ذلك﴾ أى اتخاذهم أولياء والتعبير عنه بالفعل للاختصار أو لايهام الاستهجان بذكره ﴿فليس من الله﴾ أى من ولايته تعالى ﴿فى شئ﴾ يصح أن يطلق عليه اسم الولاية فان موالاة المتعادين ممالايكاد يدخل تحت الوقوع قال

تود عـدوى ثم تزعم أننى   صديقك ليس النوك عنك بعازب

والجملة اعتراضية وقوله تعالى ﴿الا أن تتقوا﴾ على صيغة الخطاب بطريق الالتفات استثناء مفرغ من أعم الأحوال والعامل فعل النهى معتبرا فيه الخطاب كأنه قيل لاتتخذوهم أولياء ظاهرا أو باطنا فى حال من الأحوال الاحال اتقائكم ﴿منهم﴾ أى من جهتهم ﴿تقاة﴾ أى اتقاء أوشيأ يجب اتقاؤه على أن المصدر واقع موقع المفعول فانه يجوز اظهار الموالاة حينئذ مع اطمئنان

النفس بالعداوة والبغضاء وانتظار زوال المانع من قشر العصا واظهار مافى الضمير كما قال عيسى عليه السلام كن وسطا وامش جانبا وأصل تقاة وقية ثم أبدلت الواو تاء كتخمة وتهمة وقلبت الياء ألفا وقرئ تقية ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ أى ذاته المقدسة فان جواز اطلاق لفظ النفس مرادا به الذات عليه سبحانه بلا مشاكلة مما لا كلام فيه عند المتقدمين وقد صرح بعض محقق المتأخرين بعدم الجواز وان أريد به الذات الا مشاكلة وفيه من التهديد مالا يخفى عظمه وذكر النفس للايذان بأن له عقابا هائلا لايؤبه دونه بما يحذر من الكفرة ﴿والى الله المصير﴾ تذييل مقرر لمضمون ماقبله ومحقق لوقوعه حتما ﴿قل ان تخفوا مافى صدوركم﴾ من الضمائر التى من جملتها ولاية الكفرة ﴿أوتبدوه﴾ فيما بينكم ﴿يعلمه الله﴾ فيؤاخذكم بذلك عند مصيركم اليه وتقديم الاخفاء على الابداء قدمر سره فى تفسير قوله تعالى وان تبدوا مافى أنفسكم أوتخفوه وقوله تعالى يعلم مايسرون ومايعلنون ﴿ويعلم مافى السموات ومافى الأرض﴾ كلام مستأنف غير معطوف على جواب الشرط وهو من باب ايراد العام بعد الخاص تأكيدا له وتقريرا ﴿والله على كل شئ قدير﴾ فيقدر على عقوبتكم بما لامزيد عليه ان لم تنتهوا عما نهيتم عنه واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتربية المهابة وتهويل الخطب وهو تذييل لما قبله مبين لقوله تعالى ويحذركم الله نفسه بأن ذاته المقدسة المتميزة عن سائر الذوات المتصفة بما لايتصف بشئ منها من العلم الذاتى المتعلق بجميع المعلومات متصفة بالقدرة الذاتية الشاملة لجميع المقدورات بحيث لايخرج من ملكوته شئ قط ﴿يوم تجد كل نفس﴾ أى من النفوس المكلفة ﴿ماعملت من خير محضرا﴾ عندها بأمر الله تعالى وفيه من التهويل ماليس فى حاضرا ﴿وماعملت من سوء﴾ عطف على ماعملت والاحضار معتبر فيه أيضا الا أنه خص بالذكر فى الخير للاشعار بكون الخير مرادا بالذات وكون احضار الشر من مقتضيات الحكمة التشريعية ﴿تود﴾ عامل فى الظرف والمعنى تود وتتمنى يوم تجد صحائف أعمالها من الخير والشر أوأجزيتها محضرة ﴿لوأن بينها وبينه﴾ أى بين ذلك اليوم ﴿أمدا بعيدا﴾ لغاية هوله و فى اسناد الودادة الى كل نفس سواء كان لها عمل سئ أولا بل كانت متمحضة فى الخير من الدلالة على كمال فظاعة ذلك اليوم وهول مطلعه مالايخفى. اللهم انا نعوذبك من ذلك ويجوز أن يكون انتصاب يوم على المفعولية باضمار اذكروا وتود اما حال من كل نفس أواستئناف مبنى على السؤال أى اذكروا يوم تجد كل نفس ماعملت من خير وشر محضرا وادة أن بينها و بينه أمدا بعيدا أو كان سائلا قال حين أمروا بذكر ذلك اليوم فماذا يكون اذذاك فقيل تود لوأن بينها الخ أوتجد مقصور على ماعملت من خير وتود خبر ماعملت من سوء ولاتكون ما شرطية لارتفاع تود وقرئ ودت فحينئذ يجوز كونها شرطية لكن الحمل على الخبر أوقع معنى لأنها حكاية حال ماضية وأوفق للقراءة المشهورة ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ تكرير لما سبق واعادة له لكن لا للتأكيد فقط بل لافادة مايفيده قوله عز وجل ﴿والله رؤف بالعباد﴾ من أن تحذيره تعالى من رأفته بهم ورحمته الواسعة أو أن رأفته بهم لاتمنع تحقيق ماحذرهموه من عقابه وأن تحذيره ليس مبنيا على تناسى صفة الرأفة بل هو متحقق مع تحققها أيضا كما فى قوله تعالى ياأيها الانسان ماغرك بربك الكريم فالجملة على الأول اعتراض وعلى الثانى حال وتكرير اسم الجليل لتربية المهابة ﴿قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى﴾ المحبة ميل النفس الى الشئ لكمال أدركته فيه بحيث يحملها على مايقربها اليه والعبد اذا علم أن الكمال الحقيقى ليس الا لله عز وجل وأن كل مايراه كمالا من نفسه أومن غيره فهو من الله وبالله والى الله لم يكن حبه الا لله و فى الله وذلك مقتضى ارادة طاعته والرغبة فيما يقربه اليه فلذلك فسرت المحبة بارادة الطاعة وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فى عبادته والحرص على مطاوعته ﴿يحببكم الله﴾ أى يرض عنكم ﴿ويغفر لكم ذنوبكم﴾ أى يكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم فيقربكم من جناب عزه و يبوئكم فى جوار قدسه عبر عنه بالمحبة

بطريق الاستعارة أو المشاكلة ﴿والله غفور رحيم﴾ أى لمن يتحبب اليه بطاعته و يتقرب اليه باتباع نبيه عليه الصلاة والسلام فهو تذييل مقرر لماقبله مع زيادة وعد الرحمة و وضع الاسم الجليل موضع الضمير للاشعار باستتباع وصف الالوهية للمغفرة والرحمة . روى أنها نزلت لماقالت اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه وقيل نزلت فى وفد نجران لماقالوا انانعبد المسيح حبالله تعالى وقيل فى أقوام زعموا على عهده عليه الصلاة والسلام أنهم يحبون الله تعالى فأمروا أن يجعلوا لقولهم مصداقامن العمل و روى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على قريش وهم فى المسجد الحرام يسجدون للاصنام وقدعلقوا عليها بيض النعام و جعلوا فى آذانها الشنوف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يامعشر قريش لقد خالفتم ملةابراهيم واسمعيل عليهما الصلاة والسلام فقالت قريش انما نعبدها حبالله تعالى ليقربونا الى الله زلفى فقال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام قل ان كنتم تحبون الله تعالى وتعبدون الأصنام لتقربكم اليه فاتبعونى أى اتبعوا شريعتى وسنتى يحببكم الله فأنارسوله اليكم وحجته عليكم ﴿قل أطيعوا الله والرسول﴾ أى فى جميع الأوامر والنواهى فيدخل فى ذلك الطاعة فى اتباعه عليه الصلاة والسلام دخولا أولياوايثار الاظهار على الاضمار بطريق الالتفات لتعيين حيثية الاطاعة والاشعار بعلتهافان الاطاعة المأمور بها اطاعته عليه الصلاة والسلام من حيث أنه رسول الله لامن حيث ذاته ولا ريب فى أن عنوان الرسالة من موجبات الاطاعة ودواعيها ﴿فان تولوا﴾ امامن تمام مقول القول فهى صيغة المضارع المخاطب بحذف احدى التاءين أى تتولوا واما كلام متفرع عليه مسوق من جهته تعالى فهى صيغة الماضى الغائب وفى ترك ذكر احتمال الاطاعة كما فى قوله تعالى فان أسلموا تلويح الى أنه غير محتمل منهم ﴿فان الله لايحب الكافرين﴾ نفى المحبة كناية عن بغضه تعالى لهم وسخطه عليهم أى لايرضى عنهم ولايثنى عليهم وايثار الاظهار على الاضمار لتعميم الحكم لكل الكفرة والاشعار بعلته فان سخطه تعالى عليهم بسبب كفرهم والايذان بأن التولى عن الطاعة كفر و بأن محبته عزوجل مخصوصة بالمؤمنين ﴿ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين﴾ لما بين الله تعالى أن الدين المرضى عنده هو الاسلام والتوحيد وأن اختلاف أهل الكتابين فيه انما هو للبغى والحسد وأن الفوز برضوانه ومغفرته و رحمته منوط باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته شرع فى تحقيق رسالته و كونه من أهل بيت النبوة القديمة فبدأ ببيان جلالة أقدار الرسل عليهم الصلاة والسلام كافة وأتبعه ذكر مبدأ أمر عيسى عليه الصلاة والسلام وأمه و كيفية دعوته للناس الى التوحيد والاسلام تحقيقا للحق وابطالا لما عليه أهل الكتابين فى شأنهما من الافراط والتفريط ثم بين بطلان محاجتهم فى ابراهيم عليه الصلاة والسلام وادعائهم الانتماء الى ملته ونزه ساحته العلية عماهم عليه من اليهودية والنصرانية ثم نص على أن جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام دعاة الى عبادة الله عزوجل وحده وطاعته منزهون عن احتمال الدعوة الى عبادة أنفسهم أو غيرهم من الملائكة والنبيين وأن أممهم قاطبة مأمورون بالايمان بمن جاءهم من رسول مصدق لما معهم تحقيقا لوجوب الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم و كتابه المصدق لما بين يديه من التوراة والانجيل وتحتم الطاعة له حسبما سيأتى تفصيله وتخصيص آدم عليه الصلاة والسلام بالذكر لأنه أبو البشر ومنشأ النبوة و كذا حال نوح عليه السلام فانه آدم الثانى وأما ذكر آل ابراهيم فلترغيب المعترفين باصطفائهم فى الايمان بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم واستمالتهم نحو الاعتراف باصطفائه بواسطة كونه من زمرتهم مع مامر من التنبيه على كونه عليه الصلاة والسلام عريقا فى النبوة من زمرة المصطفين الاخيار وأما ذكر آل عمران مع اندراجهم فى آل ابراهيم فلاظهار مزيد الاعتناء بتحقيق أمر عيسى عليه الصلاة والسلام لكمال رسوخ الخلاف فى شأنه فان نسبة الاصطفاء الى الأب الأقرب أدل على تحققه فى الآل وهو الداعى الى اضافة الآل الى ابراهيم

دون نوح وآدم عليهم الصلاة والسلام والاصطفاء أخذما صفا من الشىء كالاستصفاء مثل به اختياره تعالى اياهم النفوس القدسية ومايليق بها من الملكات الروحانية والكمالات الجسمانية المستتبعة للرسالة فى نفس المصطفى كما فى كافة الرسل عليهم الصلاة والسلام أو فيمن يلابسه وينشأ منه كما فى مريم وقيل اصطفى آدم عليه الصلاة والسلام بأن خلقه بيده فى أحسن تقويم وبتعليم الأسماء واسجاد الملائكة اياه واسكان الجنة واصطفى نوحا عليه الصلاة والسلام بكونه أول من نسخ الشرائع اذلم يكن قبل ذلك تزويج المحارم حراما وباطالة عمره وجعل ذريته هم الباقين واستجابة دعوته فى حق الكفرة والمؤمنين وحمله على متن الماء والمراد بآل ابراهيم اسمعيل واسحق والأنبياء من أولادهما الذين من جملتهم النبي صلى الله عليه وسلم وأما اصطفاء نفسه عليه الصلاة والسلام فمفهوم من اصطفائهم بطريق الاولوية وعدم التصريح به للايذان بالغنى عنه لكمال شهرة أمره فى الخلة و كونه امام الأنبياء وقدوة الرسل عليهم الصلاة والسلام و كون اصطفاء آله بدعوته بقوله ربنا وابعث فيهم رسولا منهم الآية و لذلك قال عليه الصلاة والسلام أنا دعوة أبى ابراهيم و بآل عمران عيسى وأمه مريم ابنة عمران بن ماثان بن عازار بن أبى يود بن رب بابل بن ساليان بن يوحنا بن يوشيا بن أموز بن منشا بن حزقيا بن أحز بن يوثم بن عزياهو بن يهورام بن يهوشافاط بن اسا بن رحبعم بن سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ابن يشا بن عوفيذ ابن بوعز بن سلمون بن نحشون بن عمينوذب بن رم بن حصرون بن بارص بن يهوذا بن يعقوب عليه الصلاة والسلام وقيل موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام ابنا عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه الصلاة والسلام و بين العمرانين ألف وثمانمائة سنة فيكون اصطفاء عيسى عليه الصلاة والسلام حينئذ بالاندراج فى آل ابراهيم عليه السلام والاول هو الاظهر بدليل تعقيبه بقصة مريم واصطفاء موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام بالانتظام فى سلك آل ابراهيم عليه السلام انتظاما ظاهرا والمراد بالعالمين أهل زمان كل واحد منهم أى اصطفى كل واحد منهم على عالمى زمانه ﴿ذرية﴾ نصب على البدلية من الآلين أو على الحالية منهما وقدمر بيان اشتقاقها فى قوله تعالى ومن ذريتى وقوله تعالى ﴿بعضها من بعض﴾ فى محل النصب على أنه صفة لذرية أى اصطفى الآلين حال كونهم ذرية متسلسلة متشعبة البعض من البعض فى النسب كما ينبىء عنه التعرض لكونه ذرية وقيل بعضها من بعض فى الدين فالاستمالة على الوجه الأول تقريبية وعلى الثانى برهانية ﴿والله سميع﴾ لاقوال العباد ﴿عليم﴾ بأعمالهم البادية والخافية فيصطفى من بينهم لخدمته من تظهر استقامته قولا وفعلا على نهج قوله تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالته والجملة تذييل مقرر لمضمون ماقبلها ﴿اذ قالت امرأة عمران﴾ فى حيز النصب على المفعولية بفعل مقدر على طريقة الاستئناف لتقرير اصطفاء آل عمران و بيان كيفيته أى اذكر لهم وقت قولها الخ وقد مر مرارا وجه توجيه التذكير الى الاوقات مع أن المقصود تذكير ماوقع فيها من الحوادث وقيل هو منصوب على الظرفية لما قبله أى سميع لقولها المحكى عليم بضميرها المنوى وقيل هو ظرف لمعنى الاصطفاء المدلول عليه باصطفى المذكور كأنه قيل واصطفى آل عمران اذ قالت الخ فكان من عطف الجمل على الجمل دون عطف المفردات على المفردات ليلزم كون اصطفاء الكل فى ذلك الوقت وامرأة عمران هى حنة بنت فاقوذا جدة عيسى عليه الصلاة والسلام وكانت لعمران بن يصهر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام فظن أن المراد زوجته وليس بذاك فان قضية كفالة زكريا عليه الصلاة والسلام قاضية بأنها زوجة عمران بن ماثان لأنه عليه الصلاة والسلام كان معاصرا له وقد تزوج ايشاع أخت حنة أم يحيى عليه الصلاة والسلام وأما قوله عليه الصلاة والسلام فى شأن يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام هما ابنا خالة فقيل تأويله أن الاخت كثيرا ماتطلق على بنت الاخت و بهذا الاعتبار جعلهما عليهما الصلاة والسلام ابنى خالة وقيل كانت ايشاع أخت حنة من الأم وأخت

مريم من الأب على أن عمران نكح أولا أم حنة فولدت له ايشاع ثم نكح حنة بناءعلى حل نكاح الربائب فى شريعتهم فولدت مريم فكانت ايشاع أخت مريم من الأب وخالتها من الأم لأنها اخت حنة من الأم روى أنها كانت عجوزا عاقرا فبينماهى ذات يوم فى ظل شجرة اذرأت طائرا يطعم فرخه فحنت الى الولد وتمنته وقالت اللهم ان لك على نذرا ان رزقتنى ولدا أن أتصدق بهعلى بيت المقدس فيكون من سدنته وكان هذا النذر مشروعا عندهم فى الغلمان ثم هلك عمران وهى حامل وحينئذ فقولها ﴿رب انى نذرت لك مافى بطنى﴾ لابد من حمله على التكرير لتأكيدنذرها واخراجه عن صورة التعليق الى هيئة التنجيز والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن افاضة مافيه صلاح المربوب مع الاضافة الى ضميرها لتحريك سلسلة الاجابة ولذلك قيل اذا أراد العبد أن يستجاب لهدعاؤه فليدع الله بما يناسبه من أسمائه وصفاته وتأكيد الجملة لابراز وفور الرغبة فى مضمونها وتقديم الجار والمجرور لكمال الاعتناء به وانما عبرعن الولد بما لابهام أمره وقصوره عن درجة العقلاء ﴿محررا﴾ أى معتقا لخدمة بيت المقدس لايشغله شأن آخر أو مخلصا للعبادة ونصبهعلى الحالية من الموصول والعامل فيه نذرت وقيل من ضميره فى الصلة والعامل معنى الاستقرار فانها فى قوة مااستقر فى بطنى ولا يخفى أن المراد تقييد فعلها بالتحرير ليحصل به التقرب اليه تعالى لاتقييد مالا دخل لها فيه من الاستقرار فى بطنها ﴿فتقبل منى﴾ أى ماندرته والتقبل أخذ الشىء على وجه الرضا وهذا فى الحقيقة استدعاء للولد اذ لايتصور القبول بدون تحقق المقبول بل للولد الذكر لعدم قبول الانثى ﴿انك أنت السميع﴾ لجميع المسموعات التى من جملتها تضرعى ودعائى ﴿العليم﴾ بكل المعلومات التى من زمرتها مافى ضميرى لاغير وهو تعليل لاستدعاء القبول لامن حيث أن كونه تعالى سميعا لدعائها عليما بما فى ضميرها مصحح للتقبل فى الجملة بل من حيث أن علمه تعالى بصحة نيتها واخلاصها مستدع لذلك تفضلا واحسانا وتأكيد الجملةلعرض قوة يقينها بمضمونها وقصر صفتى السمع والعلم عليه تعالى لعرض اختصاص دعائها به تعالى وانقطاع حبل رجائها عماعداه بالكلية مبالغة فى الضراعة والابتهال ﴿فلما وضعتها﴾ أى مافى بطنها وتأنيث الضمير العائد اليه لما أن المقام يستدعى ظهور أنوثته واعتباره فى حيز الشرط اذ عليه يترتب جواب لما أعنى قوله تعالى ﴿قالت رب انى وضعتها أنثى﴾ لاعلى وضع ولد ما كأنه قيل فلما وضعت بنتا قالت الخ وقيل تأنيثه لأن ما فى بطنها كان أنثى فى علم الله تعالى أو لانه مؤول بالجبلة أو النفس أو النسمة وأنت خبير بأن اعتبار شىء مما ذكر فى حيز الشرط لا يكون مدارا لترتب الجواب عليه وقوله تعالى أنثى حال مؤكدة من الضمير أو بدل منه وتأنيثه للمسارعة الى عرض مادهمها من خيبة الرجاء أو لما مر من التأويل بالجبلة أو النسمة فالحال حينئذ مبينة وانما قالته تحزنا وتحسرا على خيبة رجائها وعكس تقديرها لما كانت ترجو أن تلد ذكرا ولذلك نذرته محررا للسدانة والتأكيد للرد على اعتقادها الباطل ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ تعظيم من جهته تعالى لموضوعها وتفخيم لشأنه وتجهيل لها بقدره أى والله أعلم بالشىء الذى وضعته وماعلق به من عظائم الامور وجعلهوابنه آيةللعالمين وهى غافلة عن ذلك والجملة اعتراضية وقرىء وضعت على خطاب الله تعالى لها أى انك لا تعلمين قدر هذا الموهوب وما أودع الله فيه من علو الشان وسمو المقدار وقرىء وضعت على صيغة التكلم مع الالتفات من الخطاب الى الغيبة اظهاراً لغاية الاجلال فيكون ذلك منها اعتذارا الى الله تعالى حيث أتت بمولود لا يصلح لما نذرته من السدانة أو تسلية لنفسها على معنى لعل لله تعالى فيه سرا وحكمة ولعل هذه الانثى خير من الذكر فوجه الالتفات حينئذ ظاهر وقوله تعالى ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ اعتراض آخر مبين لما فى الاول من تعظيم الموضوع ورفع منزلته واللام فى الذكر والانثى للعهد أى ليس الذكر الذى كانت تطلبه وتتخيل فيه كمالا قصاراه أن يكون كواحد من السدنة كالانثى التى وهبت لها فان دائرة علمها وأمنيتها لاتكاد تحيط

بما فيها من جلائل الامور. هذا على القراءتين الاولين وأما على التفسير الاخير للقراءة الاخيرة فمعناه وليس الذكر كهذه الانثى فى الفضيلة بل أدنى منها وأما على التفسير الاول لها فمعناه تأكيد الاعتذار ببيان أن الذكر ليس كالانثى فى الفضيلة والمزية وصلاحية خدمة المتعبدات فانهن بمعزل من ذلك فاللام للجنس وقوله تعالى ﴿وانى سميتها مريم﴾ عطف على انى وضعتها أنثى وغرضها من عرضها على علام الغيوب التقرب اليه تعالى واستدعاء العصمة لها فان مريم فى لغتهم بمعنى العابدة قال القرطبي معناه خادم الرب واظهار أنها غير راجعة عن نيتها وان كان ماوضعته أنثى وأنها وان لم تكن خليقة بسدانة بيت المقدس فلتكن من العابدات فيه ﴿وانى أعيذها بك﴾ عطف على انى سميتها وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار أى أجيرها بحفظك وقرىء بفتح ياء المتكلم فى المواضع التى بعدها همزة مضمومة الافى موضعين بعهدى أوف آتونى أفرغ ﴿وذريتها﴾ عطف على الضمير وتقديم الجار والمجرور عليه لابراز كمال العناية به ﴿من الشيطان الرجيم﴾ أى المطرود وأصل الرجم الرمى بالحجارة. عن النبى صلى الله عليه وسلم مامن مولود يولد الا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مسه الا مريم وابنها ومعناه أن الشيطان يطمع فى اغواء كل مولود بحيث يتأثر منه الامريم وابنها فان الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة ﴿فتقبلها﴾ أى أخذ مريم ورضى بها فى النذر مكان الذكر ﴿ربها﴾ مالكها ومبلغها الى كمالها اللائق وفيه من تشريفها ما لا يخفى ﴿بقبول حسن﴾ قيل الباء زائدة والقبول مصدر مؤكد للفعل السابق بحذف الزوائد أى تقبلها قبولا حسنا وانما عدل عن الظاهر للايذان بمقارنة التقبل لكمال الرضا وموافقته للعناية الذاتية فان صيغة التفعل مشعرة بحسب أصل الوضع بالتكلف وكون الفعل على خلاف طبع الفاعل وان كان المراد بها فى حقه تعالى ما يترتب عليه من كمال قوة الفعل وكثرته وقيل القبول ما يقبل به الشىء كالسعوط واللدود لما يسعط به ويلد وهو اختصاصه تعالى اياها باقامتها مقام الذكر فى النذر ولم تقبل قبلها أنثى أو بأن تسلمها من أمها عقيب الولادة قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة. روى أن حنة حين ولدتها لفتها فى خرقة وحملتها الى المسجد ووضعتها عند الاحبار أبناء هرون وهم فى بيت المقدس كالحجبة فى الكعبة فقالت لهم دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لانها كانت بنت امامهم وصاحب قربانهم فان بنى ماثان كانت رؤس بنى اسرائيل وملوكهم وقيل لأنهم وجدوا أمرها وأمر عيسى عليه الصلاة والسلام فى الكتب الالهية فقال زكريا عليه الصلاة والسلام أنا أحق بها عندى خالتها فأبوا الا القرعة وكانوا سبعة وعشرين فانطلقوا الى نهر فألقوا فيه أقلامهم فطفا قلم زكريا ورسبت أقلامهم فتكفلها وقيل هو مصدر وفيه مضاف مقدر أى فتقبلها بذى قبول أى بأمر ذى قبول حسن وقيل تقبل بمعنى استقبل كتقصى بمعنى استقصى وتعجل بمعنى استعجل أى استقبلها فى أول أمرها حين ولدت بقبول حسن ﴿وأنبتها﴾ مجاز عن تربيتها بما يصلحها فى جميع أحوالها ﴿نباتا حسنا﴾ مصدر مؤكد للفعل المذكور بحذف الزوائد وقيل بل لفعل مضمر موافق له تقديره فنبتت نباتا حسنا ﴿وكفلها زكريا﴾ أى جعله عليه الصلاة والسلام كافلا لها وضامنا لمصالحها قائما بتدبير أمورها لاعلى طريقة الوحى بل على ماذكر من التفصيل فان رغبته عليه الصلاة والسلام فى كفالتها وطفو قلمه ورسوب أقلامهم وغير ذلك من الأمور الجارية بينهم كلها من آثار قدرته تعالى وقرىء أكفلها وقرىء زكرياء بالنصب والمد وقرىء بتخفيف الفاء وكسرها ورفع زكرياء ممدودا وقرىء وتقبلها ربها وأنبتها وكفلها على صيغة الأمر فى الكل ونصب ربها على الدعاء أى فاقبلها يا ربها و ربها تربية حسنة واجعل زكريا كافلا لها فهو تعيين لجهة التربية. قيل بنى عليه الصلاة والسلام لها محرابا فى المسجد أى غرفة يصعد اليها بسلم وقيل المحراب أشرف المجالس ومقدمها كأنها وضعت فى أشرف موضع من بيت المقدس وقيل كانت مساجدهم تسمى المحاريب. روى أنه كان لايدخل عليها الاهو

وحده واذا خرج غلق عليها سبعة أبواب ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب﴾ تقديم الظرف على الفاعل لاظهار
كمال العناية بأمرها ونصب المحراب على التوسع وكلمة كلما ظرف على أن ما مصدرية والزمان محذوف أو نكرة موصوفة
معناها الوقت والعائد محذوف والعامل فيها جوابها أى كل زمان دخوله عليها أو كل وقت دخل عليها فيه ﴿وجد عندها
رزقا﴾ أى نوعا منه غير معتاد اذ كان ينزل ذلك من الجنة وكان يجد عندها فى الصيف فاكهة الشتاء وفى الشتاء فاكهة
الصيف ولم ترضع ثديا قط ﴿قال﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال زكريا عليه الصلاة والسلام عند
مشاهدة هذه الآية فقيل قال ﴿يامريم أنى لك هذا﴾ أى من أين يجىء لك هذا الذى لا يشبه أرزاق الدنيا والأبواب
مغلقة دونك وهو دليل على جواز الكرامة للأولياء ومن أنكرها جعل هذا ارهاصا وتأسيسا لرسالة عيسى عليه الصلاة
والسلام وأما جعله معجزة لزكريا عليه الصلاة والسلام فيأباه اشتباه الأمر عليه عليه السلام وانما خاطبها عليه الصلاة
والسلام بذلك مع كونها بمعزل من رتبة الخطاب لما علم بما شاهده أنها مؤيدة من عند الله تعالى بالعلم والقدرة ﴿قالت﴾
استئناف كما قبله كأنه قيل فماذا صنعت مريم وهى صغيرة لا قدرة لها على فهم السؤال ورد الجواب فقيل قالت ﴿هو من
عند الله﴾ فلا تعجب ولا تستبعد ﴿ان الله يرزق من يشاء﴾ أن يرزقه ﴿بغير حساب﴾ أى بغير تقدير لكثرته
أو بغير استحقاق تفضلا منه تعالى وهو تعليل لكونه من عند الله اما من تمام كلامها فيكون فى محل النصب واما
من كلامه عز وجل فهو مستأنف روى أن فاطمة الزهراء رضى الله عنها أهدت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رغيفين
وبضعة لحم فرجع بها اليها فقال هلمى يابنية فكشفت عن الطبق فاذا هو مملوء خبزا ولحما فقال لها أنى لك هذا قالت هو
من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب فقال عليه الصلاة والسلام الحمد لله الذى جعلك شبيهة بسيدة بنى اسرائيل
ثم جمع عليا والحسن والحسين وجميع أهل بيته رضوان الله عليهم أجمعين فأكلوا وشبعوا وبقى الطعام كما هو فأوسعت
على جيرانها ﴿هنالك﴾ كلام مستأنف وقصة مستقلة سيقت فى تضاعيف حكاية مريم لما بينهما من قوة الارتباط
وشدة الاشتباك مع مافى ايرادها من تقرير ماسيقت له حكايتها من بيان اصطفاء آل عمران فان فضائل بعض الأقرباء
أدلة على فضائل الآخرين وهنا ظرف مكان واللام للدلالة على البعد والكاف للخطاب أى فى ذلك المكان حيث هو
قاعد عند مريم فى المحراب أو فى ذلك الوقت اذ يستعار هنا وثمة وحيث للزمان ﴿دعا زكريا ربه﴾ لما رأى كرامة مريم
على الله ومنزلتها منه تعالى رغب فى أن يكون له من ايشاع ولد مثل ولد حنة فى النجابة والكرامة على الله تعالى وان كانت
عاقرا عجوزا فقد كانت حنة كذلك وقيل لما رأى الفواكه فى غير ابانها تنبه لجواز ولادة العجوز العاقر من الشيخ الفانى
فأقبل على الدعاء من غير تأخير كما ينبىء عنه تقديم الظرف على الفعل لا على معنى أن ذلك كان هو الموجب للاقبال على
الدعاء فقط بل كان جزءا أخيرا من العلة التامة التى من جملتها كبر سنه عليه الصلاة والسلام وضعف قواه وخوف
مواليه حسبما فصل فى سورة مريم ﴿قال﴾ تفسير للدعاء وبيان لكيفيته لا محل له من الاعراب ﴿رب هب لى من
لدنك﴾ كلا الجارين متعلق بهب لاختلاف معنييهما فاللام صلة له ومن لابتداء الغاية مجازا أى أعطنى من محض قدرتك
من غير وسط معتاد ﴿ذرية طيبة﴾ كما وهبتها لحنة ويجوز أن يتعلق من بمحذوف وقع حالا من ذرية أى كائنة من
لدنك والذرية النسل تقع على الواحد والجمع والذكر والأنثى والمراد ههنا ولد واحد فالتأنيث فى الصفة لتأنيث لفظ
الموصوف كما فى قول من قال أبوك خليفة ولدته أخرى وأنت خليفة ذاك الكمال
وهذا اذا لم يقصد به واحد معين أما اذا قصد به المعين امتنع اعتبار اللفظ نحو طلحة وحمزة فلا يجوز أن يقال جاءت طلحة
وذهبت حمزة ﴿انك سميع الدعاء﴾ أى مجيبه وهو تعليل لما قبله وتحريك لسلسلة الاجابة ﴿فنادته الملائكة﴾ كان

المنادى جبريل عليه الصلاة والسلام كما تفصح عنه قراءة من قرأ فناداه جبريل والجمع كما فى قولهم فلان يركب الخيل
ويلبس الثياب وماله غير فرس وثوب قال الزجاج أى أتاه النداء من هذا الجنس الذين هم الملائكة وقيل لما كان جبرائيل
عليه الصلاة والسلام رئيسهم عبر عنه باسم الجماعة تعظيما له وقيل الرئيس لابد له من أتباع فأسند النداء الى الكل مع
كونه صادرا عنه خاصة وقرىء فناداه بالامالة ﴿وهو قائم﴾ جملة حالية من مفعول النداء مقررة لما أفاده الفاء من حصول
البشارة عقيب الدعاء وقوله تعالى ﴿يصلى﴾ اما صفة لقائم أو خبر ثان عند من يرى تعدده عند كون الثانى جملة كما فى
قوله تعالى فاذا هى حية تسعى أو حال أخرى منه على القول بتعددها بلا عطف ولا بدلية أو حال من المستكن فى قائم
وقوله تعالى ﴿فى المحراب﴾ أى فى المسجد أو فى غرفة مريم متعلق بيصلى أو بقائم على تقدير كون يصلى حالا من ضمير
قائم لأن العامل فيه وفى الحال حينئذ شىء واحد فلا يلزم الفصل بالأجنبى كما يلزم على التقادير الباقية ﴿أن الله يبشرك
بيحيى﴾ أى بأن الله وقرىء بكسر الهمزة على تقدير القول أو اجراء النداء مجراه لكونه نوعا منه وقرىء يبشرك من
الابشار ويبشرك من الثلاثى وأياما كان ينبغى أن يكون هذا الكلام الى آخره محكيا بعبارته عن الله عز وجل على منهاج
قوله تعالى قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الآية كما يلوح به مراجعته عليه الصلاة والسلام
فى الجواب اليه تعالى بالذات لا بواسطة الملك والعدول عن اسناد التبشير الى نون العظمة حسبما وقع فى سورة مريم للجرى
على سنن الكبرياء كما فى قول الخلفاء أمير المؤمنين يرسم لك بكذا وللايذان بأن ماحكى هناك من النداء والتبشير ومايترتب
عليه من المحاورة كان كل ذلك بتوسط الملك بطريق الحكاية عنه سبحانه لا بالذات كما هو المتبادر وبهذا يتضح اتحاد
المعنى فى السورتين الكريمتين فتأمل ويحيى اسم أعجمى وان جعل عربيا فمنع صرفه للتعريف ووزن الفعل. روى عن ابن
عباس رضى الله تعالى عنهما انما سمى يحيى لأن الله تعالى أحيا به عقر أمه وقال قتادة لأنه تعالى أحيا قلبه بالايمان قال
القرطبى كان اسمه فى الكتاب الأول حيا ولابد من تقدير مضاف يعود اليه الحال أى بولادة يحيى فان التبشير لا يتعلق
بالأعيان ﴿مصدقا﴾ حال مقدرة من يحيى ﴿بكلمة من الله﴾ أى بعيسى عليه الصلاة والسلام وانما سمى كلمة لأنه
وجد بكلمة كن من غير أب فشابه البديعيات التى هى عالم الأمر ومن لابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف وقع صفة لكلمة
أى بكلمة كائنة منه تعالى قيل هو أول من آمن به وصدق بأنه كلمة الله وروح منه وقال السدى لقيت أم يحيى أم عيسى
فقالت يامريم أشعرت بحبلى فقالت مريم وأنا أيضا حبلى قالت فانى وجدت مافى بطنى يسجد لما فى بطنك فذلك قوله تعالى
مصدقا بكلمة الخ وقال ابن عباس رضى الله عنهما ان يحيى كان أكبر من عيسى عليهما الصلاة والسلام بستة أشهر وقيل بثلاث
سنين وقتل قبل رفع عيسى عليهما الصلاة والسلام بمدة يسيرة وعلى كل تقدير يكون بين ولادة يحيى وبين البشارة بها زمان مديد
لما أن مريم ولدت وهى بنت ثلاث عشرة سنة أو بنت عشر سنين وقيل بكلمة من الله أى بكتاب الله سمى كلمة كما قيل كلمة
الحويدرة لقصيدته ﴿وسيدا﴾ عطف على مصدقا أى رئيسا يسود قومه ويفوقهم فى الشرف وكان فائقا للناس قاطبة فانه لم يلم
بخطيئة ولم يهم بمعصية فيالها من سيادة ما أسناها ﴿وحصورا﴾ عطف على ماقبله أى مبالغا فى حصر النفس وحبسها عن
الشهوات مع القدرة. روى أنه مر فى صباه بصبيان فدعوه الى اللعب فقال ماللعب خلقت ﴿ونبيا﴾ عطف على ماقبله
مترتب على ماعدد من الخصال الحميدة ﴿من الصالحين﴾ أى ناشئا منهم لأنه كان من أصلاب الأنبياء عليهم
الصلاة والسلام أو كائنا من جملة المشهورين بالصلاح كما فى قوله تعالى وانه فى الآخرة لمن الصالحين والمراد بالصلاح
مافوق الصلاح الذى لابد منه فى منصب النبوة البتة من أقاصى مراتبه وعليه مبنى دعاء سليمان عليه السلام
وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴿قال﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال زكريا عليه الصلاة والسلام

حينئذ فقيل قال ﴿رب﴾ لم يخاطب الملك المنادى له بملابسة أنه المباشر للخطاب وان كان ذلك بطريق الحكاية عنه تعالى بل جرى على نهج دعائه السابق مبالغة فى التضرع والمناجاة وجدا فى التبتل اليه تعالى واحترازا عما عسى يوهم خطاب الملك من توهم أن علمه سبحانه بما يصدر عنه يتوقف على توسطه كما يتوقف وقوف البشر على ما يصدر عنه سبحانه على توسطه فى عامة الاحوال وان لم يتوقف عليه فى بعضها ﴿أنى يكون لى غلام﴾ فيه دلالة على أنه قد أخبر بكونه غلاما عند التبشير كما فى قوله تعالى انا نبشرك بغلام اسمه يحيى وأنى بمعنى كيف أو من أين وكان تامة وأنى واللام متعلقتان بها وتقديم الجار على الفاعل لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق الى ما أخر أى كيف أو من أين يحدث لى غلام ويجوز أن تتعلق اللام بمحذوف وقع حالا من غلام اذ لو تأخر لكان صفة له أو ناقصة واسمها ظاهر وخبرها اما أنى واللام متعلقة بمحذوف كما مر أو هو الخبر وأنى منصوب على الظرفية ﴿وقد بلغنى الكبر﴾ حال من ياء المتكلم أى أدركنى كبر السن وأثر فى كقولهم أدركته السن وأخذته السن وفيه دلالة على أن كبر السن من حيث كونه من طلائع الموت طالب للانسان لايكاد يتركه قيل كان له تسع وتسعون سنة وقيل اثنتان وتسعون وقيل مائة وعشرون وقيل ستون وقيل خمس وستون وقيل سبعون وقيل خمس وسبعون وقيل خمس وثمانون ولامرأته ثمان وتسعون ﴿وامرأتى عاقر﴾ أى ذات عقر وهو أيضا حال من ياء لى عند من يجوز تعدد الحال أو من ياء بلغنى أى كيف يكون لى ذلك والحال أنى وامرأتى على حالة منافية له كل المنافاة وانما قاله عليه الصلاة والسلام مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله تعالى عليه لاسيما بعد مشاهدته عليه الصلاة والسلام للشواهد السالفة استعظاما لقدرة الله سبحانه وتعجيبا منها واعتدادا بنعمته عز وجل عليه فى ذلك لا استبعادا له وقيل بل كان ذلك للاستبعاد حيث كان بين الدعاء والبشارة ستون سنة وكان قد نسى دعاءه وهو بعيد وقيل كان ذلك استفهاما عن كيفية حدوثه ﴿قال﴾ استئناف كما سلف ﴿كذلك﴾ اشارة الى مصدر يفعل فى قوله عز وجل ﴿الله يفعل مايشاء﴾ أى مايشاء أن يفعله من تعاجيب الافاعيل الخارقة للعادات فالله مبتدأ ويفعل خبره والكاف فى محل النصب على أنها فى الأصل نعت لمصدر محذوف أى الله يفعل مايشاء أن يفعله فعلا مثل ذلك الفعل العجيب والصنع البديع الذى هو خلق الولد من شيخ فان وعجوز عاقر فقدم على العامل لافادة القصر بالنسبة الى ماهو أدنى من المشار اليه واعتبرت الكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا أو على أنها حال من ضمير المصدر المقدر معرفة أى يفعل الفعل كائنا مثل ذلك أو فى محل الرفع على أنها خبر والجلالة مبتدأ أى على نحو هذا الشأن البديع شأن الله تعالى ويفعل مايشاء بيان لذلك الشأن المبهم أو كذلك خبر لمبتدا محذوف أى الأمر كذلك وقوله تعالى الله يفعل مايشاء بيان له ﴿قال رب اجعل لى آية﴾ أى علامة تدلنى على تحقق المسئول ووقوع الحبل وانما سألها لان العلوق أمر خفى لا يوقف عليه فأراد أن يطلعه الله تعالى عليه ليتلقى تلك النعمة الجليلة من حين حصولها بالشكر ولا يؤخره الى أن يظهر ظهورا معتادا ولعل هذا السؤال وقع بعد البشارة بزمان مديد اذ به يظهر ماذكر من كون التفاوت بين سنى يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام بستة أشهر أو بثلاث سنين لان ظهور العلامة كان عقيب تعيينها لقوله تعالى فى سورة مريم فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم الآية اللهم الا أن تكون المحاورة بين زكريا ومريم فى حالة كبرها وقد عدت من جملة من تكلم فى الصغر بموجب قولها المحكى والجعل ابداعى واللام متعلقة به والتقديم لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق الى ما أخر أو بمحذوف وقع حالا من آية وقيل هو بمعنى التصيير المستدعى لمفعولين أولهما آية وثانيهما لى والتقديم لانه لامسوغ لكون آية مبتدأ عند انحلال الجملة الى مبتدا وخبر سوى تقديم الجار فلا

يتغير حالها بعد دخول الناسخ ﴿قال آيتك أن لاتكلم الناس﴾ أى أن لاتقدر على تكليمهم ﴿ثلاثة أيام﴾ أى متوالية لقوله تعالى فى سورة مريم ثلاث ليال سويا مع القدرة على الذكر والتسبيح وانما جعلت آيته ذلك لتخليص المدة لذكر الله تعالى وشكره قضاء لحق النعمة كأنه قيل آية حصول المطلوب ووصول النعمة أن تحبس لسانك الا عن شكرها وأحسن الجواب ما اشتق من السؤال ﴿الا رمزا﴾ أى اشارة بيد أو رأس أو نحوهما وأصله التحرك يقال ارتمز أى تحرك ومنه قيل للبحر الراموز وهو استثناء منقطع لأن الاشارة ليست من قبيل الكلام أو متصل على أن المراد بالكلام مافهم منه المرام ولا ريب فى كون الرمز من ذلك القبيل وقرىء رمزا بفتحتين على أنه جمع رامز كخدم وبضمتين على أنه جمع رموز كرسل على أنه حال منه ومن الناس معا بمعنى مترامزين كقوله

متى ماتلقنى فردين ترجف روانف أليتيك وتستطارا

﴿واذكر ربك﴾ أى فى أيام الحبسة شكرا لحصول التفضل والانعام كما يؤذن به التعرض لعنوان الربوبية ﴿كثيرا﴾ أى ذكرا كثيرا أو زمانا كثيرا ﴿وسبح﴾ أى سبحه تعالى أو افعل التسبيح ﴿بالعشى﴾ أى من الزوال الى الغروب وقيل من العصر الى ذهاب صدر الليل ﴿والابكار﴾ من طلوع الفجر الى الضحى. قيل المراد بالتسبيح الصلاة بدليل تقييده بالوقت كما فى قوله تعالى فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وقيل الذكر اللسانى كما أن المراد بالذكر الذكر القلبى وقرىء الأبكار بفتح الهمزة على أنه جمع بكر كسحر وأسحار ﴿واذ قالت الملائكة﴾ شروع فى شرح بقية أحكام اصطفاء آل عمران اثر الاشارة الى نبذ من فضائل بعض أقاربهم أعنى زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام لاستدعاء المقام اياهما حسبما أشير اليه وقرىء بتذكير الفعل والمراد بالملائكة جبريل عليه الصلاة والسلام وقد مر مافيه من الكلام واذ منصوب بمضمر معطوف على المضمر السابق عطف القصة على القصة وقيل معطوف على الظرف السابق أعنى قوله اذ قالت امرأة عمران منصوب بناصبه فتدبر أى واذكر أيضا من شواهد اصطفائهم وقت قول الملائكة عليهم الصلاة والسلام ﴿يامريم﴾ وتكرير التذكير للاشعار بمزيد الاعتناء بما يحكى من أحكام الاصطفاء والتنبيه على استقلالها وانفرادها عن الاحكام السابقة فانها من أحكام التربية الجسمانية اللائقة بحال صغر مريم وهذه من باب التربية الروحانية بالتكاليف الشرعية المتعلقة بحال كبرها. قيل كلموها شفاها كرامة لها أو ارهاصا لنبوة عيسى عليه الصلاة والسلام لمكان الاجماع على أنه تعالى لم يستنبئ امرأة وقيل ألهموها ﴿ان الله اصطفاك﴾ أولا حيث تقبلك من أمك بقبول حسن ولم يتقبل غيرك أنثى ورباك فى حجر زكريا عليه السلام ورزقك من رزق الجنة وخصك بالكرامات السنية ﴿وطهرك﴾ أى مما يستقذر من الاحوال والافعال ومما قذفك به اليهود بانطاق الطفل ﴿واصطفاك﴾ آخرا ﴿على نساء العالمين﴾ بأن وهب لك عيسى عليه الصلاة والسلام من غير أب ولم يكن ذلك لاحد من النساء وجعلكما آية للعالمين فعلى هذا ينبغى أن يكون تقديم حكاية هذه المقاولة على حكاية بشارتها بعيسى عليه الصلاة والسلام لما مر مرارا من التنبيه على أن كلا منهما مستحق للاستقلال بالتذكير ولو روعى الترتيب الخارجى لتبادر كون الكل شيأ واحدا وقيل المراد بالاصطفاءين واحد والتكرير للتأكيد وتبيين من اصطفاها عليهن فحينئذ لا اشكال فى ترتيب النظم الكريم اذ يحمل حينئذ الاصطفاء على ماذكر أولا وتجعل هذه المقاولة قبل بشارتها بعيسى عليه الصلاة والسلام ايذانا بكونها قبل ذلك متوفرة على الطاعات والعبادات حسبما أمرت بها مجتهدة فيها مقبلة على الله تعالى متبتلة اليه تعالى منسلخة عن أحكام البشرية مستعدة لفيضان الروح عليها ﴿يامريم﴾ تكرير النداء للايذان بأن المقصود بالخطاب مايرد بعده وأن ماقبله من تذكير النعم كان تمهيدا لذكره وترغيبا فى العمل بموجبه ﴿اقنتى لربك﴾ أى قومى فى الصلاة أو

أطيلي القيام فيها له تعالى والتعرض لعنوان ربوبيته تعالى لها للاشعار بعلة وجوب الامتثال بالأمر ﴿واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ أمرت بالصلاة بالجماعة بذكر أركانها مبالغة فى ايجاب رعايتها وايذانا بفضيلة كل منها واصالته وتقديم السجود على الركوع اما لكون الترتيب فى شريعتهم كذلك واما لكون السجود أفضل أركان الصلاة وأقصى مراتب الخضوع ولا يقتضى ذلك كون الترتيب الخارجى كذلك بل اللائق به الترقى من الأدنى الى الأعلى واما ليقترن اركعى بالراكعين للاشعار بأن من لاركوع فى صلاتهم ليسوا مصلين وأما ماقيل من أن الواو لاتوجب الترتيب فغايته التصحيح لاالترجيح وتجريد الأمر بالركنين الأخيرين عما قيد به الأول لما أن المراد تقييد الأمر بالصلاة بذلك وقد فعل حيث قيد به الركن الأول منها وقيل المراد بالقنوت ادامة الطاعات كما فى قوله تعالى أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما وبالسجود الصلاة لما مر من أنه أفضل أركانها وبالركوع الخشوع والاخبات. قيل لما أمرت بذلك قامت فى الصلاة حتى ورمت قدماها وسالت دما وقيحا ﴿ذلك﴾ اشارة الى ماسلف من الامور البديعة ومافيه من معنى البعد للتنبيه على علو شأن المشار اليه وبعد منزلته فى الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿من أنباء الغيب﴾ أى من الانباء المتعلقة بالغيب والجملة مستأنفة لامحل لها من الاعراب وقوله تعالى ﴿نوحيه اليك﴾ جملة مستقلة مبينة للاولى وقيل الخبر هو الجملة الثانية ومن أنباء الغيب اما متعلق بنوحيه أو حال من ضميره أى نوحى من أنباء الغيب أو نوحيه حال كونه من جملة أنباء الغيب وصيغة الاستقبال للايذان بأن الوحى لم ينقطع بعد ﴿وما كنت لديهم﴾ أى عند الذين اختلفوا وتنازعوا فى تربية مريم وهو تقرير وتحقيق لكونه وحيا على طريقة التهكم بمنكريه كما فى قوله تعالى وما كنت بجانب الغربى الآية وما كنت ثاويا فى أهل مدين الآية فان طريق معرفة أمثال هاتيك الحوادث والواقعات اما المشاهدة واما السماع وعدمه محقق عندهم فبقى احتمال المعاينة المستحيلة ضرورة فنفيت تهكما بهم ﴿اذ يلقون أقلامهم﴾ ظرف للاستقرار العامل فى لديهم وأقلامهم أقداحهم التى اقترعوا بها وقيل اقترعوا بأقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة تبركا ﴿أيهم يكفل مريم﴾ متعلق بمحذوف دل عليه يلقون أقلامهم أى يلقونها ينظرون أو ليعلموا أيهم يكفلها ﴿وما كنت لديهم اذ يختصمون﴾ أى فى شأنها تنافسا فى كفالتها حسبما ذكر فيما سبق وتكرير ما كنت لديهم مع تحقق المقصود بعطف اذ يختصمون على اذ يقولون كما فى قوله عز وجل نحن أعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك واذ هم نجوى للدلالة على أن كل واحد من عدم حضوره عليه الصلاة والسلام عند القاء الاقلام وعدم حضوره عند الاختصام مستقل بالشهادة على نبوته عليه الصلاة والسلام لاسيما اذا أريد باختصامهم تنازعهم قبل الاقتراع فان تغيير الترتيب فى الذكر مؤكد له ﴿اذ قالت الملائكة﴾ شروع فى قصة عيسى عليه الصلاة والسلام وهو بدل من واذ قالت الملائكة منصوب بناصبه ومابينهما اعتراض جىء به تقريرا لما سبق وتنبيها على استقلاله وكونه حقيقا بأن يعد على حياله من شواهد النبوة وترك العطف بينهما بناء على اتحاد المخاطب والمخاطب وايذانا بتقارن الخطابين أو تقاربهما فى الزمان وقيل منصوب بمضمر معطوف على ناصبه وقيل بدل من اذ يختصمون كأنه قيل وما كنت حاضرا فى ذلك الزمان المديد الذى وقع فى طرف منه الاختصام وفى طرف آخر هذا الخطاب اشعارا باحاطته عليه الصلاة والسلام بتفاصيل أحوال مريم من أولها الى آخرها والقائل جبريل عليه الصلاة والسلام وايراد صيغة الجمع لما مر ﴿يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه﴾ من لابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف وقع صفة لكلمة أى بكلمة كائنة منه عز وجل ﴿اسمه﴾ ذكر الضمير الراجع الى الكلمة لكونها عبارة عن مذكر وهو مبتدأ خبره ﴿المسيح﴾ وقوله تعالى ﴿عيسى﴾ بدل منه أو عطف بيان وقيل خبر آخر وقيل خبر مبتدأ محذوف وقيل منصوب باضمار أعنى مدحا وقوله تعالى ﴿ابن مريم﴾ صفة لعيسى

وقيل المراد بالاسم مابه يتميز المسمى عمن سواه فالخبر حينئذ مجموع الثلاثة اذ هو المميز له عليه الصلاة والسلام تمييزا عن جميع من عداه والمسيح لقبه عليه الصلاة والسلام وهو من الالقاب المشرفة كالصديق وأصله بالعبرية مشيحا ومعناه المبارك وعيسى معرب من ايشوع والتصدى لاشتقاقهما من المسح والعيس وتعليله بأنه عليه الصلاة والسلام مسح بالبركة أو بما يطهره من الذنوب أو مسحه جبريل عليهما الصلاة والسلام أو مسح الارض ولم يقم فى موضع أو كان عليه الصلاة والسلام يمسح ذا العاهة فيبرأ وبأنه كان فى لونه عيس أى بياض يعلوه حمرة من قبيل الرقم على الماء وانما قيل ابن مريم مع كون الخطاب لها تنبيها على أنه يولد من غير أب فلا ينسب الا الى أمه وبذلك فضلت على نساء العالمين ﴿وجيها فى الدنيا والآخرة﴾ الوجيه ذو الجاه وهو القوة والمنعة والشرف وهو حال مقدرة من كلمة فانها وان كانت نكرة لكنها صالحة لأن ينتصب بها الحال وتذكيرها باعتبار المعنى والوجاهة فى الدنيا النبوة والتقدم على الناس وفى الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة فى الجنة ﴿ومن المقربين﴾ أى من الله عز وجل وقيل هو اشارة الى رفعه الى السماء وصحبة الملائكة وهو عطف على الحال الأولى وقد عطف عليه قوله تعالى ﴿ويكلم الناس فى المهد وكهلا﴾ أى يكلمهم حال كونه طفلا وكهلا كلام الأنبياء من غير تفاوت والمهد مصدر سمى به مايمهد للصبى أى يسوى من مضجعه وقيل انه رفع شابا والمراد وكهلا بعد نزوله وفى ذكر أحواله المختلفة المتنافية اشارة الى أنه بمعزل من الالوهية ﴿ومن الصالحين﴾ حال أخرى من كلمة معطوفة على الأحوال السالفة أو من الضمير فى يكلم ﴿قالت﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قالت مريم حين قالت لها الملائكة ماقالت فقيل قالت متضرعة الى ربها ﴿رب أنى يكون﴾ أى كيف يكون أو من أين يكون ﴿لى ولد﴾ على وجه الاستبعاد العادى والتعجب واستعظام قدرة الله عز وجل وقيل على وجه الاستفهام والاستفسار بأنه بالتزوج أو بغيره ويكون اما تامة وأنى واللام متعلقتان بها وتأخير الفاعل عن الجار والمجرور لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر ويجوز أن تتعلق اللام بمحذوف وقع حالا من ولد اذ لو تأخر لكان صفة له واما ناقصة واسمها ولد وخبرها اما أنى واللام متعلقة بمضمر وقع حالا كما مر أو خبر وأنى نصب على الظرفية وقوله تعالى ﴿ولم يمسسنى بشر﴾ جملة حالية محققة للاستبعاد أى والحال أنى على حالة منافية للولادة ﴿قال﴾ استئناف كما سلف والقائل هو الله تعالى أو جبريل عليه الصلاة والسلام ﴿كذلك الله يخلق مايشاء﴾ الكلام فى اعرابه كما مر فى قصة زكريا بعينه خلا أن ايراد يخلق ههنا مكان يفعل هناك لما أن ولادة العذراء من غير أن يمسها بشر أبدع وأغرب من ولادة عجوز عاقر من شيخ فان فكان الخلق المنبئ عن الاختراع أنسب بهذا المقام من مطلق الفعل ولذلك عقب ببيان كيفيته فقيل ﴿اذا قضى أمرا﴾ من الأمور أى أراد شيئا كما فى قوله تعالى انما أمره اذا أراد شيئا وأصل القضاء الأحكام أطلق على الارادة الالهية القطعية المتعلقة بوجود الشئ لايجابها اياه البتة وقيل الأمر ومنه قوله تعالى وقضى ربك ﴿فانما يقول له كن﴾ لاغير ﴿فيكون﴾ من غير ريث وهو كما ترى تمثيل لكمال قدرته تعالى وسهولة تأتى المقدورات حسبما تقتضيه مشيئته وتصوير لسرعة حدوثها بما هو علم فيها من طاعة المأمور المطيع للآمر القوى المطاع وبيان لأنه تعالى كما يقدر على خلق الاشياء مدرجا بأسباب ومواد معتادة يقدر على خلقها دفعة من غير حاجة الى شئ من الاسباب والمواد ﴿ويعلمه الكتاب﴾ أى الكتابة أو جنس الكتب الالهية ﴿والحكمة﴾ أى العلوم وتهذيب الاخلاق ﴿والتوراة والانجيل﴾ افرادهما بالذكر على تقدير كون المراد بالكتاب جنس الكتب المنزلة لزيادة فضلهما وانافتهما على غيرهما والجملة عطف على يبشرك أو على وجيها أو على يخلق أو هو كلام مبتدأ سيق تطييبا لقلبها وازاحة لما أهمها من خوف اللائمة لما علمت أنها تلد من غير زوج وقرئ ونعلمه بالنون

﴿ورسولا الى بنى اسرائيل﴾ منصوب بمضمر يعود اليه المعنى معطوف على يعلمه أى ويجعله رسولا الى بنى اسرائيل أى كلهم وقال بعض اليهود انه كان مبعوثا الى قوم مخصوصين ثم قيل كان رسولا حال الصبا وقيل بعد البلوغ وكان أول أنبياء بنى اسرائيل يوسف عليه الصلاة والسلام وآخرهم عيسى عليه الصلاة والسلام وقيل أولهم موسى وآخرهم عيسى عليهم الصلاة والسلام وقوله تعالى ﴿أنى قد جئتكم﴾ معمول لرسولا لما فيه من معنى النطق أى رسولا ناطقا بأنى الخ وقيل منصوب بمضمر معمول لقول مضمر معطوف على يعلمه أى ويقول أرسلت رسولا بأنى قد جئتكم الخ وقيل معطوف على الأحوال السابقة ولا يقدح فيه كونها فى حكم الغيبة مع كون هذا فى حكم التكلم لما عرفت من أن فيه معنى النطق كأنه قيل حال كونه وجيها ورسولا ناطقا بأنى الخ وقرئ ورسول بالجر عطفا على كلمة والباء فى قوله تعالى ﴿بآية﴾ متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل الفعل على أنها للملابسة والتنوين للتفخيم دون الوحدة لظهور تعددها وكثرتها وقرئ بآيات أو بجئتكم على أنها للتعدية ومن فى قوله تعالى ﴿من ربكم﴾ لابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف وقع صفة لآية أى قد جئتكم ملتبسا بآية عظيمة كائنة من ربكم أو أتيتكم بآية عظيمة كائنة منه تعالى والتعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين لتأكيد ايجاب الامتثال بما سيأتى من الأوامر وقوله تعالى ﴿أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير﴾ بدل من قوله تعالى أنى قد جئتكم ومحله النصب على نزع الجار عند سيبويه والفراء والجر على رأى الخليل والكسائى أو بدل من آية وقيل منصوب بفعل مقدر أى أعنى أنى الخ وقيل مرفوع على أنه خبر مبتدا محذوف أى هى أنى أخلق لكم وقرئ بكسر الهمزة على الاستئناف أى أقدر لكم أى لاجل تحصيل ايمانكم ودفع تكذيبكم اياى من الطين شيئا مثل صورة الطير ﴿فأنفخ فيه﴾ الضمير للكاف أى فى ذلك الشئ المماثل لهيئة الطير وقرئ فأنفخ فيها على أن الضمير للهيئة المقدرة أى أخلق لكم من الطين هيئة كهيئة الطير فأنفخ فيها ﴿فيكون طيرا﴾ حيا طيارا كسائر الطيور ﴿باذن الله﴾ بأمره تعالى أشار عليه الصلاة والسلام بذلك الى أن احياءه من الله تعالى لا منه. قيل لم يخلق غير الخفاش. روى أنه عليه الصلاة والسلام لما ادعى النبوة وأظهر المعجزات طالبوه بخلق الخفاش فأخذ طينا وصوره ونفخ فيه فاذا هو يطير بين السماء والارض. قال وهب كان يطير مادام الناس ينظرون اليه فاذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ليتميز من خلق الله تعالى قيل انما طلبوا خلق الخفاش لانه أكمل الطير خلقا وأبلغ دلالة على القدرة لان له ثديا وأسنانا وهى تحيض وتطهر وتلد كسائر الحيوان وتضحك كما يضحك الانسان وتطير بغير ريش ولا تبصر فى ضوء النهار ولا فى ظلمة الليل وانما ترى فى ساعتين ساعة بعد الغروب وساعة بعد طلوع الفجر وقيل خلق أنواعا من الطير ﴿وأبرئ الأكمه﴾ أى الذى ولد أعمى أو الممسوح العين ﴿والأبرص﴾ المبتلى بالبرص لم تكن العرب تنفر من شئ نفرتها منه ويقال له الوضح أيضا وتخصيص هذين الداءين لانهما مما أعيا الاطباء وكانوا فى غاية الحذاقة فى زمنه عليه الصلاة والسلام فأراهم الله تعالى المعجزة من ذلك الجنس. روى أنه عليه الصلاة والسلام ربما كان يجتمع عليه ألوف من المرضى من أطاق منهم أتاه ومن لم يطق أتاه عيسى عليه الصلاة والسلام وما يداويه الا بالدعاء ﴿وأحيي الموتى باذن الله﴾ كرره مبالغة فى دفع وهم من توهم فيه اللاهوتية. قال الكلبى كان عليه الصلاة والسلام يحيي الموتى بياحى ياقيوم. أحيا عازر وكان صديقا له فعاش وولد له ومر على ابن عجوز ميت فدعا الله تعالى فنزل عن سريره حيا ورجع الى أهله وبقى وولد له وبنت العاشر أحياها وولدت بعد ذلك فقالوا انك تحيى من كان قريب العهد من الموت فلعلهم لم يموتوا بل أصابتهم سكتة فأحى لنا سام بن نوح فقال دلونى على قبره ففعلوا فقام على قبره فدعا الله عز وجل فقام من قبره وقد شاب رأسه فقال عليه السلام كيف شبت ولم يكن فى زمانكم شيب قال ياروح الله لما دعوتنى

سمعت صوتا يقول أجب روح الله فظننت أن الساعة قد قامت فمن هول ذلك شبت فسأله عن النزع قال ياروح الله ان مرارته لم تذهب من حنجرتى وكان بينه وبين موته أكثر من أربعة آلاف سنة وقال للقوم صدقوه فانه نبى الله فآمن به بعضهم وكذبه آخرون فقالوا هذا سحر فأرنا آية فقال يافلان أكلت كذا ويافلان خبئ لك كذا وذلك قوله تعالى ﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم﴾ أى بالمغيبات من أحوالكم التى لا تشكون فيها وقرئ تذخرون بالذال والتخفيف ﴿ان فى ذلك﴾ اشارة الى ماذكر من الامور العظام ﴿لآية﴾ عظيمة وقرئ لآيات ﴿لكم﴾ دالة على صحة رسالتى دلالة واضحة ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ جواب الشرط محذوف لانصباب المعنى اليه أو دلالة المذكور عليه أى انتفعتم بها أو ان كنتم ممن يتأتى منهم الايمان دلتكم على صحة رسالتى والايمان بها ﴿ومصدقا لما بين يدى من التوراة﴾ عطف على المضمر الذى تعلق به قوله تعالى بآية أى قد جئتكم ملتبسا بآية الخ ومصدقا لما بين يدى الخ أو على رسولا على الاوجه الثلاثة فان مصدقا فيه معنى النطق كما فى رسولا أى ويجعله مصدقا ناطقا بأنى أصدق الخ أو ويقول أرسلت رسولا بأنى قد جئتكم الخ ومصدقا الخ أو حال كونه مصدقا ناطقا بأنى أصدق الخ أو منصوب باضمار فعل دل عليه قد جئتكم أى وجئتكم مصدقا الخ وقوله من التوراة اما حال من الموصول والعامل مصدقا واما من ضميره المستتر فى الظرف الواقع صلة والعامل الاستقرار المضمر فى الظرف أو نفس الظرف لقيامه مقام الفعل ﴿ولأحل لكم﴾ معمول لمضمر دل عليه ماقبله أى وجئتكم لأحل الخ وقيل عطف على معنى مصدقا كقولهم جئته معتذرا ولاجتلب رضاه كأنه قيل قد جئتكم لاصدق ولاحل الخ وقيل عطف على بآية أى قد جئتكم بآية من ربكم ولأحل لكم ﴿بعض الذى حرم عليكم﴾ أى فى شريعة موسى عليه الصلاة والسلام من الشحوم والثروب والسمك ولحوم الابل والعمل فى السبت. قيل أحل لهم من السمك والطير مالا صيصية له واختلف فى احلال السبت وقرئ حرم على تسمية الفاعل وهو مابين يدى أو الله عز وجل وقرئ حرم بوزن كرم وهذا يدل على أن شرعه كان ناسخا لبعض أحكام التوراة ولا يخل ذلك بكونه مصدقا لها لما أن النسخ فى الحقيقة بيان وتخصيص فى الازمان وتأخير المفعول عن الجار والمجرور لما مر مرارا من المبادرة الى ذكر ما يسر المخاطبين والتشويق الى ما أخر ﴿وجئتكم بآية من ربكم﴾ شاهدة على صحة رسالتى وقرئ بآيات ﴿فاتقوا الله﴾ فى عدم قبولها ومخالفة مدلولها ﴿وأطيعون﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه بأمر الله تعالى وتلك الآية هى قولى ﴿ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ فانه الحق الصريح الذى أجمع عليه الرسل قاطبة فيكون آية بينة على أنه عليه الصلاة والسلام من جملتهم وقرئ أن الله بالفتح بدلا من آية أو قد جئتكم بآية على أن الله ربى وربكم وقوله فاتقوا الله وأطيعون اعتراض والظاهر أنه تكرير لما سبق أى قد جئتكم بآية بعد آية مما ذكرت لكم من خلق الطير وابراء الاكمه والابرص والاحياء والانباء بالخفيات ومن غيره من ولادتى بغير أب ومن كلامى فى المهد ومن غير ذلك والاول لتمهيد الحجة والثانى لتقريبها الى الحكم ولذلك رتب عليه بالفاء قوله فاتقوا الله أى لما جئتكم بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة فاتقوا الله فى المخالفة وأطيعون فيما أدعوكم اليه ومعنى قراءة من فتح ولأن الله ربى وربكم فاعبدوه كقوله تعالى لايلاف قريش الخ ثم شرع فى الدعوة وأشار اليها بالقول المجمل فقال ان الله ربى وربكم اشارة الى أن استكمال القوة النظرية بالاعتقاد الحق الذى غايته التوحيد وقال فاعبدوه اشارة الى استكمال القوة العملية فانه يلازم الطاعة التى هى الاتيان بالاوامر والانتهاء عن المناهى ثم قرر ذلك بأن بين أن الجمع بين الامرين هو الطريق المشهود له بالاستقامة ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام قل آمنت بالله ثم استقم ﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾ شروع فى بيان مآل أحواله عليه

السلام اثر ما أشير الى طرف منها بطريق النقل عن الملائكة والفاء فصيحة تفصح عن تحقق جميع ما قالته الملائكة وخروجه من القوة الى الفعل حسبما شرحته كما فى قوله تعالى فلما رآه مستقرا عنده بعد قوله تعالى أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك كأنه قيل فحملته فولدته فكان كيت وكيت وقال ذيت وذيت وانما لم يذكر اكتفاء بحكاية الملائكة وايذانا بعدم الخلف وثقة بما فصل فى المواضع الأخر وأما عدم نظم بقية أحواله عليه الصلاة والسلام فى سلك النقل فاما للاعتناء بأمرها أو لعدم مناسبتها لمقام البشارة لما فيها من ذكر مقاساته عليه الصلاة والسلام للشدائد ومعاناته للمكايد والمراد بالاحساس الادراك القوى الجارى مجرى المشاهدة و بالكفر اصرارهم عليه وعتوهم ومكابرتهم فيه مع العزيمة على قتله عليه الصلاة والسلام كما ينبئ عنه الاحساس فانه انما يستعمل فى أمثال هذه المواقع عند كون متعلقه أمرا محذورا مكروها كما فى قوله عز وجل فلما أحسوا بأسنا اذاهم منها يركضون و كلمة من متعلقة بأحس والضمير المجرور لبنى اسرائيل أى ابتدأ الاحساس من جهتهم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر غير مرة من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر وقيل متعلقة بمحذوف وقع حالا من الكفر ﴿قال﴾ أى لخلص أصحابه لا لجميع بنى اسرائيل لقوله تعالى كما قال عيسى ابن مريم للحواريين الآية وقوله تعالى فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة ليس بنص فى توجيه الخطاب الى الكل بل يكفى فيه بلوغ الدعوة اليهم ﴿من أنصارى﴾ الانصار جمع نصير كأشراف جمع شريف ﴿الى الله﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من الياء أى من أنصارى متوجها الى الله ملتجئا اليه أو بأنصارى متضمنا معنى الاضافة كأنه قيل من الذين يضيفون أنفسهم الى الله عز وجل ينصروننى كما ينصرنى وقيل الى بمعنى فى أى فى سبيل الله وقيل بمعنى اللام وقيل بمعنى مع ﴿قال﴾ استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الذهن كأنه قيل فماذا قالوا فى جوابه عليه الصلاة والسلام فقيل قال ﴿الحواريون﴾ جمع حوارى يقال فلان حوارى فلان أى صفوته وخالصته من الحور وهو البياض الخالص ومنه الحواريات للحضريات لخلوص ألوانهن ونقائهن سمى به أصحاب عيسى عليه الصلاة السلام لخلوص نياتهم ونقاء سرائرهم وقيل لما عليهم من آثار العبادة وأنوارها وقيل كانوا ملوكا يلبسون البيض وذلك أن واحدا من الملوك صنع طعاما وجمع الناس عليه وكان عيسى عليه الصلاة والسلام على قصعة لا يزال يأكل منها و لا تنقص فذكروا ذلك للملك فاستدعاه عليه الصلاة والسلام فقال له من أنت قال عيسى ابن مريم فترك ملكه وتبعه مع أقاربه فأولئك هم الحواريون وقيل كانوا صيادين يصطادون السمك يلبسون الثياب البيض فيهم شمعون و يعقوب و يوحنا فمر بهم عيسى عليه الصلاة والسلام فقال لهم أنتم تصيدون السمك فان اتبعتمونى صرتم بحيث تصيدون الناس بالحياة الابدية قالوا من أنت قال عيسى ابن مريم عبد الله و رسوله فطلبوا منه المعجزة وكان شمعون قد رمى شبكته تلك الليلة فما اصطاد شيئا فامره عيسى عليه الصلاة والسلام بالقائها فى الماء مرة أخرى ففعل فاجتمع فى الشبكة من السمك ما كادت تتمزق واستعانوا بأهل سفينة أخرى وملؤا السفينتين فعند ذلك آمنوا بعيسى عليه السلام وقيل كانوا اثنى عشر رجلا آمنوا به عليه الصلاة والسلام واتبعوه وكانوا اذا جاعوا قالوا جعنا يا روح الله فيضرب بيده الارض فيخرج منها لكل واحد رغيفان واذا عطشوا قالوا عطشنا فيضرب بيده الارض فيخرج منها الماء فيشربون فقالوا من أفضل منا قال عليه الصلاة والسلام أفضل منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه فصاروا يغسلون الثياب بالاجرة فسموا حواريين وقيل ان أمه سلمته الى صباغ فأراد الصباغ يوما أن يشتغل ببعض مهماته فقال له عليه الصلاة والسلام ههنا ثياب مختلفة قد جعلت لكل واحد منها علامة معينة فاصبغها بتلك الألوان فغاب فجعل عليه الصلاة والسلام كلها فى جب واحد وقال كونى باذن الله كما أريد فرجع الصباغ فسأله فأخبره

بما صنع فقال أفسدت على الثياب قال قم فانظر فجعل يخرج ثوبا أحمر وثوبا أخضر وثوبا أصفر الى أن أخرج الجميع على أحسن ما يكون حسبما كان يريد فتعجب منه الحاضرون وآمنوا به عليه الصلاة والسلام وهم الحواريون قال القفال ويجوز أن يكون بعض هؤلاء الحواريين الاثنى عشر من الملوك و بعضهم من صيادى السمك و بعضهم من القصارين و بعضهم من الصباغين والكل سموا بالحواريين لأنهم كانوا أنصار عيسى عليه الصلاة والسلام وأعوانه والمخلصين فى طاعته ومحبته ﴿نحن أنصار الله﴾ أى أنصار دينه و رسوله ﴿آمنا بالله﴾ استئناف جار مجرى العلة لما قبله فان الايمان به تعالى موجب لنصرة دينه والذب عن أوليائه والمحاربة مع أعدائه ﴿واشهد بأنا مسلمون﴾ مخلصون فى الايمان منقادون لما تريد منا من نصرتك طلبوا منه عليه الصلاة والسلام الشهادة بذلك يوم القيامة يوم يشهد الرسل عليهم الصلاة والسلام لأممهم وعليهم ايذانا بأن مرمى غرضهم السعادة الأخروية ﴿ربنا آمنا بما أنزلت﴾ تضرع الى الله عز وجل وعرض لحالهم عليه تعالى بعد عرضها على الرسول مبالغة فى اظهار أمرهم ﴿واتبعنا الرسول﴾ أى فى كل ما يأتى ويذر من أمور الدين فيدخل فيه الاتباع فى النصرة دخولا أوليا ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ أى مع الذين يشهدون بوحدانيتك أو مع الأنبياء الذين يشهدون لاتباعهم أو مع أمة محمد عليه الصلاة والسلام فانهم شهداء على الناس قاطبة وهو حال من مفعول اكتبنا ﴿ومكروا﴾ أى الذين علم عيسى عليه الصلاة والسلام كفرهم من اليهود بأن وكلوا به من يقتله غيلة ﴿ومكر الله﴾ بأن رفع عيسى عليه الصلاة والسلام وألقى شبهه على من قصد اغتياله حتى قتل والمكر من حيث أنه فى الاصل حيلة يجلب بها غيره الى مضرة لا يمكن اسناده اليه سبحانه الا بطريق المشاكلة. روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن ملك بنى اسرائيل لما قصد قتله عليه الصلاة والسلام أمره جبريل عليه الصلاة والسلام أن يدخل بيتا فيه روزنة فرفعه جبريل من تلك الروزنة الى السماء فقال الملك لرجل خبيث منهم أدخل عليه فاقتله فدخل البيت فألقى الله عز وجل شبهه عليه فخرج يخبرهم أنه ليس فى البيت فقتلوه وصلبوه وقيل انه عليه الصلاة والسلام جمع الحواريين ليلة وأوصاهم ثم قال ليكفرن بى أحدكم قبل أن يصيح الديك و يبيعنى بدراهم يسيرة فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فنافق أحدهم فقال لهم ما تجعلون لى ان دللتكم على المسيح فجعلوا له ثلاثين درهما فأخذها ودلهم عليه فألقى الله عز وجل عليه شبه عيسى عليه الصلاة والسلام و رفعه الى السماء فأخذوا المنافق وهو يقول أنا دليلكم فلم يلتفتوا الى قوله وصلبوه ثم قالوا وجهه يشبه وجه عيسى و بدنه يشبه بدن صاحبنا فان كان هذا عيسى فأين صاحبنا وان كان صاحبنا فأين عيسى فوقع بينهم قتال عظيم وقيل لما صلب المصلوب جاءت مريم ومعها امرأة أبرأها الله تعالى من الجنون بدعاء عيسى عليه الصلاة والسلام وجعلتا تبكيان على المصلوب فأنزل الله تعالى عيسى عليه الصلاة والسلام فجاءهما فقال على م تبكيان فقالتا عليك فقال ان الله تعالى رفعنى ولم يصبنى الاخير وان هذا شىء شبه لهم قال محمد بن اسحق ان اليهود عذبوا الحواريين بعد رفع عيسى عليه الصلاة والسلام ولقوا منهم الجهد فبلغ ذلك ملك الروم وكان ملك اليهود من رعيته فقيل له ان رجلا من بنى اسرائيل ممن تحت أمرك كان يخبرهم أنه رسول الله وأراهم احياء الموتى وابراء الأكمه والأبرص وفعل وفعل فقال لو علمت ذلك ما خليت بينهم و بينه ثم بعث الى الحواريين فانتزعهم من أيديهم وسألهم عن عيسى عليه الصلاة والسلام فأخبروه فبايعهم على دينهم وأنزل المصلوب فغيبه وأخذ الخشبة فأكرمها ثم غزا بنى اسرائيل وقتل منهم خلقا عظيما ومنه ظهر أصل النصرانية فى الروم ثم جاء بعده ملك آخر يقال له ططيوس وغزا بيت المقدس بعد رفع عيسى عليه الصلاة والسلام بنحو من أربعين سنة فقتل وسبى ولم يترك فى مدينة بيت المقدس حجرا على حجر فخرج عند ذلك قريظة والنضير الى الحجاز قال أهل التواريخ حملت مريم بعيسى عليه الصلاة والسلام وهى بنت ثلاث عشرة سنة و ولدته ببيت لحم من

أرض أورى شلم لمضى خمس وستين سنة من غلبة الاسكندر على أرض بابل وأوحى الله تعالى اليه على رأس ثلاثين سنة و رفعه اليه من بيت المقدس ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وعاشت أمه بعد رفعه ست سنين ﴿والله خير الماكرين﴾ أقواهم مكرا وأنفذهم كيدا وأقدرهم على ايصال الضرر من حيث لايحتسب واظهار الجلالة فى موقع الاضمار لتربية المهابة والجملة تذييل مقرر لمضمون ماقبله ﴿اذقال الله﴾ ظرف لمكر الله أولمضمر نحو وقع ذلك ﴿ياعيسى انى متوفيك﴾ أى مستوفى أجلك ومؤخرك الى أجلك المسمى عاصمالك من قتلهم أو قابضك من الأرض من توفيت مالى أومتوفيك نائما اذروى أنه رفع وهو نائم وقيل مميتك فى وقتك بعد النزول من السماء و رافعك الآن أومميتك من الشهوات العائقة عن العروج الى عالم الملكوت وقيل أماته الله تعالى سبع ساعات ثم رفعه الى السماء واليه ذهبت النصارى . قال القرطبي والصحيح أن الله تعالى رفعه من غير وفاة و لا نوم كما قال الحسن وابن زيد وهو اختيار الطبرى وهو الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما وأصل القصة أن اليهود لما عزموا على قتله عليه الصلاة والسلام اجتمع الحواريون وهم اثنا عشر رجلا فى غرفة فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة فأخبرهم ابليس جميع اليهود فركب منهم أربعة آلاف رجل فأخذوا باب الغرفة فقال المسيح للحواريين أيكم يخرج و يقتل و يكون معى فى الجنة فقال واحد منهم أنا يانبي الله فألقى عليه مدرعة من صوف وعمامة من صوف وناوله عكازة وألقى عليه شبه عيسى عليه الصلاة والسلام فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه وأما عيسى عليه الصلاة والسلام فكساه الله الريش والنور وألبسه النور وقطع عنه شهوة المطعم والمشرب وذلك قوله تعالى انى متوفيك فطار مع الملائكة ثم ان أصحابه حين رأوا ذلك تفرقوا ثلاث فرق فقالت فرقة كان الله فينا ثم صعد الى السماء وهم اليعقوبية وقالت فرقة أخرى كان فينا ابن الله ماشاء الله ثم رفعه الله اليه وهم النسطورية وقالت فرقة أخرى منهم كان فينا عبد الله و رسوله ماشاء الله ثم رفعه الله اليه وهؤلاء هم المسلمون فتظاهرت عليهم الفرقتان الكافرتان فقتلوهم فلم يزل الاسلام منطمسا الى أن بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿و رافعك الى﴾ أى الى محل كرامتى ومقر ملائكتى ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ أى من سوء جوارهم وخبث صحبتهم ودنس معاشرتهم ﴿وجاعل الذين اتبعوك﴾ قال قتادة والربيع والشعبي ومقاتل والكلبي هم أهل الاسلام الذين صدقوه واتبعوا دينه من أمة محمد صلى الله عليه وسلم دون الذين كذبوه و كذبوا عليه من النصارى ﴿فوق الذين كفروا﴾ وهم الذين مكروا به عليه الصلاة والسلام ومن يسير بسيرتهم من اليهود فان أهل الاسلام فوقهم ظاهرين بالعزة والمنعة والحجة وقيل هم الحواريون فينبغى أن تحمل فوقيتهم على فوقية المسلمين بحكم الاتحاد فى الاسلام والتوحيد وقيل هم الروم وقيل هم النصارى فالمراد بالاتباع مجرد الادعاء والمحبة والافأولئك الكفرة بمعزل من اتباعه عليه الصلاة والسلام ﴿الى يوم القيامة﴾ غاية للجعل أو للاستقرار المقدر فى الظرف لا على معنى أن الجعل أوالفوقية تنتهى حينئذ و يتخلص الكفرة من الذلة بل على معنى أن المسلمين يعلونهم الى تلك الغاية فاما بعدها فيفعل الله تعالى بهم مايريد ﴿ثم الى مرجعكم﴾ أى رجوعكم بالبعث وثم للتراخى وتقديم الجار والمجرور للقصر المفيد لتأكيد الوعد والوعيد والضمير لعيسى عليه الصلاة والسلام وغيره من المتبعين له والكافرين به على تغليب المخاطب على الغائب فى ضمن الالتفات فانه أبلغ فى التبشير والانذار ﴿فأحكم بينكم﴾ يومئذ اثر رجوعكم الى ﴿فيما كنتم فيه تختلفون﴾ من أمور الدين وفيه متعلق بتختلفون وتقديمه عليه لرعاية الفواصل ﴿فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا﴾ تفسير للحكم الواقع بين الفريقين وتفصيل لكيفيته والبداية ببيان حال الكفرة لما أن مساق الكلام لتهديدهم و زجرهم عماهم عليه من الكفر والعناد وقوله تعالى ﴿فى الدنيا والآخرة﴾ متعلق بأعذبهم لا بمعنى ايقاع كل واحد من التعذيب

فى الدنيا والتعذيب فى الآخرة واحداثهما يوم القيامة بل بمعنى اتمام مجموعهما يومئذ وقيل ان المرجع أعم من الدنيوى والأخروى وقوله تعالى الى يوم القيامة غاية للفوقية لا للجعل والرجوع متراخ عن الجعل وهو غير محدود لا عن الفوقية المحدودة على نهج قولك سأعيرك سكنى هذا البيت شهرا ثم أخلع عليك خلعة فيلزم تأخر الخلع عن الاعارة لا عن الشهر ﴿ومالهم من ناصرين﴾ يخلصونهم من عذاب الله تعالى فى الدارين وصيغة الجمع لمقابلة ضمير الجمع أى ليس لواحد منهم ناصر واحد ﴿وأما الذين آمنوا﴾ بما أرسلت به ﴿وعملوا الصالحات﴾ كما هو ديدن المؤمنين ﴿فيوفيهم أجورهم﴾ أى يعطيهم اياها كاملة ولعل الالتفات الى الغيبة للايذان بما بين مصدرى التعذيب والاثابة من الاختلاف من حيث الجلال والجمال وقرئ فنوفيهم جريا على سنن العظمة والكبرياء ﴿والله لايحب الظالمين﴾ أى يبغضهم فان هذه الكناية فاشية فى جميع اللغات جارية مجرى الحقيقة وايراد الظلم للاشعار بأنهم بكفرهم متعدون متجاوزون عن الحدود واضعون للكفر مكان الشكر والايمان والجملة تذييل لما قبله مقرر لمضمونه ﴿ذلك﴾ اشارة الى ماسلف من نبأ عيسى عليه الصلاة والسلام وما فيه من معنى البعد للدلالة على عظم شأن المشار اليه و بعد منزلته فى الشرف وعلى كونه فى ظهور الأمر ونباهة الشأن بمنزلة المشاهد المعاين وهو مبتدأ وقوله عز وجل ﴿نتلوه﴾ خبره وقوله تعالى ﴿عليك﴾ متعلق بنتلوه وقوله تعالى ﴿من الآيات﴾ حال من الضمير المنصوب أو خبر بعد خبر أو هو الخبر وما بينهما حال من اسم الاشارة أو ذلك خبر لمبتدا مضمر أى الأمر ذلك ونتلوه حال كما مر وصيغة الاستقبال اما لاستحضار الصورة أو على معناها اذ التلاوة لم تتم بعد ﴿والذكر الحكيم﴾ أى المشتمل على الحكم أو المحكم الممنوع من تطرق الخلل اليه والمراد به القرآن فمن تبعيضية أو بعض مخصوص منه فمن بيانية وقيل هو اللوح المحفوظ فمن ابتدائية ﴿ان مثل عيسى﴾ أى شأنه البديع المنتظم لغرابته فى سلك الامثال ﴿عند الله﴾ أى فى تقديره وحكمه ﴿كمثل آدم﴾ أى كحاله العجيبة التى لايرتاب فيها مرتاب ولا ينازع فيها منازع ﴿خلقه من تراب﴾ تفسير لما أبهم فى المثل وتفصيل لما أجمل فيه وتوضيح للتمثيل ببيان وجه الشبه بينهما وحسم لمادة شبه الخصوم فان انكار خلق عيسى عليه الصلاة والسلام بلا أب ممن اعترف بخلق آدم عليه الصلاة والسلام بغير أب وأم مما لا يكاد يصح والمعنى خلق قالبه من تراب ﴿ثم قال له كن﴾ أى أنشأه بشرا كما فى قوله تعالى ثم أنشأناه خلقا آخر أو قدر تكوينه من التراب ثم كونه ويجوز كون ثم لتراخى الاخبار لا لتراخى المخبر به ﴿فيكون﴾ حكاية حال ماضية . روى أن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مالك تشتم صاحبنا قال وما أقول قالوا تقول أنه عبد قال أجل هو عبد الله و رسوله و كلمته ألقاها الى العذراء البتول فغضبوا وقالوا هل رأيت انسانا من غير أب فحيث سلمت أنه لا أب له من البشر وجب أن يكون أبوه هو الله فقال عليه الصلاة والسلام ان آدم عليه الصلاة والسلام ما كان له أب ولا أم ولم يلزم من ذلك كونه ابنا لله سبحانه وتعالى فكذا حال عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿الحق من ربك﴾ خبر مبتدا محذوف أى هو الحق أى ماقصصنا عليك من نبأ عيسى عليه الصلاة والسلام وأمه والظرف اما حال أى كائنا من ربك أو خبر ثان أى كائن منه تعالى وقيل هما مبتدأ وخبر أى الحق المذكور من الله تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضمير المخاطب لتشريفه عليه الصلاة والسلام والايذان بأن تنزيل هذه الآيات الحقة الناطقة بكنه الأمر تربية له عليه الصلاة السلام ولطف به ﴿فلا تكن من الممترين﴾ فى ذلك والخطاب اما للنبي صلى الله عليه وسلم على طريقة الالهاب والتهييج لزيادة التثبيت والاشعار بأن الامتراء فى المحذورية بحيث ينبغى أن ينهى عنه من لا يكاد يمكن صدوره عنه فكيف بمن هو بصدد الامتراء واما لكل من له صلاحية الخطاب ﴿فمن حاجك﴾ أى من النصارى اذهم المتصدون للمحاجة ﴿فيه﴾ أى فى شأن عيسى

عليه السلام وأمه زعماً منهم أنه ليس على الشأن المحكى ﴿من بعد ماجاءك من العلم﴾ أى مايوجبه ايجابا قطعيا من الآيات البينات وسمعوا ذلك منك فلم يرعووا عما هم عليه من الغى والضلال ﴿فقل﴾ لهم ﴿تعالوا﴾ أى هلموا بالرأى والعزيمة ﴿ندع أبناءنا وأبناءكم﴾ اكتفى بهم عن ذكر البنات لظهور كونهم أعزمنهن وأما النساء فتعلقهن من جهة أخرى ﴿ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾ أى ليدع كل منا ومنكم نفسه وأعزة أهله وألصقهم بقلبه الى المباهلة ويحملهم عليها وتقديمهم على النفس فى أثناء المباهلة التى هى من باب المهالك ومظان التلف مع أن الرجل يخاطر لهم بنفسه ويحارب دونهم للايذان بكمال أمنه عليه الصلاة والسلام وتمام ثقته بأمره وقوة يقينه بأنه لن يصيبهم فى ذلك شائبة مكروه أصلا وهو السر فى تقديم جانبه عليه السلام على جانب المخاطبين فى كل من المقدم والمؤخر مع رعاية الأصل فى الصيغة فان غير المتكلم تبع له فى الاسناد ﴿ثم نبتهل﴾ أى نتباهل بأن نلعن الكاذب منا والبهلة بالضم والفتح اللعنة وأصلها الترك من قولهم بهلت الناقة أى تركتها بلا صرار ﴿فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ عطف على نبتهل مبين لمعناه. روى أنهم لما دعوا الى المباهلة قالوا حتى نرجع وننظر فلما تخالوا قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم ياعبد المسيح ماترى فقال والله لقد عرفتم يامعشر النصارى أن محمداً نبى مرسل ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم والله ماباهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ولئن فعلتم لتهلكن فان أبيتم الا الف دينكم والاقامة على ما أنتم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا الى بلادكم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غدا محتضنا الحسين آخذا بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعلى خلفها رضى الله عنهم أجمعين وهو يقول اذا أنا دعوت فأمنوا فقال أسقف نجران يامعشر النصارى انى لأرى وجوها لوسألوا الله تعالى أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى الى يوم القيامة فقالوا ياأبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأن نقرك على دينك ونثبت على ديننا قال صلى الله عليه وسلم فاذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ماللمسلمين وعليكم ماعلى المسلمين فأبوا قال عليه الصلاة والسلام فانى أناجزكم فقالوا مالنا بحرب العرب طاقة ولكن نصالحك على أن لاتغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدى اليك كل عام ألفى حلة ألفا فى صفر وألفا فى رجب وثلاثين درعا عادية من حديد فصالحهم على ذلك وقال والذى نفسى بيده ان الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادى نارا ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤس الشجر ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا ﴿ان هذا﴾ أى ماقص من نبأ عيسى وأمه عليهما السلام ﴿لهو القصص الحق﴾ دون ماعداه من أكاذيب النصارى فهو ضمير الفصل دخلته اللام لكونه أقرب الى المبتدا من الخبر وأصلها أن تدخل المبتدأ وقرىء لهو بسكون الهاء والقصص خبر ان والحق صفته أو هو مبتدأ والقصص خبره والجملة خبر لان ﴿وما من اله الا الله﴾ صرح فيه بمن الاستغراقية تأكيدا للرد على النصارى فى تثليثهم ﴿وان الله لهو العزيز﴾ القادر على جميع المقدورات ﴿الحكيم﴾ المحيط بالمعلومات لا أحد يشاركه فى القدرة والحكمة ليشاركه فى الألوهية ﴿فان تولوا﴾ عن التوحيد وقبول الحق الذى قص عليك بعد ماعاينوا تلك الحجج النيرة والبراهين الساطعة ﴿فان الله عليم بالمفسدين﴾ أى بهم وانما وضع موضعه ماوضع للايذان بأن الاعراض عن التوحيد والحق الذى لامحيد عنه بعدما قامت به الحجج افساد للعالم وفيه من شدة الوعيد مالايخفى ﴿قل ياأهل الكتاب﴾ أمر بخطاب أهل الكتابين وقيل بخطاب وفد نجران وقيل بخطاب يهود المدينة ﴿تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ لايختلف فيها الرسل والكتب وهى ﴿أن لانعبد الا الله﴾ أى نوحده بالعبادة ونخلص فيها ﴿ولا نشرك به شيئاً﴾ ولا نجعل غيره شريكا له فى استحقاق العبادة ولا نراه أهلا لأن يعبد ﴿ولا يتخذ بعضنا

بعضا أربابا من دون الله﴾ بأن نقول عزير ابن الله والمسيح ابن الله ولا نطيع الاحبار فيما أحدثوا من التحريم والتحليل لأن كلا منهم بعضنا بشر مثلنا. روى أنه لما نزلت اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله قال عدى بن حاتم ما كنا نعبدهم يارسول الله فقال عليه السلام أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم قال نعم قال عليه السلام هو ذاك ﴿فان تولوا﴾ عما دعوتهم اليه من التوحيد وترك الاشراك ﴿فقولوا﴾ أى قل لهم أنت والمؤمنون ﴿اشهدوا بأنا مسلمون﴾ أى لزمتكم الحجة فاعترفوا بأنا مسلمون دونكم أو اعترفوا بأنكم كافرون بما نطقت به الكتب وتطابقت عليه الرسل عليهم السلام — تنبيه — انظر الى ماروعى فى هذه القصة من المبالغة فى الارشاد وحسن التدرج فى المحاجة حيث بين أولا أحوال عيسى عليه السلام وما توارد عليه من الاطوار المنافية للالهية ثم ذكر كيفية دعوته للناس الى التوحيد والاسلام فلما ظهر عنادهم دعوا الى المباهلة بنوع من الاعجاز ثم لما أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد دعوا الى ما اتفق عليه عيسى عليه السلام والانجيل وسائر الانبياء عليهم السلام والكتب ثم لما ظهر عدم اجدائه أيضا أمر بأن يقال لهم اشهدوا بأنا مسلمون ﴿ياأهل الكتاب﴾ من اليهود والنصارى ﴿لم تحاجون فى ابراهيم﴾ أى فى ملته وشريعته تنازعت اليهود والنصارى فى ابراهيم عليه السلام وزعم كل منهم أنه عليه السلام منهم وترافعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت والمعنى لم تدعون أنه عليه السلام كان منكم ﴿وما أنزلت التوراة﴾ على موسى عليه الصلاة والسلام ﴿والانجيل﴾ على عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿الا من بعده﴾ حيث كان بينه وبين موسى عليهما السلام ألف سنة وبين موسى وعيسى عليهما السلام ألفا سنة فكيف يمكن أن يتفوه به عاقل ﴿أفلا تعقلون﴾ أى ألا تتفكرون فلا تعقلون بطلان مذهبكم أو أتقولون ذلك فلا تعقلون بطلانه ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ جملة من مبتدا وخبر صدرت بحرف التنبيه ثم بينت بجملة مستأنفة اشعارا بكمال غفلتهم أى أنتم هؤلاء الاشخاص الحمقى حيث ﴿حاججتم فيما لكم به علم﴾ فى الجملة حيث وجدتموه فى التوراة والانجيل ﴿فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ أصلا اذ لاذكر لدين ابراهيم فى أحد الكتابين قطعا وقيل هؤلاء بمعنى الذى وحاججتم صلته وقيل ها أنتم أصله أأنتم على الاستفهام للتعجب قلبت الهمزة هاء ﴿والله يعلم﴾ ماحاججتم فيه أو كل شىء فيدخل فيه ذلك دخولا أوليا ﴿وأنتم لاتعلمون﴾ أى محل النزاع أو شيأ من الأشياء التى من جملتها ذلك ﴿ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانيا﴾ تصريح بما نطق به البرهان المقرر ﴿ولكن كان حنيفا﴾ أى مائلا عن العقائد الزائغة كلها ﴿مسلما﴾ أى منقاداً لله تعالى وليس المراد أنه كان على ملة الاسلام والا لاشترك الالزام ﴿وما كان من المشركين﴾ تعريض بأنهم مشركون بقولهم عزير ابن الله والمسيح ابن الله ورد لادعاء المشركين أنهم على ملة ابراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ان أولى الناس بابراهيم﴾ أى أقربهم اليه وأخصهم به ﴿للذين اتبعوه﴾ أى فى زمانه ﴿وهذا النبى والذين آمنوا﴾ لموافقتهم له فى أكثر ماشرع لهم على الاصالة وقرىء والنبى بالنصب عطفا على الضمير فى اتبعوه وبالجر عطفا على ابراهيم ﴿والله ولى المؤمنين﴾ ينصرهم ويجازيهم الحسنى بايمانهم وتخصيص المؤمنين بالذكر ليثبت الحكم فى النبى صلى الله عليه وسلم بدلالة النص ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم﴾ نزلت فى اليهود حين دعوا حذيفة وعمارا ومعاذا الى اليهودية ولو بمعنى أن ﴿وما يضلون الا أنفسهم﴾ جملة حالية جىء بها للدلالة على كمال رسوخ المخاطبين وثباتهم على ماهم عليه من الدين القويم أى وما يتخطاهم الاضلال ولا يعود وباله الا اليهم لما أنه يضاعف به عذابهم وقيل وما يضلون الا أمثالهم ويأباه قوله تعالى ﴿وما يشعرون﴾ أى باختصاص وباله وضرره بهم ﴿ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله﴾ أى بما نطقت به التوراة والانجيل ودلت على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وأنتم تشهدون﴾ أى والحال أنكم تشهدون أنها آيات

الله أو بالقرآن وأنتم تشهدون نعته فى الكتابين أو تعلمون بالمعجزات أنه حق ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل﴾ بتحريفكم وابراز الباطل فى صورته أو بالتقصير فى التمييز بينهما وقرئ تلبسون بالتشديد وتلبسون بفتح الباء أى تلبسون الحق مع الباطل كما فى قوله عليه السلام كلابس ثوبى زور ﴿وتكتمون الحق﴾ أى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ﴿وأنتم تعلمون﴾ أى حقيته ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب﴾ وهم رؤساؤهم ومفسدوهم لاعقابهم ﴿آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا﴾ أى أظهروا الايمان بالقرآن المنزل عليهم ﴿وجه النهار﴾ أى أوله ﴿واكفروا﴾ أى أظهروا ما أنتم عليه من الكفر به ﴿آخره﴾ مرائين لهم أنكم آمنتم به بادئ الرأى من غير تأمل ثم تأملتم فيه فوقفتم على خلل رأيكم الاول فرجعتم عنه ﴿لعلهم﴾ أى المؤمنين ﴿يرجعون﴾ عما هم عليه من الايمان به كما رجعتم والمراد بالطائفة كعب بن الاشرف ومالك بن الصيف قالا لأصحابهما لما حولت القبلة آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة الى الكعبة وصلوا اليها أول النهار ثم صلوا الى الصخرة آخره لعلهم يقولون هم أعلم منا وقد رجعوا فيرجعون وقيل هم اثنا عشر رجلا من أحبار خيبر تقاولوا بأن يدخلوا فى الاسلام أول النهار ويقولوا آخره نظرنا فى كتابنا وشاورنا علماءنا فلم نجد محمدا بالنعت الذى ورد فى التوراة لعل أصحابه يشكون فيه ﴿ولا تؤمنوا﴾ أى لا تقروا بتصديق قلبى ﴿الا لمن تبع دينكم﴾ أى لاهل دينكم أو لا تظهروا ايمانكم وجه النهار الا لمن كان على دينكم من قبل فان رجوعهم أرجى وأهم ﴿قل ان الهدى هدى الله﴾ يهدى به من يشاء الى الايمان ويثبته عليه ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم﴾ متعلق بمحذوف أى دبرتم ذلك وقلتم لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو بلا تؤمنوا أى ولا تظهروا ايمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم الا لاشياعكم ولا تفشوه الى المسلمين لئلا يزيد ثباتهم ولا الى المشركين لئلا يدعوهم الى الاسلام وقوله تعالى قل ان الهدى هدى الله اعتراض مفيد لكون كيدهم غير مجد لطائل أو خبر ان على أن هدى الله بدل من الهدى وقرئ أأن يؤتى على الاستفهام التقريعى وهو مؤيد للوجه الاول أى ألأن يؤتى أحد الخ دبرتم وقرئ ان على أنها نافية فيكون من كلام الطائفة أى ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم وقولوا لهم ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴿أو يحاجوكم عند ربكم﴾ عطف على أن يؤتى على الوجهين الاولين وعلى الثالث معناه حتى يحاجوكم عند ربكم فيدحضوا حجتكم والواو ضمير أحد لأنه فى معنى الجمع اذ المراد به غير أتباعهم ﴿قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ رد لهم وابطال لما زعموه بالحجة الباهرة ﴿يختص برحمته﴾ أى يجعل رحمته مقصورة على ﴿من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ كلاهما تذييل لما قبله مقرر لمضمونه ﴿ومن أهل الكتاب﴾ شروع فى بيان خيانتهم فى المال بعد بيان خيانتهم فى الدين والجار والمجرور فى محل الرفع على الابتداء حسبما مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى ومن الناس من يقول الخ خبره قوله تعالى ﴿من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك﴾ على أن المقصود بيان اتصافهم بمضمون الجملة الشرطية لا كونهم ذوات المذكورين كأنه قيل بعض أهل الكتاب بحيث ان تأمنه بقنطار أى بمال كثير يؤده اليك كعبد الله بن سلام استودعه قرشى ألفا ومائتى أوقية ذهبا فأداه اليه ﴿ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك﴾ كفنحاص بن عازوراء استودعه قرشى آخر دينارا فجحده وقيل المأمونون على الكثير النصارى اذ الغالب فيهم الامانة والخائنون فى القليل اليهود اذ الغالب فيهم الخيانة ﴿الا مادمت عليه قائما﴾ استثناء مفرغ من أعم الاحوال أو الاوقات أى لا يؤده اليك فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات الا فى حال دوام قيامك أو فى وقت دوام قيامك على رأسه مبالغا فى مطالبته بالتقاضى واقامة البينة ﴿ذلك﴾ اشارة الى ترك الاداء المدلول عليه بقوله تعالى لا يؤده وما فيه من معنى البعد للايذان بكمال غلوهم فى الشر والفساد ﴿بأنهم﴾ أى بسبب أنهم ﴿قالوا ليس علينا فى الأميين﴾ أى فى شأن من ليس من أهل الكتاب

﴿سبيل﴾ أى عتاب ومؤاخذة ﴿ويقولون على الله الكذب﴾ بادعائهم ذلك ﴿وهم يعلمون﴾ أنهم كاذبون مفترون على الله تعالى وذلك لأنهم استحلوا ظلم من خالفهم وقالوا لم يجعل فى التوراة فى حقهم حرمة وقيل عامل اليهود رجالا من قريش فلما أسلموا تقاضوهم فقالوا سقط حقكم حيث تركتم دينكم وزعموا أنه كذلك فى كتابهم وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال عند نزولها كذب أعداء الله ما من شئ فى الجاهلية الا وهو تحت قدمى الا الامانة فانها مؤداة الى البر والفاجر ﴿بلى﴾ اثبات لما نفوه أى بلى عليهم فيهم سبيل وقوله تعالى ﴿من أوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين﴾ استئناف مقرر للجملة التى سدت بلى مسدها والضمير المجرور لمن أو لله تعالى وعموم المتقين نائب مناب الراجع من الجزاء الى من ومشعر بأن التقوى ملاك الأمر عام للوفاء وغيره من أداء الواجبات والاجتناب عن المناهى ﴿ان الذين يشترون﴾ أى يستبدلون ويأخذون ﴿بعهد الله﴾ أى بدل ما عاهدوا عليه من الايمان بالرسول صلى الله عليه وسلم والوفاء بالامانات ﴿وأيمانهم﴾ وبما حلفوا به من قولهم والله لنؤمنن به ولننصرنه ﴿ثمنا قليلا﴾ هو حطام الدنيا ﴿أولئك﴾ الموصوفون بتلك الصفات القبيحة ﴿لا خلاق﴾ لا نصيب ﴿لهم فى الآخرة﴾ من نعيمها ﴿ولا يكلمهم الله﴾ أى بما يسرهم أو بشئ أصلا وانما يقع ما يقع من السؤال والتوبيخ والتقريع فى أثناء الحساب من الملائكة عليهم السلام أو لا ينتفعون بكلمات الله تعالى وآياته والظاهر أنه كناية عن شدة غضبه وسخطه نعوذ بالله من ذلك لقوله تعالى ﴿ولا ينظر اليهم يوم القيامة﴾ فانه مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم متفرع على الكناية فى حق من يجوز عليه النظر لأن من اعتد بالانسان التفت اليه وأعاره نظر عينيه ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد والاحسان وان لم يكن ثمة نظر ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النظر مجرد المعنى الاحسان مجازا عما وقع كناية عنه فيمن يجوز عليه النظر ويوم القيامة متعلق بالفعلين وفيه تهويل للوعيد ﴿ولا يزكيهم﴾ أى لا يثنى عليهم أو لا يطهرهم من أوضار الأوزار ﴿ولهم عذاب أليم﴾ على ما فعلوه من المعاصى قيل انها نزلت فى أبى رافع ولبابة بن أبى الحقيق وحيى بن أخطب حرفوا التوراة وبدلوا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذوا الرشوة على ذلك وقيل نزلت فى الاشعث بن قيس حيث كان بينه وبين رجل نزاع فى بئر فاختصما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له شاهداك أو يمينه فقال الأشعث اذن يحلف ولا يبالى فقال صلى الله عليه وسلم من حلف على يمين يستحق بها مالا هو فيها فاجر لقى الله وهو عليه غضبان وقيل فى رجل أقام سلعة فى السوق فحلف لقد اشتراها بما لم يكن اشتراها به ﴿وان منهم﴾ أى من اليهود المحرفين ﴿لفريقا﴾ ككعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وأضرابهما ﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾ أى يفتلونها بقراءته فيميلونها عن المنزل الى المحرف أو يعطفونها بشبه الكتاب وقرئ يلوّون بالتشديد ويلون بقلب الواو المضمومة همزة ثم تخفيفها بحذفها والقاء حركتها على ما قبلها من الساكن ﴿لتحسبوه﴾ أى المحرف المدلول عليه بقوله تعالى يلوون الخ وقرئ بالياء والضمير للمسلمين ﴿من الكتاب﴾ أى من جملته وقوله تعالى ﴿وما هو من الكتاب﴾ حال من الضمير المنصوب أى والحال أنه ليس منه فى نفس الأمر وفى اعتقادهم أيضا ﴿ويقولون﴾ مع ما ذكر من اللى والتحريف على طريقة التصريح لا بالتورية والتعريض ﴿هو﴾ أى المحرف ﴿من عند الله﴾ أى منزل من عند الله ﴿وما هو من عند الله﴾ حال من ضمير المبتدا فى الخبر أى والحال أنه ليس من عنده تعالى فى اعتقادهم أيضا وفيه من المبالغة فى تشنيعهم وتقبيح أمرهم وكمال جراءتهم ما لا يخفى واظهار الاسم الجليل والكتاب فى محل الاضمار لتهويل ما أقدموا عليه من القول ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أنهم كاذبون ومفترون على الله تعالى وهو تأكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله والتعمد فيه وعن ابن عباس رضى الله عنهما هم اليهود الذين قدموا على كعب بن الاشرف وغيروا

التوراة وكتبوا كتابا بدلوا فيه صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذت قريظة ما كتبوا فخلطوه بالكتاب الذى عندهم ﴿ما كان لبشر﴾ بيان لافترائهم على الانبياء عليهم السلام حيث قال نصارى نجران ان عيسى عليه السلام أمرنا أن نتخذه ربا حاشاه عليه السلام وابطال له اثر بيان افترائهم على الله سبحانه وابطاله أى ماصح وما استقام لأحد وانما قيل لبشر اشعارا بعلة الحكم فان البشرية منافية للأمر الذى أسنده الكفرة اليهم ﴿أن يؤتيه الله الكتاب﴾ الناطق بالحق الآمر بالتوحيد الناهى عن الاشراك ﴿والحكم﴾ الفهم والعلم أو الحكمة وهى السنة ﴿والنبوة﴾ ﴿ثم يقول﴾ ذلك البشر ماشرفه الله عز وجل بما ذكر من التشريفات وعرفه الحق وأطلعه على شئونه العالية ﴿للناس كونوا عبادا لى﴾ الجار متعلق بمحذوف هو صفة عبادا أى عبادا كائنين ﴿من دون الله﴾ متعلق بلفظ عبادا لما فيه من معنى الفعل أو صفة ثانية له ويحتمل الحالية لتخصص النكرة بالوصف أى متجاوزين الله تعالى سواء كان ذلك استقلالا أو اشتراكا فان التجاوز متحقق فيهما حتما قيل ان أبا رافع القرظى والسيد النجرانى قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتريد أن نعبدك ونتخذك ربا فقال عليه السلام معاذ الله أن يعبد غير الله تعالى وأن نأمر بعبادة غيره تعالى فما بذلك بعثنى ولا بذلك أمرنى فنزلت وقيل قال رجل من المسلمين يارسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك قال عليه السلام لا ينبغى أن يسجد لأحد من دون الله تعالى ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله ﴿ولكن كونوا﴾ أى ولكن يقول كونوا ﴿ربانيين﴾ الربانى منسوب الى الرب بزيادة الألف والنون كاللحيانى والرقبانى وهو الكامل فى العلم والعمل الشديد التمسك بطاعة الله عز وجل ودينه ﴿بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ أى بسبب مثابرتكم على تعليم الكتاب ودراسته أى قراءته فان جعل خبر كان مضارعا لافادة الاستمرار التجددى وتكرير بما كنتم للايذان باستقلال كل من استمرار التعليم واستمرار القراءة بالفضل وتحصيل الربانية وتقديم التعليم على الدراسة لزيادة شرفه عليها أو لأن الخطاب الأول لرؤسائهم والثانى لمن دونهم وقرىء تعلمون بمعنى عالمين وتدرسون من التدريس وتدرسون من الادراس بمعنى التدريس كأكرم بمعنى كرم ويجوز أن تكون القراءة المشهورة أيضا بهذا المعنى على تقدير بما تدرسونه على الناس ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا﴾ بالنصب عطفا على ثم يقول ولا مزيدة لتأكيد معنى النفى فى قوله تعالى ما كان لبشر أى ما كان لبشر أن يستنبئه الله تعالى ثم يأمر الناس بعبادة نفسه ويأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا وتوسيط الاستدراك بين المعطوفين للمسارعة الى تحقيق الحق ببيان مايليق بشأنه ويحق صدوره عنه اثر تنزيهه عما لايليق بشأنه ويمتنع صدوره عنه وأما ماقيل من أنها غير مزيدة على معنى أنه ليس له أن يأمر بعبادته ولا يأمر باتخاذ أكفائه أربابا بل ينهى عنه وهو أدنى من العبادة فيقضى بفساده ماذكر من توسيط الاستدراك بين الجملتين المتعاطفتين ضرورة أنهما حينئذ فى حكم جملة واحدة وكذا قوله تعالى ﴿أيأمركم بالكفر﴾ فانه صريح فى أن المراد بيان انتفاء كلا الأمرين قصدا لابيان انتفاء الاول لانتفاء الثانى ويعضده قراءة الرفع على الاستئناف وتجويز الحالية بتقدير المبتدأ أى وهو لا يأمركم الى آخره بين الفساد لماعرفته آنفا وقوله تعالى ﴿بعد اذ أنتم مسلمون﴾ يدل على أن الخطاب للمسلمين وهم المستأذنون للسجود له عليه السلام ﴿واذ أخذ الله ميثاق النبيين﴾ منصوب بمضمر خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم أى اذكر وقت أخذه تعالى ميثاقهم ﴿لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه﴾ قيل هو على ظاهره واذا كان هذا حكم الانبياء عليهم السلام كان الأمم بذلك أولى وأحرى وقيل معناه أخذ الميثاق من النبيين وأممهم واستغنى بذكرهم عن ذكرهم وقيل اضافة الميثاق الى النبيين اضافة الى الفاعل والمعنى واذ أخذ الله الميثاق الذى وثقه الانبياء على أممهم وقيل المراد أولاد النبيين على حذف

المضاف وهم بنو اسرائيل أو سماهم نبيين تهكما بهم لأنهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوة من محمد صلى الله عليه وسلم لانا أهل الكتاب والنبيون كانوا منا واللام فى لما موطئة للقسم لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف وما تحتمل الشرطية ولتؤمنن ساد مسد جواب القسم والشرط وتحتمل الخبرية وقرىء لما بالكسر على أن ما مصدرية أى لأجل ايتائى اياكم بعض الكتاب ثم لمجىء رسول مصدق أخذ الله الميثاق لتؤمنن به ولتنصرنه أو موصولة والمعنى أخذه للذى آتيتكموه وجاءكم رسول مصدق له وقرىء لما بمعنى حين آتيتكم أو لمن أجل ما آتيتكم على أن أصله لمن ما بالادغام فحذف احدى الميمات الثلاث استثقالا ﴿قال﴾ أى الله تعالى بعدما أخذ الميثاق ﴿أأقررتم﴾ بما ذكر ﴿وأخذتم على ذلكم إصرى﴾ أى عهدى سمى به لأنه يؤصر أى يشد وقرىء بضم الهمزة اما لغة كعبر وعبر أو جمع اصار وهو ما يشد به ﴿قالوا﴾ استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك فقيل قالوا ﴿أقررنا﴾ وانما لم يذكر أخذهم الاصر اكتفاء بذلك ﴿قال﴾ تعالى ﴿فاشهدوا﴾ أى فليشهد بعضكم على بعض بالاقرار وقيل الخطاب فيه للملائكة ﴿وأنا معكم من الشاهدين﴾ أى وأنا أيضا على اقراركم ذلك وتشاهدكم شاهد وادخال مع على المخاطبين لما أنهم المباشرون للشهادة حقيقة وفيه من التأكيد والتحذير مالايخفى ﴿فمن تولى﴾ أى أعرض عما ذكر ﴿بعد ذلك﴾ الميثاق والتوكيد بالاقرار والشهادة فمعنى البعد فى اسم الاشارة لتفخيم الميثاق ﴿فأولئك﴾ اشارة الى من والجمع باعتبار المعنى كما أن الافراد فى تولى باعتبار اللفظ ومافيه من معنى البعد للدلالة على ترامى أمرهم فى السوء وبعد منزلتهم فى الشر والفساد أى فأولئك المتولون المتصفون بالصفات القبيحة ﴿هم الفاسقون﴾ المتمردون الخارجون عن الطاعة من الكفرة فان الفاسق من كل طائفة من كان متجاوزا عن الحد ﴿أفغير دين الله يبغون﴾ عطف على مقدر أى أيتولون فيبغون غير دين الله وتقديم المفعول لأنه المقصود انكاره أو على الجملة المتقدمة والهمزة متوسطة بينهما للانكار وقرىء بتاء الخطاب على تقدير وقل لهم ﴿وله أسلم من فى السموات والارض﴾ جملة حالية مفيدة لوكادة الانكار ﴿طوعا وكرها﴾ أى طائعين بالنظر واتباع الحجة وكارهين بالسيف ومعاينة مايلجىء الى الاسلام كنتق الجبل وادراك الغرق والاشراف على الموت أو مختارين كالملائكة والمؤمنين ومسخرين كالكفرة فانهم لايقدرون على الامتناع عما قضى عليهم ﴿واليه يرجعون﴾ أى من فيهما والجمع باعتبار المعنى وقرىء بتاء الخطاب والجملة اما معطوفة على ماقبلها منصوبة على الحالية واما مستأنفة سيقت للتهديد والوعيد ﴿قل آمنا بالله﴾ أمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يخبر عن نفسه ومن معه من المؤمنين بالايمان بما ذكر وجمع الضمير فى قوله تعالى ﴿وما أنزل علينا﴾ وهو القرآن لما أنه منزل عليهم أيضا بتوسط تبليغه اليهم أو لان المنسوب الى واحد من الجماعة قد ينسب الى الكل أو عن نفسه فقط وهو الانسب بما بعده والجمع لاظهار جلالة قدره عليه السلام ورفعة محله بأمره بأن يتكلم عن نفسه على ديدن الملوك ويجوز أن يكون الامر عاما والافراد لتشريفه عليه السلام والايذان بأنه عليه السلام أصل فى ذلك كما فى قوله تعالى ياأيها النبى اذا طلقتم النساء ﴿وما أنزل على ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط﴾ من الصحف والنزول كما يعدى بالى لانتهائه الى الرسل يعدى بعلى لأنه من فوق ومن رام الفرق بأن على لكون الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والى لكون الخطاب للمؤمنين فقد تعسف ألا يرى الى قوله تعالى بما أنزل اليك الخ وقوله آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا الخ وانما قدم المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم على ما أنزل على سائر الرسل عليهم السلام مع تقدمه عليه نزولا لأنه المعرف له والعيار عليه والاسباط جمع سبط وهو الحافد والمراد بهم حفدة يعقوب عليه السلام وأبناؤه الاثنا عشر وذراريهم فانهم حفدة ابراهيم عليه السلام ﴿وما أوتى موسى وعيسى﴾ من التوراة والانجيل وسائر المعجزات الظاهرة بأيديهما كما ينبىء عنه

ايثار الايتاء على الانزال الخاص بالكتاب وتخصيصهما بالذكر لما أن الكلام مع اليهود والنصارى ﴿والنبيون﴾ عطف على موسى وعيسى عليهما السلام أى وما أوتى النبيون من المذكورين وغيرهم ﴿من ربهم﴾ من الكتب والمعجزات ﴿لانفرق بين أحد منهم﴾ كدأب اليهود والنصارى آمنوا ببعض وكفروا ببعض بل نؤمن بصحة نبوة كل منهم وبحقية ما أنزل اليهم فى زمانهم وعدم التعرض لنفى التفريق بين الكتب لاستلزام المذكور اياه وقد مر تفصيله فى تفسير قوله تعالى لانفرق بين أحد من رسله وهمزة أحد اما أصلية فهو اسم موضوع لمن يصلح أن يخاطب يستوى فيه المفرد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث ولذلك صح دخول بين عليه كما فى مثل المال بين الناس واما مبدلة من الواو فهو بمعنى واحد وعمومه لوقوعه فى حيز النفى وصحة دخول بين عليه باعتبار معطوف قد حذف لظهوره أى بين أحد منهم وغيره كما فى قول النابغة

فما كان بين الخير اذ جاء سالما ... أبو حجر الا ليال قلائل

أى بين الخير وبينى ﴿ونحن له مسلمون﴾ أى منقادون أو مخلصون له تعالى أنفسنا لانجعل له شريكا فيها وفيه تعريض بايمان أهل الكتاب فانه بمعزل من ذلك ﴿ومن يبتغ غير الاسلام﴾ أى غير التوحيد والانقياد لحكم الله تعالى كدأب المشركين صريحا والمدعين للتوحيد مع اشراكهم كأهل الكتابين ﴿دينا﴾ ينتحل اليه وهو نصب على أنه مفعول ليبتغ وغير الاسلام حال منه لما أنه كان صفة له فلما قدمت عليه انتصبت حالا أو هو المفعول ودينا تمييز لما فيه من الابهام أو بدل من غير الاسلام ﴿فلن يقبل﴾ ذلك ﴿منه﴾ أبدا بل يرد أشد رد وأقبحه وقوله تعالى ﴿وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾ اما حال من الضمير المجرور أو استئناف لامحل له من الاعراب أى من الواقعين فى الخسران والمعنى أن المعرض عن الاسلام والطالب لغيره فاقد للنفع واقع فى الخسران بابطال الفطرة السليمة التى فطر الناس عليها وفى ترتيب الرد والخسران على مجرد الطلب دلالة على أن حال من تدين بغير الاسلام واطمأن بذلك أفظع وأقبح واستدل به على أن الايمان هو الاسلام اذ لو كان غيره لم يقبل والجواب أنه ينفى قبول كل دين يغايره لاقبول كل مايغايره ﴿كيف يهدى الله﴾ الى الحق ﴿قوما كفروا بعد ايمانهم﴾ قيل هم عشرة رهط ارتدوا بعد ما آمنوا ولحقوا بمكة وقيل هم يهود قريظة والنضير ومن دان بدينهم كفروا بالنبى صلى الله عليه وسلم بعد أن كانوا مؤمنين به قبل مبعثه ﴿وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات﴾ استبعاد لأن يهديهم الله تعالى فان الحائد عن الحق بعد ما وضح له منهمك فى الضلال بعيد عن الرشاد وقيل نفى وانكار له وذلك يقتضى أن لاتقبل توبة المرتد وقوله تعالى وشهدوا عطف على ايمانهم باعتبار انحلاله الى جملة فعلية كما فى قوله تعالى ان المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله الخ فانه فى قوة أن يقال بعد أن آمنوا أو حال من ضمير كفروا باضمار قد وهو دليل على أن الاقرار باللسان خارج عن حقيقة الايمان ﴿والله لايهدى القوم الظالمين﴾ أى الذين ظلموا أنفسهم بالاخلال بالنظر ووضع الكفر موضع الايمان فكيف من جاءه الحق وعرفه ثم أعرض عنه والجملة اعتراضية أو حالية ﴿أولئك﴾ اشارة الى المذكورين باعتبار اتصافهم بما مر من الصفات الشنيعة ومافيه من معنى البعد لما مر مرارا وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿جزاؤهم﴾ مبتدأ ثان وقوله تعالى ﴿أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ خبره والجملة خبر لأولئك وهذا يدل بمنطوقه على جواز لعنهم وبمفهومه ينفى جواز لعن غيرهم ولعل الفرق بينهم وبين غيرهم أنهم مطبوع على قلوبهم ممنوعون عن الهدى آيسون من الرحمة رأسا بخلاف غيرهم والمراد بالناس المؤمنون أو الكل فان الكافر أيضا يلعن منكر الحق والمرتد عنه ولكن لايعرف الحق بعينه ﴿خالدين فيها﴾ فى اللعنة أو العقوبة أو النار وان لم تذكر لدلالة الكلام عليها ﴿لايخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون﴾ أى يمهلون ﴿الا الذين تابوا من بعد ذلك﴾ أى من بعد الارتداد ﴿وأصلحوا﴾ أى

ما أفسدوا أو دخلوا فى الصلاح ﴿فان الله غفور رحيم﴾ فيقبل توبتهم ويتفضل عليهم وهو تعليل لما دل عليه الاستثناء وقيل نزلت فى الحرث بن سويد حين ندم على ردته فأرسل الى قومه أن يسألوا هل لى من توبة فأرسل اليه أخوه الجلاس الآية فرجع الى المدينة فتاب ﴿ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفرا﴾ كاليهود كفروا بعيسى عليه السلام والانجيل بعد الايمان بموسى عليه السلام والتوراة ثم ازدادوا كفرا حيث كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام والقرآن أو كفروا به عليه السلام بعدما آمنوا به قبل مبعثه ثم ازدادوا كفرا بالاصرار عليه والطعن فيه والصد عن الايمان ونقض الميثاق أو كقوم ارتدوا ولحقوا بمكة ثم ازدادوا كفرا بقولهم نتربص به ريب المنون أو نرجع اليه فننافقه باظهار الايمان ﴿لن تقبل توبتهم﴾ لأنهم لايتوبون الا عند اشرافهم على الهلاك فكنى عن عدم توبتهم بعدم قبولها تغليظا فى شأنهم وابرازا لحالهم فى صورة حال الآيسين من الرحمة أو لأن توبتهم لاتكون الا نفاقا لارتدادهم وازديادهم كفرا ولذلك لم تدخل فيه الفاء ﴿وأولئك هم الضالون﴾ الثابتون على الضلال ﴿ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به﴾ لما كان الموت على الكفر سببا لامتناع قبول الفدية زيدت الفاء ههنا للاشعار به وملء الشىء ما يملأ به وذهبا تمييز وقرىء بالرفع على أنه بدل من ملء أو خبر لمحذوف ولو افتدى محمول على المعنى كأنه قيل فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهبا أو معطوف على مضمر تقديره فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا لو تصدق به فى الدنيا ولو افتدى به من العذاب فى الآخرة أو المراد ولو افتدى بمثله كقوله تعالى ولو أن للذين ظلموا مافى الأرض جميعا ومثله معه والمثل يحذف ويراد كثيرا لأن المثلين فى حكم شىء واحد ﴿أولئك﴾ اشارة الى المذكورين باعتبار اتصافهم بالصفات الشنيعة المذكورة ﴿لهم عذاب أليم﴾ مؤلم اسم الاشارة مبتدأ والظرف خبره ولاعتماده على المبتدا ارتفع به عذاب أليم على الفاعلية ﴿ومالهم من ناصرين﴾ فى دفع العذاب عنهم أو فى تخفيفه ومن مزيدة للاستغراق وصيغة الجمع لمراعاة الضمير أى ليس لواحد منهم ناصر واحد ﴿لن تنالوا البر﴾ من ناله نيلا اذا أصابه والخطاب للمؤمنين وهو كلام مستأنف سيق لبيان ماينفع المؤمنين ويقبل منهم اثر بيان مالاينفع الكفرة ولايقبل منهم أى لن تبلغوا حقيقة البر الذى يتنافس فيه المتنافسون ولن تدركوا شأوه ولن تلحقوا بزمرة الأبرار أو لن تنالوا بر الله تعالى وهو ثوابه ورحمته ورضاه وجنته ﴿حتى تنفقوا﴾ أى فى سبيل الله عز وجل رغبة فيما عنده ومن فى قوله تعالى ﴿مما تحبون﴾ تبعيضية ويؤيده قراءة من قرأ بعض ماتحبون وقيل بيانية وما موصولة أو موصوفة أى مما تهوون ويعجبكم من كرائم أموالكم وأحبها اليكم كما فى قوله تعالى أنفقوا من طيبات ما كسبتم أو مما يعمها وغيرها من الأعمال والمهجة على أن المراد بالانفاق مطلق البذل وفيه من الايذان بعزة منال البر مالايخفى وكان السلف رضى الله عنهم اذا أحبوا شيأ جعلوه لله عز وجل . وروى أنها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال يارسول الله ان أحب أموالى الى بيرحاء فضعها يارسول الله حيث أراك الله فقال عليه السلام بخ بخ ذاك مال رائح أو رابح وانى أرى أن تجعلها فى الأقربين فقسمها فى أقاربه وجاء زيد بن حارثة بفرس له كان يحبها فقال هذه فى سبيل الله فحمل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد فكأن زيدا وجد فى نفسه وقال انما أردت أن أتصدق به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما ان الله تعالى قد قبلها منك . قيل وفيه دلالة على أن انفاق أحب الأموال على أقرب الأقارب أفضل وكتب عمر رضى الله عنه الى أبى موسى الأشعرى أن يشترى له جارية من سبى جلولاء يوم فتحت مدائن كسرى فلما جاءت اليه أعجبته فقال ان الله تعالى يقول لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون فأعتقها . وروى أن عمر بن عبد العزيز كانت لزوجته جارية بارعة الجمال وكان عمر راغبا فيها وكان قد طلبها منها مرارا فلم تعطها اياه ثم لما ولى الخلافة زينتها

وأرسلتها اليه فقالت قد وهبتكها ياأمير المؤمنين فلتخدمك قال من أين ملكتها قالت جئت بها من بيت أبى عبد الملك ففتش عن كيفية تملكه اياها فقيل انه كان على فلان العامل ديون فلما توفى أخذت من تركته ففتش عن حال العامل وأحضر ورثته وأرضاهم جميعا باعطاء المال ثم توجه الى الجارية وكان يهواها هوى شديدا فقال أنت حرة لوجه الله تعالى فقالت لم ياأمير المؤمنين وقد أزحت عن أمرها كل شبهة قال لست اذن ممن نهى النفس عن الهوى ﴿وما تنفقوا من شىء﴾ ماشرطية جازمة لتنفقوا منتصبة به على المفعولية ومن تبعيضية متعلقة بمحذوف هو صفة لاسم الشرط أى أى شىء تنفقوا كائنا من الاشياء فان المفرد فى مثل هذا الموضع واقع موقع الجمع وقيل محل الجار والمجرور النصب على التمييز أى أى شىء تنفقوا طيبا تحبونه أو خبيثا تكرهونه ﴿فان الله به عليم﴾ تعليل لجواب الشرط واقع موقعه أى فجازيكم بحسبه جيدا كان أورديئا فانه تعالى عليم بكل شىء تنفقونه علما كاملا بحيث لا يخفى عليه شىء من ذاته وصفاته وتقديم الجار والمجرور لرعاية الفواصل وفيه من الترغيب فى انفاق الجيد والتحذير عن انفاق الردىء مالا يخفى ﴿كل الطعام﴾ أى كل أفراد المطعوم أو كل أنواعه ﴿كان حلا لبنى اسرائيل﴾ أى حلالا لهم فان الحل مصدر نعت به ولذلك استوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث كما فى قوله تعالى لا هن حل لهم ﴿الا ما حرم اسرائيل على نفسه﴾ استثناء متصل من اسم كان أى كان كل المطعومات حلالا لبنى اسرائيل الا ما حرم اسرائيل أى يعقوب عليه السلام على نفسه وهو لحوم الابل وألبانها. قيل كان به وجع النسا فنذر لئن شفى لا يأكل أحب الطعام اليه وكان ذلك أحبه اليه وقيل فعل ذلك للتداوى باشارة الأطباء واحتج به من جوز للنبى الاجتهاد وللمانع أن يقول كان ذلك باذن من الله تعالى فيه فهو كتحريمه ابتداء ﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾ متعلق بقوله تعالى كان حلا ولا ضير فى توسيط الاستثناء بينهما وقيل متعلق بحرم وفيه أن تقييد تحريمه عليه السلام بقبلية تنزيل التوراة ليس فيه مزيد فائدة أى كان ماعدا المستثنى حلالا لهم قبل أن تنزل التوراة مشتملة على تحريم ماحرم عليهم لظلمهم وبغيهم عقوبة لهم وتشديدا وهو رد على اليهود فى دعواهم البراءة عما نعى عليهم قوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وقوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر الآيتين بأن قالوا لسنا أول من حرمت عليه وانما كانت محرمة على نوح وابراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الامر الينا فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا وتبكيت لهم فى منع النسخ والطعن فى دعوى الرسول صلى الله عليه وسلم موافقته لابراهيم عليه السلام بتحليله لحوم الابل وألبانها ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها﴾ أمر عليه السلام بأن يحاجهم بكتابهم الناطق بأن تحريم ما حرم عليهم تحريم حادث مترتب على ظلمهم وبغيهم كلما ارتكبوا معصية من المعاصى التى اقترفوها حرم عليهم نوع من الطيبات عقوبة لهم ويكلفهم اخراجه وتلاوته ليبكتهم ويلقمهم الحجر ويظهر كذبهم واظهار اسم التوراة لكون الجملة كلاما مع اليهود منقطعا عما قبله وقوله تعالى ﴿ان كنتم صادقين﴾ أى فى دعواكم أنه تحريم قديم وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه أى ان كنتم صادقين فأتوا بالتوراة فاتلوها فان صدقكم مما يدعوكم الى ذلك البتة. روى أنهم لم يجسروا على اخراج التوراة فبهتوا وانقلبوا صاغرين وفى ذلك من الحجة النيرة على صدق النبى صلى الله عليه وسلم وجواز النسخ الذى يجحدونه ما لا يخفى والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها ﴿فمن افترى على الله الكذب﴾ أى اختلقه عليه سبحانه بزعمه أنه حرم ماذكر قبل نزول التوراة على بنى اسرائيل ومن تقدمهم من الامم ﴿من بعد ذلك﴾ من بعد ما ذكر من أمرهم باحضار التوراة وتلاوتها وما ترتب عليه من التبكيت والالزام والتقييد به للدلالة على كمال القبح ﴿فأولئك﴾ اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة والجمع باعتبار معناه كما أن الافراد فى الصلة باعتبار لفظه وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الضلال والطغيان أى فأولئك المصرون على الافتراء بعد ما ظهرت حقيقة الحال

وضاقت عليهم حلبة المحاجة والجدال ﴿هم الظالمون﴾ المفرطون فى الظلم والعدوان المبعدون فيهما والجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب مسوقة من جهته تعالى لبيان كمال عتوهم وقيل هى فى محل النصب داخلة تحت القول عطفا على قوله تعالى فأتوا بالتوراة ﴿قل صدق الله﴾ أى ظهر وثبت صدقه تعالى فيما أنزل فى شأن التحريم وقيل فى قوله تعالى ماكان ابراهيم يهوديا الخ أو صدق فى كل شأن من الشئون وهو داخل فى ذلك دخولا أوليا وفيه تعريض بكذبهم الصريح ﴿فاتبعوا ملة ابراهيم﴾ أى ملة الاسلام التى هى فى الاصل ملة ابراهيم عليه السلام فانكم ما كنتم متبعين لملته كما تزعمون أو فاتبعوا مثل ملته حتى تتخلصوا من اليهودية التى اضطرتكم الى التحريف والمكابرة وتلفيق الاكاذيب لتسوية الاغراض الدنيئة الدنيوية وألزمتكم تحريم طيبات محللة لابراهيم عليه السلام ومن تبعه والفاء للدلالة على أن ظهور صدقه تعالى موجب للاتباع وترك ما كانوا عليه ﴿حنيفا﴾ أى مائلا عن الاديان الزائغة كلها ﴿وما كان من المشركين﴾ أى فى أمر من أمور دينه أصلا وفرعا وفيه تعريض باشراك اليهود وتصريح بأنه عليه السلام ليس بينه وبينهم علاقة دينية قطعا والغرض بيان أن النبى صلى الله عليه وسلم على دين ابراهيم عليه السلام فى الاصول لأنه لا يدعو الا الى التوحيد والبراءة عن كل معبود سواه سبحانه وتعالى والجملة تذييل لما قبلها ﴿ان أول بيت وضع للناس﴾ شروع فى بيان كفرهم ببعض آخر من شعائر ملته عليه السلام اثر بيان كفرهم بكون كل المطعومات حلاله عليه السلام. روى أنهم قالوا بيت المقدس أعظم من الكعبة لانه مهاجر الأنبياء وفى الارض المقدسة وقال المسلمون بل الكعبة أعظم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت أى ان أول بيت وضع للعبادة وجعل متعبدا لهم والواضع هو الله تعالى ويؤيده القراءة على البناء للفاعل وقوله تعالى ﴿للذى ببكة﴾ خبر لان وانما أخبر بالمعرفة مع كون اسمها نكرة لتخصصها بسببين الاضافة والوصف بالجملة بعدها أى للبيت الذى ببكة أى فيها وفى ترك الموصوف من التفخيم مالا يخفى وبكة لغة فى مكة فان العرب تعاقب بين الباء والميم كما فى قولهم ضربة لازب ولازم والنميط والنبيط فى اسم موضع بالدهناء وقولهم أمر راتب وراتم وسبد رأسه وسمدها وأغبطت الحمى وأغمطت وهى علم للبلد الحرام من بكه اذا زحمه لازدحام الناس فيه وعن قتادة يبك الناس بعضهم بعضا أو لأنها تبك أعناق الجبابرة أى تدقها لم يقصدها جبار الا قصمه الله عز وجل وقيل بكة اسم لبطن مكة وقيل لموضع البيت وقيل للمسجد نفسه ومكة اسم للبلد كله وأيد هذا بأن التباك وهو الازدحام انما يقع عند الطواف وقيل مكة اسم للمسجد والمطاف وبكة اسم للبلد لقوله تعالى للذى ببكة مباركا. روى أنه عليه السلام سئل عن أول بيت وضع للناس فقال المسجد الحرام ثم بيت المقدس وسئل كم بينهما فقال أربعون سنة وقيل أول من بناه ابراهيم عليه الصلاة والسلام وقيل آدم عليه السلام وقد استوفينا مافيه من الاقاويل فى سورة البقرة وقيل أول بيت وضع بالشرف لا بالزمان ﴿مباركا﴾ كثير الخير والنفع لما يحصل لمن حجه واعتمره واعتكف دونه وطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب وهو حال من المستكن فى الظرف لأن التقدير للذى ببكة هو والعامل فيه ماقدر فى الظرف من فعل الاستقرار ﴿وهدى للعالمين﴾ لانه قبلتهم ومتعبدهم ولأن فيه آيات عجيبة دالة على عظيم قدرته تعالى وبالغ حكمته كما قال ﴿فيه آيات بينات﴾ واضحات كانحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الاعصار ومخالطة ضوارى السباع الصيود فى الحرم من غير تعرض لها وقهر الله تعالى لكل جبار قصده بسوء كأصحاب الفيل والجملة مفسرة للهدى أو حال أخرى ﴿مقام ابراهيم﴾ أى أثر قدميه عليه السلام فى الصخرة التى كان عليه السلام يقوم عليها وقت رفع الحجارة لبناء الكعبة عند ارتفاعه أو عند غسل رأسه على ماروى أنه عليه السلام جاء زائرا من الشام الى مكة فقالت له امرأة اسمعيل عليه السلام انزل حتى أغسل رأسك فلم ينزل فجاءته بهذا الحجر فوضعته على شقه الايمن فوضع قدمه

عليه حتى غسلت شق رأسه ثم حولته الى شقه الايسر حتى غسلت الشق الآخر فبقى أثر قدميه عليه وهو امامبتدأ حذف خبره أى منها مقام ابراهيم أو بدل من آيات بدل البعض من الكل أو عطف بيان اماوحده باعتبار كونه بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالته على قدرة الله تعالى وعلى نبوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام كقوله تعالى ان ابراهيم كان أمة قانتا أو باعتبار اشتماله على آيات كثيرة فان كل واحد من أثر قدميه فى صخرة صماء وغوصه فيها الى الكعبين والانة بعض الصخور دون بعض وابقائه دون سائر آيات الانبياء عليهم السلام وحفظه مع كثرة الاعداء ألوف سنة آية مستقلة و يؤيده القراءة على التوحيد واما بما يفهم من قوله عز وجل ﴿ومن دخله كان آمنا﴾ فانه وان كان جملة مستأنفة ابتدائية أوشرطية لكنها فى قوة أن يقال وأمن من دخله فتكون بحسب المعنى والمآل معطوفة على مقام ابراهيم و لايخفى أن الاثنين نوع من الجمع فيكتفى بذلك أو يحمل على أنه ذكر من تلك الآيات اثنتان وطوى ذكر ماعداهما دلالة على كثرتها ومعنى أمن داخله أمنه من التعرض له كما فى قوله تعالى أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا و يتخطف الناس من حولهم وذلك بدعوة ابراهيم عليه السلام رب اجعل هذا البلد آمنا وكان الرجل لو جر كل جريرة ثم لجأ الى الحرم لم يطلب وعن عمر رضى الله عنه لوظفرت فيه بقاتل الخطاب مامسسته حتى يخرج منه ولذلك قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى من لزمه القتل فى الحل بقصاص أو ردة أو زنى فالتجأ الى الحرم لم يتعرض له الا أنه لايؤوى و لايطعم و لايسقى ولا يبايع حتى يضطر الى الخروج وقيل أمنه من النار وعن النبى صلى الله عليه وسلم من مات فى أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمنا وعنه عليه الصلاة والسلام الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما و ينثران فى الجنة وهما مقبرتا مكة والمدينة وعن ابن مسعود رضى الله عنه وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثنية الحجون وليس بها يومئذ مقبرة فقال يبعث الله تعالى من هذه البقعة ومن هذا الحرم كله سبعين ألفا وجوههم كالقمر ليلة البدر يدخلون الجنة بغير حساب يشفع كل واحد منهم فى سبعين ألفا وجوههم كالقمر ليلة البدر وعن النبى صلى الله عليه وسلم من صبر على حر مكة ساعة من نهار تباعدت عنه جهنم مسيرة مائتى عام ﴿ولله على الناس حج البيت﴾ جملة من مبتدا هو حج البيت وخبر هو الله وقوله تعالى على الناس متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار أو بمحذوف هو حال من الضمير المستكن فى الجار والعامل فيه ذلك الاستقرار و يجوز أن يكون على الناس هو الخبر ولله متعلق بما تعلق به الخبر و لاسبيل الى أن يتعلق بمحذوف هو حال من الضمير المستكن فى على الناس لاستلزامه تقديم الحال على العامل المعنوى وذلك مما لامساغ له عند الجهور وقد جوزه ابن مالك اذا كانت هى ظرفا أو حرف جر وعاملها كذلك بخلاف الظرف وحرف الجر فانهما يتقدمان على عاملهما المعنوى واللام فى البيت للعهد وحجه قصده للزيارة على الوجه المخصوص المعهود و كسر الحاء لغة نجد وقيل هو اسم للمصدر وقرىء بفتحها ﴿من استطاع اليه سبيلا﴾ فى محل الجر على أنه بدل من الناس بدل البعض من الكل مخصص لعمومه فالضمير العائد الى المبدل منه محذوف أى من استطاع منهم وقيل بدل الكل على أن المراد بالناس هو البعض المستطيع فلا حاجة الى الضمير وقيل فى محل الرفع على أنه خبر مبتدا مضمر أى هم من استطاع الخ وقيل فى حيز النصب بتقدير أعنى وقيل كلمة من شرطية والجزاء محذوف لدلالة المذكور عليه و كذا العائد الى الناس أى من استطاع منهم اليه سبيلا فلله عليه حج البيت وقد رجح هذا بكون مابعده شرطية والضمير المجرور فى اليه راجع الى البيت أو الى حج والجار متعلق بالسبيل قدم عليه اهتماما بشأنه كما فى قوله عز وجل فهل الى خروج من سبيل وهل الى مرد من سبيل لما فيه من معنى الافضاء والايصال كيف لا وهو عبارة عن الوسيلة من مال أو غيره فانه قد روى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال السبيل الزاد والراحلة و روى ابن عمر رضى الله عنهما أن رجلا قال يارسول الله ما السبيل قال الزاد

والراحلة وهو المراد بما روى أنه عليه السلام فسر الاستطاعة بالزاد والراحلة وهكذا روى عن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم وعليه أكثر العلماء خلا أن الشافعى أخذ بظاهره فأوجب الاستنابة على الزمن القادر على أجرة من ينوب عنه والظاهر أن عدم تعرضه عليه السلام لصحة البدن لظهور الأمر كيف لا والمفسر فى الحقيقة هو السبيل الموصل لنفس المستطيع الى البيت وذا لايتصور بدون الصحة وعن ابن الزبير أنه على قدر القوة ومذهب مالك أن الرجل اذا وثق بقوته لزمه وعنه ذلك على قدر الطاقة وقد يجد الزاد والراحلة من لايقدر على السفر وقد يقدر عليه من لاراحلة له و لازاد وعن الضحاك أنه اذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع ﴿ومن كفر﴾ وضع من كفر موضع من لم يحج تأكيدا لوجوبه وتشديدا على تاركه و لذلك قال عليه السلام من مات ولم يحج فليمت ان شاء يهوديا أو نصرانيا و روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه عليه السلام قال فى خطبته أيها الناس ان الله فرض الحج على من استطاع اليه سبيلا ومن لم يفعل فليمت على أى حال شاء يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيا ﴿فان الله غنى عن العالمين﴾ وعن عبادتهم وحيث كان من كفر من جملتهم داخلا فيها دخولا أوليا اكتفى بذلك عن الضمير الرابط بين الشرط والجزاء ولقد حازت الآية الكريمة من فنون الاعتبارات المعربة عن كمال الاعتناء بأمر الحج والتشديد على تاركه مالا مزيد عليه حيث أوثرت صيغة الخبر الدالة على التحقق وأبرزت فى صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستمرار على وجه يفيد أنه حق واجب لله سبحانه فى ذمم الناس لا انفكاك لهم عن أدائه والخروج عن عهدته وسلك بهم مسلك التعميم ثم التخصيص والابهام ثم التبيين والاجمال ثم التفصيل لما فى ذلك من مزيد تحقيق وتقرير وعبر عن تركه بالكفر الذى لاقبيح وراءه وجعل جزاؤه استغناءه تعالى المؤذن بشدة المقت وعظم السخط لاعن تاركه فقط فانه قد ضرب عنه صفحا اسقاطا له عن درجة الاعتبار واستهجانا بذكره بل عن جميع العالمين ممن فعل وترك ليدل على نهاية شدة الغضب. هذا وقال ابن عباس والحسن وعطاء رضى الله تعالى عنهم ومن كفر أى جحد فرض الحج و زعم أنه ليس بواجب وعن سعيد بن المسيب نزلت فى اليهود فانهم قالوا الحج الى مكة غير واجب و روى أنه لما نزل قوله تعالى ولله على الناس حج البيت جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الاديان كلهم فخطبهم فقال ان الله كتب عليكم الحج فحجوا فآمنت به ملة واحدة وهم المسلمون وكفرت به خمس ملل قالوا لانؤمن به و لا نصلى اليه و لا نحجه فنزل ومن كفر وعن النبى صلى الله عليه وسلم حجوا قبل أن لاتحجوا فانه قد هدم البيت مرتين ويرفع الى السماء فى الثالثة و روى حجوا قبل أن يمنع البر جانبه وعن ابن مسعود حجوا هذا البيت قبل أن ينبت فى البادية شجرة لاتأكل منها دابة الا نفقت وعن عمر رضى الله عنه لو ترك الناس الحج عاما واحدا مانوظروا ﴿قل ياأهل الكتاب﴾ هم اليهود والنصارى وانما خوطبوا بعنوان أهلية الكتاب الموجبة للايمان به و بما يصدقه من القرآن العظيم مبالغة فى تقبيح حالهم فى كفرهم بها وقوله عز وجل ﴿لم تكفرون بآيات الله﴾ توبيخ وانكار لأن يكون لكفرهم بها سبب من الاسباب وتحقيق لما يوجب الاجتناب عنه بالكلية والمراد بآياته تعالى مايعم الآيات القرآنية التى من جملتها ماتلى فى شأن الحج وغيره ومافى التوراة والانجيل من شواهد نبوته عليه السلام وقوله تعالى ﴿والله شهيد على ماتعملون﴾ حال من فاعل تكفرون مفيدة لتشديد التوبيخ وتأكيد الانكار واظهار الجلالة فى موقع الاضمار لتربية المهابة وتهويل الخطب وصيغة المبالغة فى شهيد للتشديد فى الوعيد و كلمة ما اما عبارة عن كفرهم أو هى على عمومها وهو داخل فيها دخولا أوليا والمعنى لاى سبب تكفرون بآياته عز وجل والحال أنه تعالى مبالغ فى الاطلاع على جميع أعمالكم وفى مجازاتكم عليها و لاريب فى أن ذلك يسد جميع أنحاء ماتأتونه و يقطع أسبابه بالكلية ﴿قل ياأهل الكتاب﴾ أمر بتوبيخهم بالاضلال اثر توبيخهم بالضلال والتكرير للمبالغة فى حمله عليه السلام

على تقريعهم وتوبيخهم وترك عطفه على الأمر السابق للايذان باستقلالهم كما أن قطع قوله تعالى ﴿لم تصدون﴾ عن قوله تعالى لم تكفرون للاشعار بأن كل واحد من كفرهم وصدهم شناعة على حيالها مستقلة فى استتباع اللائمة والتقريع وتكرير الخطاب بعنوان أهلية الكتاب لتأكيد الاستقلال وتشديد التشنيع فان ذلك العنوان كما يستدعى الايمان بما هو مصدق لما معهم يستدعى ترغيب الناس فيه فصدهم عنه فى أقصى مراتب القباحة ولكون صدهم فى بعض الصور بتحريف الكتاب والكفر بالآيات الدالة على نبوته عليه السلام وقرئ تصدون من أصده ﴿عن سبيل الله﴾ أى دينه الحق الموصل الى السعادة الابدية وهو التوحيد وملة الاسلام ﴿من آمن﴾ مفعول لتصدون قدم عليه الجار والمجرور للاهتمام به. كانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون لصدهم عنه ويمنعون من أراد الدخول فيه بجهدهم ويقولون ان صفته عليه السلام ليست فى كتابهم ولا تقدمت البشارة به عندهم وقيل أتت اليهود الاوس والخزرج فذكروهم ما كان بينهم فى الجاهلية من العداوات والحروب ليعودوا الى ما كانوا فيه ﴿تبغونها﴾ على اسقاط الجار وايصال الفعل الى الضمير كما فى قوله

فتولى غلامهم ثم نادى أظليما أصيدكم أم حمارا

بمعنى أصيد لكم أى تطلبون لسبيل الله التى هى أقوم السبل ﴿عوجا﴾ اعوجاجا بأن تلبسوا على الناس وتوهموا أن فيه ميلا عن الحق بنفى النسخ وتغيير صفة الرسول صلى الله عليه وسلم عن وجهها ونحو ذلك والجملة حال من فاعل تصدون وقيل من سبيل الله ﴿وأنتم شهداء﴾ حال من فاعل تصدون باعتبار تقييده بالحال الاولى أو من فاعل تبغونها أى والحال أنكم شهداء تشهدون بأنها سبيل الله لايحوم حولها شائبة اعوجاج وأن الصد عنها اضلال قال ابن عباس رضى الله عنهما أى شهداء أن فى التوراة أن دين الله الذى لا يقبل غيره هو الاسلام أو وأنتم عدول فيما بينكم يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم فى القضايا وعظائم الامور ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ اعتراض تذييلى فيه تهديد ووعيد شديد قيل لما كان صدهم للمؤمنين بطريق الخفية ختمت الآية الكريمة بما يحسم مادة حيلتهم من احاطة علمه تعالى بأعمالهم كما أن كفرهم بآيات الله تعالى لما كان بطريق العلانية ختمت الآية السابقة بشهادته تعالى على ما يعملون ﴿يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى المؤمنين تحذيرا لهم عن طاعة أهل الكتاب والافتتان بفتنتهم اثر توبيخهم بالاغواء والاضلال ردعا لهم عن ذلك وتعليق الرد بطاعة فريق منهم للمبالغة فى التحذير عن طاعتهم وايجاب الاجتناب عن مصاحبتهم بالكلية فانه فى قوة أن يقال لا تطيعوا فريقا الخ كما أن تعميم التوبيخ فيما قبله للمبالغة فى الزجر أو للمحافظة على سبب النزول فانه روى أن نفرا من الاوس والخزرج كانوا جلوسا يتحدثون فمر بهم شاس بن قيس اليهودى وكان عظيم الكفر شديد الحسد للمسلمين فغاظه ما رأى منهم من تألف القلوب واتحاد الكلمة واجتماع الرأى بعد ما كان بينهم ما كان من العداوة والشنآن فأمر شابا يهوديا كان معه بأن يجلس اليهم ويذكرهم يوم بعاث وكان ذلك يوما عظيما اقتتل فيه الحيان وكان الظفر فيه للاوس وينشدهم ما قيل فيه من الاشعار ففعل فتفاخر القوم وتغاضبوا حتى تواثبوا وقالوا السلاح السلاح فاجتمع من القبيلتين خلق عظيم فعند ذلك جاءهم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله تعالى بالاسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم فعلموا أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فألقوا السلاح واستغفروا وعانق بعضهم بعضا وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الامام الواحدى اصطفوا للقتال فنزلت الآية الى قوله تعالى لعلكم تهتدون فجاء النبى صلى الله عليه وسلم حتى قام بين الصفين فقرأهن ورفع صوته فلما سمعوا صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنصتوا له وجعلوا يستمعون له فلما فرغ ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا وجعلوا يبكون

وقوله تعالى كافرين اما مفعول ثان ليردوكم على تضمين الرد معنى التصيير كما فى قوله

رمى الحدثان نسوة آل سعد بمقدار سمدن له سمودا
فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا

أو حال من مفعوله والأول أدخل فى تنزيه المؤمنين عن نسبتهم الى الكفر لما فيه من التصريح بكون الكفر المفروض بطريق القسر وايراد الظرف مع عدم الحاجة اليه ضرورة سبق الخطاب بعنوان المؤمنين واستحالة تحقق الرد الى الكفر بدون سبق الايمان مع توسيطه بين المفعولين لاظهار كمال شناعة الكفر وغاية بعده من الوقوع اما لزيادة قبحه الصارف العاقل عن مباشرته أو لممانعة الايمان له كأنه قيل بعد ايمانكم الراسخ وفيه من تثبيت المؤمنين ما لا يخفى ﴿وكيف تكفرون﴾ استفهام انكارى بمعنى انكار الوقوع كما فى قوله تعالى كيف يكون للمشركين عهد الخ لا بمعنى انكار الواقع كما فى قوله تعالى كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا الخ وفى توجيه الانكار والاستبعاد الى كيفية الكفر من المبالغة ما ليس فى توجيهه الى نفسه بأن يقال أتكفرون لان كل موجود لابد أن يكون وجوده على حال من الأحوال فاذا أنكر ونفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده بالكلية على الطريق البرهانى وقوله تعالى ﴿وأنتم تتلى عليكم آيات الله﴾ جملة وقعت حالا من ضمير المخاطبين فى تكفرون مؤكدة للانكار والاستبعاد بما فيها من الشئون الداعية الى الثبات على الايمان الوازعة عن الكفر وقوله تعالى ﴿وفيكم رسوله﴾ معطوف عليها داخل فى حكمها فان تلاوة آيات الله تعالى عليهم وكون رسوله عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم بتحقيق الحق وازاحة الشبه من أقوى الزواجر عن الكفر وعدم اسناد التلاوة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم للايذان باستقلال كل منهما فى الباب ﴿ومن يعتصم بالله﴾ أى ومن يتمسك بدينه الحق الذى بينه بآياته على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام وهو الاسلام والتوحيد المعبر عنه فيما سبق بسبيل الله ﴿فقد هدى﴾ جواب للشرط وقد لافادة معنى التحقيق كأن الهدى قد حصل فهو يخبر عنه حاصلا ومعنى التوقع فيه ظاهر فان المعتصم به تعالى متوقع للهدى كما أن قاصد الكريم متوقع للندى ﴿الى صراط مستقيم﴾ موصل الى المطلوب والتنوين للتفخيم والوصف بالاستقامة للتصريح بالرد على الذين يبغون له عوجا وهذا وان كان هو دينه الحق فى الحقيقة والاهتداء اليه هو الاعتصام به بعينه لكن لما اختلف الاعتباران وكان العنوان الاخير مما يتنافس فيه المتنافسون أبرز فى معرض الجواب للحث والترغيب على طريقة قوله تعالى فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ تكرير الخطاب بعنوان الايمان تشريف اثر تشريف ﴿اتقوا الله﴾ الاتقاء افتعال من الوقاية وهى فرط الصيانة ﴿حق تقاته﴾ أى حق تقواه وما يجب منها وهو استفراغ الوسع فى القيام بالمواجب والاجتناب عن المحارم كما فى قوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم وعن ابن مسعود رضى الله عنه هو أن يطاع ولا يعصى ويذكر ولا ينسى ويشكر ولا يكفر وقد روى مرفوعا اليه عليه السلام وقيل هو أن لا تأخذه فى الله لومة لائم ويقوم بالقسط ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه وقيل هو أن ينزه الطاعة عن الالتفات اليها وعن توقع المجازاة وقد مر تحقيق الحق فى ذلك عند قوله عز وجل هدى للمتقين والتقاة من اتقى كالتؤدة من اتأد وأصلها وقية قلبت واوها المضمومة تاء كما فى تهمة وتخمة وياؤها المفتوحة ألفا ﴿ولا تموتن الا وأنتم مسلمون﴾ أى مخلصون نفوسكم لله تعالى لا تجعلون فيها شركة لما سواه أصلا كما فى قوله تعالى ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لا تموتن على حال من الاحوال الا حال تحقق اسلامكم وثباتكم عليه كما ينبئ عنه الجملة الاسمية ولو قيل الا مسلمين لم يفد فائدتها والعامل فى الحال ما قبل الا بعد النقض وظاهر النظم الكريم وان

كان نهيا عن الموت المقيد بقيد هو الكون على أى حال غير حال الاسلام لكن المقصود هو النهى عن ذلك القيد عند الموت المستلزم للامر بضده الذى هو الكون على حال الاسلام حينئذ وحيث كان الخطاب للمؤمنين كان المراد ايجاب الثبات على الاسلام الى الموت وتوجيه النهى الى الموت للمبالغة فى النهى عن قيده المذكور فان النهى عن المقيد فى أمثاله نهى عن القيد و رفع له من أصله بالكلية مفيد لما لا يفيده النهى عن نفس القيد فان قولك لاتصل الا وأنت خاشع يفيد من المبالغة فى ايجاب الخشوع فى الصلاة مالايفيده قولك لاتترك الخشوع فى الصلاة لما أن هذا نهى عن ترك الخشوع فقط وذاك نهى عنه وعما يقارنه ومفيد لكون الخشوع هو العمدة فى الصلاة وأن الصلاة بدونه حقها أن لاتفعل وفيه نوع تحذير عما وراء الموت وقوله عز وجل ﴿واعتصموا بحبل الله﴾ أى بدين الاسلام أو بكتابه لقوله عليه الصلاة والسلام القرآن حبل الله المتين لاتنقضى عجائبه ولايخلق من كثرة الرد من قال به صدق ومن عمل به رشد ومن اعتصم به هدى الى صراط مستقيم اما تمثيل للحالة الحاصلة من استظهارهم به و وثوقهم بحمايته بالحالة الحاصلة من تمسك المتدلى من مكان رفيع بحبل وثيق مأمون الانقطاع من غير اعتبار مجاز فى المفردات واما استعارة للحبل لما ذكر من الدين أوالكتاب والاعتصام ترشيح لها أو مستعار للوثوق به والاعتماد عليه ﴿جميعا﴾ حال من فاعل اعتصموا أى مجتمعين فى الاعتصام ﴿ولاتفرقوا﴾ أى لاتتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب أوكما كنتم متفرقين فى الجاهلية يحارب بعضكم بعضا أو لاتحدثوا ما يوجب التفرق و يزيل الالفة التى أنتم عليها ﴿واذكروا نعمة الله﴾ مصدر مضاف الى الفاعل وقوله تعالى ﴿عليكم﴾ متعلق به أو بمحذوف وقع حالا منه وقوله تعالى ﴿اذ كنتم﴾ ظرف له أو للاستقرار فى عليكم أى اذكروا انعامه عليكم أو اذكروا انعامه مستقرا عليكم وقت كونكم ﴿أعداء﴾ فى الجاهلية بينكم الاحن والعداوات والحروب المتواصلة وقيل هم الاوس والخزرج كانا أخوين لأب وأم فوقعت بين أولادهما العداوة والبغضاء وتطاولت الحروب فيما بينهم مائة وعشرين سنة ﴿فألف بين قلوبكم﴾ بتوفيقكم للاسلام ﴿فأصبحتم﴾ أى فصرتم ﴿بنعمته﴾ التى هى ذلك التأليف ﴿اخوانا﴾ خبر أصبحتم أى اخوانا متحابين مجتمعين على الاخوة فى الله متراحمين متناصحين متفقين على كلمة الحق وقيل معنى فأصبحتم فدخلتم فى الصباح فالباء حينئذ متعلقة بمحذوف وقع حالا من الفاعل و كذا اخوانا أى فأصبحتم ملتبسين حال كونكم اخوانا ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار﴾ شفا الحفرة وشفتها حرفها أى كنتم مشرفين على الوقوع فى نار جهنم لكفركم اذ لو أدرككم الموت على تلك الحالة لوقعتم فيها ﴿فأنقذكم﴾ بأن هداكم للاسلام ﴿منها﴾ الضمير للحفرة أو للنار أو للشفا والتأنيث للمضاف اليه كما فى قوله كما شرقت صدر القناة من الدم أو لانه بمعنى الشفة فان شفا البئر وشفتها جانبها كالجانب والجانبة وأصله شفو قلبت الواو ألفا فى المذكر وحذفت فى المؤنث ﴿كذلك﴾ اشارة الى مصدر الفعل الذى بعده وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجة المشار اليه و بعد منزلته فى الفضل و كمال تميزه به عما عداه وانتظامه بسببه فى سلك الامور المشاهدة والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة ومحلها النصب على أنها صفة لمصدر محذوف أى مثل ذلك التبيين الواضح ﴿يبين الله لكم آياته﴾ أى دلائله ﴿لعلكم تهتدون﴾ طلبا لثباتكم على الهدى وازديادكم فيه ﴿ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير﴾ أمرهم الله سبحانه بتكميل الغير وارشاده اثر أمرهم بتكميل النفس وتهذيبها بما قبله من الاوامر والنواهى تثبيتا للكل على مراعاة ما فيها من الاحكام بأن يقوم بعضهم بمواجبها و يحافظ على حقوقها وحدودها و يذكرها الناس كافة و يردعهم عن الاخلال بها والجمهور على اسكان لام الامر وقرىء بكسرها على الاصل وهو من كان التامة ومن تبعيضية متعلقة بالامر أو بمحذوف وقع حالا من الفاعل

وهو أمة و يدعون صفتها أى لتوجد منكم أمة داعية الى الخير والامة هى الجماعة التى يؤمها فرق الناس أى يقصدونها و يقتدون بها أو من الناقصة وأمة اسمها و يدعون خبرها أى لتكن منكم أمة داعين الى الخير وأياما كان فتوجيه الخطاب الى الكل مع اسناد الدعوة الى البعض لتحقيق معنى فرضيتها على الكفاية وأنها واجبة على الكل لكن بحيث ان أقامها البعض سقطت عن الباقين و لو أخل بها الكل أثموا جميعا لا بحيث يتحتم على الكل اقامتها على ما ينبىء عنه قوله عز وجل وما كان المؤمنون لينفروا كافة الآية و لانها من عظائم الامور وعزائمها التى لا يتولاها الا العلماء بأحكامه تعالى ومراتب الاحتساب و كيفية اقامتها فان من لا يعلمها يوشك أن يأمر بمنكر و ينهى عن معروف و يغلظ فى مقام اللين و يلين فى مقام الغلظة و ينكر على من لا يزيده الانكار الا التمادى والاصرار وقيل من بيانية كما فى قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم الآية والامر من كان الناقصة والمعنى كونوا أمة يدعون الآية كقوله تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس الآية و لا يقتضى ذلك كون الدعوة فرض عين فان الجهاد من فروض الكفاية مع ثبوته بالخطابات العامة والدعاء الى الخير عبارة عن الدعاء الى ما فيه صلاح دينى أو دنيوى فعطف الامر بالمعروف والنهى عن المنكر عليه بقوله تعالى ﴿و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر﴾ مع اندراجهما فيه من باب عطف الخاص على العام لاظهار فضلهما وانافتهما على سائر الخيرات كعطف جبريل وميكال على الملائكة عليهم السلام وحذف المفعول الصريح من الافعال الثلاثة اما للايذان بظهوره أى يدعون الناس و يأمرونهم و ينهونهم واما للقصد الى ايجاد نفس الفعل كما فى قولك فلان يعطى و يمنع أى يفعلون الدعاء الى الخير والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿وأولئك﴾ اشارة الى الامة المذكورة باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الفاضلة وكمال تميزهم بذلك عمن عداهم وانتظامهم بسببه فى سلك الأمور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للاشعار بعلو طبقتهم و بعد منزلتهم فى الفضل والافراد فى كاف الخطاب اما لأن المخاطب كل من يصلح للخطاب واما لأن التعيين غير مقصود أى أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكاملة ﴿هم المفلحون﴾ أى هم الاخصاء بكمال الفلاح وهم ضمير فصل يفصل بين الخبر والصفة و يؤكد النسبة و يفيد اختصاص المسند بالمسند اليه أو مبتدأ خبره المفلحون والجملة خبر لأولئك وتعريف المفلحون اما للعهد أو للاشارة الى ما يعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن خير الناس فقال آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم للرحم وعنه عليه السلام من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله فى أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه وعنه عليه السلام والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم وعن على رضى الله عنه أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومن شنأ الفاسقين وغضب لله غضب الله له والامر بالمعروف فى الوجوب والندب تابع للمأمور به وأما النهى عن المنكر فواجب كله فانّ جميع ما أنكره الشرع حرام والعاصى يجب عليه النهى عما ارتكبه اذ يجب عليه تركه وانكاره فلا يسقط بترك أحدهما وجوب شىء منهما والتوبيخ فى قوله تعالى أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم انما هو على نسيان أنفسهم لا على أمرهم بالبر وعن السلف مروا بالخير وان لم تفعلوا ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا﴾ هم أهل الكتابين حيث تفرقت اليهود فرقا والنصارى فرقا ﴿واختلفوا﴾ باستخراج التأويلات الزائغة و كتم الآيات الناطقة وتحريفها بما أخلدوا اليه من حطام الدنيا الدنيئة ﴿من بعد ماجاءهم البينات﴾ أى الآيات الواضحة المبينة للحق الموجبة للاتفاق عليه واتحاد الكلمة فالنهى متوجه الى المتصدين للدعوة اصالة والى أعقابهم تبعا و يجوز تعميم الموصول للمختلفين من الأمم السالفة المشار اليهم بقوله عز وجل وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات وقيل هم

المبتدعة من هذه الأمة وقيل هم الحرورية وعلى كل تقدير فالمنهى عنه انما هو الاختلاف فى الأصول دون الفروع الا أن يكون مخالفا للنصوص البينة أو الاجماع لقوله عليه الصلاة والسلام اختلاف أمتى رحمة وقوله عليه السلام من اجتهد فأصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد ﴿وأولئك﴾ اشارة الى المذكورين باعتبار اتصافهم بما فى حيز الصلة وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿لهم﴾ خبره وقوله تعالى ﴿عذاب عظيم﴾ مرتفع بالظرف على الفاعلية لاعتماده على المبتدأ أو مبتدأ والظرف خبره والجملة خبر للمبتدا الاول وفيه من التأكيد والمبالغة فى وعيد المتفرقين والتشديد فى تهديد المشبهين بهم ما لا يخفى ﴿يوم تبيض وجوه﴾ أى وجوه كثيرة وقرئ تبياض ﴿وتسود وجوه﴾ كثيرة وقرئ تسواد وعن عطاء تبيض وجوه المهاجرين والأنصار وتسود وجوه بنى قريظة والنضير ويوم منصوب على أنه ظرف للاستقرار فى لهم أى لثبوت العذاب العظيم لهم أو على أنه مفعول لمضمر خوطب به المؤمنون تحذيرا لهم عن عاقبة التفرق بعد مجىء البينات وترغيبا فى الاتفاق على التمسك بالدين أى اذكروا يوم تبيض الخ وبياض الوجه وسواده كنايتان عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف فيه وقيل يوسم أهل الحق ببياض الوجه والصحيفة واشراق البشرة وسعى النور بين يديه وبيمينه وأهل الباطل بأضداد ذلك ﴿فأما الذين اسودت وجوههم﴾ تفصيل لاحوال الفريقين بعد الاشارة اليها اجمالا وتقديم بيان هؤلاء لما أن المقام مقام التحذير عن التشبه بهم مع ما فيه من الجمع بين الاجمال والتفصيل والافضاء الى ختم الكلام بحسن حال المؤمنين كما بدئ بذلك عند الاجمال ﴿أكفرتم بعد ايمانكم﴾ على ارادة القول أى فيقال لهم ذلك والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم والظاهر أنهم أهل الكتابين وكفرهم بعد ايمانهم كفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ايمان أسلافهم أو ايمان أنفسهم به قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام أو جميع الكفرة حيث كفروا بعد ما أقروا بالتوحيد يوم الميثاق أو بعد ما تمكنوا من الايمان بالنظر الصحيح والدلائل الواضحة والآيات البينة وقيل المرتدون وقيل أهل البدع والاهواء والفاء فى قوله عز وعلا ﴿فذوقوا العذاب﴾ أى العذاب المعهود الموصوف بالعظم للدلالة على أن الامر بذوق العذاب على طريق الاهانة مترتب على كفرهم المذكور كما أن قوله تعالى ﴿بما كنتم تكفرون﴾ صريح فى أن نفس الذوق معلل بذلك والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرار كفرهم أو على مضيه فى الدنيا ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله﴾ أعنى الجنة والنعيم المخلد عبر عنها بالرحمة تنبيها على أن المؤمن وان استغرق عمره فى طاعة الله تعالى فانه لا يدخل الجنة الا برحمته تعالى وقرئ ابياضت كما قرئ اسوادت ﴿هم فيها خالدون﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من السياق كأنه قيل كيف يكونون فيها فقيل هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ولا يموتون وتقديم الظرف للمحافظة على رؤس الآى ﴿تلك﴾ اشارة الى الآيات المشتملة على تنعيم الابرار وتعذيب الكفار ومعنى البعد للايذان بعلو شأنها وسمو مكانها فى الشرف وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿آيات الله﴾ خبره وقوله تعالى ﴿نتلوها﴾ جملة حالية من الآيات والعامل فيها معنى الاشارة أو هى الخبر وآيات الله بدل من اسم الاشارة والالتفات الى التكلم بنون العظمة مع كون التلاوة على لسان جبريل عليه السلام لابراز كمال العناية بالتلاوة وقرئ يتلوها على اسناد الفعل الى ضميره تعالى وقوله تعالى ﴿عليك﴾ متعلق بنتلوها وقوله تعالى ﴿بالحق﴾ حال مؤكدة من فاعل نتلوها أو من مفعوله أى ملتبسين أو ملتبسة بالحق والعدل ليس فى حكمها شائبة جور بنقص ثواب المحسن أو بزيادة عقاب المسىء أو بالعقاب من غير جرم بل كل ذلك موفى لهم حسب استحقاقهم بأعمالهم بموجب الوعد والوعيد وقوله تعالى ﴿وما الله يريد ظلما للعالمين﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله على أبلغ وجه وآكده فان تنكير الظلم وتوجيه النفى الى ارادته بصيغة المضارع دون نفسه وتعليق الحكم بآحاد الجمع

المعرف والالتفات الى الاسم الجليل اشعارا بعلة الحكم بيان لكمال نزاهته عز وجل عن الظلم بما لا مزيد عليه أى ما يريد فردا من أفراد الظلم لفرد من أفراد العالمين فى وقت من الاوقات فضلا عن أن يظلمهم فان المضارع كما يفيد الاستمرار فى الاثبات يفيده فى النفى بحسب المقام كما أن الجملة الاسمية تدل بمعونة المقام على دوام الثبوت وعند دخول حرف النفى تدل على دوام الانتفاء لا على انتفاء الدوام وفى سبك الجملة نوع ايماء الى التعريض بأن الكفرة هم الظالمون ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد كما فى قوله تعالى ان الله لا يظلم الناس شيأ ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض﴾ أى له تعالى وحده من غير شركة أصلا ما فيهما من المخلوقات الفائتة للحصر ملكا وخلقا احياء واماتة واثابة وتعذيبا وايراد كلمة ما اما لتغليب غير العقلاء على العقلاء واما لتنزيلهم منزلة غيرهم اظهارا لحقارتهم فى مقام بيان عظمته تعالى ﴿والى الله﴾ أى الى حكمه وقضائه لا الى غيره شركة أو استقلالا ﴿ترجع الأمور﴾ أى أمورهم فيجازى كلا منهم بما وعد له وأوعده من غير دخل فى ذلك لأحد قط فالجملة مقررة لمضمون ما ورد فى جزاء الفريقين وقيل هى معطوفة على ما قبلها مقررة لمضمونه فان كون العالمين عبيده تعالى ومخلوقه ومرزوقه يستدعى ارادة الخير بهم ﴿كنتم خير أمة﴾ كلام مستأنف سيق لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الاتفاق على الحق والدعوة الى الخير وكنتم من كان الناقصة التى تدل على تحقق شىء بصفة فى الزمان الماضى من غير دلالة على عدم سابق أو لاحق كما فى قوله تعالى وكان الله غفورا رحيما وقيل كنتم كذلك فى علم الله تعالى أو فى اللوح أو فيما بين الأمم السالفة وقيل معناه أنتم خير أمة ﴿أخرجت للناس﴾ صفة لأمة واللام متعلقة بأخرجت أى أظهرت لهم وقيل بخير أمة أى كنتم خير الناس للناس فهو صريح فى أن الخيرية بمعنى النفع للناس وان فهم ذلك من الاخراج لهم أيضا أى أخرجت لأجلهم ومصلحتهم قال أبو هريرة رضى الله عنه معناه كنتم خير الناس للناس تأتون بهم فى السلاسل فتدخلونهم فى الاسلام وقال قتادة هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم يؤمر نبى قبله بالقتال فهم يقاتلون الكفار فيدخلونهم فى الاسلام فهم خير أمة للناس ﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ استئناف مبين لكونهم خير أمة كما يقال زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بمصالحهم أو خبر ثان لكنتم وصيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار وخطاب المشافهة وان كان خاصا بمن شاهد الوحى من المؤمنين لكن حكمه عام للكل قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقال الزجاج أصل هذا الخطاب لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعم سائر أمته وروى الترمذى عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى قوله تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى وظاهر أن المراد بكل أمة أوائلهم وأواخرهم لا أوائلهم فقط فلا بد أن تكون أعقاب هذه الأمة أيضا داخلة فى الحكم وكذا الحال فيما روى أن مالك بن الصيف ووهب بن يهوذا اليهوديين مرا بنفر من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فيهم ابن مسعود وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى حذيفة رضوان الله عليهم فقالا لهم نحن أفضل منكم وديننا خير مما تدعوننا اليه . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما كنتم خير أمة الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة . وروى عن الضحاك أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة الرواة والدعاة الذين أمر الله المسلمين بطاعتهم ﴿وتؤمنون بالله﴾ أى ايمانا متعلقا بكل ما يجب أن يؤمن به من رسول وكتاب وحساب وجزاء وانما لم يصرح به تفصيلا لظهور أنه الذى يؤمن به المؤمنون وللايذان بأنه هو الايمان بالله تعالى حقيقة وأن ما خلا عن شىء من ذلك كايمان أهل الكتاب ليس من الايمان به تعالى فى شىء قال تعالى ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا وانما أخر ذلك عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع تقدمه عليهما وجودا ورتبة لأن دلالتهما

على خير يتهم للناس أظهر من دلالته عليها وليقترن به قوله تعالى ﴿ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم﴾ أى لو آمنوا
كايمانكم لكان ذلك خيرا لهم مما هم عليه من الرياسة واستتباع العوام ولازدادت رياستهم وتمتعهم بالحظوظ الدنيوية
مع الفوز بما وعدوه على الايمان من ايتاء الأجر مرتين وقيل مما هم فيه من الكفر فالخيرية انما هى باعتبار زعمهم
وفيه ضرب تهكم بهم وانما لم يتعرض للمؤمن به أصلا للاشعار بظهور أنه الذى يطلق عليه اسم الايمان لايذهب الوهم
الى غيره ولو فصل المؤمن به ههنا أو فيما قبل لربما فهم أن لأهل الكتاب أيضا ايمانا فى الجملة لكن ايمان المؤمنين
خير منه وهيهات ذلك ﴿منهم المؤمنون﴾ جملة مستأنفة سيقت جوابا عما نشأ من الشرطية الدالة على انتفاء
الخيرية لانتفاء الايمان عنهم كأنه قيل هل منهم من آمن أو كلهم على الكفر فقيل منهم المؤمنون المعهودون الفائزون
بخير الدارين كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وأكثرهم الفاسقون﴾ المتمردون فى الكفر الخارجون عن الحدود
﴿لن يضروكم الا أذى﴾ استثناء مفرغ من المصدر العام أى لن يضروكم أبدا ضررا ما الا ضررا أذى لايبالى به من طعن
وتهديد لاأثر له ﴿وان يقاتلوكم يولوكم الأدبار﴾ أى ينهزمون من غير أن ينالوا منكم شيأ من قتل أو أسر ﴿ثم
لاينصرون﴾ عطف على الشرطية وثم للتراخى فى الرتبة أى لاينصرون من جهة أحد ولا يمنعون منكم قتلا
وأخذا وفيه تثبيت لمن آمن منهم فانهم كانوا يؤذونهم بالتلهى بهم وتوبيخهم وتضليلهم وتهديدهم وبشارة لهم بأنهم لايقدرون
على أن يتجاوزوا الأذى بالقول الى ضرر يعبأ به مع أنه وعدهم الغلبة عليهم والانتقام منهم وأن عاقبة أمرهم الخذلان والذل وانما
لم يعطف نفى منصوريتهم على الجزاء لأن المقصود هو الوعد بنفى النصر مطلقا ولو عطف عليه لكان مقيدا بمقاتلتهم
كتولية الأدبار وكم بين الوعدين كأنه قيل ثم شأنهم الذى أخبركم عنه وأبشركم به أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة
لاينهضون بعد ذلك بجناح ولا يقومون على ساق ولا يستقيم لهم أمر وكان كذلك حيث لقى بنو قريظة والنضير وبنو
قينقاع ويهود خيبر مالقوا ﴿ضربت عليهم الذلة﴾ أى هدر النفس والمال والأهل أو ذل التمسك بالباطل ﴿أينما ثقفوا﴾
أى وجدوا ﴿الا بحبل من الله وحبل من الناس﴾ استثناء من أعم الأحوال أى ضربت عليهم الذلة ضرب القبة على من
هى عليه فى جميع الأحوال الا حال كونهم معتصمين بذمة الله أو كتابه الذى أتاهم وذمة المسلمين أو بذمة الاسلام
واتباع سبيل المؤمنين ﴿وباؤا بغضب من الله﴾ أى رجعوا مستوجبين له والتنكير للتفخيم والتهويل ومن متعلقة
بمحذوف وقع صفة لغضب مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة والهول أى كائن من الله عز وجل ﴿وضربت عليهم
المسكنة﴾ فهى محيطة بهم من جميع جوانبهم واليهود كذلك فى غالب الحال مساكين تحت أيدى المسلمين والنصارى
﴿ذلك﴾ اشارة الى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة عليهم والبوء بالغضب العظيم ﴿بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله﴾
أى ذلك الذى ذكر كائن بسبب كفرهم المستمر بآيات الله الناطقة بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام وتحريفهم لها وبسائر
الآيات القرآنية ﴿ويقتلون الانبياء بغير حق﴾ أى فى اعتقادهم أيضا واسناد القتل اليهم مع أنه فعل أسلافهم لرضاهم
به كما أن التحريف مع كونه من أفعال أحبارهم ينسب الى كل من يسير بسيرتهم ﴿ذلك﴾ اشارة الى ما ذكر من الكفر
والقتل ﴿بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أى كائن بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله تعالى على الاستمرار فان
الاصرار على الصغائر يفضى الى مباشرة الكبائر والاستمرار عليها يؤدى الى الكفر وقيل معناه أن ضرب الذلة
والمسكنة فى الدنيا واستيجاب الغضب فى الآخرة كما هو معلل بكفرهم وقتلهم فهو مسبب عن عصيانهم واعتدائهم من
حيث أنهم مخاطبون بالفروع من حيث المؤاخذة ﴿ليسوا سواء﴾ جملة مستأنفة سيقت تمهيدا لتعداد محاسن مؤمنى
أهل الكتاب وتذكيرا لقوله تعالى منهم المؤمنون والضمير فى ليسوا لأهل الكتاب جميعا لا للفاسقين منهم خاصة

وهو اسم ليس وخبره سواء وانما أفرد لأنه فى الأصل مصدر والمراد بنفى المساواة نفى المشاركة فى أصل الاتصاف بالقبائح
المذكورة لانفى المساواة فى مراتب الاتصاف بها مع تحقق المشاركة فى أصل الاتصاف بها أى ليس جميع أهل الكتاب
متشاركين فى الاتصاف بما ذكر من القبائح والابتلاء بما يترتب عليها من العقوبات وقوله تعالى ﴿من أهل الكتاب
أمة قائمة﴾ استئناف مبين لكيفية عدم تساويهم ومزيل لما فيه من الابهام كما أن ماسبق من قوله تعالى تأمرون
بالمعروف الآية مبين لقوله تعالى كنتم خير أمة الخ ووضع أهل الكتاب موضع الضمير العائد اليهم لتحقيق ما به الاشتراك
بين الفريقين والايذان بأن تلك الأمة ممن أوتى نصيبا وافرا من الكتاب لامن أرذالهم والقائمة المستقيمة العادلة من
أقمت العود فقام بمعنى استقام وهم الذين أسلموا منهم كعبد الله بن سلام وثعلبة بن سعيد وأسيد بن عبيد وأضرابهم وقيل
هم أربعون رجلا من أهل نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثلاثة من الروم كانوا على دين عيسى وصدقوا محمدا عليهما
الصلاة والسلام وكان من الانصار فيهم عدة قبل قدوم النبى عليه السلام منهم أسعد بن زرارة والبراء بن معرور ومحمد
ابن مسلمة وأبو قيس صرمة بن أنس كانوا موحدين يغتسلون من الجنابة ويقومون بما يعرفون من شرائع الحنيفية حتى
بعث الله النبى صلى الله عليه وسلم فصدقوه ونصروه وقوله تعالى ﴿يتلون آيات الله﴾ فى محل الرفع على أنه صفة أخرى لأمة
وقيل فى محل النصب على أنه حال منها لتخصصها بالنعت والعامل فيه الاستقرار الذى يتضمنه الجار أو من ضميرها فى
قائمة أو من المستكن فى الجار لوقوعه خبرا لأمة والمراد بآيات الله القرآن وقوله تعالى ﴿آناء الليل﴾ ظرف ليتلون
أى فى ساعاته جمع أنى بزنة عصا أو انى بزنة معى أو أنى بزنة ظبى أو أنى بزنة نحى أو أنو بزنة جرو ﴿وهم يسجدون﴾
أى يصلون اذ لاتلاوة فى السجود قال عليه الصلاة والسلام ألا انى نهيت أن أقرأ راكعا وساجدا وتخصيص السجود
بالذكر من بين سائر أركان الصلاة لكونه أدل على كمال الخضوع والتصريح بتلاوتهم آيات الله فى الصلاة مع أنها مشتملة
عليها قطعا لزيادة تحقيق المخالفة وتوضيح عدم المساواة بينهم وبين الذين وصفوا آنفا بالكفر بها وهو السر فى تقديم
هذا النعت على نعت الايمان والمراد بصلاتهم التهجد اذ هو أدخل فى مدحهم وفيه يتسنى لهم التلاوة فانها فى المكتوبة
وظيفة الامام واعتبار حالهم عند الصلاة على الانفراد يأباه مقام المدح وهو الأنسب بالعدول عن ايرادها باسم الجنس
المتبادر منه الصلاة المكتوبة وبالتعبير عن وقتها بالآناء المبهمة وقيل صلاة العشاء لان أهل الكتاب لايصلونها لما روى
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرها ليلة ثم خرج فاذا الناس ينتظرون الصلاة فقال أما أنه ليس من أهل الأديان
أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم وقرأ هذه الآية وايراد الجملة اسمية للدلالة على الاستمرار وتكرير الاسناد لتقوية
الحكم وتأكيده وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والجملة حال من فاعل يتلون وقيل هى مستأنفة والمعنى أنهم يقومون تارة
ويسجدون أخرى يبتغون الفضل والرحمة بأنواع ما يكون فى الصلاة من الخضوع لله عز وجل كما فى قوله تعالى والذين يبيتون
لربهم سجدا وقياما وقيل المراد بالسجود هو الخضوع كما فى قوله تعالى ولله يسجد مافى السموات والأرض ﴿يؤمنون بالله
واليوم الآخر﴾ صفة أخرى لأمة مبينة لمباينتهم اليهود من جهة أخرى أى يؤمنون بهما على الوجه الذى نطق به الشرع
والاطلاق للايذان بالغنى عن التقييد لظهور أنه الذى يطلق عليه الايمان بهما لايذهب الوهم الى غيره وللتعريض بأن ايمان اليهود
بهما مع قولهم عزير ابن الله وكفرهم ببعض الكتب والرسل ووصفهم اليوم الآخر بخلاف صفته ليس من الايمان بهما فى شىء
أصلا ولو قيد بما ذكر لربما توهم أن المنفى عنهم هو القيد المذكور مع جواز اطلاق الايمان على ايمانهم بالأصل وهيهات ﴿ويأمرون
بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ صفتان أخريان لأمة أجريتا عليهم تحقيقا لمخالفتهم اليهود فى الفضائل المتعلقة بتكميل
الغير اثر بيان مباينتهم لهم فى الخصائص المتعلقة بتكميل النفس وتعريضا بمداهنتهم فى الاحتساب بل بتعكيسهم فى الأمر

باضلال الناس وصدهم عن سبيل الله فانه أمر بالمنكر ونهى عن المعروف ﴿ويسارعون فى الخيرات﴾ صفة أخرى لأمة جامعة لفنون المحاسن المتعلقة بالنفس وبالغير والمسارعة فى الخير فرط الرغبة فيه لأن من رغب فى الأمر سارع فى توليه والقيام به وآثر الفور على التراخى أى يبادرون مع كمال الرغبة فى فعل أصناف الخيرات اللازمة والمتعدية وفيه تعريض بتباطؤ اليهود فيها بل بمبادرتهم الى الشرور وايثار كلمة فى على ماوقع فى قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة الخ للايذان بأنهم مستقرون فى أصل الخير متقلبون فى فنونه المترتبة فى طبقات الفضل لا أنهم خارجون عنها منتهون اليها ﴿وأولئك﴾ اشارة الى الأمة باعتبار اتصافهم بما فصل من النعوت الجليلة ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وسمو طبقتهم فى الفضل وايثاره على الضمير للاشعار بعلة الحكم والمدح أى أولئك المنعوتون بتلك الصفات الفاضلة بسبب اتصافهم بها ﴿من الصالحين﴾ أى من جملة من صلحت أحوالهم عند الله عز وجل واستحقوا رضاه وثناءه ﴿وما يفعلوا من خير﴾ كائنا ما كان مما ذكر أو لم يذكر ﴿فلن يكفروه﴾ أى لن يعدموا ثوابه البتة عبر عنه بذلك كما عبر عن توفية الثواب بالشكر اظهاراً لكمال تنزهه سبحانه وتعالى عن ترك اثابتهم بتصويره بصورة مايستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وتعديته الى مفعولين بتضمين معنى الحرمان وايثار صيغة البناء للمفعول للجرى على سنن الكبرياء وقرىء الفعلان على صيغة الخطاب ﴿والله عليم بالمتقين﴾ تذييل مقرر لمضمون ماقبله فان علمه تعالى بأحوالهم يستدعى توفية أجورهم لامحالة والمراد بالمتقين اما الأمة المعهودة وضع موضع الضمير العائد اليهم مدحا لهم وتعيينا لعنوان تعلق العلم بهم واشعاراً بمناط اثابتهم وهو التقوى المنطوى على الخصائص السالفة واما جنس المتقين عموما وهم مندرجون تحت حكمه اندارجا أوليا ﴿ان الذين كفروا﴾ أى بما يجب أن يؤمن به. قال ابن عباس رضى الله عنهما هم بنو قريظة والنضير فان معاندتهم كانت لأجل المال وقيل هم مشركو قريش فان أباجهل كان كثير الافتخار بماله وقيل أبوسفيان وأصحابه فانه أنفق مالا كثيرا على الكفار يوم بدر وأحد وقيل هم الكفار كافة فانهم فاخروا بالاموال والاولاد حيث قالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً ومانحن بمعذبين فرد الله عز وجل عليهم وقال ﴿لن تغنى عنهم﴾ أى لن تدفع عنهم ﴿أموالهم ولا أولادهم من الله﴾ أى من عذابه تعالى ﴿شيئاً﴾ أى شيئاً يسيرا منه أو شيئاً من الاغناء ﴿وأولئك أصحاب النار﴾ أى مصاحبوها على الدوام وملازموها ﴿هم فيها خالدون﴾ أبدا ﴿مثل ماينفقون فى هذه الحيوة الدنيا﴾ بيان لكيفية عدم اغناء أموالهم التى كانوا يعولون عليها فى جلب المنافع ودفع المضار ويعلقون بها أطماعهم الفارغة وما موصولة اسمية حذف عائدها أى حال ماينفقه الكفرة قربة أو مفاخرة وسمعة أو المنافقون رياء وخوفا وقصته العجيبة التى تجرى مجرى المثل فى الغرابة ﴿كمثل ريح فيها صر﴾ أى برد شديد فانه فى الأصل مصدر وان شاع اطلاقه على الريح الباردة كالصرصر وقيل كلمة فى تجريدية كما فى قوله تعالى لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴿أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم﴾ بالكفر والمعاصى فباؤا بغضب من الله وانما وصفوا بذلك لأن الاهلاك عن سخط أشد وأفظع ﴿فأهلكته﴾ عقوبة لهم ولم تدع منه أثرا ولا عثيرا والمراد تشبيه ماأنفقوا فى ضياعه وذهابه بالكلية من غير أن يعود اليهم نفع مابحرث كفار ضربته صر فاستأصلته ولم يبق لهم فيه منفعة ما بوجه من الوجوه وهو من التشبيه المركب الذى مر تفصيله فى تفسير قوله تعالى كمثل الذى استوقد نارا ولذلك لم يبال بايلاء كلمة التشبيه الريح دون الحرث ويجوز أن يراد مثل اهلاك ماينفقون كمثل اهلاك ريح أو مثل ماينفقون كمثل مهلك ريح وهو الحرث وقرىء تنفقون ﴿وما ظلمهم الله﴾ بما بين من ضياع ماأنفقوا من الأموال ﴿ولكن أنفسهم يظلمون﴾ لما أنهم أضاعوها بانفاقها لا على ماينبغى وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص اذ الكلام فى الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول أى ماظلمهم الله

ولكن ظلموا أنفسهم وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وقد جوز أن يكون المعنى وماظلم الله تعالى أصحاب الحرث باهلاكه ولكنهم ظلموا أنفسهم بارتكاب مااستحقوا به العقوبة ويأباه أنه قد مر التعرض له تصريحا واشعارا وقرىء ولكن بالتشديد على أن أنفسهم اسمها ويظلمون خبرها والعائد محذوف للفاصلة أى ولكن أنفسهم يظلمونها وأما تقدير ضمير الشأن فلا سبيل اليه لاختصاصه بالشعر ضرورة كما فى قوله ولكن من يبصر جفونك يعشق ﴿ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة﴾ بطانة الرجل ووليجته من يعرفه أسراره ثقة به شبه ببطانة الثوب كما شبه بالشعار قال عليه الصلاة والسلام الانصار شعار والناس دثار قال ابن عباس رضى الله عنهما كان رجال من المؤمنين يواصلون اليهود لما بينهم من القرابة والصداقة والحلف فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال مجاهد نزلت فى قوم من المؤمنين كانوا يواصلون المنافقين فنهوا عن ذلك ويؤيده قوله تعالى واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ وهى صفة المنافق وأياما كان فالحكم عام للكفرة كافة ﴿من دونكم﴾ أى من دون المسلمين وهو متعلق بلا تتخذوا أو بمحذوف وقع صفة لبطانة أى كائنة من دونكم مجاوزة لكم ﴿لايألونكم خبالا﴾ جملة مستأنفة مبينة لحالهم داعية الى الاجتناب عنهم أو صفة لبطانة يقال ألا فى الأمر اذا قصر فيه ثم استعمل معدى الى مفعولين فى قولهم لا آلوك نصحا ولا آلوك جهدا على تضمين معنى المنع والنقص والخبال الفساد أى لايقصرون لكم فى الفساد ﴿ودوا ماعنتم﴾ أى تمنوا عنتكم أى مشقتكم وشدة ضرركم وهو أيضا استئناف مؤكد للنهى موجب لزيادة الاجتناب عن المنهى عنه ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم﴾ استئناف آخر مفيد لمزيد الاجتناب عن المنهى عنه أى قد ظهرت البغضاء فى كلامهم لما أنهم لايتمالكون مع مبالغتهم فى ضبط أنفسهم وتحاملهم عليها أن ينفلت من ألسنتهم مايعلم به بغضهم للمسلمين وقرىء قد بدا البغضاء والافواه جمع فم وأصله فوه فلامه هاء يدل على ذلك جمعه على أفواه وتصغيره على فويه والنسبة اليه فوهى ﴿وماتخفى صدورهم أكبر﴾ مما بدا لان بدوه ليس عن روية واختيار ﴿قد بينا لكم الآيات﴾ الدالة على وجوب الاخلاص فى الدين وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين ﴿ان كنتم تعقلون﴾ أى ان كنتم من أهل العقل أو ان كنتم تعقلون مابين لكم من الآيات والجواب محذوف لدلالة المذكور عليه ﴿ها أنتم أولاء﴾ جملة من مبتدا وخبر صدرت بحرف التنبيه اظهارا لكمال العناية بمضمونها أى أنتم أولاء المخطئون فى موالاتهم وقوله تعالى ﴿تحبونهم ولا يحبونكم﴾ بيان لخطئهم فى ذلك وهو خبر ثان لأنتم أو خبر لأولاء والجملة خبر لأنتم كقولك أنت زيد تحبه أو صلة له أو حال والعامل معنى الاشارة ويجوز أن ينتصب أولاء بفعل يفسره مابعده وتكون الجملة خبرا ﴿وتؤمنون بالكتاب كله﴾ أى بجنس الكتب جميعا وهو حال من ضمير المفعول فى لايحبونكم والمعنى لايحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم فما بالكم تحبونهم وهم لايؤمنون بكتابكم وفيه توبيخ بأنهم فى باطلهم أصلب منكم فى حقكم ﴿واذا لقوكم قالوا آمنا﴾ نفاقا ﴿واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ﴾ أى من أجله تأسفا وتحسرا حيث لم يجدوا الى التشفى سبيلا ﴿قل موتوا بغيظكم﴾ دعاء عليهم بدوام الغيظ وزيادته بتضاعف قوة الاسلام وأهله الى أن يهلكوا به أو باشتداده الى أن يهلكهم ﴿ان الله عليم بذات الصدور﴾ فيعلم مافى صدوركم من العداوة والبغضاء والحنق وهو يحتمل أن يكون من المقول أى وقل لهم ان الله تعالى عليم بما هو أخفى مما تخفونه من عض الانامل غيظا وأن يكون خارجا عنه بمعنى لاتتعجب من اطلاعى اياك على أسرارهم فانى عليم بذات الصدور وقيل هو أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطيب النفس وقوة الرجاء والاستبشار بوعد الله تعالى أن يهلكوا غيظا باعزاز الاسلام واذلالهم به من غير أن يكون ثمة قول كأنه قيل حدث نفسك بذلك ﴿ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾ بيان لتناهى

عداوتهم الى حد حسدوا مانالهم من خير ومنفعة وشمتوا بما أصابهم من ضر وشدة وذكر المس مع الحسنة والاصابة
مع السيئة اماللايذان بأن مدار مساءتهم أدنى مراتب اصابة الحسنة ومناط فرحهم تمام اصابة السيئة واما لان
المس مستعار لمعنى الاصابة ﴿وان تصبروا﴾ أى على عداوتهم أو على مشاق التكاليف ﴿وتتقوا﴾ ماحرم
الله تعالى عليكم ونهاكم عنه ﴿لا يضركم كيدهم﴾ مكرهم وحيلتهم التى دبروها لاجلكم وقرئ لايضركم بكسر الضاد
وجزم الراء على جواب الشرط من ضاره يضيره بمعنى ضره يضره وضمة الراء فى القراءة المشهورة للاتباع
كضمة مد ﴿شيئاً﴾ نصب على المصدرية أى لايضركم شيئاً من الضرر بفضل الله وحفظه الموعود للصابرين
والمتقين ولان المجد فى الأمر المتدرب بالاتقاء والصبر يكون جريئا على الخصم ﴿ان الله بما يعملون﴾ فى عداوتكم
من الكيد ﴿محيط﴾ علما فيعاقبهم على ذلك وقرئ بالتاء الفوقانية أى بما تعملون من الصبر والتقوى فيجازيكم بما
أنتم أهله ﴿واذ غدوت﴾ كلام مستأنف سيق للاستشهاد بما فيه من استتباع عدم الصبر والتقوى للضرر على أن
وجودهما مستتبع لما وعد من النجاة من مضرة كيد الأعداء واذ نصب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى صلى الله
عليه وسلم خاصة مع عموم الخطاب فيما قبله ومابعده وللمؤمنين لاختصاص مضمون الكلام به عليه السلام أى واذكر
لهم وقت غدوك ليتذكروا ماوقع فيه من الأحوال الناشئة عن عدم الصبر فيعلموا أنهم ان لزموا الصبر والتقوى لايضرهم
كيد الكفرة وتوجيه الأمر بالذكر الى الوقت دون ماوقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة فى ايجاب
ذكرها واستحضار الحادثة بتفاصيلها كما سلف بيانه فى تفسير قوله تعالى واذ قال ربك للملائكة الخ والمراد بخروجه عليه
السلام الى أحد وكان ذلك من منزل عائشة رضى الله عنها وهو المراد بقوله تعالى ﴿من أهلك﴾ أى من عند أهلك
﴿تبوئ المؤمنين﴾ أى تنزلهم أو تهيئ وتسوى لهم ﴿مقاعد﴾ ويؤيده قراءة من قرأ تبوئ للمؤمنين والجملة حال
من فاعل غدوت لكن لاعلى أنها حال مقدرة أى ناويا وقاصدا للتبوئة كما قيل بل على أن المقصود تذكير الزمان الممتد
المتسع لابتداء الخروج والتبوئة ومايترتب عليها اذ هو المذكر للقصة وانما عبر عنه بالغدو الذى هو الخروج غدوة
مع كون خروجه عليه السلام بعد صلاة الجمعة كما ستعرفه اذ حينئذ وقعت التبوئة التى هى العمدة فى الباب اذ المقصود
بتذكير الوقت تذكير مخالفتهم لأمر النبى صلى الله عليه وسلم وتزايلهم عن أحيازهم المعينة لهم عند التبوئة وعدم صبرهم
وبهذا يتبين خلل رأى من احتج به على جواز أداء صلاة الجمعة قبل الزوال واللام فى قوله تعالى ﴿للقتال﴾ اما متعلقة
بتبوئ أى لأجل القتال واما بمحذوف وقع صفة لمقاعد أى كائنة ومقاعد القتال أماكنه ومواقفه فان استعمال المقعد
والمقام بمعنى المكان اتساعا شائع ذائع كما فى قوله تعالى فى مقعد صدق وقوله تعالى قبل أن تقوم من مقامك . روى أن
المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ودعا عبد الله بن أبى بن سلول ولم يكن
دعاه قبل ذلك فاستشاره فقال عبد الله وأكثر الانصار يارسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج اليهم فوالله ماخرجنا منها الى
عدو قط الا أصاب منا ولا دخلها علينا الا أصبنا منه فكيف وأنت فينا فدعهم فان أقاموا أقاموا بشر محبس وان دخلوا
قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة وان رجعوا رجعوا خائبين وقال بعضهم يارسول الله اخرج
بنا الى هؤلاء الأكلب لايرون أنا قد جبنا عنهم فقال عليه الصلاة والسلام انى قد رأيت فى منامى بقرا مذبحة حولى فأولتها
خيرا ورأيت فى ذباب سيفى ثلما فأولته هزيمة ورأيت كأنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة فان رأيتم أن
تقيموا بالمدينة فتدعوهم فقال رجال من المسلمين قد فاتتهم بدر وأكرمهم الله تعالى بالشهادة يومئذ اخرج بنا الى أعدائنا
وقال النعمان بن مالك الأنصارى رضى الله عنه يارسول الله لا تحرمنى الجنة فوالذى بعثك بالحق لأدخلن الجنة ثم قال

بقولى أشهد أن لا اله الا الله وأنى لا أفر من الزحف فلم يزالوا به عليه السلام حتى دخل فلبس لأمته فلما رأوه كذلك
ندموا وقالوا بئسما صنعنا نشير على رسول الله والوحى يأتيه وقالوا اصنع يارسول الله مارأيت فقال ماينبغى لنبى أن يلبس
لأمته فيضعها حتى يقاتل فخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال
لسنة ثلاث من الهجرة فمشى على رجليه فجعل يصف أصحابه للقتال فكأنما يقوم بهم القدح ان رأى صدرا خارجا قال
تأخر وكان نزوله فى عدوة الوادى وجعل ظهره وعسكره الى أحد وأمر عبد الله بن جبير على الرماة وقال لهم انضحوا
عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا ولا تبرحوا من مكانكم فلن نزال غالبين ماثبتم مكانكم ﴿والله سميع﴾ لاقوالكم ﴿عليم﴾
بضمائركم والجملة اعتراض للايذان بأنه قد صدر عنهم هناك من الأقوال والأفعال مالا ينبغى صدوره عنهم ﴿اذ همت﴾
بدل من اذ غدوت مبين لما هو المقصود بالتذكير أو ظرف لسميع عليم على معنى أنه تعالى جامع بين سماع الأقوال والعلم
بالضمائر فى ذلك الوقت اذ لا وجه لتقييد كونه تعالى سميعا عليما بذلك الوقت . قال الفراء معنى قولك ضربت وأكرمت زيدا
أن زيداً منصوب بهما وأنهما تسلطا عليه معا ﴿طائفتان منكم أن تفشلا﴾ متعلق بهمت والباء محذوفة أى بأن
تفشلا أى تجبنا وتضعفا وهما حيان من الأنصار بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الاوس وهما الجناحان من عسكر
رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا ألف رجل وقيل تسعمائة وخمسين وعدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتح ان
صبروا فلما قاربوا عسكر الكفرة وكانوا ثلاثة آلاف انخذل عبد الله بن أبى بثلث الناس فقال ياقوم علام نقتل أنفسنا
وأولادنا فتبعهم عمرو بن حزم الانصارى فقال أنشدكم الله فى نبيكم وأنفسكم فقال عبد الله لو نعلم قتالا لاتبعناكم فهم
الحيان باتباع عبد الله فعصمهم الله تعالى فمضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن ابن عباس رضى الله عنهما أضمروا
أن يرجعوا فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا والظاهر أنها ماكانت الا همة وحديث نفس قلما تخلو النفس عنه عند الشدائد
﴿والله وليهما﴾ أى عاصمهما عن اتباع تلك الخطرة والجملة اعتراض ويجوز أن تكون حالا من فاعل همت أو من
ضميره فى تفشلا مفيدة لاستبعاد فشلهما أوهمهما به مع كونهما فى ولاية الله تعالى وقرئ والله وليهم كما فى قوله تعالى
وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴿وعلى الله﴾ وحده دون ماعداه مطلقا استقلالا أو اشتراكا ﴿فليتوكل
المؤمنون﴾ فى جميع أمورهم فانه حسبهم واظهار الاسم الجليل للتبرك والتعليل فان الألوهية من موجبات التوكل
عليه تعالى واللام فى المؤمنين للجنس فيدخل فيه الطائفتان دخولا أوليا وفيه اشعار بأن وصف الايمان من دواعى
التوكل وموجباته ﴿ولقد نصركم الله ببدر﴾ جملة مستأنفة سيقت لايجاب الصبر والتقوى بتذكير ماترتب عليهما
من النصر اثر تذكير ماترتب على عدمهما من الضرر وقيل لايجاب التوكل على الله تعالى بتذكير مايوجبه وبدر اسم ماء
بين مكة والمدينة كان لرجل اسمه بدر بن كلدة فسمى باسمه وقيل سمى به لصفائه كالبدر واستدارته وقيل هو اسم الموضع
أو الوادى وكانت وقعة بدر فى السابع عشر من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة ﴿وأنتم أذلة﴾ حال من مفعول
نصركم وأذلة جمع ذليل وانما جمع جمع قلة للايذان باتصافهم حينئذ بوصفى القلة والذلة اذ كانوا ثلثمائة وبضعة عشر
وكان ضعف حالهم فى الغاية خرجوا على النواضح يعتقب النفر منهم على البعير الواحد ولم يكن فى العسكر الا فرس
واحد وقيل فرسان للمقداد ومرثد وتسعون بعيرا وست أدرع وثمانية سيوف وكان العدو زهاء ألف ومعهم مائة
فرس وشكة وشوكة ﴿فاتقوا الله﴾ اقتصر على الأمر بالتقوى مع كونه مشفوعا بالصبر فيما سبق وما لحق للاشعار
باصالته وكون الصبر من مباديه اللازمة له ولذلك قدم عليه فى الذكر وفى ترتيب الأمر بالتقوى على الاخبار بالنصر
ايذان بأن نصرهم المذكور كان بسبب تقواهم أى اذا كان الامر كذلك فاتقوا الله كما اتقيتم يومئذ ﴿لعلكم تشكرون﴾

أى راجين أن تشكروا ما ينعم به عليكم بتقواكم من النصرة كما شكرتم فيما قبل أو لعلكم ينعم الله عليكم بالنصر كما فعل ذلك من قبل فوضع الشكر موضع سببه الذى هو الانعام ﴿اذ تقول﴾ تلوين للخطاب بتخصيصه برسول الله صلى الله عليه وسلم لتشريفه والايذان بأن وقوع النصر كان ببشارته عليه السلام واذ ظرف لنصركم قدم عليه الامر بالتقوى لاظهار كمال العناية به والمراد به الوقت الممتد الذى وقع فيه ماذكر بعده وما طوى ذكره تعويلا على شهادة الحال عما يتعلق به وجود النصر وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها أى نصركم وقت قولك ﴿للمؤمنين﴾ حين أظهروا العجز عن المقاتلة قال الشعبي بلغ المؤمنين أن كرز بن جابر الحنفى يريد أن يمد المشركين فشق ذلك على المؤمنين فنزل حينئذ ثم حكى ههنا ﴿ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف﴾ الكفاية سد الخلة والقيام بالامر والامداد فى الأصل اعطاء الشئ حالا بعد حال . قال المفضل ما كان منه بطريق التقوية والاعانة يقال فيه أمده يمده امداداً وما كان بطريق الزيادة يقال فيه مده يمده مدا ومنه والبحر يمده من بعده سبعة أبحر وقيل المد فى الشر كما فى قوله تعالى ويمدهم فى طغيانهم يعمهون وقوله ونمد له من العذاب مدا والامداد فى الخير كما فى قوله تعالى وأمددناكم بأموال وبنين والتعرض لعنوان الربوبية ههنا وفيما سيأتى مع الاضافة الى ضمير المخاطبين لاظهار العناية بهم والاشعار بعلة الامداد والمعنى انكار عدم كفاية الامداد بذلك المقدار ونفيه وكلمة لن للاشعار بأنهم كانوا حينئذ كالآيسين من النصر لضعفهم وقلتهم وقوة العدو وكثرتهم ﴿من الملائكة﴾ بيان أو صفة لآلاف أو لما أضيف اليه أى كائنين من الملائكة ﴿منزلين﴾ صفة لثلاثة آلاف وقيل حال من الملائكة وقرئ منزلين بالتشديد للتكثير أو للتدريج قيل أمدهم الله تعالى أولا بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف وقرئ مبنيا للفاعل من الصيغتين أى منزلين النصر ﴿بلى﴾ ايجاب لما بعد لن وتحقيق له أى بلى يكفيكم ذلك ثم وعدلهم الزيادة بشرط الصبر والتقوى حثالهم عليهما وتقوية لقلوبهم فقال ﴿ان تصبروا﴾ على لقاء العدو ومناهضتهم ﴿وتتقوا﴾ معصية الله ومخالفة نبيه عليه الصلاة والسلام ﴿ويأتوكم﴾ أى المشركون ﴿من فورهم هذا﴾ أى من ساعتهم هذه وهو فى الأصل مصدر فارت القدر أى اشتد غليانها ثم استعير للسرعة ثم أطلق على كل حالة لاريث فيها أصلا ووصفه بهذا لتأكيد السرعة بزيادة تعيينه وتقريبه ونظم اتيانهم بسرعة فى سلك شرطى الامداد المستتبعين له وجودا وعدما أعنى الصبر والتقوى مع تحقق الامداد لا محالة سواء أسرعوا أو أبطؤا لتحقيق سرعة الامداد لا لتحقيق أصله أو لبيان تحققه على أى حال فرض على أبلغ وجه وآكده بتعليقه بأبعد التقادير ليعلم تحققه على سائرها بالطريق الاولى فان هجوم الاعداء واتيانهم بسرعة من مظان عدم لحوق المدد عادة فعلق به تحقق الامداد ايذانا بأنه حيث تحقق مع ما ينافيه عادة فلأن يتحقق بدونه أولى وأحرى كما اذا أردت وصف درع بغاية الحصانة تقول ان لبستها وبارزت بها الاعداء فضربوك بأيد شداد وسيوف حداد لم تتأثر منها قطعا ﴿يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾ من التسويم الذى هو اظهار سيما الشئ أى معلمين أنفسهم أو خيلهم فقد روى أنهم كانوا بعمائم بيض الا جبريل عليه السلام فانه كان بعمامة صفراء على مثال الزبير بن العوام وروى أنهم كانوا على خيل بلق قال عروة بن الزبير كانت الملائكة على خيل بلق عليهم عمائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم وقال هشام بن عروة عمائم صفر وقال قتادة والضحاك كانوا قد أعلموا بالعهن فى نواصى الخيل وأذنابها روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه تسوموا فان الملائكة قد تسومت وقرئ مسومين على البناء للمفعول ومعناه معلمين من جهته سبحانه وقيل مرسلين من التسويم بمعنى الاسامة ﴿وما جعله الله﴾ كلام مبتدأ غير داخل فى حيز القول مسوق من جنابه تعالى لبيان أن الأسباب الظاهرة بمعزل من التأثير وأن حقيقة النصر مختص به عز

وجل ليثق به المؤمنون ولا يقنطوا منه عند فقدان أسبابه وأماراته معطوف على فعل مقدر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام فان الاخبار بوقوع النصر على الاطلاق وتذكير وقته وحكاية الوعد بوقوعه على وجه مخصوص هو الامداد بالملائكة مرة بعد أخرى وتعيين وقته فيما مضى يقضى بوقوعه حينئذ قضاء قطعيا لكن لم يصرح به تعويلا على تعاضد الدلائل وتآخذ الامارات والمخايل وايذانا بكمال الغنى عنه بل احترازا عن شائبة التكرير أو عن ايهام احتمال الخلف فى الوعد المحتوم كأنه قيل عقيب قوله تعالى يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين فأمدكم بهم وما جعله الله الخ والجعل متعد الى واحد هو الضمير العائد الى مصدر ذلك الفعل المقدر وأما عوده الى المصدر المذكور أعنى قوله تعالى أن يمدكم أو الى المصدر المدلول عليه بقوله تعالى يمددكم كما قيل فغير حقيق بجزالة التنزيل لأن الهيئة البسيطة متقدمة على المركبة فبيان العلة الغائية لوجود الامداد كما هو المراد بالنظم الكريم حقه أن يكون بعد بيان وجوده فى نفسه ولا ريب فى أن المصدرين المذكورين غير معتبرين من حيث الوجود والوقوع كمصدر الفعل المقدر حتى يتصدى لبيان أحكام وجودهما بل الأول معتبر من حيث الكفاية والثانى من حيث الوعد على أن الأول هو الامداد بثلاثة آلاف والواقع هو الامداد بخمسة آلاف وقوله تعالى ﴿الا بشرى لكم﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل وتلوين الخطاب لتشريف المؤمنين وللايذان بأنهم المحتاجون الى البشارة وتسكين القلوب بتوفيق الاسباب الظاهرة وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم غنى عنه بما له من التأييد الروحانى أى وما جعل امدادكم بانزال الملائكة عيانا لشئ من الاشياء الا للبشرى لكم بانكم تنصرون ﴿ولتطمئن قلوبكم به﴾ أى بالامداد وتسكن اليه كما كانت السكينة لبنى اسرائيل كذلك فكلاهما علة غائية للجعل وقد نصب الأول لاجتماع شرائطه من اتحاد الفاعل والزمان وكونه مصدرا مسوقا للتعليل وبقى الثانى على حاله لفقدانها وقيل للاشارة أيضا الى أصالته فى العلية وأهميته فى نفسه كما فى قوله تعالى والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة وفى قصر الامداد عليهما اشعار بأن الملائكة عليهم السلام لم يباشروا يومئذ القتال وانما كان امدادهم بتقوية قلوب المباشرين بتكثير السواد ونحوه كما هو رأى بعض السلف رضى الله عنه وقيل الجعل متعد الى اثنين وقوله عز وجل الا بشرى لكم استثناء من أعم المفاعيل أى وما جعله الله تعالى شيئا من الاشياء الا بشارة لكم فاللام فى قوله تعالى ولتطمئن متعلقة بمحذوف تقديره ولتطمئن قلوبكم به فعل ذلك ﴿وما النصر﴾ أى حقيقة النصر على الاطلاق فيندرج فى حكمه النصر المعهود اندراجا أوليا ﴿الا من عند الله﴾ أى الا كائن من عنده تعالى من غير أن يكون فيه شركة من جهة الاسباب والعدد وانما هى مظاهر له بطريق جريان سنته تعالى أو وما النصر المعهود الا من عنده تعالى لا من عند الملائكة فانهم بمعزل من التأثير وانما قصارى أمرهم ماذكر من البشارة وتقوية القلوب ﴿العزيز﴾ أى الذى لا يغالب فى حكمه وأقضيته واجراء هذا الوصف عليه تعالى للاشعار بعلة اختصاص النصر به تعالى كما أن وصفه بقوله ﴿الحكيم﴾ أى الذى يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة للايذان بعلة جعل النصر بانزال الملائكة فان ذلك من مقتضيات الحكم البالغة ﴿ليقطع﴾ متعلق بقوله تعالى ولقد نصركم وما بينهما تحقيق لحقيقته وبيان لكيفية وقوعه والمقصور على التعليل بما ذكر من البشرى والاطمئنان انما هو الامداد بالملائكة على الوجه المذكور فلا يقدح ذلك فى تعليل أصل النصر بالقطع وما عطف عليه أو بما تعلق به الخبر فى قوله عز وعلا وما النصر الا من عند الله على تقدير كونه عبارة عن النصر المعهود وقد أشير الى أن المعلل بالبشارة والاطمئنان انما هو الامداد الصورى لا ما فى ضمنه من النصر المعنوى الذى هو ملاك الامر وأما تعلقه بنفس النصر كما قيل فمع ما فيه من الفصل بين المصدر ومعموله بأجنبى هو الخبر مخل بسداد المعنى كيف لا ومعناه قصر النصر المخصوص المعلل بعلل معينة على الحصول من جهته تعالى وليس المراد الا قصر

حقيقة النصر أو النصر المعهود على ذلك والمعنى لقد نصركم الله يومئذ أو وما النصر الظاهر عند امداد الملائكة الا ثابت من عند الله ليقطع أى يهلك و ينقص ﴿طرفا من الذين كفروا﴾ أى طائفة منهم بقتل وأسر وقد وقع ذلك حيث قتل من رؤسائهم وصناديدهم سبعون وأسر سبعون ﴿أو يكبتهم﴾ أى يخزيهم و يغيظهم بالهزيمة فان الكبت شدة غيظ أو وهن يقع فى القلب من كبته بمعنى كبده اذا ضرب كبده بالغيظ والحرقة وقيل الكبت الاصابة بمكروه وقيل هو الصرع للوجه واليدين فالتاء حينئذ غير مبدلة وأو للتنويع ﴿فينقلبوا خائبين﴾ أى فينهزموا منقطعى الآمال غير فائزين من مبتغاهم بشئ كما فى قوله تعالى و رد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ﴿ليس لك من الأمر شئ﴾ اعتراض وسط بين المعطوف عليه المتعلق بالعاجل والمعطوف المتعلق بالآجل لتحقيق أن لاتأثير للمنصورين اثر بيان أن لاتأثير للناصرين وتخصيص النفى برسول الله صلى الله عليه وسلم على طريق تلوين الخطاب للدلالة على الانتفاء من غيره بالطريق الاولى وانما خص الاعتراض بموقعه لأن ماقبله من القطع والكبت من مظان أن يكون فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولسائر مباشرى القتال مدخل فى الجملة ﴿أو يتوب عليهم أو يعذبهم﴾ عطف على يكبتهم والمعنى أن مالك أمرهم على الاطلاق هو الله عز وجل نصركم عليهم ليهلكهم أو يكبتهم أو يتوب عليهم ان أسلموا أو يعذبهم ان أصروا وليس لك من أمرهم شئ انما أنت عبد مأمور بانذارهم وجهادهم والمراد بتعذيبهم التعذيب الشديد الأخروى المخصوص بأشد الكفرة كفرا والا فطلق التعذيب الأخروى متحقق فى الفريقين الأولين أيضا ونظم التوبة والتعذيب المذكور فى سلك العلة الغائية للنصر المترتبة عليه فى الوجود من حيث أن قبول توبتهم فرع تحققها الناشئ من علمهم بحقية الاسلام بسبب غلبة أهله المترتبة على النصر وأن تعذيبهم بالعذاب المذكور مترتب على اصرارهم على الكفر بعد تبين الحق على الوجه المذكور هذا وقيل ان عتبة بن أبى وقاص شج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكسر رباعيته فجعل عليه الصلاة والسلام يمسح الدم عن وجهه وسالم مولى أبى حذيفة يغسل عن وجهه الدم وهو يقول كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم الى ربهم فنزلت ليس لك من الأمر شئ الآية كأنه نوع معاتبة على انكاره عليه السلام لفلاحهم وقيل أراد أن يدعو عليهم فنهاه الله تعالى لعلمه بأن منهم من يؤمن فقوله تعالى أو يتوب عليهم حينئذ معطوف على الامر أو على شئ باضمار أن أى ليس لك من أمرهم أو من التوبة عليهم أو من تعذيبهم شئ أو ليس لك من أمرهم شئ أو التوبة عليهم أو تعذيبهم ونقل عن الفراء وابن الانبارى أن أو بمعنى الا أن والمعنى ليس لك من أمرهم شئ الا أن يتوب الله عليهم فتفرح به أو يعذبهم فتشتفى منهم وأياما كان فهو كلام مستأنف سيق لبيان بعض الأمور المتعلقة بغزوة أحد اثر بيان بعض مايتعلق بغزوة بدر لما بينهما من التناسب الظاهر لان كلا منهما مبنى على اختصاص الأمر كله بالله تعالى ومنبئ عن سلبه عمن سواه وأما تعلق كل القصة بغزوة أحد على أن قوله تعالى اذ تقول بدل ثان من اذ غدوت وأن ماحكى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقع يوم أحد وأن الامداد الموعود كان مشروطا بالصبر والتقوى فلما لم يفعلوا لم يتحقق الموعود كما قيل فلا يساعده النظم الكريم أما أولا فلأن المشروط بالصبر والتقوى انما هو الامداد بخمسة آلاف لا بثلاثة آلاف مع أنه لم يقع الامداد يومئذ ولا بملك واحد وأما ثانيا فلانه كان ينبغى حينئذ أن ينعى عليهم جنايتهم وحرمانهم بسببها تلك النعمة الجليلة ودعوى ظهوره مع عدم دلالة السباق والسياق عليه بل مع دلالتهما على خلافه مما لايكاد يسمع وأما ثالثا فلانه لاسبيل الى جعل الضمير فى قوله تعالى وما جعله الله الخ عائدا الى الامداد الموعود لانه لم يتحقق فكيف يبين علته الغائية و لا الى الوعد به على معنى أنه تعالى انما جعل ذلك الوعد لبشارتكم واطمئنان قلوبكم فلم تفعلوا ماشرط عليكم من الصبر والتقوى فلم يقع

الانجاز الموعود لما أن قوله تعالى وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم صريح فى أنه قد وقع الامداد الموعود لكن أثره انما هو مجرد البشارة والاطمئنان وقد حصلا وأما النصر الحقيقى فليس ذلك الا من عنده تعالى وجعله استئنافا مقررا لعدم وقوع الامداد على معنى أن النصر الموعود مخصوص به تعالى فلا ينصر من خالف أمره بترك الصبر والتقوى اعتساف بين يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله على أن قوله تعالى ليقطع طرفا الآية متعلق حينئذ بما تعلق به قوله تعالى من عند الله من الثبوت والاستقرار ضرورة أن تعلقه بقوله تعالى ولقد نصركم الله ببدر الآية مع كون ما بينهما من التفصيل متعلقا بوقعة أحد من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه فلا بد من اعتبار وجود النصر قطعا لأن تفصيل الأحكام المترتبة على وجود شئ بصدد بيان انتفائه مما لم يعهد فى كلام الناس فضلا عن الكلام المجيد فالحق الذى لامحيد عنه أن قوله تعالى اذ تقول ظرف لنصركم وأن ماحكى فى أثنائه الى قوله تعالى خائبين متعلق بيوم بدر قطعا وما بعده محتمل للوجهين المذكورين وقوله تعالى ﴿فانهم ظالمون﴾ تعليل على كل حال لقوله تعالى أو يعذبهم مبين لكون ذلك من جهتهم وجزاء لظلمهم ﴿ولله مافى السموات وما فى الأرض﴾ كلام مستأنف سيق لبيان اختصاص ملكوت كل الكائنات به عز وجل اثر بيان اختصاص طرف من ذلك به سبحانه تقريرا لما سبق وتكملة له وتقديم الجار للقصر وكلمة ما شاملة للعقلاء ايضا تغليبا أى له مافيهما من الموجودات خلقا وملكا لامدخل فيه لاحد أصلا فله الأمر كله ﴿يغفر لمن يشاء﴾ أن يغفر له مشيئة مبنية على الحكم والمصالح ﴿و يعذب من يشاء﴾ أن يعذبه بعمله مشيئة كذلك وايثار كلمة من فى الموضعين لاختصاص المغفرة والتعذيب بالعقلاء وتقديم المغفرة على التعذيب للايذان بسبق رحمته تعالى غضبه و بأنها من مقتضيات الذات دونه فانه من مقتضيات سيئات العصاة وهذا صريح فى نفى وجوب التعذيب والتقييد بالتوبة وعدمها كالمنافى له ﴿والله غفور رحيم﴾ تذييل مقرر لمضمون قوله تعالى يغفر لمن يشاء مع زيادة و فى تخصيص التذييل به دون قرينة من الاعتناء بشأن المغفرة والرحمة مالا يخفى ﴿ياأيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربوا﴾ كلام مبتدأ مشتمل على ماهو ملاك الأمر فى كل باب لاسيما فى باب الجهاد من التقوى والطاعة وما بعدهما من الامور المذكورة على نهج الترغيب والترهيب جئ به فى تضاعيف القصة مسارعة الى ارشاد المخاطبين الى مافيه وايذانا بكمال وجوب المحافظة عليه فيما هم فيه من الجهاد فان الامور المذكورة فيه مع كونها مناطا للفوز فى الدارين على الاطلاق عمدة فى أمر الجهاد عليها يدور فلك النصرة والغلبة كيف لا ولو حافظوا على الصبر والتقوى وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لما لقوا مالقوا ولعل ايراد النهى عن الربا فى أثنائها لما أن الترغيب فى الانفاق فى السراء والضراء الذى عمدته الانفاق فى سبيل الجهاد متضمن للترغيب فى تحصيل المال فكان مظنة مبادرة الناس الى طرق الاكتساب ومن جملتها الربا فنهوا عن ذلك والمراد بأكله أخذه وانما عبر عنه بالاكل لما أنه معظم مايقصد بالاخذ ولشيوعه فى المأكولات مع مافيه من زيادة تشنيع وقوله عز وجل ﴿أضعافا مضاعفة﴾ ليس لتقييد النهى به بل لمراعاة ما كانوا عليه من العادة توبيخا لهم بذلك اذ كان الرجل يربى الى أجل فاذا حل قال للمدين زدنى فى المال حتى أزيدك فى الأجل فيفعل وهكذا عند محل كل أجل فيستغرق بالشئ الطفيف ماله بالكلية ومحله النصب على الحالية من الربا وقرئ مضعفة ﴿واتقوا الله﴾ فيما نهيتم عنه من الأمور التى من جملتها الربا ﴿لعلكم تفلحون﴾ راجين للفلاح ﴿واتقوا النار التى أعدت للكافرين﴾ بالتحرز عن متابعتهم وتعاطى مايتعاطونه كان أبو حنيفة رحمه الله تعالى يقول هى أخوف آية فى القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين ان لم يتقوه فى اجتناب محارمه ﴿وأطيعوا الله﴾ فى كل ماأمركم به ونهاكم عنه ﴿والرسول﴾ الذى يبلغكم أوامره ونواهيه ﴿لعلكم ترحمون﴾ راجين لرحمته. عقب الوعيد بالوعد ترهيبا عن المخالفة وترغيبا فى الطاعة وايراد

لعل فى الموضعين للاشعار بعزة منال الفلاح والرحمة قال محمد ابن اسحق هذه الآية معاتبة للذين عصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمرهم بما أمرهم يوم أحد ﴿وسارعوا﴾ عطف على أطيعوا وقرئ بغير واو على وجه الاستئناف أى بادروا وأقبلوا وقرئ وسابقوا ﴿الى مغفرة من ربكم وجنة﴾ أى الى مايؤدى اليهما وقيل الى الاسلام وقيل الى التوبة وقيل الى الاخلاص وقيل الى الجهاد وقيل الى أداء جميع الواجبات وترك جميع المنهيات فيدخل فيها مامر من الأمور المأمور بها والمنهى عنها دخولا أوليا وتقديم المغفرة على الجنة لما أن التخلية متقدمة على التحلية ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لمغفرة أى كائنة من ربكم والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين لاظهار مزيد اللطف بهم وقوله تعالى ﴿عرضها السموات والأرض﴾ أى كعرضهما صفة لجنة وتخصيص العرض بالذكر للمبالغة فى وصفها بالسعة والبسطة على طريقة التمثيل فان العرض فى العادة أدنى من الطول وعن ابن عباس رضى الله عنهما كسبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض ﴿أعدت للمتقين﴾ فى حيز الجر على أنه صفة أخرى لجنة أو فى محل النصب على الحالية منها لتخصصها بالصفة أى هيئت لهم وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة الآن وأنها خارجة عن هذا العالم ﴿الذين ينفقون﴾ فى محل الجر على أنه نعت للمتقين مادح لهم أو بدل منه أو بيان أو فى حيز النصب أو الرفع على المدح ومفعول ينفقون محذوف ليتناول كل مايصلح للانفاق أو متروك بالكلية كما فى قولك يعطى و يمنع ﴿فى السراء والضراء﴾ فى حالتى الرخاء والشدة واليسر والعسر أو فى الأحوال كلها اذ الانسان لايخلو عن مسرة أو مضرة أى لايخلون فى حال ما بانفاق ماقدروا عليه من قليل أو كثير ﴿والكاظمين الغيظ﴾ عطف على الموصول والعدول الى صيغة الفاعل للدلالة على الاستمرار وأما الانفاق فحيث كان أمرا متجددا عبر عنه بما يفيد الحدوث والتجدد والكظم الحبس يقال كظم غيظه أى حبسه قال المبرد تأويله أنه كتمه على امتلائه منه يقال كظمت السقاء اذا ملأته وشددت عليه أى الممسكين عليه الكافين عن امضائه مع القدرة عليه وعن النبى صلى الله عليه وسلم من كظم غيظا وهو قادر على انفاذه ملأ الله قلبه أمنا وايمانا ﴿والعافين عن الناس﴾ أى التاركين عقوبة من استحق مؤاخذته . روى أنه ينادى مناد يوم القيامة أين الذين كانت أجورهم على الله تعالى فلا يقوم الا من عفا وعن النبى صلى الله عليه وسلم ان هؤلاء فى أمتى قليل الا من عصم الله وقد كانوا كثيرا فى الأمم التى مضت و فى هذين الوصفين اشعار بكمال حسن موقع عفوه عليه الصلاة والسلام عن الرماة وترك مؤاخذتهم بما فعلوا من مخالفة أمره عليه السلام وندب له عليه السلام الى ترك ماعزم عليه من مجازاة المشركين بما فعلوا بحمزة رضى الله عنه حيث قال حين رآه قد مثل به لأمثلن بسبعين مكانك ﴿والله يحب المحسنين﴾ اللام اما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا واما للعهد عبر عنهم بالمحسنين ايذانا بأن النعوت المعدودة من باب الاحسان الذى هو الاتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسره عليه السلام بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك والجملة تذييل مقرر لمضمون ماقبلها ﴿والذين﴾ مرفوع على الابتداء وقيل مجرور معطوف على ماقبله من صفات المتقين وقوله تعالى والله يحب المحسنين اعتراض بينهما مشير الى مابينهما من التفاوت فان درجة الأولين من التقوى أعلى من درجة هؤلاء وحظهم أو فى من حظهم أو على نفس المتقين فيكون التفاوت أكثر وأظهر ﴿اذا فعلوا فاحشة﴾ أى فعلة بالغة فى القبح كالزنا ﴿أو ظلموا أنفسهم﴾ بأن أتوا ذنبا أى ذنب كان وقيل الفاحشة الكبيرة وظلم النفس الصغيرة أو الفاحشة مايتعدى الى الغير وظلم النفس ماليس كذلك قيل قال المؤمنون يارسول الله كانت بنو اسرائيل أكرم على الله تعالى منا كان أحدهم اذا أذنب أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة على عتبة داره افعل كذا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل ان نبهان التمار أتته امرأة حسناء تطلب منه تمرا فقال لها هذا التمر ليس بجيد

و فى البيت أجود منه فذهب بها الى بيته فضمها الى نفسه وقبلها فقالت له اتق الله فتركها وندم على ذلك وأتى النبى صلى الله عليه وسلم وذكر له ذلك فنزلت وقيل جرى مثل هذا بين أنصارى وامرأة رجل ثقفى كان بينهما مؤاخاة فندم الأنصارى وحثا على رأسه التراب وهام على وجهه وجعل يسيح فى الجبال تائبا مستغفرا ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت وأيا ماكان فاطلاق اللفظ ينتظم مافعله الزناة انتظاما أوليا ﴿ذكروا الله﴾ تذكروا حقه العظيم وجلاله الموجب للخشية والحياء أو وعيده أو حكمه وعقابه ﴿فاستغفروا لذنوبهم﴾ بالتوبة والندم والفاء للدلالة على أن ذكره تعالى مستتبع للاستغفار لا محالة ﴿ومن يغفر الذنوب﴾ استفهام انكارى والمراد بالذنوب جنسها كما فى قولك فلان يلبس الثياب و يركب الخيل لا كلها حتى يخل بما هو المقصود من استحالة صدور مغفرة فردمنها عن غيره تعالى وقوله تعالى ﴿الا الله﴾ بدل من الضمير المستكن فى يغفر أى لا يغفر جنس الذنوب أحد الا الله خلا أن دلالة الاستفهام على الانتفاء أقوى وأبلغ لايذانه بان كل أحد ممن له حظ من الخطاب يعرف ذلك الانتفاء فيسارع الى الجواب به والمراد به وصفه سبحانه بغاية سعة الرحمة وعموم المغفرة والجملة معترضة بين المعطوفين أو بين الحال وصاحبها لتقرير الاستغفار والحث عليه والاشعار بالوعد بالقبول ﴿ولم يصروا﴾ عطف على فاستغفروا وتأخيره عنه مع تقدم عدم الاصرار على الاستغفار رتبة لاظهار الاعتناء بشأن الاستغفار واستحقاقه للمسارعة اليه عقيب ذكره تعالى أو حال من فاعله أى ولم يقيموا أو غير مقيمين ﴿على مافعلوا﴾ أى مافعلوه من الذنوب فاحشة كانت أو ظلما أو على فعلهم. روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ماأصر من استغفر وان عاد فى اليوم سبعين مرة وأنه لا كبيرة مع الاستغفار و لا صغيرة مع الاصرار ﴿وهم يعلمون﴾ حال من فاعل يصروا أى لم يصروا على مافعلوا وهم عالمون بقبحه والنهى عنه والوعيد عليه والتقييد بذلك لما أنه قد يعذر من لايعلم ذلك اذا لم يكن عن تقصير فى تحصيل العلم به ﴿أولئك﴾ اشارة الى المذكورين آخرا باعتبار اتصافهم بما مر من الصفات الحميدة ومافيه من معنى البعد للاشعار ببعد منزلتهم وعلو طبقتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿جزاؤهم﴾ بدل اشتمال منه وقوله تعالى ﴿مغفرة﴾ خبر له أو جزاؤهم مبتدأ ثان ومغفرة خبر له والجملة خبر لأولئك وهذه الجملة خبر لقوله تعالى والذين اذا فعلوا الخ على الوجه الاول وهو الاظهر الانسب بنظم المغفرة المنبئة عن سابقة الذنب فى سلك الجزاء اذ على الوجهين الاخيرين يكون قوله تعالى أولئك الخ جملة مستأنفة مبينة لما قبلها كاشفة عن حال كلا الفريقين المحسنين والتائبين ولم يذكر من أوصاف الاولين مافيه شائبة الذنب حتى يذكر فى مطلع الجزاء الشامل لهما المغفرة وتخصيص الاشارة بالآخرين مع اشتراكهما فى حكم اعداد الجنة لهما تعسف ظاهر ﴿من ربهم﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لمغفرة مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى كائنة من جهته تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم للاشعار بعلة الحكم والتشريف ﴿وجنات تجرى من تحتها الانهار﴾ عطف على مغفرة والتنكير المشعر بكونها أدنى من الجنة السابقة مما يؤيد رجحان الوجه الاول ﴿خالدين فيها﴾ حال مقدرة من الضمير فى جزاؤهم لانه مفعول به فى المعنى لانه فى قوة يجزيهم الله جنات خالدين فيها ولا مساغ لأن يكون حالا من جنات فى اللفظ وهى لاصحابها فى المعنى اذ لو كان كذلك لبرز الضمير ﴿ونعم أجر العاملين﴾ المخصوص بالمدح محذوف أى ونعم أجر العاملين ذلك أى ماذكر من المغفرة والجنات والتعبير عنهما بالاجر المشعر بأنهما يستحقان بمقابلة العمل وان كان بطريق التفضل لمزيد الترغيب فى الطاعات والزجر عن المعاصى والجملة تذييل مختص بالتائبين حسب اختصاص التذييل السابق بالأولين وناهيك مضمونهما دليلا على ما بين الفريقين من التفاوت النير والتباين البين شتان بين المحسنين الفائزين بمحبة الله عز وجل و بين العاملين الحائزين لاجرتهم

وعالتهم ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ رجوع الى تفصيل بقية القصة بعد تمهيد مبادي الرشد والصلاح وترتيب مقدمات الفوز والفلاح والخلو المضى والسنن الوقائع وقيل الامم والظرف اما متعلق بخلت أو بمحذوف وقع حالا من سنن أى قد مضت من قبل زمانكم أو كائنة من قبلكم وقائع سنها الله تعالى فى الامم المكذبة كما فى قوله تعالى وقتلوا تقتيلا سنة الله فى الذين خلوا الخ والفاء فى قوله تعالى ﴿فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ للدلالة على سببية خلوها للسير والنظر أو للامر بهما وقيل المعنى على الشرط أى ان شككتم فسيروا الخ وكيف خبر مقدم لكان معلق لفعل النظر والجملة فى محل النصب بعد نزع الخافض لان الاصل استعماله بالجار ﴿هذا﴾ اشارة الى ما سلف من قوله تعالى قد خلت الى آخره ﴿بيان للناس﴾ أى تبيين لهم على أن اللام متعلقة بالمصدر أو كائن لهم على أنها متعلقة بمحذوف وقع صفة له وتعريف الناس للعهد وهم المكذبون أى هذا ايضاح لسوء عاقبة ماهم عليه من التكذيب فان الامر بالسير والنظر وان كان خاصا بالمؤمنين لكن العمل بموجبه غير مختص بواحد دون واحد ففيه حمل للمكذبين أيضا على أن ينظروا فى عواقب من قبلهم من أهل التكذيب ويعتبروا بما يعاينون من آثار دمارهم وان لم يكن الكلام مسوقا لهم ﴿وهدى وموعظة﴾ أى وزيادة بصيرة وموعظة لكم وانما قيل ﴿للمتقين﴾ للايذان بعلة الحكم فان مدار كونه هدى وموعظة لهم انما هو تقواهم ويجوز أن يراد بالمتقين الصائرين الى التقوى والهدى والموعظة على ظاهرهما أى هذا بيان لمآل أمر الناس وسوء مغبته وهداية لمن اتقى منهم وزجر لهم عما هم عليه من التكذيب وأن يراد به ما يعمهم وغيرهم من المتقين بالفعل ويراد بالهدى والموعظة أيضا ما يعم ابتداءهما والزيادة فيهما وانما قدم كونه بيانا للمكذبين مع أنه غير مسوق له على كونه هدى وموعظة للمتقين مع أنه المقصود بالسياق لان أول مايترتب على مشاهدة آثار هلاك أسلافهم ظهور حال أخلافهم وأما زيادة الهدى أو أصله فامر مترتب عليه وتخصيص البيان للناس مع شموله للمتقين أيضا لما أن المراد به مجرد البيان العارى عن الهدى والعظة والاقتصار عليهما فى جانب المتقين مع ترتبهما على البيان لما أنهما المقصد الاصلى ويجوز أن يكون تعريف الناس للجنس أى هذا بيان للناس كافة وهدى وموعظة للمتقين منهم خاصة وقيل كلمة هذا اشارة الى مالخص من أمر المتقين والتائبين والمصرين وقوله تعالى قد خلت الآية اعتراض للبعث على الايمان وما يستحق به ماذكر من أجر العاملين وأنت خبير بأن الاعتراض لابد أن يكون مقررا لمضمون ماوقع فى خلاله ومعاينة آثار هلاك المكذبين مما لا تعلق له بحال أحد الاصناف الثلاثة للمؤمنين وان كان باعثا على الايمان زاجرا عن التكذيب وقيل اشارة الى القرآن ولايخفى بعده ﴿ولاتهنوا ولاتحزنوا﴾ تشجيع للمؤمنين وتقوية لقلوبهم وتسلية عما أصابهم يوم أحد من القتل والقرح وكان قد قتل يومئذ خمسة من المهاجرين حمزة ابن عبدالمطلب ومصعب بن عمير صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن جحش ابن عمة النبي صلى الله عليه وسلم وعثمان بن شماس وسعد مولى عتبة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ومن الانصار سبعون رجلا رضى الله عنهم أى لا تضعفوا عن الجهاد بما نالكم من الجراح ولاتحزنوا على من قتل منكم ﴿وأنتم الأعلون﴾ جملة حالية من فاعل الفعلين أى والحال أنكم الأعلون الغالبون دون عدوكم فان مصير أمرهم الى الدمار حسبما شاهدتم من أحوال أسلافهم فهو تصريح بالوعد بالنصر والغلبة بعد الاشعار به فيما سبق أو وأنتم المعهودون بغاية علو الشان لما أنكم على الحق وقتالكم لله عز وجل وقتلاكم فى الجنة وهم على الباطل وقتالهم للشيطان وقتلاهم فى النار وقيل وأنتم الاعلون حالا منهم حيث أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم اليوم ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ متعلق بالنهى أو بالاعلون وجوابه محذوف لدلالة ما تعلق به عليه أى ان كنتم مؤمنين فلاتهنوا ولا تحزنوا فان الايمان يوجب قوة القلب والثقة

بصنع الله تعالى وعدم المبالاة بأعدائه أو ان كنتم مؤمنين فأنتم الاعلون فان الايمان يقتضى العلو لامحالة أو ان كنتم مصدقين بوعد الله تعالى فانتم الأعلون وأيا ماكان فالمقصود تحقيق المعلق بناء على تحقق المعلق به كما فى قول الاجير ان كنت عملت لك فاعطنى أجرى ولذلك قيل معناه اذ كنتم مؤمنين وقيل معناه ان بقيتم على الايمان ﴿ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾ القرح بالفتح والضم لغتان كالضعف والضعف وقد قرئ بهما وقيل هو بالفتح الجراح وبالضم ألمها وقرئ بفتحتين وقيل القرح والقرح كالطرد والطرد والمعنى ان نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال فأنتم أحق بأن لاتضعفوا فانكم ترجون من الله مالايرجون وقيل كلا المسين كان يوم أحد فان المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلوا منهم نيفا وعشرين رجلا منهم صاحب لوائهم وجرحوا عددا كثيرا وعقروا عامة خيلهم بالنبل ﴿وتلك الأيام﴾ اشارة الى الأيام الجارية فيما بين الأمم الماضية والآتية كافة لا الى الأيام المعهودة خاصة من يوم بدر ويوم أحد بل هى داخلة فيها دخولا أوليا والمراد بها أوقات الظفر والغلبة ﴿نداولها بين الناس﴾ نصرفها بينهم نديل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى كقول من قال

فيوما علينا ويوما لنا … ويوما نساء ويوما نسر

والمداولة كالمعاورة يقال داولته بينهم فتداولوه أى عاورته فتعاوروه واسم الاشارة مبتدأ والأيام اما صفة له أو بدل منه أو عطف بيان له فنداولها خبره أو خبر فنداولها حال من الأيام والعامل معنى اسم الاشارة أو خبر بعد خبر وصيغة المضارع الدالة على التجدد والاستمرار للايذان بأن تلك المداولة سنة مسلوكة فيما بين الأمم قاطبة سابقتها ولاحقتها وفيه ضرب من التسلية وقوله عز وجل ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ اما من باب التمثيل أى ليعاملكم معاملة من يريد أن يعلم المخلصين الثابتين على الايمان من غيرهم أو العلم فيه مجاز عن التمييز بطريق اطلاق اسم السبب على المسبب أى ليميز الثابتين على الايمان من غيرهم كما فى قوله تعالى ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب أو هو على حقيقته معتبر من حيث تعلقه بالمعلوم من حيث أنه موجود بالفعل اذ هو الذى يدور عليه فلك الجزاء لا من حيث أنه موجود بالقوة واطلاق الايمان مع أن المراد هو الرسوخ والاخلاص فيه للايذان بأن اسم الايمان لاينطلق على غيره والالتفات الى الغيبة باسناده الى اسم الذات المستجمع للصفات لتربية المهابة والاشعار بأن صدور كل واحد مما ذكر بصدد التعليل من أفعاله تعالى باعتبار منشأ معين من صفاته تعالى مغاير لمنشأ الآخر والجملة علة لما هو فرد من أفراد مطلق المداولة التى نطق بها قوله تعالى نداولها بين الناس من المداولة المعهودة الجارية بين فريق المؤمنين والكافرين واللام متعلقة بما دل عليه المطلق من الفعل المقيد بالوقوع بين الفريقين المذكورين أو بنفس الفعل المطلق باعتبار وقوعه بينهما والجملة معطوفة على علة أخرى لها معتبرة اما على الخصوص والتعيين محذوفة لدلالة المذكورة عليها لكونها من مباديها كأنه قيل نداولها بينكم وبين عدوكم ليظهر أمركم وليعلم الخ فان ظهور أعمالهم وخروجها من القوة الى الفعل من مبادى تمييزهم عن غيرهم ومواجب تعلق العلم الازلى بها من تلك الحيثية وكذا الحال فى باب التمثيل فتأمل واما على العموم والابهام للتنبيه على أن العلل غير منحصرة فيما عدد من الأمور وأن العبد يسوءه مايجرى عليه من النوائب ولا يشعر بأن الله تعالى جعل له فى ذلك من الالطاف الخفية مالايخطر بالبال كأنه قيل نداولها بينكم ليكون من المصالح كيت وكيت وليعلم الخ وفيه من تأكيد التسلية ومزيد التبصرة مالايخفى وتخصيص البيان بعلة هذا الفرد من مطلق المداولة دون سائر أفرادها الجارية فيما بين بقية الأمم تعيينا أو ابهاما لعدم تعلق الغرض العلمى ببيانها ولك أن تجعل المحذوف المبهم عبارة عن علل سائر أفرادها للاشارة اجمالا الى أن كل فرد من أفرادها له علة داعية اليه كأنه قيل نداولها بين الناس

كافة ليكون كيت وكيت من الحكم الداعية الى تلك الافراد وليعلم الخ فاللام الأولى متعلقة بالفعل المطلق باعتبار تقيده بتلك الافراد والثانية باعتبار تقيده بالفرد المعهود وقيل هى متعلقة بمحذوف مؤخر تقديره وليعلم الله الذين آمنوا فعل ذلك ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ جمع شهيد أى ويكرم ناسا منكم بالشهادة وهم شهداء أحد فمن ابتدائية أو تبعيضية متعلقة بيتخذ أو بمحذوف وقع حالا من شهداء أو جمع شاهد أى ويتخذ منكم شهودا معدلين بما ظهر منهم من الثبات على الحق والصبر على الشدائد وغير ذلك من شواهد الصدق ليشهدوا على الأمم يوم القيامة فمن بيانية لأن تلك الشهادة وظيفة الكل دون المستشهدين فقط وأياما كان ففى لفظ الاتخاذ المنبئ عن الاصطفاء والتقريب من تشريفهم وتفخيم شأنهم مالا يخفى وقوله تعالى ﴿والله لايحب الظالمين﴾ اعتراض مقرر لمضمون ماقبله ونفى المحبة كناية عن البغض وفى ايقاعه على الظالمين تعريض بمحبته تعالى لمقابليهم والمراد بهم اماغير الثابتين على الايمان فالتقرير من حيث أن بغضه تعالى لهم من دواعى اخراج المخلصين المصطفين للشهادة من بينهم واما الكفرة الذين أديل لهم فالتقرير من حيث أن ذلك ليس بطريق النصرة لهم فانها مختصة بأوليائه تعالى بل لما ذكر من الفوائد العائدة الى المؤمنين وقوله تعالى ﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾ أى ليصفيهم ويطهرهم من الذنوب عطف على يتخذ وتكرير اللام لتذكير التعليل لوقوع الفصل بينهما بالاعتراض واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لابراز مزيد الاعتناء بشأن التمحيص وهذه الأمور الثلاثة علل للمداولة المعهودة باعتبار كونها على المؤمنين قدمت فى الذكر لأنها المحتاجة الى البيان ولعل تأخير العلة الأخيرة عن الاعتراض لئلا يتوهم اندراج المذنبين فى الظالمين أو ليقترن بقوله عز وجل ﴿ويمحق الكافرين﴾ فان التمحيص فيه محو الآثار وازالة الاوضار كما أن المحق عبارة عن النقص والاذهاب قال المفضل هو أن يذهب الشئ بالكلية حتى لايرى منه شئ ومنه قوله تعالى يمحق الله الربا أى يستأصله وهذه علة للمداولة باعتبار كونها على الكافرين والمراد بهم الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وأصروا على الكفر وقد محقهم الله عز وجل جميعا ﴿أم حسبتم﴾ كلام مستأنف سيق لبيان ماهى الغاية القصوى من المداولة والنتيجة لما ذكر من تمييز المخلصين وتمحيصهم واتخاذ الشهداء واظهار عزة منالها والخطاب للذين انهزموا يوم أحد وأم منقطعة ومافيها من كلمة بل للاضراب عن التسلية ببيان العلل فيما لقوا من الشدة الى تحقيق أنها من مبادى الفوز بالمطلب الاسنى والهمزة للانكار والاستبعاد أى بل أحسبتم ﴿أن تدخلوا الجنة﴾ وتفوزوا بنعيمها وقوله تعالى ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ حال من ضمير تدخلوا مؤكدة للانكار فان رجاء الأجر بغير عمل ممن يعلم أنه منوط به مستبعد عند العقول وعدم العلم كناية عن عدم المعلوم لما بينهما من اللزوم المبنى على لزوم تحقق الاول لتحقق الثانى ضرورة استحالة تحقق شئ بدون علمه تعالى به وايثارها على التصريح للمبالغة فى تحقيق المعنى المراد فانها اثبات لعدم جهادهم بالبرهان وللايذان بأن مدار ترتب الجزاء على الأعمال انما هو علم الله تعالى بها كأنه قيل والحال أنه لم يوجد الذين جاهدوا منكم وانما وجه النفى الى الموصوفين مع أن المنفى هو الوصف فقط وكان يكفى أن يقال ولما يعلم الله جهادكم كناية عن معنى ولما تجاهدوا للمبالغة فى بيان انتفاء الوصف وعدم تحققه أصلا وفى كلمة لما ايذان بأن الجهاد متوقع منهم فيما يستقبل الا أنه غير معتبر فى تأكيد الانكار وقرئ يعلم بفتح الميم على أن أصله يعلمن فحذفت النون أو على طريقة اتباع الميم لما قبلها فى الحركة لابقاء تفخيم اسم الله تعالى ومنكم حال من الذين ﴿ويعلم الصابرين﴾ منصوب باضمار أن على أن الواو للجمع كما فى قولك لاتأكل السمك وتشرب اللبن أى لا يكن منك أكل السمك وشرب اللبن والمعنى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة والحال أنه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر أى الجمع بينهما وايثار اسم الفاعل على الموصول للدلالة على أن المعتبر هو الاستمرار على الصبر وللمحافظة

على الفواصل وقيل مجزوم معطوف على المجزوم قبله قد حرك لالتقاء الساكنين بالفتح للخفة والاتباع كما مر ويؤيده القراءة بالكسر على ماهو الاصل فى تحريك الساكن وقرئ يعلم بالرفع على أن الواو للحال وصاحبها الموصول والمبتدأ محذوف أى وهو يعلم الصابرين كأنه قيل ولما تجاهدوا وأنتم صابرون ﴿ولقد كنتم تمنون الموت﴾ أى تتمنون الحرب فانها من مبادى الموت أو الموت بالشهادة والخطاب للذين لم يشهدوا بدرا وكانوا يتمنون أن يشهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهدا لينالوا مانال شهداء بدر من الكرامة فألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخروج ثم ظهر منهم خلاف ذلك ﴿من قبل أن تلقوه﴾ متعلق بتمنون مبين لسبب اقدامهم على التمنى أى من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا هوله وشدته وقرئ تلاقوه ﴿فقد رأيتموه﴾ أى ماتتمنونه من أسباب الموت أو الموت بمشاهدة أسبابه وقوله تعالى ﴿وأنتم تنظرون﴾ حال من ضمير المخاطبين وفى ايثار الرؤية على الملاقاة وتقييدها بالنظر مزيد مبالغة فى مشاهدتهم له والفاء فصيحة كأنه قيل ان كنتم صادقين فى تمنيكم ذلك فقد رأيتموه معاينين له حين قتل بين أيديكم من قتل من اخوانكم وأقاربكم وشارفتم أن تقتلوا فلم فعلتم مافعلتم وهو توبيخ لهم على تمنيهم الحرب وتسببهم لها ثم جبنهم وانهزامهم لاعلى تمنى الشهادة بناء على تضمنها لغلبة الكفار لما أن مطلب من يتمناها نيل كرامة الشهداء من غير أن يخطر ببالهم شئ غير ذلك فلا يستحق العتاب من تلك الجهة ﴿وما محمد الا رسول﴾ مبتدأ وخبر ولا عمل لما بالاتفاق لانتقاض نفيه بالا وقوله تعالى ﴿قد خلت من قبله الرسل﴾ صفة لرسول منبئة عن كونه فى شرف الخلو فان خلو مشاركيه فى منصب الرسالة من شواهد خلوه عليه الصلاة والسلام لامحالة كأنه قيل قد خلت من قبله أمثاله فسيخلو كما خلوا والقصر قلبى فانهم لما انقلبوا على أعقابهم فكأنهم اعتقدوا أنه عليه الصلاة والسلام رسول لا كسائر الرسل فى أنه يخلو كما خلوا ويجب التمسك بدينه بعده كما يجب التمسك بدينهم بعدهم فرد عليهم بأنه ليس الا رسولا كسائر الرسل فسيخلو كما خلوا ويجب التمسك بدينه كما يجب التمسك بدينهم وقيل هو قصر افراد فانهم لما استعظموا عدم بقائه عليه الصلاة والسلام لهم نزلوا منزلة المستبعدين لهلاكه كأنهم يعتقدون فيه عليه الصلاة والسلام وصفين الرسالة والبعد عن الهلاك فرد عليهم بأنه مقصور على الرسالة لايتجاوزها الى البعد عن الهلاك فلا بد حينئذ من جعل قوله تعالى قد خلت الخ كلاما مبتدأ مسوقا لتقرير عدم براءته عليه الصلاة والسلام من الهلاك وبيان كونه أسوة لمن قبله من الرسل عليهم السلام وأياما كان فالكلام يخرج على خلاف مقتضى الظاهر ﴿أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ انكار لارتدادهم وانقلابهم عن الدين بخلوه بموت أو قتل بعد علمهم بخلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به وقيل الفاء للسببية والهمزة لانكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سببا لانقلابهم بعد وفاته مع كونه سببا فى الحقيقة لثباتهم على الدين وايراد الموت بكلمة ان مع علمهم به البتة لتنزيل المخاطبين منزلة المترددين فيه لما ذكر من استعظامهم اياه وهكذا الحال فى سائر الموارد فان كلمة ان فى كلام الله تعالى لاتجرى على ظاهرها قط ضرورة علمه تعالى بالوقوع أو اللاوقوع بل تحمل على اعتبار حال السامع أو أمر آخر يناسب المقام وتقديم تقدير الموت مع أن تقدير القتل هو الذى ثار منه الفتنة وعظم فيه المحنة لما أن الموت فى شرف الوقوع فزجر الناس عن الانقلاب عنده وحملهم على التثبت هناك أهم ولأن الوصف الجامع بينه وبين الرسل عليهم السلام هو الخلو بالموت دون القتل . روى أنه لما التقى الفئتان حمل أبو دجانة فى نفر من المسلمين على المشركين فقاتل قتالا شديدا وقاتل على بن أبى طالب رضى الله عنه قتالا عظيما حتى التوى سيفه وكذا سعد بن أبى وقاص فقتلوا جماعة من المشركين وهزموهم فلما نظر الرماة اليهم ورأوا أنهم قد انهزموا أقبلوا على النهب ولم يلتفتوا الى نهى أميرهم عبد الله بن جبير فلم يبق منهم عنده الا ثمانية نفر فلما رآهم خالد بن الوليد قد اشتغلوا بالغنيمة حمل عليهم فى مائتين وخمسين

فارسا من المشركين من قبل الشعب وقتلوا من بقى من الرماة ودخلوا خلف أقفية المسلمين ففرقوهم وهزموهم وحملوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاتلوهم حتى أصيب هناك نحو ثلاثين رجلا كل منهم يجثو بين يديه و يقول وجهى لوجهك وقاء ونفسى لنفسك فداء وعليك سلام الله غير مودع و رمى عبد الله بن قمئة الحارثى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه الكريم فذب عنه مصعب بن عمير رضى الله عنه وكان صاحب الراية حتى قتله ابن قمئة وهو يزعم أنه قتل النبى صلى الله عليه وسلم فقال قتلت محمدا وصرخ صارخ قيل انه ابليس ألا ان محمدا قد قتل فانكفأ الناس وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الى عباد الله قال كعب بن مالك كنت أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسلمين فناديت بأعلى صوتى يامعشر المسلمين هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فانحاز اليه ثلاثون من أصحابه وحموه حتى كشفوا عنه المشركين وتفرق الباقون وقال بعضهم ليت بن أبى يأخذ لنا أمانا من أبى سفيان وقال ناس من المنافقين لوكان نبيا لما قتل ارجعوا الى اخوانكم والى دينكم فقال أنس بن النضر وهو عم أنس بن مالك ياقوم ان كان قتل محمد فان رب محمد حى لايموت وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتلوا على ماقاتل عليه وموتوا كراما على مامات عليه ثم قال اللهم انى أعتذر اليك مما يقول هؤلاء وأبرأ اليك مما جاء به هؤلاء ثم شد بسيفه وقاتل حتى قتل وتجويزهم لقتله عليه الصلاة والسلام مع قوله تعالى والله يعصمك من الناس لما أن كل آية ليس يسمعها كل أحد ولا كل من يسمعها يستحضرها فى كل مقام لاسيما فى مثل ذلك المقام الهائل وقد غفل عمر رضى الله عنه عن هذه الآية الكريمة عند وفاته عليه الصلاة والسلام وقام فى الناس فقال ان رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى وان رسول الله ما مات ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران فغاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم و لأقطعن أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ولم يزل يكرر ذلك الى أن قام أبو بكر رضى الله عنه فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ثم قال أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت ثم تلا وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل الآية قال الراوى والله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تلاها أبو بكر وقال عمر رضى الله عنه والله ماهو الا أن سمعت أبابكر رضى الله عنه يتلو فعقرت حتى ماتحملنى رجلاى وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات ﴿ومن ينقلب على عقبيه﴾ بادباره عما كان يقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر الجهاد وغيره وقيل بارتداده عن الاسلام وما ارتد يومئذ أحد من المسلمين الا ما كان من المنافقين ﴿فلن يضر الله﴾ بما فعل من الانقلاب ﴿شيئا﴾ أى شيأ من الضرر وانما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب ﴿وسيجزى الله الشاكرين﴾ أى الثابتين على دين الاسلام الذى هو أجل نعمة وأعز معروف سموا بذلك لأن الثبات عليه شكر له وعرفان لحقه وفيه ايماء الى كفران المنقلبين . و روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد بهم الطائعون لله تعالى من المهاجرين والأنصار وعن على رضى الله عنه أبو بكر وأصحابه رضى الله عنهم وعنه رضى الله عنه أنه قال أبو بكر من الشاكرين ومن أحباء الله تعالى واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لابراز مزيد الاعتناء بشأن جزائهم ﴿وماكان لنفس أن تموت﴾ كلام مستأنف سيق للتنبيه على خطئهم فيما فعلوا حذرا من قتلهم و بناء على الارجاف بقتله عليه الصلاة والسلام ببيان أن موت كل نفس منوط بمشيئة الله عز وجل لايكاد يقع بدون تعلقها به وان خاضت موارد الخوف واقتحمت مضايق كل هول مخوف وقد أشير بذلك الى أنها لم تكن متعلقة بموتهم فى الوقت الذى حذروه فيه و لذلك لم يقتلوا حينئذ لالاحجامهم عن مباشرة القتال و كلمة كان

ناقصة اسمها أن تموت وخبرها الظرف على أنه متعلق بمحذوف وقوله تعالى ﴿الا باذن الله﴾ استثناء مفرغ من أعم الأسباب أى وما كان الموت حاصلا لنفس من النفوس بسبب من الأسباب الا بمشيئته تعالى على أن الاذن مجاز منها لكونها من لوازمه أو الا باذنه لملك الموت فى قبض روحها وسوق الكلام مساق التمثيل بتصوير الموت بالنسبة الى النفوس بصورة الأفعال الاختيارية التى لا يتسنى للفاعل ايقاعها والاقدام عليها بدون اذنه تعالى أو بتنزيل اقدامها على مباديه أعنى القتال منزلة الاقدام على نفسه للمبالغة فى تحقيق المرام فان موتها حيث استحال وقوعه عند اقدامها عليه أو على مباديه وسعيها فى ايقاعه فلأن يستحيل عند عدم ذلك أولى وأظهر وفيه من التحريض على القتال مالا يخفى ﴿كتابا﴾ مصدر مؤكد لمضمون ماقبله أى كتبه الله كتابا ﴿مؤجلا﴾ موقتا بوقت معلوم لا يتقدم و لا يتأخر ولو ساعة وقرئ موجلا بالواو بدل الهمزة على قياس التخفيف و بعد تحقيق أن مدار الموت والحياة محض مشيئة الله عز وجل من غير أن يكون فيه مدخل لأحد أصلا أشير الى أن توفية ثمرات الأعمال دائرة على ارادتهم ليصرفوها عن الأغراض الدنية الى المطالب السنية فقيل ﴿ومن يرد﴾ أى بعمله ﴿ثواب الدنيا نؤته﴾ بنون العظمة على طريق الالتفات ﴿منها﴾ أى من ثوابها مانشاء أن نؤتيه اياه كما فى قوله عز وجل من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد وهو تعريض بمن شغلتهم الغنائم يومئذ وقدم تفصيله ﴿ومن يرد﴾ أى بعمله ﴿ثواب الآخرة نؤته منها﴾ أى من ثوابها مانشاء من الاضعاف حسبما جرى به الوعد الكريم ﴿وسنجزى الشاكرين﴾ نعمة الاسلام الثابتين عليه الصارفين لما آتاهم الله تعالى من القوى والقدر الى ماخلقت هى لأجله من طاعة الله تعالى لايلويهم عن ذلك صارف أصلا والمراد بهم اما المجاهدون المعهودون من الشهداء وغيرهم واما جنس الشاكرين وهم داخلون فيه دخولا أوليا والجملة اعتراض مقرر لمضمون ماقبله و وعد بالمزيد عليه و فى تصديرها بالسين وابهام الجزاء من التأكيد والدلالة على فخامة شأن الجزاء وكونه بحيث يقصر عنه البيان مالايخفى وقرئ الافعال الثلاثة بالياء ﴿وكأين﴾ كلام مبتدأ ناع عليهم تقصيرهم وسوء صنيعهم فى صدودهم عن سنن الربانيين المجاهدين فى سبيل الله مع الرسل الخالية عليهم السلام وكأين لفظة مركبة من كاف التشبيه وأى حدث فيها بعد التركيب معنى التكثير كما حدث فى كذا وكذا والنون تنوين أثبتت فى الخط على غير قياس وفيها خمس لغات هى احداهن والثانية كائن مثل كاعن والثالثة كأين مثل كعين والرابعة كيئن بياء ساكنة بعدها همزة مكسورة وهى قلب ماقبلها والخامسة كأن مثل كعن وقد قرئ بكل منها ومحلها الرفع بالابتداء وقوله تعالى ﴿من نبى﴾ تمييز لها لأنها مثل كم الخبرية وقد جاء تمييزها منصوبا كما فى قوله

أطرد اليأس بالرجا فكأين آملا حم يسره بعد عسر

وقوله تعالى ﴿قاتل معه ربيون كثير﴾ خبر لها على أن الفعل مسند الى الظاهر والرابط هو الضمير المجرور فى معه وقرئ قتل وقتل على صيغة المبنى للمفعول مخففة ومشددة والربى منسوب الى الرب كالربانى وكسر الراء من تغييرات النسب وقرئ بضمها و بفتحها أيضا على الأصل وقيل هو منسوب الى الربة وهى الجماعة أى كثير من الأنبياء قاتل معه لاعلاء كلمة الله واعزاز دينه علماء أتقياء أو عابدون أو جماعات كثيرة فالظرف متعلق بقاتل أو بمحذوف وقع حالا من فاعله كما فى القراءتين الأخيرتين اذ لا احتمال فيهما لتعلقه بالفعل أى قتلوا أو قتلوا كائنين معه فى القتال لا فى القتل قال سعيد بن جبير ماسمعنا بنبى قتل فى القتال وقال الحسن البصرى وجماعة من العظماء لم يقتل نبى فى حرب قط وقيل الفعل مسند الى ضمير النبى والظرف متعلق بمحذوف وقع حالا منه والرابط هو الضمير المجرور الراجع اليه وهذا واضح على القراءة المشهورة بلاخلاف أى كم من نبى قاتل كائنا معه فى القتال ربيون كثير وأما على القراءتين الأخيرتين فغير

ظاهر لاسيما على قراءة التشديد وقدجوزه بعضهم وأيده بأن مدار التوبيخ انخذالهم للارجاف بقتله عليه السلام أى كم من نبي قتل كائنا معه فى القتل أو فى القتال ربيون الخ وقوله تعالى ﴿فما وهنوا﴾ عطف على قاتل على أن المراد بهعدم الوهن المتوقع من القتال كما فى قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر فان الاتيان بالشيء بعد ورود مايوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه بحسب الظاهر لكنه بحسب الحقيقة صنع جديد مصحح لدخول الفاء المرتبة له على ماقبله أى فما فتروا وما انكسرت همتهم ﴿لما أصابهم﴾ فى أثناء القتال وهو علة للنفى دون المنفى نعم يشعر بعلته قوله تعالى ﴿فى سبيل الله﴾ فان كون ذلك فى سبيله عزوجل مما يقوى قلوبهم و يزيل وهنهم وماموصولة أوموصوفة فان جعل الضميران لجميع الربيين فهى عبارة عما عدا القتل من الجراح وسائر المكاره المعترية للكل وان جعلا للبعض الباقين بعد ما قتل الآخرون كما هو الأنسب بمقام توبيخ المنخذلين بعد ما استشهد الشهداء فهى عبارة عما ذكر مع مااعتراهم من قتل اخوانهم من الخوف والحزن وغير ذلك هذا على القراءة المشهورة وأما على القراءتين الأخيرتين فان أسند الفعل الى الربيين فالضميران للباقين منهم حتما وان أسند الى ضمير النبي كما هو الأنسب بالتوبيخ على الانخذال بسبب الارجاف بقتله عليه الصلاة والسلام فهما للباقين أيضا ان اعتبر كون الربيين مع النبى فى القتل وللجميع ان اعتبر كونهم معه فى القتال ﴿وماضعفوا﴾ عن العدو وقيل عن الجهاد وقيل فى الدين ﴿وما استكانوا﴾ أى وماخضعوا للعدو وأصله استكن من السكون لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليفعل به مايريده والألف من اشباع الفتحة أواستكون من الكون لأنه يطلب أن يكون لمن يخضع له وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانكسار عند استيلاء الكفرة عليهم والارجاف بقتل النبى صلى الله عليه وسلم و بضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم حين أرادوا أن يعتضدوا بابن أبى المنافق فى طلب الأمان من أبى سفيان ﴿والله يحب الصابرين﴾ أى على مقاساة الشدائد ومعاناة المكاره فى سبيل الله فينصرهم و يعظم قدرهم والمراد بالصابرين اما المعهودون والاظهار فى موضع الاضمار للثناء عليهم بحسن الصبر والاشعار بعلة الحكم واما الجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا والجملة تذييل لما قبلها ﴿وما كان قولهم﴾ كلام مبين لمحاسنهم القولية معطوف على ماقبله من الجمل المبينة لمحاسنهم وقولهم بالنصب الفعلية خبر لكان واسمها أن ومابعدها فى قوله تعالى ﴿الا أن قالوا﴾ والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء ماكان قولا لهم عند أى لقاء العدو واقتحام مضايق الحرب واصابة ماأصابهم من فنون الشدائد والأهوال شىء من الأشياء الا أن قالوا ﴿ربنا اغفر لنا ذنوبنا﴾ أى صغائرنا ﴿واسرافنا فى أمرنا﴾ أى تجاوزنا الحد فى ركوب الكبائر أضافوا الذنوب والاسراف الى أنفسهم مع كونهم ربانيين برآء من التفريط فى جنب الله تعالى هضما لها واستقصارا لهممهم واسنادا لما أصابهم الى أعمالهم وقدموا الدعاء بمغفرتها على ماهو الأهم بحسب الحال من الدعاء بقولهم ﴿وثبت أقدامنا﴾ أى فى مواطن الحرب بالتقوية والتأييد من عندك أوثبتنا على دينك الحق ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ تقريبا له الى حيز القبول فان الدعاء المقرون بالخضوع الصادر عن زكاء وطهارة أقرب الى الاستجابة والمعنى لم يزالوا مواظبين على هذا الدعاء من غير أن يصدر عنهم قول يوهم شائبة الجزع والخور والتزلزل فى مواقف الحرب ومراصد الدين وفيه من التعريض بالمنهزمين مالايخفى وقرأ ابن كثير وعاصم فى رواية عنهما برفع قولهم على أنه الاسم والخبر أن ومافى حيزها أى ما كان قولهم حينئذ شيأ من الأشياء الا هذا القول المنبيء عن أحاسن المحاسن وهذا كما ترى أقعد بحسب المعنى وأوفق بمقتضى المقام لما أن الاخبار بكون قولهم المطلق خصوصية قولهم المحكى عنهم مفصلا كما تفيده قراءتهما أكثر افادة للسامع من الاخبار بكون خصوصية قولهم المذكور قولهم لما أن مصب الفائدة وموقع البيان فى الجمل الخبرية هو الخبر فالأحق بالخبرية ماهو أكثر افادة وأظهر دلالة على

الحدث وأوفر اشتمالا على نسب خاصة بعيدة من الوقوع فى الخارج و فى ذهن السامع و لايخفى أن ذلك ههنا فى أن مع مافى حيزها أتم وأكمل وأما ماتفيده الاضافة من النسبة المطلقة الاجمالية فحيث كانت سهلة الحصول خارجا وذهنا كان حقها أن تلاحظ ملاحظة اجمالية وتجعل عنوانا للموضوع لامقصودا بالذات فى باب البيان وانما اختار الجمهور مااختاره لقاعدة صناعية هى أنه اذا اجتمع معرفتان فالأعرف منهما أحق بالاسمية و لاريب فى أعرفية أن قالوا لدلالته على جهة النسبة و زمان الحدث و لأنه يشبه المضمر من حيث أنه لايوصف و لايوصف به وقولهم مضاف الى مضمر فهو بمنزلة العلم فتأمل ﴿فآتاهم الله﴾ بسبب دعائهم ذلك ﴿ثواب الدنيا﴾ أى النصر والغنيمة والعز والذكر الجميل ﴿وحسن ثواب الآخرة﴾ أى وثواب الآخرة الحسن وهو الجنة والنعيم المخلد وتخصيص وصف الحسن به للايذان بفضله ومزيته وأنه المعتد به عنده تعالى ﴿والله يحب المحسنين﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله فان محبة الله تعالى للعبد عبارة عن رضاه عنه وارادة الخير به فهى مبدأ لكل سعادة واللام اما للعهد وانما وضع المظهر موضع ضمير المعهودين للاشعار بأن ماحكى عنهم من الأفعال والأقوال من باب الاحسان واما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا وهذا أنسب بمقام ترغيب المؤمنين فى تحصيل ماحكى عنهم من المناقب الجليلة ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ شروع فى زجرهم عن متابعة الكفار ببيان استتباعها لخسران الدنيا والآخرة اثر ترغيبهم فى الاقتداء بأنصار الأنبياء عليهم السلام ببيان افضائه الى فوزهم بسعادة الدارين وتصدير الخطاب بالنداء والتنبيه لاظهار الاعتناء بما فى حيزه ووصفهم بالايمان لتذكير حالهم وتثبيتهم عليها باظهار مباينتها لحال أعدائهم كما أن وصف المنافقين بالكفر فى قوله تعالى ﴿ان تطيعوا الذين كفروا﴾ لذلك قصدا الى مزيد التنفير عنهم والتحذير عن طاعتهم قال على رضى الله عنه نزلت فى قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة ارجعوا الى اخوانكم وادخلوا فى دينهم فوقوع قوله تعالى ﴿يردوكم على أعقابكم﴾ جوابا للشرط مع كونه فى قوة أن يقال ان تطيعوهم فى قولهم ارجعوا الى اخوانكم وادخلوا فى دينهم يدخلوكم فى دينهم باعتبار كونه تمهيدا لقوله تعالى ﴿فتنقلبوا خاسرين﴾ أى للدنيا والآخرة غير فائزين بشيء منهما واقعين فى العذاب الخالد على أن الارتداد على العقب علم فى انتكاس الأمر ومثل فى الحور بعد الكور وقيل المراد بهم اليهود والنصارى حيث كانوا يستغوونهم و يوقعون لهم الشبه فى الدين ويقولون لو كان نبيا حقا لما غلب ولما أصابه وأصحابه ماأصابهم وانما هو رجل حاله كحال غيره من الناس يوما عليه و يوما له وقيل أبو سفيان وأصحابه والمراد بطاعتهم استئمانهم والاستكانة لهم وقيل الموصول على عمومه والمعنى نهى المؤمنين عن طاعتهم فى أمر من الأمور حتى لا يستجروهم الى الارتداد عن الدين فلا حاجة على هذه التقادير الى مامر من البيان ﴿بل الله مولاكم﴾ اضراب عما يفهم من مضمون الشرطية كأنه قيل فليسوا أنصاركم حتى تطيعوهم بل الله ناصركم لاغيره فأطيعوه واستغنوا به عن موالاتهم وقرىء بالنصب كأنه قيل فلا تطيعوهم بل أطيعوا الله ومولاكم نصب على أنه صفة له ﴿وهو خير الناصرين﴾ فخصوه بالطاعة والاستعانة ﴿سنلقى﴾ بنون العظمة على طريقة الالتفات جريا على سنن الكبرياء لتربية المهابة وقرىء بالياء والسين لتأكيد الالقاء ﴿فى قلوب الذين كفروا الرعب﴾ بسكون العين وقرىء بضمها على الأصل وهوماقذف فى قلوبهم من الخوف يوم أحد حتى تركوا القتال ورجعوا من غير سبب ولهم القوة والغلبة وقيل ذهبوا الى مكة فلما كانوا ببعض الطريق قالوا ماصنعنا شيأ قتلنا منهم ثم تركناهم ونحن قاهرون ارجعوا فاستأصلوهم فعند ذلك ألقى الله تعالى فى قلوبهم الرعب فأمسكوا فلابد من كون نزول الآية فى تضاعيف الحرب أوعقيب انقضائه وقيل هو ماألقى فى قلوبهم من الرعب يوم الأحزاب ﴿بما أشركوا بالله﴾ متعلق بنلقى دون الرعب ومامصدرية أى بسبب اشراكهم به تعالى فانه من موجبات خذلانهم ونصر

المؤمنين عليهم وكلاهما من دواعى الرعب ﴿مالم ينزل به﴾ أى باشراكه ﴿سلطانا﴾ أى حجة سميت به لوضوحها وانارتها
أو لقوتها أو لحدتها ونفوذها وذكر عدم تنزيلها مع استحالة تحققها فى نفسها من قبيل قوله ولاترى الضب بها ينجحر
أى لاضب ولا انجحار وفيه ايذان بأن المتبع فى الباب هو البرهان السماوى دون الآراء والاهواء الباطلة ﴿ومأواهم﴾
بيان لأحوالهم فى الآخرة اثر بيان أحوالهم فى الدنيا وهى الرعب أى مايأوون اليه فى الآخرة ﴿النار﴾ لاملجأ لهم
غيرها ﴿وبئس مثوى الظالمين﴾ أى مثواهم وانما وضع موضعه المظهر المذكور للتغليظ والتعليل والاشعار بأنهم
فى اشراكهم ظالمون واضعون للشىء فى غير موضعه والمخصوص بالذم محذوف أى بئس مثوى الظالمين النار وفى جعلها
مثواهم بعد جعلها مأواهم نوع رمز الى خلودهم فيها فان المثوى مكان الاقامة المنبئة عن المكث وأما المأوى فهو المكان
الذى يأوى اليه الانسان ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ نصب على أنه مفعول ثان لصدق صريحا وقيل بنزع الجار أى
فى وعده نزلت حين قال ناس من المؤمنين عند رجوعهم الى المدينة من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله تعالى بالنصر وهو
ماوعدهم على لسان نبيه عليه السلام من النصر حيث قال للرماة لاتبرحوا مكانكم فلن نزال غالبين ماثبتم مكانكم وفى
رواية أخرى لاتبرحوا عن هذا المكان فانا لانزال غالبين مادمتم فى هذا المكان وقد كان كذلك فان المشركين لما أقبلوا
جعل الرماة يرشقونهم والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم يقتلونهم قتلا ذريعا وذلك قوله
تعالى ﴿اذ تحسونهم﴾ أى تقتلونهم قتلا كثيرا فاشيا من حسه اذا أبطل حسه وهو ظرف لصدقكم وقوله تعالى ﴿باذنه﴾
أى بتيسيره وتوفيقه لتحقيق أن قتلهم بما وعدهم الله تعالى من النصر وقيل هو ماوعدهم بقوله تعالى ان تصبروا وتتقوا
الآية وقد مر تحقيق أن ذلك كان يوم بدر كيف لا والموعود بما ذكر امداده عز وجل بانزال الملائكة عليهم السلام
وتقييد صدق وعده تعالى بوقت قتلهم باذنه تعالى صريح فى أن الموعود هو النصر المعنوى والتيسير لا الامداد بالملائكة
وقيل هو ماوعده تعالى بقوله سنلقى الخ وأنت خبير بأن القاء الرعب كان عند تركهم القتال ورجوعهم من غير سبب أو
بعد ذلك فى الطريق على اختلاف الروايتين وأيا ماكان فلاسبيل الى كونه مغيا بقوله تعالى ﴿حتى اذا فشلتم﴾ أى جبنتم
وضعف رأيكم أو ملتم الى الغنيمة فان الحرص من ضعف القلب ﴿وتنازعتم فى الامر﴾ فقال بعض الرماة حين انهزم
المشركون وولوا هاربين والمسلمون على أعقابهم قتلا وضربا فما موقفنا ههنا بعد هذا وقال أميرهم عبد الله بن جبير
رضى الله عنه لانخالف أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فثبت مكانه فى نفر دون العشرة من أصحابه ونفر الباقون للنهب
وذلك قوله تعالى ﴿وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون﴾ أى من الظفر والغنيمة وانهزام العدو فلما رأى المشركون
ذلك حملوا عليهم من قبل الشعب وقتلوا أمير الرماة ومن معه من أصحابه حسبما فصل فى تفسير قوله تعالى أفان مات أو قتل انقلبتم
على أعقابكم وجواب اذا محذوف وهو منعكم نصره وقيل هو امتحنكم ويرده جعل الابتلاء غاية للصرف المترتب على منع
النصر وقيل هو انقسمتم الى قسمين كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ وهم الذين تركوا المركز وأقبلوا على
النهب ﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾ وهم الذين ثبتوا مكانهم حتى نالوا شرف الشهادة هذا على تقدير كون اذا شرطية وحتى
ابتدائية داخلة على الجملة الشرطية وقيل اذا اسم كما فى قولهم اذا يقوم زيد يقوم عمرو وحتى حرف جر بمعنى الى متعلقة بقوله تعالى
صدقكم باعتبار تضمنه لمعنى النصر كأنه قيل لقد نصركم الله الى وقت فشلكم وتنازعكم الخ وعلى هذا فقوله تعالى ﴿ثم صرفكم
عنهم﴾ عطف على ذلك وعلى الاول عطف على الجواب المحذوف كما أشير اليه والجملتان الظرفيتان اعتراض بين المتعاطفين
أى كفكم عنهم حتى حالت الحال ودالت الدولة وفيه من اللطف بالمسلمين مالايخفى ﴿ليبتليكم﴾ أى يعاملكم معاملة من
يمتحنكم بالمصائب ليظهر ثباتكم على الايمان عندها ﴿ولقد عفا عنكم﴾ تفضلا ولما علم من ندمكم على المخالفة ﴿والله ذو

فضل على المؤمنين﴾ تذييل مقرر لمضمون ماقبله ومؤذن بأن ذلك العفو بطريق التفضل والاحسان لابطريق الوجوب عليه
أى شأنه أن يتفضل عليهم بالعفو أو هو متفضل عليهم فى جميع الاحوال أديل لهم أو أديل عليهم اذ الابتلاء أيضا رحمة
والتنكير للتفخيم والمراد بالمؤمنين اما المخاطبون والاظهار فى موقع الاضمار للتشريف والاشعار بعلة الحكم واما الجنس
وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا ﴿اذ تصعدون﴾ متعلق بصرفكم أو بقوله تعالى ليبتليكم أو بمقدر كما ذكروا
والإصعاد الذهاب والابعاد فى الارض وقرىء تصعدون من الثلاثى أى فى الجبل وقرىء تصعدون من التفعل بطرح
احدى التاءين وقرىء يصعدون بالالتفات الى الغيبة ﴿ولا تلوون على أحد﴾ أى لاتلتفتون الى ما وراءكم ولا يقف
واحد منكم لواحد وقرىء تلون بواو واحدة بقلب الواو المضمومة همزة وحذفها تخفيفا وقرىء يلوون كيصعدون
﴿والرسول يدعوكم﴾ كان عليه الصلاة والسلام يدعوهم الى عباد الله الى عباد الله أنا رسول الله من يكر فله الجنة وايراده
عليه السلام بعنوان الرسالة للايذان بأن دعوته عليه السلام كانت بطريق الرسالة من جهته سبحانه اشباعا فى توبيخ
المنهزمين ﴿فى أخراكم﴾ فى ساقتكم وجماعتكم الأخرى ﴿فأثابكم﴾ عطف على صرفكم أى فجازاكم الله تعالى بما
صنعتم ﴿غما﴾ موصولا ﴿بغم﴾ من الاغتمام بالقتل والجرح وظفر المشركين والارجاف بقتل الرسول صلى
الله عليه وسلم وفوت الغنيمة فالتنكير للتكثير أو غما بمقابلة غم أذقتموه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعصيانكم له
﴿لكيلا تحزنوا على مافاتكم ولا ما أصابكم﴾ أى لتتمرنوا على الصبر فى الشدائد فلا تحزنوا على نفع فات أو ضر آت
وقيل لازائدة والمعنى لتتأسفوا على مافاتكم من الظفر والغنيمة وعلى ما أصابكم من الجراح والهزيمة عقوبة لكم وقيل
الضمير فى أثابكم للرسول صلى الله عليه وسلم أى واساكم فى الاغتمام فاغتم بما نزل عليكم كما اغتممتم بما نزل عليه ولم
يثربكم على عصيانكم تسلية لكم وتنفيسا عنكم لئلا تحزنوا على مافاتكم من النصر وما أصابكم من الجراح وغير ذلك
﴿والله خبير بما تعملون﴾ أى عالم بأعمالكم وبما قصدتم بها ﴿ثم أنزل عليكم﴾ عطف على قوله تعالى فأثابكم
والخطاب للمؤمنين حقا ﴿من بعد الغم﴾ أى الغم المذكور والتصريح بتأخر الانزال عنه مع دلالة ثم عليه وعلى تراخيه
عنه لزيادة البيان وتذكير عظم النعمة كما فى قوله تعالى ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا الآية ﴿أمنة﴾ أى أمنا نصب
على المفعولية وقوله تعالى ﴿نعاسا﴾ بدل منها أو عطف بيان وقيل مفعول له أو هو المفعول وأمنة حال منه متقدمة
عليه أو مفعول له أو حال من المخاطبين على تقدير مضاف أى ذوى أمنة أو على أنه جمع آمن كبار وبررة وقرىء
بسكون الميم كأنها مرة من الأمن وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر غير مرة من الاعتناء بشأن المقدم
والتشويق الى المؤخر وتخصيص الخوف من بين فنون الغم بالازالة لانه المهم عندهم حينئذ لما أن المشركين لما
انصرفوا كانوا يتوعدون المسلمين بالرجوع فلم يأمنوا كرتهم وكانوا تحت الحجف متأهبين للقتال فأنزل الله تعالى عليهم
الأمنة فأخذهم النعاس . قال ابن عباس رضى الله عنهما أمنهم يومئذ بنعاس تغشاهم بعد خوف وانما ينعس من أمن
والخائف لاينام وقال الزبير رضى الله عنه كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف فأنزل الله علينا النوم
والله انى لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشانى ماأسمعه الا كالحلم يقول لو كان لنا من الامر شىء ماقتلنا ههنا وقال
أبو طلحة رضى الله عنه رفعت رأسى يوم أحد فجعلت لا أرى أحدا من القوم الا وهو يميد تحت حجفته من النعاس . قال
وكنت ممن ألقى عليه النعاس يومئذ فكان السيف يسقط من يدى فآخذه ثم يسقط السوط من يدى فآخذه وفيه دلالة
على أن من المؤمنين من لم يلق عليه النعاس كما ينبىء عنه قوله عز وجل ﴿يغشى طائفة منكم﴾ قال ابن عباس هم المهاجرون
وعامة الانصار ولا يقدح ذلك فى عموم الانزال للكل والجملة فى محل النصب على أنها صفة لنعاسا وقرىء بالتاء على أنها

صفة لأمنة وفيه أن الصفة حقها أن تتقدم على البدل وعطف البيان وأن لا يفصل بينها و بين الموصوف بالمفعول له وأن المعهود أن يحدث عن البدل دون المبدل منه ﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم﴾ أى أوقعتهم فى الهموم والأحزان أوما بهم الا هم أنفسهم وقصد خلاصها من قولهم همنى الشئ أى كان من همتى وقصدى والقصر مستفاد بمعونة المقام وطائفة مبتدأ ومابعدها اما خبرها وانما جاز ذلك مع كونها نكرة لاعتمادها على واو الحال كما فى قوله

سرينا ونجم قد أضاء فمذ بدا   محياك أخفى ضوءه كل شارق

أو لوقوعها فى موضع التفصيل كما فى قوله   اذا مابكى من خلفها انصرفت له   بشق وشق عندنا لم يحول

واما صفتها والخبر محذوف أى ومعكم طائفة أو وهناك طائفة وقيل تقديره ومنكم طائفة وفيه أنه يقتضى دخول المنافقين فى الخطاب بانزال الأمنة وأياما كان فالجملة اما حالية مبينة لفظاعة الهول مؤكدة لعظم النعمة فى الخلاص عنه كما فى قوله تعالى أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا و يتخطف الناس من حولهم واما مستأنفة مسوقة لبيان حال المنافقين وقوله عز وجل ﴿يظنون بالله﴾ حال من ضمير أهمتهم أو من طائفة لتخصصها بالصفة أو صفة أخرى لها أو خبر بعد خبر أو استئناف مبين لما قبله وقوله تعالى ﴿غير الحق﴾ فى حكم المصدر أى يظنون به تعالى غير الظن الحق الذى يجب أن يظن به سبحانه وقوله تعالى ﴿ظن الجاهلية﴾ بدل منه وهو الظن المختص بالملة الجاهلية والاضافة كما فى حاتم الجود و رجل صدق وقوله تعالى ﴿يقولون﴾ بدل من يظنون لما أن مسئلتهم كانت صادرة عن الظن أى يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم على صورة الاسترشاد ﴿هل لنا من الأمر﴾ أى من أمر الله تعالى و وعده من النصر والظفر ﴿من شئ﴾ أى من نصيب قط أو هل لنا من التدبير من شئ وقوله تعالى ﴿قل ان الأمر كله لله﴾ أى الغلبة بالآخرة لله تعالى و لأوليائه فان حزب الله هم الغالبون أو ان التدبير كله لله فانه تعالى قد دبر الأمر كما جرى فى سابق قضائه فلا مرد له وقرئ كله بالرفع على الابتداء وقوله تعالى ﴿يخفون فى أنفسهم﴾ أى يضمرون فيها أو يقولون فيما بينهم بطريق الخفية ﴿ما لا يبدون لك﴾ استئناف أو حال من ضمير يقولون وقوله تعالى قل ان الأمر الخ اعتراض بين الحال وصاحبها أى يقولون ما يقولون مظهرين أنهم مسترشدون طالبون للنصر مبطنين الانكار والتكذيب وقوله تعالى ﴿يقولون﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل أى شئ يخفون فقيل يحدثون أنفسهم أو يقول بعضهم لبعض فيما بينهم خفية ﴿لو كان لنا من الأمر شئ﴾ كما وعد محمد عليه الصلاة والسلام من أن الغلبة لله تعالى و لأوليائه وأن الأمر كله لله أو لو كان لنا من التدبير والرأى شئ ﴿ماقتلنا ههنا﴾ أى ماغلبنا أو ماقتل من قتل منا فى هذه المعركة على أن النفى راجع الى نفس القتل لا الى وقوعه فيها فقط ولما برحنا من منازلنا كما رآه ابن أبى و يؤيده تعيين مكان القتل و كذا قوله تعالى ﴿قل لو كنتم فى بيوتكم﴾ أى لو لم تخرجوا الى أحد وقعدتم بالمدينة كما تقولون ﴿لبرز الذين كتب عليهم القتل﴾ أى فى اللوح المحفوظ بسبب من الأسباب الداعية الى البروز ﴿الى مضاجعهم﴾ الى مصارعهم التى قدر الله تعالى قتلهم فيها وقتلوا هنالك البتة ولم تنفع العزيمة على الاقامة بالمدينة قطعا فان قضاء الله تعالى لا يرد وحكمه لا يعقب وفيه مبالغة فى رد مقالتهم الباطلة حيث لم يقتصر على تحقيق نفس القتل كما فى قوله عز وجل أينما تكونوا يدرككم الموت بل عين مكانه أيضا و لا ريب فى تعين زمانه أيضا لقوله تعالى فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة و لا يستقدمون. روى أن ملك الموت حضر مجلس سليمان عليه الصلاة والسلام فنظر الى رجل من أهل المجلس نظرة هائلة فلما قام قال الرجل من هذا فقال سليمان عليه السلام ملك الموت قال ارسلنى مع الريح الى عالم آخر فانى رأيت منه مرأى هائلا فأمرها عليه السلام فألقته فى قطر سحيق من أقطار العالم فما لبث أن

عاد ملك الموت الى سليمان عليه السلام فقال كنت أمرت بقبض روح ذلك الرجل فى هذه الساعة فى أرض كذا فلما وجدته فى مجلسك قلت متى يصل هذا اليها وقد أرسلته بالريح الى ذلك المكان فوجدته هناك فقضى أمر الله عز وجل فى زمانه ومكانه من غير اخلال بشئ من ذلك وقرئ كتب على البناء للفاعل ونصب القتل وقرئ كتب عليهم القتال وقرئ لبرز بالتشديد على البناء للمفعول ﴿وليبتلى الله مافى صدوركم﴾ أى ليعاملكم معاملة من يبتلى مافى صدوركم من الاخلاص والنفاق و يظهر ما فيها من السرائر وهو علة لفعل مقدر قبلها معطوفة على علل لها أخرى مطوية للايذان بكثرتها كأنه قيل فعل مافعل لمصالح جمة وليبتلى الخ وجعلها عللا لبرز يأباه الذوق السليم فان مقتضى المقام بيان حكمة ماوقع يومئذ من الشدة والهول لا بيان حكمة البروز المفروض أو لفعل مقدر بعدها أى وللابتلاء المذكور فعل مافعل لا لعدم العناية بأمر المؤمنين ونحو ذلك وتقدير الفعل مقدما خال عن هذه المزية ﴿وليمحص مافى قلوبكم﴾ من مخفيات الامور و يكشفها أو يخلصها من الوساوس ﴿والله عليم بذات الصدور﴾ أى السرائر والضمائر الخفية التى لا تكاد تفارق الصدور بل تلازمها وتصاحبها والجملة اما اعتراض للتنبيه على أن الله تعالى غنى عن الابتلاء وانما يبرز صورة الابتلاء لتمرين المؤمنين واظهار حال المنافقين أو حال من متعلق الفعلين أى فعل مافعل للابتلاء والتمحيص والحال أنه تعالى غنى عنهما محيط بخفيات الامور وفيه وعد و وعيد ﴿ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان﴾ وهم الذين انهزموا يوم أحد حسبما مرت حكايتهم ﴿انما استزلهم الشيطان﴾ أى انما كان سبب انهزامهم أن الشيطان طلب منهم الزلل ﴿ببعض ماكسبوا﴾ من الذنوب والمعاصى التى هى مخالفة أمر النبى صلى الله عليه وسلم وترك المركز والحرص على الغنيمة أو الحياة فحرموا التأييد وقوة القلب وقيل استزلال الشيطان توليهم وذلك بذنوب تقدمت لهم فان المعاصى يجر بعضها الى بعض كالطاعة وقيل استزلهم بذنوب سبقت منهم وكرهوا القتل قبل اخلاص التوبة والخروج من المظلمة ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ لتوبتهم واعتذارهم ﴿ان الله غفور﴾ للذنوب ﴿حليم﴾ لا يعاجل بعقوبة المذنب ليتوب والجملة تعليل لما قبلها على سبيل التحقيق و فى اظهار الجلالة تربية للمهابة وتأكيد للتعليل ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا﴾ وهم المنافقون القائلون لو كان لنا من الامر شئ ماقتلنا ههنا وانما ذكر فى صدر الصلة كفرهم تصريحا بمباينة حالهم لحال المؤمنين وتنفيرا عن مماثلتهم آثر ذى أثير وقوله تعالى ﴿وقالوا لاخوانهم﴾ تعيين لوجه الشبه والمماثلة التى نهوا عنها أى قالوا لاجلهم و فى حقهم ومعنى اخوتهم اتفاقهم نسبا أو مذهبا ﴿اذا ضربوا فى الارض﴾ أى سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها وايثار اذا المفيدة لمعنى الاستقبال على اذ المفيدة لمعنى المضى لحكاية الحال الماضية اذ المراد بها الزمان المستمر المنتظم للحال الذى عليه يدور أمر استحضار الصورة. قال الزجاج اذا ههنا تنوب عما مضى من الزمان ومايستقبل يعنى أنها لمجرد الوقت أو يقصد بها الاستمرار وظرفيتها لقولهم انما هى باعتبار ماوقع فيها بل التحقيق أنها ظرف له لا لقولهم كأنه قيل قالوا لاجل ماأصاب اخوانهم حين ضربوا الخ ﴿أو كانوا﴾ أى اخوانهم ﴿غزا﴾ جمع غاز كعفى جمع عاف قال

ومغبرة الآفاق خاشعة الصوى   لها قلب عفى الحياض أجون

وقرئ بتخفيف الزاى على حذف التاء من غزاة وافراد كونهم غزاة بالذكر مع اندراجه تحت الضرب فى الارض لانه المقصود بيانه فى المقام وذكر الضرب فى الارض توطئة له وتقديمه لكثرة وقوعه على أنه قد يوجد بدون الضرب فى الارض اذ المراد به السفر البعيد وانما لم يقل أو غزوا للايذان باستمرار اتصافهم بعنوان كونهم غزاة أو بانقضاء ذلك أى كانوا غزا فيما مضى وقوله تعالى ﴿لو كانوا عندنا﴾ أى مقيمين ﴿ماماتوا وما قتلوا﴾ مفعول لقالوا ودليل على أن هناك مضمرا قد حذف ثقة به أى اذا ضربوا فى الأرض فماتوا أو كانوا غزا فقتلوا وليس المقصود بالنهى عدم مماثلتهم فى النطق

بهذا القول بل فى الاعتقاد بمضمونه والحكم بموجبه كما أنه المنكر على قائليه ألا يرى الى قوله عز وجل ﴿ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم﴾ فانه الذى جعل حسرة فيها قطعا واليه أشير بذلك كما نقل عن الزجاج انه اشارة الى ظنهم أنهم لولم يحضروا القتال لم يقتلوا وتعلقه بقالوا ليس باعتبار نطقهم بذلك القول بل باعتبار مافيه من الحكم والاعتقاد واللام لام العاقبة كما فى قوله تعالى ليكون لهم عدوا وحزنا أى قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرة فى قلوبهم والمراد بالتعليل المذكور بيان عدم ترتب فائدة ماعلى ذلك أصلا وقيل هو تعليل للنهى بمعنى لاتكونوا مثلهم فى النطق بذلك القول واعتقاده ليجعله الله تعالى حسرة فى قلوبهم خاصة و يصون منها قلوبكم فذلك كما مر اشارة الى مادل عليه قولهم من الاعتقاد ويجوز أن يكون اشارة الى مادل عليه النهى أى لاتكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة فى قلوبهم فان مضادتكم لهم فى القول والاعتقاد مما يغمهم و يغيظهم ﴿والله يحيي و يميت﴾ رد لقولهم الباطل اثر بيان غائلته أى هو المؤثر فى الحياة والممات وحده من غير أن يكون للاقامة أو للسفر مدخل فى ذلك فانه تعالى قد يحيي المسافر والغازى مع اقتحامهما لموارد الحتوف و يميت المقيم والقاعد مع حيازتهما لأسباب السلامة ﴿والله بما تعملون بصير﴾ تهديد للمؤمنين على أن يماثلوهم وقرئ بالياء على أنه وعيد للذين كفروا وما يعملون عام متناول لقولهم المذكور و لمنشئه الذى هو اعتقادهم ولما ترتب على ذلك من الاعمال و لذلك تعرض لعنوان البصر لالعنوان السمع واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتربية المهابة والقاء الروعة والمبالغة فى التهديد والتشديد فى الوعيد ﴿ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم﴾ شروع فى تحقيق أن مايحذرون ترتبه على الغزو والسفر من القتل والموت فى سبيل الله تعالى ليس مما ينبغى أن يحذر بل مما يجب أن يتنافس فيه المتنافسون اثر ابطال ترتبه عليهما واللام هى الموطئة للقسم وما فى قوله تعالى ﴿لمغفرة من الله ورحمة﴾ لام الابتداء والتنوين فى الموضعين للتقليل ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة للمبتدا وقد حذفت صفة رحمة لدلالة المذكور عليها والجملة جواب للقسم ساد مسد جواب الشرط والمعنى ان السفر والغزو ليس مما يجلب الموت و يقدم الأجل أصلا ولئن وقع ذلك بأمر الله تعالى لنفحة يسيرة من مغفرة و رحمة كائنتين من الله تعالى بمقابلة ذلك ﴿خير مما يجمعون﴾ أى الكفرة من منافع الدنيا وطيباتها مدة أعمارهم وعن ابن عباس رضى الله عنهما خير من طلاع الأرض ذهبة حمراء وقرئ بالتاء أى مما تجمعونه أنتم لولم تموتوا والاقتصار على بيان خيريتهما من ذلك بلا تعرض للاخبار بحصولهما لهم للايذان بعدم الحاجة اليه بناء على استحالة التخييب منه تعالى بعد الاطماع وقد قيل لابد من حذف آخر أى لمغفرة لكم من الله الخ وحينئذ يكون أيضا اخراج المقدر مخرج الصفة دون الخبر لنحو ماذكر من ادعاء الظهور والغنى عن الاخبار به وتغيير الترتيب الواقع فى قولهم ماماتوا وماقتلوا المبنى على كثرة الوقوع وقلته للمبالغة فى الترغيب فى الجهاد ببيان زيادة مزية القتل فى سبيل الله وانافته فى استجلاب المغفرة والرحمة وفيه دلالة واضحة على مامر من أن المقصود بالنهى انما هو عدم مماثلتهم فى الاعتقاد بمضمون القول المذكور والعمل بموجبه لافى النطق به واضلال الناس به ﴿ولئن متم أو قتلتم﴾ أى على أى وجه اتفق هلاككم حسب تعلق الارادة الالهية وقرئ متم بكسر الميم من مات يمات ﴿لالى الله﴾ أى الى المعبود بالحق العظيم الشأن الواسع الرحمة الجزيل الاحسان ﴿تحشرون﴾ لاالى غيره فيوفيكم أجوركم ويجزل لكم عطاءكم والكلام فى لامى الجملة كما مر فى أختها ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والفاء لترتيب مضمون الكلام على ماينبئ عنه السياق من استحقاقهم اللائمة والتعنيف بموجب الجبلة البشرية أومن سعة ساحة مغفرته تعالى ورحمته والباء متعلقة بلنت قدمت عليه للقصر ومامزيدة للتوكيد أونكرة ورحمة بدل منها مبين لابهامها والتنوين للتفخيم ومن متعلقة بمحذوف

وقع صفة لرحمة أى فبرحمة عظيمة لهم كائنة من الله تعالى وهى ربطه على جأشه وتخصيصه بمكارم الأخلاق كنت لين الجانب لهم وعاملتهم بالرفق والتلطف بهم حيث اغتممت لهم بعد ما كان منهم ما كان من مخالفة أمرك واسلامك للعدو ﴿ولو﴾ لم تكن كذلك بل ﴿كنت فظا﴾ جافيا فى المعاشرة قولا وفعلا وقال الراغب الفظ هو الكريه الخلق وقال الواحدى هو الغليظ الجانب السيئ الخلق ﴿غليظ القلب﴾ قاسيه وقال الكلبى فظا فى القول غليظ القلب فى الفعل ﴿لانفضوا من حولك﴾ لتفرقوا من عندك ولم يسكنوا اليك وتردوا فى مهاوى الردى والفاء فى قوله عز وجل ﴿فاعف عنهم﴾ لترتيب العفو أوالأمر به على ماقبله أى اذا كان الأمر كما ذكر فاعف عنهم فيما يتعلق بحقوقك كما عفا الله عنهم ﴿واستغفر لهم﴾ الله فيما يتعلق بحقوقه تعالى اتماما للشفقة عليهم واكمالا للبر بهم ﴿وشاورهم فى الأمر﴾ أى فى أمر الحرب اذهو المعهود أوفيه وفى أمثاله مما تجرى فيه المشاورة عادة استظهارا بآرائهم وتطييبا لقلوبهم وتمهيدا لسنة المشاورة للامة وقرئ وشاورهم فى بعض الأمر ﴿فاذا عزمت﴾ أى عقيب المشاورة على شئ واطمأنت به نفسك ﴿فتوكل على الله﴾ فى امضاء أمرك على ماهو أرشد لك وأصلح فان علمه مختص به سبحانه وتعالى وقرئ فاذا عزمت على صيغة التكلم أى عزمت لك على شئ وأرشدتك اليه فتوكل على ولاتشاور بعد ذلك أحدا والالتفات لتربية المهابة وتعليل التوكل أو الأمر به فان عنوان الالوهية الجامعة لجميع صفات الكمال مستدع للتوكل عليه تعالى أو الأمر به ﴿ان الله يحب المتوكلين﴾ عليه تعالى فينصرهم و يرشدهم الى مافيه خير لهم وصلاح والجملة تعليل للتوكل عليه تعالى وقوله تعالى ﴿ان ينصركم الله فلا غالب لكم﴾ جملة مستأنفة سيقت بطريق تلوين الخطاب تشريفا للمؤمنين لايجاب توكلهم عليه تعالى وحثهم على اللجأ اليه وتحذيرهم عما يفضى الى خذلانه أى ان ينصركم كما نصركم يوم بدر فلا أحد يغلبكم على طريق نفى الجنس المنتظم لنفى جميع أفراد الغالب ذاتا وصفة ولوقيل فلايغلبكم أحد لدل على نفى الصفة فقط ثم المفهوم من ظاهر النظم الكريم وان كان نفى مغلوبيتهم من غير تعرض لنفى المساواة أيضا وهو الذى يقتضيه المقام لكن المفهوم منه فهما قطعيا هو نفى المساواة واثبات الغالبية للمخاطبين فاذا قلت لا أكرم من فلان أو لاأفضل منه فالمفهوم منه حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل وهذا أمر مطرد فى جميع اللغات و لا اختصاص له بالنفى الصريح بل هو مطرد فيما ورد على طريق الاستفهام الانكارى كما فى قوله تعالى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا فى مواقع كثيرة من التنزيل ومما هو نص قاطع فيما ذكرنا ماوقع فى سورة هود حيث قيل بعده فى حقهم لاجرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون فان كونهم أخسر من كل خاسر يستدعى قطعا كونهم أظلم من كل ظالم ﴿وان يخذلكم﴾ كما فعل يوم أحد وقرئ يخذلكم من أخذله اذا جعله مخذولا ﴿فمن ذا الذى ينصركم﴾ استفهام انكارى مفيد لانتفاء الناصر ذاتا وصفة بطريق المبالغة ﴿من بعده﴾ أى من بعد خذلانه تعالى أومن بعد الله تعالى على معنى اذا جاوزتموه ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ تقديم الجار والمجرور على الفعل لافادة قصره عليه تعالى والفاء لترتيبه أو ترتيب الأمر به على مامر من غلبة المخاطبين على تقدير نصرته تعالى لهم ومغلوبيتهم على تقدير خذلانه تعالى اياهم فان العلم بذلك مما يقتضى قصر التوكل عليه تعالى لامحالة والمراد بالمؤمنين اما الجنس والمخاطبون داخلون فيه دخولا أوليا واماهم خاصة بطريق الالتفات وأياما كان ففيه تشريف لهم بعنوان الايمان اشتراكا أو استقلالا وتعليل لتحتم التوكل عليه تعالى فان وصف الايمان مما يوجبه قطعا ﴿وما كان لنبي﴾ أى وما صح لنبي من الانبياء ولااستقام له ﴿أن يغل﴾ أى يخون فى المغنم فان النبوة تنافيه منافاة بينة يقال غل شيأ من المغنم يغل غلولا وأغل اغلالا اذا أخذه خفية والمراد اما تنزيه ساحة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما ظن به الرماة يوم أحد حين تركوا المركز وأفاضوا فى الغنيمة وقالوا نخشى أن يقول رسول الله صلى الله

عليه وسلم من أخذ شيئاً فهو له و لا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم ألم أعهد اليكم أن لاتتركوا المركز حتى يأتيكم أمرى فقالوا تركنا بقية اخواننا وقوفا فقال عليه السلام بل ظننتم أنانغل و لانقسم بينكم وأماالمبالغة فى النهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ماروى أنه بعث طلائع فغنم النبى صلى الله عليه وسلم بعدهم غنائم فقسمها بين الحاضر ولم يترك للطلائع شيئاً فنزلت . والمعنى ما كان لنبى أن يعطى قوما من العسكر و يمنع آخرين بل عليه أن يقسم بين الكل بالسوية وعبر عن حرمان بعض الغزاة بالغلول تغليظا وأماماقيل من أن المراد تنزيه عليه السلام عما تفوه به بعض المنافقين اذ روى أن قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض المنافقين لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها فبعيد جدا وقرئ على البناء للمفعول والمعنى ما كان له أن يوجد غالا أو ينسب الى الغلول ﴿ومن يغلل يأت بمـا غل يوم القيامة﴾ يأت بالذى غله بعينه يحمله على عنقه كما ورد فى الحديث الشريف و روى أنه عليه السلام قال ألا لاأعرفن أحدكم يأتى ببعير له رغاء و ببقرة لهاخوار و بشاة لها ثغاء فينادى يامحمد يامحمد فأقول لاأملك لك من الله شيئاً فقدبلغتك أو يأت بمـا احتمل من اثمه و باله ﴿ثم توفى كل نفس ما كسبت﴾ أى تعطى وافيا جزاء ما كسبت خيراً أو شرا كثيرا أو يسيرا و وضع المكسوب موضع جزائه تحقيقا للعدل ببيان مابينهمامن تمـام التناسب كما و كيفا كأنهما شىء واحد وفى اسناد التوفية الى كل كاسب وتعليقها بكل مكسوب مع أن المقصود بيان حال الغال عند اتيانه بمـا غله يوم القيامة من الدلالة على فخامة شأن اليوم وهول مطلعه والمبالغة فى بيان فظاعة حال الغال مالايخفى فانه حيث وفى كل كاسب جزاء ما كسبه ولم ينقص منه شىء وان كان جرمه فى غاية القلة والحقارة فلأن لا ينقص من جزاء الغال شىء وجرمه من أعظم الجرائم أظهر وأجلى ﴿وهم﴾ أى كل الناس المدلول عليهم بكل نفس ﴿لا يظلمـون﴾ بزيادة عقاب أو بنقص ثواب ﴿أفمن اتبع رضوان الله﴾ أى سعى فى تحصيله وانتحى نحوه حيثما كان بفعل الطاعات وترك المنكرات كالنبى ومن يسير بسيرته ﴿كمن باء﴾ أى رجع ﴿بسخط﴾ عظيم لايقادر قدره كائن ﴿من الله﴾ تعالى بسبب معاصيه كالغال ومن يدين بدينه والمراد تأكيد نفى الغلول عن النبى عليه الصلاة والسلام وتقريره بتحقيق المباينة الكلية بينه و بين الغال حيث وصف كل منهما بنقيض ماوصف به الآخر فقوبل رضوانه تعالى بسخطه والاتباع بالبوء والجمع بين الهمزة والفاء لتوجيه الانكار الى ترتب توهم المماثلة بينهما والحكم بها على ماذكر من حال الغال كأنه قيـل أبعد ظهور حاله يكون من ترقى الى أعلى عليين كمن تردى الى أسفل سافلين واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لادخال الروعة وتربية المهابة ﴿ومأواه جهنم﴾ اما كلام مستأنف مسوق لبيان مآل أمر من باء بسخطه تعالى واما معطوف على قوله تعالى باء بسخط عطف الصـلة الاسمية على الفعلية وأياما كان فلا محل له من الاعراب ﴿و بئس المصير﴾ اعتراض تذييلى والمخصوص بالذم محذوف أى و بئس المصير جهنم والفرق بينه و بين المرجع أن الاول يعتبر فيه الرجوع على خلاف الحالة الأولى بخلاف الثانى ﴿هم﴾ راجع الى الموصولين باعتبار المعنى ﴿درجات عند الله﴾ أى طبقات متفاوتة فى علمه تعالى وحكمه شبهوا فى تفاوت الأحوال وتباينها بالدرجات مبالغة وايذانا بأن بينهم تفاوتا ذاتيا كالدرجات أو ذو و درجات ﴿والله بصير بمـا يعملون﴾ من الأعمال ودرجاتهـا فيجازيهم بحسبها ﴿لقد من الله﴾ جواب قسم محذوف أى والله لقد من الله أى أنعم ﴿على المؤمنين﴾ أى من قومه عليه السلام ﴿اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم﴾ أى من نسبهم أو من جنسهم عربيا مثلهم ليفقهوا كلامه بسهولة و يكونوا واقفين على حاله فى الصدق والأمانة مفتخرين به و فى ذلك شرف لهم عظيم قال الله تعالى وانه لذكر لك ولقومك وقرئ من أنفسهم أى أشرفهم فانه عليه السـلام كان من أشرف قبائل العرب و بطونها وقرئ لمن من الله على المؤمنين اذ بعث الخ

على أنه خبر لمبتدا محذوف أى منه اذ بعث الخ أو على أن اذ فى محل الرفع على الابتداء بمعنى لمن من الله على المؤمنين وقت بعثه وتخصيصهم بالامتنان مع عموم نعمة البعثة للأسود والأحمر لمـا مر من مزيد انتفاعهم بها وقوله تعالى من أنفسهم متعلق بمحذوف وقع صفة لرسولا أى كائنا من أنفسهم وقوله تعالى ﴿يتلو عليهم آياته﴾ صفة أخرى أى يتلو عليهم القرآن بعد ما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شىء من الوحى ﴿ويزكيهم﴾ عطف على يتلو أى يطهرهم من دنس الطبائع وسوء العقائد وأوضار الأوزار ﴿و يعلمهم الكتاب والحكمة﴾ أى القرآن والسنة وهو صفة أخرى لرسولا مترتبة فى الوجود على التلاوة وانمـا وسط بينهما التزكية التى هى عبارة عن تكميل النفس بحسب القوة العملية وتهذيبها المتفرع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصل بالتعليم المترتب على التلاوة للايذان بأن كل واحد من الأمور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر فلو روعى ترتيب الوجود كما فى قوله تعالى ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك و يعلمهم الكتاب والحكمة و يزكيهم لتبادر الى الفهم عد الجميع نعمة واحدة وهو السر فى التعبير عن القرآن بالآيات تارة و بالكتاب والحكمة أخرى رمزا الى أنه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة و لايقدح فى ذلك شمول الحكمة لمـا فى مطاوى الأحاديث الكريمة من الشرائع كما سلف فى سورة البقرة ﴿وان كانوا من قبل﴾ أى من قبل بعثته عليه السلام وتزكيته وتعليمه ﴿لفى ضلال مبين﴾ أى بين لاريب فى كونه ضلالا وان هى المخففة من المثقلة وضمير الشأن محذوف واللام فارقة بينها و بين النافية والظرف الأول لغو متعلق بكان والثانى خبرها وهى مع خبرها خبر لان المخففة التى حذف اسمها أعنى ضمير الشأن وقيل هى نافية واللام بمعنى الا أى وما كانوا من قبل الا فى ضلال مبين وأياما كان فالجملة اما حال من الضمير المنصوب فى يعلمهم أو مستأنفة وعلى التقديرين فهى مبينة لكمال النعمة وتمـامها ﴿أولمـا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا﴾ كلام مبتدأ مسوق لابطال بعض ماصدر عنهم من الظنون الفاسدة والأقاويل الباطلة الناشئة منها اثر ابطال بعض آخر منها والهمزة للتقريع والتقرير والواو عاطفة لمدخولها على محذوف قبلها ولمـا ظرف لقلتم مضاف الى مابعده وقد أصبتم فى محل الرفع على أنه صفة لمصيبة والمراد بها ماأصابهم يوم أحد من قتل سبعين منهم و بمثليها ما أصاب المشركين يوم بدر من قتل سبعين منهم وأسر سبعين وأنى هذا مقول قلتم وتوسيط الظرف ومايتعلق به بينه و بين الهمزة مع أنه المقصود انكاره والمعطوف بالواو حقيقة لتأكيد النكير وتشديد التقريع فان فعل القبيح فى غير وقته أقبح والانكار على فاعله أدخل والمعنى أحين أصابكم من المشركين نصف ماقد أصابهم منكم قبل ذلك جزعتم وقلتم من أين أصابنا هذا وقد تقدم الوعد بالنصر على توجيه الانكار والتقريع الى صدور ذلك القول عنهم فى ذلك الوقت خاصة بناء على عدم كونه مظنة له داعيا اليه بل على كونه داعيا الى عدمه فان كون مصيبة عدوهم ضعف مصيبتهم ممـا يهون الخطب و يورث السلوة أوأفعلتم مافعلتم ولمـا أصابتكم غائلته قلتم أنى هذا على توجيه الانكار الى استبعادهم الحادثة مع مباشرتهم لسببها وتذكير اسم الاشارة فى أنى هذا مع كونه اشارة الى المصيبة ليس لكونها عبارة عن القتل ونحوه بل لمـا أن اشارتهم ليست الا الى ما شاهدوه فى المعركة من حيث هو هو من غير أن يخطر ببالهم تسميته باسم ما فضلا عن تسميته باسم المصيبة وانمـا هى عند الحكاية وقوله عز وجل ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب عن سؤالهم الفاسد اثر تحقيق فساده بالانكار والتقريع و يبكتهم ببيان أن مانالهم انمـا نالهم من جهتهم بتركهم المركز وحرصهم على الغنيمة وقيل باختيارهم الخروج من المدينة و يأباه أن الوعد بالنصر كان بعد ذلك كما ذكر عند قوله تعالى ولقد صدقكم الله وعده الآية وأن عمل النبى صلى الله عليه وسلم بموجبه قد رفع الخطر عنه وخفف جنايتهم فيه على أن اختيار الخروج والاصرار عليه كان ممن أكرمهم الله تعالى بالشهادة

يومئذ وأين هم من التفوه بمثل هذه الكلمة وقيل بأخذهم الفداء يوم بدر قبل أن يؤذن لهم والأول هو الأظهر الأقوى وانما يعضده توسيط خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم بين الخطابين المتوجهين الى المؤمنين وتفويض التبكيت اليه عليه السلام فان توبيخ الفاعل على الفعل اذا كان ممن نهاه عنه كان أشد تأثيرا ﴿ان الله على كل شيء قدير﴾ ومن جملته النصر عند الطاعة والخذلان عند المخالفة وحيث خرجتم عن الطاعة أصابكم منه تعالى ماأصابكم والجملة تذييل مقرر لمضمون ماقبلها داخل تحت الأمر ﴿وماأصابكم﴾ رجوع الى خطاب المؤمنين اثر خطابه عليه السلام بسر يقتضيه وارشاد لهم الى طريق الحق فيما سألوا عنه وبيان لبعض مافيه من الحكم والمصالح ودفع لما عسى أن يتوهم من قوله تعالى هو من عند أنفسكم من استقلالهم فى وقوع الحادثة والعدول عن الاضمار الى ماذكر للتهويل وزيادة التقرير بيان وقته بقوله تعالى ﴿يوم التقى الجمعان﴾ أى جمعكم وجمع المشركين ﴿فباذن الله﴾ أى فهو كائن بقضائه وتخليته الكفار سمى ذلك اذنا لكونها من لوازمه ﴿وليعلم المؤمنين﴾ عطف على قوله تعالى فباذن الله عطف المسبب على السبب والمراد بالعلم التمييز والاظهار فيما بين الناس ﴿وليعلم الذين نافقوا﴾ عطف على ماقبله من مثله واعادة الفعل لتشريف المؤمنين وتنزيههم عن الانتظام فى قرن المنافقين وللايذان باختلاف حال العلم بحسب التعلق بالفريقين فانه متعلق بالمؤمنين على نهج تعلقه السابق وبالمنافقين على وجه جديد وهو السر فى ايراد الأولين بصيغة اسم الفاعل المنبئة عن الاستمرار والآخرين بموصول صلته فعل دال على الحدوث والمعنى وماأصابكم يومئذ فهو كائن لتمييز الثابتين على الايمان والذين أظهروا النفاق ﴿وقيل لهم﴾ عطف على نافقوا داخل معه فى حيز الصلة أو كلام مبتدأ قال ابن عباس رضى الله عنهما هم عبد الله بن أبى وأصحابه حيث انصرفوا يوم أحد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم عبد الله بن عمرو بن حرام أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم ودعاهم الى القتال وذلك قوله تعالى ﴿تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا﴾ قال السدى ادفعوا عنا العدو بتكثير سوادنا ان لم تقاتلوا معنا وقيل أو ادفعوا عن أهلكم وبلدكم وحريمكم ان لم تقاتلوا فى سبيل الله تعالى وترك العطف بين تعالوا وقاتلوا لما أن المقصود بهما واحد وهو الثانى وذكر الأول توطئة له وترغيب فيه لما فيه من الدلالة على التظاهر والتعاون ﴿قالوا﴾ استئناف وقع جوابا عن سؤال ينسحب عليه الكلام كأنه قيل فماذا صنعوا حين خيروا بين الخصلتين المذكورتين فقيل قالوا ﴿لو نعلم قتالا لاتبعناكم﴾ أى لو نحسن قتالا ونقدر عليه وانما قالوه دغلا واستهزاء وانما عبر عن نفى القدرة على القتال بنفى العلم به لما أن القدرة على الأفعال الاختيارية مستلزمة للعلم بها أو لو نعلم مايصح أن يسمى قتالا لاتبعناكم ولكن ماأنتم بصدده ليس بقتال أصلا وانما هو القاء النفس الى التهلكة وفى جعلهم التالى مجرد الاتباع دون القتال الذى هو المقصود بالدعوة دليل على كمال تثبطهم عن القتال حيث لاترضى نفوسهم بجعله تاليا لمقدم مستحيل الوقوع ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان﴾ الضمير مبتدأ وأقرب خبره واللام فى للكفر وللايمان متعلقة به وكذا يومئذ ومنهم وعدم جواز تعلق حرفين متحدين لفظا ومعنى بعامل واحد بلا عطف أو بدلية انما هو فيما عدا أفعل التفضيل من العوامل لاتحاد حيثية عملها وأما أفعل التفضيل فحيث دل على أصل الفعل وزيادته جرى مجرى عاملين كأنه قيل قربهم للكفر زائد على قربهم للايمان وقيل تعلق الجارين به لشبههما بالظرفين أى هم للكفر يوم اذ قالوا ماقالوا أقرب منهم للايمان فانهم كانوا قبل ذلك يتظاهرون بالايمان وماظهرت منهم أمارة مؤذنة بكفرهم فلما انخذلوا عن عسكر المسلمين وقالوا ماقالوا تباعدوا بذلك عن الايمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر وقيل هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الايمان لأن تقليل سواد المسلمين بالانخذال تقوية للمشركين وقوله تعالى ﴿يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم﴾ جملة مستأنفة مقررة لمضمون ماقبلها وذكر الأفواه

والقلوب تصوير لنفاقهم وتوضيح لمخالفة ظاهرهم لباطنهم وما عبارة عن القول والمراد به اما نفس الكلام الظاهر فى اللسان تارة وفى القلب أخرى فالمثبت والمنفى متحدان ذاتا وان اختلفا مظهرا وأما القول الملفوظ فقط فالمنفى حينئذ منشأه الذى لاينفك عنه القول أصلا وانما عبر عنه به ابانة لما بينهما من شدة الاتصال أى يتفوهون بقول لاوجود له أو لمنشئه فى قلوبهم أصلا من الأباطيل التى من جملتها ماحكى عنهم آنفا فانهم أظهروا فيه أمرين ليس فى قلوبهم شيء منهما أحدهما عدم العلم بالقتال والآخر الاتباع على تقدير العلم به وقد كذبوا فيهما كذبا بينا حيث كانوا عالمين به غير ناوين للاتباع بل كانوا مصرين مع ذلك على الانخذال عازمين على الارتداد وقوله عز وجل ﴿والله أعلم بما يكتمون﴾ زيادة تحقيق لكفرهم ونفاقهم ببيان اشتغال قلوبهم بما يخالف أقوالهم من فنون الشر والفساد اثر بيان خلوها عما يوافقها وصيغة التفضيل لما أن بعض ما يكتمونه من أحكام النفاق وذم المؤمنين وتخطئة آرائهم والشماتة بهم وغير ذلك يعلمه المؤمنون على وجه الاجمال وأن تفاصيل ذلك وكيفياته مختصة بالعلم الالهى ﴿الذين قالوا﴾ مرفوع على أنه بدل من واو يكتمون أو خبر لمبتدا محذوف وقيل مبتدأ خبره قل فادرؤا بحذف العائد تقديره قل لهم الخ أو منصوب على الذم أو على أنه نعت للذين نافقوا أو بدل منه وقيل مجرور على أنه بدل من ضمير أفواههم أو قلوبهم كما فى قوله على جوده لضن بالماء حاتم والمراد بهم عبد الله بن أبى وأصحابه ﴿لاخوانهم﴾ أى لأجلهم وهم من قتل يوم أحد من جنسهم أو من أقاربهم فيندرج فيهم بعض الشهداء ﴿وقعدوا﴾ حال من ضمير قالوا بتقدير قد أى قالوا وقد قعدوا عن القتال بالانخذال ﴿لو أطاعونا﴾ أى فيما أمرناهم به ووافقونا فى ذلك ﴿ماقتلوا﴾ كما لم نقتل وفيه ايذان بأنهم أمروهم بالانخذال حين انخذلوا وأغووهم كما غووا وحمل القعود على ماستصوبه ابن أبى عند المشاورة من الاقامة بالمدينة ابتداء وجعل الاطاعة عبارة عن قبول رأيه والعمل به يرده كون الجملة حالية فانها لتعيين ما فيه العصيان والمخالفة مع أن ابن أبى ليس من القاعدين فيها بذلك المعنى على أن تخصيص عدم الطاعة باخوانهم ينادى باختصاص الأمر أيضا بهم فيستحيل أن يحمل على ما خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم عند المشاورة ﴿قل﴾ تبكيتا لهم واظهارا لكذبهم ﴿فادرؤا عن أنفسكم الموت﴾ جواب لشرط قد حذف تعويلا على مابعده من قوله تعالى ﴿ان كنتم صادقين﴾ كما أنه شرط حذف جوابه لدلالة الجواب المذكور عليه أى ان كنتم صادقين فيما ينبيء عنه قولكم من أنكم قادرون على دفع القتل عمن كتب عليه فادفعوا عن أنفسكم الموت الذى كتب عليكم معلقا بسبب خاص موقتا بوقت معين بدفع سببه فان أسباب الموت فى امكان المدافعة بالحيل وامتناعها سواء وأنفسكم أعز عليكم من اخوانكم وأمرها أهم لديكم من أمرهم والمعنى أن عدم قتلكم كان بسبب أنه لم يكن مكتوبا عليكم لا بسبب أنكم دفعتموه بالقعود مع كتابته عليكم فان ذلك مما لاسبيل اليه بل قد يكون القتال سببا للنجاة والقعود مؤديا الى الموت . روى أنه مات يوم قالوا ما قالوا سبعون منافقا وقيل أريد ان كنتم صادقين فى مضمون الشرطية والمعنى أنهم لو أطاعوكم وقعدوا لقتلوا قاعدين كما قتلوا مقاتلين فقوله تعالى فادرؤا عن أنفسكم الموت حينئذ استهزاء بهم أى ان كنتم رجالا دفاعين لأسباب الموت فادرؤا جميع أسبابه حتى لا تموتوا كما درأتم فى زعمكم هذا السبب الخاص ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أن القتل الذى يحذرونه ويحذرون الناس منه ليس مما يحذر بل هو من أجل المطالب التى يتنافس فيها المتنافسون اثر بيان أن الحذر لايجدى ولا يغنى وقرىء ولا تحسبن بكسر السين والمراد بهم شهداء أحد وكانوا سبعين رجلا أربعة من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وعثمان بن شهاب وعبدالله بن جحش وباقيهم من الأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب وقرىء بالياء على الاسناد الى ضميره عليه السلام

أو ضمير من يحسب وقيل الى الذين قتلوا والمفعول الأول محذوف لأنه فى الأصل مبتدأ جائز الحذف عند القرينة والتقدير ولا يحسبنهم الذين قتلوا أمواتا أى لايحسبن الذين قتلوا أنفسهم أمواتا على أن المراد من توجيه النهى اليهم تنبيه السامعين على أنهم أحقاء بأن يسلوا بذلك ويبشروا بالحياة الأبدية والكرامة السنية والنعيم المقيم لكن لافى جميع أوقاتهم بل عند ابتداء القتل اذ بعد تبين حالهم لهم لايبقى لاعتبار تسليتهم وتبشيرهم فائدة ولا لتنبيه السامعين وتذكيرهم وجه وقرىء قتلوا بالتشديد لكثرة المقتولين ﴿بل أحياء﴾ أى بل هم أحياء وقرىء منصوبا أى بل احسبهم أحياء على أن الحسبان بمعنى اليقين كما فى قوله

حسبت التقى والمجد خير تجارة ... رباحا اذا ما المرء أصبح ثاقلا

أو على أنه وارد على طريق المشاكلة ﴿عند ربهم﴾ فى محل الرفع على أنه خبر ثان للمبتدا المقدر أو صفة لاحياء أو فى محل النصب على أنه حال من الضمير فى أحياء وقيل هو ظرف لأحياء أو للفعل بعده والمراد بالعندية التقرب والزلفى وفى التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ الى الكمال مع الاضافة الى ضميرهم مزيد تكرمة لهم ﴿يرزقون﴾ أى من الجنة وفيه تأكيد لكونهم أحياء وتحقيق لمعنى حياتهم. قال الامام الواحدى الاصح فى حياة الشهداء ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من أن أرواحهم فى أجواف طيور خضر وأنهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون . وروى عنه عليه السلام أنه قال لما أصيب اخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طيور خضر تدور فى أنهار الجنة وروى ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتسرح من الجنة حيث شاءت وتأوى الى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش وفيه دلالة على أن روح الانسان جسم لطيف لايفنى بخراب البدن ولا يتوقف عليه ادراكه وتألمه والتذاذه ومن قال بتجريد النفوس البشرية يقول المراد أن نفوس الشهداء تتمثل طيورا خضرا أو تتعلق بها فتلتذ بما ذكر وقيل المراد أنها تتعلق بالافلاك والكواكب فتلتذ بذلك وتكتسب زيادة كمال ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الأبدية والزلفى من الله عز وجل والتمتع بالنعيم المخلد عاجلا ﴿ويستبشرون﴾ يسرون بالبشارة ﴿بالذين لم يلحقوا بهم﴾ أى باخوانهم الذين لم يقتلوا بعد فى سبيل الله فيلحقوا بهم ﴿من خلفهم﴾ متعلق بيلحقوا والمعنى أنهم بقوا بعدهم وهم قد تقدموهم أو بمحذوف وقع حالا من فاعل يلحقوا أى لم يلحقوا بهم حال كونهم متخلفين عنهم باقين فى الدنيا ﴿أن لاخوف عليهم ولاهم يحزنون﴾ بدل من الذين بدل اشتمال مبين لكون استبشارهم بحال اخوانهم لا بذواتهم وأن هى المخففة من أن واسمها ضمير الشأن المحذوف وخبرها الجملة المنفية أى يستبشرون بما تبين لهم من حسن حال اخوانهم الذين تركوهم وهو أنهم عند قتلهم يفوزون بحياة أبدية لا يكدرها خوف وقوع محذور ولا حزن فوات مطلوب أو لاخوف عليهم فى الدنيا من القتل فانه عين الحياة التى يجب أن يرغب فيها فضلا عن أن تخاف وتحذر أى لايعتريهم ما يوجب ذلك لا أنه يعتريهم ذلك لكنهم لايخافون ولا يحزنون والمراد بيان دوام انتفاء الخوف والحزن لابيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا فان النفى وان دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام ﴿يستبشرون بنعمة﴾ كرر لبيان أن الاستبشار المذكور ليس بمجرد عدم الخوف والحزن بل به وبما يقارنه من نعمة عظيمة لايقادر قدرها وهى ثواب أعمالهم وقد جوز أن يكون الأول متعلقا بحال اخوانهم وهذا بحال أنفسهم بيانا لبعض ما أجمل فى قوله تعالى فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴿من الله﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لنعمة مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى كائنة منه تعالى ﴿وفضل﴾ أى زيادة عظيمة كما فى قوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴿وأن الله لايضيع أجر المؤمنين﴾ بفتح أن عطف على فضل منتظم معه فى سلك المستبشر به والمراد بالمؤمنين اما الشهداء والتعبير عنهم بالمؤمنين للايذان

بسمو رتبة الايمان وكونه مناطا لما نالوه من السعادة واما كافة أهل الايمان من الشهداء وغيرهم ذكرت توفية أجورهم على ايمانهم وعدت من جملة ما يستبشر به الشهداء بحكم الاخوة فى الدين وقرىء بكسرها على أنه استئناف معترض دال على أن ذلك أجر لهم على ايمانهم مشعر بأن من لا ايمان له أعماله محبطة لا أجر لها وفيه من الحث على الجهاد والترغيب فى الشهادة والبعث على ازدياد الطاعة وبشرى المؤمنين بالفلاح ما لايخفى ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح﴾ صفة مادحة للمؤمنين لامخصصة أو نصب على المدح أو رفع على الابتداء والخبر قوله تعالى ﴿للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾ بجملته ومن للبيان والمقصود من الجمع بين الوصفين المدح والتعليل لا التقييد لأن المستجيبين كلهم محسنون ومتقون . روى أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد أن يرهبهم ويريهم من نفسه وأصحابه قوة فندب أصحابه للخروج فى طلب أبى سفيان وقال لايخرجن معنا الا من حضر يومنا بالأمس فخرج صلى الله عليه وسلم مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد وهى من المدينة على ثمانية أميال وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر وألقى الله تعالى الرعب فى قلوب المشركين فذهبوا فنزلت ﴿الذين قال لهم الناس﴾ يعنى الركب الذين استقبلوهم من عبد قيس أو نعيم بن مسعود الاشجعى واطلاق الناس عليه لما أنه من جنسهم وكلامه كلامهم يقال فلان يركب الخيل ويلبس الثياب وماله سوى فرس فرد وغير ثوب واحد أو لأنه انضم اليه ناس من المدينة وأذاعوا كلامه ﴿ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾ روى أن أبا سفيان نادى عند انصرافه من أحد يا محمد موعدنا موسم بدر القابل ان شئت فقال عليه السلام ان شاء الله تعالى فلما كان القابل خرج أبو سفيان فى أهل مكة حتى نزل مر الظهران فألقى الله تعالى فى قلبه الرعب وبدا له أن يرجع فمر به ركب من بنى عبد قيس يريدون المدينة للميرة فشرط لهم حمل بعير من زبيب ان ثبطوا المسلمين وقيل لقى نعيم بن مسعود وقد قدم معتمرا فسأله ذلك والتزم له عشرا من الابل وضمنها منه سهيل بن عمرو فخرج نعيم ووجد المسلمين يتجهزون للخروج فقال لهم أتوكم فى دياركم فلم يفلت منكم أحد الا شريدا أفترون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم ففتروا فقال عليه السلام والذى نفسى بيده لأخرجن ولو لم يخرج معى أحد فخرج فى سبعين راكبا كلهم يقولون حسبنا الله ونعم الوكيل. قيل هى الكلمة التى قالها ابراهيم عليه الصلاة والسلام حين ألقى فى النار ﴿فزادهم ايمانا﴾ الضمير المستكن للمقول أو لمصدر قال أو لفاعله ان أريد به نعيم وحده والمعنى أنهم لم يلتفتوا الى ذلك بل ثبت به يقينهم بالله تعالى وازداد اطمئنانهم وأظهروا حمية الاسلام وأخلصوا النية عنده وهو دليل على أن الايمان يتفاوت زيادة ونقصانا فان ازدياد اليقين بالالف وكثرة التأمل وتناصر الحجج مما لاريب فيه ويعضده قول ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قلنا يارسول الله الايمان يزيد وينقص قال نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار ﴿وقالوا حسبنا الله﴾ أى محسبنا الله وكافينا من أحسبه اذا كفاه والدليل على أنه بمعنى المحسب أنه لايستفيد بالاضافة تعريفا فى قولك هذا رجل حسبك ﴿ونعم الوكيل﴾ أى نعم الموكول اليه والمخصوص بالمدح محذوف أى الله عز وجل ﴿فانقلبوا﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى فخرجوا اليهم ووافوا الموعد . روى أنه عليه الصلاة والسلام وافى بجيشه بدرا وأقام بها ثمانى ليال وكانت معهم تجارات فباعوها وأصابوا خيرا كثيرا والباء فى قوله تعالى ﴿بنعمة﴾ متعلقة بمحذوف وقع حالا من الضمير فى فانقلبوا والتنوين للتفخيم أى فرجعوا من مقصدهم ملتبسين بنعمة عظيمة لايقادر قدرها وقوله عز وجل ﴿من الله﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لنعمة مؤكدة لفخامتها الذاتية التى يفيدها التنكير بالفخامة الاضافية أي كائنة من الله تعالي وهي العافية والثبات علي الايمان والزيادة فيه وحذر العدو منهم

﴿وفضل﴾ أى ربح فى التجارة وتنكيره أيضا للتفخيم ﴿لم يمسسهم سوء﴾ حال أخرى من الضمير فى فانقلبوا أو من المستكن فى الحال كأنه قيل منعمين حال كونهم سالمين عن السوء والحال اذا كان مضارعا منفيا بلم وفيه ضمير ذى الحال جاز فيه دخول الواو كما فى قوله تعالى أو قال أوحى الى ولم يوح اليه شىء وعدمه كما فى هذه الآية الكريمة وفى قوله تعالى ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ﴿واتبعوا﴾ فى كل ما أتوا من قول وفعل ﴿رضوان الله﴾ الذى هو مناط الفوز بخير الدارين ﴿والله ذو فضل عظيم﴾ حيث تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الايمان والتوفيق للمبادرة الى الجهاد والتصلب فى الدين واظهار الجرائة على العدو وحفظهم عن كل ما يسوءهم مع اصابة النفع الجليل وفيه تحسير لمن تخلف عنهم واظهار لخطأ رأيهم حيث حرموا أنفسهم ما فاز به هؤلاء وروى أنهم قالوا هل يكون هذا غزوا فأعطاهم الله تعالى ثواب الغزو ورضى عنهم ﴿انما ذلكم﴾ اشارة الى المثبط أو الى من حمله على التثبيط والخطاب للمؤمنين وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿الشيطان﴾ اما خبره وقوله تعالى ﴿يخوف أولياءه﴾ جملة مستأنفة مبينة لشيطنته أو حال كما فى قوله تعالى فتلك بيوتهم خاوية الخ واما صفته والجملة خبره ويجوز أن تكون الاشارة الى قوله على تقدير مضاف أى انما ذلكم قول الشيطان أى ابليس والمستكن فى يخوف اما للمقدر واما للشيطان بحذف الراجع الى المقدر أى يخوف به والمراد بأوليائه اما أبو سفيان وأصحابه فالمفعول الاول محذوف أى يخوفكم أولياءه كما هو قراءة ابن عباس وابن مسعود ويؤيده قوله تعالى ﴿فلا تخافوهم﴾ أى أولياءه ﴿وخافون﴾ فى مخالفة أمرى واما القاعدون فالمفعول الثانى محذوف أى يخوفهم الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والضمير البارز فى فلا تخافوهم للناس الثانى أى فلا تخافوهم فتقعدوا عن القتال وتجبنوا وخافونى فجاهدوا مع رسولى وسارعوا الى ما يأمركم به والخطاب لفريقى الخارجين والقاعدين والفاء لترتيب النهى أو الانتهاء على ما قبلها فان كون المخوف شيطانا بما يوجب عدم الخوف والنهى عنه ﴿ان كنتم مؤمنين﴾ فان الايمان يقتضى ايثار خوف الله تعالى على خوف غيره ويستدعى الامن من شر الشيطان وأوليائه ﴿ولا يحزنك﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لتشريفه بتخصيصه بالتسلية والايذان بأصالته فى تدبير أمور الدين والاهتمام بشؤنه ﴿الذين يسارعون فى الكفر﴾ أى يقعون فيه سريعا لغاية حرصهم عليه وشدة رغبتهم فيه وايثار كلمة فى على ما وقع فى قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة الآية للاشعار باستقرارهم فى الكفر ودوام ملابستهم له فى مبدأ المسارعة ومنتهاها كما فى قوله تعالى أولئك يسارعون فى الخيرات فان ذلك مؤذن بملابستهم للخيرات وتقلبهم فى فنونها فى طرفى المسارعة وتضاعيفها وأما ايثار كلمة الى فى قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة الخ فلان المغفرة والجنة منتهى المسارعة وغايتها والمراد بالموصول المنافقون من المتخلفين وطائفة من اليهود حسبما عين فى قوله تعالى يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا وقيل قوم ارتدوا عن الاسلام والتعبير عنهم بذلك للاشارة بما فى حيز الصلة الى مظنة وجود المنهى عنه واعترائه لرسول الله صلى الله عليه وسلم أى لا يحزنوك بمسارعتهم فى الكفر ومبادرتهم الى تمشية أحكامه ومظاهرتهم لأهله وتوجيه النهى الى جهتهم مع أن المقصود نهيه عليه الصلاة والسلام عن التأثر منهم للمبالغة فى ذلك لما أن النهى عن التأثير نهى عن التأثر بأصله ونفى له بالمرة وقد يوجه النهى الى اللازم والمراد هو النهى عن الملزوم كما فى قولك لا أرينك ههنا وقرأ لا يحزنك من أحزن المنقول من حزن بكسر الزاء والمعنى واحد وقيل معنى حزنه جعل فيه حزنا كما فى دهنه أى جعل فيه دهنا ومعنى أحزنه جعله حزينا وقيل معنى حزنه أحدث له الحزن ومعنى أحزنه عرضه للحزن ﴿انهم لن يضروا الله﴾ تعليل للنهى وتكميل للتسلية بتحقيق نفى ضررهم أبدا أى لن يضروا بذلك أولياء الله البتة

وتعليق نفى الضرر به تعالى لتشريفهم والايذان بأن مضارتهم بمنزلة مضارته سبحانه وفيه مزيد مبالغة فى التسلية وقوله تعالى ﴿شيئا﴾ فى حيز النصب على المصدرية أى شيئا من الضرر والتنكير لتأكيد ما فيه من القلة والحقارة وقيل على نزع الجار أى بشىء ما أصلا وقيل المعنى لن ينقصوا بذلك من ملكه تعالى وسلطانه شيئا كما روى أبو ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تعالى لو أن أولكم وآخركم وجنكم وانسكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ولو أن أولكم وآخركم وجنكم وانسكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا والأول هو الأنسب بمقام التسلية والتعليل ﴿يريد الله أن لا يجعل لهم حظا فى الآخرة﴾ استئناف مبين لسر ابتلائهم بما هم فيه من الانهماك فى الكفر وفى ذكر الارادة من الايذان بكمال خلوص الداعى الى حرمانهم وتعذيبهم حيث تعلقت بهما ارادة أرحم الراحمين ما لا يخفى وصيغة الاستقبال للدلالة على دوام الارادة واستمرارها أى يريد الله بذلك أن لا يجعل لهم فى الآخرة حظا ما من الثواب ولذلك تركهم فى طغيانهم يعمهون الى أن يهلكوا على الكفر ﴿ولهم﴾ مع ذلك الحرمان الكلى ﴿عذاب عظيم﴾ لا يقادر قدره قيل لما دلت المسارعة فى الشىء على عظم شأنه وجلالة قدره عند المسارع وصف عذابه بالعظم رعاية للمناسبة وتنبيها على حقارة ما سارعوا فيه وخساسته فى نفسه والجملة اما مبتدأة مبينة لحظهم من العقاب اثر بيان أن لا شىء لهم من الثواب واما حال من الضمير فى لهم أى يريد الله حرمانهم من الثواب معدا لهم عذاب عظيم ﴿ان الذين اشتروا الكفر بالايمان﴾ أى أخذوه بدلا منه رغبة فيما أخذوه واعراضا عما تركوه وقد مر تحقيق القول فى هذه الاستعارة فى تفسير قوله عز وجل أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى مستوفى ﴿لن يضروا الله شيئا﴾ تفسيره كما مر غير أن فيه تعريضا ظاهرا باقتصار الضرر عليهم كأنه قيل وانما يضرون أنفسهم فان جعل الموصول عبارة عن المسارعين المعهودين بأن يراد باشتراء الكفر بالايمان ايثاره عليه اما بأخذه بدلا من الايمان الحاصل بالفعل كما هو حال المرتدين أو بالقوة القريبة منه الحاصلة بمشاهدة دلائله فى التوراة كما هو شأن اليهود ومنافقيهم فالتكرير لتقرير الحكم وتأكيده ببيان علته بتغيير عنوان الموضوع فان ما ذكر فى حيز الصلة من الاشتراء المذكور صريح فى لحوق ضرره بأنفسهم وعدم تعديه الى غيرهم أصلا كيف لا وهو علم فى الخسران الكلى والحرمان الابدى دال على كمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم فكيف يتأتى منهم ما يتوقف على قوة الحزم ورزانة الرأى ورصانة التدبير من مضارة حزب الله تعالى وهى أعز من الأبلق الفرد وأمنع من عقاب الجو وان أجرى الموصول على عمومه بأن يراد بالاشتراء المذكور القدر المشترك الشامل للمعنيين المذكورين ولأخذ الكفر بدلا مما نزل منزلة نفس الايمان من الاستعداد القريب له الحاصل بمشاهدة الوحى الناطق وملاحظة الدلائل المنصوبة فى الآفاق والانفس كما هو دأب جميع الكفرة فالجملة مقررة لمضمون ما قبلها تقريرا لقواعد الكلية لما اندرج تحتها من جزئيات الأحكام هذا وقد جوز كون الموصول الاول عاما للكفار والثانى خاصا بالمعهودين وأنت خبير بأنه مع خلوه عن النكت المذكورة مما لا يليق بفخامة شأن التنزيل لما أن صدور المسارعة فى الكفر بالمعنى المذكور وكونها مظنة لايراث الحزن لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما يفهم من النهى عنه انما يتصور ممن علم اتصافه بها وأما من لا يعرف حاله من الكفرة الكائنين فى الاماكن البعيدة فاسناد المسارعة المذكورة اليهم باعتبار كونها من مبادى حزنه عليه السلام مما لا وجه له وقوله تعالى ﴿ولهم عذاب أليم﴾ جملة مبتدأة مبينة لكمال فظاعة عذابهم بذكر غاية ايلامه بعد ذكر نهاية عظمه . قيل لما جرت العادة باغتباط المشترى بما اشتراه وسروره بتحصيله عند كون الصفقة رابحة وبتألمه عند كونها خاسرة وصف عذابهم بالايلام مراعاة لذلك . ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم﴾

عطف على قوله تعالى و لا يحزنك الذين الآية والفعل مسند الى الموصول وأن بما فى حيزها سادة مسد مفعوليه عند سيبويه لتمام المقصود بها وهو تعلق الفعل القلبي بالنسبة بين المبتدا والخبر أو مسد أحدهما والآخر محذوف عند الاخفش وما مصدرية أو موصولة حذف عائدها و وصلها فى الكتابة لاتباع الامام أى لا يحسبن الكافرون أن املاءنا لهم أو أن ما نمليه لهم خير لأنفسهم أو لا يحسبن الكافرون خيرية املائنا لهم أو خيرية ما نمليه لهم ثابتة أو واقعة ومآله نهيهم عن السرور بظاهر املائه تعالى لهم بناء على حسبان خيريته لهم وتحسيرهم ببيان أنه شر بحت وضرر محض كما أن مآل المعطوف عليه نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن الحزن بظاهر حال الكفرة بناء على توهم الضرر من قبلهم وتسليته عليه السلام ببيان عجزهم عن ذلك بالكلية والمراد بالموصول اما جنس الكفرة فيندرج تحت حكمه الكلى أحكام المعهودين اندراجا أوليا واما المعهودون خاصة فايثار الاظهار على الاضمار لرعاية المقارنة الدائمة بين الصلة وبين الاملاء الذى هو عبارة عن امهالهم وتخليتهم وشأنهم دهرا طويلا فان المقارن له دائما انما هو الكفر المستمر لا المسارعة المذكورة ولا الاشتراء المذكور فانهما من الاحوال المتجددة المنقضية فى تضاعيف الكفر المستمر وقرىء لاتحسبن بالتاء والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الأنسب بمقام التسلية أو لكل من يتأتى منه الحسبان قصدا الى اشاعة فظاعة حالهم والموصول مفعول وانما نملى لهم اما بدل منه وحيث كان التعويل على البدل وهو ساد مسد المفعولين كما فى قوله تعالى أم تحسب أن أكثرهم يسمعون اقتصر على مفعول واحد كما فى قولك جعلت المتاع بعضه فوق بعض واما مفعول ثان بتقدير مضاف اما فيه أى لاتحسبن الذين كفروا أصحاب أن الاملاء خير لانفسهم أو فى المفعول الاول أى لا تحسبن حال الذين كفروا أن الاملاء خير لأنفسهم ومعنى التفضيل باعتبار زعمهم ﴿انما نملى لهم ليزدادوا اثما﴾ استئناف مبين لحكمة الاملاء وما كافة واللام لام الارادة وعند المعتزلة لام العاقبة وقرىء بفتح الهمزة هنا على ايقاع الفعل عليه وكسرها فيما سبق على أنه اعتراض بين الفعل ومعموله مفيد لمزيد الاعتناء بابطال الحسبان ورده على معنى لايحسبن الكافرون أن املاءنا لهم لازدياد الاثم حسبما هو شأنهم بل انما هو لتلافى مافرط منهم بالتوبة والدخول فى الايمان ﴿ولهم﴾ فى الآخرة ﴿عذاب مهين﴾ لما تضمن الاملاء التمتع بطيبات الدنيا و زينتها وذلك مما يستدعى التعزز والتجبر وصف عذابهم بالاهانة ليكون جزاؤهم جزاء وفاقا والجملة اما مبتدأة مبينة لحالهم فى الآخرة اثر بيان حالهم فى الدنيا واما حال من الواو أى ليزدادوا اثما معدا لهم عذاب مهين وهذا متعين على القراءة الاخيرة ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه﴾ كلام مستأنف مسوق لوعد المؤمنين و وعيد المنافقين بالعقوبة الدنيوية التى هى الفضيحة والخزى اثر بيان عقوبتهم الأخروية والمراد بالمؤمنين المخلصون وأما الخطاب فقد قيل انه لجمهور المصدقين من أهل الاخلاص وأهل النفاق ففيه التفات فى ضمن التلوين والمراد بما هم عليه اختلاط بعضهم ببعض واستواؤهم فى اجراء أحكام الاسلام عليهم اذ هو القدر المشترك بين الفريقين وقيل انه للكفار والمنافقين وهو قول ابن عباس والضحاك ومقاتل والكلبى وأكثر المفسرين ففيه تلوين فقط ولعل المنافقين عطف تفسيرى للكفار والا فلا شركة بين المؤمنين والمنافقين فى أمر من الامور والمراد بما هم عليه ما مر من القدر المشترك فانه كما يجوز نسبته الى الفريقين معا يجوز نسبته الى كل منهما لا الكفر والنفاق كما قيل فان المؤمنين ما كانوا مشاركين لهم فى ذلك حتى لا يتركوا عليه وقيل انه للمؤمنين خاصة وهو قول أكثر أهل المعانى ففيه تلوين والتفات كما مر والتعرض لايمانهم قبل الخطاب للاشعار بعلة الحكم والمراد بما هم عليه ما مر غير مرة والاول هو الاقرب واليه جنح المحققون من أهل التفسير لكونه صريحا فى كون المراد بما هم عليه ماذكر من القدر المشترك بين الفريقين من حيث هو مشترك بينهما بخلاف القولين الاخيرين فانهما بمعزل من ذلك كيف لا

والمفهوم بما عليه المنافقون هو الكفر والنفاق وبما عليه المؤمنون هو الايمان والاخلاص لا القدر المشترك بينهما ولئن فهم ذلك فانما يفهم من حيث الانتساب الى أحدهما لا من حيث الانتساب اليهما معا وعليه يدور أمر الاختلاط المحوج الى الافراز واللام فى ليذر اما متعلقة بالخبر المقدر لكان كما هو رأى البصرية وانتصاب الفعل بعدها بأن المقدرة أى ما كان الله مريدا أو متصديا لأن يذر المؤمنين الخ ففى توجيه النفى الى ارادة الفعل تأكيد ومبالغة ليست فى توجيهه الى نفسه واما مزيدة للتأكيد ناصبة للفعل بنفسها كما هو رأى الكوفية ولا يقدح فى ذلك زيادتها كما لا يقدح زيادة حروف الجر فى عملها وقوله عز وجل ﴿حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ غاية لما يفيده النفى المذكور كأنه قيل ما يتركهم الله تعالى على ذلك الاختلاط بل يقدر الامور و يرتب الاسباب حتى يعزل المنافق من المؤمن وفى التعبير عنهما بما ورد به النظم الكريم تسجيل على كل منهما بما يليق به واشعار بعلة الحكم وافراد الخبيث والطيب مع تعدد ما أريد بكل منهما وتكثره لاسيما بعد ذكر ما أريد بأحدهما أعنى المؤمنين بصيغة الجمع للايذان بأن مدار افراز أحد الفريقين من الآخر هو اتصافهما بوصفهما لا خصوصية ذاتهما وتعدد آحادهما كما فى مثل قوله تعالى ذلك أدنى أن لا تعولوا ونظيره قوله تعالى تذهل كل مرضعة عما أرضعت حيث قصد الدلالة على الاتصاف بالوصف من غير تعرض لكون الموصوف من العقلاء أوغيرهم وتعليق الميز بالخبيث المعبر به عن المنافق مع أن المتبادر مما سبق من عدم ترك المؤمنين على الاختلاط تعليقه بهم وافرازهم عن المنافقين لما أن الميز الواقع بين الفريقين انما بالتصرف فى المنافقين وتغييرهم من حال الى حال مغايرة للاولى مع بقاء المؤمنين على ما كانوا عليه من أصل الايمان وان ظهر مزيد اخلاصهم لا بالتصرف فيهم وتغييرهم من حال الى حال أخرى مع بقاء المنافقين على ما هم عليه من الاستتار ولأن فيه مزيد تأكيد للوعيد كما أشير اليه فى قوله تعالى والله يعلم المفسد من المصلح وانما لم ينسب عدم الترك اليهم لما أنه مشعر بالاعتناء بشأن من نسب اليه فان المتبادر منه عدم الترك على حالة غير ملائمة كما يشهد به الذوق السليم وقرىء حتى يميز من التمييز وقوله تعالى ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ تمهيد لبيان الميز الموعود على طريق تجريد الخطاب للمخلصين تشريفا لهم وقوله عز وجل ﴿ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء﴾ اشارة الى كيفية وقوعه على سبيل الاجمال واظهار الاسم الجليل فى الموضعين لتربية المهابة فالمعنى ما كان الله ليترك المخلصين على الاختلاط بالمنافقين بل يرتب المبادىء حتى يخرج المنافقين من بينهم وما يفعل ذلك باطلاعكم على ما فى قلوبهم من الكفر والنفاق ولكنه تعالى يوحى الى رسوله عليه السلام فيخبره بذلك و بما ظهر منهم من الاقوال والافعال حسبما حكى عنهم بعضه فيما سلف فيفضحهم على رؤس الاشهاد و يخلصكم من خسة الشركاء وسوء جوارهم والتعرض للاجتباء للايذان بأن الوقوف على أمثال تلك الاسرار الغيبية لا يتأتى الا ممن رشحه الله تعالى لمنصب جليل تقاصرت عنه همم الامم واصطفاه على الجماهير لارشادهم وتعميم الاجتباء لسائر الرسل عليهم السلام للدلالة على أن شأنه عليه السلام فى هذا الباب أمر متين له أصل أصيل جار على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين الرسل الخالية عليهم السلام وتعميم الامر فى قوله تعالى ﴿فآمنوا بالله و رسله﴾ مع أن سوق النظم الكريم للايمان بالنبي عليه الصلاة والسلام لايجاب الايمان به بالطريق البرهانى والاشعار بأن ذلك مستلزم للايمان بالكل لانه مصدق لما بين يديه من الرسل وهم شهداء بصحة نبوته عليه الصلاة والسلام والمأمور به الايمان بكل ما جاء به عليه الصلاة والسلام فيدخل فيه تصديقه عليه السلام فيما أخبر به من أحوال المنافقين دخولا أوليا هذا هو الذى يقتضيه جزالة النظم الكريم وقد جوز أن يكون المعنى لا يترككم مختلطين حتى يميز الخبيث من الطيب بأن يكلفكم التكاليف الصعبة التى لا يصبر عليها الا الخلص الذين امتحن الله تعالى قلوبهم كبذل الارواح فى الجهاد وانفاق الاموال فى سبيل الله تعالى

فيجعل ذلك عيارا على عقائدكم وشاهدا بضمائركم حتى يعلم بعضكم بما فى قلب بعض بطريق الاستدلال لا من جهة الوقوف على ذات الصدور فان ذلك مما استأثر الله تعالى به وأنت خبير بأن الاستدراك باجتباء الرسل المنبئ عن مزيد مزيتهم وفضل معرفتهم على الخلق اثر بيان قصور رتبتهم عن الوقوف على خفايا السرائر صريح فى أن المراد اظهار تلك السرائر بطريق الوحى لا بطريق التكليف بما يؤدى الى خروج أسرارهم عن رتبة الخفاء وأقرب من ذلك حمل الآية الكريمة على أن تكون مسوقة لبيان الحكمة فى املائه تعالى للكفرة اثر بيان شريته لهم فالمعنى ما كان الله ليذر المخلصين على الاختلاط أبدا كما تركهم كذلك الى الآن لسر يقتضيه بل يفرز عنهم المنافقين ولذلك فعله يومئذ حيث خلى الكفرة وشأنهم فأبرز لهم صورة الغلبة فأظهر من فى قلوبهم مرض ما فيها من الخبائث وافتضحوا على رؤس الاشهاد وقيل قال الكافرون ان كان محمد صادقا فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر فنزلت ﴿وان تؤمنوا﴾ أى بما ذكر حق الايمان ﴿وتتقوا﴾ أى عدم مراعاة حقوقه أو النفاق ﴿فلكم﴾ بمقابلة ذلك الايمان والتقوى ﴿أجر عظيم﴾ لا يبلغ كنهه ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم﴾ بيان لحال البخل و وخامة عاقبته وتخطئة لأهله فى توهم خيريته حسب بيان حال الاملاء وايراد ما بخلوا به بعنوان ايتاء الله تعالى اياه من فضله للمبالغة فى بيان سوء صنيعهم فان ذلك من موجبات بذله فى سبيله كما فى قوله تعالى وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه والفعل مسند الى الموصول والمفعول الاول محذوف لدلالة الصلة عليه وضمير الفصل راجع اليه أى لا يحسبن الباخلون بما آتاهم الله من فضله من غير أن يكون لهم مدخل فيه أو استحقاق له هو خيرا لهم من انفاقه وقيل الفعل مسند الى ضمير النبى صلى الله عليه وسلم أو الى ضمير من يحسب والمفعول الاول هو الموصول بتقدير مضاف والثانى ماذكر كما هو كذلك على قراءة الخطاب أى و لا يحسبن بخل الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ﴿بل هو شر لهم﴾ التنصيص على شريته لهم مع انفهامها من نفى خيريته للمبالغة فى ذلك والتنوين للتفخيم وقوله تعالى ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ بيان لكيفية شريته أى سيلزمون وبال ما بخلوا به الزام الطوق على أنه حذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه للايذان بكمال المناسبة بينهما وروى عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال ما من رجل لا يؤدى زكاة ماله الا جعل الله له شجاعا فى عنقه يوم القيامة وقيل يجعل ما بخل به من الزكاة حية فى عنقه تنهشه من قرنه الى قدمه وتنقر رأسه وتقول أنا مالك ﴿ولله﴾ وحده لا لأحد غيره استقلالا أو اشتراكا ﴿ميراث السموات والارض﴾ أى ما يتوارثه أهلهما من مال وغيره من الرسالات التى يتوارثها أهل السموات والارض فما لهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه فى سبيله أو أنه يرث منهم ما يمسكونه و لا ينفقونه فى سبيله تعالى عند هلاكهم وتبقى عليهم الحسرة والندامة ﴿والله بما تعملون﴾ من المنع والبخل ﴿خبير﴾ فيجازيكم على ذلك واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتربية المهابة والالتفات للمبالغة فى الوعيد والاشعار باشتداد غضب الرحمن الناشئ من ذكر قبائحهم وقرئ بالياء على الظاهر ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء﴾ قالته اليهود لما سمعوا قوله تعالى من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا وروى أنه عليه السلام كتب مع أبى بكر رضى الله عنه الى يهود بنى قينقاع يدعوهم الى الاسلام واقام الصلاة وايتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضا حسنا فقال فنحاص ان الله فقير حتى سألنا القرض فلطمه أبو بكر رضى الله عنه فى وجهه وقال لولا الذى بيننا و بينكم من العهد لضربت عنقك فشكاه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجحد ما قاله فنزلت والجمع حينئذ مع كون القائل واحدا لرضا الباقين بذلك والمعنى أنه لم يخف عليه تعالى وأعد له من العذاب كفاءه والتعبير عنه بالسماع للايذان بأنه من الشناعة والسماجة

بحيث لا يرضى قائله بأن يسمعه سامع والتوكيد القسمى للتشديد فى التهديد والمبالغة فى الوعيد ﴿سنكتب ما قالوا﴾ أى سنكتب ما قالوه من العظيمة الشنعاء فى صحائف الحفظة أو سنحفظه ونثبته فى علمنا لا ننساه ولا نهمله كما يثبت المكتوب والسين للتأكيد أى لن يفوتنا أبدا تدوينه واثباته لكونه فى غاية العظم والهول كيف لا وهو كفر بالله تعالى واستهزاء بالقرآن العظيم والرسول الكريم ولذلك عطف عليه قوله تعالى ﴿وقتلهم الانبياء﴾ ايذانا بأنهما فى العظم اخوان وتنبيها على أنه ليس بأول جريمة ارتكبوها بل لهم فيه سوابق وأن من اجترأ على قتل الانبياء لم يستبعد منه أمثال هذه العظائم والمراد بقتلهم الانبياء رضاهم بفعل أسلافهم وقوله تعالى ﴿بغير حق﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من قتلهم أى كائنا بغير حق فى اعتقادهم أيضا كما هو فى نفس الامر وقرئ سيكتب على البناء للفاعل وسيكتب على البناء للمفعول وقتلهم بالرفع ﴿ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾ أى وننتقم منهم بعد الكتبة بأن نقول لهم ذوقوا العذاب المحرق كما أذقتم المسلمين الغصص وفيه من المبالغات ما لا يخفى وقرئ و يقول بالياء ويقال على البناء للمفعول ﴿ذلك﴾ اشارة الى العذاب المذكور وما فيه من معنى البعد للدلالة على عظم شأنه و بعد منزلته فى الهول والفظاعة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿بما قدمت أيديكم﴾ أى بسبب ما اقترفتموه من قتل الانبياء والتفوه بمثل تلك العظيمة وغيرها من المعاصى والتعبير عن الأنفس بالأيدى لما أن عامة أفاعيلها تزاول بهن ومحل أن فى قوله تعالى ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبلها أى والامر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم والتعبير عن ذلك بنفى الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم على ما تقرر من قاعدة أهل السنة فضلا عن كونه ظلما بالغا لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من الظلم كما يعبر عن ترك الاثابة على الاعمال باضاعتها مع أن الاعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بابراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب فى صورة المبالغة فى الظلم وقيل هى لرعاية جمعية العبيد من قولهم فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده على أنها للمبالغة كما لا كيفا هذا وقد قيل محل أن الجر بالعطف على ما قدمت وسببيته للعذاب من حيث أن نفى الظلم مستلزم للعدل المقتضى لاثابة المحسن ومعاقبة المسئ وفساده ظاهر فان ترك التعذيب من مستحقه ليس بظلم شرعا ولا عقلا حتى ينتهض نفى الظلم سببا للتعذيب حسبما ذكره القائل فى سورة الانفال وقيل سببية ذنوبهم لعذابهم مقيدة بانضمام انتفاء ظلمه تعالى اليها اذ لولاه لامكن أن يعذبهم بغير ذنوبهم وأنت خبير بأن امكان تعذيبه تعالى لعبيده بغير ذنب بل وقوعه لا ينافى كون تعذيب هؤلاء الكفرة بسبب ذنوبهم حتى يحتاج الى اعتبار عدمه معه وانما يحتاج الى ذلك أن لو كان المدعى أن جميع تعذيباته تعالى بسبب ذنوب المعذبين ﴿الذين قالوا﴾ نصب أو رفع على الذم وهم كعب بن الأشرف ومالك بن صيف وحيى بن أخطب وفنحاص بن عازوراء و وهب بن يهوذا ﴿ان الله عهد الينا﴾ أى أمرنا فى التوراة وأوصانا ﴿أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾ كما كان عليه أمر أنبياء بنى اسرائيل حيث كان يقرب بالقربان فيقوم النبى فيدعو فتنزل نار من السماء فتأكله أى تحيله الى طبعها بالاحراق وهذا من مفترياتهم وأباطيلهم فان أكل النار القربان لم يوجب الايمان الا لكونه معجزة فهو وسائر المعجزات سواء ولما كان محصل كلامهم الباطل أن عدم ايمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم لعدم اتيانه بما قالوا ولو تحقق الاتيان به لتحقق الايمان رد عليهم بقوله تعالى ﴿قل﴾ أى تبكيتا لهم واظهارا لكذبهم ﴿قد جاءكم رسل﴾ كثيرة العدد كبيرة المقدار ﴿من قبلى بالبينات﴾ أى المعجزات الواضحة ﴿و بالذى قلتم﴾ بعينه من القربان الذى تأكله النار ﴿فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين﴾ أى فيما يدل عليه كلامكم من أنكم تؤمنون لرسول يأتيكم بما اقترحتموه

فان زكرياء ويحيى وغيرهما من الانبياء عليهم الصلاة والسلام قد جاؤكم بما قلتم فى معجزات أخر فما لكم لم تؤمنوا لهم حتى اجترأتم على قتلهم ﴿فان كذبوك﴾ شروع فى تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم اثر ما أوحى اليه ما يحزنه عليه الصلاة والسلام من مقالات الكفرة من المشركين واليهود وقوله تعالى ﴿فقد كذب رسل من قبلك﴾ تعليل لجواب الشرط أى فتسل فقد كذب الخ ومن متعلقة بكذب أو بمحذوف وقع صفة لرسل أى كائنة من قبلك ﴿جاؤا بالبينات﴾ أى المعجزات الواضحات صفة لرسل ﴿والزبر﴾ هو جمع زبور وهو الكتاب المقصور على الحكم من زبرته اذا حسنته وقيل الزبر المواعظ والزواجر من زبرته اذا زجرته ﴿والكتاب المنير﴾ قيل أى التوراة والانجيل والزبور والكتاب فى عرف القرآن ما يتضمن الشرائع والاحكام ولذلك جاء الكتاب والحكمة متعاطفين فى عامة المواقع وقرىء وبالزبر باعادة الجار دلالة على أنها مغايرة بالذات للبينات ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ وعد ووعيد للمصدق والمكذب وقرىء ذائقة الموت بالتنوين وعدمه كما فى قوله ولا ذاكر الله الا قليلا ﴿وانما توفون أجوركم﴾ أى تعطون أجزية أعمالكم على التمام والكمال ﴿يوم القيامة﴾ أى يوم قيامكم من القبور وفى لفظ التوفية اشارة الى أن بعض أجورهم يصل اليهم قبله كما ينبىء عنه قوله عليه الصلاة والسلام القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران ﴿فمن زحزح عن النار﴾ أى بعد عنها يومئذ ونجى والزحزحة فى الاصل تكرير الزح وهو الجذب بعجلة ﴿وأدخل الجنة فقد فاز﴾ بالنجاة ونيل المراد والفوز الظفر بالبغية وعن النبى صلى الله عليه وسلم من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتى الى الناس ما يحب أن يؤتى اليه ﴿وما الحيوة الدنيا﴾ أى لذاتها وزخارفها ﴿الا متاع الغرور﴾ شبهت بالمتاع الذى يدلس به على المستام ويغر حتى يشتريه وهذا لمن آثرها على الآخرة فأما من طلب بها الآخرة فهى له متاع بلاغ والغرور اما مصدر أو جمع غار ﴿لتبلون﴾ شروع فى تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين عما سيلقونه من جهة الكفرة من المكاره اثر تسليتهم عما قد وقع منهم ليوطنوا أنفسهم على احتماله عند وقوعه ويستعدوا للقائه ويقابلوه بحسن الصبر والثبات فان هجوم الاوجال مما يزلزل أقدام الرجال والاستعداد للكروب مما يهون الخطوب وأصل الابتلاء الاختبار أى تطلب الخبرة بحال المختبر بتعريضه لأمر يشق عليه غالبا ملابسته ومفارقته وذلك انما يتصور حقيقة مما لا وقوف له على عواقب الامور وأما من جهة العليم الخبير فلا يكون الا مجازا من تمكينه للعبد من اختيار أحد الامرين أو الامور قبل أن يرتب عليه شيئا هو من مباديه العادية كما مر والجملة جواب قسم محذوف أى والله لتبلون أى لتعاملن معاملة المختبر ليظهر ما عندكم من الثبات على الحق والأعمال الحسنة وفائدة التوكيد اما تحقيق معنى الابتلاء تهوينا للخطب واما تحقيق وقوع المبتلى به مبالغة فى الحث على ما أريد منهم من التهيؤ والاستعداد ﴿فى أموالكم﴾ بما يقع فيها من ضروب الآفات المؤدية الى هلاكها وأما انفاقها فى سبيل الخير مطلقا فلا يليق نظمه فى سلك الابتلاء لما أنه من باب الاضعاف لا من قبيل الاتلاف ﴿وأنفسكم﴾ بالقتل والاسر والجراح وما يرد عليها من أصناف المتاعب والمخاوف والشدائد ونحو ذلك وتقديم الاموال لكثرة وقوع الهلكة فيها ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ أى من قبل ايتائكم القرآن وهم اليهود والنصارى عبر عنهم بذلك للاشعار بمدار الشقاق والايذان بأن بعض ما يسمعونه منهم مستند على زعمهم الى الكتاب كما فى قوله تعالى ان الله عهد الينا الخ والتصريح بالقبلية لتأكيد الاشعار وتقوية المدار فان قدم نزول كتابهم مما يؤيد تمسكهم به ﴿ومن الذين أشركوا أذى كثيرا﴾ من الطعن فى الدين الحنيف والقدح فى أحكام الشرع الشريف وصد من أراد أن يؤمن وتخطئة من آمن وما كان من كعب بن الاشرف وأضرابه من هجاء المؤمنين وتحريض المشركين على

مضادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك مما لا خير فيه ﴿وان تصبروا﴾ أى على تلك الشدائد والبلوى عند ورودها وتقابلوها بحسن التجمل ﴿وتتقوا﴾ أى تتبتلوا الى الله تعالى بالكلية معرضين عما سواه بالمرة بحيث يتساوى عندكم وصول المحبوب ولقاء المكروه ﴿فان ذلك﴾ اشارة الى الصبر والتقوى وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهما وبعد منزلتهما وتوحيد حرف الخطاب اما باعتبار كل واحد من المخاطبين واما لأن المراد بالخطاب مجرد التنبيه من غير ملاحظة خصوصية أحوال المخاطبين ﴿من عزم الأمور﴾ من معزوماتها التى يتنافس فيها المتنافسون أى مما يجب أن يعزم عليه كل أحد لما فيه من كمال المزية والشرف أو مما عزم الله تعالى عليه وأمر به وبالغ فيه يعنى أن ذلك عزمة من عزمات الله تعالى لابد أن تصبروا وتتقوا والجملة تعليل لجواب الشرط واقع موقعه كأنه قيل وان تصبروا وتتقوا فهو خير لكم أو فافعلوا أو فقد أحسنتم أو فقد أصبتم فان ذلك الخ ويجوز أن يكون ذلك اشارة الى صبر المخاطبين وتقواهم فالجملة حينئذ جواب الشرط وفى ابراز الامر بالصبر والتقوى فى صورة الشرطية من اظهار كمال اللطف بالعباد ما لا يخفى ﴿واذ أخذ الله﴾ كلام مستأنف سيق لبيان بعض أذياتهم وهو كتمانهم ما فى كتابهم من شواهد نبوته عليه الصلاة والسلام وغيرها واذ منصوب على المفعولية بمضمر أمر به النبى صلى الله عليه وسلم خاصة بطريق تجريد الخطاب اثر الخطاب الشامل له عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين لكون مضمونه من الوظائف الخاصة به عليه الصلاة والسلام وتوجيه الأمر بالذكر الى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة فى ايجاب ذكرها على ما مر بيانه فى تفسير قوله تعالى واذ قال ربك للملائكة انى جاعل الخ أى اذكر وقت أخذه تعالى ﴿ميثاق الذين أوتوا الكتاب﴾ وهم علماء اليهود والنصارى ذكروا بعنوان ايتاء الكتاب مبالغة فى تقبيح حالهم ﴿لتبيننه﴾ حكاية لما خوطبوا به والضمير للكتاب وهو جواب لقسم ينبىء عنه أخذ الميثاق كأنه قيل لهم بالله لتبيننه ﴿للناس﴾ وتظهرن جميع ما فيه من الأحكام والاخبار التى من جملتها أمر نبوته عليه الصلاة والسلام وهو المقصود بالحكاية وقرىء بالياء لانهم غيب ﴿ولا تكتمونه﴾ عطف على الجواب وانما لم يؤكد بالنون لكونه منفيا كما فى قولك والله لا يقوم زيد وقيل اكتفى بالتأكيد فى الأول لانه تأكيد له وقيل هو حال من ضمير المخاطبين اما على اضمار مبتدأ بعد الواو أى وأنتم لا تكتمونه واما على رأى من جوز دخول الواو على المضارع المنفى عند وقوعه حالا أى لتبيننه غير كاتمين والنهى عن الكتمان بعد الأمر بالبيان اما للمبالغة فى ايجاب المأمور به واما لان المراد بالبيان المأمور به ذكر الآيات الناطقة بنبوته عليه الصلاة والسلام وبالكتمان المنهى عنه القاء التأويلات الزائغة والشبهات الباطلة وقرىء بالياء كما قبله ﴿فنبذوه﴾ النبذ الرمى والابعاد أى طرحوا ما أخذ منهم من الميثاق الموثق بفنون التأكيد وألقوه ﴿وراء ظهورهم﴾ ولم يراعوه ولم يلتفتوا اليه أصلا فان نبذ الشىء وراء الظهر مثل فى الاستهانة به والاعراض عنه بالكلية كما أن جعله نصب العين علم فى كمال العناية به وفيه من الدلالة على تحتم بيان الحق على علماء الدين واظهار ما منحوه من العلم للناس أجمعين وحرمة كتمانه لغرض من الأغراض الفاسدة أو لطمع فى عرض من الأعراض الفانية الكاسدة ما لا يخفى وعن النبى صلى الله عليه وسلم من كتم علما عن أهله ألجم بلجام من نار وعن طاوس أنه قال لوهب بن منبه انى أرى الله سوف يعذبك بهذه الكتب وقال والله لو كنت نبيا فكتمت العلم كما تكتمه لرأيت أن الله سيعذبك وعن محمد بن كعب لا يحل لأحد من العلماء أن يسكت على علمه ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله حتى يسأل وعن على رضى الله عنه ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا ﴿واشتروا به﴾ أى بالكتاب الذى أمروا ببيانه ونهوا عن كتمانه فان ذكر نبذ الميثاق يدل على ذلك دلالة واضحة وايقاع الفعل على الكل مع أن المراد به كتم بعضه كدلائل نبوته

عليه الصلاة والسلام ونحوها لما أن ذلك كتم للكل اذبه يتم الكتاب كما أن رفض بعض أركان الصلاة رفض لكلها أو بمنزلة كتم الكل من حيث أنهما سيان فى الشناعة واستجرار العقاب كما فى قوله تعالى وان لم تفعل فما بلغت رسالته والاشتراء مستعار لاستبدال متاع الدنيا بما كتموه أى تركوا ماأمروا به وأخذوا بدله ﴿ثمنا قليلا﴾ أى شيئا تافها حقيرا من حطام الدنيا وأعراضها وفى تصوير هذه المعاملة بعقد المعاوضة لاسيما بالاشتراء المؤذن بالرغبة فى المأخوذ والاعراض عن المعطى والتعبير عن المشترى الذى هو العمدة فى العقد والمقصود بالمعاملة بالثمن الذى شأنه أن يكون وسيلة اليه وجعل الكتاب الذى حقه أن يتنافس فيه المتنافسون مصحوبا بالباء الداخلة على الآلات والوسائل من نهاية الجزالة والدلالة على كمال فظاعة حالهم وغاية قبحها بايثارهم الدنئ الحقير على الشريف الخطير وتعكيسهم بجعلهم المقصد الأصلى وسيلة والوسيلة مقصدا ما لا يخفى جلالة شأنه و رفعة مكانه ﴿فبئس ما يشترون﴾ ما نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس و يشترون صفته والمخصوص بالذم محذوف أى بئس شيئا يشترونه ذلك الثمن ﴿لاتحسبن﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أولكل أحد ممن يصلح له ﴿الذين يفرحون بما أتوا﴾ أى بما فعلوا كما فى قوله تعالى انه كان وعده مأتيا ويدل عليه قراءة أبى يفرحون بمافعلوا وقرئ بما آتوا بمعنى أعطوا و بما أوتوا أى بما أوتوه من علم التوراة. قال ابن عباس رضى الله عنهما هم اليهود حرفوا التوراة وفرحوا بذلك وأحبوا أن يوصفوا بالديانة والفضل روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل اليهود عن شئ مما فى التوراة فكتموا الحق وأخبروه بخلافه وأروه أنهم قد صدقوه واستحمدوا اليه وفرحوا بما فعلوا وقيل فرحوا بكتمان النصوص الناطقة بنبوته عليه الصلاة والسلام وأحبوا أن يحمدوا بأنهم متبعون ملة ابراهيم عليه السلام فالموصول عبارة عن المذكورين أوعن مشاهيرهم وضع موضع ضميرهم والجملة مسوقة لبيان ماتستتبعه أعمالهم المحكية من العقاب الأخروى اثر بيان قباحتها وقد أدمج فيها بيان بعض آخر من شنائعهم وهواصرارهم على ماهم عليه من القبائح وفرحهم بذلك ومحبتهم لأن يوصفوا بما ليس فيهم من الأوصاف الجميلة وقد نظم ذلك فى سلك الصلة التى حقها أن تكون معلومة الثبوت للموصول عند المخاطب ايذانا بشهرة اتصافهم بذلك وقيل هم قوم تخلفوا عن الغزو ثم اعتذروا بأنهم رأوا المصلحة فى ذلك واستحمدوا به وقيل هم المنافقون كافة وهو الأنسب بظاهر قوله تعالى ﴿ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ لشهرة أنهم كانوا يفرحون بما فعلوا من اظهار الايمان وقلوبهم مطمئنة بالكفر و يستحمدون الى المسلمين بالايمان وهم عن فعله بألف منزل وكانوا يظهرون محبة المؤمنين وهم فى الغاية القاصية من العداوة فالموصول عبارة عن طائفة معهودة من المذكورين وغيرهم فان أكثر المنافقين كانوا من اليهود ولعل الأولى اجراء الموصول على عمومه شاملا لكل من يأتى بشئ من الحسنات فيفرح به فرح اعجاب ويود أن يمدحه الناس بما هو عار منه من الفضائل منتظما للمعهودين انتظاما أوليا وأياما كان فهو مفعول أول لتحسبن وقوله تعالى ﴿فلاتحسبنهم﴾ تأكيد له والفاء زائدة والمفعول الثانى قوله تعالى ﴿بمفازة من العذاب﴾ أى ملتبسين بنجاة منه على أن المفازة مصدر ميمى ولايضر تأنيثها بالتاء لما أنها مبنية عليها وليست للدلالة على الوحدة كما فى قوله

فلولا رجاء النصر منك ورهبة عقابك قد كانوا لنا بالموارد

ولاسبيل الى جعلها اسم مكان على أن الجار متعلق بمحذوف وقع صفة لها أى بمفازة كائنة من العذاب لأنها ليست من العذاب وتقدير فعل خاص ليصح به المعنى أى بمفازة منجية من العذاب مع كونه خلاف الأصل تعسف مستغنى عنه وقرئ بضم الباء فى الفعلين على أن الخطاب شامل للمؤمنين أيضا وقرئ بياء الغيبة وفتح الباء فيهما على أن الفعل له عليه الصلاة والسلام أولكل أحد ممن يتأتى منه الحسبان ومفعولاه كما ذكر وقرئ بضم الباء فى الثانى فقط على أن الفعل

للموصول والمفعول الأول محذوف لكونه عين الفاعل والثانى بمفازة أى لايحسبن الذين يفرحون أنفسهم فائزين وقوله تعالى فلايحسبنهم تأكيد للاول والفاء زائدة كمامر ويجوز أن يحمل الفعل الأول على حذف المفعولين معا اختصارا لدلالة مفعولى الثانى عليهما على عكس ما فى قوله

بأى كتاب أوبأية سنة ترى حبهم عارا على وتحسب

حيث حذف فيه مفعولا الثانى لدلالة مفعولى الأول عليهما أو على أن الفعل الأول للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل حاسب ومفعوله الأول الموصول والثانى محذوف لدلالة مفعول الفعل الثانى عليه والفعل الثانى مسند الى ضمير الموصول والفاء للعطف لظهور تفرع عدم حسبانهم على عدم حسبانه عليه السلام ومفعولاه الضمير المنصوب وقوله تعالى بمفازة وتصدير الوعيد بنهيهم عن الحسبان المذكور للتنبيه على بطلان آرائهم الركيكة وقطع أطماعهم الفارغة حيث كانوا يزعمون أنهم ينجون بما صنعوا من عذاب الآخرة كما نجوا به من المؤاخذة الدنيوية وعليه كان مبنى فرحهم وأما نهيه عليه السلام فللتعريض بحسبانهم المذكور لا لاحتمال وقوع الحسبان من جهته عليه السلام ﴿ولهم عذاب أليم﴾ بعد ماأشير الى عدم نجاتهم من مطلق العذاب حقق أن لهم فردا منه لاغاية له فى المدة والشدة كما تلوح به الجملة الاسمية والتنكير التفخيمى والوصف ﴿ولله﴾ أى خاصة ﴿ملك السموات والأرض﴾ أى السلطان القاهر فيهما بحيث يتصرف فيهما وفيما فيهما كيفما يشاء ويريد ايجادا واعداما احياء واماتة تعذيبا واثابة من غير أن يكون لغيره شائبة دخل فى شئ من ذلك بوجه من الوجوه فالجملة مقررة لما قبلها وقوله تعالى ﴿والله على كل شئ قدير﴾ تقرير لاختصاص ملك العالم الجسمانى المعبر عنه بقطريه به سبحانه وتعالى فان كونه تعالى قادرا على الكل بحيث لايشذ من ملكوته شئ من الأشياء يستدعى كون ماسواه كائنا ما كان مقدورا له ومن ضرورته اختصاص القدرة به تعالى واستحالة أن يشاركه شئ من الأشياء فى القدرة على شئ من الأشياء فضلا عن المشاركة فى ملك السموات والأرض وفيه تقرير لما مر من ثبوت العذاب الأليم لهم وعدم نجاتهم منه اثر تقرير واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتربية المهابة والاشعار بمناط الحكم فان شمول القدرة لجميع الأشياء من أحكام الالوهية مع مافيه من الاشعار باستقلال كل من الجملتين بالتقرير ﴿ان فى خلق السموات﴾ جملة مستأنفة سيقت لتقرير ماسبق من اختصاصه تعالى بالسلطان القاهر والقدرة التامة صدرت بكلمة التأكيد اعتناء بتحقيق مضمونها أى فى انشائها على ماهى عليه فى ذواتها وصفاتها من الأمور التى يحار فى فهم اجلالها العقول ﴿والارض﴾ على ماهى عليه ذاتا وصفة ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ أى فى تعاقبهما فى وجه الارض وكون كل منهما خلفة للآخر بحسب طلوع الشمس وغروبها التابعين لحركات السموات وسكون الارض أو فى تفاوتهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر وانتقاصه بازدياده باختلاف حال الشمس بالنسبة الينا قربا وبعدا بحسب الأزمنة أو فى اختلافهما وتفاوتهما بحسب الأمكنة اما فى الطول والقصر فان البلاد القريبة من القطب الشمالى أيامها الصيفية أطول ولياليها الصيفية أقصر من أيام البلاد البعيدة منه ولياليها واما فى أنفسها فان كرية الارض تقتضى أن يكون بعض الأوقات فى بعض الأماكن ليلا وفى مقابله نهارا وفى بعضها صباحا وفى بعضها ظهرا أوعصرا أو غير ذلك والليل قيل أنه اسم جنس يفرق بين واحده وجمعه بالتاء كتمر وتمرة والليالى جمع جمع والصحيح أنه مفرد ولا يحفظ له جمع والليالى جمع ليلة وهو جمع غريب كأنهم توهموا أنها ليلاة كما فى كيكة وكياكى كأنها جمع كيكاة والنهار اسم لما بين طلوع الفجر وغروب الشمس قاله الراغب وقال ابن فارس هو ضياء مابينهما وتقديم الليل على النهار اما لأنه الاصل فان غرر الشهور تظهر فى الليالى واما لتقدمه فى الخلقية حسبما ينبئ عنه قوله تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار أى نزيله

منه فيخلفه ﴿لآيات﴾ اسم ان دخلته اللام لتأخره عن خبرها والتنكير للتفخيم كما و كيفا أى لآيات كثيرة عظيمة لايقادر قدرها دالة على تعاجيب شئونه التى من جملتها مامر من اختصاص الملك العظيم والقدرة التامة به سبحانه وعدم التعرض لما ذكر فى سورة البقرة من الفلك والمطر وتصريف الرياح والسحاب لما أن المقصود ههنا بيان استبداده تعالى بما ذكر من الملك والقدرة فاكتفى بمعظم الشواهد الدالة على ذلك واما هناك فقد قصد فى ضمن بيان اختصاصه تعالى بالالوهية بيان اتصافه تعالى بالرحمة الواسعة فنظمت دلائل الفضل والرحمة فى سلك دلائل التوحيد فان ما فصل هناك من آيات رحمته تعالى كما أنه من آيات ألوهيته و وحدته ﴿لأولى الألباب﴾ أى لذوى العقول المجلوة الخالصة عن شوائب الحس والوهم المتجردين عن العلائق النفسانية المتخاصين من العوائق الظلمانية المتأملين فى أحوال الحقائق وأحكام النعوت المراقبين فى أطوار الملك وأسرار الملكوت المتفكرين فى بدائع صنائع الملك الخلاق المتدبرين فى روائع حكمه المودعة فى الانفس والآفاق الناظرين الى العالم بعين الاعتبار والشهود المتفحصين عن حقيقة سر الحق فى كل موجود المثابرين على مراقبته وذكراه غير ملتفتين الى شىء مما سواه الامن حيث أنه مرآة لمشاهدة جماله وآلة لملاحظة صفات كماله فان كل ماظهر فى مظاهر الابداع وحضر محاضر التكوين والاختراع سبيل سوى الى عالم التوحيد ودليل قوى على الصانع المجيد ناطق بآيات قدرته فهل من سامع واع ومخبر بأنباء علمه وحكمته فهل له من داع يكلم الناس على قدر عقولهم ويرد جوابهم بحسب مقولهم يحاور تارة بأوضح عبارة و يلوح أخرى بألطف اشارة مراعيا فى الحوار ابهامهم وتصريحهم وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم فتأمل فى هذه الشئون والاسرار ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار . عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هل لك ياعائشة أن تأذنى لى الليلة فى عبادة ربى فقلت يارسول الله انى لأحب قربك وأحب هواك قد أذنت لك فقام الى قربة من ماء فى البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء ثم قام يصلى فقرأ من القرآن وجعل يبكى حتى بلغ الدموع حقويه ثم جلس فحمد الله تعالى وأثنى عليه وجعل يبكى ثم رفع يديه فجعل يبكى حتى رأيت دموعه قد بلت الارض فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكى فقال له يارسول الله أتبكى وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر فقال يابلال أفلا أكون عبدا شكورا ثم قال ومالى لاأبكى وقد أنزل الله تعالى على فى هذه الليلة ان فى خلق السموات والارض الخ ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها وروى ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأملها وعن على رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا قام من الليل يتسوك ثم ينظر الى السماء ثم يقول ان فى خلق السموات والارض الخ ﴿الذين يذكرون الله﴾ الموصول اما موصول بأولى الألباب مجرور على أنه نعت كاشف له بما فى حيز الصلة واما مفصول عنه مرفوع أو منصوب على المدح أو مرفوع على أنه خبر لمبتدا محذوف وقيل هو مرفوع على الابتداء والخبر هو القول المقدر قبل قوله تعالى ربنا وفيه من تفكيك النظم الجليل مالايخفى وأيا ما كان فقد أشير بما فى حيز صلته أن المراد بهم الذين لايغفلون عنه تعالى فى عامة أوقاتهم لاطمئنان قلوبهم بذكره واستغراق سرائرهم فى مراقبته لما أيقنوا بأن كل ماسواه فائض منه وعائد اليه فلا يشاهدون حالا من الأحوال فى أنفسهم واليه أشير بقوله عز وجل ﴿قياما وقعودا وعلى جنوبهم﴾ ولا فى الآفاق واليه أشير بما بعده الا وهم يعاينون فى ذلك شأنا من شئونه تعالى فالمراد به ذكره تعالى مطلقا سواء كان ذلك من حيث الذات أو من حيث الصفات والافعال وسواء قارنه الذكر اللسانى أولا وأما مايحكى عن ابن عمر وعروة بن الزبير وجماعة رضى الله عنهم من أنهم خرجوا يوم العيد الى المصلى فجعلوا يذكرون الله تعالى فقال بعضهم أما قال الله تعالى الذين يذكرون الله قياما وقعودا فقاموا يذكرون الله على أقدامهم فليس مرادهم به تفسير الآية وتحقيق مصداقها على التعيين

وانما أرادوا به التبرك بنوع موافقة لها فى ضمن الاتيان بفرد من أفراد مدلولها وأما حمل الذكر على الصلاة فى هذه الأحوال حسب الاستطاعة كما قال عليه السلام لعمران بن الحصين صل قائما فان لم تستطع فقاعدا فان لم تستطع فعلى جنب تومىء ايماء فمما لايساعده سباق النظم الجليل ولا سياقه والقيام والقعود جمع قائم وقاعد كنيام ورقود جمع نائم وراقد وانتصابهما على الحالية من ضمير يذكرون أى يذكرونه قائمين وقاعدين وقوله تعالى وعلى جنوبهم متعلق بمحذوف معطوف على الحالين أى وكائنين على جنوبهم أى مضطجعين والمراد تعميم الذكر للاوقات كما مر وتخصيص الأحوال المذكورة بالذكر ليس لتخصيص الذكر بها بل لأنها الأحوال المعهودة التى لايخلو عنها الانسان غالبا ﴿ويتفكرون فى خلق السموات والأرض﴾ عطف على يذكرون منتظم معه فى حيز الصلة فلا محل له من الاعراب وقيل محله النصب على أنه معطوف على الأحوال السابقة وليس بظاهر وهو بيان لتفكرهم فى أفعاله سبحانه اثر بيان تفكرهم فى ذاته تعالى على الاطلاق واشارة الى نتيجته التى يؤدى اليها من معرفة أحوال المعاد حسبما نطقت به ألسنة الرسل وآيات الكتب فكما أنها آيات تشريعية هادية للخلق الى معرفته تعالى و وجوب طاعته كذلك المخلوقات آيات تكوينية مرشدة لهم الى ذلك فالأولى منبهات لهم على الثانية ودواع الى الاستشهاد بها كهذه الآية الكريمة ونحوها مما ورد فى مواضع غير محصورة من التنزيل والثانية مؤيدات للأولى وشواهد دالة على صحة مضمونها وحقية مكنونها فان من تأمل فى تضاعيف خلق العالم على هذا النمط البديع قضى باتصاف خالقه تعالى بجميع مانطقت به الرسل والكتب من الوجوب الذاتى والوحدة الذاتية والملك القاهر والقدرة التامة والعلم الشامل والحكمة البالغة وغير ذلك من صفات الكمال وحكم بأن من قدر على انشائه بلا مثال يحتذيه أو قانون ينتحيه فهو على اعادته بالبعث أقدر وحكم بأن ذلك ليس الا لحكمة باهرة هى جزاء المكلفين بحسب استحقاقهم المنوط بأعمالهم أى علومهم واعتقاداتهم التابعة لانظارهم فيما نصب لهم من الحجج والدلائل والامارات والمخايل وسائر أعمالهم المتفرعة على ذلك فان العمل غير مختص بعمل الجوارح بل متناول للعمل القلبى بل هو أشرف أفراده لما أن لكل من القلب والقالب عملا خاصا به ومن قضية كون الاول أشرف من الثانى كون عمله أيضا أشرف من عمله كيف لا ولا عمل بدون معرفته تعالى التى هى أول الواجبات على العباد والغاية القصوى من الخلق على مانطق به عز وجل وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون أى ليعرفون كما أعرب عنه قوله عليه الصلاة والسلام يقول الله تعالى كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف وانما طريقها النظر والتفكر فيما ذكر من شئونه تعالى وقد روى عنه عليه السلام أنه قال لاتفضلونى على يونس بن متى فانه كان يرفع له كل يوم مثل عمل أهل الأرض قالوا وانما كان ذلك التفكر فى أمر الله تعالى ولذلك قال عليه السلام لاعبادة مثل التفكر وقد عرفت أنه مستتبع لتحقيق ماجاءت به الشريعة الحقة والا لما فسر النبى صلى الله عليه وسلم قوله تعالى وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا بقوله عليه الصلاة والسلام أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله تعالى فان التورع عن محارمه سبحانه موقوف على معرفة الحلال والحرام المنوطة بالكتاب والسنة فحينئذ تتصادق الآيات التكوينية وتتوافق الأدلة السمعية والعقلية وهو السر فى نظم ماحكى عن المتفكرين من الامور المستدعية للايمان بالشريعة فى سلك نتيجة تفكرهم كما ستقف عليه واظهار خلق السموات والارض مع كفاية الاضمار لابراز كمال العناية ببيان حالهم والايذان بكون تفكرهم على وجه التحقيق والتفصيل وعدم التعرض لادراج اختلاف الملوين فى سلك التفكر مع ذكره فيما سلف اما للايذان بظهور اندراجه فيه لما أن ذلك من الاحوال التابعة لأحوال السموات والارض كما أشير اليه واما للاشعار بمسارعتهم الى الحكم بالنتيجة بمجرد تفكرهم فى بعض الآيات

من غير حاجة الى بعض آخر منها فى اثبات المطلوب والخلق مصدر على حاله أى يتفكرون فى انشائهما وابداعهما بما فيهما من عجائب المصنوعات وقيل بمعنى المخلوق على أن الاضافة بمعنى فى أى يتفكرون فيما خلق فيهما أعم من أن يكون بطريق الجزئية منهما أو بطريق الحلول فيهما أو على أنها بيانية ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلا﴾ كلمة هذا اشارة الى السموات والارض متضمنة لضرب من التعظيم كما فى قوله تعالى ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم والتذكير لما أنهما باعتبار تعلق الخلق بهما فى معنى المخلوق أو الى الخلق على تقدير كونه بمعنى المخلوق و باطلا اما صفة لمصدر مؤكد محذوف أو حال من المفعول به أى ما خلقت هذا المخلوق البديع العظيم الشأن عبثا عاريا عن الحكمة خاليا عن المصلحة كما ينبىء عنه أوضاع الغافلين عن ذلك المعرضين عن التفكر فيه بل منتظما لحكم جليلة ومصالح عظيمة من جملتها أن يكون مدارا لمعايش العباد ومنارا يرشدهم الى معرفة أحوال المبدأ والمعاد حسبما أفصحت عنه الرسل والكتب الالهية كما تحققته مفصلا والجملة بتمامها فى حيز النصب بقول مقدر هو على تقدير كون الموصول نعتا لأولى الالباب استئناف مبين لنتيجة التفكر ومدلول الآيات ناشىء مما سبق فان النفس عند سماع تخصيص الآيات المنصوبة فى خلق العالم بأولى الالباب ثم وصفهم بذكر الله تعالى والتفكر فى محال تلك الآيات تبقى مترقبة لما يظهر منهم من آثارها وأحكامها كأنه قيل فماذا يكون عند تفكرهم فى ذلك وماذا يترتب عليه من النتيجة فقيل يقولون كيت وكيت مما ينبىء عن وقوفهم على سر الخلق المؤدى الى معرفة صدق الرسل وحقية الكتب الناطقة بتفاصيل الاحكام الشرعية على التفصيل الذى وقفت عليه هذا وأما جعله حالا من المستكن فى الفعل كما أطبق عليه الجمهور فمما لا يساعده جزالة النظم الكريم لما أن ما فى حيز الصلة وما هو قيد له حقه أن يكون من مبادى الحكم الذى أجرى على الموصول ودواعى ثبوته له كذكرهم الله عز وجل فى عامة أوقاتهم وتفكرهم فى خلق السموات والارض فانهما مما يؤدى الى اجتلاء تلك الآيات والاستدلال بها على المطلوب ولا ريب فى أن قولهم ذلك ليس من مبادى الاستدلال المذكور بل من نتائجه المترتبة عليه فاعتباره قيدا لما فى حيز الصلة مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل نعم هو حال من ذلك على تقدير كون الموصول مرفوعا أو منصوبا على المدح أو مرفوعا على أنه خبر لمبتدأ محذوف اذ لا اشتباه فى أن قولهم ذلك من مبادى مدحهم ومحاسن مناقبهم وفى ابراز هذا القول فى معرض الحال دون الخبر اشعار بمقارنته لتفكرهم من غير تلعثم وتردد فى ذلك وقوله تعالى ﴿سبحانك﴾ أى تنزيها لك عما لا يليق بك من الامور التى من جملتها خلق ما لا حكمة فيه اعتراض مؤكد لمضمون ما قبله وممهد لما بعده من قوله تعالى ﴿فقنا عذاب النار﴾ فان معرفة سر خلق العالم وما فيه من الحكمة البالغة والغاية الحميدة والقيام بما تقتضيه من الاعمال الصالحة وتنزيه الصانع تعالى عن العبث من دواعى الاستعاذة مما يحيق بالمخلين بذلك من وجهين أحدهما الوقوف على تحقق العذاب فالفاء لترتيب الدعاء على ما ذكر والثانى الاستعداد لقبول الدعاء فالفاء لترتيب المدعو أعنى الوقاية على ذلك كأنه قيل واذ قد عرفنا سرك وأطعنا أمرك ونزهناك عما لا ينبغى فقنا عذاب النار الذى هو جزاء الذين لا يعرفون ذلك ﴿ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته﴾ مبالغة فى استدعاء الوقاية وبيان لسببه وتصدير الجملة بالنداء للمبالغة فى التضرع والجؤار وتأكيدها لاظهار كمال اليقين بمضمونها والايذان بشدة الخوف واظهار النار فى موضع الاضمار لتهويل أمرها وذكر الادخال فى مورد العذاب لتعيين كيفيته وتبيين غاية فظاعته. قال الواحدى للاخزاء معان متقاربة يقال أخزاه الله أى أبعده وقيل أهانه وقيل أهلكه وقيل فضحه. قال ابن الانبارى الخزى لغة الهلاك بتلف أو بانقطاع حجة أو بوقوع فى بلاء والمعنى فقد أخزيته خزيا لا غاية وراءه كقولهم من أدرك مرعى الصمان فقد أدرك أى المرعى الذى لا مرعى بعده وفيه من الاشعار بفظاعة العذاب الروحانى ما لا يخفى وقوله تعالى ﴿وما للظالمين من أنصار﴾

تذييل لاظهار نهاية فظاعة حالهم ببيان خلود عذابهم بفقدان من ينصرهم ويقوم بتخليصهم وغرضهم تأكيد الاستدعاء ووضع الظالمين موضع ضمير المدخلين لذمهم والاشعار بتعليل دخولهم النار بظلمهم ووضعهم الأشياء فى غير مواضعها وجمع الأنصار بالنظر الى جمع الظالمين أى ما لظالم من الظالمين نصير من الانصار والمراد به من ينصر بالمدافعة والقهر فليس فى الآية دلالة على نفى الشفاعة على أن المراد بالظالمين هم الكفار ﴿ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان﴾ حكاية لدعاء آخر لهم مبنى على تأملهم فى الدليل السمعى بعد حكاية دعائهم السابق المبنى على التفكر فى الأدلة العقلية وتصدير مقدمة الدعاء بالنداء لاظهار كمال الضراعة والابتهال والتأكيد للايذان بصدور المقال عنهم بوفور الرغبة وكمال النشاط والمراد بالنداء الدعاء وتعديتهما بالى لتضمنهما معنى الانتهاء وباللام لاشتمالهما على معنى الاختصاص والمراد بالمنادى الرسول صلى الله عليه وسلم وتنويه للتفخيم وايثاره على الداعى للدلالة على كمال اعتنائه بشأن الدعوة وتبليغها الى الدانى والقاصى لما فيه من الايذان برفع الصوت وينادى صفة لمناديا عند الجمهور كما فى قولك سمعت رجلا يقول كيت وكيت ولو كان معرفة لكان حالا منه كما اذا قلت سمعت زيدا يقول الخ ومفعول ثان لسمعنا عند الفارسى وأتباعه وهذا أسلوب بديع يصار اليه للمبالغة فى تحقيق السماع والايذان بوقوعه بلا واسطة عند صدور المسموع عن المتكلم وللتوسل الى تفصيله واستحضار صورته وقد اختص النظم الكريم بمزية زائدة على ذلك حيث عبر عن المسموع منه بالمنادى ثم وصف بالنداء للايمان على طريقة قولك سمعت متكلما يتكلم بالحكمة لما أن التفسير بعد الابهام والتقييد بعد الاطلاق أوقع عند النفس وأجدر بالقبول وقيل المنادى القرآن العظيم ﴿أن آمنوا﴾ أى آمنوا على أن أن تفسيرية أو بأن آمنوا على أنها مصدرية ﴿بربكم﴾ بمالككم ومتولى أموركم ومبلغكم الى الكمال وفى اطلاق الايمان ثم تقييده تفخيم لشأنه ﴿فآمنا﴾ أى فامتثلنا بأمره وأجبنا نداءه ﴿ربنا﴾ تكرير للتضرع واظهار لكمال الخضوع وعرض للاعتراف بربوبيته مع الايمان به والفاء فى قوله تعالى ﴿فاغفر لنا﴾ لترتيب المغفرة أو الدعاء بها على الايمان به تعالى والاقرار بربوبيته فان ذلك من دواعى المغفرة والدعاء بها ﴿ذنوبنا﴾ أى كبائرنا فان الايمان يجب ما قبله ﴿وكفر عنا سيئاتنا﴾ أى صغائرنا فانها مكفرة عن مجتنب الكبائر ﴿وتوفنا مع الابرار﴾ أى مخصوصين بصحبتهم مغتنمين لجوارهم معدودين من زمرتهم وفيه اشعار بأنهم كانوا يحبون لقاء الله ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه والابرار جمع بار أو بر كأصحاب وأرباب ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك﴾ حكاية لدعاء آخر لهم مسبوق بما قبله معطوف عليه لتأخر التحلية عن التخلية وتكرير النداء لما مر مكررا والمراد بالموعود الثواب وعلى اما متعلقة بالوعد كما فى قولك وعد الله الجنة على الطاعة أى وعدتنا على تصديق رسلك أو بمحذوف وقع صفة لمصدر مؤكد محذوف أى وعدتنا وعدا كائنا على ألسنة رسلك وقيل التقدير منزلا على رسلك أو محمولا على رسلك ولا يخفى أن تقدير الأفعال الخاصة فى مثل هذه المواقع تعسف وجمع الرسل مع أن المنادى هو الرسول صلى الله عليه وسلم وحده لما أن دعوته عليه السلام لاسيما فى باب التوحيد وما أجمع عليه الكل من الشرائع منطوية على دعوة الكل فتصديقه تصديق لهم عليهم السلام كيف لا وقد أخذ منهم الميثاق بالايمان به عليه السلام لقوله تعالى واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب الآية وكذا الموعود على لسانه من الثواب موعود على ألسنة الكل وايثار الجمع لاظهار كمال الثقة بانجاز الموعود بناء على كثرة الشهود ﴿ولا تخزنا يوم القيامة﴾ قصدوا بذلك تذكير وعده تعالى بقوله يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه مظهرين أنهم ممن آمن معه رجاء للانتظام فى سلكهم يومئذ وقوله تعالى ﴿انك لا تخلف الميعاد﴾ تعليل لتحقيق ما نظموا فى سلك الدعاء وهذه الدعوات وما فى تضاعيفها من كمال الضراعة

والابتهال ليست لخوفهم من اخلاف الميعاد بل لخوفهم من أن لايكونوا من جملة الموعودين بتغير الحال وسوء الخاتمة والمآل فرجعها الى الدعاء بالتثبيت أو للمبالغة فى التعبد والخشوع والميعاد الوعد وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه البعث بعد الموت و فى الآثار عن جعفر الصادق من حزبه أمر فقال ربنا خمس مرات أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ماأراد وقرأ هذه الآية ﴿فاستجاب لهم ربهم﴾ الاستجابة بمعنى الاجابة وقال تاج القراء الاجابة عامة والاستجابة خاصة باعطاء المسئول وتتعدى باللام وبنفسها كما فى قوله فلم يستجبه عند ذاك مجيب وهو عطف على الاستئناف المقدر فيما سلف مترتب على مافى حيزه من الأدعية كما أن قوله عز وجل ثم قيل للذين ظلموا الخ عطف على قيل المقدر قبل آلآن أى قيل لهم آلآن آمنتم به ثم قيل الآية وكما أن قوله تعالى فى سورة الاعراف ونطبع على قلوبهم معطوف على مادل عليه معنى أولم يهد لهم الخ كأنه قيل يغفلون عن الهداية ونطبع الخ ولا ضير فى اختلافهما صيغة لما أن صيغة المستقبل هناك للدلالة على الاستمرار المناسب لمقام الدعاء وصيغة الماضى ههنا للايذان بتحقق الاستجابة وتقررها كما لاضير فى الاختلاف بين قوله تعالى اذ تستغيثون ربكم و بين ماعطف عليه من قوله تعالى فاستجاب لكم كما سيأتى و يجوز أن يكون معطوفا على مضمر ينساق اليه الذهن أى دعوا بهذه الأدعية فاستجاب الخ وأما على تقدير كون المقدر حالا فهو عطف على يتفكرون باعتبار مقارنته لما وقع حالا من فاعله أعنى قوله تعالى ربنا ربنا الخ فان الاستجابة مترتبة على دعواتهم لاعلى مجرد تفكرهم وحيث كانت هى من أوصافهم الجميلة المترتبة على أعمالهم بالآخرة استحقت الانتظام فى سلك محاسنهم المعدودة فى أثناء مدحهم وأما على تقدير كون الموصول نعتا لأولى الالباب فلا مساغ لهذا العطف أصلا لما عرفت من أن حق مافى حيز الصلة أن يكون من مبادى جريان الحكم على الموصول وقد عرفت أن دعواتهم السابقة ليست كذلك فأين الاستجابة المتأخرة عنها و فى التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال مع الاضافة الى ضميرهم من تشريفهم واظهار اللطف بهم مالايخفى ﴿أنى لاأضيع عمل عامل منكم﴾ أى بأنى وهكذا قرأ أبى رضى الله عنه والباء للسببية كأنه قيل فاستجاب لهم ربهم بسبب أنه لايضيع عمل عامل منهم أى سنته السنية مستمرة على ذلك والالتفات الى التكلم والخطاب لاظهار كمال الاعتناء بشأن الاستجابة وتشريف الداعين بشرف الخطاب والمراد تأكيدها ببيان سببها والاشعار بأن مدارها أعمالهم التى قدموها على الدعاء لامجرد الدعاء وتعميم الوعد لسائر العاملين وان لم يبلغوا درجة أولى الالباب لتأكيد استجابة الدعوات المذكورة والتعبير عن ترك الاثابة بالاضاعة مع أنه ليس باضاعة حقيقة اذ الاعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة مايستحيل صدوره عنه من القبائح وابراز الاثابة فى معرض الأمور الواجبة عليه وقرئ بكسر الهمزة على ارادة القول أى قائلا انى الخ فلاالتفات حينئذ وقرئ لاأضيع بالتشديد ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لعامل أى عامل كائن منكم وقوله تعالى ﴿من ذكر أو أنثى﴾ بيان لعامل وتأكيد لعمومه وقوله تعالى ﴿بعضكم من بعض﴾ جملة معترضة مبينة لسبب انتظام النساء فى سلك الرجال فى الوعد فان كون كل منهما من الآخر لتشعبهما من أصل واحد أو لفرط الاتصال بينهما أو لاتفاقهما فى الدين والعمل مما يستدعى الشركة والاتحاد فى ذلك . روى أن أم سلمة رضى الله عنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم انى أسمع الله تعالى يذكر الرجال فى الهجرة و لا يذكر النساء فنزلت وقوله تعالى ﴿فالذين هاجروا﴾ ضرب تفصيل لما أجمل فى العمل وتعداد لبعض أحاسن أفراده على وجه المدح والتعظيم أى فالذين هاجروا الشرك أو الاوطان والعشائر للدين وقوله تعالى ﴿وأخرجوا من ديارهم﴾ على الاول عبارة عن نفس الهجرة وعلى الثانى عن كيفيتها وكونها بالقسر والاضطرار ﴿وأوذوا فى سبيلى﴾ أى بسبب ايمانهم بالله ومن أجله وهو متناول لكل أذية نالتهم من قبل

المشركين ﴿وقاتلوا﴾ أى الكفار فى سبيل الله تعالى ﴿وقتلوا﴾ استشهدوا فى القتال وقرئ بالعكس لما أن الواو لاتستدعى الترتيب أو لأن المراد قتل بعضهم وقتال آخرين اذ ليس المعنى على اتصاف كل فرد من أفراد الموصول المذكور بكل واحد مما ذكر فى حيز الصلة بل على اتصاف الكل بالكل فى الجملة سواء كان ذلك باتصاف كل فرد من الموصول بواحد من الاوصاف المذكورة أو باثنين منها أو بأكثر اما بطريق التوزيع أو بطريق حذف بعض الموصولات من البين كما هو رأى الكوفيين كيف لا ولو أدير الحكم على اتصاف كل فرد بالكل لكان قد أضيع عمل من اتصف بالبعض وقرئ وقتلوا بالتشديد ﴿لأكفرن عنهم سيئاتهم﴾ جواب قسم محذوف أى والله لأكفرن والجملة القسمية خبر للمبتدأ الذى هو الموصول وهذا تصريح بوعد ماسأله الداعون بخصوصه بعد ماوعد ذلك عموما وقوله تعالى ﴿ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الانهار﴾ اشارة الى ماعبر عنه الداعون فيما قبل بقولهم وآتنا ماوعدتنا على رسلك وتفسير له ﴿ثوابا﴾ مصدر مؤكد لما قبله فان تكفير السيئات وادخال الجنة فى معنى الاثابة وقوله تعالى ﴿من عندالله﴾ متعلق بمحذوف هو صفة له مبينة لشرفه أى لأثيبنهم اثابة كائنة أو تثويبا كائنا من عنده تعالى بالغا الى المرتبة القاصية من الشرف وقوله تعالى ﴿والله عنده حسن الثواب﴾ اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماقبله والاسم الجليل مبتدأ خبره عنده وحسن الثواب مرتفع بالظرف على الفاعلية لاعتماده على المبتدا أو هو مبتدأ ثان والظرف خبره والجملة خبر للمبتدا الأول والعندية عبارة عن الاختصاص به تعالى مثل كونه بقدرته تعالى وفضله بحيث لايقدر عليه غيره بحال شئ يكون بحضرة أحد لايد عليه لغيره فالاختصاص مستفاد من التمثيل سواء جعل عنده خبرا مقدما لحسن الثواب أو لا وفى تصدير الوعد الكريم بعدم اضاعة العمل ثم تعقيبه بمثل هذا الاحسان الذى لايقادر قدره من لطف المسلك المنبئ عن عظم شأن المحسن مالايخفى ﴿لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد﴾ بيان لقبح ماأوتى الكفرة من حظوظ الدنيا وكشف عن حقارة شأنها وسوء مغبتها اثر بيان حسن ماأوتى المؤمنون من الثواب والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم على أن المراد تثبيته على ماهو عليه كقوله تعالى فلا تطع المكذبين أو على أن المراد نهى المؤمنين كما يوجه الخطاب الى مداره القوم ورؤسائهم والمراد أفناؤهم أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب من المؤمنين والنهى للمخاطب وانما جعل للتقلب مبالغة أى لاتنظر الى ماعليه الكفرة من السعة ووفور الحظ و لاتغتر بظاهر ماترى منهم من التبسط فى المكاسب والمتاجر والمزارع . روى أن بعض المؤمنين كانوا يرون المشركين فى رخاء ولين عيش فيقولون ان أعداء الله تعالى فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد فنزلت وقرئ لايغرنك بالنون الخفيفة ﴿متاع قليل﴾ خبر لمبتدا محذوف أى هو متاع قليل لاقدر له فى جنب ماذكر من ثواب الله تعالى قال عليه السلام ما الدنيا فى الآخرة الا مثل مايجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع فاذن لايجدى وجوده لواجديه ولا يضر فقدانه لفاقديه ﴿ثم مأواهم﴾ أى مصيرهم الذى يأوون اليه لايبرحونه ﴿جهنم﴾ التى لايوصف عذابها وقوله تعالى ﴿وبئس المهاد﴾ ذم لها وايذان بأن مصيرهم اليها مما جنته أنفسهم وكسبته أيديهم والمخصوص بالذم محذوف أى بئس مامهدوا لأنفسهم جهنم ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها﴾ بيان لكمال حسن حال المؤمنين غب بيان وتكرير له اثر تقرير مع زيادة خلودهم فى الجنات ليتم بذلك سرورهم و يزداد تبجحهم و يتكامل به سوء حال الكفرة وايراد التقوى فى حيز الصلة للاشعار بكون الخصال المذكورة من باب التقوى والمراد به الاتقاء من الشرك والمعاصى فالموصول مبتدأ والظرف خبره وجنات مرتفع به على الفاعلية لاعتماده على المبتدا أو الظرف خبر لجنات والجملة خبر للموصول وخالدين فيها أى فى الجنات حال مقدرة من الضمير أو من جنات لتخصصها بالوصف والعامل مافى الظرف من معنى الاستقرار ﴿نزلا

من عند الله﴾ وقرئ بسكون الزاى وهو مايعد للنازل من طعام وشراب وغيرهما قال أبو الشعر الضبي

وكنا اذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

وانتصابه على الحالية من جنات لتخصصها بالوصف والعامل فيه مافى الظرف من معنى الاستقرار وقيل هو مصدر مؤكد كأنه قيل رزقا أو عطاء من عند الله ﴿وماعند الله خير﴾ مبتدأ وخبر وقوله تعالى ﴿للابرار﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لخير أى ماعنده تعالى من الأمور المذكورة الدائمة خير كائن للابرار أى مما يتقلب فيه الفجار من المتاع القليل الزائل والتعبير عنهم بالابرار للاشعار بأن الصفات المعدودة من أعمال البر كما أنها من قبيل التقوى والجملة تذييل لما قبلها ﴿وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾ جملة مستأنفة سيقت لبيان أن أهل الكتاب ليس كلهم كمن حكيت هناتهم من نبذ الميثاق وتحريف الكتاب وغير ذلك بل منهم من له مناقب جليلة. قيل هم عبدالله بن سلام وأصحابه وقيل هم أربعون من أهل نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الروم كانوا نصارى فأسلموا وقيل المراد به أصحمة النجاشى فانه لما مات نعاه جبريل الى النبى عليه السلام فقال عليه السلام اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم فخرج الى البقيع فنظر الى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشى وصلى عليه واستغفر له فقال المنافقون انظروا الى هذا يصلى على علج نصرانى لم يره قط وليس على دينه فنزلت وانما دخلت لام الابتداء على اسم ان لفصل الظرف بينهما كما فى قوله تعالى وان منكم لمن ليبطئن ﴿وما أنزل اليكم﴾ من القرآن ﴿وما أنزل اليهم﴾ من الكتابين وتأخير ايمانهم بهما عن ايمانهم بالقرآن فى الذكر مع أن الامر بالعكس فى الوجود لما أنه عيار ومهيمن عليهما فان ايمانهم بهما انما يعتبر بتبعية ايمانهم به اذ لاعبرة بأحكامهما المنسوخة ومالم ينسخ منها انما يعتبر من حيث ثبوته بالقرآن ولتعلق مابعده بهما والمراد بايمانهم بهما ايمانهم بهما من غير تحريف ولا كتم كما هو ديدن المحرفين وأتباعهم من العامة ﴿خاشعين لله﴾ حال من فاعل يؤمن والجمع باعتبار المعنى ﴿لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا﴾ تصريح بمخالفتهم للمحرفين والجملة حال كما قبله ونظمها فى سلك محاسنهم ليس من حيث عدم الاشتراء فقط بل لتضمن ذلك لاظهار مافى الكتابين من شواهد نبوته عليه السلام ﴿أولئك﴾ اشارة اليهم من حيث اتصافهم بما عد من صفاتهم الحميدة ومافيه من معنى البعد للدلالة على علو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الشرف والفضيلة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿لهم﴾ وقوله ﴿أجرهم﴾ أى المختص بهم الموعود لهم بقوله تعالى أولئك يؤتون أجرهم مرتين وقوله تعالى يؤتكم كفلين من رحمته مرتفع بالظرف على الفاعلية أو على الابتداء والظرف خبره والجملة خبر لأولئك وقوله تعالى ﴿عند ربهم﴾ نصب على الحالية من أجرهم والمراد به التشريف كالصفة ﴿ان الله سريع الحساب﴾ لنفوذ علمه بجميع الأشياء فهو عالم بما يستحقه كل عامل من الأجر من غير حاجة الى تأمل والمراد بيان سرعة وصول الأجر الموعود اليهم ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ اثر مابين فى تضاعيف السورة الكريمة فنون الحكم والأحكام ختمت بما يوجب المحافظة عليها فقيل ﴿اصبروا﴾ أى على مشاق الطاعات وغير ذلك من المكاره والشدائد ﴿وصابروا﴾ أى غالبوا أعداء الله تعالى بالصبر فى مواطن الحروب وأعدى عدوكم بالصبر على مخالفة الهوى وتخصيص المصابرة بالأمر بعد الأمر بمطلق الصبر لكونها أشد منه وأشق ﴿ورابطوا﴾ أى أقيموا فى الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين للغزو مستعدين له قال تعالى ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وعن النبى صلى الله عليه وسلم من رابط يوما وليلة فى سبيل الله كان كعدل صيام شهر رمضان وقيامه لايفطر ولاينفتل عن صلاته الالحاجة ﴿واتقوا الله﴾ فى مخالفة أمره على الاطلاق فيندرج فيه ماذكر فى تضاعيف السورة الكريمة اندراجا أوليا ﴿لعلكم تفلحون﴾ كى تنتظموا فى زمرة المفلحين الفائزين

بكل مطلوب الناجين من كل الكروب . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة آل عمران أعطى بكل آية منها أمانا على جسر جهنم . وعنه صلى الله عليه وسلم من قرأ السورة التى يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تحجب الشمس والله أعلم

سورة النساء مدنية وهى مائة وخمس وسبعون آية

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿يا أيها الناس﴾ خطاب يعم حكمه جميع المكلفين عند النزول ومن سينتظم فى سلكهم من الموجودين حينئذ والحادثين بعد ذلك الى يوم القيامة عند انتظامهم فيه لكن لابطريق الحقيقة فان خطاب المشافهة لايتناول القاصرين عن درجة التكليف الا عند الحنابلة بل اما بطريق تغليب الفريق الاول على الآخرين واما بطريق تعميم حكمه لهما بدليل خارجى فان الاجماع منعقد على أن آخر الامة مكلف بما كلف به أولها كما ينبئ عنه قوله عليه السلام الحلال ماجرى على لسانى الى يوم القيامة والحرام ماجرى على لسانى الى يوم القيامة وقد فصل فى موضعه وأما الامم الدارجة قبل النزول فلاحظ لهم فى الخطاب لاختصاص الاوامر والنواهى بمن يتصور منه الامتثال وأما اندراجهم فى خطاب ماعدا همالماله دخل فى تأكيد التكليف وتقوية الايجاب فستعرف حاله ولفظ الناس ينتظم الذكور والاناث حقيقة وأما صيغة جمع المذكر فى قوله تعالى ﴿اتقوا ربكم﴾ فواردة على طريقة التغليب لعدم تناولها حقيقة للاناث عند غير الحنابلة وأما ادخالهن فى الامر بالتقوى بماذكر من الدليل الخارجى وان كان فيه مراعاة جانب الصيغة لكنه يستدعى تخصيص لفظ الناس ببعض أفراده والمأمور به اما مطلق التقوى التى هى التجنب عن كل مايؤثم من فعل أو ترك واما التقوى فيما يتعلق بحقوق أبناء الجنس أى اتقوه فى مخالفة أوامره ونواهيه على الاطلاق أو فى مخالفة تكاليفه الواردة ههنا وأياما كان فالتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية والتربية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين لتأييد الامر وتأكيد ايجاب الامتثال به على طريقة الترغيب والترهيب وكذا وصف الرب بقوله تعالى ﴿الذى خلقكم من نفس واحدة﴾ فان خلقه تعالى اياهم على هذا النمط البديع لانبائه عن قدرة شاملة لجميع المقدورات التى من جملتها عقابهم على معاصيهم وعن نعمة كاملة لايقادر قدرها من أقوى الدواعى الى الاتقاء من موجبات نقمته وأتم الزواجر عن كفران نعمته وكذا جعله تعالى اياهم صنوانا مفرعة من أرومة واحدة هى نفس آدم عليه السلام من موجبات الاحتراز عن الاخلال بمراعاة مابينهم من حقوق الاخوة وتعميم الخطاب فى ربكم وخلقكم للامم السالفة أيضا مع اختصاصه فيما قبل بالمأمورين بناء على أن تذكير شمول ربوبيته تعالى وخلقه للكل من مؤكدات الامر بالتقوى وموجبات الامتثال به تفكيك للنظم الكريم مع الاستغناء عنه لان خلقه تعالى للمأمورين من نفس آدم عليه السلام حيث كان بواسطة مابينهم وبينه عليه السلام من الآباء والامهات كان التعرض لخلقهم متضمنا للتعرض لخلق الوسايط جميعا وكذا التعرض لربوبيته تعالى لهم متضمن للتعرض لربوبيته تعالى لأصولهم قاطبة لاسيما وقد نطق بذلك قوله عز وجل ﴿وخلق منها زوجها﴾ فانه مع ماعطف عليه صريح فى ذلك وهو معطوف اما على مقدر ينبئ عنه سوق الكلام لأن تفريع الفروع من أصل واحد يستدعى انشاء ذلك الأصل لامحالة كأنه قيل خلقكم من نفس واحدة خلقها أولا وخلق منها زوجها الخ وهو استئناف مسوق لتقرير وحدة المبدأ وبيان كيفية خلقهم منه وتفصيل ماأجمل أولا أو صفة لنفس مفيدة لذلك واما على خلقكم داخل معه فى حيز الصلة مقرر ومبين لما ذكر واعادة الفعل مع جواز عطف مفعوله على مفعول الفعل الاول كما فى قوله تعالى يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم الخ لاظهار

مابين الخلقين من التفاوت فان الاول بطريق التفريع من الاصل والثانى بطريق الانشاء من المادة فانه تعالى خلق حواء من ضلع آدم عليه السلام . روى أنه عز وجل لما خلقه عليه السلام وأسكنه الجنة ألقى عليه النوم فبينما هو بين النائم واليقظان خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى فلما انتبه وجدها عنده وتأخير ذكر خلقها عن ذكر خلقهم لما أن تذكير خلقهم أدخل فى تحقيق ماهو المقصود من حملهم على الامتثال بالأمر بالتقوى من تذكير خلقها وتقديم الجار والمجرور للاعتناء ببيان مبدئيته عليه السلام لهامع مافيه من التشويق الى المؤخر كامر مرارا وايرادها بعنوان الزوجية تمهيد لمابعده من التناسل ﴿ وبث منهما ﴾ أى نشر من تلك النفس وزوجها المخلوقة منها بطريق التوالد والتناسل ﴿ رجالا كثيرا ﴾ نعت لرجالا مؤكد لما أفاده التنكير من الكثرة والافراد باعتبار معنى الجمع أوالعدد وقيل هو نعت لمصدر مؤكد للفعل أى بثا كثيرا ﴿ ونساء ﴾ أى كثيرة وترك التصريح بها للاكتفاء بالوصف المذكور وايثارهما على ذكورا واناثا لتأكيد الكثرة والمبالغة فيها بترشيح كل فرد من الأفراد المبثوثة لمبدئية غيره وقرئ وخالق وباث على حذف المبتدا أى وهو خالق وباث ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به ﴾ تكرير للامر وتذكير لبعض آخر من موجبات الامتثال به فان سؤال بعضهم بعضا بالله تعالى بأن يقولوا أسألك بالله وأنشدك الله على سبيل الاستعطاف يقتضى الاتقاء من مخالفة أوامره ونواهيه وتعليق الاتقاء بالاسم الجليل لمزيد التأكيد والمبالغة فى الحمل على الامتثال بتربية المهابة وادخال الروعة ولوقوع التساؤل به لابغيره من أسمائه تعالى وصفاته وتساءلون أصله تتساءلون فطرحت احدى التاءين تخفيفا وقرئ بادغام تاء التفاعل فى السين لتقاربهما فى الهمس وقرئ تسألون من الثلاثى أى تسألون به غيركم وقد فسر به القراءة الاولى والثانية وحمل صيغة التفاعل على اعتبار الجمع كما فى قولك رأيت الهلال وتراءيناه وبه فسر عم يتساءلون على وجه وقرئ تسلون بنقل حركة الهمزة الى السين ﴿ والأرحام ﴾ بالنصب عطفا على محل الجار والمجرور كقولك مررت بزيد وعمرا وينصره قراءة تساءلون به وبالارحام فانهم كانوا يقرنونها فى السؤال والمناشدة بالله عزوجل ويقولون أسألك بالله وبالرحم أوعطفا على الاسم الجليل أى اتقوا الله والأرحام وصلوها ولاتقطعوها فان قطيعتها مما يجب أن يتقى وهو قول مجاهد وقتادة والسدى والضحاك والفراء والزجاج وقدجوز الواحدى نصبه على الاغراء أى والزموا الأرحام وصلوها وقرئ بالجر عطفا على الضمير المجرور وبالرفع على أنه مبتدا محذوف الخبر تقديره والأرحام كذلك أى مما يتقى أو يتساءل به ولقدنبه سبحانه وتعالى حيث قرنها باسمه الجليل على أن صلتها بمكان منه كما فى قوله تعالى أن لاتعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا وعنه عليه السلام الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله ﴿ ان الله كان عليكم رقيبا ﴾ أى مراقبا وهى صيغة مبالغة من رقب يرقب رقبا ورقوبا ورقبانا اذا أحد النظر لأمر يريد تحقيقه أى حافظا مطلعا على جميع مايصدر عنكم من الأفعال والأقوال وعلى مافى ضمائركم من النيات مريدا لمجازاتكم بذلك وهو تعليل للامر ووجوب الامتثال به واظهار الاسم الجليل لتأكيده وتقديم الجار والمجرور لرعاية الفواصل ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ﴾ شروع فى تفصيل موارد الاتقاء ومظانه بتكليف مايقابلها أمرا ونهيا عقيب الأمر بنفسه مرة بعد أخرى وتقديم مايتعلق باليتامى لاظهار كمال العناية بأمرهم ولملابستهم بالارحام اذالخطاب للاولياء والاوصياء وقلما تفوض الوصاية الى الأجانب . واليتيم من مات أبوه من اليتم وهو الانفراد ومنه الدرة اليتيمة وجمعه على يتامى امالانه لماجرى مجرى الأسماء جمع على يتائم ثم قلب فقيل يتامى أولانه لما كان من وادى الآفات جمع على يتمى ثم جمع يتمى على يتامى والاشتقاق يقتضى صحة اطلاقه على الكبار أيضا واختصاصه بالصغار مبنى على العرف وأما قوله عليه السلام لا يتم بعد الحلم فتعليم للشريعة لا تعيين لمعنى اللفظ أى لايجرى على اليتيم بعده حكم الايتام والمراد بايتاء

أموالهم قطع المخاطبين أطماعهم الفارغة عنها وكف أكفهم الخاطفة عن اختزالها وتركها على حالها غير متعرض لها بسوء حتى تأتيهم وتصل اليهم سالمة كما ينبئ عنه مابعده من النهى عن التبدل والاكل لا الاعطاء بالفعل فانه مشروط بالبلوغ وايناس الرشد على ما ينطق به قوله تعالى حتى اذا بلغوا الآية وانما عبر عما ذكر بالايتاء مجازا للايذان بأنه ينبغى أن يكون مرادهم بذلك ايصالها اليهم لا بمجرد ترك التعرض لها فالمراد بهم اما الصغار على ما هو المتبادر والامر خاص بمن يتولى أمرهم من الاولياء والاوصياء وشمول حكمه لأولياء من كان بالغا عند نزول الآية بطريق الدلالة دون العبارة واما من جرى عليه اليتم فى الجملة مجازا أعم من أن يكون كذلك عند النزول أو بالغا فالامر شامل لأولياء الفريقين صيغة موجب عليهم ماذكر من حفظ أموالهم والتحفظ عن اضاعتها مطلقا وأما وجوب الدفع الى الكبار فمستفاد مما سيأتى من الامر به وقيل المراد بهم الصغار وبالايتاء الاعطاء فى الزمان المستقبل وقيل أطلق اسمهم على الكبار بطريق الاتساع لقرب عهدهم باليتم حثا للاولياء على المسارعة الى دفع أموالهم اليهم أول مابلغوا قبل أن يزول عنهم اسمهم المعهود فالايتاء بمعنى الاعطاء بالفعل ويأباهما ما سيأتى من قوله تعالى وابتلوا اليتامى الخ فان مافيه من الأمر بالدفع وارد على وجه التكليف الابتدائى لا على وجه تعيين وقته أوبيان شرطه فقط كما هو مقتضى القولين وأما تعميم الاسم للصغار والكبار مجازا بطريق التغليب مع تعميم الايتاء للايتاء حالا وللايتاء مآلا وتعميم الخطاب لأولياء كلا الفريقين على أن من بلغ منهم فوليه مأمور بالدفع اليه بالفعل وأن من لم يبلغ بعد فوليه مأمور بالدفع اليه عند بلوغه رشيدا فمع ماسبق تكلف لا يخفى فالأنسب ما تقدم من حمل ايتاء أموالهم اليهم على ما يؤدى اليه من ترك التعرض لها بسوء كما يلوح به التعبير عن الاعطاء بالفعل بالدفع سواء أريد باليتامى الصغار أوما يعم الصغار والكبار حسبما ذكر آنفا وأما ما روى من أن رجلا من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له فلما بلغ طلب منه ماله فمنعه فنزلت فلما سمعها قال أطعنا الله وأطعنا الرسول نعوذ بالله من الحوب الكبير فغير قادح فى ذلك لما أن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب ﴿ ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ﴾ نهى عن أخذ مال اليتيم على الوجه المخصوص بعد النهى الضمنى عن أخذه على الاطلاق وتبدل الشئ بالشئ واستبداله به أخذ الاول بدل الثانى بعد أن كان حاصلا له أو فى شرف الحصول يستعملان أبدا بافضائهما الى الحاصل بأنفسهما والى الزائل بالباء كما فى قوله تعالى ومن يتبدل الكفر بالايمان الخ وقوله تعالى أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير وأما التبديل فيستعمل تارة كذلك كما فى قوله تعالى وبدلناهم بجنتيهم جنتين الخ وأخرى بالعكس كما فى قولك بدلت الحلقة بالخاتم اذا أذبتها وجعلتها خاتما نص عليه الازهرى وتارة أخرى بافضائه الى مفعوليه بنفسه كما فى قوله تعالى يبدل الله سيئاتهم حسنات والمراد بالخبيث والطيب ان كان هو الحرام والحلال فالمنهى عنه استبدال مال اليتيم بمال أنفسهم مطلقا كما قاله الفراء والزجاج وقيل معناه لاتذروا أموالكم الحلال وتأكلوا الحرام من أموالهم فالمنهى عنه أكل ماله مكان مالهم المحقق أو المقدر وقيل هو اختزال ماله مكان حفظه وأياما كان فانما عبر عنهما بهما تنفيرا عما أخذوه وترغيبا فيما أعطوه وتصويرا لمعاملتهم بصورة مالا يصدر عن العاقل وان كان هو الردئ والجيد فمورد النهى ما كانوا عليه من أخذ الجيد من مال اليتيم واعطاء الردئ من مال أنفسهم وبه قال سعيد ابن المسيب والنخعى والزهرى والسدى وتخصيص هذه المعاملة بالنهى لخروجها مخرج العادة لا لاباحة ماعداها وأما التعبير عنها بتبدل الخبيث بالطيب مع أنها تبديله به أو تبدل الطيب بالخبيث فللايذان بأن الأولياء حقهم أن يكونوا فى المعاوضات عاملين لليتيم لا لانفسهم مراعين لجانبه قاصدين لجلب المجلوب اليه مشترى كان أو ثمنا لا لسلب المسلوب عنه ﴿ ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم ﴾ نهى عن منكر آخر كانوا يتعاطونه أى لاتأكلوها مضمومة الى أموالكم

و لاتسووا بينهما وهذا حلال وذاك حرام وقد خص من ذلك مقدار أجر المثل عند كون الولى فقيرا ﴿انه﴾ أى الأكل المفهوم من النهى ﴿كان حوبا﴾ أى ذنبا عظيما وقرىء بفتح الحاء وهو مصدر حاب حوبا وقرىء حابا وهو أيضا مصدر كقال قولا وقالا ﴿كبيرا﴾ مبالغة فى بيان عظم ذنب الاكل المذكور كأنه قيل من كبار الذنوب العظيمة لا من أفنائها ﴿وان خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى﴾ الاقساط العدل وقرىء بفتح التاء فقيل هو من قسط أى جار و لا مزيدة كما فى قوله تعالى لئلا يعلم وقيل هو بمعنى أقسط فان الزجاج حكى أن قسط يستعمل استعمال أقسط والمراد بالخوف العلم كما فى قوله تعالى فمن خاف من موص جنفا عبر عنه بذلك ايذانا بكون المعلوم مخوفا محذورا لا معناه الحقيقى لان الذى علق به الجواب هو العلم بوقوع الجور المخوف لا الخوف منه والا لم يكن الامر شاملا لمن يصر على الجور و لايخافه وهذا شروع فى النهى عن منكر آخر كانوا يباشرونه متعلق بأنفس اليتامى أصالة و بأموالهم تبعا عقيب النهى عما يتعلق بأموالهم خاصة وتأخيره عنه لقلة وقوع المنهى عنه بالنسبة الى الاول ونزوله منه بمنزلة المركب من المفرد وذلك أنهم كانوا يتزوجون من تحل لهم من اليتامى اللاتى يلونهن لكن لا لرغبة فيهن بل فى مالهن و يسيئون فى الصحبة والمعاشرة و يتربصون بهن أن يمتن فيرثوهن وهذا قول الحسن وقيل هى اليتيمة تكون فى حجر وليها فيرغب فى مالها وجمالها و يريد أن ينكحها بأدنى من سنة نسائها فنهوا أن ينكحوهن الا أن يقسطوا لهن فى اكمال الصداق وأمروا أن ينكحوا ماسواهن من النساء وهذا قول الزهرى رواية عن عروة عن عائشة رضى الله عنها وأما اعتبار اجتماع عدد كثير منهن كما أطبق عليه أكثر أهل التفسير حيث قالوا كان الرجل يجد اليتيمة لها مال وجمال و يكون وليها فيتزوجها ضنا بها عن غيره فربما اجتمعت عنده عشر منهن الخ فلا يساعده الأمر بنكاح غيرهن فان المحذور حينئذ يندفع بتقليل عددهن أى وان خفتم أن لا تعدلوا فى حق اليتامى اذا تزوجتم بهن باساءة العشرة أو بنقص الصداق ﴿فانكحوا ما طاب لكم﴾ ما موصولة أو موصوفة ما بعدها صلتها أو صفتها أوثرت على من ذهابا الى الوصف وايذانا بأنه المقصود بالذات والغالب فى الاعتبار لا بناء على أن الاناث من العقلاء يجرين مجرى غير العقلاء لاخلاله بمقام الترغيب فيهن وقرأ ابن أبى عبلة من طاب ومن فى قوله تعالى ﴿من النساء﴾ بيانية وقيل تبعيضية والمراد بهن غير اليتامى بشهادة قرينة المقام أى فانكحوا من استطابتها نفوسكم من الأجنبيات و فى ايثار الأمر بنكاحهن على النهى عن نكاح اليتامى مع أنه المقصود بالذات مزيد لطف فى استنزالهم عن ذلك فان النفس مجبولة على الحرص على ما منعت منه كما أن وصف النساء بالطيب على الوجه الذى أشير اليه فيه مبالغة فى الاستمالة اليهن والترغيب فيهن وكل ذلك للاعتناء بصرفهم عن نكاح اليتامى وهو السر فى توجيه النهى الضمنى الى النكاح المترقب مع أن سبب النزول هو النكاح المحقق لما فيه من المسارعة الى دفع الشر قبل وقوعه فرب واقع لا يرفع والمبالغة فى بيان حال النكاح المحقق فان محظورية المترقب حيث كانت للجور المترقب فيه فمحظورية المحقق مع تحقق الجور فيه أولى وقيل المراد بالطيب الحل أى ما حل لكم شرعا لأن ما استطابوه شامل للمحرمات و لا مخصص له بمن عداهن وفيه فرار من محذور ووقوع فيما هو أفظع منه لأن ما حل لهم مجمل وقد تقرر أن النص اذا تردد بين الاجمال والتخصيص يحمل على الثانى لأن العام المخصوص حجة فى غير محل التخصيص والمجمل ليس بحجة قبل ورود البيان أصلا ولئن جعل قوله تعالى حرمت عليكم الخ دالا على التفصيل بناء على ادعاء تقدمه فى التنزيل فليجعل دالا على التخصيص ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ معدولة عن أعداد مكررة غير منصرفة لما فيها من العدلين عدلها عن صيغها وعدلها عن تكررها وقيل للعدل والصفة فانها بنيت صفات وان لم تكن أصولها كذلك وقرىء وثلث وربع على القصر من ثلاث ورباع ومحلهن النصب على أنها حال من فاعل طاب مؤكدة لما أفاده وصف الطيب من الترغيب فيهن والاستمالة اليهن

بتوسيع دائرة الاذن أى فانكحوا الطيبات لكم معدودات هذا العدد ثنتين ثنتين وثلاثا ثلاثا وأربعا أربعا حسبما تريدون على معنى أن لكل واحد منهم أن يختار أى عدد شاء من الاعداد المذكورة لا أن بعضها لبعض منهم و بعضها لبعض آخر كما فى قولك اقتسموا هذه البدرة درهمين درهمين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة و لو أفردت لفهم منه تجويز الجمع بين تلك الاعداد دون التوزيع و لو ذكرت بكلمة أو لفات تجويز الاختلاف فى العدد . هذا وقد قيل فى تفسير الآية الكريمة لما نزلت الآية فى اليتامى وما فى أكل أموالهم من الحوب الكبير أخذ الأولياء يتحرجون من و لايتهم خوفا من لحوق الحوب بترك الاقساط مع أنهم كانوا لا يتحرجون من ترك العدل فى حقوق النساء حيث كان تحت الرجل منهم عشر منهن فقيل لهم ان خفتم ترك العدل فى حقوق اليتامى فتحرجتم منها فخافوا أيضا ترك العدل بين النساء فقللوا عدد المنكوحات لأن من تحرج من ذنب أو تاب عنه وهو مرتكب مثله فهو غير متحرج و لا تائب عنه وقيل كانوا لا يتحرجون من الزنى وهم يتحرجون من و لاية اليتامى فقيل ان خفتم الجور فى حق اليتامى فخافوا الزنى فانكحوا ما حل لكم من النساء و لا تحوموا حول المحرمات و لا يخفى أنه لا يساعدهما جزالة النظم الكريم لابتنائهما على تقدم نزول الآية الأولى وشيوعها بين الناس مع ظهور توقف حكمها على ما بعدها من قوله تعالى و لا تؤتوا السفهاء أموالكم الى قوله تعالى وكفى بالله حسيبا ﴿فان خفتم أن لا تعدلوا﴾ أى فيما بينهن و لو فى أقل الاعداد المذكورة كما خفتموه فى حق اليتامى أو كما لم تعدلوا فى حقهن أو كما لم تعدلوا فيما فوق هذه الاعداد ﴿فواحدة﴾ أى فالزموا أو فاختاروا واحدة وذروا الجمع بالكلية وقرىء بالرفع أى فالمقنع واحدة أو فحسبكم واحدة ﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾ أى من السرارى بالغة ما بلغت من مراتب العدد وهو عطف على واحدة على أن اللزوم والاختيار فيه بطريق التسرى لا بطريق النكاح كما فيما عطف عليه لاستلزامه ورود ملك النكاح على ملك اليمين بموجب اتحاد المخاطبين فى الموضعين بخلاف ما سيأتى من قوله تعالى ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم فان المأمور بالنكاح هناك غير المخاطبين بملك اليمين وانما سوى فى السهولة واليسر بين الحرة الواحدة و بين السرارى من غير حصر فى عدد لقلة تبعتهن وخفة مؤنتهن وعدم وجوب القسم فيهن وقرىء أو من ملكت أيمانكم وما فى القراءة المشهورة للايذان بقصور رتبتهن عن رتبة العقلاء ﴿ذلك﴾ اشارة الى اختيار الواحدة والتسرى ﴿أدنى أن لا تعولوا﴾ العول الميل من قولهم عال الميزان عولا اذا مال وعال فى الحكم أى جار والمراد هنا الميل المحظور المقابل للعدل أى ما ذكر من اختيار الواحدة والتسرى أقرب بالنسبة الى ما عداهما من أن لا تميلوا ميلا محظورا لانتفائه رأسا بانتفاء محله فى الأول وانتفاء خطره فى الثانى بخلاف اختيار العدد فى المهائر فان الميل المحظور متوقع فيه لتحقق المحل والخطر ومن ههنا تبين أن مدار الأمر هو عدم العول لا تحقق العدل كما قيل وقد فسر بأن لا يكثر عيالكم على أنه من عال الرجل عياله يعولهم أى مانهم فعبر عن كثرة العيال بكثرة المؤنة على طريقة الكناية و يؤيده قراءة أن لا تعيلوا من أعال الرجل اذا كثر عياله و وجه كون التسرى مظنة قلة العيال مع جواز الاستكثار من السرارى أنه يجوز العزل عنهن بغير رضاهن و لا كذلك المهائر والجملة مستأنفة جارية مما قبلها مجرى التعليل ﴿وآتوا النساء﴾ أى اللاتى أمر بنكاحهن ﴿صدقاتهن﴾ جمع صدقة كسمرة وهى المهر وقرىء بسكون الدال على التخفيف و بضم الصاد وسكون الدال جمع صدقة كغرفة و بضمهما على التوحيد وهو تثقيل صدقة كظلمة فى ظلمة ﴿نحلة﴾ قال ابن عباس وقتادة وابن جريج وابن زيد فريضة من الله تعالى لأنها مما فرضه الله فى النحلة أى الملة والشرعة والديانة فانتصابها على الحالية من الصدقات أى أعطوهن مهورهن حال كونها فريضة منه تعالى وقال الزجاج تدينا فانتصابها على أنها مفعول له أى أعطوهن ديانة وشرعة وقال الكلبى نحلة أى هبة وعطية من الله تعالى وتفضلا

منه عليهن فانتصابه على الحالية منها أيضا وقيل عطية من جهة الأزواج من نحله كذا اذا أعطاه اياه و وهبه له عن طية من نفسه نحلة ونحلا والتعبير عن ايتاء المهور بالنحلة مع كونها واجبة على الأزواج لافادة معنى الايتاء عن كمال الرضا وطيب الخاطر وانتصابها على المصدرية لأن الايتاء والنحلة بمعنى الاعطاء كأنه قيل وانحلوا النساء صدقاتهن نحلة أى أعطوهن مهورهن عن طيبة أنفسكم أو على الحالية من ضمير آتوا أى آتوهن صدقاتهن ناحلين طيبي النفوس بالاعطاء أو من الصدقات أى منحولة معطاة عن طيبة الأنفس فالخطاب للازواج وقيل للأولياء لأنهم كانوا يأخذون مهور بناتهم وكانوا يقولون هنيئا لك النافجة لمن يولد له بنت يعنون تأخذ مهرها فتنفج به مالك أى تعظمه ﴿فان طبن لكم عن شيء منه﴾ الضمير للصدقات وتذكيره لاجرائه مجرى ذلك فانه قد يشار به الى المتعدد كما فى قوله عز وجل قل أؤنبئكم بخير من ذلكم بعد ذكر الشهوات المعدودة وقد روى عن رؤبة أنه حين قيل له فى قوله

فيها خطوط من سواد و بلق كأنه فى الجلد توليع البهق

ان أردت الخطوط ينبغى أن تقول كأنها وان أردت السواد والبلق ينبغى أن تقول كأنهما قال لكنى أردت كأن ذلك أو للصداق الواقع موقعه صدقاتهن كأنه قيل وآتوا النساء صداقهن كما فى قوله تعالى فأصدق وأكن حيث عطف أكن على مادل عليه المذكور و وقع موقعه كأنه قيل ان أخرتنى أصدق وأكن واللام متعلقة بالفعل و كذا عن لكن بتضمينه معنى التجافى والتجاوز ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لشيء أى كائن من الصداق وفيه بعث لهن على تقليل الموهوب ﴿نفسا﴾ تمييز والتوحيد لما أن المقصود بيان الجنس أى ان وهبن لكم شيئا من الصداق متجافيا عنه نفوسهن طيبات غير مخبثات بما يضطرهن الى البذل من شكاسة أخلاقكم وسوء معاشرتكم لكن عدل عن لفظ الهبة والسماحة الى ماعليه النظم الكريم ايذانا بأن العمدة فى الأمر انما هو طيب النفس وتجافيها عن الموهوب بالمرة ﴿فكلوه﴾ أى فخذوا ذلك الشيء الذى طابت به نفوسهن وتصرفوا فيه تملكا وتخصيص الأكل بالذكر لأنه معظم وجوه التصرفات المالية ﴿هنيئا مريئا﴾ صفتان من هنؤ الطعام ومرؤ اذا كان سائغا لا تنغيص فيه وقيل الهنىء الذى يلذه الآكل والمرىء ما يحمد عاقبته وقيل ما ينساغ فى مجراه الذى هو المرىء وهو ما بين الحلقوم الى فم المعدة سمى بذلك لمروء الطعام فيه أى انسياغه ونصبهما على أنهما صفتان للمصدر أى أكلا هنيئا مريئا أو على أنهما حالان من الضمير المنصوب أى كلوه وهو هنىء مرىء وقد يوقف على كلوه و يبتدأ هنيئا مريئا على الدعاء وعلى أنهما صفتان أقيمتا مقام المصدرين كأنه قيل هنأ ومرأ وهذه عبارة عن التحليل والمبالغة فى الاباحة وازالة التبعة . روى أن ناسا كانوا يتأثمون أن يقبل أحدهم من زوجته شيئا مما ساقه اليها فنزلت ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾ رجوع الى بيان بقية الأحكام المتعلقة بأموال اليتامى وتفصيل ما أجمل فيما سبق من شرط ايتائها و وقته وكيفيته اثر بيان بعض الأحكام المتعلقة بأنفسهن أعنى نكاحهن و بيان بعض الحقوق المتعلقة بغيرهن من الاجنبيات من حيث النفس ومن حيث المال استطرادا والخطاب للاولياء نهوا أن يؤتوا المبذرين من اليتامى أموالهم مخافة أن يضيعوها وانما أضيفت اليهم وهى لليتامى لا نظرا الى كونها تحت ولايتهم كما قيل فانه غير مصحح لاتصافها بالوصف الآتى بل تنزيلا لاختصاصها بأصحابها منزلة اختصاصها بالاولياء فكأن أموالهم عين أموالهم لما بينهم و بينهم من الاتحاد الجنسى والنسبى مبالغة فى حملهم على المحافظة عليها كما فى قوله تعالى و لا تقتلوا أنفسكم أى لا يقتل بعضكم بعضا حيث عبر عن بنى نوعهم بأنفسهم مبالغة فى زجرهم عن قتلهم فكأن قتلهم قتل أنفسهم وقد أيد ذلك حيث عبر عن جعلها مناطا لمعاش أصحابها بجعلها مناطا لمعاش الاولياء فقيل ﴿التى جعل الله لكم قياما﴾ أى جعلها الله شيئا تقومون به وتنتعشون على حذف المفعول الأول فلو ضيعتموه لضعتم ثم زيد فى المبالغة حتى جعل ما به

القيام قياما فكأنها فى أنفسها قيامكم وانتعاشكم وقيل انما أضيفت الى الاولياء لانها من جنس ما يقيم به الناس معايشهم حيث لم يقصد بها الخصوصية الشخصية بل الجنسية التى هى معنى ما يقام به المعاش وتميل اليه القلوب و يدخر لاوقات الاحتياج وهى بهذا الاعتبار لا تختص باليتامى وأنت خبير بأن ذلك بمعزل من حمل الاولياء على المحافظة المذكورة كيف لا والوحدة الجنسية المالية ليست مختصة بما بين أموال اليتامى وأموال الاولياء بل هى متحققة بين أموالهم وأموال الاجانب فاذن لا وجه لاعتبارها أصلا وقرىء اللاتى واللواتى وقرىء قيما بمعنى قياما كما جاء عوذا بمعنى عياذا وقرىء قواما بكسر القاف وهو ما يقام به الشيء أو مصدر قاوم وقرىء بفتحها ﴿وارزقوهم فيها واكسوهم﴾ أى واجعلوها مكانا لرزقهم وكسوتهم بأن تتجروا وتتربحوا حتى تكون نفقاتهم من الارباح لا من صلب المال وقيل الخطاب لكل أحد كائنا من كان والمراد نهيه عن أن يفوض أمر ماله الى من لا رشد له من نسائه وأولاده و وكلائه وغير ذلك ولا يخفى أن ذلك مخل بجزالة النظم الكريم ﴿وقولوا لهم قولا معروفا﴾ أى كلاما لينا تطيب به نفوسهم وعن سعيد بن جبير ومجاهد وابن جريج عدوهم عدة جميلة بأن تقولوا اذا صلحتم و رشدتم سلمنا اليكم أموالكم وكل ما سكنت اليه النفس لحسنه شرعا أو عقلا من قول أو عمل فهو معروف وما انكرته لقبحه شرعا أو عقلا فهو منكر ﴿وابتلوا اليتامى﴾ شروع فى تعيين وقت تسليم أموال اليتامى اليهم و بيان شرطه بعد الامر بايتائها على الاطلاق والنهى عنه عند كون أصحابها سفهاء أى واختبروا من ليس منهم بين السفه قبل البلوغ بتتبع أحوالهم فى صلاح الدين والاهتداء الى ضبط المال وحسن التصرف فيه وجربوهم بما يليق بحالهم فان كانوا من أهل التجارة فبأن تعطوهم من المال ما يتصرفون فيه بيعا وابتياعا وان كانوا ممن له ضياع وأهل وخدم فبأن تعطوهم منه ما يصرفونه الى نفقة عبيدهم وخدمهم وأجرائهم وسائر مصارفهم حتى تتبين لكم كيفية أحوالهم ﴿حتى اذا بلغوا النكاح﴾ بأن يحتلموا لانهم يصلحون عنده للنكاح ﴿فان آنستم﴾ أى شاهدتم وتبينتم وقرىء أحستم بمعنى أحسستم كما فى قول من قال

خلا ان العتاق من المطايا أحسن به وهن اليه شوس

﴿منهم رشدا﴾ أى اهتداء الى وجوه التصرفات من غير عجز وتبذير وتقديم الجار والمجرور على المفعول للاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر أو للاعتداد بمبدئيته له والتنوين للدلالة على كفاية رشد فى الجملة وقرىء بفتح الراء والشين و بضمهما ﴿فادفعوا اليهم أموالهم﴾ من غير تأخير عن حد البلوغ وفى ايثار الدفع على الايتاء الوارد فى أول الامر ايذان بتفاوتهما بحسب المعنى كما أشير اليه فيما سلف ونظم الآية الكريمة أن حتى هى التى تقع بعدها الجمل كالتى فى قوله

فما زالت القتلى تمج دماءها بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

وما بعدها جملة شرطية جعلت غاية للابتلاء وفعل الشرط بلغوا وجوابه الشرطية الثانية كأنه قيل وابتلوا اليتامى الى وقت بلوغهم واستحقاقهم دفع أموالهم اليهم بشرط ايناس الرشد منهم وظاهر الآية الكريمة أن من بلغ غير رشيد اما بالتبذير أو بالعجز لا يدفع اليه ماله أبدا و به أخذ أبو يوسف ومحمد وقال أبو حنيفة ينتظر الى خمس وعشرين سنة لأن البلوغ بالسن ثمانى عشرة سنة فاذا زادت عليها سبع سنين وهى مدة معتبرة فى تغير أحوال الانسان لما قاله عليه الصلاة والسلام مروهم بالصلاة لسبع دفع اليه ماله أونس منه رشد أو لم يؤنس ﴿ولا تأكلوها اسرافا و بدارا أن يكبروا﴾ أى مسرفين ومبادرين كبرهم أو لاسرافكم ومبادرتكم كبرهم تفرطون فى انفاقها وتقولون ننفق كما نشتهى قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا والجملة تأكيد للامر بالدفع وتقرير لها وتمهيد لما بعدها من قوله تعالى ﴿ومن كان غنيا فليستعفف﴾ الخ أى من كان من الأولياء والأوصياء غنيا فليتنزه عن أكلها وليقنع بما آتاه الله تعالى من الغنى والرزق

اشفاقا على اليتيم وابقاء على ماله ﴿ومن كان﴾ من الأولياء والأوصياء ﴿فقيرا فليأكل بالمعروف﴾ بقدر حاجته الضرورية وأجر سعيه وخدمته وفى لفظ الاستعفاف والأكل بالمعروف مايدل على أن للوصى حقا لقيامه عليها. عن النبي عليه الصلاة والسلام أن رجلا قال له ان فى حجرى يتيما أفآكل من ماله قال بالمعروف غير متأثل مالا ولا واق مالك بماله وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن ولى يتيم قال له أفأشرب من لبن ابله قال ان كنت تبغى ضالتها وتلوط حوضها وتهنأ جرباها وتسقيها يوم ورودها فاشرب غير مضر بنسل ولا ناهك فى الحلب وعن محمد بن كعب يتقرم كما تتقرم البهيمة وينزل نفسه منزلة الأجير فيما لابدمنه وعن الشعبي يأكل من ماله بقدر مايعين فيه وعنه كالميتة يتناول عندالضرورة ويقضى وعن مجاهد يستسلف فاذا أيسر أدى وعن سعيد بن جبير ان شاء شرب فضل اللبن وركب الظهر ولبس مايستره من الثياب وأخذ القوت ولا يجاوزه فان أيسر قضاه وان أعسر فهو فى حل وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انى أنزلت نفسى من مال الله تعالى منزلة ولى اليتيم ان استغنيت استعففت وان افتقرت أكلت بالمعروف واذا أيسرت قضيت. واستعف أبلغ من عف كأنه يطلب زيادة العفة ﴿فاذا دفعتم اليهم أموالهم﴾ بعد ماراعيتم الشرائط المذكورة وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح للاهتمام به ﴿فأشهدوا عليهم﴾ بأنهم تسلموها وقبضوها وبرئت عنها ذممكم لما أن ذلك أبعد من التهمة وأنفى للخصومة وأدخل فى الامانة وبراءة الساحة وان لم يكن ذلك واجبا عند أصحابنا فان الوصى مصدق فى الدفع مع اليمين خلافا لمالك والشافعى رحمهما الله ﴿وكفى بالله حسيبا﴾ أى محاسبا فلا تخالفوا ماأمرتم به ولا تجاوزوا ماحد لكم ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ شروع فى بيان أحكام المواريث بعد بيان أحكام أموال اليتامى المنتقلة اليهم بالارث والمراد بالاقربين المتوارثون منهم ومن فى مما متعلقة بمحذوف وقع صفة لنصيب أى لهم نصيب كائن مما ترك وقد جوز تعلقها بنصيب ﴿وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون﴾ ايرادحكمهن على الاستقلال دون الدرج فى تضاعيف أحكامهم بأن يقال للرجال والنساء الخ للاعتناء بأمرهن والايذان بأصالتهن فى استحقاق الارث والاشارة من أول الأمر الى تفاوت مابين نصيبى الفريقين والمبالغة فى ابطال حكم الجاهلية فانهم ما كانوا يورثون النساء والاطفال ويقولون انما يرث من يحارب ويذب عن الحوزة روى أن أوس بن ثابت الأنصارى خلف زوجته أم كحة وثلاث بنات فزوى ابناعمه سويد وعرفطة أو قتادة وعرفجة ميراثه عنهن على سنة الجاهلية فجاءت أم كحة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكت اليه فقال ارجعى حتى أنظر مايحدثه الله تعالى فنزلت فأرسل اليهما ان الله قد جعل لهن نصيبا ولم يبين فلا تفرقا من مال أوس شيئاً حتى يبين فنزل يوصيكم الله الخ فأعطى أم كحة الثمن والبنات الثلثين والباقى لابنى العم وهو دليل على جواز تأخير البيان عن الخطاب وقوله تعالى ﴿مما قل منه أو كثر﴾ بدل من ما الاخيرة باعادة الجار واليها يعود الضمير المجرور وهذا البدل مراد فى الجملة الأولى أيضا محذوف للتعويل على المذكور وفائدته دفع توهم اختصاص بعض الأموال ببعض الورثة كالخيل وآلات الحرب للرجال وتحقيق أن لكل من الفريقين حقا من كل ماجل ودق ﴿نصيبا مفروضا﴾ نصب على أنه مصدر مؤكد كقوله تعالى فريضة من الله كأنه قيل قسمة مفروضة أو على الحالية اذ المعنى ثبت لهم نصيب كائن مما ترك الوالدان والاقربون حال كونه مفروضا أو على الاختصاص أى أعنى نصيبا مقطوعا مفروضا واجبا لهم وفيه دليل على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقه ﴿واذا حضر القسمة﴾ أى قسمة التركة وانما قدمت مع كونها مفعولا لأنها المبحوث عنها ولأن فى الفاعل تعددا فلو روعى الترتيب يفوت تجاوب أطراف الكلام ﴿أولوا القربى﴾ ممن لا يرث ﴿واليتامى والمساكين﴾ من الأجانب ﴿فارزقوهم منه﴾ أى أعطوهم شيأ من المال المقسوم المدلول عليه بالقسمة وقيل

الضمير لما وهو أمر ندب كلف به البالغون من الورثة تطييبا لقلوب الطوائف المذكورة وتصدقا عليهم وقيل أمر وجوب ثم اختلف فى نسخه ﴿وقولوا لهم قولا معروفا﴾ وهو أن يدعوا لهم ويستقلوا ماأعطوهم ويعتذروا من ذلك ولا يمنوا عليهم ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم﴾ أمر للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه فى أمر اليتامى فيفعلوا بهم مايحبون أن يفعل بذراريهم الضعاف بعد وفاتهم أو لمن حضر المريض من العواد عند الايصاء بأن يخشوا ربهم أو يخشوا أولاد المريض ويشفقوا عليهم شفقتهم على أولادهم فلا يتركوه أن يضر بهم بصرف المال عنهم أو للورثة بالشفقة على من حضر القسمة من ضعفاء الأقارب واليتامى والمساكين متصورين أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضعافا مثلهم هل يجوزون حرمانهم أو للموصين بأن ينظروا للورثة فلا يسرفوا فى الوصية ولو بما فى حيزها صلة للذين على معنى وليخش الذين حالهم وصفتهم أنهم لو شارفوا أن يخلفوا ورثة ضعافا خافوا عليهم الضياع وفى ترتيب الامر عليه اشارة الى المقصود منه والعلة فيه وبعث على الترحم وأن يحب لأولاد غيره مايحب لأولاد نفسه وتهديد للمخالف بحال أولاده وقرئ ضعفاء وضعافى وضعافى ﴿فليتقوا الله﴾ فى ذلك والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها ﴿وليقولوا قولا سديدا﴾ أمرهم بالتقوى التى هى غاية الخشية بعد ماأمرهم بها مراعاة للمبدأ والمنتهى اذ لا نفع للأول بدون الثانى ثم أمرهم بأن يقولوا لليتامى مثل مايقولون لأولادهم بالشفقة وحسن الأدب أو للمريض مايصده عن الاسراف فى الوصية وتضييع الورثة ويذكره التوبة وكلمة الشهادة أو لحاضرى القسمة عذرا ووعدا حسنا أو يقولوا فى الوصية مالا يؤدى الى تجاوز الثلث وقوله تعالى ﴿ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما﴾ أى على وجه الظلم أو ظالمين استئناف جئ به لتقرير مضمون مافصل من الاوامر والنواهى ﴿انما يأكلون فى بطونهم﴾ أى ملء بطونهم ﴿نارا﴾ أى مايجر الى النار ويؤدى اليها وعن أبى بردة أنه صلى الله عليه وسلم قال يبعث الله تعالى قوما من قبورهم تتأجج أفواههم نارا فقيل من هم فقال عليه السلام ألم تر أن الله يقول ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا ﴿وسيصلون سعيرا﴾ أى سيدخلون نارا هائلة مبهمة الوصف وقرئ بضم الياء مخففا ومشددا من الاصلاء والتصلية يقال صلى النار قاسى حرها وصليته شويته وأصليته وصليته ألقيته فيها والسعير فعيل بمعنى مفعول من سعرت النار اذا ألهبتها. روى أن آكل مال اليتيم يبعث يوم القيامة والدخان يخرج من قبره ومن فيه وأنفه وأذنيه وعينيه فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم فى الدنيا وروى أنه لما نزلت هذه الآية ثقل ذلك على الناس فاحترزوا عن مخالطة اليتامى بالكلية فصعب الامر على اليتامى فنزل قوله تعالى وان تخالطوهم الآية ﴿يوصيكم الله﴾ شروع فى تفصيل أحكام المواريث المجملة فى قوله تعالى للرجال نصيب الخ وأقسام الورثة ثلاثة قسم لا يسقط بحال وهم الآباء والأولاد والأزواج فهؤلاء قسمان والثالث الكلالة أى يأمركم ويعهد اليكم ﴿فى أولادكم﴾ أو لادكل واحد منكم أى فى شأن ميراثهم بدئ بهم لأنهم أقرب الورثة الى الميت وأكثرهم بقاء بعد المورث ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ جملة مستأنفة جئ بها لتبيين الوصية وتفسيرها وقيل محلها النصب بيوصيكم على أن المعنى يفرض عليكم ويشرع لكم هذا الحكم وهذا قريب مما رآه الفراء فانه يجرى ماكان بمعنى القول من الافعال مجراه فى حكاية الجملة بعده ونظيره قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة الآية وقوله تعالى للذكر لابد له من ضمير عائد الى الأولاد محذوف ثقة بظهوره كما فى قولهم السمن منوان بدرهم أى للذكر منهم وقيل الالف واللام قائم مقامه والاصل لذكرهم ومثل صفة لموصوف محذوف أى للذكر منهم حظ مثل حظ الأنثيين والبداءة ببيان حكم الذكر لاظهار مزيته على الأنثى كما أنها المناط فى تضعيف حظه وايثار اسمى الذكر والانثى على ماذكر أولا من الرجال والنساء للتنصيص على استواء

الكبار والصغار من الفريقين فى الاستحقاق من غير دخل للبلوغ والكبر فى ذلك أصلا كما هو زعم أهل الجاهلية حيث كانوا لا يورثون الاطفال كالنساء ﴿فان كن﴾ أى الاولاد والتأنيث باعتبار الخبر وهو قوله تعالى ﴿نساء﴾ أى خلصا ليس معهن ذكر ﴿فوق اثنتين﴾ خبر ثان أو صفة لنساء أى نساء زائدات على اثنتين ﴿فلهن ثلثا ماترك﴾ أى المتوفى المدلول عليه بقرينة المقام ﴿وان كانت﴾ أى المولودة ﴿واحدة﴾ أى امرأة واحدة ليس معها أخ ولا اخت وعدم التعرض للموصوف لظهوره مما سبق ﴿فلها النصف﴾ مما ترك وقرىء واحدة على كان التامة واختلف فى الثنتين فقال ابن عباس حكمهما حكم الواحدة لأنه تعالى جعل الثلثين لما فوقهما وقال الجمهور حكمهما حكم مافوقهما لانه تعالى لما بين أن حظ الذكر مثل حظ الأنثيين اذا كان معه أنثى وهو الثلثان اقتضى ذلك أن فرضهما الثلثان ثم لما أوهم ذلك أن يزاد النصيب بزيادة العدد رد ذلك بقوله تعالى فان كن نساء فوق اثنتين ويؤيد ذلك أن البنت الواحدة لما استحقت الثلث مع أخيها الأقوى منها فى الاستحقاق فلأن تستحقه مع مثلها أولى وأحرى وأن البنتين أمس رحما من الأختين وقد فرض الله لهما الثلثين حيث قال تعالى فلهما الثلثان مما ترك ﴿ولأبويه﴾ أى لأبوى الميت. غير النظم الكريم لعدم اختصاص حكمه بما قبله من الصور ﴿لكل واحد منهما﴾ بدل منه بتكرير العامل وسط بين المبتدا الذى هو قوله تعالى ﴿السدس﴾ وبين خبره الذى هو لأبويه ونقل الخبرية اليه تنصيصا على استحقاق كل منهما السدس وتأكيدا له بالتفصيل بعد الاجمال وقرىء السدس بسكون الدال تخفيفا وكذلك الثلث والربع والثمن ﴿مما ترك﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من السدس والعامل الاستقرار المعتبر فى الخبر أى كائنا مما ترك المتوفى ﴿ان كان له ولد﴾ أو ولد ابن ذكرا كان أو أنثى واحدا أو متعددا غير أن الأب فى صورة الأنوثة بعد ما أخذ فرضه المذكور يأخذ ما بقى من ذوى الفروض بالعصوبة ﴿فان لم يكن له ولد﴾ ولا ولد ابن ﴿وورثه أبواه﴾ فحسب ﴿فلأمه الثلث﴾ مما ترك والباقى للأب وانما لم يذكر لعدم الحاجة اليه لانه لما فرض انحصار الوارث فى أبويه وعين نصيب الأم علم أن الباقى للأب وتخصيص جانب الأم بالذكر واحالة جانب الأب على دلالة الحال مع حصول البيان بالعكس أيضا لما أن حظها أخصر واستحقاقه أتم وأوفر أو لان استحقاقه بطريق العصوبة دون الفرض هذا اذا لم يكن معهما أحد الزوجين أما اذا كان معهما ذلك فللام ثلث ما بقى بعد فرض أحدهما لا ثلث الكل كما قاله ابن عباس رضى الله عنهما فانه يفضى الى تفضيل الأم على الأب مع كونه أقوى منها فى الارث بدليل اضعافه عليها عند انفرادهما عن أحد الزوجين وكونه صاحب فرض وعصبة وذلك خلاف وضع الشرع ﴿فان كان له اخوة﴾ أى عدد ممن له اخوة من غير اعتبار التثليث سواء كانت من جهة الأبوين أو من جهة أحدهما وسواء كانوا ذكورا أو اناثا أو مختلطين وسواء كان لهم ميراث أو كانوا محجوبين بالأب ﴿فلأمه السدس﴾ وأما السدس الذى حجبوها عنه فهو للأب عند وجوده ولهم عند عدمه وعليه الجمهور وعند ابن عباس رضى الله عنهما أنه لهم على كل حال خلا أن هذا الحجب عنده لا يتحقق بما دون الثلاث وبالاخوات الخلص وقرىء فلامه بكسر الهمزة اتباعا لما قبلها ﴿من بعد وصية﴾ خبر مبتدا محذوف والجملة متعلقة بما تقدم جميعا لا بما يليها وحده أى هذه الانصباء للورثة من بعد اخراج وصية ﴿يوصى بها﴾ أى الميت وقرىء مبنيا للمفعول مخففا ومبنيا للفاعل مشددا وفائدة الوصف الترغيب فى الوصية والندب اليها ﴿أو دين﴾ عطف على وصية الا أنه غير مقيد بما قيدت به من الوصف بل هو مطلق يتناول ما ثبت بالبينة او الاقرار فى الصحة وايثار أو المفيدة للاباحة على الواو للدلالة على تساويهما فى الوجوب وتقدمهما على القسمة مجموعين أو منفردين وتقديم الوصية على الدين ذكرا مع تأخرها عنه حكما لاظهار كمال العناية بتنفيذها لكونها مظنة للتفريط

فى أدائها ولاطرادها بخلاف الدين ﴿آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا﴾ الخطاب للورثة فآباؤكم مبتدأ وأبناؤكم عطف عليه ولا تدرون خبره وأيهم مبتدأ وأقرب خبره ونفعا نصب على التمييز منه وهو منقول من الفاعلية كأنه قيل أيهم أقرب لكم نفعه والجملة فى حيز النصب بلا تدرون والجملة الكبيرة اعتراضية مؤكدة لوجوب تنفيذ الوصية أى أصولكم وفروعكم الذين يتوفون لا تدرون أيهم أنفع لكم أمن يوصى ببعض ماله فيعرضكم لثواب الآخرة بتنفيذ وصيته أم من لا يوصى بشىء فيوفر عليكم عرض الدنيا وليس المراد بنفى الدراية عنهم بيان اشتباه الأمر عليهم وكون أنفعية كل من الاول والثانى فى حيز الاحتمال عندهم من غير رجحان أحدهما على الآخر كما فى قوله عليه الصلاة والسلام مثل أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره فان ذلك بمعزل من افادة التأكيد المذكور والترغيب فى تنفيذ الوصية بل تحقيق أنفعية الاول فى ضمن التعريض بأن لهم اعتقادا بأنفعية الثانى مبنيا على عدم الدراية وقد أشير الى ذلك حيث عبر عن الانفعية بأقربية النفع تذكيرا لمناط زعمهم وتعيينا لمنشأ خطئهم ومبالغة فى الترغيب المذكور بتصوير الثواب الآجل بصورة العاجل لما أن الطباع مجبولة على حب الخير الحاضر كأنه قيل لا تدرون أيهم أنفع لكم فتحكمون نظرا الى ظاهر الحال وقرب المنال بأنفعية الثانى مع أن الأمر بخلافه فان ثواب الآخرة لتحقق وصوله الى صاحبه ودوام تمتعه به مع غاية قصر مدة ما بينهما من الحياة الدنيا أقرب وأحضر وعرض الدنيا لسرعة نفاده وفنائه أبعد وأقصى وقيل الخطاب للمورثين والمعنى لا تعلمون من أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم عاجلا وآجلا فتحروا فى شأنهم ما أوصاكم الله تعالى به ولا تعمدوا الى تفضيل بعض وحرمان بعض روى أن أحد المتوالدين اذا كان أرفع درجة من الآخر فى الجنة سأل الله تعالى أن يرفع اليه صاحبه فيرفع اليه بشفاعته قيل فالجملة الاعتراضية حينئذ مؤكدة لأمر القسمة وأنت خبير بأنه مشعر بأن مدار الارث ماذكر من أقربية النفع مع أنه العلاقة النسبية ﴿فريضة من الله﴾ نصبت نصب مصدر مؤكد لفعل محذوف أى فرض الله ذلك فرضا أو لقوله تعالى يوصيكم الله فانه فى معنى يأمركم ويفرض عليكم ﴿ان الله كان عليما﴾ أى بالمصالح والرتب ﴿حكيما﴾ فى كل ما قضى وقدر فيدخل فيه الأحكام المذكورة دخولا أوليا ﴿ولكم نصف ماترك أزواجكم﴾ من المال شروع فى بيان أحكام القسم الثانى من الورثة ووجه تقديم حكم ميراث الرجال مما لا حاجة الى ذكره ﴿ان لم يكن لهن ولد﴾ أى ولد وارث من بطنها أو من صلب بنيها أو بنى بنيها وان سفل ذكرا كان أو أنثى واحدا كان أو متعددا لأن لفظ الولد ينتظم الجميع منكم أو من غيركم والباقى لورثتهن من ذوى الفروض والعصبات أو غيرهم ولبيت المال ان لم يكن لهن وارث آخر أصلا ﴿فان كان لهن ولد﴾ على نحو ما فصل والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان ذكر تقدير عدم الولد وبيان حكمه مستتبع لتقدير وجوده وبيان حكمه ﴿فلكم الربع مما تركن﴾ من المال والباقى لباقى الورثة ﴿من بعد وصية﴾ متعلق بكلتا الصورتين لا بما يليه وحده ﴿يوصين بها﴾ فى محل الجر على أنه صفة لوصية وفائدتها مامر من ترغيب الميت فى الوصية وحث الورثة على تنفيذها ﴿أو دين﴾ عطف على وصية سواء كان ثبوته بالبينة أو بالاقرار وايثار أو على الواو لما مر من الدلالة على تساويهما فى الوجوب والتقدم على القسمة وكذا تقديم الوصية على الدين ذكرا لما ذكر من ابراز كمال العناية بتنفيذها ﴿ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد﴾ على التفصيل المذكور آنفا والباقى بقية ورثتكم من أصحاب الفروض والعصبات أو ذوى الأرحام أو لبيت المال ان لم يكن لكم وارث آخر أصلا ﴿فان كان لكم ولد﴾ على النحو الذى فصل ﴿فلهن الثمن مما تركتم﴾ من المال والباقى للباقين ﴿من بعد وصية توصون بها أو دين﴾ الكلام فيه كما فصل فى نظيريه فرض للرجل بحق الزواج ضعف ما فرض للمرأة كما فى النسب

لمزيته عليها وشرفه الظاهر ولذلك اختص بتشريف الخطاب وهكذا قياس كل رجل وامرأة اشتركا فى الجهة والقرب ولا يستثنى منه الا أولاد الام والمعتق والمعتقة وتستوى الواحدة والعدد منهن فى الربع والثمن ﴿وان كان رجل﴾ شروع فى بيان أحكام القسم الثالث من الورثة المحتمل للسقوط ووجه تأخيره عن الأولين بين والمراد بالرجل الميت وقوله تعالى ﴿يورث﴾ على البناء للمفعول من ورث لا من أورث خبر كان أى يورث منه ﴿كلالة﴾ الكلالة فى الأصل مصدر بمعنى الكلال وهو ذهاب القوة من الاعياء استعيرت للقرابة من غير جهة الوالد والولد لضعفها بالاضافة الى قرابتهما وتطلق على من لم يخلف ولدا ولا والدا وعلى من ليس بوالد ولا ولد من المخلفين بمعنى ذى كلالة كما تطلق القرابة على ذوى القرابة وقد جوز كونها صفة كالهجاجة والفقاقة للاحمق فنصبها اما على أنها مفعول له أى يورث منه لأجل القرابة المذكورة أو على أنها حال من ضمير يورث أى حال كونه ذا كلالة أو على أنها خبر لكان ويورث صفة لرجل أى ان كان رجل موروث ذا كلالة ليس له والد ولا ولد وقرىء يورث على البناء للفاعل مخففا ومشددا فانتصاب كلالة اما على أنها حال من ضمير الفعل والمفعول محذوف أى يورث وارثه حال كونه ذا كلالة واما على أنها مفعول به أى يورث ذا كلالة واما على أنه مفعول له أى يورث لأجل الكلالة ﴿أو امرأة﴾ عطف على رجل مقيد بما قيد به أى أو امرأة تورث كذلك ولعل فصل ذكرها عن ذكره للايذان بشرفه وأصالته فى الأحكام ﴿وله﴾ أى للرجل ففيه تأكيد للايذان المذكور حيث لم يتعرض لها بعد جريان ذكرها أيضا وقيل الضمير لكل منهما ﴿أخ أو أخت﴾ أى من الأم فحسب وقد قرىء كذلك فان أحكام بنى الأعيان والعلات هى التى ذكرت فى آخر السورة الكريمة والجملة فى محل النصب على أنها حال من ضمير يورث أو من رجل على تقدير كون يورث صفة له ومساقها لتصوير المسئلة وذكر الكلالة لتحقيق جريان الحكم المذكور وان كان مع من ذكر ورثة أخرى بطريق الكلالة وأما جريانه فى صورة وجود الام أو الجدة مع أن قرابتهما ليست بطريق الكلالة فبالاجماع ﴿فلكل واحد منهما﴾ من الاخ والاخت ﴿السدس﴾ من غير تفضيل للذكر على الانثى لأن الادلاء الى الميت بمحض الانوثة ﴿فان كانوا أكثر من ذلك﴾ أى أكثر من الاخ أو الاخت المنفردين بواحد أو بأكثر والفاء لما مر من أن ذكر احتمال الانفراد مستتبع لذكر احتمال التعدد ﴿فهم شركاء فى الثلث﴾ يقتسمونه بالسوية والباقى لبقية الورثة من أصحاب الفروض والعصبات. هذا وأما تجويز أن يكون يورث فى القراءة المشهورة مبنيا للمفعول من أورث على أن المراد به الوارث والمعنى وان كان رجل يجعل وارثا لأجل الكلالة أو ذا كلالة أى غير والد أو ولد ولذلك الوارث أخ أو أخت فلكل واحد من ذلك الوارث وأخيه أو أخته السدس فان كانوا أكثر من ذلك أى من الاثنين بأن كانوا ثلاثة أو أكثر فهم شركاء فى الثلث الموزع للاثنين لا يزاد عليه شىء فبمعزل من السداد أما أولا فلان المعتبر على ذلك التقدير انما هى الاخوة بين الوارث وبين شريكه فى الارث من أخيه أو أخته لا ما بينه وبين مورثه من الاخوة التى عليها يترتب حكم الارث وبها يتم تصوير المسئلة وانما المعتبر بينهما الوراثة بطريق الكلالة وهى عامة لجميع صور القرابات التى لا تكون بالولادة فلا يكون نصيبه ولا نصيب شريكه مما ذكر بعينه ومن ادعى اختصاصها بالاخوة لام متمسكا بالاجماع على أن المراد بالكلالة هنا أولاد الأم فقد اعترف ببطلان رأيه من حيث لا يحتسب كيف لا ومبناه انما هو الاجماع على أن المراد بالاخوة فى قوله تعالى وله أخ أو أخت هو الاخوة لام خاصة حسبما شهدت به القراءة المحكية والآية الآتية فى آخر السورة الكريمة ولولا أن الرجل عبارة عن الميت والاخوة معتبرة بينه وبين ورثته لما أمكن كون الكل أولاد الام ثم أن الكلالة كما نبهت عليه باقية على اطلاقها ليس فيها شائبة اختصاص بأولاد الام فضلا عن الاجماع على ذلك والا لاقتصر البيان على حكم

صورة انحصار الورثة فيهم وانما الاجماع فيما ذكر من أن المراد بالاخ والاخت من كان لام خاصة وأنت خبير بأن ذلك فى قوة الاجماع على أن يورث من ورث لا من أورث فتدبر وأما ثانيا فلانه يقتضى أن يكون المعتبر فى استحقاق الورثة فى الفرض المذكور اخوة بعضهم لبعض من جهة الأم فقط لما ذكر من الاجماع مع ثبوت الاستحقاق على تقدير الاخوة من الجهتين وأما ثالثا فلأن حكم صورة انفراد الوارث عن الأخ والأخت يبقى حينئذ غير مبين وليس من ضرورة كون حظ كل منهما السدس عند الاجماع كونه كذلك عند الانفراد ألا يرى أن حظ كل من الاختين الثلث عند الاجتماع والنصف عند الانفراد وأما رابعا فلأن تخصيص أحد الورثة بالتوريث وجعل غيره تبعا له فيه مع اتحاد الكل فى الادلاء الى المورث مما لا عهد به ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين﴾ الكلام فيه كالذى مر فى نظائره خلا أن الدين ههنا موصوف بوصف الوصية جريا على قاعدة تقييد المعطوف بما قيد به المعطوف عليه لاتفاق الجمهور على اعتبار عدم المضارة فيه أيضا وذلك انما يتحقق فيما يكون ثبوته بالاقرار فى المرض كأنه قيل أو دين يوصى به ﴿غير مضار﴾ حال من فاعل فعل مضمر يدل عليه المذكور وما حذف من المعطوف اعتمادا عليه كما أن رجال فى قوله تعالى يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال على قراءة المبنى للمفعول فاعل لفعل ينبىء عنه المذكور ومن فاعل الفعل المذكور والمحذوف اكتفاء به على قراءة البناء للفاعل أى يوصى بما ذكر من الوصية والدين حال كونه غير مضار للورثة أى بأن يوصى بما زاد على الثلث أو تكون الوصية لقصد الاضرار بهم دون القربة وبأن يقر فى المرض بدين كاذبا وتخصيص هذا القيد بهذا المقام لما أن الورثة مظنة لتفريط الميت فى حقهم ﴿وصية من الله﴾ مصدر مؤكد لفعل محذوف وتنوينه للتفخيم ومن متعلقة بمضمر وقع صفة له مؤكدة لفخامته الذاتية بالفخامة الاضافية أى يوصيكم بذلك وصية كائنة من الله كقوله تعالى فريضة من الله ولعل السر فى تخصيص كل منهما بمحله الاشعار بما بين الأحكام المتعلقة بالاصول والفروع وبين الأحكام المتعلقة بغيرهم من التفاوت حسب تفاوت الفريضة والوصية وان كانت كلتاهما واجبة المراعاة أو منصوب بغير مضار على أنه مفعول به فانه اسم فاعل معتمد على ذى الحال أو منفى معنى فيعمل فى المفعول الصريح ويعضده القراءة بالاضافة أى غير مضار لوصية الله وعهده لا فى شأن الاولاد فقط كما قيل اذ لا تعلق لهم بالمقام بل فى شأن الورثة المذكورة ههنا فان الاحكام المفصلة كلها مندرجة تحت قوله تعالى يوصيكم الله جارية مجرى تفسيره وبيانه ومضارتها الاخلال بحقوقهم ونقصها بما ذكر من الوصية بما زاد على الثلث والوصية لقصد الاضرار دون القربة والاقرار بالدين كاذبا وايقاعها على الوصية مع أنها واقعة على الورثة حقيقة كما فى قوله يا سارق الليلة أهل الدار للمبالغة فى الزجر عنها باخراجها مخرج مضارة أمر الله تعالى ومضادته وجعل الوصية عبارة عن الوصية بالثلث فما دونه يقتضى أن يكون غير مضار حالا من ضمير الفعل المتعلق بالوصية فقط وذلك يؤدى الى الفصل بين الحال وعاملها بأجنبى هو المعطوف على وصية مع أنه لا تنحسم به مادة المضارة لبقاء الاقرار بالدين على اطلاقه ﴿والله عليم﴾ بالمضار وغيره ﴿حليم﴾ لا يعاجل بالعقوبة فلا يغتر بالامهال وايراد الاسم الجليل مع كفاية الاضمار لادخال الروعة وتربية المهابة ﴿تلك﴾ اشارة الى الأحكام التى تقدمت فى شئون اليتامى والمواريث وغير ذلك ﴿حدود الله﴾ أى شرائعه المحدودة التى لا تجوز مجاوزتها ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ فى جميع الأوامر والنواهى التى من جملتها ما فصل ههنا واظهار الاسم الجليل لما ذكر آنفا ﴿يدخله جنات﴾ نصب على الظرفية عند الجمهور وعلى المفعولية عند الاخفش ﴿تجرى من تحتها الانهار﴾ صفة لجنات منصوبة حسب انتصابها ﴿خالدين فيها﴾ حال مقدرة من مفعول يدخله وصيغة الجمع بالنظر الى جمعية من بحسب المعنى كما أن افراد الضمير بالنظر الى افراده لفظا ﴿وذلك﴾ اشارة الى ما مر من دخول الجنات

الموصوفة بما ذكر على وجه الخلود ومافيه من معنى البعد للايذان بكمال علو درجته ﴿الفوز العظيم﴾ الذى لافوز وراءه وصف الفوز وهو الظفر بالخير بالعظم اما باعتبار متعلقه أو باعتبار ذاته فان الفوز بالعظيم عظيم والجملة اعتراض ﴿ومن يعص الله و رسوله﴾ ولو فى بعض الأوامر والنواهى قال مجاهد فيما اقتص من المواريث وقال عكرمة عن ابن عباس من لم يرض بقسم الله تعالى و يتعد ما قال الله تعالى وقال الكلبى يعنى ومن يكفر بقسمة الله المواريث و يتعد حدوده استحلالا والاظهار فى موقع الاضمار للمبالغة فى الزجر بتهويل الامر وتربية المهابة ﴿و يتعد حدوده﴾ شرائعه المحدودة فى جميع الأحكام فيدخل فيها مانحن فيه دخولا أوليا ﴿يدخله﴾ وقرئ بنون العظمة فى الموضعين ﴿نارا﴾. أى عظيمة هائلة لا يقادر قدرها ﴿خالدا فيها﴾ حال كما سبق ولعل ايثار الافراد ههنا نظرا الى ظاهر اللفظ واختيار الجمع هناك نظرا الى المعنى للايذان بأن الخلود فى دار الثواب بصفة الاجتماع أجلب للانس كما أن الخلود فى دار العذاب بصفة الانفراد أشد فى استجلاب الوحشة ﴿وله عذاب مهين﴾ أى وله مع عذاب الحريق الجسمانى عذاب آخر مبهم لا يعرف كنهه وهو العذاب الروحانى كما يؤذن به وصفه والجملة حالية ﴿واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم﴾ شروع فى بيان بعض آخر من الأحكام المتعلقة بالنساء اثر بيان أحكام المواريث واللاتى جمع التى بحسب المعنى دون اللفظ وقيل جمع على غير قياس والفاحشة الفعلة القبيحة أريد بها الزنا لزيادة قبحه والاتيان الفعل والمباشرة يقال أتى الفاحشة أى فعلها و باشرها وكذا جاءها و رهقها وغشيها وقرئ بالفاحشة فالاتيان بمعناه المشهور ومن متعلقة بمحذوف وقع حالا من فاعل يأتين أى اللاتى يفعلن الزنا كائنات من نسائكم أى من أزواجكم كما فى قوله تعالى والذين يظاهرون من نسائهم وقوله تعالى من نسائكم اللاتى دخلتم بهن و به قال السدى ﴿فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾ خبر للموصول والفاء للدلالة على سببية ما فى حيز الصلة للحكم أى فاطلبوا أن يشهد عليهن باتيانها أربعة من رجال المؤمنين وأحرارهم ﴿فان شهدوا﴾ عليهن بذلك ﴿فأمسكوهن فى البيوت﴾ أى فاحبسوهن فيها واجعلوها سجنا عليهن ﴿حتى يتوفاهن﴾ أى الى أن يستوفى أرواحهن ﴿الموت﴾ وفيه تهويل للموت وابراز له فى صورة من يتولى قبض الأرواح وتوفيها أو يتوفاهن ملائكة الموت ﴿أو يجعل الله لهن سبيلا﴾ أى يشرع لهن حكما خاصا بهن ولعل التعبير عنه بالسبيل للايذان بكونه طريقا مسلوكا فليس فيه دلالة على كونه أخف من الحبس كما قاله أبو مسلم ﴿واللذان يأتيانها منكم﴾ هما الزانى والزانية بطريق التغليب قال السدى أريد بهما البكران منهما كما ينبئ عنه كون عقوبتهما أخف من الحبس المخلد و بذلك يندفع التكرار خلا أنه يبقى حكم الزانى المحصن مبهما لاختصاص العقوبة الاولى بالمحصنات وعدم ظهور الحاقه بأحد الحكمين دلالة لخفاء الشركة فى المناط ﴿فآذوهما﴾ أى بالتوبيخ والتقريع وقيل بالضرب بالنعال أيضا وظاهر أن اجراء هذا الحكم أيضا انما يكون بعد الثبوت لكن ترك ذكره تعويلا على ماذكر آنفا ﴿فان تابا﴾ عما فعلا من الفاحشة بسبب مالقيا من زواجر الأذية وقوارع التوبيخ كما ينبئ عنه الفاء ﴿وأصلحا﴾ أى أعمالهما ﴿فأعرضوا عنهما﴾ بقطع الاذية والتوبيخ فان التوبة والصلاح مما يمنع استحقاق الذم والعقاب وقد جوز أن يكون الخطاب للشهود الواقفين على هناتهما و يراد بالايذاء ذمهما وتعنيفهما وتهديدهما بالرفع الى الولاة و بالاعراض عنهما ترك التعرض لهما بالرفع اليهم قيل كانت عقوبة الفريقين المذكورين فى أوائل الاسلام على ما مر من التفصيل ثم نسخ بالحد لما روى أن النبى عليه الصلاة والسلام قال خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا الثيب ترجم والبكر تجلد وقيل هذه الآية سابقة على الأولى نزولا وكانت عقوبة الزناة مطلقا الأذى ثم الحبس ثم الجلد ثم الرجم وقد جوز أن يكون الامر بالحبس غير منسوخ بأن يترك ذكر الحد لكونه معلوما بالكتاب والسنة و يوصى بامساكهن فى

البيوت بعد اقامة الحد صيانة لهن عن مثل ماجرى عليهن بسبب الخروج من البيوت والتعرض للرجال ولايخفى أنه مما لايساعده النظم الكريم وقال أبو مسلم وقد عزاه الى مجاهد ان الأولى فى السحاقات وهذه فى اللواطين ومافى سورة النور فى الزناة والزوانى متمسكا بأن المذكور فى الأولى صيغة الاناث خاصة و فى الثانية صيغة الذكور ولاضرورة الى المصير الى التغليب على أنه لا امكان له فى الاولى و يأباه الامر باستشهاد الأربعة فانه غير معهود فى الشرع فيما عدا الزنا ﴿ان الله كان توابا﴾ مبالغا فى قبول التوبة ﴿رحيما﴾ واسع الرحمة وهو تعليل للامر بالاعراض ﴿انما التوبة على الله﴾ استئناف مسوق لبيان أن قبول التوبة من الله تعالى ليس على اطلاقه كما ينبئ عنه وصفه تعالى بكونه توابا رحيما بل هو مقيد بما سينطق به النص الكريم فقوله تعالى التوبة مبتدأ وقوله تعالى ﴿للذين يعملون السوء﴾ خبره وقوله تعالى على الله متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار فان تقديم الجار والمجرور على عامله المعنوى مما لانزاع فى جوازه وكذا الظرف أو بمحذوف وقع حالا من ضمير المبتدا المستكن فيما تعلق به الخبر على رأى من جوز تقديم الحال على عاملها المعنوى عند كونها ظرفا أو حرف جر كما سبق فى تفسير قوله تعالى ولله على الناس حج البيت وأيا ما كان فمعنى كون التوبة عليه سبحانه صدور القبول عنه تعالى وكلمة على للدلالة على التحقق البتة بحكم جرى العادة وسبق الوعد حتى كأنه من الواجبات عليه سبحانه وهذا مراد من قال كلمة على بمعنى من وقيل هى بمعنى عند وعن الحسن يعنى التوبة التى يقبلها الله تعالى وقيل هى التوبة التى أوجب الله تعالى على نفسه بفضله قبولها وهذا يشير الى أن قوله تعالى على الله صفة للتوبة بتقدير متعلقه معرفة على رأى من جوز حذف الموصول مع بعض صلته أى انما التوبة الكائنة على الله والمراد بالسوء المعصية صغيرة كانت أو كبيرة وقيل الخبر على الله وقوله تعالى للذين متعلق بما تعلق به الخبر أو بمحذوف وقع حالا من الضمير المستكن فى متعلق الخبر وليس فيه ما فى الوجه الأول من تقديم الحال على العامل المعنوى الا أن الذى يقتضيه المقام و يستدعيه النظام هو الأول لما أن ماقبله من وصفه تعالى بكونه توابا رحيما انما يقتضى بيان اختصاص قبول التوبة منه تعالى بالمذكورين وذلك انما يكون بجعل قوله تعالى للذين الخ خبرا ألا يرى الى قوله عز وجل وليست التوبة الذين يعملون السيئات الخ فانه ناطق بما قلنا كأنه قيل انما التوبة لهؤلاء لا لهؤلاء ﴿بجهالة﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل يعملون أى يعملون السوء ملتبسين بها أى جاهلين سفهاء أو يعملون على أن الباء سببية أى يعملونه بسبب الجهالة لأن ارتكاب الذنب مما يدعو اليه الجهل وليس المراد به عدم العلم بكونه سوءا بل عدم التفكر فى العاقبة كما يفعله الجاهل قال قتادة اجتمع أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فرأوا أن كل شئ عصى به ربه فهو جهالة عمدا كان أو خطأ وعن مجاهد من عصى الله تعالى فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته وقال الزجاج يعنى بقوله بجهالة اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية ﴿ثم يتوبون من قريب﴾ أى من زمان قريب وهو ماقبل حضور الموت كما ينبئ عنه ما سيأتى من قوله تعالى حتى اذا حضر أحدهم الموت الخ فانه صريح فى أن وقت الاحتضار هو الوقت الذى لا تقبل فيه التوبة فبقى ماوراءه فى حيز القبول وعن ابن عباس رضى الله عنهما قبل أن ينزل به سلطان الموت وعن الضحاك كل توبة قبل الموت فهو قريب وعن ابراهيم النخعى مالم يؤخذ بكظمه وهو مجرى النفس وروى أبو أيوب عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يقبل توبة العبد مالم يغرغر وعن عطاء ولو قبل موته بفواق ناقة وعن الحسن ان ابليس قال حين أهبط الى الارض وعزتك لا أفارق ابن آدم مادام روحه فى جسده فقال تعالى وعزتى لاأغلق عليه باب التوبة مالم يغرغر ومن تبعيضية أى يتوبون بعض زمان قريب كأنه سمى مابين وجود المعصية وبين حضور الموت زمانا قريبا ففى أى جزء تاب من أجزاء هذا الزمان فهو تائب ﴿فأولئك﴾ اشارة الى المذكورين من

حيث اتصافهم بما ذكر وما فيه من معنى البعد باعتبار كونهم بانقضاء ذكرهم فى حكم البعيد والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿يتوب الله عليهم﴾ وما فيه من تكرير الاسناد لتقوية الحكم وهذا وعد بقبول توبتهم اثر بيان أن التوبة لهم والفاء للدلالة على سببيتها للقبول ﴿وكان الله عليما حكيما﴾ مبالغا فى العلم والحكمة فيبنى أحكامه وأفعاله على أساس الحكمة والمصلحة والجملة اعتراضية مقررة لمضمون ماقبلها واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار للاشعار بعلة الحكم فان الالوهية منشأ لاتصافه تعالى بصفات الكمال ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات﴾ تصريح بما فهم من قصر القبول على توبة من تاب من قريب وزيادة تعيين له ببيان أن توبة من عداهم بمنزلة العدم وجمع السيئات باعتبار تكرر وقوعها فى الزمان المديد لالأن المراد بها جميع أنواعها وبما مر من السوء نوع منها ﴿حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن﴾ حتى حرف ابتداء والجملة الشرطية بعدها غاية لما قبلها أى ليس قبول التوبة للذين يعملون السيئات الى حضور موتهم وقولهم حينئذ انى تبت الآن وذكر الآن لمزيد تعيين الوقت وايثار قال على تاب لاسقاط ذلك عن درجة الاعتبار والتحاشى عن تسميته توبة ﴿ولا الذين يموتون وهم كفار﴾ عطف على الموصول الذى قبله أى ليس قبول التوبة لهؤلاء ولا لهؤلاء وانما ذكر هؤلاء مع أنه لاتوبة لهم رأسا مبالغة فى بيان عدم قبول توبة المسوفين وايذانا بأن وجودها كعدمها بل فى تكرير حرف النفى فى المعطوف اشعار خفى بكون حال المسوفين فى عدم استتباع الجدوى أقوى من حال الذين يموتون على الكفر والمراد بالموصولين اما الكفار خاصة واما الفساق وحدهم وتسميتهم فى الجملة الحالية كفارا للتغليظ كما فى قوله تعالى ومن كفر فان الله غنى عن العالمين وأما مايعم الفريقين جميعا فالتسمية حينئذ للتغليب ويجوز أن يراد بالاول الفسقة وبالثانى الكفرة ففيه مبالغة أخرى ﴿أولئك﴾ اشارة الى الفريقين ومافيه من معنى البعد للايذان بترامى حالهم فى الفظاعة وبعد منزلتهم فى السوء وهو مبتدأ خبره ﴿أعتدنا لهم﴾ أى هيأنا لهم ﴿عذابا أليما﴾ تكرير الاسناد لما مر من تقوية الحكم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لاظهار الاعتناء بكون العذاب معدا لهم وتنكير العذاب ووصفه للتفخيم الذاتى والوصفى ﴿يا أيها الذين آمنوا لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها﴾ كان الرجل اذا مات قريبه يلقى ثوبه على امرأته أو على خبائها ويقول أرث امرأته كما أرث ماله فيصير بذلك أحق بها من كل أحد ثم ان شاء تزوجها بلا صداق غير الصداق الاول وان شاء زوجها غيره وأخذ صداقها ولم يعطها منه شيئا وان شاء عضلها لتفتدى بما ورثت من زوجها وان ذهبت المرأة الى أهلها قبل القاء الثوب فهى أحق بنفسها فنهوا عن ذلك وقيل لهم لايحل لكم أن تأخذوهن بطريق الارث على زعمكم كما تحاز المواريث وهن كارهات لذلك أو مكرهات عليه وقيل كانوا يمسكونهن حتى يمتن ويرثوا منهن فقيل لهم لايحل لكم ذلك وهن غير راضيات بامساككم وقرئ لاتحل بالتاء الفوقانية على أن أن ترثوا بمعنى الوراثة وقرئ كرها بضم الكاف وهى لغة كالضعف والضعف وكان الرجل اذا تزوج امرأة ولم تكن من حاجته حبسها مع سوء العشرة والقهر وضيق عليها لتفتدى منه بمالها وتختلع فقيل لهم ﴿ولا تعضلوهن﴾ عطفا على ترثوا ولا لتأكيد النفى والخطاب للازواج والعضل الحبس والتضييق ومنه عضلت المرأة بولدها اذا اختنقت رحمها فخرج بعضه وبقى بعضه أى ولا أن تضيقوا عليهن ﴿لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾ أى من الصداق بأن يدفعن اليكم بعضه اضطرارا فتأخذوه منهن وانما لم يتعرض لفعلهن ايذانا بكونه بمنزلة العدم لصدوره عنهن اضطرارا وانما عبر عن ذلك بالذهاب به لا بالاخذ ولا بالاذهاب للمبالغة فى تقبيحه ببيان تضمنه لامرين كل منهما محظور شنيع الاخذ والاذهاب منهن لانه عبارة عن الذهاب مستصحبا به ﴿الا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ على صيغة الفاعل من بين بمعنى تبين وقرئ على صيغة المفعول وعلى صيغة الفاعل

من أبان بمعنى تبين أى بينة القبح من النشوز وشكاسة الخلق وايذاء الزوج وأهله بالبذاء والسلاطة ويعضده قراءة أبى الا أن يفحشن عليكم وقيل الفاحشة الزنا وهو استثناء من أعم الاحوال أو أعم الأوقات أو أعم العلل أى ولايحل لكم عضلهن فى حال من الاحوال أو فى وقت من الأوقات أو لعلة من العلل الا فى حال اتيانهن بفاحشة أو الا فى وقت اتيانهن أو الا لاتيانهن بها فان السبب حينئذ يكون من جهتهن وأنتم معذورون فى طلب الخلع ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ خطاب للذين يسيئون العشرة معهن والمعروف مالاينكره الشرع والمروءة والمراد ههنا النصفة فى المبيت والنفقة والاجمال فى المقال ونحو ذلك ﴿فان كرهتموهن﴾ وسئمتم صحبتهن بمقتضى الطبيعة من غير أن يكون من قبلهن مايوجب ذلك من الأمور المذكورة فلا تفارقوهن بمجرد كراهة النفس واصبروا على معاشرتهن ﴿فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا﴾ علة للجزاء أقيمت مقامه للايذان بقوة استلزامها اياه كأنه قيل فان كرهتموهن فاصبروا عليهن مع الكراهة فلعل لكم فيما تكرهونه خيرا كثيرا ليس فيما تحبونه وعسى تامة رافعة لما بعدها مستغنية عن تقدير الخبر أى فقد قربت كراهتكم شيئا وجعل الله فيه خيرا كثيرا فان النفس ربما تكره ماهو أصلح فى الدين وأحمد عاقبة وأدنى الى الخير وتحب ماهو بخلافه فليكن نظركم الى مافيه خير وصلاح دون ماتهوى أنفسكم وذكر الفعل الأول مع الاستغناء عنه وانحصار العلية فى الثانى للتوسل الى تعميم مفعوله ليفيد أن ترتيب الخير الكثير من الله تعالى ليس مخصوصا بمكروه دون مكروه بل هو سنة الهية جارية على الاطلاق حسب اقتضاء الحكمة وأن مانحن فيه مادة من موادها وفيه من المبالغة فى الحمل على ترك المفارقة وتعميم الارشاد مالايخفى وقرئ ويجعل مرفوعا على أنه خبر لمبتدا محذوف والجملة حالية تقديره وهو أى ذلك الشئ يجعل الله فيه خيرا كثيرا وقيل تقديره والله يجعل بوضع المظهر موضع المضمر وتنوين خيرا لتفخيمه الذاتى ووصفه بالكثرة لبيان فخامته الوصفية والمراد به ههنا الولد الصالح وقيل الألفة والمحبة ﴿وان أردتم استبدال زوج﴾ أى تزوج امرأة ترغبون فيها ﴿مكان زوج﴾ ترغبون عنها بأن تطلقوها ﴿وآتيتم احداهن﴾ أى احدى الزوجات فان المراد بالزوج هو الجنس والجملة حالية باضمار قد لامعطوفة على الشرط أى وقد آتيتم التى تريدون أن تطلقوها ﴿قنطارا﴾ أى مالا كثيرا ﴿فلا تأخذوا منه﴾ أى من ذلك القنطار ﴿شيئا﴾ يسيرا فضلا عن الكثير ﴿أتأخذونه بهتانا واثما مبينا﴾ استئناف مسوق لتقرير النهى والتنفير عن المنهى عنه والاستفهام للانكار والتوبيخ أى أتأخذونه باهتين وآثمين أو للبهتان والاثم فان أحدهم كان اذا تزوج امرأة بهت التى تحته بفاحشة حتى يلجئها الى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه الى تزوج الجديدة فنهوا عن ذلك والبهتان الكذب الذى يبهت المكذوب عليه ويدهشه وقد يستعمل فى الفعل الباطل ولذلك فسر ههنا بالظلم وقوله عز وجل ﴿وكيف تأخذونه﴾ انكار لأخذه اثر انكار وتنفير عنه غب تنفير وقد بولغ فيه حيث وجه الانكار الى كيفية الأخذ ايذانا بأنه مما لاسبيل له الى التحقق والوقوع أصلا لأن مايدخل تحت الوجود لابد أن يكون على حال من الأحوال فاذا لم يكن لشئ حال أصلا لم يكن له حظ من الوجود قطعا وقوله عز وجل ﴿وقد أفضى بعضكم الى بعض﴾ حال من فاعل تأخذونه مفيدة لتأكيد النكير وتقرير الاستبعاد أى على أى حال أو فى أى حال تأخذونه والحال أنه قد جرى بينكم وبينهن أحوال منافية له من الخلوة وتقرر المهر وثبوت حق خدمتهن لكم وغير ذلك ﴿وأخذن منكم ميثاقا غليظا﴾ عطف على ماقبله داخل فى حكمه أى أخذن منكم عهدا وثيقا وهو حق الصحبة والمعاشرة أو ما أوثق الله تعالى عليهم فى شأنهن بقوله تعالى فامساك بمعروف أو تسريح باحسان أو ما أشار اليه النبى عليه الصلاة والسلام أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله تعالى ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم﴾ شروع فى بيان من يحرم نكاحها من النساء ومن

لايحرم وانما خص هذا النكاح بالنهى ولم ينظم فى سلك نكاح المحرمات الآتية مبالغة فى الزجر عنه حيث كانوا مصرين على تعاطيه قال ابن عباس وجمهور المفسرين كان أهل الجاهلية يتزوجون بأزواج آبائهم فنهوا عن ذلك واسم الآباء ينتظم الاجداد مجازا فتثبت حرمة ما نكحوها نصا واجماعا و يستقل فى اثبات هذه الحرمة نفس النكاح اذا كان صحيحا وأما اذا كان فاسدا فلابد فى اثباتها من الوطء أو ما يجرى مجراه من التقبيل والمس بشهوة ونحوهما بل هو المثبت لها فى الحقيقة حتى لو وقع شىء من ذلك بحكم ملك اليمين أو بالوجه المحرم تثبت به الحرمة عندنا خلافا للشافعى فى المحرم أى لاتنكحوا التى نكحها آباؤكم وايثار ما على من للذهاب الى الوصف وقيل مامصدرية على ارادة المفعول من المصدر ﴿من النساء﴾ بيان لما نكح على الوجهين ﴿الا ماقد سلف﴾ استثناء مما نكح مفيد للمبالغة فى التحريم باخراج الكلام مخرج التعليق بالمحال على طريقة قوله

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

والمعنى لاتنكحوا حلائل آبائكم الا من ماتت منهن والمقصود سد طريق الاباحة بالكلية ونظيره قوله تعالى حتى يلج الجمل فى سم الخياط وقيل هو استثناء مما يستلزمه النهى و يستوجبه مباشرة المنهى عنه كأنه قيل لاتنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء فانه موجب للعقاب الا ماقد مضى فانه معفو عنه وقيل هو استثناء منقطع معناه لكن ماقد سلف لامؤاخذة عليه لأنه مقرر و يأباهما قوله تعالى ﴿انه كان فاحشة ومقتا﴾ فانه تعليل للنهى و بيان لكون المنهى عنه فى غاية القبح مبغوضا أشد البغض وأنه لم يزل فى حكم الله تعالى وعلمه موصوفا بذلك مارخص فيه لامة من الأمم فلا يلائم أن يوسط بينهما مايهون أمره من ترك المؤاخذة على ماسلف منه ﴿وساء سبيلا﴾ فى كلمة ساء قولان أحدهما أنها جارية مجرى بئس فى الذم والعمل ففيها ضمير مبهم يفسره مابعده والمخصوص بالذم محذوف تقديره وساء سبيلا سبيل ذلك النكاح كقوله تعالى بئس الشراب أى ذلك الماء وثانيهما أنها كسائر الافعال وفيها ضمير يعود الى ماعاد اليه ضمير أنه وسبيلا تمييز والجملة اما مستأنفة لامحل لها من الاعراب أو معطوفة على خبر كان محكية بقول مضمر هو المعطوف فى الحقيقة تقديره ومقولا فى حقه ساء سبيلا فان ألسنة الأمم كافة لم تزل ناطقة بذلك فى الاعصار والامصار . قيل مراتب القبح ثلاث القبح الشرعى والقبح العقلى والقبح العادى وقد وصف الله تعالى هذا النكاح بكل ذلك فقوله تعالى فاحشة مرتبة قبحه العقلى وقوله تعالى ومقتا مرتبة قبحه الشرعى وقوله تعالى وساء سبيلا مرتبة قبحه العادى وما اجتمع فيه هذه المراتب فقد بلغ أقصى مراتب القبح ﴿حرمت عليكم أمهاتكم و بناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم و بنات الأخ و بنات الأخت﴾ ليس المراد تحريم ذواتهن بل تحريم نكاحهن ومايقصد به من التمتع بهن و بيان امتناع و رود ملك النكاح عليهن وانتفاء محليتهن له رأسا وأما حرمة التمتع بهن بملك اليمين فى المواد التى يتصور فيها قرار الملك كما فى بعض المعطوفات على تقدير رقهن فثابتة بدلالة النص لاتحاد المدار الذى هو عدم محلية أبضاعهن للملك لا بعبارته بشهادة سباق النظم الكريم وسياقه وانما لم يوجب المدار المذكور امتناع و رود ملك اليمين عليهن رأسا و لاحرمة سببه الذى هو العقد أو مايجرى مجراه كما أوجب حرمة عقد النكاح وامتناع و رود حكمه عليهن لأن مورد ملك اليمين ليس هو البضع الذى هو مورد ملك النكاح حتى يفوت بفوات محليته له كملك النكاح فانه حيث كان مورده ذلك فات بفوات محليته له قطعا وانما مورده الرقبة الموجودة فى كل رقيق فيتحقق بتحقق محله حتما ثم يزول بوقوع العتق فى المواد التى سبب حرمتها محض القرابة النسبية كالمذكورات و يبقى فى البواقى على حاله مستتبعا لجميع أحكامه المقصودة منه شرعا وأما حل الوطء فليس من تلك الاحكام فلا ضير فى تخلفه عنه كما فى المجوسية . والأمهات تعم الجدات وان علون والبنات تتناول بناتهن وان سفلن والأخوات ينتظمن الأخوات من الجهات الثلاث وكذا الباقيات والعمة كل أنثى ولدها من ولد والدك والخالة كل أنثى ولدها من

ولد والدتك قريبا أو بعيدا و بنات الأخ و بنات الأخت تتناول القربى والبعدى ﴿وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة﴾ نزل الله تعالى الرضاعة منزلة النسب حتى سمى المرضعة أما للرضيع والمراضعة أختا و كذلك زوج المرضعة أبوه وأبواه جداه وأخته عمته وكل ولد ولده من غير المرضعة قبل الرضاع و بعده فهم اخوته وأخواته لأبيه وأم المرضعة جدته وأختها خالته وكل من ولدها من هذا الزوج فهم اخوته وأخواته لأبيه وأمه ومن ولدها من غيره فهم اخوته وأخواته لأمه ومنه قوله عليه السلام يحرم من الرضاع مايحرم من النسب وهو حكم كلى جار على عمومه وأما أم أخيه لأب وأخت ابنه لأم وأم أم ابنه وأم عمه وأم خاله لأب فليست حرمتهن من جهة النسب حتى يحل بعمومه ضرورة حلهن فى صور الرضاع بل من جهة المصاهرة ألايرى أن الأولى موطوءة أبيه والثانية بنت موطوءته والثالثة أم موطوءته والرابعة موطوءة جده الصحيح والخامسة موطوءة جده الفاسد ﴿وأمهات نسائكم﴾ شروع فى بيان المحرمات من جهة المصاهرة اثر بيان المحرمات من جهة الرضاعة التى لها لحمة كلحمة النسب والمراد بالنساء المنكوحات على الاطلاق سواء كن مدخولا بهن أو لا وعليه جمهور العلماء . روى عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال فى رجل تزوج امرأة ثم طلقها قبل أن يدخل بها انه لا بأس بأن يتزوج ابنتها و لايحل له أن يتزوج أمها وعن عمر وعمران بن الحصين رضى الله عنهما أن الأم تحرم بنفس العقد وعن مسروق هى مرسلة فأرسلوا ما أرسل الله وعن ابن عباس أبهموا ما أبهم الله خلا أنه روى عنه وعن على و زيد وابن عمر وابن الزبير رضى الله عنهم أنهم قرؤا وأمهات نسائكم اللاتى دخلتم بهن وعن جابر روايتان وعن سعيد بن المسيب عن زيد أنه اذا ماتت عنده فأخذ ميراثها كره أن يخلف على أمها واذا طلقها قبل أن يدخل بها فان شاء فعل أقام الموت فى ذلك مقام الدخول كما قام مقامه فى باب المهر والعدة و يلحق بهن الموطوءات بوجه من الوجوه المعدودة فيما سبق والممسوسات ونظائرهن والأمهات تعم المرضعات كما تعم الجدات حسبما ذكر ﴿و ربائبكم اللاتى فى حجوركم﴾ الربائب جمع ربيبة فعيل بمعنى مفعول والتاء للنقل الى الاسمية والربيب ولد المرأة من آخر سمى به لأنه يربه غالبا كما يرب ولده وان لم يكن ذلك أمرا مطردا وهو المعنى بكونهن فى الحجور فان شأنهن الغالب المعتاد أن يكن فى حضانة أمهاتهن تحت حماية أزواجهن لا كونهن كذلك بالفعل وفائدة وصفهن بذلك تقوية علة الحرمة وتكميلها كما أنها النكتة فى ايرادهن باسم الربائب دون بنات النساء فان كونهن بصدد احتضانهم لهن و فى شرف التقلب فى حجورهم وتحت حمايتهم وتربيتهم مما يقوى الملابسة والشبه بينهن و بين أولادهم و يستدعى اجراءهن مجرى بناتهم لا لتقييد الحرمة بكونهن فى حجورهم بالفعل كما روى عن على رضى الله عنه وبه أخذ داود ومذهب جمهور العلماء ماذكر أو لا بخلاف مافى قوله تعالى ﴿من نسائكم اللاتى دخلتم بهن﴾ فانه لتقييدها به قطعا فان كلمة من متعلقة بمحذوف وقع حالا من ربائبكم أو من ضميرها المستكن فى الظرف لأنه لما وقع صلة تحمل ضميرا أى و ربائبكم اللاتى استقررن فى حجوركم كائنات من نسائكم الخ و لامساغ لجعله حالا من أمهات أو مما أضيفت هى اليه خاصة وهو بين لاسترة به و لا معا ماذكر أو لا ضرورة أن حاليته من ربائبكم أو من ضميرها تقتضى كون كلمة من ابتدائية وحاليته من أمهات أو من نسائكم تستدعى كونها بيانية وادعاء كونها اتصالية منتظمة لمعنى الابتداء والبيان أو جعل الموصول صفة للنساءين مع اختلاف عامليهما مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله مع أنه سعى فى اسكات مانطق به النبى عليه الصلاة والسلام واتفق عليه الجمهور حسبما ذكر فيما قبل وأما مانقل من القراءة فضعيفة الرواية وعلى تقدير الصحة محمولة على النسخ ومعنى الدخول بهن ادخالهن الستر والباء للتعدية وهى كناية عن الجماع كقولهم بنى عليها وضرب عليها الحجاب و فى حكمه اللمس ونظائره كما مر ﴿فان لم تكونوا﴾ أى فيما قبل ﴿دخلتم بهن﴾ أصلا ﴿فلا جناح عليكم﴾ أى فى نكاح

الربائب وهو تصريح بما أشعر به ماقبله والفاء الأولى لترتيب مابعدها على ماقبلها فان بيان حكم الدخول مستتبع لبيان حكم عدمه ﴿وحلائل أبنائكم﴾ أى زوجاتهم سميت الزوجة حليلة لحلها للزوج أو لحلولها فى محله وقيل لحل كل منهما ازار صاحبه و فى حكمهن مزنياتهم ومن يجرين مجراهن من الممسوسات ونظائرهن وقوله تعالى ﴿الذين من أصلابكم﴾ لاخراج الادعياء دون أبناء الاولاد والأبناء من الرضاع فانهم وان سفلوا فى حكم الأبناء الصلبية ﴿وأن تجمعوا بين الأختين﴾ فى حيز الرفع عطفا على ماقبله من المحرمات والمراد به جمعهما فى النكاح لا فى ملك اليمين وأما جمعهما فى الوطء بملك اليمين فملحق به بطريق الدلالة لاتحادهما فى المدار ولقوله عليه الصلاة السلام من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجمعن ماءه فى رحم أختين بخلاف نفس ملك اليمين فانه ليس فى معنى النكاح فى الافضاء الى الوطء و لا مستلزما له ولذلك يصح شراء المجوسية دون نكاحها حتى لو وطئهما لايحل له وطء احداهما حتى يحرم عليه وطء الأخرى بسبب من الاسباب وكذا لو تزوج أخت أمته الموطوءة لايحل له وطء احداهما حتى يحرم عليه الأخرى لأن المنكوحة موطوءة حكما فكأنه جمعهما وطأ واسناد الحرمة الى جمعهما لا الى الثانية منهما بأن يقال وأخوات نسائكم للاحتراز عن افادة الحرمة المؤبدة كما فى المحرمات السابقة ولكونه بمعزل من الدلالة على حرمة الجمع بينهما على سبيل المعية و يشترك فى هذا الحكم الجمع بين المرأة وعمتها ونظائرها فان مدار حرمة الجمع بين الأختين افضاؤه الى قطع ما أمر الله بوصله وذلك متحقق فى الجمع بين هؤلاء بل أولى فان العمة والخالة بمنزلة الأم فقوله عليه السلام لاتنكح المرأة على عمتها و لا على خالتها و لا على ابنة أخيها و لا على ابنة أختها من قبيل بيان التفسير لا بيان التغيير وقيل هو مشهور يجوز به الزيادة على الكتاب ﴿الا ماقد سلف﴾ استثناء منقطع أى لكن ماقد مضى لاتؤاخذون به ولا سبيل الى جعله متصلا بقصد التأكيد والمبالغة كما مر فيما سلف لان قوله تعالى ﴿ان الله كان غفورا رحيما﴾ تعليل لما أفاده الاستثناء فيتحتم الانقطاع وقال عطاء والسدى معناه الا ما كان من يعقوب عليه السلام فانه قد جمع بين ليا أم يهوذا و بين راحيل أم يوسف عليه الصلاة والسلام و لا يساعده التعليل لأن مافعله يعقوب عليه السلام كان حلالا فى شريعته وقال ابن عباس رضى الله عنهما كان أهل الجاهلية يحرمون ماحرم الله تعالى الا امرأة الأب والجمع بين الاختين وروى هشام بن عبد الله عن محمد بن الحسن أنه قال كان أهل الجاهلية يعرفون هذه المحرمات الا اثنتين نكاح امرأة الأب والجمع بين الاختين ألا يرى أنه قد عقب النهى عن كل منهما بقوله تعالى الا ماقد سلف وهذا يشير الى كون الاستثناء فيهما على سنن واحد و يأباه اختلاف التعليلين ﴿والمحصنات﴾ بفتح الصاد وهن ذوات الأزواج أحصنهن التزوج أو الأزواج أو الاولياء أى أعفهن عن الوقوع فى الحرام وقرىء على صيغة اسم الفاعل فانهن أحصن فروجهن عن غير أزواجهن أو أحصن أزواجهن وقيل الصيغة للفاعل على القراءة الاولى أيضا وفتح الصاد محمول على الشذوذ كما فى نظيريه ملقح ومسهب من ألقح وأسهب قيل قد ورد الاحصان فى القرآن بازاء أربعة معان الأول التزوج كما فى هذه الآية الكريمة الثانى العفة كما فى قوله تعالى محصنين غير مسافحين الثالث الحرية كما فى قوله تعالى ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات والرابع الاسلام كما فى قوله تعالى فاذا أحصن قيل فى تفسيره أى أسلمن وهى معطوفة على المحرمات السابقة وقوله تعالى ﴿من النساء﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا منها أى كائنات من النساء وفائدته تأكيد عمومها لا دفع توهم شمولها للرجال بناء على كونها صفة للانفس كما توهم ﴿الا ماملكت أيمانكم﴾ استثناء من المحصنات استثناء النوع من الجنس أى ملكتموه واسناد الملك الى الأيمان لما أن سببه الغالب هو الصفة الواقعة بها وقد اشتهر ذلك فى الارقاء لاسيما فى اناثهم وهن المرادات ههنا رعاية للمقابلة بينه و بين ملك النكاح الوارد على الحرائر والتعبير عنهن بما لاسقاطهن بما فيهن من قصور الرق عن رتبة العقلاء وهى اما عامة حسب عموم

صلتها فالاستثناء حينئذ ليس لاخراج جميع أفرادها من حكم التحريم بطريق شمول النفى بل بطريق نفى الشمول المستلزم لاخراج بعضها أى حرمت عليكم المحصنات على الاطلاق الا المحصنات اللاتى ملكتموهن فانهن لسن من المحرمات على الاطلاق بل فيهن من لايحرم نكاحهن فى الجملة وهن المسبيات بغير أزواجهن أو مطلقا حسب اختلاف الرأيين واما خاصة بالمذكورات فالمعنى حرمت عليكم المحصنات الا اللاتى سبين فان نكاحهن مشروع فى الجملة أى لغير ملاكهن وأما حلهن لهم بحكم ملك اليمين فمفهوم بدلالة النص لاتحاد المناط لا بعبارته لما عرفت من أن مساق النظم الكريم لبيان حرمة التمتع بالمحرمات المعدودة بحكم ملك النكاح وانما ثبوت حرمة التمتع بهن بحكم ملك اليمين بطريق دلالة النص وذلك مما لايجرى فيه الاستثناء قطعا وأما عدهن من ذوات الازواج مع تحقق الفرقة بينهن و بين أزواجهن قطعا بالتباين أو بالسبي على اختلاف الرأيين فمبنى على اعتقاد الناس حيث كانوا حينئذ غافلين عن الفرقة ألا يرى الى ماروى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه من أنه قال أصبنا يوم أوطاس سبايا لهن أزواج فكرهنا أن نقع عليهن فسألنا النبى عليه السلام و فى رواية عنه قلنا يارسول الله كيف نقع على نساء قد عرفنا أنسابهن وأزواجهن فنزلت والمحصنات من النساء الا ماملكت أيمانكم فاستحللناهن و فى رواية أخرى عنه ونادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا لاتوطأ حامل حتى تضع ولا حائل حتى تحيض فأباح وطأهن بعد الاستبراء وليس فى ترتيب هذا الحكم على نزول الآية الكريمة مايدل على كونها مسوقة له فان ذلك انما يتوقف على افادتها له بوجه من وجوه الدلالة لا على افادتها بطريق العبارة أو نحوها . هذا وقد روى عن أبى سعيد رضى الله عنه أنه قال انها نزلت فى نساء كن يهاجرن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهن أزواج فيتزوجهن بعض المسلمين ثم يقدم أزواجهن مهاجرين فنهى عن نكاحهن فالمحصنات حينئذ عبارة عن مهاجرات يتحقق أو يتوقع من أزواجهن الاسلام والمهاجرة و لذلك لم يزل عنهن اسم الاحصان والنهى لتحريم المحقق وتعرف حال المتوقع والا فما عداهن بمعزل من الحرمة واستحقاق اطلاق الاسم عليهن كيف لا وحين انقطعت العلاقة بين المسبية وزوجها مع اتحادهما فى الدين فلأن تنقطع مابين المهاجرة وزوجها أحق وأولى كما يفصح عنه قوله عز وجل فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار لاهن حل لهم ولاهم يحلون لهن الآية ﴿كتاب الله﴾ مصدر مؤكد أى كتب الله ﴿عليكم﴾ تحريم هؤلاء كتابا وفرضه فرضا وقيل منصوب على الاغراء بفعل مضمر أى الزموا كتاب الله وعليكم متعلق اما بالمصدر واما بمحذوف وقع حالا منه وقيل هو اغراء آخر مؤكد لما قبله قد حذف مفعوله لدلالة المذكور عليه أو بنفس عليكم على رأى من جوز تقديم المنصوب فى باب الاغراء كما فى قوله

يا أيها المائح دلوى دونكا ... انى رأيت الناس يحمدونكا

وقرىء كتب الله بالجمع والرفع أى هذه فرائض الله عليكم وقرىء كتب الله بلفظ الفعل ﴿وأحل لكم﴾ عطف على حرمت عليكم الخ وتوسيط قوله تعالى كتاب الله عليكم بينهما للمبالغة فى الحمل على المحافظة على المحرمات المذكورة وقرىء على صيغة المبنى للفاعل فيكون معطوفا على الفعل المقدر وقيل بل على حرمت الخ فانهما جملتان متقابلتان مؤسستان للتحريم والتحليل المنوطين بأمر الله تعالى و لا ضير فى اختلاف المسند اليه بحسب الظاهر لاسيما بعد ماأكدت الاولى بما يدل على أن المحرم هو الله تعالى ﴿ماوراء ذلكم﴾ اشارة الى ماذكر من المحرمات المعدودة أى أحل لكم نكاح ماسواهن انفرادا وجمعا ولعل ايثار اسم الاشارة المتعرض لوصف المشار اليه وعنوانه على الضمير المتعرض للذات فقط لتذكير ما فى كل واحدة منهن من العنوان الذى عليه يدور حكم الحرمة فيفهم مشاركة من فى معناهن لهن فيها بطريق الدلالة فان حرمة الجمع بين المرأة وعمتها و بينها و بين خالتها ليست بطريق العبارة بل بطريق الدلالة كما سلف وقيل

ليس المراد بالاحلال الاحلال مطلقا أى على جميع الأحوال حتى يرد أنه يلزم منه حل الجمع بين المرأة وعمتها وبينها وبين خالتها بل انما هو احلالهن فى الجملة أى على بعض الاحوال ولا ريب فى حل نكاحهن بطريق الانفراد ولا يقدح فى ذلك حرمته بطريق الجمع ألا يرى أن حرمة نكاح المعتدة والمطلقة ثلاثا والخامسة ونكاح الأمة على الحرة ونكاح الملاعنة لا تقدح فى حل نكاحهن بعد العدة و بعد التحليل و بعد تطليق الرابعة وانقضاء العدة و بعد تطليق الحرة و بعد اكذاب الملاعن نفسه وأنت خبير بأن الحل يجب أن يتعلق ههنا بما تعلق به الحرمة فيما سلف وقد تعلق هناك بالجمع فلابد أن يتعلق الحل ههنا به أيضا ﴿أن تبتغوا﴾ متعلق بالفعلين المذكورين على أنه مفعول له لكن لا باعتبار ذاتهما بل باعتبار بيانهما واظهارهما أى بين لكم تحريم المحرمات المعدودة واحلال ماسواهن ارادة أن تبتغوا بأموالكم والمفعول محذوف أى تبتغوا النساء أو متروك أى تفعلوا الابتغاء ﴿بأموالكم﴾ بصرفها الى مهورهن أو بدل اشتمال مما وراء ذلكم بتقدير ضمير المفعول ﴿محصنين﴾ حال من فاعل تبتغوا والاحصان العفة وتحصين النفس عن الوقوع فيما يوجب اللوم والعقاب ﴿غير مسافحين﴾ حال ثانية منه أو حال من الضمير فى محصنين والسفاح الزنا والفجور من السفح الذى هو صب المنى سمى به لانه الغرض منه ومفعول الفعلين محذوف أى محصنين فروجكم غير مسافحين الزوانى وهى فى الحقيقة حال مؤكدة لأن المحصن غير مسافح البتة وما فى قوله تعالى ﴿فما استمتعتم به منهن﴾ اما عبارة عن النساء أو عما يتعلق بهن من الافعال وعلى التقديرين فهى اما شرطية مابعدها شرطها واما موصولة مابعدها صلتها وأيا ماكان فهى مبتدأ خبرها على تقدير كونها شرطية اما فعل الشرط أو جوابه أو كلاهما على الخلاف المعروف وعلى تقدير كونها موصولة قوله تعالى ﴿فآتوهن أجورهن﴾ والفاء لتضمن الموصول معنى الشرط ثم على تقدير كونها عبارة عن النساء فالعائد الى المبتدا هو الضمير المنصوب فى فآتوهن سواء كانت شرطية أو موصولة ومن بيانية أو تبعيضية محلها النصب على الحالية من الضمير المجرور فى به والمعنى فأى فرد استمتعتم به أو فالفرد الذى استمتعتم به حال كونه من جنس النساء أو بعضهن فآتوهن أجورهن وقد روعى تارة جانب اللفظ فأفرد الضمير أولا وأخرى جانب المعنى فجمع ثانيا وثالثا وأما على تقدير كونها عبارة عما يتعلق بهن فمن ابتدائية متعلقة بالاستمتاع والعائد الى المبتدا محذوف والمعنى أى فعل استمتعتم به من جهتهن من نكاح أو خلوة أو نحوهما أو فالفعل الذى استمتعتم به من قبلهن من الافعال المذكورة فآتوهن أجورهن لأجله أو بمقابلته والمراد بالاجور المهور فانها أجور أبضاعهن ﴿فريضة﴾ حال من الاجور بمعنى مفروضة أو نعت لمصدر محذوف أى ايتاء مفروضا أو مصدر مؤكد أى فرض ذلك فريضة أى لهن عليكم ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به﴾ أى لا اثم عليكم فيما تراضيتم به من الحط عن المهر أو الابراء منه على طريقة قوله تعالى فان طبن لكم عن شئ منه نفسا فكلوه اثر قوله تعالى وآتوا النساء صدقاتهن وقوله تعالى الا أن يعفون وتعميمه للزيادة على المسمى لا يساعده رفع الجناح عن الرجال لأنها ليست مظنة الجناح الا أن يجعل الخطاب للأزواج تغليبا فان أخذ الزيادة على المسمى مظنة الجناح على الزوجة وقيل فيما تراضيتم به من نفقة ونحوها وقيل من مقام أو فراق ولا يساعده قوله تعالى ﴿من بعد الفريضة﴾ اذ لا تعلق لهما بالفريضة الا أن يكون الفراق بطريق المخالعة وقيل نزلت فى المتعة التى هى النكاح الى وقت معلوم من يوم أو أكثر سميت بذلك لان الغرض منها مجرد الاستمتاع بالمرأة واستمتاعها بما يعطى وقد أبيحت ثلاثة أيام حين فتحت مكة شرفها الله تعالى ثم نسخت لما روى انه عليه السلام أباحها ثم أصبح يقول ياأيها الناس انى كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ألا ان الله حرم ذلك الى يوم القيامة وقيل أبيح مرتين وحرم مرتين وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه رجع عن القول بجوازه عند

موته وقال اللهم انى أتوب اليك من قولى بالمتعة وقولى فى الصرف ﴿ان الله كان عليما﴾ بمصالح العباد ﴿حكيما﴾ فيما شرع لهم من الأحكام ولذلك شرع لكم هذه الأحكام اللائقة بحالكم ﴿ومن لم يستطع منكم﴾ من اما شرطية مابعدها شرطها أو موصولة مابعدها صلتها والظرف متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل يستطع أى حال كونه منكم وقوله تعالى ﴿طولا﴾ أو غنى وسعة أى اعتلاء ونيلا وأصله الزيادة والفضل مفعول ليستطع وقوله عز وجل ﴿أن ينكح المحصنات المؤمنات﴾ اما مفعول صريح لطولا فان اعمال المصدر المنون شائع ذائع كما فى قوله تعالى أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة كأنه قيل ومن لم يستطع منكم أن ينال نكاحهن واما بتقدير حرف الجر أى ومن لم يستطع منكم غنى الى نكاحهن أو لنكاحهن فالجار فى محل النصب صفة لطولا أى طولا موصلا اليه أو كائنا له أو على نكاحهن على أن الطول بمعنى القدرة. فى القاموس الطول والطائل والطائلة الفضل والقدرة والغنى والسعة ومحل أن بعد حذف الجار نصب عند سيبويه والفراء وجر عند الكسائى والاخفش واما بدل من طولا لأن الطول فضل والنكاح قدرة واما مفعول ليستطع وطولا مصدر مؤكد له لأنه بمعناه اذ الاستطاعة هى الطول أو تمييز أى ومن لم يستطع منكم نكاحهن استطاعة أو من جهة الطول والغنى أى لا من جهة الطبيعة والمزاج فان عدم الاستطاعة من تلك الجهة لا تعلق له بالمقام والمراد بالمحصنات الحرائر بدليل مقابلتهن بالمملوكات فان حريتهن أحصنتهن عن ذل الرق والابتذال وغيرهما من صفات القصور والنقصان وقوله عز وجل ﴿فمما ملكت أيمانكم﴾ اما جواب للشرط أو خبر للموصول والفاء لتضمنه معنى الشرط والجار متعلق بفعل مقدر حذف مفعوله وما موصولة أى فلينكح امرأة أو أمة من النوع الذى ملكته أيمانكم وهو فى الحقيقة متعلق بمحذوف وقع صفة لذلك المفعول المحذوف ومن تبعيضية أى فلينكح امرأة كائنة من ذلك النوع وقيل من زائدة والموصول مفعول للفعل المقدر أى فلينكح ماملكته أيمانكم وقوله تعالى ﴿من فتياتكم المؤمنات﴾ فى محل النصب على الحالية من الضمير المقدر فى ملكت الراجع الى ما وقيل هو المفعول للفعل المقدر على زيادة من ومما ملكت متعلق بنفس الفعل ومن لابتداء الغاية أو بمحذوف وقع حالا من فتياتكم ومن للتبعيض أى فلينكح فتياتكم كائنات بعض ماملكت أيمانكم والمؤمنات صفة لفتياتكم على كل تقدير وقيل هو المفعول للفعل المقدر ومما ملكت على ماتقدم آنفا ومن فتياتكم حال من العائد المحذوف وظاهر النظم الكريم يفيد عدم جواز نكاح الأمة للمستطيع كما ذهب اليه الشافعى رحمه الله تعالى وعدم جواز نكاح الأمة الكتابية أصلا كما هو رأى أهل الحجاز وقد جوزهما أبو حنيفة رحمه الله تعالى متمسكا بالعمومات فحمل الشرط والوصف هو الافضلية ولا نزاع فيها لأحد وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال ومما وسع الله على هذه الامة نكاح الامة واليهودية والنصرانية وان كان موسرا وقوله تعالى ﴿والله أعلم بايمانكم﴾ جملة معترضة جئ بها لتأنيسهم بنكاح الاماء واستنزالهم من رتبة الاستنكاف منه ببيان أن مناط التفاضل ومدار التفاخر هو الايمان دون الأحساب والانساب على مانطق به قوله عز قائلا ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم والمعنى أنه تعالى أعلم منكم بمراتبكم فى الايمان الذى به تنتظم أحوال العباد وعليه يدور فلك المصالح فى المعاش والمعاد ولا تعلق له بخصوص الحرية والرق فرب أمة يفوق ايمانها ايمان الحرائر وقوله تعالى ﴿بعضكم من بعض﴾ ان أريد به الاتصال من حيث الدين فهو بيان لتناسبهم من تلك الحيثية اثر بيان تفاوتهم فى ذلك وان أريد به الاتصال من حيث النسب فهو اعتراض آخر مؤكد للتأنيس من جهة أخرى والخطاب فى الموضعين اما لمن كما فى الخطاب الذى يعقبه قد روعى فيما سبق جانب اللفظ وههنا جانب المعنى والالتفات للاهتمام بالترغيب والتأنيس واما لغيرهم من المسلمين

كالخطابات السابقة لحصول الترغيب بخطابهم أيضا وأياما كان فاعادة الأمر بالنكاح على وجه الخطاب فى قوله تعالى ﴿فانكحوهن﴾ مع انفهامه من قوله تعالى فما ملكت أيمانكم حسبما ذكر لزيادة الترغيب فى نكاحهن وتقييده بقوله تعالى ﴿باذن أهلهن﴾ وتصديره بالفاء للايذان بترتبه على ماقبله أى واذ قد وقفتم على جلية الأمر فانكحوهن باذن مواليهن ولا تترفعوا عنهن وفى اشتراط اذن الموالى دون مباشرتهم للعقد اشعار بجواز مباشرتهن له ﴿وآتوهن أجورهن﴾ أى مهورهن ﴿بالمعروف﴾ متعلق بآتوهن أى أدوا اليهن مهورهن بغير مطل وضرار والجاء الى الاقتضاء واللز حسبما يقتضيه الشرع والعادة ومن ضرورته أن يكون الاداء اليهن باذن الموالى فيكون ذكر ايتائهن لبيان جواز الاداء اليهن لالكون المهور لهن وقيل أصله آتوا مواليهن فحذف المضاف وأوصل الفعل الى المضاف اليه ﴿محصنات﴾ حال من مفعول فانكحوهن أى حال كونهن عفائف عن الزنا ﴿غير مسافحات﴾ حال مؤكدة أى غير مجاهرات به ﴿ولا متخذات أخدان﴾ عطف على مسافحات ولا لتأكيد مافى غير من معنى النفى والخدن الصاحب قال أبو زيد الاخدان الاصدقاء على الفاحشة والواحد خدن وخدين والجمع للمقابلة بالانقسام على معنى أن لا يكون لواحدة منهن خدن لا على معنى أن لا يكون لهما أخدان أى غير مجاهرات بالزنا ولا مسرات له وكان الزنا فى الجاهلية منقسما الى هذين القسمين ﴿فاذا أحصن﴾ أى بالتزويج وقرىء على البناء للفاعل أى أحصن فروجهن أو أزواجهن ﴿فان أتين بفاحشة﴾ أى فعلن فاحشة وهى الزنا ﴿فعليهن﴾ فثابت عليهن شرعا ﴿نصف ما على المحصنات﴾ أى الحرائر الابكار ﴿من العذاب﴾ من الحد الذى هو جلد مائة فنصفه خمسون كما هو كذلك قبل الاحصان فالمراد بيان عدم تفاوت حدهن بالاحصان كتفاوت حد الحرائر فالفاء فى فان أتين جواب اذا والثانية جواب ان والشرط الثانى مع جوابه مترتب على وجود الاول كما فى قولك اذا أتيتنى فان لم أكرمك فعبدى حر ﴿ذلك﴾ أى نكاح الاماء ﴿لمن خشى العنت منكم﴾ أى لمن خاف وقوعه فى الاثم الذى تؤدى اليه غلبة الشهوة وأصل العنت انكسار العظم بعد الجبر فاستعير لكل مشقة وضرر يعترى الانسان بعد صلاح حاله ولا ضرر أعظم من مواقعة المآثم بارتكاب أفحش القبائح وقيل أريد به الحد لانه اذا هويها يخشى أن يواقعها فيحد والاول هو اللائق بحال المؤمن دون الثانى لايهامه أن المحذور عنده الحد لا مايوجبه ﴿وأن تصبروا﴾ أى عن نكاحهن متعففين كافين أنفسكم عما تشتهيه من المعاصى ﴿خير لكم﴾ من نكاحهن وان سبقت كلمة الرخصة فيه لما فيه من تعريض الولد للرق قال عمر رضى الله عنه أيما حر تزوج بأمة فقد أرق نصفه وقال سعيد بن جبير ما نكاح الامة من الزنا الا قريب ولان حق المولى فيها أقوى فلا تخلص للزوج خلوص الحرائر ولأن المولى يقدر على استخدامها كيفما يريد فى السفر والحضر وعلى بيعها للحاضر والبادى وفيه من اختلال حال الزوج وأولاده مالا مزيد عليه ولأنها ممتهنة مبتذلة خراجة ولاجة وذلك كله ذل ومهانة سارية الى الناكح والعزة هى اللائقة بالمؤمنين ولان مهرها لمولاها فلا تقدر على التمتع به ولا على هبته للزوج فلا ينتظم أمر المنزل وقد قال عليه السلام الحرائر صلاح البيت والاماء هلاك البيت ﴿والله غفور﴾ مبالغ فى المغفرة فيغفر لمن لم يصبر عن نكاحهن مافى ذلك من الامور المنافية لحال المؤمنين ﴿رحيم﴾ مبالغ فى الرحمة ولذلك رخص لكم فى نكاحهن ﴿يريد الله ليبين لكم﴾ استئناف مسوق لتقرير ماسبق من الاحكام وبيان كونها جارية على مناهج المهتدين من الانبياء والصالحين قيل أصل النظم الكريم يريد الله أن يبين لكم فزيدت اللام لتأكيد معنى الاستقبال اللازم للارادة ومفعول يبين محذوف ثقة بشهادة السباق والسياق أى يريد الله أن يبين لكم ماهو خفى عنكم من مصالحكم وأفاضل أعمالكم أوما تعبدكم به من الحلال والحرام وقيل مفعول يريد محذوف تقديره يريد الله تشريع ما شرع من التحريم

والتحليل لأجل التبيين لكم وهذا مذهب البصريين ويعزى الى سيبويه وقيل ان اللام بنفسها ناصبة للفعل من غير اضمار أن وهى وما بعدها مفعول للفعل المتقدم فان اللام قد تقام مقام أن فى فعل الارادة والامر فيقال أردت لأذهب وأن أذهب وأمرتك لتقوم وأن تقوم قال تعالى يريدون ليطفئوا نور الله * فى موضع يريدون أن يطفئوا وقال تعالى وأمرنا لنسلم وفى موضع وأمرت أن أسلم وفى آخر وأمرت لاعدل بينكم أى أن أعدل بينكم وهذا مذهب الكوفيين ومنعه البصريون وقالوا ان وظيفة اللام هى الجر والنصب فيما قالوا باضمار أن أى أمرنا بما أمرنا لنسلم ويريدون مايريدون ليطفئوا وقيل يؤول الفعل الذى قبل اللام بمصدر مرفوع بالابتداء ويجعل مابعده خبراً له كما فى تسمع بالمعيدى خير من أن تراه أى أن تسمع به ويعزى هذا الرأى الى بعض البصريين ﴿ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ من الانبياء والصالحين لتقتدوا بهم ﴿ويتوب عليكم﴾ اذ أتيتم اليه تعالى عما يقع منكم من التقصير والتفريط فى مراعاة ما كلفتموه من الشرائع فان المكلف قلما يخلو من تقصير يستدعى تلافيه بالتوبة ويغفر لكم ذنوبكم أو يرشدكم الى مايردعكم عن المعاصى ويحثكم على التوبة أو الى مايكون كفارة لسيئاتكم وليس الخطاب لجميع المكلفين حتى يتخلف مراده تعالى عن ارادته فيمن لم يتب منهم بل لطائفة معينة حصلت لهم هذه التوبة ﴿والله عليم﴾ مبالغ فى العلم بالأشياء التى من جملتها ماشرع لكم من الاحكام ﴿حكيم﴾ مراع فى جميع أفعاله الحكمة والمصلحة ﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾ جملة مبتدأة مسوقة لبيان كمال منفعة ماأراده الله تعالى وكمال مضرة مايريد الفجرة لا لبيان ارادته تعالى لتوبته عليهم حتى يكون من باب التكرير للتقرير ولذلك غير الأسلوب الى الجملة الاسمية دلالة على دوام الارادة ولم يفعل ذلك فى قوله تعالى ﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات﴾ للاشارة الى الحدوث وللايماء الى كمال المباينة بين مضمونى الجملتين كما مر فى قوله تعالى الله ولى الذين آمنوا الآية والمراد بمتبعى الشهوات الفجرة فان اتباعها الائتمار بها وأما المتعاطى لما سوغه الشرع من المشتهيات دون غيره فهو متبع له لا لها وقيل هم اليهود والنصارى وقيل هم المجوس حيث كانوا يحلون الاخوات من الأب وبنات الأخ وبنات الاخت فلما حرمهن الله تعالى قالوا فانكم تحلون بنت الخالة وبنت العمة مع أن العمة والخالة عليكم حرام فانكحوا بنات الأخ والأخت فنزلت ﴿أن تميلوا﴾ عن الحق بموافقتهم على اتباع الشهوات واستحلال المحرمات وتكونوا زناة مثلهم وقرىء بالياء التحتانية والضمير للذين يتبعون الشهوات ﴿ميلا عظيما﴾ أى بالنسبة الى ميل من اقترف خطيئة على ندرة بلا استحلال ﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾ بما مر من الرخص مافى عهدتكم من مشاق التكاليف والجملة مستأنفة لامحل لها من الاعراب ﴿وخلق الانسان ضعيفا﴾ عاجزاً عن مخالفة هواه غير قادر على مقابلة دواعيه وقواه حيث لا يصبر عن اتباع الشهوات ولا يستخدم قواه فى مشاق الطاعات وعن الحسن ان المراد ضعف الخلقة ولا يساعده المقام فان الجملة اعتراض تذييلى مسوق لتقرير ماقبله من التخفيف بالرخصة فى نكاح الاماء وليس لضعف البنية مدخل فى ذلك وانما الذى يتعلق به التخفيف فى العبادات الشاقة وقيل المراد به ضعفه فى أمر النساء خاصة حيث لا يصبر عنهن وعن سعيد بن المسيب ما أيس الشيطان من بنى آدم قط الا أتاهم من قبل النساء فقد أتى على ثمانون سنة وذهبت احدى عينى وأنا أعشو بالأخرى وان أخوف ما أخاف على فتنة النساء وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما وخلق الانسان على البناء للفاعل والضمير لله عز وجل وعنه رضى الله عنه ثمانى آيات فى سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت يريد الله ليبين لكم والله يريد أن يتوب عليكم يريد الله أن يخفف عنكم ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ومن يعمل سوءاً

أو يظلم نفسه مايفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم ﴿ياأيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ شروع فى بيان بعض الحرمات المتعلقة بالأموال والأنفس اثر بيان الحرمات المتعلقة بالابضاع وتصدير الخطاب بالنداء والتنبيه لاظهار كمال العناية بمضمونه والمراد بالباطل مايخالف الشرع كالغصب والسرقة والخيانة والقمار وعقود الربا وغير ذلك ممالم يبحه الشرع أى لايأكل بعضكم أموال بعض بغيرطريق شرعى ﴿الا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾ استثناء منقطع وعن متعلقة بمحذوف وقع صفة لتجارة أى الا أن تكون التجارة تجارة صادرة عن تراض كما فى قوله اذا كان يوما ذا كواكب أشنعا أى اذا كان اليوم يوما الخ أو الا أن تكون الأموال أموال تجارة وقرى تجارة بالرفع على أن كان تامة أى ولكن اقصدوا كون تجارة عن تراض أى وقوعها أو ولكن وجود تجارة عن تراض غير منهى عنه وتخصيصها بالذكر من بين سائر أسباب الملك لكونها معظمها وأغلبها وقوعا وأوفقها لذوى المروءات والمراد بالتراضى مراضاة المتبايعين فيما تعاقدا عليه فى حال المبايعة وقت الايجاب والقبول عندنا وعند الشافعى رحمه الله حالة الافتراق عن مجلس العقد ﴿ولاتقتلوا أنفسكم﴾ أى من كان من جنسكم من المؤمنين فان كلهم كنفس واحدة وعن الحسن لاتقتلوا اخوانكم والتعبير عنهم بالأنفس للمبالغة فى الزجر عن قتلهم بتصويره بصورة مالايكاد يفعله عاقل أو لاتهلكوا أنفسكم بتعريضها للعقاب باقتراف مايفضى اليه فانه القتل الحقيقى لها كما يشعر به ايراده عقيب النهى عن أكل الحرام فيكون مقررا للنهى السابق وقيل لاتقتلوا أنفسكم بالبخع كما يفعله بعض الجهلة أو بارتكاب مايؤدى الى القتل من الجنايات وقيل بالقائها فى التهلكة وأيد بما روى عن عمرو بن العاص أنه تأوله بالتيمم لخوف البرد فلم ينكر عليه النبى عليه الصلاة والسلام وقرى ولاتقتلوا بالتشديد للتكثير وقد جمع فى التوصية بين حفظ النفس وحفظ المال لما أنه شقيقها من حيث أنه سبب لقوامها وتحصيل كمالاتها واستيفاء فضائلها وتقديم النهى عن التعرض له لكثرة وقوعه ﴿ان الله كان بكم رحيما﴾ تعليل للنهى بطريق الاستئناف أى مبالغا فى الرحمة والرأفة ولذلك نهاكم عما نهى فان فى ذلك رحمة عظيمة لكم بالزجر عن المعاصى وللذين هم فى معرض التعرض لهم بحفظ أموالهم وأنفسهم وقيل معناه انه كان بكم ياأمة محمد رحيما حيث أمر بنى اسرائيل بقتلهم أنفسهم ليكون توبة لهم وتمحيصا لخطاياهم ولم يكلفكم تلك التكاليف الشاقة ﴿ومن يفعل ذلك﴾ اشارة الى القتل خاصة أو لما قبله من أكل الأموال ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهما فى الفساد ﴿عدوانا وظلما﴾ أى افراطا فى التجاوز عن الحد واتيانا بما لايستحقه وقيل أريد بالعدوان التعدى على الغير وبالظلم الظلم على النفس بتعريضها للعقاب ومحلهما النصب على الحالية أو على العلية أى معتديا وظالما أو للعدوان والظلم وقرى عدوانا بكسر العين ﴿فسوف نصليه﴾ جواب للشرط أى ندخله وقرى بالتشديد من صلى وبفتح النون من صلاه يصليه ومنه شاة مصلية ويصليه بالياء والضمير لله تعالى أو لذلك من حيث أنه سبب للصلى ﴿نارا﴾ أى نارا مخصوصة هائلة شديدة العذاب ﴿وكان ذلك﴾ أى اصلاؤه النار ﴿على الله يسيرا﴾ لتحقق الداعى وعدم الصارف واظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لتربية المهابة وتأكيد استقلال الاعتراض التذييلى ﴿ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه﴾ أى كبائر الذنوب التى نهاكم الشرع عنها مما ذكر ههنا ومالم يذكر وقرى كبير على ارادة الجنس ﴿نكفر عنكم﴾ بنون العظمة على طريقة الالتفات وقرى بالياء بالاسناد اليه تعالى والتكفير اماطة المستحق من العقاب بثواب أزيد أو بتوبة أى نغفر لكم ﴿سيئاتكم﴾ صغائركم ونمحها عنكم . قال المفسرون الصلاة الى الصلاة والجمعة الى الجمعة ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن من الصغائر اذا اجتنبت الكبائر واختلف فى الكبائر والأقرب أن الكبيرة كل ذنب رتب الشارع عليه الحد أو صرح بالوعيد فيه وقيل ماعلم حرمته بقاطع وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنها سبع الاشراك

بالله تعالى وقتل النفس التى حرمها الله تعالى وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والربا والفرار من الزحف وعقوق الوالدين وعن على رضى الله عنه التعقب بعد الهجرة مكان عقوق الوالدين وزاد ابن عمر رضى الله عنهما السحر واستحلال البيت الحرام وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا قال له الكبائر سبع قال هى الى سبعمائة أقرب منها الى سبع وروى عنه الى سبعين اذ لاصغيرة مع الاصرار ولا كبيرة مع الاستغفار وقيل أريد به أنواع الشرك لقوله تعالى ان الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء وقيل صغر الذنوب وكبرها بالاضافة الى مافوقها وماتحتها وبحسب فاعلها بل بحسب الأوقات والأماكن أيضا فأكبر الكبائر الشرك وأصغر الصغائر حديث النفس ومابينهما وسائط يصدق عليه الأمران فمن عن له أمران منها ودعت نفسه اليهما بحيث لايتمالك فكفها عن أكبرهما كفر عنه ما ارتكبه لما استحق على اجتناب الأكبر من الثواب ﴿وندخلكم مدخلا﴾ بضم الميم اسم مكان هو الجنة ﴿كريما﴾ أى حسنا مرضيا أو مصدر ميمى أى ادخالا مع كرامة وقرى بفتح الميم وهو أيضا يحتمل المكان والمصدر ونصبه على الثانى بفعل مقدر مطاوع للمذكور أى ندخلكم فتدخلون مدخلا أو دخولا كريما كما فى قوله

وعضة دهر يابن مروان لم تدع من المال الا مسحت أومجلف

أى لم تدع فلم يبق الا مسحت الخ ﴿ولاتتمنوا مافضل الله به بعضكم على بعض﴾ أى عليكم ولعل ايثار الابهام عليه للتفادى عن المواجهة بما يشق عليهم . قال القفال لما نهاهم الله تعالى عن أكل أموال الناس بالباطل وقتل الأنفس عقبه بالنهى عما يؤدى اليه من الطمع فى أموالهم وتمنيها وقيل نهاهم ولا عن التعرض لأموالهم بالجوارح ثم عن التعرض لها بالقلب على سبيل الحسد لتطهير أعمالهم الظاهرة والباطنة فالمعنى لاتتمنوا ماأعطاه الله تعالى بعضكم من الأمور الدنيوية كالجاه والمال وغير ذلك مما يجرى فيه التنافس دونكم فان ذلك قسمة من الله تعالى صادرة عن تدبير لائق بأحوال العباد مترتب على الاحاطة بجلائل شئونهم ودقائقها فعلى كل أحد من المفضل عليهم أن يرضى بما قسم الله له ولا يتمنى حظ المفضل ولايحسده عليه لما أنه معارضة لحكم القدر المؤسس على الحكم البالغة لا لأن عدمه خير له ولا لأنه لو كان خلافه لكان مفسدة له كما قيل اذ لايساعده ماسيأتى من الأمر بالسؤال من فضله تعالى فانه ناطق بأن المنهى عنه تمنى نصيب الغير لاتمنى مازاد على نصيبه مطلقا هذا وقد قيل لما جعل الله تعالى فى الميراث للذكر مثل حظ الانثيين قالت النساء نحن أحوج أن يكون لنا سهمان وللرجال سهم واحد لأنا ضعفاء وهم أقوياء وأقدر على طلب المعاش منا فنزلت وهذا هو الانسب بتعليل النهى بقوله عز وجل ﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ فانه صريح فى جريان التمنى بين فريق الرجال والنساء ولعل صيغة المذكر فى النهى لما عبر عنهن بالبعض والمعنى لكل من الفريقين فى الميراث نصيب معين المقدار مما أصابه بحسب استعداده وقد عبر عنه بالاكتساب على طريقة الاستعارة التبعية المبنية على تشبيه اقتضاء حاله لنصيبه باكتسابه اياه تأكيدا لاستحقاق كل منهما لنصيبه وتقوية لاختصاصه به بحيث لايتخطاه الى غيره فان ذلك مما يوجب الانتهاء عن التمنى المذكور وقوله تعالى ﴿واسألوا الله من فضله﴾ عطف على النهى وتوسيط التعليل بينهما لتقرير الانتهاء مع مافيه من الترغيب فى الامتثال بالأمر كأنه قيل لاتتمنوا مايختص بغيركم من نصيبه المكتسب له واسألوا الله تعالى من خزائن نعمه التى لانفادلها وحذف المفعول الثانى للتعميم أى واسألوه ماتريدون فانه تعالى يعطيكموه أو لكونه معلوما من السياق أى واسألوه مثله وقيل من زائدة والتقدير واسألوه فضله وقد جاء فى الحديث لايتمنين أحدكم مال أخيه ولكن ليقل اللهم ارزقنى اللهم أعطنى مثله وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سلوا الله من فضله فانه يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج وحمل النصيب

على الأجر الأخروى وابقاء الاكتساب على حقيقته بجعل سبب النزول لماروى أن أم سلمة رضى الله عنها قالت ليت الله كتب علينا الجهاد كما كتبه على الرجال فيكون لنا من الأجر مثل مالهم على أن المعنى لكل من الفريقين نصيب خاص به من الأجر مترتب على عمله فللرجال أجر بمقابلة مايليق بهم من الأعمال كالجهاد ونحوه وللنساء أجر بمقابلة مايليق بهن من الاعمال كحفظ حقوق الازواج ونحوه فلا تتمن النساء خصوصية أجر الرجال وليسألن من خزائن رحمته تعالى مايليق بحالهن من الأجر لايساعده سياق النظم الكريم المتعلق بالمواريث وفضائل الرجال ﴿ان الله كان بكل شىء عليما﴾ ولذلك جعل الناس على طبقات ورفع بعضهم على بعض درجات حسب مراتب استعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة المبنية على الحكم الأبية ﴿ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون﴾ جملة مبتدأة مقررة لمضمون ماقبلها ولكل مفعول ثان لجعلنا قدم عليه لتأكيد الشمول ودفع توهم تعلق الجعل بالبعض دون البعض كما فى قوله تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا أى ولكل تركة جعلنا ورثة متفاوتة فى الدرجة يلونها ويحرزون منها أنصباءهم بحسب استحقاقهم المنوط بما بينهم وبين المورث من العلاقة ومما ترك بيان لكل قد فصل بينهما بما عمل فيه كما فصل فى قوله تعالى قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والارض بين لفظ الجلالة وبين صفته بالعامل فيما أضيف اليه أعنى غير أو ولكل قوم جعلناهم موالى أى وراثا نصيب معين مغاير لنصيب قوم آخرين مما ترك الوالدان والأقربون على أن جعلنا موالى صفة لكل والضمير الراجع اليه محذوف والكلام مبتدأ وخبر على طريقة قولك لكل من خلقه الله انسانا من رزق الله أى حظ منه وأما ماقيل من أن المعنى لكل أحد جعلنا موالى مما ترك أى وراثا منه على أن من صلة موالى لأنه فى معنى الوراث وفى ترك ضمير مستكن عائد الى كل وقوله تعالى الوالدان والأقربون استئناف مفسر للموالى كأنه قيل من هم فقيل الوالدان الخ ففيه تفكيك للنظم الكريم لأن بيان الموالى بما ذكر يفوت الابهام المصحح لاعتبار التفاوت بينهم وبه يتحقق الانتظام كما أشير اليه فى تقرير الوجهين الاولين مع ما فيه من خروج الاولاد من الموالى اذ لا يتناولهم الأقربون كما لايتناول الوالدين ﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ هم موالى الموالاة كان الحليف يورث السدس من مال حليفه فنسخ بقوله تعالى وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض وعند أبى حنيفة رحمه الله اذا أسلم رجل على يد رجل وتعاقدا على أن يرثه ويعقل عنه صح وعليه عقله وله ارثه ان لم يكن له وارث أصلا واسناد العقد الى الايمان لأن المعتاد هو المماسحة بها عند العقد والمعنى عقدت أيمانكم عهودهم فحذف العهود وأقيم المضاف اليه مقامه ثم حذف وقرىء عقدت بالتشديد وعاقدت بمعنى عاقدتهم أيمانكم وماسحتموهم وهو مبتدأ متضمن لمعنى الشرط ولذلك صدر الخبر أعنى قوله تعالى ﴿فآتوهم نصيبهم﴾ بالفاء أو منصوب بمضمر يفسره مابعده كقولك زيدا فاضربه أو مرفوع معطوف على الوالدان والأقربون وقوله تعالى فآتوهم الخ جملة مبينة للجملة قبلها ومؤكدة لها والضمير للموالى ﴿ان الله كان على كل شىء﴾ من الأشياء التى من جملتها الايتاء والمنع ﴿شهيداً﴾ ففيه وعد ووعيد ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان سبب استحقاق الرجال الزيادة فى الميراث تفصيلا اثر بيان تفاوت استحقاقهم اجمالا وايراد الجملة اسمية والخبر على صيغة المبالغة للايذان بعراقتهم فى الاتصاف بما أسند اليهم ورسوخهم فيه أى شأنهم القيام عليهن بالأمر والنهى قيام الولاة على الرعية وعلل ذلك بأمرين وهبى وكسبى فقيل ﴿بما فضل الله بعضهم على بعض﴾ الباء سببية متعلقة بقوامون أو بمحذوف وقع حالا من ضميره وما مصدرية والضمير البارز لكلا الفريقين تغليبا أى قوامون عليهن بسبب تفضيل الله تعالى اياهم عليهن أو متلبسين بتفضيله تعالى الخ ووضع البعض موضع الضميرين للاشعار بغاية ظهور الأمر وعدم الحاجة الى التصريح بالمفضل والمفضل عليه أصلا ولمثل ذلك لم يصرح بما به التفضيل من

صفات كماله التى هى كمال العقل وحسن التدبير ورزانة الرأى ومزيد القوة فى الأعمال والطاعات ولذلك خصوا بالنبوة والامامة والولاية واقامة الشعائر والشهادة فى جميع القضايا ووجوب الجهاد والجمعة وغير ذلك ﴿وبما أنفقوا من أموالهم﴾ الباء متعلقة بما تعلقت به الأولى وما مصدرية أو موصولة حذف عائدها من الصلة ومن تبعيضية أو ابتدائية متعلقة بأنفقوا أو بمحذوف وقع حالا من العائد المحذوف أى وبسبب انفاقهم من أموالهم أو بسبب ما أنفقوه من أموالهم أو كائنا من أموالهم وهو ما أنفقوه من المهر والنفقة . روى أن سعد بن الربيع أحد نقباء الانصار رضى الله عنهم نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبى زهير فلطمها فانطلق بها أبوها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا فقال عليه السلام لتقتص منه فنزلت فقال عليه السلام أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذى أراده الله خير ﴿فالصالحات﴾ شروع فى تفصيل أحوالهن وبيان كيفية القيام عليهن بحسب اختلاف أحوالهن أى فالصالحات منهن ﴿قانتات﴾ أى مطيعات لله تعالى قائمات بحقوق الأزواج ﴿حافظات للغيب﴾ أى لمواجب الغيب أى لما يجب عليهن حفظه فى حال غيبة الأزواج من الفروج والأموال . عن النبى صلى الله عليه وسلم خير النساء امرأة ان نظرت اليها سرتك وان أمرتها أطاعتك واذا غبت عنها حفظتك فى مالها ونفسها وتلا الآية وقيل لأسرارهم واضافة المال اليها للاشعار بأن ماله فى حق التصرف فى حكم مالها كما فى قوله تعالى ولا تؤتوا السفهاء أموالكم الآية ﴿بما حفظ الله﴾ ما مصدرية أى بحفظه تعالى اياهن بالأمر بحفظ الغيب والحث عليه بالوعد والوعيد والتوفيق له أو موصولة أى بالذى حفظ الله لهن عليهم من المهر والنفقة والقيام بحفظهن والذب عنهن وقرىء بما حفظ الله بالنصب على حذف المضاف أى بالأمر الذى حفظ حق الله تعالى وطاعته وهو التعفف والشفقة على الرجال ﴿واللاتى تخافون نشوزهن﴾ خطاب للازواج وارشاد لهم الى طريق القيام عليهن والخوف حالة تحصل فى القلب عند حدوث أمر مكروه أو عند الظن أو العلم بحدوثه وقد يراد به أحدهما أى تظنون عصيانهن وترفعهن عن مطاوعتكم من النشز وهو المرتفع من الأرض ﴿فعظوهن﴾ فانصحوهن بالترغيب والترهيب ﴿واهجروهن﴾ بعد ذلك ان لم ينفع الوعظ والنصيحة ﴿فى المضاجع﴾ أى فى المراقد فلا تدخلوهن تحت اللحف ولا تباشروهن فيكون كناية عن الجماع وقيل المضاجع المبايت أى لا تبايتوهن وقرىء فى المضجع وفى المضطجع ﴿واضربوهن﴾ ان لم ينجع ما فعلتم من العظة والهجران ضربا غير مبرح ولا شائن ﴿فان أطعنكم﴾ بذلك كما هو الظاهر لأنه منتهى ما يعد زاجراً ﴿فلا تبغوا عليهن سبيلا﴾ بالتوبيخ والاذية أى فأزيلوا عنهن التعرض واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن فان التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿ان الله كان عليا كبيرا﴾ فاحذروه فانه تعالى أقدر عليكم منكم على من تحت أيديكم أو أنه تعالى على علو شأنه يتجاوز عن سيئاتكم ويتوب عليكم عند توبتكم فأنتم أحق بالعفو عن أزواجكم عند اطاعتهن لكم أو أنه يتعالى ويكبر أن يظلم أحدا أو ينقص حقه وعدم التعرض لعدم اطاعتهن لهم للايذان بأن ذلك ليس مما ينبغى أن يتحقق أو يفرض تحققه وأن الذى يتوقع منهن ويليق بشأنهن لا سيما بعد ما كان ما كان من الزواجر هو الاطاعة ولذلك صدرت الشرطية بالفاء المنبئة عن سببية ما قبلها لما بعدها ﴿وان خفتم شقاق بينهما﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى الحكام وارد على بناء الأمر على التقدير المسكوت عنه أعنى عدم الاطاعة المؤدى الى المخاصمة والمرافعة اليهم والشقاق المخالفة اما لأن كلا منهما يريد ما يشق على الآخر واما لأن كلا منهما فى شق أى جانب غير شق الآخر والخوف ههنا بمعنى العلم قاله ابن عباس والجزم بوجود الشقاق لا ينافى بعث الحكمين لأنه لرجاء ازالته لا لتعرف وجوده بالفعل وقيل بمعنى الظن وضمير التثنية للزوجين وان لم يجر لهما ذكر لجرى ما يدل عليهما واضافة الشقاق الى الظرف اما على اجرائه مجرى المفعول به كما فى قوله يا سارق الليلة أو مجرى الفاعل كما فى قولك نهاره صائم أى ان علمتم أو ظننتم تأكد المخالفة

بحيث لا يقدر الزوج على ازالتها ﴿فابعثوا﴾ أى الى الزوجين لاصلاح ذات البين ﴿حكما﴾ رجلا وسطا صالحا للحكومة والاصلاح ﴿من أهله﴾ من أهل الزوج ﴿وحكما﴾ آخر على صفة الاول ﴿من أهلها﴾ فان الأقارب أعرف ببواطن الأحوال وأطلب للصلاح وهذا على وجه الاستحباب فلو نصبا من الأجانب جاز واختلف فى أنهما هل يليان الجمع والتفريق ان رأيا ذلك فقيل لهما ذلك وهو المروى عن على رضى الله عنه وبه قال الشعبى وعن الحسن يجمعان ولا يفرقان وقال مالك لهما أن يتخالعا ان كان الصلاح فيه ﴿ان يريدا﴾ أى الحكمان ﴿اصلاحا﴾ أى ان قصدا اصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله تعالى ﴿يوفق الله بينهما﴾ يوقع بين الزوجين الموافقة والألفة وألقى فى نفوسهما المودة والرأفة وعدم التعرض لذكر عدم ارادتهما الاصلاح لما ذكر من الايذان بأن ذلك ليس مما ينبغى أن يفرض صدوره عنهما وأن الذى يليق بشأنهما ويتوقع صدوره عنهما هو ارادة الاصلاح وفيه مزيد ترغيب للحكمين فى الاصلاح وتحذير عن المساهلة كيلا ينسب اختلال الأمر الى عدم ارادتهما فان الشرطية الناطقة بدوران وجود التوفيق على وجود الارادة منبئة عن دوران عدمه على عدمها وقيل كلا الضميرين للحكمين أى ان قصدا الاصلاح يوفق الله بينهما فتتفق كلمتهما ويحصل مقصودهما وقيل كلاهما للزوجين أى ان أرادا اصلاح ما بينهما من الشقاق أوقع الله تعالى بينهما الألفة والوفاق وفيه تنبيه على أن من أصلح نيته فيما يتوخاه وفقه الله تعالى لمبتغاه ﴿ان الله كان عليما خبيرا﴾ بالظواهر والبواطن فيعلم كيف يرفع الشقاق ويوقع الوفاق ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا﴾ كلام مبتدأ مسوق لبيان الاحكام المتعلقة بحقوق الوالدين والأقارب ونحوهم اثر بيان الاحكام المتعلقة بحقوق الأزواج صدر بما يتعلق بحقوق الله عز وجل التى هى آكد الحقوق وأعظمها تنبيها على جلالة شأن حقوق الوالدين بنظمها فى سلكها كما فى سائر المواقع وشيئاً نصب على أنه مفعول أى لا تشركوا به شيئاً من الأشياء صنما أو غيره أو على أنه مصدر أى لا تشركوا به شيئاً من الاشراك جليا أو خفيا ﴿وبالوالدين احسانا﴾ أى أحسنوا بهما احسانا ﴿وبذى القربى﴾ أى بصاحب القرابة من أخ أو عم أو خال أو نحو ذلك ﴿واليتامى والمساكين﴾ من الأجانب ﴿والجار ذى القربى﴾ أى الذى قرب جواره وقيل الذى له مع الجوار قرب واتصال بنسب أو دين وقرئ بالنصب على الاختصاص تعظيما لحق الجار ذى القربى ﴿والجار الجنب﴾ أى البعيد أو الذى لا قرابة له وعنه عليه الصلاة والسلام الجيران ثلاثة فجار له ثلاثة حقوق حق الجوار وحق القرابة وحق الاسلام وجار له حقان حق الجوار وحق الاسلام وجار له حق واحد وهو حق الجوار وهو الجار من أهل الكتاب وقرئ والجار الجنب ﴿والصاحب بالجنب﴾ أى الرفيق فى أمر حسن كتعلم وتصرف وصناعة وسفر فانه صحبك وحصل بجانبك ومنهم من قعد بجنبك فى مسجد أو مجلس أو غير ذلك من أدنى صحبة التأمت بينك وبينه وقيل هى المرأة ﴿وابن السبيل﴾ هو المسافر المنقطع به أو الضيف ﴿وما ملكت أيمانكم﴾ من العبيد والاماء ﴿ان الله لا يحب من كان مختالا﴾ أى متكبرا يأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت اليهم ﴿فخورا﴾ يتفاخر عليهم والجملة تعليل للامر السابق ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ بضم الباء وسكون الخاء وقرئ بفتح الأول وبفتحهما وبضمهما والموصول بدل من قوله تعالى من كان أو نصب على الذم أو رفع عليه أى هم الذين أو مبتدأ خبره محذوف تقديره الذين يبخلون ويفعلون ويصنعون أحقاء بكل ملامة ﴿ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾ أى من المال والغنى أو من نعوته عليه السلام التى بينها لهم فى التوراة وهو أنسب بأمرهم للناس بالبخل فان أحبارهم كانوا يكتمونها ويأمرون أعقابهم بكتمها ﴿وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا﴾ وضع الظاهر موضع المضمر اشعارا بأن من هذا شأنه فهو كافر بنعمة الله تعالى ومن كان كافرا بنعمة الله تعالى فله عذاب يهينه كما أهان النعمة بالبخل

والاخفاء والآية نزلت فى طائفة من اليهود كانوا يقولون للأنصار بطريق النصيحة لا تنفقوا أموالكم فانا نخشى عليكم الفقر وقيل فى الذين كتموا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبلها ﴿والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس﴾ أى للفخار وليقال ما أسخاهم وما أجودهم لا لابتغاء وجه الله تعالى وهو عطف على الذين يبخلون أو على الكافرين وانما شاركوهم فى الذم والوعيد لأن البخل والسرف الذى هو الانفاق فيما لا ينبغى من حيث أنهما طرفا تفريط وافراط سواء فى القبح واستتباع اللائمة والذم ويجوز أن يكون العطف بناء على اجراء التغاير الوصفى مجرى التغاير الذاتى كما فى قوله

الى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتائب فى المزدحم

أو مبتدأ خبره محذوف يدل عليه قوله تعالى ومن يكن الخ كأنه قيل والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ﴿ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ ليتحروا بالانفاق مراضيه تعالى وثوابه وهم مشركو مكة المنفقون أموالهم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل المنافقون ﴿ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا﴾ أى فقرينهم الشيطان وانما حذف للايذان بظهوره واستغنائه عن التصريح به والمراد به ابليس وأعوانه حيث حملوهم على تلك القبائح وزينوها لهم كما فى قوله تعالى ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ويجوز أن يكون وعيدا لهم بأن الشيطان يقرن بهم فى النار ﴿وماذا عليهم﴾ أى على من ذكر من الطوائف ﴿لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله﴾ أى ابتغاء لوجه الله تعالى وانما لم يصرح به تعويلا على التفصيل السابق واكتفاء بذكر الايمان بالله واليوم الآخر فانه يقتضى أن يكون الانفاق لابتغاء وجهه تعالى وطلب ثوابه البتة أى وما الذى عليهم أو وأى تبعة ووبال عليهم فى الايمان بالله والانفاق فى سبيله وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة والاعتقاد فى الشئ بخلاف ما هو عليه وتحريض على التفكر لطلب الجواب لعله يؤدى بهم الى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة والعوائد الجميلة وتنبيه على أن المدعو الى أمر لا ضرر فيه ينبغى أن يجيب اليه احتياطا فكيف اذا كان فيه منافع لا تحصى وتقديم الايمان بهما لأهميته فى نفسه ولعدم الاعتداد بالانفاق بدونه وأما تقديم انفاقهم رئاء الناس على عدم ايمانهم بهما مع كون المؤخر أقبح من المقدم فلرعاية المناسبة بين انفاقهم ذلك وبين ما قبله من بخلهم وأمرهم للناس به ﴿وكان الله بهم﴾ وبأحوالهم المحققة ﴿عليما﴾ فهو وعيد لهم بالعقاب أو بأعمالهم المفروضة فهو بيان لاثابته تعالى اياهم لو كانوا قد آمنوا وأنفقوا كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿ان الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ المثقال مفعال من الثقل كالمقدار من القدر وانتصابه على أنه نعت للمفعول قائم مقامه سواء كان الظلم بمعنى النقص أو بمعنى وضع الشئ فى غير موضعه أى لا ينقص من الأجر ولا يزيد فى العقاب شيئاً مقدار ذرة أو على أنه نعت للمصدر المحذوف نائب منابه أى لا يظلم ظلما مقدار ذرة وهى النملة الصغيرة أو كل جزء من أجزاء الهباء فى الكوة وهو الانسب بمقام المبالغة فان قلته فى الثقل أظهر من قلة النملة فيه وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه أدخل يده فى التراب ثم نفخ فيه فقال كل واحدة من هؤلاء ذرة ﴿وان تك حسنة﴾ أى وان تك مثقال ذرة حسنة أنث لتأنيث الخبر أو لاضافته الى الذرة وحذف النون من غير قياس تشبيها بحروف العلة وتخفيفا لكثرة الاستعمال وقرئ حسنة بالرفع على أن كان تامة ﴿يضاعفها﴾ أى يضاعف ثوابها جعل ذلك مضاعفة لنفس الحسنة تنبيها على كمال الاتصال بينهما كأنهما شئ واحد وقرئ يضعفها وكلاهما بمعنى واحد وقرئ نضاعفها بنون العظمة على طريقة الالتفات . عن عثمان النهدى أنه قال لأبى هريرة رضى الله عنه بلغنى عنك أنك تقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله تعالى يعطى عبده المؤمن بالحسنة ألف ألف حسنة قال أبو هريرة لا بل سمعته صلى الله عليه وسلم يقول يعطيه ألفى ألف حسنة ثم تلا هذه الآية الكريمة والمراد الكثرة لا التحديد ﴿ويؤت من لدنه﴾ ويعط صاحبها من عنده على نهج التفضل زائدا على

ما وعده فى مقابلة العمل ﴿أجرا عظيما﴾ عطاء جزيلا وانما سماه أجرا لكونه تابعا للأجر مزيدا عليه ﴿فكيف﴾ محلها اما الرفع على أنها خبر لمبتدا محذوف واما النصب بفعل محذوف على التشبيه بالحال كما هو رأى سيبويه أو على التشبيه بالظرف كما هو رأى الاخفش أى فكيف حال هؤلاء الكفرة من اليهود والنصارى وغيرهم أو كيف يصنعون ﴿اذا جئنا﴾ يوم القيامة ﴿من كل أمة﴾ من الامم ﴿بشهيد﴾ يشهد عليهم بما كانوا عليه من فساد العقائد وقبائح الاعمال وهو نبيهم كما فى قوله تعالى وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم والعامل فى الظرف مضمون المبتدا والخبر من هول الامر وعظم الشان أو الفعل المقدر ومن متعلقة بجئنا ﴿وجئنا بك﴾ يامحمد ﴿على هؤلاء﴾ اشارة الى الشهداء المدلول عليهم بما ذكر ﴿شهيدا﴾ تشهد على صدقهم لعلمك بعقائدهم لاستجماع شرعك لمجامع قواعدهم وقيل الى المكذبين المستفهم عن حالهم تشهد عليهم بالكفر والعصيان كما يشهد سائر الانبياء على أممهم وقيل الى المؤمنين كما فى قوله تعالى لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴿يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول﴾ استئناف لبيان حالهم التى أشير الى شدتها وفظاعتها بقوله تعالى فكيف فان أريد بهم المكذبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فالتعبير عنهم بالموصول لاسيما بعد الاشارة اليهم بهؤلاء لذمهم بما فى حيز الصلة والاشعار بعلة مااعتراهم من الحال الفظيعة والامر الهائل وايراده عليه السلام بعنوان الرسالة لتشريفه وزيادة تقبيح حال مكذبيه فان حق الرسول أن يؤمن به ويطاع لا أن يكفر به ويعصى وان أريد بهم جنس الكفرة فهم داخلون فى زمرتهم دخولا أوليا والمراد بالرسول حينئذ الجنس المنتظم للنبى عليه السلام انتظاما أوليا وأياما كان ففيه من تهويل الامر وتفظيع الحال مالا يقادر قدره وقوله تعالى وعصوا عطف على كفروا داخل معه فى الصلة والمراد معاصيهم المغايرة لكفرهم ففيه دلالة على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع فى حق المؤاخذة وقيل حال من ضمير كفروا وقيل صلة لموصول آخر أى يود فى ذلك اليوم الذين جمعوا بين الكفر وعصيان الرسول أو الذين كفروا وقد عصوا الرسول أو الذين كفروا والذين عصوا الرسول ولو فى قوله تعالى ﴿لو تسوى بهم الارض﴾ ان جعلت مصدرية فالجملة مفعول ليود أى يودون أن يدفنوا فتسوى بهم الارض كالموتى وقيل يودون أنهم لم يبعثوا أولم يخلقوا وكأنهم والارض سواء وقيل تصير البهائم ترابا فيودون حالها وان جعلت جارية على بابها فالمفعول محذوف لدلالة الجملة عليه أى يودون تسوية الارض بهم وجواب لو أيضا محذوف ايذانا بغاية ظهوره أى لسروا بذلك وقوله تعالى ﴿ولا يكتمون الله حديثا﴾ عطف على يود أى ولا يقدرون على كتمانه لان جوارحهم تشهد عليهم وقيل الواو للحال أى يودون أن يدفنوا فى الارض وهم لا يكتمون منه تعالى حديثا ولا يكذبونه بقولهم والله ربنا ما كنا مشركين اذ روى أنهم اذا قالوا ذلك ختم الله على أفواههم فتشهد عليهم جوارحهم فيشتد الامر عليهم فيتمنون أن تسوى بهم الارض وقرئ تسوى على أن أصله تتسوى فأدغم التاء فى السين وقرئ تسوى بحذف التاء الثانية يقال سويته فتسوى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون﴾ لما نهوا فيما سلف عن الاشراك به تعالى نهوا ههنا عما يؤدى اليه من حيث لا يحتسبون فانه روى أن عبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه صنع طعاما وشرابا حين كانت الخمر مباحة فدعا نفرا من الصحابة رضى الله عنهم فاكلوا وشربوا حتى ثملوا وجاء وقت صلاة المغرب فتقدم أحدهم ليصلى بهم فقرأ أعبد ماتعبدون فنزلت وتصدير الكلام بحرف النداء والتنبيه للمبالغة فى حملهم على العمل بموجب النهى وتوجيه النهى الى قربان الصلاة مع أن المراد هو النهى عن اقامتها للمبالغة فى ذلك وقيل المراد النهى عن قربان المساجد لقوله عليه السلام جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم ويأباه قوله تعالى حتى تعلموا ماتقولون فالمعنى لا تقيموها فى حالة السكر حتى تعلموا قبل الشروع ماتقولونه اذ بتلك التجربة يظهر

أنهم يعلمون ما سيقرؤنه فى الصلاة وحمل ما تقولون على مافى الصلاة يستدعى تقدم الشروع فيها على غاية النهى وحمل العلم على ما بالقوة على معنى حتى تكونوا بحيث تعلمون ما ستقرؤنه فى الصلاة تطويل بلا طائل لان تلك الحيثية انما تظهر بما ذكر من التجربة على أن ايثار ما تقولون على ماتقرؤن حينئذ يكون عاريا عن الداعى وقيل المراد بالسكر سكر النعاس وغلبة النوم وأياما كان فليس مرجع النهى هو المقيد مع بقاء القيد مرخصا بحاله بل انما هو القيد مع بقاء المقيد على حاله ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا كأنه قيل ياأيها الذين آمنوا لا تسكروا فى أوقات الصلاة وقد روى أنهم كانوا بعد مانزلت الآية لا يشربون الخمر فى أوقات الصلاة فاذا صلوا العشاء شربوها فلا يصبحون الا وقد ذهب عنهم السكر وعلموا مايقولون ﴿ولا جنبا﴾ عطف على قوله تعالى وأنتم سكارى فانه فى حيز النصب كأنه قيل لا تقربوا الصلاة سكارى ولا جنبا والجنب من أصابه الجنابة يستوى فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع لجريانه مجرى المصدر ﴿الا عابرى سبيل﴾ استثناء مفرغ من أعم الاحوال محله النصب على أنه حال من ضمير لا تقربوا باعتبار تقيده بالحال الثانية دون الأولى والعامل فيه فعل النهى أى لا تقربوا الصلاة جنبا فى حال من الأحوال الا حال كونكم مسافرين على معنى أن فى حالة السفر ينتهى حكم النهى لكن لا بطريق شمول النفى لجميع صورها بل بطريق نفى الشمول فى الجملة من غير دلالة على انتفاء خصوصية البعض المنتفى ولا على بقاء خصوصية البعض الباقى ولا على ثبوت نقيضه لا كليا ولا جزئيا فان الاستثناء لا يدل على ذلك عبارة نعم يشير الى مخالفة حكم مابعده لما قبله اشارة اجمالية يكتفى بها فى المقامات الخطابية لا فى اثبات الأحكام الشرعية فان ملاك الأمر فى ذلك انما هو الدليل وقد ورد عقيبه على طريقة البيان وقيل هو صفة لجنبا على أن الا بمعنى غير أى ولا جنبا غير عابرى سبيل ومن حمل الصلاة على مواضعها فسر العبور بالاجتياز بها وجوز للجنب عبور المسجد وبه قال الشافعى رحمه الله وعندنا لا يجوز ذلك الا أن يكون الماء أو الطريق فيه وقيل ان رجالا من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد وكان يصيبهم الجنابة ولا يجدون ممرا الا فى المسجد فرخص لهم ذلك ﴿حتى تغتسلوا﴾ غاية للنهى عن قربان الصلاة حالة الجنابة ولعل تقديم الاستثناء عليه للايذان من أول الأمر بأن حكم النهى فى هذه الصورة ليس على الاطلاق كما فى صورة السكر تشويقا الى البيان وروما لزيادة تقرره فى الأذهان وفى الآية الكريمة اشارة الى أن المصلى حقه أن يتحرز عما يلهيه ويشغل قلبه وأن يزكى نفسه عما يدنسها ولا يكتفى بأدنى مراتب التزكية عند امكان أعاليها ﴿وان كنتم مرضى﴾ شروع فى تفصيل ما أجمل فى الاستثناء وبيان ماهو فى حكم المستثنى من الاعذار والاقتصار فيما قبل على استثناء السفر مع مشاركة الباقى له فى حكم الترخيص للاشعار بأنه العذر الغالب المنبئ عن الضرورة التى عليها يدور أمر الرخصة كأنه قيل ولا جنبا الا مضطرين واليه مرجع ماقيل من أنه جعل عابرى سبيل كناية عن مطلق المعذورين والمراد بالمرض مايمنع من استعمال الماء مطلقا سواء كان ذلك بتعذر الوصول اليه أو بتعذر استعماله ﴿أو على سفر﴾ عطف على مرضى أى أو كنتم على سفر ماطال أو قصر وايراده صريحا مع سبق ذكره بطريق الاستثناء لبناء الحكم الشرعى عليه وبيان كيفيته فان الاستثناء كما أشير اليه بمعزل من الدلالة على ثبوته فضلا عن الدلالة على كيفيته وتقديم المرض عليه للايذان بأصالته واستقلاله بأحكام لا توجد فى غيره كالاشتداد باستعمال الماء ونحوه ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ هو المكان الغائر المطمئن والمجىء منه كناية عن الحدث لأن المعتاد أن من يريده يذهب اليه ليوارى شخصه عن أعين الناس واسناد المجىء منه الى واحد مبهم من المخاطبين دونهم للتفادى عن التصريح بنسبتهم الى مايستحيا منه أو يستهجن التصريح به وكذلك ايثار الكناية فيما عطف عليه من قوله عز وجل ﴿أو لامستم النساء﴾ على التصريح بالجماع ونظمهما فى سلك سببى سقوط الطهارة والمصير الى التيمم مع كونهما سببى وجوبها ليس باعتبار أنفسهما بل باعتبار قيدهما

المستفاد من قوله تعالى ﴿فلم تجدوا ماء﴾ بل هو السبب فى الحقيقة وانما ذكر تمهيدا له وتنبيها على أنه سبب للرخصة بعد انعقاد سبب الطهارة الصغرى والكبرى كأنه قيل أولم تكونوا مرضى أومسافرين بل كنتم فاقدين للماء بسبب من الأسباب مع تحقق مايوجب استعماله وتخصيص ذكره بهذه الصورة مع أنه معتبر فى صورة المرض والسفر أيضا لندرة وقوعه فيهما واستغنائهما عن ذكره امالأن الجنابة معتبرة فيهما قطعا فيعلم من حكمها حكم الحدث الأصغر بدلالة النص لان تقدير النظم لاتقربوا الصلاة فى حال الجنابة الاحال كونكم مسافرين فان كنتم كذلك أو كنتم مرضى الخ واما لما قيل من أن عموم اعواز الماء فى حق المسافر غالب والعجز عن استعمال الماء القائم مقام عدمه فى حق المريض مغن عن ذكره لفظا وماقيل من أن هذا القيد راجع الى الكل وأن قيد وجوب التطهر المكنى عنه بالمجيء من الغائط والملامسة معتبر فى الكل مما لايساعده النظم الكريم ﴿فتيمموا صعيدا طيبا﴾ فتعمدوا شيأ من وجه الأرض طاهرا قال الزجاج الصعيد وجه الأرض ترابا أوغيره وان كان صخرا لاتراب عليه لوضرب المتيمم يده عليه ومسح لكان ذلك طهوره وهو مذهب أبى حنيفة رحمه الله وعند الشافعى رحمه الله لابد أن يعلق باليد شيء من التراب ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾ أى الى المرفقين لما روى أنه عليه السلام تيمم ومسح يديه الى مرفقيه ولأنه بدل من الوضوء فيتقدر بقدره ﴿ان الله كان عفوا غفورا﴾ تعليل للترخيص والتيسير وتقرير لهما فان من عادته المستمرة أن يعفو عن الخاطئين و يغفر للمذنبين لابد أن يكون ميسرا لامعسرا وقيل هو كناية عنهما فان الترفيه والمسامحة من روادف العفو وتوابع الغفران ﴿ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب﴾ كلام مستأنف مسوق لتعجيب المؤمنين من سوء حالهم والتحذير عن موالاتهم والخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية من المؤمنين وتوجيهه اليه ههنا مع توجيهه فيما بعد الى الكل معا للايذان بكمال شهرة شناعة حالهم وأنها بلغت من الظهور الى حيث يتعجب منها كل من يراها والرؤية بصرية أى ألم تنظر اليهم فانهم أحقاء أن تشاهدهم وتتعجب من أحوالهم وتجويز كونها قلبية على أن الى لتضمنها معنى الانتهاء لما فعلوه يأباه مقام تشهير شنائعهم ونظمها فى سلك الأمور المشاهدة والمراد بهم أحبار اليهود. روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت فى حبرين من أحبار اليهود كانا يأتيان رأس المنافقين عبد الله بن أبى و رهطه يثبطانهم عن الاسلام وعنه رضى الله عنه أيضا أنها نزلت فى رفاعة بن زيد ومالك بن دخشم كانا اذا تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم لويا لسانهما وعاباه والمراد بالكتاب هو التوراة وحمله على جنس الكتاب المنتظم لها انتظاما أوليا تطويل للمسافة و بالذى أوتوه مابين لهم فيها من الأحكام والعلوم التى من جملتها ما علموه من نعوت النبى صلى الله عليه وسلم وحقية الاسلام والتعبير عنه بالنصيب المنبيء عن كونه حقا من حقوقهم التى يجب مراعاتها والمحافظة عليها للايذان بكمال ركاكة آرائهم حيث ضيعوه تضييعا وتنوينه تفخيمى مؤيد للتشنيع عليهم والتعجيب من حالهم فالتعبير عنهم بالموصول للتنبيه بما فى حيز الصلة على كمال شناعتهم والاشعار بمكان ماطوى ذكره فى المعاملة المحكية عنهم من الهدى الذى هو أحد العوضين وكلمة من متعلقة اما بأوتوا أو بمحذوف وقع صفة لنصيبا مبينة لفخامته الاضافية اثر بيان فخامته الذاتية أى نصيبا كائنا من الكتاب وقوله تعالى ﴿يشترون الضلالة﴾ قيل هو حال مقدرة من واو أوتوا ولا ريب فى أن اعتبار تقدير اشترائهم المذكور فى الايتاء مما لايليق بالمقام وقيل هو حال من الموصول أى ألم تنظر اليهم حال اشترائهم وأنت خبير بأنه خال عن افادة أن مادة التشنيع والتعجيب هو الاشتراء المذكور وماعطف عليه والذى تقتضيه جزالة النظم الكريم أنه استئناف مبين لمناط التشنيع ومدار التعجيب المفهومين من صدر الكلام على وجه الاجمال والابهام مبنى على سؤال نشأ منه كأنه قيل ماذا يصنعون حتى ينظر اليهم فقيل يأخذون الضلالة و يتركون ماأوتوه من الهداية وانما طوى ذكر المتروك لغاية ظهور

الأمر لاسيما بعد الاشعار المذكور والتعبير عن ذلك بالاشتراء الذى هو عبارة عن استبدال السلعة بالثمن أى أخذها بدلا منه أخذا ناشئا عن الرغبة فيها والاعراض عنه للايذال بكمال رغبتهم فى الضلالة التى حقها أن يعرض عنها كل الاعراض واعراضهم عن الهداية التى يتنافس فيها المتنافسون وفيه من التسجيل على نهاية سخافة عقولهم وغاية ركاكة آرائهم مالايخفى حيث صورت حالهم بصورة مالا يكاد يتعاطاه أحد ممن له أدنى تمييز وليس المراد بالضلالة جنسها الحاصل لهم من قبل حتى يخل بمعنى الاشتراء المنبيء عن تأخرها عنه بل هو فردها الكامل وهو عنادهم وتماديهم فى الكفر بعد ماعلموا بشأن النبي عليه السلام وتيقنوا بحقية دينه وأنه هو النبي العربى المبشر به فى التوراة ولاريب فى أن هذه الرتبة لم تكن حاصلة لهم قبل ذلك وقد مر فى أوائل سورة البقرة ﴿ويريدون﴾ عطف على يشترون شريك له فى بيان محل التشنيع والتعجيب وصيغة المضارع فيهما للدلالة على الاستمرار التجددى فان تجدد حكم اشترائهم المذكور وتكرر العمل بموجبه فى قوة تجدد نفسه وتكرره أى لايكتفون بضلال أنفسهم بل يريدون بما فعلوا من كتمان نعوته عليه السلام ﴿أن تضلوا﴾ أنتم أيضا أيها المؤمنون ﴿السبيل﴾ المستقيم الموصل الى الحق ﴿والله أعلم﴾ أى منكم ﴿بأعدائكم﴾ جميعا ومن جملتهم هؤلاء وقد أخبركم بعداوتهم لكم ومايريدون بكم لتكونوا على حذر منهم ومن مخالطتهم أوهو أعلم بحالهم ومآل أمرهم والجملة معترضة لتقرير ارادتهم المذكورة ﴿وكفى بالله وليا﴾ فى جميع أموركم ومصالحكم ﴿وكفى بالله نصيرا﴾ فى كل المواطن فثقوا به واكتفوا بولايته ونصرته ولاتتولوا غيره أو لاتبالوا بهم وبما يسومونكم من السوء فانه تعالى يكفيكم مكرهم وشرهم ففيه وعد ووعيد والباء مزيدة فى فاعل كفى لتأكيد الاتصال الاسنادى بالاتصال الاضافى وتكرير الفعل فى الجملتين مع اظهار الجلالة فى مقام الاضمار لاسيما فى الثانى لتقوية استقلالهما المناسب للاعتراض وتأكيد كفايته عز وجل فى كل من الولاية والنصرة والاشعار بعليتهما فان الألوهية من موجباتهما لامحالة ﴿من الذين هادوا﴾ قيل هو بيان لاعدائكم ومابينهما اعتراض وفيه أنه لاوجه لتخصيص علمه سبحانه بطائفة من أعدائهم لاسيما فى معرض الاعتراض الذى حقه العموم والاطلاق وانتظام ماهو المقصود فى المقام انتظاما أوليا كما أشير اليه وقيل هو صلة لنصيرا أى ينصركم من الذين هادوا كما فى قوله تعالى فمن ينصرنى من الله وفيه مافيه من تحجير واسع نصرته عز وجل مع أنه لاداعى الى وضع الموصول موضع ضمير الأعداء لأن مافى حيز الصلة ليس بوصف ملائم للنصر وقيل هو خبر مبتدا محذوف وقع قوله تعالى ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ صفة له أى من الذين هادوا قوم أو فريق يحرفون الخ وفيه أنه يقتضى كون الفريق السابق بمعزل من التحريف الذى هو المصداق لاشترائهم فى الحقيقة فالذى يليق بشأن التنزيل الجليل أنه بيان للموصول الأول المتناول بحسب المفهوم لأهل الكتابين قد وسط بينهما ماوسط لمزيد الاعتناء ببيان محل التشنيع والتعجيب والمسارعة الى تنفير المؤمنين منهم وتحذيرهم عن مخالطتهم والاهتمام بحملهم على الثقة بالله عز وجل والاكتفاء بولايته ونصرته وأن قوله تعالى يحرفون وماعطف عليه بيان لاشترائهم المذكور وتفصيل لفنون ضلالتهم وقد روعيت فى النظم الكريم طريقة التفسير بعد الابهام والتفصيل اثر الاجمال روما لزيادة تقرير يقتضيه الحال والكلم اسم جنس واحده كلمة كتمر وتمرة وتذكير ضميره باعتبار افراده لفظا وجمعية مواضعه باعتبار تعدده معنى وقرىء بكسر الكاف وسكون اللام جمع كلمة تخفيف كلمة وقرىء يحرفون الكلام والمراد به ههنا امامافى التوراة خاصة واماماهو أعم منه ومما سيحكى عنهم من الكلمات المعهودة الصادرة عنهم فى أثناء المحاورة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولامساغ لارادة تلك الكلمات خاصة بأن يجعل عطف قوله تعالى ﴿ويقولون سمعنا وعصينا﴾ الخ على ماقبله عطفا تفسيريا لما ستقف على سره فان أريد به

الأول كما هو رأى الجمهور فتحريفه ازالته عن مواضعه التى وضعه الله تعالى فيها من التوراة كتحريفهم فى نعت النبى عليه السلام أسمر ربعة عن موضعه فى التوراة بأن وضعوا مكانه آدم طوال و كتحريفهم الرجم بوضعهم بدله الحد أوصرفه عن المعنى الذى أنزله الله تعالى فيه الى مالاصحة له بالتأويلات الزائغة الملائمة لشهواتهم الباطلة وان أريد به الثانى فلابد من أن يراد بمواضعه مايليق به مطلقا سواء كان ذلك بتعيينه تعالى صريحا كمواضع مافى التوراة أو بتعيين العقل أوالدين كمواضع غيره وأيا ما كان فقولهم سمعنا وعصينا ينبغى أن يجرى على اطلاقه من غير تقييد بزمان أو مكان ولاتخصيص بمادة دون مادة بل وأن يحمل على ماهو أعم من القول الحقيقى ومما يترجم عنه عنادهم ومكابرتهم ليندرج فيه مانطقت به ألسنة حالهم عند تحريف التوراة فان من لايتفوه بتلك العظيمة لايكاد يتجاسر على مثل هذه الجناية والاخمله على ماقالوه فى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم من القبائح خاصة يستدعى اختصاص حكم الشرطية الآتية ومابعدها بهن من غير تعرض لتحريفهم التوراة مع أنه معظم جناياتهم المعدودة ومن ههنا انكشف لك السر الموعود فتأمل أى يقولون فى كل أمر مخالف لأهوائهم الفاسدة سواء كان بمحضر النبى صلى الله عليه وسلم أو لا بلسان المقال أو الحال سمعنا وعصينا عنادا وتحقيقا للمخالفة وقوله تعالى ﴿واسمع غير مسمع﴾ عطف على سمعنا وعصينا داخل تحت القول أى ويقولون ذلك فى أثناء مخاطبته عليه السلام خاصة وهو كلام ذو وجهين محتمل للشر بأن يحمل على معنى اسمع حال كونك غير مسمع كلاما أصلا بصمم أو موت أى مدعوا عليك بلاسمعت أو غير مسمع كلاما ترضاه فحينئذ يجوز أن يكون نصبه على المفعولية وللخير بأن يحمل على اسمع منا غير مسمع مكروها كانوا يخاطبون به النبى صلى الله عليه وسلم استهزاء به مظهرين له عليه السلام ارادة المعنى الاخير وهم مضمرون فى أنفسهم المعنى الاول مطمئنون به ﴿وراعنا﴾ عطف على اسمع غير مسمع أى ويقولون فى أثناء خطابهم له عليه السلام هذا أيضا يوردون كلا من العظائم الثلاث فى مواقعها وهى أيضا كلمة ذات وجهين محتملة للخير بحملها على معنى ارقبنا وانظرنا نكلمك وللشر بحملها على السب بالرعونة أى الحمق أو باجرائها مجرى ما يشبهها من كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها وهى راعينا كانوا يخاطبونه عليه السلام بذلك ينوون الشتيمة والاهانة ويظهرون التوقير والاحترام ومصيرهم الى مسلك النفاق فى القولين الأخيرين مع تصريحهم بالعصيان فى الأول لما قالوا من أن جميع الكفرة كانوا يواجهونه بالكفر والعصيان ولا يواجهونه بالسب ودعاء السوء وقيل كانوا يقولون الاول فيما بينهم وقيل يجوز أن لاينطقوا بذلك ولكنهم لمالم يؤمنوا به جعلوا كأنهم نطقوا به ﴿ليا بألسنتهم﴾ أى فتلا بها وصرفا للكلام عن نهجه الى نسبة السب حيث وضعوا غير مسمع موضع لاأسمعت مكروها وأجروا راعنا المشابهة لراعينا مجرى انظرنا أو فتلا بها وضما لما يظهرونه من الدعاء والتوقير الى ما يضمرونه من السب والتحقير ﴿وطعنا فى الدين﴾ أى قدحا فيه بالاستهزاء والسخرية وانتصابهما على العلية ليقولون باعتبار تعلقه بالقولين الاخيرين أى يقولون ذلك لصرف الكلام عن وجهه الى السب والطعن فى الدين أو على الحالية أى لاوين وطاعنين فى الدين ﴿ولو أنهم﴾ عندما سمعوا شيئا من أوامر الله تعالى ونواهيه ﴿قالوا﴾ بلسان المقال أو بلسان الحال مكان قولهم سمعنا وعصينا ﴿سمعنا وأطعنا﴾ انما أعيد سمعنا مع أنه متحقق فى كلامهم وانما الحاجة الى وضع أطعنا مكان عصينا لا للتنبيه على عدم اعتباره بل على اعتبار عدمه كيف لا وسماعهم سماع الرد ومرادهم بحكايته اعلام أن عصيانهم للامر بعد سماعه والوقوف عليه فلابد من ازالته واقامة سماع القبول مقامه ﴿واسمع﴾ أى لو قالوا عند مخاطبة النبى عليه الصلاة والسلام بدل قولهم اسمع غير مسمع اسمع ﴿وانظرنا﴾ أى ولو قالوا ذلك بدل قولهم راعنا ولم يدسوا تحت كلامهم شرا وفسادا أى لو ثبت

أنهم قالوا هذا مكان ماقالوا من الاقوال ﴿لكان﴾ قولهم ذلك ﴿خيرا لهم﴾ مما قالوا ﴿وأقوم﴾ أى أعدل وأسد فى نفسه وصيغة التفضيل اما على بابها واعتبار أصل الفضل فى المفضل عليه بناء على اعتقادهم أو بطريق التهكم واما بمعنى اسم الفاعل وانما قدم فى البيان حاله بالنسبة اليهم على حاله فى نفسه لأن هممهم مقصورة على ماينفعهم ﴿ولكن لعنهم الله بكفرهم﴾ أى ولكن لم يقولوا ذلك واستمروا على كفرهم فخذلهم الله تعالى وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم بذلك ﴿فلايؤمنون﴾ بعدذلك ﴿الا قليلا﴾ قيل أى الا ايمانا قليلا لايعبأ به وهو الايمان ببعض الكتب والرسل أو الا زمانا قليلا وهو زمان الاحتضار فانهم يؤمنون حين لا ينفعهم الايمان قال تعالى وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته و كلاهما ليس بايمان قطعا وقد جوز أن يراد بالقلة العدم بالكلية على طريقة قوله تعالى لايذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى أى ان كان الايمان المعدوم ايمانا فهم يحدثون شيئا من الايمان فهو فى المعنى تعليق بالمحال وأنت خبير بأن الكل يأباه مايعقبه من الامر بالايمان بالقرآن الناطق بهذا لافضائه الى التكليف بالمحال الذى هو ايمانهم بعدم ايمانهم المستمر أما على الوجه الأخير فظاهر وأما على الأولين فلأن أمرهم بالايمان المنجز بجميع الكتب والرسل تكليف لهم بايمانهم بعدم ايمانهم ببعض الكتب والرسل و بعدم ايمانهم الى وقت الاحتضار فالوجه أن يحمل القليل على من يؤمن بعد ذلك لكن لايجعل المستثنى منه ضمير الفاعل فى لا يؤمنون لافضائه الى وقوع ايمان من لعنه الله تعالى وخذله مع مافيه من نسبة القراء الى الاتفاق على غير المختار بل بجعله ضمير المفعول فى لعنهم أى ولكن لعنهم الله الا فريقا قليلا فانه تعالى لم يلعنهم فلم ينسد عليهم باب الايمان وقد آمن بعد ذلك فريق من الاحبار كعبد الله بن سلام و كعب وأضرابهما كما سيأتى ﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له اما الى من حكيت أحوالهم وأقوالهم خاصة بطريق الالتفات و وصفهم تارة بايتاء الكتاب أى التوراة وأخرى بايتاء نصيب منها لتوفية كل من المقامين حقه فان المقصود فيما سبق بيان أخذهم الضلالة وازالة ماأوتوه بمقابلتها بالتحريف وليس ماأزالوه بذلك كلها حتى يوصفوا بايتائه بل هو بعضها فوصفوا بايتائه وأما ههنا فالمقصود تأكيد ايجاب الامتثال بالامر الذى يعقبه والتحذير عن مخالفته من حيث أن الايمان بالمصدق موجب للايمان بما يصدقه والكفر بالثانى مقتض للكفر بالاول قطعا ولا ريب فى أن المحذور عندهم انما هو لزوم الكفر بالتوراة نفسها لا ببعضها وذلك انما يتحقق بجعل القرآن مصدقا لكلها وان كان مناط التصديق بعضا منها ضرورة أن مصدق البعض مصدق للكل المتضمن له حتما واما اليهم والى غيرهم قاطبة وهو الاظهر وأيا ما كان فتفصيل مافصل لما كان من مظان اقلاع كل من الفريقين عما كانوا عليه من الضلالة عقب ذلك بالامر بالمبادرة الى سلوك محجة الهداية مشفوعا بالوعيد الشديد على المخالفة فقيل ﴿آمنوا بما نزلنا﴾ من القرآن عبر عنه بالموصول تشريفا له بما فى حيز الصلة وتحقيقا لكونه من عنده عز وجل ﴿مصدقا لما معكم﴾ من التوراة عبر عنها بذلك للايذان بكمال وقوفهم على حقيقة الحال فان المعية المستدعية لدوام تلاوتها وتكرر المراجعة اليها من موجبات العثور على مافى تضاعيفها المؤدى الى العلم بكون القرآن مصدقا لها ومعنى تصديقه اياها نزوله حسبما نعت لهم فيها أو كونه موافقا لها فى القصص والمواعيد والدعوة الى التوحيد والعدل بين الناس والنهى عن المعاصى والفواحش وأما ما يترامى من مخالفته لها فى جزئيات الاحكام بسبب تفاوت الامم والاعصار فليست بمخالفة فى الحقيقة بل هى عين الموافقة من حيث أن كلا منها حق بالاضافة الى عصره متضمن للحكمة التى عليها يدور فلك التشريع حتى لو تأخر نزول المتقدم لنزل على وفق المتأخر ولو تقدم نزول المتأخر لوافق المتقدم قطعا ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لو كان موسى حيا لما وسعه الا اتباعى ﴿من قبل أن نطمس وجوها﴾ متعلق

بالأمر مفيد للمسارعة الى الامتثال به والجد فى الانتهاء عن مخالفته بما فيه من الوعيد الشديد الوارد على أبلغ وجه وآكده حيث لم يعلق وقوع المتوعد به بالمخالفة ولم يصرح بوقوعه عندها تنبيها على أن ذلك أمر محقق غنى عن الاخبار به وأنه على شرف الوقوع متوجه نحو المخاطبين وفى تنكير الوجوه المفيد للتكثير تهويل للخطب وفى ابهامها لطف بالمخاطبين وحسن استدعاء لهم الى الايمان وأصل الطمس محو الآثار وازالة الاعلام أى آمنوا من قبل أن نمحو تخطيط صورها ونزيل آثارها قال ابن عباس رضى الله عنهما نجعلها كخف البعير أو كحافر الدابة وقال قتادة والضحاك نعميها كقوله تعالى فطمسنا أعينهم وقيل نجعلها منابت الشعر كوجوه القردة ﴿فنردها على أدبارها﴾ فنجعلها على هيئة أدبارها وأقفائها مطموسة مثلها فالفاء للتسبيب أو ننكسها بعد الطمس فنردها الى موضع الاقفاء والاقفاء الى موضعها وقد اكتفى بذكر أشدهما فالفاء للتعقيب وقيل المراد بالوجوه الوجهاء على أن الطمس بمعنى مطلق التغيير أى من قبل أن نغير أحوال وجهائهم فنسلب اقبالهم ووجاهتهم ونكسوهم صغارا وادبارا أو نردهم من حيث جاؤا منه وهى أذرعات الشأم فالمراد بذلك اجلاء بنى النضير ولا يخفى أنه لا يساعده مقام تشديد الوعيد وتعميم التهديد للجميع فالوجه ماسبق من الوجوه وقد اختلف فى أن الوعيد هل كان بوقوعه فى الدنيا أو فى الآخرة فقيل كان بوقوعه فى الدنيا ويؤيده ماروى أن عبدالله بن سلام رضى الله تعالى عنه لما قدم من الشأم وقد سمع هذه الآية أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يأتى أهله فأسلم وقال يارسول الله ما كنت أرى أن أصل اليك حتى يتحول وجهى الى قفاى وفى رواية جاء الى النبى عليه الصلاة والسلام ويده على وجهه وأسلم وقال ماقال وكذا ماروى أن عمر رضى الله عنه قرأ هذه الآية على كعب الاحبار فقال كعب يارب آمنت يارب أسلمت مخافة أن يصيبه وعيدها ثم اختلفوا فقيل انه منتظر بعد ولا بد من طمس فى اليهود ومسخ وهو قول المبرد وفيه أن انصراف العذاب الموعود عن أوائلهم وهم الذين باشروا أسباب نزوله وموجبات حلوله حيث شاهدوا شواهد النبوة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكذبوها وفى التوراة فحرفوها وأصروا على الكفر والضلالة وتعلق بهم خطاب المشافهة بالوعيد ثم نزوله على من وجد بعد مئات من السنين من أعقابهم الضالين باضلالهم العالمين بما مهدوا من قوانين الغواية بعيد من حكمة الله تعالى العزيز الحكيم وقيل ان وقوعه كان مشروطا بعدم الايمان وقد آمن من أحبارهم المذكوران وأضرابهما فلم يقع وفيه أن اسلام بعضهم ان لم يكن سببا لتأكد نزول العذاب على الباقين لتشديدهم النكير والعناد بعد ازدياد الحق وضوحا وقيام الحجة عليهم بشهادة أماثلهم العدول فلا أقل من أن لا يكون سببا لرفعه عنهم وقيل كان الوعيد بوقوع أحد الأمرين كما ينطق به قوله تعالى ﴿أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت﴾ فان لم يقع الأمر الاول فلا نزاع فى وقوع الثانى كيف لا وهم ملعونون بكل لسان فى كل زمان وتفسير اللعن بالمسخ ليس بمقرر البتة وأنت خبير بأن المتبادر من اللعن المشبه بلعن أصحاب السبت هو المسخ وليس فى عطفه على الطمس والرد على الادبار شائبة دلالة على عدم ارادة المسخ ضرورة أنه تغيير مغاير لما عطف عليه على أن المتوعد به لا بد أن يكون أمرا حادثا مترتبا على الوعيد محذورا عندهم ليكون مزجرة عن مخالفة الأمر ولم يعهد أنه وقع عليهم لعن بهذا الوصف انما الواقع عليهم ماتداولته الالسنة من اللعن المستمر الذى ألفوه وهو بمعزل من صلاحية أن يكون حكما لهذا الوعيد أو مزجرة للعنيد وقيل انما كان الوعيد بوقوع ماذكر فى الآخرة عند الحشر وسيقع فيها لا محالة أحد الأمرين أو كلاهما على سبيل التوزيع وأما ماروى عن عبدالله بن سلام وكعب فمبنى على الاحتياط اللائق بشأنهما والحق أن النظم الكريم ليس بنص فى أحد الوجهين بل المتبادر منه بحسب المقام هو الاول لأنه أدخل فى الزجر وعليه مبنى ماروى عن الحبرين لكن لما لم يتضح وقوعه علم أن المراد هو الثانى والله تعالى أعلم وأياما كان فلعل السر فى تخصيصهم بهذه العقوبة

من بين العقوبات مراعاة المشاكلة بينهما وبين ما أوجبها من جناياتهم التى هى التحريف والتغيير والله هو العليم الخبير ﴿وكان أمر الله﴾ أى ما أمر به كائنا ما كان أو أمره بايقاع شئ ما من الأشياء ﴿مفعولا﴾ نافذا كائنا لا محالة فيدخل فيه ما أوعدتم به دخولا أوليا فالجملة اعتراض تذييلى مقرر لما سبق ووضع الاسم الجليل موضع الضمير بطريق الالتفات لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية ما فى الاعتراض من الاستقلال ﴿ان الله لا يغفر أن يشرك به﴾ كلام مستأنف مسوق لتقرير ماقبله من الوعيد وتأكيد وجوب الامتثال بالأمر بالايمان ببيان استحالة المغفرة بدونه فانهم كانوا يفعلون مايفعلون من التحريف ويطمعون فى المغفرة كما فى قوله تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى أى على التحريف ويقولون سيغفر لنا والمراد بالشرك مطلق الكفر المنتظم لكفر اليهود انتظاما أوليا فان الشرع قد نص على اشراك أهل الكتاب قاطبة وقضى بخلود أصناف الكفرة فى النار ونزوله فى حق اليهود كما قال مقاتل وهو الأنسب بسباق النظم الكريم وسياقه لا يقتضى اختصاصه بكفرهم بل يكفى اندراجه فيه قطعا بل لا وجه له أصلا لاقتضائه جواز مغفرة مادون كفرهم فى الشدة من أنواع الكفر أى لا يغفر الكفر لمن اتصف به بلا توبة وايمان لان الحكمة التشريعية مقتضية لسد باب الكفر وجواز مغفرته بلا ايمان مما يؤدى الى فتحه ولان ظلمات الكفر والمعاصى انما يسترها نور الايمان فمن لم يكن له ايمان لم يغفر له شئ من الكفر والمعاصى ﴿ويغفر مادون ذلك﴾ عطف على خبر ان وذلك إشارة الى الشرك وما فيه من معنى البعد مع قربه فى الذكر للايذان ببعد درجته وكونه فى أقصى مراتب القبح أى ويغفر مادونه فى القبح من المعاصى صغيرة كانت أو كبيرة تفضلا من لدنه واحسانا من غير توبة عنها لكن لا لكل أحد بل ﴿لمن يشاء﴾ أى لمن يشاء أن يغفر له ممن اتصف به فقط لا بما فوقه فان مغفرتهما لمن اتصف بهما سواء فى استحالة الدخول تحت المشيئة المبنية على الحكمة التشريعية فان اختصاص مغفرة المعاصى من غير توبة بأهل الايمان من متممات الترغيب فيه والزجر عن الكفر ومن علق المشيئة بكلا الفعلين وجعل الموصول الأول عبارة عمن لم يتب والثانى عمن تاب فقد ضل سواء الصواب كيف لا وان مساق النظم الكريم لاظهار كمال عظم جريمة الكفر وامتيازه عن سائر المعاصى ببيان استحالة مغفرته وجواز مغفرتها فلو كان الجواز على تقدير التوبة لم يظهر بينهما فرق للاجماع على مغفرتهما بالتوبة ولم يحصل ماهو المقصود من الزجر البليغ عن الكفر والطغيان والحمل على التوبة والايمان ﴿ومن يشرك بالله﴾ اظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لزيادة تقبيح الاشراك وتفظيع حال من يتصف به ﴿فقد افترى اثما عظيما﴾ أى افترى واختلق مرتكبا اثما لا يقادر قدره ويستحقر دونه جميع الآثام فلا تتعلق به المغفرة قطعا ﴿ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم﴾ تعجيب من حالهم المنافية لما هم عليه من الكفر والطغيان والمراد بهم اليهود الذين يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه وقيل ناس من اليهود جاؤا بأطفالهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا هل على هؤلاء ذنب فقال عليه الصلاة والسلام لا قالوا مانحن الا كهيئتهم ماعملنا بالنهار كفر عنا بالليل وماعملنا بالليل كفر عنا بالنهار أى انظر اليهم فتعجب من ادعائهم أنهم أزكياء عند الله تعالى مع ماهم عليه من الكفر والاثم العظيم أو من ادعائهم التكفير مع استحالة أن يغفر للكافر شئ من كفره أو معاصيه وفيه تحذير من اعجاب المرء بنفسه وبعمله ﴿بل الله يزكى من يشاء﴾ عطف على مقدر ينساق اليه الكلام كأنه قيل هم لا يزكونها فى الحقيقة لكذبهم وبطلان اعتقادهم بل الله يزكى من يشاء تزكيته ممن يستأهلها من المرتضين من عباده المؤمنين اذ هو العليم الخبير بما ينطوى عليه البشر من المحاسن والمساوى وقد وصفهم الله بما هم متصفون به من القبائح وأصل التزكية نفى ما يستقبح بالفعل أو بالقول ﴿ولا يظلمون﴾ عطف على جملة قد حذفت تعويلا على دلالة الحال عليها

وايذانا بأنها غنية عن الذكر أى يعاقبون بتلك الفعلة القبيحة ولا يظلمون فى ذلك العقاب ﴿فتيلا﴾ أى أدنى ظلم وأصغره وهو الخيط الذى فى شق النواة يضرب به المثل فى القلة والحقارة وقيل التقدير يثاب المزكون ولا ينقص من ثوابهم شىء أصلا ولا يساعده مقام الوعيد ﴿أنظر كيف يفترون على الله الكذب﴾ كيف نصب اما على التشبيه بالظرف أو بالحال على الخلاف المشهور بين سيبويه والأخفش والعامل يفترون وبه تتعلق على أى فى أى حال أو على أى حال يفترون عليه تعالى الكذب والمراد بيان شناعة تلك الحال وكمال فظاعتها والجملة فى محل النصب بعد نزع الخافض والنظر متعلق بهما وهو تعجيب اثر تعجيب وتنبيه على أن ما ارتكبوه متضمن لامرين عظيمين موجبين للتعجيب ادعاؤهم الاتصاف بما هم متصفون بنقيضه وافتراؤهم على الله سبحانه فان ادعاءهم الزكاء عنده تعالى متضمن لادعائهم قبول الله وارتضاءه اياهم تعالى عن ذلك علوا كبيرا ولكون هذا أشنع من الأول جرما وأعظم قبحا لما فيه من نسبته سبحانه وتعالى الى ما يستحيل عليه بالكلية من قبول الكفر وارتضائه لعباده ومغفرة كفر الكافر وسائر معاصيه وجه النظر الى كيفيته تشديدا للتشنيع وتأكيدا للتعجيب والتصريح بالكذب مع أن الافتراء لا يكون الا كذبا للمبالغة فى تقبيح حالهم ﴿وكفى به﴾ أى بافترائهم هذا من حيث هو افتراء عليه تعالى مع قطع النظر عن مقارنته لتزكية أنفسهم وسائر آثامهم العظام ﴿اثما مبينا﴾ ظاهرا بينا كونه اثما والمعنى كفى ذلك وحده فى كونهم أشد اثما من كل كفار أثيم أو فى استحقاقهم لاشد العقوبات لما مر سره وجعل الضمير لزعمهم مما لا مساغ له لاخلاله بتهويل أمر الافتراء فتدبر ﴿ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب﴾ تعجيب من حال أخرى لهم ووصفهم بما ذكر من ايتاء النصيب لما مر من منافاته لما صدر عنهم من القبائح وقوله عز وجل ﴿يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ استئناف مبين لمادة التعجب مبنى على سؤال ينساق اليه الكلام كأنه قيل ماذا يفعلون حين ينظر اليهم فقيل يؤمنون الخ والجبت الأصنام وكل ما عبد من دون الله تعالى فقيل أصله الجبس وهو الذى لا خير عنده فأبدل السين تاء وقيل الجبت الساحر بلغة الحبشة والطاغوت الشيطان قيل هو فى الأصل كل ما يطغى الانسان . روى أن حيى بن أخطب وكعب بن الأشرف اليهوديين خرجا الى مكة فى سبعين راكبا من اليهود ليحالفوا قريشا على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم وينقضوا العهد الذى كان بينهم وبينه عليه السلام فقالوا أنتم أهل كتاب وأنتم أقرب الى محمد منكم الينا فلا نأمن مكركم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن اليكم ففعلوا فهذا ايمانهم بالجبت والطاغوت لأنهم سجدوا للاصنام وأطاعوا ابليس فيما فعلوا وقال أبو سفيان لكعب انك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدى طريقا نحن أم محمد فقال ماذا يقول محمد قال يأمر بعبادة الله وحده وينهى عن الشرك قال وما دينكم قالوا نحن ولاة البيت نسقى الحاج ونقرى الضيف ونفك العانى وذكروا أفعالهم فقال أنتم أهدى سبيلا وذلك قوله تعالى ﴿ويقولون للذين كفروا﴾ أى لاجلهم وفى حقهم ﴿هؤلاء﴾ يعنونهم ﴿أهدى من الذين آمنوا سبيلا﴾ أى أقوم دينا وأرشد طريقة وايرادهم بعنوان الايمان ليس من قبل القائلين بل من جهة الله تعالى تعريفا لهم بالوصف الجميل وتخطئة لمن رجح عليهم المتصفين بأقبح القبائح ﴿أولئك﴾ اشارة الى القائلين ومافيه من معنى البعد مع قربهم فى الذكر للاشعار ببعد منزلتهم فى الضلال وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿الذين لعنهم الله﴾ أى أبعدهم عن رحمته وطردهم والجملة مستأنفة لبيان حالهم واظهار مصيرهم وما لهم ﴿ومن يلعن الله﴾ أى يبعده عن رحمته ﴿فلن تجد له نصيرا﴾ يدفع عنه العذاب دنيويا كان أو أخرويا لا بشفاعة ولا بغيرها وفيه تنصيص على حرمانهم مما طلبوا من قريش وفى كلمة لن وتوجيه الخطاب الى كل أحد ممن يتسنى له الخطاب وتوحيد النصير منكرا والتعبير عن عدمه بعدم الوجدان المنبئ عن سبق الطلب مسندا الى المخاطب

العام من الدلالة على حرمانهم الأبدى بالكلية ما لا يخفى ﴿أم لهم نصيب من الملك﴾ شروع فى تفصيل بعض آخر من قبائحهم وأم منقطعة ومافيها من بل للاضراب والانتقال من ذمهم بتزكيتهم أنفسهم وغيرها مما حكى عنهم الى ذمهم بادعائهم نصيبا من الملك وبخلهم المفرط وشحهم البالغ والهمزة لانكار أن يكون لهم ما يدعونه وابطال ما زعموا أن الملك سيصير اليهم وقوله تعالى ﴿فاذن لا يؤتون الناس نقيرا﴾ بيان لعدم استحقاقهم له بل لاستحقاقهم الحرمان منه بسبب أنهم من البخل والدناءة بحيث لو أوتوا شيئا من ذلك لما أعطوا الناس منه أقل قليل ومن حق من أوتى الملك أن يؤثر الغير بشىء منه فالفاء للسببية الجزائية لشرط محذوف أى ان جعل لهم نصيب منه فاذن لا يؤتون الناس مقدار نقير وهو ما فى ظهر النواة من النقرة يضرب به المثل فى القلة والحقارة وهذا هو البيان الكاشف عن كنه حالهم واذا كان شأنهم كذلك وهم ملوك فما ظنك بهم وهم أذلاء متفاقرون ويجوز أن لا تكون الهمزة لانكار الوقوع بل لانكار الواقع والتوبيخ عليه أى لعده منكرا غير لائق بالوقوع على أن الفاء للعطف والانكار متوجه الى مجموع المعطوفين على معنى ألهم نصيب وافر من الملك حيث كانوا أصحاب أموال وبساتين وقصور مشيدة كالملوك فلا يؤتون الناس مع ذلك نقيرا كما تقول لغنى لا يراعى أباه ألك هذا القدر من المال فلا تنفق على أبيك شيئا وفائدة اذن تأكيد الانكار والتوبيخ حيث يجعلون ثبوت النصيب سببا للمنع مع كونه سببا للاعطاء وهى ملغاة عن العمل كأنه قيل فلا يؤتون الناس اذن وقرىء فاذن لا يؤتوا بالنصب على أعمالها ﴿أم يحسدون الناس﴾ منقطعة أيضا مفيدة للانتقال من توبيخهم بما سبق الى توبيخهم بالحسد الذى هو شر الرذائل وأقبحها لاسيما على ما هم بمعزل من استحقاقه واللام فى الناس للعهد والاشارة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وحمله على الجنس ايذانا بحيازتهم للكمالات البشرية قاطبة فكأنهم هم الناس لا غير لا يلائمه ذكر حديث آل ابراهيم فان ذلك لتذكير ما بين الفريقين من العلاقة الموجبة لاشتراكهما فى استحقاق الفضل والهمزة لانكار الواقع واستقباحه فانهم كانوا يطمعون أن يكون النبى الموعود منهم فلما خص الله تعالى بتلك الكرامة غيرهم حسدوهم أى بل أيحسدونهم ﴿على ما آتاهم الله من فضله﴾ يعنى النبوة والكتاب وازدياد العز والنصر يوما فيوما وقوله تعالى ﴿فقد آتينا﴾ تعليل للانكار والاستقباح والزام لهم بما هو مسلم عندهم وحسم لمادة حسدهم واستبعادهم المبنيين على توهم عدم استحقاق المحسود لما أوتى من الفضل ببيان استحقاقه له بطريق الوراثة كابرا عن كابر واجراء الكلام على سنن الكبرياء بطريق الالتفات لاظهار كمال العناية بالأمر والمعنى أن حسدهم المذكور فى غاية القبح والبطلان فانا قد آتينا من قبل هذا ﴿آل ابراهيم﴾ الذين هم أسلاف محمد عليه الصلاة والسلام وأبناء أعمامه ﴿الكتاب والحكمة﴾ أى النبوة ﴿وآتيناهم﴾ مع ذلك ﴿ملكا عظيما﴾ لا يقادر قدره فكيف يستبعدون نبوته عليه الصلاة والسلام ويحسدونه على ايتائها وتكرير الايتاء لما يقتضيه مقام التفصيل مع الاشعار بما بين النبوة والملك من المغايرة فان أريد به الايتاء بالذات فالمراد بآل ابراهيم أنبياؤهم خاصة والضمير المنصوب فى الفعل الثانى لبعضهم اما بحذف المضاف أو بطريق الاستخدام لما أن الملك لم يؤت كلهم . قال ابن عباس رضى الله عنهما الملك فى آل ابراهيم ملك يوسف وداود وسليمان عليهم السلام ان أريد به ما يعمه وغيره من الايتاء بالواسطة وهو اللائق بالمقام والاوفق لما قبله من نسبة ايتاء الفضل الى الناس فالمراد بآل ابراهيم كلهم فان تشريف البعض بما ذكر من ايتاء النبوة والملك تشريف للكل لاعتنائهم بآثاره واقتباسهم من أنواره وفى تفصيل ما أوتوه وتكرير الفعل ووصف الملك بالعظم وتنكيره التفخيمى من تأكيد الالزام وتشديد الانكار ما لا يخفى هذا هو المتبادر من النظم الكريم واليه جنح جمهور أئمة التفسير لكن الظاهر حينئذ أن يكون قوله تعالى ﴿فمنهم من آمن به ومنهم

من صد عنه﴾ حكاية لما صدر عن أسلافهم عقيب وقوع المحكى من غير أن يكون له دخل فى الالزام الذى سيق له الكلام أى فمن جنس هؤلاء الحاسدين و آبائهم من آمن بما أوتى آل ابراهيم ومنهم من أعرض عنه وأما جعل الضميرين لما ذكر من حديث آل ابراهيم فيستدعى تراخى الآية الكريمة عما قبلها نزولا كيف لا وحكاية ايمانهم بالحديث المذكور واعراضهم عنه بصيغة الماضى انما يتصور بعد وقوع الايمان والاعراض المتأخرين عن سماع الحديث المتأخر عن نزوله وكذا جعلهما لرسول الله صلى الله عليه وسلم اذ الظاهر بيان حالهم بعد هذا الالزام وحمله على حكاية حالهم السابقة لاتساعده الفاء المرتبة لما بعدها على ماقبلها و لا يبعد كل البعد أن تكون الهمزة لتقرير حسدهم وتوبيخهم بذلك و يكون قوله تعالى فقد آتينا الآية تعليلا له بدلالته على اعراضهم عما أوتى آل ابراهيم وان لم يذكر كونه بطريق الحسد كأنه قيل بل أيحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله و لا يؤمنون به وذلك ديدنهم المستمر فانا قد آتينا آل ابراهيم ما آتينا فمنهم أى من جنسهم من آمن بما آتيناهم ومنهم من أعرض عنه ولم يؤمن به والله سبحانه أعلم وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وكفى بجهنم سعيرا﴾ نارا مسعرة يعذبون بها والجملة تذييل لما قبلها ﴿ان الذين كفروا بآياتنا﴾ ان أريد بهم الذين كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم فالمراد بالآيات اما القرآن أو مايعم كله و بعضه أو مايعم سائر معجزاته أيضا وان أريد بهم الجنس المتناول لهم تناولا أوليا فالمراد بالآيات مايعم المذكورات وسائر الشواهد التى أوتيها الانبياء عليهم السلام ﴿سوف نصليهم نارا﴾ قال سيبويه سوف كلمة تذكر للتهديد والوعيد و ينوب عنها السين وقد يذكران فى الوعد فيفيدان التأكيد أى ندخلهم نارا عظيمة هائلة ﴿كلما نضجت جلودهم﴾ أى احترقت وكلما ظرف زمان والعامل فيه ﴿بدلناهم جلودا غيرها﴾ من قبيل بدله بخوفه أمنا لامن قبيل ﴿يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ أى أعطيناهم مكان كل جلد محترق عند احتراقه جلدا جديدا مغايرا للمحترق صورة وان كان عينه مادة بأن يزال عنه الاحتراق ليعود احساسه للعذاب والجملة فى محل النصب على أنها حال من ضمير نصليهم وقد جوز كونها صفة لنارا على حذف العائد أى كلما نضجت فيها جلودهم فمعنى قوله تعالى ﴿ليذوقوا العذاب﴾ ليدوم ذوقه و لا ينقطع كقولك للعزيز أعزك الله وقيل يخلق مكانه جلدا آخر والعذاب للنفس العاصية لالآلة ادراكها قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يبدلون جلودا بيضاء كأمثال القراطيس و روى أن هذه الآية قرئت عند عمر رضى الله تعالى عنه فقال للقارىء أعدها فأعادها و كان عنده معاذ بن جبل فقال معاذ عندى تفسيرها يبدل فى ساعة مائة مرة فقال عمر رضى الله عنه هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وقال الحسن تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا و روى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ان بين منكبى الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع وعن أبى هريرة أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاثة أيام والتعبير عن ادراك العذاب بالذوق ليس لبيان قلته بل لبيان أن احساسهم بالعذاب فى كل مرة كاحساس الذائق بالمذوق من حيث أنه لايدخله نقصان بدوام الملابسة أو للاشعار بمرارة العذاب مع ايلامه أو للتنبيه على شدة تأثيره من حيث أن القوة الذائقة أشد الحواس تأثرا أو على سرايته للباطن ولعل السر فى تبديل الجلود مع قدرته تعالى على ابقاء ادراك العذاب وذوقه بحاله مع الاحتراق أو مع ابقاء أبدانهم على حالها مصونة عن الاحتراق أن النفس ربما تتوهم زوال الادراك بالاحتراق و لاتستبعد كل الاستبعاد أن تكون مصونة عن التألم والعذاب صيانة بدنها عن الاحتراق ﴿ان الله كان عزيزا﴾ لايمتنع عليه مايريده و لايمانعه أحد ﴿حكيما﴾ يعاقب من يعاقبه على وفق حكمته والجملة تعليل لما قبلها من الاصلاء والتبديل واظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لتهويل الامر وتربية

المهابة وتعليل الحكم فان عنوان الألوهية مناط لجميع صفات كماله تعالى ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ عقب بيان سوء حال الكفرة ببيان حسن حال المؤمنين تكميلا لمساءة الأولين ومسرة الآخرين أى الذين آمنوا بآياتنا وعملوا بمقتضياتها وهو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿سندخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار﴾ وقرىء سيدخلهم بالياء ردا على الاسم الجليل وفى السين تأكيد للوعد ﴿خالدين فيها أبدا﴾ حال مقدرة من الضمير المنصوب فى سندخلهم وقوله عز وعلا ﴿لهم فيها أزواج مطهرة﴾ أى مما فى نساء الدنيا من الأحوال المستقذرة البدنية والأدناس الطبيعية فى محل النصب على أنه حال من جنات أو حال ثانية من الضمير المنصوب أو على أنه صفة لجنات بعد صفة أو فى محل الرفع على أنه خبر للموصول بعد خبر ﴿وندخلهم ظلا ظليلا﴾ أى فينانا لاجوب فيه دائما لاتنسخه شمس اللهم ارزقنا ذلك بفضلك و كرمك ياأرحم الراحمين والظليل صفة مشتقة من لفظ الظل للتأكيد كما فى ليل أليل و يوم أيوم وقرىء يدخلهم بالياء وهو عطف على سيدخلهم لا على أنه غير الادخال الأول بالذات بل بالعنوان كما فى قوله تعالى ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ﴿ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها﴾ فى تصدير الكلام بكلمة التحقيق واظهار الاسم الجليل وايراد الأمر على صورة الاخبار من الفخامة وتأكيد وجوب الامتثال به والدلالة على الاعتناء بشأنه ما لامزيد عليه وهو خطاب يعم حكمه المكلفين قاطبة كما أن الأمانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بذممهم من حقوق الله تعالى وحقوق العباد سواء كانت فعلية أو قولية أو اعتقادية وان ورد فى شأن عثمان بن طلحة بن عبد الدار سادن الكعبة المعظمة وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة يوم الفتح أغلق عثمان رضى الله عنه باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح اليه وقال لوعلمت أنه رسول الله لم أمنعه فلوى على ابن أبى طالب يده وأخذه منه وفتح ودخل النبى صلى الله عليه وسلم وصلى ركعتين فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح و يجمع له السقاية والسدانة فنزلت فأمر عليا أن يرده الى عثمان و يعتذر اليه فقال عثمان لعلى أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق فقال لقد أنزل الله تعالى فى شأنك قرآنا فقرأ عليه الآية فقال عثمان أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فهبط جبريل عليه الصلاة والسلام وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السدانة فى أولاد عثمان أبدا وقرىء الامانة على التوحيد والمراد الجنس لا المعهود وقيل هو أمر للولاة باداء الحقوق المتعلقة بذممهم من المناصب وغيرها الى مستحقيها كما أن قوله تعالى ﴿واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ أمر لهم بايصال الحقوق المتعلقة بذمم الغير الى أصحابها وحيث كان المأمور به ههنا مختصا بوقت المرافعة قيد به بخلاف المأمور به أولا فانه لما لم يتعلق بوقت دون وقت أطلق اطلاقا فقوله تعالى أن تحكموا عطف على أن تؤدوا قد فصل بين العاطف والمعطوف بالظرف المعمول له عند الكوفيين والمقدر يدل هو عليه عند البصريين لأن مابعد أن لا يعمل فيما قبلها عندهم أى وأن تحكموا اذا حكمتم الخ وقوله تعالى بالعدل متعلق بتحكموا أو بمقدر وقع حالا من فاعله أى ملتبسين بالعدل والانصاف ﴿ان الله نعما يعظكم به﴾ ما اما منصوبة موصوفة بيعظكم به أو مرفوعة موصولة به كأنه قيل نعم شيأ يعظكم به أونعم الشىء الذى يعظكم به والمخصوص بالمدح محذوف أى نعما يعظكم به ذلك وهو المأمور به من أداء الأمانات والعدل فى الحكومات وقرىء نعما بفتح النون والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها متضمنة لمزيد لطف بالمخاطبين وحسن استدعائهم الى الامتثال بالأمر واظهار الاسم الجليل لتربية المهابة ﴿ان الله كان سميعا﴾ لاقوالكم ﴿بصيرا﴾ بأفعالكم فهو وعد و وعيد واظهار الجلالة لما ذكر آنفا فان فيه تأكيدا لكل من الوعد والوعيد ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ بعد ماأمر الولاة بطريق العموم أو بطريق الخصوص بأداء الأمانات والعدل فى الحكومات

أمر سائر الناس بطاعتهم لكن لا مطلقا بل فى ضمن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم حيث قيل ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ وهم أمراء الحق وولاة العدل كالخلفاء الراشدين ومن يقتدى بهم من المهتدين وأما أمراء الجور فبمعزل من استحقاق العطف على الله تعالى والرسول عليه الصلاة والسلام فى وجوب الطاعة لهم وقيل هم علماء الشرع لقوله تعالى ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم و يأباه قوله تعالى ﴿فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله﴾ اذ ليس للمقلد أن ينازع المجتهد فى حكمه الا أن يجعل الخطاب لأولى الأمر بطريق الالتفات وفيه بعد وتصدير الشرطية بالفاء لترتبها على ما قبلها فان بيان حكم طاعة أولى الأمر عند موافقتها لطاعة الله تعالى وطاعة الرسول عليه السلام يستدعى بيان حكمها عند المخالفة أى ان اختلفتم أنتم وأولو الأمر منكم فى أمر من أمور الدين فراجعوا فيه الى كتاب الله ﴿والرسول﴾ أى الى سنته وقد استدل به منكرو القياس وهو فى الحقيقة دليل على حجيته كيف لا ورد المختلف فيه الى المنصوص عليه انما يكون بالتمثيل والبناء عليه وهو المعنى بالقياس و يؤيده الأمر به بعد الأمر بطاعة الله تعالى و بطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام فانه يدل على أن الأحكام ثلاثة ثابت بالكتاب وثابت بالسنة وثابت بالرد اليهما بالقياس ﴿ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ متعلق بالأمر الأخير الوارد فى محل النزاع اذ هو المحتاج الى التحذير من المخالفة وجواب الشرط محذوف عند جمهور البصريين ثقة بدلالة المذكور عليه أى ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فردوه الخ فان الايمان بهما يوجب ذلك أما الايمان بالله تعالى فظاهر وأما الايمان باليوم الآخر فلما فيه من العقاب على المخالفة ﴿ذلك﴾ أى الرد المأمور به ﴿خير﴾ لكم وأصلح ﴿وأحسن﴾ فى نفسه ﴿تأويلا﴾ أى عاقبة ومآلا وتقديم خيريته لهم على أحسنيته فى نفسه لما مر من تعلق أنظارهم بما ينفعهم والمراد بيان اتصافه فى نفسه بالخيرية الكاملة والحسن الكامل فى حد ذاته من غير اعتبار فضله على شىء يشاركه فى أصل الخيرية والحسن كما ينبىء عنه التحذير السابق ﴿ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجيبا له من حال الذين يخالفون ما مر من الامر المحتوم و لا يطيعون الله و لا رسوله و وصفهم بادعاء الايمان بالقرآن و بما أنزل من قبله أعنى التوراة لتأكيد التعجيب وتشديد التوبيخ والاستقباح ببيان كمال المباينة بين دعواهم وبين ما صدر عنهم وقرىء الفعلان على البناء للفاعل وقوله عز وجل ﴿يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت﴾ استئناف سيق لبيان محل التعجيب مبنى على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل ماذا يفعلون فقيل يريدون الخ. روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن منافقا خاصم يهوديا فدعاه اليهودى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاه المنافق الى كعب بن الاشرف ثم أنهما احتكما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى لليهودى فلم يرض به المنافق فدعاه الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال اليهودى قضى لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرض بقضائه فقال عمر للمنافق أهكذا قال نعم فقال عمر مكانكما حتى أخرج اليكما فدخل فاشتمل على سيفه ثم خرج فضرب به عنق المنافق حتى برد ثم قال هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله فنزلت فهبط جبريل عليه الصلاة والسلام وقال ان عمر فرق بين الحق والباطل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت الفاروق فالطاغوت كعب بن الأشرف سمى به لافراطه فى الطغيان وعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو على التشبيه بالشيطان والتسمية باسمه أو جعل اختيار التحاكم الى غير النبى صلى الله عليه وسلم على التحاكم اليه تحاكما الى الشيطان وقال الضحاك المراد بالطاغوت كهنة اليهود وسحرتهم وعن الشعبى أن المنافق دعا خصمه الى كاهن فى جهينة فتحاكما اليه وعن السدى أن الحادثة وقعت فى قتيل بين بنى قريظة والنضير فتحاكم المسلمون من الفريقين الى النبى صلى الله عليه وسلم وأبى المنافقون

منهما الا التحاكم الى أبى بردة الكاهن الأسلمى فتحاكموا اليه فيكون الاقتصار حينئذ فى معرض التعجيب والاستقباح على ذكر ارادة التحاكم دون نفسه مع وقوعه أيضا للتنبيه على أن ارادته مما يقضى منه العجب و لا ينبغى أن يدخل تحت الوقوع فما ظنك بنفسه وهذا أنسب بوصف المنافقين بادعاء الايمان بالتوراة فانه كما يقتضى كونهم من منافقى اليهود يقتضى كون ما صدر عنهم من التحاكم ظاهر المنافاة لادعاء الايمان بالتوراة وليس التحاكم الى كعب بن الأشرف بهذه المثابة من الظهور وأيضا فالمتبادر من قوله تعالى ﴿وقد أمروا أن يكفروا به﴾ كونهم مأمورين بكفره فى الكتابين وما ذاك الا الشيطان وأولياؤه المشهورون بولايته كالكهنة ونظائرهم لا من عداهم ممن لم يشتهر بذلك وقرىء أن يكفروا بها على أن الطاغوت جمع كما فى قوله تعالى أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم والجملة حال من ضمير يريدون مفيدة لتأكيد التعجيب وتشديد الاستقباح كالوصف السابق وقوله عز وعلا ﴿ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا﴾ عطف على يريدون داخل فى حكم التعجيب فان اتباعهم لمن يريد اضلالهم واعراضهم عمن يريد هدايتهم أعجب من كل عجيب وضلالا اما مصدر مؤكد للفعل المذكور بحذف الزوائد كما فى قوله تعالى وأنبتها نباتا حسنا أى اضلالا بعيدا واما مصدر مؤكد لفعله المدلول عليه بالفعل المذكور أى فيضلوا ضلالا وأيا ما كان فوصفه بالبعد الذى هو نعت موصوفه للمبالغة وقوله تعالى ﴿واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول﴾ تكملة لمادة التعجيب ببيان اعراضهم صريحا عن التحاكم الى كتاب الله تعالى و رسوله اثر بيان اعراضهم عن ذلك فى ضمن التحاكم الى الطاغوت وقرىء تعالوا بضم اللام على أنه حذف لام الفعل تخفيفا كما فى قولهم ما باليت بالة أصلها بالية كعافية وكما قالوا فى آية ان أصلها أيية فحذفت اللام و وقعت واو الجمع بعد اللام فى تعالى فضمت فصار تعالوا ومنه قول أهل مكة للمرأة تعالى بكسر اللام وعليه قول أبى فراس الحمدانى

أيا جارتى ما أنصف الدهر بيننا تعالى أقاسمك الهموم تعالى

﴿رأيت المنافقين﴾ اظهار المنافقين فى مقام الاضمار للتسجيل عليهم بالنفاق وذمهم به والاشعار بعلة الحكم والرؤية بصرية وقوله تعالى ﴿يصدون عنك﴾ حال من المنافقين وقيل الرؤية قلبية والجملة مفعول ثان لها والأول هو الانسب بظهور حالهم وقوله تعالى ﴿صدودا﴾ مصدر مؤكد لفعله أى يعرضون عنك اعراضا وأى اعراض وقيل هو اسم للمصدر الذى هو الصد والأظهر أنه مصدر لصد اللازم والصد مصدر للمتعدى يقال صد عنه صدودا أى أعرض عنه وصده عنه صدا أى منعه منه وقوله تعالى ﴿فكيف﴾ شروع فى بيان غائلة جناياتهم المحكية وخامة عاقبتها أى كيف يكون حالهم ﴿اذا أصابتهم مصيبة﴾ أى وقت اصابة المصيبة اياهم بافتضاحهم بظهور نفاقهم ﴿بما قدمت أيديهم﴾ بسبب ما عملوا من الجنايات التى من جملتها التحاكم الى الطاغوت والاعراض عن حكمك ﴿ثم جاؤك﴾ للاعتذار عما صنعوا من القبائح وهو عطف على أصابتهم والمراد تفظيع حالهم وتهويل ما دهمهم من الخطب واعتراهم من شدة الأمر عند اصابة المصيبة وعند المجىء للاعتذار ﴿يحلفون بالله﴾ حال من فاعل جاؤك ﴿ان أردنا الا احسانا وتوفيقا﴾ أى ما أردنا بتحاكمنا الى غيرك الا الفصل بالوجه الحسن والتوفيق بين الخصمين ولم نرد مخالفة لك و لا تسخطا لحكمك فلا تؤاخذنا بما فعلنا وهذا وعيد لهم على ما فعلوا وأنهم سيندمون عليه حين لا ينفعهم الندم و لا يغنى عنهم الاعتذار وقيل جاء أولياء المنافق يطلبون بدمه وقد أهدره الله تعالى فقالوا ما أردنا أى ما أراد صاحبنا المقتول بالتحاكم الى عمر رضى الله تعالى عنه الا أن يحسن اليه و يوفق بينه و بين خصمه ﴿أولئك﴾ اشارة الى المنافقين وما فيه من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلتهم فى الكفر والنفاق وهو مبتدأ خبره ﴿الذين يعلم الله ما فى قلوبهم﴾ أى من فنون الشرور والفسادات المنافية لما أظهروا لك من الاكاذيب ﴿فأعرض عنهم﴾ جواب شرط محذوف أي اذا كان حالهم كذلك فأعرض عن قبول معذرتهم وقيل عن عقابهم لمصلحة فى

استبقائهم ولا تظهر لهم علمك بما فى بواطنهم ولا تهتك سترهم حتى يبقوا على وجل وحذر ﴿وعظهم﴾ أى ازجرهم عن النفاق والكيد ﴿وقل لهم فى أنفسهم﴾ فى حق أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المنطوية على الشرور التى يعلمها الله تعالى أو فى أنفسهم خاليا بهم ليس معهم غيرهم مسارا بالنصيحة لانها فى السر أنجع ﴿قولا بليغا﴾ مؤثرا واصلا الى كنه المراد مطابقا لما سيق له من المقصود فالظرف على التقديرين متعلق بالامر وقيل متعلق ببليغا على رأى من يجيز تقديم معمول الصفة على الموصوف أى قل لهم قولا بليغا فى أنفسهم مؤثرا فى قلوبهم يغتمون به اغتماما ويستشعرون منه الخوف استشعارا وهو التوعد بالقتل والاستئصال والايذان بأن ما فى قلوبهم من مكنونات الشر والنفاق غير خاف على الله تعالى وأن ذلك مستوجب لأشد العقوبات وانما هذه المكافأة والتأخير لاظهارهم الايمان والطاعة واضمارهم الكفر ولئن أظهروا الشقاق وبرزوا بأشخاصهم من نفق النفاق ليمسنهم العذاب ان الله شديد العقاب ﴿وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله﴾ كلام مبتدأ جئ به تمهيدا لبيان خطئهم فى الاشتغال بستر جناياتهم بالاعتذار بالاباطيل وعدم تلافيها بالتوبة أى وما أرسلنا رسولا من الرسل لشئ من الاشياء الا ليطاع بسبب اذنه تعالى فى طاعته وأمره المرسل اليهم بأن يطيعوه ويتبعوه لانه مؤد عنه تعالى فطاعته طاعة الله تعالى ومعصيته معصيته تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله أو بتيسير الله تعالى وتوفيقه فى طاعته ﴿ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم﴾ وعرضوها لعذاب على عذاب النفاق بترك طاعتك والتحاكم الى غيرك ﴿جاؤك﴾ من غير تأخير كما يفصح عنه تقديم الظرف متوسلين بك فى التنصل عن جناياتهم القديمة والحادثة ولم يزدادوا جناية على جناية بالقصد الى سترها بالاعتذار الباطل والأيمان الفاجرة ﴿فاستغفروا الله﴾ بالتوبة والاخلاص وبالغوا فى التضرع اليك حتى انتصبت شفيعا لهم الى الله تعالى واستغفرت لهم وانما قيل ﴿واستغفر لهم الرسول﴾ على طريقة الالتفات تفخيما لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيما لاستغفاره وتنبيها على أن شفاعته فى حيز القبول ﴿لوجدوا الله توابا رحيما﴾ لعلموه مبالغا فى قبول توبتهم والتفضل عليهم بالرحمة وان فسر الوجدان بالمصادفة كان قوله تعالى توابا حالا ورحيما بدلا منه أو حالا من الضمير فيه وأياما كان ففيه فضل ترغيب للسامعين فى المسارعة الى التوبة والاستغفار ومزيد تنديم لأولئك المنافقين على ماصنعوا لما أن ظهور تباشير قبول التوبة وحصول الرحمة لهم ومشاهدتهم لآثارهما نعمة زائدة عليهما موجبة لكمال الرغبة فى تحصيلها وتمام الحسرة على فواتها ﴿فلا وربك﴾ أى فوربك ولا مزيدة لتأكيد معنى القسم لا لتأكيد النفى فى جوابه أعنى قوله ﴿لا يؤمنون﴾ لأنها تزاد فى الاثبات أيضا كما فى قوله تعالى فلا أقسم بمواقع النجوم ونظائره ﴿حتى يحكموك﴾ أى يتحاكموا اليك ويترافعوا اليك وانما جئ بصيغة التحكيم مع أنه عليه الصلاة والسلام حاكم بأمر الله سبحانه ايذانا بأن حقهم أن يجعلوه حكما فيما بينهم ويرضوا بحكمه وان قطع النظر عن كونه حاكما على الاطلاق ﴿فيما شجر بينهم﴾ أى فيما اختلف بينهم من الأمور واختلط ومنه الشجر لتداخل أغصانه ﴿ثم لا يجدوا﴾ عطف على مقدر ينساق اليه الكلام أى فتقضى بينهم ثم لا يجدوا ﴿فى أنفسهم حرجا﴾ ضيقا ﴿مما قضيت﴾ أى مما قضيت به أو من قضائك وقيل شكا من أجله اذ الشاك فى ضيق من أمره ﴿ويسلموا﴾ أى ينقادوا لأمرك ويذعنوا له ﴿تسليما﴾ تأكيد للفعل بمنزلة تكريره أى تسليما تاما بظاهرهم وباطنهم يقال سلم لأمر الله وأسلم له بمعنى وحقيقته سلم نفسه له وأسلمها اذا جعلها سالمة له خالصة أى ينقادوا لحكمك انقيادا لا شبهة فيه بظاهرهم وباطنهم قيل نزلت فى شأن المنافق واليهودى وقيل فى شأن الزبير ورجل من الانصار حين اختصما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شراج من الحرة كانا يسقيان بها النخل فقال عليه الصلاة والسلام اسق يازبير ثم أرسل الماء الى جارك فغضب الأنصارى وقال لأن كان ابن عمتك فتغير وجه رسول الله صلى

الله عليه وسلم ثم قال اسق يازبير ثم احبس الماء حتى يرجع الى الجدر واستوف حقك ثم أرسله الى جارك كان قد أشار على الزبير برأى فيه سعة له ولخصمه فلما أحفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم استوعب للزبير حقه فى صريح الحكم ثم خرجا فمرا على المقداد بن الاسود فقال لمن القضاء فقال الأنصارى قضى لابن عمته ولوى شدقه ففطن يهودى كان مع المقداد فقال قاتل الله هؤلاء يشهدون أنه رسول الله ثم يتهمونه فى قضاء يقضى بينهم وايم الله لقد أذنبنا ذنبا مرة فى حياة موسى فدعانا الى التوبة منه وقال اقتلوا أنفسكم ففعلنا فبلغ قتلانا سبعين ألفا فى طاعة ربنا حتى رضى عنا فقال ثابت بن قيس بن شماس أما والله ان الله ليعلم منى الصدق لو أمرنى محمد أن أقتل نفسى لقتلتها وروى أنه قال ذلك ثابت وابن مسعود وعمار ابن ياسر رضى الله عنهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده ان من أمتى رجالا الايمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى فنزلت فى شأن هؤلاء ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم﴾ أى لو أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا على بنى اسرائيل من قتلهم أنفسهم أو خروجهم من ديارهم حين استتابتهم من عبادة العجل وأن مصدرية أو مفسرة لأن كتبنا فى معنى أمرنا ﴿ما فعلوه﴾ أى المكتوب المدلول عليه بكتبنا أو أحد مصدرى الفعلين ﴿الا قليل منهم﴾ أى الا أناس قليل منهم وهم المخلصون من المؤمنين وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال والله لو أمرنا ربنا لفعلنا والحمد لله الذى لم يفعل بنا ذلك وقيل معنى اقتلوا أنفسكم تعرضوا بها للقتل بالجهاد وهو بعيد وقرئ الا قليلا بالنصب على الاستثناء أو الا فعلا قليلا ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به﴾ من متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام وطاعته والانقياد لما يراه ويحكم به ظاهرا وباطنا وسميت أوامر الله تعالى ونواهيه مواعظ لاقترانها بالوعد والوعيد ﴿لكان﴾ أى فعلهم ذلك ﴿خيرا لهم﴾ عاجلا وآجلا ﴿وأشد تثبيتا﴾ لهم على الايمان وأبعد من الاضطراب فيه وأشد تثبيتا لثواب أعمالهم ﴿واذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما﴾ جواب لسؤال مقدر كأنه قيل وماذا يكون لهم بعد التثبيت فقيل واذن لو ثبتوا لآتيناهم فان اذن جواب وجزاء ﴿ولهديناهم صراطا مستقيما﴾ يصلون بسلوكه الى عالم القدس ويفتح لهم أبواب الغيب قال عليه الصلاة والسلام من عمل بما علم ورثه الله تعالى علم ما لم يعلم ﴿ومن يطع الله والرسول﴾ كلام مستأنف فيه فضل ترغيب فى الطاعة ومزيد تشويق اليها ببيان أن نتيجتها أقصى ما ينتهى اليه همم الامم وأرفع ما يمتد اليه أعناق عزائمهم من مجاورة أعظم الخلائق مقدارا وأرفعهم منارا متضمن لتفسير ما أبهم فى جواب الشرطية السابقة وتفصيل ما أجمل فيه والمراد بالطاعة هو الانقياد التام والامتثال الكامل لجميع الاوامر والنواهى ﴿فأولئك﴾ اشارة الى المطيعين والجمع باعتبار معنى من كما أن الافراد فى فعل الشرط باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد مع القرب فى الذكر للايذان بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الشرف وهو مبتدأ خبره ﴿مع الذين أنعم الله عليهم﴾ والجملة جواب الشرط وترك ذكر المنعم به للاشعار بقصور العبارة عن تفصيله وبيانه ﴿من النبيين﴾ بيان للمنعم عليهم والتعرض لمعية سائر الانبياء عليهم الصلاة والسلام مع أن الكلام فى بيان حكم طاعة نبينا عليه الصلاة والسلام لجريان ذكرهم فى سبب النزول مع ما فيه من الاشارة الى أن طاعته عليه الصلاة والسلام متضمنة لطاعتهم لاشتمال شريعته على شرائعهم التى لا تتغير بتغير الاعصار روى أن نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يا نبى الله ان صرنا الى الجنة تفضلنا بدرجات النبوة فلا نراك وقال الشعبى جاء رجل من الانصار الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فقال ما يبكيك يافلان فقال يارسول الله بالله الذى لا اله الا هو لأنت أحب الى من نفسى وأهلى ومالى وولدى وانى لأذكرك وأنا فى أهلى فيأخذنى مثل الجنون حتى أراك وذكرت موتى وأنك ترفع مع النبيين وانى ان أدخلت الجنة كنت فى منزلة أدنى من منزلتك فلم

يرد النبي عليه الصلاة والسلام فنزلت و روى أن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب له عليه
الصلاة والسلام قليل الصبر عنه فأتاه يوما وقد تغير وجهه ونحل جسمه وعرف الحزن فى وجهه فسأله رسول الله صلى
الله عليه وسلم عن حاله فقال يارسول الله مابى من وجع غير أنى اذا لم أرك اشتقت اليك واستوحشت وحشة شديدة حتى
ألقاك فذكرت الآخرة فخفت أن لا أراك هناك لأنى عرفت أنك ترفع مع النبيين وان أدخلت الجنة كنت فى منزل دون
منزلك وان لم أدخل فذاك حين لا أراك أبدا فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام والذى نفسى بيده لا يؤمن عبد
حتى أكون أحب اليه من نفسه وأبويه وأهله و ولده والناس أجمعين وحكى ذلك عن جماعة من الصحابة رضى الله
عنهم و روى أن أنسا قال يارسول الله الرجل يحب قوما ولما يلحق بهم قال عليه الصلاة والسلام المرء مع من
أحب ﴿والصديقين﴾ أى المتقدمين فى تصديقهم المبالغين فى الصدق والاخلاص فى الأقوال والافعال وهم أفاضل
أصحاب الانبياء عليهم الصلاة والسلام وأماثل خواصهم المقربين كأبى بكر الصديق رضى الله عنه ﴿والشهداء﴾ الذين بذلوا
أرواحهم فى طاعة الله تعالى واعلاء كلمته ﴿والصالحين﴾ الصارفين أعمارهم فى طاعته وأموالهم فى مرضاته وليس
المراد بالمعية الاتحاد فى الدرجة ولا مطلق الاشتراك فى دخول الجنة بل كونهم فيها بحيث يتمكن كل واحد منهم من
رؤية الآخر و زيارته متى أرادوا وان بعد مابينهما من المسافة ﴿وحسن أولئك رفيقا﴾ الرفيق الصاحب مأخوذ من
الرفق وهو لين الجانب واللطافة فى المعاشرة قولا وفعلا فان جعل أولئك اشارة الى النبيين ومن بعدهم على أن مافيه من
معنى البعد لما مر مرارا فرفيقا اما تمييز أو حال على معنى أنهم وصفوا بالحسن من جهة كونهم رفقاء للمطيعين أو حال
كونهم رفقاء لهم وافراده لما أنه كالصديق والخليط والرسول يستوى فيه الواحد والمتعدد أو لأنه أريد حسن كل واحد
منهم رفيقا وان جعل اشارة الى المطيعين فهو تمييز على معنى أنهم وصفوا بحسن الرفيق من النبيين ومن بعدهم لا بنفس
الحسن فلا يجوز دخول من عليه كما يجوز فى الوجه الاول والجملة تذييل مقرر لما قبله مؤكد للترغيب والتشويق قيل فيه
معنى التعجب كأنه قيل وما أحسن أولئك رفيقا و لاستقلاله بمعنى التعجب قرئ وحسن بسكون السين ﴿ذلك﴾
اشارة الى ما للمطيعين من عظيم الاجر ومزيد الهداية ومرافقة هؤلاء المنعم عليهم او الى فضلهم ومزيتهم وما فيه من معنى
البعد للاشعار بعلو رتبته و بعد منزلته فى الشرف وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿الفضل﴾ صفته وقوله تعالى ﴿من الله﴾
خبره أى ذلك الفضل العظيم من الله تعالى لا من غيره أو الفضل خبره ومن الله متعلق بمحذوف وقع حالا منه والعامل
فيه معنى الاشارة أى ذلك الذى ذكر فضل كائنا من الله تعالى لا أن أعمال المكلفين توجبه ﴿وكفى بالله عليما﴾
بجزاء من أطاعه و بمقادير الفضل واستحقاق أهله ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم﴾ الحذر والحذر واحد كالاثر
والاثر والشبه والشبه أى تيقظوا واحترزوا من العدو ولا تمكنوه من أنفسكم يقال أخذ حذره اذا تيقظ واحترز من
المخوف كأنه جعل الحذر آلته التى يقى بها نفسه وقيل هو مايحذر به من السلاح والحزم أى استعدوا للعدو ﴿فانفروا﴾
بكسر الفاء وقرئ بضمها أى اخرجوا الى الجهاد عند خروجكم ﴿ثبات﴾ جمع ثبة وهى الجماعة من الرجال فوق العشرة
و وزنها فى الاصل فعلة كحطمة حذفت لامها وعوض عنها تاء التأنيث وهل هى واو أو ياء فيه قولان قيل انها مشتقة
من ثبا يثبو كحلا يحلو أى اجتمع وقيل من ثبيت على الرجل اذا أثنيت عليه كأنك جمعت محاسنه و يجمع أيضا على
ثبين جبرا لما حذف من عجزه ومحلها النصب على الحالية أى انفروا جماعات متفرقة سرية بعد سرية ﴿او انفروا جميعا﴾
أى مجتمعين كوكبة واحدة و لا تتخاذلوا فتلقوا بأنفسكم الى التهلكة ﴿وان منكم لمن ليبطئن﴾ أى ليتثاقلن وليتخلفن
عن الجهاد من بطأ بمعنى أبطأ كعتم بمعنى أعتم والخطاب لعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم المؤمنين منهم والمنافقين

والمبطئون منافقوهم الذين تثاقلوا وتخلفوا عن الجهاد أو ليبطئن غيره و يثبطنه من بطأ منقولا من بطؤ كثقل من ثقل
كما بطأ ابن أبى ناسا يوم أحد والاول أنسب لما بعده واللام الاولى للابتداء دخلت على اسم ان للفصل بالخبر والثانية
جواب قسم محذوف والقسم بجوابه صلة من والراجع اليه مااستكن فى ليبطئن والتقدير وان منكم لمن أقسم بالله ليبطئن
﴿فان أصابتكم مصيبة﴾ كقتل وهزيمة ﴿قال﴾ أى المبطئ فرحا بصنعه وحامدا لرأيه ﴿قد أنعم الله على﴾ أى
بالقعود ﴿اذ لم أكن معهم شهيدا﴾ أى حاضرا فى المعركة فيصيبنى ما أصابهم والفاء فى الشرطية لترتيب مضمونها على
ماقبلها فان ذكر التبطئة مستتبع لذكر مايترتب عليها كما أن نفس التبطئة مستدعية لشئ ينتظر المبطئ وقوعه
﴿ولئن أصابكم فضل﴾ كفتح وغنيمة ﴿من الله﴾ متعلق بأصابكم أو بمحذوف وقع صفة لفضل أى فضل كائن من
الله تعالى ونسبة اصابة الفضل الى جناب الله تعالى دون اصابة المصيبة من العادات الشريفة التنزيلية كما فى قوله سبحانه
واذا مرضت فهو يشفين وتقديم الشرطية الاولى لما أن مضمونها لمقصدهم أوفق وأثر نفاقهم فيها أظهر ﴿ليقولن﴾
ندامة على تثبطه وقعوده وتهالكا على حطام الدنيا وتحسرا على فواته وقرئ ليقولن بضم اللام اعادة للضمير الى معنى
من وقوله تعالى ﴿كأن لم تكن بينكم و بينه مودة﴾ اعتراض وسط بين الفعل ومفعوله الذى هو ﴿ياليتنى كنت
معهم فأفوز فوزا عظيما﴾ لئلا يفهم من مطلع كلامه أن تمنيه لمعية المؤمنين لنصرتهم ومظاهرتهم حسبما يقتضيه مافى
البين من المودة بل هو للحرص على المال كما ينطق به آخره وليس اثبات المودة فى البين بطريق التحقيق بل بطريق التهكم
وقيل الجملة التشبيهية حال من ضمير ليقولن اى ليقولن مشبها بمن لا مودة بينكم و بينه وقيل هى داخلة فى المقول أى ليقولن
المثبط لمن يثبطه من المنافقين وضعفة المؤمنين كأن لم تكن بينكم و بين محمد مودة حيث لم يستصحبكم فى الغزو حتى تفوزوا
بما فاز ياليتنى كنت معهم وغرضه القاء العداوة بينهم و بينه عليه الصلاة والسلام وتأكيدها وكأن مخففة من الثقيلة
واسمها ضمير الشأن وهو محذوف وقرئ لم يكن بالياء والمنادى فى ياليتنى محذوف أى ياقوم وقيل يا أطلق للتنبيه على
الاتساع وقوله تعالى فأفوز نصب على جواب التمنى وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى فأنا أفوز فى ذلك
الوقت أو على أنه معطوف على كنت داخل معه تحت التمنى ﴿فليقاتل فى سبيل الله﴾ قدم الظرف على الفاعل للاهتمام
به ﴿الذين يشرون الحيوة الدنيا بالآخرة﴾ أى يبيعونها بها وهم المؤمنون فالفاء جواب شرط مقدر أى ان بطأ هؤلاء
عن القتال فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم فى طلب الآخرة أو الذين يشترونها و يختارونها على الآخرة وهم المبطئون
فالفاء للتعقيب أى ليتركوا ما كانوا عليه من التثبط والنفاق وليعقبوه بالقتال فى سبيل الله ﴿ومن يقاتل فى سبيل الله
فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه﴾ بنون العظمة التفاتا ﴿أجرا عظيما﴾ لا يقادر قدره وتعقيب القتال بأحد الأمرين
للاشعار بأن المجاهد حقه أن يوطن نفسه باحدى الحسنيين و لا يخطر بباله القسم الثالث أصلا وتقديم القتل للايذان
بتقدمه فى استتباع الأجر . روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تكفل الله تعالى لمن
جاهد فى سبيله لا يخرجه الا جهاد فى سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه الى مسكنه الذى خرج منه مع
مانال من أجر وغنيمة ﴿ومالكم﴾ خطاب للمأمورين بالقتال على طريقة الالتفات مبالغة فى التحريض عليه وتأكيدا
لوجوبه وهو مبتدأ وخبر وقوله عز وجل ﴿لا تقاتلون فى سبيل الله﴾ حال عاملها مافى الظرف من معنى الفعل والاستفهام
للانكار والنفى أى أى شئ لكم غير مقاتلين أى لا عذر لكم فى ترك المقاتلة ﴿والمستضعفين﴾ عطف على اسم الله أى
فى سبيل المستضعفين وهو تخليصهم من الأسر وصونهم عن العدو أو على السبيل بحذف المضاف أى فى خلاص
المستضعفين و يجوز نصبه على الاختصاص فان سبيل الله يعم أبواب الخير وتخليص ضعفة المؤمنين من أيدى الكفرة

أعظمها وأخصها ﴿من الرجال والنساء والولدان﴾ بيان للمستضعفين أو حال منهم وهم المسلمون الذين بقوا بمكة لصد المشركين أو لضعفهم عن الهجرة مستذلين ممتهنين وانما ذكر الولدان معهم تكميلا للاستعطاف واستجلاب المرحمة وتنبيها على تناهى ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم الصبيان لارغام آبائهم وأمهاتهم وايذانا باجابة الدعاء الآتى واقتراب زمان الخلاص ببيان شركتهم فى التضرع الى الله تعالى كل ذلك للمبالغة فى الحث على القتال وقيل المراد بالولدان العبيد والاماء اذ يقال لهما الوليد والوليدة وقد غلب الذكور على الاناث فأطلق الولدان على الولائد أيضا ﴿الذين﴾ محله الجر على أنه صفة للمستضعفين أو لما فى حيز البيان أو النصب على الاختصاص ﴿يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها﴾ بالشرك الذى هو ظلم عظيم و بأذية المسلمين وهى مكة والظالم صفتها وتذكيره لتذكير ما أسند اليه فان اسم الفاعل والمفعول اذا أجرى على غير من هو له كان كالفعل فى التذكير والتأنيث بحسب ما عمل فيه ﴿واجعل لنا من لدنك وليا﴾ كلا الجارين متعلق باجعل لاختلاف معنييهما وتقديم المجرورين على المفعول الصريح لاظهار الاعتناء بهما وابراز الرغبة فى المؤخر بتقديم أحواله فان تأخير ماحقه التقديم عما هو من أحواله المرغبة فيه كما يورث شوق السامع الى وروده ينبئ عن كمال رغبة المتكلم فيه واعتنائه بحصوله لا محالة وتقديم اللام على من للمسارعة الى ابراز كون المسئول نافعا لهم مرغوبا فيه لديهم ويجوز أن تتعلق كلمة من بمحذوف وقع حالا من وليا قدمت عليه لكونه نكرة و كذا الكلام فى قوله تعالى ﴿واجعل لنا من لدنك نصيرا﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما أى ول علينا واليا من المؤمنين يوالينا و يقوم بمصالحنا و يحفظ علينا ديننا وشرعنا و ينصرنا على أعدائنا ولقد استجاب الله عز وجل دعاءهم حيث يسر لبعضهم الخروج الى المدينة وجعل لمن بقى منهم خير ولى وأعز ناصر ففتح مكة على يدى نبيه عليه الصلاة والسلام فتولاهم أى تول ونصرهم أية نصرة ثم استعمل عليهم عتاب بن أسيد فحماهم ونصرهم حتى صاروا أعز أهلها وقيل المراد واجعل لنا من لدنك ولاية ونصرة أى كن أنت ولينا وناصرنا وتكرير الفعل ومتعلقيه للمبالغة فى التضرع والابتهال ﴿الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله﴾ كلام مبتدأ سيق لترغيب المؤمنين فى القتال وتشجيعهم ببيان كمال قوتهم بامداد الله تعالى ونصرته وغاية ضعف أعدائهم أى المؤمنون انما يقاتلون فى دين الله الحق الموصل لهم الى الله عز وجل و فى اعلاء كلمته فهو وليهم وناصرهم لا محالة ﴿والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت﴾ أى فيما يوصلهم الى الشيطان فلا ناصر لهم سواه والفاء فى قوله تعالى ﴿فقاتلوا أولياء الشيطان﴾ لبيان استتباع ماقبلها لما بعدها وذكرهم بهذا العنوان للدلالة على أن ذلك نتيجة لقتالهم فى سبيل الشيطان والاشعار بأن المؤمنين أولياء الله تعالى لما أن قتالهم فى سبيله وكل ذلك لتأكيد رغبة المؤمنين فى القتال وتقوية عزائمهم عليه فان ولاية الله تعالى علم فى العزة والقوة كما أن ولاية الشيطان مثل فى الذلة والضعف كأنه قيل اذا كان الامر كذلك فقاتلوا يا أولياء الله أولياء الشيطان ثم صرح بالتعليل فقيل ﴿ان كيد الشيطان كان ضعيفا﴾ أى فى حد ذاته فكيف بالقياس الى قدرة الله تعالى ولم يتعرض لبيان قوة جنابه تعالى ايذانا بظهورها قالوا فائدة ادخال كان فى أمثال هذه المواقع التأكيد ببيان أنه منذ كان كان كذلك فالمعنى ان كيد الشيطان منذ كان كان موصوفا بالضعف ﴿ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾ تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من احجامهم عن القتال مع أنهم كانوا قبل ذلك راغبين فيه حراصا عليه بحيث كادوا يباشرونه كما ينبئ عنه الامر بكف الايدى فان ذلك مشعر بكونهم بصدد بسطها الى العدو بحيث يكادون يسطون بهم قال الكلبي ان جماعة من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام منهم عبدالرحمن بن عوف الزهرى والمقداد ابن الاسود الكندى وقدامة بن مظعون الجمحى وسعد بن أبى وقاص الزهرى رضى الله تعالى عنهم كانوا يلقون من

مشركى مكة قبل الهجرة أذى شديدا فيشكون ذلك الى النبي عليه الصلاة والسلام و يقولون ائذن لنا فى قتالهم و يقول لهم النبي عليه الصلاة والسلام كفوا أيديكم ﴿وأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة﴾ فانى لم أومر بقتالهم و بناء القول للمفعول مع أن القائل هو النبي عليه الصلاة والسلام للايذان بكون ذلك بأمر الله سبحانه وتعالى ولان المقصود بالذات والمعتبر فى التعجيب انما هو كمال رغبتهم فى القتال و كونهم بحيث احتاجوا الى النهى عنه وانما ذكر فى حيز الصلة الأمر بكف الأيدى لتحقيقه وتصويره على طريقة الكناية فلا يتعلق ببيان خصوصية الآمر غرض وكانوا فى مدة اقامتهم بمكة مستمرين على تلك الحالة فلما هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وأمروا بالقتال فى وقعة بدر كرهه بعضهم وشق ذلك عليه لكن لا شكا فى الدين ولا رغبة عنه بل نفورا عن الاخطار بالارواح وخوفا من الموت بموجب الجبلة البشرية وذلك قوله تعالى ﴿فلما كتب عليهم القتال﴾ الخ وهو عطف على قيل لهم كفوا أيديكم باعتبار مدلوله الكنائى اذ حينئذ يتحقق التباين بين مدلولى المعطوفين وعليه يدور أمر التعجيب كأنه قيل ألم تر الى الذين كانوا حراصا على القتال فلما كتب عليهم كرهه بعضهم وقوله تعالى ﴿اذا فريق منهم يخشون الناس﴾ جواب لما على أن فريق مبتدأ ومنهم متعلق بمحذوف وقع صفة له و يخشون خبره وتصديره باذا المفاجأة لبيان مسارعتهم الى الخشية آثر ذى أثير من غير تلعثم وتردد أى فاجأ فريق منهم أن يخشوا الكفار أن يقتلوهم ولعل توجيه التعجيب الى الكل مع صدور الخشية عن بعضهم للايذان بأنه ما كان ينبغى أن يصدر عن أحدهم ماينافى حالتهم الأولى وقوله تعالى ﴿كخشية الله﴾ مصدر مضاف الى المفعول محله النصب على أنه حال من فاعل يخشون أى يخشونهم مشبهين لأهل خشية الله تعالى وقوله تعالى ﴿أو أشد خشية﴾ عطف عليه بمعنى أو أشد خشية من أهل خشية الله أو على أنه مصدر مؤكد على جعل الخشية ذات خشية مبالغة كما فى جد جده أى يخشونهم خشية مثل خشية الله أو خشية أشد خشية من خشية الله وأياما كان فكلمة أو اما للتنويع على معنى أن خشية بعضهم كخشية الله وخشية بعضهم أشد منها واما للابهام على السامع وهو قريب مما فى قوله تعالى وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون يعنى أن من يبصرهم يقول انهم مائة ألف أو يزيدون ﴿وقالوا﴾ عطف على جواب لما أى فلما كتب عليهم القتال فاجأ فريق منهم خشية الناس وقالوا ﴿ربنا لم كتبت علينا القتال﴾ فى هذا الوقت لا على وجه الاعتراض على حكمه تعالى والانكار لايجابه بل على طريق تمنى التخفيف ﴿لولا أخرتنا الى أجل قريب﴾ استزادة فى مدة الكف واستمهال الى وقت آخر حذرا من الموت وقد جوز أن يكون هذا مما نطقت به ألسنة حالهم من غير أن يتفوهوا به صريحا ﴿قل﴾ أى تزهيدا لهم فيما يؤملونه بالقعود من المتاع الفانى وترغيبا فيما ينالونه بالقتال من النعيم الباقى ﴿متاع الدنيا﴾ أى ما يتمتع و ينتفع به فى الدنيا ﴿قليل﴾ سريع التقضى وشيك الانصرام وان أخرتم الى ذلك الأجل ﴿والآخرة﴾ أى ثوابها الذى من جملته الثواب المنوط بالقتال ﴿خير﴾ أى لكم من ذلك المتاع القليل لكثرته وعدم انقطاعه وصفائه عن الكدورات وانما قيل ﴿لمن اتقى﴾ حثا لهم على اتقاء العصيان والاخلال بمواجب التكليف ﴿ولا تظلمون فتيلا﴾ عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى تجزون فيها ولا تنقصون أدنى شىء من أجور أعمالكم التى من جملتها مسعاكم فى شأن القتال فلا ترغبوا عنه والفتيل مافى شق النواة من الخيط يضرب به المثل فى القلة والحقارة وقرئ يظلمون بالياء اعادة للضمير الى ظاهر من ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾ كلام مبتدأ مسوق من قبله تعالى بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المخاطبين اعتناء بالزامهم اثر بيان حقارة الدنيا وعلو شأن الآخرة بواسطته عليه الصلاة والسلام فلا محل له من الاعراب أو فى محل النصب داخل تحت القول المأمور به أى أينما تكونوا فى الحضر والسفر يدرككم الموت الذى لأجله تكرهون القتال

زعمامنكم أنه من مظانه وتحبون القعود عنه على زعم أنه منجاة منه و فى لفظ الادراك اشعار بأنهم فى الهرب من الموت وهو مجد فى طلبهم وقرئ بالرفع على حذف الفاء كما فى قوله من يفعل الحسنات الله يشكرها أو على اعتبار وقوع أينما كنتم فى موقع أينما تكونوا أو على أنه كلام مبتدأ وأينما تكونوا متصل بلا تظلمون أى لا تنقصون شيئاً مما كتب من آجالكم أينما تكونوا فى ملاحم الحروب ومعارك الخطوب ﴿ولو كنتم فى بروج مشيدة﴾ فى حصون رفيعة أو قصور محصنة وقال السدى وقتادة بروج السماء يقال شاد البناء وأشاده وشيده رفعه وقرئ مشيدة بكسر الياء وصفاً لها بفعل فاعلها مجازاً كما فى قصيدة شاعرة ومشيدة من شاد القصر اذا رفعه أو طلاه بالشيد وهو الجص وجواب لو محذوف اعتمادا على دلالة ماقبله عليه أى ولو كنتم فى بروج مشيدة يدرككم الموت والجملة معطوفة على أخرى مثلها أى لو لم تكونوا فى بروج مشيدة ولو كنتم الخ وقد اطرد حذفها لدلالة المذكور عليها دلالة واضحة فان الشئ اذا تحقق عند وجود المانع فلأن يتحقق عند عدمه أولى وعلى هذه النكتة يدور مافى لو الوصلية من التأكيد والمبالغة وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴿وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله﴾ كلام مبتدأ جئ به عقيب ماحكى عن المسلمين لما بينهما من المناسبة فى اشتمالهما على اسناد مايكرهونه الى بعض الأمور وكراهتهم له بسبب ذلك والضمير لليهود والمنافقين . روى أنه كان قد بسط عليهم الرزق فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فدعاهم الى الايمان فكفروا أمسك عنهم بعض الامساك فقالوا مازلنا نعرف النقص فى ثمارنا ومزارعنا منذ قدم هذا الرجل وأصحابه وذلك قوله تعالى ﴿وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾ أى وان تصبهم نعمة ورخاء نسبوها الى الله تعالى وان تصبهم بلية من جدب وغلاء أضافوها اليك كما حكى عن أسلافهم بقوله تعالى وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه فأمر النبى عليه الصلاة والسلام بأن يرد زعمهم الباطل ويرشدهم الى الحق ويلقمهم الحجر ببيان اسناد الكل اليه تعالى على الاجمال اذ لا يجترئون على معارضة أمر الله عز وجل حيث قيل ﴿قل كل من عند الله﴾ أى كل واحدة من النعمة والبلية من جهة الله تعالى خلقا وايجادا من غير أن يكون لى مدخل فى وقوع شئ منهما بوجه من الوجوه كما تزعمون بل وقوع الأولى منه تعالى بالذات تفضلا ووقوع الثانية بواسطة ذنوب من ابتلى بها عقوبة كما سيأتى بيانه فهذا الجواب المجمل فى معنى ماقيل رداً على أسلافهم من قوله تعالى ألا انما طائرهم عند الله أى انما سبب خيرهم وشرهم أو سبب اصابة السيئة التى هى ذنوبهم عند الله تعالى لا عند غيره حتى يسندوها اليه ويطيروا به وقوله تعالى ﴿فما لهؤلاء القوم﴾ الخ كلام معترض بين المبين وبيانه مسوق من جهته تعالى لتعييرهم بالجهل وتقبيح حالهم والتعجيب من كمال غباوتهم والفاء لترتيبه على ماقبله وقوله تعالى ﴿لا يكادون يفقهون حديثا﴾ حال من هؤلاء والعامل فيها مافى الظرف من معنى الاستقرار أى وحيث كان الأمر كذلك فأى شئ حصل لهم حال كونهم بمعزل من أن يفقهوا حديثا أو استئناف مبنى على سؤال نشأ من الاستفهام كأنه قيل ما بالهم وماذا يصنعون حتى يتعجب منه أو يسأل عن سببه فقيل لا يكادون يفقهون حديثا من الاحاديث أصلا فيقولون مايقولون اذ لو فقهوا شيئا من ذلك لفهموا هذا النص ومافى معناه وماهو أوضح منه من النصوص القرآنية الناطقة بأن الكل فائض من عند الله تعالى وأن النعمة منه تعالى بطريق التفضل والاحسان والبلية بطريق العقوبة على ذنوب العباد لاسيما النص الوارد عليهم فى صحف موسى وابراهيم الذى وفى أن لا تزر وازرة وزر أخرى ولم يسندوا جناية أنفسهم الى غيرهم وقوله تعالى ﴿ما أصابك من حسنة﴾ الخ بيان للجواب المجمل المأمور به واجراؤه على لسان النبى عليه الصلاة والسلام ثم سوق البيان من جهته عز وجل بطريق تلوين الخطاب وتوجيهه الى كل واحد من الناس والالتفات لمزيد الاعتناء به والاهتمام برد مقالتهم الباطلة والايذان بأن مضمونه مبنى على حكمة دقيقة حقيقة بأن يتولى

بيانها علام الغيوب وتوجيه الخطاب الى كل واحد منهم دون كلهم كما فى قوله تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم للمبالغة فى التحقيق بقطع احتمال سببية معصية بعضهم لعقوبة الآخرين أى ما أصابك من نعمة من النعم ﴿فمن الله﴾ أى فهى منه تعالى بالذات تفضلا واحسانا من غير استيجاب لها من قبلك كيف لا وأن كل مايفعله المرء من الطاعات التى يفرض كونها ذريعة الى اصابة نعمة ما فهى بحيث لا تكاد تكافئ نعمة حياته المقارنة لادائها ولا نعمة اقداره تعالى اياه على أدائها فضلا عن استيجابها لنعمة أخرى ولذلك قال عليه الصلاة والسلام ما أحد يدخل الجنة الا برحمة الله تعالى قيل ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا ﴿وما أصابك من سيئة﴾ أى بلية من البلايا ﴿فمن نفسك﴾ أى فهى منها بسبب اقترافها المعاصى الموجبة لها وان كانت من حيث الايجاد منتسبة اليه تعالى نازلة من عنده عقوبة كقوله تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير وعن عائشة رضى الله عنها مامن مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها وحتى انقطاع شسع نعله الا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر . وقيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما قبله وما بعده لكن لا لبيان حاله عليه الصلاة والسلام بل لبيان حال الكفرة بطريق التصوير ولعل ذلك لاظهار كمال السخط والغضب عليهم والاشعار بأنهم لفرط جهلهم وبلادتهم بمعزل من استحقاق الخطاب لاسيما بمثل هذه الحكمة الأنيقة ﴿وأرسلناك للناس رسولا﴾ بيان لجلالة منصبه عليه الصلاة والسلام ومكانته عند الله عز وجل بعد بيان بطلان زعمهم الفاسد فى حقه عليه الصلاة والسلام بناء على جهلهم بشأنه الجليل وتعريف الناس للاستغراق والجار اما متعلق برسولا قدم عليه للاختصاص الناظر الى قيد العموم أى مرسلا لكل الناس لا لبعضهم فقط كما فى قوله تعالى وما أرسلناك الا كافة للناس واما بالفعل فرسولا حال مؤكدة وقد جوز أن يكون مصدرا مؤكدا كما فى قوله

لقد كذب الواشون مافهت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول

أى بارسال بمعنى رسالة ﴿وكفى بالله شهيدا﴾ أى على رسالتك بنصب المعجزات التى من جملتها هذا النص الناطق والوحى الصادق والالتفات لتربية المهابة وتقوية الشهادة والجملة اعتراض تذييلى ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ بيان لأحكام رسالته عليه الصلاة والسلام اثر بيان تحققها وثبوتها وانما كان كذلك لأن الآمر والناهى فى الحقيقة هو الله تعالى وانما هو عليه الصلاة والسلام مبلغ لأمره ونهيه فمرجع الطاعة وعدمها هو الله سبحانه . روى أنه عليه الصلاة والسلام قال من أحبنى فقد أحب الله ومن أطاعنى فقد أطاع الله فقال المنافقون ألا تسمعون الى مايقول هذا الرجل لقد قارف الشرك وهو ينهى أن يعبد غير الله مايريد الا أن نتخذه ربا كما اتخذت النصارى عيسى فنزلت . والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بالرسول دون الخطاب للايذان بأن مناط كون طاعته عليه الصلاة والسلام طاعة له تعالى ليس خصوصية ذاته عليه الصلاة والسلام بل من حيثية رسالته واظهار الجلالة لتربية المهابة وتأكيد وجوب الطاعة بذكر عنوان الألوهية وحمل الرسول على الجنس المنتظم له عليه الصلاة والسلام انتظاما أوليا يأباه تخصيص الخطاب به عليه السلام فى قوله تعالى ﴿ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا﴾ وجواب الشرط محذوف والمذكور تعليل له أى ومن أعرض عن الطاعة فأعرض عنه انما أرسلناك رسولا مبلغا لا حفيظا مهيمنا تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتعاقبهم بحسبها وحفيظا حال من الكاف وعليهم متعلق به قدم عليه رعاية للفاصلة وجمع الضمير باعتبار معنى من كما أن الافراد فى تولى باعتبار لفظه ﴿ويقولون﴾ شروع فى بيان معاملتهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بيان وجوب طاعته أى يقولون اذا أمرتهم بشئ ﴿طاعة﴾ أى أمرنا وشأننا طاعة أو منا طاعة والأصل النصب على المصدر والرفع للدلالة على الثبات كسلام ﴿فاذا برزوا من عندك﴾ أى خرجوا من مجلسك ﴿بيت طائفة منهم﴾ أى من القائلين

المذكورين وهم رؤساؤهم ﴿غير الذى تقول﴾ أى زورت طائفة منهم وسوت خلاف ما قالت لك من القبول وضمان الطاعة لانهم مصرون على الرد والعصيان وانما يظهرون ما يظهرون على وجه النفاق أو خلاف ما قلت لها والتبييت اما من البيتوتة لانه قضاء الأمر وتدبيره بالليل يقال هذا أمر بيت بليل واما من بيت الشعر لأن الشاعر يدبره و يسويه وتذكير الفعل لأن تأنيث الطائفة غير حقيقى وقرئ بادغام التاء فى الطاء لقرب المخرج واسناده الى طائفة منهم لبيان أنهم المتصدون له بالذات والباقون أتباع لهم فى ذلك لالأن الباقين ثابتون على الطاعة ﴿والله يكتب ما يبيتون﴾ أى يكتبه فى جملة ما يوحى اليك فيطلعك على أسرارهم فلا يحسبوا أن مكرهم يخفى عليكم فيجدون بذلك الى الاضرار بكم سبيلا أو يثبته فى صحائفهم فيجازيهم عليه وأياما كان فالجملة اعتراضية ﴿فأعرض عنهم﴾ أى لا تبال بهم و بما صنعوا أو تجاف عنهم ولا تتصد للانتقام منهم والفاء لسببية ما قبلها لما بعدها ﴿وتوكل على الله﴾ فى كل ما تأتى وما تذر لاسيما فى شأنهم واظهار الجلالة فى مقام الاضمار للاشعار بعلة الحكم ﴿وكفى بالله وكيلا﴾ فيكفيك معرتهم و ينتقم لك منهم والاظهار هنا أيضا لما مر وللتنبيه على استقلال الجملة واستغنائها عما عداها من كل وجه ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ انكار واستقباح لعدم تدبرهم القرآن واعراضهم عن التأمل فيما فيه من موجبات الايمان وتدبر الشئ تأمله والنظر فى أدباره وما يؤول اليه فى عاقبته ومنتهاه ثم استعمل فى كل تفكر ونظر والفاء للعطف على مقدر أى أيعرضون عن القرآن فلا يتأملون فيه ليعلموا كونه من عند الله تعالى بمشاهدة ما فيه من الشواهد التى من جملتها هذا الوحى الصادق والنص الناطق بنفاقهم المحكى على ما هو عليه ﴿ولو كان﴾ أى القرآن ﴿من عند غير الله﴾ كما يزعمون ﴿لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ بأن يكون بعض أخباره غير مطابق للواقع اذ لا علم بالأمور الغيبية ماضية كانت أو مستقبلة لغيره سبحانه وحيث كانت كلها مطابقة للواقع تعين كونه من عنده تعالى. قال الزجاج ولولا أنه من عند الله تعالى لكان ما فيه من الاخبار بالغيب مما يسره المنافقون وما يبيتونه مختلفا بعضه حق و بعضه باطل لأن الغيب لا يعلمه الا الله تعالى وقال أبو بكر الاصم ان هؤلاء المنافقين كانوا يتواطؤون فى السر على أنواع كثيرة من الكيد والمكر وكان الله تعالى يطلع الرسول عليه الصلاة والسلام على ذلك و يخبره بها مفصلة فقيل لهم ان ذلك لو لم يحصل باخبار الله تعالى لما اطرد الصدق فيه ولوقع فيه الاختلاف فلما لم يقع ذلك قط علم أنه باعلامه تعالى هذا هو الذى يستدعيه جزالة النظم الكريم وأما حمل الاختلاف على التناقض وتفاوت النظم فى البلاغة بأن كان بعضه دالا على معنى صحيح عند علماء المعانى و بعضه على معنى فاسد غير ملتئم و بعضه بالغا حد الاعجاز و بعضه قاصرا عنه يمكن معارضته كما جنح اليه الجمهور فمما لا يساعده السباق و لا السياق ومن رام التقريب وقال لعل ذكره هنا للتنبيه على أن اختلاف ما سبق من الأحكام ليس لتناقض فى الحكم بل لاختلاف فى الحكم والمصالح المقتضية لذلك فقد أبعد عن الحق بمراحل ﴿واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾ يقال أذاع السر وأذاع به أى أشاعه وأفشاه وقيل معنى أذاعوا به فعلوا به الاذاعة وهو أبلغ من أذاعوه وهو كلام مسوق لدفع ما عسى يتوهم فى بعض المواد من شائبة الاختلاف بناء على عدم فهم المراد ببيان أن ذلك لعدم وقوفهم على معنى الكلام لا لتخلف مدلوله عنه وذلك أن ناسا من ضعفة المسلمين الذين لا خبرة لهم بالأحوال كانوا اذا أخبرهم الرسول عليه الصلاة والسلام بما أوحى اليه من وعد بالظفر أو تخويف من الكفرة يذيعونه من غير فهم لمعناه و لا ضبط لفحواه على حسب ما كانوا يفهمونه و يحملونه عليه من المحامل وعلى تقدير الفهم قد يكون ذلك مشروطا بأمور تفوت بالاذاعة فلا يظهر أثره المتوقع فيكون ذلك منشأ لتوهم الاختلاف فنعى عليهم ذلك وقيل ﴿ولو ردوه﴾ أى ذلك الأمر الذى جاءهم ﴿الى الرسول﴾ أى عرضوه على رأيه عليه الصلاة والسلام مستكشفين لمعناه وما ينبغى له من التدبير والالتفات لما أن عنوان الرسالة من موجبات الرد والمراجعة الى رأيه

عليه الصلاة والسلام ﴿والى أولى الأمر منهم﴾ وهم كبراء الصحابة البصراء فى الأمور رضى الله تعالى عنهم ﴿لعلمه﴾ أى لعلم الرادون معناه وتدبيره وانما وضع موضع ضميرهم الموصول فقيل ﴿الذين يستنبطونه منهم﴾ للايذان بأنه ينبغى أن يكون قصدهم برده اليهم استكشاف معناه واستيضاح فحواه أى لعلمه أولئك الرادون الذين يستنبطونه أى يتلقونه و يستخرجون علمه وتدبيره منهم أى من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام وأولى الأمر من صحابته رضوان الله عليهم أجمعين ولما فعلوا فى حقه ما فعلوا فلم يقع فيه ما وقع من الاشتباه وتوهم الاختلاف وقيل لعلمه الذين يستخرجون تدبيره بفطنهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها فكلمة من فى منهم بيانية وقيل انهم كانوا اذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمن وسلامة أو خوف وخلل أذاعوا به وكانت اذاعتهم مفسدة ولو ردوا ذلك الخبر الى رسول الله عليه الصلاة والسلام والى أولى الأمر لعلم تدبير ما أخبروا به الذين يستنبطونه أى يستخرجون تدبيره بفطنهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها وقيل كانوا يقفون من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولى الأمر على أمن و وثوق بالظهور على بعض الاعداء أو على خوف فيذيعونه فينتشر فيبلغ الاعداء فتعود اذاعتهم مفسدة ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر وفوضوه اليهم وكانوا كأن لم يسمعوا لعلم الذين يستنبطون تدبيره كيف يدبرونه وما يأتون وما يذرون فيه وقيل كانوا يسمعون من أفواه المنافقين شيئا من الخبر عن السرايا مظنونا غير معلوم الصحة فيذيعونه فيعود ذلك وبالا على المؤمنين ولو ردوه الى الرسول عليه الصلاة والسلام والى أولى الأمر وقالوا نسكت حتى نسمعه منهم ونعلم هل هو مما يذاع أو لا يذاع لعلم صحته وهل هو مما يذاع أو لا يذاع هؤلاء المذيعون وهم الذين يستنبطونه من الرسول وأولى الأمر أى يتلقونه منهم و يستخرجون علمه من جهتهم فساق النظم الكريم حينئذ لبيان جناية تلك الطائفة وسوء تدبيرهم اثر بيان جناية المنافقين ومكرهم والخطاب فى قوله تعالى ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ للطائفة المذكورة على طريقة الالتفات أى لولا فضله تعالى عليكم و رحمته بارشادكم الى طريق الحق الذى هو المراجعة فى مظان الاشتباه الى الرسول صلى الله عليه وسلم وأولى الأمر ﴿لاتبعتم الشيطان﴾ وعملتم بآراء المنافقين فيما تأتون وما تذرون ولم تهتدوا الى سنن الصواب ﴿الا قليلا﴾ وهم أولو الامر الواقفون على أسرار الكتاب الراسخون فى معرفة أحكامه فالاستثناء منقطع وقيل ولولا فضله تعالى عليكم و رحمته بارسال الرسول وانزال الكتاب لاتبعتم الشيطان و بقيتم على الكفر والضلالة الا قليلا منكم قد تفضل عليه بعقل راجح اهتدى به الى طريق الحق والصواب وعصمه من متابعة الشيطان كقس بن ساعدة الايادى و زيد بن عمرو بن نفيل و ورقة بن نوفل وأضرابهم فالخطاب للكل والاستثناء متصل وقيل المراد بالفضل والرحمة النصرة والظفر بالاعداء أى ولولا حصول النصر والظفر على التواتر والتتابع لاتبعتم الشيطان وتركتم الدين الا قليلا منكم وهم أولوا البصائر النافذة والنيات القوية والعزائم الماضية من أفاضل المؤمنين الواقفين على حقية الدين البالغين الى درجة حق اليقين المستغنين عن مشاهدة آثار حقيته من الفتح والظفر وقيل الا اتباعا قليلا ﴿فقاتل فى سبيل الله﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الالتفات وهو جواب شرط محذوف ينساق اليه النظم الكريم أى اذا كان الامر كما حكى من عدم طاعة المنافقين و كيدهم وتقصير الآخرين فى مراعاة أحكام الاسلام فقاتل أنت وحدك غير مكترث بما فعلوا وقوله تعالى ﴿لا تكلف الا نفسك﴾ أى الا فعل نفسك استئناف مقرر لما قبله فان اختصاص تكليفه عليه الصلاة والسلام بفعل نفسه من موجبات مباشرته للقتال وحده وفيه دلالة على أن ما فعلوا من التثبط لا يضره عليه الصلاة والسلام و لا يؤاخذ به وقيل هو حال من فاعل قاتل أى فقاتل غير مكلف الا نفسك وقرئ لا تكلف بالجزم على النهى وقيل على جواب الامر وقرئ بنون العظمة

أى لانكلفك الا فعل نفسك لاعلى معنى لانكلف أحدا الا نفسك ﴿وحرض المؤمنين﴾ عطف على الامر السابق داخل فى حكمه فان كون حال الطائفتين كما حكى سبب للامر بالقتال وحده و بتحريض خلص المؤمنين والتحريض على الشئ الحث عليه والترغيب فيه قال الراغب كأنه فى الاصل ازالة الحرض وهو مالا خير فيه و لا يعتد به أى رغبهم فى القتال و لاتعنف بهم وانما لم يذكر المحرض عليه لغاية ظهوره وقوله تعالى ﴿عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا﴾ عدة منه سبحانه وتعالى محققة الانجاز بكف شدة الكفرة ومكروهم فان ماصدر بلعل وعسى مقرر الوقوع من جهته عز وجل وقد كان كذلك حيث روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم واعد أبا سفيان بعد حرب أحد موسم بدر الصغرى فى ذى القعدة فلما بلغ الميعاد دعا الناس الى الخروج فكرهه بعضهم فنزلت فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبعين راكبا و وافوا الموعد وألقى الله تعالى فى قلوب الذين كفروا الرعب فرجعوا من مر الظهران و روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وافى بجيشه بدرا وأقام بها ثمانى ليال وكانت معهم تجارات فباعوها وأصابوا خيرا كثيرا وقد مر فى سورة آل عمران ﴿والله أشد بأسا﴾ أى من قريش ﴿وأشد تنكيلا﴾ أى تعذيبا وعقوبة تنكل من يشاهدها عن مباشرة ما يؤدى اليها والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبلها واظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة وتكرير الخبر لتأكيد التشديد وقوله تعالى ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها﴾ أى من ثوابها جملة مستأنفة سيقت لبيان أن له عليه الصلاة والسلام فيما أمر به من تحريض المؤمنين حظا موفورا فان الشفاعة هى التوسط بالقول فى وصول شخص الى منفعة من المنافع الدنيوية أو الاخروية أو خلاصه من مضرة ما كذلك من الشفع كأن المشفوع له كان فردا فجعله الشفيع شفعا والحسنة منها ما كانت فى أمر مشروع روعى بها حق مسلم ابتغاء لوجه الله تعالى من غير أن يتضمن غرضا من الاغراض الدنيوية وأى منفعة أجل مما قد حصل للمؤمنين بتحريضه عليه الصلاة والسلام على الجهاد من المنافع الدنيوية والأخروية وأى مضرة أعظم مما تخلصوا منه بذلك من التثبط عنه ويندرج فيها الدعاء للمسلم فانه شفاعة الى الله سبحانه وعليه مساق آية التحية الآتية روى أنه صلى الله عليه وسلم قال من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له وقال له الملك ولك مثل ذلك وهذا بيان لمقدار النصيب الموعود ﴿ومن يشفع شفاعة سيئة﴾ وهى ما كانت بخلاف الحسنة ﴿يكن له كفل منها﴾ أى نصيب من وزرها مساو لها فى المقدار من غير أن ينقص منه شئ ﴿وكان الله على كل شئ مقيتا﴾ أى مقتدرا من أقات على الشئ اذا اقتدر عليه أو شهيدا حفيظا واشتقاقه من القوت فانه يقوى البدن ويحفظه والجملة تذييل مقرر لما قبلها على كلا المعنيين ﴿واذا حييتم بتحية﴾ ترغيب فى فرد شائع من أفراد الشفاعة الحسنة اثر ما رغب فيها على الاطلاق وحذر عما يقابلها من الشفاعة السيئة وارشاد الى توفية حق الشفيع وكيفية أدائه فان تحية الاسلام من المسلم شفاعة منه لأخيه الى الله تعالى والتحية مصدر حيى أصلها تحيية كتسمية من سمى وأصل الأصل تحيى بثلاث ياءات فحذفت الأخيرة وعوض عنها تاء التأنيث وأدغمت الاولى فى الثانية بعد نقل حركتها الى الحاء قال الراغب أصل التحية الدعاء بالحياة وطولها ثم استعملت فى كل دعاء وكانت العرب اذا لقى بعضهم بعضا يقول حياك الله ثم استعملها الشرع فى السلام وهى تحية الاسلام قال تعالى تحيتهم فيها سلام وقال تحيتهم يوم يلقونه سلام وقال فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله قالوا فى السلام مزية على التحية لما أنه دعاء بالسلامة من الآفات الدينية والدنيوية وهى مستلزمة لطول الحياة وليس فى الدعاء بطول الحياة ذلك ولان السلام من أسمائه تعالى فالبداءة بذكره مما لاريب فى فضله ومزيته أى اذا سلم عليكم من جهة المؤمنين ﴿فحيوا بأحسن منها﴾ أى بتحية أحسن منها بأن تقولوا وعليكم السلام ورحمة الله ان اقتصر المسلم على الأول وبأن تزيدوا وبركاته

ان جمعهما المسلم وهى النهاية لانتظامها لجميع فنون المطالب التى هى السلامة عن المضار ونيل المنافع ودوامها ونماؤها ﴿أو ردوها﴾ أى أجيبوها بمثلها. روى أن رجالا قال أحدهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم السلام عليك فقال وعليك السلام ورحمة الله وقال الآخر السلام عليك ورحمة الله فقال وعليك السلام ورحمة الله وبركاته وقال الآخر السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقال وعليك فقال الرجل نقصتنى فأين ماقال الله تعالى وتلا الآية فقال عليه الصلاة والسلام انك لم تترك لى فضلا فرددت عليك مثله وجواب التسليم واجب وانما التخيير بين الزيادة وتركها وعن النخعى أن السلام سنة والرد فريضة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الرد واجب وما من رجل يمر على قوم مسلمين فيسلم عليهم ولا يردون عليه الا نزع الله منهم روح القدس وردت عليه الملائكة ولا يرد فى الخطبة وتلاوة القرآن جهرا ورواية الحديث وعند دراسة العلم والاذان والاقامة ولا يسلم على لاعب النرد والشطرنج والمغنى والقاعد لحاجته ومطير الحمام والعارى فى الحمام وغيره قالوا ويسلم الرجل على امرأته لا على الأجنبية والسنة أن يسلم الماشى على القاعد والراكب على الماشى وراكب الفرس على راكب الحمار والصغير على الكبير والقليل على الكثير واذا التقيا ابتدرا وعن أبى حنيفة رضى الله عنه لا يجهر بالرد يعنى الجهر الكثير وعن النبى عليه الصلاة والسلام اذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم أى وعليكم ما قلتم حيث كان يقول بعضهم السام عليكم وروى لا تبدأ اليهودى بالسلام واذا بدأك فقل وعليك وعن الحسن أنه يجوز أن يقول للكافر وعليك السلام دون الزيادة وقيل التحية بالاحسن عند كون المسلم مسلما ورد مثلها عند كونه كافرا ﴿ان الله كان على كل شئ حسيبا﴾ فيحاسبكم على كل شئ من أعمالكم التى من جملتها ماأمرتم به من التحية فحافظوا على مراعاتها حسبما أمرتم به ﴿الله لا اله الا هو﴾ مبتدأ وخبر وقوله تعالى ﴿ليجمعنكم الى يوم القيامة﴾ جواب قسم محذوف أى والله ليحشرنكم من قبوركم الى حساب يوم القيامة وقيل الى بمعنى فى والجملة القسمية اما مستأنفة لا محل لها من الاعراب أو خبر ثان للمبتدا أو هى الخبر ولا اله الا هو اعتراض وقوله تعالى ﴿لاريب فيه﴾ أى فى يوم القيامة أو فى الجمع حال من اليوم أو صفة للمصدر أى جمعا لاريب فيه ﴿ومن أصدق من الله حديثا﴾ انكار لأن يكون أحد أصدق منه تعالى فى وعده وسائر أخباره وبيان لاستحالته كيف لا والكذب محال عليه سبحانه دون غيره ﴿فمالكم﴾ مبتدأ وخبر والاستفهام للانكار والنفى والخطاب لجميع المؤمنين لكن مافيه من معنى التوبيخ متوجه الى بعضهم وقوله تعالى ﴿فى المنافقين﴾ متعلق اما بما تعلق به الخبر أى أى شئ كائن لكم فيهم أى فى أمرهم وشأنهم فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه واما بما يدل عليه قوله تعالى ﴿فئتين﴾ من معنى الافتراق أى فمالكم تفترقون فى المنافقين واما بمحذوف وقع حالا من فئتين أى كائنتين فى المنافقين لانه فى الاصل صفة فلما قدمت انتصبت حالا كما هو شأن صفات النكرات على الاطلاق أو من الضمير فى تفترقون وانتصاب فئتين عند البصريين على الحالية من المخاطبين والعامل مافى لكم من معنى الفعل كما فى قوله تعالى فمالهم عن التذكرة معرضين وعند الكوفيين على خبرية كان مضمرة أى فمالكم فى المنافقين كنتم فئتين والمراد انكار أن يكون للمخاطبين شئ مصحح لاختلافهم فى أمر المنافقين وبيان وجوب بت القول بكفرهم واجرائهم مجرى المجاهرين بالكفر فى جميع الاحكام وذكرهم بعنوان النفاق باعتبار وصفهم السابق. روى أنهم قوم من المنافقين استأذنوا رسول الله عليه الصلاة والسلام فى الخروج الى البدو معتلين باجتواء المدينة فلما خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة فمرحلة حتى لحقوا بالمشركين فاختلف المسلمون فى أمرهم وقيل هم قوم هاجروا من مكة الى المدينة ثم بدا لهم فرجعوا وكتبوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم انا على دينك وما أخرجنا الا اجتواء المدينة والاشتياق الى بلدنا وقيل هم ناس أظهروا الاسلام وقعدوا عن الهجرة وقيل هم قوم خرجوا مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم يوم أحد ثم رجعوا ويأباه ماسيأتى من جعل هجرتهم غاية للنهى عن توليهم وقيل هم العرنيون الذين أغاروا على السرح وقتلوا راعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرده ماسيأتى من الآيات الناطقة بكيفية المعاملة معهم من السلم والحرب وهؤلاء قد أخذوا وفعل بهم مافعل من المثلة والقتل ولم ينقل فى أمرهم اختلاف المؤمنين ﴿والله أركسهم﴾ حال من المنافقين مفيدة لتأكيد الانكار السابق واستبعاد وقوع المنكر ببيان وجود النافى بعد بيان عدم الداعى وقيل من ضمير المخاطبين والرابط هو الواو أى أى شئ يدعوكم الى الاختلاف فى كفرهم مع تحقق مايوجب اتفاقكم على كفرهم وهو أن الله تعالى قد ردهم فى الكفر كما كانوا ﴿بما كسبوا﴾ بسبب ما كسبوه من الارتداد واللحوق بالمشركين والاحتيال على رسول الله صلى الله عليه وسلم والعائد الى الموصول محذوف وقيل ما مصدرية أى بكسبهم وقيل معنى أركسهم نكسهم بأن صيرهم للنار وأصل الركس رد الشئ مقلوبا وقرئ ركسهم مشددا وركسهم أيضا مخففا ﴿أتريدون أن تهدوا من أضل الله﴾ تجريد للخطاب وتخصيص له بالقائلين بإيمانهم من الفئتين وتوبيخ لهم على زعمهم ذلك واشعار بأنه يؤدى الى محاولة المحال الذى هو هداية من أضله الله تعالى وذلك لأن الحكم بإيمانهم وادعاء اهتدائهم وهم بمعزل من ذلك سعى فى هدايتهم وارادة لها ووضع الموصول موضع ضمير المنافقين لتشديد الانكار وتأكيد استحالة الهداية بما ذكر فى حيز الصلة وتوجيه الانكار الى الارادة لا الى متعلقها بأن يقال أتهدون الخ للمبالغة فى انكاره ببيان أنه مما لا يمكن ارادته فضلا عن امكان نفسه وحمل الهداية والاضلال على الحكم بهما يأباه قوله تعالى ﴿ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا﴾ أى ومن يخلق فيه الضلال كائنا من كان فلن تجد له سبيلا من السبل فضلا عن أن تهديه اليه وفيه من الافصاح عن كمال الاستحالة ماليس فى قوله تعالى ومن يضلل الله فماله من هاد ونظائره وحمل اضلاله تعالى على حكمه وقضائه بالضلال مخل بحسن المقابلة بين الشرط والجزاء وتوجيه الخطاب الى كل واحد من المخاطبين للاشعار بشمول عدم الوجدان للكل على طريق التفصيل والجملة اما حال من فاعل تريدون أو تهدوا والرابط هو الواو أو اعتراض تذييلى مقرر للانكار السابق ومؤكد لاستحالة الهداية فحينئذ يجوز أن يكون الخطاب لكل أحد ممن يصلح له من المخاطبين أولا ومن غيرهم ﴿ودوا لو تكفرون﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان غلوهم وتماديهم فى الكفر وتصديهم لاضلال غيرهم اثر بيان كفرهم وضلالهم فى أنفسهم وكلمة لو مصدرية غنية عن الجواب وهى مع ما بعدها نصب على المفعولية أى ودوا أن تكفروا وقوله تعالى ﴿كما كفروا﴾ نصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى كفرا مثل كفرهم أو حال من ضمير ذلك المصدر كما هو رأى سيبويه وقوله تعالى ﴿فتكونون سواء﴾ عطف على تكفرون داخل فى حكمه أى ودوا أن تكفروا فتكونوا سواء مستوين فى الكفر والضلال وقيل كلمة لو على بابها وجوابها محذوف كمفعول ودوا والتقدير ودوا كفركم لو تكفرون كما كفروا لسروا بذلك ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء﴾ الفاء جواب شرط محذوف وجمع أولياء لمراعاة جمع المخاطبين فان المراد نهى أن يتخذ واحد من المخاطبين وليا واحدا منهم أى اذا كان حالهم ماذكر من ودادة كفركم فلا توالوهم ﴿حتى يهاجروا فى سبيل الله﴾ أى حتى يؤمنوا ويحققوا ايمانهم بهجرة كائنة لله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام لا لغرض من أغراض الدنيا ﴿فان تولوا﴾ أى عن الايمان المظاهر بالهجرة الصحيحة المستقيمة ﴿فخذوهم﴾ أى اذا قدرتم عليهم ﴿واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾ من الحل والحرم فان حكمهم حكم سائر المشركين أسرا وقتلا ﴿ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا﴾ أى جانبوهم مجانبة كلية ولا تقبلوا منهم ولاية ولا نصرة أبدا ﴿الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ استثناء من قوله تعالى فخذوهم واقتلوهم أى الا الذين يتصلون وينتهون الى قوم عاهدوكم ولم يحاربوكم وهم الاسلميون كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت خروجه من مكة قد وادع هلال بن

عويمر الاسلمى على أنه لا يعينه ولا يعين عليه وعلى أن من وصل الى هلال ولجأ اليه فله من الجوار مثل الذى لهلال وقيل هم بنو بكر بن زيد مناة وقيل هم خزاعة ﴿أو جاءوكم﴾ عطف على الصلة أى أو الذين جاءوكم كافين عن قتالكم وقتال قومهم استثنى من المأمور بأخذهم وقتلهم فريقان أحدهما من ترك المحاربين ولحق بالمعاهدين والآخر من أتى المؤمنين وكف عن قتال الفريقين أو على صفة قوم كأنه قيل الا الذين يصلون الى قوم معاهدين أو الى قوم كافين عن القتال لكم والقتال عليكم والاول هو الاظهر لما سيأتى من قوله تعالى فان اعتزلوكم الخ فانه صريح فى أن كفهم عن القتال أحد سببى استحقاقهم لنفى التعرض لهم وقرئ جاءوكم بغير عاطف على أنه صفة بعد صفة أو بيان ليصلون أو استئناف ﴿حصرت صدورهم﴾ حال باضمار قد بدليل أنه قرئ حصرة صدورهم وحصرات صدورهم وحاصرات صدورهم وقيل صفة لموصوف محذوف هو حال من فاعل جاءوا أى أو جاءوكم قوما حصرت صدورهم وقيل هو بيان لجاءوكم وهم بنو مدلج جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مقاتلين والحصر الضيق والانقباض ﴿أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم﴾ أى من أن يقاتلوكم أو لأن يقاتلوكم أو كراهة أن يقاتلوكم الخ ﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم﴾ جملة مبتدأة جارية مجرى التعليل لاستثناء الطائفة الأخيرة من حكم الأخذ والقتل ونظمهم فى سلك الطائفة الأولى الجارية مجرى المعاهدين مع عدم تعلقهم بنا ولا بمن عاهدونا كالطائفة الأولى أى ولو شاء الله لسلطهم عليكم ببسط صدورهم وتقوية قلوبهم وازالة الرعب عنها ﴿فلقاتلوكم﴾ عقيب ذلك ولم يكفوا عنكم واللام جواب لو على التكرير أو الابدال من الأولى وقرئ فلقتلوكم بالتخفيف والتشديد ﴿فان اعتزلوكم﴾ ولم يتعرضوا لكم ﴿فلم يقاتلوكم﴾ مع ما علمتم من تمكنهم من ذلك بمشيئة الله عز وجل ﴿وألقوا اليكم السلم﴾ أى الانقياد والاستسلام وقرئ بسكون اللام ﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلا﴾ طريقا بالاسر أو بالقتل فان مكافتهم عن قتالكم وأن يقاتلوا قومهم أيضا والقاءهم اليكم السلم وان لم يعاهدوكم كافية فى استحقاقهم لعدم تعرضكم لهم ﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم﴾ هم قوم من أسد وغطفان كانوا اذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليأمنوا المسلمين فاذا رجعوا الى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم ليأمنوا قومهم وقيل هم بنو عبد الدار وكان ديدنهم ماذكر ﴿كلما ردوا الى الفتنة﴾ أى دعوا الى الكفر وقتال المسلمين ﴿أركسوا فيها﴾ قلبوا فيها أقبح قلب وأشنعه وكانوا فيها شرا من كل عدو شرير ﴿فان لم يعتزلوكم﴾ بالكف عن التعرض لكم بوجه ما ﴿ويلقوا اليكم السلم﴾ أى لم يلقوا اليكم الصلح والعهد بل نبذوه اليكم ﴿ويكفوا أيديهم﴾ أى لم يكفوها عن قتالكم ﴿فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ أى تمكنتم منهم ﴿وأولئكم﴾ الموصوفون بما عدد من الصفات القبيحة ﴿جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا﴾ حجة واضحة فى الايقاع بهم قتلا وسبيا لظهور عداوتهم وانكشاف حالهم فى الكفر والغدر واضرارهم بأهل الاسلام أو تسلطا ظاهرا حيث أذنا لكم فى أخذهم وقتلهم ﴿وما كان لمؤمن﴾ أى وما صح له ولا لاق بحاله ﴿أن يقتل مؤمنا﴾ بغير حق فان الايمان زاجر عن ذلك ﴿الا خطأ﴾ فانه ربما يقع لعدم دخول الاحتراز عنه بالكلية تحت الطاقة البشرية وانتصابه اما على أنه حال أى وما كان له أن يقتل مؤمنا فى حال من الاحوال الا فى حال الخطأ أو على أنه مفعول له أى وما كان له أن يقتله لعلة من العلل الا للخطأ أو على أنه صفة للمصدر أى الا قتلا خطأ وقيل الا بمعنى ولا والتقدير وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا عمدا ولا خطأ وقيل ما كان نفى فى معنى النهى والاستثناء منقطع أى لكن ان قتله خطأ فجزاؤه مايذكر والخطأ مالا يقارنه القصد الى الفعل أو الى الشخص أو لا يقصد به زهوق الروح غالبا أو لا يقصد به محظور كرمى مسلم فى صف الكفار مع الجهل باسلامه وقرئ خطاء بالمد وخطا كعصا بتخفيف الهمزة . روى أن عياش بن أبى ربيعة وكان أخا أبى جهل لأمه أسلم وهاجر

الى المدينة خوفا من أهله وذلك قبل هجرة النبي عليه الصلاة والسلام فأقسمت أمه لاتأكل ولاتشرب و لا يأو يها سقف حتى يرجع فخرج أبو جهل ومعه الحرث بن زيد بن أبى أنيسة فأتياه وهو فى أطم ففتل منه أبو جهل فى الذروة والغارب وقال أليس محمد يحثك على صلة الرحم انصرف و بر أمك وأنت على دينك حتى نزل وذهب معهما فلما فسحا من المدينة كتفاه وجلده كل واحد منهما مائة جلدة فقال للحرث هذا أخى فمن أنت ياحرث لله على ان وجدتك خاليا أن أقتلك وقدما به على أمه فحلفت لايحل كتافه أو يرتد ففعل بلسانه ثم هاجر بعد ذلك وأسلم الحرث وهاجر فلقيه عياش بظهر قباء ولم يشعر باسلامه فأنحى عليه فقتله ثم أخبر باسلامه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قتلته ولم أشعر باسلامه فنزلت ﴿ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة﴾ أى فعليه أو فموجبه تحرير رقبة أى اعتاق نسمة عبر عنها بها كما يعبر عنها بالرأس ﴿مؤمنة﴾ أى محكوم باسلامها وان كانت صغيرة ﴿ودية مسلمة الى أهله﴾ مؤداة الى ورثته يقتسمونها كسائر المواريث لقول ضحاك بن سفيان الكلابى كتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنى أن أورث امرأة أشيم الضبابى من عقل زوجها ﴿الا أن يصدقوا﴾ أى الا أن يتصدق أهله عليه سمى العفو عنها صدقة حثا عليه وتنبيها على فضله وعن النبى عليه الصلاة والسلام كل معروف صدقة وقرىء الا أن يتصدقوا وهو متعلق بعليه أو بمسلمة أى تجب الدية أو يسلمها الى أهله الا وقت تصدقهم عليه فهو فى محل النصب على الظرفية أو الاحال كونهم متصدقين عليه فهو حال من الأهل أو القاتل ﴿فان كان﴾ أى المقتول ﴿من قوم عدو لكم﴾ كفار محاربين ﴿وهو مؤمن﴾ ولم يعلم به القاتل لكونه بين أظهر قومه بأن أسلم فيما بينهم ولم يفارقهم أو بأن أتاهم بعد مافارقهم لمهم من المهمات ﴿فتحرير رقبة مؤمنة﴾ أى فعلى قاتله الكفارة دون الدية اذ لاوراثة بينه و بين أهله لأنهم محاربون ﴿وان كان﴾ أى المقتول المؤمن ﴿من قوم﴾ كفرة ﴿بينكم وبينهم ميثاق﴾ أى عهد موقت أو مؤبد ﴿فدية﴾ أى فعلى قاتله دية ﴿مسلمة الى أهله﴾ من أهل الاسلام ان وجدوا ولعل تقديم هذا الحكم ههنا مع تأخيره فيما سلف للاشعار بالمسارعة الى تسليم الدية تحاشيا عن توهم نقض الميثاق ﴿وتحرير رقبة مؤمنة﴾ كما هو حكم سائر المسلمين ولعل افراده بالذكر مع اندراجه فى حكم ماسبق من قوله تعالى ومن قتل مؤمنا خطأ الخ لبيان أن كونه فيما بين المعاهدين لايمنع وجوب الدية كما منعه كونه فيما بين المحاربين وقيل المراد بالمقتول الذمى أو المعاهد لئلا يلزم التكرار بلا فائدة و لاالتوريث بين المسلم والكافر وقد عرفت عدم لزومهما ﴿فمن لم يجد﴾ أى رقبة ليحررها بأن لم يملكها و لامايتوصل به اليها من الثمن ﴿فصيام﴾ أى فعليه صيام ﴿شهرين متتابعين﴾ لم يتخلل بين يومين من أيامهما افطار ﴿توبة﴾ نصب على أنه مفعول له أى شرع لكم ذلك توبة أى قبولا لها من تاب الله عليه اذا قبل توبته أومصدر مؤكد لفعل محذوف أى تاب عليكم توبة وقيل على أنه حال من الضمير المجرور فى عليه بحذف المضاف أى فعليه صيام شهرين ذا توبة وقوله تعالى ﴿من الله﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لتوبة أى كائنة منه تعالى ﴿وكان الله عليما﴾ بجميع الأشياء التى من جملتها حاله ﴿حكيما﴾ فى كل ماشرع وقضى من الشرائع والأحكام التى من جملتها ماشرعه فى شأنه ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا﴾ لما بين حكم القتل خطأ وفصل أقسامه الثلاثة عقب ذلك ببيان القتل عمدا خلا أن حكمه الدنيوى لما بين فى سورة البقرة اقتصر ههنا على حكمه الأخروى . روى أن مقيس بن ضبابة الكنانى وكان قد أسلم هو وأخوه هشام وجد أخاه قتيلا فى بنى النجار فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر له القصة فأرسل عليه السلام معه زبير بن عياض الفهرى وكان من أصحاب بدر الى بنى النجار يأمرهم بتسليم القاتل الى مقيس ليقتص منه ان علموه و بأداء الدية ان لم

يعلموه فقالوا سمعا وطاعة لله تعالى و لرسوله عليه السلام مانعلم لمقاتلا ولكنا نؤدى ديته فأتوه بمائة من الابل فانصرفا راجعين الى المدينة حتى اذا كانا ببعض الطريق أتى الشيطان مقيسا فوسوس اليه فقال أتقبل دية أخيك فيكون مسبة عليك اقتل الذى معك فيكون نفسا بنفس وفضل الدية فتغفل الفهرى فرماه بصخرة فشدخه ثم ركب بعيرا من الابل واستاق بقيتها راجعا الى مكة كافرا وهو يقول

قتلت به فهرا وحملت عقله سراة بنى النجار أصحاب فارع
وأدركت ثأرى واضطجعت موسدا وكنت الى الأوثان أول راجع

فنزلت وهو الذى استثناه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح ممن أمنه فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة وقوله تعالى متعمدا حال من فاعل يقتل وروى عن الكسائى سكون التاء كأنه فر من توالى الحركات ﴿فجزاؤه﴾ الذى يستحقه بجنايته ﴿جهنم﴾ وقوله تعالى ﴿خالدا فيها﴾ حال مقدرة من فاعل فعل مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل فجزاؤه أن يدخل جهنم خالدا فيها وقيل هو حال من ضمير يجزاها وقيل من مفعول جازاه وأيد ذلك بأنه أنسب بعطف مابعده عليه لموافقته له صيغة و لايخفى أن مايقدر للحال أو للعطف عليه حقه أن يكون مما يقتضيه المقام اقتضاء ظاهرا و يدل عليه الكلام دلالة بينة وظاهر أن كون جزائه ماذكر لايقتضى وقوع الجزاء البتة كما ستقف عليه حتى يقدر يجزاها أو جازاه بطريق الاخبار عن وقوعه وأما قوله تعالى ﴿وغضب الله عليه﴾ فعطف على مقدر يدل عليه الشرطية دلالة واضحة كأنه قيل بطريق الاستئناف تقريرا وتأكيدا لمضمونها حكم الله بأن جزاءه ذلك وغضب عليه أى انتقم منه ﴿ولعنه﴾ أى أبعده عن الرحمة بجعل جزائه ماذكر وقيل هو وما بعده معطوف على الخبر بتقدير أن وحمل الماضى على معنى المستقبل كما فى قوله تعالى ونفخ فى الصور ونظائره أى فجزاؤه جهنم وأن يغضب الله عليه الخ ﴿وأعد له﴾ فى جهنم ﴿عذابا عظيما﴾ لايقادر قدره ولما ترى فى الآية الكريمة من التهديد الشديد والوعيد الاكيد وفنون الابراق والارعاد وقد تأيدت بما روى من الاخبار الشداد كقوله عليه الصلاة والسلام والذى نفسى بيده لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مؤمن وقوله عليه الصلاة والسلام لو أن رجلا قتل بالمشرق وآخر رضى بالمغرب لأشرك فى دمه وقوله عليه الصلاة والسلام من أعان على قتل مؤمن ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله تعالى وبنحو ذلك من القوارع تمسكت الخوارج والمعتزلة بها فى خلود من قتل المؤمن عمدا فى النار ولامتمسك لهم فيها الا لما قيل من أنها فى حق المستحل كما هو رأى عكرمة وأضرابه بدليل أنها نزلت فى مقيس بن ضبابة الكنانى المرتد حسبما مرت حكايته فان العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب بل لأن المراد بالخلود هو المكث الطويل لاالدوام لتظاهر النصوص الناطقة بأن عصاة المؤمنين لايدوم عذابهم ومار وى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه لاتوبة لقاتل المؤمن عمدا وكذا ماروى عن سفيان أن أهل العلم كانوا اذا سئلوا قالوا لاتوبة له محمول على الاقتداء بسنة الله تعالى فى التشديد والتغليظ وعليه يحمل ماروى عن أنس رضى الله تعالى عنه أن النبى عليه الصلاة والسلام قال أبى الله أن يجعل لقاتل المؤمن توبة . كيف لا وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا سأله ألقاتل المؤمن توبة قال لا وسأله آخر ألقاتل المؤمن توبة فقال نعم فقيل له قلت لذلك كذا ولهذا كذا قال كان الأول لم يقتل بعد فقلت ماقلت كيلا يقتل وكان هذا قد قتل فقلت له ماقلت لئلا ييأس وقد روى عنه جواز المغفرة بلا توبة أيضا حيث قال فى قوله تعالى فجزاؤه جهنم الآية هى جزاؤه فان شاء عذبه وان شاء غفر له وروى مرفوعا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال هو جزاؤه ان جازاه وبه قال عون بن عبد الله وبكر بن عبد الله وأبو صالح قالوا

قد يقول الانسان لمن يزجره عن أمر ان فعلته لجزاؤك القتل والضرب ثم ان لم يجازه بذلك لم يكن ذلك منه كذبا قال الواحدى والأصل فى ذلك أن الله عز وجل يجوز أن يخلف الوعيد وان امتنع أن يخلف الوعد. بهذا وردت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث أنس رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال من وعده الله تعالى على عمله ثوابا فهو منجزه له ومن أوعده على عمله عقابا فهو بالخيار والتحقيق أنه لاضرورة الى تفريع مانحن فيه على الأصل المذكور لأنه اخبار منه تعالى بأن جزاءه ذلك لا بأنه يجزيه بذلك. كيف لا وقد قال الله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها ولو كان هذا اخبارا بأنه تعالى يجزى كل سيئة بمثلها لعارضه قوله تعالى و يعفو عن كثير ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ اثر مابين حكم القتل بقسميه وأن مايتصور صدوره عن المؤمن انما هو القتل خطأ شرع فى التحذير عما يؤدى اليه من قلة المبالاة فى الأمور ﴿اذا ضربتم فى سبيل الله﴾ أى سافرتم فى الغزو ولما فى اذا من معنى الشرط صدر قوله تعالى ﴿فتبينوا﴾ بالفاء أى فاطلبوا بيان الأمر فى كل ماتأتون وما تذرون ولا تعجلوا فيه بغير تدبر وروية وقرىء فتثبتوا أى اطلبوا اثباته وقوله تعالى ﴿ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام﴾ نهى عماهو نتيجة لترك المأمور به وتعيين لمادة مهمة من المواد التى يجب فيها التبيين وقرىء السلم بغير ألف وبكسر السين وسكون اللام أى لاتقولوا بغير تأمل لمن حياكم بتحية الاسلام أو لمن ألقى اليكم مقاليد الاستسلام والانقياد ﴿لست مؤمنا﴾ وانما أظهرت ماأظهرت متعوذا بل اقبلوا منه ماأظهره وعاملوه بموجبه وقرىء مؤمنا بالفتح أى مبذولا لك الأمان وهذا أنسب بالقراءتين الأخيرتين والاقتصار على ذكر تحية الاسلام فى القراءة الاولى مع كونها مقرونة بكلمتى الشهادة كما سيأتى فى سبب النزول للمبالغة فى النهى والزجر والتنبيه على كمال ظهور خطئهم ببيان أن تحية الاسلام كانت كافية فى المكافة والانزجار عن التعرض لصاحبها فكيف وهى مقرونة بهما وقوله تعالى ﴿تبتغون عرض الحيوة الدنيا﴾ حال من فاعل لاتقولوا منبىء عما يحملهم على العجلة وترك التأنى لكن لا على أن يكون النهى راجعا الى القيد فقط كما فى قولك لاتطلب العلم تبتغى به الجاه بل اليهما جميعا أى لاتقولوا له ذلك حال كونكم طالبين لماله الذى هو حطام سريع النفاد وقوله تعالى ﴿فعند الله مغانم كثيرة﴾ تعليل للنهى عن ابتغاء ماله بما فيه من الوعد الضمنى كأنه قيل لاتبتغوا ماله فعند الله مغانم كثيرة يغنمكموها فيغنيكم عن ارتكاب ماارتكبتموه وقوله تعالى ﴿كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم﴾ تعليل للنهى عن القول المذكور ولعل تأخيره لما فيه من نوع تفصيل ربما يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم مع مافيه من مراعاة المقارنة بين التعليل السابق وبين ماعلل به كما فى قوله تعالى يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم الخ وتقديم خبر كان للقصر المفيد لتأكيد المشابهة بين طرفى التشبيه وذلك اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة والفاء فى فمن للعطف على كنتم أى مثل ذلك الذى ألقى اليكم السلام كنتم أنتم أيضا فى مبادى اسلامكم لايظهر منكم للناس غير ماظهر منه لكم من تحية الاسلام ونحوها فمن الله عليكم بأن قبل منكم تلك المرتبة وعصم بها دماءكم وأموالكم ولم يأمر بالتفحص عن سرائركم والفاء فى قوله تعالى ﴿فتبينوا﴾ فصيحة أى اذا كان الأمر كذلك فاطلبوا بيان هذا الأمر البين وقيسوا حاله بحالكم وافعلوا به مافعل بكم فى أوائل أموركم من قبول ظاهر الحال من غير وقوف على تواطؤ الظاهر والباطن هذا هو الذى تقتضيه جزالة التنزيل وتستدعيه فخامة شأنه الجليل ومن حسب أن المعنى أول مادخلتم فى الاسلام سمعت من أفواهكم كلمة الشهادة فحصنت دماءكم وأموالكم من غير انتظار الاطلاع على مواطأة قلوبكم لألسنتكم فمن الله عليكم بالاستقامة والاشتهار بالايمان والتقدم فيه وان صرتم أعلاما فيه فعليكم أن تفعلوا بالداخلين فى الاسلام كما فعل بكم وأن تعتبروا ظاهر الاسلام فى المكافة ولا تقولوا الخ فقد أبعد عن الحق لأن المراد كما عرفت بيان أن تحصين الدماء والأموال حكم

مترتب على مافيه المماثلة بينه وبينهم من مجرد التفوه بكلمة الشهادة واظهار أن ترتبه عليه فى حقهم يقتضى ترتبه عليه فى حقه أيضا الزاما لهم واظهارا لخطئهم ولا يخفى أن ذلك انما يتأتى بتفسير منه تعالى عليهم المترتب على كونهم مثله بتحصين دمائهم وأموالهم حسبما ذكر حتى يظهر عندهم وجوب تحصين دمه وماله أيضا بحكم المشاركة فيما يوجبه وحيث لم يفعل ذلك بل فسره بما فسره به لم يبق فى النظم الكريم مايدل على ترتب تحصين دمائهم وأموالهم على ماذكر فمن أين له أن يقول فحصنت دماءكم وأموالكم حتى يتأتى البيان وارتكاب تقديره بناء على اقتضاء ماذكر فى تفسير المن اياه بناء على أساس واه كيف لا وانما ذكره بصدد التفسير وان كان أمرا متفرعا على مافيه المماثلة مبنيا عليه فى حقهم لكنه ليس بحكم أريد اثباته فى حقه بناء على ثبوته فى حقهم كالتحصين المذكور حتى يستحق أن يتعرض له ولا بأمر له دخل فى وجوب اعتبار ظاهر الاسلام من الداخلين فيه حتى يصح نظمه فى سلك مافرع عايه قوله فعليكم أن تفعلوا الخ وحمل الكلام على معنى انكم فى أول الأمر كنتم مثله فى قصور الرتبة فى الاسلام فمن الله عليكم وبلغتم هذه الرتبة العالية منه فلا تستقصروا حاله نظرا الى حالتكم هذه بل اعتدوا بها نظرا الى حالتكم السابقة يرده أن قتله لم يكن لاستقصار اسلامه بل لتوهم عدم مطابقة قلبه للسانه فان الآية الكريمة نزلت فى شأن مرداس بن نهيك من أهل فدك وكان قد أسلم ولم يسلم من قومه غيره فغزتهم سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم غالب بن فضالة الليثى فهربوا وبقى مرداس لثقته باسلامه فلما رأى الخيل ألجأ غنمه الى عاقول من الجبل وصعد فلما تلاحقوا وكبروا كبر وقال لا اله الا الله محمد رسول الله السلام عليكم فقتله أسامة بن زيد واستاق غنمه فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد وجدا شديدا وقال قتلتموه ارادة مامعه فقال أسامة انه قال بلسانه دون قلبه وفى رواية انما قالها خوفا من السلاح فقال عليه الصلاة والسلام هلا شققت عن قلبه وفى رواية أفلا شققت عن قلبه ثم قرأ الآية على أسامة فقال يارسول الله استغفر لى فقال كيف بلا اله الا الله قال أسامة فما زال عليه الصلاة والسلام يعيدها حتى وددت أن لم أكن أسلمت الا يومئذ ثم استغفر لى وقال اعتق رقبة وقيل نزلت فى رجل قال يارسول الله كنا نطلب القوم وقد هزمهم الله تعالى فقصدت رجلا فلما أحس بالسيف قال انى مسلم فقتلته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقتلت مسلما قال انه كان متعوذا فقال عليه الصلاة والسلام أفلا شققت عن قلبه ﴿ان الله كان بما تعملون﴾ من الأعمال الظاهرة والخفية وبكيفياتها ﴿خبيرا﴾ فيجازيكم بحسبها ان خيرا فخير وان شرا فشر فلا تتهاونوا فى القتل واحتاطوا فيه والجملة تعليل لما قبلها بطريق الاستئناف وقرىء بفتح أن على أنها معمولة لتبينوا أو على حذف لام التعليل ﴿لايستوى القاعدون﴾ بيان لتفاوت طبقات المؤمنين بحسب تفاوت درجات مساعيهم فى الجهاد بعد مامر من الأمر به وتحريض المؤمنين عليه ليأنف القاعد عنه ويترفع بنفسه عن انحطاط رتبته فيهتز له رغبة فى ارتفاع طبقته والمراد بهم الذين أذن لهم فى القعود عن الجهاد اكتفاء بغيرهم قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هم القاعدون عن بدر والخارجون اليها وهو الظاهر الموافق لتاريخ النزول لا ماروى عن مقاتل من أنهم الخارجون الى تبوك فانه مما لا يوافقه التاريخ ولا يساعده الحال اذ لم يكن للمتخلفين يومئذ هذه الرخصة وقوله تعالى ﴿من المؤمنين﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من القاعدين أى كائنين من المؤمنين وفائدتها الايذان من أول الأمر بعدم اخلال وصف القعود بايمانهم والاشعار بعلة استحقاقهم لماسيأتى من الحسنى ﴿غير أولى الضرر﴾ صفة للقاعدون لجريانه مجرى النكرة حيث لم يقصد به قوم بأعيانهم أو بدل منه وقرىء بالنصب على أنه حال منه أو استثناء وبالجر على أنه صفة للمؤمنين أو بدل منه والضرر المرض أو العاهة من عمى أو عرج أو زمانة أو نحوها وفى معناه العجز عن الاهبة. عن زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه أنه قال كنت الى جنب رسول الله صلى الله

عليه وسلم فغشيته السكينة فوقعت فخذه على فخذى حتى خشيت أن ترضها ثم سرى عنه فقال اكتب فكتبت لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فقال ابن أم مكتوم وكان أعمى يارسول الله وكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين فغشيته السكينة كذلك ثم سرى عنه فقال اكتب لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ﴿والمجاهدون﴾ ايرادهم بهذا العنوان دون الخروج المقابل لوصف المعطوف عليه كما وقع فى عبارة ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وكذا تقييد المجاهدة بكونها ﴿فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم﴾ لمدحهم بذلك والاشعار بعلة استحقاقهم لعلو المرتبة مع ما فيه من حسن موقع السبيل فى مقابلة القعود وتقديم القاعدين فى الذكر والايذان من أول الأمر بأن القصور الذى ينبئ عنه عدم الاستواء من جهتهم لا من جهة مقابليهم فان مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصانا وان جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد لكن المتبادر اعتباره بحسب قصور القاصر وعليه قوله تعالى هل يستوى الاعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور الى غير ذلك وأما قوله تعالى هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون فلعل تقديم الفاضل فيه لان صلته ملكة لصلة المفضول وقوله عز وجل ﴿فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة﴾ استئناف مسوق لتفصيل ما بين الفريقين من التفاضل المفهوم من ذكر عدم استوائهما اجمالا ببيان كيفيته وكميته مبنى على سؤال ينساق اليه المقال كأنه قيل كيف وقع ذلك فقيل فضل الله الخ وأما تقدير مالهم لا يستوون فانما يليق بجعل الاستئناف تعليلا لعدم الاستواء مسوقا لاثباته وفيه تعكيس ظاهر فان الذى يحق أن يكون مقصودا بالذات انما هو بيان تفاضل الفريقين على درجات متفاوته وأما عدم استوائهما فقصارى أمره أن يكون توطئة لذكره ولام المجاهدين والقاعدين للعهد فقيد كون الجهاد فى سبيل الله معتبر فى الأول كما أن قيد عدم الضرر معتبر فى الثانى ودرجة نصب على المصدرية لوقوعها موقع المرة من التفضيل أى فضل الله تفضيلة أو على نزع الخافض أى بدرجة وقيل على التميز وقيل على الحالية من المجاهدين أى ذوى درجة وتنوينها للتفخيم وقوله تعالى ﴿وكلا﴾ مفعول أول لما يعقبه قدم عليه لافادة القصر تأكيدا للوعد أى كل واحد من المجاهدين والقاعدين ﴿وعد الله الحسنى﴾ أى المثوبة الحسنى وهى الجنة لا أحدهما فقط كما فى قوله تعالى وأرسلناك للناس رسولا على أن اللام متعلقة برسولا والجملة اعتراض جئ به تداركا لما عسى يوهمه تفضيل أحد الفريقين على الآخر من حرمان المفضول وقوله عز وجل ﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين﴾ عطف على قوله تعالى فضل الله الخ واللام فى الفريقين مغنية لهما عن ذكر القيود التى تركت على سبيل التدريج وقوله تعالى ﴿أجرا عظيما﴾ مصدر مؤكد لفضل على أنه بمعنى أجر وايثاره على ما هو مصدر من فعله للاشعار بكون ذلك التفضيل أجرا لاعمالهم أو مفعول ثان له بتضمينه معنى الاعطاء أى أعطاهم زيادة على القاعدين أجرا عظيما وقيل هو منصوب بنزع الخافض أى فضلهم بأجر عظيم وقوله تعالى ﴿درجات﴾ بدل من أجرا بدل الكل مبين لكمية التفضيل وقوله تعالى ﴿منه﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لدرجات دالة على فخامتها وجلالة قدرها أى درجات كائنة منه تعالى قال ابن محيريز هى سبعون درجة ما بين كل درجتين عدو الفرس الجواد المضمر سبعين خريفا وقال السدى هى سبعمائة درجة وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان فى الجنة مائة درجة أعدها الله تعالى للمجاهدين فى سبيله ما بين الدرجتين كما بين السماء والارض ويجوز أن يكون انتصاب درجات على المصدرية كما فى قولك ضربه أسواطا أى ضربات كأنه قيل فضلهم تفضيلات وقوله تعالى ﴿ومغفرة﴾ بدل من أجرا بدل البعض لان بعض الاجر ليس من باب المغفرة أى مغفرة لما يفرط منهم من الذنوب التى لا يكفرها سائر الحسنات التى يأتى بها القاعدون أيضا حتى تعد من خصائصهم وقوله تعالى ﴿ورحمة﴾ بدل الكل من أجرا مثل درجات ويجوز

أن يكون انتصابهما باضمار فعلهما أى غفر لهم مغفرة ورحمهم رحمة هذا ولعل تكرير التفضيل بطريق العطف المنبئ عن المغايرة وتقييده تارة بدرجة وأخرى بدرجات مع اتحاد المفضل والمفضل عليه حسبما يقتضيه الكلام ويستدعيه حسن النظام اما لتنزيل الاختلاف العنوانى بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات منزلة الاختلاف الذاتى تمهيدا لسلوك طريق الابهام ثم التفسير روما لمزيد التحقيق والتقرير كما فى قوله تعالى فلما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ كأنه قيل فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة لا يقادر قدرها ولا يبلغ كنهها وحيث كان تحقق هذا البون البعيد بينهما موهما لحرمان القاعدين قيل وكلا وعد الله الحسنى ثم أريد تفسير ما أفاده التنكير بطريق الابهام بحيث يقطع احتمال كونه للوحدة فقيل ما قيل ولله در شأن التنزيل واما للاختلاف بالذات بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات على أن المراد بالتفضيل الأول ما خولهم الله تعالى عاجلا فى الدنيا من الغنيمة والظفر والذكر الجميل الحقيق بكونه درجة واحدة وبالتفضيل الثانى ما أنعم به فى الآخرة من الدرجات العالية الفائتة للحصر كما ينبئ عنه تقديم الاول وتأخير الثانى وتوسيط الوعد بالجنة بينهما كأنه قيل وفضلهم عليهم فى الدنيا درجة واحدة وفى الآخرة درجات لا تحصى وقد وسط بينهما فى الذكر ما هو متوسط بينهما فى الوجود أعنى الوعد بالجنة توضيحا لحالهما ومسارعة الى تسلية المفضول والله سبحانه أعلم. هذا ما بين المجاهدين وبين القاعدين غير أولى الضرر وأما أولو الضرر فهم مساوون للمجاهدين عند القائلين بمفهوم الصفة وبأن الاستثناء من النفى اثبات وأما عند من لا يقول بذلك فلا دلالة لعبارة النص عليه وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد خلفتم فى المدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا الا كانوا معكم وهم الذين صحت نياتهم ونصحت جيوبهم وكانت أفئدتهم تهوى الى الجهاد وبهم ما يمنعهم من المسير من ضرر أو غيره وبعبارة أخرى ان فى المدينة لأقواما ما سرتم من مسير ولا قطعتم من واد الا كانوا معكم فيه قالوا يارسول الله وهم بالمدينة قال نعم وهم بالمدينة حبسهم العذر قالوا هذه المساواة مشروطة بشريطة أخرى سوى الضرر قد ذكرت فى قوله تعالى ليس على الضعفاء ولا على المرضى الى قوله اذا نصحوا لله ورسوله وقيل القاعدون الاول هم الاضراء والثانى غيرهم وفيه من تفكيك النظم الكريم ما لا يخفى ولا ريب فى أن الاضراء أفضل من غيرهم درجة كما لا ريب فى أنهم دون المجاهدين بحسب الدرجة الدنيوية ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ تذييل مقرر لما وعد من المغفرة والرحمة ﴿ان الذين توفاهم الملائكة﴾ بيان لحال القاعدين عن الهجرة اثر بيان حال القاعدين عن الجهاد وتوفاهم يحتمل أن يكون ماضيا ويؤيده قراءة من قرأ توفتهم وأن يكون مضارعا قد حذف منه احدى التاءين وأصله تتوفاهم على حكاية الحال الماضية والقصد الى استحضار صورتها ويعضده قراءة من قرأ توفاهم على مضارع وفيت بمعنى ان الله تعالى يوفى الملائكة أنفسهم فيتوفونها أى يمكنهم من استيفائها فيستوفونها ﴿ظالمى أنفسهم﴾ حال من ضمير توفاهم فانه وان كان مضافا الى المعرفة الا أنه نكرة فى الحقيقة لأن المعنى على الانفصال وان كان موصولا فى اللفظ كما فى قوله تعالى غير محلى الصيد وهديا بالغ الكعبة وثانى عطفه أى محلين الصيد وبالغا الكعبة وثانيا عطفه كأنه قيل ظالمين أنفسهم وذلك بترك الهجرة واختيار مجاورة الكفرة الموجبة للاخلال بامور الدين فانها نزلت فى ناس من مكة قد أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة فريضة ﴿قالوا﴾ أى الملائكة للمتوفين تقريرا لهم بتقصيرهم فى اظهار اسلامهم واقامة أحكامه من الصلاة ونحوها وتوبيخا لهم بذلك ﴿فيم كنتم﴾ أى فى أى شئ كنتم من أمور دينكم ﴿قالوا﴾ استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية سؤال الملائكة كأنه قيل فماذا قالوا فى الجواب فقيل قالوا متجانفين عن الاقرار الصريح بما هم فيه من التقصير متعللين بما يوجبه على زعمهم ﴿كنا مستضعفين فى الارض﴾ أى فى أرض مكة

عاجزين عن القيام بمواجب الدين فيما بين أهلها ﴿قالوا﴾ ابطالا لتعللهم وتبكيتا لهم ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ الى قطر آخر منها تقدرون فيه على اقامة أمور الدين كما فعله من هاجر الى المدينة والى الحبشة وأما حمل تعللهم على اظهار العجز عن الهجرة وجعل جواب الملائكة تكذيبا لهم فى ذلك فيرده أن سبب العجز عنها لا ينحصر فى فقدان دار الهجرة بل قد يكون لعدم الاستطاعة للخروج بسبب الفقر أو لعدم تمكين الكفرة منه فلا يكون بيان سعة الارض تكذيبا لهم وردا عليهم بل لابد من بيان استطاعتهم أيضا حتى يتم التبكيت وقيل كانت الطائفة المذكورة قد خرجوا مع المشركين الى بدر منهم قيس بن الفاكه بن المغيرة وقيس بن الوليد بن المغيرة وأشباههما فقتلوا فيها فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم وقالوا لهم ماقالوا فيكون ذلك منهم تقريعا وتوبيخا لهم بما كانوا فيه من مساعدة الكفرة وانتظامهم فى عسكرهم ويكون جوابهم بالاستضعاف تعللا بأنهم كانوا مقهورين تحت أيديهم وانهم أخرجوهم كارهين فرد عليهم بأنهم كانوا بسبيل من الخلاص عن قهرهم متمكنين من المهاجرة ﴿فأولئك﴾ الذين حكيت أحوالهم الفظيعة ﴿مأواهم﴾ أى فى الآخرة ﴿جهنم﴾ كما أن مأواهم فى الدنيا دار الكفر لتركهم الفريضة المحتومة فمأواهم مبتدأ وجهنم خبره والجملة خبر لأولئك وهذه الجملة خبر ان والفاء فيه لتضمن اسمها معنى الشرط وقوله تعالى قالوا فيم كنتم حال من الملائكة باضمار قد عند من يشترطه أو هو الخبر والعائد منه محذوف أى قالوا لهم والجملة المصدرة بالفاء معطوفة عليه مستنتجة منه وبما فى حيزه ﴿وساءت مصيرا﴾ أى مصيرهم أى جهنم وفى الآية الكريمة ارشاد الى وجوب المهاجرة من موضع لا يتمكن الرجل من اقامة أمور دينه بأى سبب كان وعن النبى صلى الله عليه وسلم من فر بدينه من أرض الى أرض وان كان شبرا من الارض استوجبت له الجنة وكان رفيق أبيه ابراهيم ونبيه محمد عليهما الصلاة والسلام ﴿الا المستضعفين﴾ استثناء منقطع لعدم دخولهم فى الموصول وضميره والاشارة اليه ومن فى قوله تعالى ﴿من الرجال والنساء والولدان﴾ متعلقة بمحذوف وقع حالا من المستضعفين أى كائنين منهم وذكر الولدان ان أريد بهم المماليك أو المراهقون ظاهر وأما ان أريد بهم الاطفال فللمبالغة فى أمر الهجرة وايهام أنها بحيث لو استطاعها غير المكلفين لوجبت عليهم والاشعار بأنهم لا محيص لهم عنها البتة تجب عليهم كما بلغوا حتى كأنها واجبة عليهم قبل البلوغ لو استطاعوا وأن قومهم يجب عليهم أن يهاجروا بهم متى أمكنت وقوله تعالى ﴿لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا﴾ صفة للمستضعفين فان مافيه من اللام ليس للتعريف أو حال منه أو من الضمير المستكن فيه وقيل تفسير لنفس المستضعفين لكثرة وجوه الاستضعاف واستطاعة الحيلة وجدان أسباب الهجرة ومباديها واهتداء السبيل معرفة طريق الموضع المهاجر اليه بنفسه أو بدليل ﴿فأولئك﴾ اشارة الى المستضعفين الموصوفين بما ذكر من صفات العجز ﴿عسى الله أن يعفو عنهم﴾ جىء بكلمة الاطماع ولفظ العفو ايذانا بأن الهجرة من تأكد الوجوب بحيث ينبغى أن يعد تركها ممن تحقق عدم وجوبها عليه ذنبا يجب طلب العفو عنه رجاء وطمعا لا جزما وقطعا ﴿وكان الله عفواً غفوراً﴾ تذييل مقرر لما قبله ﴿ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الارض مراغما كثيراً﴾ ترغيب فى المهاجرة وتأنيس لها أى يجد فيها متحولا ومهاجرا وانما عبر عنه بذلك تأكيدا للترغيب لما فيه من الاشعار بكون ذلك المتحول بحيث يصل فيه المهاجر من الخير والنعمة الى ما يكون سببا لرغم أنف قومه الذين هاجرهم والرغم الذل والهوان وأصله لصوق الأنف بالرغام وهو التراب وقيل يجد فيها طريقا يراغم بسلوكه قومه أى يفارقهم على رغم أنوفهم ﴿وسعة﴾ أى من الرزق ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله و رسوله ثم يدركه الموت﴾ أى قبل أن يصل الى المقصد وان كان ذلك خارج بابه كما ينبىء عنه ايثار الخروج من بيته على المهاجرة وهو عطف على فعل الشرط وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف وقيل هو حركة الهاء نقلت الى الكاف على نية الوقف كما فى قوله

من عنزى سبنى لم أضربه ... عجبت والدهر كثير عجبه

وقرىء بالنصب على اضمار أن كما فى قوله وألحق بالحجاز فأستريحا ﴿فقد وقع أجره على الله﴾ أى ثبت ذلك عنده تعالى ثبوت الأمر الواجب . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث بالآيات المتقدمة الى مسلمى مكة قال جندب بن ضمرة لبنيه وكان شيخا كبيرا احملونى فانى لست من المستضعفين وانى لأهتدى الطريق والله لا أبيت الليلة بمكة فحملوه على سرير متوجها الى المدينة فلما بلغ التنعيم أشرف على الموت فصفق بيمينه على شماله ثم قال اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على ما بايعك رسولك فمات حميدا فبلغ خبره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا لو توفى بالمدينة لكان أتم أجرا فنزلت . قالوا كل هجرة فى غرض دينى من طلب علم أو حج أو جهاد أو نحو ذلك فهى هجرة الى الله عز وجل والى رسوله عليه الصلاة والسلام ﴿وكان الله غفورا﴾ مبالغا فى المغفرة فيغفر له مافرط منه من الذنوب التى من جملتها القعود عن الهجرة الى وقت الخروج ﴿رحيما﴾ مبالغا فى الرحمة فيرحمه باكمال ثواب هجرته ﴿واذا ضربتم فى الارض﴾ شروع فى بيان كيفية الصلاة عند الضرورات من السفر ولقاء العدو والمرض والمطر وفيه تأكيد لعزيمة المهاجر على المهاجرة وترغيب له فيها لما فيه من تخفيف المؤنة أى اذا سافرتم أى مسافرة كانت ولذلك لم يقيد بما قيد به المهاجرة ﴿فليس عليكم جناح﴾ أى حرج ومأثم ﴿أن تقصروا﴾ أى فى أن تقصروا والقصر خلاف المد يقال قصرت الشىء أى جعلته قصيرا بحذف بعض أجزائه أو أوصافه فتعلق القصر حقيقة انما هو ذلك الشىء لا بعضه فانه متعلق الحذف دون القصر وعلى هذا فقوله تعالى ﴿من الصلوة﴾ ينبغى أن يكون مفعولا لتقصروا على زيادة من حسبما رآه الاخفش وأما على تقدير أن تكون تبعيضية ويكون المفعول محذوفا كما هو رأى سيبويه أى شيئا من الصلاة فينبغى أن يصار الى وصف الجزء بصفة الكل أو يراد بالقصر معنى الحبس يقال قصرت الشىء اذا حبسته أو يراد بالصلاة الجنس ليكون المقصور بعضا منها وهى الرباعيات أى فليس عليكم جناح فى أن تقصروا بعض الصلاة بتنصيفها وقرىء تقصروا من الاقصار وتقصروا من التقصير والكل بمعنى وأدنى مدة السفر الذى يتعلق به القصر عند أبى حنيفة مسيرة ثلاثة أيام ولياليها بسير الابل ومشى الاقدام بالاقتصاد وعند الشافعى مسيرة يومين وظاهر الآية الكريمة التخيير وأفضلية الاتمام وبه تعلق الشافعى وبما روى عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه أتم فى السفر وعن عائشة رضى الله عنها أنها أتمت تارة وقصرت أخرى وعن عثمان رضى الله عنه أنه كان يتم ويقصر وعندنا يجب القصر لا محالة خلا أن بعض مشايخنا سماه عزيمة وبعضهم رخصة اسقاط بحيث لا مساغ للاتمام لا رخصة ترفيه اذ لا معنى للتخيير بين الأخف والأثقل وهو قول عمر وعلى وابن عمر وابن عباس وجابر رضوان الله عليهم وبه قال الحسن وعمر ابن عبد العزيز وقتادة وهو قول مالك وقد روى عن عمر رضى الله عنه صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم عليه السلام وعن أنس رضى الله عنه خرجنا مع النبى صلى الله عليه وسلم من المدينة الى مكة فكان يصلى ركعتين ركعتين حتى رجعنا الى المدينة وعن عمران بن حصين رضى الله عنه مارأيت النبى صلى الله عليه وسلم يصلى فى السفر الا ركعتين وصلى بمكة ركعتين ثم قال أتموا فانا قوم سفر وحين سمع ابن مسعود أن عثمان رضى الله عنه صلى بمنى أربع ركعات استرجع ثم قال صليت مع رسول الله عليه الصلاة والسلام بمنى ركعتين وصليت مع أبى بكر رضى الله عنه بمنى ركعتين وصليت مع عمر رضى الله عنه بمنى ركعتين فليت حظى من أربع ركعات ركعتان متقبلتان وقد اعتذر عثمان رضى الله عنه عن اتمامه بأنه تأهل بمكة وعن الزهرى أنه انما أتم لأنه أزمع الاقامة بمكة وعن عائشة رضى الله عنها أول مافرضت الصلاة فرضت ركعتين ركعتين فأقرت فى السفر وزيدت فى الحضر وفى صحيح البخارى أنها قالت فرض الله الصلاة حين

فرضها ركعتين ركعتين فى الحضر والسفر فأقرت صلاة السفر وزيد فى صلاة الحضر وأما ماروى عنها من الاتمام فقد اعتذرت عنه وقالت أنا أم المؤمنين فحيث حللت فهى دارى وانما ورد ذلك بنفى الجناح لما أنهم ألفوا الاتمام فكانوا مظنة أن يخطر ببالهم أن عليهم نقصانا فى القصر فصرح بنفى الجناح عنهم لتطيب به نفوسهم ويطمئنوا اليه كما فى قوله تعالى فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما مع أن ذلك الطواف واجب عندنا ركن عند الشافعى وقوله تعالى ﴿ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ جوابه محذوف لدلالة ماقبله عليه أى ان خفتم أن يتعرضوا لكم بما تكرهونه من القتال وغيره فليس عليكم جناح الخ وهو شرط معتبر فى شرعية مايذكر بعده من صلاة الخوف المؤداة بالجماعة وأما فى حق مطلق القصر فلا اعتبار له اتفاقا لتظاهر السنن على مشروعيته حسبما وقفت على تفاصيلها وقد ذكر الطحاوى فى شرح الآثار مسندا الى يعلى بن أمية أنه قال قلت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه انما قال الله فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا وقد أمن الناس فقال عمر رضى الله عنه عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته وفيه دليل على عدم جواز الاكمال لأن التصدق بما لايحتمل التمليك اسقاط محض لايحتمل الرد كما حقق فى موضعه ولا يتوهمن أنه مخالف للكتاب لأن التقييد بالشرط عندنا انما يدل على ثبوت الحكم عند وجود الشرط وأما عدمه عند عدمه فساكت عنه فان وجد له دليل ثبت عنده أيضا والا يبقى على حاله لعدم تحقق دليله لا لتحقق دليل عدمه وناهيك بما سمعت من الادلة الواضحة وأما عند القائلين بالمفهوم فلأنه انما يدل على نفى الحكم عند عدم الشرط اذا لم يكن له فائدة أخرى وقد خرج الشرط ههنا مخرج الاغلب كما فى قوله تعالى ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا بل نقول ان الآية الكريمة مجملة فى حق مقدار القصر وكيفيته وفى حق مايتعلق به من الصلوات وفى مقدار مدة الضرب الذى نيط به القصر فكل ماورد عنه صلى الله عليه وسلم من القصر فى حال الامن وتخصيصه بالرباعيات على وجه التنصيف وبالضرب فى المدة المعينة بيان لاجمال الكتاب وقد قيل ان قوله تعالى ان خفتم الخ متعلق بما بعده من صلاة الخوف منفصل عما قبله فانه روى عن أبى أيوب الانصارى رضى الله عنه أنه قال نزل قوله تعالى واذا ضربتم فى الارض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ثم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حول فنزل ان خفتم الخ أى ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا فليس عليكم جناح الخ وقد قرئ من الصلاة أن يفتنكم بغير ان خفتم على أنه مفعول له لما دل عليه الكلام كأنه قيل شرع لكم ذلك كراهة أن يفتنكم الخ فان استمرار الاشتغال بالصلاة مظنة لاقتدارهم على ايقاع الفتنة وقوله تعالى ﴿ان الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا﴾ تعليل لذلك باعتبار تعلله بما ذكر أو لما يفهم من الكلام من كون فتنتهم متوقعة فان كمال عداوتهم للمؤمنين من موجبات التعرض لهم بسوء وقوله تعالى ﴿واذا كنت فيهم﴾ بيان لما قبله من النص المجمل الوارد فى مشروعية القصر بطريق التفريع وتصوير لكيفيته عند الضرورة التامة وتخصيص البيان بهذه الصورة مع الاكتفاء فيما عداها بالبيان بطريق السنة لمزيد حاجتها اليه لما فيها من كثرة التغيير عن الهيئة الاصلية ومن ههنا ظهر لك أنه ورد النص الشريف على المقصورة وحكم ماعداها مستفاد من حكمها والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق التجريد وبظاهره يتعلق من لايرى صلاة الخوف بعده عليه السلام ولايخفى أن الأئمة بعده نوابه عليه السلام قوام بما كان يقوم به فيتناولهم حكم الخطاب الوارد له عليه السلام كما فى قوله تعالى خذ من أموالهم صدقة وقد روى أن سعيد بن العاص لما أراد أن يصلى بطبرستان صلاة الخوف قال من شهد منكم صلاة الخوف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام حذيفة بن اليمان رضى الله عنه فوصف له ذلك فصلى بهم كما وصف وكان ذلك بحضرة الصحابة رضى الله عنهم فلم ينكره أحد فحل محل الاجماع وروى

فى السنن أنهم غزوا مع عبد الرحمن بن سمرة بابل فصلى بهم صلاة الخوف ﴿فأقمت لهم الصلوة﴾ أى أردت أن تقيم بهم الصلاة ﴿فلتقم طائفة منهم معك﴾ بعد أن جعلتهم طائفتين ولتقف الطائفة الاخرى بازاء العدو ليحرسوكم منهم وانما لم يصرح به لظهوره ﴿وليأخذوا﴾ أى الطائفة القائمة معك ﴿أسلحتهم﴾ أى لايضعوها ولا يلقوها وانما عبر عن ذلك بالاخذ للايذان بالاعتناء باستصحابها كأنهم يأخذونها ابتداء ﴿فاذا سجدوا﴾ أى القائمون معك وأتموا الركعة ﴿فليكونوا من ورائكم﴾ أى فلينصرفوا الى مقابلة العدو للحراسة ﴿ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا﴾ بعد وهى الطائفة الواقفة تجاه العدو للحراسة وانما لم تعرف لما أنها لم تذكر فيما قبل ﴿فليصلوا معك﴾ الركعة الباقية ولم يبين فى الآية الكريمة حال الركعة الباقية لكل من الطائفتين وقد بين ذلك بالسنة حيث روى عن ابن عمر وابن مسعود رضى الله عنهم أن النبى صلى الله عليه وسلم حين صلى صلاة الخوف صلى بالطائفة الاولى ركعة وبالطائفة الاخرى ركعة كما فى الآية الكريمة ثم جاءت الطائفة الاولى وذهبت هذه الى مقابلة العدو حتى قضت الاولى الركعة الأخيرة بلا قراءة وسلموا ثم جاءت الطائفة الاخرى وقضوا الركعة الاولى بقراءة حتى صار لكل طائفة ركعتان ﴿وليأخذوا﴾ أى هذه الطائفة ﴿حذرهم وأسلحتهم﴾ لعل زيادة الأمر بالحذر فى هذه المرة لكونها مظنة لوقوف الكفرة على كون الطائفة القائمة مع النبى صلى الله عليه وسلم فى شغل شاغل وأما قبلها فربما يظنونهم قائمين للحرب وتكليف كل من الطائفتين بما ذكر لما أن الاشتغال بالصلاة مظنة لالقاء السلاح والاعراض عن غيرها ومئنة لهجوم العدو كما ينطق به قوله تعالى ﴿ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾ فانه استئناف مسوق لتعليل الأمر المذكور والخطاب للفريقين بطريق الالتفات أى تمنوا أن ينالوا منكم غرة وينتهزوا فرصة فيشدوا عليكم شدة واحدة والمراد بالامتعة مايتمتع به فى الحرب لامطلقا وهذا الامر للوجوب لقوله تعالى ﴿ولاجناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم﴾ حيث رخص لهم فى وضعها اذا ثقل عليهم استصحابها بسبب مطر أو مرض وأمروا مع ذلك بالتيقظ والاحتياط فقيل ﴿وخذوا حذركم﴾ لئلا يهجم العدو عليكم غيلة روى الكلبى عن أبى صالح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا محاربا وبنى أنمار فنزلوا ولايرون من العدو أحدا فوضع الناس أسلحتهم وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجة له وقد وضع سلاحه حتى قطع الوادى والسماء ترش فحال الوادى بينه عليه السلام وبين أصحابه فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فبصر به غورث ابن الحرث المحاربى فقال قتلنى الله ان لم أقتلك ثم انحدر من الجبل ومعه السيف فلم يشعر به رسول الله صلى الله عليه وسلم الا وهو قائم على رأسه وقد سل سيفه من غمده فقال يامحمد من يعصمك منى الآن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله عز وجل ثم قال اللهم اكفنى غورث بن الحرث بما شئت ثم أهوى بالسيف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضربه فأكب لوجهه من زلخة زلخها بين كتفيه فبدر سيفه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذه ثم قال ياغورث من يمنعك منى الآن قال لاأحد قال عليه الصلاة والسلام تشهد أن لااله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأعطيك سيفك قال لاولكن أشهد أن لاأقاتلك أبدا ولاأعين عليك عدوا فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه فقال غورث والله لأنت خير منى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أحق بذلك منك فرجع غورث الى أصحابه فقص عليهم قصته فآمن بعضهم قال وسكن الوادى فقطع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أصحابه وأخبرهم بالخبر وقوله تعالى ﴿ان الله أعد للكافرين عذابا مهينا﴾ تعليل للامر بأخذ الحذر أى أعد لهم عذابا مهينا بأن يخذلهم وينصركم عليهم فاهتموا بأموركم ولاتهملوا فى مباشرة الأسباب كى يحل بهم عذابه بأيديكم وقيل لما كان الأمر بالحذر من العدو موهما لتوقع غلبته واعتزازه نفى

ذلك الايهام بأن الله تعالى ينصرهم ويهين عدوهم لتقوى قلوبهم ﴿فاذا قضيتم الصلوة﴾ أى صلاة الخوف أى أديتموها على الوجه المبين وفرغتم منها ﴿فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم﴾ أى فداوموا على ذكر الله تعالى وحافظوا على مراقبته ومناجاته ودعائه فى جميع الأحوال حتى فى حال المسايفة والقتال كما فى قوله تعالى اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴿فاذا اطمأننتم﴾ سكنت قلوبكم من الخوف وأمنتم بعد ما وضعت الحرب أوزارها ﴿فأقيموا الصلوة﴾ أى الصلاة التى دخل وقتها حينئذ أى أدوها بتعديل أركانها ومراعاة شرائطها وقيل المراد بالذكر فى الأحوال الثلاثة الصلاة فيها أى فاذا أردتم أداء الصلاة فصلوا قياما عند المسايفة وقعودا جاثين على الركب عند المراماة وعلى جنوبكم مثخنين بالجراح فاذا اطمأننتم فى الجملة فاقضوا ما صليتم فى تلك الأحوال التى هى أحوال القلق والانزعاج وهو رأى الشافعى رحمه الله وفيه من البعد ما لا يخفى ﴿ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾ أى فرضا موقتا قال مجاهد وقته الله عليهم فلا بد من اقامتها فى حالة الخوف أيضا على الوجه المشروح وقيل مفروضا مقدرا فى الحضر أربع ركعات وفى السفر ركعتين فلا بد أن تؤدى فى كل وقت حسبما قدر فيه ﴿ولا تهنوا فى ابتغاء القوم﴾ أى لا تضعفوا ولا تتوانوا فى طلب الكفار بالقتال والتعرض لهم بالحراب وقوله تعالى ﴿ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾ تعليل للنهى وتشجيع لهم أى ليس ما تقاسونه من الآلام مختصا بكم بل هو مشترك بينكم وبينهم ثم أنهم يصبرون على ذلك فما لكم لا تصبرون مع أنكم أولى به منهم حيث ترجون من الله من اظهار دينكم على سائر الأديان ومن الثواب فى الآخرة ما لا يخطر ببالهم وقرئ أن تكونوا بفتح الهمزة أى لا تهنوا لان تكونوا تألمون وقوله تعالى فانهم تعليل للنهى عن الوهن لأجله والآية نزلت فى بدر الصغرى ﴿وكان الله عليما﴾ مبالغا فى العلم فيعلم أعمالكم وضمائركم ﴿حكيما﴾ فيما يأمر وينهى فجدوا فى الامتثال بذلك فان فيه عواقب حميدة ﴿انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق﴾ روى أن رجلا من الأنصار يقال له طعمة بن أبيرق من بنى ظفر سرق درعا من جاره قتادة ابن النعمان فى جراب دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه فخبأها عند زيد بن السمين اليهودى فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما أخذها وماله بها علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى الى منزل اليهودى فأخذوها فقال دفعها الى طعمة وشهد له ناس من اليهود فقالت بنو ظفر انطلقوا بنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وشهدوا ببراءته وسرقة اليهودى فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل فنزلت وروى أن طعمة هرب الى مكة وارتد ونقب حائطا بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله وقيل نزل على رجل من بنى سليم من أهل مكة يقال له الحجاج بن علاط فنقب بيته فسقط عليه حجر فلم يستطع الدخول ولا الخروج فأخذ ليقتل فقيل دعه فانه قد لجأ اليك فتركه وأخرجوه من مكة فالتحق بتجار من قضاعة نحو الشام فنزلوا منزلا فسرق بعض متاعهم وهرب فأخذوه ورجموه بالحجارة حتى قتلوه وقيل انه ركب سفينة الى جدة فسرق فيها كيسا فيه دنانير فأخذ وألقى فى البحر ﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ أى بما عرفك وأوحى به اليك ﴿ولا تكن للخائنين﴾ أى لأجلهم والذب عنهم وهم طعمة ومن يعينه من قومه أو هو ومن يسير بسيرته ﴿خصيما﴾ مخاصما للبرآء أى لا تخاصم اليهود لأجلهم والنهى معطوف على أمر ينسحب عليه النظم الكريم كأنه قيل فاحكم به ولا تكن الخ ﴿واستغفر الله﴾ مما هممت به تعويلا على شهادتهم ﴿ان الله كان غفورا رحيما﴾ مبالغا فى المغفرة والرحمة لمن يستغفره ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾ أى يخونونها بالمعصية كقوله تعالى علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم جعلت معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم كما جعلت ظلما لها لرجوع ضررها اليهم والمراد بالموصول اما طعمة وأمثاله واما هو ومن عاونه

وشهد ببراءته من قومه فانهم شركاء له فى الاثم والخيانة ﴿ان الله لا يحب من كان خوانا﴾ مفرطا فى الخيانة مصرا عليها ﴿أثيما﴾ منهمكا فيه وتعليق عدم المحبة الذى هو كناية عن البغض والسخط بالمبالغ فى الخيانة والاثم ليس لتخصيصه به بل لبيان افراط طعمة وقومه فيهما ﴿يستخفون من الناس﴾ يستترون منهم حياء وخوفا من ضررهم ﴿ولا يستخفون من الله﴾ أى لا يستحيون منه سبحانه وتعالى وهو أحق بأن يستحيا منه ويخاف من عقابه ﴿وهو معهم﴾ عالم بهم وبأحوالهم فلا طريق الى الاستخفاء منه سوى ترك ما يستقبحه ويؤاخذ به ﴿اذ يبيتون﴾ يدبرون ويزورون ﴿ما لا يرضى من القول﴾ من رمى البرئ والحلف الكاذب وشهادة الزور ﴿وكان الله بما يعملون﴾ من الأعمال الظاهرة والخافية ﴿محيطا﴾ لا يعزب عنه شئ منها ولا يفوت ﴿هاأنتم هؤلاء﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له اليهم بطريق الالتفات ايذانا بأن تعديد جناياتهم يوجب مشافهتهم بالتوبيخ والتقريع والجملة مبتدأ وخبر وقوله تعالى ﴿جادلتم عنهم فى الحيوة الدنيا﴾ جملة مبينة لوقوع أولاء خبرا ويجوز أن يكون أولاء اسما موصولا بمعنى الذين وجادلتم الخ صلته والمجادلة أشد المخاصمة والمعنى هبوا انكم خاصمتم عن طعمة وأمثاله فى الدنيا ﴿فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة﴾ فمن يخاصم عنهم يومئذ عند تعذيبهم وعقابهم ﴿أم من يكون عليهم وكيلا﴾ حافظا ومحاميا من بأس الله تعالى وانتقامه ﴿ومن يعمل سوءا﴾ قبيحا يسوء به غيره كما فعل طعمة بقتادة واليهودى ﴿أو يظلم نفسه﴾ بما يختص به كالحلف الكاذب وقيل السوء ما دون الشرك والظلم الشرك وقيل هما الصغيرة والكبيرة ﴿ثم يستغفر الله﴾ بالتوبة الصادقة ﴿يجد الله غفورا﴾ لذنوبه كائنة ما كانت ﴿رحيما﴾ متفضلا عليه وفيه مزيد ترغيب لطعمة وقومه فى التوبة والاستغفار لما أن مشاهدة التائب لآثار المغفرة والرحمة نعمة زائدة كما مر ﴿ومن يكسب اثما﴾ من الآثام ﴿فانما يكسبه على نفسه﴾ حيث لا يتعدى ضرره ووباله الى غيره فليحترز عن تعريضها للعقاب والعذاب عاجلا وآجلا ﴿وكان الله عليما﴾ مبالغا فى العلم ﴿حكيما﴾ مراعيا للحكمة فى كل ما قدر وقضى ولذلك لا يحمل وازرة وزر أخرى ﴿ومن يكسب خطيئة﴾ صغيرة أو ما لا عمد فيه من الذنوب وقرئ ومن يكسب بكسر الكاف وتشديد السين وأصله يكتسب ﴿أو اثما﴾ كبيرة أو ما كان عن عمد ﴿ثم يرم به﴾ أى يقذف به ويسنده وتوحيد الضمير مع تعدد المرجع لمكان أو وتذكيره لتغليب الاثم على الخطيئة كأنه قيل ثم يرم بأحدهما وقرئ يرم بهما وقيل الضمير للكسب المدلول عليه بقوله تعالى يكسب وثم للتراخى فى الرتبة ﴿بريئا﴾ أى مما رماه به ليحمله عقوبته العاجلة كما فعله طعمة بزيد ﴿فقد احتمل﴾ أى بما فعل من تحميل جريرته على البرئ ﴿بهتانا﴾ وهو الكذب على الغير بما يبهت منه ويتحير عند سماعه لفظاعته وهوله وقيل هو الكذب الذى يتحير فى عظمه ﴿واثما مبينا﴾ أى بينا فاحشا وهو صفة لاثما وقد اكتفى فى بيان عظم البهتان بالتنكير التفخيمى كأنه قيل بهتانا لا يقادر قدره واثما مبينا على أن وصف الاثم بما ذكر بمنزلة وصف البهتان به لأنهما عبارة عن أمر واحد هو رمى البرئ بجناية نفسه قد عبر عنه بهما تهويلا لأمره وتفظيعا لحاله فمدار العظم والفخامة كون المرمى به للرامى فان رمى البرئ بجناية ما خطيئة كانت أو اثما بهتان واثم فى نفسه أما كونه بهتانا فظاهر وأما كونه اثما فلان كون الذنب بالنسبة الى من فعله خطيئة لا يلزم منه كونه بالنسبة الى من نسبه الى البرئ منه أيضا كذلك بل لا يجوز ذلك قطعا كيف لا وهو كذب محرم فى جميع الاديان فهو فى نفسه بهتان واثم لا محالة وبكون تلك الجناية للرامى يتضاعف ذلك شدة ويزداد قبحا لكن لا لانضمام جنايته المكسوبة الى رمى البرئ والا لكان الرمى بغير جناية مثله فى العظم ولا لمجرد اشتماله على تبرئة نفسه الخاطئة والا لكان الرمى بغير جناية مع تبرئة نفسه كذلك فى العظم بل لاشتماله على قصد تحميل جنايته على البرئ

واجراء عقوبتها عليه كما ينبئ عنه ايثار الاحتمال على الاكتساب ونحوه لما فيه من الايذان بانعكاس تقديره مع مافيه من الاشعار بثقل الوزر وصعوبة الأمر نعم بما ذكر من انضمام كسبه وتبرئة نفسه الى رمى البرئ تزداد الجناية قبحا لكن تلك الزيادة وصف للمجموع لا للاثم ﴿ولولا فضل الله عليك و رحمته﴾ باعلامك ماهم عليه بالوحى وتنبيهك على الحق وقيل بالنبوة والعصمة ﴿لهمت طائفة منهم﴾ أى من بنى ظفر وهم الذابون عن طعمة وقد جوز أن يكون المراد بالطائفة كلهم و يكون الضمير راجعا ألى الناس وقيل هم وفد بنى ثقيف قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا جئناك لنبايعك على أن لاتكسر أصنامنا ولاتعشرنا فردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿أن يضلوك﴾ أى بأن يضلوك عن القضاء بالحق مع علمهم بكنه الأمر والجملة جواب لولا وانما نفى همهم مع أن المنفى انما هو تأثيره فقط ايذانا بانتفاء تأثيره بالكلية وقيل المراد هو الهم المؤثر و لا ريب فى انتفائه حقيقة وقيل الجواب محذوف أى لأضلوك وقوله تعالى لهمت جملة مستأنفة أى لقد همت طائفة الخ ﴿ومايضلون الا أنفسهم﴾ لاقتصار وبال مكرهم عليهم من غير أن يصيبك منه شئ والجملة اعتراض وقوله تعالى ﴿ومايضرونك من شئ﴾ عطف عليه ومحل الجار والمجرور النصب على المصدرية أى ومايضرونك شيئا من الضرر لما أنه تعالى عاصمك وأما ماخطر ببالك فكان عملا منك بظاهر الحال ثقة بأقوال القائلين من غير أن يخطر ببالك أن الحقيقة على خلاف ذلك ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ أى القرآن الجامع بين العنوانين وقيل المراد بالحكمة السنة ﴿وعلمك﴾ بالوحى من خفيات الامور التى من جملتها وجوه ابطال كيد المنافقين أو من أمور الدين وأحكام الشرع ﴿مالم تكن تعلم﴾ ذلك الى وقت التعليم ﴿وكان فضل الله عليك عظيما﴾ اذ لافضل أعظم من النبوة العامة والرياسة التامة ﴿لاخير فى كثير من نجواهم﴾ أى فى كثير من تناجى الناس ﴿الامن أمر﴾ أى الافى نجوى من أمر ﴿بصدقة أو معروف﴾ وقيل المراد بالنجوى المتناجون بطريق المجاز وقيل النجوى جمع نجى نقله الكرمانى وأياما كان فالاستثناء متصل و يجوز الانقطاع أيضا على معنى لكن من أمر بصدقة الخ ففى نجواه الخير . والمعروف كل مايستحسنه الشرع و لاينكره العقل فينتظم أصناف الجميل وفنون أعمال البر وقد فسر ههنا بالقرض واغاثة الملهوف وصدقة التطوع على أن المراد بالصدقة الصدقة الواجبة ﴿أو اصلاح بين الناس﴾ عند وقوع المشاقة والمعاداة بينهم من غير أن يجاوز فى ذلك حدود الشرع الشريف و بين اما متعلق بنفس اصلاح يقال أصلحت بين القوم أو بمحذوف هو صفة له أى كائن بين الناس عن أبى أيوب الانصارى رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له ألا أدلك على صدقة خير لك من حمر النعم فقال بلى يارسول الله قال تصلح بين الناس اذا تفاسدوا وتقرب بينهم اذا تباعدوا قالوا ولعل السر فى افراد هذه الاقسام الثلاثة بالذكر أن عمل الخير المتعدى الى الناس اما لايصال المنفعة أو لدفع المضرة والمنفعة اما جسمانية كاعطاء المال واليه الاشارة بقوله تعالى الا من أمر بصدقة واما روحانية واليه الاشارة بالامر بالمعروف وأما دفع الضرر فقد أشير اليه بقوله تعالى أو اصلاح بين الناس ﴿ومن يفعل ذلك﴾ اشارة الى الأمور المذكورة أعنى الصدقة والمعروف والاصلاح فانه يشار به الى متعدد ومافيه من معنى البعد مع قرب العهد بها للايذان ببعد منزلتها و رفعة شأنها وترتيب الوعد على فعلها اثر بيان خيرية الأمر بها لما أن المقصود الاصلى هو الترغيب فى الفعل و بيان خيرية الأمر به للدلالة على خيريته بالطريق الأولى لما أن مدار حسن الأمر وقبحه حسن المأمور به وقبحه فحيث ثبت خيرية الأمر بالامور المذكورة فخيرية فعلها أثبت وفيه تحريض للآمر بها على فعلها أو اشارة الى الأمر بها كأنه قيل ومن يأمر بها والكلام فى ترتيب الوعد على فعلها كالذى مر فى الخيرية فان استتباع الأمر بها للاجر العظيم انما هو لكونه ذريعة الى فعلها فاستتباعه له

أولى وأحق ﴿ابتغاء مرضاة الله﴾ علة للفعل والتقييد به لأن الاعمال بالنيات وأن من فعل خيرا لغير ذلك لم يستحق به غير الحرمان ﴿فسوف نؤتيه﴾ بنون العظمة على الالتفات وقرئ بالياء ﴿أجرا عظيما﴾ يقصر عنه الوصف ﴿ومن يشاقق الرسول﴾ التعرض لعنوان الرسالة لاظهار كمال شناعة مااجترؤا عليه من المشاقة والمخالفة وتعليل الحكم الآتى بذلك ﴿من بعد ماتبين له الهدى﴾ ظهر له الحق بالوقوف على المعجزات الدالة على نبوته ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ أى غير ماهم مستمرون عليه من عقد وعمل وهو الدين القيم ﴿نوله ماتولى﴾ أى نجعله واليا لما تولاه من الضلال ونخذله بأن نخلى بينه و بين مااختاره ﴿ونصله جهنم﴾ أى ندخله اياها وقرئ بفتح النون من صلاه ﴿وساءت مصيرا﴾ أى جهنم وفيها دلالة على حجية الاجماع وحرمة مخالفته ﴿ان الله لايغفر أن يشرك به و يغفر مادون ذلك لمن يشاء﴾ قد مر تفسيره فيما سبق وهو تكرير للتأكيد والتشديد أو لقصة طعمة وقد مر موته كافرا . وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن شيخا من العرب جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انى شيخ منهمك فى الذنوب الا أنى لم أشرك بالله شيئا منذ عرفته وآمنت به ولم أتخذ من دونه وليا ولم أواقع المعاصى جراءة على الله تعالى وماتوهمت طرفة عين أنى أعجز الله هربا وانى لنادم تائب مستغفر فماترى حالى عند الله تعالى فنزلت ﴿ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا﴾ عن الحق فان الشرك أعظم أنواع الضلالة وأبعدها عن الصواب والاستقامة كما أنه افتراء واثم عظيم ولذلك جعل الجزاء فى هذه الشرطية فقد ضل الخ وفيما سبق فقد افترى اثما عظيما حسبما يقتضيه سياق النظم الكريم وسياقه ﴿ان يدعون من دونه﴾ أى مايعبدون من دونه عز وجل ﴿الا اناثا﴾ يعنى اللات والعزى ومناة ونحوها . عن الحسن أنه لم يكن من أحياء العرب حى الا كان لهم صنم يعبدونه يسمونه أنثى بنى فلان قيل لأنهم كانوا يقولون فى أصنامهم هن بنات الله وقيل لأنهم كانوا يلبسونها أنواع الحلى و يزينونها على هيآت النسوان وقيل المراد الملائكة لقولهم الملائكة بنات الله وقيل تسميتها اناثا لتأنيث أسمائها أو لأنها فى الأصل جماد والجمادات تؤنث من حيث أنها ضاهت الاناث لانفعالها وايرادها بهذا الاسم للتنبيه على فرط حماقة عبدتها وتناهى جهلهم والاناث جمع أنثى كرباب و ربى وقرئ على التوحيد وأنثا أيضا على أنه جمع أنيث كقليب وقلب أو جمع اناث كثمار وثمر وقرئ وثنا واثنا بالتخفيف والتثقيل جمع وثن كقولك أسد وأسد و آسد على الأصل وقلب الواو ألفا نحو أجوه فى وجوه ﴿وان يدعون﴾ وما يعبدون بعبادتها ﴿الاشيطانا مريدا﴾ اذ هو الذى أمرهم بعبادتها وأغراهم عليها فكانت طاعتهم له عبادة والمريد والمارد هو الذى لا يعلق بخير وأصل التركيب للملاسة ومنه صرح ممرد وشجرة مرداء للتى تناثر ورقها ﴿لعنه الله﴾ صفة ثانية لشيطانا ﴿وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا﴾ عطف على الجملة المتقدمة أى شيطانا مريدا جامعا بين لعنة الله وهذا القول الشنيع الصادر عنه عند اللعن ولقد برهن على أن عبادة الاصنام غاية الضلال بطريق التعليل بأن مايعبدونها ينفعل و لا يفعل فعلا اختياريا وذلك ينافى الالوهية غاية المنافاة ثم استدل عليه بأن ذلك عبادة للشيطان وهو أفظع الضلال من وجوه ثلاثة الاول أنه منهمك فى الغى لايكاد يعلق بشئ من الخير والهدى فتكون طاعته ضلالا بعيدا عن الحق والثانى أنه ملعون لضلاله فلا تستتبع مطاوعته سوى اللعن والضلال والثالث أنه فى غاية السعى فى اهلاكهم واضلالهم فموالاة من هذا شأنه غاية الضلال فضلا عن عبادته والمفروض المقطوع أى نصيبا قدر لى وفرض من قولهم فرض له فى العطاء ﴿ولأضلنهم ولأمنينهم﴾ الامانى الباطلة كطول الحياة وأن لابعث و لا عقاب ونحو ذلك ﴿ولآمرنهم فليبتكن آذان الانعام﴾ أى فليقطعنها بموجب أمرى و يشقنها من غير تلعثم فى ذلك ولا تأخير وذلك ما كانت العرب تفعله بالبحائر والسوائب ﴿ولآمرنهم فليغيرن﴾ ممتثلين به ﴿خلق الله﴾

عن نهجه صورة أوصفة و ينتظم فيه ماقيل من فقء عين الحامى وخصاء العبيد والوشم والوشر ونحو ذلك وعموم اللفظ يمنع الخصاء مطلقا لكن الفقهاء رخصوا فى البهائم لمكان الحاجة وهذه الجمل المحكية عن اللعين مما نطق به لسانه مقالا أوحالا وما فيها من اللامات كلها للقسم والمأمور به فى الموضعين محذوف ثقة بدلالة النظم عليه ﴿ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله﴾ بايثار مايدعو اليه على ما أمر الله تعالى به ومجاوزته عن طاعة الله تعالى الى طاعته ﴿فقد خسر خسرانا مبينا﴾ لانه ضيع رأس ماله بالكلية واستبدل بمكانه من الجنة مكانه من النار ﴿يعدهم﴾ أى مالا يكاد ينجزه ﴿و يمنيهم﴾ أى الامانى الفارغة أو يفعل لهم الوعد والتمنية على طريقة فلان يعطى و يمنع والضميران لمن والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد فى يتخذ وخسر باعتبار لفظها ﴿ومايعدهم الشيطان الا غرورا﴾ وهو اظهار النفع فيما فيه الضرر وهذا الوعد اما بالقاء الخواطر الفاسدة أو بألسنة أوليائه وغرورا امامفعول ثان للوعد أومفعول لأجله أو نعت لمصدر محذوف أى وعداً ذا غرور أو مصدر على غير لفظ المصدر لأن يعدهم فى قوة يغرهم بوعده والجملة اعتراض وعدم التعرض للتمنية لأنها باب من الوعد ﴿أولئك﴾ اشارة الى أولياء الشيطان وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد منزلتهم فى الخسران وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿مأواهم﴾ مبتدأ ثان وقوله تعالى ﴿جهنم﴾ خبر للثانى والجملة خبر للأول ﴿و لايجدون عنها محيصا﴾ أى معدلا ومهربا من حاص الحمار اذا عدل وقيل خلص ونجا وقيل الحيص هو الروغان بنفور وعنها متعلق بمحذوف وقع حالا من محيصا أى كائنا عنها و لامساغ لتعلقه بمحيصا أما اذا كان اسم مكان فظاهر وأما اذا كان مصدرا فلأنه لايعمل فيما قبله ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا﴾ قرن وعيد الكفرة بوعد المؤمنين زيادة لمسرة هؤلاء ومساءة أولئك ﴿وعد الله حقا﴾ أى وعده وعدا وحق ذلك حقا فالأول مؤكد لنفسه لأن مضمون الجملة الاسمية وعد والثانى مؤكد لغيره و يجوز أن ينتصب الموصول بمضمر يفسره مابعده و ينتصب وعدالله بقوله تعالى سندخلهم لأنه فى معنى نعدهم ادخال جنات الخ وحقا على أنه حال من المصدر ﴿ومن أصدق من الله قيلا﴾ جملة مؤكدة بليغة والمقصود من الآية معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه والمبالغة فى تأكيده ترغيبا للعباد فى تحصيله والقيل مصدر كالقول والقال وقال ابن السكيت القيل والقال اسمان لامصدران ونصبه على التمييز وقرىء باشمام الصاد وكذا كل صاد ساكنة بعدها دال ﴿ليس بأمانيكم و لاأمانى أهل الكتاب﴾ أى ليس ماوعد الله تعالى من الثواب يحصل بأمانيكم أيها المسلمون و لابأمانى أهل الكتاب وانما يحصل بالايمان والعمل الصالح ولعل نظم أمانى أهل الكتاب فى سلك أمانى المسلمين مع ظهور حالها للايذان بعدم اجداء أمانى المسلمين أصلا كما فى قوله تعالى و لا الذين يموتون وهم كفار كما سلف وعن الحسن ليس الايمان بالتمنى ولكن ماوقر فى القلب وصدقه العمل ان قوما ألهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا و لاحسنة لهم وقالوا نحسن الظن بالله وكذبوا لو أحسنوا الظن به لأحسنوا العمل وقيل ان المسلمين وأهل الكتاب افتخروا فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله تعالى منكم فقال المسلمون نحن أولى منكم نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضى على الكتب المتقدمة فنزلت وقيل الخطاب للمشركين و يؤيده تقدم ذكرهم أى ليس الأمر بأمانى المشركين وهو قولهم لاجنة و لانار وقولهم ان كان الأمر كما يزعم هؤلاء لنكونن خيرا منهم وأحسن حالا وقولهم لأوتين مالا و ولدا و لاأمانى أهل الكتاب وهو قولهم لن يدخل الجنة الامن كان هودا أو نصارى وقولهم لن تمسنا النار الا أياما معدودة ثم قرر ذلك بقوله تعالى ﴿من يعمل سوءا يجز به﴾ عاجلا أو آجلا لما روى أنه لما نزلت قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه فمن ينجو مع هذا يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أماتحزن

أوتمرض أو يصيبك البلاء قال بلى يارسول الله قال هو ذاك ﴿و لايجد له من دون الله﴾ أى مجاوزا لموالاة الله ونصرته ﴿وليا﴾ يواليه ﴿و لانصيرا﴾ ينصره فى دفع العذاب عنه ﴿ومن يعمل من الصالحات﴾ أى بعضها أوشيأ منها فان كل أحد لايتمكن من كلها وليس مكلفا بها ﴿من ذكر أوأنثى﴾ فى موضع الحال من المستكن فى يعمل ومن للبيان أومن الصالحات فمن للابتداء أى كائنة من ذكر الخ ﴿وهو مؤمن﴾ حال شرط اقتران العمل بها فى استدعاء الثواب المذكور تنبيها على أنه لااعتداد به دونه ﴿فأولئك﴾ اشارة الى من بعنوان اتصافه بالايمان والعمل الصالح والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد فيما سبق باعتبار لفظها ومافيه من معنى البعد لما مر غير مرة من الاشعار بعلو رتبة المشار اليه و بعد منزلته فى الشرف ﴿يدخلون الجنة﴾ وقرىء يدخلون مبنيا للمفعول من الادخال ﴿و لا يظلمون نقيرا﴾ أى لاينقصون شيأ حقيرا من ثواب أعمالهم فان النقير علم فى القلة والحقارة واذا لم ينقص ثواب المطيع فلأن لايزاد عقاب العاصى أولى وأحرى كيف لا والمجازى أرحم الراحمين وهو السر فى الاقتصار على ذكره عقيب الثواب ﴿ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله﴾ أى أخلص نفسه له تعالى لايعرف له ربا سواه وقيل بذل وجهه له فى السجود وقيل أخلص عمله له عز وجل وقيل فوض أمره اليه تعالى وهذا انكار واستبعاد لأن يكون أحد أحسن دينا ممن فعل ذلك أو مساويا له وان لم يكن سبك التركيب متعرضا لانكار المساواة ونفيها يرشدك اليه العرف المطرد والاستعمال الفاشى فانه اذا قيل من أكرم من فلان أو لاأفضل من فلان فالمراد به حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل وعليه مساق قوله تعالى ومن أظلم ممن افترى ونظائره ودينا نصب على التمييز من أحسن منقول من المبتدا والتقدير ومن دينه أحسن من دين من أسلم الخ فالتفضيل فى الحقيقة جار بين الدينين لابين صاحبيهما ففيه تنبيه على أن ذلك أقصى ماتنتهى اليه القوة البشرية ﴿وهو محسن﴾ أى آت بالحسنات تارك للسيئات أو آت بالأعمال الصالحة على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسره عليه الصلاة والسلام بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك والجملة حال من فاعل أسلم ﴿واتبع ملة ابراهيم﴾ الموافقة لدين الاسلام المتفق على صحتها وقبولها ﴿حنيفا﴾ مائلا عن الأديان الزائغة وهو حال من فاعل اتبع أومن ابراهيم ﴿واتخذ الله ابراهيم خليلا﴾ اصطفاه وخصه بكرامات تشبه كرامات الخليل عند خليله واظهاره عليه الصلاة والسلام فى موقع الاضمار لتفخيم شأنه والتنصيص على أنه الممدوح وتأكيد استقلال الجملة الاعتراضية والخلة من الخلال فانه ود تخلل النفس وخالطها وقيل من الخلل فان كل واحد من الخليلين يسد خلل الآخر أومن الخل وهو الطريق فى الرمل فانهما يتوافقان فى الطريقة أومن الخلة بمعنى الخصلة فانهما يتوافقان فى الخصال وفائدة الاعتراض جمة من جملتها الترغيب فى اتباع ملته عليه السلام فان من بلغ من الزلفى عند الله تعالى مبلغا مصححا لتسميته خليلا حقيق بأن يكون اتباع طريقته أهم مايمتد اليه أعناق الهمم وأشرف مايرمق نحوه أحداق الأمم قيل انه عليه الصلاة والسلام بعث الى خليل له بمصر فى أزمة أصابت الناس يمتار منه فقال خليله لوكان ابراهيم يطلب الميرة لنفسه لفعلت ولكنه يريدها للاضياف وقد أصابنا ما أصاب الناس من الشدة فرجع غلمانه عليه الصلاة والسلام فاجتازوا ببطحاء لينة فملؤا منها الغرائر حياء من الناس وجاؤا بها الى منزل ابراهيم عليه الصلاة والسلام وألقوها فيه وتفرقوا وجاء أحدهم فأخبر ابراهيم بالقصة فاغتم لذلك غما شديدا لاسيما لاجتماع الناس ببابه رجاء الطعام فغلبه عيناه وعمدت سارة الى الغرائر فاذا فيها أجود مايكون من الحوارى فاختبزت وفى رواية فأطعمت الناس وانتبه ابراهيم عليه السلام فاشتم رائحة الخبز فقال من أين لكم قالت سارة من خليلك المصرى فقال بل من عند خليلى الله عز وجل فسماه الله تعالى خليلا ﴿ولله مافى السموات ومافى الأرض﴾ جملة مبتدأة سيقت لتقرير وجوب طاعة الله

تعالى على أهل السموات والأرض ببيان أن جميع مافيهما من الموجودات له تعالى خلقا وملكا لايخرج عن ملكوته شئ منها فيجازى كلا بموجب أعماله خيرا وشرا وقيل لبيان أن اتخاذه عز وجل لابراهيم عليه السلام خليلا ليس لاحتياجه سبحانه الى ذلك فى شأن من شئونه كما هو دأب الآدميين فان مدار خلتهم افتقار بعضهم الى بعض فى مصالحهم بل لمجرد تكرمته وتشريفه عليه السلام وقيل لبيان أن الخلة لاتخرجه عن رتبة العبودية وقيل لبيان أن اصطفاءه عليه السلام للخلة بمحض مشيئته تعالى أى له تعالى مافيهما جميعا يختار منهما مايشاء لمن يشاء وقوله عز وجل ﴿وكان الله بكل شئ محيطا﴾ تذييل مقرر لمضمون ماقبله على الوجوه المذكورة فان احاطته تعالى علما وقدرة بجميع الأشياء التى من جملتها مافيهما من المكلفين وأعمالهم ممايقرر ذلك أكمل تقرير ﴿ويستفتونك فى النساء﴾ أى فى حقهن على الاطلاق كما ينبئ عنه الأحكام الآتية لافى حق ميراثهن خاصة فانه صلى الله عليه وسلم قدسئل عن أحوال كثيرة مما يتعلق بهن فمابين حكمه فيما سلف أحيل بيانه على ماورد فى ذلك من الكتاب ومالم يبين حكمه بعد بين ههنا وذلك قوله تعالى ﴿قل الله يفتيكم فيهن ومايتلى عليكم فى الكتاب﴾ باسناد الافتاء الذى هو تبيين المبهم وتوضيح المشكل اليه تعالى والى مايتلى من الكتاب فيما سبق باعتبارين على طريقة قولك أغنانى زيد وعطاؤه بعطف ماعلى المبتدأ أوضميره فى الخبر لمكان الفصل بالمفعول والجار والمجرور وايثار صيغة المضارع للايذان باستمرار التلاوة ودوامها وفى الكتاب اما متعلق بيتلى أو بمحذوف وقع حالا من المستكن فيه أى يتلى كائنا فيه ويجوز أن يكون مايتلى عليكم مبتدأ وفى الكتاب خبره على أن المراد به اللوح المحفوظ والجملة معترضة مسوقة لبيان عظم شأن المتلو عليهم وأن العدل فى الحقوق المبينة فيه من عظائم الأمور التى تجب مراعاتها والمحافظة عليها فما يتلى حينئذ متناول لما تلى وما سيتلى ويجوز أن يكون مجرورا على القسم المنبئ عن تعظيم المقسم به وتفخيمه كأنه قيل قل الله يفتيكم فيهن وأقسم بما يتلى عليكم فى الكتاب فالمراد بقوله تعالى يفتيكم بيانه السابق واللاحق ولامساغ لعطفه على المجرور فى فيهن لاختلاله لفظا ومعنى وقوله تعالى ﴿فى يتامى النساء﴾ على الوجه الأول وهو الأظهر متعلق بيتلى أى مايتلى عليكم فى شأنهن وعلى الأخيرين بدل من فيهن وهذه الاضافة بمعنى من لأنها اضافة الشئ الى جنسه وقرئ ييامى على قلب همزة أيامى ياء ﴿اللاتى لاتؤتونهن ماكتب لهن﴾ أى مافرض لهن من الميراث وغيره ﴿وترغبون﴾ عطف على الصلة عطف جملة مثبتة على جملة منفية وقيل حال من فاعل تؤتونهن بتأويل وأنتم ترغبون ولا ريب فى أنه لايظهر لتقييد عدم الايتاء بذلك فائدة الا اذا أريد بما كتب لهن صداقهن ﴿أن تنكحوهن﴾ أى فى أن تنكحوهن لالأجل التمتع بهن بل لأكل مالهن أو فى أن تنكحوهن بغير اكمال الصداق وذلك مارُوى عن عائشة رضى الله تعالى عنها من أنها اليتيمة تكون فى حجر وليها فيرغب فى مالها وجمالها ويريد أن ينكحها بأدنى من سنة نسائها فنهوا أن ينكحوهن الا أن يقسطوا لهن فى اكمال الصداق أو عن أن تنكحوهن وذلك ماروى عنها رضى الله عنها أنها يتيمة يرغب وليها عن نكاحها ولا ينكحها فيعضلها طمعا فى ميراثها وفى رواية عنها رضى الله عنها هو الرجل يكون عنده يتيمة هو وليها ووارثها وشريكها فى المال حتى فى العذق فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجها رجلا فيشركه فى ماله بما شركته فيعضلها فالمراد بما كتب لهن على الوجه الاول والاخير ميراثهن وبما يتلى فى حقهن قوله تعالى وآتوا اليتامى أموالهم وقوله تعالى ولا تأكلوها ونحوهما من النصوص الدالة على عدم التعرض لأموالهم وعلى الوجه الثانى صداقهن وبما يتلى فيهن قوله تعالى وان خفتم أن لاتقسطوا فى اليتامى الآية ﴿والمستضعفين من الولدان﴾ عطف على يتامى النساء وما يتلى فى حقهم قوله تعالى يوصيكم الله الخ وقد كانوا فى الجاهلية لايورثونهم كما لايورثون النساء وانما يورثون الرجال القوام بالأمور. روى أن عيينة ابن حصن الفزارى جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أخبرنا بأنك تعطى الابنة النصف

والأخت النصف وانما كنا نورث من يشهد القتال ويحوز الغنيمة فقال عليه الصلاة والسلام كذلك أمرت ﴿وأن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ بالجر عطف على ماقبله وما يتلى فى حقهم قوله تعالى ولاتتبدلوا الخبيث بالطيب ولاتأكلوا أموالهم الى أموالكم ونحو ذلك مما لايكاد يحصر هذا على تقدير كون فى يتامى النساء متعلقا بيتلى وأما على تقدير كونه بدلا من فيهن فالوجه نصبه عطفا على موضع فيهن أى يفتيكم أن تقوموا ويجوز نصبه باضمار فعل أى ويأمركم وهو خطاب للولاة أو للأولياء والأوصياء ﴿وما تفعلوا﴾ فى حقوق المذكورين ﴿من خير﴾ حسبما أمرتم به أو ماتفعلوه من خير على الاطلاق فيندرج فيه مايتعلق بهم اندراجا أوليا ﴿فان الله كان به عليما﴾ فيجازيكم بحسبه ﴿وان امرأة خافت﴾ شروع فى بيان مالم يبين فيما سلف من الأحكام أى ان توقعت امرأة ﴿من بعلها نشوزا﴾ أى تجافيا عنها وترفعا عن صحبتها كراهة لها ومنعا لحقوقها ﴿أو اعراضا﴾ بأن يقل محادثتها ومؤانستها لما يقتضى ذلك من الدواعى والأسباب ﴿فلا جناح عليهما﴾ حينئذ ﴿أن يصلحا بينهما صلحا﴾ أى فى أن يصلحا بينهما بأن تحط له المهر أو بعضه أو القسم كما فعلت سودة بنت زمعة حين كرهت أن يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم فوهبت يومها لعائشة رضى الله عنها أو بأن تهب له شيأ تستميله وقرئ يصالحا من يتصالحا ويصلحا من يصطلحا ويصالحا من المفاعلة وصلحا اما منصوب بالفعل المذكور على كل تقدير على أنه مصدر منه بحذف الزوائد وقد يعبر عنه باسم المصدر كأنه قيل اصلاحا أو تصالحا أو اصطلاحا حسبما قرئ الفعل أو بفعل مترتب على المذكور أى فيصلح حالهما صلحا وبينهما ظرف للفعل أو حال من صلحا والتعرض لنفى الجناح عنهما مع أنه ليس من جانبها الأخذ الذى هو المظنة للجناح لبيان أن هذا الصلح ليس من قبيل الرشوة المحرمة للمعطى والآخذ ﴿والصلح خير﴾ أى من الفرقة أو من سوء العشرة أو من الخصومة فاللام للعهد أو هو خير من الخيور فاللام للجنس والجملة اعتراض مقرر لما قبله وكذا قوله تعالى ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ أى جعلت حاضرة له مطبوعة عليه لاتنفك عنه أبدا فلا المرأة تسمح بحقوقها من الرجل ولا الرجل يجود بحسن المعاشرة مع دمامتها فان فيه تحقيقا للصلح وتقريرا له بحث كل منهما عليه لكن لا بالنظر الى حال نفسه فان ذلك يستدعى التمادى فى المماكسة والشقاق بل بالنظر الى حال صاحبه فان شح نفس الرجل وعدم ميلها عن حالتها الجبلية بغير استمالة مما يحمل المرأة على بذل بعض حقوقها اليه لاستمالته وكذا شح نفسها بحقوقها مما يحمل الرجل على أن يقتنع من قبلها بشئ يسير ولا يكلفها بذل الكثير فيتحقق بذلك الصلح ﴿وان تحسنوا﴾ فى العشرة ﴿وتتقوا﴾ النشوز والاعراض وان تعاضدت الأسباب الداعية اليهما وتصبروا على ذلك مراعاة لحقوق الصحبة ولم تضطروهن الى بذل شئ من حقوقهن ﴿فان الله كان بما تعملون﴾ أى من الاحسان والتقوى أو بما تعملون جميعا فيدخل ذلك فيه دخولا أوليا ﴿خبيرا﴾ فيجازيكم ويثيبكم على ذلك البتة لاستحالة أن يضيع أجر المحسنين وفى خطاب الأزواج بطريق الالتفات والتعبير عن رعاية حقوقهن بالاحسان ولفظ التقوى المنبئ عن كون النشوز والاعراض مما يتوقى منه وترتيب الوعد الكريم عليه من لطف الاستمالة والترغيب فى حسن المعاملة مالا يخفى. روى أنها نزلت فى عمرة بنت محمد بن مسلمة وزوجها سعد بن الربيع تزوجها وهى شابة فلما علاها الكبر تزوج شابة وآثرها عليها وجفاها فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكت اليه ذلك وقيل نزلت فى أبى السائب كانت له امرأة قد كبرت وله منها أولاد فأراد أن يطلقها ويتزوج غيرها فقالت لاتطلقنى ودعنى على أولادى فاقسم لى من كل شهرين ان شئت وان شئت فلا تقسم لى فقال ان كان يصلح ذلك فهو أحب الى فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فنزلت ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء﴾ أى محال أن تقدروا على أن تعدلوا بينهن بحيث لايقع ميل ما الى جانب احداهن فى شأن من الشئون

البتة وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك وفى رواية وأنت أعلم بما لا أملك يعنى فرط محبته لعائشة رضى الله عنها ﴿ولو حرصتم﴾ أى على اقامة العدل وبالغتم فى ذلك ﴿فلا تميلوا كل الميل﴾ أى فلا تجوروا على المرغوب عنها كل الجور واعدلوا ما استطعتم فان عجزكم عن حقيقة العدل انما يصحح عدم تكليفكم بها لا بما دونها من المراتب الداخلة تحت استطاعتكم ﴿فتذروها﴾ أى التى ملتم عنها ﴿كالمعلقة﴾ التى ليست ذات بعل أو مطلقة وقرئ كالمسجونة وفى الحديث من كانت له امرأتان يميل مع احداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل ﴿وان تصلحوا﴾ ما كنتم تفسدون من أمورهن ﴿وتتقوا﴾ الميل فيما يستقبل ﴿فان الله كان غفورا﴾ يغفر لكم ما فرط منكم من الميل ﴿رحيما﴾ يتفضل عليكم برحمته ﴿وان يتفرقا﴾ وقرئ يتفارقا أى وان يفارق كل منهما صاحبه بأن لم يتفق بينهما وفاق بوجه ما من الصلح وغيره ﴿يغن الله كلا﴾ منهما أى يجعله مستغنيا عن الآخر ويكفه مهماته ﴿من سعته﴾ من غناه وقدرته وفيه زجر لهما عن المفارقة رغما لصاحبه ﴿وكان الله واسعا حكيما﴾ مقتدرا متقنا فى أفعاله وأحكامه وقوله تعالى ﴿ولله ما فى السموات وما فى الارض﴾ أى من الموجودات كائنا ما كان من الخلائق وأرزاقهم وغير ذلك جملة مستأنفة منبهة على كمال سعته وعظم قدرته ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ أى أمرناهم فى كتابهم وهم اليهود والنصارى ومن قبلهم من الامم واللام فى الكتاب للجنس ومن متعلقة بوصينا أو بأوتوا ﴿واياكم﴾ عطف على الموصول ﴿أن اتقوا الله﴾ أى وصينا كلا منكم ومنهم بأن اتقوا الله على أن أن مصدرية حذف عنها الجار ويجوز أن تكون مفسرة لان التوصية فى معنى القول فقوله تعالى ﴿وان تكفروا فان لله ما فى السموات وما فى الارض﴾ حينئذ من تتمة القول المحكى أى ولقد قلنا لهم ولكم اتقوا الله وان تكفروا الى آخر الآية وعلى تقدير كون أن مصدرية مبنى الكلام ارادة القول أى أمرناهم واياكم بالتقوى وقلنا لهم ولكم ان تكفروا الآية وقيل هى جملة مستأنفة خوطب بها هذه الأمة وأياما كان فالمترتب على كفرهم ليس مضمون قوله تعالى فان لله الآية بل هو الامر بعلمه كأنه قيل وان تكفروا فاعلموا أن لله ما فى السموات وما فى الارض من الخلائق قاطبة مفتقرون اليه فى الوجود وسائر النعم المتفرعة عليه لا يستغنون عن فيضه طرفة عين فحقه أن يطاع ولا يعصى ويتقى عقابه ويرجى ثوابه وقد قرر ذلك بقوله تعالى ﴿وكان الله غنيا﴾ أى عن الخلق وعبادتهم ﴿حميدا﴾ محمودا فى ذاته حمدوه أو لم يحمدوه فلا يتضرر بكفرهم ومعاصيهم كما لا ينتفع بشكرهم وتقواهم وانما وصاهم بالتقوى لرحمته لا لحاجته ﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض﴾ كلام مبتدأ مسوق للمخاطبين توطئة لما بعده من الشرطية غير داخل تحت القول المحكى أى له سبحانه ما فيهما من الخلائق خلقا وملكا يتصرف فيهم كيفما يشاء ايجادا واعداما واحياء واماتة ﴿وكفى بالله وكيلا﴾ فى تدبير أمور الكل وكل الامور فلا بد من أن يتوكل عليه لا على أحد سواه ﴿ان يشأ يذهبكم أيها الناس﴾ أى يفنكم ويستأصلكم بالمرة ﴿ويأت بآخرين﴾ أى ويوجد دفعة مكانكم قوما آخرين من البشر أو خلقا آخرين مكان الانس ومفعول المشيئة محذوف لكونه مضمون الجزاء أى ان يشأ افناءكم وايجاد آخرين يذهبكم الخ يعنى أن ابقاءكم على ما أنتم عليه من العصيان انما هو لكمال غناه عن طاعتكم ولعدم تعلق مشيئته المبنية على الحكم البالغة بافنائكم لا لعجزه سبحانه تعالى عن ذلك علوا كبيرا ﴿وكان الله على ذلك﴾ أى على افنائكم بالمرة وايجاد آخرين دفعة مكانكم ﴿قديرا﴾ بليغ القدرة وفيه لا سيما فى توسيط الخطاب بين الجزاء وما عطف عليه من تشديد التهديد ما لا يخفى وقيل هو خطاب لمن عادى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب أى ان يشأ يمتكم ويأت بأناس آخرين يوالونه فمعناه هو معنى قوله تعالى وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ويروى أنها لما نزلت ضرب رسول

الله صلى الله عليه وسلم بيده على ظهر سلمان وقال انهم قوم هذا يريد أبناء فارس ﴿من كان يريد ثواب الدنيا﴾ كالمجاهد يريد بجهاده الغنيمة ﴿فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾ أى فعنده تعالى ثوابهما له ان أراده فما له يطلب أخسهما فليطلبهما كمن يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة أو ليطلب أشرفهما فان من جاهد خالصا لوجه الله تعالى لم تخطئه الغنيمة وله فى الآخرة ما هى فى جنبه كلا شئ أى فعند الله ثواب الدارين فيعطى كلا ما يريده كقوله تعالى من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه الآية ﴿وكان الله سميعا بصيرا﴾ عالما بجميع المسموعات والمبصرات فيندرج فيها ما صدر عنهم من الاقوال والاعمال المتعلقة بمراداتهم اندراجا أوليا ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط﴾ مبالغين فى العدل واقامة القسط فى جميع الامور مجتهدين فى ذلك حق الاجتهاد ﴿شهداء لله﴾ بالحق تقيمون شهاداتكم لوجه الله تعالى وهو خبر ثان وقيل حال ﴿ولو على أنفسكم﴾ أى ولو كانت الشهادة على أنفسكم بأن تقروا عليها على أن الشهادة عبارة عن الاخبار بحق الغير سواء كان ذلك عليه أو على ثالث بأن تكون الشهادة مستتبعة لضرر ينالكم من جهة المشهود عليه ﴿أو الوالدين والأقربين﴾ أى ولو كانت على والديكم وأقاربكم ﴿ان يكن﴾ أى المشهود عليه ﴿غنيا﴾ يبتغى فى العادة رضاه ويتقى سخطه ﴿أو فقيرا﴾ يترحم عليه غالبا وقرئ ان يكن غنى أو فقير على أن كان تامة وجواب الشرط محذوف لدلالة قوله تعالى ﴿فالله أولى بهما﴾ عليه أى فلا تمتنعوا عنها طلبا لرضا الغنى أو ترحما على الفقير فان الله تعالى أولى بجنسى الغنى والفقير المدلول عليهما بما ذكر ولولا أن الشهادة عليهما مصلحة لهما لما شرعها وقرئ أولى بهم ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ أى مخافة أن تعدلوا عن الحق فان اتباع الهوى من مظان الجور الذى حقه أن يخاف ويحذر وقيل كراهة أن تعدلوا بين الناس أو ارادة أن تعدلوا عن الحق ﴿وان تلووا﴾ أى ألسنتكم عن شهادة الحق أو حكومة العدل بأن تأتوا بها لا على وجهها وقرئ وان تلوا من الولاية والتصدى أى وان وليتم اقامة الشهادة ﴿أو تعرضوا﴾ أى عن اقامتها رأسا ﴿فان الله كان بما تعملون﴾ من لى الالسنة والاعراض بالكلية أو من جميع الاعمال التى من جملتها ما ذكر ﴿خبيرا﴾ فيجازيكم لا محالة على ذلك فهو على القراءة المشهورة وعيد محض وعلى القراءة الأخيرة متضمن للوعيد ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خطاب لكافة المسلمين فمعنى قوله تعالى ﴿آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى أنزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل﴾ اثبتوا على الايمان بذلك وداوموا عليه وازدادوا فيه طمأنينة ويقينا أو آمنوا بما ذكر مفصلا بناء على أن ايمان بعضهم اجمالى والمراد بالكتاب الثانى الجنس المنتظم لجميع الكتب السماوية لقوله تعالى وكتبه وبالايمان به الايمان بأن كل كتاب من تلك الكتب منزل منه تعالى على رسول معين لارشاد أمته الى ما شرع لهم من الدين بالأوامر والنواهى لكن لا على أن مدار الايمان بكل واحد من تلك الكتب خصوصية ذلك الكتاب ولا على أن أحكام تلك الكتب وشرائعها باقية بالكلية ولا على أن الباقى منها معتبر بالاضافة اليها بل على أن الايمان بالكل مندرج تحت الايمان بالكتاب المنزل على رسوله وأن أحكام كل منها كانت حقة ثابتة الى ورود ما نسخها وأن ما لم ينسخ منها الى الآن من الشرائع والاحكام ثابتة من حيث أنها من أحكام هذا الكتاب الجليل المصون عن النسخ والتبديل كما مر فى تفسير خاتمة سورة البقرة وقرئ نزل وأنزل على البناء للمفعول وقيل هو خطاب لمؤمنى أهل الكتاب لما أن عبدالله بن سلام وابن أخته سلامة وابن أخيه سلمة وأسدا وأسيدا ابنى كعب وثعلبة بن قيس ويامين بن يامين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا يا رسول الله انا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه من الكتب والرسل فقال عليه السلام بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله فقالوا لا نفعل فنزلت فآمنوا كلهم فأمرهم بالايمان بالكتاب المتناول للتوراة مع أنهم مؤمنون بها من قبل

ليس لكون المراد بالايمان مايعم انشاءه والثبات عليه ولا لأن متعلق الأمر حقيقة هو الايمان بما عداها كأنه قيل آمنوا بالكل ولا تخصوه بالبعض بل لأن المأمور به انما هو الايمان بها فى ضمن الايمان بالقرآن على الوجه الذى أشير اليه آنفا لا ايمانهم السابق ولان فيه حملا لهم على التسوية بينها وبين سائر الكتب فى التصديق لاشتراك الكل فيما يوجبه وهو النزول من عند الله تعالى وقيل خطاب لأهل الكتابين فالمعنى آمنوا بالكل لا ببعض دون بعض وأمر كل طائفة بالايمان بكتابه فى ضمن الأمر بالايمان بجنس الكتاب لما ذكر وقيل هو للمنافقين فالمعنى آمنوا بقلوبكم لا بألسنتكم فقط ﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر﴾ أى بشىء من ذلك ﴿فقد ضل ضلالا بعيدا﴾ عن المقصد بحيث لايكاد يعود الى طريقه وزيادة الملائكة واليوم الآخر فى جانب الكفر لما أن بالكفر بأحدهما لا يتحقق الايمان أصلا وجمع الكتب والرسل لما أن الكفر بكتاب أو برسول كفر بالكل وتقديم الرسول فيما سبق لذكر الكتاب بعنوان كونه منزلا عليه وتقديم الملائكة والكتب على الرسل لأنهم وسايط بين الله عز وجل وبين الرسل فى انزال الكتب ﴿ان الذين آمنوا﴾ قال قتادة هم اليهود آمنوا بموسى ﴿ثم كفروا﴾ بعبادتهم العجل ﴿ثم آمنوا﴾ عند عوده اليهم ﴿ثم كفروا﴾ بعيسى والانجيل ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل هم قوم تكرر منهم الارتداد وأصروا على الكفر وازدادوا تماديا فى الغى ﴿لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا﴾ لما أنه يستبعد منهم أن يتوبوا عن الكفر ويثبتوا على الايمان فان قلوبهم قد ضربت بالكفر وتمرنت على الردة وكان الايمان عندهم أهون شىء وأدونه لا لأنهم لو أخلصوا الايمان لم يقبل منهم ولم يغفر لهم وخبر كان محذوف أى مريدا ليغفر لهم وقوله عز وجل ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما﴾ يدل على أن المراد بالمذكورين الذين آمنوا فى الظاهر نفاقا وكفروا فى السر مرة بعد أخرى ثم ازدادوا كفرا ونفاقا ووضع بشر موضع أنذر تهكما بهم ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء﴾ فى محل النصب أو الرفع على الذم بمعنى أريد بهم الذين أو هم الذين وقيل نصب على أنه صفة للمنافقين وقوله تعالى ﴿من دون المؤمنين﴾ حال من فاعل يتخذون أى يتخذون الكفرة أنصارا متجاوزين ولاية المؤمنين وكانوا يوالونهم ويقول بعضهم لبعض لا يتم أمر محمد عليه الصلاة والسلام فتولوا اليهود ﴿أيبتغون عندهم العزة﴾ انكار لرأيهم وابطال له وبيان لخيبة رجائهم وقطع لأطماعهم الفارغة والجملة معترضة مقررة لما قبلها أى أيطلبون بموالاة الكفرة القوة والغلبة. قال الواحدى أصل العزة الشدة ومنه قيل للارض الشديدة الصلبة عزاز وقوله تعالى ﴿فان العزة لله جميعا﴾ تعليل لما يفيده الاستفهام الانكارى من بطلان رأيهم وخيبة رجائهم فان انحصار جميع أفراد العزة فى جنابه عز وعلا بحيث لا ينالها الا أولياؤه الذين كتب لهم العزة والغلبة قال تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين يقضى ببطلان التعزز بغيره سبحانه وتعالى واستحالة الانتفاع به وقيل هو جواب شرط محذوف كأنه قيل ان يبتغوا عندهم عزة فان العزة لله وجميعا حال من المستكن فى قوله تعالى لله لاعتماده على المبتدا ﴿وقد نزل عليكم﴾ خطاب للمنافقين بطريق الالتفات مفيد لتشديد التوبيخ الذى يستدعيه تعداد جناياتهم وقرئ مبنيا للمفعول من التنزيل والانزال ونزل أيضا مخففا والجملة حال من ضمير يتخذون أيضا مفيدة لكمال قباحة حالهم ونهاية استعصائهم عليه سبحانه ببيان أنهم فعلوا ما فعلوا من موالاة الكفرة مع تحقق ما يمنعهم من ذلك وهو ورود النهى الصريح عن مجالستهم المستلزم للنهى عن موالاتهم على أبلغ وجه وآكده اثر بيان انتفاء مايدعوهم اليه بالجملة المعترضة كأنه قيل تتخذونهم أولياء والحال أنه تعالى قد نزل عليكم قبل هذا بمكة ﴿فى الكتاب﴾ أى القرآن الكريم ﴿أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره﴾ وذلك قوله تعالى واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض

عنهم الآية وهذا يقتضى الانزجار عن مجالستهم فى تلك الحالة القبيحة فكيف بموالاتهم والاعتزاز بهم وأن هى المخففة من أن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف والجملة الشرطية خبرها وقوله تعالى يكفر بها حال من آيات الله وقوله تعالى ويستهزأ بها عطف عليه داخل فى حكم الحالية واضافة الآيات الى الاسم الجليل لتشريفها وابانة خطرها وتهويل أمر الكفر بها أى نزل عليكم فى الكتاب أنه اذا سمعتم آيات الله مكفورا بها ومستهزأ بها وفيه دلالة على أن المنزل على النبى عليه السلام وان خوطب به خاصة منزل على الامة وأن مدار الاعراض عنهم هو العلم بخوضهم فى الآيات ولذلك عبر عن ذلك تارة بالرؤية وأخرى بالسماع وأن المراد بالاعراض اظهار المخالفة بالقيام عن مجالسهم لا الاعراض بالقلب أو بالوجه فقط والضمير فى معهم للكفرة المدلول عليهم بقوله تعالى يكفر بها ويستهزأ بها ﴿انكم اذن مثلهم﴾ جملة مستأنفة سيقت لتعليل النهى غير داخلة تحت التنزيل واذن ملغاة عن العمل لوقوعها بين المبتدا والخبر أى لا تقعدوا معهم فى ذلك الوقت انكم ان فعلتموه كنتم مثلهم فى الكفر واستتباع العذاب وافراد المثل لأنه كالمصدر أو للاستغناء بالاضافة الى الجمع وقرئ شاذا مثلهم بالفتح لاضافته الى غير متمكن كما فى قوله تعالى مثل ما أنكم تنطقون وقيل هو منصوب على الظرفية أى فى مثل حالهم وقوله تعالى ﴿ان الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا﴾ تعليل لكونهم مثلهم فى الكفر ببيان ما يستلزمه من شركتهم لهم فى العذاب والمراد بالمنافقين اما المخاطبون وقد وضع موضع ضميرهم المظهر تسجيلا بنفاقهم وتعليلا للحكم بمأخذ الاشتقاق واما الجنس وهم داخلون تحته دخولا أوليا وتقديم المنافقين على الكافرين لتشديد الوعيد على المخاطبين ونصب جميعا مثل ما قبله ﴿الذين يتربصون بكم﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى المؤمنين بتعديد بعض آخر من جنايات المنافقين وقبائحهم وهو اما بدل من الذين يتخذون أو صفة للمنافقين فقط اذهم المتربصون دون الكافرين أو مرفوع أو منصوب على الذم أى ينتظرون أمركم وما يحدث لكم من ظفر أو اخفاق والفاء فى قوله تعالى ﴿فان كان لكم فتح من الله﴾ لترتيب مضمونه على ما قبلها فان حكاية تربصهم مستتبعة لحكاية مايقع بعد ذلك كما أن نفس التربص يستدعى شيئا ينتظر المتربص وقوعه ﴿قالوا﴾ أى لكم ﴿ألم نكن معكم﴾ أى مظاهرين لكم فأسهموا لنا فى الغنيمة ﴿وان كان للكافرين نصيب﴾ من الحرب فانها سجال ﴿قالوا﴾ أى للكفرة ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ أى ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم وأسركم فأبقينا عليكم ﴿ونمنعكم من المؤمنين﴾ بأن ثبطناهم عنكم وخيلنا لهم ما ضعفت به قلوبهم ومرضوا فى قتالكم وتوانينا فى مظاهرتهم والا لكنتم نهبة للنوائب فهاتوا نصيبا لنا مما أصبتم وتسمية ظفر المسلمين فتحا وما للكافرين نصيبا لتعظيم شأن المسلمين وتخسيس حظ الكافرين وقرئ ونمنعكم باضمار أن ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾ حكما يليق بشأن كل منكم من الثواب والعقاب وأما فى الدنيا فقد أجرى على من تفوه بكلمة الاسلام حكمه ولم يضع السيف على من تكلم بها نفاقا ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾ حينئذ كما قد يجعل ذلك فى الدنيا بطريق الابتلاء والاستدراج أو فى الدنيا على أن المراد بالسبيل الحجة ﴿ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾ كلام مبتدأ سيق لبيان طرف آخر من قبائح أعمالهم أى يفعلون ما يفعل المخادع من اظهار الايمان وابطان نقيضه والله فاعل بهم ما يفعل الغالب فى الخداع حيث تركهم فى الدنيا معصومى الدماء والاموال وأعد لهم فى الآخرة الدرك الاسفل من النار وقد مر التحقيق فى صدر سورة البقرة وقيل يعطون على الصراط نورا كما يعطى المؤمنون فيمضون بنورهم ثم يطفأ نورهم ويبقى نور المؤمنين فينادون انظرونا نقتبس من نوركم ﴿واذا قاموا الى الصلوة قاموا كسالى﴾ متثاقلين كالمكره على الفعل وقرئ بفتح الكاف وهما جمعا كسلان ﴿يراءون الناس﴾ ليحسبوهم مؤمنين والمراءاة مفاعلة بمعنى التفعيل كنعم وناعم أو للمقابلة فان المرائى يرى غيره عمله

وهو يريه استحسانه والجملة اما استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل فماذا يريدون بقيامهم اليها كسالى فقيل يراءون الخ أو حال من ضمير قاموا ﴿ولا يذكرون الله الا قليلا﴾ عطف على يراءون أى لايذكرونه سبحانه الا ذكرا قليلا وهو ذكرهم باللسان فانه بالاضافة الى الذكر بالقلب قليل أو الا زمانا قليلا أو لا يصلون الا قليلا لأنهم لايصلون الا بمرأى من الناس وذلك قليل وقيل لايذكرونه تعالى فى الصلاة الا قليلا عند التكبير والتسليم ﴿مذبذبين بين ذلك﴾ حال من فاعل يراءون أو منصوب على الذم وذلك اشارة الى الايمان والكفر المدلول عليهما بمعونة المقام أى مرددين بينهما متحيرين قد ذبذبهم الشيطان وحقيقة المذبذب مايذب و يدفع عن كلا الجانبين مرة بعد أخرى وقرىء بكسر الذال أى مذبذبين قلوبهم أو رأيهم أو دينهم أو هو بمعنى متذبذبين كما جاء صلصل بمعنى تصلصل و فى مصحف ابن مسعود رضى الله عنه متذبذبين وقرىء مدبدبين بالدال غير المعجمة وكأن المعنى أخذ بهم تارة فى دبة أى طريقة وأخرى فى أخرى ﴿لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء﴾ أى لا منسوبين الى المؤمنين ولا منسوبين الى الكافرين أو لا صائرين الى الاولين ولا الى الآخرين فمحله النصب على أنه حال من ضمير مذبذبين أو على أنه بدل منه أو بيان وتفسير له ﴿ومن يضلل الله﴾ لعدم استعداده للهداية والتوفيق ﴿فلن تجد له سبيلا﴾ موصلا الى الحق والصواب فضلا عن أن تهديه اليه والخطاب لكل من يصلح له كائنا من كان ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ نهوا عن موالاة الكفرة صريحا وان كان فى بيان حال المنافقين مزجرة عن ذلك مبالغة فى الزجر والتحذير ﴿أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا﴾ أى أتريدون بذلك أن تجعلوا لله عليكم حجة بينة على أنكم منافقون فان موالاتهم أوضح أدلة النفاق أو سلطانا يسلط عليكم عقابه وتوجيه الانكار الى الارادة دون متعلقها بأن يقال أتجعلون الخ للمبالغة فى انكاره وتهويل أمره ببيان أنه مما لا يصدر عن العاقل ارادته فضلا عن صدوره نفسه كما فى قوله عز وجل أم تريدون أن تسألوا رسولكم ﴿ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار﴾ وهو الطبقة التى فى قعر جهنم وانما كان كذلك لأنهم أخبث الكفرة حيث ضموا الى الكفر الاستهزاء بالاسلام وأهله وخداعهم وأما قوله عليه السلام ثلاث من كن فيه فهو منافق وان صام وصلى و زعم أنه مسلم من اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان ونحوه فمن باب التشديد والتهديد والتغليظ مبالغة فى الزجر وتسمية طبقاتها السبع دركات لكونها متداركة متتابعة بعضها تحت بعض وقرىء بفتح الراء وهو لغة كالسطر والسطر و يعضده أن جمعه أدراك ﴿ولن تجد لهم نصيرا﴾ يخلصهم منه والخطاب كما سبق ﴿الا الذين تابوا﴾ أى عن النفاق وهو استثناء من المنافقين بل من ضميرهم فى الخبر ﴿وأصلحوا﴾ ما أفسدوا من أحوالهم فى حال النفاق ﴿واعتصموا بالله﴾ أى وثقوا به وتمسكوا بدينه ﴿وأخلصوا دينهم﴾ أى جعلوه خالصا ﴿لله﴾ لايبتغون بطاعتهم الاوجهه ﴿فأولئك﴾ اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد المنزلة وعلو الطبقة ﴿مع المؤمنين﴾ أى المؤمنين المعهودين الذين لم يصدر عنهم نفاق أصلا منذ آمنوا والا فهم أيضا مؤمنون أى معهم فى الدرجات العالية من الجنة وقد بين ذلك بقوله تعالى ﴿وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما﴾ لايقادر قدره فيساهمونهم فيه ﴿ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم﴾ استئناف مسوق لبيان أن مدار تعذيبهم وجودا وعدما انما هو كفرهم لاشىء آخر فيكون مقررا لما قبله من اثابتهم عند توبتهم وما استفهامية مفيدة للنفى على أبلغ وجه وآكده أى أى شىء يفعل الله سبحانه بتعذيبكم أيتشفى به من الغيظ أم يدرك به الثأر أم يستجلب به نفعا أم يستدفع به ضررا كما هو شأن الملوك وهو الغنى المتعالى عن أمثال ذلك وانما هو أمر يقتضيه كفركم فاذا زال ذلك بالايمان والشكر انتفى التعذيب لامحالة وتقديم الشكر على الايمان لما أنه طريق موصل

اليه فان الناظر يدرك أولا ماعليه من النعم الأنفسية والآفاقية فيشكر شكرا مبهما ثم يترقى الى معرفة المنعم فيؤمن به وجواب الشرط محذوف لدلالة ماقبله عليه ﴿وكان الله شاكرا﴾ الشكر من الله سبحانه هو الرضا باليسير من طاعة عباده واضعاف الثواب بمقابلته ﴿عليما﴾ مبالغا فى العلم بجميع المعلومات التى من جملتها شكركم وايمانكم فيستحيل أن لايوفيكم أجوركم ﴿لايحب الله الجهر بالسوء من القول﴾ عدم محبته تعالى لشىء كناية عن سخطه والباء متعلقة بالجهر ومن بمحذوف وقع حالا من السوء أى لايحب الله تعالى أن يجهر أحد بالسوء كائنا من القول ﴿الا من ظلم﴾ أى الاجهر من ظلم بأن يدعو على ظالمه أو يتظلم منه و يذكره بما فيه من السوء فان ذلك غير مسخوط عنده سبحانه وقيل هو أن يبدأ بالشتيمة فيرد على الشاتم ولمن انتصر بعد ظلمه الآية وقيل ضاف رجل قوما فلم يطعموه فاشتكاهم فعوتب على الشكاية فنزلت وقرىء الامن ظلم على البناء للفاعل فالاستثناء منقطع أى ولكن الظالم يرتكب مالايحبه الله تعالى فيجهر بالسوء ﴿وكان الله سميعا﴾ لجميع المسموعات فيندرج فيها كلام المظلوم والظالم ﴿عليما﴾ بجميع المعلومات التى من جملتها حال المظلوم والظالم فالجملة تذييل مقرر لما يفيده الاستثناء ﴿ان تبدوا خيرا﴾ أى خير كان من الأقوال والأفعال ﴿أو تخفوه أو تعفوا عن سوء﴾ مع ماسوغ لكم من مؤاخذة المسىء والتنصيص عليه مع اندراجه فى ابداء الخير واخفائه لما أنه الحقيق بالبيان وانما ذكر ابداء الخير واخفاؤه بطريق التسبيب له كما ينبىء عنه قوله عز وجل ﴿فان الله كان عفوا قديرا﴾ فان ايراده فى معرض جواب الشرط يدل على أن العمدة هو العفو مع القدرة أى كان مبالغا فى العفو مع كمال قدرته على المؤاخذة وقال الحسن يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام فعليكم أن تقتدوا بسنة الله تعالى وقال الكلبى هو أقدر على عفو ذنوبكم منكم على عفو ذنوب من ظلمكم وقيل عفوا عمن عفا قديرا على ايصال الثواب اليه ﴿ان الذين يكفرون بالله ورسله﴾ أى يؤدى اليه مذهبهم و يقتضيه رأيهم لا أنهم يصرحون بذلك كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله﴾ أى بأن يؤمنوا به تعالى و يكفروا بهم لكن لا بأن يصرحوا بالايمان به تعالى و بالكفر بهم قاطبة بل بطريق الاستلزام كما يحكيه قوله تعالى ﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾ أى نؤمن ببعض الانبياء ونكفر ببعضهم كما قالت اليهود نؤمن بموسى والتوراة وعزير ونكفر بما وراء ذلك وماذاك الا كفر بالله تعالى و رسله وتفريق بين الله تعالى و رسله فى الايمان لأنه تعالى قد أمرهم بالايمان بجميع الانبياء عليهم السلام ومامن نبى من الانبياء الا وقد أخبر قومه بحقية دين نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم وعليهم أجمعين فمن كفر بواحد منهم فقد كفر بالكل و بالله تعالى أيضا من حيث لايحتسب ﴿ويريدون﴾ بقولهم ذلك ﴿أن يتخذوا بين ذلك﴾ أى بين الايمان والكفر ﴿سبيلا﴾ يسلكونه مع أنه لاواسطة بينهما قطعا اذ الحق لايختلف وماذا بعد الحق الا الضلال ﴿أولئك﴾ الموصوفون بالصفات القبيحة ﴿هم الكافرون﴾ الكاملون فى الكفر لاعبرة بما يدعونه و يسمونه ايمانا أصلا ﴿حقا﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة أى حق ذلك أى كونهم كاملين فى الكفر حقا أو صفة لمصدر الكافرين أى هم الذين كفروا كفرا حقا أى ثابتا يقينا لاريب فيه ﴿وأعتدنا للكافرين﴾ أى لهم وانما وضع المظهر مكان المضمر ذما لهم وتذكيرا لوصفهم أو لجميع الكافرين وهم داخلون فى زمرتهم دخولا أوليا ﴿عذابا مهينا﴾ سيذوقونه عند حلوله ﴿والذين آمنوا بالله ورسله﴾ أى على الوجه الذى بين فى تفسير قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله الآية ﴿ولم يفرقوا بين أحد منهم﴾ بأن يؤمنوا ببعضهم و يكفروا بآخرين كما فعله الكفرة ودخول بين على أحد قد مر تحقيقه فى سورة البقرة بما لامزيد عليه ﴿أولئك﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿سوف يؤتيهم أجورهم﴾ الموعودة لهم وتصديره بسوف لتأكيد الوعد والدلالة على أنه كائن لامحالة

وان تراخى وقرئ نؤتيهم بنون العظمة ﴿وكان الله غفورا﴾ لما فرط منهم ﴿رحيما﴾ مبالغا فى الرحمة عليهم بتضعيف حسناتهم ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء﴾ نزلت فى أحبار اليهود حين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان كنت نبيا فائتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى عليه الصلاة والسلام وقيل كتابا محررا بخط سماوى على اللوح كما نزلت التوراة أو كتابا نعاينه حين ينزل أو كتابا الينا بأعياننا بأنك رسول الله وما كان مقصدهم بهذه العظيمة الا التحكم والتعنت قال الحسن ولو سألوه لكى يتبينوا الحق لأعطاهم وفيما آتاهم كفاية ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك﴾ جواب شرط مقدر أى ان استكبرت ماسألوه منك فقد سألوا موسى شيأ أكبر منه وقيل تعليل للجواب أى فلا تبال بسؤالهم فقد سألوا موسى أكبر منه وهذه المسئلة وان صدرت عن أسلافهم لكنهم لما كانوا مقتدين بهم فى كل ما يأتون وما يذرون أسندت اليهم والمعنى أن لهم فى ذلك عرقا راسخا وأن ما اقترحوا عليك ليس أول جهالاتهم ﴿فقالوا أرنا الله جهرة﴾ أى أرناه نره جهرة أى عيانا أو مجاهرين معاينين له والفاء تفسيرية ﴿فأخذتهم الصاعقة﴾ أى النار التى جاءت من السماء فأهلكتهم وقرئ الصعقة ﴿بظلمهم﴾ أى بسبب ظلمهم وهو تعنتهم وسؤالهم لما يستحيل فى تلك الحالة التى كانوا عليها وذلك لا يقتضى امتناع الرؤية مطلقا ﴿ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أى المعجزات التى أظهرها لفرعون من العصا واليد البيضاء وفلق البحر وغيرها لا التوراة لأنها لم تنزل عليهم بعد ﴿فعفونا عن ذلك﴾ ولم نستأصلهم وكانوا أحقاء به قيل هذا استدعاء لهم الى التوبة كأنه قيل ان أولئك الذين أجرموا تابوا فعفونا عنهم فتوبوا أنتم أيضا حتى نعفو عنكم ﴿وآتينا موسى سلطانا مبينا﴾ سلطانا ظاهرا عليهم حيث أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم توبة عن معصيتهم ﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم﴾ أى بسبب ميثاقهم ليعطوه على ماروى أنهم امتنعوا عن قبول شريعة التوراة فرفع الله تعالى عليهم الطور فقبلوها أو ليخافوا فلا ينقضوه على ماروى أنهم هموا بنقضه فرفع الله تعالى عليهم الجبل فخافوا وأقلعوا عن النقض وهو الأنسب بما سيأتى من قوله عز وجل وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴿وقلنا لهم﴾ على لسان موسى عليه السلام والطور مظل عليهم ﴿ادخلوا الباب﴾ قال قتادة كنا نحدث أنه باب من أبواب بيت المقدس وقيل هو ايليا وقيل هو أريحا وقيل هو اسم قرية وقيل باب القبة التى كانوا يصلون اليها فانهم لم يدخلوا بيت المقدس فى حياة موسى عليه السلام ﴿سجدا﴾ أى متطامنين خاضعين ﴿وقلنا لهم لا تعدوا﴾ أى لا تظلموا باصطياد الحيتان ﴿فى السبت﴾ وقرئ لا تعتدوا ولا تعدوا بفتح العين وتشديد الدال على أن أصله تعتدوا فأدغمت التاء فى الدال لتقاربهما فى المخرج بعد نقل حركتها الى العين ﴿وأخذنا منهم﴾ على الامتثال بما كلفوه ﴿ميثاقا غليظا﴾ مؤكدا وهو العهد الذى أخذه الله عليهم فى التوراة قيل انهم أعطوا الميثاق على أنهم ان هموا بالرجوع عن الدين فالله تعالى يعذبهم بأى أنواع العذاب أراد ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ ما مزيدة للتأكيد أو نكرة تامة ونقضهم بدل منها والباء متعلقة بفعل محذوف أى فبسبب نقضهم ميثاقهم ذلك فعلنا بهم ما فعلنا من اللعن والمسخ وغيرهما من العقوبات النازلة عليهم أو على أعقابهم. روى أنهم اعتدوا فى السبت فى عهد داود عليه السلام فلعنوا ومسخوا قردة وقيل متعلقة بحرمنا على أن قوله تعالى فبظلم بدل من قوله تعالى فبما وما عطف عليه فيكون التحريم معللا بالكل ولا يخفى أن قولهم انا قتلنا المسيح وقولهم على مريم البهتان متأخر عن التحريم ولا مساغ لتعلقها بما دل عليه قوله تعالى بل طبع الله عليها بكفرهم لأنه رد لقولهم قلوبنا غلف فيكون من صلة قوله تعالى وقولهم المعطوف على المجرور فلا يعمل فى جاره ﴿وكفرهم بآيات الله﴾ أى بالقرآن أو بما فى كتابهم ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام ﴿وقولهم قلوبنا غلف﴾ جمع أغلف أى هى مغشاة بأغشية جبلية لا يكاد يصل اليها ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم

أوهو تخفيف غلف جمع غلاف أى هى أوعية للعلوم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره قاله ابن عباس وعطاء وقال الكلبى يعنون ان قلوبنا بحيث لا يصل اليها حديث الا وعته ولو كان فى حديثك خير لوعته أيضا ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ كلام معترض بين المعطوفين جئ به على وجه الاستطراد مسارعة الى رد زعمهم الفاسد أى ليس كفرهم وعدم وصول الحق الى قلوبهم لكونها غلفا بحسب الجبلة بل الأمر بالعكس حيث ختم الله عليها بسبب كفرهم أوليست قلوبهم كما زعموا بل هى مطبوع عليها بسبب كفرهم ﴿فلا يؤمنون الا قليلا﴾ منهم كعبد الله بن سلام وأضرابه أوالا ايمانا قليلا لا يعبأ به ﴿وبكفرهم﴾ أى بعيسى عليه السلام وهو عطف على قولهم واعادة الجار لطول ما بينهما بالاستطراد وقد جوز عطفه على بكفرهم فيكون هو وما عطف عليه من أسباب الطبع وقيل هذا المجموع معطوف على مجموع ما قبله وتكرير ذكر الكفر للايذان بتكرر كفرهم حيث كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد عليهم الصلاة والسلام ﴿وقولهم على مريم بهتانا عظيما﴾ لا يقادر قدره حيث نسبوها الى ما هى عنه بألف منزل ﴿وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ نظم قولهم هذا فى سلك سائر جناياتهم التى نعيت عليهم ليس لمجرد كونه كذبا بل لتضمنه لابتهاجهم بقتل النبى عليه السلام والاستهزاء به فان وصفهم له عليه السلام بعنوان الرسالة انما هو بطريق التهكم به عليه السلام كما فى قوله تعالى يا أيها الذى نزل عليه الذكر الخ ولانبائه عن ذكرهم له عليه السلام بالوجه القبيح على ما قيل من أن ذلك وضع للذكر الجميل من جهته تعالى مكان ذكرهم القبيح وقيل هو نعت له عليه الصلاة والسلام من جهته تعالى مدحا له ورفعا لمحله عليه السلام واظهارا لغاية جراءتهم فى تصديهم لقتله ونهاية وقاحتهم فى افتخارهم بذلك ﴿وما قتلوه وما صلبوه﴾ حال أو اعتراض ﴿ولكن شبه لهم﴾ روى أن رهطا من اليهود سبوه عليه السلام وأمه فدعا عليهم فمسخهم الله تعالى قردة وخنازير فأجمعت اليهود على قتله فأخبره الله تعالى بأنه يرفعه الى السماء فقال لأصحابه أيكم يرضى بأن يلقى عليه شبهى فيقتل ويصلب ويدخل الجنة فقال رجل منهم أنا فألقى الله تعالى عليه شبهه فقتل وصلب وقيل كان رجل ينافق عيسى عليه السلام فلما أرادوا قتله قال أنا أدلكم عليه فدخل بيت عيسى عليه السلام فرفع عيسى عليه السلام وألقى شبهه على المنافق فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى عليه السلام وقيل ان ططيانوس اليهودى دخل بيتا كان هو فيه فلم يجده وألقى الله تعالى عليه شبهه فلما خرج ظن أنه عيسى عليه السلام فأخذ وقتل وأمثال هذه الخوارق لا تستبعد فى عصر النبوة وقيل ان اليهود لما هموا بقتله عليه السلام فرفعه الله تعالى الى السماء خاف رؤساء اليهود من وقوع الفتنة بين عوامهم فأخذوا انسانا وقتلوه وصلبوه ولبسوا على الناس وأظهروا لهم أنه هو المسيح وما كانوا يعرفونه الا بالاسم لعدم مخالطته عليه السلام لهم الا قليلا وشبه مسند الى الجار والمجرور كأنه قيل ولكن وقع لهم التشبيه بين عيسى عليه السلام والمقتول أو فى الأمر على قول من قال لم يقتل أحد ولكن أرجف بقتله فشاع بين الناس أو الى ضمير المقتول لدلالة انا قتلنا على أن ثم مقتولا ﴿وان الذين اختلفوا فيه﴾ أى فى شأن عيسى عليه السلام فانه لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس فقال بعض اليهود انه كان كاذبا فقتلناه حتما وتردد آخرون فقال بعضهم ان كان هذا عيسى فأين صاحبنا وقال بعضهم الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا وقال من سمع منه عليه السلام ان الله يرفعنى الى السماء انه رفع الى السماء وقال قوم صلب الناسوت وصعد اللاهوت ﴿لفى شك منه﴾ لفى تردد والشك كما يطلق على ما لم يترجح أحد طرفيه يطلق على مطلق التردد وعلى ما يقابل العلم ولذلك أكد بقوله تعالى ﴿ما لهم به من علم الا اتباع الظن﴾ استثناء منقطع أى لكنهم يتبعون الظن ويجوز أن يفسر الشك بالجهل والعلم بالاعتقاد الذى تسكن اليه النفس جزما كان أو غيره فالاستثناء حينئذ متصل ﴿وما قتلوه يقينا﴾ أى قتلا يقينا كما زعموا بقولهم انا قتلنا المسيح وقيل معناه وما علموه يقينا

كما فى قول من قال

كذاك تخبر عنها العالمات بها وقد قتلت بعلمى ذلكم يقنا

من قولهم قتلت الشئ علما ونحرته علما اذا تبالغ علمك فيه وفيه تهكم بهم لاشعاره بعلمهم فى الجملة وقد نفى ذلك عنهم بالكلية ﴿بل رفعه الله اليه﴾ رد وانكار لقتله واثبات لرفعه ﴿وكان الله عزيزا﴾ لايغالب فيما يريده ﴿حكيما﴾ فى جميع أفعاله فيدخل فيها تدبيراته تعالى فى أمر عيسى عليه السلام دخولا أوليا ﴿وان من أهل الكتاب﴾ أى من اليهود والنصارى وقوله تعالى ﴿الا ليؤمنن به قبل موته﴾ جملة قسمية وقعت صفة لموصوف محذوف اليه يرجع الضمير الثانى والأول لعيسى عليه السلام أى ومامن أهل الكتاب أحد الا ليؤمنن بعيسى عليه السلام قبل أن تزهق روحه بأنه عبدالله ورسوله و لات حين ايمان لانقطاع وقت التكليف و يعضده أنه قرئ ليؤمنن به قبل موتهم بضم النون لما أن أحدا فى معنى الجمع وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه فسره كذلك فقال له عكرمة فان أتاه رجل فضرب عنقه قال لاتخرج نفسه حتى يحرك بها شفتيه قال فان خر من فوق بيت أو احترق أو أكله سبع قال يتكلم بها فى الهواء ولا تخرج روحه حتى يؤمن به وعن شهر بن حوشب قال لى الحجاج آية ماقرأتها الا تخالج فى نفسى شئ منها يعنى هذه الآية وقال انى أوتى بالاسير من اليهود والنصارى فأضرب عنقه فلا أسمع منه ذلك فقلت ان اليهودى اذاحضره الموت ضربت الملائكة دبره و وجهه وقالوا ياعدو الله أتاك عيسى عليه السلام نبيا فكذبت به فيقول آمنت أنه عبد نبى وتقول للنصرانى أتاك عيسى عليه السلام نبيا فزعمت أنه الله أو ابن الله فيؤمن أنه عبد الله و رسوله حيث لاينفعه ايمانه قال وكان متكئا فاستوى جالسا فنظر الى وقال ممن سمعت هذا قلت حدثنى محمد بن على بن الحنفية فأخذ ينكث الأرض بقضيبه ثم قال لقد أخذتها من عين صافية والاخبار بحالهم هذه وعيد لهم وتحريض على المسارعة الى الايمان به قبل أن يضطروا اليه مع انتفاء جدواه وقيل كلا الضميرين لعيسى والمعنى ومامن أهل الكتاب الموجودين عند نزول عيسى عليه السلام أحد الا ليؤمنن به قبل موته. روى أنه عليه السلام ينزل من السماء فى آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتاب الا يؤمن به حتى تكون الملة واحدة وهى ملة الاسلام و يهلك الله فى زمانه الدجال وتقع الأمنة حتى ترتع الاسود مع الابل والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم و يلعب الصبيان بالحيات و يلبث فى الأرض أربعين سنة ثم يتوفى و يصلى عليه المسلمون و يدفنونه وقيل الضمير الاول يرجع الى الله تعالى وقيل الى محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ويوم القيامة يكون﴾ أى عيسى عليه السلام ﴿عليهم﴾ على أهل الكتاب ﴿شهيدا﴾ فيشهد على اليهود بالتكذيب وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ﴿فبظلم من الذين هادوا﴾ لعل ذكرهم بهذا العنوان للايذان بكمال عظم ظلمهم بتذكير وقوعه بعد ماهادوا أى تابوا من عبادة العجل مثل تلك التوبة الهائلة المشروطة ببخع النفوس اثر بيان عظمه فى حد ذاته بالتنوين التفخيمى أى بسبب ظلم عظيم خارج عن حدود الاشباه والاشكال صادر عنهم ﴿حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ ولمن قبلهم لالشئ غيره كما زعموا فانهم كانوا كلما ارتكبوا معصية من المعاصى التى اقترفوها يحرم عليهم نوع من الطيبات التى كانت محللة لهم ولمن تقدمهم من أسلافهم عقوبة لهم وكانوا مع ذلك يفترون على الله سبحانه و يقولون لسنا بأول من حرمت عليه وانما كانت محرمة على نوح وابراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الامر الينا فكذبهم الله عز وجل فى مواقع كثيرة و بكتهم بقوله تعالى كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ماحرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين أى فى ادعائكم أنه تحريم قديم. روى أنه عليه السلام لما كلفهم اخراج التوراة لم يجسر أحد على اخراجها لما أن كون التحريم بظلمهم كان مسطورا فيها فبهتوا وانقلبوا صاغرين ﴿وبصدهم عن سبيل الله كثيرا﴾ أى ناسا كثيرا أو صدا كثيرا ﴿وأخذهم الربوا وقد نهوا عنه﴾ فان

الربا كان محرما عليهم كما هو محرم علينا وفيه دليل على أن النهى يدل على حرمة المنهى عنه ﴿وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾ بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة ﴿وأعتدنا للكافرين منهم﴾ أى للمصرين على الكفر لا لمن تاب وآمن من بينهم ﴿عذابا أليما﴾ سيذوقونه فى الآخرة كما ذاقوا فى الدنيا عقوبة التحريم ﴿لكن الراسخون فى العلم منهم﴾ استدراك من قوله تعالى وأعتدنا الخ و بيان لكون بعضهم على خلاف حالهم عاجلا وآجلا أى لكن الثابتون فى العلم منهم المتقنون المستبصرون فيه غير التابعين للظن كأولئك الجهلة والمراد بهم عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿والمؤمنون﴾ أى منهم وصفوا بالايمان بعدما وصفوا بما يوجبه من الرسوخ فى العلم بطريق العطف المنبئ عن المغايرة بين المعطوفين تنزيلا للاختلاف العنوانى منزلة الاختلاف الذاتى وقوله تعالى ﴿يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك﴾ حال من المؤمنون مبينة لكيفية ايمانهم وقيل اعتراض مؤكد لما قبله وقوله عز وجل ﴿والمقيمين الصلوة﴾ قيل نصب باضمار فعل تقديره وأعنى المقيمين الصلاة على أن الجملة معترضة بين المبتدا والخبر وقيل هو عطف على ما أنزل اليك على أن المراد بهم الانبياء عليهم السلام أى يؤمنون بالكتب و بالانبياء أو الملائكة قال مكى أى و يؤمنون بالملائكة الذين صفتهم اقامة الصلاة لقوله تعالى يسبحون الليل والنهار لا يفترون وقيل عطف على الكاف فى اليك أى يؤمنون بما أنزل اليك والى المقيمين الصلاة وهم الانبياء وقيل على الضمير المجرور فى منهم أى لكن الراسخون فى العلم منهم ومن المقيمين الصلاة وقرئ بالرفع على أنه معطوف على المؤمنون بناء على مامر من تنزيل التغاير العنوانى منزلة التغاير الذاتى وكذا الحال فيما سيأتى من المعطوفين فان قوله تعالى ﴿والمؤتون الزكوة﴾ عطف على المؤمنون مع اتحاد الكل ذاتا وكذا الكلام فى قوله تعالى ﴿والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ فان المراد بالكل مؤمنو أهل الكتاب قد وصفوا أولا بكونهم راسخين فى علم الكتاب ايذانا بأن ذلك موجب للايمان حتما وأن من عداهم انما بقوا مصرين على الكفر لعدم رسوخهم فيه ثم بكونهم مؤمنين بجميع الكتب المنزلة على الانبياء ثم بكونهم عاملين بما فيها من الشرائع والاحكام واكتفى من بينها بذكر اقامة الصلاة وايتاء الزكاة المستتبعين لسائر العبادات البدنية والمالية ثم بكونهم مؤمنين بالمبدأ والمعاد تحقيقا لحيازتهم الايمان بقطريه واحاطتهم به من طرفيه وتعريضا بأن من عداهم من أهل الكتاب ليسوا بمؤمنين بواحد منهما حقيقة فانهم بقولهم عزير ابن الله مشركون بالله سبحانه و بقولهم لن تمسنا النار الا أياما معدودة كافرون باليوم الآخر وقوله تعالى ﴿أولئك﴾ اشارة اليهم باعتبار اتصافهم بما عدد من الصفات الجميلة وما فيه من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم و بعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿سنؤتيهم أجرا عظيما﴾ خبره والجملة خبر للمبتدا الذى هو الراسخون وما عطف عليه والسين لتأكيد الوعد وتنكير الاجر للتفخيم وهذا أنسب بتجاوب طرفى الاستدراك حيث أوعد الاولون بالعذاب الاليم و وعد الآخرون بالاجر العظيم كأنه قيل اثر قوله تعالى وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما لكن المؤمنون منهم سنؤتيهم أجرا عظيما وأما ماجنح اليه الجمهور من جعل قوله تعالى يؤمنون بما أنزل اليك الخ خبرا للمبتدا ففى كمال السداد خلا أنه غير متعرض لتقابل الطرفين وقرئ سيؤتيهم بالياء مراعاة لظاهر قوله تعالى والمؤمنون بالله ﴿انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده﴾ جواب لاهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله عليه الصلاة والسلام أن ينزل عليهم كتابا من السماء واحتجاج عليهم بأنه ليس بدعا من الرسل وانما شأنه فى حقيقة الارسال وأصل الوحى كشأن سائر مشاهير الانبياء الذين لاريب لاحد فى نبوتهم والكاف فى محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى ايحاء مثل ايحائنا الى نوح أو على أنه حال من ذلك المصدر المقدر معرفا كما هو رأى سيبويه أى أوحينا الايحاء حال كونه مشبها بايحائنا الخ ومن بعده متعلق بأوحينا وانما بدئ بذكر نوح لانه

أبو البشر وأول نبي شرع الله تعالى على لسانه الشرائع والاحكام وأول نبي عذبت أمته لردهم دعوته وقد أهلك الله بدعائه أهل الارض ﴿وأوحينا الى ابراهيم﴾ عطف على أوحينا الى نوح داخل معه فى حكم التشبيه أى وكما أوحينا الى ابراهيم ﴿واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط﴾ وهم أولاد يعقوب عليهم السلام ﴿وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان﴾ خصوا بالذكر مع ظهور انتظامهم فى سلك النبيين تشريفا لهم واظهارا لفضلهم كما فى قوله تعالى من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال وتصريحا بمن ينتمى اليهم اليهود من الانبياء وتكرير الفعل لمزيد تقرير الايحاء والتنبيه على أنهم طائفة خاصة مستقلة بنوع مخصوص من الوحى ﴿وآتينا داود زبورا﴾ قال القرطبي كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم من الاحكام وانما هى حكم ومواعظ وتحميد وتمجيد وثناء على الله تعالى وقرئ بضم الزاء وهو جمع زبر بمعنى مزبور والجملة عطف على أوحينا داخل فى حكمه لان ايتاء الزبور من باب الايحاء أى وكما آتينا داود زبورا وايثاره على وأوحينا الى داود لتحقيق المماثلة فى أمر خاص هو ايتاء الكتاب بعد تحقيقها فى مطلق الايحاء ثم أشير الى تحقيقها فى أمر لازم لهما لزوما كليا وهو الارسال فان قوله تعالى ﴿ورسلا﴾ نصب بمضمر يدل عليه أوحينا معطوف عليه داخل معه فى حكم التشبيه كما قبله أى وكما أرسلنا رسلا لا بما يفسره قوله تعالى ﴿قد قصصناهم عليك﴾ أى وقصصنا رسلا كما قالوا وفرعوا عليه أن قوله تعالى قد قصصناهم على الوجه الاول منصوب على أنه صفة لرسلا وعلى الوجه الثانى لا محل له من الاعراب فانه مما لا سبيل اليه كما ستقف عليه وقرئ برفع رسل وقوله تعالى ﴿من قبل﴾ متعلق بقصصنا أى قصصنا من قبل هذه السورة أو اليوم ﴿ورسلا لم نقصصهم عليك﴾ عطف على رسلا منصوب بناصبه وقيل كلاهما منصوب بنزع الخافض والتقدير كما أوحينا الى نوح والى رسل الخ والحق أن يكون انتصابهما بأرسلنا فان فيه تحقيقا للمماثلة بين شأنه عليه الصلاة والسلام وبين شؤون من يعترفون بنبوته من الانبياء عليهم السلام فى مطلق الايحاء ثم فى ايتاء الكتاب ثم فى الارسال فان قوله تعالى انا أوحينا اليك منتظم لمعنى آتيناك وأرسلناك حتما كأنه قيل انا أوحينا اليك ايحاء مثل ما أوحينا الى نوح ومثل ما أوحينا الى ابراهيم ومن بعده وآتيناك الفرقان ايتاء مثل ما آتينا داود زبورا وأرسلناك ارسالا مثل ما أرسلنا رسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا آخرين لم نقصصهم عليك من غير تفاوت بينك وبينهم فى حقيقة الايحاء وأصل الارسال فما للكفرة يسألونك شيئا لم يعطه أحد من هؤلاء الرسل عليهم السلام ومن ههنا اتضح أن رسلا لا يمكن نصبه بقصصنا فان ناصبه يجب أن يكون معطوفا على أوحينا داخلا معه فى حكم التشبيه الذى عليه يدور فلك الاحتجاج على الكفرة ولا ريب فى أن قصصنا لا تعلق له بشئ من الايحاء والايتاء حتى يمكن اعتباره فى ضمن قوله تعالى انا أوحينا اليك ثم يعتبر بينه وبين المذكور مماثلة مصححة للتشبيه على أن تقديره فى رسلا الاول يقتضى تقدير نفيه فى الثانى وذلك أشد استحالة وأظهر بطلانا ﴿وكلم الله موسى﴾ برفع الجلالة ونصب موسى وقرئ على القلب وقوله تعالى ﴿تكليما﴾ مصدر مؤكد رافع لاحتمال المجاز قال الفراء العرب تسمى ما وصل الى الانسان كلاما بأى طريق وصل مالم يؤكد بالمصدر فاذا أكد به لم يكن الا حقيقة الكلام والجملة اما معطوفة على قوله تعالى انا أوحينا اليك عطف القصة على القصة لا على آتينا وما عطف عليه واما حال بتقدير قد كما ينبئ عنه تغيير الاسلوب بالالتفات والمعنى أن التكليم بغير واسطة منتهى مراتب الوحى خص به موسى من بينهم فلم يكن ذلك قادحا فى نبوة سائر الأنبياء عليهم السلام فكيف يتوهم كون نزول التوراة عليه عليه السلام جملة قادحا فى صحة نبوة من أنزل عليه الكتاب مفصلا مع ظهور أن نزولها كذلك لحكم مقتضية لذلك من جملتها أن بنى اسرائيل كانوا فى العناد وشدة الشكيمة بحيث لو لم يكن نزولها كذلك لما آمنوا بها ومع ذلك ما آمنوا بها الا بعد اللتيا والتى وقد

فضل الله تعالى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم بأن أعطاه مثل ما أعطى كل واحد منهم صلى الله عليهم وسلم تسليما كثيرا ﴿رسلا مبشرين ومنذرين﴾ نصب على المدح أو باضمار أرسلنا أو على الحال بأن يكون رسلا موطئا لما بعده أو على البدلية من رسلا الاول أى مبشرين لأهل الطاعة بالجنة ومنذرين للعصاة بالنار ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة﴾ أى معذرة يعتذرون بها قائلين لولا أرسلت الينا رسولا فيبين لنا شرائعك ويعلمنا مالم نكن نعلم من أحكامك لقصور القوة البشرية عن ادراك جزئيات المصالح وعجز أكثر الناس عن ادراك كلياتها كما فى قوله عز وجل ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك الآية وانما سميت حجة مع استحالة أن يكون لاحد عليه سبحانه حجة فى فعل من أفعاله بل له أن يفعل ما يشاء كما يشاء للتنبيه على أن المعذرة فى القبول عنده تعالى بمقتضى كرمه ورحمته لعباده بمنزلة الحجة القاطعة التى لا مرد لها ولذلك قال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا قال النبى صلى الله عليه وسلم ما أحد أغير من الله تعالى ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وما أحد أحب اليه المدح من الله تعالى ولذلك مدح نفسه وما أحد أحب اليه العذر من الله تعالى ولذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب فاللام متعلقة بأرسلنا وقيل بقوله تعالى مبشرين ومنذرين وحجة اسم كان وللناس خبرها وعلى الله متعلق بمحذوف وقع حالا من حجة أى كائنة على الله أو هو الخبر وللناس حال على الوجه المذكور ويجوز أن يتعلق كل منهما بما تعلق به الآخر الذى هو الخبر ولا يجوز التعلق بحجة لأن معمول المصدر لا يتقدم عليه وقوله تعالى ﴿بعد الرسل﴾ أى بعد ارسالهم وتبليغ الشرائع الى الامم على ألسنتهم متعلق بحجة أو بمحذوف وقع صفة لها لأن الظروف يوصف بها الاحداث كما يخبر بها عنها نحو القتال يوم الجمعة ﴿وكان الله عزيزا﴾ لا يغالب فى أمر من أموره ومن قضيته الامتناع عن الاجابة الى مسئلة المتعنتين ﴿حكيما﴾ فى جميع أفعاله التى من جملتها ارسال الرسل وانزال الكتب فان تعدد الرسل والكتب واختلافها فى كيفية النزول وتغايرها فى بعض الشرائع والأحكام انما هو لتفاوت طبقات الأمم فى الأحوال التى عليها يدور فلك التكليف فكما أنه سبحانه وتعالى برأهم على أنحاء شتى وأطوار متباينة حسبما تقتضيه الحكمة التكوينية كذلك تعبدهم بما يليق بشأنهم وتقتضيه أحوالهم المتخالفة واستعداداتهم المتغايرة من الشرائع والأحكام حسبما تستدعيه الحكمة التشريعية وراعى فى ارسال الرسل وانزال الكتب وغير ذلك من الأمور المتعلقة بمعاشهم ومعادهم ما فيه مصلحتهم فسؤال تنزيل الكتاب جملة اقتراح فاسد اذ حينئذ تتعاظم التكاليف فيثقل على المكلف قبولها والخروج عن عهدتها وأما التنزيل المنجم الواقع حسب الأمور الداعية اليه فهو أيسر قبولا وأسهل امتثالا ﴿لكن الله يشهد﴾ بتخفيف النون ورفع الجلالة وقرئ بتشديد النون ونصب الجلالة وهو استدراك عما يفهم مما قبله كأنهم لما تعنتوا عليه بما سبق من السؤال واحتج عليهم بقوله تعالى انا أوحينا اليك كما أوحينا الخ قيل انهم لا يشهدون بذلك لكن الله يشهد ﴿بما أنزل اليك﴾ على البناء للفاعل وقرئ على البناء للمفعول والباء صلة للشهادة أى يشهد بحقية ما أنزل اليك من القرآن المعجز الناطق بنبوتك وقيل لما نزل قوله تعالى انا أوحينا اليك قالوا ما نشهد لك بهذا فنزل لكن الله يشهد ﴿أنزله بعلمه﴾ أى ملتبسا بعلمه الخاص الذى لا يعلمه غيره وهو تأليفه على نمط بديع يعجز عنه كل بليغ أو بعلمه بحال من أنزله عليه واستعداده لاقتباس الانوار القدسية أو بعلمه الذى يحتاج اليه الناس فى معاشهم ومعادهم فالجار والمجرور على الأولين حال من الفاعل وعلى الثالث من المفعول والجملة فى موقع التفسير لما قبلها وقرئ نزله وقوله تعالى ﴿والملائكة يشهدون﴾ أى بذلك مبتدأ وخبر والجملة عطف على ما قبلها وقيل حال من مفعول أنزله أى أنزله والملائكة يشهدون بصدقه وحقيته ﴿وكفى بالله شهيدا﴾ على صحة نبوتك حيث نصب لها معجزات باهرة وحججا

ظاهرة مغنية عن الاستشهاد بغيرها ﴿ان الذين كفروا﴾ أى بما أنزل الله تعالى وشهد به أو بكل مايجب الايمان به وهو داخل فيه دخولا أوليا والمراد بهم اليهود حيث كفروا به ﴿وصدوا عن سبيل الله﴾ وهو دين الاسلام من أراد سلوكه بقولهم مانعرف صفة محمد فى كتابنا وقرئ صدوا مبنيا للمفعول ﴿قد ضلوا﴾ بما فعلوا من الكفر والصد عن طريق الحق ﴿ضلالا بعيدا﴾ لانهم جمعوا بين الضلال والاضلال ولان المضل يكون أعرق فى الضلال وأبعد من الاقلاع عنه ﴿ان الذين كفروا﴾ أى بما ذكر آنفا ﴿وظلموا﴾ أى محمدا صلى الله عليه وسلم بانكار نبوته وكتمان نعوته الجليلة ووضع غيرها مكانها أو الناس بصدهم عما فيه صلاحهم فى المعاش والمعاد ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ لاستحالة تعلق المغفرة بالكافر ﴿ولا ليهديهم طريقا الا طريق جهنم﴾ لعدم استعدادهم للهداية الى الحق والأعمال الصالحة التى هى طريق الجنة والمراد بالهداية المفهومة من الاستثناء بطريق الاشارة خلقه تعالى لاعمالهم السيئة المؤدية بهم الى جهنم عند صرف قدرتهم واختيارهم الى اكتسابها أو سوقهم اليها يوم القيامة بواسطة الملائكة والطريق على عمومه والاستثناء متصل وقيل خاص بطريق الحق والاستثناء منقطع ﴿خالدين فيها﴾ حال مقدرة من الضمير المنصوب والعامل فيها ما دل عليه الاستثناء دلالة واضحة كأنه قيل يدخلهم جهنم خالدين فيها الخ وقوله تعالى ﴿أبدا﴾ نصب على الظرفية رافع لاحتمال حمل الخلود على المكث الطويل ﴿وكان ذلك﴾ أى جعلهم خالدين فى جهنم ﴿على الله يسيرا﴾ لاستحالة أن يتعذر عليه شئ من مراداته تعالى ﴿ياأيها الناس﴾ بعد ماحكى لرسول الله صلى الله عليه وسلم تعلل اليهود بالأباطيل واقتراحهم الباطل تعنتا ورد عليهم ذلك بتحقيق نبوته عليه الصلاة والسلام وتقرير رسالته ببيان أن شأنه عليه الصلاة والسلام فى أمر الوحى والارسال كشأن من يعترفون بنبوته من مشاهير الأنبياء عليهم السلام وأكد ذلك بشهادته سبحانه وشهادة الملائكة أمر المكلفون كافة على طريق تلوين الخطاب بالايمان بذلك أمرا مشفوعا بالوعد بالاجابة والوعيد على الرد تنبيها على أن الحجة قد لزمت ولم يبق بعد ذلك لاحد عذر فى عدم القبول وقوله عز وجل ﴿قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم﴾ تكرير للشهادة وتقرير لحقية المشهود به وتمهيد لما يعقبه من الأمر بالايمان وايراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتأكيد وجوب طاعته والمراد بالحق هو القرآن الكريم والباء متعلقة بجاءكم فهى للتعدية أو بمحذوف وقع حالا من الرسول أى ملتبسا بالحق ومن أيضا متعلقة اما بالفعل واما بمحذوف هو حال من الحق أى جاءكم به من عنده تعالى أو جاءكم بالحق كائنا من عنده تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين للايذان بأن ذلك لتربيتهم وتبليغهم الى كمالهم اللائق بهم ترغيبا لهم فى الامتثال بما بعده من الامر والفاء فى قوله عز وجل ﴿فآمنوا﴾ للدلالة على ايجاب ماقبلها لما بعدها أى فآمنوا به وبما جاء به من الحق وقوله تعالى ﴿خيرا لكم﴾ منصوب على أنه مفعول لفعل واجب الاضمار كما هو رأى الخليل وسيبويه أى اقصدوا أو ائتوا أمرا خيرا لكم مما أنتم فيه من الكفر أو على أنه نعت لمصدر محذوف كما هو رأى الفراء أى آمنوا ايمانا خيرا لكم أو على أنه خبر كان المضمرة الواقعة جوابا للامر لا جزاء للشرط الصناعى وهو رأى الكسائى وأبى عبيدة أى يكن الايمان خيرا لكم ﴿وان تكفروا﴾ أى ان تصروا وتستمروا على الكفر به ﴿فان لله مافى السموات والأرض﴾ من الموجودات سواء كانت داخلة فى حقيقتهما وبذلك يعلم حال أنفسهما على أبلغ وجه وآكده أو خارجة عنهما مستقرة فيهما من العقلاء وغيرهم فيدخل فى جملتهم المخاطبون دخولا أوليا أى كلها له عز وجل خلقا وملكا وتصرفا لايخرج من ملكوته وقهره شئ منها فمن هذا شأنه فهو قادر على تعذيبكم بكفركم لامحالة أو فمن كان كذلك فهو غنى عنكم وعن غيركم لايتضرر بكفركم ولا ينتفع بايمانكم وقيل فمن كان كذلك فله عبيد يعبدونه وينقادون لأمره ﴿وكان الله عليما﴾

مبالغا فى العلم فهو عالم بأحوال الكل فيدخل فى ذلك علمه تعالى بكفرهم دخولا أوليا ﴿حكيما﴾ مراعيا للحكمة فى جميع أفعاله التى من جملتها تعذيبه تعالى اياهم بكفرهم ﴿ياأهل الكتاب﴾ تجريد للخطاب وتخصيص له بالنصارى زجرا لهم عما هم عليه من الكفر والضلال ﴿لاتغلوا فى دينكم﴾ بالافراط فى رفع شأن عيسى عليه السلام وادعاء ألوهيته وأما غلو اليهود فى حط رتبته عليه السلام ورميهم له بأنه ولد لغير رشدة فقد نعى عليهم ذلك فيما سبق ﴿ولاتقولوا على الله الا الحق﴾ أى لاتصفوه بما يستحيل اتصافه به من الحلول والاتحاد واتخاذ الصاحبة والولد بل نزهوه عن جميع ذلك ﴿انما المسيح﴾ قد مر تفسيره فى سورة آل عمران وقرئ بكسر الميم وتشديد السين كالسكيت على صيغة المبالغة وهو مبتدأ وقوله تعالى ﴿عيسى﴾ بدل منه أو عطف بيان له وقوله تعالى ﴿ابن مريم﴾ صفة له مفيدة لبطلان ماوصفوه عليه السلام به من بنوته لله تعالى وقوله تعالى ﴿رسول الله﴾ خبر للمبتدا والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل النهى عن القول الباطل المستلزم للامر بضده أعنى الحق أى انه مقصور على رتبة الرسالة لايتخطاها ﴿وكلمته﴾ عطف على رسول الله أى مكون بكلمته وأمره الذى هو كن من غير واسطة أب ولا نطفة ﴿ألقاها الى مريم﴾ أى أوصلها اليها وحصلها فيها بنفخ جبريل عليه السلام وقيل أعلمها اياها وأخبرها بها بطريق البشارة وذلك قوله تعالى ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وقيل الجملة حال من ضميره عليه السلام المستكن فيما دل عليه وكلمته من معنى المشتق الذى هو العامل فيها وقد مقدرة معها ﴿وروح منه﴾ قيل هو الذى نفخ جبريل عليه السلام فى درع مريم فحملت باذن الله تعالى سمى النفخ روحا لأنه ريح تخرج من الروح ومن لابتداء الغاية مجازا لاتبعيضية كما زعمت النصارى يحكى أن طبيبا حاذقا نصرانيا للرشيد ناظر على بن حسين الواقدى المروزى ذات يوم فقال له ان فى كتابكم مايدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى وتلا هذه الآية فقرأ الواقدى وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه فقال اذن يلزم أن يكون جميع تلك الأشياء جزءا منه تعالى علوا كبيرا فانقطع النصرانى فأسلم وفرح الرشيد فرحا شديدا ووصل الواقدى بصلة فاخرة. وهى متعلقة بمحذوف وقع صفة لروح أى كائنة من جهته تعالى جعلت منه تعالى وان كانت بنفخ جبريل عليه السلام لكون النفخ بأمره سبحانه وقيل سمى روحا لاحيائه الأموات وقيل لاحيائه القلوب كما سمى به القرآن لذلك فى قوله تعالى وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا وقيل أريد بالروح الوحى الذى أوحى الى مريم بالبشارة وقيل جرت العادة بأنهم اذا أرادوا وصف شئ بغاية الطهارة والنظافة قالوا انه روح فلما كان عيسى عليه السلام متكونا من النفخ لامن النطفة وصف بالروح وتقديم كونه عليه السلام رسول الله فى الذكر مع تأخره عن كونه كلمته تعالى وروحا منه فى الوجود لتحقيق الحق من أول الأمر بما هو نص فيه غير محتمل للتأويل وتعيين مآل مايحتمله وسد باب التأويل الزائغ ﴿فآمنوا بالله﴾ وخصوه بالألوهية ﴿ورسله﴾ أجمعين وصفوهم بالرسالة ولاتخرجوا بعضهم عن سلكهم بوصفه بالألوهية ﴿ولاتقولوا ثلاثة﴾ أى الآلهة ثلاثة الله والمسيح ومريم كما ينبئ عنه قوله تعالى أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله أو الله ثلاثة ان صح أنهم يقولون الله جوهر واحد ثلاثة أقانيم أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم روح القدس وأنهم يريدون بالأول الذات وقيل الوجود وبالثانى العلم وبالثالث الحياة ﴿انتهوا﴾ أى عن التثليث ﴿خيرا لكم﴾ قد مر وجوه انتصابه ﴿انما الله اله واحد﴾ أى بالذات منزه عن التعدد بوجه من الوجوه فالله مبتدأ واله خبره وواحد نعت أى منفرد فى ألوهيته ﴿سبحانه أن يكون له ولد﴾ أى أسبحه تسبيحا من أن يكون له ولد أو سبحوه تسبيحا من ذلك فانه انما يتصور فيمن يماثله شئ ويتطرق اليه فناء والله سبحانه منزه عن أمثاله وقرئ ان يكون أى سبحانه مايكون له ولد وقوله تعالى ﴿له مافى السموات ومافى

الأرض﴾ جملة مستأنفة مسوقة لتعليل التنزيه وتقريره أى له مافيهما من الموجودات خلقا وملكا وتصرفا لايخرج عن ملكوته شئ من الاشياء التى من جملتها عيسى عليه السلام فكيف يتوهم كونه ولدا له تعالى ﴿وكفى بالله وكيلا﴾ اليه يكل كل الخلق أمورهم وهو غنى عن العالمين فأنى يتصور فى حقه اتخاذ الولد الذى هو شأن العجزة المحتاجين فى تدبير أمورهم الى من يخلفهم و يقوم مقامهم ﴿لن يستنكف المسيح﴾ استئناف مقرر لما سبق من التنزيه والاستنكاف الانفة والترفع من نكفت الدمع اذا نحيته عن وجهك بالأصبع أى لن يأنف ولن يترفع ﴿أن يكون عبدا لله﴾ أى عن أن يكون عبدا له تعالى مستمرا على عبادته وطاعته حسبما هو وظيفة العبودية كيف وأن ذلك أقصى مراتب الشرف والاقتصار على ذكر عدم استنكافه عليه السلام عنه مع أن شأنه عليه السلام المباهاة به كما يدل عليه أحواله و يفصح عنه أقواله أولا يرى أن أول مقالة قالها للناس قوله انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا لوقوعه فى موقع الجواب عما قاله الكفرة . روى أن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم تعيب صاحبنا قال ومن صاحبكم قالوا عيسى قال وأى شئ أقول قالوا تقول انه عبد الله قال انه ليس بعار أن يكون عبدا لله قالوا بلى فنزلت وهو السر فى جعل المستنكف عنه كونه عليه السلام عبدا له تعالى دون أن يقال عن عبادة الله ونحو ذلك مع افادة فائدة جليلة هى كمال نزاهته عليه السلام عن الاستنكاف بالكلية فان كونه عبدا له تعالى حالة مستمرة مستتبعة لدوام العبادة قطعا فعدم الاستنكاف عنه مستلزم لعدم الاستنكاف عن عبادته تعالى كما أشير اليه بخلاف عبادته تعالى فانها حالة متجددة غير مستلزمة للدوام يكفى فى اتصاف موصوفها بها تحققها مرة فعدم الاستنكاف عنها لا يستلزم عدم الاستنكاف عن دوامها ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ عطف على المسيح أى و لا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيدا لله تعالى وقيل ان أريد بالملائكة كل واحد منهم لم يحتج الى التقدير واحتج بالآية من زعم فضل الملائكة على الانبياء عليهم السلام وقال مساقه لرد النصارى فى رفع المسيح عن مقام العبودية وذلك يقتضى أن يكون المعطوف أعلى درجة من المعطوف عليه حتى يكون عدم استنكافهم مستلزما لعدم استنكافه عليه السلام وأجيب بأن مناط كفر النصارى و رفعهم له عليه السلام عن رتبة العبودية لما كان اختصاصه عليه السلام وامتيازه عن سائر أفراد البشر بالولادة من غير أب و بالعلم بالمغيبات و بالرفع الى السماء عطف على عدم استنكافه عن عبوديته تعالى عدم استنكاف من هو أعلى درجة منه فيما ذكر فان الملائكة مخلوقون من غير أب و لا أم وعالمون بما لا يعلمه البشر من المغيبات ومقارهم السموات العلا و لا نزاع لأحد فى علو درجتهم من هذه الحيثية وانما النزاع فى علوها من حيث كثرة الثواب على الطاعات و بأن الآية ليست للرد على النصارى فقط بل على عبدة الملائكة أيضا فلا اتجاه لما قالوا حينئذ وان سلم اختصاصها بالرد على النصارى فلعله أريد بالعطف المبالغة باعتبار التكثير والتفصيل لا باعتبار التكبير والتفضيل كما فى قولك أصبح الامير لا يخالفه رئيس و لا مرؤس ولئن سلم ارادة التفضيل فغاية الأمر الدلالة على أفضلية المقربين منهم وهم الكروبيون الذين حول العرش أو من هو أعلى منهم رتبة من الملائكة عليهم السلام على المسيح من الانبياء عليهم السلام وليس يلزم من ذلك فضل أحد الجنسين على الآخر مطلقا وهل التشاجر الا فيه ﴿ومن يستنكف عن عبادته﴾ أى عن طاعته فيشمل جميع الكفرة لعدم طاعتهم له تعالى وانما جعل المستنكف عنه ههنا عبادته تعالى لا ماسبق لتعليق الوعيد بوصف ظاهر الثبوت للكفرة فان عدم طاعتهم له تعالى مما لا سبيل لهم الى انكار اتصافهم به ان قيل لم عبر عن عدم طاعتهم له تعالى بالاستنكاف عنها مع أن ذلك منهم كان بطريق انكار كون الأمر من جهته تعالى لا بطريق الاستنكاف قلنا لأنهم كانوا يستنكفون عن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهل هو الا الاستنكاف عن طاعة الله تعالى اذ لا أمر له عليه الصلاة

والسلام سوى أمره تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴿ويستكبر﴾ الاستكبار الانفة عما لا ينبغى أن يؤنف عنه وأصله طلب الكبر لنفسه بغير استحقاق له لا بمعنى طلب تحصيله مع اعتقاد عدم حصوله فيه بل بمعنى عد نفسه كبيرا واعتقاده كذلك وانما عبر عنه بما يدل على الطلب للايذان بأن مآله محض الطلب بدون حصول المطلوب وقد عبر عن مثل ذلك بنفس الطلب فى قوله تعالى يصدون عن سبيل الله و يبغونها عوجا فانهم ما كانوا يطلبون ثبوت العوج لسبيل الله مع اعتقادهم لاستقامتها بل كانوا يعدونها و يعتقدونها معوجة و يحكمون بذلك ولكن عبر عن ذلك بالطلب لما ذكر من الاشعار بأن ليس هناك شئ سوى الطلب والاستكبار دون الاستنكاف المنبئ عن توهم لحوق العار والنقص من المستنكف عنه ﴿فسيحشرهم اليه جميعا﴾ أى المستنكفين ومقابليهم المدلول عليهم بذكر عدم استنكاف المسيح والملائكة عليهم السلام وقد ترك ذكر أحد الفريقين فى المفصل تعويلا على انباء التفصيل عنه وثقة بظهور اقتضاء حشر أحدهما الحشر الآخر ضرورة عموم الحشر للخلائق كافة كما ترك ذكر أحد الفريقين فى التفصيل عند قوله تعالى فأما الذين آمنوا بالله الآية مع عموم الخطاب لهما اعتمادا على ظهور اقتضاء اثابة أحدهما لعقاب الآخر ضرورة شمول الجزاء للكل وقيل الضمير للمستنكفين وهناك مقدر معطوف عليه والتقدير فسيحشرهم وغيرهم وقيل المعنى فسيحشرهم اليه يوم يحشر العباد لمجازاتهم وفيه أن الانسب بالتفصيل الآتى اعتبار حشر الكل فى الاجمال على نهج واحد وقرئ فسيحشرهم بكسر السين وهى لغة وقرئ فسنحشرهم بنون العظمة بطريق الالتفات ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ بيان لحال الفريق المطوى ذكره فى الاجمال قدم على بيان حال ما يقابله ابانة لفضله ومسارعة الى بيان كون حشره أيضا معتبرا فى الاجمال وايراده بعنوان الايمان والعمل الصالح لا بوصف عدم الاستنكاف المناسب لما قبله وما بعده للتنبيه على أنه المستتبع لما يعقبه من الثمرات ﴿فيوفيهم أجورهم﴾ من غير أن ينقص منها شيأ أصلا ﴿ويزيدهم من فضله﴾ بتضعيفها أضعافا مضاعفة و باعطاء ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر ﴿وأما الذين استنكفوا﴾ أى عن عبادته عز وجل ﴿واستكبروا فيعذبهم﴾ بسبب استنكافهم واستكبارهم ﴿عذابا أليما﴾ لا يحيط به الوصف ﴿ولا يجدون لهم من دون الله وليا﴾ يلى أمورهم و يدبر مصالحهم ﴿ولا نصيرا﴾ ينصرهم من بأسه تعالى و ينجيهم من عذابه ﴿يا أيها الناس﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له الى كافة المكلفين اثر بيان بطلان ما عليه الكفرة من فنون الكفر والضلال والزامهم بالبراهين القاطعة التى تخر لها صم الجبال وازاحة شبههم الواهية بالبينات الواضحة وتنبيه لهم على أن الحجة قد تمت فلم يبق بعد ذلك علة لمتعلل و لا عذر لمعتذر ﴿قد جاءكم﴾ أى وصل اليكم وتقرر فى قلوبكم بحيث لا سبيل لكم الى الانكار ﴿برهان﴾ البرهان ما يبرهن به على المطلوب والمراد به القرآن الدال على صحة نبوة النبى عليه الصلاة والسلام المثبت لما فيه من الأحكام التى من جملتها ما أشير اليه مما أثبتته الآيات الكريمة من حقية الحق و بطلان الباطل . وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن النبى عليه الصلاة والسلام عبر عنه به لما معه من المعجزات التى تشهد بصدقه وقيل هو المعجزات التى أظهرها وقيل هو دين الحق الذى أتى به وقوله تعالى ﴿من ربكم﴾ اما متعلق بجاءكم أو بمحذوف وقع صفة مشرفة لبرهان مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى كائن منه تعالى على أن من لابتداء الغاية مجازا وقد جوز على الثانى كونها تبعيضية بحذف المضاف أى كائن من براهين ربكم والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين لاظهار اللطف بهم والايذان بأن مجيئه اليهم لتربيتهم وتكميلهم ﴿وأنزلنا اليكم نورا مبينا﴾ أريد به أيضا القرآن الكريم عبر عنه تارة بالبرهان لما أشير اليه آنفا وأخرى بالنور النير بنفسه المنور لغيره ايذانا بأنه بين بنفسه مستغن فى ثبوت حقيته و كونه من عند الله تعالى باعجازه غير محتاج الى غيره مبين لغيره

من الأمور المذكورة واشعاراً بهدايته للخلق واخراجهم من ظلمات الكفر الى نور الايمان وقد سلك به مسلك العطف المبنى على تغاير الطرفين تنزيلا للمغايرة العنوانية منزلة المغايرة الذاتية وعبر عن ملابسته للمخاطبين تارة بالمجىء المسند اليه المنبىء عن كمال قوته فى البرهانية كأنه يجىء بنفسه فيثبت أحكامه من غير أن يجىء به أحد ويجىء على شبه الكفرة بالابطال وأخرى بالانزال الموقع عليه الملائم لحيثية كونه نورا توفيرا له باعتبار كل واحد من عنوانيه حظه اللائق به واسناد انزاله اليه تعالى بطريق الالتفات لكمال تشريفه هذا على تقدير كون البرهان عبارة عن القرآن العظيم وأما على تقدير كونه عبارة عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو عن المعجزات الظاهرة على يده أو عن الدين الحق فالأمر هين وقوله تعالى اليكم متعلق بأنزلنا فان انزاله بالذات وان كان الى النبى صلى الله عليه وسلم لكنه منزل اليهم أيضا بواسطته عليه الصلاة والسلام وانما اعتبر حاله بالواسطة دون حاله بالذات كما فى قوله تعالى انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس ونظائره لاظهار كمال اللطف بهم والتصريح بوصوله اليهم مبالغة فى الاعذار وتقديمه على المفعول الصريح مع أن حقه التأخر عنه لما مر غير مرة من الاهتمام بما قدم والتشويق الى ما أخر وللمحافظة على فواصل الآى الكريمة ﴿فأما الذين آمنوا بالله﴾ حسبما يوجبه البرهان الذى أتاهم ﴿واعتصموا به﴾ أى عصموا به أنفسهم مما يرديها من زيغ الشيطان وغيره ﴿فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل﴾ قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هى الجنة وما يتفضل عليهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وعبر عن افاضة الفضل بالادخال على طريقة قوله علفتها تبنا وماء باردا وتنوين رحمة وفضل تفخيمى ومنه متعلق بمحذوف وقع صفة مشرفة لرحمة ﴿ويهديهم اليه﴾ أى الى الله عز وجل وقيل الى الموعود وقيل الى عبادته ﴿صراطا مستقيما﴾ هو الاسلام والطاعة فى الدنيا وطريق الجنة فى الآخرة وتقديم ذكر الوعد بادخال الجنة على الوعد بالهداية اليها على خلاف الترتيب فى الوجود بين الموعودين للمسارعة الى التبشير بما هو المقصد الاصلى قيل انتصاب صراطا على أنه مفعول لفعل محذوف ينبىء عنه يهديهم أى يعرفهم صراطا مستقيما ﴿يستفتونك﴾ أى فى الكلالة استغنى عن ذكره بوروده فى قوله تعالى ﴿قل الله يفتيكم فى الكلالة﴾ وقد مر تفسيرها فى مطلع السورة الكريمة والمستفتى جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه يروى أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طريق مكة عام حجة الوداع فقال ان لى أختا فكم آخذ من ميراثها ان ماتت وقيل كان مريضا فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انى كلالة فكيف أصنع فى مالى . وروى عنه رضى الله عنه أنه قال عادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مريض لا أعقل فتوضأ وصب من وضوئه على فعقلت فقلت يا رسول الله لمن الميراث وانما يرثنى كلالة فنزلت وقوله تعالى ﴿ان امرؤ هلك﴾ استئناف مبين للفتيا وارتفع امرؤ بفعل يفسره المذكور وقوله تعالى ﴿ليس له ولد﴾ صفة له وقيل حال من الضمير فى هلك ورد بانه مفسر للمحذوف غير مقصود فى الكلام أى ان هلك امرؤ غير ذى ولد ذكرا كان أو أنثى واقتصر على ذكر عدم الولد مع أن عدم الوالد أيضا معتبر فى الكلالة ثقة بظهور الأمر ودلالة تفصيل الورثة عليه وقوله تعالى ﴿وله أخت﴾ عطف على قوله تعالى ليس له ولد أو حال والمراد بالأخت من ليست لأم فقط فان فرضها السدس وقد مر بيانه فى صدر السورة الكريمة ﴿فلها نصف ما ترك﴾ أى بالفرض والباقى للعصبة أولها بالرد ان لم يكن له عصبة ﴿وهو﴾ أى المرء المفروض ﴿يرثها﴾ أى أخته المفروضة ان فرض هلاكها مع بقائه ﴿ان لم يكن لها ولد﴾ ذكرا كان أو أنثى فالمراد بارثه لها احراز جميع مالها اذ هو المشروط بانتفاء الولد بالكلية لا ارثه لها فى الجملة فانه يتحقق مع وجود بنتها وليس فى الآية ما يدل على سقوط الاخوة بغير الولد ولا على عدم سقوطهم وانما دلت على سقوطهم مع الأب السنة الشريفة ﴿فان كانتا اثنتين﴾

عطف على الشرطية الأولى أى اثنتين فصاعدا ﴿فلهما الثلثان مما ترك﴾ الضمير لمن يرث بالاخوة والتأنيث والتثنية باعتبار المعنى قيل وفائدة الاخبار عنها باثنتين مع دلالة ألف التثنية على الاثنينية التنبيه على أن المعتبر فى اختلاف الحكم هو العدد دون الصغر والكبر وغيرهما ﴿وان كانوا﴾ أى من يرث بطريق الأخوة ﴿اخوة﴾ أى مختلطة ﴿رجالا ونساء﴾ بدل من اخوة والأصل وان كانوا اخوة وأخوات فغلب المذكر على المؤنث ﴿فللذكر﴾ أى فللذكر منهم ﴿مثل حظ الأنثيين﴾ يقتسمون التركة على طريقة التعصيب وهذا آخر ما أنزل من كتاب الله تعالى فى الأحكام . روى أن الصديق رضى الله تعالى عنه قال فى خطبته ألا ان الآية التى أنزلها الله تعالى فى سورة النساء فى الفرائض فأولها فى الولد والوالد وثانيها فى الزوج والزوجة والاخوة من الام والآية التى ختم بها السورة فى الاخوة والأخوات لأبوين أو لأب والآية التى ختم بها سورة الأنفال أنزلها فى أولى الأرحام ﴿يبين الله لكم﴾ أى حكم الكلالة أو أحكامه وشرائعه التى من جملتها حكمها ﴿أن تضلوا﴾ أى كراهة أن تضلوا فى ذلك وهذا رأى البصريين صرح به المبرد وذهب الكسائى والفراء وغيرهما من الكوفيين الى تقدير اللام ولا فى طرفى أن أى لئلا تضلوا وقال الزجاج هو مثل قوله تعالى ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا أى لئلا تزولا وقال أبو عبيد رويت للكسائى حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما وهو لا يدعون أحدكم على ولده أن يوافق من الله اجابة أى لئلا يوافق فاستحسنه وليس ما ذكر من الآية والحديث نصا فيما ذهب اليه الكسائى وأضرابه فان التقدير فيهما عند البصريين كراهة أن تزولا وكراهة أن يوافق الخ وقيل ليس هناك حذف ولا تقدير وانما هو مفعول يبين أى يبين لكم ضلالكم الذى هو من شأنكم اذا خليتم وطباعكم لتحترزوا عنه وتتحروا خلافه وأنت خبير بأن ذلك انما يليق بما اذا كان بيانه تعالى تعيينا على طريقة مواقع الخطأ والضلال من غير تصريح بما هو الحق والصواب وليس كذلك ﴿والله بكل شىء﴾ من الأشياء التى من جملتها أحوالكم المتعلقة بمحياكم ومماتكم ﴿عليم﴾ مبالغ فى العلم فيبين لكم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النساء فكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة وورث ميراثا وأعطى من الأجر كمن اشترى محررا وبرىء من الشرك وكان فى مشيئة الله تعالى من الذين يتجاوز عنهم والله أعلم

تم بحمد الله تعالى طبع الجزء الأول من تفسير العلامة أبى السعود ويليه الجزء الثانى وأوله سورة المائدة

صحيفة

صحيفة

تم فهرس الجزء الأول من تفسير أبي السعود